

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ١٩٩٦

المجلد الأول

العدد الرابع

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الرابع - المجلد الأول

مارس ١٩٩٦م

هيئة التحرير

رئيس التحرير	أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
نائب رئيس التحرير	أ.د. عبد الملك التميمى
عضوا	أ.د. سهيل زكار
عضوا	أ.د. عبد الرحمن الأنصارى
عضوا	أ.د. الحبيب الجنحانى
عضوا	أ.د. جمال زكريا قاسم
عضوا	أ.د. محمد رزوق

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحثية ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الرابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٦

فى هذا العدد

- افتتاحية العدد رئيس التحرير
- وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد د. يوسف بن أحمد حواله
- أضواء على العلاقات بين الامارة الصفارية والدولة العباسية د. عبد العزيز عبد الله السالم
- النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى د. سعد عبد الله البشرى
- آل الجناى بين الفاطميين والعباسيين د. يمنى رضوان
- المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر فى الميزان د. نورة محمد عبد العزيز التويجى
- الدعوة الزيدية فى مصر د. حسن خضير أحمد
- الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى د. سليمان الرحيلى
- رسالة صلاح الدين الى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس د. عادل عبد الحافظ حمزة
- فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه د. حياة محمد البسام
- أضواء على بعض منشآت امراء المماليك فى القرنين السابع والثامن للهجرة د. عبد الله كامل موسى عبده
- باب عرض الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح :

أمانة الأجيال

العمل الصالح أمانة ... وبناء الأجيال أمانة ... والأخذ بأيدي الناشئين أمانة ... والتواضع فى العلم والمعرفة أمانة ...

ان رسالة الأجيال متتابعة ، متكاملة ... وعلى كل جيل أن يحاول الارتفاع بالبناء الحضارى بحيث يسلمه للجيل التالى أكثر علوا وشموخا وأسمى مكانة وارتفاعا ، وبذلك تخطو الحضارة البشرية نحو الامام جيلا بعد جيل ، مما يعود على الانسان والمجتمع بالخير والبركة .

ان أخطر ما يهدد الانسان فى مسيرته الحضارية أن تتوقف بعض الأجيال عن الافادة ، وأن يقتصر دورها على الأخذ دون العطاء ، فعندئذ تتعرض الحضارة للجمود، وربما أصيبت بنكسة تعود على البشرية بالعجز والافلاس .

ولا يمكن للحضارة البشرية أن تزدهر الا اذ أخذ كل جيل متقدم بأيدي الأجيال الصاعدة ، بحيث يستفيد الناشئون من خبرة وتجارب الكبار المحنكين ، ويتخذوا من هذه الخبرة ركيزة تمكنهم من مراجعة النفس ، وتصحيح الخطأ ، وتقويم البنيان ، تمهيدا للارتفاع به لتحقيق مالم يحققه السابقون .



أقول هذا وأمامى رسالة من زميل عضو بالاتحاد ، بعث برسائلته من دولة عربية شقيقة ، يطالبنى فيها بأن تقتصر مجلة اتحاد المؤرخين العرب على نشر البحوث التى يتقدم بها الأساتذة المشاركون فما نوق ، وتتوقف عن نشر بحوث من هم دون ذلك من أصحاب الدرجات العلمية .

ولا شك فى أن الزميل الكريم حسن النوايا ، سليم المقصد ، يستهدف الوصول بالمجلة الى أرفع مستوى ننشده جميعا لها . ولكن مهلا ، أيها الأستاذ الزميل . عليك أن تذكر أن هذا الاتحاد اتحاد مؤرخين وليس اتحاد أساتذة... عليك أن تذكر أن أهداف هذا الاتحاد الكبرى اعداد أجيال المستقبل ، الذين سيناط بهم فى يوم من الأيام حمل الأمانة ، والوفاء بالعهد والرسالة ، والحكم للتاريخ وعلى التاريخ ... علينا ان نذكر أن الجيل الذى لا يعبا بأعداد من يخلفه من النابهين ، سينتهى دوره، ان عاجلا أو آجلا، تاركا وراءه فراغا يدينه بالتقصير والقصور ...

ان معيد اليوم هو عميد الغد . فلنأخذ بيده ، ونحسن توجيهه لكى يكون خير خلف لخير سلف . وعلى أساتذة اليوم أن يذكروا انهم لم يولدوا أساتذة ، وأنهم مروا بمرحلة النشأة فى الأيام الخالية . وكان أن أحسن الله اليهم ، فيسر لهم من أضاء الطريق أمامهم وأرشدتهم الى سواء السبيل . فلا اقل من أن يحسنوا كما أحسن الله اليهم .



ان مجلة المؤرخ العربى ستمضى قدما فى طريقها : طريق الحق والاعتدال . تفتح صدرها لبحوث الكبار الراسخين ، ولا تغلق أبوابها فى أوجه الناشئين من المتخصصين المستوفين لشروط الزمالة والبحث ؛ بحيث تعرض البحوث جميعا على الأساتذة المحكمين ، لرفض ما ليس أهلا للنشر وما هو دون المستوى المنشود ، وتقويم ما يتطلب التقويم ، وتعديل ما هو فى حاجة الى تعديل ، وإقرار ما هو صالح للنشر . وبذلك يكون رأى الأول والأخير لأهل التخصص من المحكمين . والتحكيم هنا لا يعنى التعالى والعسف والتسلط ؛ وانما هو الحكم العادل المتزن . والله عز وجل « أحكم الحاكمين » .

هكذا يمضى اتحاد المؤرخين العرب قدما ، ليجمع بين دفتيه بين الوالد والابن ، بين المعلم والمتعلم ، بين الكبير المتقدم والناشئ المتطلع ... الكل أعضاء فى أسرة واحدة ... كل جيل يؤدي دوره بأمانة للحفاظ على سلامة المسيرة .

لا عيب فى أن تتفاوت البحوث المنشورة فى مستواها ، ولكن العيب فى أن يتعرض بعض أعضاء الأسرة للحرمان ارضاء لرأى لا يخلو من قسوة « وفوق كل ذى علم عليم » .

رئيس التحرير

وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد

(دراسة نقدية تحليلية)

دكتور يوسف بن أحمد حوالة(*)

ترك الخليفة الأموي معاوية بن أبى سفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة احدى وأربعين للهجرة حتى سنة ستين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جعل اليه أمر الخلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير فى مجال الدراسات التاريخية ، وبخاصة فى حقل التاريخ الاسلامى ، مما يجعلها جديرة بالدراسة وعناية الباحثين .

وقد قسمنا دراستنا لهذه الوثيقة الى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل .

النقد

لعل أول ما يسترعى نظرنا هو أن الوصية التى وجهها الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، وصية سياسية محضة ، ليس فيها ما يشير الى الجوانب الأخرى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية (١) . ثم ان هذه الوثيقة تتمتع بأهمية خاصة بوصفها فاتحة هذا النوع من الوصايا السياسية التى يتركها الملوك لأبنائهم فى التاريخ الاسلامى ، والتى يرسمون فيها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه (٢) . حقيقة ان هناك وصايا سياسية عرفتھا الدولة الاسلامية فى عهود الخلفاء الراشدين . بيد أن الأمر مختلف هنا ، لأننا عندما نقول ان وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، انما نعنى وصايا الملكية الوراثية ، اذ تأخذ الوصايا عند الحكام والملوك لأبنائهم طابعا أسريا ، بجانب السمة السياسية لهذه الوصايا . والا فالحق أن عصر الراشدين عرف شيئا من هذه الوصايا التى تركها

(*) استاذ التاريخ الاسلامى المشارك - كلية التربية بالمدينة - جامعة الملك

الخلفاء الراشدون لمن يخلفهم ، سواء نص على هذا الشخص أو لم ينص (٣) . ثم علينا ألا ننسى أن معاوية اعتبر أول الملوك فى الاسلام ، وأن الطابع السياسى كان غالبا على حكومته . هذا وان كانت بعض مظاهر هذا الطابع قد ظهرت معالمها فى عصر الخلفاء الراشدين (٥) .

والواقع أننا نجد أنفسنا مدفوعين دفعا الى التوقف عند هذه الوصية بعينها - علاوة على ما سلف - لأنها فى ذاتها تعد ذات قيمة ومضامين سياسية مهمة ، اذ توضح كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها مرجعا للمساسة والقادة يستمدون منه أبجديات السياسة وفنونها ، كما سيوضحه التحليل لاحقا ان شاء الله . ذلك أنها تدل دلالة واضحة على شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر والمراجع قديمها وحديثها ببراعته السياسية (٦) . والحق ان هذه الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ما تمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة سياسية ، اذ جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى ، والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والخصوم . وفوق هذا وذاك ، فانها تدل على الخبرة النفسية الواسعة بطباع الناس الذين خبرهم معاوية ، وعجم بهم ومعهم عود الحياة طوال فترة اضطلاله بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى يبرز : حاكما أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان (٧) ، ثم واليا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٨) ، ثم خليفة من بعده لمدة أكثر من تسعة عشر عاما (٩) .

ومن دواعى الدراسة النقدية ، لهذه الوصية أيضا أنها جاءت فى نصين لاثنيين من الاخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدي ، وعوانة بن الحكم الكلبي . أقول ان الوصية ، وهى بذلك تمثل لنا صورة لظاهرة للوضع والاختلاق التى ظهرت فى بعض حلقات التاريخ ، مما فطن اليه مؤرخو الأمة الثقافات وعلمائها . وسنتوسع فى هذا التحليل ان شاء الله .

وفى مجال نقد هذه الوصية ، لابد من التطرق الى التحديد الزمنى

لها ، ثم المصادر النى أشارت الى الوصية بنصها معا ، أو اشارت الى أحد النصين فقط . ثم نورد النصين معا ، مع التعرض للظروف المحيطة التى استدعت اصدار الوصية . على أن نعقد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون . ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سنداً وممتناً ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواية الوصية وأقوال العلماء فى هذا الشأن .

التحديد الزمنى للوصية :

يبدو أن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالباً عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله (١٠) . وثمة حالات تاريخية تؤكد هذا القول ، فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مثلاً وجه لابنه وولى عهده محمد الذى لقب بالمهدى فيما بعد وصية سياسية جامعة مانعة فى السنة التى شعر فيها بدنو أجله (١١) . وكذا الشأن فيما يتعلق بتلك الوصية السياسية المهمة - أيضاً - التى تركها المنصور بن أبى عامر العامرى الأندلسى - الذى أسس له ولأسرته دولة عامرية داخل الدولة الأموية فى الأندلس - لابنه عبد الملك ، فقد استودعها إياه وهو على فراش الموت (١٢) .

ومع هذا ، فإن ما جاء من تأكيد على أن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنين من أخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس الفهرى الذى كان صاحب شرطته (١٣) ، ومسلم بن عقبة المرى (١٤) - أحد رجالات العرب اليمانية المشهورين فى الشام - على أن يبلغاها ابنه يزيدا الذى كان غائباً وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد أن الخليفة فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلاً ، عندئذ بعث فى الرجلين فأتياه ، فأبلغهما فحسوى وصيته لابنه يزيد (١٥) . وما أن علم يزيد نبأ وفاة أبيه حتى عاد سراعاً الى دمشق ، فتولى الخلافة على الفور بعد أن أدى اليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده اليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخر من هذه المعالجة ، أى التحليل أن ثمة قولاً آخر مفاده أن الخليفة

معاوية بن أبى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهذا مبحث آخر يحتاج الى توثيق ، ولعله بالتحليل الصق وأقرب .

المصادر التى أشارت الى الوصية :

الحق أننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى - رحمه الله - الذى دلنا على هذه الوصية بنصها . ولقد جهدنا أن نجد لها أثرا عند المؤرخين الذين سبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى تاريخه ، ثم صاحب الكتاب المنسوب للمحدث اللغوى : ابن قتيبة ، أعنى كتاب : الإمامة والسياسة (١٦) ، وهم أبرز الذين سبقوا الطبرى الى التدوين التاريخى فى صورته الشمولية ، أى التى تؤرخ للأحداث والوقائع منذ بدء الخليقة ، فتناول التاريخ الانسانى منذ آدم عليه السلام حتى عصر كل واحد منهم على تسق الحوليات أو تتناول التاريخ الاسلامى منذ بدايته . أقول جهدنا أن نجد للوصية أثرا عند هؤلاء المؤرخين المتقدمين عن الطبرى فلم نوفق (١٧) . وهكذا نحن مدينون الى هذا المؤرخ العظيم - أى ابن جرير الطبرى (١٨) - ومن هنا سيكون اعتمادنا عليه فى نقله للوصية بنصها (١٩) . أما من جاء بعد ابن جرير ممن أشار الى الوصية ، فهو لاحق له ، وقد يكون أخذ عنه ، ولذا فلن نشير الى روايته ، اللهم الا عند توقفه - عند بعض نصوص الوصية مبدىا رأيا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه : البداية والنهاية .

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية :

يبدو فى ضوء ما سبق أن هذه الوصية تعد افرازا طبيعيا لقضية أو مسألة ولاية العهد ليزيد ، وهى قضية مشهورة من القضايا التاريخية التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء العديد من الباحثين (٢٠) .

نص الوصية عند أبى مخنف ؛ لوط بن يحيى الأزدي :

قال الطبرى (٢١) : (وفيها - أى سنة ستين - التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه عهد الى ابنه يزيد حين مرض فيها ماعهد اليه فى نفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم الى البيعة ، وكان عهده الذى عهده ماذكرة هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى

عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يا بني انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما ، وأما ابن أبى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس له همة الا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مرواغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) .

نص الوصية عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك (٢٢) بعد أن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قل نقلا عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : (قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبا ، فدعا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وأنظر أهل العراق ، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من ان تشهر عليك مائة ألف سيف . وأنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شئ من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم أن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . وأنى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتصبا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وان له رحما

ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه ، فاني لو أنى صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير فانه خب وضب فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فأقبل واحقق دماء قومك ما استطعت) .

المقارنة بين النصين من حيث الشكل :

وهكذا نجد أنفسنا أمام روايتين للوصية لراويين اثنين أشارا الى الوصية كل على حدة . ونلاحظ بادىء ذي بدء على الوصية بنصيها أنها قصيرة موجزة ، وان كان نص أبى مخنف : لوط بن يحيى أقصر من نص عوانة . ويبدو لنا من خلال ما تميزت به الوصايا كلون من ألوان البثر الأدبي (٢٣) أن طبيعة الوصية أن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير المطلوب . وبالطبع فلا نستطيع أن نبني حكما على ذلك فنقول ان معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته أن تكون هكذا ، الا أن ما نريد قوله ان مغاوية اتبع هذا المنهج سليقة وفطرة كما يفعل بعض الشعراء الذين لم يدرسوا العروض أى الشعر الموزون المقفى : سليقة وفطرة . وكان الإيجاز هو الطابع الغالب على هذا النوع من الوصايا سواء قبل عهد معاوية أو بعده (٢٤ - ٢٧) .

المقارنة بين النصين من حيث المضمون :

على أننا نلاحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمة اختلافا غير يسير ، لا ينحصر فى مجرد الألفاظ والكلمات وانما هو اختلاف جوهري فى المضمون بين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص - معا - عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذى يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الذى أسند اليه الطبرى رواية الوصية بنصيها ، حسبما هو واضح مما مر من ايراد النصين ، والتى قال فيها نقلا عن أبى مخنف (حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله ابن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك

الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك
من جمع واحد) .

وأما النقص فى نص أبى مخنف ، مقارنة بنص عوانة ، فهو
المتمثل فى ذلك الوصف الذى خص به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز
والشام والعراق بما خصهم به ، اذ جاء النص الذى أسنده الطبرى انى
هشام بن محمد راوى نص عوانة حسبما مر من قبل على النحو النالى :

(قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما
حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبا ، فدعا الضحاك بن فيس
الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى فأوصى اليهما
فقال : بلغا يزيد وصيتى » أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاکرم من
قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك
أن تعزل عنهم كل يوم عاملا ، فافعل فإن عزل عامل أحب الى من أن
تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ،
فإن نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم ، فاردد أهل الشام
الى بلادهم ، فهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) .

يبقى بعد هذا أن نشير الى موطن الاتفاق بين الرجلين ، فالحق
أن الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحذير أو التخويف الذى بثه
معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التأبى عن
بيعة يزيد . هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين
حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى
كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين . تعمدا
ارجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ،
ثم نشرع فى التحليل بعد . ولا تظل لنا وقفة بعد هذا فى هذا الاطار
الا عند جزئيتين لا نخال القارئ الكريم الا قد فطن اليهما ، أولاهما
تلك التى يمكن أن نعبر عنها بالقول : انه مع الاتفاق بين الراويين على
أن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها الا أن الاختلاف وقع فى هل
وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت اليه نقلا ؟ والجزئية الثانية أننا نلاحظ أن
راويا واحدا أورد نص الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له
(مجلة المؤرخ العربى)

فيما بعد ، وبوسعنا أن نلاحظ أن ثمة اختلافا يسيرا آخر فى أن هناك شخصا آخر أسند اليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصية ، هو عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد أن شاء الله ، فيما خلست رواية عوانة من ذلك . (٢٨ - ٢٩) .

● التعريف بأطراف رواية الوصية :

قبل أن نعرض الى أقوال العلماء فى أطراف رواية الوصية ، علينا أن نعرف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيها الواردين عند الطبرى . أما أبو مخنف : فهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة (٣٠) . يعد أبو مخنف فى أوائل الاخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفا وتأليفا . ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى ألفها عن العراق بخاصة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ما قيل عن أبى مخنف من حيث نشأته ومذهبه الى غير ذلك (٣١) . ولعلنا هنا نكتفى بالإشارة الى أنه شيعى المذهب باجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

أما عوانة بن الحكم ، فهو عوانة بن الحكم بن عياض بن وزر الكلبى العلامة الاخبارى ، أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء . له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة (٣٢) .

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه آنف الذكر أى : سير أعلام النبلاء (٣٣) ، فقال عنه : العلامة الاخبارى النسابة الأوحى أبو المنذر : هشام بن الاخبارى الباهر محمد بن السائب ابن بشر الكوفى ، تصانيفه جمة . توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح . وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة العامرى ، عامر قریش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل (٣٤-٦٦) .

● مقتضيات رد أحد النصين متنا :

الحقيقة أن المتن الذى سنفصل الحديث عنه ، وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لأكها نفر من الاخباريين الضعاف. ففى البدء يسترعى نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : ان معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يابنى ... الخ . وهذا خطأ لأن يزيدا فى الوقت الذى اشتد فيه المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين (٦٦) البعيدة عن دمشق ، لقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم (٦٧)

ثم اذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة ، وهو المتمثل فى التحذير والتخويف من أولئك النفر من أبناء الصحابة رضى الله عنهم، لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيا ثانيا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : ان معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين ابن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرا عبد الله بن الزبير . ويمكن الخطأ فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء . فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . ذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨ هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم (٦٨) ، وهذا ملاحظه ابن كثير (٦٩) الذى تدخل معلقا بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، فقال العبارة التالية : كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلا : والصحيح أن عبد الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ما كان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة ٥٨ هـ ومنهم عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف . هل يعود الى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شئء مثير للاستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الاهتمام بتحديد وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدا متعمدا لاطهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس ، بالاشارة الى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من المتنعين على معاوية ؛ مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم (٧٠) .

وثمة خطأ تاريخى ثالث لا يقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه ، اذ نرى فيه صورة واضحة للاساءة للصحابة رضى الله عنهم ، ذلك أنه جاء فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه على لسان معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو زجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليست له همة الا فى النساء واللهو (٧١ - ٧٤) .

وننتقل الى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، مما تبدى فيه كما يتراءى لنا اساءة للرجلين معا : معاوية وابن الزبير (٧٣ - ٧٨) . ونعنى بذلك تلك العبارة التى يقول فيها معاوية نيزيد - حسب رواية أبى مخنف ... فان فعلها بك - أى خرج عليك ، ففطعه اربا اربا .

الارب فى اللغة : العضو ، واربا : قطعاً ، واربا اربا : العضو قطعه كاملاً كما فى الذبيحة التى تقطع اربا اربا : عضوا عضوا (٧٠) . هذا من حيث اللغة . ومن حيث المعنى السياسى لا يمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب . وهو الذى ماجرب عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلاً ؛ فيما عدا حجر بن عدى (٨٠) وحادثته (٨١) لانملك دليلاً على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة .

ثم ان معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، الراض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد (٨٢) ، ومع

افصاحه عما يتميز به عبد الله بن الزبير من صفات سياسية (٨٣) لا نظن أنه يحرص ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشأنه - مادامت بيعته قد انعقدت شرعا - كما فعل هو نفسه - أى معاوية - عندما ترك النفس الأربعة وشأنهم ، وان كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا (٨٤) . لقد كان فى وسع معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم - ومنهم عبد الله بن الزبير بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله الى القول بأننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندا ومنتنا للواقع التاريخى (٨٥-٨٦) .

التحليل

لنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحررين من تأثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، وان كنا سنعود اليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتأتى لنا ذلك يحسن بنا أن نجزىء نص عوانة الى فقرات عدة هى :

١ - قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ هـ ، وكان يزيد غائبا .

٢ - فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى اليهما .

٣ - فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ - وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف

٥ - وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ - وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ،
وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتصبا شيئا قبلك .

٨ - وأما الحسين بن على . فانه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيه
الله بمن قتل أباه ، وأخاه . وأن له رحما ماسة ، وحقا عظيما وقرابة من
محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان قدرت عليه ،
فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

٩ - وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فان شخص لك ، فالبد له ،
الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما
استطعت .



من الواضح أنه ليس هناك ما يقال بصدد الفقرة الأولى التى
قال فيها الطبرى ، فال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا . . . الخ ، فلقد
سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبي فى القسم الأول من
الدراسة النقدية ، كذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا داعى لاعادته .
غير أن مايلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر
ان معاوية . . . الخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الاطلاع على
نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ما قال اعتمادا على مصدره الذى
وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ماتوحى به هذه العبارة . على أننا
نستغرب ألا يشير عوانة الى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما
فعل أبو مخنف الذى أسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن مساحق . وبعيد
جدا أن يكون عوانة معاصرا للأحداث وهو الذى توفى سنة ١٤٧ هـ . فهنا
انقطاع يصل الى أكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا ؟ هل يعنى
التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ؟ ربما يكون الأمر
كذلك ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى
مخنف نفسه .

وبعد هذا لايبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوى التذكير بأن سنة
٦٠ هـ ، هى السنة التى توفى فيها معاوية باجماع مؤرخى ترجمته فى

كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك . وهذا القول يشمل كذلك عبارة : (وكان يزيد غائباً) التى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية . وتبين لنا أن هناك اجماعاً على أن يزيداً كان غائباً عن دمشق عند وفاة أبيه . وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فأشار إليه فى موضوع آخر من روايته للأحداث التاريخية ، حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير (٨٧) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورا عابرا وهى التى ذكر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فأوصى اليهما . وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شيء والشئ الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية الى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة ، بخلاف ما جاء فى نص أبى مخنف من أن معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . وإذا استقام هذا فلننتقل الى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين - الضحاك ومسلم - بلغا يزيد وصيتى : أطر أهل الحجاز فانهم أصلك ، فاکرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

ان هذه الفقرة - وما تبعها من فقرات تؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية !! . انه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يستهان به البتة ، بوصفه موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة وعش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم الذين ينظر اليهم أهل الأمصار الاسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام . ثم ان معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل الى ما وصل اليه من السلطان والنفوذ الا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبدمنافى ، أى أنه فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على هذه البدهية (٨٨-٩١) .

ودليل آخر أنه عندما عزم على الاعلان عن بيعته لابنه يزيد ، حرص أن يستمزج رأى أهل الحجاز ، وهم هنا - أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، اذ أنه بعث الى عامله مروان بن الحكم بذلك ، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة . ولما تبين

له أن ثمة ممانعة ، حرص على المجيء بنفسه الى المدينة ، وهذا ما حدث فعلا سنة ٥٦ هـ عندما جاء معتمرا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلا (٩٢) .

أما الفقرة الرابعة ، فيقول فيها معاوية : ... وانظر أهل العراق ، فان سألوكم ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف .

رؤية أو فلسفة من فلسفات التاريخ السياسية عميقة : أن تدع العاصفة تمر ، أو كما عبر عنها معاوية نفسه : طأطأء لها تمر فتجاوزك (٩٣) . أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسابقة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية (٩٤) ؟ أليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد علمت بم غلب معاوية الناس ؟ كان اذا طاروا وقع واذا وقعوا طار (٩٥) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام هناك داعيا لها . وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرأ الأحداث بعين يقظة مفتوحة (٩٦ - ١٠٠) .

هذه هى النصيحة التى أراد معاوية أن يوجهها لابنه ولولى عهده يزيد . أراد منه أن يكون سياسيا ماهرا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال ان يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملا - وذلك بعيد - فليفعل مادام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : .. فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملا هو بلاشك أمر قد يوجد حالة من الاستقواء عند أهل ذلك القطر . فلربما رأوا فيه دليل ضعف النظام ولربما استمرؤا ذلك ، ولكن لأن الهدف أكبر والمضمن أعمق فلا ضير أن يلجأ الحاكم الدعوة بعزل عامل (١٠١) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى

كل يوم - وهو بعيد، وانما هو للمبالغة والتهويل ، اذا استدعى الأمر ذلك
لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترتفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل
قضية فردية ، أما الشغب ، وأما الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من
فعل ذلك تهدئة للأحوال وسدا للذرائع .

وأخيرا يبدو أن عبارة : ٠٠٠ (مائة ألف) هذه ، التي حملت صيغة
مبالغة . يبدو أنها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام .٠٠ نطالع سيرة
الأحنف بن قيس التميمي ، وقد اشتهر بالحلم هو الآخر ، فنجد فى
وصفه أنه اذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه فيم غضب . ولعل
المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن أبى سفيان ، وقد قالها
لخاصته من كبار رجال الدولة لما سألوه عن هذا الرجل الذى يواجهه
مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية الا أن يدع العاصفة تمر (١٠٢) ،
أوليس هو الذى يقول : انى لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا
بيننا وبين ملكنا (١٠٣) .

ويقودنا تحليل الى الفقرة الخامسة ، التي يقول فيها معاوية لابنه
يزيد : (٠٠٠ وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شيء
من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ،
فانهم أن اقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) . هنا رؤية سياسية
ثانية يهديها الأب الى ابنه . على أننا قبل أن نتطرق اليهما ، نود
الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفاء
الرجل يكشف لهم أسرارهم (١٠٤) أما العيبة : فهى من الرجل موضع سره ،
يقال فلان عيبة فلان : موضع سره (١٠٥) . اذن فالأب يطلب من ابنه أن
يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ،
وانقيادا تاما . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم
عاملا على بعض الشام ، حتى غدا خليفة ، أمضى معهم نحو من أربعين
سنة ألقوا اليه بعضا الطاعة وخبرهم وخبر نفسياتهم وعرف مدى اخلاصهم
له ولأسرته (١٠٦) . من هنا يؤكد على ابنه أن يجعل أهل الشام محل
سره واهتمامه وأن يثق فى وقوفهم الى جانبه متى واجهه موقف ما .
وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم الى خصومه ، ثم عليه أن يعيدهم

شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندري هل هناك حالات فردية أو جماعية دلت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخي حدث فيه هذا الذي يخوف معاوية ابنه منه . ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه الى هذا .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لم اهتم أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ؟ أهى رغبته فى بث صورة منفرة لمعاوية تهيج النفوس ضده فعمد الى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ولذا أغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج الى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتزيد والتنقيص هناك ؟ لاندري ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

ومع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شىء كبير من الصحة ، إلا أن اعتراضنا على اهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها ونهى الحديث عن هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا الى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة ، وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة ان هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلا ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات . لكن مالم نذكره آنذاك هو ان الفقرات الأربع هذه ، وان

نشابهت فى النصين الا أن التشابه ليس متطابقا فيها جميعا ، اذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فانه فيما ينصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : . . . وانى لاأتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . وفى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : انى لست أخاف من قريش الا ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الاشارة بالقول الى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الاشارة الى أنهم أربعة نفر . ولقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

ثم نتابع المسيرة نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد، بعد ان ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم : (. . . فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتصقا شيئا قبلك) . فى البدء لابد من الاشارة الى أن ثمة اختلافا يسيرا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : (. . . . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق غيره بايعك) .

واذا تركنا هذا الاختلاف اليسير فلنمض فى تحليل فقرة عوانة : المعروف فعلا أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعوا عن البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية . ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبى بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد، فانه مازال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين ، أى غلبه . وهذا هو المعنى اللغوى لعبارة وقذه (١٠٧) الدين . فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما الى الدين والعبادة بكليته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضى الله عنه فى المناصب والسلطان (١٠٨) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال ، أدرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون

له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عدم استعداد هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين (١٠٩) .

وننتقل بعد هذا الى الفقرة الثامنة من نص عوانة التى يقول فيها:
(وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف ، فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه) .

لابد لنا من التذكير بأنه مع تشابه هذه الفقرة مع الفقرة المماثلة من نص أبى مخنف الا أن ثمة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبى مخنف تقول : (. أما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه) . يلاحظ هنا أنه مع التطابق فى ذكر حدس معاوية من تأثير أهل العراق فى الحسين فى موضوع الخروج ، فان هذا الحدس جاء فى صدر فقرة أبى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة . هذا شىء ، والشىء الآخر هو أن هناك تطابقا فى موضوع الرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح . وتبقى بعد ذلك الإشارة الى الزيادة فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين (فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه) ، ثم زيادة جملتين وهما : . . . (وقرابة من محمد ﷺ) ، وكذلك (فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه) . هذا من ناحية الشكل ، فاذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة ، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، وما من شك أن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيا عن بيعة يزيد يبدو ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر من هذا الموضوع وجأهروا به معاوية (١١٠) .

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه . ومع توقعه من أن شيئا من ذلك قد يحدث الا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يمضوا طويلا فى تأييدهم للحسين . ولقد ساق اليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد

الحسين ، والحسن بن علي أخاه ، وكلاهما يوضح مواقف أهل العراق منهما (١١) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بأنه حتى لو حدث شيء من ذلك فلا يجزع . لكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ثم يشدد عليه بأن يصفح لأنه لو حدث هذا في أيامه هو ، فانه سيبادر الى الصفح رعاية لحق الحسين ورحمه .

ونختم بالقول أن هذا ليس بمستغرب من معاوية ، فالرجل يعرف من هو الحسين بن علي . ثم انه يرى - وهو السياسى المحنك - أن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن في تجاوز الأمر . وباليات يزيد فعل هذا في تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص الى الفقرة التاسعة والأخيرة التي يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت) .

قبل أن نمضى في تحليل الفقرة لابد اقتضاء لما سرنا عليه - من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف . ففقرة أبى مخنف تقول في موضوع عبد الله بن الزبير : (. . . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) . نلاحظ هنا فرقا واضحا من حيث الشكل ومن حيث المضمون . واذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونا في النقد فان مما لافائدة منه أن نبحت عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض في تحليل فقرة عوانة : في البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب في اللغة فهو : خب خبا : خدع وغش ، فهو خب (١١٢) . وأما الضب فان من معانيه : الحقد والغيط الكامن في الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع (١١٣) . واذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب الى التحليل ، لقلنا أنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهذا الوصف (١١٤) ، وكأنه كان يتحسس أن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود

من يزيد ، لذا طلب منه أنه اذا شخص اليه ، أى خرج عليه كما يفهم من معنى الكلمة اللغوى (١١٥) فاليلبد له أى : فاليلصق به الصاقا شديدا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لبد (١١٦) .

ان معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرا واضحا، فيدعوه الى عدم التهاون فى الأمر، اللهم الا أن يجنح الى الصلح . فان فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : واحقن دماء قومك ما استطعت . نعم هذا هو معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة الى الاغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى يريد من ابنه أن يعيه ويحتذيه مذكرا اياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما أوتى من سعة صدر ورحابة فؤاد . وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبة .



وبعد، فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد . وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية ، ولعل القارئ يلحظ أننا سرنا بحذر شديد - وهذا ما نحسبه ان شاء الله - فى كل ما يتعلق بأراء الصحابة (١١٧) .

الهوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا - جمع وصية - محورا أو غرضا مهما من فنون الأدب . وحسب القارئ أن يلقي نظرة فاحصة على المؤلفات التي عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانا رفيعا في تلك المؤلفات وهي - أي الوصايا - بشتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور ، أو اللون الأدبي . ولعل تعريفها الاصطلاحي الأدبي يوحى بذلك ، فهي : قول يراد به الترغيب فيما ينفع واما يضر ، وتكون لقوم معينين في زمن معين كوصية الرجل لاهله عند النقلة أو الموت .

انظر ابن منظور (ت ٧١١ هـ) : لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ م ، ١٥ مجلدا ، المجلد ١٥ ، ص ٣٩٤ .

(٢) يقول ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد للفهارس ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٦ - ١٧ ، ١٣٥ يقو : والسنة أن يقال لمعاوية رضي الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة .

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، انظر مثلا : رفيق العظم : كتاب أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة (سيرة الراشدين ومن اشتهر في دولتهم) منشورات دار الرائد العربي ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، مجلدان ، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص ١٣٥ .

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت في ص : ٢٨ .

(٥) ليس ذلك باطلاق - كما لاخفاء - فقد يحدث بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث في الاسلام حدث يوجب خلعه أو عزله .

عن الخلافة وشروطها المعتبرة ، والصفات المعتبرة واجبة التوفر في الخليفة ، انظر الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) : الاحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، ط ١ ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، ص : ٦ - ٨ ، ١٧ ، ٢١ ،

(٦) يكفي أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبي وباحث محدث هو : محمد منير الغضبان الذي كتب كتابا بعنوان : معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد ، سعى فيه الى أن يسير على منهج المحدثين في نقد الرواية سندا ومتنا .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، ج ٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط .

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص : ٢١ حيث الإشارة الى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الإشارة الى وفاته سنة ٦٠هـ .

(١٠) لا تنفرد الوصية السياسية بهذه الخصوصية ، بل تشترك معها الوصية الشرعية في ذلك . ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فأكثر عند الموت . وهناك نصوص قرآنية ونبوية مليئة بهذا النصب الشرعي .

عن الوصية الشرعية ومشروعيتها وحكمتها وشروطها ، انظر سيد سابق :
فقه السنة ، المجلد الثالث ، ص : ٤١٤ - ٤٢٢ .

(١١) توفي المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهي السنة التي كان قد حج فيها ، وقد استودع ابنه محمدا وصيته قبيل مغادرته العراق الى مكة .

عن هذه الوصية وظروف توجيهها ، انظر الطبري (ت : ٣١٠) : تاريخ الامم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات دار التراث العربي ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص : ١٠٢ - ١٠٤ .

(١٢) عن هذه الوصية التي وجهها المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الملك ، انظر ابن بسام الشنتريتي (ت : ٥٤٣هـ) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط ١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع في كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ٧٦ - ٧٨ .

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهري . قال البخاري : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالاضافة للشرطة ، قتل في موقعة مرج راهط التي حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار مروان بن الحكم .

راجع ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩ ، كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها .

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المري (وعند ابن كثير : المزني) أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك في عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل في معركة صفين ، عهد اليه يزيد بقيادة الجيش الأموي الذي وجهه لاهل المدينة الذين خرجوا عليه .

أنظر الزركلى : الاعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب
والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠م ،
٨ مجلدات : المجلد السابع ، ص : ٢٢٢ .

(١٥) أنظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ،
ص : ٢٢٢ ، حيث الإشارة الصريحة الى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته
لابنه يزيد ، الذى كان غائبا عن دمشق وقتها .

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ،
عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخا . له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبار ،
والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث . ولقد ساور الشك
مجموعة من القدامى والمؤرخين المحدثين : عربيا وأجانب فى نسبة كتاب الامامة
والسيااسة اليه نظرا لأنه لا يعقل أن يكتب هذا العالم المدافع عن السنة كتابا فيه تهجم
وقدح فى الصحابة رضى الله عنهم . علاوة على وجود أخطاء تاريخية بينة فيه ،
وانتهوا الى أن الكتاب منحول عليه .

١. أنظر تفاصيل هذا الموضوع عند : عبد الحميد سندی الجندي : ابن قتيبة -
العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر تحت سلسلة اعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ -
١٧٣ . وهذا الكتاب فى الأصل رسالته للذكوراه . ثم انظر كذلك : عبد الله
عبد الرحيم عسيلان : كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات
مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ . وانظر بعناية كذلك ص : ٢١ وما بعدها
حيث الإشارة الى قرائن تفيد بأن المؤلف لهذا الكتاب ربما يكون رجلا أندلسيا
أو مغربيا .

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدت عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار
الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ الا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ،
أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع اسقاط السند .

أنظر الدينورى (ت ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال
الدين الشيبان ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - الادارة العامة للثقافة
القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٨) انظر شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم
التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ،
١٩٨٣م جزءان ، الجزء الاول ، ص ٧٤ وما بعدها حيث الإشارة الى بدء التدوين
(مجلة المؤرخ العربى) .

التاريخي ، ثم ص : ٢٠٢ وما بعدها حيث الإشارة الى الطبرى الذى عدّه المؤلف قمة من قمم التاريخ الحقيقى .

(١٩) يورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص ١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه ، نصا من ٣ أسطر ، عن وصية أخرى لمعاوية تختلف اختلافا كبيرا عن الوصية التى نعينها بنصها معا ، وذلك نقلا عن الواقدى . ولكن هذه الوصية لم يشر اليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار اليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بينا فى المتن . أخيرا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية ، ص : ١٦٠ نصا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى . وهذا خلاف المشهور .

(٢٠) الواقع أننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة ، وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الاسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الأقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه . وللقوف على هذه الأقوال يكفى أن نحيل القارئ الى كتاب : تحذير العبقري من محاضرات الخضرى أو افادة الأختيار ببراءة الأبرار لمحمد العزبى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية بيروت ط ٢ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ - ٢٠٠ .

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ .

(٢٢) نفسه ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الألب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) .

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الاول ص : ١٧١ .

(٢٥) رفيق العظم : أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة ، ج ١ ، ص : ٨٣٥ ج ٤ ، ص : ٤٧٩ .

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص ٦٧ .

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ .

(٢٨) عن الوضع والوضايع ، وعن هذه المنهجية العلمية الاصيلية التى أهداها المسلمون الى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامه ، وما اقتضاه ذلك من نشأة علمى : مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلا :

مصطفى السباعى : : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، منشورات المكتب الاسلامى ، بيروت - دمشق . ط ٤ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ص : ٧٥ - ١٣٢ . نصبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم

للملايين ، بيروت ، ط ١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٢ - ٢٧٢ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٠٨ - ٢١٩ - ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٢٩) الدعوة الى اعادة صياغة التاريخ الاسلامى وفق قواعد المحدثين - ما أمكن ذلك - انطلقت من فترة ليست طويلة من أناس عديدين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية اسلامية .

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠ هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبه لأبي مخنف ، اكتفينا منها فقط بما تم ايراده فى المتن .

(٣١) . هذا الباحث هو : يحيى بن ابراهيم بن على اليجيى الذى أعد رسالته للماجستير بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويَات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج ٧ : بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٢٠١ .

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) : تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سيرة الطيع ، الجزء الاول ، ص ٥٢٤ .

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند - ١٣٧١ هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص : ١٨٢ .

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥ هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ .

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه .

(٣٨) حققه على محمد الجاويى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م ، فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار اليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ .

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ - ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد .

(٤٠) الباية : الوجه ، وقد علق محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد فى الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هنا أن أبى مخنف

مسار للثلاثة الذين ذكرهم في ترجمته لأبى مخنف في الضعف والمنزلة . وقد عاد المحقق في تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت في كتابه : اصلاح المنطق .

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى ، مصنف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك .

للمزيد من الترجمة له وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، أنظر الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج ٢ ، ص : ٢٥٥ .

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمداني ، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة ، اخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج ٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه .

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١ هـ ، جزءان وبهامشه المسمى بيان موافقة صريح العقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية . والنص المنقول في المتن ورد في الجزء الأول ص : ١٣ .

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ ، ص : ١٧ وما بعدها .

(٤٥) اسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ . توفي سنة ٢٠٦ هـ ، كما يقول الذهبى في ميزان الاعتدال ، ج ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة - الى حد ما - حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذبوه ، وكذلك ضعيف الخ

(٤٦) منشورات دار الأعلی للمطبوعات ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ ، ٧ أجزاء : الجزء الرابع ص : ٣٨٦ .

(٤٧) ص ١٣٤ .

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ - ١٣٩ .

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ .

(٥٠) حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية . بيروت ، دون سنة الطبع : ٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص : ١٧٦ .

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨ م / ١٤٠٩ هـ ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ .

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ .

- (٥٣) الجزء الرابع ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .
- (٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ - ١٠٣ .
- (٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ .
- (٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، ج ١ ، ص : ٣ - ٧ حيث الاشارة الى منهجه .
- (٥٧) ص ١٨٨ .
- (٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ .
- (٥٩) راجع الحاشية ، ص ٤٩ .
- (٦٠) المصدر السابق ، ص : ١٣٤ .
- (٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ .
- (٦٢) عن الاخباريين وميولهم والتدوين التاريخى وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية ، راجع أحمد أمين : ضحى الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، ج ٢ ص : ٣٣٨-٣٤٢ . شاكراً مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢،٤،٥ ولا سيما الفصل الخامس ، ص : ١٦٩ - ٢٠٠ .
- (٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ .
- (٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد ، وتكرست هذه العلاقة أكثر عندما وقعت اليمنية مع الأمويين فى معركة مرج راهط سنة ٦٥ هـ ضد أنصار عبد الله بن الزبير القيسية ، وتتابع مظاهر هذا الموقف المؤيد وبالتالى الاستفادة منه طوال العهد الأموى ، ولم تتغير مواقف الخلفاء الأمويين من اليمنية الا فى عهد بعض الخلفاء المتأخرين الذين ناصبوهم العداء وتحيزوا للقيسية ضد خصومهم . ومن المعروف أن العصبية القبلية تعد أحد أسباب سقوط الدولة الأموية .
- للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلاً ، محمد الطيب النجار : الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ٣١ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص : ١٣٨ - ١٥٠ ، يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤ - ١٩٢ .

(٦٥) أى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روجوا لدعوته ، ثم أيدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى أو بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيب النجار : المرجع السابق أعلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الإشارة الى التيار المؤيد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم .

(٦٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحوارين : حصن من ناحية حمص .

ياقوت الحموى/معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت . ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ - ٣١٦ . ويبدو أن حوارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القريبة من نواحي حلب البعيدة عن دمشق كثيرا . وهى التى مات بها يزيد .

(٦٧) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج ٣ ، ص : ١٦١ - ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيد على أن يزيدا كان خارج دمشق فى حوارين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد بن معاوية . وقد أكد على ذلك أيضا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى بيروت ط ٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح ، ثم أكد ابن كثير كذلك عليه - حسبما أكدنا فى المتن - فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص : ١٤٣ ، وقال هو رأى الجمهور .

(٦٨) أنظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد هاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ - ٤٦٩ .

ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣٩٤ .

(٦٩) نفسه ، ص : ١١٥ .

(٧٠) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩ .

(٧١) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثاني ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ مع الحواشي ، ابن حجر : الاصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ .

(٧٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٧٣) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ .

(٧٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ - ٨٠ . وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن اعطاء البيعة ليزيد في حياة أبيه معاوية خمسة ، هم أولئك الذين ذكرناهم في المتن ، اضافة الى عبد الله بن عباس . وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة .

(٧٥) انظر ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، اشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار احياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون سنة للطبع ، جزءان ، الجزء الاول ، ص ١٠٧ .

(٧٦) انظر النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الاشارة الى عادات وصفات الأسود .

(٧٧) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص : ٣٨٤ .

(٧٨) انظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الاشارة الى صفات الثعالب .

(٧٩) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ .

(٨٠) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدهر . وحجر الخير ، اختلف فى صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب ، قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣ هـ ، بأمر من معاوية . ابن حجر ، نفسه . القسم الثانى ، ص : ١٦٨ .

(٨١) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها . ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضح لها أنه رأى فى ذلك اصلاحاً للأمة . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٥٥ .

(٨٢) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٧ هـ / ص : ٢١٥ وما بعدها واسنادها صحيح .

(٨٣) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ .

- (٨٤) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ .
- (٨٥) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضائل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وعن الموقف الذى يجب أن نقفه مما شجر بينهم من خلاف ، كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطيء متأول ، وقد ألفت فى ذلك بعض الكتب .
- للموقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقري من محاضرات الخضرى ، ج ١ ، ص : ٣٦ - ٤٣ ، ١٧٨ - ٢١٨ ، ج ٢ ، ص : ٢٦ - ٢٨ ، ٥٦ - ٨٧ ، حيث فيه جمع أقوال علماء السلف فى ذلك . وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى ص : ١٨٩ - ٢٦٩ .
- (٨٦) ابن العربى (ت : ٥٤٣ هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرج أحاديث وعلق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حققه وكتب حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلقت هذه العبارة من تعليقه - أى محب الدين الخطيب .
- (٨٧) نفسه ص : ١٤٣ .
- (٨٨) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لابنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ .
- (٨٩) انظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ - ١٣٨ . وقد ألف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد ابراهيم الشريف مؤلفا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين .
- (٩٠) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ - ١٣٨ .
- (٩١) كان ذلك فى سنة ٤٤٤ هـ على الأرجح . راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣١ - ١٣٢ .
- (٩٢) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .
- (٩٣) انظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ .
- (٩٤) قال معاوية : .. لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مدبتها .
- راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤ هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٨ .
- (٩٥) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص : ١٥٤ .
- (٩٦) انظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيد فى توضيح أسباب ذلك لدى

محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٩٧) أنظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع السابق ، ج ٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه الى عدد كبير من المصادر والمراجع ذات الصلة .

(٩٨) أنظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج ٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٩ .

(٩٩) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٢٥ - ١٣٧ .
(١٠٠) أنظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، ج ٣ ص : ١٢٢ - ١٣٣ ، ابن كثير نفسه ص : ١٢٦ ، ١٢٥ - ١٣٧ .

(١٠١) أنظر الذهبى ، نفسه ، ج ٤ ، ص : ٩٥ حيث الاشارة الى عزل معاوية عامله على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلب من أهل العراق ثم اعادته بعد ذلك .

(١٠٢) أنظر ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) « وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، ٨ أجزاء ، ج ٢ ، ص : ٥٠٠ .

(١٠٣) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ .

(١٠٤) ابراهيم مصطفى وآخرون ، ج ١ ، ص : ٦١ .

(١٠٥) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ، ص : ٦٤٥ .

(١٠٦) أنظر الذهبى : نفسه ، ج ٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٢٣ - ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه ، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ - ١٢٩ . وأنظر فى هذا الصدد يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ص : ١٥٦ - ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لمواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية .

(١٠٧) أنظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ص : ١٦٠١ .

(١٠٨) نحيل القارئ الى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، ج ٣ ، ص : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ .

(١٠٩) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلا عن الامام مالك بن أنس أن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما ظل اماما للناس يفتيهم مدة ستين سنة .

(١١٠) أنظر قبل ، ص : ٢٢ - ٢٤ مع الحواشى .

(١١١) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهل

العراق للحسن بن علي رضي الله عنهما انما هو حقيقة فعلا . وقد ذكرها المؤرخون .
ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له في الجيش الذي جيشه
للقاء معاوية بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهي الحادثة
التي أصابت الحسن رضي الله عنه بالمرارة من أهل العراق .

أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ - ١٥ ، ١٧ .

لكن الواقع أن الموقف الأول الذي عبر عنه معاوية رضي الله عنه بالقول ان أهل
العراق قتلوا عليا بن أبي طالب ، يحتاج الى توقف . فالمعلوم أن عليا رضي الله عنه
قتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم في علي ومعاوية رضي الله عنهما
معا سيئا .

(١١٢) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ١ ص : ٢١٢ .

(١١٣) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ١ ، ص : ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(١١٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ .

(١١٥) ابراهيم مصطفى : نفسه ، ج ١ ، ص : ٤٧٨ .

(١١٦) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ، ص : ٨١٨ .

(١١٧) راجع محمد بن صامل السلمي : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ - ٢٣٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، على بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢ هـ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ . ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)

٤ - الرد على البكرى ، منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ .

٥ - منهاج السنة ، منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزآن وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح العقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) :

٧ - الأصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط أعلامه ، ووضع

فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ٨ أقسام .

٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٥ أجزاء .

٩ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلـى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء .

ابن خلـكان (ت ٦٨١ هـ) :

١٠ - وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) :

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) :

١٢ - سنن أبى داود ، راجعه على عدة نسخ وضبط أحاديثه وعنق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشورات دار احياء السنة النبوية ، القاهرة ، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

الدينورى (ت ٢٨٢ هـ) :

١٣ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، الادارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) :

١٤ - سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ٢٥ جزءا .

- ١٥ - العبر في أخبار من غير . حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨ ذ / ١٤٠٩ هـ ، ٤ مجلدات .
- ١٦ - ميزان الاعتدال ، حققه على محمد البجاوي ، نشرته دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م ، ٤ أجزاء .
الطبري (ت ٣١٠ هـ) :
- ١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، ١٠ أجزاء .
ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) :
- ١٨ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .
ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) :
- ١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقي ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .
ابن عدوى (ت ٣٦٥ هـ) :
- ٢٠ - الكامل في ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ٨ أجزاء .
ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) :
- ٢١ - العواصم من القواصم ، خرج احاديثه وعلق عليه محمد مهدي الاستانبولي ، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ، منشورات مكتبة السنة ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٠٨ هـ .
ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) :
- ٢٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨ م / ١٤٠٩ هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) :

٢٣ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ،
٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد الفهارس .

الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) :

٢٤ - الأحكام السلطانية ، غنى بتصحیح السيد محمد بدر الدين
النعماني الحلبي ، ط ١ ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .

ابن منظور (ت ٧١١ هـ) :

٢٥ - لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ م ، ١٥
مجلدا .

ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) :

٢٦ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ،
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

النويري (ت ٧٢٣ هـ) :

٢٧ - نهاية الأرب في فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد
القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة
والنشر ، سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءا .

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) :

٢٨ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ،
ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠
مجلدات ، ٢٠ جزءا .

٢٩ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة
والنشر ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ٥ أجزاء .

اليقوبی (ت ٢٨٤ هـ) :

٣٠ - تاريخ اليقوبی ، منشورات دار صادر ، بيروت ، دون سنة
للطببع ، مجلدان .

ثانيا : المراجع :

ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد
على النجار :

١ - المعجم الوسيط ، منشورات دار احياء التراث العربى ، مجمع
اللغة العربية ، المكتبة العلمية ، طهران ، دُون سنة للطبع ،
جزءان .

أحمد أمين :

٢ - ضحى الاسلام : منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط ١٠ ،
دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط ١٠ ،
١٩٦٩م .

أحمد حسن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط ٢٥ .

أكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الاولى -
محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقد الروايات التاريخية ،
منشورات المجلس العلمى لاهياء التراث الاسلامى بالجامعة
الاسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

رفيق العظم :

- أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الخلفاء
الراشدين ومن أشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ،
ط ٦ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب

والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت
ط ٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات .

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،
بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ٣ مجلدات .

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة
رجالهم فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ،
١٩٨٣ ، جزءان .

صطفى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين بيروت ،
ط ١٥ ، ١٩٨٤ م .

عبد الله عبد الرزيم عتيلان :

١١ - كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات
مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .

عبد الحميد سندی الجندي :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الاديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد
القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة اعلام
العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣ م .

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت
١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

على حسنى الخربوطلى :

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

محمد الزحيلي :

١ - الامام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم الفقهاء والمحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقم (٣٣) ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

محمد بن صامل العليانى السلمى :

١ - منهج كتابة التاريخ الاسلامى، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

محمد الطيب النجار :

١ - الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

محمد العربى التبانى :

١ - تحذير العبرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م . جزآن .

محمد منير الغضبان :

- معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١) ، ط ١ ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ م .

مصطفى السباعى :

- السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى، منشورات المكتب الاسلامى، بيروت ، دمشق ، ط ١٥ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(مجلة المؤرخ العربى)

يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى :

- ٢١ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة -
دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الرياض ، ط ١٠ ،
١٤١٠ هـ .

يوسف العشى :

- ٢٢ - الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة
عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط ٢ ، ١٩٨٥ .



أضواء على العلاقات بين الإمارة الصفارية والدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى

د . عبد العزيز عبد الله السالم (*)

المقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العلاقات التى ربطت الإمارة
لصفارية بالدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى .

أما عن إمارة الصفارية فقد قامت فى إقليم أو ناحية سجستان التى
صفها ياقوت بأنها « ناحية كبيرة وولاية واسعة » من نواحي المشرق
جنوبى هراة « كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبدا » .

وكانت مقاطعة « سجستان » تعيش فى ظروف صعبة بسبب
لاضطرابات السياسية والأمنية لأن بها « كثير من الخوارج ، يظهرون
ذهبهم ولا يتحاشون منه » ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين تضعف
بممار حركاتهم ضد السلطات المحلية . وفى تلك الظروف قامت الإمارة
صفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ - ٩٠٣ م) على انقاض الدولة الطاهرية .
لك أنه ظهرت حركة متطوعة برئاسة صالح بن النضر الكنانى لإعادة
لاستقرار السياسى والأمنى فى سجستان فانضم يعقوب بن الليث الصفار
إخوه عمرو الى تلك الحركة وأخذ يعقوب رئاسة تلك الحركة بعد موت
ن النضر الكنانى فاستقل بولاية سجستان وبذلك ظهر على مسرح
لأحداث ، لا سيما بعد أن استطاع أن يغزو خراسان .

وكان أن أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية
سجستان الى تدعيم مكانة الإمارة الصفارية ، لأنها جاءت فى وقت كانت

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - جامعة الملك عبد العزيز .

الخلافة العباسية تعاني من سيطرة الأتراك عليها، إضافة الى عجزها عن السيطرة على الثورات التي قام بها الخوارج في سجستان .

ولم يلبث يعقوب بن الليث الصفار أن قام بمحاربة الأتراك الدراري، وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم ، كما تمكن من نشر الاسلام في تلك البقاع ، الأمر الذي جعل عددا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف . أما الخلافة العباسية فلم تعترض على هذه التطورات ، بل لقد رأت في تلك الأعمال التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار حماية للدولة العباسية . ذلك أن قيام ولاية أو امارة في المشرق الاسلامي في تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها الدولة العباسية شكل درعا يقي الجناح الشرقي للخلافة من خطر الأتراك الذين اشتدت هجماتهم على بلاد الاسلام .

والواقع ان الامارة الصفارية كانت امارة عسكرية ، اذ أن الصفاريين فرضوا أنفسهم في الحكم بقوة السلاح بل لقد أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة . ولكنهم مع ذلك أحسوا بأنه من الضروري لهم الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . وقد اضطر الخليفة المعتز بالله (٢٥١ - ٢٥٥ هـ) ثم المهدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) ثم المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ثم المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) الى اقرارهم في حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم ، وذلك دفعا لشركهم وحسما لمخالفتهم وحرصا على اتحاد وترابط دولة الاسلام واجتماع كلمة المسلمين ليكونوا يدا واحدة .

على ان علاقة الامارة الصفارية بالخلافة العباسية اتسمت بالشك وعدم الاطمئنان وانعدام ثقة كل طرف بالآخر . ويبدو أن شخصية يعقوب وأهدافه وخططه لم تتضح تماما للخلافة . ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما أبعاده عن فارس ، وانها لا تطمئن اليه ، وأنها تشك في نواياه ، اعتبر آل طاهر أصحاب النفوذ في خراسان وفارس مسئولين عن ذلك ، ففضى على نفوذهم في سنة ٢٥٩ هـ . لكن الخلافة اذاعت بين أهالي خراسان وجرجان والري وطبرستان أن يعقوب خارج على سلطة الخلافة،

وعندئذ قرر يعقوب تحدى الخلافة العباسية عسكريا مما أجم الصدام بين الجانبين .

على أن يعقوب لم يلبث أن اتجه الى المجتمع فى « سجستان » ، فأخذ يصلح أحواله حتى أشاع جوا من الاستقرار وأخذ يدعو الناس الى التمسك بالاسلام ، كما اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للاسلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، ولكن المصادر التاريخية لم تبين مدى تأثير يعقوب بعقيدتهم .

والواقع ان معظم المصادر التاريخية المعاصرة التى سجلت احداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الاتراك ابرزت جانبا كبيرا من النشاط السياسى والحربى للصفاريين ، فى حين أهملت الجوانب الحضارية التى ندمتها الامارة الصفارية .



وفى دراستنا لطبيعة العلاقات بين الامارة الصفارية والدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى لا نستطيع أن نطلق على « الامارة الصفارية » لقب دولة مثلما ذكر بعض المؤرخين ، لأن الدولة عبارة عن مجموعة كبيرة من الناس تعيش على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وادارة شئونها فى الداخل والخارج فى السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين (١) .

ومن هذا التعريف يبدو أنه لى توجد الدولة يتعين أن تتوفر لها أركان ثلاثة : شعب ، وأرض ، وسلطة سياسية حاكمة ، فاذا توفر لأى مجتمع هذه العناصر الثلاثة فان هذا المجتمع يكون دولة . وبعبارة أخرى فان الدولة عبارة عن مجموعة من الناس تعيش حياة مستقرة دائمة على أرض ذات معالم وحدود واضحة معلومة ، فى حين أن السلطة لسياسية الحاكمة تمثل القيادة العليا المستقلة فى تصريفها وادارتها

وعلاقاتها . واذا لم تتوفر للمجتمع هذه العناصر فانه لا يصح في عرف لقانون الدولي أن نطلق عليه « دولة » .

وبالنسبة للامارة الصفارية فانها لم تضم شعبا مستقرا داخل حدود نابتة ، وانما هي جموع قلقة في عالم مضطرب ، في حين اعتمد الصفاريون على القوة العسكرية في حكم ما وقع تحت ايديهم من بلدان الخلافة العباسية . وبعبارة أخرى فان الصفارين لم يحكموا أرضا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء - سجستان - وانما حنموا عدة أقاليم متداخلة ، حتى تقلص نفوذهم وانزوى في جزء من سجستان .

وقد قامت الامارة الصفارية في ولاية سجستان في الوقت الذي ساءت الاوضاع الأمنية في سامراء وبغداد بسبب الحرب الاهلية بين المستعين والمعتز . ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع الامنية في ولاية سجستان مضطربة منذ سنة ٢٤٣هـ بسبب فساد الخوارج فيها . اما مقاطعة «سجستان» فكانت تابعة لأل طاهر في خراسان ، ولكن حكمهم كان مضطربا غير مستقر ، مما جعل سجستان في ذلك الدور مأوى للصوف وقطاع الطرق (٢) وكثيرا ما انضم هؤلاء الى الخوارج في ثوراتهم ضد الحكم المحلي ، الأمر الذي جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف امام نفوذ الخوارج .

على أن أهل سجستان اتصفوا بعدة صفات كشدة انشكيمة وعزّة النفس ومواساة الضعيف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) . فلما راوا ان الطاهريين عاجزون عن اقرار الأمن والنظام في ولايتهم ، قرروا تخوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى اقرار الأمن في ولايتهم . وقد تزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى (٤) . وكان ان انضم الى حركة المتطوعة كثير من المغامرين الذين نظروا اليها على أنها خير وسيلة للوصول الى مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة ، فضلا عن تحقيق مكاسب مادية . ومن أبرز هؤلاء المغامرين يعقوب من الليث الصفار وأخوه عمرو . وكان يعقوب يمارس إحدى الصناعات المحلية في بلدته «قرنين» إحدى مدن سجستان . ويبدو أنه اشتغل بالنحاس وغيره من المعادن الصفراء ، ومن مهنته هذه اشتق

لقبه . وكان يتقاضى من عمله خمسة عشر درهما فى الشهر ، الأمر الذى جعله شارد الذهن كثير التفكير والتأمل (٥) لأن مهنته هذه كانت لا يمكن أن تحقق له مركزا اجتماعيا ذا قيمة فى مجتمعه ، كما أنها لا تحقق طموحه وآماله العريضة . لذلك هجر مهنته (٦) وانضم هو وأخوته الى حالة كثير بن رفاق الذى تجمع حوله عدد من وجوه الخوارج ، فقاد ثورة ضد السلطة المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر ؛ ولكن هؤلاء قضوا على الثورة فى مهدها وتمكن آل الليث بزعامة أخوهم الأكبر يعقوب من الفرار الى بست إحدى مدن سجستان الهامة (٧) .

وفى «بست» رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيول والمال هى قطع الطرق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة اتاحت لمن يمتلك تلك الأدوات أن يكون لنفسه مركزا اجتماعيا وسياسيا مرموقا . لذلك جمع حوله عددا من المغامرين وكون منهم عصابة لقطع الطريق ونشط هو وأصحابه فى ذلك ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان ، وفارس بسجستان ، غير مأمونة . ولما وصل اليهم خبر قدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها الى اصفهان ، خرج اليها يعقوب ورجاله وترصدوا لها وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح . وبهذه الطريقة حصل يعقوب على ما يحتاج اليه من المال والسلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى (٨) . ولم يلبث أن رجع يعقوب وأصحابه الى سجستان ، ومعهم اعداد كثيرة من الخيل والسلاح ، فاستقبلهم صالح بن النضر الكنانى (٩) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن والاستقرار فى ولايتهم ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبذلك استطاعت حركة المتطوعة بزعامة الكنانى ومساعدة يعقوب الصفار ان توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان . وبعد ذلك كانت الخطوة التالية وهى أن هذه الجماعة أرادت أن تتوج انتصاراتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧ (١٠) .

وفى سنة ٢٤٣هـ تزعم درهم بن الحسين حركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان . وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية ، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة زعامتها للبلاد ، ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى أبعاد درهم بن الحسين الى بغداد وتم ذلك حوالى سنة ٢٤٧هـ (١١) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، اذ أصبح قائدا عاما للحركة دون منافس . وعندما توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨هـ استطاع يعقوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨هـ - ٢٥٩هـ) الذى أسندت اليه ولاية خراسان . هذا فضلا عن ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والادارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣هـ ان يغزو هران وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الانبارى عامل محمد بن طاهر استطاع يعقوب ضمهما اليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام (١٢) .

ولم تلبث أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذى رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم امارات الضعف والعجز . وكان أن أعلن نفسه حاكما عاما على ولاية سجستان دون أن يستند فى ذلك الى تقليد شرعى من الخليفة العباسى (١٣) صاحب السلطة الشرعية . وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة تمر بظروف لا تمكنها من اقرار الوضع فى سجستان ، فترك يعقوب مهمة اقرار الأمن والنظام فيها .



وفى الوقت الذى كانت الحكومة العباسية عاجزة عن اقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها ، والذى كانت فيه الادارة الطاهرية فى خراسان تعاني الانحلال والضعف ، أخذ الخوارج يرفعون راية الثورة والعصيان فى سجستان ، مما شجع رتبيل

سجستان (١٤) ، وغيره من ملوك وامراء الترك الدراري الذين كانت تربطهم بالدول الاسلامية عقود ومعاهدات ، على ان يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الاسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج (١٥) ، بل انهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجود الاسلامي في سجستان ، واستعادة نفوذهم عليها . . . وفي تلك الظروف وفي ذلك الدور ظهرت قوة الصفاريين على المسرح في ولاية سجستان ليفسدوا مخططات الترك مما حال دون تحقيق أطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار ما كاد ينجح في تهدئة الأوضاع الداخلية في سجستان ويقضى على شوكة الخوارج فيها حتى أخذ يستعد لاعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وامراء الترك الدراري بعد أن اتضح أن خطر أولئك الترك على أمن واستقرار الولاية صار أشد وأقوى من خطر الخوارج عليها . وكان أن قاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك على أراضي الدولة الاسلامية في سجستان ، حتى تمكن من قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما اسنطاع أن يصل الى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الاسلام في تلك البقاع ، مما جعل عددا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته (١٦) ، ويعقدون معه معاهدة سلام ، ومن هؤلاء ملك « المولتان » وملك « الرخج » وملك زابلستان ، وملك « السند ومكران » (١٧) . كما أرسل اليه ملك الهند وفدا تفاوض مع يعقوب (١٨) على جسر بسط .



أما عن علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية في ذلك الدور ، فقد تأثرت بعدة مؤشرات أسهمت اسهاما كبيرا في تكييف تلك العلاقة وتوجيهها ، ومن أهمها :

- ١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .
- ٢ - الإصلاح الديني والاجتماعي .
- ٣ - الفكر السياسي للخوارج وأثره في توجيه حركة الصفاريين .
- ٤ - الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية وأثرها في نشاط الصفاريين .

يضاف الى هذه المؤثرات عوامل أخرى مساعدة كفقدان الأمن واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق (١٩) ، وعجز الطاهريين عن اقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية ، مما كان له أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والمصلات التى كلفت علاقة الامارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية . فعندما تتفق مصالحهما تتوافق العلاقات بينهما، ولكن دون ان تصل الى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . وحين تتعارض مصالحهما تنقسم عرى الروابط والمصلات بينهما ، وتسوء علاقة كل منهما بالآخر وتتصف بالتوتر والاضطراب .

أما بالنسبة للعامل الأول فيما يتعلق بتكليف العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية فنجد ان يعقوب بن الليث أخذ يوجه نشاطه بنحريش من أهل سجستان الى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان ، لأن خطرهم على سجستان كان كبيرا (٢٠) . ولكن يعقوب قاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل الى غزنه وكابل ، ثم عاد الى سجستان وقد حمل معه بعض رؤوس الترك ، فزدات هيبته ، بعد أن غنم من بلاد الترك غنائم كثيرة (٢١) . وقد نظرت الخلافة العباسية الى هذه الأعمال بارتياح ، ولذلك لم تعترض على أعماله . هذا بينما كان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢ هـ ، كتب الى يعقوب بولاية سجستان (٢٢) . على أن علاقة الدولة العباسية لم تتوثق تماما بيعقوب لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح لخلافة . وفى سنة ٢٥٣ هـ رأى يعقوب أن الأوضاع فى ولاية هرات وأعمالها قد ساءت واضطرب الأمن فيها، فقرر ضمها اليه وقبض على عدد من الطاهريين . ولكن الخلافة العباسية تحركت عندئذ لأن يعقوب تعرض لأحد حلفائها المخلصين - محمد بن طاهر - فأرسل الخليفة المعتز بالله الى يعقوب رسولا يحمل كتابا منه اليه يحذره من التعرض لعمل الطاهريين فى خراسان ويطلب منه فك أسرى الطاهريين . وفى سنة ٢٥٤ هـ أرسل يعقوب الى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان، ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على ادارتها واستيفاء خراجها ، وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابه

الى طلبه ، وقلده ولاية كرمان . وكان المعتز بالله يعلم ان يعقوب يظهر
له طاعة لا حقيقة لها (٢٣) ، الا أن الظروف التي كانت تعيشها الخلافة
فى العاصمة ، والظروف التي أحاطت بولايتى فارس وكرمان عندئذ .
دفعت الخليفة الى تقنين يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجا عن
ثقة الخليفة فى يعقوب وفى ولايته اخلاصه للخلافة ، فاراد يعقوب أن
يتقرب الى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به . لذلك اخذ يدعو
للخليفة العباسى عندما استولى على فارس ويتقرب منه . وحينما طلب منه
على بن الحسين ابراز كتاب الخليفة اليه بولاية فارس رد عليه يعقوب
قائلا : « فان البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه
وسلطانه وفى طاعة الله وطاعته » (٢٤) ، ثم أرسل الى الخليفة المعتز
بالله هدية ثمينة (٢٥) وكتب اليه يعلن طاعته . ومع ثل ذلك لم يكن
الخليفة مطمئنا تماما الى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر يعقوب
فارس أرسل الخليفة اليها عمالا (٢٦) . وفى سنة ٢٥٧ هـ استولى يعقوب
على فارس مرة أخرى . وفى هذه المرة أراد أن يتحدى سلطة الخلافة ،
ولكن الخليفة العباسى الموفق بالله اتجه نحو تسوية الموقف بين الصفاريين
والخلافة ، فأسند اليه بعض أعمال الولايات التي كان معظمها تحت يده
كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ، ليبعده عن فارس . ولما رأى يعقوب
أن الخلافة تحاول دائما أبعاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن اليه ،
وأستمرت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، أعتقد أن السبب
فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ،
فاراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة . وكان أن
استولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٨ هـ ،
ولكن الخلافة ماكانت لتستبدل الطاهريين بالصفاريين ، فازداد شكها فى
الصفاريين وأصدرت أمرا الى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج
خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبا
ايا من تلك الولايات ، وانه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة .
فلما أيقن يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وان ثقتها فيه انهارت
قرر أن يلتحم معها عسكريا (٢٧) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢ هـ .
وكان هذا اللقاء العسكرى بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة
الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

وعلى الرغم من أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الامارة كان أكثر مرونة وتعاوناً وتقرباً الى الخلافة، إلا أن الخلافة العباسية كانت تسند اليه ولاية الاعمال وترسل اليه التقاليد مداراة له ودفعاً لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، حتى أتاحت الفرصة للمعتضد بالله سنة ٢٨٧هـ فاستعان بالسامانيين فى تنفيذ سياسته .

وقد أعلن يعقوب عدم ثقته وكرهه للعباسيين حيث قال : « ان العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة . ألم تشاهد ما عملوه مع أبى سلمة وأبى مسلم وعائلة البرامكة على الرغم من كل ما قدمه هؤلاء الرجال للدولة العباسية ، فلا تدع أحدا يثق فيهم أبدا » (٢٨) .

وقد أدخل الصفاريون تقليداً جديداً على علاقة الامراء المستقلين بالخلافة العباسية، فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ، ولم يرسلوا منه شيئاً الى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على ارسال الهدايا . وكان يعقوب أول من أدخل اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، هذا فى حين كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير . كذلك كان الصفاريون أول من هاجم سلطة العباسيين فى فارس ، وحاولوا انقاص سلطتهم الدنيوية الى أدنى حد (٢٩) .

أما عن العامل الثانى الذى أثر فى تكييف العلاقة بين الصفاريين والعباسيين، فإنه من الملاحظ أن يعقوب بن الليث الصفار تأثر فى اصلاحاته الدينية والاجتماعية بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم الى حركة المتطوعة وأصبح أحد أعضائها النشيطين، حتى استطاع بقوة شخصيته (٣٠) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة (٣١) . ذلك أنه أخذ يتقرب الى أفرادها حتى استحوذ على قلوبهم فأطاعوه طاعة مطلقة (٣٢) . فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان ، اتجه الى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضى على المفاسد فيه . وكان يأخذ بعضاً من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء والضعفاء ، وأظهر الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، فازدادت محبة الناس له (٣٣) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة قد ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر في نظرهم بمظهر العاصي الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع في سجستان وصلت أحوال المجتمع فيها اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان فأخذ يدعوهم للإسلام ليظهر أمام اتباعه واعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد في سبيل الله . وبعد أن رجع الى سجستان قصد بعض أملاك الطاهريين في هرات وبوشنج فضمهما اليه مظهرًا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار للأهالي . ثم اتجه الى أملاك الطاهريين في كرمان وأملاك الدولة العباسية في فارس متخذًا من عجز الطاهريين وفساد الإدارة وفقدان الأمن وفساد الأكراد في كرمان حجة لبسط نفوذه (٣٤) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتدي بالله (٢٥٦هـ) لا ترى في حركة يعقوب النى أظهرها بمظهر الإصلاح الاجتماعي والديني خطرا يهدد أمنها واستقرارها ، بل لقد رأت فيها محاولة لتوطيد الأمن في فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد الخلافة المعتمد على الله ٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ اد أصدر المعتمد الى محمد بن طاهر منشورا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمد بولاية يعقوب على سجستان (٣٥) .

أما العامل الثالث في تكييف علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، فهو الفكر السياسي للخوارج وأثره في توجيه حركة الصفاريين ذلك أن يعقوب لم يكن ذا عقيدة خاصة كما صورته بعض المؤرخين ، وإنما كان رجلا عاديا أظهر الدفاع عن الاسلام ، ولكنه كان ذا طموح سياسي دفعه الى أن يتعاون مع الخوارج ليستقوى بهم على الخلافة (٣٦) وكانت نشأته في سجستان بين الخوارج من العوامل القوية التي جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، كما جعلته يتقرب الى الخوارج ويستميلهم ، وخاصة الذين أظهروا المرونة وقبلوا التعاون معه . ومن المعروف أن الخوارج كانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية ممتازة (٣٧) .

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار تعاون مع الخوارج واستفاد من

حركتهم الا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مدى تأثير يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو ان المصادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى (٣٨) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . ذلك أن يعقوب عاش حياة فيها نوع من الزهد والتقشف ، وكان لا يكشف لأصحابه عن آرائه وافكاره وأسراره (٣٩) . على أن نشأة يعقوب الصفار فى بيئة سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة مما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء (٤٠) ، كل ذلك جعل يعقوب يتأثر بفكرهم السياسى . وكان لهذا التأثير أثره فى علاقته مع دولة الخاء العباسية ، الأمر الذى يتضح لنا فى ثلاثة مواقف :

. الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤هـ حينما اتجه يعقوب بجيشه الى فارس ليستولى عليها ويضمها الى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس - فى عهد الخليفة المعتز بالله - ان كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له ، رد عليه يعقوب بأن معه عهدا من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه الا بعد أن يدخل البلد . فلما قبض يعقوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفاً وقال : هذا عهدى (٤١) .

. وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩هـ وقبض على محمد بن طاهر ، أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يتهامون به أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة ، فلما اجتمعوا عنده التفت يعقوب الى حاجبه وقال له : « احضر منشور أمير المؤمنين حتى أقرأه عليهم ، فوضع الحاجب أمامه سيفاً براقاً فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة . ان هذا السيف هو الذى أعطانى خراسان » وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة (٤٢) .

وأما الموقف الثالث : فكان حينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢هـ ، اذ اتجه

الى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل اليه رسولا يحمل تقليدا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة الى جند يسابور سنة ٢٦٥هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا السيف (٤٣) .

وجملة القول انه كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ، ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج، مما أدى الى توتر العلاقة بين الامارة الصفارية ودولة الخلافة العباسية ، وجعل تلك الامارة تحتكم فى كثير من المواقف الى السيف والقوة، مثلما كان يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريا بالخلافة العباسية .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية : ذلك أن الامارة الصفارية فى سجستان وصفت بأنها كانت امارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقرين (٤٤) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، كما كان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال (٤٥) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان وهى منطقة سهلية رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار (٤٦) ، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدارارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد الذى لم يألّفه رجال جيشه الذين اعتادوا الهواء الحار وخفة الحركة وقلة المؤنة (٤٧) . لذلك نلاحظ ان الامارة الصفارية اتجهت فى توسعها الى المنطقة الجنوبية لسجستان وهى فارس وكرمان والى المنطقة الغربية لها وهى خراسان (٤٨) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين .

ومن ناحية أخرى فقد كان يعقوب وعمرو يريان دائما ان قوتهما

رجع لسبب عسكرى بحت ، لا لاية اعتبارات أخرى . وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الامارة الصفارية، مما جعل علاقتها بالخلافة العباسية علاقة متذبذبة مضطربة لا تستقر على قرار . وعلى كل حال فان شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود الى شجاعتهم ومقدرتهما السياسية والعسكرية، لا الى ثقافتهم ودعمهم وتشجيعهم للحركة العلمية والأدبية فى سجستان . أما الذين كتبوا عن الامارة الصفارية فكانوا غالباً من -الفرس(٤٩) الذين اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطنين قوميين بعثا مجد فارس القديم ، فنسبوا اليهما أموراً كثيرة تتعلق بالعناية بامجاد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها . وهناك طائفة أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العسكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من نراث حضارى فلم تذكر جانباً من نشاطهم العلمى ، أو طرفاً من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون ابان امارتهم على سجستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود الى توتر علاقة الصفاريين بالحكومة العباسية، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين أعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الذى أعقبه على الامارة عدة مرات تمرداً وعصياناً على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الأتراك تبرز جانباً كبيراً من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين، دون ذكر الجوانب الحضارية، التى أسهموا فيها والتى سارت جنباً الى جنب مع نشاطهم السياسى(٥٠) . وهكذا صار من الصعب إبراز دور الامارة الصفارية انحدت الامارات الاسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى تقدم ولاية المشرق وازدهارها الحضارى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بسبب اغفال المصادر التاريخية نشاط الصفاريين الثقافى ومساهماتهم فى حضارة المشرق ، وبسبب حماس واندفاع المؤلفين الفرس الذين نظروا الى الامارة الصفارية نظرة قومية عاطفية فقالوا : إن نهضة امارة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

والحقيقة والتاريخ نقول ان الحركة العلمية والأدبية فى ولاية سجستان ، وخاصة فى مدينتى «زرنج» و «بست» شهدت ازدهارا ونشاطا ملحوظا فى الفترة التى تعاقب فيها على الامارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيها ؛ وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهديهما ، فقد تخرج من « بست» فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث (٥١) .

ولكن على الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصرى يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية الا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب لم تسجل لنا صورة أو حدثا تاريخيا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان . اللهم الا ما يذكره المسعودى عن احسان يعقوب ، وبره لاتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضا عن طريقته ومنهجه فى استقبال الوفود والرؤساء (٥٢) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرا انتهج سياسة ونظما ادارية فى حكمه لخراسان تعد فريدة فى ذاتها (٥٣) . والامارة الصفارية - كما ذكرنا - وان كانت السمة العامة لها أنها امارة عسكرية فى خططها وثقافتها ، الا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودا وأعمالا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفاريين بالأدب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنه لم يكن لطاهر وبنيه دراية تامة باللغة الفارسية (٥٤) ، بينما ولد يعقوب وأخوه عمرو فى ولاية سجستان ، أى مركز انتشار اللغة الفارسية . ويذكر باريزى : ان يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل «بست» و «زرنج» وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية ، (مجلة المؤرخ العربى)

ولا أدل على انتشار اللغة العربية في زرنج قاعدة الولاية من كون خطبة الجمعة بها كانت باللغة العربية - وصفوة القول أنه يمكن إبراز مجهود الامارة الصفارية ودورها في حضارة المشرق في عدة جوانب تشمل النقاط التالية :

(أ) اقرار الأمن والنظام في سجستان ، وبذلك توافر للحركة العلمية جو علمي بعيد عن الفوضى والاضطراب .

(ب) العناية بالمنشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد واقامة بعض المباني للادارات والأجهزة الحكومية في نيسابور واقامة بعض الأسواق في زرنج(٥٥) .

(ج) الاهتمام بالصحة العامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية في سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزءا من دخل السوق الذي بناه في زرنج ليصرف على البيمارستانات(٥٦) فيها وبذلك صار للبيمارستانات دخل منتظم ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعي الصحى بين الناس .

الهوامش

- (١) د . محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الاسلام ، ص ١٢١ .
- د . فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الاسلامى ، ص ١٥١ .
- (٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم : قحطان عبد الستار الحديثى ، ص ٢٢٨ .
- (٣) القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٢ .
- (٤) سى . نى . بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د . عبد الجبار ناجى ، ص ١٩٦ .
- (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤٣٠ .
- (٦) الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٣ .
- (٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤٠٢ .
- والحديثى : وفيات الأعيان ج ٦ ، ص ٤٠٢ .
- (٨) ف . بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية .
- ترجمة : د . منذر البكر : مقالة فى مجلة المريد كلية الآداب جامعة البصرة - السنة الثانية .
- (٩) يراجع فى ذلك . سى . نى . بوزورث : جيش الصفاريين .
- ترجمة : د . عبد الجبار ناجى ، ص / ط .
- (١٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩١ .
- وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤١٦ .
- (١١) الاضطخري : المسالك والممالك ، ص ١٤٢ .
- (١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ .
- (١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩١ .
- (١٤) السمعانى : الانساب ، ج ٧ ، ص ١٣ .
- (١٥) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ، ص ٢٥ .
- (١٦) بارتولد : تركستان ، ص ٣١٩ .
- (١٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٤ .
- (١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .
- (١٩) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٠ .
- (٢٠) النرشخى : تاريخ بخارى ، ص ١٠٨ .
- (٢١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٣ .

- (٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .
- (٢٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ١٥٩ .
- (١٤) ابن خلكان : ج ٦ ، ص ٤٠٨ .
- (٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .
- (٢٦) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٨ .
- (٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ .
- (٢٨) سى.اى.بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٩٠ .
- (٢٩) القزوينى : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٠٢ .
- (٣٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ .
- (٣١) نفس المرجع .
- (٣٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٣ .
- (٣٣) حمزة الاصفهاني : تاريخ سنى ملوك الارض ، ص ١٧٠ .
- (١٤) ابن الاثير : ج ٥ ، ص ٢٤٠ .
- (٣٥) د. ابراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٦ .
- (٣٦) د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٣ .
- (٣٧) س.اى.بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ٢٠٢ .
- (٣٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٢ .
- (٣٩) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
- (٤٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .
- (٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٧ .
- (٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٦٢ .
- د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٢ .
- (٤٣) باريزى : يعقوب بن الليث ، ص ١٦٣ . ذكر ياقوت أن جند نيسابور مدينة بخوزستان .
- (٤٤) سى.اى.بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٨٩ .
- (٤٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
- (٤٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
- (٤٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ .
- (٤٨) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص ١٧ .
- (٤٩) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د . ابراهيم باستاني باريلى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار .

ود . رضا زاده شفق : أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى .

(٥٠) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الامم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الاثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الاعيان وقد تميز المسعودى وابن خلكان بالاشارة الى طرف من نظم الصفاريين الادارية والمالية والعسكرية .

(٥١) الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

(٥٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٤٢١ .

(٥٤) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٥٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ .

(٥٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ .

المصادر :

- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد . ت ٦٣٠ هـ .
الكامل في التاريخ .
- دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ -
١٩٦٧ م .
- الحموي : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦ هـ
معجم البلدان ، بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٧ م .
- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي . ت ٣٦٧ هـ ، صورة الأرض
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨ هـ
تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب
اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦ م .
- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت ٦٨١ هـ
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق : د . احسان عباس ،
دار الثقافة ، بيروت .
- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢ هـ .
- الاضطخري : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي . ت في
النصف الأول من القرن الرابع الهجري .
- المسالك والممالك ، تحقيق : محمد عبد العال الحسيني ، دار القلم
١٣٨١ هـ .
- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ تاريخ الأمم والملوك .
- ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب . ت ٢٨٠ هـ بغداد .
طبع سنة ١٣٨٨ هـ / ١٣٦٨ م .

- القزوينى : زكريا محمد . ت ٦٨٢هـ
آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر ، بيروت .
- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين . ت ٣٤٥هـ
مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة
الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥هـ .
- المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت ٣٨٨هـ
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل بلندن
عام ١٩٠٩م .
- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت ٧١١هـ
لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
- اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صادر ودار بيروت للطباعة
والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ .

المراجع :

- د. حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسي ، مكتبة نهضة مصر
بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١م .
- د. عبد الحميد الشلقاني : الروية فيما وراء العراق ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥م .
- عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ،
الطبعة الأولى ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥م .
- د. عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية ،
الطبعة الرابعة ، نشر دار الكتب الاهلية بمصر ١٣٦٣هـ / ١٩٤٥م .
- د. فارق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ،
الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧م .
- د. فؤاد محمد النادى : نظرية الدولة في الفقه السياسى الاسلامى ،
الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

الكتب المترجمة الى العربية :

- باريزى : د. ابراهيم باستانى :
يعقوب بن الليث الصفار
ترجمة من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الرئيس ، دار الرائد
العربى .
- بارتولد فاسيلى : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ،
ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم
منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الكويت ١٤٠١هـ .
- بوزورث . سى . اى : جيش الصفاريين ، لندن ، ١٩٧ .

— د . رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسی :
ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوی ، دار الفكر العربی
١٩٤٧ .

— النرشخی : أبو بكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤ هـ ، تاريخ بخارى ،
ترجمة : د . أمين عبد المجيد البدوي ، دار المعارف بمصر .

النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى

د . سعد عبد الله البشرى (*)

خطا المجتمع الأندلسى منذ أن استقر المسلمون فى شبه الجزيرة الأيبيرية خطوات سريعة فى مدارج التطور الحضارى والازدهار المدنى . وقد احتفظت لنا مصادر التاريخ والحضارة بالكثير من الأمثلة والبراهين على ما حققه الأندلسيون من حضارة ومدنية راقية لازالت تدهش الدارسين ، وتثير اعجاب الباحثين فى تاريخ الحضارة البشرية . وقد اخترت أن أدرس جانبا مهما من جوانب الحضارة الأندلسية ، وهو ما يتعلق بظاهرة النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى ، فتتبعنا بالدراسة النشاط الحضارى المتصل بالنظافة والصحة العامة فى الأسواق وما تضمه من الحرف والصناعات ، وكذلك فى الطرق والدروب والساحات والجوامع ، ومراعاة صحة البيئة ومكافحة التلوث بصورة عامة . هذا فضلا عن نظافة البدن واهتمام المجتمع الأندلسى بالاستحمام وظاهرة انتشار الحمامات بوصفها ظاهرة حضارية راقية ، وتأثير ذلك فى المجتمعات الأوروبية .

أما عن مراعاة النظافة ومكافحة الأقدار والتلوث والنفايات فى الأسواق ، وهى الظاهرة التى يترتب على اهمالها أوخم العواقب الصحية مما يؤدى الى تدهور خطير فى رقى الأمم وصعودها الحضارى ، فمن المعروف أن ولاية الأمر والقائمين على شئون المجتمع الاسلامى عنوا بهذا الأمر عناية كبيرة ، وخصصوا لذلك وظيفة كبيرة هى وظيفة الحسبة ، واحتفظوا لنا من خلال ما كتبوه فى شئون الحسبة بمعلومات قيمة ونادرة عن اختصاصات المحنّسب وواجباته فيما يتعلق بمراقبة الأسواق والباعة ، للتأكد من اتباعهم قواعد الأمانة والنظافة وسلامة ما يقدمونه للناس من بضائع ، وخاصة فى كل مايتعلق بالطعام والشراب . ويأتى فى المقدمة أهل

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ - كلية الشريعة - جامعة أم القرى .

الحرف والصناعات والمهن المختلفة . ولتيسير هذه المهمة وتطبيقها على خير وجه نبه ابن عبدون التجيبي - وهو من كبار المحتسبين فى الأندلس - الى أهمية ترتيب الصناعات والحرفيين ، وذلك بتخصيص موضع لكل حرفة او صنعة ، وذكر أنها أجل وأتقن (١) .

وقد لفتت هذه الظاهرة - أى العناية بتنظيم أماكن الحرف والصناعات المختلفة - نظر المؤرخين الذين أشادوا بما رأوه وشاهدوه وسمعوا به ، فهذا الادريسي يشير على سبيل المثال الى مدينة طليطلة فيقول عنها : (وهو بلد واسع المساحة شريف المنافع وبه أسواق جميلة الترتيب وديار حسنة التركيب (٢)) .

كما يلاحظ أنه كان لكل صنعة من الصناعات أمين يعود اليه الناس فى حال الاختلاف للاستهداء برأيه ، وهذا تنظيم حضارى كبير لازلنا نشاهده ماثلا فى حياتنا المعاصرة .

ولنا أن نتساءل : ما العلاقة بين ترتيب الحرف والصناعات وبين النظافة وصحة البيئة ؟ فنقول : ان لذلك علاقة وثيقة ، اذ ينبغي أن تكون أسواق ومحال المأكولات والأطعمة والأشربة فى أماكن بعيدة عن أماكن الحرف المتعلقة بالدباغة أو بيع الفحم والحطب والجص، وغير ذلك من المهن التى يترتب على مزاولتها والاشتغال بها ألوان من التلوث والنفايات المضرة بالانسان وصحة البيئة ، بل لقد أمر باعة الأسماك بأن يتخذوا موضعا بمعزل عن الطريق لما يتسببون فيه من روائح ولما يبدو عليهم من رثالة الحال (٣) .

وهذا ابن عبدون يؤكد على ما أشرنا اليه اذ يقول : (يجب أن يكون لبيع الحطب موقف ولا يترك أحد منهم يمشى فى الأسواق فانهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب . وان عثر على من يمشى بالحطب فى الأسواق أدب . وكذلك بائعو الجير وغير ذلك يتخذ لهم مواضع فتقصدهم الناس . وبائعو الفحم يجب أن تكون لهم مجارد لا مجارف، فانها تجرف التراب والغبار ويؤمروا بعزل الغبار منه . ويباع بجهة لمن شاء أن يشتريه) (٤) .

وتجدر الإشارة الى أن تعدد ألوان الحرف والمهن والصناعات أدى الى مراقبة ورصد واسعين من قبل المسؤولين عن الأسواق وصحة البيئة ، وأدى هذا الى وضع معايير وتوجيهات محددة فى سبيل المحافظة على مستوى النظافة الخاصة والعامة فى المجتمع الأندلسى، ومكافحة كل ما يؤدى الى تشويه المظهر الجمالى وانصحى فيه ، وبالتالى سوف نتطرق الى الحديث عن تلك المعايير والتوجيهات للحرف والمهن المتصلة بمحور البحث ، وبخاصة ما هو متصل بالأطعمة والأشربة .

وهنا تجدر الإشارة الى أن المحتسبين الأندلسيين شددوا على أهمية أن يكون المشتغل بالحرف المتعلقة بالأطعمة والمأكولات والمشروبات - لائقا صحيا لممارسة مهنته ، فلا يشتغل بها مجذوم ، أو مبروص (٥) ، أو من به مرض جلدى ، أو مرض معدى . وهذه لفظة حضارية راقية لازلنا نلمس أهمية تطبيقها على عصرنا الحاضر . وفى حرفة الجزار نبه المحتسب الى ضرورة ذبح الحيوانات وسلخها فى القصارى ، وعلى المشتغلين بهذه المهنة أن يجمعوا الدم وزبل الكروش وينقلوها خارج الأسواق أو الى الأماكن النائية . وعلى الجزار أن يغسل رؤوس الضأن قبل بيعها وذلك لضمان أن لا يؤذى مشتريها الناس بما قد يكون فيها من دماء فى الطرق الضيقة أو أماكن الزحام . وكان على الجزارين أن لا يضايقوا المارة بما يعرضونه من اللحوم المعلقة خارج حوانيتهم مما يكون سببا فى تلويث ثياب المارة فضلا عن تضيق الطريق (٦) .

كذلك كان على الجزارين تنظيف مواضعهم وإزالة ما قد يكون فيها من فضلات اللحوم والعظام وغيرها ، والتنزه عن الأقدار ، ومكافحة الذباب ، وأن يستخدموا لتقطيع اللحم لوحا من الخشب صليبا نظيفا . وعليهم بعد الانتهاء من العمل أن يغسلوا أدواتهم وما يقطعون عليه من ألواح وتغطيتها وحفظها بعيدا عن الحشرات ، وكان عليهم رش الملح على الألواح التى يقطعون عليها لتحول دون حدوث العفونة وتراكم الأقدار (٧) .

وكان بيع لحوم الطيور وبعض الحيوانات البرية يخضع لارشادات

معينة ، فكان لا يباع الحجل والطير المذبوح الا بعد نتف ريش مؤخراتها؛ وذلك ليتبين للمشتري فسادها أو جودتها ، كما لا تباع القنليات (٨) الا بعد سلخها ؛ ليتضح ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ، وذلك لأن بقاءها فى جلودها مدعاة لفسادها وتعفنها (٩) .

أما باعة الأسماك والمشتغلون بقلها فكانوا يؤمرون باتخاذ تدابير محددة لضمان النظافة والتنزه عن الأقدار والتلوث . وأول ماكانوا يلزمون به أن يتخذوا لهم مكانا خاصا بحرفتهم ، وقد سبقت الإشارة الى الزام باعة الأسماك باختيار موقعهم بمعزل عن الطريق ، نظرا لما يتسببون فيه من روائح ، ولما هم عليه من هيئة قد لا تكون حسنة ، كذلك كان عليهم تنظيف ساحاتهم ، وينهون عن تمليح الأسماك التى مر عليها يومان أو ثلاثة ، لما قد تولد فيها من العفونة اذ من الأفضل تمليحه ظريا (١٠) .

ويتبع هذه التوجيهات الزام باعة الأسماك بعدم حملها فى أيديهم والتجول بها فى الأسواق والطرقات ، بل يحملونها فى أوعية أو أوان نظيفة لئلا تلوث أثواب المارة . ومن يخالف هذا الأمر يؤدب بوضع ما يحمله فى حجره (١١) .

والمواقع ان المشتغلين ببيع وعمل الأطعمة كانوا أكثر أهل السوق استهدافا من قبل القائمين على مكافحة الغش ومحاربة التلوث والأقدار ، وكانت التوجيهات والنعليمات التى يلزمون باتباعها صارمة وعليهم التنفيذ بها ، فمنها : أن لا يطبخوا بالليل أو السحر ولا فى الأماكن النائية والمواضع الخفية ، وعليهم أن يتخذوا لهم حوانيت مجصصة (١٢) ومسطحة يسهل تنظيفها وغسلها فى كل حين ، ويلزمون أثناء الطبخ بتوفير الانارة والضوء بحيث يتم ذلك وفق طريقة سليمة ونظيفة وتحت إشراف العارفين منهم . وفى أثناء الطبخ يتعهد أحدهم بذب الذباب عن الأوانى واللحوم حتى يتم الطبخ على أحسن ما يكون ، وبالتالي يطمئن الناس الى نظافة وأمانة الطباخ وما يطبخ . ويشير السقطى الى أهمية الاشراف الدقيق على عمل الطباخين ومعرفة ما يطبخون ، فيذكر حالات من الغش والتلاعب التى كشفها أثناء ممارسة عمله كمحتسب ، حتى أنه

قبض على عدد من الطباخين الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى خفاء ،
عندما تبين له قيامهم بذبح حيوانات قذرة كالكلاب وطبخ لحمها . ولهذا
نبه الى أن يتم الطبخ فى مواضع قريبة وميسور الاطلاع عليها من قبل
أهل الحسبة وأعوانهم (١٣) .

وكان المحتسب يتفقد أحوال الطباخين صباحا ومساء ، فى الصباح
ينظر هو وأعوانه فى نوع اللحم الذى يطبخه الطباخون ومدى نظافته
وصحته ؛ وفى المساء يقوم المحتسب أو أعوانه بجولاتهم الميدانية فيتفقدوا
أماكن الطبخ ومدى مراعاة الطباخين لقواعد النظافة والأمانة، بعدم خلط
ما بقى من اللحوم مع اللحوم فى اليوم التالى وتقديمها للناس على أنها
لحوم طازجة وجديدة ، وفى ذلك تحايل ومجافاة للنزاهة (١٤) .

وكان على القلائين تنظيف السمك قبل قليه واستخراج ما فى جوفه
وتنظيفه بصورة تامة ، وأن يراعوا نظافة الزيت ، فلا يقلوا الأسماك
فى زيت عكر وردى ، اضافة الى مراعاة النظافة فى أدوات القلى
فيتعهدوا أوانى القلى بالغسل وازالة ما علق فيها من الزيوت والأطعمة .
وكان المتهاون فى ذلك يلقي العقوبات الصارمة (١٥) .

ويشير التجيبى الى قواعد صحية تراعى فى اختيار أدوات الطبخ
وما يستلزمه من أوان وقدر ، فينبه الى عدم صلاحية الأوانى المصنوعة
من النحاس فى عملية الطبخ ، وفضل عليها ما يصنع من الحديد اذا
ما روعى غسلها وتنظيفها باستمرار والحيلولة دون صدئها . وذكر أنه
لا بأس بأوانى القصدير قدورا وصحافا ، وكذلك ما يصنع من الزجاج
لسهولة تنظيفها . ونبه الى الحرص على تغطية القدور وغيرها عند
الطبخ بأغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يكون . ونهى عن الطبخ فى أوانى النحاس
اذ كرر ذلك عند حديثه عن القلى ، فذكر أنها خطيرة جدا ، وخاصة اذا
ما قلى فيها مواد كثيرة الدسم تختلط ببعض مكونات النحاس (١٦) .

ولم يكن التجيبى وحده هو الذى نصح بعدم الاعتماد على أدوات
الطبخ المصنوعة من النحاس ، بل أشار الى ذلك عدد من الأطباء وأهل
الحسبة ، منهم : الطبيب (ابن زهر) الذى يقول : (يجب أن تعلم أن

تَلْ شَيْءٌ فِيهِ الْخَلُّ إِذَا لَقِيَ أَنْيَّةً نَحَاسٌ حَدَّثَتْ فِيهِ قُوَّةٌ رَدِيئَةٌ مَذْمُومَةٌ تَضُرُّ بِالْإِبْدَانِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ النَّحَاسَ يَجِبُ أَنْ يَتَجَنَّبَ طَبْخَ الْأَشْرِيَةِ فِيهِ إِلَّا أَنْ بُولَغَ فِي تَبْيِيضِهِ بِالْقَصْدِيرِ (١٧) .

كما أن ابن عبدون والسقطي نبها إلى خطورة استخدام قُـدُورِ النحاس عند الهراسين والقلائين وغيرهم ، وذكر ، أنها لا تكون صالحة للاستخدام إلا إذا كانت مرصصة ، إذ يتولد عن امتزاج الزيت بالنحاس أثناء الطبخ مادة سمية خطيرة (١٨) .

فإذا انتقلنا إلى غير ذلك من العاملين بالأسواق في بيع وصناعة الأطعمة والماكولات كالبازيين ، لسنا مدي عناية وحرص القائمين على نظافة وسلامة البيئة بفضل ما وضعوه من قواعد صارمة من أجل المحافظة على النظافة والنزاهة وسلامة الناس ،

ذلك أنه كان على البازيين غسل أدوانهم وأوانيهم التي يعجنون فيها كل يوم ، وكذلك ما يرتدونه من ملابس أثناء العمل ، ويمنعون من ممارسة أعمالهم قبل الفجر لحداثة عهدهم بالنوم ، وبالتالي يتهاونون في مراعاة قواعد النظافة ، ويلزم البازيون بالاعتسال والنظافة في أكثر الأوقات وخاصة في أيام الصيف (١٩) .

وعلى البازيين الاهتمام بنظافة الماء الذي يعجنون به ، وتجنب أخذه من المواضع القذرة . وكذلك مراعاة ذلك عند جمع الحطب لما يترب عليه من الأضرار بالخبز ، وينبهون أيضا إلى المحافظة على نظافة رقائق العجين قبل إدخالها الفرن ، وذلك بتغطيتها بقماش نظيف يحول دون سقوط الأقدار عليها ، وعند الانتهاء من العمل يقومون بتنظيف أدواتهم ، ومنها ما يفردون به الخبز ، وما يوصلونه به إلى داخل الفرن ؛ فتجرد الأدوات وتغسل ، كما كان عليهم أن يكنسوا الفرن من الرماد والتراب قبل أن يبدأوا العمل فيه من جديد في اليوم التالي (٢٠) .

ومن القواعد التي يجب الالتزام بها لمن يبيع الأطعمة ومنها الخبز أن يكون البائع نظيفا سليما من الأمراض ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ،

ولأهمية أن يكون الخبز نظيفا سليما من الأقدار فقد شدد المحتسب فى أن لا يبيعه حوات أو جزار أو من تستقدر مهنته . وكان على باعة الخبز نغطيته وحفظه من وقوع الذباب والأقدار عليه ، وأن يبتعدوا عن مجاورة أصحاب الحرف التى يغلب عليها طابع التلوث والقذارة، كبائعى الأسماك ومحترفى البيطرة والحجامة ، ويلزم باعة الخبز بتنظيف ملاحظتهم وساحاتهم (٢١) .

وامتد هذا الاهتمام بالنظافة الى بقية أصناف الباعة وأصحاب المهن الأخرى ، فقد نبه أهل الحسبة الى ضرورة أن يهتم اللبانون والجبانون بتنظيف أوانيهم ومواضع عملهم ، وأن يكون لهم موضع خاص بهم بعيدا عن المشتغلين بحرف يتولد عنها تلوث أو قذارة ؛ وكان على المحتسب أن يمنعهم - أى اللبانون - من أن يبيعوا مع اللبن أو الجبن ما لا يتوافق معه كالسمك أو اللحم (٢٢) .

وفيما يتعلق بالأدوات التى يغرفون بها اللبن فيلزمون بأن تكون من حنتم (٢٣) أو من خشب ، ويحظر عليهم استخدام ما يصنع منها من النحاس لما فيه من ضرر . وكان على اللبانين مراعاة النظافة بصورة دقيقة وخاصة فيما يتصل ببيع اللبن الرائب لأنه سريع العفن والتخمر ، ولهذا اشترط ابن عبدون أن لا يباع اللبن الرائب الا فى الزقاق ، لسهولة غسلها وتنظيفها . وأما الذى فى المجابين فقد يتعرض للفساد والتلوث (٢٤) .

وقد اتبع المشتغلون بصناعة الهريسة والمجبنيات تلك القواعد الصحية ، فكان عليهم الاهتمام بتنظيف أبدانهم وشعورهم ، والحرص على نظافة أوانيهم ومن تحتها أغطية أخرى (٢٥) ، وذلك مبالغة فى نظافة ونزاهة ما يحترفونه من أعمال ، حيث أنه لا يؤمن ان يتسرب اليها بسبب التهاون كثير من ألوان التلوث والأقدار ، وهو أمر خطير لارتباط ذلك بصحة الانسان وحياته .

أما المشتغلون ببيع الخضار والفواكه فكان عليهم أن يعنوا عناية كبيرة بنظافة ما يعرضونه من الخضار والفواكه ؛ كما كان من الأهمية بمكان (مجلة المؤرخ العربى)

ضرورة غسلها وإزالة ما علق بها من الأتربة . ولا يكون هذا الغسل فى البرك أو الصهاريج ، لما قد يكون فيها من الأقدار بل يجب غسلها على ضفاف الأنهار أو المياه الجارية العذبة (٢٦) .

فى الطرقات والساحات :

حظيت الطرق والدروب فى المدينة الأندلسية بعناية فائقة من قبل القائمين على رعاية المظهر الحضارى والوجه الجمالى لمرافق المدينة . وكان عليهم لبلوغ ذلك الهدف الحضارى الراقى أن يضعوا قواعد وتنظيمات دقيقة تثير الإعجاب ، وخاصة بمقاييس ذلك العصر . فمن هذه القواعد الحضارية : أن يلتزم أفراد المجتمع بنظافة الدروب والطرق ، وذلك بعدم طرح النفايات والأقدار فيها ، والعمل على اصلاح مستوى الطريق ، وذلك منعا لتجمع المياه والأوحال فى المواضع المنخفضة منه . وعلى أصحاب البيوت والدور - ان كانت لهم قنوات تحمل المياه الى الطريق - أن يعملوا لها سريا تنصرف فيه المياه والأقدار بعيدا عن الأعين ، ويمنع من نصريف المياه والأقدار فى الطريق (٢٧) .

ومن السلوكيات المذمومة التى حاربها المجتمع الأندلسى قضاء الحاجة فى الطرقات والساحات ، لما لذلك من تأثير سىء سواء على مظهر المدينة الحضارى أو صحة الانسان . وكان على القائمين بأمر النظافة ردع من يقوم بذلك السلوك المشين ، فان عاد أدب ، وان كان صغيرا فعلى وليه التعهد بعدم تكرار ذلك (٢٨) . وفى هذا اشارة مهمة الى ما أولاه المجتمع الأندلسى لنظافة المجتمع من اهتمام وعناية .

أما النفايات والقمامة المتجمعة من البيوت والأسواق فكانت تنقل خارج المدينة . وكان المحتسب وأعوانه حريصين على مكافحة الأقدار وعدم تكديسها داخل الأحياء وبين المنازل والدور ، اذ على السكان أن يبادروا الى نقل ما تجمع منها بعيدا عن الأحياء والتجمعات السكانية . وعلى صاحب الدار فى حالة تنظيفه ما تجمع من مياه وأقدار المجارى فى منزله أن ينقل ذلك بعيدا عن الدور . وقد تستخدم تلك الفضلات فى المزارع ، أو تجمع فى مواضع معلومة معدة لذلك . ويجب على من فتح

سربا وأفرغه من المياه القذرة والفضلات أن ينقلها الى خارج المدينة ،
وعليه تبعا لذلك أن يسوى موضع السرب بما يتفق مع مستوى الشارع
وبما يحقق السلامة والنظافة للعابرين (٢٩) .

وجدير بالذكر ان الأندلسيين من العاملين فى تنظيف المجارى
والقنوات توصلوا آنذاك الى صنع أو تكوين مواد معينة يستخدمونها فى
نفتيت ما تصلب من المواد داخل المجارى أو القنوات ، عيقل أبو مزوان
ابن زهر عندما أشار الى تحليل الأورام بالأدوية : (فانك متى الححت
مدة فى التحليل أبقيت من الخلط الممرض بقية لا تقبل التحليل كأنها قد
تحجرت ، وان العوام يشعرون بمثل هذا. فانا نراهم متى أردوا أن
يخرجوا جوهرا غليظا من القنوات المدفونة لم يقتصروا على تقطيعه
بالغسل حتى يخلطوا معه ما يميحه فيصبون الماء فى القنوات فتسهل
جريته) (٣٠) .

وكان على الكفافين أو المستغلين بتنظيف ما يعرف فى عصرنا
الحاضر بالمجارى أن يتلزموا قواعد محددة فى أعمالهم : وذلك حرصا
على نظافة البيئة ، فالزموا فى عملية نقل المياه والاقذار المفرغة من
الحمامات والمواضع التى تتجمع فيها باستخدام أكواب كبيره ، يحمل كل
كوب اثنان ، ليضمنا بذلك عدم سقوطه أو تناثر ما فيه من الاقذار .
وألزموا أيضا بأن يحمل أحدهما أثناء النقل جرسا ينيه المسارة الى
الابتعاد عنهما ، وحظر على أحدهما أن يحمل لوحده كويين : لما يترتب
على ذلك من أضرار وفساد يتنافى مع ما يجب مراعاته من نظافة ونزاهة
البيئة والمجتمع (٣٢) .

ومن التنظيمات الحضارية الراقية المحافظة على نظافة الطرق
وجمالها ومكافحة كل ما يخالف ذلك ، فيحظر انشاء الحوانيت التى
يمارس أصحابها جرفا ينتج عنها تلوث البيئة أو ممارسة تلك الحرف فى
الطرق . وقد نبه بعض المحتسبين الى أهمية ذلك ، وضرورة العناية
بنظافة وسعة الطرق وذكروا (أن عمرا رضى الله عنه أمر بهدم كبير
الحداد الذى مر به فى الطريق) كما أمروا بضرورة منع الصباغين ومن
شاكلهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق ؛ لما تتسبب فيه من

تلويث المارة • وكان يحظر انشاء الأفران فى الطريق لما تسببه من تلوث (٣١) •

والزم أصحاب الحرف والمهن أن يتخلصوا من النفايات والأزبال التى تتخلف عن صناعاتهم وبيعهم وكل ما يتصل بممارساتهم الحرفية ، كالمشتغلين ببيع الفواكه والخضار والحبوب ، والعاملين فى التجارة والحدادة والدباغة والحطابة وبيع الفحم وغير ذلك •

الجوامع - الأنهار - المقابر :

كانت الجوامع والمساجد فى مقدمة المواضع التى حظيت باهتمام المسؤولين عن النظافة فى المجتمع الأندلسى • وما من شك فى أن المسجد نال عناية فائقة فى الاسلام ، وكان الاهتمام به وبنظافته وطهارته من الأمور التى اشار اليها القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه السلام • وبالإضافة الى ما تقدم فقد كان للأندلسيين آدابهم وسلوكياتهم الحضارية التى جاءت لتؤكد عظمة المسجد وحرمة ومنزلته • وفى ضوء التطور الحضارى الذى بلغه الأندلس وضع بعض العلماء والمحتسبين قواعد تحفظ للمسجد نظافته وحرمة وقديسيته • فلكى يبقى المسجد على نظافته وطهارة فرشته كان على المصلين أن لا يدخلوه بنعالهم أو بأحذيتهم فى أقدامهم ، وأن ينتبهوا الى ازالة ما قد يكون عالقا بها من الأوساخ والطين وحك بعضها ببعض أو فى الأرض قبل الدخول • وكان من الأمور المرعية مراعاة نظافة المساجد ورحابها وما حولها ، ومنع الفناء الأزبال والقاذورات فى رحابها وما حولها ، وينهى بحزم من يقدم على ذلك ، فان عاد عوقب بلا تردد (٣٣) •

ومما يتصل بنظافة المسجد العناية بفرشه ، فان بلى الفرش نقل الى حيث يحتاج اليه فى السجون أو للفقراء • وكان من السلوكيات الحضارية والانسانية أن تبنى سقائف بجوار الجامع ليقيم فيها الغرباء أو من انقطعت بهم السبل (٣٤) •

وقد روعى فى أرضية الجامع أو المسجد أن تكون فى اعتدال واستواء ، واذا كان فيها موضع منخفض يسوى بحيث لا تجتمع فيه مياه

الأمطار والأحوال ، وقد رتب لتنظيف الحمامات فى الجامع عامل أو عمال يقومون بتنظيفها وتصريف ما يتجمع فيها من الأقدار ، وهؤلاء العمال أجورهم أو مرتباتهم من الأحباس (٣٥) .

كذلك كان للمسجد موظفون يقومون على نظافته والمحافظة عليه من الأوساخ . وقد وضع بعض المحتسبين لهؤلاء الموظفين قاعدة يسيرون عليها ، فكان عليهم كنس المسجد أو الجامع ونفض الحصر والفرش فى كل يوم اثنين ، وكل يوم جمعة ، ويضاف الى ذلك تنظيف قناديلها فى أول يوم من الشهر وفى منتصفه (٣٦) .

ولما كان يوم الجمعة يشهد اجتماع اعداد كبيرة من المصلين فى الجوامع ، فان بعض الباعة استغلوا هذه المناسبة ليعرضوا فى رحاب الجوامع سلعهم وحاجاتهم ، لذلك أمر عمال الجوامع بتنظيف رحاب الجامع فى صباح يوم الجمعة كما أمر الباعة بعدم بسط سلعهم وبضائعهم قبل الصلاة وانما بعدها .

ومن دلائل عنايتهم بطهارة المسجد ونظافته تأكيدهم البالغ على أن لا يتم تأديب الأطفال والصبيان فى رحاب الجامع ، وذلك لعدم تحفظهم واحترازهم من النجاسات التى قد تكون فى أقدامهم وملابسهم ، ويتم تأديبهم وتعليمهم فى السقائف (٣٧) .

ويضاف الى ذلك حرص القائمين بأمر نظافة أماكن العبادة على تنزيه الجوامع والمساجد ليس فقط من ألوان التلوث والأقدار التى يتسبب فيها الانسان ، وانما أيضا مما تتسبب فيه بعض الحيوانات ، فقد حظر على المصلين ربط دوابهم فى رحاب الجامع لما ينتج عن ذلك من قذارات ونجاسات اذا راثت أو تبولت ، وهذا يؤدى الى انتشار النجاسة وبالتالي عدم صلاحية الموضع للصلاة فضلا عما يلحق الناس من الأذى . وقد شدد المحتسب على إحراج الدواب الى مواضع بعيدة عن أماكن الصلاة (٣٨) .

ومن ألوان العناية بالنظافة والنزاهة التى شملت شتى مرافق الحياة فى المجتمع الأندلسى ، حفاظاً على صحة البيئة والإنسان ، العناية بمصادر المياه ، مثل . الأنهار ، والأودية ، وينابيع المياه ، والعيون ، وقد نبه المحتسب ابن عبدون على أهمية المحافظة على ضفة الوادى انذى هو مرسى المدينة ، وذلك بحظر أن يباع منه شئ أو يبنى فيه ، نظراً لأهميته باعتباره منفذاً بحرياً يحط فيه التجار والمسافرون والغرباء ، وموضعاً لاصلاح السفن ، فهو ملك للدولة لا يتصرف فيه غيرها (٣٩) . وقد استهدف هذا نوع من التنظيم الرقى بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، ونفيه مالا يخفى من النزوع نحو تحقيق صورة مجالية للبيئة الأندلسية .

وكان المحتسب حازماً فى مكافحة ألوان التلوث وخاصة فى الأنهار والأودية والعيون ، كما كانت هناك مواضع تم تخصيصها للسقائين يستقون منها . من ذلك أنه نبه الى ضرورة منع الغسل والاغتسال بالقرب من مواضع السقاية لما يؤدى اليه ذلك من تلوث وقذرات . وكان على من يريد الغسل وخاصة من النساء أن يذهبن الى موضع معين بحيث لا يتسببن فى تلويث المياه الجارية . كذلك كان من الأمور التى يحظرها المحتسب أن يعمد الناس الى رمى الأقدار والنفايات على ضفة الوادى أو الأنهار ، ومن يفعل ذلك كان يعاقب بحزم (٤٠) .

وتجدر الإشارة الى أهمية ما أولاه أهل الحسبة من عناية للمحافظة على الثروة النباتية والسعى الى انمائها وغراسه ألوان الأشجار والنباتات لزيادة مساحة الرقعة الخضراء ، فكان من واجبات الدولة حماية الغابات وتشجيع الساكنين بقرب ضفاف الأنهار على زراعة الأشجار والمحافظة على الغابات وصيانتها من العبث والتقطيع الجائر (٤١) لما تمثله من ثروة اقتصادية ، وما تعكسه من جمال طبيعى ، فضلاً عن دورها فى تقليل التلوث فى البيئة والهواء .

ومن مهام المحنسين والمسؤولين عن النظافة وصحة البيئة فى المجتمع الأندلسى السعى الى محاربة المظاهر الاجتماعية الفاسدة التى تتسبب فى تشويه المظهر الحضارى والوجه الجمالى للمدينة ، فكان يحظر التسول وما يسلكه البعض من مسالك قبيحة فى سبيل استدرار

عواطف الناس ، فهناك من يتخبط فى الأسواق ويوهم الناس أنه مصروع ، وهناك من يتظاهر بالشلل أو يبدى فى جسده بعض القروح والأورام (وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل ، فيجب على صاحب الحسبة أن يقف من ذاك كله على صحته ويعاقب من يحتل منهم بتلك الحيلة) (٤٢) .

ولم تقتصر عناية المسؤولين عن نظافة البيئة على ما تقدم ، إذ امتد هذا الاهتمام الى ما يتصل بحياة الانسان بعد موته بمراعاة حرمة وكرامته من خلال العناية بالمقابر والحرص على نظافتها وحرمتها ومنع العبث والفساد بها . وكان من القواعد المتبعة أن يلتزم حفارو القبور بتعميقها بحيث لا تنتشر روائح الموتى ، وفى الوقت نفسه تكون بعيدة عن عبث السباع ، وأن يراعى حرمة الميت فيستر ما يظهر من العظام ولا يتركوه على وجه الأرض (٤٣) . وقد عاب ابن عبدون على أهل بلده - اشبيلية - ضعف اهتمامهم بهذا الجانب إذ عمدت طائفة من الناس الى السكنى فوق المقابر بل وأجروا فوقها أو خلالها السروب والمجارى . وكان لبعض المحتسبين - كما يقول ابن عبدون - موقف حازم ازاء تلك الظاهرة ، فهدموا ما بنى فى المقابر وما أنشئ بها من الدور ، ونصح ابن عبدون بتخصيص بعض المواضع ليكون مقبرة لأهل اشبيلية . وقد نبه ابن عبدون الى المحافظة على نظافة المقابر وتطهيرها من الأرجاس والأقذار ، وأن لا يستغل موضعها بعض أهل الحرف المستقرة كالمشتغلين بالدباغة ومن يشاكلهم (٤٤) .

النظافة الشخصية :

فاذا انتقلنا الى الحديث عن النظافة الشخصية فى المجتمع الأندلسى وجدنا ما يؤكد ويقرر هذا المسلك الحضارى الراقى . يذكر المقرئ نقلاً عن ابن سعيد أن (أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك فيما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها) (٤٥) .

والنظافة الشخصية ترتبط بالنواحي التالية : الجسد ، اللبس ، والمنزل . فيما يتعلق بالجسد ونظافته وطهارته نذكر أن الأندلسيين عنوا عناية بالغة بنظافة أجسادهم ، فكانت ظاهرة الاغتسال والاستحمام من السلوكيات الاجتماعية التي اهتموا بها اهتماما بالغاً . ولذلك أكثروا من بناء الحمامات العامة حرصاً على نظافة أبدانهم وطهارة أجسامهم . ولم يكن ارتياد الحمامات وقفاً على الرجال بل وجدت حمامات خاصة بالنساء أيضاً .

وكان الأطباء يوصون بارتياح الحمام والمحافظة على الاستحمام ، لما فى ذلك من فوائد صحية واجتماعية ، فهو (ينقى الجلد ، ويزيل الوسخ ، ويطهر البدن ، ويفتح مسامه ، ويحلل الأبخرة ، ويرطب الأبدان وينميها ويزيد فى حرها الغريزي ويفرح النفس ويذهب الحزن) (٤٦) .

يذكر ابن زهر أن الاستحمام فى كل عشرة أيام من غير أن يكون الانسان متخماً بالطعام فيه ما يحفظ الصحة ، وأشار الى أن من القواعد التى يفضل اتباعها استخدام الماء العذب ، وأن يكون معتدلاً بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون المستحم صائماً . وأن فيه ما يعين على دوام الصحة والعافية (٤٧) .

وتجدر الإشارة الى أن الطبقة الثرية فى المجتمع الأندلسى كانت لها حماماتها الخاصة الملحقة بمنازلها ودورها ، وكانوا يمارسون بها عادة الاستحمام بصورة مترفة وباذخة . أما الطبقات الأخرى التى لا تستطيع تأمين ذلك فى منازلها فكان عليها أن تقصد الحمامات العامة التى كانت منتشرة بوفرة كبيرة فى المدن الأندلسية . من ذلك أن مدينة قرطبة وحدها كان بها مايزيد على ٧٠٠ حمام (٤٨) وقد عد ذلك من مفاخر قرطبة ودلائل رقيها وتمدنها . ومن الطريف أن الحمامات لم تكن منتشرة فقط فى المدن بل امتدت هذه الظاهرة الى القرى والأرياف ، ومازالت منطقة البشرات (جنوب غرناطة) والمناطق المحيطة بقرطبة بها آثار واضحة لحمامات كان يرتادها الناس ويستحمون فيها . وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على المدى الذى وصلت اليه عناية الأندلسيين

بالنظافة وبالتالي تميزهم بذلك القدر من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية الراقية .

وكان الحمام العام يتألف من ممر يؤدي الى غرفة كبيرة بها خزانات خشبية تعلق بها الملابس وتسمى هذه الغرفة «المشاح» (٤٩) ومنها يدخل المستحم الى غرفة المياه الباردة والى جوارها سرير خشبي مستطيل يضطجع عليه من يرغب فى التدليك ، ثم ينتقل الى الغرفة الساخنة حيث يغسل جسمه بالمياه الساخنة بواسطة مغارف خشبية . وأخيرا هناك موضع للمزينين ينتهى اليه المستحم ليكمل نظافته وزينته . وتصل المياه الحارة الى الحمام عن طريق أنابيب تنقله من صهريج تسخن فيه المياه بالحطب ويقع خارج الحمام ، وكان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة نوافذ زجاجية مثبتة فى السقف (٥٠) .

ولما كانت الحمامات من المرافق الصحية والاجتماعية ذات التأثير الكبير على حياة الفرد والمجتمع ، فقد كان من الضرورى متابعة نشاطها وحالتها من حيث الالتزام بقواعد النظافة وسلامتها من الأقدار . من ذلك أن العاملين فى الحمامات ألزموا بنظافة ملابسهم وأدوات النظافة التى يستخدمونها فى تنظيف الأبدان وحك الأقدام ، فكانوا يضعونها فى الملح والماء كل ليل لئلا يصيبها العفن والتلوث والروائح الكريهة ، كما وجب عليهم أن يغسلوا ملابس العمل كل ليلة بالصابون (٥١) .

أما عن المياه المستخدمة داخل الحمام فكان يراعى فى صهاريج الحمامات أن تكون مغطاة بأحكام لئلا تتسرب اليها النجاسات وما يلوثها . وكان من الآداب المرعية أن لا يمارس المشتغلون فى الحمامات عملهم - كالحكك والطيب والحجام - الا بعد أن يرتدى كل منهم التبان والسروال (٥٢) .

وهناك قواعد وآداب استحسن بعض الأطباء الالتزام بها لبلوغ أقصى درجات النفع والفائدة من دخول الحمام ، اذ يشير الطبيب الأندلسى ابن خلدون الى أن دخول الحمام يكون على تلاء من المعدة ، وفور القوة ، ونشاط النفس ، واعتدال الفصل ، واعتدال النهار ، واذا دخل

المستحم فلا يتجرد من ثيابه الا فى البيت الأول حيث يصب على جسمه من الماء الفاتر من غير أن يبل رأسه ، ثم يدخل الى البيت الثانى فيصب على رأسه ثلاث غرفات من الماء الحار ويتجنب الماء البارد ، ثم يغسل رأسه فى البيت الثالث بالماء الحار ، ويصب فيه على بدنه الماء الحار أيضا ، ومنه ينتقل الى البيت الأوسط للاحتكاك وإزالة الوسخ عن البدن وتديكته بعد ذلك ، ثم يعم البدن بالماء الفاتر حتى ينظف جسمه ، ويختتم ذلك بالاغتسال بالماء البارد لأن فى ذلك ما يعدل حرارته ويرطب البدن . ويلتزم مراعاة الحال من حيث قدرة الجسم على احتمال ذلك وعدم إصابته بالبرد والرعدة ، وبالتالي الحميات . فاذا فرغ من ذلك يعتمد الى تنشيف جسمه بقطعة من الكتان . ويحفف شعره ثم يلبس ثيابه ، ويغضى رأسه ، ويسد أنفه بيده ليحميه من البرد والريح ، ثم يجلس خارج الحمام ساعة حتى تستقر حرارة الجسم ويعود الى طبيعته (٥٣) .

ولما كانت عادة الاستحمام والمحافظة على نظافة الأبدان وطهارتها من المظاهر الحضارية الرفيعة التى اتسم بها المجتمع الاسلامى بوجه عام ، والأندلسى بوجه خاص فقد كان ذلك السلوك من الآداب الأصيلة القوية الجذور فى حياة الأندلسيين ، فحافظوا عليه رغم ما حل بهم من ويلات الحروب واستيلاء النصارى على بلادهم ، يشير المؤرخ امريكو كاسترو الى عظم التأثير الحصارى للمسلمين فى حياة الأسبان النصارى وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها النصارى فى شمال اسبانيا ، اذ أن قرى صغيرة فى قشتاله لا نعرف حمام الماء الساخن فى عصرنا الحاضر ، كانت تتمتع به سواء فى عصر السيادة الاسلامية أو عصر المدجنين (٥٤) ، ويتضح هذا فى لوائح البلديات . وفى الحمام كانت النساء تجسدن مبتغاهن من حيث النظافة والتجمل بعيدا عن تلويث المنابع والأنهار أو حتى فى المنازل (٥٥) ، ومن بين تلك القرى ذوريتا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة ، وأوساجرى Usager فى بطليوس . وقد نصت لوائح بلديات المدن أنه ينبغى على صاحب الحمام أن يقدم لمرتادى الحمام الماء الساخن والصابون والمناشف (٥٦) .

كذلك نجد اشارات تاريخية الى أنه كان فى ميوقه ومدير

حمامات تردادها النساء المدجنات . وقد شهد الحى الاسلامى فى مدينته
ترسونا فى الشمال الشرقى من الأندلس بناء أحد الحمامات سنة ٧٧٦هـ -
١٣٧٥م ، وكان يقصده الناس جميعهم الا انه حظى على النصارى
واليهود دخوله فى الأعياد الاسلامية وايام الجمع (٥٧) .

وفى بعض الحمامات خصصت ايام محددة لكل من الرجال والنساء ،
حتى لا يقع الاختلاط المؤدى الى الفتنة والفساد . واستمر وجود
الحمامات فى الأندلس حتى خروج المسلمين منها نهائيا . ونشير الرواية
التاريخية الى أنه بعد اخماد ثورة الموريسكيين على السلطات الاسبانية
سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م تقرر طردهم ومحو كل ما يتعلق بحياتهم الاجتماعية
وعاداتهم ، فاعلقت حماماتهم وحرم عليهم ارتيادها . وكان لذلك تأثير
مؤلم على الموريسكيين حيث قال أحدهم ويدعى فرنسيسكو مولاي
Francisco Munez Ivuley : (ان الحمامات أقيمت لتنظيف
الأجسام ، والقول بأنه يجتمع فيها الرجال والنساء افتراء لا يصدقه العقل
والحمامات موجودة فى كل مكان ومنتشرة فى سائر الاقاليم . واذا كان
أبناء مملكة غرناطة قد تمسكوا بالحمامات ، فان ذلك بسبب حرصهم على
على أن يكونوا أطهار الأبدان ، فاذا حرم عليهم الاستحمام فى الحمامات
وفى الينابيع والأنهار والبيوت فالى أين يذهبون للغسل
والاستحمام ؟) (٥٨) .

وبنهاية القرن السادس عشر تم هدم كل الحمامات فى انحاء
أسبانيا ، ورفض الأسبان الأوروبيون عادة الاستحمام لأنها عادة ارتبطت
فى نظرهم بالحياة الاسلامية فى الأندلس ، واستمر الحال على ذلك
حتى ظهرت الحمامات بعد ذلك من جديد فى انجلترا (٥٩) .

ومن الطريف أن نجد الاسبان يتأثرون أيضا بظاهرة حضارية
اسلامية، وهى : غسل وتنظيف الميت قبل دفنه ، فتشير الرواية التاريخية
حول ملحمة فرنان جونثالت التى يعود تاريخها الى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٤٠م
الى أن الكونت فرنان جونثالت قام بغسل عدوه كونت دى تولوز قبل أن
يلفه فى الأكفان ، والى هذا أشارت المدونة العامة لألفونسو الحكيم (٦٠) .

وقد نادى الأطباء المسلمون بالآندلس بضرورة مراعاة النظافة الشخصية والعناية بنظافة الأبدان وطهاراتها للوقاية من بعض الأمراض . من ذلك ما يذكره الطبيب ابن زهر عن حالات مرضية تلحق بالجلد أو الشعر أو الأسنان ، وهى من الأعضاء والأطراف التى تمس المظهر الجمالى للإنسان ، فأشار الى ترك القشرة فى جلدة الرأس ووصف لها موادا طبية لغسل الرأس ، ومنها : خل العنب ، والخل مع العسل . كما نبه الى أهمية القطران فى إزالة القشرة ، ووصف علاجات لمكافحة القمل المتولد من الوسخ اللاصق بالجلد ، وذلك بغسله بالخل والقطران ، وأوصى بالاستحمام وغسل الرأس وعدم اهمال النظافة فى ذلك (٦١) .

كذلك ذكر الادريسى عند حديثه عن مدينة طليطلة أنه تقع بالقرب منها قرية تسمى بمغام ، وأن بها تراب يستعمله الناس فى تنظيف وغسل شعر الرأس (٦٢) .

ولما تعرض ابن زهر للأسنان وما يعترىها من ضعف وتشوه ، وصف علاجا لتقويتها وتبييضها وجليها ، كما نصح بتجنب تناول ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة (٦٣) .

وكان الأندلسيون يولون اهتماما كبيرا بنظافة أيديهم وأفواههم عقب تناول الطعام والشراب . وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأندلسيين وهو ابن رزين التجيبى بعدد من الوصفات لتنظيف الأيدى والأفواه واللثة والأسنان وأسمائها (الغاسولات) وهذه عناوين بعضها :

- ١ - أشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة .
- ٢ - أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف .

٣ - أشنان يطيب البدن والنيكهة ويشد اللثة وهو ملوكى .

٤ - غاسول ينقى الأيدى ويذهب الروائح الدسمة (٦٤) .

فإذا انتقلنا الى نظافة اللباس عند الأندلسيين لمسنا مدى حرصهم وعنايتهم بهذا الجانب من جوانب الشخصية الأندلسية . وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن سعيد الأندلسي من أن أهل الأندلس أشد الناس اعتناء بمظهرهم ونظافة ما يلبسون ويفرشون ، وأن أحدهم ربما لم يكن معه الا قوت يومه فيحتفيظ به ويطوي يومه صائما ليشتري بما يملك صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر في حال تزديده الأعين .

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي اشتهر بها المجتمع الأندلسي ، فيذكر الادريسي أن أهل قرطبة : (اليهم الانتهاء في السناء والبهاء . . ذكروا بصحة الذهب وطيب المكيب وحسن الزى في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب . .) (٦٥) .

ولئن كان هذا الوصف قد ورد في أهل قرطبة فان الحضارة الاسلامية الراقية في الأندلس لم تكن وقفا علي مدينة قرطبة وانما كانت شاملة لما سواها من المدن الأندلسية الأخرى .

فعلى سبيل المثال يقول الادريسي عن مدينة بسيطة : (ومدينة بسيطة مدينة متوسطة المقدار ، جميلة الوضع ، عامرة أهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة ، وديار حسنة البناء رائقة المعنى . .) (٦٦) .

ولما تحدث ابن الخطيب في مقدمة كتابه الاحاطة عن أهالي مملكة غرناطة وصفهم بصلاح العقيدة ، وجميل السيرة وحسن الصورة ، ثم ذكر أزياءهم وملابسهم وعنايتهم بها حتى ليبدون في أيام الجمع (كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة) (٦٧) .



وعنى الأندلسيون بنظافة منازلهم ودورهم ، اذ من الطبيعي بعدما أشرنا اليه سابقا أن يكون للمنزل أو الدار مكانتهما الاجتماعية اللائقة . ويمكن استخلاص بعض المفاهيم التي تؤكد جمال المظهر المدني ورقى السلوك الاجتماعي ، من خلال تتبع تلك النصوص التاريخية التي كتبها

الرحالة الجغرافيون عن المدينة الأندلسية ووصفها ببديع البنيان ، وحسن التنظيم ، ووصف أهلها بجعل السيرة ، ومنتهى البهاء والثناء ، وطيب العوائد والأخلاق (٦٨) .

ومن الطريف أن نجد المحتسب لا يقتصر دوره فى رعاية الجانب الجمالى على الأسواق والشوارع والساحات بل كان له اهتمامه الواضح أيضا بنظافة المنازل ومكافحة الأقدار فى الدور ، فكان يحث الناس على العناية بنظافة دورهم وصيانتها من تراكم الأوساخ والنفايات (٦٩) .

وكان يفضل بناء المنازل فى المواقع العالية لبلا تصلها المياه ولا تتأثر بالندى ، ولكى يشرف قاطنوها على ما تحتها من الأراضى الزراعية والبساتين . ويفضل أن أمكن أن تبنى الدار على شاطئ نهر ، مستقبلة رياح الشمال والشرق حتى تشرق الشمس من أبوابها ونوافذها ، لأن الرياح الشرقية أصح من سواها ، ودخول الشمس الى المنزل تدفع عن سائر الأسماء والأدواء . ويوصى بتوسيعها ورفع سقفها (٧٠) .

ونبه ابن زهر الى أهمية اختيار موقع السكن من حيث نظافته وصحة هوائه ، فمن الخطر السكن بجوار المقابر ، اذ قد يسبب ذلك تلوث الهواء المحيط بمجاورة جثث الموتى المتحللة ، كما أن من أسباب تلوث الهواء وجود المستنقعات والمياه الراكدة (٧١) .

ونلمس عند ابن زهر ملاحظات وتوجيهات حضارية راقية حول السكن وموقعه ونظافته وعلاقة ذلك بصحة الانسان ، فهو عند الحديث عن الأورام الطاعونية يشدد على أهمية اصلاح السكن ونظافته الى جانب عوامل أخرى . وكان يوصى بأن يفرش المنزل بالريحان ، ويبخر أحيانا بالقطران ، وفى أحيان أخرى يرش المنزل بالخل المركز . ونبه فى هذه الحال الى أن الغرف العلوية خير من البيوت السفلية (٧٢) .

ومن المؤسف أن التاريخ لم يحتفظ لنا بنصوص تاريخية وافرة عن البيت الأندلسى وعادات أهله من حيث النظافة والأناقة . ويمكن أن نشير الى بعض ما كتبه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مملكة غرناطة

فى أواخر الحكم الاسلامى وما سجلوه من مشاهدات المجتمع الأندلسى ، فى عام ٨١٧هـ / ١٤١٤م زار غرناطة الرحالة الألمانى خيرونيمو مونزر ، وقد أدهشته نظافة الغرناطيين الشديدة ، ويذكر أن طرقات المدينة كانت ضيقة ، وأن منازل المسلمين كانت صغيرة الحجم وتضم عددا من الغرف . ويضيف أن المنازل كانت بسيطة المظهر من الخارج ، ولكنها تتميز بجمالها ونظافتها من الداخل (٧٣) . وإذا كانت النصوص التاريخية لم تكن بأوصاف البيت الأندلسى من الداخل ، فإن البقايا الاثرية مازالت قائمة تشهد على جمال هذه البيوت وحسن تنسيقها .

وكانت ظاهرة النظافة وما عرف عن المجتمع الأندلسى من تمسك بها وحرص على الالتزام بها فى الحياة الخاصة والعامة ، مثار إعجاب الغربيين . ويشير ستانلى لينبول الى ذلك بقوله : (فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدونها من عمل الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذراتهم ، حتى أن راهبة دونت بعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها الى سن الستين لم يمس الماء منها الا أناملها عندما كنت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس ، نقول بينما كانت القذارة من مميزات القداسة ، وكان المسلمون شديدي الحرص على النظافة ولا يجرؤون على مباشرة عبادتهم الا اذا كانوا متطهرين . وحينما عادت أسبانيا الى الحكم المسيحى أمر فيليب زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين (٧٤) .

ومن خلال هذا الوصف وما يتعلق بنظافة الانسان المسلم ونزاهته بهذه الصورة المتمدينة صارت البيئة الأندلسية والمحيط الذى كان يعيش فيه الأندلسى مثالا لما كان ينبغى أن تكون عليه المجتمعات الأخرى . وها هو المؤرخ الأمريكى فكتور روبنسون يشير الى أن (أوربا كانت فى تلك العصور فى ظلام حالك فى الوقت الذى كانت قرطبة تضيء شوارعها وساحاتها المصابيح ، وكانت أوربا قذرة بينما كانت قرطبة تتباهى بأنها تضم ألف حمام ، وكانت أوربا غارقة فى الوحل تسودها الهوام والحشرات بينما كان الأندلسيون مثال النظافة والرقى الحضارى) (٧٥) .

وأخيرا نختتم هذا البحث المتواضع بالإشارة الى عدد من الأمثال السائرة والحكم المعبرة التي تداولتها ألسن العوام الأندلسيين حول أهمية النظافة وقيمتها كمظهر من مظاهر التمدن والسلوك الأخلاقي الجميل ، ونفورهم من كل ما يخالف ذلك من ألوان القذارة وإهمال العناية بنظافة الجسد وطهارة المنظر والسلوك العام لدى الانسبـان . ومن الأمثال الأندلسية التي لها صلة بالبيت الأندلسي ما ينم عن صفات ربة المنزل وضرورة أن تكون رمزا للنظافة . فإذا كان أمرها يخالف ذلك فإن التخلص منها هو العلاج الأمثل . لذلك دعوا الى تطبيق المرأة التي تمتخط في قناعها أو تدخل أصبعها في أنفها ، فيقول المثل الشعبي : « اذا ريت المرا تمخط في قنـعها (خمارها) وتخرج المفتول بأصبعها لا تبقى معها » (٧٦) .

ويقول المثل أيضا حول المرأة : (كل شيء يهون الا الغزل المعفون) (٧٧) .

ومثل آخر : (سمج ومقدور حر غير مشكور) (٧٨) .

ومن أمثالهم حول الطبخ وأهمية مراعاة النظافة فيه أن هناك ألوانا منه لا يصلح طبخها الا في قدور مخصوصة تراعى نظافتها وخلوها من الأقدار والملوثات يقول المثل : (قدرة الزفت ما يطبخ فيها معسل) (٧٩) .

كذلك بالغوا في وصف أولئك الذين إهملوا النظافة فقالوا : (أقذر من ولد ناصر الطباخ ، الذي كان يقتل القمل على صليب المغرقة ، ويمسح المغرقة في صلب الكلب) (٨٠) .

ولم يفت الأندلسيون في أمثالهم أهمية نظافة الطريق والبيت وتنزيههما عن الأقدار ، فظاهرة البصق على الأرض من الأفعال المستقبحة والعادات المستقذرة . ويقول المثل : (بحل (بحال) ربي (حبر اليهود) في شنوغ (معبد اليهود) يتحرك ويبزق) (٨١) .

ويقول المثل الآخر مستحسننا كنس المواضع وتنظيفها :

• (كنس وجلس) (٨٢)

وكانوا يبغضون انتشار الذباب والحشرات ويعدونها من المنغصات
فيقول المثل :

(ما كفى العيش المر الا فيه الدبان) (وما كفى الزيت المر الا
فيه الدبان) (٨٣) •

الهوامش

- (١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ، ص ٤٣ (وتقع هذه الرسالة مع رسالتين أخريين فى الحسبة وهما رسالة أحمد بن عبد الرؤوف فى آداب الحسبة والمحتسب ورسالة عمر بن عثمان الجرمي فى الحسبة فى كتاب وقد قام على نشرها ليفى بروفنسال تحت عنوان ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب سنة ١٩٥٥ م .
- (٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج ٢ . ص ٥٥١ وانظر أيضا ص ٥٤٣ .
- (٣) ابن عبد الرؤوف ، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٧ .
- (٤) رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٨ .
- (٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٤ .
- (٦) ابن عبد الرؤوف ، ص ٤٤ و ص ٤٧ .
- (٧) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٣ - السقطى ، ص ٤٩ .
- (٨) القنليات : جمع قنلبة ، وهو حيوان شبيه بالأرنب لحمه لذيق وفراؤه مرغوب فيه للمباس ، أنظر المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١/ ١٩٨ لمحاشية (٤) .
- (٩) ابن عبدون : ص ٤٣ .
- (١٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ - ٩٧ . وانظر ابن عبدون ص ٤٥ والسقطى ص ٥٠ .
- (١١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ .
- (١٢) مجصصة : أى مطلية بالجص (لسان العرب ، ج ٧ مادة جصص) .
- (١٣) فى آداب الحسبة ، ص ٥٠ - ٥١ - وانظر التجيبي : فضالة الخوان ص ٣١ .
- (١٤) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ .
- (١٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٨ .
- (١٦) فضالة الخوان ، ص ٣١ .
- (١٧) التيسير : ص ٤٩٩ .
- (١٨) ابن عبدون - القضاء والحسبة ، ص ٤٥ - السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٣ . والقدر المصصة أى : المطلية بالرخاص (لسان العرب ، مادة رصص) .
- (١٩) السقطى ، ص ٤٥ .
- (٢٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ - ٩١ .
- (٢١) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ .

- (٢٢) ابن عبد الرؤوف - رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٢ .
- (٢٣) الحنتم - نوع من الطين تصنع منه الأواني المزججه من الداخل . وفي لسان العرب : مادة حنتم أنه جرار خضر تضرب الى الحصرة .
- (٢٤) ابن عبدون ، ص ٤٢ - ٤٣ .
- (٢٥) السقطي : آداب الحسبة ، ص ٥٢ .
- (٢٦) ابن عبدون ، ص ٤٢ .
- (*) السرب حفير تحت الأرض ، أو قناة جوفاء يدخل منها الماء الحائط (لسان العرب - مادة سرب) .
- (٢٧) ابن عبدون : القضاء والحسبة ، ص ٣٧ . ابن عبد الرؤوف : رسالة في آداب الحسبة ، ص ١١٠ - الجرسيفي : رسالة في الحسبة ، ص ١٢٢ .
- (٢٨) عبد الرؤوف ، ص ١١١ .
- (٢٩) ابن عبدون : ص ٣٨ - ابن عبد الرؤوف : ص ١١١ - يوسف شكرى : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٠٢ .
- (٣٠) التيسير في مداواة والتدبير ، ص ١٤٠ .
- (٣١) الجرسيفي : رسالة في الحسبة ص ١٢٢ - ابن عبد الرؤوف : رسالة في آداب الحسبة ، ص ١١١ وانظر يوسف شكرى ، غرناطة في ظل بني الأحمر ص ١٠٢ .
- (٣٢) السقطي : آداب الحسبة ، ص ٨٣ .
- (٣٣) ابن عبد الرؤوف : في آداب الحسبة ، ص ٧٣ . انظر ص ١١١ .
- (٣٤) ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ، ص ٢٢ .
- (٣٥) السقطي ، ص ٨٤ .
- (٣٦) ابن عبدون ، ص ٢٣ .
- (٣٧) ابن عبدون ، ص ٢٤ .
- (٣٨) ابن عبدون ، ص ٢٤ .
- (٣٩) ص ٣٠ .
- (٤٠) ابن عبدون ، ص ٣٢ . رسالة في القضاء والحسبة ، ص ٢٢ .
- (٤١) ابن عبدون ، ص ٣٦ .
- (٤٢) ابن عبد الرؤوف ، ص ١١٣ .
- (٤٣) السقطي ، ص ٨٤ .
- (٤٤) ابن عبدون ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (*) ابن سعيد على بن موسى مؤرخ وأديب أندلسي له تأليف في تاريخ الأندلس كالمغرب في حلى المغرب والقدرح المعلى ت ١٢٨٥هـ / ١٢٨٦م .

- (٤٥) نفح الطيب ، ح ١ ، ص ٢٢٣ .
- (٤٦) ابن خلدون : حفظ الصحة ، المقالة الثالثة . ضمن كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، تأليف محمد العربي ح ٢ ، ص ٢٠ .
- (٤٧) التيسير ، ص ٩ - ١٠ .
- (٤٨) ابن غالب : فرحة النفس ، جزء من الكتاب المفقود . تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٦ .
- (٤٩) وردت في دائرة المعارف الإسلامية ، المسلخ والصحيح ما ذكرناه والمسلخ موضع خلع الثياب في الحمام من التشليح وهو خلع الثياب . وانظر تقسيمات الحمام في دائرة المعارف الإسلامية مادة : حمام .
- (٥٠) يوسف شكري : غرناطة ، ص ١٣٢ .
- (٥١) السقطي : في آداب الحسبة ، ص ٨٣ .
- (٥٢) ابن عبدون : رسالة القضاء والحسبة ، ص ٤٨ .
- (٥٣) حفظ الصحة : المقالة الثالثة . ضمن كتاب الطب والأطباء ، ح ٢ ، ص ٢٠ - ٢١ .
- (٥٤) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في ظل الحكم النصراني بعد سقوط المدن الأندلسية في أيدي الأسبان .
- (٥٥) حضارة الاسلام في اسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، ص ٤٧ - ٤٨ .
- (٥٦) لطفى عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، ص ٩٢ . نقلا عن النسخة الاسبانية من كتاب Americo Castro : Espana en su historia. P83.91
- (٥٧) يوسف شكري : غرناطة في ظل بني نصر ، ص ١٣٣ .
- (٥٨) لطفى عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- (٥٩) أمريكو كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٨ . يوسف شكري : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
- (٦٠) أمريكو كاسترو ، حضارة الاسلام في اسبانيا ص ٤٨ . وانظر لطفى عبد البديع . الاسلام في اسبانيا ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- (٦١) ابن زهر ، التيسير ، ص ٢٣ وما بعدها .
- (٦٢) نزهة المشتاق ، ج ٢ ، ص ٥٥٢ .
- (٦٣) التيسير ، ص ٢٤ - ٤٥ وفيها انظر وصفا كاملا للعلاجات والوصفات الطبية لمعالجة الاسنان وتنظيفها .
- (٦٤) فضالة الخوان في طبيايات الطعام والألوان ، ص ٢٧٧ وما بعدها وفيها تفصيل كل صفة وما تتكون منه من مواد عطرية وأعشاب .

- (٦٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .
- (٦٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٨ وأنظر أيضا الإشارة الى مدينة شلب ، ص ٥٤٣ .
- (٦٧) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج١ ، ص ١٣٥ .
- (٦٨) انظر الادريسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٥ . ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ - الحميرى . الروض المعطار ، ص ٤٥٦ وما بعدها ، ابن الشباط : قطعة فى وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ص ١٣٩ - ١٤٢ - ١٥٠ - ابن سعيد : الرب ، ج١ ، ص ٢٩٣ .
- (٦٩) انظر ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٧ .
- (٧٠) ابن حجاج ، المقنع فى الفلاحة ، ص ٩ .
- (٧١) التيسير ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .
- (٧٢) التيسير ، ص ٤٢١ . ونجد فى كتاب المقنع لابن حجاج وصف مواد لمكافحة الفئران والبراغيث والنمل والذباب والبق والبعوض وكثير من الحشرات .
- (٧٣) أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الاجانب مقال ، بمجلة أوراق (العدد الرابع ، ١٩٨١م ، ص ١٤٣) .
- (٧٤) قصة العرب فى اسبانيا ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (٧٥) محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات اندلسية ، (مقال منشور بمجلة الفيصل ، العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩ .
- (٧٦) الزجالى (أمثال العاوم) . تحقيق محمد بن شريفه . ق٢ ، ص ١٣ .
- (٧٧) المصدر والقسم نفسه ، ص ٢٥٥ ، ص ٤٢٦ .
- (٧٨) المصدر نفسه والقسم ، ص ٤٢٦ .
- (٧٩) ق٢ ، ص ٤١٨ .
- (٨٠) ق٢ ، ص ١١٥ .
- (٨١) ق٢ ، ص ١٤٤ .
- (٨٢) ق٢ ، ص ٢٦٨ .
- (٨٣) ق٢ ، ص ٣٤٦ .

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر :

- الأدريسى . محمد بن محمد (ق٦هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة
(د٠ت) .
- التجيبي . على بن محمد (ق٧هـ)
فضالة الخوان فى طبيبات الطعام والألوان . تحقيق محمد بن
شثرون دار المغرب الاسلامى . الرباط . ط الأولى ١٩٨٤م .
- الجرسيقى عمر بن عثمان (ق٦هـ)
رسالة فى الحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى
الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .
- ابن حجاج . أحمد بن محمد (ق ٥ هـ)
المقنع فى الفلاحة . تحقيق صلاح جرار ، جاسر أبو صافية .
مجمع اللغة العربية الاردنى ، ١٤٠٢هـ .
- الحميرى . محمد بن عبد المنعم (ت حوالى ٧١٠هـ)
الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة
ناصر للثقافة بيروت . ط الثانية ١٩٨٠م .
- ابن الخطيب . لسان الدين محمد (ت ٧٧٦هـ)
الاحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عنان . مكتبة الخانجى ،
القاهرة . ط الأولى ١٣٩٤هـ .
- ابن خلدون . محمد بن يوسف (ق ٧ هـ)
فصول من المقالة الثالثة من كتابه الأغذية وحفظ الصحة . منشورة
فى كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية لمحمد العربى ،
ج ٢ ، دار الغرب الاسلامى . بيروت ، ط الأولى ١٩٨٨م .

- الزجالى . عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤ هـ)
أمثال العوام . دراسة محمد بن شريفة . مطبعة محمد الخامس .
فاس ١٣٩١ هـ .
- ابن زهر . عبد الملك بن أبى العلاء (ت ٥٥٧ هـ)
التيسير فى المداواة والتدبير . تحقيق ميشيل الخورى . دار
الفكر . دمشق ط الأولى ١٤٠٣ هـ .
- ابن سعيد . على بن موسى (ت ٦٨٥ هـ)
المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . دار المعارف .
القاهرة ط الثالثة .
- السقطى . محمد بن أبى محمد (ق ٥ هـ)
فى آداب الحسبة . تحقيق د . حسن الزين . مؤسسة دار الفكر
الحديث . بيروت ١٤٠٧ هـ .
- ابن عبد الرؤوف . أحمد بن عبد الله (ق ٥ هـ)
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة
المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥ م .
- ابن عبدون . محمد بن أحمد (ق ٥ هـ)
رسالة فى القضاء والحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة
المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥ م .
- ابن غالب . محمد بن أيوب (ق ٦ هـ)
فرحة الأنفس . تحقيق لطفى عبد البديع . مجلة معهد المخطوطات
العربية . ج ١ الجزء الأول (٢٧٢ - ٣١٠) .

ثانيا : المراجع :

- امريكو كاسترو : حضارة الاسلام فى اسبانيا . ترجمة د . سليمان
العتار ، دار الثقافة . القاهرة ١٩٨٣ م .

- ستانلى لينبول . قصة العرب فى اسبانيا . ترجمة على الجارم
دار المعارف . مصر .
- لطفى عبد البريخ . الاسلام فى اسبانيا . مكتبة النهضة المصرية .
القاهرة ، ط ١٩٦٩م .
- يوسف شكرى . غرناطة فى ظل بنى الأحمر . المؤسسة الجامعية
للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ، ط الأولى .

ثالثا : المقالات :

- أحمد الطوخى . غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الأجانب
(مقالة منشورة بمجلة أوراق . المعهد الاسبانى العربى للثقافة) .
- محمد حامد منصور . ذكريات ومشاهدات أندلسية (مقالة منشورة
بمجلة الفيصل العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ) .
- دائرة المعارف الاسلامية . ترجمة أحمد الشنتناوى وآخرون . دار
الفكر ، ١٩٣٣م .

آل الجنابي بين الفاطميين والعباسيين

فى

القرنين الثالث والرابع للهجرة

د • يمنى رضوان (*)

دعوة الباطنية وآل الجنابي :-

آل الجنابي طائفة من الباطنية (=) • ومن المعروف أن الدعوة الباطنية قام بتأسيسها عدة أشخاص منهم ميمون بن ديسان (x) المعروف بالقداح ، وقد ادعى أنه من نسل عقيل بن أبى طالب • وعندما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض (١) والحولية (٢) ادعى أنه من أبناء محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، فاستجاب له كثير من الناس (٣) •

وقد ولى عبد الله بن ميمون القداح زعامة الدعوة بعد وفاة والده ، وعندما علم العباسيون بنشاطه أمروا بالقبض عليه ففر هو وزميل آخر يدعى الحسين الأهوازي الى سلمية (٤) واتخذها دار هجرة ومركزاً رئيسياً لهم يرسلون منها الدعاة لنشر دعوتهم فى أنحاء العالم الاسلامى (٥) • وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ولى ابنه أحمد زعامة الدعوة وقام بارسال الداعى الحسين الأهوازي عام ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) الى العراق حيث التقى بحمدان بن الاشعث (٦) قرمط (٧) - الذى تنسب اليه القرامطة ويعتبر مؤسس الدعوة الاسماعيلية بين القرامطة (٨) - وافضى اليه بأسرار الدعوة بعد أن أخذ عليه العهد ، - والعهد هو القسم - بأن يجعل للحسين الأهوازي وللإمام على نفسه عهد الله وميثاقه بأن لا يخرج سر الإمام الذى علمه • ولا يفشى سر الحسين الأهوازي (٩) • وقد ترك الحسين الأهوازي أمر الدعوة فى سواد العراق

(*) مدرس التاريخ الاسلامى - كلية التربية - جامعة القاهرة - فرع الفيوم •

الى حمدان قرمط ، الذى تمكن من بث دعائه فى السواد ليأخذ على الناس العهد ، فانتشرت الدعوة الاسماعيلية بفضل انتشارا كبيرا (١٠) .

وكان من دعاة حمدان صهره عبدان (١١) ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر (١٢) وممن استجاب اليه فى دعوته ابو سعيد (١٣) الجنابى (١٤) الذى أسس دولة للقرامطة فى بلاد البحرين (١٥) وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال أى شمال غرب بلاد العراق وبادية السماوة (١٦) وبعض بلاد الشام (١٧) .

وعندما تمكن حمدان من احكام السيطرة على اتباعه حل لهم ترك الفرائض، مؤكدا أنهم غير مطالبين بالصوم والصلاة وغير ذلك من أركان الدين، وأن أموال ودماء المخالفين لهم أصبحت مباحة لهم ؛ ومعرفة صاحب الحق - الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الذى يدعو اليه - تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى . وهذا الامام لم يمت ، وهو المهدي المنتظر الذى سوف يظهر فى آخر الزمان (١٨) .

وكان حمدان بن الأشعث قرمط يرسل دعاة الفاطميين بسلمية . ولكنه لاحظ تغييرا فى أسلوب الرسائل التى كان يرسلها اليه رئيس الدعوة فى سلمية . وعندما أرسل عبدان ليستكشف له الأمر، وجد أن الشخص الذى كانوا يرسلونه وهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح قد توفى وخلفه ابنه الحسين ، فسأل عبدان الحسين عن الامام الذى يدعو اليه ، فسأله الحسين بتعجب ومن هو الامام ؟ فقال عبدان أنه محمد بن اسماعيل (١٩) بن جعفر الذى دعا له أحمد بن عبد الله وكان حجته ، فأنكر الحسين ذلك وقال (ان الامام كان والدى وأنا الآن أحل محله) .

استنكر حمدان أن يتولى الحجة رتبة الامام ، وبالأصح ان يتولى الامامة شخص لا يمت الى العلويين بصلة . ولذلك أمر حمدان دعائه بإيقاف الدعوة فى المناطق التابعة له ، لكنه لم يستطع إيقافها فى الأماكن الأخرى ، فقد تسربت الدعوة وامتدت الى سائر الأقطار (٢٠) .

وسرعان ما اختفى حمدان قرمط وقتل عبدان لانتفاضهما على

رياسة الدعوة وعلى ابناء القдах (٢١) . وكان لانفصال حمدان عن الدعوة عدة نتائج منها انقطاع العلاقات بين دعاة الفاطميين فى الشام - سلمية - ، والقرامطة ، بعد أن كانت الدعوتان متفقتين (٢٢) ، كما ان دعوة القرامطة خمدت فى العراق وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه بن مهرويه الدندانى ، ونحو الجنوب على يد أبى سعيد الجنابى (٢٣) .

تأسيس دولة آل الجنابى فى بلاد البحرين :

وكان أن لاقت الدعوة الاسماعيلية على يد حمدان بن الأشعث - الملقب بلقب قرمط - وصهره عبدان الكثير من النجاح واستجاب لها الكثير من الناس منهم أبو سعيد الجنابى الذى أسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين .

وكان عبدان صهر حمدان قد أرسل أبى سعيد الجنابى - أحد دعاة القرامطة - الى جنوب ايران ، فانتشرت تعاليمه بنجاح كبير ، لكنه سرعان ما اختفى عندما اكتشفت الشرطه أمره وأخذت تبحث عنه ، فاستدعاه حمدان قرمط ثم أرسله الى البحرين لينشر دعوته هناك ، فأحرز نجاحا كبيرا (٢٤) حتى تمكن من الاستيلاء على بلاد البحرين (٢٥) .

ومن الواضح أن المؤرخين لم يتفقوا على السنة التى ظهرت فيها دعوة القرامطة فى البحرين ، فالبعض يقول ان ذلك كان عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) مثل ابن خلدون (٢٦) وآخرون (٢٧) يقولون ان ذلك كان عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) مثل الطبرى (٢٨) وابن الجوزى (٢٩) وابن الأثير (٣٠) وأبى المحاسن (٣١) .

ويبدو أن كلا الرايين على صواب ، فالدعوة أخذت طريقها الى البحرين منذ عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) ، ثم ظهرت وانتشرت وأسس القرامطة دولة لهم بالبحرين منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) .

وعندما قام أبو سعيد الجنابى بنشر دعوته فى بلاد البحرين (٣٢) ، دعا الى امام من أهل البيت ، قيل انه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل انه محمد بن الحنفية (٣٣) . وكان أبو سعيد يدعى أنه

ينتسب الى العلويين ، كما ادعى أنه المهدي القائم بدين الله حتى يجذب الناس (٣٤) ، فتقبل الأهالي دعوته وخاصة الاعراب الذين أسرعوا بالانضمام اليه والالتفاف حوله (٣٥) ، لأنه خفف عنهم الفرائض ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحا ومساء ، وأعفاهم من صوم رمضان . ولذا أحب البدو أبا سعيد وأكبروه وعظموه ، وقالوا أنه الامام المنتظر بعينه (٣٦) .

ومما هو جدير بالذكر ان انضمام الاعراب الى ابي سعيد لم يكن ناتجا عن ايمانهم بدعوته وانما سعيًا وراء مصلحتهم الخاصة ، والسماح لهم بالسلب والنهب (٣٧) .

والواقع ان هناك ظروفًا كثيرة وعوامل عديدة ساعدت على انتشار دعوة القرامطة في الشرق الاسلامي، منها حالة الضعف التي اتصفت بها الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وازدياد نفوذ الاتراك واستبدادهم بأمور الخلافة، وانشغال الخلفاء العباسيين في أواخر القرن الثالث الهجري بالقضاء على الفتن والثورات التي أثارها الاتراك والتي أثارها صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣م) (٣٨) . هذا الى أن المشرق الاسلامي تميز في ذلك الدور بسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فازدادت الضرائب وتعسف الجباة في جبايتها . يضاف الى ما سبق انتشار الفقر وزيادة ظلم الملاك للفلاحين ، وغير ذلك . وقد استفادت الحركة القرامطية من تلك العوامل وجذبت اليها الساخطين والمتذمرين ووعدتهم باجابة مطالبهم ، فالتف حولها الكثير (٣٩) . ومما ساعد على انتشار دعوة القرامطة تقسيم الدعوة الى درجات مبسطة حتى يسهل فهمها وجذب الناس اليها (٤٠) ومن الواضح أن طبقة العامة لم تكن على درجة كافية من الوعي والثقافة تجعلها تستطيع ان تكتشف مدى صدق هذه الدعوة (٤١) . هذا الى أن العناصر غير العربية - وبخاصة الفرس - كان هدفها القضاء على سيادة العرب ، اذ كان الموالي يحققون على العرب وعلى ما يتمتعون به من سيادة دينية وسياسية ، لذلك شايعوا اية حركة ثورية للقضاء على نفوذهم (٤٢) . وهناك بعض اسر عربية في منطقة السواد استجابت لدعوة القرامطة مثل أسرة آل سنبر التي اجابت الحسن بن بهرام الجنابي الى دعوته (٤٣) .

وهكذا اشتدت شوكة أبى سعيد بمن انضم اليه ، فأخذ يقتل أهالى القرى المجاورة الذين رفضوا تلبية دعوته ، واتجه نحو القطيف (٤٤) حيث قتل من بها من الأهالى . ولم يمتنع على أبى سعيد سوى هجر - عاصمة البحرين . وفى سنة ٢٨٧هـ (٩٠٠م) أغار قرامطة البحرين على هجر وحاصرها أبو سعيد لمدة سنتين (٤٥) . وخلال هذا الحصار أخذ القرامطة يقتربون من البصرة (٤٦) ، فأرسل أحمد بن محمد بن يحيى الوائقى - معاون البصرة وكور دجلة الى بغداد بأمر القرامطة ، وشرع فى بناء سور حول البصرة للدفاع عنها (٤٧) . وعندما سمع الخليفة العباسى المعتضد (٤٨) (٢٧٩ : ٢٨٩هـ / ٨٩٢ : ٩٠١م) بأمر القرامطة ، أسرع بارسال جيش كبير من البصرة بقيادة العباس بن عمرو الغنوى - بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين - والتقى العباس بن عمرو بأبى سعيد الجنابى عام ٢٨٩هـ (٩٠١م) عند هجر ، واستمر القتال بينهما طوال يومين انتهى بنجاح أبى سعيد فى هزيمة العباس واسره وقتل جميع من كان معه ، ثم حرقهم بالنار واستولى على ما معهم (٤٩) .

على أن أبى سعيد الجنابى اطلق سراح العباس بن عمرو الغنوى وأرسل معه رسالة ليسلمها الى الخليفة المعتضد (٥٠) . وقد اختلف المؤرخون فى أمر هذه الرسالة ، فالبعض (٥١) ذكر ان الرسالة لم تكن قد دون بها شئ . وعندما تسلم المعتضد الرسالة ولم يجد بها شيئاً غال أنه يعنى من هذه الرسالة اننى ارسلتك اليه على رأس جيش كبير العدد فردك بمفردك . والبعض (٥٢) الآخر ذكر ان أبى سعيد عندما أطلق سراح العباس اعطاه رسالة ليسلمها الى المعتضد يأمره فيها أن يكف عن ارسال الجيوش اليه ، كما أنه هددته بأنه سيتغلب على أى حملة يرسلها ويبيدها ، مثلما فعل مع العباس بن عمرو . وهذا يدلنا على مدى ثقة أبى سعيد بنفسه وامتلاكه عناصر كثيرة من القوة مما هيا له النجاح ، حتى امتلك مدينة هجر بعد أن منح أهلها الأمان (٥٣) وبذلك بسط نفوذه على البحرين والأحساء (٥٤) واليمامة (٥٥) .

سياسة آل الجنابى تجاه الفاطميين :

اتصفت العلاقة بين أبى سعيد وبين الخلافة الفاطمية الناشئة

بافتور ؛ لأن أبا سعيد كان أشبه بملك مستقل وليس تابعا للدولة الفاطمية .
ولذا لم يتقيد فى سياسيته بآراء زعماء الدعوة الاسماعيلية ، وانما كان
صريحا فى نشر آراء المذهب الاسماعيلى . ذلك أن المجتمع القرمطى كان
مجتمعا اسماعيليا بحتا - وذلك على عكس سياسة الفاطميين التى قامت
باخفاء آراء هذا المذهب عن رعاياهم .

وكان آل الجنبابى يخضعون فى دور الستر لرياسة الدعوة فى
سلمية . غير أن هذا الخضوع فتر قليلا ، فعز على زعمائهم أن يسلبوا
بعض نفوذهم نظرا لظهور الامام المستور فى شخص عبید الله المهدي
الفاطمى ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ (٩٠٩ - ٩٣٣ م) ، ولذلك لم يعد أبو سعيد
الحسن يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للامامة المستورة .

ولما ادرك الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م)
ووزيره على بن عيسى فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين ، ومدى
الخطر الذى ستتعرض له الخلافة العباسية اذا اتحد أبو سعيد الجنبابى
وعبيد الله الفاطمى ، عملا على جذب أبى سعيد اليهما . ومما يدل على
التقارب بين أبى سعيد والعباسيين أنه لم يمد يد العون والمساعدة للفاطميين
خلال حملتهم على مصر عام ٣٠١ - ٣٠٢ هـ / ٩١٣ ، ٩١٤ م مما ساعد على
فشل تلك الحملة (٥٦) .

على أنه يبدو أن فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين كان من
أهم العوامل التى أدت الى قتله . ويقال أنه كان لدى أبى سعيد خادم
صقلبى قام بقتل سيده بايعاز من الخليفة عبید الله المهدي الذى شعر
بخروجه عن سياسته (٥٧) وكذلك يقال ان هذا الخادم لاحظ أن سيده
لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، لذلك قام باغتياله فى الأحساء عام
٣٠١ هـ (٥٨) (٩١٣ م) .

ولم يتوقف الفتور بين آل الجنبابى والفاطميين بموت أبى سعيد
الجنبابى ، وانما استمرت الجفوة فى عهد ابنه أبى القاسم سعيد ٣٠١ -
٣٠٥ هـ (٩١٣ - ٩١٧ م) - الذى آلت اليه زعامة آل الجنبابى . ذلك أن

أبا القاسم سار على سياسة أبيه في التقرب إلى العباسيين والتباعد عن الفاطميين . ومما يدل على ذلك الرسالة التي أرسلها أبو القاسم سعيد إلى على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسي والتي أعلن فيها ولاءه للعباسيين وأنه يدين بالعقائد السنية . هذا إلى أن أبا القاسم سعيد ولى الحكم بالوراثة - فقد عهد إليه أبوه بذلك قبل وفاته - ولم يتم تعيينه من قبل الفاطميين . ولا شك في أن هذا الاتجاه أثار الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي الذي كان يعمل لتكون له الزعامة المطلقة على جميع الاسماعيلية .

على أن القرامطة انقسموا إلى فريقين ، فريق يناصر سعيد ، وهذا الفريق كان قليل العدد . وفريق ظل على ولائه للفاطميين ، وكان يضم أبا طاهر سليمان أخى أبى القاسم سعيد . وهؤلاء كانوا أكثره (٥٩) ، لذلك عملوا على عزل أبى القاسم سعيد عن الزعامة ثم قتله وقام الفاطميون بتولية أخيه أبى طاهر سليمان عام ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، وأرسل عبيد الله المهدي كتابا إليه بتوليته (٦٠) .

وهكذا نجح الخليفة الفاطمي في ادخال آل الجنابي دائرة التبعية للدولة الفاطمية .

والواقع أن علاقة الفاطميين في بلاد المغرب بآل الجنابي في بلاد البحرين غدت طيبة منذ أن ولى أبو طاهر عام ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) وحتى نهاية حكمه عام ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) . ذلك أن أبا طاهر سليمان التزم بتبعيته الفاطميين ، وشايعهم في سياستهم التي تهدف إلى القضاء على الخلافة العباسية ، ولهذا تحالف مع عبيد الله المهدي في سياسته العدائية ضد العباسيين ، واتفقا على اتباع سياسة موحدة من ثلاث شعب : -

الأمر الأول : هو أن يساعد أبو طاهر الفاطميين في فتح مصر وذلك بأن يشن هجوما عليها من الشرق ليلتقى بجيوش عبيد الله بها ، أو أن يعمل الحيلة على الخلافة العباسية حتى لا تستطيع إرسال جيوشها لنجدة مصر .

الأمر الثانى : هو ان يشغل العباسيين بالهجوم عليهم فى بلاد العراق حتى يتمكن عبيد الله المهدي من تنظيم شئون المغرب .

الأمر الثالث : الاغارة على مكة وعلى قوافل الحجاج حتى يقلل هذا من هيبة الخليفة العباسى كزعيم للمسلمين .

وفيما يختص بالأمر الأول اتفق الفاطميون مع القرامطة عام ٣٠٧ هـ (٩١٩م) على القيام بهجوم مزدوج على مصر بحيث تهاجمها جيوش القرامطة من الشرق وجيوش الفاطميين من الغرب ويلتقى الطرفان فى مصر . ولكن هذه الخطة فشلت ، اذ أسرعت الخلافة العباسية بإرسال الجيوش من بغداد الى مصر بقيادة مؤنس الخادم ، الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش أبى القاسم بن المهدي قبل ان تصل اليه جيوش أبى طاهر . وبذلك فشلت الحملة الفاطمية الثانية على مصر ، ولكنها رغم فشلها أثبتت ولاء أبى طاهر للفاطميين كما أنها ألفت الرعب فى قلوب أهالى البلاد (٦١) .

آل الجنابى والخلافة العباسية :

أما بالنسبة للأمر الثانى فنلاحظ ان أبا طاهر سليمان شن عدة حملات على الخلافة العباسية فى المشرق ، حتى يتمكن عبيد الله المهدي من بسط نفوذه على المغرب ، فقام بعدة غزوات متتالية للاستيلاء على البصرة . من ذلك أنه سار الى البصرة عام ٣٠٧ هـ (٩١٩م) واستولى على خيراتها وقتل أهلها وخرب أراضيتها (٦٢) . وفى عام ٣١١ هـ (٩٢٣م) تمكن من دخول البصرة وقتل أهلها وحاميتها وأميرها المسمى سبكا المقلجى ، واستولى على أموالها وضرب جامعها وأراضيتها . ومكث فيها سبعة عشر يوما ثم عاد الى بلده . وتعتبر هذه من أشد الغزوات التى قام بها على البصرة .

ومن ناحية أخرى فانه اعترض احدى قوافل الحجاج عام ٣١٢ هـ (٩٢٤م) أثناء عودتها من مكة ، واستولى على ما مع الحجاج وأسّر الكثير منهم وقتل الأسرى (٦٣) .

وعندما علم بقية الحجاج بما حدث للقافلة السابقة مكثوا في فيد (٦٤) حتى نفذت مؤنتهم، فأسرعوا عائدين الى طريق الكوفة، وعندئذ اعترضهم القرامطة واستولوا على ما معهم . ثم عاد أبو طاهر ومن معه الى هجر، وترك الحجاج مشردين في البادية فمات أكثرهم عطشا من شدة حرارة الشمس .

ولما أرسل الخليفة المقتدر الى أبي طاهر يطلب منه أن يطلق سراح أسرى الحجاج، أطلقهم وطلب منهم ابلاغ الخليفة برغبته في تولي البصرة والأهواز. غير أن الخليفة رفض ، فخرج أبو طاهر من هجر واعترض الحجاج (٦٥) - الذين كان يتزعمهم جعفر بن ورقاء الشيباني ، متولى اعمال الكوفة وطريق مكة . وكان يقوم بحمايتهم قادة الجيش - فقاتلهم وأخذ يتبع القافلة حتى باب الكوفة وانهزم عساكر الخليفة ولم يتم الحج لأحد (٦٦) . وتمكن أبو طاهر بذلك من دخول الكوفة عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) وخربها وفعل بها أشد مما فعله بالبصرة، واستولى على أموالها وقتل أهلها ، وظل بها ستة أيام ثم عاد الى هجر (٦٧) .

وفي عام ٣١٥هـ (٩٢٧م) توجه أبو طاهر لمحاربة يوسف بن أبي الساج الذي كان بواسط. حيث أرسله الخليفة العباسي لمحاربة القرمطي . ولكنه لم يستطع المسير الى بلدة أبي طاهر أمير القرامطة لكثرة جيوشه وصعوبة الأرض ، فلجأ الى الحيلة وأرسل اليه وأظهر له المودة « وأطمعه في أخذ بغداد » فسر بذلك ورحل ومعه أتباعه وحاشيته وجيشه في كامل عدته واتجه نحو الكوفة . وكان يوسف بن أبي الساج قد اتجه بجيشه من واسط الى الكوفة، ولكن أبا طاهر سبقه اليها واستولى على الكوفة وعلى المؤن التي كانت بها والتي أعدت لأبن أبي الساج (٦٨) . وكان أن نشب القتال بين أبي طاهر ويوسف بن أبي الساج حتى تمكن الأول من هزيمة القائد العباسي ابن أبي الساج وأسر (٦٩) .

وهكذا ازداد نفوذ أبي طاهر القرمطي حتى شرع في مهاجمة بغداد في عام ٣١٦هـ (٩٢٨م) . وكاد يستولى عليها لولا مهارة مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسي الذي أرسل القوارب المليئة بالفاكهة المسمومة الى جند (مجلة المؤرخ العربي)

القرامطة ، فكثرت الميتة فيهم (٧٠) . كذلك قطع القنطرة التي توصل الى هذه المدينة ليحول دون تحقيق هدفهم في السيطرة على بغداد . وبذلك انهزم جيش القرامطة بقيادة ابي طاهر وتكبد خسائر فادحة (٧١) .

وعلى الرغم من هزيمة ابي طاهر أمام بغداد ، الا أنه ظل يأمل في السيطرة عليها والدعوة فيها للمهدى الفاطمي .

وفي عام ٣١٦ هـ (٩٢٨م) تمكن ابو طاهر من بسط نفوذه على الرحبة (٧٢) بعد أن دارت بينه وبين أهلها عدة حروب . وعندما علم بهذا أهل قرقيسيا (٧٣) أسرعوا بطلب الأمان منه ، فمنحهم الأمان . وبعد ذلك اتجه نحو الرقة وبسط نفوذه عليها ، ثم عاد الى بلاد البحرين وبنى بها دار هجرة (٧٤) .

وكان من نتائج انتصار القرامطة ان ظهرت اعداء ممن كانوا يدينون بمذهبهم ويخفون عقيدتهم . وقد اجتمع هؤلاء في سواد الكوفة واختاروا رئيسا لهم هو حريث بن مسعود ، كما اجتمعت مجموعة أخرى من القرامطة في عين القمر (٧٥) وولوا شئونهم رجلا يعرف بعيسى وأخذوا ينهبون ويقتلون . وقد أرسل الخليفة المقتدر العباسي هارون بن غريب الى حريث بن مسعود ، وصافيا البصري الى عيسى بن موسى . وتمكن كل من هارون وصافيا من هزيمة تلك الجموع وأسر كثير منهم ، وتم ارسالهم الى بغداد حيث قتل معظمهم (٧٦) .

وهكذا استمر ابو طاهر بن ابي سعيد الجنابي يغير على البلاد ويسلب ويقتل ويخرب ، حتى قوافل الحجاج لم تسلم من شره . وكان يهدف من وراء هذا كله أن يؤكد اخلاصه للفاطميين وأن يشغل العباسيين بهذه الحروب حتى يتمكن عبيد الله المهدى من توطيد نفوذه في المغرب .

وفي عام ٣١٧ هـ (٩٢٩م) قام القرامطة بفعلة شنعاء ، اذ اقتحموا مكة وهي مكتظة بالحجاج ، واستطاع ابو طاهر سليمان (٧٧) أن ينفذ الى المسجد الحرام في يوم الترويه (٧٨) حيث فعل أفعالا لا يفعلها المشركون ولا اليهود بمكة (٧٩) .

ذلك أنه قام بذبح الحجاج أثناء وجودهم بالمسجد الحرام وأثناء طوافهم ، وخلال سيرهم فى طرقات مكة دون أن يراعى حرمة هذا البلد الأمين ، كما قتل الكثير من عساكر المسلمين . وعندما خرج إليه ابن مجلب (٨٠) أمير مكة ومعه بعض الاشراف لمحاربتة ، تمكن أبو طاهر من هزيمتهم وقتلهم جميعا ، وردم بئر زمزم بجثثهم ، كما دفن الباقين فى المسجد الحرام دون أن يكفنهم أو يصلى عليهم (٨١) وقيل ان الجنابى استملك من النساء والغلمان اعدادا ضخمة ضاق بهم الفضاء وأنه قتل بمكة ألفا (٨٢) ، بلغوا ثلاثة عشر ألفا .

ويقال أن أبا طاهر جلس يوم الترويه على باب الكعبة يشاهد الحجاج وهم يتساقطون صرعى حوله وأخذ ينشد (٨٣) :

أنا لله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا .

وبعد ذلك قام ومن معه بنهب أموال الحجاج وسلب متاع أهل مكة وقلع قبة بئر زمزم وقلع باب الكعبة وستائرهما ، وأرسل رجلا من أصحابه ليصعد ويقلع الميزاب (الميزاب) ، ولكنه وقع على رأسه ومات . ثم قام بقلع كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه . ولم يكتف بهذا بل تجرأ واقتلع الحجر الأسود ، كما أقام الخطبة فى مكة للخليفة الفاطمى عبيد الله المهدي بدلا من الخليفة العباسى المقتدر (٨٤) .

قيل أنه أثناء قيامه بهذه الأفعال البشعة أخذ يردد : -

فلو كان هذا البيت لله ربنا	لصب علينا النار من فوقنا صيا
لأنا حججنا حجة جاهلية	مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفاء	كتائب لا تبغى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله	فلم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا

وبعد أن ظل أبو طاهر (٨٥) فى مكة أحد عشر يوما ، عاد انى الأحساء ومعه الحجر الأسود والأسرى وما سلبه من مكة (٨٦) . وقد استمر الحجر الأسود فى حوزة القرامطة بالبحرين اثنتين وعشرين سنة

تقريباً من ٣١٧ - ٣٣٩ هـ (٩٢٩ - ٩٥٠ م) (٨٧) وعندما عاد أبو طاهر الى بلده ابتلاه الله بمرض الجدرى، وتقطع جسده وهو ينظر اليه (٨٨) .

ومن الواضح أنه لم يأخذ الحجر الأسود من مكة سعياً وراء المال . ذلك أن بجكم والى بغداد - فى أيام الخليفة العباسى المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م) بذل للقرامطة خمسين ألف دينار من الذهب لى يردوا الحجر الأسود، لكنهم رفضوا (٨٩) . وانما كان الهدف طعن الخلافة العباسية واظهار ضعفها أمام المسلمين وعجزها عن حماية الحجاج . هذا بالإضافة الى رغبة القرامطة فى جذب المسلمين للحج الى بلادهم بدلا من مكة (٩٠) . ويتضح لنا ذلك من أخذهم الحجر الأسود الى بلادهم (٩٠) . ولكن على الرغم من أن الحجر الأسود ظل فى البحرين اثنتين وعشرين سنة ٣١٧ - ٣٣٩ هـ (٩٢٩ - ٩٥٠ م) (٩١) الا أن أحدا من المسلمين (٩٢) لم يتردد على بلاد القرامطة لزيارته .

وكان من نتائج هذه الحادثة - ان اعتنق ضعاف العقيدة من أهالى العراق مذهب أبى طاهر بعد أن افقتنوا به (٩٣) . هذا الى أن هذا الحادث أظهر فعلا مدى ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية الحجاج ورعاية المسلمين ، وهذا هو ما كان يستهدفه القرامطة والفاطيون (٩٤) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان عبيد الله المهدي عندما علم بما قام به أبو طاهر أسرع بارسال رسالة (٩٥) اليه يهدده ويوبخه لما فعله (٩٦) . واذا صح ذلك فاننا نرى أن هدف الخليفة الفاطمى تبرئة نفسه من تلك الجريمة التى اهتز لها العالم الاسلامى بأسره .

ولم يكن هذا هو كل ما قام به أبو طاهر ، فبعد أن هاجم مكة وبسط نفوذه عليها وأقام الخطبة فيها لعبيد الله المهدي ، فرض على الحجاج اتاوة عام ٣٢٧ هـ ٩٣٨ م يدفعونها اليه مقابل عدم التعرض لهم . وكان الحج قد توقف منذ سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) فلم يحج أحد من العراق - خوفا من القرامطة - الا بعد عشر سنين تقريبا عندما أرسل أبو على عمر بن يحيى العلوى الى أبى طاهر القرمطى وطلب منه ان لا يتعرض

للحجاج مقابل أن يعطيه عن كل حمل خمسة دنانير ، فوافق وأدى الناس فريضة الحج ذلك العام » وتعتبر هذه أول سنة أخذ فيه المكس من الحجاج» (٩٧) .

اضطراب العلاقة بين الفاطميين وآل الجنبى :

أستمر أبو طاهر سليمان الجنبى على إخلاصه للفاطميين حتى توفى عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) بمرض الجدري كما سبق أن أشرنا . ولم يترك رغم كثرة أبنائه من يصلح للحكم، فقد كان سابور بن أبى طاهر أكبر أبنائه العشرة لا يزال طفلا لا يمكن الاعتماد عليه . لذلك قام الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ / ٩٣٣ - ٩٤٥م) بتعيين - أخى أبى طاهر - أحمد بن أبى سعيد (٩٨) الملقب بأبى المنصور فى حكم دولة آل الجنبى فى البحرين ، وجعل سابور بن أبى طاهر وليا للعهد (٩٩) .

وقد اتبع أمير القرامطة أحمد بن سعيد (٣٣٢ - ٣٥٩ هـ) (٩٤٣ - ٩٦٩م) سياسة أخيه فى ولائه للفاطميين ، فأعاد الحجر الأسود من الأحساء الى الكعبة عام ٣٣٩هـ (٩٥٠م) خلال خلافة الخليفة المطيع (١٠٠) بدون مقابل (١٠١) ، وقال من ردوه « أخذناه بأمر وأعدناه بأمر » . ومن هذا يبدو أن أحمد بن أبى سعيد رد الحجر الأسود عندما أمره بذلك الخليفة المنصور الفاطمى ، مما يدل على مدى خضوع قرامطة البحرين للفاطميين . ولما شرع آل الجنبى فى رد الحجر الأسود حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعة حتى رآه الناس ثم حملوه الى مكة (١٠٢) .

وكان أبو منصور أحمد يفضل أن يتولى العهد من بعده ابنه « الحسن الأعصم » بدلا من « سابور » ابن أخيه . لذلك نشب النزاع بين بيت أحمد بن أبى سعيد والد الحسن وبيت أبى طاهر بن أبى سعيد ، فقام سابور بالقبض على عمه أبى منصور أحمد عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ، ولكن سرعان ما خرج أبو منصور أحمد من معتقله وقتل سابور بن أبى طاهر عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ونفى أخوته وأتباعه الى جزيرة أوال (١٠٣) .

وقد ظهر عدااء آل الجنبى الصريح للفاطميين بعد قتل سابور ،
اذ أدى قتله الى قيام النزاع بين آل الجنبى والفاطميين فترة من الزمن ،
لأن الفاطميين قاموا بتولية سابور العهد بعد عمه أحمد واعتبروا قتله
خروجاً على طاعتهم (١٠٤) ، وعلى القاعدة التى وضعوها منذ عهد
عبيد الله المهدي الفاطمي وهى القاعدة التى تهدف الى جعل الخليفة
الفاطمي هو المتحكم فى تعيين رؤساء القرامطة أو عزلهم (١٠٥) .

ومما زاد الفاطميين حنقا على بيت أحمد بن أبى سعيد أن آل الجنبى
جنحوا نحو الاستقلال عن الفاطميين والتصرف دون الرجوع لهم (١٠٦) .
بعد أن كانوا لا يحاربون الا بوحى من الفاطميين . من ذلك أن القرامطة
أغاروا فى عهد أميرهم أحمد بن أبى سعيد مرتين على بلاد الشام فى
زمن الأخشيديين ، وذلك فى عامى ٣٥٣ هـ ، ٣٥٧ هـ (٩٦٤م ، ٩٦٧م) . وفى
الحملة الأولى التى تعرف بحملة طبرية عام ٣٥٣ هـ (٩٦٤م) تمكن
القرامطة - وعلى رأسهم الحسن الأعصم - بمساعدة الحمدانيين - من
الانتصار على والى الأخشىدى الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشىدى
الذى كان يتولى الشام من قبل الأخشيديين (١٠٧) . وفى المرة الثانية
عجز الأخشيديون أيضا عن صد حملة القرامطة على دمشق ، وبذلك امتد
نفوذ قرامطة البحرين على بلاد الشام ، وتمكنوا من بسط نفوذهم على
الرملة ، مما اضطر الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشىدى الى أن يتفق معهم ،
على أن يدفع لهم ثلاثمائة ألف دينار سنويا . وقد أبرموا هذا الاتفاق دون
الرجوع للفاطميين ، فاعتبر الفاطميون هذا خروجاً على رئاسة الدعوة
الاسماعيلية (١٠٨) . وهكذا بدا أن القرامطة أخذوا يعملون لحسابهم
الخاص دون التقيد بزعامه الفاطميين .

على أنه نجم عن مقتل سابور واتفاق القرامطة مع الأخشيديين على
الاتاة دون الرجوع للفاطميين انقسام القرامطة الى فريقين أحدهما
بزعامه بيت أبى طاهر ظل على ولائه للفاطميين ، والآخر بزعامه بيت
أحمد بن أبى سعيد وكان يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب الى
العباسيين . وكان على رأس الفريق الأخير الحسن الأعصم الذى ولى إمارة
بلاد البحرين (٣٥٩ - ٣٦٧ هـ / ٩٦٩ - ٩٧٧ م) بعد وفاة أبيه .

فى ضوء هذه الاحداث صار لابد من قيام حرب بين القرامطة المعارضين والفاطميين . وقد حدث عندما مات أحمد بن أبى سعيد أن استبد ابنه الحسن الأعصم بالحكم واتبع سياسة جديدة تجاه الفاطميين تخالف سياسة الود التى اتبعها من سبقه ، اذ أخذ يعمل على التقرب من العباسيين (١٠٩) . من ذلك أنه عندما كان الحسن الأعصم بمكة سمع الخطبة تقام للخليفة العباسى المطيع فلم يعترض عليها . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١١٠) « وولى ابنه أبو على الحسن بن أحمد ويلقب الأعصم وقيل الاغنم ، فطالت مدته وعظمت وقائعه ونفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر . يقال اجتمع منهم بجزيرة آوال نحو من ثلثمائة . وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحج ولا انكر الخطبة للمطيع » . وفى هذا ما يؤكد انحياز الأعصم للعباسيين وابتعاده عن الفاطميين .

والواقع أن هناك عوامل عديدة أدت الى توتر العلاقات ونشوب الحروب بين آل الجنبابى والفاطميين فى عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) ، منها تدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥م) فى شئون القرامطة الداخلية ، وقتل سابور على يد أحمد بن أبى سعيد ، واستبداد الحسن الأعصم بزعمامة القرامطة دون الرجوع الى الفاطميين الذين كانوا يتحكمون فى تعيين الدعاة . ومن أهم هذه العوامل أيضا أن الفاطميين عندما فتحوا دمشق عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) - كما سيأتى - رفضوا دفع الاتاوة السنوية التى كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة (١١١) . ويجرنا هذا الى الحديث عن النزاع بين آل الجنبابى والفاطميين حول بلاد الشام ومصر . ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى رأى ضرورة فتح مصر حتى يتمكن من تحقيق آماله فى ضرب الخلافة العباسية واسقاطها . وربما كان من أهداف الخليفة المعز أيضا تأديب القرامطة ، بدليل أن جوهر الصقلى اعلن فى كتاب الأمان الذى قرأه على المصريين أن المعز أرسله لكى ينقذهم من ظلم العباسيين ويصد عنهم أخطار القرامطة الذين غزوا بلاد الشام عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) ، ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وتعرضوا للحجاج ومنعواهم من أداء فريضة الحج (١١٢) .

وفى هذا البيان ما يدل على أن توتر العلاقات بين الفاطميين

والقرامطة بدأ قبل استيلاء الفاطميين على دمشق ومنعهم الاتاوة عن القرامطة .

وقد حتمت الضرورة على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يتجهوا لفتح الشام حتى يؤمنوا حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، ولكي يقضوا على القرامطة الذين أخذوا ينتهجون سياسة جديدة تجاه الفاطميين (١١٣) .

لذلك أرسل جوهر الصقلى القائد جعفر بن فلاح الكتامى على رأس قوة لفتح بلاد الشام فى أواخر عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) فنجح فى بسط نفوذه على بلاد الشام واستولى على الرملة وطبرية ودمشق . ولكنه ترك لجنوده كامل الحرية فى معاملة الأهالى دون ضبط أو ربط فعاملوهم معاملة سيئة ، مما اثار سخط الناس عليه وعلى الفاطميين الذين كانوا يخالفونهم فى المذهب الدينى (١١٤) .

ولكن جعفر بن فلاح سرعان ما واجه خطر قرامطة البحرين بعد استيلائه على بلاد الشام . وكان هؤلاء القرامطة قد بسطوا نفوذهم على بلاد الشام عام ٣٥٧هـ (٩٦٧م) . وعندما طلب الحسن الأعصم من جعفر بن فلاح دفع الاتاوة التى كان يدفعها له الأخشيديون رفض دفعها . ولذا خطب الحسن الأعصم للخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٢هـ / ٩٤٥ - ٩٧٢م) وارتدى السواد شعار العباسيين (١١٥) . بل لقد أرسل الى الخليفة المطيع العباسى والأمير البويهى عز الدولة بختيار فى العراق يطلب منهما المساعدة حتى يتمكن من استرداد بلاد الشام من الفاطميين ، وتعهده بأن يحكم هذه البلاد باسم الخليفة العباسى ، فاستجابوا لطلبه وأمدوه بالأموال والرجال . هذا الى أن عز الدولة بختيار طلب من الحمدانيين بالموصل أن يمدوا الحسن الأعصم زعيم القرامطة بالأموال والرجال فلبوا طلبه . وقام الحمدانيون بمدده بالأموال والرجال وسمحوا لجنودهم بالتطوع فى جيش الحسن ، وشجعوا الأخشيديين والكافوريين الذين فروا اليهم على الانضواء تحت لواء الحسن الأعصم كما أن الحسن الأعصم أخذ يجمع الاعراب مستعينا فى ذلك بالأموال التى أخذها من الخليفة العباسى (١١٦) .

وبعد أن استكمل استعداداته ، اتجه الحسن الأعصم على رأس جيوشه نحو دمشق فى عام ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) وكان جنوده يحملون الاعلام السوداء وعليها اسم الخليفة المطيع العباسى وعبارة « السادة الراجعون الى الحق » (١١٧) . ودارت رحى الحرب بين الحسن الأعصم أمير القرامطة وجعفر بن فلاح القائد الفاطمى فى ناحية الدكة - التى تقع على نهر يزيد بالقرب من دمشق - وانتهت المعركة بهزيمة جعفر وقتله هو ومعظم اتباعه ، وبهذا بسط الحسن الأعصم نفوذه على دمشق (١٨٨) .

وهناك أسباب عديدة أدت الى هزيمة الجيش الفاطمى فى بلاد الشام منها استهانة جعفر بالقرامطة وعدم اعداده القوات الكافية لصدهم . ويبدو انه لم يكن يتوقع ان يهاجمه هؤلاء بقوات ضخمة بدليل أنه لم يطلب النجدة من القائد الأعلى جوهر الصقلى . هذا فضلا عن سوء العلاقة بينه وبين قائده . وقد اعتقد جعفر أنه يستطيع أن يقضى على القرامطة بمفرده دون الاستعانة بجوهر الصقلى .

وأما الحسن الأعصم فقد اتبع فى دمشق سياسة تهدف الى التودد لأهلها فمنح أهلها الأمان بعد أن فتحها كما أنه دعا للخليفة العباسى المطيع فى مساجد دمشق ، وحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة . ولم يكتف بهذا بل أمر بلعن الخليفة الفاطمى على منابر المسجد الأموى بدمشق ، الأمر الذى قابله أهالى دمشق بالترحاب لأنهم كانوا على المذهب السنى ومعادين للشيعة (١١٩) .

وبعد ذلك زحف الحسن الأعصم تجاه الرملة ، وكان يليها سعادة بن حيان القائد الفاطمى . وعندما علم سعادة بن حيان بمسير الحسن الأعصم اليه اسرع نحو يافا حتى يكون على اتصال بمصر عن طريق البحر . أما الحسن الأعصم فقد تتبع القائد الفاطمى وفرض عليه الحصار بيافا . وبهذا تمكن أمير القرامطة من بسط نفوذه على الرملة وعلى كل المدن الواقعة بين دمشق والرملة ، وأقام فيها الدعوة للخليفة العباسى (١٢٠) . وفى هذا يقول المقرئى « وأقام القرامطة الدعوة للمطيع لله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا اعلامهم ورجعوا عما كانوا يمخرقون به » .

ثم كان أن ترك الحسن الأعصم ظالم بن موهوب العقيلي وأبا المنجا بن منجا مع بعض القرامطة لمحاصرة الفاطميين بيافا، واتجه هو بجيوشه نحو مصر (١٢١) ، وذلك في أواخر عام ٣٦٠ هـ (٩٧٠م) ليقتضى على حكم الفاطميين ويمنعهم من مهاجمته مرة أخرى . وبعد أن استولى على الفرما هاجم مدينة القلزم (مدينة السويس) وتمكن من دخولها وأسر واليها الاخشيدي عبد العزيز بن يوسف ، وبهذا تحكم في برزخ السويس . وفي عام ٣٦١ هـ (٩٧١م) وصل الى عين شمس - وأخذ يهدد القاهرة . وقام أنصار الحسن الأعصم بالقاء منشوراتهم الثورية بجامع عمرو بالفسطاط لتحريض المصريين ضد جوهر (١٢٢) .

وعندما علم جوهر الصقلي بوصول القرامطة الى برزخ السويس بدأ يعد العدة لمحاربتهم . فحفر خندقا كبيرا حول القاهرة لتحصينها . وأرسل بعض رجاله ليندسوا في معسكر القرامطة ويتظاهرون بالسخط على الفاطميين وعلى جوهر ، داعين أن ينتقل الحكم من الفاطميين الى القرامطة . وبهذا انتشرت الفوضى بين صفوف جيش الأعصم (١٢٣) .

وفي عام ٣٦١ هـ (٩٧١م) دارت معركة طاحنة عند باب مدينة القاهرة بين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم وبين المغاربة بزعامة جوهر الصقلي . واستمرت الحرب بين الطرفين عدة أيام ، انتصر القرامطة في بادئ الأمر على الفاطميين ، ولكنهم انهزموا في النهاية ورحلوا الى الاحساء ، فأقتفى جوهر أثرهم ، وتمكن من استرداد الفرما . ثم اتجه نحو يافا وهاجم القرامطة الذين كانوا يحاصرون من بها من الفاطميين وأرغمهم على التقهقر الى دمشق كما أنه استعاد جميع مدن فلسطين عدا دمشق التي ظلت بيد القرامطة (١٢٤) . وكان لانتصار الفاطميين على القرامطة نتائج كثيرة منها ان الاخشيديين والكافوريين انفضوا من حول الحسن الأعصم بل أن بعضهم دخل في طاعة الفاطميين ، كما استرد جوهر مدينة الفرما .

ومن الواضح أن هزيمة القرامطة لا ترجع الى شجاعة جند جوهر فحسب بل انها ترجع أيضا الى سياسة الخليفة المعز الذي أخذ يكيـد

للأعصم ويعمل على التخلص منه لانضمامه للعباسيين وقتله جعفر بن فلاح وهجومه على مصر . وكان أن نجح الخليفة المعز في إشعال نار الفتنة في بلاد البحرين ضد الحسن الأعصم (١٢٥)، مما جعل الأعصم يرتد عن مصر عام ٣٦١ هـ (٩٧١م) ليتمكن من اخماد الثورة التي أشعلها أبناء عمه أبى طاهر . وقد أناب الحسن الأعصم عنه على دمشق أبو المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقيلي . وبعد أن تمكن الأعصم من اخماد ثورة أبناء عمه في البحرين بمساعدة العباسيين عام ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) عاد واسترد نفوذه على بلاد الشام ثم أخذ يعد العدة لشن حملة ثانية على مصر (١٢٦) .

ولما علم الخليفة المعز وهو بالقيروان بأمر القرامطة حضر الى القاهرة في أواخر عام ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) للدفاع عنها . وقد رأى أن يرسل الى الحسن الأعصم كتابا قبل أن يبدأ القتال فربما يستطيع أن يثنيه عن رأيه (١٢٧) . وفي هذا الكتاب أخذ الخليفة المعز يذكر الحسن الأعصم بأهله الذين كانوا عبيدا لدى الفاطميين ثم أصبحوا سادة بفضلهم ، كما ذكره بأن أهله القرامطة كانوا يقيمون الدعوة له ولأبنائه ، وعليه أن يتخذ منهم عبرة . ثم أخذ يتساءل عن سبب عدائه للفاطميين وانضمامه للعباسيين ، ثم سبب ما قام به في بلاد الشام وقتله جعفر بن فلاح وغيره .

وأخيرا عرض الخليفة المعز على الحسن الأعصم ثلاثة حلول ليختار أحدها قائلا : « ونحن معرضون ثلاث خصال - والرابعة أردى لك وأشقى لبالك ، وما احسبك تحصل الا عليها - فاختر : اما قدمت نفسك لجعفر بن فلاح ، واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع الى آخر حبة من عقال ناقه وخطام بعير - وهى أسهل ما يرد عليك . واما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار . واما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريك على احدى ثلاث : أما قصاص . . . واما فدى . فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك واقالة لعثرتك وان أبيت الا فعل اللعين » (١٢٨) .

والحق أن هذا الكتاب يوضح العلاقة القديمة التي كنت تقوم على أساس المودة بين القرامطة والفاطميين ، ويؤكد أن الفاطميين أصل الاسماعيلية وأن القرامطة فرع منهم . ورغم ما فى هذا الكتاب من تهديد ووعيد إلا أن الحسن الأعصم لم يبال به واستمر فى اتباع سياسته وإصراره على القيام بالحرب ، فأرسل الى الخليفة المعز ردا على رسالته يدل على الاستهانة به ، حيث كتب اليه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » (١٢٩) .

وهكذا سار القرامطة بزعامة الحسن الأعصم فى عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) من الأحساء تجاه مصر ، وفرضوا عليها حصارا شديدا ، ولم يستطع الخليفة المعز مواجهتهم لكثرة قواتهم . لذلك لجأ الى الحيلة حتى يتمكن من تمزيق كلمتهم . وبالفعل تمكن من استمالة حسان بن الجراح الطائى - رئيس الطائيين الذين كانوا من أقوى العناصر التى يتألف منها جيش الأعصم - فقد اتفق الخليفة المعز مع حسان على أن يدفع له مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة عندما تنشب الحرب بينهم وبين الفاطميين ، فوافق على طلبه ، فأرسل اليه الأموال المتفق عليها ، ولكنها كانت مزيفة (١٣٠) . يقول ابن الأثير : « فضربوا أكثرها دنائير من صفر والبسوها الذهب وجعلوها فى أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل اليه . . . » (١٢١) .

ولما نشبت الحرب بن القرامطة وجند المعز واشتد القتال ، ارتد حسان ابن الجراح منهزما الى الشام ، فتعجب الحسن الأعصم من أمره واستمر يقاتل بمن معه لكن جند المعز شددوا حملاتهم عليه ، فاسرع منهزما الى بلاد الشام ، وتمكن الفاطميون من أسر الكثير من القرامطة (١٣٢) .

ولكن على الرغم من الهزيمة التى منى بها الحسن الأعصم فإنه أصر على طرد الفاطميين من مصر والاستيلاء عليها ، الأمر الذى يؤكد هذان البيتان اللذان أنشدهما بعد فراره من مصر .

زعمت رجال الغرب (١٣٢) أنى هبتها
فدمى اذن ما بينها مطلول (١٣٤)
يا مصر ان لم أرو مائك من دم
يروى ثراك ، فلا سقانى النيل

وقد أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قواته بقيادة أبى محمود
ابن جعفر بن فلاح لتتبع القرامطة فى الشام، والقضاء عليهم حتى لا يعودوا
مرة أخرى الى مهاجمة مصر . وتمكنت الجيوش المغربية من اللحاق بهم
فى أذرعات (١٣٥) ، فترك الحسن الأعصم بلاد الشام وعاد الى البحرين،
وذلك بعد أن ترك على دمشق أبى المنجا القرمطى واليا عليها (١٣٦) .

ولم يلبث الخليفة المعز أن تمكن من استرداد دمشق ، اذ انتهر فرصة
وجود خلاف بين أبى المنجا القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم،
وظالم بن موهوب العقيلى - أحد أنصار الحسن الأعصم - وعمل على
استمالة ظالم بن موهوب، فأرسل اليه كتابا يطلب فيه أن يقبض على أبى
المنجا ويرسله الى مصر، فنفذ ظالم ما طلبه منه المعز، وقبض على أبى
المنجا وابنه ومن معهم من القرامطة . لذلك قام الخليفة المعز بتقليده
ولاية دمشق عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) ، وبذلك بسط الفاطميون سلطانهم على
بلاد الشام بعد أن انتزعوها من القرامطة (١٣٧) .

على أن الأوضاع لم تستقر فى دمشق بنولية ظالم بن موهوب العقيلى
ولايتها ، فقد نشب نزاع بين أهالى الشام السفنيين وبين الفاطميين ،
فأرسل الخليفة المعز بعض قواته بقيادة أبى محمود بن جعفر ليحافظ على
الأمن . لكن هؤلاء الجنود سرعان ما انصرفوا الى العبث والفساد . ودب
النزاع بين عساكر أبى محمود وبين أهل الشام حتى تم الاتفاق على
إخراج ظالم بن موهوب من البلاد ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وتولية جيش بن
الصمصامة محله فى إدارة أمور دمشق بالاشتراك مع ابن أخيه أبى محمود
ابن جعفر (١٣٨) .

ومع ذلك فإن الهدوء لم يسد دمشق ، إذ سرعان ما نشب النزاع من
جديد بين أهالى دمشق والمغاربة ، وأدى هذا النزاع الى تخريب البلاد

واضطراب الناس ووفاة الكثير منهم . وعندما علم الخليفة المعز الفاطمي بهذا أرسل الى ريان الخادم - واليه على طرابلس - وأمره بالتوجه الى دمشق وان يتولاها ويعزل عنها أبا محمود بن جعفر ويعمل على قمع الفتن ونشر الأمن بين الأهالي وجند المغاربة (١٣٩) .

وفى تلك الأجواء استغل افتكين (١٤٠) التركي - أبو منصور التركي الشرابي - الاضطرابات التي سادت بلاد الشام وضعف الحكم الفاطمي فيها وتمكن من دخول دمشق ومعه فريق من الأتراك عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م) (١٤١) . فرحب اشراف دمشق وشيوخها بقدوم افتكين وخرجوا لاستقباله وطلبوا منه أن يتولى حكم بلادهم ويخلصهم من المغاربة الشيعة وظلمهم . فأجابهم الى طلبهم ووعدهم بالحماية ، فعزل ريان الخادم عن دمشق واقام الخطبة للخليفة الطائع العباسي (٣٦٢ - ٣٨١هـ / ٩٧٢ - ٩٩١م) بدلا من الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، كما قضى على الفتن (١٤٢) .

وبعد أن بسط افتكين التركي نفوذه على دمشق خشى أن تهاجمه قوات الفاطميين ورأى أن يستميل الخليفة المعز لدين الله ، فأرسل اليه رسالة يتظاهر فيها بالطاعة له ، فأرسل اليه الخليفة المعز يدعوه للحضور حتى يقره على ولايته ، لكن افتكين لم يثق بما أرسله ، ورفض الذهاب اليه (١٤٣) ، فجهز الخليفة المعز عساكره لمحاربة افتكين ، ولكنه مرض ومات عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) وولى بعده ابنه العزيز (١٤٤) .

أما افتكين فقد بسط نفوذه على صيدا وعكا وطبرية بالإضافة الى دمشق، وقد انزعج الخليفة العزيز الفاطمي (٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥-٩٩٥م) لذلك، وعمل على استرداد بلاد الشام من افتكين (١٤٥) ، وأرسل جوهر الصقلي على رأس حملة قوية الى دمشق . ولما وصل جوهر الى الرملة عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) أرسل الى افتكين رسالة أوضح له فيها أن الخليفة العزيز بالله يمنحه الأمان ، فأرسل اليه افتكين الرد الذي علم منه جوهر أنه مصر على الحرب (١٤٦) .

ولم تلبث أن دارت رحى الحرب بين افتكين وجوهر الصقلي

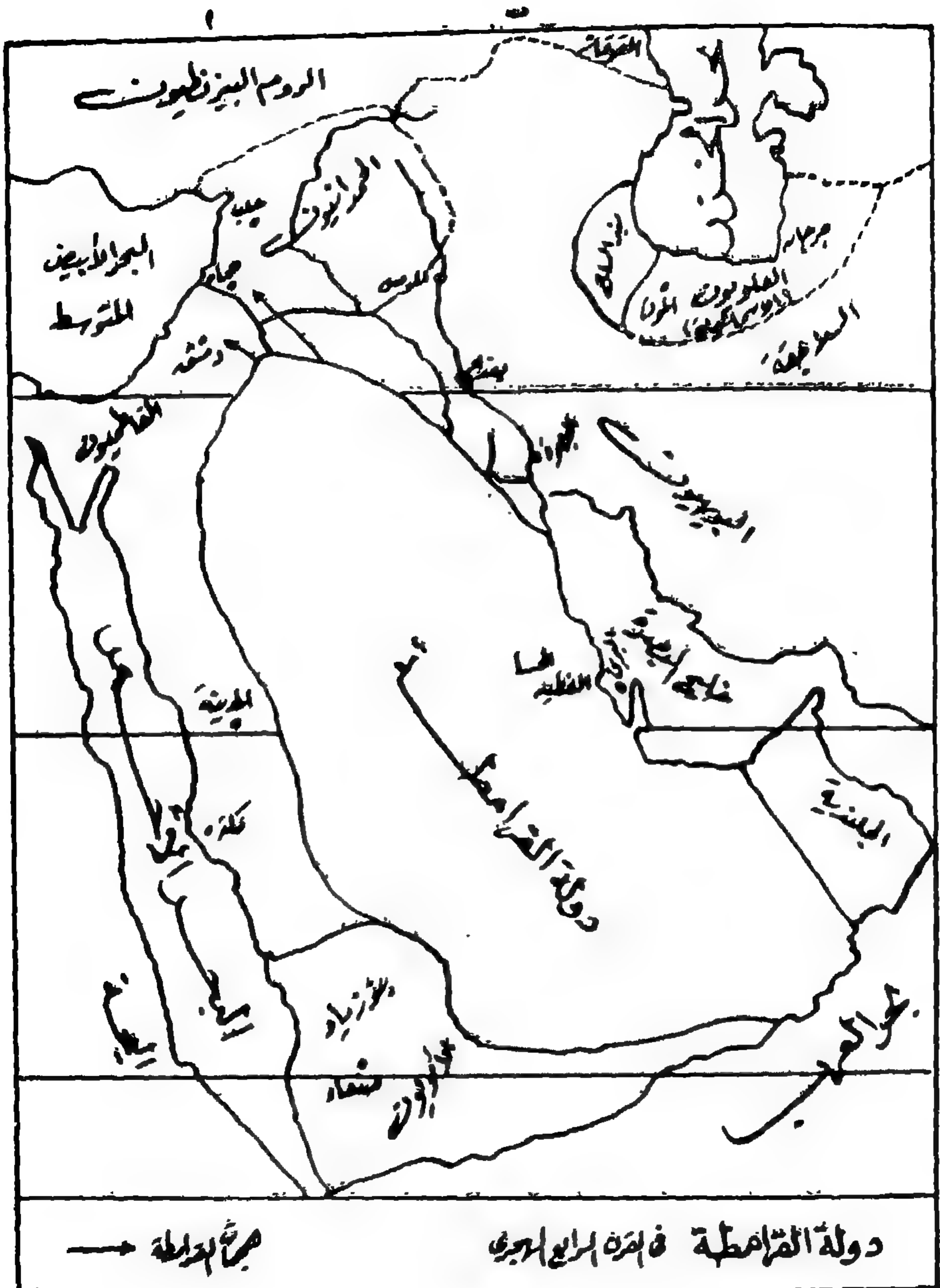
واستمرت عدة أشهر ، ظهرت فيها شجاعة افتكين ومهارته ومن معه . وفرض جوهر الصقلى الحصار على مدينة دمشق . وعندما طال الحصار أشار أهل دمشق على افتكين بأن يستدعى الحسن بن أحمد القرامطة من البحرين للوقوف بجانبه فى محاربة جوهر ، فأجابهم الى طلبهم . وعندما علم جوهر الصقلى بمسير القرامطة نحوه اضطر الى رفع الحصار عن دمشق لخوفه من أن يقع بين عدوين ، وتراجع نحو الرملة فتبعه الحسن الأعصم وافتكين ، وقاتلاه قتالا شديدا . وعندما عجز عن مقاومتهم اتجه نحو عسقلان ، فتبعه افتكين والقرمطى وفرضا عليه حصارا شديدا . ولما طال الحصار وقلت المؤن طلب جوهر مقابلة افتكين ، فلبى طلبه (١٤٧) . واجتمع به فقال له جوهر : « وقد دعوتك الى الصلح والموادعة . فابيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة . . . وأريد أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى وتذم لى لامضى وأعود » (١٤٨) فوافق افتكين على ذلك بشرط أن يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان (١٤٩) .

ووافق جوهر على ذلك ومر هو وأصحابه من تحت السيف والرمح قاصدين القاهرة فى وضع يتصف بالذلة والهوان .

ولما عاد جوهر الصقلى الى مصر التقى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى وأوضح له ما دار بينه وبين القرامطة وافتكين ، فقرر الخليفة الخروج بنفسه لمحاربتهم ، وجهاز الجيوش وجعل جوهر على مقدمتها . وعندما علم افتكين والحسن القرمطى بمسير الخليفة اليهما عادا الى الرملة وأخذا يعدان للقتال . وكان أن دار القتال بين الفريقين عام ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) وأسفر عن هزيمة افتكين والحسن بن أحمد القرمطى وفرارهما وقتل الكثير من جنودهما (١٥٠) ، وكان ذلك خاتمة لنفوذ آل الجنبابى فى بلاد الشام ومصر .

وأخيرا عاد الحسن الأعصم الى الاحساء بعد هزيمته أمام الخليفة العزيز الفاطمى ، ثم توفى عام ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، فنشبت الخلافات بين قرامطة بلاد البحرين حيث انكروا السياسة التى اتبعها الحسن الأعصم وما قام به من مبايعة بنى العباس وعدائه للفاطميين ، وقرروا أبعاد أبناء

أبى سعيد الجنابى عن الحكم وقاموا بتولية رجلين منهم هما جعفر
واسحق (١٥١) ، فذهب بنو أبى سعيد الى جزيرة آوال ، وهناك تعرضوا
للقتل على أيدي خصومهم (١٥٢) . وبذلك انتهى نفوذ آل الجنابى فى
بلاد البحرين .



عدنان العطار - الأطلس التاريخي

(مجلة المؤرخ العربي)

الهوامش

(=) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٨٥ فهو يقول «ومن الاشخاص البارزة بين الباطنية (حمدان بن الأشعث) الملقب بقرمط فى سواد الكوفة ٠٠٠ وأبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى » .

وقد عرف الباطنية بهذا الاسم لزعمهم أن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا انسلاخا من الدين : (أ) ويقال ان دعوة الباطنية ظهرت أولا فى زمان المأمون وانتشرت فى زمان المعتصم . (ب) وقد أطلق مؤلفو العرب اسم الباطنية على فرق عديدة متباينة كان لها شأن سياسى هام واهمها القرامطة والاسماعيلية ، (ح) فالاسماعيلية يسمون بالباطنية لأنهم يقولون ان لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطنا ولكل تنزيل تأويلا . (د) وقيل ان من أهداف الباطنية الدعوة الى دين المجوس ومما يؤكد ذلك ان زعيم الباطنية الأول ميمون بن ديجان كان مجوسيا من سبى الأهواز ، والبعض ينسب الباطنية الى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرائية ، واستدل أيضا بأن صابئة حران كانوا يكتمون عقائدهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر أسرارهم لغيرهم .

(١) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٨٨ .

— الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٧٢ .

(ب) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٨ .

(ح) دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس ص ٨٦ .

(د) المعرى : رسالة الغفران ص ٣٥٧ .

(و) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٧٧ ، ٢٧٨ .

(×) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز .

(١) الرافضة اهل ضلال وهم ثمانى عشرة فرقة والقرامطة فرقة من هذه الفرق (أ) فالرافضة صنف من أصناف الشيعة وقد سموا رافضة لرفضهم امامة أبى بكر وعمر وهم مجمعون على أن الرسول (ص) نص على استخلاف على ابن أبى طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه (ب) ، وقيل سموا الرافضة ، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ورفضهم الخروج معه ، عندما سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجيبهم الى ذلك (ح) .

١ - الملطى : التنبيه والرد ص ٢٥ : ٢٨ .

ب - الأشعري : مقالات الاسلاميين ج١ ، ص ٨٧ ، ٩٨ .

ح - أبو سعيد نشوان : الحور العين ص ١٨٤ .

(٢) زعم بعض الحلولية أن « الله تبارك وتعالى بعث جبريل الى على ، فاخطأ جبريل وصار الى محمد عليه السلام ، فاستحيا الرب وترك النبوة في محمد (ص) وجعل عليا وزيره والخليفة بعده . وبعض الحلولية زعموا أن عليا ومحمدا عليهما السلام شريكان في النبوة وان عليا نبي بعد محمد (ص) واحتجوا بقول النبي (ص) « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » .

الملطى : التنبيه والرد ص ٢٩ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

(٤) سلمية : بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة ببلاد الشام(١) وقد اتخذ الأئمة الاسماعيلية سلمية دار هجره لهم منذ عهد المأمون .

١ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ح٥ ص ١٩٣ .

ب - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٤٤ .

(٥) فاضل عبد اللطيف الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ص ٧٠ .

(٦) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٣٠ .

(٧) هناك تفسيرات عديدة لهذا اللفظ منها أن حمدان بن الأشعث كان قصير القامة ورجلاه قصيرتين ، فكان يقرمط في سيره أى كانت خطواته متقاربة لهذا لقب بلقب قرمط (أ) . ومن هذه التفسيرات أيضا أن لفظ قرمط مشتق من لفظ اقرمط ويعنى غضب ، وهذا اللفظ آرامي مشتق من «قرمطونا» التى تعنى المدلس أو الخبيث أو المكار أو المحتال وان هذه التسمية لم يتخذها القرامطة أنفسهم الذين اشتهروا بهذه الصفات بل أطلقها عليهم الذين لم يؤمنوا بدعوتهم(ب) وأرى ان هذا التفسير هو أقرب التفسيرات الى الصحة .

١ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

ب - المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ٢٠٥ .

وهناك تفسيرات أخرى للفظ قرمط ولزيد من التفاصيل انظر . -

المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ص ٢٠٥ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح٣ ص ١١٩ .

مجد الدين الفيروزبادي : القاموس المحيط ح٢ ص ٣٧٩ .

- لويس معلوف اليسوعي : المنجد ص ٦٥٩ .
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ح ٣ ص ٣٢٥ .
- (٨) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٦٤ .
- (٩) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٢ ، ١٣ .
- (١٠) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢٠٨ .
- (١١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ح ٢ ص ٣٢٦ .
- (١٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢٠٩ .
- (١٣) هو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى - فارسى الأصل - كان يعمل الفراء
سافر الى سواد الكوفة ،
- المقرئى : اتعاظ الحنفا ح ١ ص ١٥٩ .
- (١٤) سمى الجنابى نسبة الى جنابة وهى بلدة صغيرة من سواحل فارس يدخل
اليها فى المراكب فى خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال او
أقل ، وأمامها فى وسط البحر جزيرة خارك التى نشأ بها أبو سعيد الحسن الجنابى
القرمطى .
- خير الدين الزركلى : الاعلام ح ١ ص ٢٢١ .
- (١٥) كانت البلاد الواقعة على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان تدهى البحرين
وقيل هى قصبة حجر وقيل حجر قصبة البحرين ٠٠٠ وأحيانا كانت اليمامة تعد من
أعمال البحرين هذا كان فى أيام بنى أمية ، فلما ولى بثو العباس صيروا عمان
والبحرين واليمامة عملا واحدا (١) . وربما كان سبب تسمية هذه المدن باسم البحرين
لأنها تقع على شاطئ البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس (ب) .
- ١ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ح ٢ ص ٧٢ ، ٧٣ .
- ب - أمين الريحانى . ملوك العرب ح ٢ ص ٢٠٢ .
- (١٦) السماوة بفتح أوله وبعد الألف وار وسميت السماوة لأنها أرض مستوية
لا حجر بها والسماوة ماء بالبادية وبادية السماوة التى هى بين الكوفة والشام قفرى
أظنها مسماة بهذا الماء .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان ح ٥ ص ١٢٠ .
- (١٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ح ٣ ، ص ٣٢٦ .
- (١٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ .

- (١٩) ان محمد بن اسماعيل غير ميمون القداح وان هذا حجة وذاك امام ، وان ميمون من نسل سليمان الفارسي ومحمد بن اسماعيل من نسل علي وفاطمة .
- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٥٠ .
 - (٢٠) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٣ .
 - (٢١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ح ٢ ، ص ٣٢٦ .
 - (٢٢) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٤ .
 - (٢٣) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٨ .
 - (٢٤) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٣ .
 - (٢٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤١ .
 - (٢٦) العبر ح ٤ ص ٨٨ .
 - (٢٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٠ .
 - (٢٨) تاريخ الأمم والملوك ح ١٣ ص ٢١٨٨ .
 - (٢٩) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ح ٦ ص ١٨ .
 - (٣٠) الكامل في التاريخ ح ٧ ص ١٧٥ .
 - (٣١) النجوم الزاهرة ح ٣ ص ١١٩ .
 - (٣٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ح ١٣ ص ٢١٨٨ .
 - (٣٣) أمين الريحاني : ملوك العرب ص ٢١٢ .
 - (٣٤) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ .
 - (٣٥) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ح ٦ ص ١٨ .
 - (٣٦) أمين الريحاني : ملوك العرب ص ٢١٢ .
 - (٣٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ح ١٣ ص ٢١٨٨ .
 - (٣٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٩ .
 - (٣٩) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٦ ، ١٨ .
 - (٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر الحياة الدينية .
 - (٤١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٧ .
 - (١٢) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ، ٢١٣ .
 - (٤٣) عارف تامر : القرامطة ص ١٣٨ .
 - (٤٤) القطيف : بفتح أوله وكسر ثانيه تعد من أعظم مدن البحرين .
 - ياقوت الحموي : معجم البلدان ح ٧ ص ١٣١ .

- (٤٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ح ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ .
- (٤٦) المقرئى : اتعاظ الحنفا ح ١ ص ١٦٠ .
- (٤٧) ابن الجوزى : المنتظم ح ٦ ص ١٨ .
- (٤٨) يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر ح ٤ ص ٨٨ ان الخليفة المعتمد هو الذى أرسل العباس بن عمرو وهذا خطأ والصواب هو الخليفة المعتضد .
- (٤٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ح ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ .
- ابن الجوزى : المنتظم ح ٦ ص ٢٤ .
- (٥٠) يذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب ح ٢ ص ٤٨٤ ان الخليفة المعتضد خلع على العباس بن عمرو عندما عاد ولكن هذا لم يحدث ، فهل عاد منتصرا حتى يخلع عليه - بالطبع لا - فجميع المصادر تجمع على انه عاد يجر اذيال الخيبة والهزيمة .
- (٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ح ٧ ص ١٧٧ .
- (٥٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٨ ، ٢١٩ .
- (٥٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ح ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ .
- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ح ٢ ص ٤٨٤ .
- (٥٤) بالفتح والمد جمع حصى بكسر التاء وسكون السين ، وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمال ، فاذا صار الى صلابه أمسكته فتصفر العرب عنه الرمل فتستخرجه ... والحصى الرمل المتراكم أسفل جبل صلد ، فاذا مطر الرمل شفى ماء المطر فاذا انتهى الى الجبل الذى تحته أمسك الماء ومنع الرمل وحر الشمس أن ينشف الماء ، فاذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن الماء فنبع باردا عذبا (١) .
- والاحساء أصلها قلعة فى البحرين وهى مركز ناحية تحمل الاسم نفسه (ب) .
- (١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ح ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
- ب - دائرة المعارف الاسلاميه المجلد الثانى ص ٢٥٣ .
- (٥٥) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ .
- (٥٦) حسن ابراهيم وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ١١١ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
- (٥٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ح ٢ ص ٣٣٩ .
- (٥٨) مسكويه : تجارب الأمم ح ٥ ص ٣٣ .
- (٥٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٢١٤ : ٢١٦ .
- (٦٠) ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٦١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ١٨٠ ،
٢١٨ ، ٢٩١ .

(٦٢) ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٨٩ .

(٦٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧٤ . ٢٧٥ .

(٦٤) فيد : بالفتح ثم السكون ودال مهملة بليدة تقع في منتصف الطريق بين
مكة والكوفة .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ح ٦ ص ٤٠٨ .

(٦٥) محمد الخصري : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٨ . ٤٧٩ .

(٦٦) مسكويه : تجارب الامم ح ٥ ص ١٤٥ .

(٦٧) النويري : نهاية الأرب ح ١٣ ص ٧٣ .

(٦٨) المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٦٩) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧ .

(٧٠) المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ١٨٢ .

(٧١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٤ .

(٧٢) الرحبة : تقع على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد أسفل قرقيسيا .

(٧٣) قرقيسيا : بلدة تقع على الفرات بالقرب من رحبة مالك بن طوق .

(٧٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ح ٦ ص ٢١٥ ، ٢٦١ .

(٧٥) عين القمر : بلدة قريبة من الانبار غربي الكوفة .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٣ .

(٧٦) محمد الخصري : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٧٧) يقول الحمادي في كتابه « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » ص ٢ ،
٢٠١ وأبو المحاسن في كتابه « النجوم الزاهرة » ح ٣ ص ١٢٠ أن الذي أغار على
مكة هو أبو سعيد . وهذا خطأ لأن أبا سعيد قتل عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) والاغارة على مكة
كانت عام ٣١٧ هـ (٩٢٩م) والصواب أن الذي أغار على مكة أبو طاهر سليمان .

(٧٨) المسعودي : مرج الذهب ح ٢ ص ٥٧٤ .

مسكويه : تجارب الامم ح ٥ ص ٢٠١ .

(٨٩) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ح ٣ ص ٢٢٤ .

(٨٠) وقيل اسمه ابن محارب .

- (٨١) مسكويه : تجارب الأمم ح ٥ ص ٢٠١ .
- (٨٢) المعرى : رسالة الغفران ص ٢٨ .
- (٨٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢١١ .
- (٨٤) مسكويه : تجارب الأمم ح ٥ ص ٢٠١ .
- ابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الملوك والأدب ص ٢٢٣ .
- (٨٥) عاصر أبو العلاء المعرى آل الجنبى وكتب عن الجنبى يقول « لو عوقب بلد بمن يسكنه . لجاز أن تؤخذ به جنابة ولا يقبل لها اناية ، ولكن حكم الكتاب المنزل أن لا تزر وزارة وزر أخرى » .
- أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٢٣٨ .
- (٨٦) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢٠١ ، ٢١١ .
- (٨٧) النويرى : نهاية الارب ح ٢٣ ص ١٨٩ .
- (٨٨) ابن الجوزى : المنتظم ح ٦ ص ٢٢٣ .
- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص خلافة المقتدر .
- (٨٩) النويرى : نهاية الارب ح ٢٣ ص ١٨٩ .
- (٩٠) ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٨٩ .
- (٩١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ح ١ ص ٢٨ .
- (٩٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٢٣ .
- (٩٣) عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٣٥ .
- (٩٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٢٥ .
- (٩٥) يذكر محمد الخضرى فى كتابه تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨٢ هو ان أبا طاهر قام برد الحجر هو أخوه أبو المنصور أحمد عام ٣٣٩هـ كما سيأتى .
- (٩٦) ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٨٩ .
- (٩٧) ابن الجوزى : المنتظم ح ٦ ص ٢٩٦ .
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٦٤ .
- (٩٨) يذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم ح ٣ ص ٢٨١ ان أبا طاهر مات وولى مكانه أخوه أبو القاسم سعيد لكن هذا غير صحيح والذى ولى مكانه أخوه أبو منصور أحمد .
- (٩٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٣ ص ٢٨١ .
- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩٩ .

- (١٠٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٣٠١ .
- (١٠١) يذكر أحمد حسين في كتابه موسوعة مصر ، ج٢ ص ٥٢٢ عن الحجر الأسود أنهم ردوه بعد أن دفع فيه للقرامطة خمسين ألف دينار ولكن هذا غير صحيح لأنهم ردوه عندما أمرهم أبو منصور أحمد بهذا دون أن يأخذوا مالا .
- (١٠٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٣ ص ١٨٩ .
- (١٠٣) نوال : بالضم ، ويروى بالفتح : جزيرة بالبحرين بها نخل وبساتين صفى الدين عبد المؤمن : مرصد الاطلاع ج١ ص ١٢٨ .
- (١٠٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج٢ ص ٢٤٠ - ٣٤٤ .
- (١٠٥) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٥ .
- (١٠٦) عارف تامر : القرامطة ص ١١٧ .
- (١٠٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٧٣ .
- (١٠٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٦ .
- (١٠٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٣٤٥ .
- (١١٠) العبر ج٤ ص ٩٠ .
- (١١١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٣ : ١٠٥ .
- (١١٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٤٧ ، ٤٨ .
- حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٩٧ .
- (١١٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩١ ، ٩٢ .
- (١١٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٨ ، ١١٩ .
- (١١٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٩٠ .
- (١١٦) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ج١ ص ١ .
- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٢٢٠ .
- (١١٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٩ .
- (١١٨) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ج١ ص ٢ .
- ابن الجوزى : المنتظم ج٦ ص ٢٢٤ .
- (١١٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٠ - ١١٢ .
- (١٢٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٢٢٠ .
- ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٠ .

- (١٢١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
- (١٢٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ج١ ص ٢ .
- (١٢٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١١٣ .
- (١٢٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ج١ ص ٢ .
- ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٢٠ .
- (١٢٥) انتهز أبناء واتباع أبى طاهر فرصة انشغال الأعصم بحرب الفاطميين فى مصر وخرجوا من جزيرة «أوال» وتمكنوا من احتلال الاحساء ، لهذا اضطر الأعصم الى الارتداد عن القاهرة وأسرع بالعودة الى البحرين وتمكن من اخماد فتنة أبناء عمه آل طاهر .
- عارف تامر : القرامطة ص ١٤٧ .
- (١٢٦) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٥ - ١١٧ .
- (١٢٧) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٠ .
- (١٢٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ - ٢٦٥ .
- (١٢٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٨ - ١٢٠ .
- (١٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ج١ ص ٣ .
- ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٠ .
- (١٣١) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٢٩ .
- (١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ج١ ص ٣ .
- (١٣٣) رجال الغرب يقصد بهم الفاطميين والمغاربة .
- (١٣٤) مظلوم = مسفوك .
- (١٣٥) أذرعات بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان .
- ياقوت الحموى : مع البلدان ج١ ص ١٣٠ .
- (١٣٦) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٣٠ .
- (١٣٧) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٠ .
- (١٣٨) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
- ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٠ ، ٥١ .
- (١٣٩) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٣١ .

(١٤٠) افتكين : هو أحد موالى عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعراق ، وعندما انهزم فى المعركة التى دارت بينه ومن معه من الأتراك وبين الديلم ترك بغداد وسار قاصدا بلاد الشام . وعندما علم ظالم بن موهوب العقيلي بقدومه حاول القبض عليه ومنعه من التقدم لكنه لم يستطع وتمكن افتكين التركى من الوصول الى دمشق عام ٥٢٦هـ (٩٧٤م) .

ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٥١ .

(١٤١) د : سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ح ٨ ص ٢٣٧ .

(١٤٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٥ .

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل ح ٨ ص ٢٣٨ .

ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٥١ ، ٩٠ .

(١٤٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٦ .

(١٤٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ح ١ ص ١٥ ، ١٦ .

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ح ٨ ص ٢٣٧ .

ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٥٢ .

(١٤٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ح ١ ص ١٧ .

(١٤٩) المقرئى اتعاط الحنفا ص ٢٩٤ .

(١٥٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ح ١ ص ١٨ ، ١٩ .

ابن الأثير : الكامل ح ٨ ص ٢٣٨ .

(١٥١) وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة .

ابن الأثير : الكامل ح ٧ ص ١٢٦ .

(١٥٢) ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ٩١ .

قائمة بأسماء الخلفاء
المعاصرين لدولة آل الجنايى

الخلفاء الفاطميون

- عبيد الله المهدي ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م
- القائم بأمر الله ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م
- المنصور ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م
- المعز لدين الله ٣٤١ هـ = ٩٥٢ م
- العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٥ م

الخلفاء العباسيون

- المعتضد ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م
- المكتفي ٢٨٩ هـ = ٩٠١ م
- المقتدر ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م
- القاهر ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م
- الراضى ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م
- المتقى ٣٢٩ هـ = ٩٤٠ م
- المستكفي ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م
- المطيع ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م
- الطائع ٣٦٢ - ٣٨١ هـ = ٩٧٢ - ٩٩١ م

آل الجنابي ببلاد البحرين
١ - أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي

٢٨٣ - ٣٠١ هـ
٨٩٦ - ٩١٣ م

|

٤ - أبو منصور أحمد	٣ - أبو طاهر سليمان	٢ - أبو القاسم سعيد
٣٣٢ - ٣٥٩ هـ	٣٠٥ - ٣٣٢ هـ	٣٠١ - ٣٠٥ هـ
٩٤٣ - ٩٦٩ م	٩١٧ - ٩٤٣ م	٩١٣ - ٩١٧ م
٥ - الحسن الأعصم (١)	سابق	
٣٥٩ - ٣٦٧ هـ		
٩٦٩ - ٩٧٧ م		

(١) هذا الجدول من واقع هذا البحث -

المصادر

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) على بن أحمد أبى الكرم
الكامل فى التاريخ .
- ٣ - الأشعرى : (ت ٣٣٠هـ) أبو الحسن على بن اسماعيل
« مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » تحقيق محمد محيى الدين
عبد الحميد ، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٩هـ /
١٩٥٠م .
- ٤ - البغدادى : (ت ٤٣٩هـ ، ١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن ظاهر
الفرق بين الفرق (دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٣م)
- ٥ - ابن الجوزى : (ت ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن
بن أبى الحسن على :
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . الطبعة الأولى بمطبعة دائرة
المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ .
- ٦ - الحمادى : (ت أواسط القرن الخامس الهجرى) محمد بن مالك
بن أبى الفضائل .
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (مكتبة الخانجى مصر
والثنى ببغداد ١٣٤٧هـ / ١٩٥٥م .
- ٧ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر الجزء الرابع (دار
الكتب) .
- ٨ - خير الدين الزركلى
الاعلام (المطبعة العربية بمصر ١٨٢٧م)
- ٩ - أبو سعيد : (ت ٥٧٣هـ) نشوان بن سعيد بن نشوان الحميرى
« الحور العين » حققه وعلق عليه كمال مصطفى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م
- ١٠ - السيوطى : (ت ٩٣١هـ ، ١٦٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال
الدين تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .

- ١١ - الشهرستاني : (ت ٥٤٨ هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الملل والنحل .
- ١٢ - صفى الدين : (ت ٧٣٩ هـ) عبد المؤمن عبد الحق البغدادي « مرصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » تحقيق وتعليق على محمد البجاوي ، دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- ١٣ - الطبري : (٣١٠ هـ ، ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك (مكتبة الخياط ١٩٦٩ م) .
- ١٤ - الغزالي : (ت ٥٠٥ هـ ، ١١١١ م) الامام أبو حامد محمد بن محمد ابن أحمد . فضائح الباطنية (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م) .
- ١٥ - ابن القلانسي : (ت ٥٥٥ هـ) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ١٩٠٨ م) .
- ١٦ - كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسن ادب النديم مكتبة الخانجي القاهرة ١٢٩٨ م
- ١٧ - لويس معلوف اليسوعي المنجد في اللغة والأدب والعلوم «المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨ م
- ١٨ - مجد الدين الفيروزابادي القاموس المحيط الطبعة الخامسة .
- ١٩ - أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ ، ١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م) .
- ٢٠ - المسعودي : (ت ٣٤٦ هـ ، ٩٥٦ م) أبو الحسن على بن الحسين بن على ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ م) .

- ٢١ - مسكويه : (ت ٤٢١ هـ ، ١٠٣٠ م) أبو على أحمد
تجارب الأمم (مصر ١٩١٤ م) .
- ٢٢ - المعري : (٣٦٣ : ٤٤٩ هـ) أبو العلاء
رسالة الغفران شرح وإيجاز كامل السكيلاني مطبعة المعارف مصر
١٩٢٨ م .
- ٢٣ - المقرئ : (ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تحقيق جمال الدين
الشيال ، دار الفكر العربي ١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٨ م ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ،
١٩٦٧ م .
- ٢٤ - الملطي : (ت ٣٧٧ هـ) أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
- ٢٥ - النوبختي : (من اعلام القرن الثالث للهجرة ت أوائل القرن الرابع
الهجري) أبو محمد الحسن بن موسى .
« كتاب فرق الشيعة » المطبعة الحيدرية بالنجف .
- ٢٦ - النويري : (٦٧٧ - ت ٧٣٣ هـ) أحمد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب في فنون الأدب » تحقيق د . أحمد كمال زكي مراجعة
د . محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م .
- ٢٧ - ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبدالله
الحموي ، معجم البلدان (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥ م ،
١٩٠٦ .

المراجع العربية

- ٢٨ - أحمد حسين
« موسوعة تاريخ مصر » (دار الشعب ١٩٧٢م) .
- ٢٩ - أحمد عبد الرازق
« الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » دار الفكر العربى ،
القاهرة ١٩٩٠م .
- ٣٠ - السيد عبد الله بن خليفة وعبد الملك يوسف
« البحرين عبر التاريخ » .
- ٣١ - أمين الريحانى
« ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية » - الجزء الثانى بيروت
١٩٢٥م .
- ٣٢ - حسن ابراهيم حسن
« تاريخ الاسلام السياسى » ح ٣ .
- ٣٣ - « الفاطميون فى مصر » (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م) .
- ٣٤ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف
« المعز لدين الله » (مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٧م) .
- ٣٥ - عبيد الله المهدي ، (مطبعة الشبكشى عام ١٩٤٧م) .
- ٣٦ - عارف تامر
« القرامطة » (دار الكاتب العربى بيروت) .
- ٣٧ - عبد العزيز الدورى
« دراسات فى العصور العباسية المتأخرة » (مطبعة السريان -
بغداد ١٩٤٥م) .
- ٣٨ - عدنان العطار
« الأطلس التاريخى للعالمين العربى والاسلامى » دمشق -
القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
(مجلة المؤرخ العربى)

- ٣٩ - فاضل عبد اللطيف الخالدي
« الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق » مطبعة الايمان -
بغداد ١٩٦٩م .
- ٤٠ - محمد جمال الدين سرور
« سياسة الفاطميين الخارجية (دار الفكر العربى الطبعة الرابعة
١٩٧٦م) » .
- ٤١ - محمد بك الخضرى
« تاريخ الأمم الاسلاميه » (مطبعة دار احياء الكتب العربيه
١٩٣٠م) .
- ٤٢ - محمد عبد الفتاح عليان
« قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين » الهيئة
المصريه العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .
- ٤٣ - دائرة المعارف الاسلاميه المجلد السادس .
- المراجع العربيه المترجمة
- ٤٤ - زامبـاور
« معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » أخرجه
د . زكى محمد حسن بك وحسن أحمد محمود واشترك فى ترجمة
بعض فصوله د . سيدة اسماعيل الكاشف وحافظ أحمد حمدى
وأحمد ممدوح حمدى ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٤٥ - كارل بروكلمان
« تاريخ الشعوب الاسلاميه » نقله الى العربيه د . نبيه فارس
والأستاذ منير البعلبكى (دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى
١٩٤٩م) .
- ٤٦ - ناصر خسرو ، أبو معين الدين ناصر خسرو القباديانى المرذوى
« سفر نامه » ترجمة وتقديم الدكتور أحمد خالد البدلى - الرياض
السعوديه .

المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر في الميزان

د. نورة محمد عبد العزيز التويجري(*)

يعتز التاريخ الاسلامي بجناحه الغربي مثلما يعتز بجناحه الشرقي .
ففي أقصى الطرف الغربي للدولة الاسلامية ، قامت للمسلمين دولة في
شبه جزيرة أيبيريا - هي دولة الأندلس - قدر لها أن تنهض بدور خالد
في ميادين السياسة والحرب والجهاد من ناحية ، وفي ميادين الحضارة
بمختلف آفاقها ومظاهرها من ناحية أخرى . وفي تتبعنا لهذا النشاط
المتعدد الأوجه نصادف شخصيات غذة خلدت اسماءها في التاريخ ،
ومازالت جديرة بالمزيد من عناية الباحثين ، لالقاء الأضواء على جوانبها ،
وكشف ما خفى من بطولاتها واسهاماتها الحقيقية ، أو للحكم عليها حكما
أamina صادقا يزيح عنها ما قد تكون قد تعرضت له من غبن أو نكران .

ومن هذه الشخصيات المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر
المعافري ، الذي قام بالوصاية على هشام المؤيد عقب وفاة أبيه الحكم
المستنصر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) . وقد أثبت المنصور محمد أنه سياسي
بارع ومحارب شجاع ، بذل الكثير دفاعا عن دولة الاسلام في الأندلس
وحفاظا على كيان المسلمين في تلك البلاد البعيدة عن قلب الدولة
الاسلامية في الشرق ؛ ومع ذلك لم يلق المنصور التقدير الكافي من
معاصرة وكثير من المؤرخين ، فغلبوا الزلات على الحسنات ، وأغفل
بعضهم حقه ولم يذكروا الا أخطائه . بل ان البعض تجنى عليه ، وأطلقوا
عليه من الصفات ما يتنافى مع الواقع والحقيقة ، فوصفوه بالاحتيال
والخيانة . ومن المحدثين من وصفه بالدكتاتورية ووصف عهده
بالدكتاتورية العنصرية ، ولم يروا فيه الا الطمع والاستبداد ، بل
الوصولية والممارسات اللاأخلاقية .

(*) كلية التربية - الرئاسة العامة لتعليم البنات - الرياض .

ولكن فى ضوء الكثير من المصادر والمراجع التى رجعت اليها والنى تهتم بالتاريخ الأندلسى فى تلك الحقبة الزمنية التى عاصرها المنصور وما حفلت به من أحداث كان للمنصور محمد بن أبى عامر ذكر فيها ، تبلورت أمامى هذه الشخصية فى ضوء طبيعة العصر وأجوائه وظروفه ، واتضحت جهود هذا الرجل التى لا تنكر فى الحفاظ على الاسلام ودولته فى الأندلس . وكان أن رأيت من الانصاف أن نضع هذه الشخصية التاريخية فى الميزان ، لنواجه من نظروا اليها من جانب واحد فقط ، متجاهلين ما لها من جوانب مضيئة فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وفى التاريخ الأندلسى الاسلامى بصفة خاصة . وبعبارة أخرى فأننى فى هذا البحث أقف أمام هذه الشخصية محاولة الرد على المتحاملين عليها ، والذين نظروا اليها من جانب واحد مظلم وأهملوا جانبها المضيء .

ذلك أنه من الأمانة العلمية ألا نغشط هذا الرجل حقه ، وألا نتجاهل ما قام به من أعمال أدخلت الفرع والرعب فى قلوب أعداء الدولة الاسلامية فى الأندلس . وحسبه أن وفاته أحدثت موجة من الفرح والسرور فى الأوساط الأسبانية حتى أن الحوليات اللاتينية التى كانت تدون فى الكنائس والأديرة اهتمت بتسجيل تاريخ موته ، وعبرت عن ذلك بقولها :

« وفى سنة ١٠٠٢م توفى المنصور ، وذهب الى الجحيم » . ويكفى هذا الاحساس من جانب الخصوم والأعداء ليضفى عليه أهمية فى نظر الأهل والأصدقاء .



شخصية المنصور محمد بن أبى عامر :

أما عن المنصور فهو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافى ، من قبيلة معافر اليمانية إحدى قبائل حمير (١) قدم جده عبد الملك الى الأندلس ، وكان من أوائل الداخلين تلك البلاد مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، واتخذ من الجزيرة الخضراء مستقرا له حيث حصل على اقطاعات كبيرة فى بلدة طرش Torrox (٢) مكافأة له ، لما أظهره

من شجاعة وبسالة فى المعارك ، التى خاضها فى الفتح الاسلامى لبلاد
الأندلس . وفى تلك القرية - قرية طرش - ولد المنصور محمد سنة
٣٢٨ هـ .

أما والده عبد الله المكنى بأبى حفص فكان من أهل الدين والزهد
فى الدنيا والعزوف عن السلطان . وقد سمع الحديث ، وقام بأداء فريضة
الحج ، وتوفى بمدينة طرابلس الغرب بليبيا عندما كان عائداً من الحج .

وكانت أمه بريهة بنت يحيى بن زكريا من قبيلة تميم المعروفين
ببنى ترطال (٣) . تلقى محمد بن أبى عامر تعليمه فى جامع قرطبة ،
وكان حسن النشأة مغرباً بالتعلم ينصف بالذكاء والنجابة ، أحب علم
التاريخ ، واهتم بقراءته ، والتحق بالقضاء فى بداية حياته ، وقرأ اللغة
والأدب على معلميه أبى على القالى وأبى بكر بن القوطية ، ودرس
الحديث على يد أستاذه أبى بكر بن معاوية القرشى (٤) . وكان ينظر
الى المستقبل نظرة المتفائل مؤمناً بأنه سيكون له دور مهم على مسرح
الحوادث . يحكى أنه فى حديثه مع بعض زملائه عن المستقبل قال لهم :
لا بد لى أن أملك الأندلس ، واقبض العسكر وانفذ حكمى فيها (٥) .

وقد تغنى عدد من الشعراء به مشيدين بشجاعته وبطولاته ، وحسن
نسبه ، منهم الشاعر ابو عمر أحمد ابن محمد بن دراج المعروف بالقسطلى
حيث قال فيه :

تلاقت عليه من تميم ويعرب	شموس تلاً فى العلا ويدور
من الحميريين الذين أكفهم	سحائب تندى بالندى وبحور (٦)

ولقد تولى محمد بن أبى عامر عدة مناصب فى الدولة الأموية
بالأندلس . ذكرت بعض المصادر التاريخية أن كل منصب تولاه كانت
تسانده فيه الأميرة (صبح) زوجة الخليفة الحكم المستنصر ، وأم الخليفة
هشام المؤيد . وكان أول منصب تولاه عندما عين وكيلاً لخدمة الأميرة
(صبح) وولديها عبد الرحمن وهشام ، ثم تولى إدارة أموال وضياع
الأميرة صبح ، ثم شؤون الخزانة العامة لأموال الدولة ، وبعدها تولى

خطة المواريث ثم قضاء اشبيلية (٧) وليلة وأعمالهما ثم أميناً لدار السكة، ثم وكيلاً للخليفة هشام المؤيد . وقد أسند إليه الخليفة الحكم المستنصر كثيراً من المهام السياسية ؛ وذلك لما لاحظته عليه من الذكاء والفتنة ، كما كان محل ثقة وتقدير الخليفة الحكم ، حيث أرسل معه كمية كبيرة من الأموال والهدايا إلى البربر لينضموا إلى جانبه .

وهكذا استطاع محمد بن أبي عامر بما أوتي من ذكاء وفتنة أن يصل إلى أعلى وظائف الدولة في قصر الخلافة وذلك خلال مدة قصيرة ، لا تتجاوز عدة أعوام ، كما استطاع أن يصل إلى الملك بالرغم من أنه لم يكن من أسرة مالكة ، وهذا ما ذكره عن نفسه .

وقد اختلفت الروايات التاريخية حول كيفية اتصال محمد بن أبي عامر بالخليفة المستنصر وزوجته صبح حتى استطاع أن يصل إلى حكم بلاد الأندلس ، فبينما يذكر المقرئ أن اتصاله بهما تم عندما طلبت الأميرة صبح مديراً لأموالها فذكر لها عدد من فتیان القصر محمد بن أبي عامر الذي كان يملك دكاناً صغيراً مقابل قصر الخلافة ، حيث كان يكتب الشكاوى والمعاريض للناس ، ومن يريدون الدخول إلى الخليفة الحكم المستنصر ، فاستحسن أسلوبه وعينته أميناً لبعض أمورها الخاصة (٨) .

ولم يلبث أن استطاع أن يستحوذ على إعجاب زوجات الخليفة الحكم المستنصر بفضل لباقة وحسن معاملته وعطائه ، فلفت ذلك انتباه الخليفة الحكم المستنصر فدخله الشك حيث قال لأحد من يثق بهم من رجاله «مالذي استلطف هذا الفتى ؟ حرماً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يضعن إلا هداياه ولا يرضين إلا ما آتاه . أنه لساحر عظيم ، أو خادماً لبيب ، وإنى خائف على ما بيده » (٩) .

وكان أن دفع هذا الشك أحد خصوم محمد بن أبي عامر إلى اتهامه أمام الحكم المستنصر بأنه مسرف في أموال الدولة ، مبدد لها ، ينفقها في سبيل مصالحه الشخصية ، وتكوين الأنصار والمؤيدين له . وعندئذ تأكد شك الخليفة المستنصر فيه ، وطلب منه أن يقدم له حساب الخزانة

العامة لأموال الدولة النى كان المسئول الأول عنها . وكانت الخزائن تعاني عندئذ عجزا كبيرا فيها ، مما دفع المنصور أن يلجأ الى أحد المقربين له ، وهى الوزير (ابن حدير) وكان مشهورا بثرائه ، فآخذ منه المنصور المال الكافى الذى استطاع به أن يغطى هذا العجز فى خزينة الدولة ، فزالت شكوك الخليفة فيه ، وازدادت ثقته به .

وهناك رواية أخرى تذكر كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة الحكم المستنصر ، أوردها ابن بسام حيث يذكر أن ذلك الاتصال تم عندما كان الخليفة الحكم المستنصر يريد أن يعين مشرفا لإدارة أملاك ابنه عبد الرحمن . فأسند هذه المهمة لمحمد ابن أبى عامر بناء على ترشيح الوزير جعفر بن عثمان المصطفى له . ثم آخذ محمد بن أبى عامر يتقلب فى مناصب الدولة ، بفضل وقوف الأميرة صبح وراءه فى كل منصب يتولاه مساندة ودافعة له .

وتذكر بعض المصادر أن من ضمن المناصب التى تولاها محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة الوسطى فى عهد الحكم المستنصر سنة ٢٦١هـ ، ثم قاضى العدو ، وخطة المواريث (١٠) .

كذلك قام بمهام سياسية بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر ، ومن هذه المهام أن الخليفة المستنصر جعله يرأس الوفد المكلف باستقبال يحيى ابن على بن حمدون أحد أمراء بنى خزر من أمراء قبيلة زناتة البربرية ، وهم ممن استعان بهم الخليفة الحكم للقضاء على الدولة الفاطمية ببلاد المغرب .

وهكذا أخذ شأن المنصور محمد بن أبى عامر يعلو ويثبت فى الدولة الأموية فى الأندلس بعد أن تولى الاشراف على تربية الأمير هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بتكليف من والده الخليفة الحكم ، كما أسند اليه مهمة تنظيم البيعة بولاية العهد لابنه القاصر (هشام المؤيد) . وقد مكنه ذلك من الاستيلاء على السلطة فى الأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر .

وكانت له جهود فى الحفاظ على منصب الخلافة للخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بعد أن قام بإحباط المؤامرة التى كان يخطط لها الفتيان الصقالبة، صاحب البردة والطرارز فائق وجؤذر صاحب الصاغة، واستهدفت هذه المؤامرة خلع الخليفة هشام وتولية عمه المغيرة بن عبد الرحمن ، بشرط أن يعهد المغيرة للخليفة هشام بولاية العهد من بعده.

المميزات العامة لشخصية المنصور بن أبى عامر :

وفى دراستنا لشخصية المنصور محمد بن أبى عامر يتضح لنا أن أهم ما كان يميز هذه الشخصية ذكاؤه وفطنته وقدرته على تصريف الأمور ومواجهة المصاعب ، هذا فضلا عن أن طموحاته الشخصية كانت لا تعرف حدا . وكثيرا ما كان يعبر عن طموحاته فى حديثه مع أصحابه ، فيدفعهم ذلك للاستهزاء به والسخرية منه .

ولكنه كان يصبر على موقفه مخاطبا إياهم بقوله : تمنوا على ، فتمنى كل منهم أمنية خاصة به الا صديقه موسى بن عزورن ، فقد استبعد حدوث ذلك الشيء ، فقال ساخرا له : اذا أمضى اليك الأمر يا صاحبى فأمر أن يطاف بى فى قرطبة على حمار ووجهى الى الذنب ، وأنا مطلقى بالعسل ليجمع على الذباب (١١) .

كذلك امتاز المنصور بمميزات أعلت من قدره ورفعت من شأنه . فالمتتبع للأحداث التى جاء فيها ذكر المنصور بن أبى عامر أثناء حكمه يدرك تماما أنه لم يكن ذلك الرجل المتعسف الظالم ، بل انه حرص كل الحرص على أن ينشر العدل ؛ دون أن يعمل حسابا للفروق الاجتماعية . كما كان حريصا على أن يشمل عدله العامة والخاصة ؛ من ذلك أن رجلا من العامة تقدم اليه فى مجلسه فشكا اليه مما طلة القاضى عبد الرحمن بن فطيس فى قضية بينه وبين أحد فتياناه صاحب الدرة (١٢) وذلك لمكانة صاحب الدرة فى بلاط المنصور ، فما كان من المنصور محمد بن أبى عامر ، الا أن أنكر على القاضى عبد الرحمن بن فطيس تصرفه هذا ، وعجزه وتهاونه فى الحسم فى هذه القضية بقوله : ما أعظم بليتنا من هذه الحاشية ؟ ، ثم نظر الى الفتى الصقلبى وطلب منه أن يدفع

«الدرقة» الى أحد رجاله ، وأن ينزل صاعرا الى مقام خصمه حتى يرفع الحق بينهما (١٣) .

وقد عرف المنصور من قبل رعيته بالعدل والانصاف ، بحيث كان كل من شعر باغفال ، أو هضم لحقه يحاول أن يوصل شكواه الى المنصور بن أبى عامر فلا يخذله ، ويأخذ الحق له . وقد حكى عن أحد تجار المغرب أنه جرت بينه وبين أكبر خدم المنصور والمشرف على داره ويدعى (البورقى) خصومة وجب فيها اليمين على (البورقى) ، فدافع عند الحكم ؛ ظنا منه أن منصب (البورقى) وجاهه عند المنصور لا يستدعى استحلافه . فما كان من التاجر الا أن وقف للمنصور بن أبى عامر وهو فى طريقه للمسجد الجامع لتأدية الصلاة فيه ، وطلب منه انصافه من هذا التاجر ، فطلب المنصور أن تحال قضية التاجر المغربى للحاكم لينظر فيها ، كما أمر أن يعزل خادمه (البورقى) من الخدمة ونفاه الى الأندلس (١٤) .

وكان من الأشياء التى تشغل بال المنصور ، ويصرف اليها جل وقته اهتمامه بتوفير الأمن والطمأنينة لرعيته ولدولته ، فكان دائم السهر على مصلحتها . وقد أنكر عليه أحد خدمه الملازمين له طول سهره ، وطلب منه أن يأخذ قسطا من الراحة ، فما كان رد المنصور عليه الا أن قال له : حارس الدنيا لا ينام اذا ما نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى هذا البلد عين نائمة ...» (١٥) .

وهكذا جمع المنصور بين سياسة العدل والسهر على مصالح الرعية ، وسياسة الحزم والعزم واليقظة - اذا ما استدعت الأمور ذلك . كل ذلك مع حسن معاملة الرعية والحرص على اكرامهم ، وبذلك كسب محبتهم له واقبالهم عليه (١٦) .

ولعل ما ذكره عنه ابن عذراى لأوضح دليل على ذلك ، اذ يقول « احتاج الناس اليه ، وغشوا بابيه فاسألهم ، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه سعة صدر ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرف جاهه ، وعمر بابيه » (١٧) .

كذلك كان المنصور محبا للعفو مشجعا عليه . من ذلك أن أحد
فتيان قرطبة وهو من أهل الأدب كان فى شىء من العوز والحاجة ،
فاشتغل فى خزانة الدولة فامتدت يده الى بعض المال فأخذ
مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فبلغ أمره المنصور محمد بن أبى عامر ،
فاستدعاه واستجوبه فيما نسب اليه ، فاعترف الفتى بذلك . . فامر
المنصور بحبسه والتشديد عليه . فأنشد الفتى أبياتا قال فيها :

أواه أواه وكـم ذا أرى أكثر من تذكار أواه
ما لامرئىء حول ولا قوة الحـول والقـوة لله

فلما سمع بها المنصور بن أبى عامر ، طلب احضار الفتى اليه
وسأله بقوله : أتمثلت أم قلت . . . فقال الفتى : بل قلت . فعفا عنه
المنصور ثم أنشد الفتى هذه الأبيات :

أما ترى عفو ابن عامر لأبد أن تتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة (١٨)

فلما سمع المنصور بذلك ، أمر بالعفو عنه ، وكافاه بالمال .

وكان المنصور شديد المخافة من الله ومن عقابه ، فكانت تعرض
عليه أسماء من طالبت مدة سجنهم للنظر فيهم والعفو عنهم . وكان من
ضمن هذه الأسماء اسم لأحد خدامه ، كان قد غضب عليه المنصور فأمر
بحبسه ، ووضع تحت اسمه : لا سبيل فى اطلاقه حتى يلحق بامه الهاوية .
فعرف الرجل السجين بما تم فى شأنه ، فأخذ يدعو ربه ويناجيه ،
فاصاب المنصور القلق والأرق فى نومه ، حيث كان يأتية عند نومه شخص
عنيف ليطلب منه اطلاق سراح الرجل ويتوعده على حبسه . فما كان من
المنصور الا أن أمر باطلاق سراحه فى كتاب قال فيه « هذا طليق الله
على رغم أنف ابن أبى عامر » (١٩) .

كذلك كان للمنصور هبة فى جنده ورجاله لم يؤتها ملك قبله ،
فكان مكان الاحتفال الذى يحضره المنصور بن أبى عامر يعمه الصمت

والسكون والاطراق ، حتى ان الخيل تمتثل لانصات فرسانها ، فلا تكثر الصهيل أو الهمهمة (٢٠) .

ولعل ما أورده خلف بن حيان والد الامام ابي مروان حيان بن خلف من حادثة تبين مدى ما كان عليه المنصور من هيبة واحترام فى نفوس رجاله وحاشيته ، وما كان عليه من تواضع ورفق بالرعية . ذكر ابن حيان أن المنصور قد لاحظ عليه حالة الفزع والهيبة من سلطانه ، فاستدعاه عندما فرغ مجلسه من الحضور ، وسأله عن سبب فزعه ، واستنكر ذلك عليه بقوله : من وثق بالله برىء من الخون والقوة، وإنما أنا آله من آلات الله تعالى أتصرف بمشيئته وأسطو بقدرته ، واعفو عن اذنه ، ولا أملك لنفسى الا ما أملك لى ، فأزل عنك روعك ، فانما أنا ابن امرأة من تميم ، طالما تقوتت بثمن غزلها ، ثم جاء من الله تعالى ما تراه (٢١) .

وكان المنصور يتصف بالعطف والرحمة على أفراد رعيته . هذا ما أورده المقرئ عنه فى حادثة يذكر فيها : أنه بينما كان المنصور عائداً من أحد غزواته على مملكة نبرة النصرانية ، لقيته امرأة وشكت إليه أن لها ابناً أسيراً فى بلاد الافرنج وعرفته باسم تلك البلاد ، فما كان من المنصور الا أن طمأنها وقام بفتح تلك البلاد وأطلق من فيها من أسرى المسلمين (٢٢)

وهكذا كان المنصور رجلاً حازماً قوياً ، مما مكنه من ضبط الأمور الداخلية فى دولته حتى جعل منها دولة قوية صامدة ، بالرغم من الأوضاع السياسية المضطربة التى أوشكت أن تعصف بها عندما ولى أمورها . وفد عبر ابن عذارى عن ذلك بقوله : « فقام بتدبير الخلافة وأقعد من كان له فيها انافة . . . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب أحسن دياسة . واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس نصفاً وعشرين ، ولم تدحض سعادتها حجة ، ولم ترزخر المكروه بها لجه ، لبست فيها البهاء والاشراق » (٢٣) .

كذلك كان المنصور شديد الخشية من الله والرغبة فيما عنده ، يتبين

ذلك من قوله لابن حيان فى احدى مخاطباته له « يا ابن حيان ، ان
أفضل الناس غرسا من غرس الخير ، وان أفضل السلطان غرسا ما أثمر
فى الآخرة . ومن أنا من الله تعالى لولا عطفى على المستضعف المظلوم ،
وقصمى للجبار المغشوم اللاهى عن حقوق ربه بفسوقه ودنسه » (٢٤) .

وحسب المنصور قول عبد الله بن بلكين آخر ملوك بنى زيرى
بغرناطة عنه : (٢٥)

« وكان - المنصور - بالرغم من أعباء الحكم ، وكثرة غزواته ،
واتصال جهاده محبا للعلم ، شغوبا بالأدب ، مقدرا من ينسب اليهما ويفد
عليه . وكان دقيقا فى اختيار هؤلاء الشعراء والتميز بين قدراتهم
الشعرية » .



أما أهم ما يميز سياسة المنصور محمد الخارجية والحربية ، فكان
جهاده الصادق للحد من أطماع القوى المسيحية فى الممتلكات الاسلامية فى
شمال الأندلس . وقد انطلقت سياسة المنصور محمد بن أبى عامر العسكرية
من خطة محددة ذات أبعاد واضحة استهدفت سحق القوى العسكرية
للممالك النصرانية واخضاع سادتها ، ولم يكن الهدف من حروبه النى
شنها على القوى المسيحية فى الشمال - كما قال بعض المغرضين طريقا
للوصول الى قلوب جماهير المسلمين فى أسبانيا ووسيلة لدعم طموحاته
السياسية (٢٦) . ذلك أن المنصور استطاع فعلا أن يحول بين النصارى
وأطماعهم فى بلاد المسلمين ، اذ لم تقتصر جهوده على رد هجماتهم
على الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتدت الى الفتح والتوسع فى
بلادهم الواقعة شمال الأندلس وبذلك أصبح قوة يخشاها ملوك تلك
البلاد مما أثار الفرع فى قلوبهم .

ثم انه عمل على نشر الاسلام فى البلاد التى غزاها ، ويقال انه
كان يغزو فى السنة مرتين احدهما فى الصيف وتعرف بالصائفة والثانية
فى الشتاء وتعرف بالشاتية . وأدت هذه الغزوات الى استنزاف قوة

النصارى ، وشل حركتهم التوسعية ؛ مما دفع كثيرا من الشعراء الى التغنى ببطولته (٢٧) .

وقد تباينت المصادر فى ذكر عدد غزوات المنصور لبلاد النصارى ، فمنهم من ذكر أنها خمسون غزوة . ومنهم من ذكر أنها اثنتان وخمسون غزوة . وقيل : أربع غزوات وقيل سبع غزوات . وقد ذكر ابن خلدون بأنها اثنتان وخمسون غزوة كلها تمت تحت قيادته . وفى ذلك يقول ابن خلدون « ورد الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا اثنتين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ، ولا غل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت سرية » (٢٨) .

وكأن من الطبيعى أن يهتم المنصور بتقوية الجيوش الاسلامية فى الأندلس ؛ لتستطيع مواجهة الأعداء ، فعمل على دعم جيشه وتجهيزه بكل المستلزمات الحربية . وزاد من عدد الجيش ، ورتب للجند معاشات شهرية مجزية ، لتشجعهم على مواصلة الجهاد ، كما كان يصرف للجنود مكافآت مغرية بعد كل غزوة أو سرية ، يتحقق له فيها النصر . ولاشك فى أن سياسة المنصور الحربية ودأبه على مواصلة حركة الجهاد ، أدت الى زعزعة كيان الممالك النصرانية شمال الأندلس حتى بلغت فى عهد المنصور درجة شديدة من التمزق والضعف . ولم يقبل المنصور من أعداء الاسلام صلحا ولا مهادنة ، مما جعل القوى المسيحية تلجأ الى تغيير خططها العسكرية ، فتحولت من الهجوم على الممتلكات الاسلامية الى الدفاع لمواجهة قوة المنصور العسكرية الساحقة .

ومن أشهر حروب المنصور محمد ، تصديه لاطماع الملك (ردمير الثالث) ٣٥٥ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢ م ملك ليون الذى حاول الهجوم على الممتلكات الاسلامية مستغلا صغر سن الخليفة هشام المؤيد . فقام بالهجوم على قلعة (رياح) وهى إحدى الكور الاسلامية المهمة ؛ وساعد فى هذا الهجوم أهالى امارة فشتالة فعاثوا فى بلاد المسلمين فسادا وتخريبا مما دفعهم الى الاستنجاد بالحاجب جعفر المصحفى القائم على دولة الأندلس فى بداية عهد الخليفة هشام المؤيد . وعندما رأى المنصور محمد تقاعس

الحاجب المصحف عن حماية بلاد المسلمين ، أعد جيشا خرج به من قرطبة فى الثالث من شهر رجب سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م . قاصدا أراضى ليون وقشتالة (٢٩) فحاصر حصن (الحامة) فى جليقية ، وأنزل بأهله هزيمة فادحة ، وقام بفتح الرىض التابع له ، والذي تم بناؤه على يد الملك ردمير الثالث (٣٠) وعاد الى قرطبة منتصرا (٣١) . ثم قام بحملة أخرى انطلقت من مدينة طليطلة وتمكن بها من فتح كثير من الحصون النصرانية . كذلك تمكن المنصور من فتح مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غرب مملكة ليون . ومن غزوات المنصور المهمة غزوه مملكة ليون ، لمعاقبة ملكها ردمير الثالث فتمكن من هزيمته وقام بهدم مملكته واستباحها لجنده .

ومن أهم غزوات المنصور تلك الغزوة التى عرفت باسم (اوشن ياقب) - أى القديس يعقوب - وهى عاصمة اقليم (جليقية) فى الشمال . وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها من أعظم معالم اسبانيا ؛ لمكانتها الدينية التاريخية ، كما تعتبر من أمنع معاقل اسبانيا النصرانية وأشدّها صعوبة لموقعها الجبلى الوعر الذى حال دون وصول المسلمين الفاتحين اليها . ولم يفكر أحد هؤلاء الفاتحين قبل المنصور بن أبى عامر فى اقتحامها ، حتى غزاها المنصور بن أبى عامر ٣٨٧هـ / ٩٩٧م على رأس جيش وبمعاونة الأسطول البحرى ، وتمكن من اقتحامها (٣٢) .

وكان لانتصار المنصور فى هذه الحملة صدى واسع ، وفرحة كبيرة فى نفوس المسلمين فى الأندلس ، وأشاد ابن دراج القسطلى بهذه الحادثة التاريخية بقوله (٣٣) :

ووقفت دون الدير فيها وقفة	كانت لنصر الله فيها موعدا
وبرأى عيني يوم خضت لفتحها	بحرا من البيض الصوارم مزيدا

وبعد أن غزا المنصور مملكة ليون تطلع لغزو بقية الوحدات المسيحية فى شمال شبه الجزيرة ، فقام بغزو أمارة قشتالة سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ؛ وذلك لمواجهة الحلف العسكرى النصرانى الذى نظمّه أميرها (سانشو غرسيه) ، والذي كان يضم عددا من ملوك النصرانية . وقد واصل فتوحاته فى أراضى قشتالة الى أن وصل الى عاصمتها (برغش) سنة

٣٩٠هـ/١٠٠٠م . وفى هذه الغزوة أظهر المنصور وجنده روحا عالية ، وخاصة بعد أن اهتز بعضهم أمام ضخامة جيش العدو وفكروا فى الفرار ، لولا أن من الله على المسلمين بالنصر وعندئذ وجه المنصور الى جنوده وقواده بيانا عسكريا قال فيه : « وكثيرا ما فرط من قولكم أنكم تجهلون قتال المعقل والحصون ، وتشتاقون ملاقات الرجال الفحول ، فحين جاءكم شاعبة بالأمنة وقائلكم بالشريطة انكرتم ما عرضتم ونافذتم حتى فررتم فرار اليعافير(٣٤) من أسار(٣٥) الفيل ، واجفلتم اجفال الرئال(٣٦) من المقتصين . ولولا رجال منكم دحصوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجود كافتكم ، وخرجت للامام والأمة من عهدتكم ونعمت المسلمون فى الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى . فلا بد أن ينصر دينه بمن شاء»(٣٧) وقد كان الشاعر ابن دراج شاهدا أيضا هذه الواقعة حيث تمثل فيها هذه الأبيات :

ان تفخر الدنيا فانت فخارها	أو تختر العليا فانت خيارها
وعدا على الله حقا نصر من نصره	وحكم سيفك فى هامات من كفر

الى أن يقول :

هلال بنور السعد والحق مقمر أهل على الاسلام الله أكبر(٣٨)

ومن الجوانب المضيئة فى حياة المنصور انه استطاع أن يشمل بلاد المغرب بنفوذه ، بغرض القضاء على النفوذ الفاطمى ، وبذلك استطاع أن يوسع نفوذ الدولة الأموية بالأندلس حتى غدا يضم مراكش كلها بما فيها مدينة (فاس) ، ولا شك فى ان المنصور استغل اضطراب الأحوال السياسية فى منطقة الشمال الافريقى ، وذلك بعد ان نقل المعز لدين الله الفاطمى مقر الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر . وقد استطاع المنصور محمد بحنكته السياسية وحسن معالجته للأمور ان يكسب محبة وموالة معظم أهل المغرب البربر الزيانية فأحبوه ، وتفانوا فى طاعته(٣٩) .

ولا شك فى ان المنصور أحس بالزهو والفخر بعد أن حقق هذا القدر من الانتصارات فى سبيل الدفاع عن الدولة الإسلامية فى الأندلس والحفاظ عليها . وقد عبر عن ذلك ببعض الأبيات الشعرية ، التى يقول فيها :

الم ترنى بعت الإقامة بالسرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر ؟
تبدلت بعد الزعفران وطيبه
صدا الدرع من مستحكات المسامر
ارونى فتى يحمى حماى وموقفى
إذا اشتجر الأقران بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامر-
بسيفى اقد الهام تحت المغافر
فلا تحسبوا أنى شغلت بغيركم
ولكن عهدت الله فى قتل كافر (٤٠)

وبالإضافة الى شجاعته فى ميدان الحرب ، كان المنصور سياسياً محنكا استطاع أن يكسب بسياسته احترام أعدائه فى نفوسهم ، مما دفع كثيرا منهم الى التقرب منه ، ومحاولة كسب وده فعقدوا الصلح معه ، وأرسلوا السفارات لكسب صداقته . ومنهم على سبيل المثل : شانجه بن غرسيه حاكم امارة (ناثار) . وعندما قام شانجه بن غرسيه بنقض الصلح مع المنصور قام المنصور بعدة هجمات على امارته ، وعندئذ أسرع الملك النصرانى (شانجه) باعلان طاعته للمنصور وتجديد العهد معه ، بل لقد اهدى ابنته له ، فتزوجها المنصور ، وأنجبت منه ابنه (عبدالرحمن) الذى عرف باسم (شنجول) تصغيرا لجده لأمه .

وهكذا توالى على بلاط المنصور سفارات متعبددة من قبل ملوك النصرانى فى الشمال معلنة ولاءها له . ومن بين هذه السفارات تلك السفارة التى كانت برئاسة ولى عهد امارة قشتالة ، وكان موفدا من قبل أبيه غرسيه .

كذلك كان من بين السفارات التى قدمت على بلاط المنصور مسعيا

لكسب صداقته وحسن رضائه تلك السفارة التي كانت برئاسة الأمير « غنر شلب » ابن سابع بن غرسيه (ملك ناغار) الى المنصور ، وكان ذلك عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣م وقد أشاد بها ابن دراج بقوله :

ورمى «ابن شنج» اليك نفس محكم
نهج الخضوع لها سبيل رشادها

الى أن يقول :

مستنجد منه مـذلة خاضع
غنم الحياة أبوه باستنجاها (٤١)

وفى الداخل حكم المنصور البلاد بحزم ، فتصدى لكل حركة استهدفت اثاره البلبلة والشغب فى الدولة لتحقيق أطماع خاصة بها . ومن هـذ الحركات حركة زيرى بن عطية الذى أعلن الثورة سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٧م على المنصور ، متهما اياه باغتصاب الحكم من الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر . فدخل فى حرب مع المنصور بن أبى عامر ، ولكن المنصور تمكن من انزال هزيمة نكراء به سنة ٣٨٨هـ / ٩٨٨م .

اصلاحات المنصور ومنجزاته الداخلية :

(أ) منشآت المنصور العمرانية :

لم تقتصر الجوانب المضيئة فى حياة المنصور على الجانب الحربى فقط ، بل شملت أعمال المنشآت العمرانية فى البلاد الأندلسية . ومن أجل أعماله توسعته الكبيرة فى المسجد الجامع بقرطبة سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م . وذلك حين لاحظ أن المسجد بدأ يضيق بالمصلين ، فقام بشراء الدور المحيطة بالمسجد من أصحابها ، وأمر بهدمها ، وأدخل أراضيها فى ساحة المسجد . وقد استغرقت هـذه التوسعة ما يقرب من العامين والنصف تقريبا (٤٢) . وقد حرص المنصور على توخى العدل والاندراهم به ، حينما أقدم على شراء هذه الدور من أصحابها ؛ حتى لا يحقق ظلم أو غبن بهم . من ذلك أنه راعى أن يكون شرائها عن طيب خاطر من صاحبها ، كما أنه ترك له الحرية فى طلب المبلغ الذى يرغبه (٤٣) .
(مجلة المؤرخ العربى) . .

ومن أعماله الانشائية كذلك انشاء القصور والمدن فى الانحاء التى تتميز بحسن طبيعتها واعتدال مناخها داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس . وكانت الصفة الغالبة على هذه القصور هى جمال التصميم وحسن التنفيذ . ومن هذه القصور قصر الزاهرة على نهر قرطبة وقد أطلق عليه اسم قصر الزاهرة نسبة الى المدينة ، التى قام بتأسيسها المنصور سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م شمال شرق قرطبة لتكون مقرا له . وكذلك انشاء قنطرة قرطبة على نهر قرطبة سنة ٣٧٨هـ ، وذلك لتخفيف الضغط على القنطرة التى قام بانشائها عبد الرحمن الداخل ، والتى تعرضت للسقوط عدة مرات ، بسبب جرف السيول لها . وقد ربطت هذه القنطرة شمال قرطبة بجنوبها ، وبذلك سهلت حركة مرور السكان من جهة الى أخرى . ومن أعمال المنصور أيضا انه قام باعادة بناء قنطرة مدينة طليطلة سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م وكانت قد هدمت بأمر الأمير محمد بن هشام من حفدة عبدالرحمن الناصر والملقب بالمهدى ، وذلك انتقاما من أهلها الثائرين عليه (٤٤) . وأمر المنصور ببناء قنطرة نهر اشتجه وهو نهر شنيل ، فسهل بذلك الطريق الوعرة والشعاب الصعبة (٤٥) .

ولم تقتصر أعمال المنصور محمد بن أبى عامر العمرانية على الانحاء الواقعة داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتدت الى الأجزاء التى فتحها فى بلاد النصارى فى الشمال . ويتضح ذلك من أنه عندما حضرته الوفاة ، كان بحضرته صاحب كوثر الفتى ، فراه باكيًا فسأله قائلا « مم تبكى يا مولاي لا بكت عيناك ؟ » قال : « مما جنيت على بلاد المسلمين . فلو قتلونى وأحرقونى ما انتصفوا منى » فسأله متعجبا قائلا له « وكيف ذلك ، وأنت أعززت الاسلام وفتحت البلاد ، وأذللت الكفر ، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم الى قرطبة حين بنيت بها جامعها ؟ » فقال له : « لما فتحت بلاد الروم ومعقلها عمرتها بالأقوات من كل مكان وبنيت بها حتى عادت فى غاية الامكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، فأوصلت العمارة » ثم أبدى مخاوفه ممن سيخلفه فى عدم قدرته على المحافظة عليها ؛ لانشغاله بملذاته الشخصية ، الى أن قال : « فيجىء العدو فيجد بلادا عامرة حاضرة ، فيقوى بها على محاصرتها ، فلا يزال يتغلبها شيئا فشيئا ، ويطويها طيا

حتى يملك أكثر هذه الجزر ، ولا يترك فيها الا معقل يسيرة . فلو
ألهمنى الله فى تخريب ما تغلبت عليه ، واخلاء ما تملكى ، وجعلت بين
بلاد المسلمين وبلاد الروم عشرة أيام فيافى وقفارا ، لايزالون لو راموا
سلوكها حيارى ، فلا يصلون الى بلاد الاسلام الا بعد جهد ومشقة» (٤٦) .

ومن اعمال المنصور أيضا أنه أعاد بناء مدينة سلا ، وهى رباط من
ربط المسلمين . وكانت قد تخربت على يد المارقين عن الاسلام (برغواطية)
فامر المنصور باعادة بناء أسوارها ، وبنى فيها مارستانا فخما ، وقصرا
لمقر الجند ، كما بنى بها جامعا بديعا ، وقاعة للصلاة مزينة باللازورد ،
والفسيفساء ، والنوافذ الزجاج الملون (٤٧) .

تنظيم الجيش :

بعد أن استتب الأمر للمنصور محمد بن أبى عامر فى الدولة
الاسلامية فى الأندلس ، أدرك أنه هو المسئول الأول عن بقائها وحمايتها .
ورأى أن من أول واجباته العناية بالجيش ، لأنه عماد الدولة الأول
والركيزة الأولى التى تعتمد عليها فى بقائها وقوتها . لذلك حرص المنصور
ابن أبى عامر على بناء جيش قوى متماسك يتناسب قوة وعددا مع
الجيوش الاسبانية النصرانية المعادية للدولة الاسلامية والمعارضة لقيامها
وكان أن فتح باب التطوع للانضمام الى الجيش الاسلامى وجعل الدخول
فيه متاحا لجميع أفراد طبقات المجتمع الأندلسى الاسلامى ، كما قام
بالغاء النظام الذى كان معمولا به من قبل فى الجيش وهو نظام التجنيد
الاجبارى ، وأحل محله نظام التطوع ، بحيث ترك حرية الانخراط فى
الجيش للأفراد . وقد أعلن المنصور ذلك بأمر أصدره سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م
بعد عودته من إحدى غزواته فقال : ان من تطوع خيرا فهو خير ، ومن
خف اليه فهو مبرور ومأجور ، ومن تثاقل فهو معذور (٤٨) . وكان لهذا
النظام أثره فى نفوس أهل الأندلس إذ سارعوا بالانضمام الى الجيش ؛
رغبة فى نيل الأجر والثواب من عند الله . وكان لذلك أثره البالغ فى عهدى
جهادهم ، وتفانيهم فى مواجهة الأعداء .

كذلك عمل المنصور على ازالة النظام التقليدى المعمول به فى

الجيش ، والذي كان يعتمد على زعماء العرب والبربر ، الذين استقروا وسط المزارع فى قلب البلاد ، فى وضع اقرب الى ما هو معروف فى النظام الاقطاعى . ويسمح لهم باستثمار الأرض مقابل النهوض بمهمة القتال والجهاد ومعهم اتباعهم ، عندما يدعوهم الأمير الى ذلك ، وعندما ينتهى القتال يعودون الى مزارعهم بما حصلوا عليه من مغانم (٤٩) وقد أدى ذلك النظام مع مرور الوقت الى نشأة تكتلات عسكرية ذات طابع سياسى فأصبحت مناطق اقامتهم شبه مستقلة عن الدولة واشعلوا كثيرا من الثورات وحركات التمرد . وصحب ذلك ظهور نزعات استقلالية وانفصالية ، كادت أن تودى بوحدة البلاد وأمنها ، لولا أن تدارك هذا الأمر المنصور بن أبى عامر وعمل على الغائه .

ومن الملاحظ أن المنصور تحاشى الاعتماد على طبقة الصقالبة كعنصر فعال فى الجيش بعد أن قويت شوكتهم فى زمن الحكم المستنصر ، فعمل المنصور على أبعادهم وعمل جيشا موحدا متماسكا يتألف من جميع فئات أهل الأندلس ، وبذلك يقضى على النزعات القبلية العنصرية داخل الجيش (٤٩) .

اهتمامه بالقضاء :

ومن النظم المهمة فى الدولة ، التى اختصها المنصور بالكثير من عنايته واهتمامه ، نظام القضاء ، اذ عمل على ضبطه وسيره فى الوجهة الصحيحة . ذلك أنه تصدى لكل من حاول الاخلال بالقضاء ، أو ادخال شئ مناف عليه . يذكر المقرئ عن المنصور أنه سد باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والزعارات ، حتى ارتفع البأس وأحس الناس بالأمن ، وأمنت البلاد عادية المجرمين (٥٠) . وقد أولى اختيار القضاة جل اهتمامه ، وتوخى فيهم حسن السلوك ، وحسن السيرة ، رغبة منه فى اشاعة العدل بين أفراد مجتمع الدولة الاسلامية . وكان اختياره للقاضى يقوم على أساس كفاءته التامة ونزاهته المطلقة ودرجة علمه . كذلك كان حريصا على فصل السلطة الزمنية عن السلطة القضائية ، بحيث منع التدخل فى شئون القضاء منعا باتا مع معاقبه من يثبت تدخله فى سير القضاء ، مهما يكن منصبه ، أو مكانته فى الدولة .

اهتمامه بالثقافة والعلم :

أما عن الناحية الثقافية والعلمية فى البلاد زمن حكم المنصور محمد ابن أبى عامر ، فقد احتلت الثقافة أهمية كبرى فى نشاطه ، ولم تشغله عنها أعباء الحكم ، أو جهاده المتواصل ، فكان محبا للعلم والعلماء ، كثير اللقاء بهم ، والاستماع الى آرائهم ، الى جانب احترامه واهتمامه باهل العلم والأدب والشعر (٥١) وقد خصص لهم أماكن مستديمة فى مجلسه . ويحكى عنه أن له تذوق للأدب والشعر ، حيث كان يفرق بين جيده ورديئه ، بحيث كان يمتحن قدرة الشعراء ، وموهبتهم الشعرية قبل السماح لهم بالقاء قصائدهم أمامه (٥٢) وكانت مكتبته زاخرة بكتب العلم والأدب والثقافة، كما أنه أسند الى العلماء وظائف القضاء والتدريس فى مسجد قرطبة الجامع (٥٣) . والمعروف عن المنصور بن أبى عامر أن نشأته منذ صغره كانت فى بيت علم ، وأدب ، وشعر .



وقد حظيت شخصية (المنصور بن أبى عامر) باهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، واختلفت وجهات النظر حول الحكم على هذه الشخصية الفريدة ، ما بين مآدح لها ، وطعن فيها . ونحاول نحن خلال الصفحات التالية عرض هذه الآراء ، وبيان وجه الحقيقة فيها .

أولا : مصادر اشادت بالمنصور بن أبى عامر :

١ - ابن حيان : وصف المؤرخ ابن حيان جهاد المنصور المشرف ؛ لأجل اعلاء كلمة الله فى عبارة ، نقلها عنه ابن عذارى ، وفيها يقول « تمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كل متعجرف ومتعطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم أذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغص بالحمام أرواحهم ، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم » (٥٤) .

٢ - الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بنى زيرى بغرناطة : قال هذا الرجل فى مذكراته عن المنصور : « وعلى الرغم من أن المنصور لم يكن من أسرة عريقة بالملك ، فانه حصل على ذلك بدهائه وعبقريته ،

وتدرجه فى المناصب ، وحسن تدبيره فى الدولة ، وأيضا كثرة غزواته وانتصاراته على النصارى ، والتي كانت تقابل باستحسان لدى أهل الأندلس ... » الى ان يقول « وقد نال الاسلام فى عهده بالأندلس عزا ونصرا ، لم تشهده الأندلس من قبل ، ووصل بالمسلمين الى بلاد النصارى وما كان لاي حاكم قبله ان يصل اليها » (٥٥) .

٣ - المؤرخ ابن عذارى : أعجب هذا المؤرخ بشخصية المنصور ، ووصفه بصفات جليلة ، ورفع قدره بين الحكام والملوك ، وذلك فى رواية يقول فيها « كان المنصور بن أبى عامر متسما بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربه ، وكثير جهاده . واذا ذكر بالله ذكر ، واذا خوف من عقابه ازدجر . وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم ، ومايزال متنزها عن كل ما تغن به الملوك . وكان يهتم بالعلماء ، ويعلى مراتبهم ويجزل العطاء لجنده وكان ذا عقل بصير بالحرب » (٥٦) .

ثانيا : باحثون محدثون أشادوا بابن أبى عامر :

١ - محمد عبد الله عنان : وقد ذكر هذا الباحث خلاصة ايجابيات وانجازات المنصور ، فذكر أنه كان قائدا مغوارا ، أنشأ فى الأندلس جيشا منظما ، حارب به أعداءه (نصارى الاسبان) وأن أيامه فى الأندلس كانت أياما خالدة ، ساد فيها الأمن والاستقرار ، وازدهرت فيها التجارة والصناعة ، وتقدمت فيها العلوم والآداب ، وكثرت الأموال فى خزائن الدولة فى عهده (٥٧) .

أما بخصوص اهتمامه بالعلوم والفنون ، فقد كان يشجع العلوم والفنون ، وقام بإنشاء دور العلم . وكان يقوم بزيارات للمدارس والحلقات العلمية فى المساجد ، كما أنه كان يمنح المكافآت لمستحقيها من طلاب العلم . وأثر عنه كثرة مجالسته للعلماء ومناظرتهم ، اذ كان له فى كل أسبوع مجلس يجتمع فيه مع العلماء ، والادباء والشعراء ، للمناظرة والبحث (٥٨) .

٢ - محمد لبيب البتانونى : أشاد هذا الباحث بشخصية المنصور ، وامكاناته الأدبية الفائقة ، ومهاراته وبعد نظره فى سياسة البلاد فى

عهدده ، فيقول « وكان من اكبر ملوك الأندلس سلطانا وفضلا ، وعالما وحسبا . له فى السياسة اليد الطولى ، وفى ادارة الحكم القدرة الفائقة . وكانت له مميزات فى صفاته وبعد نظره ، وفكر ماهر وقدرة كبيرة على تحمل الشدة (٥٩) .

٣ - المؤرخ الأسباني ماسديه : أعجب هذا الباحث الغربى بقدرات المنصور السياسية ، ونجاحه فى توحيد مملكته ، وقوة شخصيته ، وحسن معاملته لمن استسلم لجنده من أهالى المدن النصرانية التى تم فتحها على يديه ، ويعبر عن ذلك بقوله « كان المنصور سياسيا كبيرا وقائدا عظيما ، أخمد الثورات التى كانت تعصف بمملكته . واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته ، وبرز فى شهرته وهيبته على كثير من القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصراحة واللين ، والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح - قط - لجنده أن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعا» (٦٠) .

٤ - المؤرخ منذيث بيدال : قارن هذا الرجل بين حال الدولة الاسلامية بالأندلس أيام المنصور بن أبى عامر وما وصلت اليه من مج وفخار ، وبين ما انحدرت اليه ممالك النصارى فى الشمال من ضعف وهزال . وقد وصف هذا الوضع بقوله : « عاش الاسلام فى أسبانيا أرفع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع ، وكانت أيامهم مقرونة بالحن . ولاح كأنهم لم يعيشوا الا لتأدية الجزية ، والسلاح ، والأسرى . والمجد للخلافة الأموية » (٦١) .



على أن التاريخ لا ينظر الى الأمور من زاوية واحدة ، وعلى ذلك لابد من الاشارة الى رأى الآخر فى حكمه على المنصور . ويكون ذلك بتحديد الاتهامات التى وجهت الى المنصور ، والمآخذ التى أخذت عليه .

الاتهام الأول - أنهم المنصور بأنه اغتصب حكم بلاد الأندلس لنفسه ، وحكم البلاد حكما مركزيا مطلقا . وذلك بأن حجر على الخليفة الشرعى (هشام بن الحكم) حتى أصبح هو الأمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة

من شئون الدولة ، وهكذا غدا شبيها بأمر الأُمراء فى بغداد وقد وصف ابن عذارى (٦٢) المنصور بأنه استأثر بكل سلطان الخليفة ، ولم يعد يكلف نفسه مجرد استشارة هشام ، أو اعلامه بما يجرى حوله ، كما اعتاد أن يفعل فى السنوات الأولى من حكم هشام المؤيد « لقد قصر الخليفة من جميعه ، وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه ، وشد باب قصره عليه ، وجد فى خبر ألا يصل اليه . وجعل من يثق به من صنائعه على باب القصر ، لضبط حركة الدخول والخروج وأوقف الحراس والبوابين ، يلزمونه ليل نهار . أما الخليفة هشام فهو خفى الذكر ، عليل الفكر ، محجوب عن الأحباب لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعهد اليه الا الاسم السلطانى فى السكه والدعوة ، وقد نسخه ، ولبس أبهته ، وطمس بهجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال اطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه » .

وهذا القول مردود عليه بأن المنصور رأى صغر سن الخليفة هشام وبلاهته ، وضعف عقله ، فقدّر أن ظروف الدولة الحرجة أمام الصراعات فى الداخل ، وتربص الأعداء فى الخارج ، لا تحتل ترك مقدرات الأمة الأندلسية فى يد طفل صغير .

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن المنصور (٦٣) - عزل هشاما ، وحجبه عن شئون الدولة برضاء أمه ، اذ كان الخليفة مشغولا بمعاشرة القيان والجوارى والخدم ، مما أفسد خلقه ، وأضعف رجولته ، وحد من قدراته العقلية . فأنى له أن تكون مقاليد الدولة بيديه ؟!

الالتهام الثانى : أن المنصور تزوج من (أسماء) وهى ابنة القائد الغالب عبد الرحمن (٦٤) ، مستهدفا المكر والخديعة ، والوصول الى اطماعه الشخصية .

ويرد على ذلك بأن المنصور لم يستهدف من ذلك الزواج المكر والخديعة ، وإنما اراد ابطال ما كان يدبره الحاجب (جعفر المصحفى) ، الذى كان ينوى تزويجها الى ابنه (عثمان) ، لتحقيق شىء من التفاهم والوثام بينه وبين القائد غالب ابن عبد الرحمن ، عن طريق هذه المصاهرة ، والتي عن طريقها يتم التحالف بين هذين الرجلين ضد

ال خليفة هشام بن الحكم ، فيعملان معا على انتزاع السلطة منه . وكان المنصور يخشى قيام حروب وفتن فى البلاد ، لوجود منافسين آخرين لهما ، مما سيؤدى الى اضطراب أمور الدولة .

فأراد المنصور أن يسبقه الى الزواج من ابنة غالب ، ليقطع دابر الفتنة ، ويثدها فى مهدها .

الاتهام الثالث :

اتهم المنصور بعدم الانسانية ، وباتخاذ كافة السبل والوسائل غير الاخلاقية ، لأجل تحقيق مصالحه الذاتية . وأنه كان يسعى للوصول ولو على جثث الآخرين . ومن ذلك : اشتراكه مع القائد غالب بن عبدالرحمن فى غزوة (الصائفة ، والشاتية) ضد النصارى بمدينة (مجرىط) ورغتم أن النصر تم على يد غالب الا أنه نسب الى المنصور . وتم ذلك بناء على اتفاق أبرم بينهما ، يتم بمقتضاه قضاء المنصور على الحاجب (جعفر المصحفى) . وكان ذلك عن طريق تقريب الخليفة هشام للمنصور ، لما علمه من تحقيق النصر على يديه ، ولما جلبه من غنائم وسبى . وكانت نتيجة هذا التقارب ايقاع المنصور بين هشام والمصحفى . ونجحت الواقعة بأن أصدر هشام أمرا بعزل المصحفى من رئاسة الشرطة والمدينة ، واسناد ذلك الى المنصور . هذا بالاضافة الى ما قام به المنصور من تعذيب وسجن ونهب لآل المصحفى ، حتى هلك المصحفى فى السجن ذليلا .

ويرد على ذلك بأن هناك عوامل دفعت المنصور الى التخلص من المصحفى أهمها عاملان :

الاول - استبداد المصحفى بالسلطة فى الدولة بحكم مركزه فيها .
اذ كان يعد الرجل الحقيقى الاول فيها .

الثانى - نقمة المنصور عليه ، واتهامه اياه بالتقصير فى الدفاع عن ثغور الأندلس ، ومواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين الأمنين . لقد استنجد بالمصحفى أهل قلعة (رياح) ؛ لانقاذهم من ملك ليون (رومير الثالث ٣٥٥ - ٣٧٢ هـ) ، الذى زحف بقواته على ذلك الثغر الاسلامى بمساعدة ادارة قشتالة ، فعاثوا فى الأرض فسادا . ولكن المصحفى وقف

موقفا سلبيا من هؤلاء المستضعفين رغم ما يملكه من عتاد ورجال وأموال .
وكان كل ما نصحهم به ان يهدموا سد نهر (آنه) ، لتحول مياهه دون
عبور الأعداء اليهم . لذلك رأى المنصور ضرورة عزله لتهاونه وعدم قدرته
على حماية بلاد المسلمين .

الالتهام الرابع :

اتهم ابن أبى عامر بأنه رجل متعطش الى سفك الدماء ، مخادع
ما كر على استعداد لعمل أى شئ عى سبيل الوصول الى أغراضه
ومطامعه ، وأن صيرورة أمر هذه المملكة الأندلسية اليه بعد أن كان
عبد الرحمن الناصر قد حقق لها وحدتها ، أدى بها الى الضعف
والانحلال (٦٥) .

لقد قال البعض فى المنصور أنه كان ميكافيليا قبل أن يولد
ميكافيللى بقرون ، وأدرك أنه فى سبيل الوصول الى الحكم لابد من أن
ينحى الضمير والوازع الأخلاقى جانبا . ولذا فانه قتل كل من كان
يخشاه من أمراء البيت الأموى فى الأندلس . ولم يكتف المنصور بذلك ،
بل كان يقضى على مراكز القوى الثانوية التى تنافسه . فمثلا قضى على
عبد الرحمن ابن مطرف التجيبى من عائلة هاشم ، وكان يحكم
(سرغوسه) (٦٦) .

ويرد على ذلك بأن المنصور ادرك ان كل أمير فى البيت الأموى
يطمح فى أن تكون الخلافة له من دون هشام بن الحكم ، فرأى ضرورة
التخلص منهم ، لأن وجودهم سيؤدى الى اشعال الفتنة والحروب الأهلية
فى الدولة ، ويوجه نظر أعدائها من الاسبان نحوها ، بغرض الاستيلاء
عليها .

لقد كان الخليفة هشام غير قادر على تحمل مسئولية الخلافة اذ كان
يعيش للمذااته الخاصة . وقد وصفه ابن سعيد بأنه (نشأ جامد الحركة ،
أخرس الشمائل ، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار فى صورة آدمى)
الى أن قال عنه : (وكلما زاد سنا نقص عقلا) بل مما يدل على سذاجته
وبلاهته الشديدة ، أنه عندما خلفه الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار

على اثر تنازله عن الخلافة بعبد الرحمن بن المنصور، لم يكن يشغله في ذلك الحدث الجلل الا طائره (الهدهد) الذى كان يتولى العناية به ، حيث قال لاحد غلمانه : بالله انظر هدهدى ان كان سلم ، وتفقدته لئلا يهلك بالجوع والعطش فانه من ذرية الهدهد الذى دل سليمان على عرش بلقيس (٦٧) . هذا الخليفة المعتوه كان من السهل خلعه ، وانتزاع امراء بنى أمية فى الأندلس عرشه ، ولذا كان لابد من موقف صارم لابن أبى عامر تجاه بقاء هشام فى الحكم (٦٨) .

اما ما يتعلق بحكام منطقة (سرغوسة) ، فقد خشى المنصور أن تثير هذه الأسرة الحاكمة القلاقل والفتنة داخل الدولة الاسلامية بالأندلس، خاصة اذا عرضنا تواطؤ حكامها وتعاملهم مع النصارى أعداء المسلمين فى مقاطعة الشمال الذين كانوا لا يتوانون فى القضاء على الاسلام ودولته .

الاتهام الخامس :

يؤخذ على المنصور تخليه عن العنصر العربى ، واعتماده على العنصر البربرى ، والصقالبة فى الجيش .

ويرد على ذلك بأن المنصور لم يتخل عن العنصر العربى تماما فى الجيش وانما حد من أعدادهم لازالة العصبية القبلية عن الجيش ، حيث ان الجيش فى عهد خلفاء بنى أمية فى الأندلس قبل تسلم المنصور زمام الأمور - كان يتألف من العنصر العربى فقط ، أو لعل هذا العنصر كان هو العنصر الغالب فى الجيش ، مما سبب الفوضى ، وأوجد الحزازات والعصبية داخل الدولة . وقد رأينا أن المنصور ، عمل ليجعل الجيش جيشا نظاميا ولذا أدخل فيه عناصر بشرية متباينة من تلك العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى ، وقسم الجيش الى فرق متعددة كل فرقة تعبر عن أحد العناصر المتباينة التى تألف منها المجتمع الأندلسى كالبربر ، والعرب والصقالبة (٦٩) .

وجدير بالذكر أن المنصور نكب صقالبة القصر ، وأن ذلك العمل رفع من قدره فى نظر الأندلسيين عموما ، وأهالى قرطبة خصوصا، لأن الجميع كرهوا تلك الفئة الدخيلة المتغلبة على شئون القصر والبلاد .

الالتهام السادس :

وصف المنصور بن أبى عامر بالجبروت والعسف : نتيجة قتله ابنه وفلذة كبده : عبد الله . ونحن لانستطيع - ولا نقر - له عذرا فى مثل هذا التصرف الأخرق ، ولكن نترك المنصور نفسه يبرر تصرفه فيقول : ان ابنه عبد الله تأمر عليه مع خصومه التجيبين أصحاب الثغر الأعلى ، كما تأمر مع خصوم أبيه فى قرطبة والزاهرة ، وذلك بالتجائه الى عدو المسلمين (غرسيه) كونت قشتالة ، الذى كان يكن الحقد والكراهية لأبيه - لقد أقدم المنصور على التخلص من ابنه ليحد من مؤامراته ، التى كانت تهدد بالقضاء على دولته وعلى دولة الاسلام فى الأندلس . وكان المنصور يدرك جيدا نوايا ابنه الخبيثة ، وما يدبره له من مكائد . وقد أفصح عن ذلك لأحد أعيان البربر (طرزون بن زترء البرازالى) ، وعندما استنكر عليه قتل ابنه ، فقال « لا يسؤك ذلك ، فلو لم أفعل لقلتنى » (٧٠) .

الالتهام السابع :

يؤخذ على المنصور فى مجال الحياة الثقافية أنه كان يكره الفلسفة والفلاسفة ، ولا يأنس الى علماء الفلك والتنجيم . وقد عبر عن نهجه هذا بصراحة ، حين أخرج بعض ما كان فى خزانة الخليفة الحكم المستنصر من نوادر المؤلفات الفلسفية والعقلية ، وأحرقها بمحضر عدد من أكابر الفقهاء والعلماء .

ويرد على ذلك أنه ربما أحس بأن بعض كتب الفلسفة التى أحرقها كان فيها ما يخالف الدين وعقائده . وكان المنصور يحرص على الظهور بمظهر المدافع عن الدين كما كان حريصا على استحباب رضاء العلماء ، وكسب تأييد عوام الناس فى قرطبة (٧١) .

الالتهام الثامن والأخير :

أخذ على المنصور أن فتوحاته لبلاد النصارى لم يرافقها استيطان للمسلمين فى تلك البلاد المفتوحة . ولو أنه حقق ذلك الاستيطان ، لصعب على النصارى استردادها بعد ذلك .

ويرد على ذلك بأن ظاهرة الاستيطان ترتبط بالعامل النفسى عند الجنود المسلمين المحاربين فى جيش المنصور ، اذ من الواضح أنهم كانوا لا يرغبون فى الاستيطان فى تلك المناطق لعدم تأقلمهم وفق طبيعة تلك البلاد ، الى جانب احساسهم بأن بقاءهم فيها لا يدوم ، وربما تعرضوا للافتتان عن دينهم عند استرجاع النصارى لبلادهم (٧٢) .



وأخيرا فاننا فى حكمنا على المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر وتقويمنا له ، نرى :

١ - لا نستطيع أن ننكر المواهب والكفاءات والمهارات السياسية والقيادية ، التى تمتع بها المنصور ، والننى أهله لكسب ثقة الحكم المستنصر ، وجعلته يتدرج فى المناصب المهمة التى ترقى اليها ، حتى وصل الى مرتبة الحاجب ، منافسا غيره من رجالات الدولة الكبار ، وعلى رأسهم (جعفر المصحفى) .

٢ - ولا ننكر - أيضا - أن الظروف خدمت المنصور للوصول الى ما وصل اليه من مجد . ذلك أنه لم يكن من أهل بيت ملك فى عصر كان العظماء يتوارثون الملك كابرا عن كابر . فسعادة جده (حظه) (٧٣) مع ذكائه الفذ ، كل ذلك مكنه من الوصول الى أهدافه ، عن طريق التخطيط السليم ، متخطيا كل العقبات التى صادفت طريقه ، سواء تخطاها بسبل شرعية أم غير شرعية .

٣ - اذا كان يحسب للمنصور أنه صان وحدة الأندلس وحقق له الاستقرار تحت قيادته ، وحمى بلاد المسلمين من غزو النصارى لها ، بل لقد فتح كثيرا من بلادهم فى الشمال ، حتى غدا مصدر رعب وفزع مستديم لهم (٧٤) الا أنه كانسان اجتهد فى سياسته ، فأصاب أحيانا ، وأخطأ حيناً . ويمكن تركيز خطاه فى مسألتين : احدهما داخلية - وذلك بالاكثار من استخدام البربر فى ديوان جيشه ، اذ تذكر المصادر أن عددهم بلغ ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس (٧٥) ، حقيقة أنه كان يستهدف تقوية

الجيش الاسلامى المجاهد بهم ، ولكن ذلك أثار حقد العرب عليه ، وامتد هذا الحقد الى ما بعد وفاته ، وظهرت نتائجه فى عهد ابنه عبد الرحمن (شنجول) ، مما كان سببا فى اشعال الفتنة بين أهالى قرطبة والبربر ، وادى - فى النهاية - الى سقوط الدولة العامرية بالأندلس .

والثانية خارجية - وهو خطأ اعترف به المنصور نفسه ، اذ حرص على المحافظة على البلدان والمدن والحصون التابعة لنصارى الشمال عندما قام بغزوها والاستيلاء عليها ، رغبة منه فى استفادة المسلمين منها فيما بعد . وبدلا من أن يعمل على تخريبها وفقا لروح العصر قام بتعميرها ، وخبز الأقوات بها ، تسهيلا لاستمرار الفتوحات الاسلامية للبقاع النصرانية . فلما ضعفت الدولة الاسلامية بعد ذلك ، كانت تلك المناطق عوناً للنصارى فى الاغارة على الثغور الاسلامية فى الأندلس .



وبعد ، فاننا لا يسعنا فى ختام هذا البحث سوى أن نردد ما نقش على قبره من شعر بعد وفاته وذلك اشادة بما قام به من أعمال جليلة فى خدمة الاسلام والمسلمين :

آثاره تنبئك عن أخباره	حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يتأتى الزمان بمثله	أبدا ولا يحمى الثغور سواه (٧٦)

الهوامش

- (١) المراكشى : المعجب ص ٧٣ .
- (٢) ذكر ياقوت أن طرش ، بضم أوله وتشديد ثانيه وضعه أيضا ، ناحية بالأندلس تشتمل على ولاية وقرى .
- (٣) ابن بسام : الذخيرة ٣٩/١ - ٤٠ .
- أحمد العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .
- (٤) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق ٢ ص ٧٧ - ٧٨ - نفس الصفحة .
- (٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٢ ص ٧٧ - ٧٨ .
- (٦) ديوان ابن دراج القسطلى ، ص ٣٠٠ .
- (٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ .
- (٨) المقرئ : نفح الطيب ١٨٧/١ .
- (٩) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٦٨ .
- (١٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ .
- (١١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٧٧/٧٨ .
- (١٢) الدريقة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب (أى : ولا غصب تعمل من الأوتار) .
- والمقصود : المستول عن التروس المصنوعة من الجلد الخالص .
- (المعجم الوسيط مادة (د ر ق - ح / ص ٢٩٠)) .
- (المعجم الوسيط مادة ع ق د - ح ٢ ص ٦٣٦) .
- (١٣) نفح الطيب (دار صادر) : ٤٠٩/١ - ٤١٠ .
- (١٤) السابق : ٤١٠/١ .
- (١٥) السابق : ٤١٦/١ .
- (١٦) المقرئ / نفح الطيب ١ / ٤١٣ - ٤١٨ .
- (١٧) ابن عذارى / البيان المغرب ٣/٢٥٨ . والاحاطة ٢/١٠٣ - ١٠٤ .
- (١٨) المقرئ/نفح الطيب ١/٤١٨ - ٤١٩ .
- (١٩) مخطوط الزهرات المنشورة فى نكت الاخبار الماثورة/ابن سماك تحقيق : محمود على مكى ص ٨٣/٨٤ .

- (٢٠) نفس المرجع السابق
- (٢١) نفس المرجع السابق ، ص ٨٥
- (٢٢) المقرئ/نفح الطيب ٥٩٧/١
- (٢٣) ابن عذارى/الييان المغرب ٢٥٨/٣
- ابن سماء المرجع السابق
- (٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥ (طبعة دار المعارف - تحقيق : بروفنسال)
- (٢٥) ابن دراج القسطلی/تحقيق محمود على مكى ص ١٦
- (٢٦) عبد المجيد نعننى/تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس ص ٤٤٦
- المقرئ/نفح الطيب ٥٩٨/١
- (٢٧) ومنهم ابن دراج القسطلی حين قال للمنصور عندما كان مودعا إياه فى إحدى غزواته :
- سـر سار صنع الله حيث تسير قدما وساعد عزمك المقدور
- وقضى لك الرحمن أنك قاهر حـزب الضلال وأنته مقهور
- فانهض بحزب الله يقدم جمعه حفظ الأله وسعيك المشكور
- (٢٨) ابن خلدون العبر ٣٢١/٤
- (٢٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٧٠/١
- (٣٠) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٥٢٩
- (٣١) كان يرافقه فى هذه الغزوة ، فأعجب بشجاعته وبطولته فعبر عن شعوره ذلك بقوله :
- أهـلا بمن نصر الاله وأيـدا وحمى من الاشرار أمة أحمد
- ديوان ابن دراج القسطلی ص ٥١
- (٣٢) المقرئ : نفح الطيب ٤١٣
- (٣٣) ديوان ابن دراج - تحقيق محمود مكى ، ص ٣٧٣ وما بعدها (ط ٢٠)
- (٣٤) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبي لونه كلون العفر (التراب) ، أو هو ولد البقرة الوحشية
- (٣٥) أسار : الأسر ، والأسارى : الأسرى (جمع أسير) : م . الوسيط (مادة ١٧ ص ١٧)
- (٣٦) الرئال : جمع رال ، وهو فرخ النعام (ما أتى عليه حول منه) (السابعة : مادة/ال ٣٣٢/١ ٣٦٢/١)

(٣٧) الوثائق السياسية والادارية فى الأندلس وشمال إفريقيا/تحقيق : محمد ماهر حمادة نقلًا من ابن الخطيب/تاريخ اسبانيا النصرانية ص ٧٢ .

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٣١ .

(٣٩) أحمد مختار العبادى/تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٤٠) ومما يؤثر عن شعره رحمه الله قوله :

رمىت نفسى هول كل عظمة وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاخبي الاجتاف مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر
ومن شيمتى انى على كل طالب أجود بمال لاتقيه المعاندر

ابن الخطيب/الاحاطة ١٠٤/٢ . وانظر ابن الأبار/الحلة السراء ٣٧٥-٣٧٦.

(٤١) ديوان ابن دراج (ط) تحقيق : د. محمود مكى ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٤٢) ابن عذراى : البيان المغرب ٤٢٩/٢ .

(٤٣) المقرئ : نفح الطيب ٥٤٦/١ (ط : دار صادر) .

(٤٤) ابن عذراى : البيان المغرب ١٤٤/٢ .

(٤٥) نفح الطيب للمقرئ ح ١ ، ص ٤٠٩ .

(٤٦) أحمد مختار العبادى التاريخ العباسى والأندلس ص ٤٥٦ .

(٤٧) الاسلام والمسلمون فى افريقية الشمالية .

عبد العليم عبد الرحمن خضر ص ٢٨٨ عالم المعرفة للنشر والتوزيع .

(٤٨) اعمال الاعلام : ابن الخطيب ص ١٠١ .

(٤٩) تاريخ الدولة الأموية بالأندلس : عبد المجيد نعنقى ، ص ٤٦٢ .

(٥٠) المقرئ : نفح الطيب .

(٥١) البيان المغرب/ابن عذراى ٤٢٠/٢ .

(٥٢) مقدمة ديوان القسطلئ للمحقق : د. محمود مكى ، ص ٤٢ .

(٥٣) تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس/عبد المجيد نعنقى .

(٥٤) البيان المغرب ٢٧٤/٢ . وكذلك ورد فى (نفح الطيب) للمقرئ ٤٠٣/١ .

(٥٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥ .

(٥٦) البيان المغرب - المكان السابق .

(٥٧) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٣ ، ٨٩ .

(مجلة المؤرخ العربى)

(٥٨) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٢٨٦ والدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٩ .

(٥٩) رحلة الأندلس ، ص ٧٠ .

(٦٠) محمد عبدالله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ص ٩٥.

(٦١) محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ص ٩٥
نقل ذلك عن :

R.M. Pidal : La Espana del Cid, P. 72

والدولة العامرية فى الأندلس : دراسة سياسية وحضارية ، لعلى أحمد القحطاني ، ص ١٠٧ .

(٦٢) البيان المغرب ٢/٢١١ ، ٢١٤ .

(٦٣) د . عبد المجيد نعنقى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٢٤ .

(٦٤) نفح الطيب للمقرئ ، ج ١ ، ص ٤٠٠ .

(٦٥) ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٧٧ ، وبطرس البستاني : معارك العرب الأندلسي، ص ٥ ، وأحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٤ .

(٦٦) د . عبد المجيد نعنقى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٣٨ .

(٦٧) المغرب فى حطى المغرب ١/١٩٤ - ١٩٥ .

(٦٨) يقول ابن الخطيب عنه : « وكان هشام مندرجا فى طى كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب اليه تدبير ، ولا يرجع اليه من الأمور قليل أو كثير ، اذ كان فى نفسه وأصل تركيبه ضعيفا مهينا مشغولا بالإنزهاة ، ولعبب الصبيان والبنات ، (أعمال الاعلام ٢/٥٨-٥٩) ، ولا شك أن المنصور كان يسعد ويسجد لله عندما يسمع الروايات التى تروى عنه وسفه هشام وكان يقول ان السلطان الذى تصلح معه الرعية اثنان : اما سلطان قاهر ذو رأى ، عارف بما يأتى ويذر ، مستبد بنفسه . واما سلطان مثل هذا (يعنى هشاما) تدبر الدنيا باسمه ، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه نمائلة . والمتوسط يهلك ويهلك « المغرب لابن سعيد ١/١٩٥ - ١٩٦ » .

(٦٩) أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٥٢ .

(٧٠) البيان المغرب ٢/٨٨٥ .

(٧١) نفح الطيب (تحقيق : احسان عباس ١/٢٢١) .

(٧٢) وقد قامت حملات تبشيرية على يد رجال الدين المسيحي ، وأرغموا فيها المسلمين على التنصير ولو ظاهريا . بعد سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وعرفوا بـ (الموريسكيين) وطردوا من الأندلس نهائيا بعد فشل تنصيرهم .

(انظر تاريخ مسلمى الأندلس لعبد الله حله ، ص ١٧٢ ، وبحث د . عبد الله جمال الدين (طرد المسلمين من الأندلس : آثاره ونتائجه) .

(٧٣) تثبت هنا - ما ذكره الأمير عبد الله من ارتباط نجاح المنصور بطالعه، رغم عدم اقتناعنا بذلك ، يقول قد حصل على عظام بداعائه ومخرمته على العامة مع ما هيأت السعادة له ، وكانت أقوى الأسباب فى سلطانه وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس ، كان أعظم الأسباب فى سلطانه ، أو عقاره ، (مذكراته ص ١٥) .

(٧٤) وقد سعد النصارى بوفاته وسجلت حولياتهم ما يلى : فى سنة ١٠٠٢م (٢٩٢هـ) (مات المنصور وذهب الى جهنم) .

(٧٥) البيان/المغرب ٤٢٨/٢ .

(٧٦) أعمال : الأعلام ، ص ٨١ . نفح الطيب ٣٩٨/١ .

(الدعوة الزيدية فى مصر)

« من منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) الى منتصف

القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) »

د . حسن خضيرى أحمد (*)

تمهيد :

تنسب الزيدية الى زيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب (١) ، الذى ظهر على المسرح السياسى فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م ، وكون أتباعا يشايعونه سياسيا ومذهبيا عرفوا بالزيدية (٢) .

ذلك أن زيد بن على خرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، واتخذ من الكوفة مركزا لدعوة أهلها ، فنادى فيهم قائلا :

« انما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ورد المظالم ، وفعل الخير ، ونصرة أهل البيت ، فان اجبتم سعدتم ، وان ابيتتم خسرتم ولست عليكم بوكيل » (٣) .

ولما علم يوسف بن عمر الثقفى (١٢٠ - ١٢٦هـ / ٧٣٨ - ٧٤٤م) والى العراق - بأن زيدا يدعو لنفسه سرا فى الكوفة ، كتب الى عامله هناك - الحكم بن الصلت - بتتبع زيد والقضاء على حركته (٤) . ومالبث زعماء أهل الكوفة أن نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم لزيد ، حين اجتمعوا معه ، وسألوه عن رأيه فى الشيخين أبى بكر وعمر ، فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحدا من أهلى يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما الا خيرا . قالوا : فلم تطلب اذن بدم أهل هذا البيت ؟ فكان جواب زيد :

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

«انا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ٠٠٠ وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ٠٠٠ فان انتم احببتمونا سعدتم ، وان انتم ابئتم فليست عليكم بوكيل ٠٠ » فرفضوه ، فقال لهم : اذهبوا فانكم الراضة (٥) .

وكان أن واصل زيد جهاده مع نفر قليل من أصحابه - جلهم من الفقهاء - في معركة غير متكافئة مع جند والى العراق ، أسفرت عن اصابة زيد بسهم في جبينه ، سقط على أثره صريعا يوم الجمعة ٢ من صفر سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ، (٦) وحفر له أصحابه في ساقية ، وأجروا عليه الماء ، حتى لا يعلم بأمره ، بيد أن والى علم بمكانه ، فأخرجه من قبره ، واحتز رأسه ، ثم بعث به الى هشام بن عبد الملك ، فنصبه في دمشق ، ثم أرسله الى المدينة فنصبه هناك (٧) ، وأما جثمانه فقد صلب بكناسة الكوفة (٨) ، ومكث مصلوبا سنين عددا ، الى أن تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦هـ/٧٤٣ - ٧٤٤م) فكتب الى يوسف ابن عمر يأمره « باحراقه وذروه في الرياح » (٩) . وأما عن مصير رأس زيد بن علي فتتفق الروايات التاريخية على نقله الى مصر يوم الأحد ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م مع أبي الحكم بن أبي الأبيض العبسي (١٠) ، حيث ضيف بها ثم نصبت على المنبر بجامع عمرو . فسرقه أهل مصر ودفنوه في الموضع الذي يعرف الآن بحى زين العابدين (١١) ، والذي كن يعرف من قبل باسم (الحمراء القصوى) (١٢) . ثم بنى عليه مشهد في عصر الدولة الفاطمية ، أشار اليه المقرئى بقوله (١٣) : « هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ، ومدينة مصر تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ وانما هو مشهد رأس زيد بن علي المعروف بزين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب » كذلك ذكر المقرئى نقلا عن كتاب الجوهر المكنون : « زيد بن علي زين العابدين ٠٠ الشهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل ٠٠ وهو مشهد صحيح » (١٤) .

ويروى المقرئى أن الأفضل بن بدر الجمالى ، لما بلغته حكاية رأس

زيد ، أمر بكشف المسجد يوم الأحد ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م ، وكان وسط الأكوام ، واندثرت معالمه ولم يبق منه الا المحراب ، فوجد الرأس ، وحمله الى داره حتى عمر هذا المسجد (١٥) .

على أن هناك لوحة تذكارية مثبتة على مدخل المسجد بالواجهة الغربية ، كتب عليها ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا مشهد الامام على زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على ابن أبى طالب ، صلوات الله عليهم اجمعين فى سنة ٥٤٩هـ » (١٦) .

كذلك هناك لوحة أخرى بالمسجد تعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى كتب عليها ما يلي :

هذا مقام قد شرف قدره	مذ دخل فيه من تكامل فخرا
زيد بن زين العابدين بن الحسين	بن الفاطمة البتول الزهراء
بنت النبى المصطفى أكرم بذا	نسبا عليا قد تطهر طهرا
من زاره نال المسرة والمنال	وسعادة الدنيا كذاك الآخرة
بشرى لعثمان أغا ببناؤه	حاز السيادة والهنا والآخرة
يارب زده نعمة ومهابة	وارفع له بين البرية قدرا
فهو الذى أحيا لنا هذا البناء	فى مسجد زان المساجد ناظرا

سنة ١٢٢٥هـ (١٧)

وبمراجعة اللوحتين نجد أن اللوحة الثانية رغم أنها متأخرة زمنيا ، الا أنها تؤكد ما أجمعت عليه الروايات التاريخية من دفن رأس زيد بن على فى هذا الموضع ، « وليس قبر أبيه فى مصر بل قبره بالبقيع » (١٨) . ويبدو أن اللوحة الأولى اختلط على كاتبها الأمر ، ونسب المشهد الى زين العابدين بدلا من ابنه زيد . ومن هنا يمكن القول بأن أول ظهور للزيدية كان فى مصر عند قدوم رأس زيد بن على زين العابدين الذر يعتبر بحق مؤسس المذهب الذى نسب اليه .

أما علمه وفقهه فقد أجمع أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والشيعة على امامة زيد فى العلم (١٩) ، وأنه كان حجة فى الفقه ، كما أجمع العباد والزهاد وغيرهم على أنه لم يكن له نظير فى علمه وخلقه (٢٠) ، ويصفه

الامام أبو حنيفة النعمان بقوله : « .. شأهدت زفء بن على ، كما شأهدت أهله ، فما رأفت فف زمانه أفقه ولا أعلم منه ، .. لقف كان منقطع القرفن » (٢١) .

وفذكر الشهرستانف (٢٢) أن زفء بن على ، التفف بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه آراءه فف الاعتزال ، وبلغ نهاية التقدم فف علم الكلام (٢٣) . أما عن مبدء زفء نفسه فهف بافجاز :

— أن الامامة تقتصر على أولاء على بن أبف طالب من نسل فاطمة حسنا كان أم حسفنف (٢٤) .

— خروج الإمام شأهرا سفففه حاملا رافة الفهاد على الظلم والجرور (٢٥) .

— أن فءعو الإمام لنفسه بعء أن فستوفف شروط الامامة من العلم والزهد والفقه ، وأن فءعو الى كتاب الله وسنه رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد مال المستضعففن ، والرضا من آل محمد (٢٦) .

والواقع أن ثورة زفء كانت ثورة لها شأنها ، وكانت فاتحة للءعوة الزفءفة التى انتشرت من بعء زفء على فء اتباعه وتلامفذه ، الالف رحلوا الى الاقطار الاسلامفة ، فنشرون الءعوة ، وففقهون الناس (٢٧) . وكانت مصر من بفن هذه الاقطار ، ففث ضمت بفن ثراها رأس مؤسس هذه الءعوة ، وهذا ما سنقف علىه فف هذه الءراسة .



بدء الءعوة الزفءفة فف مصر :

سقطت الءولة الأموفة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م ، وجاء حكم العباسففن ، امتءاءا للظلم والاستبءاء الالف مارسهما الأموفون من قبل ضء العلوففن ، بسبب موقفهم المعارض لءلافة آل العباس ، وحقهم فف الامامة ءونهم . ءلك انهم أنكروا البفعة بالءلافة لكل من أبف العباس وأخفه أبف جعفر من بعءه . وقءم العلوفون ابرز رجالهم وقتذاك وهو محمد بن عبءالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبف طالب المعروف بالنفس الزكة (٢٨) ،

فدعا لنفسه بالأمامة بالحجاز سرا ، فضلا عن الكوفة التي جاءها أخوه ابراهيم وقام فيها بنشاط كبير . أما مصر فقد جاءها ابنه على داعيا لأبيه وعمه (٢٩) في أوائل سنة ١٤٤هـ/٧٦١م . ويرجع اختيار مصر مركزا للدعوة الزيدية والاعداد للثورة بها لعدة أسباب منها :

أن مصر ذات مركز اقتصادي متميز ، فهي درة ولايات الخلافة ، « ومن فضائلها أنها تميز أهل الحرمين وتوسع عليهم (٣٠) » . ثم ان موقعها الاستراتيجي ، وبعدها عن حاضرة الخلافة يكفل الحماية للدعوة ونجاح الثورة . أما على الصعيد السياسي ففيها شيعة على بن أبي طالب ، هذا فضلا عن ميل المصريين لآل البيت (٣١) . أضف الى ذلك أن كثيرا من تلاميذ زيد رحلوا الى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية داعين للمذهب الزيدي (٣٢) . ومن أهمهم غوث بن سليمان الحضرمي (ت ١٦٨هـ/٧٨٤م) الذي كان على قضاء مصر اباا قدوم على بن محمد اليها سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، « واتهم أن يكون غيبه عنده » (٣٣) ، الأمر الذي جعل أبا جعفر يكتب الى واليه بحبس هذا القاضي وصرفه عن القضاء في رمضان سنة ١٤٤هـ/٧٦١م (٣٤) . وكذلك عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي (ت ١٧٤هـ/٧٩٠م) الذي تولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ / ٧٧١ - ١٦٤هـ/٧٨٠م) للخليفة المنصور (٣٦) ، كان على مذهب زيد بن على ، ومفرطا في التشيع « (٣٧) » .

أما عن موقف وإلى مصر حميد بن قحطبة الطائي من هذا الداعي الزيدي الوافد ، فيذكر الكندي (٣٨) ان على بن محمد لما قدم الى مصر نزل على عسامة بن عمرو المعافري ، فأخبر صاحب السكة الوالي أمر هذا الداعي ومكانه ، وطلب القبض عليه « فقال حميد : هذا كذب ، ودس عليه فتغيب ، ثم بعث اليه من الغد فلم يجده » ، فما كان من صاحب السكة الا أن كتب الى الخليفة يعلمه بالأمر ، وتهاون الوالي في القبض عليه ، مما جعل الخليفة يحنق على واليه ، ويأمر بعزله عن امرة مصر ومساءلته ، فرحل من مصر متوجها الى العراق في ٢١ من ذي القعدة سنة ١٤٤هـ/أبريل ٧٦١م .

ونستشف من هذه الرواية ، أن الوالي العباسي كانت له ميول

المتشيع ، دون أن يكشف ذلك خشية بطش أبى جعفر . والمعروف أن وائده قحطبة بن شبيب وابنه الحسن بن قحطبة كانا من رجالات الدعوة العباسية فى خراسان وقت الاعداد للثورة العباسية ، ووليا قيادة الجيش الزاحف من خراسان صوب العراق .

على اية حال عزل أبو جعفر واليه لمساءلته ، وان كان هذا الوالى قد نجح فى اقناع الخليفة بولائه وقبول عذره ، فوله قيادة الجيش لمحاربة النفس الزكية بالحجاز فى رمضان سنة ١٤٥هـ /ابريل ٧٦٢م (٣٨) ، مستفيدا من كفاءته ، وتطبيقا لسياسته « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » .

ثم عقد الخليفة أبو جعفر ولاية مصر ليزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فقدمها فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ /ابريل ٧٦١م (٣٩) وقد استفحل فيها خطر الدعوة الزيدية ، وطار ذكرها بين المصريين ، « وتكلم بها الناس ، وباع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله » (٤٠) ، وذلك بفضل جهود خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى (٤١) ، أحد زعماء الصدف من العرب اليمانية بمصر ، وكان قد ورث عن جده وقبيلته الميل للعلويين ، « فقد كان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته » (٤٢) . وهكذا اتخذ خالد بن سعيد داره مركزا لنشر الدعوة ومقرا للبيعة للنفس الزكية ، واستطاع أن يضم اليه بعض الأمويين فى مصر من أبناء الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان (٤٣) ، الى جانب العناصر المتذمرة التى ربما لم يكن لديها أى ولاء للعلويين أو تفهم للدعوة الزيدية ، ولكنهم أملوا بأن المهدي الجديد سوف ينقذهم من الظلم ، ويوفر لهم حياة أفضل . وكان ان أخذت هذه العناصر تدعو لهم ، سواء كان ذلك باخلاص ، أو لمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسية تحقيقا لغايات أخرى مبيتة .

ولاشك فى أن الدعوة لآل البيت تكفى لكسب الأنصار ، لالمهم من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المسلمين عامة ، والمصريين خاصة . وقد مس آل البيت الضر الكبير على أيدي الأمويين ثم غبنهم العباسيون حقهم فى الإمامة . لهذا التف الناس حول على داعية أبيه محمد (النفس الزكية) ، الذى قضى بمصر نحو عام ، والتقى بشيعة جده من الصدف

والمعافر ، واستطاع ان يجوس خلال الديار يكسب فيها الأنصار (٤٤) ، ومنهم عدد غير قليل من المصريين رحبوا بالدعوة حتى « تكلم بها الناس ، وبائع كثير منهم لبنى الحسن فى الباطن . . وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم » (٤٥) .

ولما علم خالد بن سعيد بظهور محمد النفس الزكية وثورته بالحجاز ، عزم بدوره على تفجير الثورة فى مصر ، فعقد مجلسا بداره ضم زعماء من قدموا البيعة ، واستشارهم فى الأمر ، فاقترح عليه دحية بن مصعب - أحد رجال البيت الأموى - أن يضرم النار فى مدينة العسكر ، حيث مقر والى العباسى وجنده . بيد أن هذا رأى لم يجد قبولا من باقى الزعماء ، خشية الدخول فى مغامرة غير محمودة العواقب . واتفق رأيهم على الاجتماع فى المسجد الجامع بالفسطاط ، وبدء الثورة بالاستيلاء على بيت المال . بيد أن رجلا من المجتمعين دس الخبر الى صاحب شرطة الفسطاط عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، الذى أخبر بدوره والى يزيد بن حاتم ، وبذلك فقدت الثورة عنصر المفاجأة . وعندما توجه خالد بن سعيد على رأس أنصاره وأتباعه من المصريين الى جامع عمرو فى جنح الظلام ليلة العاشر من شوال سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م للاستيلاء على بيت المال (٤٦) ، تصدت لهم قوة أرسلها الولى بقيادة صاحب الشرطة . ثم بدا واضحا فشل هذه الثورة بتخلف احدى القوى الموالية للعلويين ممثلة فى أبى حزن المعافى . والمعروف أن المعافر قوة لها ثقلها الحربى والسياسى فى ذلك الوقت (٤٧) ، فضلا عن انسحاب نفر من المصريين لحقوا بجيش يزيد بن حاتم (٤٨) .

وكان أن وقف صاحب الشرطة بالمسجد وخاطب خالد بن سعيد بكلمة قبطية أن يخرج . وعند خروجه رماه أحد جند العباسيين بنشابة ، فانتزعها ، وخرج ينبعه ابنه ابراهيم وهربة . وهكذا فشلت الثورة بهزيمة خالد ومقتل ثلاثة عشر رجلا ، وفرار خالد واختفائه عند يحيى ابن جابر أبى كنانة الحضرمى سبعين ليلة حتى هدأت الأحوال وسكن الطلب (٤٩) .

أما مصير زعماء الانتفاضة من أصحاب خالد فقد يسر صاحب الشرطة

هروبهم واختفائهم . وكان الضرب هو العقوبة الوحيدة التى حلت
بعمامة من اشترك فى تلك الحركة ، مما يدل على ما يبطنه صاحب الشرطة
هذا من ميل للعلويين . أما مصير على بن محمد النفس الزكية فتباينت
أقوال المؤرخين فى أمره ، فمنهم من يذكر أنه أخذ بمصر ، فمات فى
حبس محمد بن أبى جعفر الملقب بالمهدى (٥٠) ومنهم من يذكر أنه اختفى
عند عسامة بن عمرو أحد رجالات المعافر ، فأنزله قرية طره ، وتوفى
فيها ودفن بها ، مما عرض عسامة هذا للحبس ، ثم حمل الى العراق ،
وأودع فى سجن أبى جعفر المنصور (٥١) ولم يخرج منه الا فى عهد
ال خليفة المهدى (٧٧٤ / ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) بعد أن تشفع له أبو
عبيد الله الأشعرى - كاتب المهدى - وبعد أن أقر عسامة للمهدى بأن عليا
ابن محمد مات فى بيته ، فصدقه المهدى وعفا عنه ، وردّه الى مصر (٥٢) .
والراجح أنه اختفى بمصر الى أن مات فيها .

وهكذا كانت انتفاضة ومصير أول علوى من آل البيت قدم مصر
لنشر الدعوة الزيدية بها (٥٣) .

على أن هذه الانتفاضة ، وان كانت قد انتهت سريعا على ذلك
الوجه ، فانها تركت أثارا بعيدة المدى على مستقبل الدعوة الزيدية ،
التى انتشرت بين عدد غير قليل من المصريين ، حتى غدت مصر مكانا
يؤمه أئمة الزيدية من آل البيت فيما بعد . أما الآثار المباشرة ، فقد
تخرجت الحالة بمصر ، وسادت موجة من التذمر والسخط بين
المصريين (٥٤) ، مما حدا بالوالى العباسى أن يمنع أهل مصر من الحج
سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م . ولم تهدأ الحال فى مصر الا بعد أن قدم البريد برأس
ابراهيم بن عبدالله بن الحسن قتيل باخمرا فى ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ /
٧٦٢ م فنصبت فى المسجد الجامع أياما ثم طيف بها (٥٥) ثم دفنت فى
الضاحية التى تعرف بمنية مطر (المطرية حاليا) (٥٦) .

ويرجح بعض الباحثين (٥٧) أن السبب فى اختيار جهة المطرية
مقرا لرأس ابراهيم - أحد أئمة الزيدية - هو ابعاد الناس عن زيارة
المقبرة ، حتى تخمد الثورة ، وتخبو الدعوة ، فقد كانت منطقة المطرية ،
غير أهلة بالسكان ، لبعدها عن العاصمة وهى الفسطاط ثم العسكر ، كما

أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم . ومما يجدر ذكره أنه يوجد بالمطرية الآن ضريح ومسجد ابراهيم بن عبد الله فى شارع ماهر المعروف بشارع سيدى ابراهيم ، المتفرع من شارع المطراوى .

ولا يفوتنا أن نذكر من بين آثار هذه الانتفاضة الزيدية فى مصر ، أنها أتاحت الفرصة لذوى الأغراض المختلفة للخروج على الخلافة العباسية ، فاستمرت المعارضة الأموية فى مصر . ورفع راية المعارضة دحية بن مصعب بن الأصبح بن عبد العزيز بن مروان ، وهو أحد زعماء ثورة على بن محمد النفس الزكية فى مصر . وقد خرج فى صعيد مصر سنة ١٦٥هـ/٨٧١م ، ودعا الى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد . واستمرت ثورته حتى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م (٥٨) ، حيث قتل وصلب فى تلك السنة .

ويمثل عهد الخليفة المهدي (٧٧٤/١٥٨ - ٧٨٥هـ/١٦٩) فترة وفاق علوية عباسية قصيرة . وسرعان ما تحركت الزيدية بعد ذلك بثورة ثانية بالحجاز فى عهد الخليفة الهادي (٧٨٥/١٦٩ - ١٧٠هـ/٧٨٦م) ، كان لها آثار خطيرة فى تاريخ الدولة العباسية ، حيث خرج الحسين بن على بن الحسن المثلث بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م (٥٩) ، يدعو لنفسه ويتطلع الى الامامة . وكان أن جمع أنصاره والتقى بالعباسيين فى موقعة فخ (٦٠) ، التى تقرر فيها مصير العلويين ، وكثر فيها ضحاياهم ، ومنهم الحسين بن على نفسه . وقد بلغ من قسوة التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة ان قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء ، فقال بعضهم : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ .

ولم ينج من هذه الكارثة الا القلائل الذين فروا الى أطراف البلاد ، منهم يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، الذى ذهب الى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين (٦١) . أما أخوه أدريس بن عبد الله فقد فر بنفسه صحبة مولاة راشد من مكة الى مصر ، واستقر بها فترة عند أحد المصريين المتشيعين لآل البيت ، فبالغ فى اكرامهما والاحسان اليهما (٦٢) ، وقال لهما : « لتطمئن نفوسكما ، فانى من شيعة آل البيت ، وأول من كتم سرهم ، فأنتما من الأمنين » (٦٣) ، ولم يكتف

هذا المضرى باخفاء أمر ادريس فحسب ، بل يسر له ولولاه راشد طريق الخروج من مصر ، وأمدهما بالدواب ، وسار معهما الى برقة ، وجدد لهما طعاما وودعهما (٦٤) .

وكان على امرة مصر فى ذلك الوقت على بن سليمان الهاشمى (١٦٩هـ / ٧٨٥م - ١٧١هـ / ٧٨٧م) ، الذى علم بمكان ادريس وسعى الى لقائه سرا ، فسأله ادريس بالله والرحم ألا يكشف أمره ، وأنه متوجه الى المغرب ، فستر عليه ، وقال « : وانى أكره أن أتعرض لدماء آل البيت » (٦٥) .

ويزيد بغض المؤرخين (٦٦) ، أن واضحا مولى صالح بن المنصور - صاحب البريد فى مصر وقتذاك - كان متشيعا لآل البيت ، وأنه علم بشأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كان مختبئا فيه ، فمهد له الطريق وأمده بمن يرشده الى أرض المغرب . وقدم له دواب البريد ، فحملته الى طنجة سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م ، بحيث أخذ يدعو لنفسه ، ولقى التأييد والعون من البربر . وكان أن أرسل دعائه الى مدن المغرب ، فأجابه خلق كثير ، وجدوا فى دعوته ومذهبه حركة مضادة للخلافة العباسية التى يعارضونها ، وبذلك استطاع أن يكون دولة عمريت طويلا حتى سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م (٦٧) .

وكان جزاء عامل البريد على تهريب ادريس العقاب الشديد فقد أمر الرشيد بضرب عنقه ، وولى بريند مصر وأخبارها رجلا يدعى الشماخ (٦٨) . وهكذا حفظ لنا التاريخ دور مصر ثانية ، فى أيوائها أحد أئمة الزيدية ، واخفاء أمره ، وتيسير هربه ، ليكون أول دولة للعويين وهى دولة الأدراسة . وكان من الممكن تجنب قيام هذه الدولة لولا ذلك المضرى ووالى مصر وصاحب بريدها .



القاسم الرسى والدعوة الزيدية فى مصر .:

هو القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب (٦٩) . ولد فى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م . استنادا الى

ما تذكره المصادر على أنه توفي سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما (٧٠) .

أما عن سنى حياته الأولى فالمصادر لا تمدنا بالكثير عن ذلك والراجح أنه نشأ في المدينة ، حيث درس الحديث على أبى بكر عبد الحميد ابن عبد الله بن أبى أويس المدنى (ت ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م) (٧١) ، كما درس الفقه على أحد شيوخ بى الحسن ، والتقى بالكثير من علماء اللغة أيضا (٧٢) واشترك والد القاسم فى ثورة انحسين الفخى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م (٧٣) وأما جده اسماعيل الملقب بالديباج فكان من جملة المسجونين فى حبس أبى جعفر المنصور (٧٤) .

ويعتبر القاسم من أهم الشخصيات الزيدية . دعا الى نفسه سرا فى مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، دون أن يقوم بثورة تحقق له الامامة . واستطاع عن طريق دعائه أن يمهد لقيام أول دولة زيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م . هذا فضلا أنه أسس لنفسه قاعدة فى اليمن استفاد منها حفيده الهادى الى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم فى اقامة دولة زيدية باليمن سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، استمرت ما يربو على ألف سنة . ومن هنا اثرتنا أن نلقى مزيدا من الضوء على حياته فى هذه الدراسة .

جاء القاسم الى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، عندما ثار أخوه محمد بن ابراهيم على المأمون سنة ١٩١ هـ / ٨١٥ م فى الكوفة ، فأرسله الى مصر لياخذ له البيعة من المصريين ويقوم بالدعوة (٧٥) ، وتذكر المصادر الزيدية أن القاسم قدم الى مصر وهو شاب فى السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين (٧٦) .

ويبدو أن أخاه أرسله الى مصر ليبعده عن أعين العباسيين ، حتى لا تتكرر المأساة السابقة التى راح ضحيتها كثير من العلويين ، وكذلك ليختبر مدى استعداد المصريين للاستجابة للدعوة الزيدية . لكن القاسم لم يمكث بمصر طويلا نظرا لما كان يجتاحها من اضطرابات بسبب الحرب الأهلية بين أنصار كل من الأمين والمأمون (١٩٥ / ٨١٠ - ١٩٨ هـ /

٨١٣م) (٧٧) ، الأمر الذى عجل برحيله الى بنى عمه الادارسة بالمغرب الأقصى ، حيث قضى فترة من الوقت (٧٨) ، وأتاه هناك خبر وفاة أخيه محمد سنة ١٩٩هـ/٨١٥م ، فرثاه بقصيدة نقتبس أبياتا منها (٧٩) .

يادار دار غرور لا وفاء لها حيث الحوادث بالمكروه تستبق
أبرحت أهلك من كد ومن أسف بمشرع شربه التصدير والرنق

الى أن يقول :

فأیما حدث تخشى غوائله من بعد هلكك يغنينى به الشفق

ثم كان أن عاد القاسم الى مصر سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م وقد عزم على الدعوة لنفسه بعد وفاة أخيه ، فبث دعائه ، وهو على حال الاستتار على أساس الرضا من آل محمد (٥٧) . وانتشر ذكر القاسم فى الآفاق ، فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة ، وجاءته بيعة أهل مكة والمدينة والكوفة وأهل الرى وقزوين وطبرستان (٥٨) ، وتخوم الديلم ، كما كاتبه أهل العدل من البصرة والأهواز وحثوه على الظهور (٥٩) . واجتمع اليه فى مصر أصحاب هرثمة بن أعين البالغ عددهم نحو عشرة آلاف ، فأقام بينهم فى خفية عشر سنوات (٦٠) . وعندما تأهب للخروج على الخلافة العباسية ، وعلان الثورة فى مصر ، لم يتمكن من ذلك لأسباب اختلف فيها المؤرخون ، فمنهم من أرجع السبب فى ذلك الى أنه « سَمِعَ فى عسكره صوت طنبور ، فقال : لا يصلح هؤلاء القوم أبدا ، وهرب وتركهم » (٦١) ، أو بسبب آرائه فى الشيخين أبى بكر وعمر ، فانفض عنه كثير من أتباعه (٦٢) ، أو أن الطلب قد اشتد عليه من قبل والى مصر عبد الله بن طاهر (٢١١هـ/٨٢٦م) ، فلم يمكنه المقام ، فعاد الى بلاد الحجاز وتهامه (٦٣) .

ويبدو أن شدة الطلب من الخليفة المأمون، واحكام الرقابة من جانب والى عبد الله بن طاهر ، كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء مغادرة القاسم مصر وعدوله عن الثورة فيها . كذلك لا يستبعد أن يكون الكثير من المصريين قد انسحبوا من صفوف القاسم ، بعد ما تبين لهم رأيه فى

الشيخين ، لما لهما من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المصريين ، فخشى على نفسه الوشاية ، وأنسل راجعا الى الحجاز .

على أية حال غادر القاسم مصر يتوجس خيفة ، ميمما وجهه صوب الحجاز وتهامة ، بعد نحو عشر سنوات قضاهما فى مصر ، نشر خلالها الدعوة الزيدية فى مصر وبعض بلاد المشرق ، ولاقت قبولا كبيرا من المصريين ، فقدموا له كل عون ومساعدة واکرموا وفادته . ومن الحجاز استمر القاسم فى الدعوة فبعث جماعة من دعائه من بنى عمه وغيرهم الى بلخ والطالقان والجوزجان ، فبايعه كثير من أهلها ، وطلبوا منه أن يرسل لهم أحد أبنائه ليظهروا الدعوة ، بيد أن عيون الخلافة العباسية، كشفت أمره فأرسلت اليه جيشا يتتبع أثره ، مما حدا به أن ينحاز الى حى من البدو حيث ظل مختفيا طيلة عصر المأمون (٦٤) .

ولما توفى المأمون ، وتولى المعتصم الخلافة ، اجتمع أمر أهل البيت على مبايعة القاسم البيعة الجامعة سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م اماما للزيدية ، لما اتصف به من علم وفقه وشجاعة ، وهى من شروط الزيدية . وتمت البيعة فى منزل محمد بن منصور المرادى بالكوفة (٦٥) ، وعندئذ عزم القاسم على الخروج فى المدينة ، فأشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك « لأن المدينة والحجاز تسرع اليهما العسكر ، ولا يتمكن فيها من الميرة » (٦٦) . لذلك لم يتمكن القاسم من الخروج ، وفضل الاختفاء والتنقل فى الصحراء بسبب الملاحقة التى تعرض لها من جيوش المعتصم (٦٧) .

على أن القاسم لم يحمل السلاح مطلقا ضد العباسيين ، ولم يقد ثورة مسلحة ، طبقا لقاعدة خروج الامام عند الزيدية ، وانما اختفى بالدعوة واشتغل بالدين والعلم . ويعلل الهارونى (٦٨) ذلك بأن الغرض من الدعوة هو الانتصاب للأمر ، واظهار مبايعة الظالمين والتجرد لقصدتهم ودفعهم ، وليس الغرض منها تجييش الجيوش فى مباشرة الحروب ، لأن ذلك مشروط بالتمكن والقدرة ، واجتماع الأصحاب والأنصار . والقاسم قد بلغ النهاية فى اظهار الدعوة ، ودعا الناس اليها ، وباين الظالمين وهاجر عنهم . ومن مذهبه أن الهجرة من الدار التى يغلب عليها الظالمون واجبة لا يصح الاخلال بها . وكان أن استقر القاسم فى أخريات حياته فى (مجلة المؤرخ العربى)

جبل الرس بالقرب من المدينة فى أرض اشتراها لنفسه ولأولاده بالقرب من ذى الحليفة (٦٩) . وهناك اشتغل بالتدريس ، وعمل على نشر مبادئه بين الحجاج الذين كانوا يعرجون الى المدينة بعد الانتهاء من حجهم فيلتقون به ، وينهلون من علمه وأفكاره ، ومن ثم ينشرونها بين مواطنيهم بعد عودتهم لبلادهم . ومن بين هذه الدروس التى كان يلقيها القاسم كتابه « سياسة النفس » الذى استقطب الكثير من آل البيت وأتباعهم « وغناهم عن اللجوء لغيره » (٧٠) . ولم يلبث أن توفى القاسم سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م ، بعد أن قضى أكثر عمره مستقرا (٧١) .



الآثر السياسى والفكرى للقاسم الرسى :

قضى القاسم فى مصر قرابة عشر سنوات ، وهى فترة طويلة نسبيا ، استطاع خلالها أن ينشر الدعوة الزيدية بين قطاع كبير من المصريين . وإذا كان قد غادر مصر ، فانه ترك فيها بعضا من اخوته وذويه ، ظلوا بمثابة دعاة له . وما زالت شيعة على بمصر الى ان ورد كتاب الخليفة المتوكل الى اسحاق بن يحيى (٢٣٥/٨٤٩ - ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) واليه على مصر ، يأمره باخراج آل على بن أبى طالب من مصر ، فاخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م الى العراق ، ثم اخرجوا من هناك الى المدينة (٧٢) « واستتر من كان بمصر على رأى العلوية » (٧٣) .

ويبدو أن الذين بقوا فى مصر من العلويين ، اضطروا الى النزوح والتسلل الى الصعيد ، خاصة قفط (٧٤) التى تشير بعض المصادر الى أن أهلها كانوا من الشيعة (٧٥) ، وأنها « وقف على العلوية من أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وليس فى ديار مصر ضيعة وقف ولا ملك لأحد غيرها » (٧٦) وتشير الدراسات الحديثة الى وجود العلويين بالصعيد فى القرن الثالث الهجرى (٧٧) .

وهكذا يمكن القول أن العلويين والشيعة فى مصر أصبحوا غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد الخليفة المتوكل (٧٨) . ويكفى للتدليل على ذلك أن يزيد بن عبد الله (٢٤٢/٨٥٦ - ٢٥٣هـ / ٨٦٧م)

ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه ، فأقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه ، فزاده ثلاثين درة . ولما علم الخليفة بذلك ارسل كتابا الى يزيد يأمره بضرب ذلك الجندى مائة سوط ، وحمل بعدها الى العراق (٧٩) . وتتبع هذا الوالى الشيعة فى مصر ، وحملهم الى العراق . ولم يكن عهد الخليفة المنتصر (٨٦١/٢٤٧ - ٨٦٢/٢٤٨ م) أحسن حالا من عهد أبيه ، فقد استمر فى اضطهاد العلويين ، حيث بعث كتابا الى مصر يأمره «بأن لا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ٠٠٠» (٨٠) .

وفى خلافة المستعين (٨٦٢/٢٤٨ - ٨٦٦/٢٥٢ م) وضع ضعف الخلافة العباسية فى ظل سيطرة الأتراك ، مما هيا الفرصة للعلويين ، وتابعهم فيها المصريون المتأثرون بدعوة القاسم الرسى للقيام بخمس ثورات فى فترة عشر سنوات . واتخذت الخروج شعارا لها طبقا لمبادئ الزيدية . وعندما خرج محمد بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تمكن الوالى العباسى من اخماد حركته ، وحمله الى العراق بصحبة جمع من آل أبى طالب سنة ٨٦٢/٢٤٨ م (٨١) . وبعد أربع سنوات قامت ثورة أخرى قادها عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط ، وانضم الى جابر بن الوليد المدلجى من بنى الهجيم ، الذى ثار فى الاسكندرية وانتهى أمره بأن اخرج الى العراق سنة ٨٦٧/٢٥٣ م (٨٢) .

كذلك نسمع عن رجل من العلويين يدعى أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والمعروف ببغا الأكبر (٨٣) ، وهو حفيد عبد الله شقيق القاسم الرسى . وقد خرج هذا الرجل فى الصعيد ، بيد أنه هزم سنة ٨٦٨/٢٥٤ م على يد أرجون التركى والى مصر (٨٤) . وخرج علوى آخر يدعى أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا ، ، ويقال له بغا الأصغر سنة ٨٦٩/٢٥٥ م فيما بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار فى جمع الى الصعيد ، وهزم على يد أحمد بن طولون ،

وقتل فى المعركة واتى برأسه الى القسطنطينية (٨٥) . كذلك ثار فى الصعيد ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بابن الصوفى العلوى سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م ، ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ونهبها وقتل أهلها ، فبعث اليه ابن طولون بجيش استطاع ابن الصوفى أن يهزمه ، ولم تزل ثورته قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م عندما هزمه أبو عبد الله العمرى بأسوان (٨٦) .

وهكذا يتضح أن الدعوة الزيدية التى عرفت طريقها الى مصر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى عن طريق دعاة وأئمة الزيدية ، والتى غذاها القاسم الرسى ، لم تنته برحيله عن مصر ، بل تركت أثرا كبيرا فى نفوس المصريين الذين ساندوا الثوار العلويين من أقارب القاسم الرسى . وبحلول النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ازدادت شريحة العلويين فى قطاعات الشعب المصرى ، حيث نصادف فى سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم نقيباً للطالبيين بمصر فى عهد الطولونيين (٨٧) . ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة ٣٥٠هـ / ٦١١م (٨٨) فى عهد الأخشيديين . وكان للعلويين بحكم بمركزهم الروحى مكانة شعبية رفيعة ذات أثر خطير فى الحياة المصرية (٨٩) .

أما عن القاسم الرسى نفسه فقد أحاط بعلوم الدين وأخصها الكلام والفقه . ومشهود له بعلو الكعب فى النشاط الفكرى . يصفه الحاكم الجسمى (٩٠) بقوله :

« نجم آل الرسول وفقههم ، وعالمهم المبرز فى أصناف العلوم ، ومن يضرب به المثل فى الزهد والعلم » وكان القاسم على علم دقيق بالمذهب الحنفى مع فقه الحجاز . وشغل أثناء إقامته فى مصر بالعمل بالمسائل الفقهية ، التى يقترب فيها الى حد كبير من مذهب أبى حنيفة . وجدير بالذكر أن الزيدية تعد أباً حنيفة واحداً من رجالها ، لأنه أخذ عن زيد بن على وأولاده (٩١) ، كما أن كثيراً من الزيدية فى الأمصار الإسلامية يستترون ، بمذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة العباسية (٩٢) .

وقد ترك لنا القاسم الكثير من المؤلفات منها : كتاب الفرائض والسنن ، وكتاب الطهارة ، وكتاب صلاة اليوم والليلة ، وكتاب النسخ والمنسوخ ، وكتاب الامامة (٩٣) ، وكتاب سياسة النفس (٩٤) .

أما علم الكلام ، فقد بلغ القاسم فيه شأوا عظيما ، كانه فنه الذى نشأ عليه . يصفه جعفر بن حرب (٩٥) ، وهو من عيـون المتكلمين والمتبحرين فى علم الكلام بقوله (٩٦) :

« . . أين كنا من هذا الرجل ، فوله ما رأيت مثله » ، كان القاسم منقطع النظر ، بل كان من علماء الاسلام ذوى الشأن (٩٧) ، يصفه بعض الشعراء بقوله : (٩٨)

ولو أنه نادى المنادى بمكة بخيف منى فيمن تضم المواسم
من السيد السباق فى كل غاية لقال جميع الناس لاشك قاسم

وترك القاسم الرسى تراثا ضخما من المؤلفات والرسائل فى علم الكلام ، تناول فيها الكثير من مناحى الفكر الاسلامى ، الذى التزم فيه بالقرآن والنظريات الدينية للاسلام ، مما ميزه عن الفكر الفلسفى وجعله ثمرة للفكر القرآنى (٩٩) ، نذكر منها : الدليل الكبير فى الرد على الفلاسفة (١٠٠) ، والدليل الصغير (١٠١) ، كتاب العدل والتوحيد (١٠٢) ، والرد على ابن المقفع ، والرد على المجبرة وتأويل العرش والكرسى فى الرد على المشبهة (١٠٣) ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب الخمسة أصول وهو أقدم كتاب فى عقائد الزيدية (١٠٤) .

ويبدو أن القاسم ألف الكثير من مصنفاته أثناء اقامته فى مصر ، فقد ألف كتاب الرد على الملحد ، الذى كان يبحث فيه عن شخص قبطى اسمه (سلمون) (١٠٥) كذلك استطاع القاسم باجتهاداته وآرائه أن يكون مذهباً نسب اليه يعرف بالقاسمية (١٠٦) ، كان متوسطا بين مذهب جده زيد بن على ومذهب حفيده من بعده الهادى الى الحق يحيى بن الحسن؛ تارة يوافق السلف ، وتارة يوافق الخلف (١٠٧) .

وأما نظرية القاسم فى الامامة فهى عنده « من أفرض الفرائض

وأوكدها لأن جميع انفرائض لا تقوم الا بها «(١٠٨) ، ويحددها ويحصرها فى موضع مخصوص(١٠٩) ، وهم أبناء الحسن والحسين طبقاً لمبادئ الزيدية . وادخل القاسم تعديلات على مبدأ الخروج الذى ظل معلماً يميز بين الزيدية وغيرها من فرق الشيعة . وجعل من الزيدية خوارج الشيعة(١١٠) ، فقد كيف القاسم مبدأ الخروج مع وضعه كامام لم يخرج . ولم يقد ثورة مسلحة ضد خلفاء بنى العباس وحوله الى هجرة فردية عن طريق قطع الفرد علاقاته مع الحكام الظلمة(١١١) .

ومما يجدر ذكره أن آراء القاسم الكلامية تقترب من الفقه أكثر مما تقترب من الفلسفة ، وهذا ما يميز الزيدية بعامة عن المعتزلة(١١٢) ، هذا الى أن أفكار القاسم اكتسبت أهمية كبيرة لا لكونها أول دليل على التلاقى بين الزيدية والمعتزلة فحسب ، بل لأنها الى جانب ذلك بمثابة توثيق للفكر المعتزلى نفسه(١١٣) .

وفى الوقت الذى عرفت الدعوة الزيدية طريقها الى مصر فى أوائل العصر العباسى ، وكان علماء الاسلام قد شرعوا فى تدوين الحديث والفقه والتفسير منذ سنة ١٤٣هـ / ٧٦٠م(١١٤) .

وكان من بين هؤلاء العلماء كوكبة من علماء مصر ومحدثيها وفقهائها ، نذكر منهم - عبد الله بن لهيعة المصرى - (ت ١٧٤هـ / ٧٩٠م) (١١٥) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م) (١١٦) وعبد الله بن وهب بن مسلم المصرى (ت ١٩٧هـ / ٨١٢م) (١١٧) . وفى هذا التاريخ قام علماء الزيدية بتدوين فقه الزيدية وحديثهم حول مجموع الامام زيد ، الذى يعتبر أقدم مرجع فقهي فى تاريخ المذاهب الاسلامية(١٨) . يقول يحيى بن الحسين(١١٩): « وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون فى حفظهم ويروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » .

وهكذا يمكن القول أن ظهور الفقه الزيدى تزامن مع ظهور المذاهب السنية فى العصر العباسى . وكان من الطبيعى أن تتأثر مصر بجانب الزيدية بمذاهب أهل السنة التى تأثرت بها وأثرت فيها ، مثل مذهب شيخ الرأى أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ / ٧٦٧م) (١٢٠) .

ويذكر أن الامام أبا حنيفة التقى بالامام زيد بن علي في الكوفة ، وكان من رجاله (١٢١) ، « وكان أبو حنيفة على بيعته وممن جملة شيعته » (١٢٢) ، وعندما سئل كيف جاء اليه هذا العلم قال : « كنت في معدن العلم ، ولزمت شيخا من شيوخه » أي الامام زيد (١٢٣) .

ويصف الشهرستاني (١٢٤) الزيدية بقوله : « .. وأما في الفروع فهم على مذهب أبي حنيفة الا في مسائل يوافقون فيها الشافعي رحمه الله » .

لعل هذا يفسر لنا القول بأن الزيدية معتزلة في الأصول ، وأحناف في الفروع ، لما بينهما من ارتباط وثيق .

أما ثاني مذاهب أهل السنة ، وهو مذهب الامام مالك بن أنس الاصبحي (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م) (١٢٥) فان هذا الامام ساند الامام الزيدى محمد بن عبد الله النفس الزكية في خروجه على الخليفة المنصور العباسي ، وأفتى لأهل المدينة عندما سأله عما اذا كان أبو جعفر له بيعة في رقابهم بقوله : «انما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين» (١٢٦) .

وعلى الرغم من أن مذهب أبي حنيفة يعتبر أقدم المذاهب الا أن مذهب مالك كانت له الأولوية في دخول مصر ، والانتشار فيها ، اذ قدم كثير من أصحاب مالك الى مصر (١٢٧) .

أما ثالث هذه المذاهب فهو مذهب الامام محمد بن ادریس الشافعي ، الذي أتى الى مصر في سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م ، وكون بها مذهبه ، وتوفي بها سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م (١٢٨) وكانت اقامته ووفاته بمصر سببا في ذيوع مذهبه وانتشاره فيها . وكان الشافعي مولعا بحب آل البيت ، يؤثر عنه قوله في حبه (١٢٩) :

ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ثم يأتي رابع هذه المذاهب هو مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٨٥م) ولم يكن له ذيوع كبير في مصر الاسلامية (١٣٠) .

ومن الواضح أن المذهب الزيدى ، كان فيه الاختيار من المذاهب السنية كثيرا ، كما أنه واسع الرحاب ، الأمر الذى أدى الى نمائه وتناضيه مع فقه بقية الأئمة (١٣١) . لذلك صار هذا المذهب بمثابة حديقة غناء تلتقى فيها أشكال الفقه الاسلامى المختلفة ، وأغراسه المتباينة ، والمذهب كالماء الجارى يحمل من الأرض التى يمر بها خواصها ، فيحمل من أهل كل بلد عرفه وعاداته ، وتقاليده وأفكاره (١٣٢) .

وعن انتشار المذهب الزيدى فى مصر ، تحفظ لنا طبقات الزيدية وصفا لأحد قضاة مصر وكبار محدثيها عبد الله بن لهيعة أنه « . . كان من أوعية العلم ، . . وكان يروى من حفظه ، وصحف حديثه ، وكان مفرطا فى التشيع » (١٣٣) . ومن قبله كان غوث بن سليمان الحضرمى الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد النفس الزكية واتهم بايوائه . هذا فضلا عن أن العلويين فى مصر كانوا على مذهب زيد بن على ، لأنه مذهب آل البيت الذى نهل منه الامام أبو حنيفة النعمان . ولا غرو فى ذلك فمعظم الثورات الزيدية كان يساندها الفقهاء ، حتى سميت ثوراتهم ثورات الفقهاء وأهل العلم ، ومن هنا يمكن القول أن المذهب الزيدى هو أقرب مذاهب الشيعة الى أهل السنة حتى اعتبر خامس مذاهب السنة .

وتشير الدراسات الحديثة (١٣٤) الى أن المذاهب التى لاتعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج ، وغيرها من المذاهب ، لم يكن لها أثرها فى مصر الا فى ظروف سياسية معينة ، اذ لم يقبل المصريون عليها ، ولم تعمّر طويلا فى وادى النيل .

ومن المرجح أن المذهب الزيدى انتشر فى مصر منذ دخول الدعوة الزيدية فى مصر سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م ، وحتى قدوم القاسم الرسى اليها ، وان ظل بعد ذلك محصورا فى نطاق ضيق ، اذا قورن بمذاهب أهل السنة لاستتار معتنقيه بمذهب أبى حنيفة أو الشافعى « . . ومن الزيدية أخلاط فى أمصار السنة ، يستترون بمذهب أبى حنيفة ، لأن أبا حنيفة كان من رجال زيد بن على » (١٣٥) . ولأن المذهب الزيدى مذهب ثورى ينطوى على أفكار سياسية ، ولدواعى الأمن وخسوفاً من بطش العباسيين

واضطهادهم ، كان أصحاب هذا المذهب يدخلون تحت المذهب الحنفى
أو الشافعى . يقول الاستاذ الشيخ أبو رهرة (١٣٦) : « وأحياناً يبدو
المذهب الزيدى فى لباس مذهب آخر حتى ليتوهم الناس أنهم من أهل
ذلك المذهب » . أضف الى ذلك بعد الزمان بين معتنقيه وبين الامام زيد ،
وانقطاعهم فى الأرض مما جعلهم غير ظاهرين فى مصر .



الهوامش

(١) راجع ترجمته عند : الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠/١٢٣م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة (١٩٦٠ - ١٩٦٩م) ج ٧ ، ص ١٦٠ - ١٧٣ ، الأصفهاني ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٢٥٦/٩٦٧م) : مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ ص ١٢٧ - ١٥١ ، ابن حزم ، أبو محمد على بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦/١٠٦٤م) : جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٦ .

(٢) الحاكم الجشمي . أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (ت ٤٩٤/١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، ج ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميري أبو سعيد (ت ٥٧٣/١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٢٨ . THE Encyclopaedia of Islam, Art (Zaidia)

(٣) الحسنى ، أبو العباس أحمد بن الحسن (ت ٣٥٢/٩٦٣م) : المصابيح ، مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٨١) ورقة ٦٩ ، الهاروني ، أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هارون (ت ٤١١/١٠٢٠م) : كتاب في نصره مذاهب الزيدية ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، ١٥٦٧ علم الكلام ، ميكروفيلم رقم (٢٢٥) ورقة ١٧٢ ، نشوان الحميري : الحور العين ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٩) : الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ ، المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقرئية ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٧ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، نشوان الحميري : الحور العين ، ص ٢٣٩ ، الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨/١٣٤٧م) : تاريخ الاسلام ، وطبقات المشاهير والاعلام ، القاهرة ١٣٦٩هـ ، ج ٥ ، ص ٧٥ المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ١٤١ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

(٧) المحلى ، الحسن حسنام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢/١٢٥٤م) : الحقائق

الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، صورة بالأوفست للمخطوطة ، الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ ، ج١ ، ص ١٤٨ ، المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٤٠ ، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢٦ .

(٨) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٦م) : الأخبار الطوال ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ٢٤٥ . المحلى : الحقائق ، ج١ ، ص ١٤٨ .

(٩) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٢٤٦هـ / ٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ ، ج٢ ، ص ٢١٧ .

(١٠) الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨١ ، المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٣٦ .

(١١) ابن ظهيرة ، أبو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ - ٨٨٥ هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٠٣ .

(١٢) تقع هذه المنطقة الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الاسلامية (المقرئى : الخطط ، ج١ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩) .

(١٣) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٤) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٥) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٦) راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ج١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(١٧) المسجد الموجود حاليا يعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى اذ جدد وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان . (سعاد ماهر : مساجد مصر ، ج١ ، ص ١٠٦) .

(١٨) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٤٠ .

(١٩) نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٤٠ .

(٢٠) محمد أبو زهرة : الامام زيد ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ .

(٢١) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ، ص ١٢٨ .

(٢٢) الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) : الملل والنحل ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ج١ ، ص ٣٠٣ .

ويشكك أبو زهرة في أن زيدا درس على واصل ، لأن واصلًا يخطئ على بن أبي طالب في حربه مع أصحاب الجمل ومع معاوية ، ولأن زيدا وواصلًا كانا من سن واحدة . وإن كان أبو زهرة لا ينفي إمكان أن يتجادلا مجادلة الأنداد . (أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٠ - ٤١) .

(٢٣) الهاروني : نصرة مذاهب الزيدية ورقة ١٧١ .

(٢٤) الهاروني : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ١٦٥ ، المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢٥) الحاكم الجشمي : شرح عيون المسائل ، ج١ ، ورقة ٧ .

(٢٦) الهاروني : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ١٦٣ .

(٢٧) أبو زهرة : الامام ، ص ٤٨٩ .

(٢٨) ابن طباطبا : الفخری ، ص ١٢٠ .

(٢٩) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، ابن تغري بردی ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ج١ ، ص ٣٤٩ ، المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٨ لم يحدد كل من المصدرين تاريخا محددًا لِقُدوم علي بن محمد الى مصر في ولاية حميد بن قحطبة الطائي ، (رمضان ١٣ ذو القعدة ١٤٤ هـ / ٧٦٠ - ٧٦١ م) ، نفس المصدرين والمرجع أنه قدمها أوائل سنة ١٤٤ هـ .

(٣٠) المقریزی : الخطط ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٣١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ .

(٣٢) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ .

(٣٣) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٦١ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .

(٣٥) ابن خلکان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ١٩٧٠ ، ج٣ ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(*) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي الخافقي المصري ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، تولى قضاء مصر مستهل سنة ١٥٥ هـ / ٧٧١ م من قبل أبي جعفر المنصور ، وهو أول قاض ولي مصر من قبل الخليفة وأول القضاة الذين حضروا في طلب الهلال ، وظل عبد الله بن لهيعة على قضاء مصر الى شهر ربيع الآخر سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م ، وتوفي بمصر يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ١٧٤ هـ / أكتوبر ٩٧٠ م ، (الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ - ٣٧٠ ، ابن خلکان : وفیات الاعیان ج ٣ ، ص ٣٨ - ٣٩) .

(٣٦) يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) :
الطبقات الزهر في أعيان العصر ، ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن
مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ورقة ١٦ .

(٣٧) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، وقارن المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص
٢٠٦ . ٢٠٧ حيث توجد بعض الاختلافات في الرواية .

(٣٨) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٢٧٠ ، المحلى : الحوادث الوردية ،
ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٣٩) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .
(٤٠) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،
ج ٢ ، ص ١ .

(٤١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .
(*) الصدف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين آخره فاء ، والنسبة إليه صدفى
بالتحريك ، قبيلة من كندة ولها بقية في حضرموت ، حازت فضل السبق بالهجرة
والجهاد أيام الفتح الاسلامي ، وشهدت الصدف فتح مصر ، وسجل عمرو بن العاص
دورها في مهاجمة حصن بابلين في رجزه المشهور : يوم لهدان ويوم للصدف .

(الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (٢٢٤هـ / ٩٤٥م) : صفة
جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٦٦ ، حاشية
رقم ١ ، ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصري (ت ٨٠٩هـ) : الانتصار بواسطة عقد
الامصار ، بولاق ١٩٨٣ ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٤٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ١١٣ - ١١٥ ، عبد الله خورشيد البري : القبائل
العربية في مصر ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦٨ .

(٤٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١ .

(٤٦) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٢ .

(٤٧) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ، عبد الله خورشيد : القبائل
العربية ، ص ١٦٤ .

(٤٨) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ .

(٤٩) نفس المصدر : ص ١١٤ .

(٥٠) المحلى : الحوادث الوردية ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

- (٥١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٥ ، المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .
(*) لقب المنصور الحق بالخليفة أبي جعفر بعد انتصاره على النفس الزكية .
(٥٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص ١١١ ، المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .
(٥٤) ابن تغرى بردی : التجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢ .
(٥٥) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ .
(٥٦) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ،
ص ١٠٣ ، راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١١ .
(٥٧) سعاد ماهر : مساجد مصر ، ج ١ ، ص ١١٤ .
(٥٨) المقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٥٩) المحلى : الحدائق الوردية ، ج ١ ، ص ١٧٥ ، الحسنى : المصابيح ،
ورقة ٨٩ .
(٦٠) فخ : بالخاء المعجمة من فوق ، من فجاج مكة ، بينه وبين مكة ثلاثة أميال ،
وقيل ستة أميال ، وبفخ كانت وقعة الحسين بن على ، (الحميرى ، محمد بن عبد المنعم
(ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، بيروت ١٩٨٠ ،
ص ٤٣٦ ، ٤٣٧) .
(٦١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٤٣١ . ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن
ابن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣ .
ج ٤ ، ص ٢٣ .
(٦٢) السلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ /
١٨٩٧م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ،
ج ١ ، ص ١٥٣ .
(٦٣) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ .
(٦٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٥٤ .
(٦٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ١٩٨ ، ابن خلدون : العبر ،
ج ٤ ، ص ٢٤ .
(٦٧) المحلى : الحدائق الوردية ، ج ١ ، ص ٩٩٥ - ٩٩٦ ، الحميرى : الروض
المعطار ، ص ٥٤٥ - ٥٤٦ وراجع السلاوى : الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .
(٦٨) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠هـ /
٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشرة دى خويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص
٢٤٤ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٦ .

(٦٩) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٢٨٠هـ / ٩٩٠م) : الفهرست ، طهران ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ص ٢٤٤ المحلى : الحدائق ، ج ٢ ، ص ٢ ، الحاكم الجشمى : شرح العيون ، ج ١ ، ورقة ٢٧ .

(٧٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، ج ١ ، ورقة ٢٩ الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٦ ، المحلى : الحدائق الوردية ، ج ٢ ، ص ٦ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة الزيدية) ، وراجع : ايمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٢٨ .

— Madelung W., Der Imam al - Qasim ibn Ibrahim und die Glaubenslehre des Zaiditen,, Berlin 1965, P.87.

— Binyamin Abrahamov : Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argument From Design, Oriens, Journal of the International Society for Oriental Research, Brill, 1986 V., 29-30, P. 259.

(٧١) ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) : تهذيب التهذيب ، حيدرآباد الدكن ، ١٣٢٦هـ ، ج ٦ ، ص ١١٨ .
Madelung, OP. Cit., P. 89.

(٧٢) المحلى : الحدائق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٧٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٧٤) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١٠٩ ، المحلى : الحدائق ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٧٥) المحلى : الحدائق ، ج ١ ، ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين طبقات الزيدية ، ورقة ١٦ ، المتوكلى ، اسماعيل بن أحمد بن على : انباء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم ٢٠٣٣٨ ، ورقة ٢١ .
(٧٦) المحلى : الحدائق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٢٦ .

(٧٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٧٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٩ .

(٧٩) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٣ .

(٥٧) المحلى : الحدائق الوردية ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٥٨) طبرستان : بلاد جبلية تقع على بحر الخزر (قزوين) ، يحدها من الشرق جرجان وقوص ومن الغرب الديلم ومن الجنوب الرى وأهلها اشرف العجم (اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) : البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ٤١ ، وفتحت طبرستان سنة ١٤٣هـ / ٧٥٩م وأكبر مدنها الجبل وبها

مستقر الولاية . وكانوا من قبل يسكنون سارية . (الحميري : الروض المعطار ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤) .

(٥٩) المحلى : الحقائق ، ج٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ورقة ٢١ .

(٦٠) المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ .

(٦١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٦ .

Madelung, Cit., P. 93.

— Binyamin Abrahamov, Al - Kassim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate, Revue D'etudes Arabes, Leiden 1987, Tom XXX Iv PP. 82-88.

(٦٢) المحلى : الحقائق ، ج٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ .

(٦٤) المحلى : الحقائق ، ج٢ ، ص ٤ .

(٦٥) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ،

ورقة ١٧ .

(*) محمد بن منصور المرادى الزيدى ، أحد علماء الزيدية وفقهائها ، أخذ علومه على القاسم الرسى ، وكان يروى عن القاسم من غير واسطة ، وله من الكتب : كتاب التفسير الكبير ، وكتاب التفسير الصغير ، وكتاب أحمد بن عيسى ، وكتاب سيرة الأئمة العادلة ، وله كتب فى الاحكام ، علاوة على كتب الفقه ، توفى سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م . (راجع : ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧) .

(٦٦) المحلى : : الحقائق ، ج٢ ، ص ٤ .

(٦٧) الحاكم الجسمى : العيون ، ج١ ، ورقة ٢٨ .

(٦٨) الهارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ .

Binyamin Abrahamov, op. cit., p. 81.

(٦٩) الحاكم الجسمى : العيون ج١ ، ورقة ٢٩ ، المحلى : الحقائق الوردية ،

ج ٢ ، ص ٦ .

Madelung, op. cit., p. 259.

(٧١) المحلى : الحقائق الوردية ، ج٢ ، ص ٦ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢٢ .

Binyamin, op. cit. 259.

(٧٢) الكندى : الولاية والقضاة ، ص ١٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،

ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وراجع : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاية ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٩٥ .

(٧٢) المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٣٩ .

(٧٤) قفط : مدينة بشرقى النيل ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان (ابن جبیر ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م : رحلة ابن جبیر ، دار الكتاب اللبنانى . بيروت ، ص ٦١ ، ولها سور وبينها وبين قرص أربعة أميال وفيها مزارع كثيرة البقول وأهلها شيعة ، وفيها بعض بقايا الروم (مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار . نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٨٧ . الحميرى : الروض المعطار . ص ٤٧٧) ، وهى رأس طرق القوافل النى كانت تخترق الصحراء بين وادى النيل والبحر الأحمر ، (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى . ج٤ . ص ١٧٧) ، وهى الآن احدى مدن محافظة قنا .

(٧٥) الادريسى ، أبو عبد الله محمد الشريف السبتي (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م) : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ، تحقيق دوزى ، امستردام ، ١٩٦٩ ، ص ٤٨ - ٤٩ . الحميرى : الروض . ص ٤٧٧ .

(٧٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٧ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٧٧) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩٣ .

(٧٨) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ .

(٧٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ ، المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٠) المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨١) المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر

الولاة ، ص ٩٥ .

(٨٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المقریزی : الخطط :

ج٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢١١ ، المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٤) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١١ .

(*) ورد ذكره عند الكندى (أزجور التركى ، ص ٢١٠-٢١١ بينما ورد اسمه عند

المقریزی أزجون وقد أخذنا بما ورد عند المقریزی ، ج٢ ، ص ٣٣٩) .

(٨٥) المقریزی : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٨٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٠٩ - ٥١٣ .

(*) كان ابن طباطبا كريما فاضلا ، صاحب ربايع وضياع ونعمة ظاهرة وعبيد

وحاشية .

(مجلة المؤرخ العربى)

- (٨٨) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٩
- (٨٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ٩٣
- (٩٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، ج١ ، ورقة ٢٨
- (٩١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٠
- (٩٢) نفس المصدر ، ورقة ٤

Binyamin, OP. Cit., P. 81.

- (٩٤) المحلى : الحقائق الوردية ، ج٢ ، ص ٣
- (٩٥) جعفر حرب ، ويكنى أبا الفضل « واحد دهره فى العلم والصدق والورع والزهد والعبادة » وله كتب كثيرة فى علم الكلام ، وعده ابن المرتضى من الطبقة السابعة ، (ابن المرتضى ، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) : طبقات المعتزلة ، تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٧٢
- (٩٦) المحلى : الحقائق الوردية ، ج٢ ، ص ٢
- (٩٧) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٩٦
- (٩٨) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠
- (٩٩) راجع : القاسم الرسى : رسائل العدل والتوحيد ، تحقيق محمد عمارة ، نشر دار الهلال ، ص ٣٠ - ٣٤ ، على محمد زيد : معتزلة اليمن ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٣٣
- (١٠٠) كتاب الدليل الكبير نشره المستشرق بنيامين ابراهما ، وارده بتعليقات باللغة الانجليزية ، ليدن ١٩٩٠

Binyamin., " Al Kasim Ibn Ibrahim,s Argument., ١٠٥)
pp. 260-261.

- (١٠٢) القاسم الرسى : أصول العدل والتوحيد ، ص ٩٦ - ١٤٠
- (١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ - ١١١ وراجع : أحمد محمود صبحى : الزيدية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٥
- (١٠٤) نفس المصدر ، ص ٧٣

Medelung OP. Cit., P. 89. (١٠٥)ء

- (١٠٦) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤
- (١٠٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٨
- (١٠٨) القاسم الرسى : الامامة ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٢٤٣ ، ورقة ٨٦

Binyamin, " Al Kasim Ibn Idrachim's Theory, P. 85.

- (١٠٩) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٦

- (١١٠) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٢٢ .
- (١١١) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٢ الى ورقة ٨٧ ، الهارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ .
- (١١٢) أحمد صبحى : الزيدية ، ص ١٢٨ .
- (١١٣) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٢٢ .
- (١١٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ٦ ، ص ٥ - ٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٥١ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ .
- (١١٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ - ٣٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج ٢ ، ص ٢٨ - ٢٩ .
- (*) ترك عبد الله بن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة حتى الآن . وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج (سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٣) .
- (١١٦) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن امام أهل مصر فى الفقه والحديث . قال عنه الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقووا به » ، سمع علماء المصريين والحجازيين ، وروى عن عطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٢٧) .
- (١١٧) الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ٦ ، ص ٥ - ٦ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ .
- (١١٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، وراجع : أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٥٨ .
- (١١٩) نفس المصدر ، ورقة ٤ .
- (١٢٠) المثيرى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .
- (١٢١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، ١٠ .
- (١٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣١٢ .
- (١٢٣) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٣ .
- (١٢٤) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣١٧ .
- (١٢٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .
- (١٢٦) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ، ص ٢٨٣ ، المحلى : الحقائق الوردية ، ج ١ ، ص ١٦٤ .
- (١٢٧) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٧ .

- (١٢٨) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ .
- (١٢٩) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٤٢ .
- (١٣٠) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٤ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ .
- (١٣١) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٢٧ .
- (١٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ .
- (١٣٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ورقة ٦ .
- (١٣٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ .
- (١٣٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ .
- (١٣٦) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ .

« قائمة المصادر والمراجع »

أولا : المصادر العربية :

(أ) مصادر مخطوطة :

- ١ - الحاكم الجشـمى : أبو سعد الحسن بن محمد بن كرامة الجشـمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ / ١٠٠٠م) « شرح عيون المسائل » مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) .
- ٢ - الحسنى : أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن الحسن (ت ٣٥٢هـ / ٩٦٣م) « المصابيح » مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٨١) .
- ٣ - القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب (ت ٢٤٦هـ / ٨٦٠م) : « كتاب الامامة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٤٣) .
- ٤ - المتوكلى : اسماعيل بن أحمد بن على : « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم (٢٠٣٣٨) .
- ٥ - الهارونى : أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هارون (ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م) : « كتاب فى نصره مذاهب الزيدية » مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٥٦٧ علم الكلام ، ميكروفيلم رقم (٢٢٥) .
- ٦ - يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : « الطبقات الزهر فى أعيان العصر » ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

(ب) مصادر مطبوعة :

- ٧ - الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م) : « صفة المغرب وأرض السودان والأندلس » من نزهة المشتاق ، تحقيق دوزى ، امستردام ١٩٦٩ .
- ٨ - الأصفهاني : أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) : « مقاتل الطالبين » تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٩ - ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ج ١ ، ج ٢ ، القاهرة ، طبعة دار الكتب (بدون تاريخ) .
- ١٠ - ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) : «رحلة ابن جبير» ، دار الكتاب اللبنانى،بيروت (بدون تاريخ) .
- ١١ - ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨) : « تهذيب التهذيب » ج ٦ ، حيدر آباد - الدكن ، ١٣٢٦ هـ .
- ١٢ - ابن حزم : أبو محمد بن على بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) : « جمهرة أنساب العرب » ، القاهرة ١٩٧١ .
- ١٣ - الحميرى محمد عبد المنعم (ت ٨٨٦هـ/١٤٦١م) : « كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ١٤ - ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » ج ٤ ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١٥ - ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ج ٣ ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .

- ١٦ - ابن دقماق : ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩هـ) : « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، ج ٤ ، بولاق ١٨٩٣ .
- ١٧ - الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٦م) : « الأخبار الطوال » ، تحقيق الدكتور عبد المنعم ماجد ، بغداد ١٩٥٩ .
- ١٨ - الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) : « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » ج ٥ ، ج ٦ ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٦٩هـ .
- ١٩ - السلاوى : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) : « الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى » الدار البيضاء ١٩٥٤م .
- ٢٠ - الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) : « الملل والنحل » ج ١ ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
- ٢١ - ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطب المعروف بابن القطقى (ت ٧٠٩هـ) : « الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية » القاهرة ١٩٦٢ .
- ٢٢ - الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م) : « تاريخ الرسل والملوك » ج ٧ ، ج ٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٣ - ابن ظهيرة : ابو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ - ٨٨٥هـ) : « الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٤ - القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل (ت ٢٤٦هـ / ٨٦٠م) : « رسائل العدل والتوحيد » تحقيق محمد عمارة ، نشر دار الهلال ، القاهرة (بدون تاريخ) .

- ٢٥ - الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، بيروت ١٩٠٨ .
- ٢٦ - المحلى : الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) : « الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية » صورة بالآونفست للمخطوطة الجزء الاول ، والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ .
- ٢٧ - ابن المرتضى : أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٧م) : « طبقات المعتزلة » تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ .
- ٢٨ - المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ج ٢ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٨٢ .
- ٢٩ - المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : « الخطط - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ج ١ ، ج ٢ ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٣٠ - مؤلف مجهول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
- ٣١ - ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠هـ) : « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
- ٣٢ - نثران الحميرى : أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين؛ تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ .
- ٣٣ - الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ / ٩٤٥م) : « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٣٤ - ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله الرومى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : « معجم البلدان » ج ٨ ، بيروت ١٩٨٤ .

٣٥ - اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
(ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) : « البلدان » ليدن ، ١٨٩٢م .

ثانيا : المراجع الحديثة :

١ - أحمد محمود صبحى : « الزيدية » ، (الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٨٤) .

٢ - أين فؤاد سيد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية
القرن السادس الهجرى » (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة
١٩٨٨) .

٣ - دائرة المعارف الاسلامية .

٤ - سعاد ماهر محمد : « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » ج١ ،
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٥ - سيدة سماعيل كاشف : « مصر فى عصر الولاة » ، الهيئة العامة
للكتاب ، ١٩٨٨ .

٦ - عبد الله خورشيد البرى : « القبائل العربية فى مصر فى القرون
الثلاثة الأولى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ .

٧ - على محمد زيد : « معتزلة اليمن » ، بيروت ، ١٩٨١ .

٨ - محمد محمد أبو زهرة : « الامام زيد » ، دار المعارف ، القاهرة
١٩٥٩ .

٩ - محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » ج١ ، ج٤ ،
مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٣) .

١٠ - يوليوس فلهوزن : « تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى
نهاية الدولة الأموية » نقله الى العربية الدكتور محمد عبدالهادى
أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٨ .

(1) Binyamin Abrahamov :

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argument From Desing".
Oriens Journal of the International Society for Oriental
Research, V. 29-30, Brill, 1986.

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate".
Revue D'etudes Arabes, Tome XXXIV,
Leiden, 1987.

(2) Encyclopaedia of Islam.

(3) Madelung (W.) :

* "Der Imam Al - Qasim ibn Ibrahim die Glaubenslehre
der Zaidited Berlin, 1965.

الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكي

د . سليمان الرحيلي (*)

ارتبط علم التاريخ ارتباطا واضحا بعلم الحديث فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وتأثر التاريخ بالحديث وقتذاك من حيث المنهج ، وظهر كثير من أبوابه فى كتبه . كذلك قامت علاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الفقه فى القرون التالية ، وعقل الفقهاء دراسة الفكر التاريخى سياسة ، وحضارة ، وحتى نقدا ، بكثير من آرائهم القيمة ، وجمع عدد منهم بين دراسة التاريخ والفقه اما ضمن مؤلفاتهم فى فقه المذاهب وطبقاتها والسياسة الشرعية ، أو مفردا بمؤلفات مستقلة كان للآراء والأحكام الفقهية أثر كبير فيها .

وقد وضح هذا التلازم بين الفقه والتاريخ منذ القرن الرابع ، اذ كان لفقهاء ذلك القرن آراؤهم فى سياسة الدولة وأقسام ادارتها وتقويم أعمالها والحكم أو الموقف منها ، ومن هؤلاء الماوردى فى المشرق وابن حزم فى الغرب (١) .

وهكذا حتى كان القرن السابع فتنابع ظهور عدد من الفقهاء الذين أولوا الفكر السياسى عنايتهم ، وكتبوا فى سياسة الدول وصلاحيات ادارتها وما يحفظ قوتها أو يؤدى الى سقوطها ، مع التعليل لذلك وذكر العوامل المؤثرة فيه ، كما عنوا بحمل الواقع التاريخى على الجادة الشرعية والمصالح العامة ، وتحقيق مقاصدها فى أفعال الدول ومؤسساتها المخالفة ، وبين نتائج الاتباع ومحاسن الحرص على ذلك ، وعواقب المخالفة ومصائر الاستمرار فيها . ومن أولئك العلماء ابن جماعة (ت ٧٣٣ هـ) وتاج الدين السبكي ، والمالقي ، وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) . وكان واحد من هؤلاء تولى القضاء فى حياته ، وبذلك أثروا الفقه والتاريخ معا ،

(*) أستاذ التاريخ والحضارة المشارك - جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .

وتركوا لنا فيهما ثروة نفيسة . والواقع أن التاريخ كان محظوظا بعناية هؤلاء . وإذا كانت آراء ابن خلدون في دراسة التاريخ وأحوال الحضارة أو ما أسماه هو العمران البشرى نالت الشهرة وجذبت الاهتمام في العصر الحديث ، فإن آراء الآخرين جديرة أيضا بالدراسة، وتستحق المزيد من عناية المؤرخين ، وعلى رأس أولئك تاج الدين السبكي .

تاج الدين السبكي :

هو أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ . ونشأ في بيت علم ورياسة في دولة سلاطين المماليك، فأبوه تقي الدين علي السبكي ولي منصب قاضي القضاة في بلاد الشام لمدة طويلة (٢) .

أما هو فقد أحسن والده توجيهه وظهرت عليه علامات الذكاء والنجابة ، فحفظ القرآن وكثيرا من علوم الحديث والفقه والعربية ، وتلمذ على يد مشاهير علماء الاسلام في بلاد الشام ، حتى انه كان يتلقى عن الامام الذهبي مرتين في اليوم ، وعن المزي (ت ٧٤٢هـ) مرتين في الأسبوع . ولم يلبث الذهبي أن عده في الطبقة العليا بين طارب العلم وقتذاك ، ووصفه لوالده بأنه محدث جيد (٣) . وهكذا كان ، فقد تولى الافتاء وهو في سن العشرين ، وتولى التدريس والخطابة في الجامع الأموي في دمشق ، بالإضافة الى وظائف أخرى ، حتى اذا ما ضعف والده ، وترك وظيفته ورحل الى مصر تولى ابنه تاج الدين منصبه وهو قاضي القضاة في بلاد الشام سنة ٧٥٦م في سلطنة الناصر محمد المملوكي الثانية . واستمر فيه حتى وفاته سنة ٧٧١هـ عن عمر قليل لم يتجاوز الأربعة والأربعين عاما (٤) ، قضاها بين طلب العلم وولاية القضاء . وكان طوالها مثال العالم العامل الذي يحاول الاصلاح جهده ، دون أن تأخذه رهبة وال أو لومة لائم . ولهذا لم تخل حياته من حسد أو كيد له ممن ينافسونه الفضل ، أو يخافون نقده ومخالفة هواهم ، وعلى رأسهم نائب الشام وقتذاك الذي أمر بعزله عن منصبه سنة ٧٦٩هـ . لكنه لم يلبث أن أعيد اليه بعد قليل .

وقد عاصر عددا من المؤرخين منهم شيخه الذهبى ، وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ) و خليل بن أيبك الصفدى (ت ٧٦٤هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) .

وله عدد من المؤلفات منها : جمع الجوامع فى أصول الفقه ، الأشباه والنظائر الفقهية ، وتكملة شرح منهاج القاضى البيضاوى ، وطبقات الشافعية الكبرى ، وكتاب معيد النعم ومبيد النقم . وقد اشتمل الكتابان الأخيران على فكره التاريخى وآرائه الإصلاحية ، اذ ضمن كتاب الطبقات قاعدة جلية سماها قاعدة فى المؤرخين (٥) . كما ضمنه ذكر بعض أحداث الغزو المغولى للعالم الاسلامى على يد جنكيز خان وهولاكو وفضائل جرمه ، وهول صدمته (٦) . وقد أوجز فيها اكتفاء بما أفرد من المصنفات فى أخبارها (٧) ؛ واعتمد على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى الغالب (٨) ، وكان منهجه فى ذكرها لا يختلف عنه كثيرا . أما آراؤه الأخرى فيهم فقد جاءت بايجاز فى كتابه معيد النعم . وقد ضمن هذا الكتاب كثيرا من آرائه فى الأحوال الادارية والاجتماعية ومدارها والغاية منها بعدا أو قربا من منهاج الشرع الحكيم فيها ، وتحقيق الصالح العام منها ، ومراعاة ما يبقيا ، واجتناب عوامل زوالها ، كالأغراض والقصور والفساد من قبل القائمين عليها . وهى آراء ومواقف عديدة لتاج الدين السبكى لا ينقصها روح العالم ، وسعة الاطلاع ، وخبر أحوال المجتمع ، ومعرفة أوضاع مؤسساته، ومخالطة موظفيه ومعايشة عامته ، كما سيأتى .

ولم تقتصر آراؤه على وصف الوظائف والمهن فى عصره ، وانما اشتملت على تنظيم واصلاح لها ، يصلح لها فى كل وقت أو مكان فى المجتمع ، فضلا عن افادتها فى معرفة تاريخ مسمياتها ، ومجال أعمالها خلال عصر المماليك وما أخذوه فى ميدانه عن غيرهم ، أو أثروا به فيما تلا عهدهم من عصور، حتى أن بعضها ظل باقيا حتى العصر الحاضر (٩) .

وتتلخص موارد تاج الدين السبكى فى فكره فى تلقيه عن عدد من العلماء الأعلام ، مثل المزى (ت ٧٤٢هـ) ، والذهبى (ت ٧٤٨هـ) ، ووالد تاج الدين تقي الدين السبكى (ت ٧٥٦هـ) . وكلهم من العلماء الذين

أثروا عصرهم بالعديد من المؤلفات والآراء وحلقات الدرس . وكان لكل منهم أيضا عناية بالتاريخ وأحوال الواقع المعاصر لهم وتولى أعماله مثل القضاء والتدريس ، فتأثر بهم تاج الدين السبكي وعنى بعلوم التاريخ والاصلاح المبتغى للحياة ، ولا سيما ما يرتبط بعصره الذى عاش فيه وهو العصر المملوكى ، وقد ساعده فى لك ثلاثة أمور هى :

الاول : تبحره فى علم الفقه وأبوابه مما جعله يجيد مظاهر الحياة الاجتماعية ورصد الواقع التاريخى لها ، وبيان الحكم أو ما ينبغى ان يكون الحال عليه .

الثانى نبوغه فى أصول الفقه والتأليف فيه مما جعل منهجه فى آرائه واضح الترتيب قوى الحجة فى ايراده والاقناع به . وكذلك سهولة ذكر القواعد والأصول للوظائف والأعمال وتحديد الأصلح فى وسائلها وأهدافها .

أما الثالث : فهو خبرته فى أعمال الدولة وتوليه وظيفة القضاء والتدريس لمدة طويلة مما أتاح له معايشة مختلف فئات المجتمع ، فخير أحوالهم عن قرب مما أثرى آراءه وجعلها أكثر قبولا ، وتدل فى الغالب على أنها صادرة عن عالم قرن العلم بالعمل .

أما الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى فينقسم الى قسمين :

أحدهما : فكر منهجى يختص بالشروط اللازمة للمؤرخ وآرائه فى المؤرخين ومؤلفاته . وبالذات كتابه تراجم الأعلام والسير والطبقات .

والثانى : فكر يتعلق بالاصلاح الادارى والاقتصادى والتعليمى والاجتماعى ، وابداء رأى فى أحوال الدولة وأخبارها وما ينبغى أن تكون عليه أعمال ادارتها ووظائفها المختلفة ، ولا سيما ما كان قائما منها فى عصره ، حتى أن أحد الباحثين قرن آراءه الاصلاحية بآراء الشيخ محمد عبده فى تاريخ مصر الحديث (١٠) .

.. وسوف نتناول فى هذا البحث آراءه فى كل مجال بالدراسة والتحليل والتفصيل ، ما أمكن .

أولا - الفكر المنهجي :

كان لتاج الدين السبكي ميل كبير لدراسة التاريخ وولع بين بتاريخ السير والأعلام منه . ويندرج كتابه الضخم طبقات الشافعية الكبرى تحت هذا الفن من فروع التاريخ . وقد أوفى فيه وأحكم ، وتعهد منذ صباه بالاهتمام . فلما نضج علمه واتسعت تجربته أخرج به بالتمام والالتقان ، بما يفيد الفقيه والأديب والمؤرخ (١١) ، فيجد فيه (تراجم يعز على المنقب وجدانها) ، ووصفه في مقدمته بأنه كتاب تاريخ ، حتى ضمن مقدمته وصفا موجزا لأحداث الغزو المغولي الذي هز العالم الاسلامي ابان القرن السابع (١٢) .

وقد قرر أن الصفات الواجب توافرها في المؤرخ مثل الصدق والعدالة والبعد عن الهوى هي مما يشترط في بعض الوظائف المهمة الأخرى في الدولة مثل الامامة والقضاء ، بالاضافة الى صفات أخرى يقتضيها كل مجال ويتطلبها دون آخر .

وقد أورد تاج الدين السبكي كثيرا من آرائه التاريخية من خلال التعليق والاضافة على موجز نفيس لوالده تقي الدين في المؤرخين في كتابه - أي تاج الدين - الطبقات الكبرى ، فضلا عن آرائه الأخرى فيهم في كتابه القيم ، معيد النعم ومبيد النقم . أما آراء تقي الدين السبكي التاريخية فقد وصلتنا عن طريقين :

أحدهما : ابنه تاج الدين السبكي ، وقد نص على ذلك أكثر من مرة فقال : « فالرأى عندنا أن لا يقبل مدح وذم من المؤرخين الا بما اشترطه امام الأمة ، وهو الشيخ الامام الوالد رحمه الله ، حيث قال ونقلته من خطه في مجاميعه » (١٣) .

ويقول تاج الدين : « وذكر أن كتابته لهذه الشروط - أي كتابة والده تقي الدين السبكي لها - كانت بعد أن وقف على كلام ابن معين في الشافعي ... » الخ (١٤) .

وعنونها تاج الدين السبكي بعنوان : قاعدة في المؤرخين ، على

غرار قاعدة أخرى كتبها فى الجرح والتعديل وسبقها بها ، وأضاف إليها بعض آرائه التى كانت فى الغالب تقريضا وشرحا لآراء أبيه كما سيأتى .

الثانى : عن طريق خليل بن أيبك الصفدى فى مؤلفه الكبير : الوافى بالوفيات؛ قال : «نقلت من خط الامام العلامة الحجة شيخ الاسلام قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على بن عبد الكافى السبكى الشافعى ما صورته «(١٥) ثم أورد آراءه وشروطه فى المؤرخ . كما عد المؤرخين من العلماء مثلهم مثل المفسرين والفقهاء والأصوليين والنحويين من حيث حاجة الأمة لهم ، وخطورة فساد وظيفتهم أسوة بفساد أى من وظائف العلماء الآخرين(١٦) .

ونظرا لأن تاج الدين السبكى وضع عنوانا لشروط والده فى المؤرخين سماه (قاعدة فى المؤرخين) ثم شرحها وفسر بعض مقاصدها، وأوردها فى سياق قاعدة أخرى فى الجرح والتعديل ، فان هذا أوحى بانها له ليست لوالده لأن آراء تاج الدين فى المؤرخين لم تكن مجرد نقل لآراء والده فيهم أو تعليقا عليها ، وانما تبين لها ومناداة بها . حتى نسبت له كثيرا(١٧) ، بينما صلب تلك القواعد هى لوالده تقى الدين . ولهذا فان خليل بن أيبك الصفدى أوردها بنصها منسوبة الى تقى الدين السبكى ولم يشر الى آراء ابنه أو شيء من جهده البتة(١٨) . بينما أورد السخاوى (ت٩١١هـ) شواهد من آراء الاثنى عشر(١٩) .

ومن باب الانصاف ينبغى أن يشار الى آراء كل منهما فى مناسباتها . وعندما ينسب بعضها هنا الى تاج الدين ويضاف الى آرائه فهو من باب التغليب ، لا سيما أنها عرفت كثيرا من خلال كتاب الطبقات فضلا عن شهرة اهتمام الابن بالتاريخ أكثر .

أما شروط المؤرخ عند تاج الدين نقلا عن والده تقى الدين السبكى فهى تنقسم الى مجموعتين :

● الأولى فى المنقول عنه وتشمل عدة شروط هى :أولاالصدق(٢٠) ، وهى صفة مهمة ولازمة من لوازم المؤرخ ، وهى مايعبر عنه بالعدالة والضبط التام(٢١) .

ثانيا : أن يعتمد المؤرخ اللفظ دون المعنى فيما ينقله ، وهذا بالنسبة للنصوص فى الأقوال ، لأن التعبير عنها بالمعنى قد يؤدى الى اتلاف فى الحكم المترتب عليها بين لفظ القائل وعبارة الناقل . أما ماعدا ذلك فاشتراطه نقل اللفظ دون المعنى هو أحد مظاهر الأمانة العلمية التى ينبغى أن يتحلى بها الراوى وما فى حكمه من وسائل ، فيكون بذلك قد أدى ما تلقاه أو سمعه أو شاهده كما حدث بالضبط ، ويترك للمؤرخين وغيرهم مهمة التفسير والتعليل والاستقراء . ولهذا اشترط فيما يكتبه هؤلاء من أنفسهم المعرفة بدلالات الألفاظ وقرن ابنه تاج الدين بقوة بينها وبين العلم (٢٢) ، وهو مما يلزم المؤرخ حتى يتميز عن الراوى أو الاخبارى او حتى الوكالة فى العصر الحديث .

ثالثا : عدم الانقطاع بين وقت الخبر وتدوينه ، فالمعاصرة للحدث او المترجم له او القرب منه تعطى الكتابة التاريخية قيمة أكبر .

رابعا : النص على المصدر المنقول عنه وتسميته من أخذ عنهم اذا كانوا رواة (٢٣) . ولا يجزم الا بما يتحققه سند ومتنا اذ ينبغى على المؤرخ ألا يكتفى بنقل الشائع لمجرد شيوعه دون ترو وتحري ، فان ذلك فضلا عن أنه اثم ومفسدة فانه يحط عمله وينفر منه العقلاء والعلماء (٢٤) .

● أما المجموعة الثانية من شروط المؤرخ عند تاج الدين : فهى شروطه فيما يكتبه المؤرخ بنفسه ولا سيما فى باب التراجم والسير ، ومنها أن يكون المؤرخ عارفا بحال المترجم له علما ودينا ، ويقتضى هذا أن يكون فى منزلة المترجم فى الناحية العلمية أو قريبا منها . والأفضل أن يكون مشاركا له فى التخصص ، وهذا شرط مهم ، وقد وصفه هو بأنه عزيز جدا . ذلك أن المؤرخ عندما يعايش الحدث أو يكون فى منزلة من يترجم له ملازما له ، تتاح له معرفته عن قرب ويستطيع أن يقومه أكثر من غيره (٢٥) .

واتبع السبكى هذا الشرط بشرط آخر فى المؤرخ لا يقل أهمية عن الشرط السابق ، هو حسن التصور للمكتوب عنه ، فيصور حاله كما هو بالضبط دون زيادة أو نقصان ، فتصور الشيء فرع عنه (٢٦) .
(مجلة المؤرخ العربى)

وعندما أورد خليل بن أيوب الصفدي شروط تقي الدين السبكي، عقب عليها بقوله : « هذه الشروط تلزم الذى يعمل تاريخا على التراجم ، أما من يعمل تاريخا على الحوادث فلا يشترط فيه ذلك ؛ لأنه ناقل الوقائع التى يتفق حدوثها فيشترط فيه أن يكون مثبتا ، عارفا بمدلولات الألفاظ، حسن التصور جيد العبارة » (٢٧) .

ورأى الصفدي هنا يظهر أنه تعليق على شرط المعرفة بحال صاحب الترجمة وحسن تصور حاله ، حتى يمكن قبوله . أما بقية الشروط كالصدق والعدالة والثقة فى المصدر أو غيره فهى شروط لازمة فى المنهج التاريخى سواء كان المكتوب به تراجم أو حوادث تاريخية .

وقد حث بدر الدين العيني - وهو أحد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى - على هذا النوع من الكتابة ووصف ما يكتب المؤرخ بنفسه عن مشاهدة وعيان بأنه مطلب حسن ، وأمر مَحْظُوظ عليه ، وأنه لا يوازيه الا النقل عن الثقات بالنسبة لما مضى (٢٨) .

ولما كان الهوى آفة من آفات الكتابة التاريخية ، فقد نص تقي الدين السبكي على شرط التجرد من الهوى فيها حتى لا يتعصب أو يمدح من يشاء ، ويهمل أو يذم آخر ، فيطنب فى الأول ويوجز أو يترك الثانى ، أو يطنب فى عيوب المذموم ، ويقصر فى مدحه ، أو يطنب فى مدح آخر ويوجز أو يغفل عيوبه . ومثل ذلك التعصب والهوى يكون للمذهب أو الأقليم أو المدينة أو الدولة ، مما لا تخفى شواهد وآثاره فى بعض المؤلفات التاريخية .

ومن الواضح أن ما حذر منه تقي الدين السبكي وقع فيه بعض المؤرخين ، وعلى سبيل المثال فقد حابى اليعقوبى الشيعة فى تاريخه ، ومالاً ابن طيفور البغدادى الدولة العباسية ، وتعصب أبو المطهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ لمذهب المعتزلة .

كذلك نص تاج الدين السبكي على أن أداة التجرد من الهوى والتعصب هو التزام العدل والانصاف وابتغاء الحقيقة (٢٩) .

وشرط الصدق وذكر الحقيقة فى الحادثة التاريخية ؛ والبعد عن
الهوى والعاطفة عند تاج الدين السبكى يجعل المنهج التاريخى يقف فى
مصاف مناهج العلوم الأخرى سواء كانت شرعية مثل الحديث - كما سبق -
الاشارة اليه - أو تجريبية مثل العلوم والطب ، منذ أن قرر الحسن ابن
الهيثم (ت ٤١١هـ) أن غرض الباحث فى جميع ما يستقرؤه ويرصده هو
العدل وطلب الحق لا اتباع الهوى أو الميل مع الآراء (٣٠) . فهو ينسئ
مع الغاية والأهداف التى تؤدى لها مناهج العلوم عند المسلمين ويسعى لها
الباحث المنصف فى التاريخ وغيره .

فاذا التزم المؤرخ بكل ذلك فيما ينقل منه ، أو يكتب عنه ، أو
يترجم له ، فإن ذلك يحتاج الى أداة ناجعة ووسيلة مفيدة فى ايصاله
للقارئ ، فكم من كاتب اعياه أسلوبه فى ايصال مراده ، وكم من جهد
أضاعه سوء الأسلوب واستغلاق العبارة ، ولهذا يلزم المؤرخ أن يكون حسن
عبارة مجيدا لدلالات الألفاظ (٣١) .

وكان أكثر المتلقين لآراء تقي الدين السبكى وشرحها ابنه تاج الدين .
ويعود هذا لقربه من والده وتأثره بثقافته ، ثم الى اهتمام تاج الدين نفسه
بالتاريخ . فكتابه الطبقات كتاب تراجم وسير اعلام ، كما ضمن كتابه معية
النعم صورا من النقد التاريخى ، اذ عاب فيه المؤرخين وعدهم من
الطبقات التى يحتاج عملهم الى تقويم ووصفهم بانهم « على شفا جرف
هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من
صادق أو كاذب » (٣٢) .

ثم بعد ذلك يوضح فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخون - مثلهم مثل
الطبقات الأخرى فى ايضاح المنهج السوى لها - فقال : « لابد أن يكون
المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة
ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغش
منه » (٣٣) .

ومن أطف تعليقات تاج الدين السبكى على آراء والده أن الكتابة

التاريخية أمانة علمية خاضعة لناموس الثواب والعقاب ، فان حاد المؤرخ عن الحق مبالغة أو غمطا أو مدحا أو قدحا ، فانه يكون قد خان الأمانة ونال ما يستحقه من العقوبة العاجلة والآجلة ، والعكس صحيح (٣٤) .

ذلك أن الكتابة على عمومها مثلها مثل الأعمال الأخرى من حيث الأثر فى الفرد والمجتمع ، ومن ثم ضرورة توخيها للصواب من عدمه .

ولهذا لم يخف تاج الدين السبكي انتقاده للمؤرخين ، ووجد فى ايراد شروط والده فيهم فرصة مناسبة . فقال عنهم : « ان أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ، ورفعوا أناسا ، اما لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به ، أو لغير ذلك من الأسباب » (٣٥) .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، وجه نقدا لادعا لتاريخ الذهبى ، ووصفه بأنه مشحون بالتعصب ، وهو آفة قل أن يخلو منها تاريخ فى رأيه . وربما جاء بهذا ليخفف من نقده للذهبى ، والا فكثير من المؤلفات التاريخية تخلو أو يندر فيها التعصب مثل تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير وغيرهما كثير . وهذا يضطرد مع قوله بأن لا يقبل مدح أو ذم من المؤرخين الا بالشروط المذكورة من قبل .

ولم يحدد تاج الدين السبكي ان كان نقده يشمل كل المؤرخين أو خاصا بمؤرخى عصره ، ولكن ما ذكره فى صورة مثال عن تاريخ الذهبى يجعل ذلك أقرب الى مؤرخى زمانه .

وعلى أية حال فالجميع عنده أكثر جهلا وتعصبا من أهل الجرح والتعديل . لكن قبل التسليم بذلك ، فان المقارنة بين المؤرخين وأهل الجرح والتعديل فيها نظر من حيث الشروط المطلوبة فى كل منهم ومجال علمه . وقد تساهل السلف من قبل فى شروط المؤرخ ومنزلة روايته وفرقوا بين راوى الحديث وراوى التاريخ من حيث درجة العدالة والضبط .

وعاب ابن خلدون المؤرخين ، وذكر أن المؤرخين الحقيقيين - بميزانه - لا يتجاوزون الأنامل ، وأما ما عداهم فهو (بليد الطبع

والعقل (٣٦)؛ واتهمهم بأنهم أساءوا للتاريخ حتى صار على أيديهم واهيا ومختلطا وأصبح بحثه وانتحاله مجهولة (٣٧) .

ولا شك في أن مؤلف السخاوى - (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) - جاء ردا على بعض من قلل من أهمية دراسة التاريخ ومعرفته فوائده وعلاقته بمختلف المجالات والرفع من شأن أهل الاختصاص فيه .

ومن يتتبع شدة تاج الدين السبكي وابن خلدون على المؤرخين ويمعن النظر في فقرات كتاب الاعلان ، يدرك أن السخاوى تتبع التهم الموجهة للمؤرخين وقتذاك والرد عليها ، ولهذا جاء على مقدمته أن اسم كتابه : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

وأخيرا تتضح منزلة آراء تاج الدين السبكي وأهميتها من خلال مقارنتها بآراء بعض معاصريه من المؤرخين ، ومنهم خليل بن أيوب الصفدى (ت ٧٦٤هـ) ، فقد تحدث في علم التاريخ وفائدته في مقدمة كتابه الكبير الوافى بالوفيات . وذكر أول من صنف فيه في الاسلام ، ثم مدد تواريخ الأمم من عرب وقبط ونحوهم ، ثم أصل كلمة تاريخ وكيفية كتابة التاريخ بالسنوات والأيام كقولهم لتسع بقين من المحرم وخمس عشرة ليلة خلت (٣٨) . ومعرفة كيفية نسبة الأعلام الى القبائل والأماكن والبلدان ، وبعض ما يحتاجه المؤرخ من صور الاملاء ثم معرفة الطريقة الحولية في كتابة التاريخ والترتيب الهجائى فى تاريخ الأعلام .

ثم ذكر مجموعات من المؤلفات التاريخية وفق الأقاليم وأخرى من التواريخ العامة ، وثالثة من تواريخ الموضوعات كتواريخ الخلفاء والملوك والوزراء والقضاة والعلماء والشعراء والأطباء (٣٩) .

ومن خلال ذلك يتضح الفارق الكبير بين آراء تاج الدين السبكي وشروطه فى المؤرخ ، وبين مادونه خليل بن أيوب الصفدى فيما يلزم المؤرخ . فما ذكره الأول هى صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤرخ فى كل حال زمان ، فصفة العدل أو الصدق وذكر الحقائق والوقائع هى صفات لازمة لأي مؤرخ فى أى عصر كان .

أما ذكره الثانى فهى فوائد مما يلزم المؤرخ معرفته أى صفات فنية
ودربة مهنية تساعد المؤرخ فى سبك معلوماته ، منها ما يثريها ومنها
ما يظهرها فى صياغة لغوية صحيحة . وهى من باب الأدوات والوسائل
لمهنة المؤرخ فى كتابته للتاريخ ثم انها قابلة لأن يستزيد منها ، واجاد .
سا يستجد منها فى كل عصر .

كذلك فان الاولى تنبىء عن صدورها عن عالم يهتم بالمبادئ وأدب
التاريخ الذى ينبغى ان يحكم المؤرخ وأن يتحلى بمعطياته باعتباره
مؤتمنا على رسالته فى هذا المجال من العلوم . أما الثانية فهى صادرة
عن كاتب كان له مقامه وشانه فى ديوان الانشاء ، ولهذا جاء أثر عمله
وخبرته فى بابه واضحا فى الفصول التى صدر به كتابه الوافى بالوفيات
فى فواعد الكتابة الأخرى أو مما تختص به عن غيرها مما يعرض للمؤرخ
خيرا اثناء كتابة وتدوين التاريخ .

اما ابن خلدون فان الأسباب المؤدية الى الكذب فى الأخبار وتزيين
التاريخ عنده هى التشيع للآراء والمذاهب والثقة فى الرواة دون تعديلهم ،
ومجاراة أهل التجارة والمراتب والدعاية لهم أو لدولهم . وسببها الحقيقى
فقدان المؤرخ للشروط التى يجب أن يتحلى بها ، والتى ذكرها تاج الدين
السبكى من قبل ببلاغة وإيجاز ، مثل الصدق والعدالة والضبط فيه أو فى
روايته ، وعدم الميل للهوى أنى كانت عوامله . فالاثنان متفقان فى
النتيجة أو الفائدة التى ينبغى أن يعيها المؤرخ نحو الاخبار والأحداث ،
والقارىء فى الحكم أو الموقف من جهده أو كتابته فى مطابقته للواقع
صدقا أو مخالفته له كذبا وما يترتب على كل وجه من نتائج .

وعلى الرغم من ان تاج الدين السبكى أوجز فى شروط المؤرخ وذكر
صفات من يخالفها ، فان ابن خلدون فصل وعلل لذلك أكثر بما فيه
الكفاية وحقق الغاية ، فيما ينبغى أن يكون عليه المنهج التاريخى . ويعود
الاختلاف بينهما حول التفصيل والإيجاز فى هذا المجال الى أمرين :

أولهما : المقام الذى وردت فيه تلك الآراء ، فتاج الدين السبكى وان

جاءت عنده قصدا لكنها وردت فى عرض كتاب فى طبقات المذهب الشافعى فحيز التفصيل فيها ضيق وفقا لهذا الاعتبار .

ثانيهما : يعود الى ميل ومجال علم كل منهما . فالتاج يميل اكثر الى الفقه وبيان الشروط والأحكام ، وابن خلدون يميل الى التاريخ اكثر وبيان أحوال العصور والدول والاسباب فى وقوع الحوادث والافادة منها . وإذا كان السخاوى ذكر بوضوح آراء تاج الدين السبكي ونفيه لآراء والده (٤٠) فان ابن خلدون الذى أدرك تاج الدين السبكي لم يشر الى شيء من شروطه فى المؤرخين على الرغم من مجيئه بعد ظهور كتب تاج الدين السبكي .

وعلى العموم فان الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكي يشبه فى بعض الوجوه الفكر التاريخى عند ابن خلدون من حيث ضوابط دراسته لتاريخ ، وقواعد النقد فيه ، وأحوال العمران والاجتماع البشرى . والعوامل المؤدية الى قوة الدولة وصلاح مؤسساتها أو سقوطها وضعف إدارتها ، وما ينبغى أن تكون عليه الوظائف والحرف والصنائع فيها . لاسيما أن كلا منهما نفيه وله ولع بدراسة التاريخ والعيش فى عصر واحد الا أن الأخير أكثر شهرة تاريخية بدون شك .

ولا معنى لأن يتجاهل روزنتال جهود تاج الدين السبكي وآراءه حول التاريخ وشروطه فى المؤرخ عندما كتب فى علم التاريخ عند المسلمين .



ثانيا - الفكر الاصلاحى :

عنى العلماء المسلمون بالاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى كثيرا خلال القرنين السادس والسابع . وكان المجال السياسى ابرزها وضوحا ، فقد حدد الشيزرى (ت ٥٨٩هـ) الأسس التى تقوم عليها الدولة بأنها تتمثل فى الوزارة والرعية والقوة والمال . ووصفها بأنها فيها بمثابة الأركان للبناء (٤١) ؛ حتى ذكر ما يحفظ على الحكام صحتهم ويدرا عنهم مكائد الأعداء وغوائل الأصحاب (٤٢) .

ووصف سبط بن الجوزى (ت٦٥٤هـ) كتابه بأنه الجليس الصالح والأنيس الناصح للحاكم وكبار رجال دولته ، وما ينبغي لهم من السيرة وإدارة الأمور أو استعماله من الرجال الأكفاء . وإلى جانب هذا فهو يزودنا بمعلومات قيمة عن طبقات المجتمع فى عصره (٤٣) .

وكانت مؤلفاتهم تختلف عن مفاهيم الوعظ وذكر المحاسن التى تضمنتها كتب مرآيا الحكام والأمراء مثل كتاب التاج للجاحظ من قبل أو حتى كتاب المنهج السلوكى فى سياسة الملوك الذى ألفه عبد الرحمن بن عبد الله فى القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين .

على أن الأرجح أن تاج الدين السبكي اعتمد أكثر على مؤلفات وآراء علماء القرن الثامن سواء الذين عاصروه ، أو عاشوا قبله بقليل ؛ وعلى رأسهم ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) الذى قرر قاعدة المحافظة على الدين وعدم مخالفة الوظائف والأعمال لقواعده وأحكامه ، وعد ذلك من أهدافها ووظائفها الكبرى فى كتابه المهم السياسة الشرعية (٤٤) ، وهو المبدأ الذى نادى به تاج الدين السبكي ، وبنى عليه كثيرا من فكره الإصلاحى . كذلك فصل كثيرا فى أعمال الوظائف الكثيرة التى أوردها ابن نيمية سردا (٤٥) ، وعد كل منهما أن ولاية القضاء بحق من أفضل القربات (٤٦) .

ويبدو أن السبكي تابعه - فيما نرجح - فى الحديث بإيجاز عن الغزو المغولى وهول وقعه ، وفظائع صنيعه فى العالم الإسلامى وقتذاك .

كذلك تتضح أهمية كتابه واختلاف مفهومه والارتقاء بموضوعه من خلال مقارنته بمؤلف ابن رضوان الملقى (ت٧٨٣هـ) الذى أسماه الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، وتحدث فيه بأسهاب عن الخلافة والوزارة والشورى والعدل والجهاد والبريد وغيرها (٤٧) مما كان دارجا عليه منهج هذا النوع من المؤلفات .

وثمة فرق بين فى المقصد والدافع فى إيضاح هذه الآراء والتأليف ، بين تاج الدين السبكي وبين ابن رضوان الملقى فقد قصد الأول النقد

والاصلاح وعلاج الواقع من تلقاء نفسه ، بينما جاء تأليف الثانى بنساء على تكليف أحد سلاطين بنى مرين له (٤٨) للافادة مما يذكره أو يشير به عليه ، ولا يخفى أثر وقوة وحتى استقلال آراء كل منهما تبعا لاختلاف الدوافع .

وقد اولى تاج الدين السبكي صلاح ارباب الوظائف الكبرى فى الدولة اهتماما كبيرا ، اذ ابتدأ بهم ، وقدمهم على غيرهم من حيث الأثر والمنزلة والقُدوة بهم عندما يؤدون وظائفهم كما ينبغى أو عكس ذلك ، وقسمهم الى فئات وفقا للمعهود من وظائفهم فى عصره . ونص على ماينبغى أن تكون عليه كل طبقة تبعا لمسئوليتها وخطرها فى المجتمع .

ولما كانت مقاصد الأعمال الحقة هى خدمة الصالح العام ، وتحقيق مقاصد الشرع منه فانه يرى أن صاحب أى وظيفة ينبغى ألا ينشغل بمصالحه أو يوجه تلك الوظيفة لتحقيقها ، أو يسخر من يعاونه فيها لخدمتها .

ولهذا جاء نقده وتقويمه لأوضاع عصره تاما من جميع الجوانب والمستويات . ذلك أنه نقد الوضع السياسى وأصحاب وظائفه ، والوضع الاقتصادى وتقويم وظائفه المالية ، والجوانب الاجتماعية وضرورة استقامة أدائها وجودة انتاجها . وبهذا شمل نقده السلم الاجتماعى من أعلى وظيفة فيه الى أدنى أخرى فى قاعدته ، فى مفهوم متكامل الغاية لاصلاح المجتمع ومؤسساته ، لكى تدوم عليه النعمة وتستديم .

أما عندما يعم الفساد والقصور بعض مؤسساته ، فالبناء والهدم لا يجتمعان ، وذلك مما يزيل النعمة ويوجب النقمة .

وقد صاغ تاج الدين السبكي عنوان كتابه معيد النعم ومبيد النقم بعناية تنبى عن مقصده فى المنهج الذى ينبغى أن تسير عليه الأوضاع فى المجتمع فى ضوء حفظ كل ما يفيد فى مختلف المجالات ويذهب الفساد والقصور بمختلف ألوانه ، وهو المعنى أو المبدأ نفسه الذى قصده امام الحرمين الجوينى عندما سمى أحد كتبه غياث الأمم فى التياث الظلم .

وفيما يلي نقده وتقويمه لبعض جوانب عصره :

أولاً - السلاطة العليا :

وتشمل وظائفها السلطان ونوابه والوزراء والقواد وكاتب السر وصاحب الرسائل وصاحب بيت المال ومأمور الاقطاعات وصاحب البريد . وكانت هذه الأعمال من أخطر الوظائف خلال العصور الاسلامية ، وكان لصلاحها أو فسادها أثر كبير في كيان الدول . وعلى الرغم من أن السبكي عنى منها بما كان قائماً في دولة المماليك التي عاش فيها ، بدليل استخدامه لمسمياتها المعروفة وقتذاك ، مثل الدوادار والخازندار ، فإنه يحاول أن يقدم ما يساعد على اصلاحها وذكر ما ينبغي أن تكون عليه . ونقد المخالف منها لذلك . وضرب الأمثلة على استقامة أحوالها أو فسادها مما يبقى النعمة وآثارها على متوليها ومجتمعهم أو يبيدها .

والحكم عند تاج الدين السبكي من وظائف الوالى العام أو السلطان ، وقد لخص وظائفه في تجنيد الجنود واعداد الجيوش ، واقامة فرض الجهاد ضد الأعداء (٤٩) . وكذلك اقامة الصلوات وعمارة المساجد . وقد عاب على بعض سلاطين عصره الاكثار من ذلك في الوقت الذى تقاعسوا فيه عن عمارتها بالجمع والجماعات ؛ أو أنهم تسموا بها ليقال هذا جامع فلان ونحوه ، بينما هى عمرت من أموال الرعايا (٥٠) .

وقد أوجز تاج الدين السبكي فيها إكتفاء بما أورده العلماء عنها من قبله ، مثله الماوردى والفراء والغزالي وابن الجوزى كما مر من قبل . وأشار هو بوضوح الى ذلك عندما ذكر أن الفقهاء أكثروا الحديث فيها . ووصف عمله فيها بأنه بحث مختصر (٥١) .

وهذا اختصار ، يقابله تفصيل فى مهام الوظائف الأخرى فى المجتمع .

ومن هذه الوظائف أنه ركز بوضوح على وظائف الحكم المحيطة بالسلطان ، فهو يعزو عوامل بقائه ونجاحه وقوته أو ضعفه وزواله الى

خلاص أصحاب تلك الوظائف المساندة له فى كل حين من عدمه : فقد حذر النواب من الاستبداد دونه والحجاب ، أو الدوادارية من الوقوف بين الرعية والسلطان والحيلولة دون وصول حاجاتهم اليه . وحث صاحب البريد على القيام بالصالح العام بعيدا عن الاستغلال له من قبل رجال الدولة فى شؤونهم الخاصة وهو ما عبر عنه بالأغراض الدنيوية (٥٢) .

وهو يتفق هنا مع المعيار الذى وضعه ابن تيمية من قبل ، والمطلوب اتباعه فى أى جهة أو مصلحة ، وهو أن يستعان فيها أو يستعمل أصالح من يجده القائم عليها (٥٣) . وأن على صاحب الأمر فيها أن يستعمل أصالح الموجودين وأن يحرص فى كل منصب أو وظيفة على أن يختار لقيام بها الأمثل فالأمثل (٥٤) .

اما هو ، فمن حق الولاية - وهى من أكبر الوظائف - عنده القيام بأمور الرعية ونفع الناس ، وعدم أذاهم ، وتجنب الهوى فى ادارتهم ، حتى انه يستوى لديه من هو صالح فى ذاته ومن هو تارك لوظيفته ، ومنشغل بملذاته عن أمور الناس فيقول : « ولو أنك نركت الناس هملا يأكل بعضهم بعضا وجلست فى دارك تصلى وتبكي على ذنبوك لكنت مسيئا على ربك » (٥٥) فالقيام بحقوق الوظيفة وتطبيق مقتضاها نحو المستفيدين منها مقدم على ما يعود للذات - أى لصاحبها نفسه - حتى وان كان ذلك عبادة (٥٦) .

الوظائف العسكرية : وتشمل ناظر الجيش والسلحدار أى صاحب السلاح والجمقدار ، وهو حامل العتاد ، وحرس السلطان ، وهى وظائف عنى بها الممالك ورتبوا لها الجند كلا فى مجاله . ويلحق بها وظائف أخرى مثل أمير علم وهو القائم على الطبول والرايات . والسبكى كثيرا ما يوضح طبيعة عمل الوظائف التى يذكرها (٥٧) .

وقد بكت على كثير من هؤلاء ممن يدعى أن أعجميته التركية لا تمكنه من معرفة المبادئ الاسلامية والتطبيق العملى لها فى صدر الاسلام أو فى بعض الفترات اللاحقة (٥٨) .

ولما اشتملت عليه الادارة العسكرية فى عصره من فساد وجهل وبطش بالناس فقد نقدها السبكى كثيرا ، فمرة يصف القواد بالجهل والعصبية ، وأخرى يعيب عليهم احتجان الأموال وامتلاك القناطير المقنطرة منها ، وارتكابهم المنكرات وانشغالهم بالحصول عليها عن وظائفهم الأساسية (٥٩) .

الحرف والصناعات :

ذكر السبكى أكثر من عشرين حرفة شائعة فى المجتمع ، وذكر كثيرا من أوجه أعمالها ، ودورها فى الحياة العامة . وهو من العلماء القلائل الذين عنوا بهذه المهن ، ونادوا بتنظيمها ، والاهتمام بها ، والرقابة عليها ، وتحسين مسنواها ، ورفع وعيها ، ليجنى المجتمع من وراء ذلك عملا متقنا ونتاجا مفيدا ، فهي تسهم فى كثير من الصناعات والخدمات التى لا غنى له عنها .

وتعد آراؤه فى أصحاب الحرف والصناعات دستورا مهما ، لا من حيث أنواعها فى عصره والحال الذى كانت عليه ، وانما من حيث حملهم على مراعاة الأمانة والاخلاص فيها من حيث المطلب الشرعى ومقتضى العرف المهنى والاتقان فيها . والأول لسلامة الهدف وتحقيق الغاية الكفائية فيها . والثانى أداء حق المهنة والاختصاص فيها . وقد زاد من قبولها حسن التوجيه والرفق بهذه الطبقة مقارنة بموقفه ونقده لأصحاب الوظائف السلطانية .

وقد دافع عن الفلاحين مثلا فقال : « والفلاح حر لا يد لآدمى عليه ، وهو أمير نفسه » (٦٠) ، وقد حذر من تدخل الادارة العسكرية فى أمور الزراعة والزام الفلاحين ما لا يطيقون . ففى ذلك تعطيل لخبرتهم واشغال لأولئك - أى العسكر - بما ليس من عملهم ، وفيه ترك لوظيفتهم الأساسية . ولازال تدخل تلك الادارات فى أمور الزراعة مضرا باقتصاد الأوطان حتى فى العصر الحديث .

أهداف مؤسسات المجتمع :

يوضح تاج الدين السبكي هدف مؤسسات المجتمع باختلاف مجالاتها ، بأنه خدمة الصالح العام ، وتحقيق مطالب الناس في بابه ، واحتساب الأجر والثواب في القيام به ، ومخالفة زوال الفوائد والمصالح المترتبة عليه .

وفي المقابل يحذر من انحراف أغراض تلك المؤسسات الى تحقيق المصالح الخاصة والأغراض الدنيوية للقائمين عليها ، ومن ثم تعطل نشاطها وانقطاع فوائدها وحلول النعمة والعقاب عاجلا أو آجلا .

وهو كثيرا ما يذكر الصورة الصحيحة لعمل كل ادارة ومهام كل وظيفة ، ويتبع ذلك أيضا بأوجه القصور بل والانحراف والفساد في أدائها ، ويضرب عليه الأمثلة من عصره كما سيأتى .

والعمل هو الأساس الذى بنى عليه آراءه فى أحوال المجتمع ومعاش الناس ، ولهذا عنى كثيرا بقيمة العمل مهما دنا وتواضع شأنه أو اعتباره فى المجتمع ، طالما أغنى صاحبه عن السؤال ونحوه ؛ وأداه وفق مقتضاه الشرعى والمهنى فى أمثاله ، فهو أسعد حالا ومالا من أعمال أكبر منه فيها معصية لشارع وتلف لأهلها أو المجتمع . فالأول مهىء للنفع والبقاء والثانى مؤذن بالفساد والزوال (٦١) .

كذلك عد المسؤولية الذاتية فى العمل أنى كان مجاله مسئولية فردية من حيث التبعية فى العقاب والثواب ، وما يترتب عليها من آثار ونتائج فى المجتمع . لا يغير من ذلك ارضاء وال ، أو طاعة مدير ، وفقا لمبدأ أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد حث فى الوظائف الكبيرة نواب السلطان مثلا على مراجعته اذا ما أصدر ما يخالف الشرع أو ما يُلغى أو يصادم مصلحة عامة ، وأن يكون هذا المفهوم حاضرا لدى كل أصحاب الوظائف والمهن . ولهذا يرى استواء الكافة فيه من شرائح المجتمع ، حتى أن الساقى لا يجوز أن يقدم لخدمته أو فى رواد محله ما يحرم تقديمه أو تناوله . فالأصول عنده مراعاة قواعد الشرع وما يحفظ على الناس صحتهم (٦٢) ، دون مجاراة لأحد أو تحقيق مصلحة ذاتية عاجلة .

ويندل ذكره للوظائف الصغرى فى المجتمع على عدة مفاهيم ، منها :
علو قيمة العمل ، ومنزلة صاحبه مهما كان ، ومنها أنها ضرورة من
ضرورات المجتمع والحياة فيه ، ومنها أن الحاجة لها قائمة فى أى
مجتمع مثل أى الوظائف الكبرى فيه ، مع التسليم بالتفاوت فيها من
حيث الأهمية والآثار . ومنها أن مؤسسات المجتمع مهما علت أو دنت
لا بد من شرط الصلاح والاخلاص فيها حتى لا يكون هناك تصادم بين
أنشطتها ونتائج أعمالها ، لما لهذه الوظائف من أثر فى القاعدة
الاجتماعية ، أو رأى العام ، يغفل عنه بعض المفكرين أو يولون الوظائف
الكبرى فى المجتمع اهتماما أكبر منه . وحتى لا يكون هناك ارتقاء فى
جوانب فيه ، وقصور أو انحطاط فى أخرى .

لهذا كله فان من شروط الوظيفة الكبرى فى المجتمع عنده معرفة
حدود عملها وميادينه والا فلا يزاحم عليها من هو أكفأ منه وأدرى
بمسئولياتها (٦٣) .

وقد عاب على بعض الأتراك فى عهده تصديهم لبعض الوظائف النى
تتعلق بمصائر الناس دون معرفة حدودها والواجب فيها (٦٤) .

وعلى امام الحرمين الجوينى لذلك من قبل بقوله : « انما ينسل
عن ضبط الشرع من ثم يحط بمحاسنه ، ولم يطلع على خفاياه
ومكامنه » (٦٥) .

واذا كان معاصره ابن جماعة عرض قواعد الحكم والوظائف الكبرى
فى الدولة الاسلامية ، كالامامة والوزارة والقضاء والجهاد وفروعها
وأحكامها من ناحية السياسة الشرعية (٦٦) ، فان تاج الدين السبكى فى
فكره كان أعم من حيث شموله لكثير من جوانب الحياة . ثم انه أكثر قربا
من الواقع المعاصر له ، وتنظيمه ونقد بعض أوضاعه . لهذا حاول تقويم
ادارات الدولة بعدا ، أو قربا ، تطبيقا ، أو تركا لمفهوم العمل وحق
أدائه ، وفق القواعد والأحكام المنظمة له فى الاسلام . وقد استوت عنده
فى ذلك الأعمال الكبيرة كالادارات العسكرية والمالية والقضاء ، والحرف
الصغيرة كالبنائين وسائى الليل وحتى الاسكافية .

هذا الى أن فكرة العمل عنده سامية تحتكم الى الأحكام والقواعد الإسلامية فى مجاله ، وهى الأحكام والمبادئ التى تتخذ من خدمة الصالح نعام وسد حاجة المجتمع فى كل مجال ، وبذل غاية الجهد فى ذلك ، معيارا عاما للعمل . تم تربط بين ما يتحقق من فوائده للجميع فى الدنيا والثواب عليه فى الآخرة ، وتبعاً لذلك يكون بقاءه باتباعها وزواله بمجانبتها .

وهكذا فالرقابة عليه ذاتية من قبل صاحبه ان كان يعرف تلك الأحكام أو من قبل جهة تختص بذلك . من حيث الهدف والجهد والمستوى الذى ينبغى ان يكون عليه .

فالعامل هنا له غايتان متلازمتان دينية ودنيوية لا يمكن أن تنفصلا؛ ولهذا فإن فكره عنه بعيد عن مفهوم خلق العمل وشرف المهنة التى تنادى بها بعض مدارس الفكر الحديث .

رعاية العلم والعلماء :

ومن أبرز آراء تاج الدين الفكرية الاهتمام بالعلم ورعاية أهله ، فذلك علامة ارتقاء نهوض الأمم ، والحرص على هذا المنهج والاستمرار عليه علامة من علائم بقاء النعم ، ودوام الاستقرار عنده . فالعلم لو لم يطلب إلا لذاته ولعلو منزلته فى الحياة لكفى صاحبه همة ونبلا ، فضلا عن أن يطلب لاقامة الحياة على أسسه واصلاح أحوالها ، وتعليمه للناس ، ومحاولة أداء صنائعهم ، ومعايشتهم ، وفق مفاهيمه .

ونادى بأن يكون العلم غاية للسلطة ، وأن تكون علاقتها به قائمة على التلازم والتطبيق الحقيقى له ، ففى ذلك بقاء لها وقوة . ومن ثم حث أهل السلطة فى عصره على احترام العلماء وتقديرهم ، فهم حملة العلم ومناثر وجوده ؛ وألا تصدق فيهم وشاية أو دسيئة بسهولة (٦٧) . حتى ان ابن تيمية قبله نص على أن أولى الأمر فى الدولة هم الأمراء والعلماء وذكر أن كلا منهم ركن فى صلاح أحوالها (٦٨) .

واعتبر النيل من العلماء ، أو تحقيرهم أو عدم رعاية علمهم ونهجيته والافادة منه أو من حملته فى وظائف الدولة ، من الجهل بمكان . ومن مظاهر ذلك أيضا الاستخفاف بهم والتقتير عليهم ، أو استكثار أرزاقهم . وقد عاب الأوضاع فى دولة عصره ضمنا عندما أشار الى ان مرتب أكبر فقيه هو دون رزق أقل مملوك فيها (٦٩) .

كذلك عاب على ولاية عصره اتخاذهم الحراس والأموال والأطباء فى كل منشط ، فى حين لا يتخذون أحدا من العلماء ينير لهم سبل الحياة وما ذاك الا لأن أمر أبدانهم عندهم أهم من أمر معاشهم ومعادهم (٧٠) .

وكان تاج الدين السبكي منصفا فى آرائه ، فحتى العلماء - وهو واحد منهم - عاب على بعضهم الاشتغال بالاختلاف حول الفروع والتعصب للمذاهب ، والانحراف فى المناظرات فيما بينهم ، وتركوا كثيرا من عظام الأمور فى الحياة مهمة دون أن يؤمر بها ، كما تركوا كثيرا من المحرمات تؤتى دون أن ينهى عنها (١٧١) ؛ وباب الدعوة دون طرق ، وتركوا مسلمين جددا من أهل الذمة أو غيرهم دون رعاية وتعهدهم (٧٢) .

وكثيرا ما يحدد السبكي واجبات كل وظيفة ، ويحد قواعد العمل فى مجالها دون تداخل مع غيرها ، بل انه يوضح فى بعض الأحيان ما طرأ على مفهومها فى عصره من تحديد أو تغيير ؛ فهو يقول عن الوزير : « وهو اليوم اسم لمن ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع الى السلطان ويبيت المال » (٨٣) .

كذلك لم يقف عند بيان مهام كل وظيفة وحدود عملها وانما اهتم بالعقاب المترتب على الانحراف أو القصور فى القيام بها ، وذكر أنواعه ودرجاته ، كأن يعزل فاعله أو يضرب أو يطاف به فى الأسواق (٧٤) .

وتاج الدين السبكي لم يكن مشرعا باعتباره فقيها بالمعنى الحديث لهذا المصطلح فحسب ، وانما كان رجل دولة من الطراز الأول ، فعندما ننظر الى رأيه فى موضوع أو جانب من علاقات الدولة الخارجية نجد فيه صدق التفكير وبعد النظر وصلاح تطبيقه الى اليوم . يقول عن مهام رئيس

المراسم : « المهمندار اسم لمن يقوم بأمور قصاد الملوك ورسلمهم ، فمن حقه ان يعتمد مصلحة الاسلام ، ويرهب القصاد ، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة بأسهم ، وعظيم سطوتهم ، واتفاق كلمتهم ، وقيادتهم فى حوزة الدين ... وحفظ النظام ، وأن ينهى أمور القصاد الى الملك بمقد . ما يكون فيه المصلحة . (وأن يقدر) من يتعين عليه المبادرة الى اكراما ومن يتعين عليه الكف عن اعظامه بحسب ما تقتضيه الحال . ومن الحز على الملك ونوابه الاحتفال عند حضور قصاد الملوك ، واطهار القوة وحسن الملبس وكثرة الجيش ، واستعدادهم على الوجه الشرعى » (٧٥) .

وهكذا فان آراء تاج الدين السبكي الاصلاحية تتسق مع الوحدة فى النظام الاسلامى ، وموقفه من ادارة الحياة ومؤسساتها المختلفة ، والصيغة النظامية التى تتميز بها شريعته ، ومطالبتها بأن يكون التطبيق العملى وفقها أنى وأين كان القائم به . فالموظف صغيرا كان أم كبيرا مكلف بالقيام بالمصالح العامة باختلاف ميادينها ، وتعهدها بالرعاية والاتقان ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما فوق قدرته يعذر فيه . كما أن مظاهر عنايته بمختلف الوظائف والطبقات بما فيها الصغرى ، ومفهومه الشامل للاصلاح وقربه من الواقع تجعل آراءه أدق وأكثر قبولا .



الخاتمة :

وبعد ، فمما لا شك فيه أن السبكي عاش فى صميم الحياة فى عصره ، وعرك مختلف جوانبها ، وخبر مستوى الأداء ، وأوجه القصور ، وأنواع الأهداف والمقاصد ، والقرب فيها من قواعد الشرع ، ومقتضى الوفاء بحق كل عمل من عدمه ، وساهم بنصيب فكرى عظيم مستقرا من الواقع العملى .

أما أهل زمانه فان تاج الدين السبكي قصدهم مع غيرهم ، وخصهم بأنهم لن يصلوا الى مقام الاصلاح الذى ينشده ، ولكن لعلهم على الأقل يرجعون أو يقصرون عما هم فيه (٧٦) .

(مجلة المؤرخ العربى)

كل ذلك بعد أن استقرأ أحداث التاريخ ، ووقف على مشاكل عصر
وقدح فكره فى نقدها ، وتقديم الحلول لها .

والسبكى فى فكره التاريخى الاصلاحى لا ينبع من مثاليات أو
جدليات فلسفية على غرار كثير من الفلاسفة وأصحاب المدن الفاضلة من
قبله ، وانما يقوم فكره على ثلاثة أسس واضحة هى :

الأول : حكم العمل وموقعه من المبادئ التى تحكم المجتمع ، اد
من حق أى مجتمع أن تكون الأعمال فيه موافقة ومنسجمة مع مبادئ
شريعته أو قانونه ، وهذا أمكن لقبول المجتمع لها- وأنجح لنشاطها
ومردودها المادى فيه .

والثانى : الاخلاص فيه واثقانه كما يجب وبذل الجهد فيه دانه
للوصول الى مستويات أفضل سواء غلب عليه الطابع الوظيفى أم المهنى .

والثالث : الاعتماد فى التفويم على الواقع التاريخى ونقد القائم
منه من وظائف أو أعمال وبيان مظاهر القصور ، ومطامح الارتقاء ،
والعوامل والوسائل المؤدية الى كل مستوى ، وذكر القرائن والنظائر له
من ماضى المجتمع نفسه أو من المجتمعات الأخرى .

ولهذا ، فان آراءه تمثل صفحة أخرى من أصالة الفقه السياسى
والادارى عند المسلمين ، وبعده عن التبعية الفارسية أو اليونانية وأثر
الطبقية والفلسفة فيهما . كما أنها تمثل أحد مظاهر نضج علم السياسة أو
علم الاجتماع السياسى فى مصر والشام خلال القرن الثامن وهو القرن
الذى شهد نضوجه فى المغرب على يد ابن خلدون .

الهوامش

- (١) من مؤلفات ابن حزم فى هذا الباب كتاب السياسة .
 - (٢) ابن قاضى شهبه : طبقات الشافعية ، ج٣ ، ص ١٠٦ .
 - (٣) الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٢٤٦ .
 - (٤) ابن قاضى شهبه : طبقات الشافعية ، ج٣ ، ص ١٠٦ .
 - (٥) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١ ، ص ٢٢ .
 - (٦) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١ ، ص ٢٢٩ - ٢٤٥ .
 - (٧) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢٩ - ٢٤٢ .
 - (٨) ابن الأثير ، ج٩ ، ص ٣٥٧ وما بعدها .
 - (٩) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .
 - (١٠) محمد الصادق حسين : البيت السبكي ، ص ٤٢ .
- وقد ظهر كتاب البيت السبكي منذ ٤٨ عاما تحدث فيه مؤلفه عن نسب البيت السبكي والتعريف بأعلامه وأوضاع مصر فى عهد المماليك ، واقتباسات من كتاب معيد النعم ، ومجموع صفحاته ٩١ صفحة .
- (١١) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١ ، ص ٢٠٩ ؛ ٢٢٩ ، ٢٤٢ .
 - (١٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢٩ - ٢٤٥ .
 - (١٣) تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج٢ ، ص ٢ .
 - (١٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٣ .
 - (١٥) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٦ .
 - (١٦) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٥ .
 - (١٧) أخرج الشيخ عبد الفتاح أبو غدة مجموعا محققا ضمنه قاعدة فى المؤرخين لتاج الدين السبكي ، وقد حوى المجموع بالاضافة الى قاعدة له فى الجرح والتعديل ، وكذلك المتكلمون فى الرجال للسخاوى ، كذلك ذكر من يعتمد قوله فى الجرح والتعديل للذهبي . كما ضم لها ما أورده عن المؤرخين فى كتابه معيد النعم وكلها جاءت فى حدود صفحتين عدا التعليقات والهوامش .
 - (١٨) خليل بن أيك الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ٧٦ - ٤٧ .
 - (١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

- (٢٠) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ج١ ، ص ٢٣
- (٢١) السخاوى : الاعلان ، ص ١١٤ - ١٢٧
- (٢٢) الطبقات ، ج٢ ، ص ٢٤
- (٢٣) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ج١ ، ص ٢٣
- (٢٤) السخاوى : الاعلان ، ص ١٢٦
- (٢٥) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ص ٢٣
- (٢٦) نفسه
- (٢٧) الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ٤٧
- (٢٨) السخاوى : الاعلان ، ص ٩٩
- (٢٩) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ج٢ ، ص ٢٤
- (٣٠) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ص ٢٤٧
- (٣١) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ج٢ ، ص ٢٣
- (٣٢) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٧٤
- (٣٣) نفسه
- (٣٤) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ج٢ ، ص ٢٣ - ٢٤
- (٣٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٢
- (٣٦) المقدمة ، ص ٤ - ٥
- (٣٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٨
- (٣٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ٢٠
- (٣٩) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥١ - ٥٣
- (٤٠) الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٠ - ١٣٢
- (٤١) الشيزرى : المنهج السلوك فى سياسة الملوك ، ص ٢٠٠ - ٢٢٣
- (٤٢) الشيزرى : المنهج السلوك فى سياسة الملوك ، ص ٥٨٣ - ٥٨٥
- (٤٣) سبط بن الجوزى : الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص ٦٣ ، ٧٣ ، ١٣١
- (٤٤) ص ٤ ، ٦
- (٤٥) السياسة الشرعية ، ص ٥
- (٤٦) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ١١ ، تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٥٨
- (٤٧) ابن رضوان المالقى : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، ص ٥٦ ، ٢٠٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

- (٤) المصدر السابق ، ص ٥١ .
- (٤٩) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ١٦ .
- (٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
- (٥١) المصدر السابق ، ص ٢ .
- (٥٢) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٢٢ .
- (٥٣) ابن تيمية : السياسة الشرعية . ص ٤ ، ٥ .
- (٥٤) المصدر السابق ، ص ٨ .
- (٥٥) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ١٤ .
- (٥٦) نفسه .
- (٥٧) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٢٣ - ٢٧ .
- (٥٨) المصدر السابق ، ص ٤١ .
- (٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ .
- (٦٠) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٣٤ .
- (٦١) تاج الدين السبكي : معيد ، ص ١٤٥ .
- (٦٢) المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٣ ، ٢٨ .
- (٦٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٤٢ .
- (٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١ .
- (٦٥) غياث الأمم ، ص ١٧٠ .
- (٦٦) ابن جماعة : تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام ، ص ٥١ - ٥٣ ،
٧٥ - ٧٧ ، ٨٨ .
- (٦٧) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٤٨ .
- (٦٨) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٨٩ .
- (٦٩) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٤٩ .
- (٧٠) المصدر السابق ، ص ٢ .
- (٧١) المصدر السابق ، ص ٧٦ .
- (٧٢) نفسه .
- (٧٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٢٧ .
- (٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
- (٧٥) المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .
- (٧٦) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٠ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد :
الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥م .
- تاج الدين السبكي : أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى :
— طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود
الطناحى ، مطبعة البابى عيسى الحلبي ، القاهرة ١٩٦٤م .
معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار وزميليه .
جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، القاهرة ١٩٤٨م .
- ابن تيمية : تقى الدين أحمد بن عبد الحليم :
السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية . المطبعة السلفية ،
القاهرة ، ١٩٦٧م .
- ابن جماعة : بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله .
تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، تحقيق فؤاد عبد المنعم
أحمد ، ط ٣ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٨م .
- الجوينى : امام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله :
غياث الأمم فى التياث الظلم ، تحقيق د . فؤاد عبد المنعم وزميله ،
دار الدعوة ، الاسكندرية ، (د . ت) .
- ابن حجر : شيخ الاسلام أحمد بن حجر العسقلانى :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد
الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة (د . ت) .
- ابن خلدون : عبد الرحمن :
المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (د . ت) .
- ابن رضوان المالقي : أبو القاسم :
الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق د . على سامى النشار ،
دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٤م .
- سبط الجوزى : يوسف قزلباش بن عبد الله :
الجليس الصالح والأنيس الناصح ، تحقيق فواز صالح فواز ، دار
رياض الرئيس ، لندن ، ١٩٧٧م .

- السخاوى : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :
الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانز روزنثال ، ترجمة
د. صالح العلى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- الشيزرى : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر :
المنهج السلوكى فى سياسة الملوك ، تحقيق على عبد الله موسى ،
مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٧ م .
- العفدى : خليل بن أيبك :
كتاب الوافى بالوافيات ، باعثناء هملوت ريتز ، ط ٢ ، نشر
فرانزشتاينر ، فسادن ١٩٦٢ م .
- ابن قاضى شهبه : أبو بكر بن أحمد بن محمد :
طبقات الشافعية ، باعثناء د. الحافظ خان ، عالم الكتب ، بيروت ،
١٩٧٧ م .
- محمد الصادق حسين :
البيت السبكى ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .
- النشار : على سامى :
مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ط ٣ ، دار النهضة العربية ،
بيروت ، ١٩٨٤ م .

رسالة صلاح الدين الأيوبي الى بلدوين الرابع

ملك بيت المقدس

(٥٦٩هـ = ١١٧٤م)

د . عادل عبد الحافظ حمزة (*)

أورد القلقشندي نص رسالة أرسلها «صلاح الدين الأيوبي» (٥٦٩هـ / ١١٧٤م - ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) سلطان الدولة الأيوبية الى الملك « بلدوين الرابع » (١١٧٤م / ٥٦٩هـ - ١١٨٥م / ٥٨٠هـ) ملك بيت المقدس ، يعزیه فی وفاة والده الملك « عموري الأول - (أمريك الأول) (١١٦٣م / ٥٥٨هـ - ١١٧٤م / ٥٦٩هـ) ويهنئه - فی الوقت ذاته - بجلوسه على عرش مملكة بيت المقدس ، والرسالة من انشاء « القاضي الفاضل » ونصها هو :

« أما بعد : خص الله الملك العظيم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهناه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فان كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصدقاء ، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق بالملك العادل الأعز الذي لقاءه الله خير ما لقي مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزيا بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفا لفقدته الذي عظمت به الأرزاء . الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب ووهبه النعمتين الملك والشباب ، فهنئنا له ما حاز وسقيا لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز . ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - كلية الآداب - جامعة المنيا .

من لسانه ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق
وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه
وقد استفتحنا الملك بكتابتنا وارتياحنا ، ووده الذى هو
ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت
الحمسة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة
صافية وعقيدة وافية . . ومحبة ثبت عقدها فى الحياة
والوفاة ، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى
الدين من المخالفات فليسترسل إلينا استرسال الوثائق الذى
لا يخل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن
والده ما تحمل ، والله يديم تعميرة ، ويحرس تأميره
ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن
الصديق « (١) » .

هذا هو نص الرسالة كما ذكرها القلقشندى .

وبدراسة هذه الرسالة يبدو أن السلطان « صلاح الدين » حرص
على أن يظهر أنه حزن حزنا شديدا لوفاة « عمورى » الأول ملك بيت
المقدس ، وعبر عن هذا الحزن بعبارات قوية مثل « والنعى الذى وددنا
أن قائله غير صادق » و « متأسفا لفقده الذى عظمت به الأرزاء » و«كيف
لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه » و « ليعلم أنا كنا له كما كنا لأبيه
مودة صافية وعقيدة وافية » . وفى الوقت نفسه أظهر صلاح الدين سعادته
بتولية « بلدوين الرابع » مكان والده الملك « عمورى الأول » حيث يقول
« الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث » وعبر
صلاح الدين عن مشاعره نحو الملك الجديد بأن تعهد بأنه « سيصادق من
يصادقه الملك الجديد » بلدوين الرابع « ويحافظ على » وده الذى هو
ميراثه عن والده من ودادنا .

وربما قيل أن هذه الرسالة تعبر عن مهارة صلاح الدين فى مجال
علاقاته السياسية مع الصليبيين، فالحرب خدعة والمعاملات السياسية مع
الأعداء تتطلب قدرا من الذكاء والمراوغة بحيث يظهر الانسان لعدوه غير
ما يبطن . وبالرجوع الى مصادر تاريخ تلك الحقبة أو الحلقة ندرك أن

صلاح الدين كان لا يمكن أن يغفر للملك «عمورى الأول» الصليبي ملك بيت المقدس ، تطلعه الى السيطرة على « مصر » منذ تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، عندما اشتد النزاع بين «شاور» و « ضرغام » على كرسى الوزارة فى مصر (٢) ، وكيف أن الملك «عمورى الأول» حاصر بقواته « أسد الدين شيركوه » - عم صلاح الدين - فى بلبس لمدة ثلاثة أشهر سنة ١١٦٣م/٥٥٩هـ (٣) ، ولم يرفع « عمورى الأول » الحصار الا بعد أن كثف نور الدين محمود هجماته على الصليبيين فى الشام (٤) ، بل ان « صلاح الدين نفسه عانى من حصار الصليبيين له فى الاسكندرية لمدة اربعة أشهر عندما كان فائدا فى جيش « أسد الدين شيركوه » بمصر سنة ١١٦٦م/٥٦٢هـ ، ولم يرفع الصليبيون الحصار عنه الا بعد مفاوضات طويلة تمت بين « أسد الدين شيركوه » والصليبيين ، فضلا عن ضغط « نور الدين محمود » عليهم بالشام (٥) .

وما أن تولى « صلاح الدين » الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد خلفا لمعه « أسد الدين شيركوه » فى جمادى الآخر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م (٦) ، حتى بدأ يهاجم الصليبيين - قوات مملكة بيت المقدس - على حدود مصر ، ففتح ايله سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وهاجمهم فى عسقلان والرملة (٧) وصدّهم ابان مشاركتهم البيزنطيين فى الهجوم البحرى والبرى على مصر (٨) وأحبط فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م دور الصليبيين فى المؤامرة الكبرى التى اشترك فيها الملك « عمورى الأول » نفسه والحشيشية ووليم النورمانى وعناصر من الداخل كانت تهدف الى القضاء على « صلاح الدين » (٩) . وقد عدد « صلاح الدين » العناصر التى شاركت فى هذه المؤامرة - وذكر منهم الصليبيين - فى الرسالة التى أرسلها الى الخليفة العباسى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م (١٠) .

وفى هذه الأجواء مات الملك « عمورى الأول » فى ١١ من يوليو ١١٧٤م/٩ من ذى الحجة ٥٦٩هـ (١١) وذلك بعد وفاة « نور الدين محمود » بحوالى ستة وخمسين يوما تقريبا ، وذلك فى المرحلة النى أخذ صلاح الدين يتطلع لأن يرث سيده نور الدين فى دولته بالشام ومصر . وكان صلاح الدين يدرك جيدا أن طموحاته ستصدم بمقاومة شديدة من

جانب مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولذا فان هـلـاح الدين حرص على اخفاء نواياه من جهة وخديعة بلدوين الرابع (١٢) ملك بيت المقدس الجديد من جهة أخرى .

وربما كان مصدر ارتياح صلاح الدين أن ملك بيت المقدس الجديد - بلدوين الرابع - كان مريضاً ، صغير السن ، غير متمرس في فنون الحرب والقتال ، مما يعطى فرصة لصلاح الدين ليوحد المسلمين في الشام والجزيرة ومصر تحت زعامته ، وبذلك يعيد بناء الجبهة الاسلامية تمهيدا لتوجيه ضربات مباشرة ضد الصليبيين .

ولكن « بلدوين الرابع » لم يلبث عقب توليه الحكم أن مد نشاطه العسكرى ضد « صلاح الدين » ، فهدد دمشق سنة ١١٧٥م / ٥٧٠هـ ، كما حاول منع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب، بمشاركة «ريموند الثالث» أمير طرابلس الصليبي وعلى اقليم البقاع الذى كان « تورانشاه » أخو « صلاح الدين » يرباط لدفع خطر الصليبيين عنه (١٣) .

وعندما أخذ صلاح الدين يهاجم الصليبيين فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م (١٤) ، انتهز الصليبيون فرصة تقدم « صلاح الدين » بجيشه فى اتجاه القدس تاركاً بعض قواته لمحاصرة عسقلان فى جمادى الآخرة ٥٧٣هـ / ١١٢٧م ، وانقضوا عليه . وقد شارك الملك « بلدوين الرابع » بنفسه فى هذا الهجوم ، الذى انتهى بهزيمة جيش « صلاح الدين » جنوبى شرق الرملة . وقت اطلق بعض المؤرخين على هذه المعركة اسم معركة « تل الجزر » (١٥) ولم يكتف الملك « بلدوين الرابع » بذلك بل حاول استغلال الحملة الفلمنكية ليوجهها ضد مصر بقيادة فيليب الالزاسى « الذى كان يزور بيت المقدس آنذاك ، لكن الأخير رفض واكتفى بشن اغارات على حمص وحمص فى نوفمبر ١١٧٧م / جمادى الآخرة ٥٧٣هـ (١٦) .

ثم كان أن عاد « صلاح الدين » الى مصر بعد هزيمته فى معركة تل الجزر ليعيد تنظيم قواته ، حتى اذا ما أتم ذلك توجه الى الشام فى شعبان ٥٧٣هـ / ١١٧٨م (١٧) ، حيث انزل الهزيمة بالصليبيين فى مرج

عيون (١٨) ، كما خرب حصن بيت الأحزان فى ربيع الأول ٥٧٥هـ/يونيه ١١٧٩م ، الذى بناه الصليبيون ، وكان قد طالبهم بهدمه ، فرفضوا وطلبوا منه تعويضا كبيرا مقابل ذلك (١٩) . وهكذا لم يهدأ الحال بين « صلاح الدين » و « بلدوين الرابع » حتى تم عقد الصلح بين الجانبين لمدة سنتين اعتبارا من سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م (٢٠) .

ويلاحظ أنه بالرغم من هذا الصلح فان بعض الأمراء الصليبيين قاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين منهم « رينالد دى شاتيون » (أرناط) الذى هاجم القوافل الاسلامية فى بلاد الشام فى سنة ١١٨٠م/٥٧٥-٥٧٦هـ، كما أعد أسطولا فى البحر الأحمر سنة ١١٨٢م/٥٧٧-٥٧٨هـ واستولى على ايله التى كان « صلاح الدين » قد استردها من قبل كما سبق ذكره (٢١) .

يضاف الى ذلك بعض المعارك المحلية التى دارت عندئذ بين صلاح الدين وبلدوين الرابع خلال عام ٥٧٧ - ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، اذ حاصر صلاح الدين بيروت برا وبحرا فى ربيع الثانى ٥٧٨هـ/أغسطس ١١٨٢م ، فامر بلدوين الرابع باعداد الأسطول الصليبي فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من حصار صلاح الدين (٢٢) . كذلك أراد صلاح الدين أن ينتقم من أرناط - رينالد دى شاتيون - فاتفق مع أخيه العادل الأيوبي بمصر على محاصرة امارة الكرك الصليبية التابعة لهذا الأمير الصليبي . وبالفعل بدأ صلاح الدين يحاصرها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، غير أنه لم يستمر فى هذه العملية بسبب ما بلغه من قدوم القوات الصليبية ومعها بلدوين الرابع ملك بيت المقدس محمولا فى محفة لشدة مرضه آنذاك ، فرفع صلاح الدين الحصار عن الكرك فى نفس العام لأنه لم يكن عندئذ على استعداد تام للقيام بعمل عسكري كبير ، والدخول فى حرب مباشرة ضد الصليبيين حيث ان ذلك سابق لأوانه عندئذ (٢٣) . ومع ذلك فقد حاول صلاح الدين مرة أخرى حصار امارة الكرك فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/صيف ١١٨٤م ، غير أنه لم يحقق غرضه لقوة تحصينها ، فأقلع عنها واتجه الى دمشق بعد أن أرسل سرية لمهاجمة اقليمى الجليل ونابلس الصليبيين (٢٤) .

ومما سبق يمكن القول ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لم يتأثر برسالة صلاح الدين، ولم يتزحزح عن سياسة والده العدائية، ولم يكف عن هجماته ضد المسلمين الا بعد أن اشتد عليه المرض ولازم الفراش في أوائل عام ١١٨٣م (٢٥) . وكان أن توفي في مارس ١١٨٥م وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، بعد أن قام بدوره في شجاعة نادرة ضد صلاح الدين طوال فترة حكمه (٢٦) (١١٧٤ - ١١٨٥) .

وقد تولى مملكة بيت المقدس بعده بلدوين الخامس في الوقت الذي ساءت أحوال المملكة الصليبية من جانب وازدادت هجمات رينالد دي تاتيون الصليبي صاحب الكرك على القوافل الاسلامية من جانب آخر ، وذلك في أواخر سنة ١١٨٦م / ٥٨٢هـ ، الأمر الذي أدى بصلاح الدين الى توجيه ضربته الى الصليبيين في حطين في يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ / ٤ من يولية ١١٨٧م .

وفي هذه الأجواء أرسل صلاح الدين رسالته الى بلدوين الرابع معزيا اياه في وفاة أبيه ، مهنتا بقيامه في حكم المملكة الصليبية في بيت المقدس .



وأيا ما كان الأمر فان السؤال الأول الذي يفرض نفسه حول هذه الرسالة التي أوردها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، هو : هل ورد لهذه الرسالة ذكر في بقية المصادر المعاصرة في الشرق أو في الغرب ؟

الواقع أنه بالاطلاع على المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة لم نحصل على أية اشارة الى هذه الرسالة . وكان أخرى بوليم الصوري ليس بصفته مسجلا للأحداث فحسب ، بل بحكم عمله في ديوان المراسلات وخاصة في نهاية عهد عموري الأول ، كان أخرى به أن يشير الى هذه الرسالة لما لها من أهمية ولما حوته من عبارات وكلمات منسوبة الى صلاح الدين تفيض بالود والمسالة . ولكن هذا لم يحدث ، ولم يرد للرسالة ذكر في سجلات مملكة بيت المقدس الصليبية .

واذا تركنا المصادر الغربية جانبا ورجعنا الى المصادر العربية التى عاصرت تلك الحقبة بصفة عامة وحياة صلاح الدين بصفة خاصة ، ثم المصادر اللاحقة بها بفترة ليست طويلة ، نجد أن هناك عددا لا بأس به يشير الى ما حدث فى مملكة بيت المقدس من موت ملك وقيام آخر ولكن دون أدنى اشارة الى رسالة صلاح الدين التى نحن بصددھا . ومن هذه المصادر :

١ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م ، ولم يذكر عن وفاة عمورى الأول الا العبارة الآتية فى حوادث عام ٥٦٩هـ «وفىھا هلك ملك الفرنج مرى لعنه الله ، وأظنه ملك عسقلان ونحوھا من البلاد، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين » وذكر أيضا « أن مرى ملك الفرنج - لعنه الله - مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة ، فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فمملكة الفرنج صورة لا معنى لها » .

٢ - وهناك سيرة صلاح الدين المسماة بـ « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » النى ألفھا بهاء الدين ابن شداد (شداد جده لأمه) . وقد التحق بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وسجل فى هذا الكتاب بعض الجوانب العامة من حياة صلاح الدين منذ وصوله الى مصر أول مرة مع أسد الدين شيركوه حتى وفاته (٢٧) .

٣ - كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » لشمس الدين بن المظفر بن قزاو غلى التركى وهو سبط الشيخ جمال الدين الجوزى ، المعروف بـ (سبط ابن الجوزى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . وقد تناول جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الأيوبية . وليست به اشارة الى هذه الرسالة .

٤ - كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » لمؤلفهما شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن المعروف بأبى

شامه المتوفى ساله ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، وقد كتب كثيرا عن الدولة الأيوبية ولكنه لم يذكر عن وفاة عموري الا العبارة الآتية « ورد كتاب من الداروم (٢٨) يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة (٥٦٩هـ/ ١١ يولية ١١٧٤م) هلك مري ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على نار تلظى لا يصلها الا الأشقى » (٢٩) .

هذا فضلا عن عدد آخر من المصادر التي عالجت تاريخ صلاح الدين وبنى أيوب فى تلك الحقبة منها :

٥ - مخطوطة « الروض المهبوب فى حلى دولة بنى أيوب » الجزء الثانى لأبى سعيد أبى الحسن على بن موسى المغربى المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م .

٦ - وكتاب « البرق الشامى » من تأليف الأصفهانى ، واختصره الفتح بن على البندارى تحت اسم « سنا البرق الشامى » (٣٠) وهو يتناول من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م الى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فى تاريخ الدولة الأيوبية .

٧ - و « المختصر فى أخبار البشر » تأليف عماد الدين اسماعيل أبى الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، فقد تعرض للدولة الايوبية زمن صلاح الدين .

٨ - وكتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م (٣١) .

٩ - أما قاضى القضاة مجير الدين الجنبلى المتوفى سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م ، فقد ألف كتابين أحدهما « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » والآخر « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

والشئ الذى يسترعى الانتباه هو أن كافة هذه المصادر ثم يرد بها ذكر لرسالة صلاح الدين التى أوردها القلقشندى .

وهنا نواجه سؤالاً آخر هو : لماذا لم تشر المصادر الغربية والعربية الى تلك الرسالة التى يذكرها القلقشندى دون غيره من المعاصرين . واذا كانت المصادر العربية لم يرد بها ذكر أو إشارة لهذه الرسالة ، فهل امر صلاح الدين بعدم تسجيلها لأنها مرسله الى الملك الصليبي بلدوين الرابع ونظرا لما تحويه من عبارات الود تجاه الكيان الصليبي بابت الشام ؟ واذا كان هذا صحيحا فلماذا اوردت بعض هذه المصادر المراسلات التى كانت بين الملك الأرمنى (٢٢) والامبراطور البيزنطى (٢٣) من جانب وصلاح الدين من جانب آخر ؟ واذا كانت هذه المصادر العربية قد امتنعت بالفعل عن تسجيل هذه الرسالة بناء على رغبة صلاح الدين فلماذا لم تشر اليها المصادر الصليبية وخاصة سجلات مملكة بيت المقدس ، ووليم الصورى الذى كان يتولى ديوان الانشاء فى المملكة الصليبية ببيت المقدس فى الفترة (من ١١٧٠ - الى - ١١٧٤ م) (٢٤) ثم مجموعات الحروب الصليبية التى اوردت تقريبا اغلب ما كتب عن الحروب الصليبية .

واذا كانت هذه الرسالة صحيحة ، فمن أين استقاها القلقشندى وهو الذى ولى رئاسة ديوان الانشاء فى دولة سلاطين المماليك بعد قرنين تقريبا من تاريخ تلك الرسالة على أيام صلاح الدين ؟



الواقع ان انفراد القلقشندى بذكر هذه الرسالة فى كتابه صبح الأعشى ، مع اعراض من سبقه وخلفه من المؤرخين عن نقلها او الأخذ بها يجعلنا نشك فى صحتها ، وخاصة بعد أن لمسنا ما فاضت به من مشاعر ودية مبالغ فيها تجاه الصليبيين مما لا يتفق وروح العصر . واذا كانت هذه الرسالة تعلوها مسحة من أسلوب القاضى الفاضل ، فاننا لا نستبعد أن يكون واضع الرسالة قد تعمد ذلك بمهارة ليزيل عنها الشكوك ، ويضمن الصاق الرسالة بصلاح الدين .

أن التاريخ يعتمد على الحقائق والأدلة والبراهين والرؤية المنطقية الصادقة وليس على مجرد العبارات الانشائية التى تنسب الى فرد أيا كانت مكانته ، والتى يعوزها الدليل والبرهان . علينا أن نذكر أن صلاح الدين (مجلة المؤرخ العربى)

كان له خصوم ، اما من اتباع الدولة الفاطمية وبقاياها واما من اتباع نور الدين محمود وأسرته . ولا نستبعد أن يكون واحد من هذا الفريق أو ذاك قد دس هذه الرسالة على سيرة صلاح الدين ليتشفى من ذلك البطل الذى اتصف بصدق الايمان وقوة العقيدة والحرص على كل ما فيه كرامة الاسلام والمسلمين .

الهوامش

(١) التلقشندي : صبح الأعشى فى صناعة الانشا . القاهرة ١٩١٤ . ج٧ . ص ١١٥ - ١١٦ .

وأنظر : المخطوط « صبح الأعشى فى صناعة الانشا ورقة رقم ١١٧ ، ١١٨ ، الجزء الرابع . المجلد الأول ، دار الكتب المصرية رقم ١٨٨٨٠ ز ميكروفيلم رقم ٢٤٣١٤

(٢) أنظر : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠ ص ١٢ - ١٤ .

(٣) ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب تحقيق : سعيد عاشور . القاهرة . ١٩٧٢م ، ج٧ ، ص ٢٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ، ج١١ ص ١٢١ . وأبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين لبنان ١٨٧١م ، ج١ . ص ١٢٢ ، وسبط ابن الجوزى مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان الهند ١٩٥١م ، ق٢ ، ج٨ . ص ٢٤٦ . وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ج٢ ، ص ٦٦٥ - ٦٦٦ . وستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨م - ١٩٦٩م ، ج٢ ، ص ٥٩٥ .

(٥) أبو شامة : مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٤٤ . وابن أيبك الدوادارى : مصدر سابق ج٧ ، ص ٢٨ ، وابن الأثير : مصدر سابق ج١١ ، ص ١٣١ - ١٣٢ . وأنظر : ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب ورقة ٧٠٧ . وابن الوردي : تنمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدرأوى ، بيروت ١٩٧٠م ، ج٢ ، ص ١١١ . وابن كثير : البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦م ، ج٢ ، ص ٢٥٢ ، وستيفن رنسيمن : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٦٠٦ .

(٦) ابن الأثير : مصدر سابق ج١١ ، ص ١٣٧ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٦٠ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٦٨٣ .

(٧) ابن الأثير : مصدر سابق ج١١ ، ص ١٤٧ . وسبط ابن الجوزى : مصدر سابق ق١ ، ج٨ ، ص ٢٨٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن ، بيروت ، ١٩٧١م ، ق١ ، ص ١٠٨ .

عسقلان : من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام استولى عليها الصليبيون فى جمادى الآخرة ٥٤٨هـ/سبتمبر ١١٥٢م . أنظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ ، ج٢ ، ص ٤١ .

- الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين انظر : ياقوت الحموى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٨٨ .

(٩) ابراهيم الحنبلى : مصدر سابق ورقم ٢٢ . وابن الوردي : مصدر سابق ج٢ ، ص ١٢٨ . وابن خلكان : وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق : محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ج٦ ، ص ١٦٥ . والبندارى : مصدر سابق ق١ ، ص ١٦٩ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٧٠٥ - ٧٠٧ ، وستيفن رنسيما : مرجع سابق ج٢ ، ص ٦٥٠ .

(١٠) أبو شامة : مصدر سابق ج١ ، ص ٢٤٣ .

(١١) ستيفن رنسيما : مرجع سابق ج٢ ، ص ٦٤٦ . وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٧٠٧ .

(١٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ج٢ ، ص ٧٠٨ .

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٧٢٠ - ٧٢٢ .

(١٤) ابن الوردي : مصدر سابق ج٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(١٥) أبو شامة : مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٧٣ ، وابن شداد : النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٥٣ . وستيفن رنسيما : مرجع سابق ج٢ ، ص ٦٧٢ .

(١٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٧٤ - ٧٢٦ .

(١٧) Riemoud (M) : Notice sur La vie de Saladin, Sultand' Egypte et Syria, Journal Asiatique, Tome 5, pp. 226:237.

(١٨) مرج عيون : بسواحل الشام : انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، ج٥ ، ص ١٠١ .

(١٩) شاهنشاه بن أيوب : مضمائر الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، ورقة ١٩ ، ب٩ . وأبو شامة : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١١ .

ابن الوردي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٣٥ ، وابن كثير : مصدر سابق ، ج١٢ ، ص ٣٠٢ ، وانظر : سعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧٣٥ .

(٢٠) ستيفن رنسيما : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٦٧٩ - ٦٨٠ . وسعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧٣٥ .

(٢١) ابن الوردي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٤٠ ، وابن كثير : مصدر سابق ، ج١٢ ، ص ٣١١ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٣٥ - ٣٧ .

- (٢٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧٤٤ - ٧٤٦ .
- (٢٣) ابن شداد : مصدر سابق . ص ٦٢ . وابن كثير مصدر سابق . ج١٢ . ص ٣١٤ . وستيفن رنسيمن : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧١١ - ٧١٢ .
- (٢٤) ابن الأثير : مصدر سابق . ج١١ ، ص ٢٠٦ وستيفن رنسيمن : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧١٤ .
- الجليل : تقع على ساحل الشام بين حمص ودمشق . انظر : ياقوت الحموي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .
- نابلس : تقع بفلسطين . بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ . انظر : ياقوت الحموي : مصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٢٤٨ .
- (٢٥) ستيفن رنسيمن : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٦٩٨ : ٦٩٩ ، ٧٠٢ : ٧٠٣ .
- (٢٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧١٠ .
- (٢٧) حقق هذا الكتاب جمال الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .
- (٢٨) الداروم : قلعة بعد غزة في طريق القادم الى مصر . بينها وبين البحر مقدار فرسخ . وقد خربها صلاح الدين عندما ملك الساحل سنة ٥٨٤هـ / ١١١٨ - ١١٨٩م . انظر : ياقوت الحموي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٤٢٤ .
- (٢٩) أبو شامة : مصدر سابق ، ج١ . ص ٢٣٤ .
- (٣٠) حقق القسم الأول من هذا الكتاب رمضان ششن ونشر في بيروت ١٩٧١م .
- (٣١) الجزء السادس من هذا الكتاب حققه محمد محي الدين عبد الحميد ونشر في القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- (٣٢) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ١٢٦ .
- CF : Rohricht (R.) : Op. Cit., No. 694, p. 185.
- (٣٣) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ، ص ١٢٢ . وسعيد عاشور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٧٩٤ - ٧٩٥ ، ونظير حسان سعداوي : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٠٢ .
- CF : Brand (Charles-M) : The Byzantines and Saladin (VV85-1192), Speculum V. 37, America, 1962, pp. 168.
- (٣٤) انظر : عمر كمال توفيق : مرجع سابق ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .
- (٣٥) لمزيد من المقارنة انظر :
- القلعة شندی : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج٧ ، ص ١١٨ ، ج٨ ، ص ٤٧ - ٤٨ ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

مصادر ومراجع البحث :

أولا : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

— ابن الأثير : (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الملقب بالجزرى) ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٨٧٣م .

— أحمد عزت عبد الكريم :
مقدمة كتاب «أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى» ، الجمعية المصرية التاريخية القاهرة ، ١٩٧٣م .

— ابن أيبك الدوادارى : ت ٧٣٣هـ / ١٣٢١م
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب « تحقيق سعيد عاشور » ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

— البندارى : (قوام الدين الفتح بن على)
سنا البرق الشامى ، القسم الأول تحقيق/رمضان ششن ، وهو مختصر البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٧١م .

— سبط ابن الجوزى : (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن قرا وعلی التركى) ت ٥٦٤هـ / ١٢٥٧م .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، الجزء الثامن ، الهند ١٩٥١م .

— الحنبلى : (قاضى القضاة أبو اليمن مجير الدين الحنبلى) ت ٩٢٨هـ / ١٥١٩م

— الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل جزآن ، بيروت ١٩٧٣م .
— شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب .

- ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
— المجلد الثانى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩م .
— الجزء السادس ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م .
- ستيفن رنسيمن :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد البار العرينى ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ، ٦٨ - ١٩٦٩م .
- سعيد عاشور :
— الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
— الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
— أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، مقال فى كتاب أبو العباس القلقشندى ، الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- أبو شامة : (شهاب الدين ابن محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى) ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م .
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، بيروت ، ١٨٧١م .
- ابن شداد : (بهاء الدين) ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- شاهنشاه بن أيوب : (الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه) ت ٦١٧هـ / ٢٠ - ١٢٢١م .
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، حققه حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

- عبد القادر أحمد طليمات :
وثائق القلقشندى ، مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتابه
صبح الأعشى » الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ،
١٩٧٣م .
- عمر كمال توفيق :
الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات انسلمية مع الصليبيين ،
الاسكندرية ، ١٩٨٦م .
- قدرى قلجى :
صلاح الدين الايوبى ، بيروت ، ١٩٦٦م .
- القلقشندى : (أبو العباس) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٤م .
ومخطوط بدار الكتب المصرية ، الجزء الرابع ، المجلد الأول رقم
١٨٨٨٠ ز ميكروفيلم / ٢٤٣١٤ .
- ابن كثير : (الحافظ الدمشقى) ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م .
البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م .
- محمد عبد الله عنان :
مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى »
الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- محمد كامل الفقى :
الأدب فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦م .
- محمد ماهر حمادة :
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى . (٤٨٩ -
١٢٠٦هـ / ١٠٩٦ - ١٤٠٤م) بيروت ، ١٩٧٩م .

- المقریزی : (تقی الدین أحمد بن علی) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق
محمد مصطفى زیادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م .
- نظیر حسان سعادوی :
— التاريخ الحربی المصری فی عهد صلاح الدین الأیوبی ، القاهرة ،
١٩٥٧م .
- الحرب والسلام زمن العدوان الصلیبی ، القاهرة ، ١٩٦١م .
- ابن الوردی : (زین الدین علی) ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م .
— تتمة المختصر فی أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدرای ،
بیروت ، ١٩٧٠م .
- یاقوت الحموی : (شهاب الدین أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م
— معجم البلدان ، بیروت ، ١٩٧٧م .

ثانیا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- Archer (T. A.) :
The Crusades The Story of the Latin Kingdom of
Jerusalem, London, 1919.
- Brand (C. M.) :
The Byzantines and Saladin (1185-1192), Speculum,
V. 37, America, 1962.
- Conder (C. R.) :
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.
- Duggan (A.) :
The Story of the Crusades (1097-1291), London,
1963.

- Ehrenkreutz (A. S.) :
Saladin, Speculum, V. 49, New York, 1972.
- Jean (M.) and Brial (J.) :
Recueil Des Historiens Des Gaules et De La France,
Paris, 1888.
- King (E. J.) :
The Knights Hospitallers in the Holy Land, London,
1931.
- Michaud (J. F.) :
Histoire des Croisades, T. 2-3, Paris, 1816-1822.
- Poole (S.L.) :
Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem,
London, New York, 1898, 9162.
- ... Reinaud (M.) :
Notice sur la vie de Saladin Sultan d'Egypte et Syrie,
Journal Asiatique. T. 5, Paris, 1824.
- Rohricht (R.) :
Regesta Regni Hierosolymitani (1091-1291) Berolin
1892.
- Setton (K. M.) :
A History of the Crusades, V. 1, New York, 1955,
V. 2, London, 1962.
- Stevenson (W. B.) :
The Crusaders in the East, Beirut, 1969.

- Thatcher (O. J.) and McNeal (E. H.) :
A Source Book for Medieval History, America, 1905.
- Vinsofs (G.) :
Itinerary of Richard I and Others to the Holyland,
London, 1848, New York, 1969.
- William of Tyre.
A History of Deeds Done Beyond the Sea, V. 1-2,
Translated and Annotated by Babcock (E.A.), New
York, 1943.

فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه

د . حياة محمد البسام (*)

أحوال نجد قبل قيام الدولة السعودية الأولى :

كانت بلاد نجد خاصة والجزيرة العربية عامة قبل قيام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية الدينية فى القرن الثانى عشر للهجرة تعج بالخلافات السياسية ؛ اذ كان القوى ينقض على الضعيف ، دون وجود قانون يحكم البلاد . أما الوعى بأحكام الدين فكان ضعيفا ، مما أدى الى انتشار الخرافات والافهام التى اساءت الى الدين الاسلامى . وهكذا بدا أن الوضع فى هذه المنطقة يحتاج الى اصلاح دينى وسياسى فقيض الله لها ذلك المصلح الدينى الذى انبرى للقضاء على هذه الخرافات ، وعمل على توحيد البلاد تحت اسم دولة يكون هدفها اقامة شرع الله . أما عن هذا المصلح - وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب - فقد نشأ وتربى فى بيت دين وعلم ، اذ كان جده سليمان قاضيا فى العيينة ، وأبوه رجل علم ، ومن هذا المنطلق برز الشيخ ليدعو أبناء بلده الى العودة لدين السلف الصالح . وكانت هذه الدعوة بعد عودته من رحلاته العلمية بين نجد والحجاز والعراق والاحساء (١) .

والواقع ان دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت دينية اجتماعية ، مما جعله يصطدم بالكثيرين من المعارضين له ، فى البصرة وحریملاء والعيينة ، ولكن الله قيض له فى اماراة العيينة أميرها (عثمان ابن معمر) الذى ساعده وسانده بالجهر فى دعوته الدينية الاصلاحية ؛ فخرج معه وقاما بهدم ما وضع على القبور من أنصاب وقباب ، ودمرا معاقل الشرك المنتشرة فى تلك المنطقة ؛ مما جعل خبره ينتشر فى أنحاء البلاد النجدية فازداد أعداؤه . وهكذا حتى وصل خبره الى أمير الاحساء فى ذلك الوقت وكان يدعى سليمان بن محمد ابن عريعر - من بنى خالد

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

حكام الاحساء ذوى النفوذ القوى والسلطة النافذة فى غالبية بلاد نجد - فأرسل ذلك الحاكم خطابا الى أمير الغيينة عثمان بن معمر يأمره بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولكن عثمان الذى تربطه بالشيخ صداقة قديمة أطلعته على هذه الرسالة وطلب منه مغادرة الغيينة ، فغادرها فى عام ١٧٤٥م / ١١٥٨هـ متجها الى الدرعية التى يحكمها محمد بن سعود (٢) .

وكان أن استقبل أمير الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب استقبالا حسنا وسائده فى نشر دعوته الاصلاحية ، وبذلك غدت الدرعية مركزا لطلاب العلم الذين يأتون من مختلف البلاد النجدية لطلب العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وعندما ازدهرت الدرعية اقتصاديا مكنها ذلك من مد سلطانها على باقى أنحاء نجد وتوحيدها تحت لواء كلمة التوحيد ، ورفع راية الجهاد من أجل اعلاء كلمة الحق ومناصرة دين الاسلام . وكانت هذه هى الشعارات التى رسمت لخطة التوسع للدولة السعودية ، فدارت معارك طاحنة بين الأمير محمد بن سعود يسائده الشيخ محمد ، وبين أمير الرياض دھام بن دواس . وكان النصر حليف محمد بن سعود ، الذى استطاع انزال الهزيمة بخصمه وضم الرياض والوشم ومدير الى الدرعية . ويعتبر هذا النصر نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى ، حيث واصل محمد بن سعود جهاده حتى ضم غالبية مناطق نجد (٣) .

وقد أراد زعيم بنى خالد حاكم الاحساء ويدعى عريعر بن دجين أن يضرب هذه الدعوة فى مهدها فحاول تثبيت عزم زعيم الدرعية ، ولكنه فشل فى ذلك مما زاد من حماسة جنود الدرعية ، وعلى رأسهم زعيمهم محمد بن سعود . لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، بل واجه دعوة الشيخ وقيام هذه الدولة الفتية خصم عنيد فى الحجاز هو شريف مكة المكرمة ، ويدعى غالب بن مساعد ، الذى أظهر العداء بعد أن خاف على سلطانه من امتداد نفوذ الدعوة ، مما جعله يقف فى وجهها . وكانت الدعوة قد استطاعت أن تعصف بنفوذ بنى خالد فى الاحساء وتضمه تحت حكمها وتكوين دولة مستقلة تضم نجد والاحساء . وبعد ذلك تطلعت

لتخليص الحجاز من ظلم الشريف غالب ، فزحفت جنود الدولة السعودية واستطاعت أن تضم الحجاز بعد أن منى الشريف بهزيمة ساحقة (٤) .

وهكذا فرضت الدولة السعودية سلطاتها على الحجاز وصارت تهيمن على الأماكن المقدسة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مما جعل الدولة العثمانية تشعر باهتزاز مكانتها الدينية في نظر العالم الاسلامي . وقد رأت الدولة العثمانية في الدولة السعودية خطرا يهدد هيبتها في نظر المسلمين ؛ لذا قررت استعادة مكانتها في شبه الجزيرة العربية فأرسلت جيوشها ، أو ما أسمته الحملة الأولى ، تحت قيادة طوسون باشا ابن محمد علي . ولكن هذه الحملة تكبدت خسائر فادحة وقتل فيها طوسون ، فاتبعتها بحملة ثانية تحت قيادة ابراهيم باشا الذي دخل نجد ودمرها وأحدث بها الخراب ، وخاصة الدرعية (عاصمة آل سعود) التي خربها ودمرها تدميرا ، ثم غادرها بعد أن وضع عليها واليا من قبله (٥) .

ولا شك في أن سقوط الدرعية يعنى سقوط الدولة السعودية الأولى ، ولكن ذلك لم يكن معناه انتهاء هذه الدولة ، وانما كان بمثابة غيابها لفترة وجيزة عن الساحة السياسية حيث أن ذكراها لم تغب عن نفوس الكثير من النجديين الذين أحبوا أفراد هذه الأسرة وما قامت به من مساعدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ومن جهة أخرى فإن آراء وتعاليم هذه الدعوة ظلت راسخة في أذهانهم ، يضاف الى ذلك المخاوف من تزايد أطماع الدول الأجنبية في سواحل الخليج ، وبخاصة النفوذ البريطاني الذي أخذ ينتشر على السواحل العربية .

وسرعان ما عادت الأسرة السعودية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية على يد أحد أبنائها ، ويدعى تركي بن عبد الله - الذي يعتبر المؤسس الأول لهذه الدولة . وقد اتخذ من الرياض عاصمة له بعد تدمير الدرعية على يد جنود ابراهيم باشا . ثم خلفه في الملك ابنه فيصل الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة (٦) .

وسرعان ما ازدهرت الدولة السعودية الثانية واسترجعت ما ضاع منها من أملاك ، وعندئذ بدأ الخطر يلوح بظهور قوة جديدة منافسة لقوة

آل سعود هي قوة آل الرشيد في حائل ، وخاصة بعد أن ألقى القبض على فيصل بن تركي وأرسل الى مصر . وكانت تلك الحقبة الزمنية مرحلة توقف للدولة السعودية الثانية ، ولكنها عادت للظهور مرة أخرى بقيادة فيصل بن تركي نفسه الذي حكم البلاد مرة أخرى وبسط سلطانه عليها حتى وصل الى الحجاز وعسير . ولم تستقر الأمور بعد وفاته الا فترة وجيزة ، اذ دب الخلاف بين أولاده مما جعل ابن الرشيد في حائل- وهو الذي كان يتحين الفرصة - ينقض على حكم آل سعود ويسيطر على نجد برمتها . وكان أن خرج الامام عبد الرحمن بن فيصل « والد الملك عبد العزيز » ترافقه أسرته من الرياض الى منطقة الخليج بعد أن جال في الصحراء مدة من الزمن ثم استقر بالكويت حيث لقي هو وأسرته الترحاب من حكام هذه المنطقة من آل الصباح (٧) .

وقد بقي عبد العزيز في الكويت فترة، يتطلع الى حكم أجداده الذي سلب منهم ، حتى صمم على استعادته وأحياء الدولة السعودية الثالثة تحت راية التوحيد ، وتم له ذلك فأسس المملكة العربية السعودية .

نشأة عبد العزيز وتربيته :

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود في مدينة الرياض بقصر الامارة المعروف بالصفاء في التاسع عشر من ذي الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠م . وكان مولده في أسرة حاكمة محبة للعلم ، هيأت له أسباب التعليم فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن كاملا ، ثم أخذ يتدرب على ممارسة الفروسية بكل ضروبها من ركوب الخيل وفنون القتال واستعمال آلات الحرب حتى أجادها وهو مازال صبيا . يضاف الى ذلك ما عرف به عبد العزيز من حدة الطبع وشدة الذكاء ، وحب الحركة ، وتطلع للزعامة منذ طفولته (١) .

وقد شهد عبد العزيز بن عبد الرحمن الخلف الذي دب بين أفراد أسرته قبل رحيلهم الى الكويت ، وعاصر الظروف الصعبة التي مرت بها الأسرة ، وعاش شطرا من حياته في كل من البحرين والكويت ، في

حين رأى بلاده (نجد) وقد سيطر عليها آل الرشيد مما جعله يزداد نصميما على الاستعداد للقتال (٢) .

وفى ذلك الوقت أخذ آل الرشيد يحكمون سيطرتهم على نجد تحت قيادة عبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . وتم ذلك بمساندة الدولة العثمانية التى كانت المهيمنة على العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . ثم كان أن أخذ عبد العزيز بن الرشيد يتطلع الى الكويت طامعا فى أن تكون له حدود ساحلية تطل على هذا الممر الهام الذى يعتبر شريان الحياة وهمزة الوصل بين الشرق والغرب ؛ اذ كانت بلاده من البلاد الداخلية التى تفتقر الى سواحل لتغذية نشاطها الاقتصادى . ومن هذا المنطلق فكر ابن الرشيد فى ضم الكويت الى أملاكه ؛ ولكن هذا لم يكن بالأمر اليسير ، خاصة بعد أن تضامنت قبائل المنتفك مع أمير الكويت مبارك آل الصباح لصد هجوم ابن الرشيد . وقد ساندت هذه القبيلة - المنتفك - قبائل أخرى منها آل مرة ومطير وعجمان (٣) .

وما أن حل عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) حتى بدأت المواجهة الحقيقية بين الطرفين المتنازعين (مبارك وابن الرشيد) ، فشن ابن الرشيد هجوما على أطراف الكويت ، واستطاع مبارك صد ذلك الهجوم ، وأخذ فى تشجيع الصبى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، الذى كان يراوده الأمل فى استرجاع حكم أجداده . وعندما اشتبك عبد العزيز بن الرشيد مع مبارك حاكم الكويت فى معركة الطريق ، انتهز عبد العزيز بن عبد الرحمن الفرصة - وهى انشغال قوات ابن الرشيد فى تلك المعركة - وسار بأعوانه ، بعد أن أخذ موافقة مبارك ، لفتح الرياض . ولكن ابن الرشيد استطاع أن يهزم قوات مبارك اذ أنزل بهم هزيمة ساحقة ، هم ومن ساعدهم ، واسترد أرضهم وفرض عليهم ضرائب باهظة ونزع أسلحة أهلها (٤) .

فتح الرياض :

والواقع ان عبد العزيز كان يعد نفسه لفتح الرياض واسترجاع ملك (مجلة المؤرخ العربى)

الأجداد منذ نعومة أظفاره . وقد وجد الفرصة مواتية بعد موقعة الصريف التى كانت بين ابن الرشيد ومبارك آل الصباح ، والتى انتهت بهزيمة مبارك ، مما ساعد ابن الرشيد على بسط نفوذه على البلاد النجدية بأسرها واحكام سلطانه عليها (١) .

وقد راينا كيف أن عبد العزيز بن عبد الرحمن انتهر فرصة انشغال عبد العزيز بن الرشيد فى معركته مع مبارك ومحاولاته لضم الكويت تحت نفوذه ، وسعى لتنفيذ ما كان يصبو اليه ، بعد أن أقنع مبارك بأن يسير بجيشه لمحاربة خصمه ابن الرشيد وفتح جبهة ثانية أمامه ، مما يؤدى الى تشتت قواته وضعف مقاومته .

ونالت هذه الخطة استحسان أمير الكويت وشجع عبد العزيز على ذلك ، فسار الأخير بجيشه من الشوكى حتى وصل بعد يومين الى أسوار الرياض . وحين وصوله اليها تصدت له حاميتها التى كانت بقيادة عبد الرحمن بن ضبعان . لكن عبد العزيز استطاع أن يدخل الرياض بقواته مما اضطر الحامية الى الانحياز بحصنها المعروف باسم المصمك (٢) .

وكان أن استنجد عبد العزيز بن الرشيد بالدولة العثمانية لترسل له قوات مساندة حتى يستطيع احتلال الكويت ، فاستجابت له وأرسلت إحدى سفنها لهذا الغرض . ولكن بريطانيا التى كانت ترقب الموقف أجبرت السفينة العثمانية على الانسحاب تنفيذا لاتفاقية الحماية (٣) .

وبعد تحصن الحامية فى المصمك وصل خبر انهزام الشيخ مبارك أمام ابن الرشيد الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فاضطر عبد العزيز للانسحاب من الرياض بعد أن مكث بها حوالى أربعة أشهر . لكن خروجه هذه المرة كان مؤقتا حيث أخذ يعد العدة للفتح الأكبر لهذه المدينة . يضاف الى ذلك أن هذه الحملة أكسبت عبد العزيز خبرة فى طرق الصحراء وما بها من صعاب لأنه عاش فى صحراء النفود المعروفة بقسوتها وشدة حرارتها أياما (٤) .

وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة لفتح الرياض ، وانسحاب عبد العزيز ، إلا أن ذلك كان حافزا لهذا الشاب الطموح للقيام بمحاولة أخرى ، بعد أن رسم لها خطة محكمة . ذلك أنه عرف الرياض وأحس بما يكنه أهلها لأسرته من محبة ، فعاود المحاولة مرة أخرى في عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) . وكانت خطته تلك المرة تستهدف ضرب القبائل التي ندين لابن الرشيد بالولاء ، حتى يضمن التفاف غابية القبائل في تلك المنطقة حوله . وقد أعد لذلك جيشا مكونا من أربعين جملا وثلاثين بندقية وبعض العتاد . وسار بهذا الجيش نحو هدفه بعد أن انضمت إليه بعض القبائل مثل عجمان وسبيع وال مرة مما دعم جيشه . ثم واصل السير في صحراء الدهناء ف ضرب قبائل قحطان ومطير ونال منهم ما شد عزمه . وفي ذلك الحين كان ابن الرشيد يحارب من أجل ضم الكويت ، وكانت قواته متمركزة على أطراف تلك المنطقة ، ولم يعر ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن أي اهتمام بعد أن فشل في حملته الأولى (٥) .

ولم يلبث أن أحس عبد العزيز بن الرشيد بخطورة ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فأخذ في تهديد القبائل التي و انت خصمه حتى استطاع أن يخرج بعضا منهم عن طاعة عبد العزيز خوفا من بطش ابن الرشيد . ولم يكتف بذلك ، بل تقدم بشكوى الى الدولة العثمانية وشرح لها الخطر الذي يهدده من تحركات عبد العزيز ، مما دفع بالدولة الى إيقاف المعونة التي كانت تأتيه من الاحساء (٦) .

لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن لم يكتثر بما فرضته عليه الدولة العثمانية من عقوبات ، بل واصل سيره الى الرياض حتى وصل الى منطقة تبعد عن هدفه حوالي سبعة كيلو مترات . وهناك بقى بها أياما يعد جنده ومساعديه لهذا الفتح . أما خطته فقامت على أن يدخل الرياض بعدد بسيط من الرجال قدر عددهم بحوالي أربعين رجلا ، حتى لا يشعر به أحد . وسار بهؤلاء حتى وصل الى سور الرياض ، وهناك أبقى ثلاثا وثلاثين من رجاله خارج السور ، وأخذ معه سبعة رجال تسلق معهم سور المدينة حتى وصلوا الى منزل رجل يكن لآل سعود المحبة ، فمد لهم يد العون والمساعدة ، وعرف عبد العزيز وأخفاه في منزله . وفي الليل

استطاع أن يخرج متسللا الى منزل أمير الرياض من قبل آل الرشيد .
ويدعى عجلان ؛ وكان عجلان هذا لا ينام فى منزله بل يذهب للمبيت
فى المصمك الذى لا يبعد عن منزله الا حوالى مائة متر تقريبا (٧) .

وبقى عبد العزيز بن عبد الرحمن فى منزل عجلان الى شروق
الشمس ، وبعدها بقليل خرج عجلان من باب المصمك ومعه عدد من
جنوده غير المسلحين وسار يتفقد الخيل ، وما هى الا لحظات حتى كان
عبد العزيز ورفاقه يصوبون اليه أفواه بنادقهم من الفتحات الموجودة فى
جدران القصر ، فأحس عجلان بحركة غير عادية تحيط به ، وحاول
العودة الى المصمك للاحتماء به . وفى هذه اللحظة انطلق عبد العزيز
ومن معه نحوه وأغلقوا الباب فى وجهه وتسلسل بعضهم الى داخل المصمك .
ولكن عجلان استطاع الخلاص من قبضة عبد العزيز ودخل المصمك وأخذ
يركض محاولا الصعود الى الطابق الثانى . ولكن لم يتمكن من ذلك
وكان عبد الله ابن جلوى يلاحقه الى أن ضربه بسيفه وقتله (٨) .

هكذا قتل عجلان ومعظم اعوانه ، واستسلم الباقون لعبد العزيز .
وقد أخذ رفاق عبد العزيز فى مطاردة الفارين من أعوان عجلان ، فلاذ
الكثير منهم بالفرار حتى وصلوا الى دار آل سويلم حيث استسلموا . هذا
فى حين ترك عبد العزيز أخاه محمدا مع من بقى من الرجال فى
محاصرة الحصن حتى استسلموا له ؛ وكان ذلك فى شهر شوال عام
١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢م (٩) .

وبعد هذه المعركة استسلمت الرياض لعبد العزيز بعد أن أمن الجميع
على أرواحهم وأموالهم . وكان أن أعلن فى الرياض أن حكم هذه المدينة
عاد للمرة الثانية الى آل سعود ، واعتبر يوم الخامس من شهر شوال
١٣١٣هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م يوما مشهودا فى تاريخ هذه المدينة .
وقد خرج اليه أهالى الرياض فرحين بهذا النصر ، ومهنتين بعودة الحكم
الى أسرة آل سعود التى اشتهر حكمها بنشر الأمن والعدل فى أرجاء
البلاد ، وخاصة بعدما قاسى أهالى الرياض الكثير من ظلم عجلان
وأعوانه (١٠) .

ولا شك فى ان عودة الرياض الى الحظيرة السعودية يعد حدثا تاريخيا كبيرا ، لفت أنظار العالم لهذه المنطقة وبخاصة الدولة العثمانية المهيمنة عندئذ على العالم الاسلامى عامة والعالم العربى خاصة . وقد أخذت الدولة العثمانية تسترجع ما قام به أسلاف عبد العزيز من مد نفوذهم على غالبية أقاليم شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، حتى دخلت الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت سلطانهم ، مما هز مكانة الدولة العثمانية الدينية . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر وتحاول مد يد العون لابن الرشيد الذى لم يهتم كثيرا لهذا الحدث ، اذ كان همه الأكبر ضم الكويت الى أملاكه . لذلك تركز فى منطقة حفر الباطن ينتظر المدد من الدولة العثمانية الحامية له غير مهتم بما يدور حوله من أحداث فى الرياض . وربما اعتقد أن استرجاع الرياض سيكون أمرا سهلا بعد ضم الكويت لما لهذه المنطقة من أهمية كبيرة (١١) .

وفى هذه الأثناء أرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن الى والده والشيخ مبارك فى الكويت يعلمهما بما من الله عليه من نعمة النصر ، وأن هذا يعود بعد فضل الله الى ما أمداه به من تسجيع وعون ، حتى استطاع أن يقوم بهذا العمل . وطلب من والده العودة الى الرياض ليتسلم حكمه الذى أنتزع منه . ولكن الامام عبد الرحمن رفض هذا المنصب وتنازل عنه لأبنه البطل عبد العزيز الذى قبل هذه المهمة الصعبة برحابة صدر (١٢) .

وكان ان أخذ عبد العزيز ينظم شئون حكمه فى الرياض ويوسع رقعة ممتلكاته ، فبسط سلطانه على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج ، حتى وصل الى وادى الدواسر . وكان ينظم شئون كل منطقة يفتحها ويجعل فى كل منطقة دانت له بالطاعة جيشا معدا للدفاع عنها وعن أهلها من غزوات ابن الرشيد المتوقعة (١٣) .

وأخيرا انتبه ابن الرشيد الى خطورة ما يحدث فى الرياض ، فأعد جيشا كبيرا لاستعادتها ، وأعد خطة لهذا الغرض محورها فرض حصار اقتصادى على تلك المنطقة بأكملها . لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن

فطن الى ما كان يهدف اليه عبد العزيز الرشيد ، فعمد هو الآخر الى حيلة تجعل ابن الرشيد يكون فى حيرة من أمره . فأشاع أنه ينوى التوجه بفرقة من جيشه جنوبا ، مما جعل ابن الرشيد يخشى ذلك ، ويغير خطته لمنع عبد العزيز من التوسع جنوبا ، فاتجه هو بجيشه جنوبا . وعندئذ سار عبد العزيز بجيشه نحو الشمال مما أوقع ابن الرشيد فى حصار اقتصادى حيث استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن أن يقطع عليه طريق المواصلات والمدد . وأخيرا اشتبك الطرفان فى معركة كان النصر فيها حليف عبد العزيز بن عبد الرحمن . وقد نكبد ابن الرشيد خسائر فادحة فى هذه المعركة مما اضطره الى الانسحاب من الدلم الى السليمة ، ولكن عبد العزيز لحق به وأنزل به هزيمة أخرى قضت على ما بقى لديه من أمل (١٤) .

وبعد هذه الهزيمة الساحقة تأكد لابن الرشيد أنه ليس باستطاعته استرجاع الرياض ، فشرع فى تحصين ما بقى تحت يده من مدن نجدية . ذلك ان عبد العزيز كان قد بسط سلطانه على نواحي نجد الجنوبية مما دفع ابن الرشيد الى تحصين الوشم ، وسدير والمجمعة مخافة أن يشن عليها عبد العزيز هجوما ، ثم يضمها الى ملكه (١٥) .

أما ابن الرشيد فقد اتجه الى مدينة شقراء حيث ضمن وقوف أهلها الى جانبه ، ثم انتقل الى القصيم يتفقد أحوال أهلها هناك ويحاول معرفة موقف أهلها حيال هذه الأوضاع الطارئة بعد انتشار خبر استرجاع الرياض وعودتها الى حكم آل سعود ، مما جعل باقى المدن النجدية تنتظر الفرص على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والخلاص من حكم آل الرشيد بسبب ما أصابهم من بلاء ومحن طوال فترة حكم آل الرشيد للبلاد (١٦) .

وما أن رأت القبائل والمدن النجدية اختلال ميزان القوى فى تلك المنطقة ورجوحه لصالح عبد العزيز الذى استطاع خلال فترة زمنية قصيرة وبجيش قليل العدد والعتاد أن يحكم نجد ويسيطر على عاصمتها الرياض ، بعد أن كان منذ وقت قصير لاجئا فى الكويت لا حول له ولا قوة ، حتى أخذت تنضم اليه وتدخل طاعته .

موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

لا شك فى ان ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن بهذه القوة السريعة اثار مخاوف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على المنطقة والحامية لابن المرتيد فى نجد . وقد رأت الدولة العثمانية فى استرجاع السعوديين للرياض نذيرا بظهور الدعوة السلفية مرة اخرى ، وخاصة بعد نجاح تلك الدعوة فى ضم غالبية البلاد تحت سلطانها وبالاخص الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فضلا عن بعض اقاليم الخليج مثل البحرين . لذلك رأت الدولة العثمانية فى عودة عبد العزيز بن عبد الرحمن تجديدا لمخاوفها . يضاف الى ذلك أن ظهوره واستقلاله بمناطق نجد ربما شكل مثالا يحتذى من قبل الدول العربية الاخرى . وفى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعاني من الضعف الذى اخذ ينتشر فى أجزائها المترامية ، بعد ان عمت الفوضى والاضطرابات كل جزء منها ، فظهرت العنصريات التى ساعدت على التفكك ، وانتشر الضعف الاقتصادى ودب الخور فى أوصالها وفصائل جيشها . وظهر هذا بوضوح فى حالة الجند العثمانيين الموجودين فى منطقة القصيم ، اذ وصلت بهم الحال الى أن يبيع الجندي سلاحه من أجل لقمة العيش . يضاف الى ذلك انسلاخ كثير من ولايات الدولة واستقلالها ، مثل اليمن التى انسلخت عن الدولة العثمانية بعد ثورة الامام يحيى بن حميد الدين عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م) ، وكذلك بعض دول الخليج التى ارتبطت مع بريطانيا بمعاهدات لحماية نفسها ، دون استشارة الدولة ، مما كان له أثره فى موقف الدولة من فتح الرياض (١) .

ورغم كل ماسبق فقد أحس العثمانيون بالخطر الذى يهددهم من جراء تزايد قوى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فأرادوا أن يحدوا من هذا النفوذ ومن هذه القوة عن طريق تعزيز قوة ابن الرشيد ضده ، مخافة امتداد نفوذه الى منطقة الاحساء والاتصال بالانجليز . لذلك ارسلت الدولة العثمانية لابن الرشيد جيشا مزودا بالعدة والعتاد لمساندته ضد خصمه ، واسترجاع ما ضاع له من أملاك . وكان أن انضم هذا الجيش العثماني لجيش ابن الرشيد ، واشتبكا مع عبد العزيز بن عبد الرحمن فى معركة كبيرة عرفت باسم البكيرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٠٤م/

١٣٢٢هـ ، حيث خطط عبد العزيز لضربة قاضية ضد خصمه ، فقرر تطويق الجيش العثماني الرشيدى ، حتى يوقعه فى شرك أعدده له ، فالتحم الفريقان فى معركة ضارية كانت فيها خسائر الفريقين جسيمة ، ولكن النصر فى النهاية كان حليف قوات عبد العزيز (٢) .

وبعد هذا الفشل الذريع الذى منيت به القوات العثمانية غيرت الدولة سياستها ، فأخذت فى التودد لابن سعود والتخلى عن ابن الرشيد ، وعملت على التقرب من عبد العزيز صاحب القوة الجديدة فى المنطقة ؛ بعد أن أدرك السلطان عبد الحميد أنه من الصواب كسب ود عبد العزيز ، وخاصة بعد أن تمكن الانجليز من احتلال عدن . يضاف الى ذلك أن الانجليز عمدوا الى ربط شيوخ مناطق الخليج بمعاهدات حماية ؛ لذا رأى السلطان العثماني فى عبد العزيز المنقذ فى هذه المنطقة ، وأنه يستطيع بكسبه اياه الى جانبه ترقيع هيكل الدولة الذى بدأ يتصدع . وكان ان اعترفت الدولة العثمانية بما تحت يد عبد العزيز من أرض ، شريطة أن تضع الدولة العثمانية لها فى نجد مستشارين وقوات . ولكن عبد العزيز وحكومته لم يقبلوا ذلك العرض (٣) .

ولم تياس الدولة العثمانية ، وانما أخذت تكرر محاولاتها لضم عبد العزيز الى صفها وعقد اتفاق معه بحيث تكون لها الكلمة العليا فى نجد . لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن رفض ذلك الاتجاه بتشجيع من والده الامام عبد الرحمن ، وهو ذلك السياسى المحنك صاحب النظرة السياسية الفاحصة ، الذى استطاع أن يعرف ما تهدف اليه الدولة العثمانية من وراء هذا الاتفاق . لذلك طلب من ولده أن يرفضه ، مما جعل الحرب تستأنف من جديد بين عبد العزيز وابن الرشيد ؛ فدارت معارك كثيرة كان النصر فيها بجانب عبد العزيز حتى انتهت بمعركة روضة مهنا عام ١٩٠٦م / ١٣٢٤هـ وهى المعركة التى قتل فيها عبد العزيز بن الرشيد . وبموت ابن الرشيد استطاع عبد العزيز التخلص من معول الهدم الذى سلطته الدولة العثمانية لعرقلة مسيرته فاستطاع استرجاع ملك أجداده .

أما القوة الثانية فى الخليج التى كانت ترقب الموقف حيال فتح الرياض فهى بريطانيا ، التى حرصت على أن تكون على دارية بتطور الأحداث فى هذه المنطقة . ولا شك فى أن بريطانيا كانت تخفى مخاوفها من تجدد الدولة السعودية للمرة الثالثة ، وهى التى ظلت تذكر المحاولتين السابقتين لاقامة الدولة السعودية الأولى والثانية ، وما كانتا تستمتعان به من نفوذ ومحبة فى نفوس أهالى منطقة الخليج . كذلك عملت بريطانيا على الوقوف فى وجه أى قوة تظهر فى المنطقة بعد أن مرت بتجربة القواسم الذين اقلقوا راحتها . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر ؛ حيث أن سياستها حالت بينها وبين التدخل فى الشؤون الداخلية لأهالى المنطقة . وكان اهتمامها ونشاطها منحصرا فى السواحل فقط . وجاء ذلك فى الوقت الذى أخذ نفوذ هذا الشاب الطموح - عبد العزيز - يمتد الى السواحل فى المنطقة الشرقية من بلاده (٤) .

وشاءت الظروف أن ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن على مسرح الأحداث - والذى تمثل فى فتح الرياض واسترجاع ملك أجداده - صادف انشغال بريطانيا بأمور كثيرة هامة ، منها انشغالها فى صد أطماع الدول الأوروبية عن منطقة الخليج . وكان اهتمام بريطانيا بعدن يفوق اهتمامها بباقي المناطق ؛ لأن هذه المنطقة كانت أهم ميناء لها فى جنوب غرب الجزيرة العربية . وقد حاولت بريطانيا شراء هذا الميناء فى مطلع القرن التاسع عشر من سلطان لحج ولكنه رفض طلبها هذا ، فما كان منها الا أن احتلته فى سنة ١٨٣٩م الموافق ١٢٥٥هـ ، ومن ثم فقد حرصت على بقاءه فى قبضتها لأنها اعتبرت عدن قاعدة أساسية لها (٥) .

والواقع أن بريطانيا شغلت عندئذ بعقد معاهدات الحماية مع مشايخ القبائل الخليجية ، وبالأخص مع القبائل القاطنة حول عدن مثل العبدلى والفصلى والعقرب والحوشى والعلوى ، ويافع السفلى . وكانت تستهدف من وراء هذه المعاهدات الوقوف فى وجه التقدم العثمانى ، الى جانب مشاكلها الأخرى فى أوروبا . وكل هذه المشاكل جعلت بريطانيا فى شغل شاغل عما يدور داخل الجزيرة العربية من أحداث وبالأخص عن فتح الرياض .

وهكذا أخذت بريطانيا تجدد محاولاتها للتودد لهذا الفاتح الجديد، وذلك لأحياء العلاقات الودية القديمة التي كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى ، وخاصة أنه لم يتعرض للقبائل التي تربطها بها معاهدات حماية () .

الخاتمة :

وبعد ، فلعلنا قد توصلنا في هذا البحث الى النتائج التالية :

أن بلاد نجد كانت قبل قيام الدولة السعودية الأولى تعيش في فوضى واضطراب، اذ تسلط عليها الحكام الأقوياء أمثال بنى خالد في الأحساء وفرضوا كلمتهم على أمراء المناطق الصغيرة . ويعد حلف الدرعية الذي تم بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب بداية ظهور أول دولة ذات كيان سياسى منظم في نجد ، وهو الكيان الذي امتد الى باقى المناطق المجاورة مثل الأحساء والحجاز .

وقد أوضحنا أن حملات محمد على باشا والتي كانت بقيادة ابراهيم باشا لم تقض على الأسرة السعودية الا لوقت محدد فى حين بقيت ذكراها راسخة فى نفوس أبناء نجد . وكانوا يتحينون الفرصة لظهور أحد أفراد هذه الأسرة للالتفاف حوله .

وكان ظهور تركى بن عبد الله مؤشرا لعودة هذه الأسرة الى مسرح الأحداث السياسية ، فالتف حوله أبناء نجد وعادت الدولة الى الظهور فى طور جديد .

وبعد حملات ابراهيم باشا على نجد واختفاء الدور السعودى عن مسرح الأحداث ظهرت المطامع الأوروبية فى منطقة الخليج . وقد تبين لنا أن عودة الدولة السعودية الثانية فى طورها الجديد كان قويا كسابقتها ، اذ بسطت سلطانها على شبه الجزيرة العربية برمتها .

أما عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد عاصر مرحلة ضعف الدولة السعودية الثانية وانهارها ، حتى انتهت باستيلاء آل الرشيد على الحكم

وخروج الامام عبد الرحمن وأفراد أسرته ومعهم عبد العزيز الى منطقة الخليج ، فاتجهوا للبحرين واستفروا بها بعض الوقت ثم انتقلوا الى الكويت التى قضى بها عبد العزيز فترة من طفولته .

كذلك أوضحنا ان عبد العزيز بن عبد الرحمن تربى تربية حربية ، وتعلم فنون القتال ، وتدريب على استعمال الكثير من الاسلحة الحربية منذ صغره .

وقد تبين لنا أن عبد العزيز انتهر فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته الفاشلة لضم الكويت ، ودخل الرياض لأول مرة ، وبقي بها قرابة الأربعة أشهر ، ثم انسحب منها .

وكانت محاولة عبد العزيز الأولى فى فتح الرياض درسا تلقاه فى معرفة الطرق المؤدية لهذه المدينة ، والصعاب التى تعترض طريقه فى الصحراء . يضاف الى ذلك معرفته بما يكنه أهلها من محبة لأسرته واستعدادهم للالتفاف حوله .

وقد توصلنا الى أن عبد العزيز بن الرشيد أنزل العقاب الشديد بأهالى وقبائل المناطق التى ساعدت مبارك فى معركة الطريف التى كان فيها النصر حليف ابن الرشيد ، ففرض عليهم عقوبات صارمة منها أنه قرر ضرائب باهظة عليهم ونزع أسلحتهم .

وبعد فتح الرياض الأول أخذ عبد العزيز بن عبد الرحمن يعد العدة للمواجهة مع ابن الرشيد ، فانتهر فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته لضم الكويت ودخل الرياض بعدد قليل من الرجال ، واستطاع أن يقتل أميرها من قبل آل الرشيد (المدعو عجلان) بعد أن لجأ الأخير الى المصمك .

ومن الواضح أن ابن الرشيد لم يعر دخول عبد العزيز الرياض أى اهتمام ، وظن أن الأمر سهلا وأن بإمكانه استرجاع الرياض بيسر حين عودته . ولم يعلم أن عبد العزيز أخذ فى تحصين هذه المنطقة وضم اليه بعض المناطق القريبة منها .

وقد حاول ابن الرشيد الاستنجا بالذولة العثمانية لأخذ الكويت فاستجابت له وأرسلت سفنها لنجدته ومساعدته ، لكن السفن البريطانية تصدت لها ، وذلك بموجب معاهدات الحماية النى عقدتها بريطانيا مع الكويت .

واتضح لنا أن ابن الرشيد أحس بخطر عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد فوات الأوان ، فأخذ فى تهديد القبائل التى انضمت اليه ، حتى استطاع أن يخرج بعضها عن طاعة عبد العزيز وذلك خوفا من بطشه .

كذلك تبين لنا أن العقوبات الاقتصادية التى فرضتها الدولة العثمانية على الرياض لم تثن عبد العزيز عن مواصلة جهوده لاسترجاع حكم أسرته .

وقد حاول عبد العزيز ترسية قواعد حكمه بأن بسط نفوذه على على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج الى أن وصل الى وادى الدواسر . وحرص على أن ينظم شئون هذه المناطق المفتوحة ويكون فى كل واحدة منها جيشا من أهلها للدفاع عنها .

وأوضحنا أن ميزان القوى فى نجد اختل لفترة زمنية معينة بعد فتح الرياض . ومن ثم رجحت كفته مع عبد العزيز بن عبد الرحمن الذى استطاع فى وقت قصير أن يبسط نفوذه على عدد كبير من المناطق التابعة للرياض .

وكان ظهور عبد العزيز بهذه القوة التى مكنته خلال مدة قصيرة من بسط سلطانه على الكثير من المنطق النجدية أمرا أثار مخاوف الدولة العثمانية ، التى استرجعت ما لهذه الأسرة من أمجاد عظيمة طوال الفترتين السابقتين التى حكمت خلالهما شبه الجزيرة العربية وبعض دول الخليج .

وتزامن فتح الرياض مع الضعف الذى سرى فى أوصال الدولة العثمانية وجعلها محط أطماع الدول الأوروبية بسبب انتشار الفوضى والاضطراب بين أجزائها المترامية .

وقد حاولت الدولة العثمانية ضم عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فساومته على الاعتراف بما لديه من أراضٍ مقابل تعيين مستشارين وقوات تابعة لها في منطقة نجد . لكن طلبها هذا رفض بعد استشارة والده عبد الرحمن ، اذ تبين أن الدولة العثمانية تهدف لارضاخ عبد العزيز لسلطانها .

ويتضح أن بريطانيا لم تتدخل في الصراع الدائر بمنطقة نجد ؛ لأن سياستها في هذه المناطق اتسمت بعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وكان جل اهتمامها مركزا على السواحل التي تسيطر عليها بما عقدته مع حكامها من معاهدات حماية .

وقد أخذت بريطانيا ترقب الموقف بحذر وتراقب تحركات عبدالعزیز ابن عبد الرحمن ، وكانت تحاول عدم اقترابه من سواحل الخليج ، لأن ذلك قد يعيد للأذهان ما قام به أسلافه حكام الدولة السعودية الأولى وجيرانهم القواسم من قوة هددت المصالح البريطانية في تلك المنطقة .

وتوصلنا الى أن بريطانيا كانت تسعى لعدم ظهور قوة عربية تهدد مصالحها في المنطقة وتضم تحت لوائها باقي حكام الخليج التي تسيطر عليهم .

ومن الواضح أن فتح الرياض وظهور عبد العزيز على مسرح الأحداث تزامن مع انشغال بريطانيا بعقد معاهدات حماية مع مشايخ القبائل الخليجية التي استهدفت من وراء العمل الوقوف في وجه التقدم العثماني .

ولكن بريطانيا لم تهمل مراقبة تحركات عبد العزيز ، وكذلك لم تخف خوفها من ظهوره كقوة عربية مستقلة قد تحذو حذوها باقي دول الخليج .

ولذلك حاولت بريطانيا كسب عبدالعزیز الى جانبها لحياء العلاقات القديمة التي كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى .

الهوامش

(أ) التمهيد :

- (١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط ١ ، ص ٧ - ٨ . البسام ، عبد الله ، علماء نجد خلال ستة قرون ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ .
- (٢) الغرابية ، عبد الكريم ، قيام الدولة السعودية العربية ، ص ٤٤ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٠٧ ، رسالة دكتوراه .
- (٣) خزعل ، حسين خلف ، تاريخ الجزيرة فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٦١ ، العثيمين ، عبد الله ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٠ .
- (٤) موزل . (تاريخ الدولة السعودية) مجلة العرب ، ج ٣ - ٤ ، س ١١ ، ص ٢١٥ ، سبتمبر - أكتوبر ١٩٧٦م ، جمعة ، محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ، ص ٤٧ ، عطار ، أحمد ، محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٢٤ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، ص ١٢٥ .

(٥) عسه ، أحمد ، معجزة فوق الرمال ، ص ٢٣ .

- (٦) الرشيد ، ضاوى ، نبذة تاريخية عن نجد ، ص ١٢٦ ، درويش ، مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٥٨ ، الزركلى ، خير الدين ، شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، ج ١ ، ص ٤٦ .

- (٧) المانع ، محمد ، توحيد المملكة ، ص ٣٦ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، بعض حوادث نجد ، ص ١٩٦ ، بلغت ، الليدى آن ، رحلة الى بلاد نجد ، ص ٢٢٢ .

Alvin, J. Coltrel : The Persian Gulf States, P. 57.

(ب) نشأة عبد العزيز وتربيته :

- (١) الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ١٧ .
- (٢) الدريب ، سعود ، الملك عبد العزيز ، ص ٩ .
- (٣) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ١١٢ .

Phil by, H. Saudi Arabia, P. 238.

- (٤) المختار ، صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الخترش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٥٧ ، الزركلى ،

خير الدين . الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز . ص ٢٢ . الجامر . حمد . مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، ص ١١٥ .

Philby, H : Saudi Arabia, P. 239.

(ج) فتح الرياض :

- (١) الريحانى . أمين ، تاريخ نجد الحديث . ج ٥ ، ص ١٢٠ .
 - (٢) الزركلى : خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز . ص ٢٢ .
 - (٣) القلعجى ، قدرى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٩ .
 - (٤) حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٢٠ .
 - (٥) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ١٨٤ ، كشك ، محمد جلال . السعوديون والحل الاسلامى ، ص ٢٧٦ .
 - (٦) الريحانى ، أمين . تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ١٢١ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٤ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة . ص ١١٦ - ١١٧ .
 - (٧) العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٧ .
 - (٨) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩ .
 - (٩) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود . ص ٩ .
 - (١٠) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ١٢٤ ، البديوى ، محمد منير ، المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ص ١٢٠ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٦ .
 - (١١) الحيدرى ، ابراهيم . عنوان المجد فى أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ٨٥ ، الزمل عبد الله ، الملحمة الشعبية ، ص ٦٤ ، الجمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، ص ١٣٨ .
 - (١٢) العرينان ، منيرة . علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٩ ، الخترش ، فتوح . تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٦٧ .
 - (١٣) المختار صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٤٦ الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢٠ .
- Armstrong, G : Lord of Arabia, P. 65.
- (١٤) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٢ .
 - (١٥) آل عبد المحسن ، تذكرة أولى النهى والعرفان ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، رحمو ، محمد ابراهيم ، أضواء حول الاستراتيجية العسكرية ، ص ٧٠ ، ابراهيم ، سيد

محمد ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٨٧ ، الريحاني ، أمين . تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ١٣٢ ، فيلبى ، عبد الله ، تاريخ المملكة العربية السعودية ص ١٩٠ .

- (١٦) جمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخي ، ص ١٣٩ .
- (١٧) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٥٧ .
- (١٨) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(د) موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

(١) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ١٤٠ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ .

- (٢) درويش ، مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٨١ .
 - (٣) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٣٢ .
 - (٤) داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ .
 - (٥) سالم ، مصطفى ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٧ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٢٤ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ .
- 6 — 1. O. No. 7 Dated on The 11th of January 1906, From Government of India Foreign Department To : His Majesty, S. Secretary of State.R. 15, 1:556 For India.

قائمة المراجع

- ١ - ابراهيم ، سيد محمد :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، الرياض : ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٢ - ابن بشر ، عثمان النجدى :
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، الرياض ، بدون تاريخ .
- ٣ - البديوى ، محمد منير :
المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٤ - البسام ، عبد الله :
علماء نجد خلال ستة قرون ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨ .
- ٥ - عيسى ، ابراهيم :
تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، الرياض ، بدون تاريخ .
- ٦ - الجاسر ، حمد :
مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، مصر ، ٣٨٦هـ .
- ٧ - جمعة ، ابراهيم :
الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، بدون تاريخ .
- ٨ - جمعة ، محمد كمال :
انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة ،
الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٩ - حمزة ، فؤاد :
البلاد العربية السعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٣٨٨هـ /
١٩٦٨م .
- ١٠ - الحميرى ، ابراهيم :
عنوان المجد فى أحوال بغداد ، والبصرة ، ونجد ، القاهرة ،
بدون تاريخ .

(مجلة المؤرخ العربى)

- ١١ - الخترش ، فتوح :
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ١٨٩٠هـ / ١٩٢١م ،
الكويت ، بدون تاريخ .
- ١٢ - خزعل ، حسين خلف :
تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،
بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ١٣ - داوود ، محمود :
الخليج العربى والعلاقات الدولية ، ١٨٩٠م / ١٩١٤م ، ج ١ ،
القاهرة ، بدون تاريخ .
- ١٤ - درويش ، مديحة :
تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ،
الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٥ - الدريب ، سعود :
الملك عبد العزيز ووضع قواعد التنظيم القضائى فى المملكة ،
جدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٦ - آل عبد المحسن ، ابراهيم :
تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث
الزمان ، الرياض ، بدون تاريخ .
- ١٧ - رجمو ، محمد ابراهيم :
أضواء على الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز فى حروبه ،
الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
- ١٨ - الرشيد ، ضاوى :
نبذة تاريخية عن نجد ، الظهران ، بدون تاريخ .
- ١٩ - الزامل ، عبد الله العلى :
الملحمة الشعبية فى تأسيس الملك عبد العزيز آل سعود للمملكة
العربية السعودية ، الرياض ، ١٣٩١هـ / ١٩٧٩م .

- ٢٠ - الزركلى ، خير الدين :
شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، ج٢ ، الطبعة
الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .
- ٢١ - سالم ، مصطفى :
تكوين اليمن الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٢٢ - عسه ، أحمد :
معجزة فوق الرمال ، لبنان ، ١٩٦٥ م .
- ٢٣ - عطار ، أحمد :
الشيخ محمد بن عبد الوهاب - حياته وفكره ، الرياض ، بدون
تاريخ .
- ٢٥ - العقاد ، صلاح :
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- ٢٦ - الغرابية ، عبد الكريم :
قيام الدولة السعودية العربية ، معهد البحوث والدراسات ،
جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤ م .
- ٢٧ - فلبنى ، محمد الله :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، أو الذكري العربية الذهبية ،
ترجمة مصطفى كامل فايد ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢ م .
- ٢٨ - القلعجى ، قدرى :
الخليج العربى ، بيروت ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م .
- ٢٩ - كشك ، محمد :
السعوديون والحل الاسلامى ، لندن ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .
- ٣٠ - مختار ، صلاح الدين :
تاريخ المملكة العربية السعودية/ماضيها وحاضرها ، ج٢، بيروت،
١٣٧٦هـ / ١٩٥٧ م .

٣١ - المانع ، محمد :

أسود آل سعود ، بدون تاريخ .

وثائق أجنبية :

1 — I. O. No. 7 Dated, 11 January 1906, From Government Of India Foreign Department To: His Majesty's Secretary of State For India, R 15, 1:556.

مراجع أجنبية :

1 — ALVIN, J. COTTRELL.

The Persian Gulf States.

United States Of America, 1980.

2 — ARMSTRONG.H.E.

Lord Of Arabia, Ibn Saud, London, 1934.

3 — PHILBY.J.

Saudi Arabia.

Lebanon Book Shop.

Beirut, 1968.

الدوريات :

١ - مجلة العرب ، ج٣ - ٤ السنة الحادية عشر ، رمضان وشوال

١٩٣٦هـ ، سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٦ . ترجمة كتاب المستشرق لويس

موزل ، تاريخ السعودية .

أضواء جديدة على بعض

منشآت امراء المماليك فى القرنين السابع والثامن للهجرة
(الثالث عشر والرابع عشر للميلاد)

منشآت الأمير الجاولى وسلاّر بمصر والشام

د . عبد الله كامل موسى عبده (*)

مقدمة :

يتصف عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام بالثراء الكبير ، مما انعكست صورته فى الحياتين الاجتماعية والفنية ، بوجه خاص ، والحضارية بوجه عام . وما زالت بعض المنشآت الأثرية التى ترجع الى ذلك العصر قائمة على أرض مصر والشام تعبر عن روعة الفن وجماله من جهة ، و ثراء سلاطين المماليك وامرائهم من جهة أخرى .

ومن هذه المنشآت ما يرتبط باسمى اثنين من كبار أمراء المماليك - هما الأمير الجاولى والأمير سلاّر - ، وهى منشآت متعددة لم تحظ حتى الآن بقدر كاف من عناية الباحثين . وفى هذا البحث نلقى مزيداً من الأضواء الجديدة على منشآت هذين الأميرين .

ولعله من المناسب فى هذه المقدمة أن نوضح أن الأميرين الجاولى وسلاّر ارتبطا سوياً برباط وثيق من الصداقة ، حتى أنهما دفنا فى ضريحين متلاصقين ، الأمر الذى جعلنا نجمع بينهما فى هذه الدراسة ، بوصفهما يمثلان كيانا واحداً فى حلقة واحدة من حلقات التاريخ .

هذا ، ويشتمل البحث على الجوانب الآتية :

أولاً : ترجمة الأميرين معا حتى عام ١٣٠٦/٥٧٠٦م وهى السنة التى نفى فيها الجاولى الى دمشق . ذلك أنه من الصعب الفصل بينهما

(*) قسم الآثار الإسلامية - كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

خلال الفترة التاريخية التى امتدت من عهد السلطان العادل كتبغا وحتى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م) ، حيث ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا .

ثانيا : أعمال الجاولى وسلاى المعمارية بمصر وبلاد الشام ، وهى الأعمال التى لم تحظ بالقاء قدر كاف من الضوء عليها من قبل الباحثين ، كما سبق أن أشرنا .

ثالثا : دراسة أثرية للمنشأة الدينية التى شيدت بالكبش والتى اقترنت بهذين الأميرين فى ضوء عدم العثور على وثيقة تثبت هذه النسبة ، فضلا عن أن النصوص التاريخية المدونة على جدران هذه المنشأة لم تنسبها الى احدهما ، وقد تناولت هذه الدراسة الخاصة بالمنشأة مايلى :

أولا مناقشة الآراء حول منشئها .

ثانيا : مناقشة الآراء حول تسميتها وماهى الوظيفة التى كانت تؤديها .

ثالثا : دراسة تحليلية للواجهة والتخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية .

الجاولى وسلاى :

أما عن الجاولى فهو سنجر بن عبد الله الجاولى الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد (١) الشافعى (٢) الملكى (٣) الناصرى (٤) المنصورى (٥) . ولد بآمد (٦) فى عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، ثم صار من مماليك الأمير جاول أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس فعرف بالجاولى نسبة اليه ، وقد عرف والده بالمشد ، ثم انتقل الى بيت المنصور قلاوون فعرف بالمنصورى (٧) .

خرج الجاولى فى عهد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٧ هـ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م الى الكرك (٨) واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام السلطان العادل زين الدين كتبغا ٦٩٣ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٧ م ، ثم قدم الى مصر فى عهده بحال زرى ، فسلمه السلطان الى

مملوكه بثخاص ليكون نائبه بالحوائجخانا (٩) ، ثم اقامه على الخوشانة السلطانية (١٠) .

وقد سحب الجاولى فى ذلك الوقت سلار بن عبد الله الأمير سيف الدين الملكى الناصرى المنصورى (١١) . وكان الأمير سلار تركى الجنس، وكان أبوه أمير شكار (أمير الصيد) (١٢) عند صاحب الروم. فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار والروم كان سلار ممن أسر فاشتراه قلاوون واعطاه لولده الصالح صالح . وبعد موت الصالح عاد الى ملك المنصور قلاوون ثانيا وصار من أعيان مماليكه ، ثم صار فى خدمة السلطان الاشرف خليل من جملة أعيان الأمراء الى ان قتل عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م (١٣) .

وفى سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٩م استقر رأى على نزول الخليفة العباسى من القلعة الى مناظر الكباش (١٤) ، وابعاد الملك الناصر محمد الى الكرك. وكان سلار من الأمراء الذين اشترطوا على لاجين أن يكون كأحدهم ولا ينفرد برأى عنهم ولا يسلط يد أحد من مماليكه ، فلما تسلطن رتب سلار استادارا (١٥) .

ثم كان أن اتفق الأمراء على إعادة الملك الناصر محمد من الكرك فكانت سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م . وقد توجه من القاهرة بطلبه الأمير الحاج آل ملك والأمير الجاولى ، وذلك بعد قتل السلطان لاجين . وولى السلطان الناصر الأمير سلار نيابة السلطنة (١٦) ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى جمادى الأولى منها ولى الأمير سيف الدين سلار المنصورى نيابة السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى بحكم قتله » (١٧) .

مما تقدم يتضح أن بداية صخبة الجاولى لسلار كانت فى سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا ، وقد توطدت هذه الصداقة فى سلطنة الناصر محمد الثانية . وترتب على ذلك أن صار الجاولى يدخل على الملك الناصر ويخرج ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ويتقرب اليه ، حتى صار استادارا (١٨) .

ويتضح ذلك من النص التأسيسي لضريح سلار والذي ينص على انه كان يشغل وظيفة « نائب السلطنة المعظمة » ، كما يتضح من النص التأسيسي لضريح الجاولى انه كان يشغل وظيفة « استادار العالية » ، وذلك فى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية ، وكل من النصين مؤرخ بتاريخ سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م .

وفيما يتعلق بالجانب الأثرى ، فان سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م شهدت الفراغ من عمارة منشأة دينية على قدر كبير الأهمية من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، اقترنت بهذين الأميرين : علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى . وقد أدى ذلك الى خلاف فى رأى حول نسبتها الى أى منهما . كذلك حدث خلاف حول تسميتها، وماهى الوظيفة التى كانت تؤديها، اذ نعتت بعدة مسميات فذكرت فى المصادر التاريخية والأثرية فى قائمة المدارس والخانقوات والمساجد ، الأمر الذى سنتعرض له لاحقا بالبحث والدراسة .

أعمال سلار :

نهض الأمير سلار فى عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م وذلك عقب زلزلة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م بعمارة جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر ، والجامع الأزهر ، والجامع العمرى بمصر . يقول المقرئى فيما يتعلق بجامع عمرو مانصه « وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر ، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين ابن خطاب فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية واعاده على ما كان عليه » (١٩) ، اما فيما يتعلق بالجامع الأزهر فقد أورد ما نصه « وتولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر » (٢٠) ، وفى ذلك يذكر بدر الدين العينى « وتصدى الأمير سيف الدين سلار لعمارة الجامع الأزهر واصلاحه واصلاح مأذنته واصلاح الواجهة التى وقعت ، وجدد فيه جميع أماكنه ، وبلطه وبيضه ، وانفق عليه نفقات كثيرة ، وكان للأمير شمس الدين سنقر الأعسر مشاركة له فى الجامع الأزهر (٢١) » .

كذلك أورد العينى فيما يتعلق بالجامع العمرى ما نصه « أصلح

الأمير سيف الدين سلاّر نائب السلطنة ما هدم من الجامع العمرى بمصر
وصرف عليه مالا جزيلا « (٢٢) .

وقد شهدت سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٦هـ /
١٣٠٦م نراعا كبيرا بين الأميرين بيبرس وسلاّر بسبب خلاف وقع بين
كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة وصديق سلاّر الأمير الجاولى ، حيث
قام بيبرس فى نصرة كاتبه وقام سلاّر فى نصرة صاحبه . وكادت الفتنة
أن تقع بينهما ، ولكنهما استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر ، وخرج
تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل الى قاعة صاحب
بها ، فى حين أمسك بيبرس الأمير الجاولى وحذاره ثم نفاه الى دمشق
على امره طبلخاناه (٢٣) ، وولى مكانه استادارا الأمير ايدمر الخطيرى .
وبعد وصول الجاولى الى الشام بمدة انعم عليه باقطاع وامرة (٢٤) .

على أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن ضاق بالحجر عليه من
قبل الأميرين بيبرس وسلاّر ، فخرج فى شوال ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م الى الكرك
بعد أن تظاهر بتوجهه الى الحجاز الشريف . وهناك استقر بقلعتها مقيما
وأعرض عن الملك (٢٥) .

وكان أن رأى الأمراء تولية الأمير سلاّر عرش السلطنة ، ولكنه
اعتذر خوفا من بيبرس ، فوقع اختيارهم على بيبرس وبايعوه بالسلطنة
فى عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م ، وعين سلاّر نائبا للسلطنة . ومن مآثر سلاّر
فى هذا العام بناء خان بحمراء بيسان (٢٦) ، وهو ما أشار اليه ابن
حبيب بقوله « وفيها بنى الأمير سيف الدين سلاّر المنصورى خانا بحمراء
بيسان وحصل به رفق كثير للمسافرين » (٢٧) .

ومن ناحية أخرى ، فان نفوذ الناصر محمد أخذ يزداد أثناء اقامته
بالكرك حتى صارت الأمور ممهدة له لاسترداد عرشه فى مصر وعندئذ خرج
من دمشق فى رمضان ٧٠٩هـ / ١٢٩٩م ودخل مصر حيث استقبل استقبالا
حافلا شارك فيه سلاّر وبقية الأمراء ، وبذلك بدأت سلطنته الثالثة
(٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١م) . وكان سلاّر قد كتب الى الملك الناصر
بنزول بيبرس عن الملك وسير بذلك اصلم الدوادار ، ثم خرج سلاّر للقائه ،

وقدم سماطا جليلا بلغت النفقة عليه اثني عشر ألف درهم (٢٨) .

كذلك قدم سلا ر للملك الناصر عدة من الممالك والخيول والجمال و ثياب القماش ما قيمته مائتا ألف درهم ، فقبل السلطان شيئا ورد الباقي . وطلب سلا ر الاعفاء من الامرة والنيابة وان ينعم عليه بالشوبك (٢٩) فأجيب الى ذلك . ولما فرغ السلطان من أمر بيبرس وأصحابه ولم يبق عنده من يخشاه سوى سلا ر ، كتب اليه كتابا بحضوره فاعتذر سلا ر ، ثم أرسل السلطان الأميرين بيبرس الدوادار وسنجر الجاولى لاحتضاره ، فوعدهما ان يحضر وكتب بذلك ، وبعد ان استشار سلا ر أصحابه توجه الى مصر فقبض عليه وسجن بقلعة الجبل (٣٠) ، حيث توفي بعد قليل ، في ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م ، وقيل في العشرين من جمادى الآخرة (٣١) .

وأغلب الظن أنه توفي في ربيع الآخر ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفي سلخ ربيع الآخر منها قبض على الأمير سلا ر » (٣٢) . وكان سلا ر ذا حشمة ورياسة ، اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثل السلا رى وغيره (٣٣) . ومن جملة صدقاته أنه بعث الى مكة في عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م في البحر عشرة آلاف أردب قمح ففرقت في أهل مكة . وكذا فعل بالمدينة . وكان فارسا اذا لعب الكرة لا يرى في ثيابه عرق وكذا في الرمح . وله اليد البيضاء في قتال التتار . وكان رنكه (٣٤) أبيض وأسود (٣٥) .

وقد أذن السلطان للجاولى أن يتولى خزانة سلا ر وجنازته ودفنه فدفن بتربته عند الكباش ، وأخذ السلطان ما كان له من الرزق (٣٦) وغيرها وأضاف ذلك لخاص السلطان (٣٧) .

أعمال الجاولى في الشام :

أما عن الجاولى فلم يزل بدمشق منذ نفاه بيبرس الى أن تحرك الناصر محمد من الكرك ، ولم يكن له في سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس حل ولا عقد ولذلك قدم مع الناصر محمد الى مصر حيث ولاه وظيفة شد الدواوين (٣٨) .

وقد ظل الجاولى بمصر حتى ولاء الملك الناصر نيابة غزة فى جمادى الأولى ٧١١هـ/١٣١١م وأضاف اليه الساحل والقدس وبلد الخليل (٣٩) وجبل نابلس (٤٠) كما اعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع بعمل عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألفا (٤١) .

وكانت غزة تارة تكون نيابة وتارة تكون مقدمة عسكر ، ومقدم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أموره . وقد أورد القلقشندى نسخة تقليد بنيابة غزة كتب به للأمير علم الدين الجاولى من أنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، كما أورد نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة (٤٢) .

وقد شهدت غزة نهضة عمرانية كبيرة فى عهد الجاولى ، بل أنه يمكن القول ان الجاولى يعد من خيرة النواب الذين تولوا غزة خلال العصر المملوكى ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه «ولى نيابة غزة عدة سنين ، ومدنها ومضرها ، وعمر بها جامعاً محكماً ، ومدرسة للشافعية وبیمارستانا ، وقصرا للنيابة ، وحماما انيقا ، وخانا للسبيل ، وله أوقاف غير ذلك ، وبر ومعروف (٤٣) » ، وكان أن شهدت مدينة غزة فى عهد الجاولى ازدهارا كبيرا فى منشآتها الدينية والمدنية والحربية . وتميزت هذه المنشآت بالروعة والفخامة . وقد أورد ابن بطوطة - وهو معاصر - وصفا رائعا لمدينة غزة ، فقال ما نصه « ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر ، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن (٤٤) » .

كذلك شهدت بقية المدن التى اضيفت للجاولى ازدهارا كبيرا ، فقد أورد ابن بطوطة عند زيارته الخليل « وهى مدينة صغيرة المساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجبية المخبر ، فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع ، مبنى بالصخر المثحوت (٤٥) » .

أما بيت المقدس فقد قال عنها « ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما ، ومعرجه الى السماء ، والبلك كبيرة منيفسة بالصخر المنحوت (٤٦) » .

كذلك قال عن الرملة ما نصه « ثم سافرت منها (عسقلان) الى مدينة الرملة وهى فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض (٤٧) » . ثم قال عن نابلس « ثم خرجت منها (الرملة) الى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها . . . والمسجد الجامع فى نهاية الاتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب (٤٨) » .

وقد تميزت عمائر الجاولى بالروعة والفخامة ، أورد ابن بطوطة وصفا رائعا للجامع الجاولى بغزة ، فقال « والمسجد الذى تقام به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولى ، وهو أنيف البناء ، محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض (٤٩) » .

ويقع هذا الجامع فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة غزة . وقد أمدنا القاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذا المسجد ، حيث يقول « ويظهر السور السلیمانى من جهة الشرق مسجد فى غاية الحسن ، وبين السور السلیمانى وهذا المسجد الدهنيز وهو معقود مستطيل عليه الابهة والوقار ، والذى عمر هذا الدهنيز والمسجد الأمير أبو سعيد الجاولى ناظر الحرمين الشريفين (حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس) ونائب السلطنة ، فعرف هذا المسجد بالجاولية وهو من العجائب (٥٠) » .

وقد ورد فى الأنس الجليل ان الابتداء فى عمارة هذا المسجد كان فى ربيع الآخر ٧١٨هـ / ١٣١٨م وكان الفراغ من العمارة فى ربيع الآخر ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م ، وقد نقش فى جداره ان سنجر عمر ذلك الجامع من خالص ماله ، ولم ينفق عليه شيئا من مال الحرمين (٥١) . وأغلب الظن

ان الجامع بنى فى عام ٧١٤هـ / ١٣١٤م ، حيث عثر على النص التأسيسى منقوشا على حجر نقل الى الجامع الشمعة (٥٢) بحى الزيتون بغزة، ضمن الاحجار التى نقلت اليه بعد تهدم الجامع الجاولى . ويحمل هذا النقش تاريخ انشاء الجامع ، الا انه غير مكتمل ، حيث ورد ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك ابتغاء مرضات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة ، أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة أربعة ٠٠٠ « (٥٣) » .

ولما كانت ولاية الجاولى قد بدأت بغزة فى جمادى الأولى عام ٧١١هـ / ١٣١١م وانتهت فى الثامن عشر من شعبان سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م فمن المرجح أن تاريخ انشاء الجامع كان فى ذى الحجة سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م .

أورد القاضى مجير الدين عن هيئة المسجد أنه قطع فى جبل . قيل ان مكانه كان مقبرة يهود ثم قطعه الجاولى وجوفه ، وشيد السقف والفبة . وهو مرتفع على اثنتى عشرة سارية قائمة فى وسطه ، وفرش أرض المسجد وحيطانه وسواريه بالرخام ، وعمل شبابيك حديد على آخره من جهة الغرب . اما فيما يتعلق بذرع المسجد فقد ذكر ان هذا المسجد طوله من القبلة بشام ثلاثة وأربعون ذراعا وعرضه شرقا بغرب خمسة وعشرون ذراعا بذرع العمل (٥٤) .

كذلك انشأ الجوالى بغزة مدرسة للشافعية تقدم ذكرها ، ومن المرجح أنها شيدته على غرار مدرسته بقلعة الكباش وانشأ بها بيمارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر محمد أوقافا جليلة (٥٥) ، وجعل النظر فيه لنواب غزة ، وكان قسما منه مخصصا لداواة أصحاب الأمراض العصبية . وظل هذا البيمارستان عامرا حتى عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م حيث خرب خلال الحملة الفرنسية (٥٦) .

ومن مآثر الجاولى بغزة أنه عمر قصرًا للنيابة ، وحمّاما أنيقا ،
وخانا للسبيل (٥٧) ، والميدان ؛ كما شيد جامعا ببلد الخليل عليه السلام ،
وشيد جامعا فى لد (٥٨) من عمل الرملة (٥٩) . كذلك شيد خانا
بقاقون (٦٠) ، وخانا بقرية الكتيب ، والقناطر بغابة ارسوف ، وخان
رسلان بحمراء بيسان ، وقد تميزت عمائره بالروعة والفخامة ، يقول
المقريزى ما نصه «وسائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة» (٦١) .
ومن مآثره أيضا ما أورده ابن حبيب فى حوادث عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م
« فيها رسم السلطان ايده الله باجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام
الى القدس الشريف ، فامتثل ما رسم به وبأشر اجراءه وما يحتاج اليه
من العمارة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، واهتم به واجتهد فيه الى
أن وصل الماء الى بيت المقدس ، وارتفق الناس به » (٦٢) .

وقد قيل عن هذه العمارة :

طوبى لملك ليس يحصر أجره
أجرى القناة بأرض بيت المقدس
روى الورى وعن الحيا اغناهم
واليهم أهذى حياة الأنفس (٦٣)

وفى تلك السنة أيضا ندب السلطان الأمير علم الدين سنجر الجاولى
لعمل البروك بدمشق (٦٤) .



وقد ظل الأمير الجاولى يباشر نيابة غزة حتى ساءت الأحوال بينه
وبين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج
دمشق من شمالها ؛ أراد تنكز أن يبتاعها منه فأبى عليه ، فكتب فيه الى
الملك الناصر محمد فامسكه فى ١٨ شعبان ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م واعتقله نحو
من ثمان سنين . وقيل أمسكه بسبب أنه لما رآه البلاد الشامية اختار لماليكه
خيار الاقطاعات فلم يعجب تنكز . ثم لما أمر الناصر أمراء البلاد كلها
اختار أن يكون تنكز واسطة بينهم وبين الناصر ، فغضب الجاولى ، وثم

عليه بعض مماليكه بأنه يريد أن يهرب الى اليمن ، فارسل الناصر محمد من قبض عليه (٦٥) .

ثم أطلق الملك الناصر سراح الجاولى فى عام ١٣٢٧هـ / ١٣٢٨م ، وقيل فى عام ١٣٢٨هـ / ١٣٢٩م وأعطاه امرة أربعين ، ثم اعطاه بعد مدة امرة مائة وقدمه على ألف ، وجعله من أمراء المشورة . وفى ذلك يقول ابن حبيب عن الجاولى « أحد أمراء المشورة الذين يجلسون فى حضرة السلطان ، كان كبيرا جليلا ، أثيرا أثيلا ، مدبرا مشيرا ، عارفا لسياسة الملك ، خبيرا سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وأفتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم واحسن اليهم (٦٦) » ، وقد قضى الجاولى فترة اعتقاله ينسخ القرآن وكتب الحديث (٦٧) .

ولم يزل الجاولى من أمراء المشورة الى أن توفى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عام ١٣٤١هـ / ١٣٤١م ، فتولى غسله ودفنه . وكان الجاولى قد أشار عليه أن يعهد بالملك الى أحد أولاده ، فأجاب الى ذلك وجعل ابنه أبا بكر سلطانا (٦٨) .

وفى عهد الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ٧٤٣ - ٧٤٦هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥م يتولى الجاولى نيابة حماه (٦٩) عوضا عن الأمير طقزدمر ، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر ، ثم نقل الى نيابة غزة ، فأقام بها نحو ثلاثة أشهر أخرى ، ثم احضره الى القاهرة ، وقرره على ماكان عليه ، وولى نظر البيمارستان (٧٠) بعد نائب الكرك عندما اخرج الى نيابة طرابلس (البيمارستان المنصورى) . ثم توجه لحصار الناصر أحمد بن الناصر محمد وهو فى الكرك ، وبالح فى حصاره حتى تمكن من قتله وعاد الى مصر ولم يزل على حاله الى أن توفى فى منزله بالكيش يوم الخميس تاسع رمضان ١٣٤٤هـ / ١٣٤٤م ، ودفن بمدرسته وخانقائه ، وكانت جنازته حافلة الى الغاية (٧١) .



وفيما يلى دراسة لمنشآت الجاولى وسائر فى تلك الفترة المزدهرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام .

مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكيش ١٣٠٣هـ / ١٣٠٣م (شكل ١)
(لوحة ١) :

شهدت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية فى عام ١٣٠٣هـ /
١٣٠٣م الفراغ من عمارة المدرسة الناصرية (٧٢) ببيتين الفصريين ، كذلك
شهدت ايضا فى نفس العام الفراغ من عمارة مدرسة وخانقاه الأمير
الجاولى ، وهى منشأة دينية على قدر كبير من الأهمية ، اذ لعبت هذه
المنشأة مع المدرسة الناصرية دورا بالغ الأهمية فى تطور العمارة الدينية
من الناحيتين المعمارية والزخرفية بمصر خلال العصر المملوكى الأول من
جهة ونظرا لما أثير حولها من آراء من جهة أخرى . ذلك أنها اقترنت
بأميرين جليلين من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون هما الأميران
علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلاّر المنصورى ، وهو الأمر الذى
أثار نقاشا حول نسبتها الى أى منهما ، فضلا عن الخلاف حول تسميتها ،
وماهى الوظيفة التى كانت تؤديها .

اما فيما يتعلق بتاريخ انشاء هذه المنشأة فان النصوص التأسيسية
التى وجدت أعلى عتب المدخل العمومى (لوحة ٢) ، وأعلى ضريح
سلاّر ، وأعلى ضريح الجاولى تشير الى أن الانتهاء من الانشاء كان فى
عام ١٣٠٣هـ / ١٣٠٣م بما نصه « عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة
ثلاث وسبعمائة » ، وهو الأمر الذى يؤكد ان ما ذكره المقرئى من أن
عمارته تمت فى عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ليس صحيحا . وقد أشار المقرئى
الى ذلك فى موضعين فذكر المدرسة الجاولية فى المدارس ، والخانقاه
الجاولية فى الخانقاوات ، وقال « انشأها الأمير علم الدين سنجر
الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة » (٧٣) .

اما فيما يتعلق بمنشئها فقد اختلفت الآراء كذلك فى نسبتها الى أى من
الأميرين الجاولى وسلاّر ، حيث أنه على الرغم من أن النصين التأسيسيين
المدونين على الضريحين الملحقين بهذه المنشأة تضمنتا ماهية المكان وسم
المنشئ وألقابه ووظيفته وتاريخ الانتهاء من الانشاء ، الا أن النص
التأسيسى المدون أعلى المدخل العمومى والنصوص التاريخية المدونة على
جدران المنشأة ذاتها لم تتضمن اسم المنشئ ، وهو الأمر الذى نجعل

الأستاذ حسن عبد الوهاب يرجح نسبة هذه المنشأة الى الأمير سلالر ،على الرغم من ان معظم المصادر التاريخية تنسب هذه المنشأة الى الأمير الجاولى . وقد جاء نرجيح الأستاذ حسن عبد الوهاب اعتمادا على ما ذكره المؤرخ ابراهيم بن مغلطاي عند ذكره وفاة سلالر ونصه (ونفل الى تربته التى على الكبش فدفن فيها» . وكذلك اعتمادا على مشكاة له يقرأ عليها ما نصه « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين سلالر نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه » (٧٤) .

والواقع ان ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن المؤرخ ابراهيم بن مغلطاي : يرجح أن منشئها هو سلالر ، حيث ان المنشأة تحتوى على ضريحين متجاورين (لوحة ١) أحدهما الذى تقدم ذكره والخاص بسلالر ، والآخر الملاصق له وهو خاص بالجاولى ، وقد أجمع المؤرخون على ان كلا من الأميرين دفن بتربته التى على الكبش . اما فيما يتعلق بما ورد على المشكاة من كتابات ، فهى أيضا لا ترجح نسبة المنشأة لسلالر لأنه من الضرورى أن ضريح الجاولى كان يحتوى على مشكاوات مماثلة لمشكاة سلالر وان لم تصل اليها . وأرجح أنها كانت تحتوى على كتابات نصها « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى استادار العالية عفا الله عنه » ، حيث أن الضريحين شيئا فى تاريخ واحد هو عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوءه أن ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نسبة المنشأة الى الأمير سلالر يمكن أن يستند اليه فى نسبة المنشأة للأمير الجاولى .

ونرجح أن منشئها هو الأمير الجاولى . وقد أورد المقرئزى فى السلوك ما نصه « ومات الأمير علم الدين سنجر .. ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش » (٧٥) ، كما أورد فى الخطط عند ذكره المدارس « هذه المدرسة بجوار الكبش فيما بين القاهرة ومصر ، انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى » (٧٦) ، كما أورد عند ذكره الخانقاوات « هذه الخانقاة على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش فيما بين القاهرة ومصر انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى » (٧٧) .

(مجلة المؤرخ العربى)

كذلك أورد ابن حجر فى الدرر عند ذكره الجاولى ما نصه « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش » (٧٨) . كما أورد ابن تغرى بردى فى النجوم فى حوادث عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م عند ذكره وفاة الجاولى « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش » (٨٩) . وأورد ابن نياس فى بدائع الزهور عند ذكره وفاة سلار ما نصه « ولما مات بالقلعة ، غسل وكفن ، ودفن فى المدرسة الجاولية ، التى عند الكبش » (٨٠) . وذكر فى موضع آخر عند ذكره وفاة الجاولى ما نصه « توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو صاحب المدرسة المعروفة به (٨١) » ، كذلك قال ابن العماد الحنبلى ما نصه « وبنى . . . و خانقاه بظاهر القاهرة . . . ودفن بالخانقاه التى انشأها (٨٢) » .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه فى ضوء عدم العثور على وثيقة للأمير سلار فان معظم المؤرخين الذين ذكروا وفاة الأمير سلار لم يرد فى مؤلفاتهم أنه انشأ مدرسة أو خانقاه أو جامع بالكبش أو أى عمارة دينية داخل مصر أو خارجها ، وهو أمر غير مألوف ، لما كان عليه سلار من جاه و ثراء . يقول ابن حبيب عنه ما نصه «ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية أكثر من عشر سنين ، وبلغ من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الاقطاعات وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله (٨٣) » . واذكر من بين هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال ابن شاکر الكتبى فى وفاة الوفيات (٨٤) ، وابن حبيب فى تذكرة النبیه (٨٥) ، والمقریزى فى السلوك (٨٦) ، وفى الخطط المقریزية (٨٧) ، وابن حجر فى الدرر (٨٨) ، وابن تغرى بردى فى النجوم (٨٩) ، وفى المنهل الصافى (٩٠) ، وابن نياس فى بدائع الزهور (٩١) . ومما يرجح أيضا أن منشئها هو الأمير الجاولى ، أن دار الجاولى كانت بمناظر الكبش مجاورة لهذه المنشأة الدينية ، وهى الدار التى كان يسكنها ، وقد كانت للجاولى دار أخرى جعلها وقفا على هذه المنشأة ، اذ يذكر المقریزى ما نصه « هذه الدار من جملة الحجر . . . وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى ، وعرفت فى زماننا بقاعة البغاددة لسكنى عبد الصمد الجوهري البغدادى بها هو

واولاده ٠٠٠ وهى من الدور الجلييلة الا أنها قد تشعشت لطول الزمن (٩٤) « وفى ضوء هذه الحقائق يتضح ان الأمير الجاولى هو الذى قام بإنشاء هذه المنشأة الدينية وليس سار .

اما دار الأمير سار فقد كانت بخط بين القصرين بعيدة تماما عن هذه المنشأة ، اذ يذكر المقرئى عند ذكره رحبة سار (٩٥) « ودار الأمير سار نائب السلطنة هى أيضا من جملة الفضاء الذى بين القصرين » (٩٦) ، وقد تعرضت هذه الدار لحريق فى عام ٧٢١هـ / ١٣٣١م (٩٧) . يذكر الأستاذ محمد رمزى أنها اندثرت ، وكانت واقعة على يسار الداخل فى درب قرمز فى المنطقة التى تحد الآن من الجنوب بدرب قرمز وكان فيه الباب ، ومن الشرق بعطفة قرمز ، ومن الشمال بشارع التمكنشية بقسم الجمالية بالقاهرة (٩٨) .

وقد كانت للأمير سار دار أخرى ، وهى دار النيابة بالقلعة (٩٩) . ومما يرجح نسبة هذه المنشأة الى الأمير الجاولى اضافة لما تقدم ، ان هذا الأمير كان مولعا بتشيد العمائر بصفة عامة ، والعمائر الدينية بصفة خاصة ، وقد أورد السبكى ما نصه « وكان رجلا فاضلا يستحضر كثيرا من نصوص الشافعى وصنف (شرح مسند الشافعى) » . جمعه من شروح الرافعى وابن الأثير وشرح مسلم للنووى ، ونقل عبارة كل واحد بنصها وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس وغيرها (١٠٠) . هذا بينما اهتم الأمير سار بجمع المال فلم يشيد سوى خان بحمراء بيسان وهو الخان الذى تقدم ذكره (١٠١) .

وأرجح أن الجاولى هو الذى شيد للأمير سار تربته التى بالكش حتى يدفن بجواره ، واختصه بالضريح الأكبر مساحة تقديرا له واعترافا بفضلته فى ترقية خلال عهد السلطان العادل زين الدين كتبغا ، والسلطان حسام الدين لاجين ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، فقد ربطت بينهما صداقة وطيدة يدل عليها ما أورده ابن تغرى بردى ونصه « فأخذ الأمير علم الدين سنجر الجاولى بأذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه ودفنه بتربته التى أنشأها بجانب مدرسته

على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون بصداقة كانت بين الجاولى وسار قديما وحديثا (١٠٢) » .



أما عن تسمية هذه المنشأة وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها فقد نعتت بعدة مسميات فذكرت فى عداد المدارس والخانقاوات والمساجد، نظرا لعدم العثور على وثيقة تحدد وظيفتها تحديدا دقيقا . من ذلك أن المقريزى ذكرها فى المدارس فأورد ما نصه « هذه المدرسة بجوار الكبش . . . انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وعمل بها درسا وصوفية ولها الى هذه الأيام عدة أوقاف (١٠٣) » ، كذلك ذكرها ابن حجر فأورد « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش » (١٠٤) ، أما ابن تغرى بردى فيقول « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش » (١٠٥) ، وقال ابن اياس ما نصه « ودفن فى المدرسة الجاولية (١٠٦) » ، وذكر فى موضع آخر « وهو صاحب المدرسة المعروفة به » (١٠٧) ، أما على مبرك فقد ذكرها ضمن المدارس (١٠٨) .

كذلك أطلق عليها اسم خانقاه ، فذكرها المقريزى فى الخانقاوات وأورد ما نصه « هذه الخانقاة على جبل يشكر . . وقد تقدم ذكرها فى المدارس (١٠٩) . أما ابن العماد فأورد « . . . ودفن بالخانقاه التى أنشأها » (١١٠) ، أما على باشا مبارك فقد ذكرها من جملة الخانقاوات (١١١) . كذلك عرفت بالجامع فذكرها على باشا مبارك فى الجوامع ، كما أطلق عليها مدرسة وجامع ، حيث وردت فى فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة « مدرسة ومسجد » (١١٢) ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أن تصميم هذه المنشأة شاذ عن تصميم المساجد والمدارس فلا هو مسجد ولا هو مدرسة ، كما ان النصوص التاريخية لم تحدد ذلك، ويرى أنه أقرب الى تصميم الخوانق (١١٣) .

وأرى أن الأمير الجاولى انشأها مدرسة للشافعية وشيد على غرارها مدرسة للشافعية بغزة (١١٤) ، فقد أورد السبكى ما نصه « وعمل نيابة السلطنة بغزة مدة فبنى بها مدرسة للشافعية (١١٥) » ، كما أورد مانصه

« وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس » (١١٦) .

وقد ذكر المقرئزى (١١٧) هذه المنشأة فى مواضع عديدة باسم مدرسة ، بينما لم يذكرها سوى مرة واحدة باسم خانقاة ، كما أطلق عليها كل من ابن حجر فى (١١٨) الدرر ، وابن تغرى بردى (١١٩) فى النجوم ، وابن اياس (١٢٠) فى بدائع الزهور مسمى (مدرسة) .

ومما يرجح أن الجاولى انشأها مدرسة ما أورده ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م ونصه « وتوفى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الضياء المناوى الشافعى شيخ المدرسة الجاولية بالكبش » (٢١) .

وكان يدرس بهذه المدرسة الفقه الشافعى ، كما كان يدرس بمدرسته بغزة ، بجانب حضور وظيفة التصوف ، وهو الأمر الذى عبر عنه المقرئزى بقوله « وعمل بها درسا وصوفية » (١٢٢) . ومن الملاحظ أن ندرىس المذهب الواحد لم يقتصر على المدارس ذات الايوان الواحد مثل المدرسة البقرية (١٢٣) ، ومدرسة ايتمش (١٢٤) ، بل درس أيضا بالمنشآت ذات الايوانين كما فى جامع السنبغا البوبكرى (١٢٥) ، كما درس فى المدارس ذات الأربعة ايوانات كما فى مدرسة صرغتمش (١٢٦) . وكذلك درس المذهب الواحد فى مدارس تخطيطها من أروقة دون الصحن كما فى المدرسة الطيبرسية (١٢٧) . وهكذا نجد أن طلبة العلم أصبحوا هم الصوفية المنزلين ، وهو الأمر الذى أوضحه المقرئزى وتقدم ذكره ، لذا فانه يمكن اطلاق مسمى مدرسة وخانقاه الأمير علم الدين سنجر الجاولى على هذه المنشأة ، خاصة وأنه لم يكن ثمة فرق كبير بين عمارة المدرسة وعمارة الخانقاة فى تلك المرحلة .



دراسة تحليلية لمدرسة وخانقاه الجاولى

أولا : الواجهة (لوحة ١) :

تشرف مدرسة وخانقاه الجاولى على الشارع العمومى (شارع

مراسينا) من خلال واجهة حجرية بديعة فى الجهة الشمالية الشرفية ، يبلغ طولها ٢١ر٦٣ مترا ، كما يبلغ ارتفاعها حتى قمة الشرافات المسننة حوالى ١٣ر٣٤م ، وفى الطرف الأيسر يوجد المدخل العمومى . وقد قسم المعمار هذه الواجهة الى ثلاثة مستويات الأول من أسفل شيد على النحر مباشرة ينتهى بشطف حجرى . ثم يبدأ منه المستوى الثانى الذى يتكون من تسعة مداميك حجرية خالية من الزخرفة تتوجه حلية قالبية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل ، ثم يلى ذلك المستوى الثالث والذى يتكون من احدى وعشرين مدماك حجرى ، ويزدان هذا المستوى الأخير بست دخلات مستطيلة رائعة ترتكز على المدماك الأول الذى يلى الحلية القالبية مباشرة وتتوج هذا المستوى حلية حجرية ثانية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل على غرار الحلية الاولى ، وقد أوجد المعمار الحليتين كاطارين للدخلات من أسفل ومن أعلى .

والواقع ان الواجهة فى مجملها تمثل مرحلة متطورة للغاية ، حتى اننا نكاد نلمس بها روح واجهات عمائر القاهرة الدينية الجرسية . ويظهر هذا التطور واضحا جليا فى الدخلات التى نزدان بها فى المستوى الثالث ، حيث تميزت بتصميماتها المعمارية الدقيقة ، وزخارفها النباتية والهندسية البديعة ، ومقرنصاتها الزخرفية الرائعة التى تنوعت بين مقرنصات بلدية وحلبية . وقد أراد المعمار فوق ذلك اعطاء هذه الواجهة مظهر الروعة والفخامة فأقام قبتين جميلتين ومئذنة غاية فى الروعة ، كما أوجد تناسقا معماريا بديعا بين عمارة المئذنة وبين القبتين . وكذلك اوجد تناسقا زخرفيا رائعا بين تضييعات مبخرة المئذنة وبين تضييعات كل من القبتين فجاءت هذه الواجهة بحق من أجل واجهات عمائر القاهرة الدينية فى عصر دولة المماليك البحرية .

وقسم المعمار دخلات الواجهة الى قسمين ، بحيث يشرف كل من الضريحين على الشارع العمومى من خلال ثلاث دخلات ، تفصل بينها واجهة الجدار الفاصل بين الضريحين ، وقد ميز المعمار الدخلة الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا من الدخلتين الجانبيتين . أما فيما يتعلق بدخلات واجهة ضريح الجاولى (لوحة ٣) التى تقع فى القسم الأيمن من الواجهة

فقد شغل المستوى الأسفل منها بشبابيك ذات مصبغات لآلأارة وتهزبه
الضرب من الداخل . وبتبمز شباك الدخلة الوسطى بأنه اكثر اتساعا من
الشباكين الجانبيين بحيث يتناسب واتساع الدخلة نفسها ، يعلوه عتب
يزدان بزخارف نباتية وهندسية قوامها اشكال خماسية هندسية تحصر
بداخلها أوراق نباتية . ثم يعلو العتب نفيس يزدان بزخارف نباتية
قوامها ورفه ثلاثية ننوسط التكوين الزخرفى ، يخرج منها من اسفل فرع
نباتى يتجه يميناً ، وآخر يتجه يساراً ، وتخرج منها أوراق احادية
الفصوص ، ويعلو النفيس عقد عاتق من صنجات حجرية .

ويعلو كل من الشباكين الجانبيين عتب من صنجات حجرية يعلوه
نفيس يزدان بزخارف نباتية على نفس النمط ، الا أن العناصر الزخرفية
نفذت بحجم أقل لكى تتناسب مع المساحة المخصصة لها . ثم يعلو النفيس
عقد عاتق أقل ارتفاعاً عن مثيله فى الشباك الاوسط . يلى هذه الشبايك
شريط محفور اعد لنقش كتابى ، الا أنه خال من الكتابات . ويمتد هذا
الشريط بامتداد الواجهة والمدخل ، وقد حلى فى بدايته ونهايته بشكل
زخرفى نباتى بديع على هيئة ورفه نباتية ثلاثية يخرج منها فرع نباتى
يتجه الى أعلى وآخر يتجه الى أسفل ، يشكلان حدود الشريط .

ويتوج هذه الدخلات مقرنصات تمثل مرحلة متطورة للغاية .
وجاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من أربعة صفوف شكلت على هيئة
ثلاثة تكوينات زخرفية هرمية ، يتمير التكوين الاوسط بان قمته تزدان فى
داخلها بتضليعات . وقد تنوعت عقود المقرنصات بين مدببة ونصف
دائرية . اما الدخلتان الجانبيتان فمقرنصاتهما من خمسة صفوف ذات
عقود منكسرة فى شكل زخرفى بديع ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوءه
أن المعمار قد نوع فى تصميم المقرنصات فى هذه الدخلات مما أوجد تبايناً
زخرفياً بديعاً فى دخلات ضريح الجاولى .

اما فيما يتعلق بدخلات ضريح سلالر (لوحة ٤) فهى على نفس
النمط ، فيما عدا تصميم مقرنصاتها ، حيث جاءت مقرنصات الدخلة
الوسطى من خمسة صفوف شكلت على هيئة أربعة تكوينات بديعة هرمية

عقودها منكسرة ، وهى بذلك تختلف ومقرنصات الدخلة الوسطى فى ضريح الجاولى، مما أوجد تباينا زخرفيا جميلا بين الدخلتين . ومقرنصات هذه الدخلة فى حالة جيدة عن تلك التى بضريح الجاولى . أما الدخلتان الجانبيتان فقد جاءت مقرنصاتهما من ثلاثة صفوف على هيئة عقد ثلثى حلّى الفص الأوسط منه فى داخله بتضليعات . وقد تنوعت هذه المقرنصات فى عقودها بين مدببة ونصف دائرية ، وهى بذلك تختلف وتصميم مقرنصات الدخلة الوسطى ، كما تختلف ومقرنصات كل من الدخلتين الجانبيتين فى ضريح الجاولى ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوءه أن المعمار أوجد تباينا فى تصميم دخلات كل ضريح ، ثم أوجد تباينا آخر فى تصميم مقرنصات الضريحين .

وتعلو الدخلات حلية قالبية حجرية ثنائية ، ثم تتوج الواجهة شرفات هرمية من ستة مدرجات تتركز على مدماك حجرى يعلو الحلية ، وقد زخرف التدرج الأخير للشرافات على هيئة ورقة نباتية ثنائية .

أما فيما يتعلق بالشرافات التى وجدت بمدرسة وخانقاه الجاولى فقد تنوعت بين شرافات مدرجة (لوحة ١) ، وشرافات على هيئة زهرة الزنبق ذات الوريقات الثلاثة (لوحة ٥) وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد وجدت بقايا من الشرافات المدرجة فى بداية العصر المملوكى البحرى فوق المدخل الجنوبى الغربى لجامع الظاهر بيبرس ، كما تظهر فى ضريح فاطمة خاتون ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، ومجموعة السلطان قلاوون ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، وضريح زين الدين يوسف ، ومدرسة الناصر محمد . أما النوع الثانى فانه يطر للمرة الأولى فى مصر فوق قبة الصوابى حوالى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥ - ٨٦م (١٢٨) .

والواقع أن عنصر الشرافات ذات الوريقات الثلاثية ظهر زخرفيا قبل ان يظهر معماريا ، فقد امتدت على افريز من مؤذنة جامع الحاكم بأمر الله الغربية نقش حجرى زخرفى بديع على هيئة شرافات ثلاثية الوريقات . وقد نسقت فى هذا الافريز سيقان وأوراق نباتية فى أشكال هندسية بديعة متشابكة (لوحة ١٦) .

اما المدخل العمومى فيقع فى الطرف الأيسر من الواجهة (لوحة ٧) وهو من المداخل غير المباشرة (١٢٩) بسبب طبيعة المنشأة ، فقد اقتضى الموقع ان يفتح المدخل على دركاة تؤدي بدورها الى دهليز يفضى الى داخل المنشأة ، ويرتفع المدخل عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٢٧٠م ، يتوصل اليه من خلال سلم يحتوى على درج جانبى من جهة واحدة . ويؤدي الدرج الى بسطة مستطيلة تتقدم تجويف المدخل الذى يرتفع بارتفاع الواجهة تتوجه مقرنصات زخرفية من ثلاثة صفوف : الأول من أسفل مخلق تتوجه عقود مدببة ونصف دائرية ، يليه صف من مقرنصات ذات دلاليات . اما الصف الأخير فتناوب مقرنصاته بين غائرة ومسطحة فى تباين بديع . ويوجد على جانبى تجويف المدخل مكسلتان . يتوسط صدر تجويف المدخل فتحة باب مستطيلة اتساعها ١٦١ مترا ، ارتفاعها ٢٩٤ مترا بعمق ٣٥ سم . ويعلوها هذا العتب لوحة تأسيسية مستطيلة حليت فى طرفيها بزخرفة على هيئة ورقة ثلاثية على غرار الشريط العلوى الذى يتوج الواجهة أسفل المقرنصات ؛ وقد نقش عليها سطران بالخط النسخى (لوحة ٢) يتضمن السطر الأول نقش نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام » وفى السطر الثانى « الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وعلى ارتفاع مدماكين من النقش الكتابى أوجد المعمارى شبك من مصبغات لاضاءة وتهوية ايوان القبلة من الداخل باتساع ١٤٣ مترا وارتفاع ٨٦ مترا ، ثم يلى ذلك عتب مستطيل يعلوه نقش يزدان بزخارف نباتية قوامها أفرع نباتية وأوراق احادية وثلاثية الفصوص . ثم يلى ذلك عقد عاتق من صنجات حجرية فى تكوين زخرفى رائع على هيئة اشكال ثلاثية متداخلة ، يعلوه الشريط الكتابى الذى يمتد بامتداد الواجهة أسفل مقرنصات الدخلات ، ثم يتوج المدخل المقرنصات التى تقدم ذكرها .

ثانيا : التخطيط من الداخل (شكل ١) :

تتبع المدرسة والخانقاه النظام الايوانى ، حيث تتكون من صحن وايوانين خصصا للمذهب الشافعى ، يشغل الصحن ساحة مستطيلة مكشوفة يبلغ طولها ٩٢٩ مترا وعرضها ٨٧٦ مترا يغطيها سقف خشبى

حديث ، يفتح عليه من الجهة الشمالية الشرقية ايوان القبلة من خلال فتحة اتساعها ٢ر٤٠ مترا بعمق ٩ر٦٧ مترا وترتفع أرضيته عن أرضية الصحن بمقدار ٣٨سم . وقد وجد ايوان القبلة فى هذه الجهة من الصحن نظرا لوجود المحراب بالجانب الأيمن من الايوان وليس بصدرة ، حيث ان حنية المحراب بها انحراف شديد لمحاولة توجيهها جهة القبلة بسبب طبيعة الموقع . هذا بينما نجد أن المعمار جعل محراب كل من القبتين الضريحيتين فى سمت الجدران (١٣٠) فى الوضع الصحيح .

ويغطى هذا الايوان سقف خشبى حديث . وقد أوجد المعمار بهذا الايوان فى الجهة الشمالية الغربية المقابلة للمحراب دخلة يغطيها قبو مدبب زخرف اطاره الخارجى بجفت لاعب ذو ميمات . وجاءت الدخلة باتساع ٥٦ر٠م بعمق ٢٨ر٠م بها دخلة مصممة يتوجها عقد مدبب ترتفع عن أرضية الايوان بمقدار ٤٢ سم بعمق ٥٠سم ، تقابلها دخلة أخرى أكثر عمقا ، حيث جاءت بعمق ٥٥ر١م . وبصدر دخلة الايوان أوجد المعمار دخلة نافذة تقدم ذكرها عند ذكر المدخل ، الى اليسار منها دخلة أخرى مصممة . (لوحة ٨) .

اما الايوان المقابل لايوان القبلة فهو أقل مساحة يقع فى الجهة الغربية من الصحن (لوحة ١) ، ويفتح على هذا الصحن من خلال فتحة يبلغ اتساعها ٢٧٨ر٢م بعمق ٢٦ر٣م . وهو يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٤٥سم يغطيه قبو مدبب . وقد أوجد المعمار على جانبى هذا الايوان حجرة تشرف على الصحن من خلال فتحة مستطيلة يتوجها عقد مدبب حدودى .

وتشرف الجهة الجنوبية الشرقية على الصحن من خلال أربعة مداخل ، منها مدخل فرعى للمنشأة جهة ايوان القبلة ، اما بقية المداخل فهى من فتحات مستطيلة تتوجها عقود مدببة حدودية .

أما الجهة الشمالية الغربية فتشرف على الصحن بدخلتين ، احدهما مجاورة لباب الدخول الى الصحن على هيئة شبه منحرف تتميز بعمقها واتساعها وارتفاعها ، حيث جاءت باتساع ٦٥ر١م ، جانبها الأيمن بعمق

٢٤٨م ، 'ما الأيسر فبعمق ٢٠٢م . وترتفع ارضيتها عن الصحن بمقدار ٦٠سم ، سجل على يمينها تاريخ تجديد لجنة حفظ الآثار العربية ١٣١٦هـ . ويغشى هذه الدخلة قبو حجرى مدبب . اما الدخلة الثانية فهي على هيئة شبه منحرف ايضا الا انها اقل عمقا واتساعا ، حيث يبلغ اتساعها ٤٠ر١م . جانبها الأيمن بعمق ٥٧ر١م ، اما جانبها الأيسر فقد جاء بعمق ٢٢ر١م . تشرف على مساكن الصوفية والدهليز الذى يتقدم 'القباب الضريحية من خلال زخارف نباتية بديعة مفرغة فى الحجر (لوحة ١٠) قوامها اوراق احادية وثلاثية الفصوص وأفرع نباتية تمثل مرحلة متطورة للغاية لزخرفة التوريق العربى (الارابسك) .

وقد وجدت الزخارف النباتية المفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز الذى يتوصل من خلاله الى القباب الضريحية بين الدعائم الحجرية الضخمة التى تتركز عليها العقود المدببة . (لوحات ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

ثالثا : المئذنة (١٣١):

تمثل مئذنة مدرسة وخانقاه الجاولى من خلال تكوينها المعماري العام حلقة هامة من حلقات تطور المئذنة المصرية ، حيث احتوت على طابق مربع المسقط يمثل القاعدة ، ثم طابق مئمن يعلوه طابق مستدير تتوجه قمة على هيئة مبخرة . وهى أول مئذنة قائمة على حالها فى عمارة مآذن القاهرة تتعاقب طوابقها مربعة فمئمنة فدائرية . وهذا التكوين نتاج تطور محلى مرت به المئذنة المصرية منذ نشأتها (١٣٢) .

وترتفع القاعدة فوق مستوى الواجهة الى علو ٣٨ر٦م ، وهى مربعة ، تتميز باستطالتها ، طول ضلعها ٥٠ر٤م ، بنيت من الحجر . يتوسط مدخلها واجهتها الجنوبية الغربية ، وهو مدخل يتوجه عقد ثلاثى بديع على جانبيه مكسلتان . وهو مدخل فريد يماثل مدخل المنشأة الذى جهة قلعة الكبش والذى جاءت طاقيته من مقرنصات من ثلاثة صفوف (لوحة ١٤) . ويظهر هذا المدخل المئذنة كأنها منشأة معمارية قائمة بذاتها .

أما المبخرة فقد بنيت من الاجر ، تتكون من طاقيّة بديعة مقسمة الى ضلوع محمولة على اربعة صفوف من المقرنصات ، وتمثل هذه المبخرة مرحلة متطورة للغاية ، وهى امتداد لما وجد فى مئذنة مشهد أبى الغضنفر اسد الفائزى ، ومئذنة المدرسة الصالحية ، ومئذنة زاوية الهنود ، ومئذنة جامع احمد بن طولون .

رابعاً : القباب الضريحية :

يتوصل الى القباب من خلال مدخل بصدر البسطة التى تلى السلم مباشرة ، حيث تفتح على ممر تغطيه أقبية حجرية متقاطعة . ويشغل هذا الممر مساحة مستطيلة يبلغ طولها ١٤م وعرضها ٣م ، بالجهة الجنوبية الغربية منه أربعة عقود مدببة ترتكز على دعائم حجرية ضخمة ، وبالجهة الشرقية فتحة باب تؤدى لضريح سلار ، وفى نهاية الممر فتحة أخرى تؤدى الى ضريح الجاولى ، وبصدره عقد كبير يفضى الى قاعة مربعة طول ضلعها ٦٢ر٤م ذات شباكين صغيرين يطلان على مساكن الصوفية .

ويتوصل الى مساكن الصوفية من خلال هذا الممر ، وهى عبارة عن ساحة غير منتظمة ، بها محراب مهدم طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى تعلوه زخارف هندسية جصية وكتابات نسخية قرآنية (آية ٧٧ من سورة الحج) . ويعلو المحراب رفرف بشرافات خشبية أسفله ازار من كتابات نسخية قرآنية (آية ١٨٥ من سورة آل عمران) ، وخلف جدار المحراب بقايا طابقين من خلاوى الصوفية اندثرت الآن (١٣٣) .

ضريح سلار (لوحة ٤) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الأولى بالجهة الشمالية الشرقية ، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابات نسخية قرآنية (آية ٢٦ - ٢٧ من سورة الرحمن) ثم وظيفة المنشأة واسم المنشئ ووظيفته وألقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م . والضريح يشغل مساحة مربعة طول ضلعها ٦٠ر٧م تتوسطه تركيبة خشبية ، وبصدد جداره الجنوبى الشرقى محراب بديع (١٣٤)

تكتنفه دخلتان . وبالجهة الشمالية الشرقية ثلاثة شبابيك يشرف من خلالها الضريح على الشارع العمومى . ويعلو جدران القبة شريط كتابى نسخى قرآنى (آيات ١٩١ - ١٩٣ من سورة آل عمران) . والواقع أن التخطيط المربع أتبع فى معظم أضرحة هذا العصر سواء كانت مستقلة أو كانت ملحقة بمنشأة من العمائر الدينية . وقد حقق المعمار - بتخطيط الضريح مكونا جزءا من أجزاء الواجهة الرئيسية - رغبة المنشئ فى التباهى بظهور ضريحه مطلا على الشارع . كذلك فإن المعمار قد حقق الموضوع الملائم للقراء الذين يقرأون القرآن الكريم عادة بشبابيك هذه القباب المشرفة على الشارع ، حيث شاعت هذه العادة فى العصر المملوكى حتى أن القارئ أخذ تسميته من هذه الشبابيك فسمى قارئ شباك . كذلك فإن وجود هذا الضريح فى هذا الموقع من المنشأة حقق رغبة الفقهاء فى أن لا يكون الضريح أمام مستقبل القبلة (١٣٨) . وتتكون مناطق انتقال القبة من ثلاثة صفوف من المقرنصات معقودة بعقد منكسر تتكون كل من الحطة الأولى والثانية من ثلاث حنيا ، أما الثالثة فمن أربع حنايا . وتعد مناطق الانتقال بذا التصميم امتدادا لما وجد فى قبة الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وفى قبة زين الدين يوسف ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة من أربع فتحات على هيئة مثلث ملئت بزخارف جصية وزجاج معشق . وتحتوى رقبة القبة على عشرين نافذة مفتوحة معقودة بعقد منكسر ، كما فى قبة زين الدين يوسف ، وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت من الخارج بكتابات جصية نسخية بديعة قرآنية (آيات ١٠١ - ١٣ من سورة الأنبياء) ، وقد اهتم المعمار بزخرفة ظاهر القبة بأسلوب التضييع (لوحة ١٥) ومن القباب الاجرية التى ازدانت وفقا لهذا الأسلوب قبتي أيدكين البندقدارى ٦٨٣هـ / ١٢٨٣م ، والصوابى حوالى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، وزين الدين يوسف ، وقراسنقر ، وعلى بدر الدين القرافى .

ضريح الجاولى (لوحة ٣) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الثانية بالجهة الشمالية الشرقية ، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابة قرآنية (آية ٢٦ - ٢٧ من سورة الرحمن) ، ثم وظيفة المنشأة واسم

المنشئ ووظيفته وألقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ / ١٢٠٣م (١٤٥) . ويشغل الضريح مساحة مربعة طول ضلعها ٦٤٧ر٦م أقل من مساحة ضريح سلار ، وبصدر الجدار الجنوبي الشرقى محراب حجرى (١٣٦) . وبالجهة الشمالية الشرقية الجنوبية الغربية دخلات على نفس نمط دخلات ضريح سلار . وبأعلى اركان مربع الضريح شريط من الكتابة النسخية الحجرية القرآنية (آيت ٢٨٤ - ٢٨٦ من سورة البقرة) . يتوسط مربع القبلة تركيبة خشبية . وبأعلى أركان المربع منطقة انتقال من ثلاث حطات من المقرنصات المعفودة بعقد منكسر تتكون كل حطة منها من خمس حنايا . وقد وجدت مناطق الانتقال بنفس الأسلوب فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية ، وقبة الاشرف خليل ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ، وقبة حسام الدين طرنتاى ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، وقبة فوارة جامع ابن طولون ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ، وقبة المدرسة الناصرية ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة مماثلة كتلك التى بضريح سلار .

أما رتبة القبة فتحتوى على أربع وعشرين نافذة معقودة بعقد منكسر ، الأمر الذى يتضح فى ضوءه أن نوافذ الرقاب لم تتبع نظاما واحدا من حيث عددها . وقد وجد هذا العدد من الفتحات فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية . وتعلو الرتبة القبة وهى من الاجر زخرفت رقبته من الخارج بكتابات جصية قرآنية (آية ١٣٥-١٣٦ من سورة آل عمران) ، وقد زخرفت القبة بأسلوب التضييع من الخارج (لوحة ١٦) .

القبة الثالثة الحجرية :

يتوصل اليها من خلال عقد بالنهاية الشمالية الغربية للممر ، وهى قبة صغيرة حجرية خالية من النقوش (لوحة ١٧) منطقة انتقالها من حطتين . وقد أشار الأستاذ حسن عبد الوهاب الى أنها تعد أقدم قبة حجرية باقية . وقد عرفت هذه القبة بقبة عبد الله الذاكر . ولعل المدفون فيها أيضا الأمير بشتاك ، المنقول اليها من الاسكندرية فى عام ٧٤٨هـ / ١٣٤١م (١٣٧) .

وجاء تخطيط هذه القبة من مساحة عريضة ، منطقة انتقالها من

حطتين من المقرنصات تتكون كل واحدة منها من ثلاث حنايا ذات عقود منكسرة .

خاتمة :

وبعد، فإننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألقت بعض الضوء على الأميرين علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار ، وعلى أعمالهما المعمارية . وقد تعرضت الدراسة لتاريخ سلار وصفاته منذ سلطنة الناصر محمد الثانية وحتى وفاته ٧١٠هـ / ١٣١٠م ، كما شملت أيضا أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية ونرقية خلال سلطنة الملك الناصر محمد الثانية وحتى وفاة سلار ٧١٠هـ / ١٣١٠م. كذلك شملت الدراسة أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية وترقيه خلال سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١م .

وقد شهدت دولة سلاطين المماليك وبخاصة بلاد الشام نهضة عمرانية عظيمة ، توجتها منشآت الأمير الجاولى الدينية والمدنية والحربية . ذلك أن هذه المنشآت تميزت بالروعة والفخامة ، وهو الأمر الذى شهد به المعاصرون مثل ابن بطوطة فى تحفة النظار والمقريزى فى خططه ، والقاضى مجير الدين الحنبلى فى الأئس الجليل .

ومن بين أعمال الأمير الجاولى بغزة الجامع البديع الذى يؤرخ تاريخ عمارته بعام ٧١٤هـ / ١٣١٤م . وكذلك كان من مآثر مدرسة الشافعية ، وبيمارستان ، وقصر للنيابة ، وحمام أنيق ، وخان للسبيل ، وميدان . ومن مآثر الجاولى ببلد الخليل أنه أنشأ جامعا ، كما شيد جامعا فى لد ، وخانا فى قاقون ، وخانا بقرية الكتيب ، وقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وهى عمائر وصفها المقريزى بأنها « ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة » .

كذلك ناقشت فى هذا البحث الآراء التى ترجح نسبة المنشأة التى اقترنت بالأميرين الجليلين الجاولى وسلار بالكبش الى الأمير سلار وانتهيت الى ترجيح نسبة المنشأة الى الأمير الجاولى .

ورجحت فى هذه الدراسة أن يكون الأمير الجاولى أنشأ هذه المنشأة لتكون مدرسة للشافعية يدرس بها الفقه الشافعى كما كان يدرس بمدرسته بغزة بجانب حضور وظيفة التصوف .

ولعلنا قد وفقنا فى الدراسة التحليلية الخاصة بهذه المنشأة ، لاسيما فيما يتعلق بواجهتها المطلة على الشارع العمومى (شارع مراسينا) وما احتوته هذه الواجهة من عناصر معمارية وزخرفية . هذا فضلا عن التخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية والمئذنة .

الهوامش

(١) وردت هذه الألقاب والكنى والتي تتمثل في « الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد » في المصادر التاريخية . انظر عن هذه الألقاب .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ج٢ ، ص ٢٦٦ . ابن تقي بردي الاتابكي (جمال الدين أبو المحاسن) : المنهل الصافي والمستوفى بعد الرافى ، تحقيق د . محمد أمين ، ج٦ ، ص ٧٤ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٢) عرف الأمير علم الدين سنجر بالفقيه الشافعى . وقد أورد ابن حبيب عنه ما نصه « سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وافتنى وصنف ، واجتمع بأهل العلم وأحسن اليهم » ، كما أورد المقرئ في خطه أنه سمع الحديث وروى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى وافتنى في آخر عمره على مذهب الشافعى . انظر : ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) : تذكرة النبى في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د . محمد أمين ، ج٣ (حوادث وتراجم ٧٤١ - ٧٧٠هـ / ١٣٤٠ - ١٣٦٨م) ص ٧٦ . المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن على) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئية) ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(٣) الملكى : بفتح اللام من ألقاب الملك وألقاب أتباعه المنسوبين اليه من الأمراء والوزراء ومن في معناهم ، وقد ورد هذا اللقب على لوحة تأسيسية تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد أيضا على لوحة تأسيسية كانت بجامعة الذى أنشأه بغزة . انظر : القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج٦ ، ص ٣٠ .

(٤) الناصرى : لم يرد هذا اللقب في المصادر التاريخية ، الا أنه وجد على اللوحة التأسيسية التي تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد هذا اللقب أيضا على اللوحة التأسيسية التي كانت بجامعة الذى أنشأه بغزة .

د . سعاد ماهر : مساجد مصر ، ج٣ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٥) لم يرد هذا اللقب في المصادر التاريخية ، الا أنه ورد في اللوحة التأسيسية التي تعلو مدخل ضريح الجاولى ، وقد خلت اللوحة التأسيسية لجامعة بغزة من هذا (مجلة المؤرخ العربى)

اللقب ، حيث جاء بها ما نصه « ٠٠٠ العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبدالله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة ٠٠٠ » .

سليم عرفات : المرجع السابق ، ٢٢٤ .

د سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) أمد : بكسر الميم بلد قديم حصين مشيد بالحجارة السود على نشر دجلة .
ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ج١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٧) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩٨ . ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٦٦ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٦ ، ص ٧٤ .

(٨) الكرك : بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى كلمة أعجمية ، اسم لقلعة حصينة فى طرف الشام من نواحي البلقاء فى جبالها بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهى على سن جبل عال تحيط به أودية الأمن جهة الربض .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٥١٤ .

الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعمار فى خير الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٤٨٣ .

(٩) الحوائج خاناه : معناها بيت الحوائج ، ومنها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب .

لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٢ .

(١٠) المثيرى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(١١) وردت هذه الألقاب فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريحه بما نصه « سيف الدين سلاّر نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصر المنصورى ، وهى نفس ألقاب الأمير الجاولى التى تقدم ذكرها » .

د سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٢) أمير شكار : هو لقب الأمير الذى يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد .

القلقشندى : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٦١ .

(١٣) ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٦ ، ص ٦ .

(١٤) مناظر الكيش : ذكرها المقرئى فاورد ما نصه ، هذه المناظر اثارها الان على جبل يشكر بحرار الجامع الطرلوني مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة زارون على الجبل الاعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون انشاها الملك الصالح نجم الدين فى اعوام بضع واربعين وستمائة .

(١٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن مغرى بردى : النجوم ، ج٨ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

استاذ دار : عرفت هذه الوظيفة بصيغ مختلفة منها استاذار ، واستاذ الدار ، ستدار ، واستاذ دار ، واستاذ الادب ، واستاذار .

مزيد من التفاصيل انظر : القلقشندي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢١ ، د . حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، ج١ ، ص ٣٩ - ٥٨ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(١٦) نيابة السلطنة : يعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والناشير وغير ذلك .

لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٧-١٨ .

(١٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢١٣ ، ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ج١ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ، الشوكاني (محمد بن على) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ص ٢٦٨ ، ابن مغرى بردى : النجوم ، ج٨ ، ص ١١٦ .

(١٨) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩٨ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ، ابن أيبك الدوادارى (أبى بكر بن عبد الله) : كنز الدبر وجامع الفرر ، تحقيق هانس روبرت روير ، ج٩ ، ص ١٠١ القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

(٢١) العيني (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م : عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان ، عصر سلاطين المالك - حوادث وتراجم ٦٩٩ - ٧٠٧هـ/١٢٩٩ - ١٣٠٧م ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، ج٤ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٢٣) طبخاناہ : لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل ، وهو أحد الدور الخاصة

بالسلطان تحفظ فيه الطبول والابواق وما يتعلق بها من الأدوات ، د . حسن الباشا :
الفنون الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ .

(٢٤) العيني : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٢٦ . ابن تغرى بردى : النجوم ،
ج٨ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٨١ - ٢٨٦ .

(٢٦) حمراء بيسان : بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة مدينة من جند
الأردن . وهى صغيرة بلا سور .

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ١٦٢ ، القلقشندى ، المصدر
السابق ، ج٤ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ٤-٦ .

(٢٩) الشوبك : بلدة صغيرة من جبل الشراه ، لها قلعة مشيدة من الحجر
الابيض على تل مرتفع مطل على الغور من شرقيه .

القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ١١ ، ١٦ - ١٩ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٠ .

(٣٣) السلارى : أورد المقرئى ان سلار استجد القباء الذى يعرف بالسلارى
وكان قبل ذلك يعرف ببغلوطاق .

المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٩ ، ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح
الشيتى ، ص ٤٣ - ٤٥ .

(٣٤) من عادة كل أمير ، كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هذاب
أو دواه أو بقجة أو فرنيسة ونحو ذلك ، يشطفة واحدة أو شطفتين بألوان مختلفة ،
كل أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك .

القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(١٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ١٩ - ٢٠ ، المنهل ، ج٦ ، ص ٧-٩ .

(٣٦) الرزق : مفردا رزقة وهى المخصصات التى كان يعطيها الخلفاء والملوك
والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية الى بعض الناس على سبيل
الاحسان والانعام . ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ٥٤ هامش ٦ ، د . محمد
محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢٧) ابن شاذان الكتبي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٧١ ، ابن تغري بردي :
النجوم ، ج٩ ، ص ٥٢ - ٥٤ .

(٢٨) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

شد الدواوين : موضوعها ان يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا فى استخلاص
الأموال وما فى معنى ذلك وعادتها امرة عشرة . القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ،
ص ٢٢ ، د . حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، ج٢ ،
ص ٦١١ - ٦١٣ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٢٩) الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس
بينهما مسيرة يوم . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤٠) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بينها وبين القدس عشرة فراسخ .
ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، الحميرى : المصدر السابق ،
ص ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٤١) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) القلقشندى : المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٩ .

(٤٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

D. Margoliouth S., : Cario; Jerusalem,
Damascus, London, 1907, P. 86.,

Meinecke (Michael) · Die Mamlukische Architektur in
Agypten und Syrien (648-1250 Bis 923-1517),
tell II, Verlag J.J. Augustin GMBH.
Glück stadt, 1992, p. 117, 122, 128.

(٤٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ص
٥٠ - ٥١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٥٠) القاضى مجير الدين (أبو اليمى عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت ٩٢٧ هـ :
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج١ ، ص ٥٨ .

حسين روى : المختصر فى جغرافية فلسطين ، ص ١٠٥ ، القدس ، الطبعة الاولى ، ١٢٤٢هـ/١٩٢٣م .

(٥١) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(٥٢) يقع هذا الجامع فى ناحية من حى النجارين (حارة الزيتون) وسبب تسميته بهذا الاسم غير معروف ، كما لا تتوافر معلومات عن منشئه .
محمود على خليل عطا الله : نيابة غزة فى العهد المملوكى ، ص ٢٢٨ .

(٥٣) سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ، البنايات الاثرية الاسلامية فى غزة وقطاعها ص ١٠٤ (لوحة ١١٢) . محمود خليل : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٥٤) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .
ومن الاوقاف التى وقفها الأمير الجاولى على جامعہ بغزة قرية سمسم .
سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٥٥) من الاوقاف التى وقفها الجاولى على هذا اليمارستان عن الملك الناصر محمد ملاقص ضمن اراضى بربر ، صميل عند عامورة ، قرية هربيا ، بطانى الشرقى ، قرية البها شرق غزة ، مزرعة تل العجول .
المرجع نفسه . ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٥٦) محمود على خليل : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٥٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

Meinecke (Michael) : Die Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٥٨) لد : بالضم والتشديد وهو جمع الد ، قرية بيت المقدس من نواحى فلسطين بالشام تنزل الرفاق الواصلة من الشام الى مصر والقافلة من مصر الى الشام وفيه كنيسة محكمة البناء واسعة الفناء .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٧ - ١٨ .

الحميرى : المصدر السابق ، ص ٥١٠ .

(٥٩) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين كانت رباطا للمسلمين .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨١ ، ابن أبيك الدوادارى :
المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٩٠ .

(٦٠) قانن : مدينة لطيفة غير مسورة بها جامع وحمام ، وقلعة لطيفة وشربها

ماء الابار . ياقوت الحموى : المصدر السابق . ج٤ ، ص ٢٢٩ . القلقشندى : المصدر السابق . ج٤ . ص ١٠٠ .

Meinecke (M.) : Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٦١) المقرئى : الخطط . ج٢ . ص ٢٩٨ .

(٦٢) ابن حبيب : المصدر السابق . ج٢ . ص ٥٤ .

(٦٣) المصدر نفسه . ص ٥٤ .

(٦٤) الروك : كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الارض وحصرها فى سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها . ويقولون راك البلاد يروكها أى فك زمامها .

ابن تغرى بردى : النجوم . ج٩ ، ص ٣٦ ، ٤٢ هامش ١ .

(٦٥) المقرئى : الخطط . ج٢ . ص ٢٩٨ . ابن حجر : المصدر السابق . ج٢ . ص ٢٦٧ .

(٦٦) ابن حبيب : المصدر السابق . ج٢ . ص ٧٥ - ٧٦ ، المقرئى : الخطط . ج٢ . ص ٢٩٨ .

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم . ج٩ . ص ٩٠ .

(٦٨) المقرئى : الخطط . ج٢ . ص ٢٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم . ج٩ . ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٦٩) حماد بالفتح مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضركبير فيه أسواق كثيرة وجامع مشرف على نهرها المعروف بالعاصى .

ياقوت الحموى : المصدر السابق . ج٢ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٧٠) نظر البيمارستان : يقول القلقشندى عند ذكره نظر البيمارستان « والمراد البيمارستان المنصورى الذى أنشأه المنصور قلاون بين القصرين » وهى من أجل الوظائف واعلاها . وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية » .

القلقشندى : المصدر السابق . ج٤ ، ص ٢٨ .

أنظر أيضا عن البيمارستان المنصورى .

د . محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة فى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط . يناير ١٩٨٠ ، ص ٨١ وما بعدها .

(٧١) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٠ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٧٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٥١ ، د . على محمود سليمان الملىجى : عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر . مخطوط رسالة ماجستير . كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، ص ١٢٩ - ٢٠٢ .

(٧٣) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ ، ٤٢١ .

Creswell (K.A.C.) : The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamlúks, Oxford, 1959, p. 245.

(٧٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، ص ١٢٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م ، د . سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٧٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٧٤ .

(٧٦) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .

(٧٨) ابن حجر : المصدر السابق ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ج٢ ، ص ٢٦٧ .

(٧٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٠ ، ص ١١٠ .

(٨٠) ابن اياس (محمد بن أحمد الحنفى) ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ .

(٨٢) ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٨٠٩هـ : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٦ ، ص ١٤٣ .

(٨٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٦٧ .

(٨٤) الكتبى (محمد بن شاکر بن أحمد) ت ٨٦٤هـ : فوات الوفیات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ج١ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٣ .

(٨٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٠ .

(٨٦) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٨٧) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(٨٨) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٨٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ٢١٧ .

- (٩٠) ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٦ ، ص ٦ - ٧ .
- (٩١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج١ ، ق ١ ، ص ٤٣٦ .
- (٩٢) ابن العماد : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٩ .
- (٩٣) الشوكانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .
- (٩٤) انظر عن الدارين :
- المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٦٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٦ ، ص ٧٥-٧٦ .
- (٩٥) الرحبة باسكان الحاء وفتحها الموضع الواسع وجمعها رحاب والرحاب كثيرة لا تتغير الا بان يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها او يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل وربما اتهدم بنبان وصار موضعه رحبة او دار او مسجد .
- المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٧ .
- (٩٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
- (٩٧) .ورد ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٢١هـ ان حريشا وقع بالقاهرة ومصر يزعم السبت خامس عشر جمادى الاولى ، وكان مما احترق فيه الربع الذى بالشوايين من اوقاف البيمارستان المنصورى ، ثم فى حارة الديلم قريبا من دار كريم الدين الكبير ، انظر مزيدا من التفاصيل فى :
- ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ٦٣ - ٦٦ .
- (٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٩ هامش ٢ .
- (٩٩) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٧١ .
- (١٠٠) السبكى (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، د . عبدالفتاح محمد الحلو ، ج ١٠ ، ص ٤١ .
- (١٠١) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٩٠ .
- (١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٩ ، ص ١٨ - ١٩ .
- (١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩٨ .
- (١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٦٧ .
- (١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .
- (١٠٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١١٠ .
- (١٠٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٣٦ .
- (١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ .

(١٠٨) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج٦ ، ص ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

(١٠٩) المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٢١ .

(١١٠) ابن العماد : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٤٢ .

(١١١) على باشا مبارك : الخطط ، ج٦ ، ص ١٤٢ .

وردت أيضا فى المراجع الاثرية باسم خانقاه . انظر د . سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٠ ، د . محمد حمزة اسماعيل الحداد العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة فى العصر المملوكى ، ص ٢٩٧ (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

شفيقة قرنى سيد : دراسة أثرية عمرانية لشارع الصليبية بالقاهرة حتى العصر الجركسى مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م . ص ١٠٠ - ١٠٥ .

(١١٢) على باشا مبارك : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٩٨٠م .

جزمار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة د . ايمن فؤاد سيد ، ص ٣٩٠ .

Devonshire (R.L.) : L' Egypte Muslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926, p. 89, Pl. XXI.

(١١٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(١١٤) غزة : بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتح ه . فى الاقليم الثالث طولها من جهة المغرب أربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وهى مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر .

المقدس : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ .

(١١٥) السبكى : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٤١ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(١١٧) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ق ٣ ، ص ٦٧٤ ، الخطط ، ج٢ ، ص ٦٥ . ٣٩٨ .

(١١٨) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٦٧ .

(١١٩) ابن تغرى بردى النجوم ، ج١٠ ، ص ١١٠ .

(١٢٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج١ ، ق ١ ، ص ٤٣٦ ، ٥٠٤ .

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٢ ، ص ١٢٨ .

(١٢٢) المقرئزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(١٢٣) ذكرها المقرئزى فقال « هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى الجاور للمنبر .. بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزىل .. المعروف بابن البقرى .. وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية » .

المقرئزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩١ .

(١٢٤) ذكرها المقرئزى فأورد « هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة انشاها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسى ثم الظاهرى .. وجعل بها درس فقه للحنفية » .

المقرئزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٠٠ .

(١٢٥) د . عادل شريف : النصوص التأسيسية على العماثر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآداب . جامعة أسيوط . ١٩٨٦م ، ص ٢٨٨ .

(١٢٦) أورد المقرئزى ان الأمير صرغتمش جعل هذه المدرسة وفقا على الفقهاء الحنفية . المقرئزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٠٤ ، د . حسن سيد جودة القصاص : المدرسة الصرغتمشية ، دراسة اثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجستير . كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٩٣٩٢ - ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، ص ١٣ .

(١٢٧) انشا هذه المدرسة الأمير علاء الدين طيبرس وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية . المقرئزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٨٣ .

لزيد من التفاصيل انظر . د . على سليمان اليجى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٨٥ .

(١٢٨) د . شاهنده فهمى : جوامع ومساجد (مخطوط رسالة دكتوراه) ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ .

(١٢٩) د . محمد سيف النصر أبو الفتوح : مداخل العماثر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية (من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م) ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٤٤ - ٤٧ .

(١٣٠) د . حسنى محمد نويصر ، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

Abuo Seif (D.) : Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press. P. 103.

(١٢١) تناولت فى رسالتى للدكتوراه هذه المئذنة بالدراسة الوصفية ثم بالدراسة التحليلية . انظر أيضا د . عبد الله كامل موسى عبده : تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية العصر المملوكى (دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى) ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ١٧٥ - ١٨٢ ، ٥٤٠ - ٦٢٦ .

(١٢٢) Creswell (K.A.C.) : The Evolution of the Minaret, Burlington, Magazine (Mars-Mai, Juin, 1926).

(١٢٣) د . سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٢٤) انظر عن هذا المحراب وزخارفه :

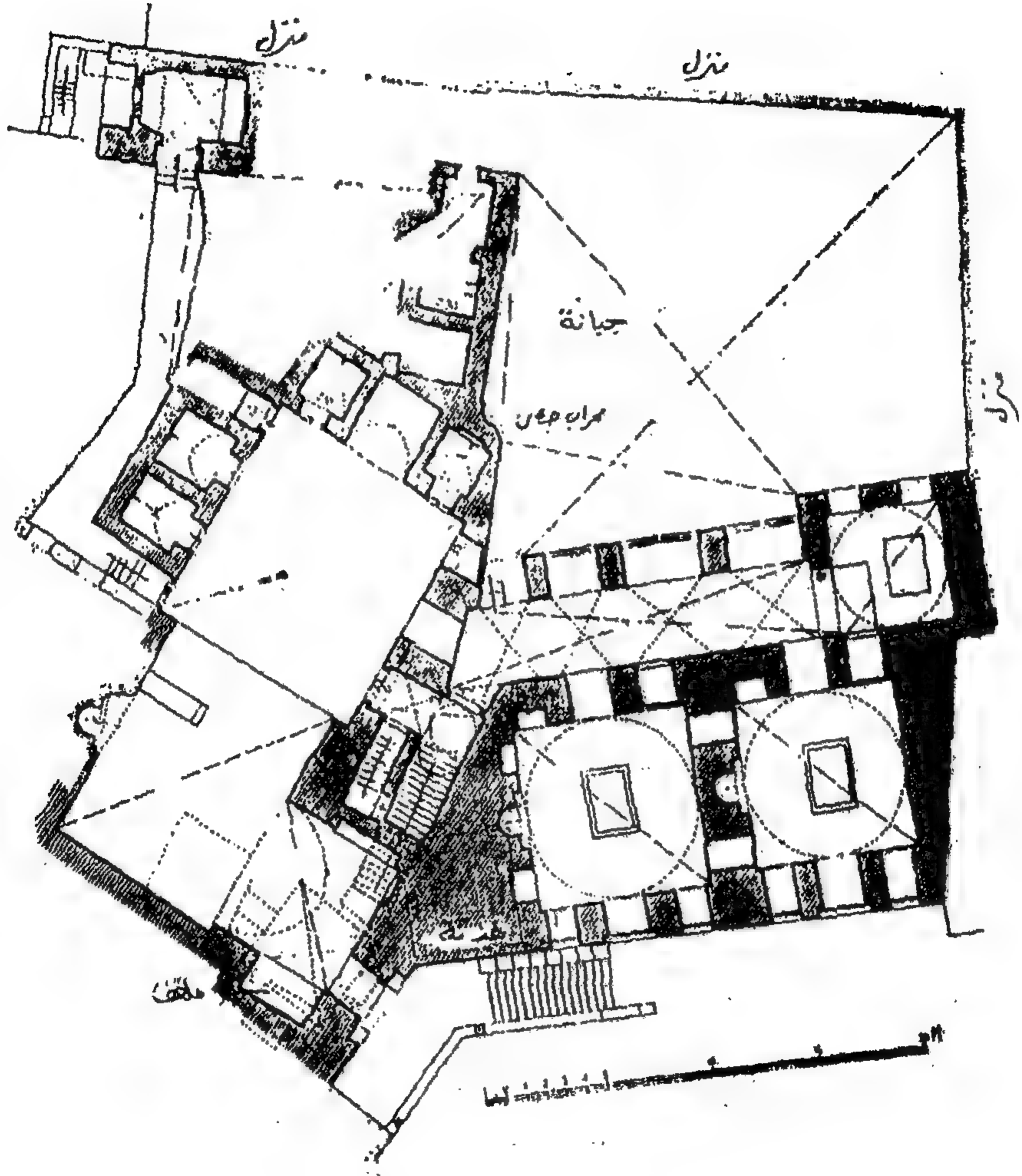
د . حسين مصطفى حسين : المحارب الرخامية فى القاهرة الماليك البحرية (دراسة أثرية فنية) ، مخطوط رسالة ماجستير/كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(١٢٥) د . محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر/١٩٧٩م ، ص ٣١١ .

د . محمد حمزة اسماعيل الحداد : القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، ص ٧٣ - ٧٥ .

(١٢٦) د . حسين مصطفى حسين : المحارب الرخامية (مخطوط رسالة ماجستير) ، ص ١٥٤ .

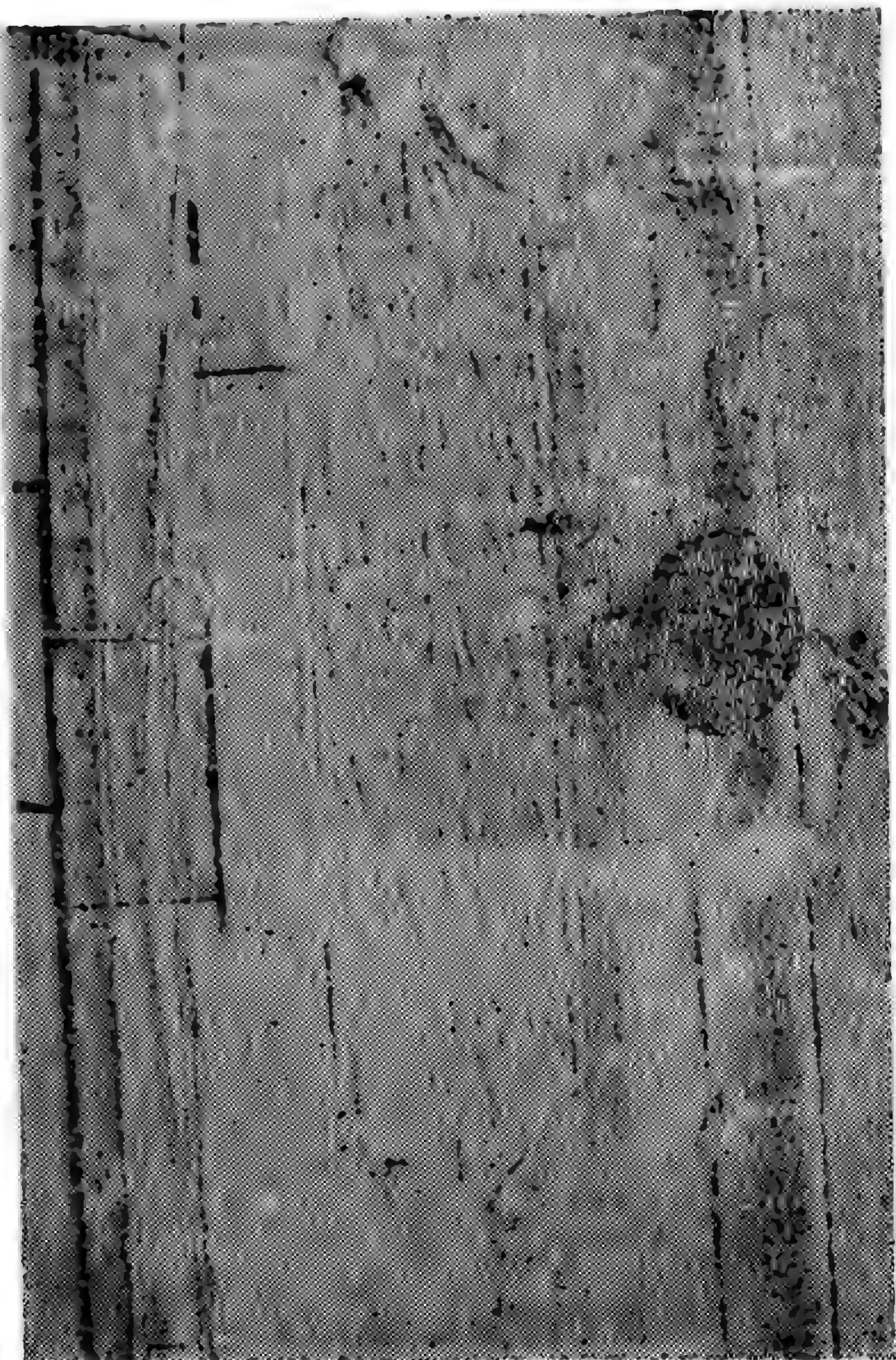
(١٢٧) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .



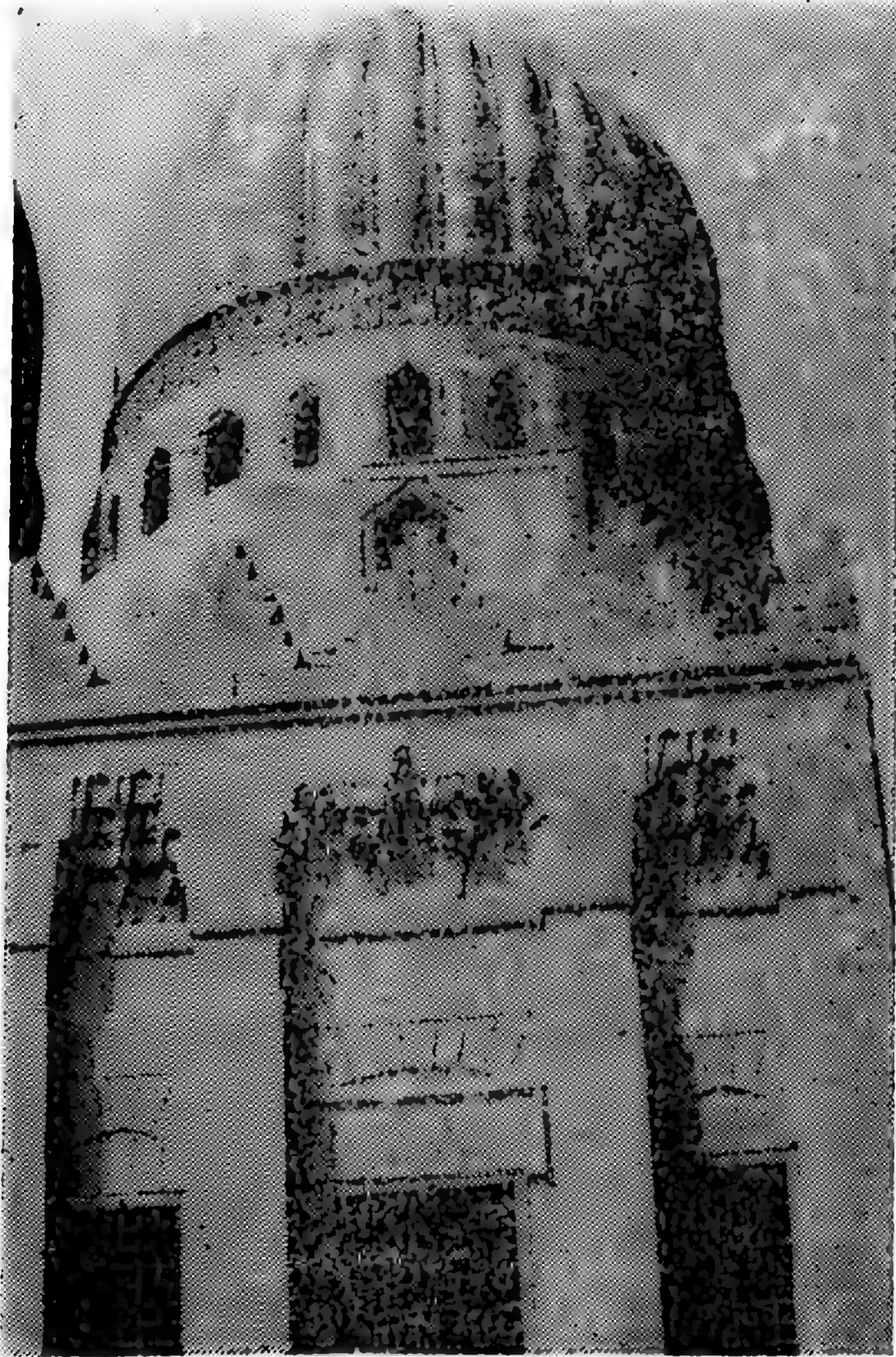
شكل (١) : المسقط الأفقي لمدرسة وخانقاه الجاولي . عن Creswell



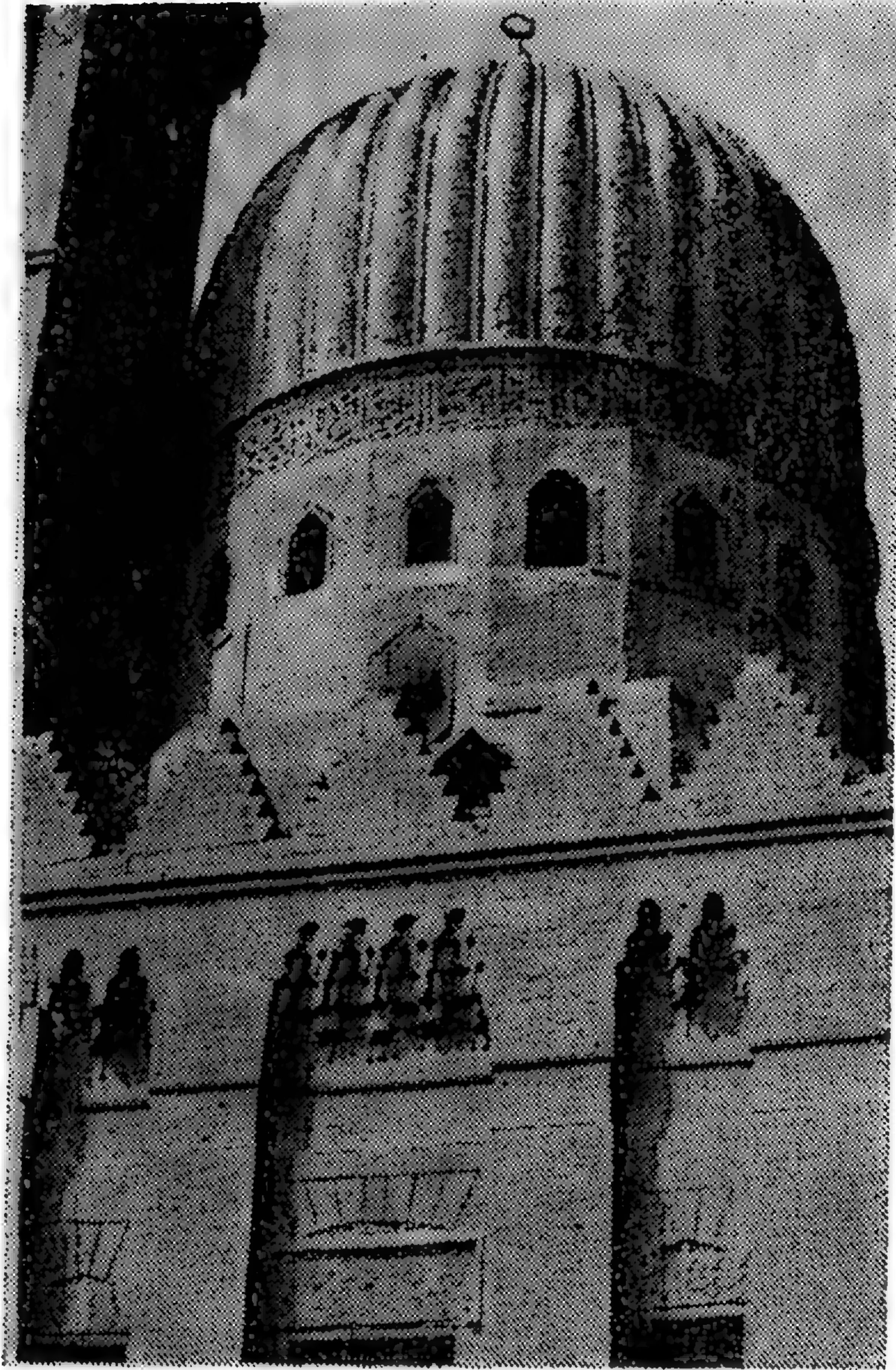
لوحة (١) : مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكيش



لوحة (٢) : اللص التأسيسي أعلى عتب المدخل العمومي



لوحة (٣) : دخلات واجهة ضريح الجاولى



لوحة (٤) : دخلات واجهة ضريح سلار

(مجلة المورخ العربى)



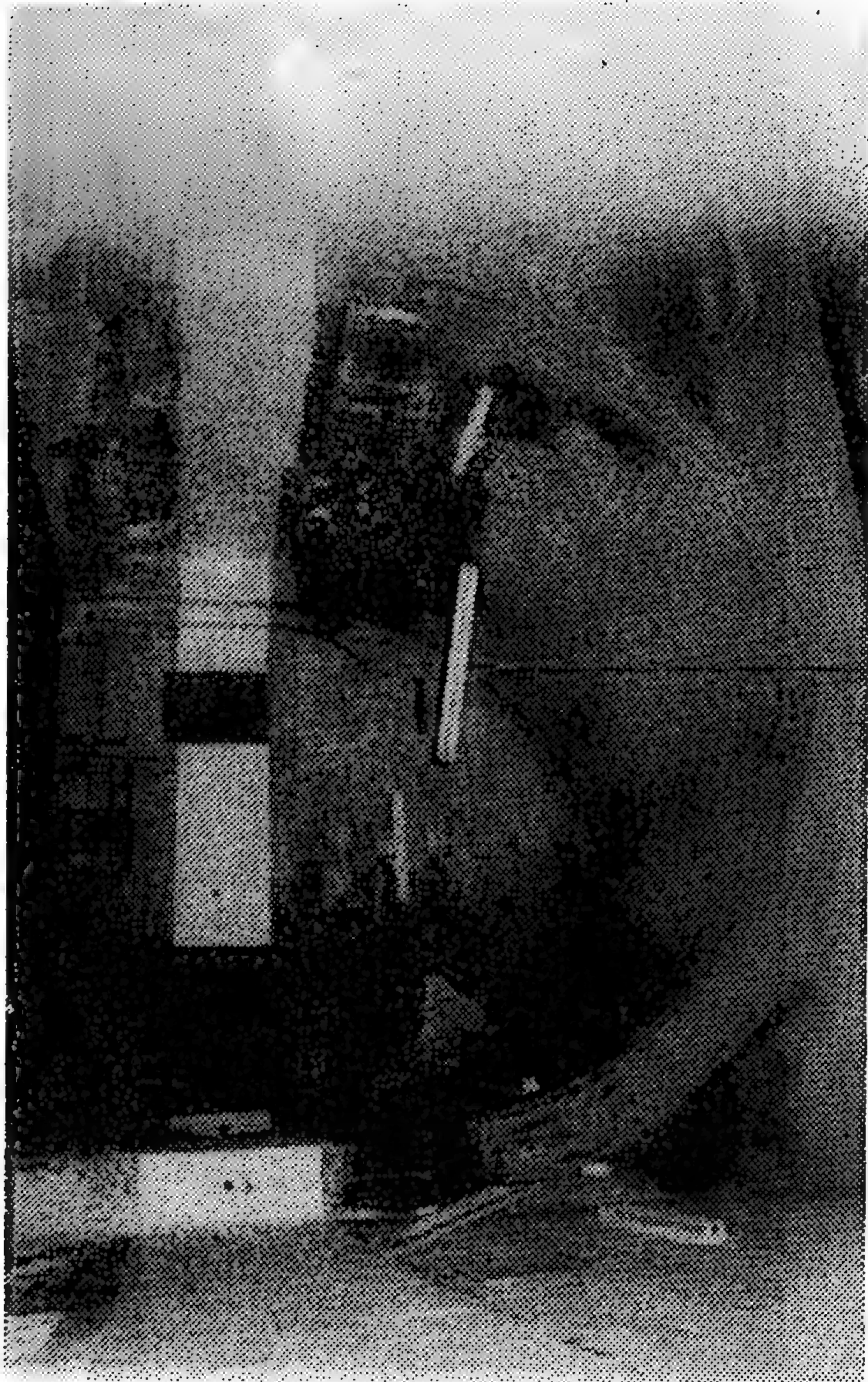
لوحة (٥) : الشرافات ذات الوريقات الثلاثية



لوحة (٦) : اوزير من متفلة جامع الحاكم بامر الله الفريسي



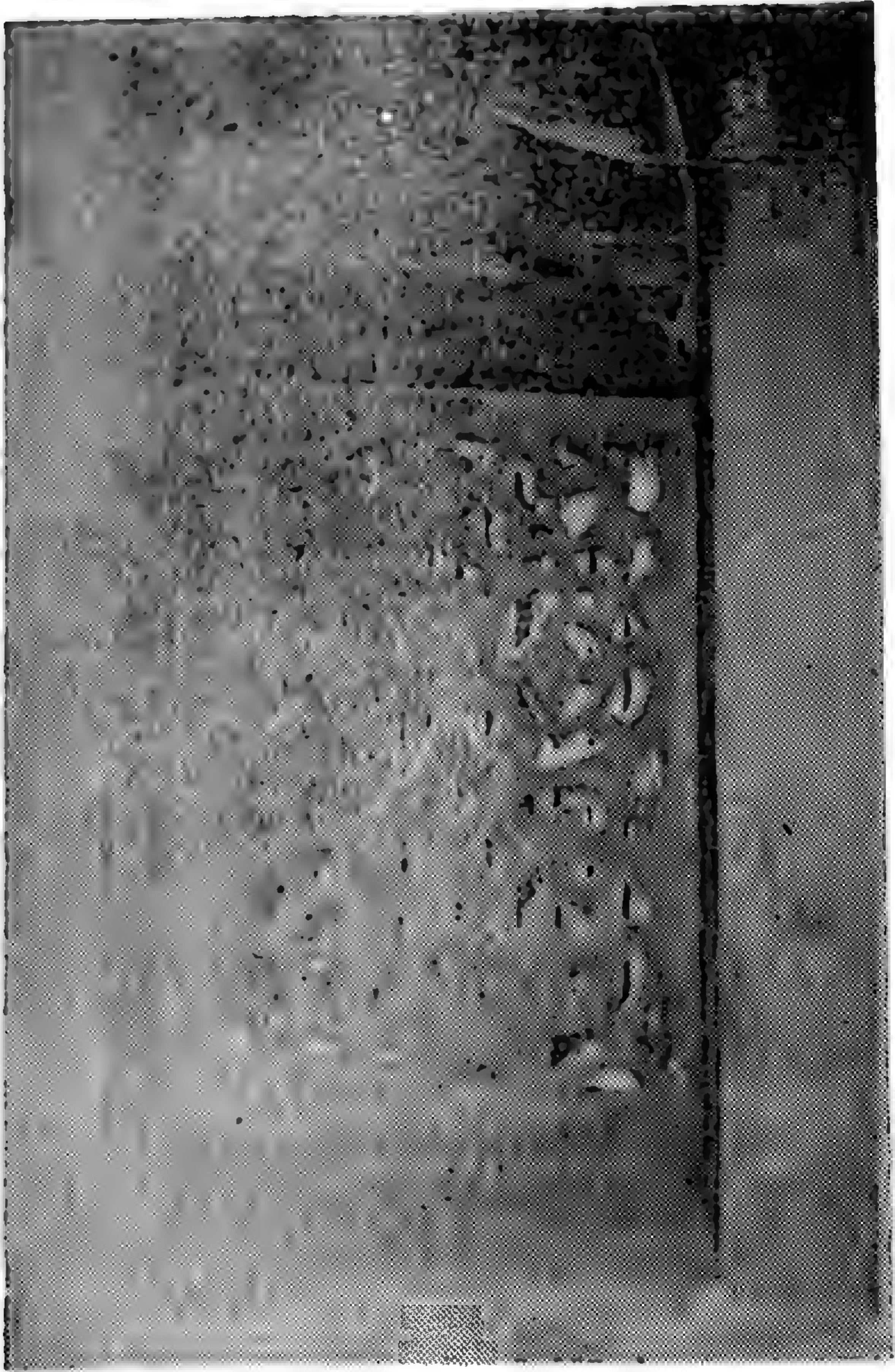
لوحة (٧) : المدخل العمومي لمدرسة وخانقاه الجاولى



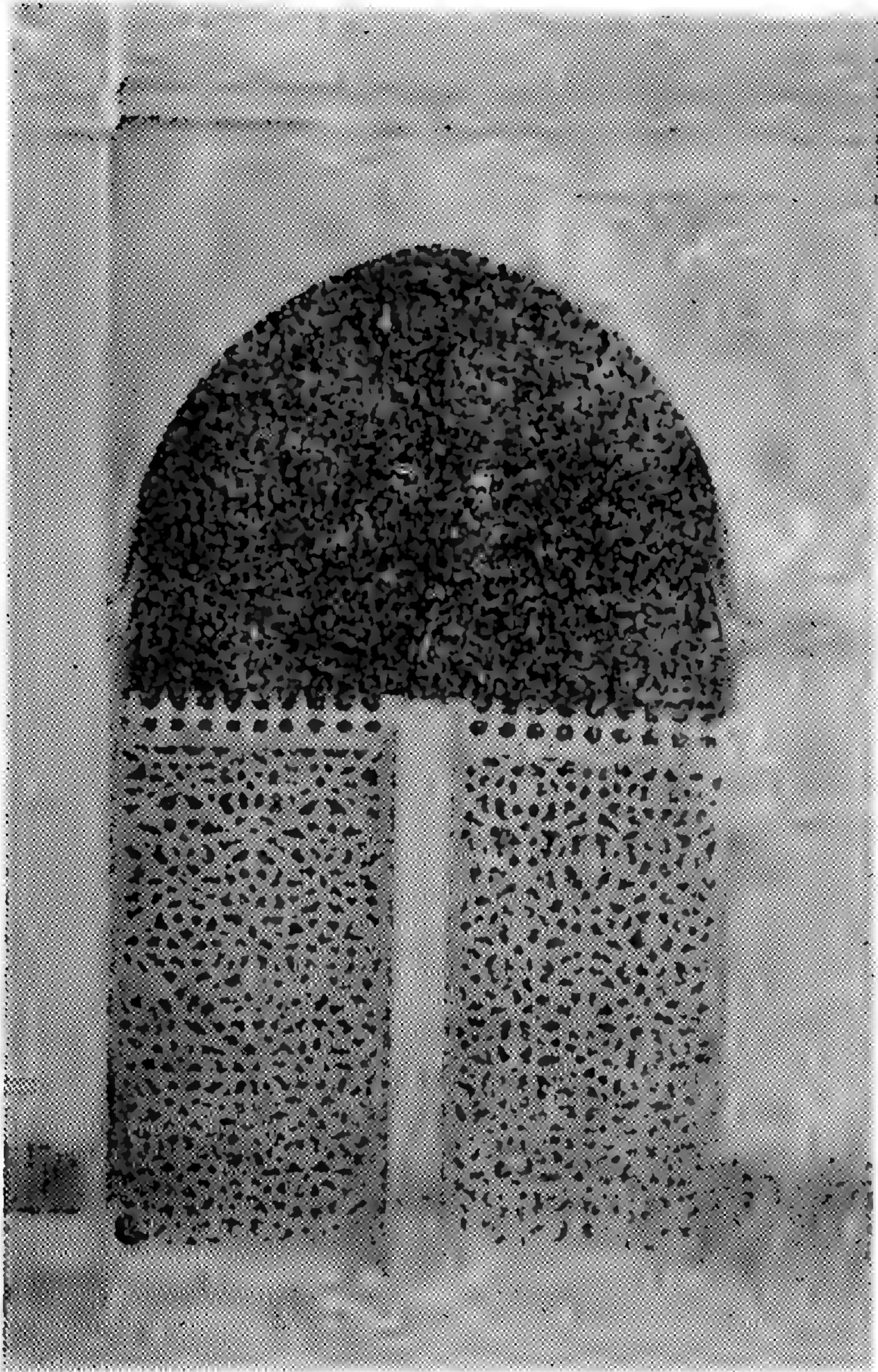
لوحة (٨) : دخلة داخل ايوان القبلة



لوحة (٩) : الايوان المقابل لايوان القبلية



لوحة (١٠) دخلة بالجهة الشمالية الغربية للصحن تزدان
بزخارف مفرغة في الحجر



لوحة (١١) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



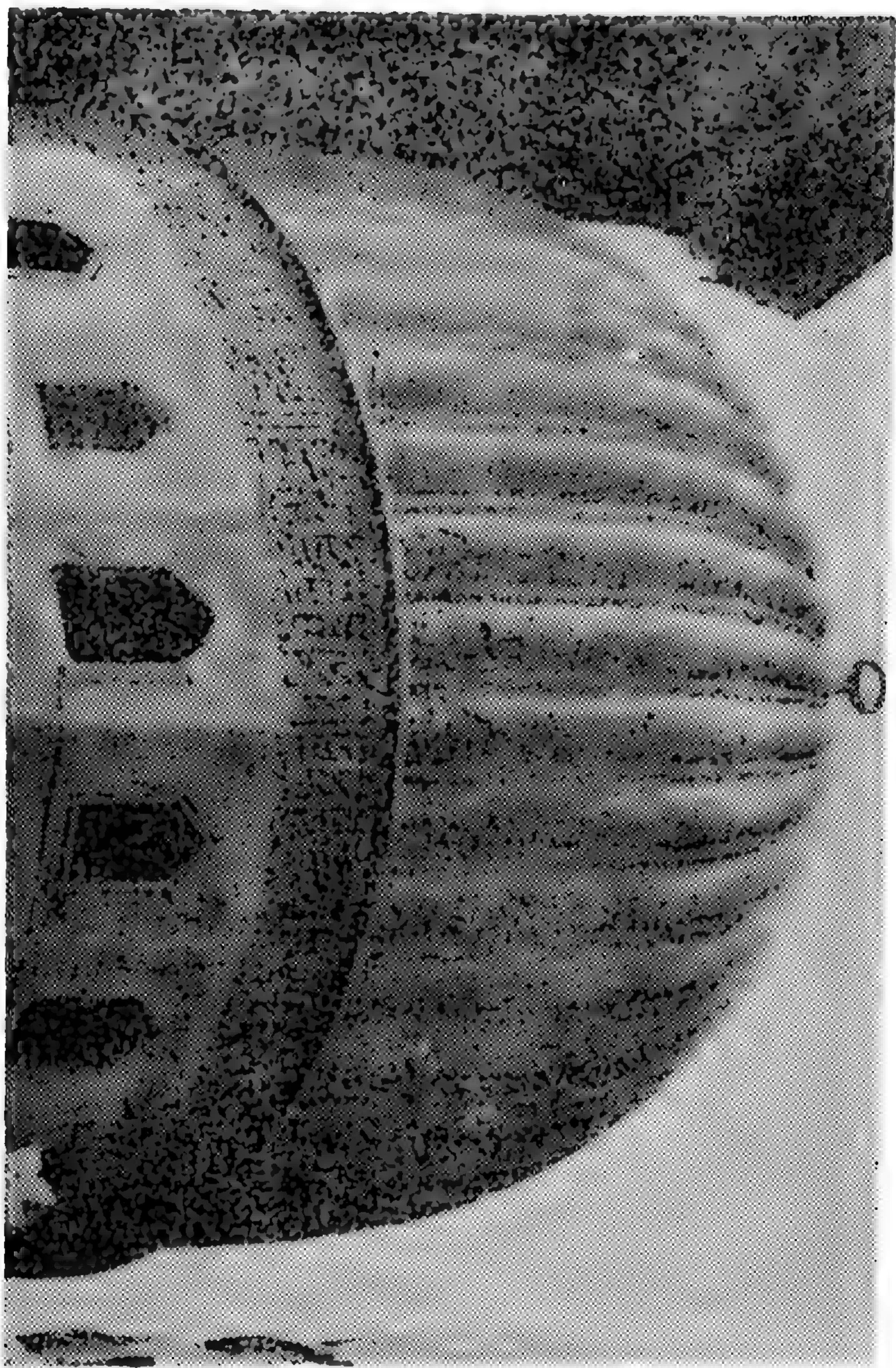
لوحة (١٢) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



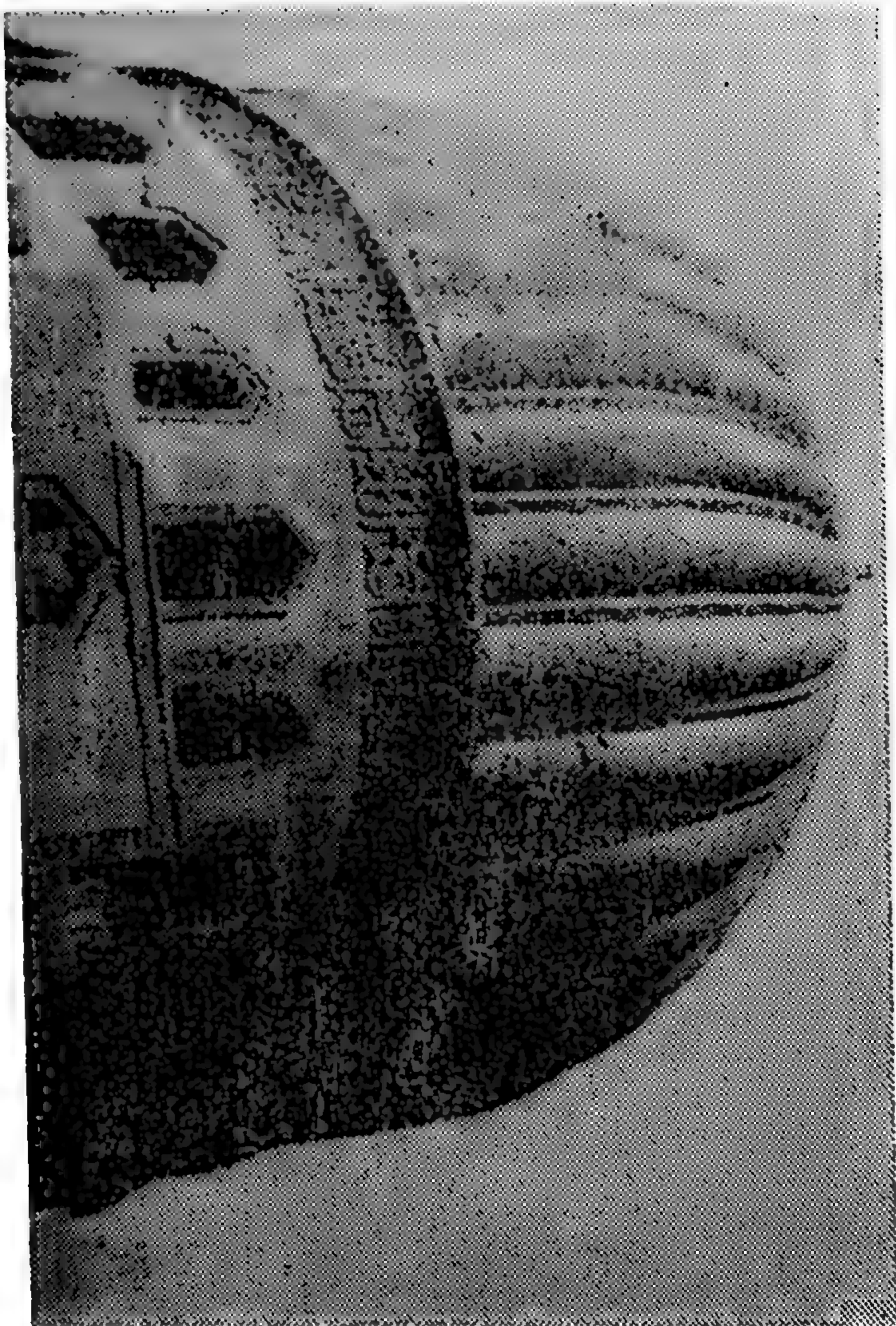
لوحة (١٣) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



لوحة (١٤) : مدخل مدرسة وخانقاه الجاولى جهة قلعة الكباش



لوحة (١٥) : تفصيل من قبة سلار



لوحة (١٦) : تفصيل من قبة الجاولى



لوحة (١٧) : القبة الثالثة الحجرية

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية المطبوعة :

- ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، خمسة
أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م :
تحفة النظائر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ،
١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤هـ /
١٤٧٠م :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ٦ أجزاء ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، ١٩٢١ - ١٩٧٢م .
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ،
١٩٨٥ - ١٩٩٠م .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م
تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د . محمد محمد أمين ،
٣ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جادالحق ،
٤ أجزاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
- ابن شاکر الکتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م :
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ج ١ ،
النهضة المصرية ، ١٩٥١م .
- ابن العماد (أبو الفتح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م :
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، ج ٦ ، بيروت - لبنان .

- ابن ابيك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس رويمر ، ج٩ ، القاهرة ،
١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .
- الحميرى (محمد عبد المنعم) :
الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ،
١٩٨٤م .
- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى)
ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م :
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمد الطناحى ،
عبد الفتاح محمد محمد الحلو ، ج١٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٣هـ/
١٩٩٢م .
- الشوكانى (محمد بن على) ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ .
- العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م :
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د . محمد محمد أمين ،
ج٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١هـ/١٤١٨م :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨م .
- مجير الدين الحنبلى (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى)
ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م :
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج١ ، القاهرة .
- المقدسى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .
- المقرئى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الاثار (المعروف بالخطط المقرئية) ،
جزآن الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، د.
سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٧٣م .

— يا قوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م :
معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ٦ أجزاء ،
بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

— د. أحمد فكرى :

مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، دار المعارف بمصر .

— ج. ج. ج. : وصف مدينة القاهرة ، ترجمة :

د. أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

— د. حسن الباشا :

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

— د. حسن سيد جودة القصاص :

المدرسة الصرغتمشية ، دراسة أثرية معمارية ، مخطوط رسالة
ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٢ - ١٢٩٣هـ / ١٩٧٣م

— د. حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة
الثانية ، ١٩٩٤م .

— د. حسنى محمد نويصر :

عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية (تاريخ المدارس فى
فى مصر الإسلامية - تاريخ المصريين (٥١) الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ١٩٩٢م .

(مجلة المؤرخ العربى)

- حسين روى :
المختصر فى جغرافية فلسطين ، القدس ، الطبعة الاولى ،
١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م .
- د . حسين مصطفى حسين :
المحاريب الرخامية فى القاهرة الممالك البحرية ، دراسة اثرية فنية ،
مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ /
١٩٨١م .
- د . سعاد ماهر محمد :
مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ، خمسة أجزاء ، المجلس الأعلى
للشئون الاسلامية وزارة الأوقاف بمصر .
- سليم عرفات المبيض :
غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .
البنائات الاثرية الاسلامية فى غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ١٩٩٥م .
- شاهنده فهمى كريم :
جوامع ومساجد امراء السلطان الناصر محمد بن قلاون ، مخطوط
رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- شفيقة قرنى سيد :
دراسة اثرية عمرانية لشارع الصليبية بالقاهرة حتى العصر الجركسى ،
مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ /
١٩٩٣م .
- د . عادل شريف :
النصوص التأسيسية على العماير الدينية المملوكية الباقية بمدينة
القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآداب - جامعة أسيوط ،
١٩٨٦م .
- د . عبد الله كامل موسى عبده :
تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية

العصر المملوكى ، دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

— على باشا مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة ، ج٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

— د. على محمود سليمان المليجى :
عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

— د. فريد شافعى :
العمارة العربية فى مصر الاسلامية (عصر الولاة) ، المجلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .

— ماير :
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

— د. محمد حمزة اسماعيل الحداد :
العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين (٥١)) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .
القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الاولى ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

— د. محمد سيف النصر أبو الفتوح :
منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، يناير ١٩٨٠م .

مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية ، (من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ / ١٣٨٢م) مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار .

- محمد الششتاوى سند :
متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، مخطوط
رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
- د . محمد عبد انستار عثمان :
نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ،
مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ،
ديسمبر ١٩٧٩م .
- د . محمد محمد أمين :
الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، دار النهضة العربية ،
القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م .
- محمود على خليل عطا الله :
نيابة غزة فى العهد المملوكى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ /
١٩٨٦م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Abou Seif (D.) :
▪ Islamic Architecture in Cairo, the American University in
Cairo Press.
- Creswell (K.A.C.) :
▪ The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early
Bahrite Mamluks, Oxford, 1959.
* The Evolution of the Minaret, Burlington, Magazine (Mars,
Mai, Juin, 1926).
- Devonchire (R.L.) :
* L' Egypte Mauslmane et les Fondateurs des ses monuments,
Paris, 1926.
- D. Margoliouth. S., :
* Cairo, Jeursalem, Damascus, London, 1907.
- Meinecke (Michael) :
* Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrin (648-
1250 Bis 923 - 1517), tell 11,
Verlag J.J. Augustin G.m BH. Gluck stadt, 1992.

باب عرض الكتب (*)

نعرض فى هذا العدد خمسة كتب اصدرها بعض أعضاء الاتحاد
هذا العام ، وأمدوا الاتحاد بنسخ منها للتعريف بها . وهذه الكتب هى :

أولا :

تاريخ المغرب العربى - الجزء الرابع [المرابطون : صنهاجة
الصحراء المثلثون فى المغرب والسودان والأندلس] .

كتاب صدر عن منشأة المعارف بالاسكندرية ، تأليف الأستاذ الدكتور
سعد زغلول عبد الحميد . الكتاب صدر عام (١٩٩٥م) ، يقع فى أربعمئة
وعشرين صفحة ، عدا فهرس المصادر والمراجع وكشافات الاسماء
ونحوها .

مؤلف الكتاب غنى عن التعريف ، فهو الأستاذ الدكتور المؤرخ سعد
زغلول عبد الحميد الأستاذ المتفرغ حاليا بكلية الآداب بجامعة
الاسكندرية ، وعميد كلية الآداب ورئيس قسم التاريخ وأستاذ التاريخ
الاسلامى بنفس الكلية والجامعة سابقا .

والكتاب أيضا غنى عن التعريف ، فقد سبق إصدار ثلاثة أجزاء
منه ، وهذا هو الجزء الرابع الذى يعالج فيه الباحث موضوع المرابطين ،
من بربر صنهاجة المثلثين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء
والسودان والأندلس . والموضوع - كما يبدو - صعب ، تتعطش المكتبة
العربية اليه ، حيث تشكو من جذب واضح فيه . وربما نجم ذلك عن
صعوبة الموضوع ووعورة مسالكه وخلو بعض حلقاته من المصادر خلوا
واضحا . ولكن الأستاذ الدكتور المؤلف استطاع أن يروى ظمأ المتعطشين
اليه ، فقدم لهم جرعة - لا نقول مسكنة وانما شافية - فى الموضوع، وبذلك

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد
فى العام السابق مباشرة .

قدم للمشتغلين فى حقل التاريخ الاسلامى عملا سد به فعلا فراغا ملموسا فى التاريخ . وجاء ذلك على حساب جهد كبير شاق بذله الباحث وتبدو صورته فى كل صفحة بل فى كل سطر من صفحات الكتاب واسطره .

لقد مهد المؤلف لدراسته عن المرابطين بعدة فصول عن طبيعة البلاد وبنائها البشرى ، وفبائل الملتمين بالصحراء الكبرى ، ثم عن صورة الصحراء - أو كما اسمها خريطة الصحراء - الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى .

وبأسلوب قويم ومنهج علمى راسخ الجذور ، أخذ الباحث ينتقل من فصل الى آخر من فصول الكتاب ، فتعرض لحركة التجديد الثقافية التى شهدتها صحراء الملتمين ، ثم عن القواعد التأسيسية والسياسية التى قامت عليها دولة المرابطين ، وانتقل من ذلك الى يوسف بن تاشفين ودوره فى استكمال فتوح المغرب الشمالية من ناحية ونشاطه على ساحة الأندلس حيث دارت رحى حرب الاسترداد من ناحية أخرى . وهكذا حتى كان عهد على بن يوسف بن تاشفين ، وبلوغ دولة المرابطين الذروة تمهيدا لبداية الانحلال والتدهور .

والمؤلف فى علاجه للموضوع لا يقف عند حد السرد ، وانما يحرص على التعليل والمقارنة والنقد والربط بين المصادر المعاصرة من جهة والمراجع الحديثة - أوربية وغير أوربية - من جهة أخرى . هذا الى أنه زود هذه الدراسة الثمينة بعدد كبير من الخرائط والكشافات ، وبذلك مهد الطريق أمام الباحثين للوقوف على صورة مكتملة لحلقة ظلت شبه مفقودة من حلقات التاريخ الاسلامى .

ثانيا : المتصوفة فى المغرب الأقصى - فى عصر المرابطين والموحدين
(٤٥٤ - ٦٦٨ هـ = ١٠٦٢ - ١٦٢٩ م)

كتاب فى مائة وسبعين صفحة ، تأليف الدكتور حسين سيد عبد الله مراد عضو هيئة التدريس بمعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة .

والكتاب يحمل تاريخ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ورقم ايداع ١١٥٢٨/٩٤ .
والباحث كما هو واضح يعرض لموضوع له أهميته الدينية والفكرية والاجتماعية ، حيث إن التصوف ظاهرة لها جذورها الدينية من جهة وآثارها الحضارية والاجتماعية بوجه خاص من ناحية أخرى .

ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة تقوى وتشتد عندما يحس الفرد أو المجتمع بحاجته الى الرجوع الى الله للخلاص من أزمة يمر بها . وكان هذا هو الاتجاه الذى ساعد على اشتداد تيار التصوف فى المغرب الاسلامى على عصرى المرابطين والموحدين ، بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السابع للهجرة ، عندما ساءت أحوال المسلمين فى المغرب والأندلس وأحسوا بضعفهم أمام ضربات القوى المسيحية فى شمال الأندلس وغرب حوض البحر المتوسط .

وقد عالج الباحث هذه الظاهرة فى اطار منهج علمى سليم ، فمهد لموضوع بحثه بمقدمة عرف فيها التصوف ، ثم قسم دراسته الى خمسة فصول استهلها بمحاولة للوقوف على عوامل انتشار التصوف فى المغرب الاسلامى ، وانتقل من ذلك الى الكشف عن دور المتصوفة فى الحياة السياسية من جهة وفى حركة الجهاد ضد الأسباب من ناحية أخرى . وبعد أن تكلم عن انتشار ظاهرة التصوف فى المغرب العربى ، تطرق الى أثر التصوف فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وتضمن ذلك لقاء الضوء على الدور الاجتماعى للمنصوفة ، ونصيب المرأة فى حركة التصوف ، ومكانه الصوفية فى المجتمع . وكان من الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن يتطرق الباحث لأوجه النشاط الحضارى لحركة التصوف فى المغرب ، فقدم عرضا طيبا لدور المتصوفة فى النشاط الاقتصادى والحياتين الدينية والفكرية . وبعد خاتمة لخص فيها الباحث ما توصل اليه فى بحثه ، أورد عددا من الخرائط والفهارس وقائمة المصادر والمراجع التى استعان بها فى البحث .

والكتاب فى مجموعة يعبر عن دراسة علمية جادة تستحق التقدير .

ثالثا : تأسيس مملكة البرتغال .

كتاب فى نحو مائتين وستين صفحة ، صدر عن مؤسسة عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية بالقاهرة .

تأليف دكتور محمد محمود النشار - مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة طنطا .

يعالج الباحث فى هذا الكتاب موضوع السياسة الخارجية لآلفونسو هنريكز ملك البرتغال (١١٢٨ - ١١٨٥م) . وقد يبدو الموضوع فى ظاهره أكثر ارتباطا بالتاريخ الأوربى ، ولكن الباحث أعطى أهمية خاصة لعلاقة ملك البرتغال بدولة المرابطين من ناحية ثم بالموحدين من ناحية أخرى ، وذلك بعد أن تكلم فى الفصلين الأول والثانى من كتابه عن الأوضاع السياسية فى دولة البرتغال فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر وكذلك علاقة الملك ألفونسو هنريكز بملوك قشتالة وليون والبابوية .

والدراسة فى مجموعها تتصف بالعمق ، تلقى أضواء على جوانب لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة البرتغال بالمرابطين والموحدين . وقد عالج الباحث هذه العلاقة فى ضوء التيار الصليبي الذى جرف عديدا من قوى الغرب الأوربى ضد المسلمين فى ذلك الدور . وزود الباحث دراسته بعدد من الملاحق التى تشتمل على وثائق وجداول ، بذل جهدا واضحا فى نقلها الى العربية . هذا فضلا عن الكشافات والفهارس وقائمة المصادر والمراجع .

والحق ان الكتاب يعبر عن اضافة جديدة للمكتبة العربية .

رابعا : الزط ، والأصول الأولى لتاريخ الغجر .

كتاب صدر فى القاهرة فى مائة وثلاثين صفحة ، يحمل رقم الايداع ٩٤/١١٥٢٩ (١٤١٥هـ) تأليف دكتور عبادة عبد الرحمن كحيله أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

يتعرض الباحث فى ها الكتاب لأصل جماعة لعبت دورا كبيرا فى

تاريخ العالم - سياسيا واجتماعيا واقتصاديا - ومع ذلك مازال الغموض يحيط بجذورها الحقيقية . ومن العوامل التى تجعل دراسة تاريخ الفجر من الصعوبة بمكان ، أنهم ظلوا محتفظين عبر القرون بكيانهم شبه المستقل دون أن يذوبوا فى المجتمعات التى احتكوا بها أو عاشوا على هوامشها . ومع احتفاظهم بخصائصهم لم تكن لهم لغة مكتوبة خاصة بهم ، وبالتالي لم يعنوا بكتابة تاريخ لهم .

وفى قلب هذه التيارات والأمواج المتلاطمة ، أقحم الباحث نفسه محاولا الوصول الى الجذور الحقيقية لجماعات الفجر ، وتتبع خصائصهم وأوجه نشاطهم ، وأحوالهم الاجتماعية ومكانتهم فى المجتمع البشرى الكبير . وقد نجح الباحث فعلا فى الكشف عن كثير من هذه الحقائق بفضل ما تحمله من جهد فى البحث فى أعماق العديد من المصادر والمراجع العربية والأوربية ، وبذلك قدم للتاريخ شيئا جديدا يجمع بين طرافة الموضوع وجدية المنهج .

خامسا :

دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد

كتاب فى مائة وخمسين صفحة ، بما فيها قائمة المصادر والمراجع والفهارس . الكتاب تأليف دكتور فهمى توفيق مقبل ، الأستاذ المساعد بكلية التربية - جامعة الملك فيصل ، صدر الكتاب عن دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، ويحمل رقم الايداع ٧٢٦٥ لسنة ١٩٩٤ .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف النصف الثانى للكرة الأرضية . وفيه ألقى المؤلف أضواء ساطعة ، وكشف عن حقائق جديدة تتعلق بالجهود الرائدة التى بذلها العرب فى مجال الملاحة البحرية بوجه عام ، والملاحة فى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسى بوجه خاص ، حتى كان لهم شرف السبق فى اكتشاف العالم الجديد . وبأسلوب علمى متزن ، وفى إطار منهج سليم ، أثبت الباحث أن كولومبس اعتمد على الخرائط التى وضعها العرب ، وعلى

الأجهزة التي استخدموها في عالم البحار • وتطرق المؤلف خلال دراسته الى اثر الفكر الجغرافى - العربى الاسلامى - فى أوربا ، وكيف أقبل الأوروبيون فى صحتهم فى فجر العصور الحديثة على ترجمة والتقاط ما توصل اليها العرب من نتائج وما حققوه من انجازات علمية ، بنوا عليها معارفهم ومكنتهم من الوصول الى ما وصلوا اليه على طريق نهضتهم الحديثة •

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية جادة جدرة بالتقدير •

رقم الايداع ٦٥٤٩ / لسنة ١٩٩٤

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 4

March, 1996

Cairo - Egypt



Bibliotheca Alexandrina



0673071

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربي

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ١٩٩٩

المجلد الأول

لعدد السابع

اتحاد المؤرخين

العرب

بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السابع - المجلد الأول

مارس ١٩٩٩

هيئة التحرير :

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس الاتحاد

أ. د. حسنين محمد ربيع

أ. د. سليمان إبراهيم العسكرى

أ. د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

أ. د. سهيل محمد زكار

أ. د. مصطفى محمد رمضان

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتاً سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانيات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة التسلسل الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٩

في هذا العدد

- كلمة الافتتاح
رئيس التحرير
- الرواية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ
د. صلاح الدين عاوير
- النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ
د. حسن الشريف
- الخليج العربى : الموقع والأهمية خلال العصر البرونزى الحديث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق.م)
د. علاء الدين عبد المحسن شاهين
- التقاويم السبئية فى ضوء نقش حميرى جديد
أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى (رؤية نقدية)
أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى
- الاستعراضات العسكرية - عند الرسول ﷺ وأساليبها
د. عبد العزيز بن عبد الله السلومى

- العباسيون والأمويون (دراسة فى العلاقات بين البيتين ١١ - ١٢٥ هـ)
د. محمد بن ربيع بن هادى مدخلى
- المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم)
د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح
- المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السلفى فى تأليف كتابه (معجم السفر)
د. هشام عطية عطية أحمد
- عمران سبتة كما شاهده ووصفه الأنصارى السبتى
د. كمال عنانى إسماعيل
- علم الجراحة فى الأندلس
د. حنان عبد الفتاح مطاوع
- ابن أبى طى : مؤرخاً وأديباً
أ. د. محمد زيود
- موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل فى ضوء وثائق الخارجية المصرية
د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى
- عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية
د. محمد مرسى عبد الله
- سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين فى الحرب العالمية الأولى
د. وجيه عبد الصادق عتيق

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

إنسان الماضي هو إنسان الحاضر ، خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ،
وصوره فأحسن صورته . والحسن هنا لا يقتصر على تناسق الأعضاء وجمال
الصورة ... وإنما يمتد إلى الجوهر ليشمل وظائف هذه الأعضاء ، وتكاملها ،
وخطورة مهامها ، وقدرتها على تكيف حياة البشر ، وفق طبيعة الزمان والمكان .
فالقلب هو القلب على تعاقب الأزمنة والعصور ، يحب ويكره . والعقل يفكر
ويتدبر ، ويحذر ويهذى . والحواس تربط الإنسان بالمحيط الخارجى ، ليتفاعل معه ،
يتأثر به ويؤثر فيه ... وهكذا تعاقبت العصور ، وظل الإنسان على ما خلق عليه ،
فى صورته وبنيته ، وقدراته ، وأسلوبه فى مواجهة حوادث الدهور . ربما تعرض
بسبب انتشاره فى بيئات متباينة ، وما صاحب ذلك من تعدد السلالات ، لتباين
فى الفروع ، هذه سلالة فى إقليم معين غلبت عليها الشقرة ، وهذه أخرى فى
إقليم ثان غلبت عليها السمرة . هذه سلالة تتميز بطول القامة ، وهذه أخرى
تتصف بالقصر ... ولكن مثل هذه الفوارق تكون فى الظاهر لا فى الباطن ، أو
بمعنى آخر فى القشرة الخارجية وليست فى جوهر البناء . وفيما عدا ذلك يبقى
الإنسان على نفس الصورة التى اختارها الله - عز وجل - له ﴿ فى أى صورة ما
شاء ركبك ﴾ .

ومهما تباينت نظرة الإنسان إلى الحياة على مر العصور ، وذلك تبعاً
لاختلاف الأجواء والظروف التى تحيط به فى كل عصر ، مما يؤثر فى سلوكه ،
والأسلوب الذى يمارس به حياته ، ويعالج به أوضاعه ... فإن الإنسان يظل هو
الإنسان - بفكره ، وطاقاته وإمكاناته ، وقدراته على مواجهة ما يصادفه من

صعاب . ومن هنا تنبع أهمية تجارب الماضي فى مواجهة مشاكل الحاضر . وبعبارة أخرى تنبع أهمية التاريخ كمدرسة عليا يستمد الإنسان من تجاربها الكثير مما يعينه على تخطى ما يواجهه من أزمات . وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتطابق ، لأن لكل عصر أجواءه ومستوياته الحضارية ؛ فإنها لا بد وأن تتشابه ، لأن الإنسان الذى صنع الماضى هو نفس الإنسان الذى يصنع الحاضر . هناك تباين فى المظهر ولكن لا خلاف فى الجوهر .

وهكذا يبدو التاريخ فى صورة مدرسة كبرى ، مليئة بالتجارب التى تصقل فكر الإنسان ، وتأخذ بيده ، وترشده فى مسيرته الكبرى لبناء حاضر أفضل والتخطيط لمستقبل أقوم .

لقد صدق السلطان الظاهر بيبرس عندما قال : « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وصدق معاصره ابن خلدون الملقب « علامة الأمة وإمام الأئمة » عندما سجل فى مقدمته الخالدة إن التاريخ « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم : حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاهور (*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس ، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب - الجامعة الإسلامية - غزة .

وتاريخ العصر : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصياً أو كانوا شهود عيان لها (١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقاً أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع « الشفاهية المتطورة » التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر ، حيث تُحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيراً من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية (٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتماماً ثابتاً ودائماً بالموضوع (٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادر شفوية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحاً للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءاً على السمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهي افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحاً - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضي - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلاً بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهي يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانياً : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهي كخيار ديمقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضاً دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة (٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدرّكه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جداً من الوعى ، قبل أن تظهر الكتابة بزمان طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غنى بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، فى صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهى دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسى على الروايات الشفوية التى تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أى نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش.

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوى للإغريق ونظّمه فى ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليونانى هيروdotus « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخاً عالمياً .

كذلك نحا المؤرخ اليونانى توسيديدس فى كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيروdotus فكتب تاريخاً للحرب البلبونيزية التى عاصرها معتمداً على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيروdotus وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوى .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسى « الفارسى » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائى باللغة الفارسية ، وذلك فى القرن الحادى عشر ، وهى التى عُرفت بالشاهنامه « بطولة الملوك » معتمداً فى ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوى .

وهكذا كان للتاريخ الشفوي مصداقية واعتبار كمصدر للتاريخ ، وكان دائماً يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السادس عشر فصاعداً أن أخذ الإحساس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سيطرة النصية على عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً في حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولما كانت النقلة من الكلام الشفاهي إلى الكلام المكتوب في جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئي . فإن تأثيرات الطباعة هنا على استخدام الفراغ المرئي يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تُبرز هذه البؤرة العلاقة بين الطباعة والكتابة فحسب بل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التي لا تزال باقية في الكتابة ، وفي ثقافة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شفاهية الأصل فوضعتها في الفراغ المرئي . أما الطباعة فقد رسخت الكلمة في هذا الفراغ على نحو أكثر حسماً .

فالتباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم في نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمال ، وهذا الإحساس يؤثر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلي التاريخي .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية في التاريخ العربي والإسلامي دوراً مميزاً ، حيث نشأ علم التاريخ على هامش العلوم الشرعية وفي مقدمتها علم الحديث ، واعتمد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهي الإسناد والجرح والتعديل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقول أن منهج التاريخ الشفوي هو منهج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ شفاهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بين القبائل المختلفة التي سُميت بأيام العرب ، والأنساب ، والتفاخر بها ، وقصص الكرم وسيرة الملوك ، وغير ذلك من الأمور ، والتي كانت تتسم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علم التاريخ ، حيث أن كثيراً من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير في العصر الأموي (٥) إذ كان معاوية بن أبي سفيان يستمع كل ليلة إلى شيء من أخبار العرب وأيامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبار والسير (٦) .

وكان للدين الإسلامي أثر كبير في الاهتمام بعلم التاريخ عند العرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئاً من أخبار العرب قبل الإسلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتاب يكتبون ما ينزل به الوحي عليه من القرآن على جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذي خشي أن يضيع شيء من القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة ، فقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وقدمه لأبي بكر الذي خلفه لعمر ثم ظل عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائي للقرآن فقد تم في عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقاً بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسول ﷺ وتناقلوه شفاهة ، وأخذه بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب » (٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهاً ، فالتدوين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدويناً بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفاً من ضياع العلم وذهاب العلماء (٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسول الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا... (٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيداً لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦ هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١ هـ) ،
وسنن أبى داود (ت ٢٥٧ هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩ هـ) ،
والنسائى (ت ٣٠٣ هـ) وسنن ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة
الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية
الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى
دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين -
والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه
أيضاً على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم
الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ،
فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهتم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ)
بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية
ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضاً . والعلمان اشتركا فى المصادر
والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما
يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة
على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ، وطبقات
الذهبى (٨٤٨ هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى
كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى
القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة
المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ)
وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ) ، وشرحبيل بن سعد
(ت ١٢٣ هـ) وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٥ هـ) ،
وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠ هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠ هـ) .
أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤ هـ) الذى كان رائداً لعلم التاريخ
الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معرفة وقوة ذاكرته . وكان محباً لهذا العلم
شغوفاً به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شاباً ولا كهلاً ولا عجوزاً ولا كهلة
إلا سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ،
دوّن الحديث والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وكان يقول :
(ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى) (١٠) .

كتب الزهرى - معتمداً على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة .
وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل
قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشاركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى
بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ
بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر
الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه (١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ
الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساساً اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر
ابن راشد اليماني البصرى (ت ١٥٠ هـ) الذى ألف كتاباً فى الحديث والمغازى
ناقلًا أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) الذى
ألف كتاباً فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى)
تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلى ما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ في مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ في المدينة ومغازيه .

ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام في سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائي - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف (١٢) .

ومن أعظم الذين خلقوا ابن إسحاق في الكتابة عن المغازي محمد بن الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) . ومن تلاميذ الواقدي محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخي في تراجم النبي ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة في الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخي السيرة والمغازي والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم في التاريخ ، ورسموا لهم منهجاً يسرون عليه في التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون في العصر العباسي في المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفهية . ومن أشهر المؤرخين في هذا العصر ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) الذي لم يكن مؤرخاً فحسب بل كان عالماً في النحو واللغة والنقد الأدبي والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) الذي كان مؤرخاً وجغرافياً صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبي) .

وأبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخاً فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسي المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠ هـ) الذى كان محدثاً وفقهياً ومفسراً صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبي .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢ هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبته على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواية الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد على الكتب التى كانت موجودة فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) فقد ساه فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجوهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التبيين والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١ هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أميناً لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخاً فحسب بل كان فيلسوفاً وطبيباً وسياسياً محنكاً . فكان قادراً على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعياً لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحياناً أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه يلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخاً حاذقاً لا يبغي إلا الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقت بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصباً هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيماً على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوي :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفاق الرائعة التي تتيحها الكتابة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لا بد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعي للغة ، كي تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جمهورياً كان أو في الخاطر ، مقطعاً في القراءة البطيئة ، أو اختزالاً في القراءة السريعة الشائعة في الثقافات ، ذات التكنولوجيا العالية (١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبداً أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشفوية، وتوثيقها عمل هام جداً فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسى أو تتحول في أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصلية أو الأولية يمكننا من فهم عالم الكتابة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواي مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحياة ، فإنها تمر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بما تم استيعابه من المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضي . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الرواي بشعور الأسى ، بخصوص الحرمان في مرحلة الطفولة (١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامح معينة للمشهد أو الحدث ، وتفسره في ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلة يميل الرواي إلى التركيز على

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، وبحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبرراً كافياً لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوي كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر في التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها في الراوية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائماً موقفاً نقدياً ومتشككاً سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث (١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشارك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطاً إيجابياً ومهما بشأن الإندماج في أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك (١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوي أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية في النشاط الإنساني والبناء المجتمعي ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكيل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة فى معظم مدن القطاع ، خاصة فى مدينة رفح حيث

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ، وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحاً ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقي فى بيته قتلوه أيضاً على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح . هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علماً أنه لم يورد حتى الآن - ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن فقد بعدها بصره ، وأصبح ضريباً إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حياً يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدراً لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغاني الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريباً ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جداً .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحي النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشاراً فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية(١٧) .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانياً : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات ، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلاً عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثاً : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعاً : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامساً : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفوية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحياناً مادة وثائقية جديدة فى حياة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هاماً وملفناً للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعاً جديداً من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنباً إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتماماً أكثر مما تحصل عليه حالياً من قبل المؤرخين عموماً . فهى فوق كل شئ مادة شفوية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهي تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعي التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين (١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه (١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعداد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ - إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمنهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(ج) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث - وأن كان هذا مهماً ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه للملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو على الأقل التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهذه المعرفة تيسر للباحث إمكانية التعامل مع الراوى على الصعيدين الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على الباحث أن يطلع على المصادر المختلفة - خاصة المكتوبة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه من طرح أسئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعاً معيناً ، أو أحد جوانب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التى تستهدف إلى صناعة المصادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنية محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضع إطار عام للبحث ، وصياغة استبيان أو تحديد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتها . وليس من الضروري أن تصاغ أسئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الراوى ، فمن الأفضل ترك تحديد شكل ومحتوى المقابلة للباحث والراوى ، هذا لا يتعارض مع توفر مجموعة أسئلة أو قائمة موضوعات بأيدي الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتاعب . ولكن المهم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقاً فيكون هدفه المرور عليها واحداً بعد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكز التي تعمل على توثيق التاريخ الشفوي وتركز على إجراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جانب الاتساع ، حتى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمة تاريخية . والطريقة لهذا هي وضع الإطار التاريخي للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ - انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جداً إذ بدونها يسهل التشكيك في استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

ويمكن هنا مقابلة جميع روايات الأحياء المعاصرين لحدث ما ، واعتبارهم عينة تمثيلية - هذا في الأحداث التي مات معظم معاصريها ، ولكن هذا صعب في معظم الأحيان .

ويمكن اختيار عينة من الراوة مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه في اختيار عينة تمثيلية ، وأيضاً من المختصين ، والباحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلى الباحث ألا يقصر جهده واهتمامه على الأشخاص المتحمسين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التي تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(ج) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهة المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ - أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ - المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادراً على إفادة الباحث ، ولذلك ينصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لاختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هي المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعاً من التآلف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضاً بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تخرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائماً أن هدفه يختلف عن هدف الراوى ، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الراوى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعداً لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلاً باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

- (أ) حقائق أصلية .
- (ب) معلومات مساعدة .
- (جـ) أحاسيس ومشاعر .
- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هي أساس التاريخ الشفوي .

٦ - مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتهما تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوي في مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوي .

ثانياً : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هي أساس التاريخ الشفوي ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون متنبهاً متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل في حديثه في نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الراوى ، ويفضل أن يكون مستعداً لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءاً من ملحقات المقابلة ، وعليه ، أن يسأل عن صور أو وثائق تخص موضوع البحث فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركز اهتمامه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الراوى أو التأثير عليه ، بما فى ذلك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحاء . ويجب أن يبذل الباحث جهده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعاً لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعياً فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلى بالصبر ، ولا يقطع الراوى بأسئلة جديدة فيقطع أفكاره .

ويجب عليه أن يترك للراوى الحرية فى ترتيب ، وعرض التفاصيل ، والقضايا ، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحو المواضيع التى يعرفها ، ويتعد عن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر على أى شئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحدث فى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفردة واضحة ، وقصيرة ، ولا يقرأ الأسئلة من قائمة أسئلة معدة سلفاً حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلة ولا أسئلة تحمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركز روايته على ما رآه فعلاً ، كما أن بإمكانه أن يختبر صدق الروايات ودقتها بتكرار الأسئلة بطرق مختلفة ومقابلة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الراوى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثاً : نسخ المقابلة كتابياً :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجلة ، والتي تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضاً .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اسم الراوى :

عمر الراوى :

رقم الشريط :

مدة الشريط :

مكان التسجيل :

تاريخ التسجيل :

اسم الباحث :

الجهة المشرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الراوى وتعبيراته الحركية مستعيناً بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقول ضاحكاً متهكماً ، لوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسمعه بالضبط ، وعندما ينتهى من الوجه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى » ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضاً أن الناسخ يجب أن يقوم بترقيم الصفحات وترك حواشى كافية على الجانبين ، واستخدام أوراق وأقلام من نوعية جيدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعاً : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءاً ومفهوماً .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ - البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ - التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ - مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ - الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضاً توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [] تمييزاً لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قتللك » قاصداً « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامساً : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايته ، إلا أن هذا الأمر له فوائده والتي منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريمحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانياً : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصد إليه الراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثاً : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هذه الأهداف يطلب من الراوى قراءة النص بتمعن ، والقيام بما يلى :

- ١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .
 - ٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .
 - ٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسه قد وقع فيها مثل تاريخ أو مكان حدث معين .
 - ٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .
 - ٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .
- وإذا أراد الراوى أن يدخل بعض التعديلات على النص فهذا من حقه ، ولا يجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضل إرسال صورة عن المقابلة .
- وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتها للتأكد من وضوحها وصلاحياتها للنشر .

سادساً : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوي طرقاً مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ،
وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة
والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها
رقماً متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب
كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدي ، ويحتوى كلا الكرتين
على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما بين ٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل.

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب
المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة
التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد
مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم
تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهج دقيق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين ، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن تفقد فصوصها أجزاء من الحقائق التى تعبّر عن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا العربى .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية فى التاريخ الشفوى ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص ٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م ، ص ٥٩ .

(٣) يحيى : ص ١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج فى دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحى ، جامعة قار يونس ، بنغازى ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص ٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط ٢ ، مكتبة الخانكي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص ١٣ .

(٦) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ج ٩ ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الواحد السياني ت - ٦٣٠هـ : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص ٢٤ .

(٩) المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .

(١٠) الدورى ، د. عبد العزيز ، وناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط ١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص ٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تاريخ العرب ، ط ٢ ، مطبعة المعارف بغداد ،
سنة ١٩٥٩م ، ج ١ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث « فى التاريخ الإسلامى
العام ، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة
١٩٨٠م ، ص ١٠ .

(١٣) أونج : ص ٥٥ .

(١٤) توش : ص ٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص ٣٩ .

(١٦) توش : ص ٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص ٢٣ .

(١٨) توش : ص ٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص ٤٥ وما بعدها .

النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف(*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هي عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كي يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حيناً آخر .

وأساس البحث في العصور التاريخية ، هي الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلقات التي خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث في عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التي قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بآفرع بعض العلوم الأخرى كالإنتروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسي إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التي تنعتها بعض الدراسات بالفن الجداري . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*) كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

وبادئ ذى بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقوش أو الرسوم الصخرية ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التى قطعها الإنسان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثت قبل وقيل بداية العصور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعت بها الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سوى أن فهم النقوش أو الرسوم الصخرية تعترضه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثل فى محاولة إيجاد تقويم زمنى لهذه المخلفات وطبقاتها . فهى من جانب الزمان تمتد قرابة العشرة آلاف عام ، ومن جانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتها التى لم يمكن فهم إلا النذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينه التى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمل جداول زمنية لبعض مواضع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منذ عدة سنوات ف . مورى فى مواقع تلك النقوش فى منطقة جبال الأكاكوس من نواحي غات فى جنوب غرب ليبيا . وقد حالف مورى الحظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثرية تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبل التأويل لتاريخ إحدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصية جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار - حسب ترجمة المعاجم العربية - والزنجار طبقة رقيقة تتكون حين يتم خدش أو نحت الصخر بأداة حادة - أى بفعل فاعل - وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطار . وبتحديد سمك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمر النقش الزمنى تحديداً نسبياً . كذلك حاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيف نوعى للحيوان السائد فى الرسم . ويكاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بين أغلبية الباحثين . واحتسبوا أقدم مراحل النقوش - المرحلة التى تضم المجموعة الأثيوبية وحيواناتها العشبية الضخمة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلة البقریات أو الثور وهى أيضاً مرحلة الرعى ؛ وهى أطول مراحل النقوش ، إذ سادت ما بين الألف السادس ق. م. ونهاية الألف الثانى ق. م. حيث تبدأ مرحلة الحصان . وتأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن (١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عند حد الوسائل السابقة ، وإنما تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجدر الإشارة إلى أشهرها ، وهى طريقة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليها غالباً . ولنا أن نعلم أن عدد الاختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فى عام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبة الثانية ، وتكاد تكون العقبة الكأداء ، ربما نلاحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصدد حثيثة ، فالعمل مضنى وشاق ، ويحتاج إلى استعدادات خاصة وشروط عالية المستوى من الثقافة والمعرفة بمعانيها الواسعة .

وبالبحث لا يدعى لنفسه أنه يمتلك هذه الامكانات ولكن إدراكاً منه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هذه الظاهرة الأثرية العظيمة . ذلك أنه فى تفسير مضمين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخي للأحداث ، وفي حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهمية بالغة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان فى الصحراء ، وهو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض فى إنتاج الطعام ، ولم يتحقق له ذلك إلا عندما بدأ فى الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضارات القديمة قامت فى أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهار ، كالحنارة العراقية القديمة والحضارة المصرية . فالبحث فى نشأة الزراعة ، هو بحث فى أصول الحضارات القديمة . لذا اتجهت مجهودات العلماء حول تحديد الموطن الأصلي لاكتشاف الزراعة ، وتركزت آراؤهم حول موضوعين : إما غرب آسيا ، وإما شمال أفريقية(٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا فى اكتشاف الزراعة، اعتماداً على قراءات ك ١٤ على عينات أخذت من مواقع عراقية ومصرية ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبير(٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنه لم يكن قد توفرت معلومات كافية عن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمال أفريقية . وعلى ذلك قام اعتقاد بأن الزراعة اكتشفت فى مواقع بغيرى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقى . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تأثر البعض من العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هم أصحاب مرحلة نقوش البقریات(٤) ، فى زعمهم . وقد حدا الأمر بلفيف من العلماء إل دراسة المشاهد التى صورتها النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن استئناس البقر مارسه أصحابه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعاة أو مرحلة البقریات ، حيث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثيرين . ورأى

الرأى نفسه شترير (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بأن البقر المستأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلة المقنعة . وهو يعتقد عكس ذلك ، فالنقوش الصخرية فى الصحراء تقدم كثيراً من المؤشرات التى توضح أن فكرة ترويض الحيوانات البرية ، لم تكن غريبة عن الحضارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيد ، وعليه - حسب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلاارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويض البقر فى الصحراء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجري الحديث ، تبدو أكثر احتمالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الراىين ، هو أننا فى الصحراء الكبرى نملك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير من الجدل ، هى ظاهرة حمل بعض حيوانات النقوش - المجترات على وجه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هذه الظاهرة ، من جنوب مقاطعة وهران بالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهة المصريين القدماء صورت وهى تحمل فوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبادة الشمس ، كحتحور وإيزيس من الرباب ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هذه الفكرة ، وعمّا إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائدية بين أقطار الشمال الأفريقى والحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلوم لزمن النقوش ، ما أغرى بعض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمة .

ورأوا فى وجود معبد للإله آمون فى واحة (سيوة) ركيزة لزعمهم ، حتى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) فى جنوب وهران بكبش آمون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصاً مستديراً ، تم صقله بعناية فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كاهن ، يرتدى القراب القضيبي ، وهو بهيئة الليبين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثرى يتعارض معها لأن المحترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عن عصر انتشار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأواني الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حوالى الألف الرابع ق. م. أما عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التى صورت برؤوس حيوانية ، فقد وجدت فى تاسيلي وفزان ، وسط الصحراء الكبرى ، وترتبط فى الغالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلي وفزان ، وما تتميز به من جمال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع رأى الذى يرى نقوش تلك المناطق مركزاً لإشعاع هذا الفن إلى جميع الأنحاء . كذلك تجدر الإشارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبها قد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لما عليه نقوش تاسيلي وفزان ، التى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهذا ما يراه شيرقيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخرية الموجودة فى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مع ما هو موجود بأواسط الصحراء الكبرى (تاسيلي وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والتحت الصخرى فى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هي الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخري . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولييان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الخربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق.م) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . ولم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شترير ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء ، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرمين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادی الآجال (الحياة) فى أوبارى من نواحي فزان . والواقع أن اصول هذه الجماعة يكتشفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقد ظهرت هذه العناصر فى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول (٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقوش تكونت لدينا معلومات مفيدة عن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك على الفور المدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولو أجريت حفائر لذلك (٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعة من النقوش أو الرسوم الصخرية فى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السبقى حالة خاصة فريدة . وفى حالات كثيرة تصمت النقوش عن الإفصاح عن مكوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فلا يتوفر له - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شاع فى رقعة واسعة من النقوش والرسوم الصخرية تصوير لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثال : إثنان من لوحات تاسيلي نشر هنرى لوط (٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبوك (٩) ، شمال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ من لوحات تاسيلي يسميها لوط ب (السيدة البيضاء) ، وأبعاد الرسم هى ١٥٠ سم x ١٠٠ سم . وقد

لونت بالمغرة الصفراء مع لون أبيض والتتورة ومتعلقات الرقص ، مع حلقات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنها جميعاً صنعت من ألياف أو سيور دقيق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعة من النباتات يخرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقد لوط ... حبوب ؟ ويقول لوط أننا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقة بشعائر الزراعة أو هي ربة الزراعة ، قد تكون تجسيدا للربة (إيزيس) المصرية التي كانت هي الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote على هذا التفسير . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك في أن في إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخرين بواسطة إشارات خاصة أو بتضخيم الأحجام ، هو دليل على تمايز اجتماعي أو سياسي أو ديني . وهو ما سوف نشير إلى ثبوته لدى المصريين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلاحظ أن ما ذهب إليه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، في الربط بين موضوع الرسم والربة (إيزيس) . ففي وجود القرنين على الرأس ما يذكر بقرنى البقرة لدى (إيزيس) ، وهذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب من الثديين ربما كان تجسيدا لمعنى الأمومة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل في بعض مشاهدتها ، وهى تعطى ثديها لابنها (حورس) رمزاً للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجم السيدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعوا نفس الأسلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن - على سبيل المثال - الضخامة التى صور بها الملك نعرمر فى صلاته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقترب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينما كان

يؤدي طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثيني لتجديد الخصوبة المتمثلة فى قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء (١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصلين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠ سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥ م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، ربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صوز للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو (١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية ، وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لمعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم .

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتي يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من إيحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتوءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفرى Vofrey عن كائن آخر منقوش على الركائز الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريى بـ (الحيوان الخرافى) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على ما يبدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهى بكلاب ، والرأس مزود بقرنى استشعار أو السنة للفق ، وفى الجزء القريب من الذيل معلق نوع من كيس مزدوج للخصيتين ، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريى طوطماً للملك العقرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهى تبدو ذات علاقة بما للمصريين فى فترة ما قبل الأسرات (١٣) .

والواقع أنه فى غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذى بذل فى تنفيذها ذات علاقة موثوقة بالعالم الروحى لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دوماً - كما يذكر زيربو - هى فى النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدراك الكون ، وجعله مفهوماً ؛ إذ أن الخطاب الأسطورى يعتمد على منطق ذاتى خاص به ؟ فتمثيل كائن خيف يعنى فى الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعنى السيطرة عليه (١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحت هذا النوع من التفسيرات الكثير من النقوش التى تنشر فى أنحاء عديدة من مناطق النقوش . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكة المغربية ، فهرساً لمواقع النقوش بالجنوب المغربى حوى الكثير من هذه الأشكال التى يصعب فهمها .

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكن فى حالة التعرف عن مكوناتها أن نزيل الغموض عن كثير من القضايا شار الجدل بين علماء التاريخ والآثار والأنثروولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكبرى ومسالكها وآثارها ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمى . وترى بعض الآراء أن عظم المساحة التى تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهذا الحجم والتنوع ، قد يكون من الأنسب عند تناول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التى نفذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنة لأنواع الحيوانات التى صورت فى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومناطق مصر العليا وبلاد النوبة ومناطق شمال المملكة العربية السعودية ، يمكن أن تفيد فى معرفة سبب غياب حيوانات المجموعات الأثيوبية بحيواناتها العشبية الضخمة من نقوش المنطقتين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصر العليا والنوبة تميز نتاجها فى مجال الفن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . فيذكر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبلاد النوبة عرفت أسلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجود فى أى بقعة أخرى من العالم ، بما وصل إليه من دقة وإتقان . وهذا يجعلنا نعتقد أن هاتين المنطقتين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكة العربية السعودية ، فربما كان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعة تعرف أصلاً بالمجموعة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربما خضعت شبه الجزيرة العربية لظروف بيئية وجغرافية ، جعلتها بمعزل عن هذه الحيوانات ، وحالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملاحظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربية ، إذ لوحظ أن مرحلة الجمل تعقب مباشرة مرحلة البقریات (الرعى) . وبالتالي نجد أنفسنا أمام فرضية مدهشة، وهى أن شبه الجزيرة العربية لم تستخدم الحصان قبل القرون الميلادية (١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلة الجمل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية في مصر وادي النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التي صار عليها وادي الشاتي بليبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية في هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنني لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربي المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق في خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أي الأيدوجرام Ideogramme (١٦). بمعنى رسم الصورة التي تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

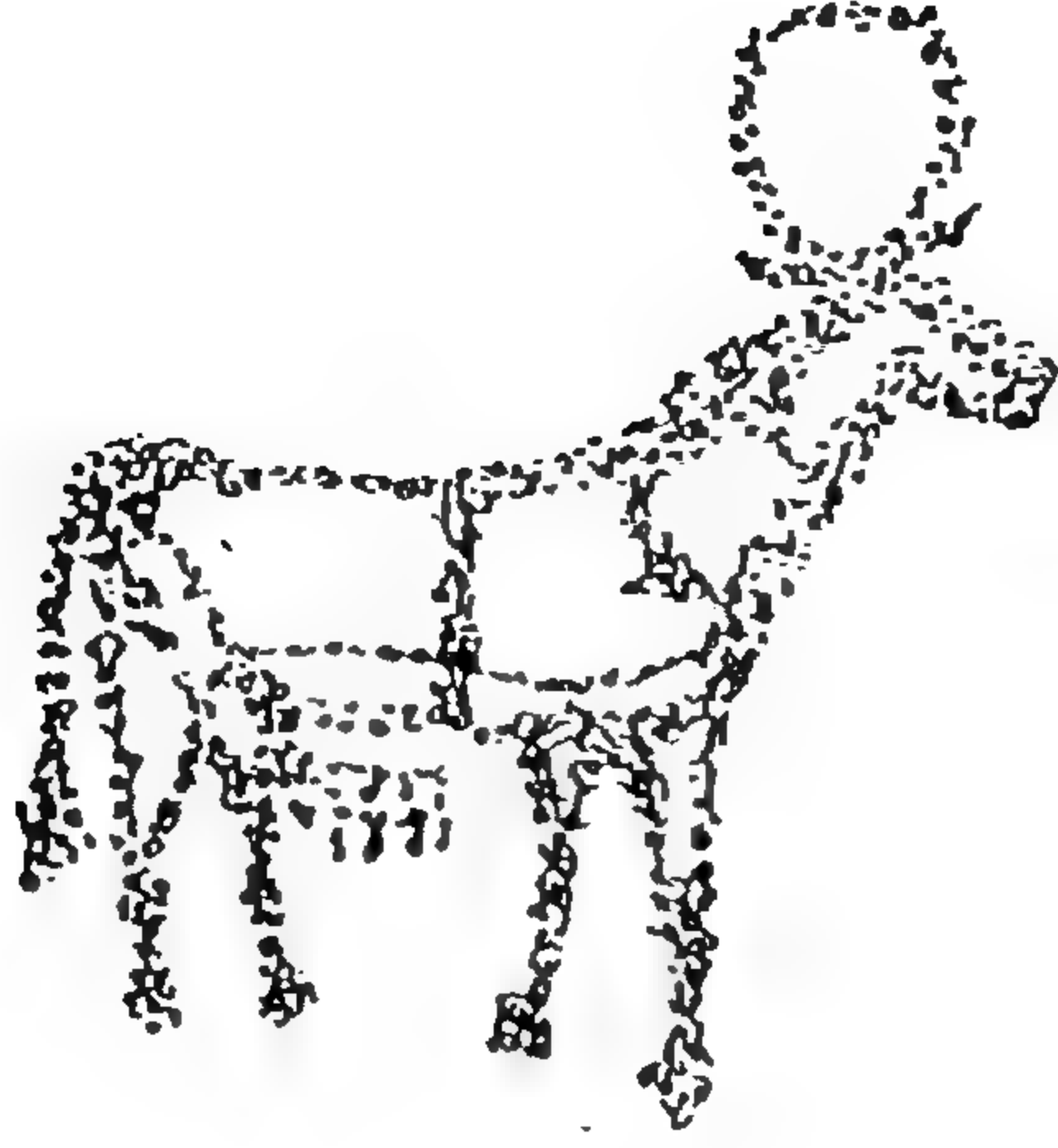
يرى - شترير (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات في هذا الاتجاه . ومن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه في النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالي زيربو (١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم في سبيل بيان ذلك عدة آراء جديدة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخري تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالاته إذا أطلقنا على مشاهدته عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهي تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة في محاولته شرح أحد النقوش على جانبي صخرة ، ومحتوى النقش صورتي

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبي للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعميده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدمما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادي .. وكان مثل هذا التركيب الرمزي يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

إننا ندرك تمام الإدراك أن الشروط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيرغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .



(١)



(٢)



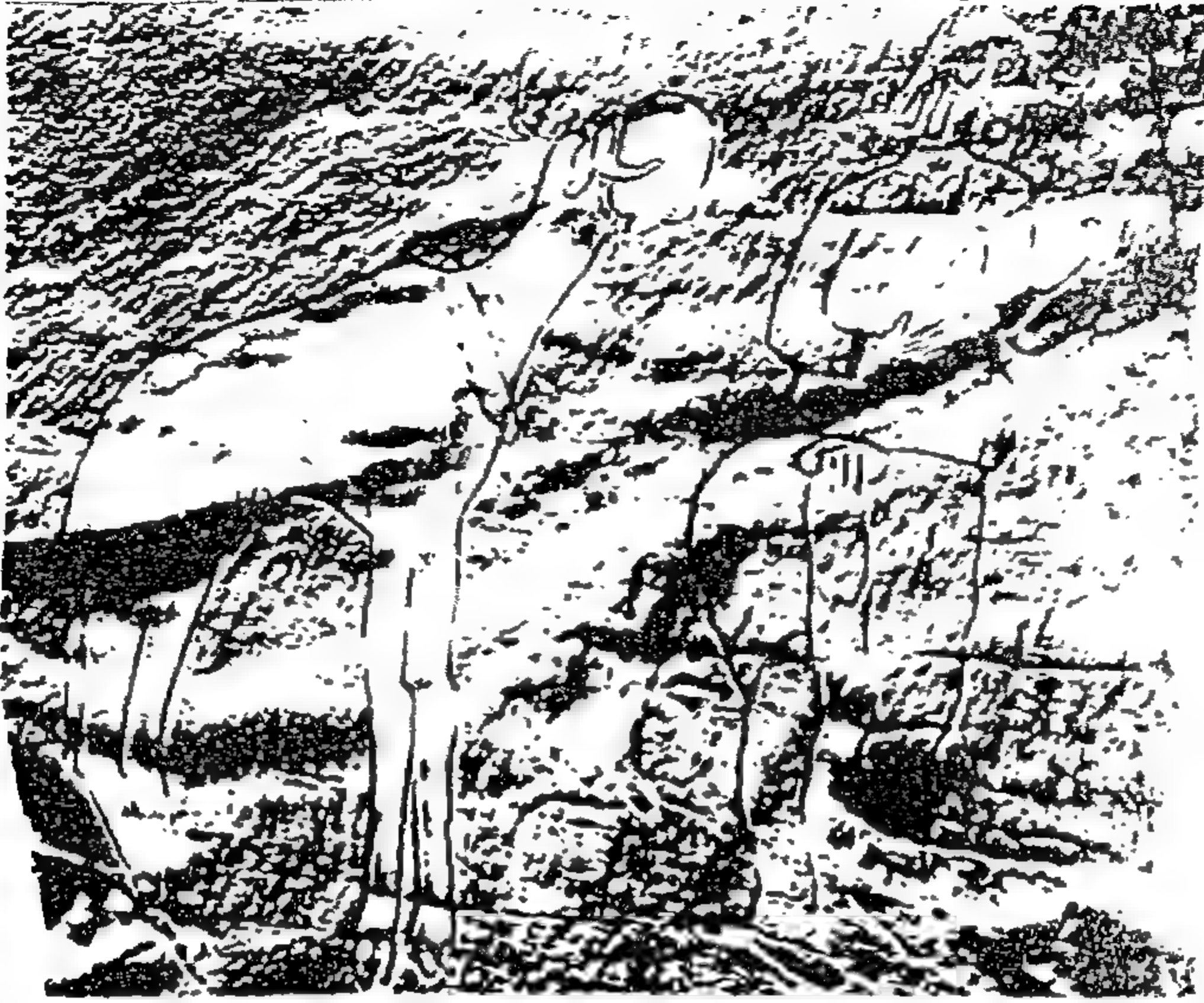
(٣)

نقوش لحيوانات تحمل أقواساً بين قرنيها

١ - وادي الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

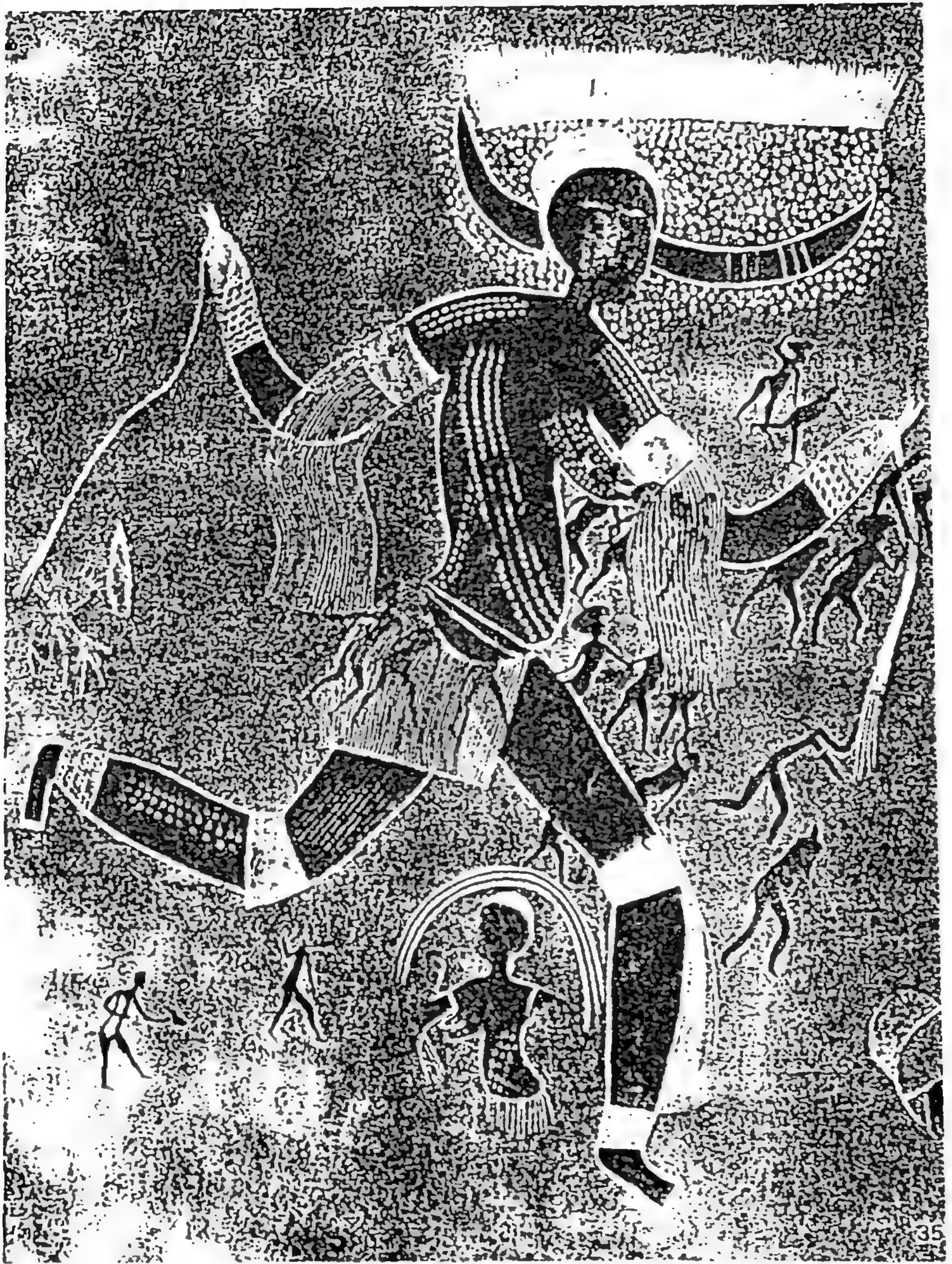
٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I



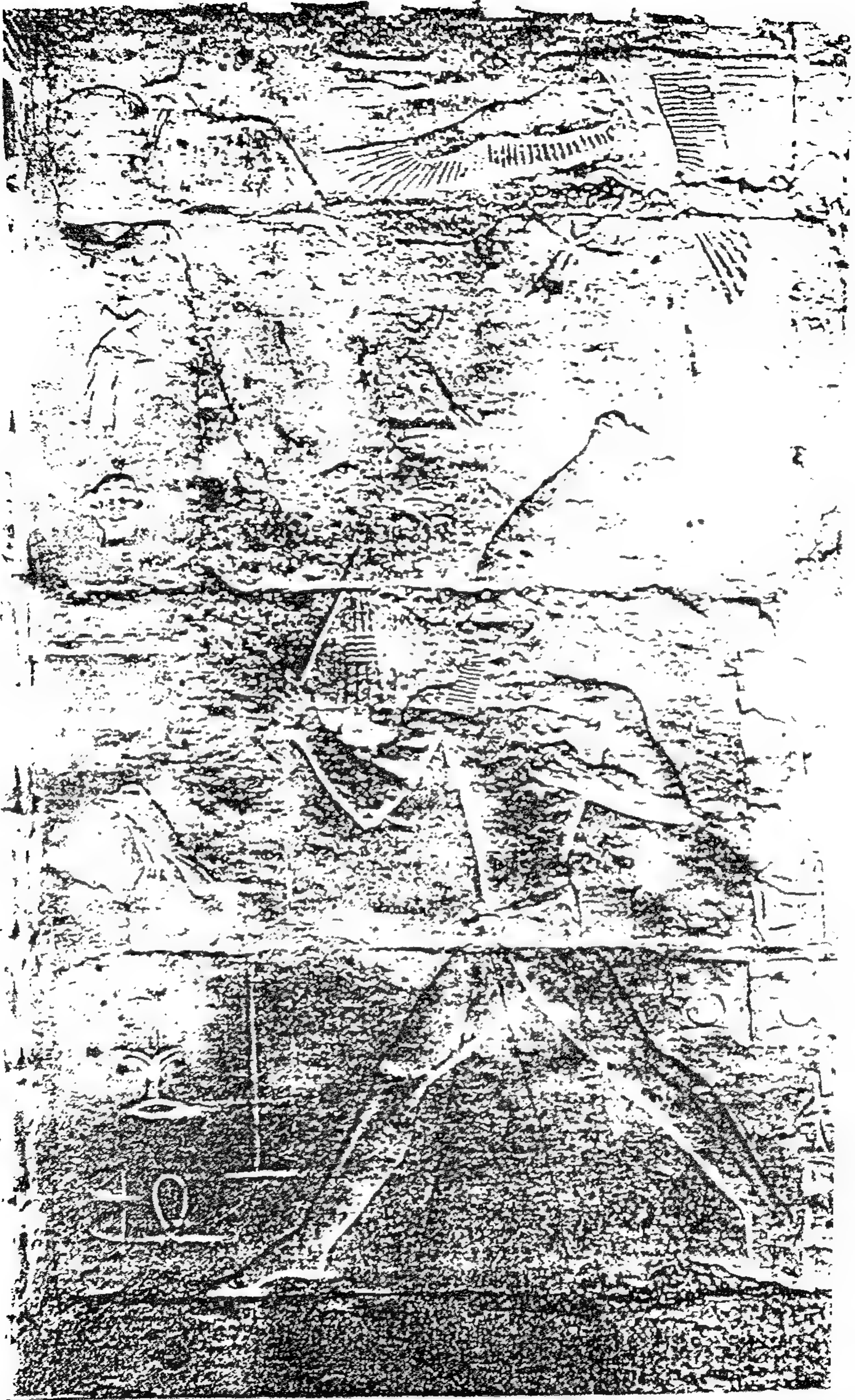
كيش بوعلام (الجزنر)

لوحة II



« السيدة البيضاء » تاسيلي نشر لوط

لوحة III



زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدي طقوس عيد الحب سد



الإله الكبير - ناستلي - نشر لوط

لوحة ٧



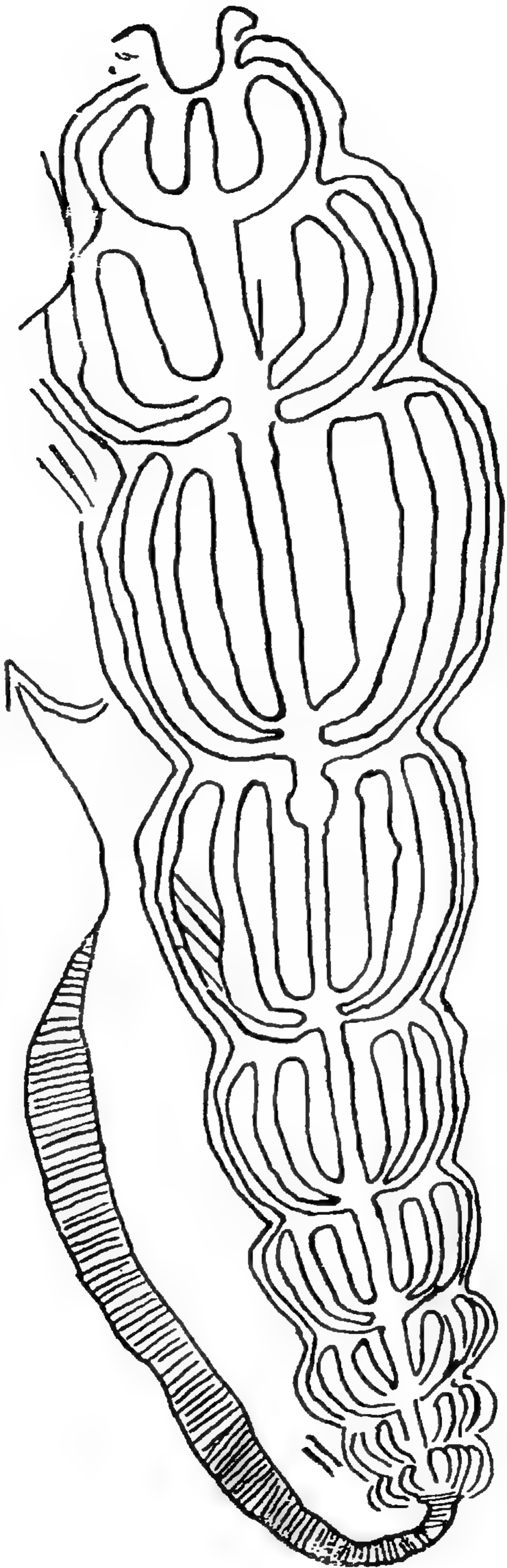
Tracings of a rain deity from jubbah.

أشكال آدمية خيالية في جبه بحائل عن مجيد خان



«الكائن الحرفي» شمال الجزيرة العربية عن مجمل خان

لوحة VII



الكائن العجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufray

لوحة VII



إلى السان إلهى الأمس واليوم فى صورة أسدين ظهراً لظهر يدعمان
الأفق بقرص الشمس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسار يسمى
« اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيل فى بحث سابق . انظر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) مجلة المؤرخ العربى ، العدد السادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفى زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هى الموطن الأصيل للنباتات التى استزرعها الإنسان فيما بعد ، فهى مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt before settlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهري ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in Iraqi Kurdistan, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعيين لهذا رأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التى تؤيد وجهة نظرهم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهو إله كبش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربرية تعنى الماء هى : آمان و آمون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)، (٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر
وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام)
اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم
مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك
العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorie de l'Afrique, t. I. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧ .

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق
بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير
(!؟) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان
طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف
الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق
الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى
شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى
ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها .
أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣
حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط »
(لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن
وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجري الحديث
التأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (!؟) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

فى شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها
آنفاً .

(١٦) فى بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخرى ، عرض لرأيه بخصوص
الكثافة الفائقة عن الحد فى بعض المواضع وبالجهد الخارق فى سبيل تنفيذها . الأمر
الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداء رموز للكتابة خاصة
بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وثدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر
للباحث: الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .
- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistoric investigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.
 - Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.
 - Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.
 - Debono, F., and Mortensen, B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.
 - Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.
 - El-Chericf, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.
 - Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.
 - Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.
 - Kozlowski, J. K., Recherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).
 - Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).
 - Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.
 - Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.
- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.
- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.
- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.
- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.
- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).
Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).

الخليج العربى : الموقع والأهمية

خلال العصر البرونزى الحديث

(١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق.م)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

لعبت جغرافيا الخليج العربى دوراً هاماً فى توزيع المراكز الحضارية على طول ساحله الغربى بصفة خاصة . وكان لتوافر العديد من المرافق الطبيعية والمراسى المحمية ، ومياه الشرب من عيون وآبار - خاصة فى واحة الاحساء بشرق السعودية ، فيلكا ، جزيرة البحرين وجزيرة أم النار بدولة الإمارات العربية المتحدة - أثر فى الجغرافيا البشرية لسكان المكان عبر فترات طويلة من التاريخ القديم(١) . إضافة إلى ذلك ، فإن توافر المواد الأولية كالنحاس ، والأحجار ، واللؤلؤ ، وبيض النعام ، ساعد على تبادلها فى متابل ما كان يحتاجه أهل المكان مع سكان المناطق المجاورة من الأخشاب والعاج ، والعقيق الأحمر واللازورد ، وبصفة خاصة بلاد الرافدين (العراق القديم) (٢) ، شمالاً وحتى أقصى الشرق فى منطقة وادى السند ، براً عبر إيران ، أو بطريق المساحلة البحرية إلى سواحل الهند وباكستان ، وخاصة إلى ميناء لوڤا (٣) ، اعتماداً على ما ورد فى النصوص السومرية ، حيث وردت كلمة « خزانوم » فى النصوص السومرية بمعنى « رحلة بحرية » ، وكانت تتم عادة فى شهر آيار (مايو) ، وكانت البضائع تجهز فى شهر آذار (مارس) ، وتبحر إلى الساحل الهندى قبل موسم الرياح فى المحيط الهندى(٤) . « انظر خريطة (١) » .

ودلت البحوث الأثرية بالمكان ، وخاصة من البعثة الدانمركية الأثرية من متحف أرهوس بالدانمرك (بدءاً من عام ١٩٥٣) ، وبعض أعمال التنقيبات

(*) كلية الآثار - جامعة القاهرة .

الأثرية من البعثات الإنجليزية ، الفرنسية ، الأمريكية ، الإيطالية ، وكذلك من بعض البعثات العربية المشتركة ، إضافة إلى بعض المصادر النصية ضمن وثائق حضارات بلاد الرافدين دلت هذه البحوث على قدم المراكز الحضارية بساحل الخليج العربي الغربى منه ، أو الشرقى الإيرانى خلال الألفين الثالث والثانى قبل الميلاد(٥) ، مع وجود بعض الفراغ التاريخى ، وكذلك عدم العثور على ما يؤكد استمرارية الوجود البشرى ، لأسباب متعددة خلال ما يعرف بالعصر البرونزى المبكر والوسيط .

وشهد العصر البرونزى الحديث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) تغيرات عديدة بظهور قوى حضارية جديدة بالمكان (الشرق الأدنى القديم) كان لها تأثيراتها على المكان وأهله ، وكذلك عودة الحياة إلى بعض المراكز الحضارية خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، والشمال الغربى منها (اليمن والسعودية على التوالى) ، وما كان له من تأثيرات على المكان واتصالاته . وكانت الخريطة السياسية للشرق الأدنى القديم من منتصف الألف الثانى ق. م. واضحة المعالم فى تسيد قوى دولية بعينها على مناطق جغرافية محددة : الإمبراطورية المصرية فى أقصى توسع جغرافى لها اشتمل على النوبة (إلى الجنوب من مصر وفى جمهورية السودان الحالى) ، ما بين الجندل الرابع وشمالاً إلى الحدود المصرية فى القطاع الأفريقى ، وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وجنوب سوريا فى القطاع الآسيوى(٦) ، الإمبراطورية الميتانية (الحوريون) فى الجزء الشمالى من بلاد الرافدين ، المملكة البابلية الكاشية (الكاسيون) ذوى الثقافة اللغوية الآرية (هندوأوربية) كأحد شعوب الشرق الجبلية (١٥٧٠ - ١١٥٨ ق. م.) ، والإمبراطورية الحيثية (تركيا الحالية) (٧) . وشهدت المنطقة علاقات متشابكة تفاوتت ما بين العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية التى كان يدعمها أحياناً الزواج « الدبلوماسى » من جهة ، أو التزاحم والصراع العسكرى من جهة أخرى(٨) . وقد شغلت الأحداث الإمبراطورية الميتانية فى تداخلاتها وصراعتها فى جبهتين : ضد الإمبراطورية الحيثية ، والمصرية القديمة فى عهد ملوك أسرة التحامسة من

الدولة الحديثة ، وأن تطورت تلك العلاقات العدائية بين مصر وميتان إلى علاقة تسودها المحبة والصداقة ، دعمها « الزواج الدبلوماسي » من أجل مواجهة النفوذ المتزايد للحثيين في بلاد الأناضول (٩) . ولعل ذلك التداخل في الصراع منع النفوذ الميتاني من التداخل إلى الجنوب من بلاد الرافدين ضد السيادة الكاشية ، وربما بالتالي من التوسع جنوباً في مناطق الخليج العربي (١٠) .

وكان لظهور أخطار « شعوب البحر » دور سلبي على المراكز الحضارية الهامة في الأناضول (تركيا) ، وساحل شرق البحر المتوسط وعلى مصر الفرعونية ذاتها وإلى حين (١١) ، بينما كانت المناطق الشرقية (الأبعد إلى الداخل) نسبياً بعيدة عن خطرهما المباشر ، وإن وقعت ذاتها فريسة للنزاع الداخلي ما بين آشور وبابل ، واستفادة عيلام من ذلك ، وتقدمها غرباً للإجهاز على بابل ، حيث سقطت الأسرة الكاسية حوالي ١١٦٠ ق. م. تحت ضربات الملك العيلامي « شونروك ناخونته الأول » منهياً بذلك فصل من فصول الحضارة العراقية ، ولتبدأ من بعد زعامة أسرة حاكمة من أيسن (أيسن الثانية ، ١١٥٨ - ١٠٢٧ ق. م.) ، والتي كان آخر ملوكها نبوخد نصر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق. م.) الذي يذكر له محاولة إعادة توحيد البلاد (١٢) .

ومما يرتبط أيضاً بفترة العصر البرونزي الحديث هو معرفة أهل منطقة الجزيرة العربية ، وحواف الخليج العربي الغربية ، لاستئناس الجمل واستخدامه كوسيلة انتقال وحيوان حمل عبر فيافي الصحراء . ولعل ما كان معروفاً عن طبيعة هذا الحيوان من قدرة على الصبر ، وتحمل العطش والجوع ، ما ساعد على اختراق تلك الفيافي من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وبدء تدشين سلسلة من خطوط الانتقال لنقل تجارة البخور بصفة رئيسية عبرها . ولعل أهمها ما كان موازياً لساحل البحر الأحمر الشرقي ، من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وشمال غرب إلى مصر ، أو باتجاه شمال شرقي إلى منطقة الإحساء على الخليج العربي ، ثم شمالاً إلى جنوب العراق ماراً بالكويت ، أو عبر ساحل ظفار (حضر موت) ثم إلى

الداخل عبر دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ساحلها الغربى على الخليج العربى ماراً بمنطقة حفيت وهيلى (١٣) . وتأرجحت عملية استئاس الجمل ما بين ١٤٥٠ ق. م. إلى ٨٥٠ ق. م. وفقاً لما عثرت عليه بعثة جامعة بنسلفانيا الأمريكية من بقايا عظميه بموقع وادى الجوية فى اليمن عام ١٩٨٣ (١٤) . بينما رجح «أولبرايت» حدوث ذلك حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد (١٥) . (انظر خريطة ٢) .

وقد رجح رأى لبعثة « جون هوبكنز » الأمريكية ٧٣ - ١٩٧٤ أن الكسر الفخارية المتناثرة على تلال جزيرة عكار « القرين » بالكويت تعود فى معظمها إلى العصور الإسلامية حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، واشتملت بينها قطع فخارية مستوردة من منطقة البحر المتوسط من القرن الثانى الميلادى ، وأيضاً بعض الكسر الفخارية الكاسية الطراز من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد (١٦) ، والذى يرجح معه وجود تداخل ما بين تلك الجزيرة والقوى السياسية الهامة على مسرح الشرق الأدنى القديم السياسى آنذاك ، وعلى توزع الدلائل الأثرية على اتصالها بالمكان وبغيره من مراكز حضارات الخليج العربى القديمة . ومن اللافت للنظر وجود فراغ زمنى فى التواجد البشرى على جزيرة فيلكا ما بين فترة ايسين الثانى والعصر الكلدانى . ولم يعثر إلا على دليل خادع ممثلاً فى جرة من العصر الحديدي عثرت عليها البعثة الفرنسية أثناء حفائرها فى طبقات العصر البرونزى من موقع فيلكا ٦ (F6) (١٧) . وتشبه تلك الآنية من الجرار (bell - shapes ar) والمزينة بزخرفة من الحبال حولها مع تلك الأواني الجنازية من نيبور ، لارسا ، تل اللاخوم والبحرين المؤرخة عادة من الفترة ما بين القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد (١٨) . إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض الأختام الأسطوانية الكاشية الطراز أو ذات طراز كاشى زائف ، وعيلامى ضمن موقعى فيلكا ٣ و ٦ (الأختام أرقام ٣٩٨ - ٤٢٢) (١٩) . وبصفة عامة فإن الوجود الكاسى فى فيلكا ذا طبيعة مختلفة تمثل فى أن الأنماط الفخارية من المرحلة (4A) فى موقع القصر (F6) فى فيلكا (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.) على الصناعة ، ولم يعثر ضمن أنماطه على

تلك الأواني الطويلة المميزة من نمط (Flask) (٢٠) . بينما يتضح من أنماط فخار مرحلة (4A) فى فيلكا من موقع (F3) (١٢٥٠ - ١٠٠٠ ق.م.) أنه كان مستورداً من بابل . وعثر على بقايا نمط تلك الأواني المميزة (Flask) هناك (٢١). كما أن اختتام مرحلة العصر الكاسى وما بعده (معظمها من الأخير) عثر عليها فى كل من فيلكا ٣ (F3) وفيلكا ٦ (F6) . وبالمثل فإن البقايا المعمارية المدنية (المنازل) فى (4B) فى فيلكا تنتمى كذلك إلى الفترة الأخيرة من مرحلة العصر الكاسى ، واستمرت إلى ما بعدها (٢٢) .

إضافة إلى ذلك ، فإن معظم الاكتشافات فى مناطق شرق المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة تؤرخ من الألف الأول قبل الميلاد ، من العصر الحديدي إلى العصر الساسانى ، ثم مرحلة ما قبل العصر الهيلينى (٢٣) ، فيما عدا بعض المواد الأثرية المشابهة للحضارة الكاسية حيث عثر على خاتم أسطوانى من الفينانس فى موقع السبخة ما بين الظهران والعقير يؤرخ من القرن ١٣ أو ١٢ ق.م. ، وعلى كسرات من الفخار من النمط المعروف (ring - based goblets) من العصر الكاسى أو العيلامى فى منطقة إلى الجنوب من الظهران ، وذلك عام ١٩٨٣ (٢٤). كما رجح Zarins تأريخ المادة الأثرية المكتشفة فى بعض مواقع جبانة الظهران المثلة فى رعوس سهام نحاسية ، وأحياناً حديدية ، أساور نحاسية وخواتم ، خرز ، محار ضخمة ، وبعض الأطباق الصوانية الصغيرة من الجزء الأخير من الألف الثانى ق.م. (٢٥) . كما أن المادة الأثرية من إحدى مقابر الظهران اشتملت على فخار وأدوات حجرية يتطابق على الأقل فيما يتعلق بالأواني الحجرية مع تلك الأواني المعروفة من موقع القلعة بالبحرين فى مرحلتها الثالثة (Qalaat City III B) (١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق.م.) وتشابه مجموعة من الأواني الفخارية من نمط goblet ذات القاعدة المسطحة والدائرية مع مثيلاتها الكاشية العيلامية (٢٦) .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر ، فقد لعبت الظروف البيئية ، وعدم توافر المياه وقلة الأعشاب دوراً سلبياً على المكان . ودرج الباحثون على إطلاق صفة «الأرض المجذبة» على المكان . ويبدو أن سكانها اضطروا للهجرة ربما إلى الساحل المقابل : إلى يابسة شبه الجزيرة العربية . ولم يقطع الصمت عن المكان ، وتاريخه منذ العصور الحجرية القديمة والوسطى وربما النيوليثية إلا ما كشف عنه أخيراً من أعمال للبعثة الأثرية الفرنسية في موقع « الخور » من وجود « ٢ مليون محارة Shell » ، مما يرجح معه أن يكون المكان قد استخدم لاستخراج الأصباغ ، والتي تذكرنا بما كان للفينيقيين من ارتباط بالمكان وفقاً لآراء الباحثين القدامى (٢٧) ، إضافة إلى ذلك فإن ارتباط العثور على الأصباغ مع الفخار الكاسي الطابع أكد تأريخ الموقع من أواخر الألف الثاني ق. م. وأوائل الألف الأول ق. م. (٢٨) . وعكس تشابهاً للفخار المكتشف من مرحلة (4B) في جزيرة فيلكا الكويتية المؤرخ من أواخر العصر الكاسي (٢٩) . ومن الملاحظ أن معظم ما عثر عليه بعد ذلك في قطر يرجع إلى عصور متأخرة جداً ، من العصر اليوناني وما تلاه خلال العصر السليوقي بالمكان من القرن الثاني قبل الميلاد (٣٠) .

كما أوضحت الدلائل الأثرية المكتشفة من مواقع دولة الإمارات العربية المتحدة ندرة وجود آثار من العصر البرونزي الحديث فيما عدا موقع القصيص المؤرخ من نهاية الألف الثاني ق. م. (٣١) ، وأن معظم ما دلت عليه أعمال التنقيب الأثرية الأخيرة في حفيت ، بديع بنت مسعود ، هيلي ، الرميلة ، وقطاره تعود إلى العصر الحديدي (٣٢) ، وفي ارتباط فيما يبدو باختراع نظام الأفلاج كوسيلة ري ، ومع خطوط الاتصال التجاري مع مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بعد عملية استئناس الجمل والقدرة على اختراق الفيافي ، عملاً بإنتاج الجزيرة من البخور ، واللبان المرغوب فيهما من المراكز الحضارية المجاورة وما تلاها (٣٣) .

وقد شهدت مرحلة أواخر العصر البرونزي الوسيط في دورية الثاني إلى الثالث تناقصاً متزايداً في ترديد اسم دلمون (البحرين) في المصادر الميزوبرتامييه .

ويرجع آخر ذكر لها من تلك الفترة من العام الخامس من فترة حكم «سامسوايلونا» (حوالى ١٧٤٥ ق. م.) حيث ورد ذكر « نحاس من دلمون » جنباً إلى جنب مع « نحاس من ألشيا » (٣٤) ، والتي رجح أن تكون «قبرص» (٣٥) . وتعود عدة عوامل إلى إنهيار الاتصال التجارى بين بابل ودلمون ، وإلى انهيار الثراء الاقتصادى فى موقع الخليج العربى فى هذا الوقت لعل من بينها انهيار الحضارة الهارابانية Harappan فى أوائل الألف الثانى ق. م. مما جعل من الصعب الحصول على المواد القيمة النفيسة من الشرق ، ونقلها إلى جنوب ميزوبوتاميا خاصة إلى أور . كما توضح الإشارات إلى نحاس الاسيا (= قبرص) مدى التغير فى الاتجاه الاقتصادى ناحية الغرب كمصدر لتلك الموارد الضرورية ، وبالتالي قللت من أهمية ماجان ودلمون كمولين لذلك (٣٦) . وربما كان لغزو أريان (Aryan) للموخا فى منتصف الألف الثانى ق. م. تأثير سلبى واضح فى توقف بل ووضع حد للعلاقة التجارية مع ملوخا ، وبالتالي سبب إنهياراً سريعاً فى ثراء وغنى ، وأهمية دلمون (٣٧) . ولم تظهر دلمون ثانية فى المصادر الميزوبوتامية حتى القرن الرابع عشر ق. م. خلال العصر البرونزى الحديث (LB) . وترجح الدلائل الأثرية من البحرين وفيلكا أن الفترة المتأخرة من الألف الثانى ق. م. كانت فترة هدوء نسبى فى المناطق الشمالية من الخليج العربى ، بينما فى ميزوبوتاميا استمعت الأسرة الكاشية بدءاً من عام ١٧٥٠ ق. م. بحكم طویل نسبياً تميز فى معظمه بالسلام ، والاتصالات الدولية البعيدة ، كما كان لها علاقات متعددة مع منطقة دلمون (البحرين) ، والتي كانت مصدراً هاماً للتمور (٣٨) . وقد قدمت حفائر البعثة الأثرية لمتحف أرهوس الدانمركية عام ١٩٥٦ الدلائل على الوجود الكاسى بالبحرين فى منطقة القلعة استناداً على العثور على نمط فخار (Carmel ware) المميز للعصر البابلى القديم والعصر الكاسى (٣٩) . كما عثر على دلائل معمارية فى نفس المكان من العصر الكاسى أيضاً . وكان من نتيجة حرق المكان (أو القصر) أن حفظت الكثير من الشردات وبقايا الفخار التى أعطى التأريخ بالراديو كربون ١٤ (C14) تاريخاً من ١١٠

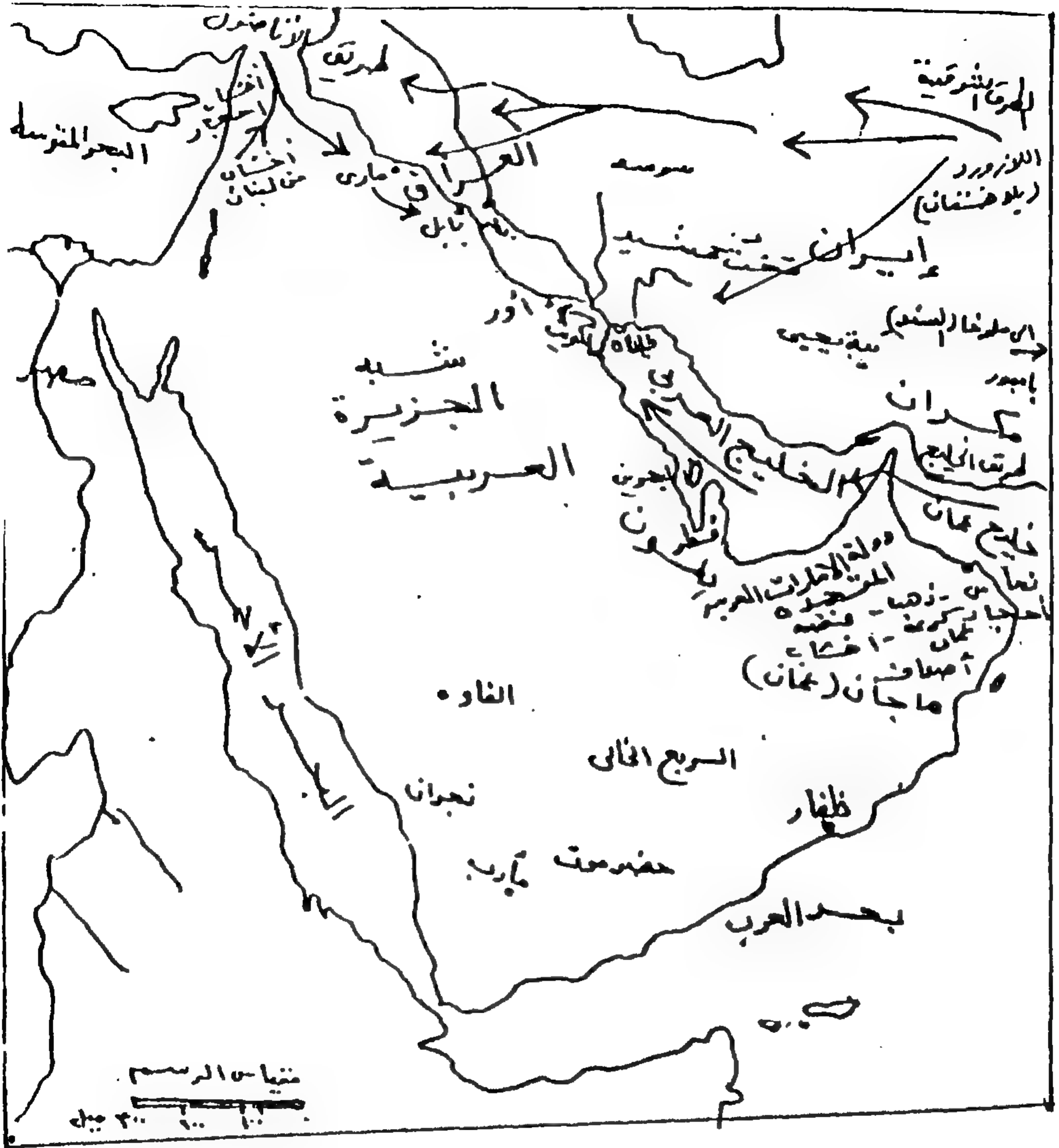
+١٨٠٠ ق. م. (٤٠). كما كشفت أعمال الحفر الأثرى من عام ١٩٧٠ بإشراف الطراونة F. al. Tarawneh فى موقع الحجر عن وجود مجموعة من المقابر (عدد ١٤ قبر) مقطوعة فى الصخر ، تعود مقابر ١، ٢، ٣، ٨، ١١، ١٢ منها إلى العصر الكاسى ، استناداً على تواجد الفخار ، والأختام الأسطوانية ، وخاتم من الفينانس من نفس نمط نوزى من القرن ١٥ - ١٤ ق. م. عثر عليه فى القبر رقم (١) ووجد عليه تصوير لاثنين من الغزال . كما عثر على خاتم زجاجى مؤرخ من القرن ١٤ - ١٣ ق. م. فى القبر رقم (٣) يبدو عليه رسم حيوان خرافى بوجهين لأسد ، واقفاً على مؤخرته على شكل بشرى مقهور، وممسكاً لأعلى باثنين من الثيران ذات السنام Humped bull (٤١). كما عثر على أربع مقابر أخرى على الأقل من نفس العصر الكاسى فى موقع « سار » : مدافن ١٥٠ ، ١٥٠ أ ، ١٥٠ ب ، والمدفن الجماعى رقم ٤٢ بها ، والتي تضمنت بقاياها الأثرية فخار يمكن مقارنته مع فخار موقع المدينة الثالثة بالبحرين (City III) (٤٢). إضافة إلى ذلك ، فقد عثرت البعثة الأثرية الاسترالية فى موقع « بورى » فى موسم ١٩٨١ - ١٩٨٢ على فخار كاسى (٤٣). كما عثر كذلك على مقابر كاسية فى موقع المقشة ، وكذلك على مقابر ، أو ربما بقايا سكنات ، استناداً على الشرذات الفخارية ذات الطابع الكاسى على سطح موقع قرية باربار (٤٤). كما أوضحت النصوص السومرية المكتشفة من البحرين بواسطة البعثة الأثرية الدانمركية احتمالية وجود « مدرسة تدريبية » على أرض البحرين ذاتها من العصر الكاسى (٤٥). وبالمثل عثر عام ١٩٧٩ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل أعيد استعمالها فى العهد البارثيانى فى موقع إلى الشمال من رأس القلعة مدون عليها بقايا كتابات سومرية اعتبرها B. Andre - Leicknam نقشاً معمارياً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد من فترة حكم المدعو " بورنابورياس الثانى » (١٣٥٩ - ١٣٣٣ ق. م.) (٤٦). كما وردت إشارة إلى دلون ضمن نصوص منطقة نيبور التى حفرت بها بعثة أمريكية ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٠ م ، وعثر بالمكان على حوالى ١٢ ألف لوحة مكتوبة ، وآثار تعود إلى العصر الكاسى ، اشتملت بينها على لوحتين وردت بهما

إشارة إلى دلمون . ولعل أهمية تلك النصوص أنها لخطابات تمت كتابتها ، وتدونيها في دلمون ، وأرسلت إلى نيبور ، وإلى أنها ترجح أيضاً وجود « حاكم كاسى على دلمون » (٤٧) . وقد رجح أن يكون هذا الحاكم على دلمون في الفترة ما بين ١٤٢٠ - ١٤١٠ ق. م. خلال فترة ذروة التوسع الكاسى ، وفي قمة اتصالاتهم الحضارية مع ملوك مصر الفرعونية خلال عصر العمارنة (٤٨) . كما تعكس نصوص إحدى الرسائل التي عثر عليها في نفر مؤرخة من العام الخامس من فترة حكم بورنابورياش الثانى استمرارية العلاقة مع دلمون من جهة ، وعلى تزويد دلمون لبلاده بتمور من جهة أخرى (٤٩) .

وانتهى هذا الدور من السيطرة المكاسية على دلمون ، ووردت آخر إشارة لذلك الوجود الكاسى بالمكان ضمن أحد نصوص الملك نيكولتى - نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م.) عثر عليه فى موقع تلول عقير ، يتضمن إحصاء بالغنائم الوفيرة للملك التى حصل عليها بعد هزيمته للحاكم الكاسى Kastiliasu (١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق. م.) ، وتلقب من بعد بلقب «ملك دلمون وملونخا» (٥٠) . وقد ترتب على ذلك انقطاع ملموس فى التسلسل التاريخى للحضارة فى البحرين لمدة تزيد عن ٥٠٠ عام بعد مرحلة الوجود الكاسى بالمكان وحتى العصر الآشورى الحديث يقطعه أحياناً بعض المكتشفات الأثرية مثلما عثر عليها ضمن أعمال البعثة الأثرية الفرنسية ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٢ بالمكان خاصة أنماط مميزة من فخار ذى لون قرنفلى غامق ، وبصلابة ملموسة ، وفى أشكال جرار طويلة ذات شفة دائرية أو متقلبة ، وجرار ذات قواعد بشكل الطورييد ، أو فخار أكثر شيوعاً بلون أصفر أو أصفر - برتقالى ، وفى شكل جرار ذات رقاب ، وأوانى بشكل الكؤوس قد تشابه فى بعض أشكالها وملاعها مع فخار حجر بن حميد فى وادى بيحان اليمنى ، وفى منطقة نجران - الأخدود قرب الحدود السعودية اليمنية (٥١) . وبإطلاق فإن سقوط الإمبراطورية الكاشية ، وانتهاء دورها فى السيطرة على ميزوبوتاميا عام ١٢٠٠ ق. م. وما ترتب عليه من فقد سيطرتها عليه جنوب بابل ، ومنطقة الخليج العربى قد ارتبط به وجود تسلاات متزايدة من

القبائل البدوية من المنطقة الصحراوية فى شمال شبه الجزيرة العربية من اراميين وكلدانيين وسوتيين ، وربما بالمثل من جنوب غرب الجزيرة العربية استناداً على تلك الأنماط الفخارية (٥٢) .

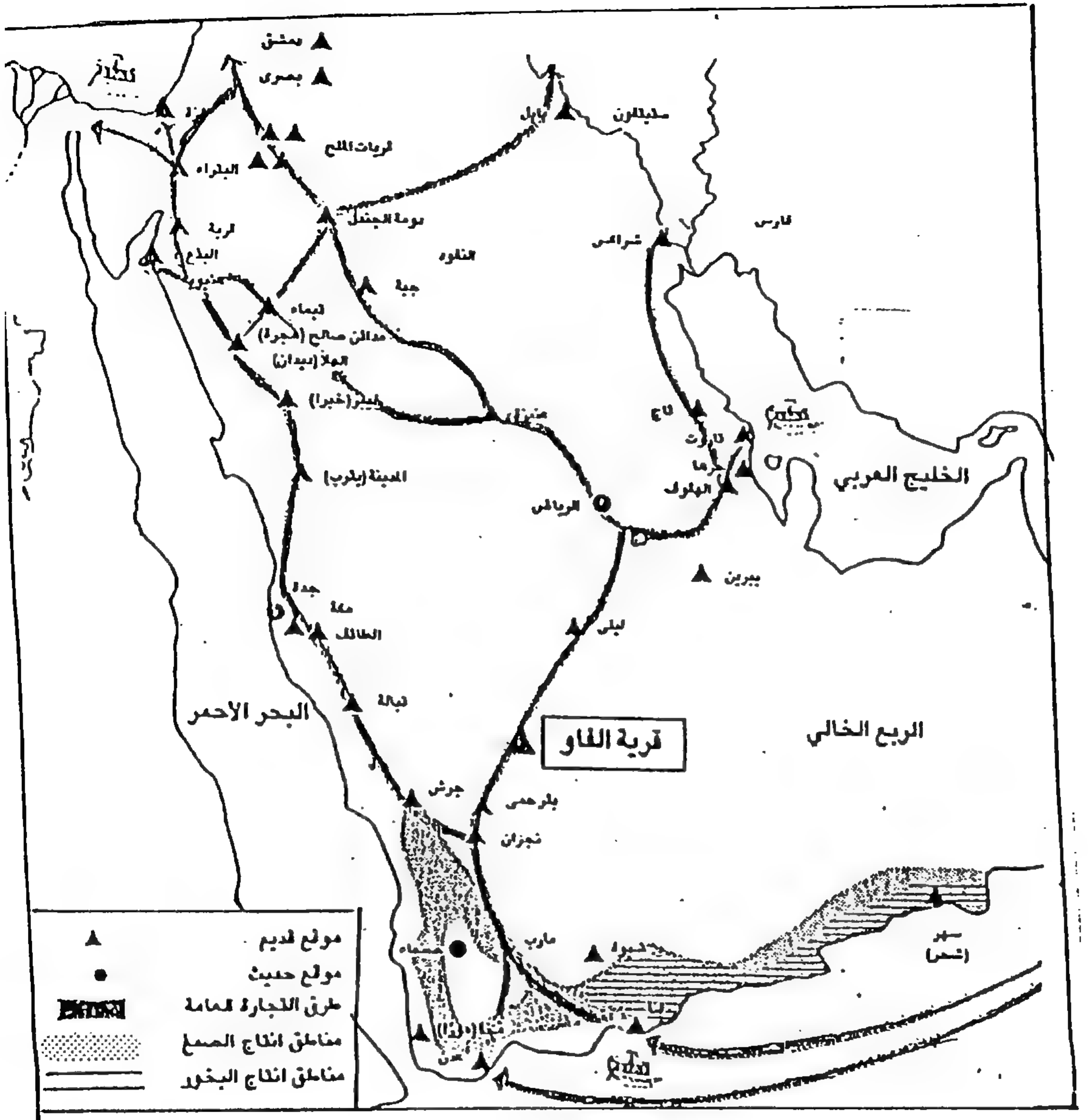
وبالنظر إلى ما سبق ، فإنه بالرغم من تلك التغيرات السياسية الضخمة خلال العصر البرونزى الحديث فى مواقع حضارات الشرق الأدنى القديم خارج منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة فى بلاد الرافدين ووادى النيل وشرق حوض البحر المتوسط فإن مجمل ما كشفت عنه الدلائل الأثرية وإلى الآن لا تقدم لنا الكثير من مواقع لتجمعات بشرية كثيفة على الساحل الغربى من الخليج العربى فيما عدا منطقة البحرين ، وأن معظم ما عثر عليه بتلك المواقع ارتبط بصفة خاصة مع تلك التغيرات السلبية الناجمة عن انهيار المراكز الحضارية إلى الشرق من الخليج العربى فى وادى السند بصفة خاصة والتي كان لها من قبل صلات حضارية وعلاقات تجارية بالمكان وأهله من جهة ، وفى الوجود الكاسى المكثف خاصة مع منطقة البحرين من جهة أخرى .



خريطة (١)

أهم المواقع الحضارية في الخليج العربي

وأهم الموارد الاقتصادية المرتبطة به والمنقولة عبره



خريطة (٢)

أهم خطوط التجارة القديمة عبر الخليج وشبه الجزيرة العربية

الهوامش

(١) البدر (سليمان) ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ « الصلات الاقتصادية والسياسية لمنطقة الخليج العربى فى أواخر الألف الثالث ق. م. » مجلة كلية الآداب والتربية العدد ٩ (يونيو ١٩٧٦) ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الصباح (ميمونة) الكويت حضارة وتاريخ (المجلد الأول) ، الكويت : ١٩٨٩ ص ٢٦ .

(٢) تعددت الآراء فى التسمية الواجب إطلاقها على العراق القديم ما بن ميزوبوتاميا . بمعنى بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات مع ما فى ذلك من تجاهل لباقى الأراضى المحيطة بالنهرين ، أو بارابوتاميا . بمعنى بلاد ما هو خارج النهرين ، أو باطلاق تسميات مرتبطة بدويلات مدنها السياسية : بلاد سومر ، بلاد سومر وأكد ، بلاد بابل ، أو بلاد آشور ، وإن كان من الأفضل إطلاق اسم « العراق القديم » ليعطى كل البعد الجغرافى لحضارات منطقة دجلة والفرات وما حولها . راجع عامر سليمان ، القانون فى العراق القديم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد : ١٩٨٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) البدر ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، الصباح ، المرجع السابق ص ٢٦ ، زيادة (نقولاً) ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع ، السنة الأولى (أكتوبر ١٩٧٥) ، ص ٦٩ - ٩٤ .

(٤) البدر ، المرجع السابق ص ٤٩ ؛ سلطان (غانم) ، الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت : ١٩٨٨ ، ص ٣٥ .

(٥) الهاشمى (رضا حواد) ، « دراسة فى مصادر تاريخ وآثار الخليج العربى فى عصوره القديمة » مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، السنة السابعة (أكتوبر ١٩٨١) ، ص ١١٥ - ١٢٩ ، البدر (سليمان) ، « محاولة لرسم معالم حضارية :

التنقيب الأثرى عملية تقنية بالأساس تعتمد على معطيات علوم أخرى . الجزء الثانى » ،
المنهل العدد ٤٩٢ ، المجلد ٥٣ (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م) ، ص ٣٠ - ٣٥ ؛ صالح (عبد
العزیز) ، الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية ،
الكويت : ١٩٨١ ، ص ٦٣ - ٨٠ .

(٦) راجع مقالة : Kemp, B.J. « Imperialism and Empire in New Kingdom :
Egypt » (c.1575 - 1087 B. C. « Imperialism in the Ancient world.
Edited by Gatnsey, P. D. and whittaker. C. R. Cambridge
University Press : 1978, pp. 7-57; pp. 284 - 373.

(٧) فرزات (محمد حرب) ومرعى (عبد) ، دول وحضارات فى الشرق العربى القديم
سومر وأكاد ، بابل وآشور ، أمورو وآرام . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر
دمشق : ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ص ١٧٢ .

(٨) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٩) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧١ ؛ توفيق (سيد) ، معالم تاريخ
وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٧ ؛ Hayes. W. C. :
« Egypt : Internal affairs from Tuthosis I to the Death of
Amenophis III » , CAHII, Part I, Cambridge University Press :
1973, p. 343.

(١٠) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٢ .

(١١) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

عن شعوب البحر وأخطارها راجع أيضاً :

Sandars, N. K. The sea People, London : 1978.

(١٢) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٣) صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٨٨ ، ص ٢٧ ؛ مهران (محمد موسى) ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية : ١٩٩٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ غلاب (محمد السيد) التجارة في عصر ما قبل الإسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ خريطة رقم (٤) ؛ رشيد (صبحي أنور) ، (العلاقات بين وادي الرافدين وتيماء) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ٣٨٧ - ٨٩ .

(١٤) توبلن (مايكل) ، الجوبة ، مشروع وادي الجوبة الآثارى . الجزء الأول : المسح الآثارى فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٨٤ ، ترجمة زاهى حواس ومراجعة د. حاب الله على حاب الله ، المؤسسة الأمريكية للدراسة الإنسان بواشنطن : ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

(١٥) صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(١٦) النجار (حواد كاظم) ، « التنقيب فى جزيرة عكاز (القرين) ١٩٧٨ (الموسم الأول)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٣ ، السنة السادسة (يوليو ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ - ٤٤ .

(١٧) سال (ج.ف) تقرير عن انجازات البعثة الفرنسية للكشف الأثرى لجزيرة فيلكا (١٩٨٣ - ١٩٨٧) وخطة البعثة للكشف الأثرى ١٩٨٨ - ١٩٩٢ ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل غربية ، وزارة الإعلام ، إدارة الآثار والمتاحف ، الكويت ؛ - Jean Salles (Francois), Failake, Fouilles Francaises 1983, Travaux de La Maison I'Orient No.9, Lyon : 1984

(18) Potts, D. T. The Arabian Gulf in Antiquity. vol. I : Form Prehistory to the fall of the Achaemenid Empire. Oxford : 1990, p.329.

(١٩) كيروم (ب) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثاني قبل الميلاد . المجلد الأول ، الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان البدر ود. عز الدين غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الإعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر ص ١٧١ - ٧٨ .

(20) Denton, B. E. The Late Second millennium B. C. in the Arab / Iranian Gulf, ph. D. Disserlation, UmI, Ann Arbor : 1991, p. 277.

(21) Denton, Op. cit., p. 277.

(22) Denton, Op. cit., p. 277.

(23) Potts, Op. cit., p. 330.

(24) Potts, Op. cit., p. 303.

(25) Zarins, J. Mughannum. A. S. and Kamal, M., « Excavations at Dhahran South the tomuli field (208 - 92). 1403 A. H., 1983. A Preliminary Report », Atlal the Journal of Saudi Arabian Archaeology 8 (1984), pp. 25-54; Denton, Op. cit., p. 266.

(26) Denton, Op. cit., p. 278. Potts, Op. cit., p. 303.

(27) Rice, M. Search for the Paradise Land. An introduction to the Archaeology o Bahrain and the Arabian Gulf from the earliest times to the death Alexander the Great. Lonodon and New York : 1984, P. 227.

اعتقد تيودور بنت في أن مقابر البحرين تعود إلى الفينيقيين قبل هجرتهم من الخليج العربي اعتماداً على دراسته للآثار ، وتأثره برأى هيودوت الداعى بأن الفينيقيين كانوا يدعون في عهده بأن أسلافهم جاءوا من الخليج . راجع البدر ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، ص ٢٦ .

(28) Rice, Op. cit., p. 278.

(29) Denton, Op. cit., p. 278.

(30) Rice, Op. Cit., p. 227.

(٣١) البدر ، المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣٢) بوشارلات (ريمى) ويير لومبارد ، « نتائج التنقيبات فى موقع رميلة / العين ١٩٨٠ - ١٩٨٣ » ترجمة وليد التكريتى ، مجلة الآثار فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد ٤ (١٩٨٥) ، ص ٤٢ - ٥٩ ؛ شعت (شوقى) ، « التقنيات الأيرية فى الخليج العربى وأهميتها التاريخية » الخليج العربى . دراسات تاريخية وجغرافية منذ أقدم العصور حتى الوقت الراهن ، دمشق : ١٩٩٣ ، ص ٥٦ - ٥٩ .

(٣٣) هيستنجر (أ) ، عمان فى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى مترجم إلى العربية ، سلسلة تراثنا العدد ٤١ ، سلطنة عمان ، إدارة التراث القومى والثقافة : ١٩٨٣ ، ص ٢٦ ؛ ولكنسون _ جى (الأفلاج ووسائل الري فى عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، ١٩٨١ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، « البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة » ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة . مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، الإسكندرية : ١٩٩٣ ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(34) Denton, Op. cit., p. 49.

(35) Wachsmann, S. « Is Cyprus Ancient Alashiya? New evidence From an Egyptian Tablet ». Biblical Archaeologist 49.1 (March 1986), p. 37.

(36) Denton, Op. cit., p. 50.

(37) Vine, P. Pearls in Arabian Gulf. The Heritage of Bahrain, Immel Publishing , p. 26.

(38) Denton, Op. cit., p. 50. Vine. Op. cit., p. 26.

(39) Potts, Op. cit., p. 298.

(40) Potts, Op. cit., p. 299.

- (41) Potts, Op. cit., p. 302.
- (42) Potts, Op. cit., p. 302.
- (43) Potts, Op. cit., p. 302.
- (44) Potts, Op. cit., p. 303.
- (45) Potts, Op. cit., p. 307.
- (46) Potts, Op. cit., p. 307.
- (47) Potts, Op. cit., p. 309.
- (48) Potts, Op. cit., p. 310.

(٤٩) البدر ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

- (50) Potts, Op. cit., p. 314 ; Vine. Op. cit., p.27.
- (51) Potts, Op. cit., p. 314 -15.
- (52) Vine, Op. cit., p. 27. Potts, Op. cit., p. 392.

التقاويم السبئية الحميرية

فى ضوء نقش حميرى جديد

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

لم يعرف اليمنيون القدماء نظاماً موحداً للتأريخ ، فهم لم يؤرخوا بسنى حكم ملوكهم وحكامهم ، ولم يدونوا قوائم بأسماء هؤلاء الملوك والحكام كما فعل المصريون القدماء . والتاريخ الوحيد بسنى حكم الملك الوارد فى النقوش اليمنية القديمة ، سجل خارج اليمن وبالتحديد فى مصر ، وهو التاريخ المنقوش على تابوت التاجر المعينى « زيد أيل بن زيد » (المحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) الذى عاش فى مصر فى عصر البطلمة ؛ فقد جاءت فيه عبارة « ب و ر خ هـ / ك ي ح ك / خ ر ف / ث ن ي / و ع ش ر ي / ك ت ل م ي ث / م ل ك ن » وترجمتها « فى شهر كيهك (من) السنة الثانية والعشرين من (عصر) بطلميوس الملك (Abdel Monem 1984, p. 93) والعبارة تسرد تاريخ دفن التاجر المذكور . ومن الواضح أن كاتب هذا النقش تأثر بأسلوب التأريخ السائد فى مصر فى العصر البطلمى والذى من الواضح أنه استمرار لأسلوب التأريخ الذى كان متبعاً فى عصر الفراعنة .

أن كل ما أورده اليمنيون القدماء من تأريخ للأحداث فى نقوشهم يقتصر على ذكر أرقام السنوات فقط أو ذكر أرقام السنوات مقترنة بأسماء غامضة أكثرها شيوعاً فى النقوش الأسماء : « مبحض بن أبحض » ونبط (نبط أيل بن ابأمر RES 4133) ثم اسم تعرف عليه العلماء أخيراً وهو « ابعلى بن .. » ويبدو من تركيب هذه الأسماء واحتوائها على كلمة « بن » أنها أسماء أجداد أوائل أو زعماء قدامى للقبائل (١) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد ظل العلماء حائرين أمام التواريخ المقترنة بهذه الأسماء أو المذكورة بدونها حتى تمت ترجمة النقش المعروف بين النقوش اليمنية القديمة باسم « نقش حصن الغراب » ترجمة صحيحة (٢) ، فقد ساعد ذلك العلماء على التوصل إلى بداية أحد التقاويم اليمنية بأن هذه البداية كانت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد أطلقوا على هذا التقويم فى أول الأمر « التقويم السبئى » ثم عدلوا التسمية فى السنين الأخيرة إلى « التقويم الحميرى » (لأسباب سنذكرها فيما بعد) . والحقيقة أنه لا السبئيين ولا الحميريين استخدموا تقويمًا فى ذلك التاريخ ، فإن أقدم نقش مؤرخ بهذا التقويم يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، عندما بدأ اليمنيون يذكرون تاريخ بعض الأحداث مقترنة إما باسم التقويم الذى أطلقوا عليه « مبحض بن أبحض » أو باسم التقويم الذى دعوه « نبط » (أو باسم تقويم « أبعلى » الذى لم يتعرف العلماء على اسمه إلا أخيراً) أو يذكرون رقم السنة دون ذكر أى من هذه الأسماء أى أن إتباع اليمنيين للتاريخ للأحداث بدأ بعد البداية المذكورة للتقويم (عام ١١٥ ق. م.) بحوال أربعة قرون .

والذى ساعد العلماء على تحديد عام ١١٥ ق. م. (وهو الرأى الغالب لأن بعضهم حدد هذا التاريخ بسنة ١٠٩ أو بين ١١٨ و ١١٠ قبل الميلاد) كبداية للتقويم المذكور فى نقش حصن الغراب ، ورود العبارة التالية فى السطور الأخيرة من النقش « أ ح ب ش ن / ... ك ه ر ج و / م ل ك / ح م ي ر م / ... و ر خ ه و / د ح ج ت ن / ذ ل أ ر ب ع ي / و س ث / م ا ت م / خ ر ف ت م . (RES 2633) .

وترجمتها « الأحباش ... عندما قتلوا ملك حمير ... تاريخه (شهر) ذو الحجة (لسنة) ٦٤٠ من التقويم » (٣) .

وكما نرى لم يذكر النقش اسم التقويم الذى تنمى إليه تلك السنة ، ولكن الباحثين عادلوا أحداث هذا التاريخ بما ورد فى المصادر الحبشية والمصادر المسيحية البيزنطية عن حملة الأحباش على اليمن على أثر مذبحة (أو محرقة) شهداء نجران ،

وتوصلوا إلى أن ذلك الغزو حدث سنة ٥٢٥ ميلادية . ومن هنا اعتبروا أن سنة ٥٢٥ م هذه هي السنة المقابلة لسنة ٦٤٠ المذكورة فى نقش حصن الغراب . وبطرح السنين ٦٤٠ - ٥٢٥ - ١١٥ أمكن التوصل إلى أن سنة ١١٥ ق.م. هي بداية التقويم الذى تنتمى إليه سنة ٦٤٠ . ولما كانت لا توجد نقوش يمنية مؤرخة بالسنة التى تعادل سنة ١١٥ ق.م أو حتى السنوات التى بعدها حتى القرن الثالث الميلادى فقد اعتبر الباحثون هذه السنة البداية « النظرية » للتقويم اليمنى ، واعتبروها « نظرية » لأن هذا التقويم لم يستخدم فعلاً إلا بعد هذه البداية بحوالى أربعة قرون .

غير أن الذى حير العلماء ورود أرقام سنوات فى النقوش اليمنية مقترنة بأسماء التقويمين « مبحض بن ابحض » و « نبط » ، فافترض بعضهم بدايات لهذه التقاويم تتطابق أحياناً مع التاريخ الذى يبدأ نظرياً بعام ١١٥ ق.م. ، والذى أطلقوا عليه التقويم الحميرى لأنه ورد فى القرن الثالث الميلادى مقترناً بأسماء الملوك الحميريين « ياسر يهنعم وشعر يهرعش » ، بينما افترض آخرون بدايات مختلفة عن بداية هذا التاريخ ومثال ذلك العالم « اليرت جام » الذى افترض أن تقويم « مبحض » هذا بدأ سنة ٩٧ قبل الميلاد (Jamme 1962, p. 362) أى أن هناك فارق زمنى بين التقويم الحميرى يبلغ ١٨ سنة بزيادة التقويم الحميرى ، كما افترض أن تقويم « نبط » بدأ حوالى عام ٣٤ ق.م. (Ibid) ولكن من ناحية أخرى فقد تنبه علماء آخرون مثل العالم « بيستون » إلى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم الحميرى (الذى كان يسميه فى البداية « التقويم السبئى ») ولكنه اعترف أن آرائه هذه هي مجرد افتراضات (Beeston 1981, p. 4) كما فسر بيستون علاقة التقاويم الثلاثة ببعضها تفسيراً صحيحاً فقال أن تقويم « نبط » كان يستخدم إلى جانب تقويم « مبحض » فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أهمل تقويم « نبط » وبقي تقويم « مبحض » مستخدماً فى النقوش السبئية المتأخرة (يقصد الحميرية) وافترض بيستون أن الفارق بين تقويمى « مبحض » و « نبط » يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981, p. 3) . وقد اتفق ، أى العالم

« جونزاج ريكماتز » مع رأى يستون فى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم السبتي (يقصد الحميرى) ولكنه أخطأ عندما افترض أن التاريخ الوارد فى النقش رقم RES 3958 المؤرخ بسنة ١٤٤ هو بالتقويم الحميرى (Ryckmans 1943, p. 236) لأنه سوف يتضح أنه مؤرخ بتقويم آخر لم يرد اسمه فى النقوش قبل قراءة نقش المعسال ، وهو التقويم المسمى « ابعلى » كما سنذكر بعد (٤) . وقد حاول العالم البريت تفسير أصل تقويم نبط فقال أنه ينسب إلى آخر ملك قتباني وهو الملك « نبطم يهنعم » لأن الذين استخدموه هم قبائل بنى ذرانح « الذين كانوا يسكنون منطقة كانت خاضعة لدولة قتباني قبل خضوعها لدولة حمير . وقد حدد البريت بداية تقويم « نبط » بالسنة الخامسة قبل الميلاد (Albright 1958, p. 6) ولكن هذا التاريخ ثبت عدم صحته بعد قراءة نقش المعسال . وكل هذه الآراء سواء الصحيح منها وغير الصحيح كانت مجرد احتمالات تفتقر إلى إثبات بالدليل الأثرى ، حتى تم الكشف فى السنين الأخيرة عن نقوش جديدة فى منطقة جبل المعسال التى تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت هذه المنطقة تسكنها قبيلتان هما قبيلة « ردمان » وقبيلة « خولان » (وهذه الأخيرة غير قبيلة خولان المعروفة التى كانت تسكن فى شمال غرب اليمن بالقرب من مدينة « صعدة ») تنضويان تحت لواء قبيلة كبرى تدعى « بنو معاهر » ومنطقة هذه القبائل تقع إلى الجنوب من دولة سبأ وإلى الشرق من دولة حمير وإلى الجنوب الغربى من دولة قتباني ، أى أنها فى موقع الاحتكاك بين هذه القوى الثلاث (انظر الخريطة) ويبلغ عدد نقوش جبل المعسال (١٨ نقشاً) ، أهمها جميعاً النقش رقم ٢ طبقاً لترقيم البعثة الفرنسية . وقد سبق أن نسخت بعثة ألمانية بعض هذه النقوش ووصفها العالم الألماني « والتر مللر » بوجه عام (Muller 1973, p. 16) ، ثم نشر العالم البلجيكي « البرت جام » بعض النصوص (Jamme 1976, p.110) وأعطاهم الأرقام (2861, 2864, 2867 Ja.) . ولكن لم يتمكن هؤلاء العلماء من نشر النقوش كاملة بسبب وعورة المنطقة وشدة انحدار الصخر من ناحية ولا ارتفاعها الشاهق وصغر حجم حروفها من ناحية أخرى.

ولذلك لم تظهر أهمية هذه النقوش مما نشره عنها كل من والتر ملر والبرت جام، حتى تمكنت البعثة الفرنسية (MAFRAY) باستخدام وسائل أكثر تقدماً ومن بينها عدسات مقربة قوية من نسخ هذه النقوش كاملة أو شبه كاملة ، وتمكن العالم الفرنسي كريستيان روبان من قراءتها (Robin 1981, pp. 316 - 339) ، وركز دراسته على النقش رقم (٢) . الذى ألقى ضوءاً جديداً على التقاويم اليمنية، كما غير من تواريخ حكم بعض ملوك سبأ وحمير التى كانت شائعة بين علماء الدراسات اليمنية القديمة .

لقد كان جبل المعسال يقع فى نطاق عاصمة قبيلة بنى معاهر التى تدعى فى النقوش « وعلان » وهذه القبيلة قتبانية الأصل أى كانت تخضع فى أول الأمر لدولة قتبان ثم خضعت لدولة حضر موت عندما اسقطت هذه الدولة دولة قتبان . ثم ما لبثت قبيلة بنى معاهر أن خضعت لدولة حمير عندما غزا ملوك حمير دولة حضر موت . وهكذا كانت قبيلة بنى معاهر وعاصمتها وعلان فى مركز الصراع بين هذه الدول الثلاث الذى انتهى بسيادة دولة حمير والتى ما لبثت أن اسقطت دولة سبأ وسيطرت على اليمن كله . وكان ذلك فى عصر الملكين الحميريين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش . وقد أرخت النقوش التى تروى هذه الأحداث لسنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ولم يكن معلوماً قبل قراءة نقش المعسال رقم (٢) مدلول هذه الأرقام على وجه التحديد وأن كان بعض العلماء قد رجح أن تكون هذه التواريخ محسوبة ابتداء من عام ١١٥ ق. م. كما قلنا، ولكن ذلك كان فى عداد الاحتمالات ويحتاج إلى دليل من النقوش حتى جاء هذا الدليل بشكل حاسم فى نص من النقش المذكور كما يلى :

(٥) ٧ ٤ | ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦

الترجمة : فى شهر ذومندر أن (يولية) من (سنة) تسع وسبعين .

|| | ١٥ || ١٥) ٤ | ٤ || | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ |

القراءة: ومأت / خ ر ا ي ف ت م / ب ن / خ ر ف / أ ب ع ل ي / ب ن /

الترجمة : ومائة (من) التقويم (حرفيا : سنوات) (الخاص) بزمان ابعلى بن ...

١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ |

القراءة: / و ت خ ر ف / ح م ي ر م / ذ ل ث ل ث ت / و س ث ه ي / و ت ل ث

الترجمة : ... (الموافق فى) التقويم الحميرى (سنة) ثلاثة وستين وثلاث

١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ | ١ ٥ ٩ ٧ ٤ |

القراءة : مأت م / ب ن / خ ر ف / م ب ح ض / ب ن / أ ب ح ض

الترجمة : مائة من تقويم (حرفيا : سنة) مبحض بن أبحض .

والواضح من هذا النص أنه حل مشكلة التعرف على تقويم « مبحض بن أبحض » وإثبات أنه هو نفسه التقويم الحميرى المستخدم فى نقوش العصور التالية، وبذلك ثبتت آراء كل من بيستون وريكما نزالتي ذكرناهما والتي كانت قبل ذلك مجرد افتراضات . ولتفسير اختفاء اسم « مبحض بن أبحض » كأسم للتقويم من هذه النقوش قال العلماء بأنه حدث بعد توحيد دولة حمير لليمن كله تحت لوائها ، فلم يعد هناك داع لذكر اسم التقويم لأنه أصبح مفهوما أنه التقويم الخاص بالدولة الحاكمة.

وكانت لمعادلة السنة ٣٦٣ من التقويم الحميرى بالسنة ١٧٩ من تقويم « ابعلى » كما ورد فى النقش المذكور نتيجتان هامتان الأولى هى التعرف على البداية النظرية لتقويم « ابعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية (٣٦٣ - ١٧٩ = ١٨٤ - ١١٥ ق. م. - ٦٩ م.) . والنتيجة الثانية هى التعرف على التواريخ

الواردة فى النقوش التى أرخت بهذا التقويم دون أن تذكر اسمه لأن كلمة «أبعلى» وردت فى هذا النقش لأول مرة فى النقوش اليمنية القديمة ، فقد تمكن العلماء من التعرف على التواريخ المدونة بهذا التقويم من مقارنة أسماء القبائل والمناطق المقترنة بهذه التواريخ بأسماء القبائل والمناطق الواردة فى نقش المعسال رقم (٢) ومثال ذلك النقش المرقم RES 3958 فى مجموعة النقوش السامية الذى لم يكن مصدره الأصلي معروفاً لدى العلماء هل هو من وادى بيحان ، أم من مارب ، أم من منطقة ريدان . (RES TOME, VI, P. 12) وهو مؤرخ بسنة ١٤٤ دون ذكر اسم التقويم ، فقد ورد فى هذا النقش ما يفيد أن كاتبه « القيل » (أى أمير الحصن) « نص يهحمد » ينتمى لقبائل ردمان وخولان ومعاهر ، وأن عاصمته هى « وعلان » (التى يقع فى نطاقها جبل المعسال) . ومن الواضح أنها نفس القبائل ونفس المنطقة المذكورة فى نقش المعسال رقم (٢) الذى أمكن عن طريقه التعرف على بداية تقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية كما تقدم ، وبذلك أمكن تحديد التاريخ الميلادى المقابل لسنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش وهى سنة ٢١٣ ميلادية . وقد استخدمت نفس الطريقة للتعرف على التاريخ الميلادى للنقوش الأخرى المؤرخة بهذا التقويم دون ذكر اسمه وهى السنوات ٧٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، وذلك بإضافة الرقم ٦٩ إليها فهى بذلك تعادل السنوات الميلادية ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ على التوالى .

وبتطبيق النتيجة التى توصل إليها العلماء من التوحيد بين التقويم الحميرى وبين تقويم « مبحض بن أبحض » أمكن تحديد السنوات الواردة من عصر الملكين « ياسر يهنعم » وابنه « شمر يهرعش » المؤرخة بتقويم مبحض بن أبحض وهى السنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ المذكور معها اسم التقويم بالإضافة إلى السنة ٤٠٩ التى لم يذكر معها اسم التقويم ، بأنها تعادل التواريخ الميلادية ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ على التوالى .

وقد أفادت هذه النتيجة أيضاً فى التعرف على البداية النظرية للتقويم المسمى « نبط » المذكور فى النقش رقم RES 4196 فى مجموعة النقوش السامية والمؤرخ بسنة ٣١٦ من هذا التقويم ، فمن دراسة هذا النقش تبين أن كاتبه « القيل فرعن يازل » من قبيلة « بنى ذرانح » يظهر خضوعه للملكين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش أى أن النقش كتب أثناء اشتراك هذين الملكين فى الحكم ، ولما كانت هذه الفترة طبقاً لما سبق استخلاصه تمتد بين عامى ٣٨٥ و ٤٠٩ حميرية فلا شك أن عام ٣١٦ من تقويم « نبط » يقع فى نطاق هذه الفترة التى إذا أخذنا متوسطها وهو سنة ٣٩٧ حميرية وعادلناها بسنة ٣١٦ من تقويم « نبط » فإن فرق التقويمين يكون حوالى ٨١ سنة ، وهذه النتيجة تتفق تقريباً مع رأى بيستون الذى سبق أن حدد الفرق بين التقويمين (قبل قراءة نقش المعسال رقم ٢) بمدة تتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981, p. 3) وعلى هذا فإن البداية النظرية لتقويم نبط هى حوالى عام ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد (١١٥ - ٨١ = ٣٤) (٥) .

وكما قلنا فإن العلماء استخدموا عبارة « البداية النظرية » لإطلاقها على سنوات بداية التقاويم الثلاثة وهى ١١٥ ق. م. للتقويم الحميرى أو تقويم «مبحض بن أبجض» و ٣٤ ق. م. لتقويم « نبط » ، ٦٩ ميلادية لتقويم «ابعلى» وسبب ذلك أن هذه التقاويم لم تستخدم فعلاً فى هذه التواريخ ولكنها استخدمت بعد عدة قرون منها ، وعندما استخدمها اليمينيون فى هذا الوقت المتأخر نسبوا إلى أسماء أجداد قدماء (رؤساء قبائل أو حكام أوائل) عاشوا خلال فترات البداية هذه . ويتضح ذلك من وجود كلمة « بن » فى أسماء هذه التقاويم وهى تعنى أما « ابن » أو « من قبيلة » التى يليها اسم الأب أو القبيلة .

نتائج قراءة نقش المعسال بالنسبة لتعاصر ملوك سبأ وحمير :

أن النتائج السابقة التى توصل إليها العلماء من قراءة نقوش جبل المعسال وخاصة النقش رقم (٢) ، وأن كانت قد حلت مشكلة التعرف على ماهية وبداية

التقاويم اليمنية القديمة وتحديد المقابل الميلادى للتواريخ الواردة فى النقوش المؤرخة بها ، إلا أنها خلقت من ناحية أخرى مشكلة كبيرة هى اختلاف تواريخ حكم ملوك سبأ وحمير اختلافاً كبيراً عما كان معروفاً لدى العلماء من قبل ، فإن الذى دون النقش رقم (٢) وهو القيل « لحي عنت أوكن » أمير وعلان روى فيه أخبار انتصار سيده الملك الحميرى « كرب أيل أيفع » الذى أطلق عليه فى النقش لقب « ملك سبأ وذو ريدان » أى بإضافة كلمة « سبأ » إلى لقبه (وهذا له مغزى كبير سنتنا وله فيما بعد) - وقد روى هذا القيل انتصار مليكه الحميرى على الملك السبئى « أيل شرح يحضب » فى موقعة أطلق عليها اسم « ح ق ل ن / ذ ح ر م ت م » أى « حقل ذى حرمة » (Robin 1981, p. 323) والنقش مؤرخ كما ذكرنا بسنة ١٧٩ ابعلى وبسنة ٣٦٣ حميرية اللتان تعادلان سنة ٢٤٨ - ٢٤٩ م . والدليل على صحة هذه المعلومات أن هذه المعركة نفسها ذكرت فى نقوش الملك السبئى « أيل شرح يحضب » باسم « ح ق ل ن / ح ر م ت م » أى « حقل حرمة » وذلك بين النقوش التى ترجع لعصر هذا الملك السبئى والتى وجدت فى معبد مأرب المسمى « محرم بلقيس » والتى نشرها العالم « البرت جام » وخاصة النقش رقم Ja578 (Jamme 1962, pp. 83 - 86) غير أن الطريف فى الأمر أن أعوان الملك السبئى « أيل شرح يحضب » الذين دونوا أخبار هذه المعركة فى النقوش المذكورة أدعوا انتصار مليكهم على الملك الحميرى الذى أطلقوا عليه لقب « ذو ريدان » فقط أى مجرداً من كلمة « سبأ » بينما أطلقوا على مليكهم « ملك سبأ وذو ريدان » وهذا معناه أن كل من الملكين السبئى والحميرى أضاف إلى لقبه الأصلى الذى به اسم بلاده (وهى « سبأ » بالنسبة للملك السبئى و « ريدان » بالنسبة للملك الحميرى) - اضاف اسم بلاد خصمه رمزاً لانتصاره عليه فادعى كل منهما إنه « ملك سبأ وذو ريدان » وفى الوقت نفسه عندما يذكر كل منهما اسم ولقب خصمه يجرده من اسم بلاده هو ، فالملك

السبئي يدعو الملك الحميري « كرب ايل (ايفع) ذوريدان أى بدون ذكر كلمة « سبأ » والملك الحميري يدعو الملك السبئي « ايل شرح يحضب ملك سبأ » أى بدون ذكر عبارة « ذو ريدان » .

وهكذا تنافس الملكان فى انتقال لقب « ملك سبأ وذو ريدان » وفى تجريد كل منهما الآخر من أى ادعاء بالسيطرة على خصمه ، كما تنافسا فى ادعاء كل منهما الانتصار على الآخر فى موقعة حقل ذى حرمة .

ويهمنا من هذه المساجلات والروايات المتناقضة أن الملك السبئي « ايل شرح يحضب » وهو ايل شرح يحضب الثانى فى قوائم ملوك سبأ يميز بأخيه « يازل بين » عن ايل شرح يحضب الأول الذى يرجح أنه عاش فى القرن الأول الميلادى (Kitchen 1994, pp.11-13 & 202) وهذا الملك عاصر الملك الحميري « كرب ايل ايفع » الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) مقترنا بتاريخ محدد (تاريخ معركة حقل ذى حرمة) وهو ٣٦٣ حميرية (زمن مبحض بن ابحض) و١٧٩ ابعلى ، وهما التاريخان المعادلان لسنة ٢٤٨ - ٢٤٩ ميلادية وهذه النتيجة احدثت انقلاباً كبيراً فى تحديد تواريخ حكم ملوك سبأ وملوك حمير فقد ترتب عليها انتقال فترة حكم الملك السبئي « ايل شرح يحضب الثانى » من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبالتحديد فى الفترة من ٥٠ - ٢٠ ق. م. كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل Jamme 1962, p.391 إلى ما بين عامى ٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية أى بتأخير ثلاثة قرون تقريباً ، ولم يعد الملك ايل شرح يحضب الثانى هذا هو الملك الذى عاصر حملة « ايلليوس جالوس » الرومانية ضد دولة سبأ سنة ٢٤ قبل الميلاد والذى دعاه استرابون مؤرخ الحملة « ايلزاروس » كما كان يعتقد من قبل (Jamme 1962 , p. 391 بل انتقل ذلك إلى عصر الملك السبئي المسمى « ذمار على بين » الأول (حوالى ٣٠ - ١٥ ق. م.) ولما كان اسم هذا الملك لا يحمل نطق « ايلزاروس » مثل كلمة « ايلشرح » فى اسم الملك ايلشرح يحضب ، فقد رجح العلماء أن الذى تصدى

لحملة ايلليوس جالوس هو أخ الملك « ذمار على بين » المسمى « ايلشرح » اعتماداً على النقش رقم (RES 4085) . (Kitchen 1994, p. 204) .

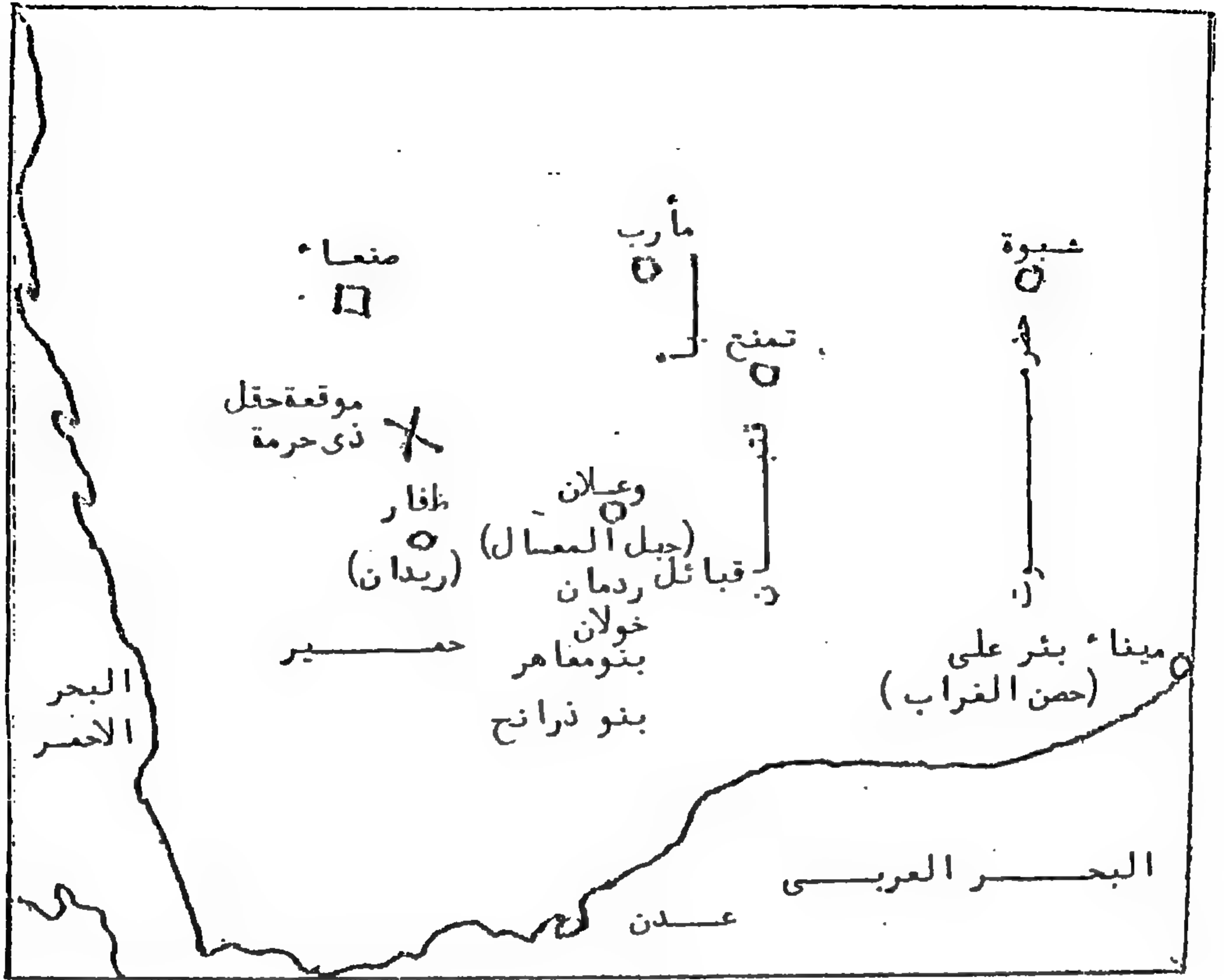
وبطبيعة الحال ترتب على هذا التأخير لمدة ثلاثة قرون تأخير عصور ملوك سبأ الذين سبقوا الملك « أيل شرح يحضب الثانى » والذين خلفوه ، فالملوك الذين سبقوه وتعذلت تواريخ حكمهم هم :

اسم الملك	التاريخ السابق	التاريخ بعد التعديل
- وهب ايل يحوز	١٦٠ - ١٤٥ قبل الميلاد	١٥٠ - ١٦٥ بعد الميلاد
- إنمار يها من	١٤٥ - ١٣٠ قبل الميلاد	١٦٥ - ١٧٠ بعد الميلاد
- كرب أيل وتاريخها من الثانى	١٣٠ - ١١٥ قبل الميلاد	١٧٠ - ١٨٥ بعد الميلاد
- يريم أيمن	١١٥ - ٨٥ قبل الميلاد	١٨٥ - ١٩٠ بعد الميلاد
- علهان نهفان	٨٥ - ٦٥ قبل الميلاد	١٩٠ - ٢٠٥ بعد الميلاد
- شاعر أوتر	٦٥ - ٥٥ قبل الميلاد	٢٠٥ - ٢٣٠ بعد الميلاد

(Kitchen 1994, p. 240) (Jamme 1962, p. 390)

ويلى ذلك اسما ملكين ، هناك خلاف بين العلماء على تحديد مكانهما من هذا التسلسل ، هما « لحي عثت يرخم » و « فرعم ينهب » (٦) ، ويأتى بعدهما الملك أيل شرح يحضب الثانى الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) والذى تعدل تاريخ حكمه من ٥٠ - ٢٠ ق.م. إلى ٢٤٠ - ٢٦٠ م كما ذكرنا وقد خلفه ملك واحد هو « نشأ كرب يها من » الذى تعدل تاريخ حكمه من ٢٠ - ٥ ق.م. إلى ٢٦٠ - ٢٧٥ ميلادية وهو آخر ملوك دولة سبأ ، فقد استولت دولة حمير على سبأ فى آخر عهده أى سنة ٢٧٥ ميلادية (Kitchen 1994, p. 245) وأخيراً فقد ثبت من نقوش المعسال أن حمير لم تكن مجموعة من القبائل المتفرقة

المتناحرة كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل بل كانت دولة قوية استطاعت أن تسقط دولة سبأ وأن تسيطر على بلاد اليمن كلها (بعد أن اسقط الملك الحميري شمر يهرعش دولة حضر موت حوالي عام ٢٩٠ ميلادية) وأن تفرض اسمها على كل مناطق اليمن مما دعا العلماء إلى تسمية العصر الذي بدأ بالربع الأخير من القرن الثالث الميلادي بعصر الإمبراطورية الحميرية (Kitchen 1994, p. 245) .



خريطة الجزء الجنوبي الغربي من الجمهورية اليمنية لبيان الدول القديمة
وعواصمها وأسماء المواقع والقبائل الواردة في هذه البحث

الهوامش

(١) هذه الأسماء هي التي وردت في النقوش اليمنية القديمة مقترنة بأرقام سنوات ولكن هناك عدد كبير من النقوش أتبع فيها التاريخ بأسماء حكام أو زعماء قدامى أو معاصرين لتدوين هذه النقوش ، لا تذكر فيها أرقام سنوات بل يذكر فيها اسم الحاكم أو الزعيم مقترناً بسنة تنصيبه أو ولايته التي يفهم من سياق النقش أنها السنة الأولى من هذه الولاية والمثال النموذجي لذلك هو النص السبئي التالي :

ب و ر خ / ذ أ ب هـ ي / ذ خ ر ف / و د د ا ل / ب ن / أ ب ك ر ب / ب ن / ج ذ م ت
وترجمته : في شهر ذوا بهي (الأباء) من سنة ودد ايل بن أبيكرب من (قبيلة) جذمت.
(Beeston, 1954, p. 29).

وإذا كانت فترة الولاية هي الثانية لنفس الشخص كان السبئيون يضيفون كلمة « ث ن ي » بمعنى الولاية الثانية (Beeston 1954, p.28) .

(٢) نقش حصن الغراب : حفر هذا النقش على الصخر بجوار حصن قديم يطلق عليه « حصن الغراب » يطل على الميناء الحالي المسمى « بئر على » جنوب حضر موت ، وقد دونه القائد « سميفع أشوع » الذي كان يحارب الأحباش تحت قيادة الملك المسمى في النقوش الحميرية « يوسف أسار يثار » (Jamme 1966, p. 39) وهو المعروف في المصادر الإسلامية باسم « يوسف ذو نواس » الذي تنسب إليه هذه المصادر حادثة حرق شهداء نجران ، التي يرى الكتاب المسلمون أنها حادثة الأخدود المشار إليها في سورة البروج .
والواضح من سياق النقش أن القائد « سميفع أشوع » لجأ مع قبيلته إلى هذا الحصن البعيد بعد هزيمة مليكه وقتله على يد الأحباش .

ومن المفارقات الغريبة بشأن هذا النقش أن بعض الباحثين العرب مازالوا حتى اليوم يفسرون نصوصه بأنها تتحدث عن النبي هود وقوم عاد مقلدين في ذلك قسيس أنجليزي يدعى Ch. Forester ترجم هذا النقش على أساس هذا التفسير الخطأ في كتابه المسمى The historical geography of Arabia 1844, vol. 2, p. 445 ، وكان ذلك

قبل أن يتمكن العلماء المتخصصون فى النقوش اليمنية القديمة من قراءة هذه النقوش قراءة صحيحة . ولكن بعد أن تم لهم ذلك ترجموا هذا النقش ترجمة صحيحة وتبين أنه لا توجد علاقة بين نصوص هذا النقش وبين النبی هود وقوم عاد ، وكانت أولى هذه الترجمات الصحيحة تلك التى نشرها العالم « بریتوریوس » سنة ١٨٧٢م ثم تلاها ترجمات ودراسات متعددة آخرها هى المنشورة فى « مجموعة النقوش السامية تحت رقم ٢٦٣٣ (RES 2633) والصادرة عام ١٩٢٨م .

ورغم التكرار المتواصل للترجمة والدراسات الصحيحة لنقش حصن الغراب طوال مائة عام فما زال هؤلاء المؤلفون العرب يكررون ترجمة القس فورستر الخاطئة بأن النقش يروى أخبار النبی هود وقوم عاد . ومنهم مترجمو كتاب التاريخ الجغرافى للقرآن الصادر فى مجموعة الألف كتاب الأولى عام ١٩٥٦ ص ١٨٣ ، ومقال « اللغة والأبجديات » لمحمد سالم شجاب المنشور فى مجلة الأكليل اليمنية عدد سنة ١٩٨٨ ص ٧٥ . فهل أصحاب هذه المؤلفات ما زالوا فى عزلة عن تقدم علم قراءة النقوش اليمنية القديمة لدرجة ترديد قراءة خاطئة غير معقولة لأحد هذه النقوش صدرت منذ مائة وخمسين عاماً وصححت لمدة مائة عام ؟

(٣) استخدمنا كلمة «التقويم» كترجمة لكلمة « خ ر ف ت م » الحميرية الواردة فى نهاية هذا النقش ومعناها الأصلی « سنة » وقدمنا كلمة « التقويم » قبل رقم السنة على عكس السياق فى النص الحمیری وذلك لكى يستقيم معنى الترجمة مع لغتنا العربية وسنسير على هذا المنوال فى ترجمة باقى النقوش فى هذا البحث أى فى ترجمة هذه الكلمة وشبهاتها مثل « ت خ ر ف » و « خ ر ف » بكلمة « تقويم » .

(٤) يذكر محمد بافقيه أن تقويم « ابعلى » هذا ظل طويلاً مشار تخروصات منذ أن عثر عليه مستخدماً فى النقش رقم RES 3958 (محمد بافقيه ١٩٨٠ ، ص ١٣) وهذا غير صحيح لأن النقش المذكور فضلاً عن خلوه من اسم التقويم (ابعلى) فأن العلماء لم يتبهاوا إلى أنه مؤرخ بهذا التقويم لأن اسمه وقت ترجمة هذا النقش لم يكن معروفاً لديهم كما ذكرنا سابقاً ، بدليل أن العالم « رودوكاناكس » الذى ترجم هذا النقش فى

بجموعة النقوش السامية (RES) اعتقد أنه التقويم الحميري الذي يبدأ بسنة ١١٥ ق.م. فعاذل سنة ١٤٤ المورخ بها النقش المذكور بسنة ٢٩ ميلادية (١٤٤ - ١١٥ = ٢٩).

(٥) يعتبر روبان وفقهه أن هذا التاريخ وهو ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد يزيد أو ينقص بمقدار ١٥ عاماً وذلك فى مقالهما « Deux nouvelles inscriptions de Radman datant du IIe siècle de l'ère chretienne » Raydan, vol.4 (1981), p. 87.

(٦) ملوك حمير الذين عاصروا ملوك سبأ المذكورين غير واضحة أسماءهم فى النقوش مثل وضوح ملوك سبأ ، ويفترض العلماء أنهم بدأوا بالملك الذى بدأ باسمه التاريخ وهو « مبحض بن أبحض » وذلك فى سنة ١١٥ ق.م. ثم تلاه أربعة حكام مجهولين حتى سنة ٢٠ ق.م. عندما ظهر فى النقوش اسم ملك يدعى « سمه على ذرح » حكم ما بين ٢٠ - ٥ ق.م. ثم ملك يدعى « ذمار على وتار يهنعم » حكم من حوالى ٥ ق.م. إلى حوالى سنة الميلاد ، وبعد ذلك خضعت حمير لحكم سبأ التى حمل ملوكها لقب « ملك سبأ وذو ريدان » إل أن بدأ ملوك حمير يظهرن ثانية فى النقوش السبئية بلقب « ذو ريدان » فقط ، وأولهم الملك « ياسر يهصدق » الذى حكم ما بين ١٤٥ - ١٤٠ ميلادية ، ثم تتوالى ملوك أغلبهم مجهولون حتى الملك « شمر يهحمد » الذى حكم ما بين ٢٣٠ - ٢٤٥ ميلادية يليه الملك كُرب أيل ايفع « (٢٤٥ - ٢٦٥ م) الذى حارب الملك السبئى « ايل شرح يحضب » الثانى فى موقعة حقل ذى حرمة كما جاء فى نقش المعسال رقم (٢) ، يليه الملك « ياسر يهنعم » (٢٦٥ - ٢٨٥ م) الذى اسقط مع أخيه « شمر يهرعش » دولة سبأ وبدأ بهما عصر الإمبراطورية الحميرية كما ذكرنا (Kitchen 1994, p. 244) .

المصادر والمراجع

استخدامنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فى المؤلفات الأوربية والأمريكية والمعروف باسم Harvard Refenences System وذلك لتمييزه على النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقت وجهد القارئ فى قلب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع .

المراجع العربية :

- محمد بافقيه ١٩٨٠ : محمد عبد القادر بافقيه « أهمية جبل المعسال » ، حولية ريدان لوفان (بلجيكا) العدد الثالث ١٩٨٠ ص ١٠ - ٢٨ (Raydan Louvain) .

المراجع الأجنبية :

- Abdel Monem 1984 : Abdel Monem A. H. Sayed « Reconsideration of the Minaean inscription of zayd il bin Zayd » PSAS, vol. 14, pp. 93 - 99.
- Albright 1958 : F. A. Albright , Zur Chronologie des Vorislamischen Arabien. Berlin.
- Beeston 1954 : A. F. L. Beeston , Epigraphic South Arabin calender and dating, London.
- Beeston 1981 : A. F. L. Beeston, « Old South Arabian Era dating , PSAS, vol, 11, pp. 1 - 6.
- Jamme 1962 : A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimere.

- Jamme 1966 : A. Jamme, Sabaeen and hasaeen inscriptions from Saodi Arabia, Rome.
- Jamme 1976 : A. Jamme, Garnegie Museum publication no. 2 pp. 110 - 119.
- Kitchen 1994 : K. A. Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.
- Muller 1973 : W. Muller , Ergebnisse der deutschen Jemen - Expedition, AFO, XXIV, p. 160 - 61.
- Robin 1981 : M. Christian Robin, « Les inscription d'Al - Micsal et la chronologie de l'Arabie Meridionale au IIIe siècle de l'ere chrétienne », AIBL pp. 315 - 339.
- Ryckmans 1943 : Gonsague Ryckmans, Chronologie Sabaenne, Paris, Abbreviations .
- AIBL : Academie des inscriptions et Belles - Lettes, Comptes Rendus, Avril - Juin, 1981 Paris.
- AFO : Archiv fur Orient Forchung.
- MAFRAY : Mission Archéologique Française en R. A. du Yemn
- PSAS : Proceedings of the Seminar of Arabian Studies, London.
- RES : Répertoire d'Epigraphie Semitique, Paris.

مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد

حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى « رؤية نقدية »

أ. د. محمد السيد محمد عبد الفهد (*)

إن الحديث عن مناطق إنتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبنان ومُمرّ طيوب وقصيعة وقرفة وغيرها ، حديث شائع فى المصادر الكلاسيكية اليونانية من هيرودوت فى القرن الخامس ق. م. حتى أجاثا رخيديس فى القرن الثانى ق. م.

ومن خلال هذا التابع التاريخى يأتى ذكر عرب شبه الجزيرة - لا سيما عرب جنوب شبه الجزيرة العربية - فى المصادر الكلاسيكية ونحاول نحن أن نتبع ما ذكر عنهم فى كل مرحلة بدءاً بالقرن الخامس حتى القرن الثانى ق. م. وفى القرن الخامس يركز هيرودوت على إنتاج مناطق جنوب الجزيرة لكافة أنواع الطيوب من لبنان ومر وقصيعة وقرفة ولادن ، وإن لمع إلى أن القصيعة والقرفة ربما كانتا تنتجان فى بلاد أخرى (حيث تربى ديونيسوس) ويقصد بها بلاد الهند . كذلك ركز على أن غابات الطيوب كانت تحرسها ثعابين مجنحة تطرد برائحة العبهر المحروق . وذكر أن الفنيقيين كانوا يقومون بالوساطة التجارية فى نقل طيوب جنوب الجزيرة العربية إلى بقية الشعوب (١) . وفى القرن الرابع يحدد ثيوفراستوس قبائل عرب الجنوب التى تتحكم فى إنتاج وتجارة نفس أنواع الطيوب التى ذكرها هيرودوت ، مع إبراز سيادة وتفوق السبثيين على وجه الخصوص ، كما أشار إلى عدم وجود حراسة على غابات الطيوب ، مما حدا ببعض البحارة الأجانب الطامعين إلى سرقة كميات منها . كذلك ركز على الدور الهام الذى يقوم به كهنة إله الشمس فى تسيير دفعة تجارة الطيوب والحصول على ثلث هذه الطيوب المباعة وتخصيصه لإله الشمس مما يوحى بنوع من الاحتكار لهذه التجارة

(*) أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

من قبل المعابد . وأشار إلى حكم عرب الجنوب لبعض الجزر المجاورة المنتجة للطيوب والتوابل (٢) (ربما كان يقصد المناطق الساحلية المجاورة في شرق أفريقيا) . وفي القرن الثالث ق.م. نجد إراتوستينس يقسم قبائل العرب الرئيسية في الجنوب ، وموقع كل منها، وعاصمة كل إقليم (معين وعاصمتها كارنا ، وسبأ وعاصمتها مأرب ، وقتبان وعاصمتها ثما أو تمنع ، وحضر موت وعاصمتها شبوة) ، ونظام الحكم الملكي فيها ، وما تتمتع به من رفاهية وثروات . وركز على تخصيص مناطق لإنتاج طيوب بعينها ، فذكر أن قتبان تنتج اللبان في حين تنتج حضر موت المر ، وقيامهم بمقايضة هذه الطيوب - وطيوب أخرى غيرها - مع التجار (٣) . أما من القرن الثاني ق.م. فنجد أجاتار خيديس - كما أورده ديودوروس الصقلي - لا يذكر من قبائل عرب الجنوب سوى السبئيين دون سواهم (ربما كانوا يتمتعون في عصره بالسيادة على بقية عرب الجنوب كما ألح ثيوفراستوس في القرن الرابع) ، ويسهب في وصف ما لديهم من غابات الطيوب من كافة الأنواع، بأريجها الفواح على الساحل ، وفي الداخل . ويصف الثعابين الصخمة التي تحرسها مثلما ذكر هيرودوت . كما يسهب في وصف الثراء والبذخ الأسطوري الذي تمتعت به سبأ وتدفق كميات الذهب والفضة عليها من تجارة الطيوب ، واستخدامهم لتلك المعادن النفيسة في رياشهم وأدواتهم المنزلية (٤) .

هذه الكتابات المبكرة للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين اتسمت - رغم ما تحويه من معلومات قيمة عن عرب الجنوب - بسمتين قللتا نسبياً من أهمية المعلومات المستقاة عنهم : ألا وهما التعميم في بعض الأحيان ، والخلط وعدم الدقة في أحيان أخرى. فمن ناحية التعميم نجد هؤلاء الكتاب ينسبون إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة إنتاج كافة أنواع البخور والطيوب المذكورة . أما من تفادى منهم هذا الخطأ ومال إلى التحديد فإنه غالباً ما يقع في الخطأ الآخر وهو الخلط وعدم الدقة في المعلومات . وربما ذكر معلومات عكسية تماماً مثل تخصيص إراتوستينس - على لسان سترابون - لقتبان في إنتاج اللبان وحضر موت في إنتاج المر .

هذا التعميم أو الخلط لمناطق إنتاج وتصدير الطيوب العربية فى المصادر الكلاسيكية فى الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثانى ق. م. بحاجة إلى دراسة متأنية للمصادر والوثائق ، للوصول إلى قدر أكبر من التحديد حول هذه الجزئية . وسيحاول الباحث فى هذا البحث القيام بهذه المهمة بخصوص إنتاج وتصدير أحد أهم طيوب مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو اللبان . ومن حسن الحظ أن مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد تزودنا بمعارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير هذه السلعة الهامة من سلع عرب الجنوب ، ومن أبرز تلك المصادر المتاحة من الفترة المعنية كتاب « الطواف حول البحر الاريترى » لمؤلف مجهول ، وهو على الأرجح أحد تجار أو ملاحى الإسكندرية فى مصر فى القرن الأول الميلادى ، ممن كانوا يجوبون البحار الشرقية فى جنوب بلاد العرب وشرق أفريقيا وبلاد الهند . وأراد من كتابه هذا أن يكون دليلاً للتجار والملاحين المصريين فى تلك المناطق . وكذلك من مصادر تلك الفترة حول هذه النقطة مقتطفات هامة من مؤلف « التاريخ الطبيعى » لبلىنى الأكبر من القرن الأول كذلك . أما فى القرن الثانى فإن هناك وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية يتمثل فى المواضع المعنية بتلك المنطقة من كتاب « الجغرافيا » لبطلميوس الجغرافى . لكن المشكلة الحقيقية التى يعالجها هذا البحث هى أن هناك بعض التفسيرات الحديثة غير صحيحة حيناً ، وغير دقيقة أحياناً ، أوردها بعض الباحثين ممن أدلوا بدلوهم فى الموضوع ، مما أدى إلى فهم غير دقيق لبعض محتويات هذه المصادر فى هذا الشأن . لذا سيحاول الباحث فى الصفحات التالية أن يورد تلك الفقرات والمقتطفات الجدلية الخلافية من المصادر المذكورة أعلاه ، وتلك التفسيرات الحديثة لها من قبل بعض العلماء والباحثين الذين لا يتفق الباحث مع تفسيراتهم ويعتبرها غير صحيحة أو غير دقيقة . وأخيراً آراء وتفسيرات الباحث نفسه التى يعتبرها أكثر دقة وأقرب إلى الصواب ، وتبريرات ذلك . ثم يدعم الباحث تفسيراته بمجموعة من النقوش بالخط المسند حول إقامة مدينة تدعى « سمارام » لتصدير لبان منطقة ساكلان فى جنوب الجزيرة العربية فى عمان الحالية (من القرن الأول

ق. م.) ليثبت أن « سمارام » فى نقوش الخط المسند هى « موسخا » التى ورد ذكرها عند « الطواف » و « بطليموس الجغرافى » ، وأن ساكلان فى نقوش المسند هى منطقة « ساخاليتيس » فى المصدرين المذكورين المكتوبين باليونانية من فترة لاحقة فى القرنين الأول والثانى للميلاد .

والأن لنبدأ فى ذكر ما ورد فى المصادر المكتوبة باليونانية حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى فى مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية :

ففى مؤلف « الطواف » يرد ما يلى :

- على بعد نحو ألفى ستاديون إلى الشرق من ميناء العربية السعيدة (عدن) « يقع ميناء تجارى آخر على الساحل (الجنوبى للجزيرة العربية) هو كانى (قانا) وهو يتبع مملكة إلياذوس الأرض المنتجة للبان ... وفيما وراء « كانى » تقع العاصمة ساوباثا (شبة) فى الداخل ، وهى مقر إقامة الملك كذلك . وكل ما ينتج فى المنطقة من لبان يؤتى به إليها حيث كانت بمثابة مستودع ، وذلك عن طريق الإبل والقوارب المحلية الصغيرة المصنوعة من الأكياس الجلدية والسفن(٥) .

- وبعد « كانى » تنحسر أرض الشاطى أكثر فأكثر ، يلى ذلك خليج عميق جداً يمتد لمسافة طويلة يسمى خليج ساخاليتيس وأرض اللبان ، وهى منطقة جبلية وعرة هواؤها ثقيل وضبابية أسفل الأشجار المنتجة للبان . ولكن الأشجار المنتجة للبان هنا ليست ضخمة ولا مرتفعة وهى تفرز اللبان الذى يتجمد على لحائها كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشجار لدينا فى مصر التى تفرز الصمغ . ويقوم على جمع اللبان عبيد ملكيون وسجناء أرسلوا لقضاء فترة عقوبة(٦) .

- ويقع على هذا الخليج مرتفع هائل وجهته نحو الشرق ويسمى سياجروس (رأس فرتك) به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان(٧) إلخ .

وبعد سيجروس مباشرة يوجد خليج متد ينبعج بعمق نحو الساحل . وتقع عمان على مسافة ستمائة ستاديون من طرف هذه الخليج ، وبعدها جبال شاهقة صخرية شديدة الانحدار ، حيث يعيش أناس فى كهوف لمسافة خمسمائة ستاديون أخرى . وبعد هذه الأماكن يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس يسمى ميناء موسخا (خور رورى / على الساحل العماني) ... وفى مقابل الأقمشة القطنية والحبوب والزيت كان هؤلاء التجار يأخذون من الوكلاء الملكيين لبانا من تشكيلة كلها من منطقة ساخاليتيس » (٨) .

أما بلينى الأكبر فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى » فيذكر أنه لم يكن هناك من ينتج اللبان باستثناء العربية (يقصد جنوب الجزيرة العربية) وأن اللبان لم يكن ينمو فى كل مناطقها بل فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة تقريباً حيث تقع مملكة تسمى Astramitae تابعة (لنفوذ) السبئين . وعاصمة هذه المملكة هى سابوتا التى تقع على جبل مرتفع ؛ وعلى بعد ثمانية أيام من العاصمة تقع المنطقة المنتجة للبان فى هذه المملكة وتسمى ساريا ، وهو اسم يعنى بالنسبة للإغريق « السر الغامض » (٩) .

(واضح أن المملكة المقصودة التى تقع فيها مناطق إنتاج اللبان هى «حضر موت» وأن عاصمتها سابوتا هى « شبة » وأن المنطقة المنتجة للبان هناك والتى يسميها ساديا تقع شرقى حضر موت فى الأغلب) .

وفى فقرة أخرى يذكر بلينى أنه ليس هناك من بين العرب بخلاف هؤلاء (يقصد الحضارمة) من وقع بصره على شجرة اللبان . ولا يسرى هذا القول على كل (الحضارمة) بل أن عدداً لا يزيد على ثلاثة آلاف أسرة احتفظوا لأنفسهم بهذا الحق الوراثى (زراعة أشجار اللبان ورعايتها وجمع المحصول) . ولذلك كان يطلق عليهم المباركون . وهؤلاء لا يسمح لهم بتدنيس أنفسهم

بجماع النساء أو (السير) فى الجنازات ، عندما يكونون مشغولين بحز وشق تلك الأشجار للحصول على اللبان ، مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار اللبان لارتباطها بمفاهيم دينية (١٠) .

وفى موضع آخر يقول بلىنى أنه بعد جمع اللبان كان ينقل بالجمال إلى سابوتا (شبوة) وتفتح لذلك إحدى بوابات المدينة . وكان الجنوح عن هذا الطريق (من قبل أصحاب الجمال المحملة باللبان) يعد جريمة كبرى فى عرف الملوك . وهناك (فى شبوة) كان الكهنة يأخذون عشوراً (ضرائب صغيرة) لإله يسمونه سايبس - وهى ضرائب تقدر بالمعيار وليس بالوزن ولا يسمح بعرض البخور فى السوق قبل أداء هذه الضريبة (١١) .

* * *

لنحاول الآن أن نستخلص من المعلومات السابقة الواردة فى المصدرين الطواف و بلىنى الأكبر - بعض النتائج المحققة حول مناطق إنتاج اللبان وتخزينه واحتكاره ومناطق توزيعه وتصديره .

يتضح من حديث المصدرين حول إنتاج اللبان أن المنطقة الرئيسية لإنتاج اللبان هى مملكة حضر موت التى كانت عاصمتها شبوة (سيرد الحديث عن امتداد ومناطق نفوذ هذه المملكة نحو الشرق لاحقاً فى هذا الجزء) وأن أقرب منفذ للتصدير البحرى للبان لشبوة هى كانى أو قانا (حصن الغراب حسب تفسير كاسون للطواف) . ويذكر فى « الطواف » أن ملك هذه المملكة (حضر موت) يسمى إليازوس (على الأرجح « العز » ، كما سنرى لاحقاً) . ويتفق المصدران على أن كل لبان المنطقة (المملكة الحضرية) كان يجمع فى منطقة معينة من المملكة بعد جمع المحصول من على أشجاره . وهذه المنطقة ذكرها بلىنى صراحة على أنها العاصمة شبوة (سابوتا) التى كان المحصول ينقل إليها بالجمال، بل زاد من درجة اليقين حول هذه النقطة حين أورد أن ملوك حضر موت كانوا

يعدون أى انحراف عن هذا الطريق (المؤدى لشبوة) من جانب أصحاب الجمال الحملة باللبان جريمة كبرى . أما مؤلف كتاب « الطواف » فيفهم من حديثه أيضاً أن كل محصول اللبان من مملكة إليازوس (حضر موت) كان يذهب إلى ساوباثا (شبوة) العاصمة ، ولكن صياغة العبارة فى « الطواف » جعلت ليونيل كاسون - فى ترجمته للفقرة ٢٧ من الطواف وتعليقه عليها ص ١٦٢ ، ومن قبل فان بيك ، يرون أن منطقة تجميع محصول اللبان هى ميناء كانى (١٢) . (حصن الغراب) ، وهذا خطأ .

فبالإضافة إلى وضوح ومباشرة نص بلينى بخصوص شبوة - كما أسلفنا - فإن الأرجح والأقرب للمنطق أن مؤلف « الطواف » كان يقصدها كذلك فى نصه ، ولنعد إلى النص لتأكد من مدى دقة هذا الترجيح . فى هذه الفقرة ٢٧ من الطواف يرد الحديث عن ميناء « كانى » الذى يتبع مملكة إليازوس (حضر موت) أرض اللبان ، ويذكر جزيرتين قاحلتين قريبتين من هذا الميناء هما جزيرة الطيور (سينخا) وترويلاس (براقه) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستاديون من « كانى » ثم يورد ما يلى :

« وفيما وراءها (يقصد كانى) تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل (أى بعيداً عن الساحل) والتى هى كذلك مقر إقامة الملك . وكل ما ينتج فى المنطقة (مملكة إليازوس) (حضر موت) من اللبان يؤتى به إليها (واضح أنه يقصد ساوباثا أى شبوة) إذ كانت بمثابة مستودع ، عن طريق الإبل والقوارب المحلية المصنوعة من الأكياس الجلدية وعن طريق السفن » (١٣) .

إن تفسير كاسون وفان بيك بأن كل محصول اللبان كان ينقل إلى « كانى » غير مقبول للأسباب الآتية :

(أ) أن نص الطواف واضح الدلالة فى إشارته إلى ساوباثا (شبوة) وليس إلى كانى (حصن الغراب) .

(ب) من غير المنطقي أن ينقل « كل ما تنتجه المنطقة (المملكة) من لبنان » إلى ميناء واحد هو « كاني » دون بقية الموانئ والمستودعات الساحلية الأخرى في مملكة حضر موت مثل سياجروس (رأس فرتك) وموسخا (خور روري) . كان يمكن أن يكون تفسير كاسون مقبولاً لو أن المحصول المنقول كان محصول المنطقة القريبة من كاني (أي محصول جزء من المملكة) ، أما حين يتعلق الأمر بمحصول المملكة كلها فالأقرب إلى المنطق أن يذهب إلى عاصمة المملكة في شبوة حيث يقيم الملك ، لا سيما في حالة وجود احتكار ملكي للسلعة وهو ما تشير القرائن إلى أنه كان موجوداً (١٤) .

(ج) قد يثور اعتراض على أن مكان تجميع محصول اللبان هو شبوة ، من جهة أن وسيلة نقل هذا اللبان كانت الجمال والقوارب الصغيرة والسفن ، وهي وسائل نقل إلى ميناء وليس إلى مكان داخلي مثل شبوة .

وللرد على هذا الاعتراض الأخير نقول أنه إذا صح كلام بلينى من أن شبوة تبعد مسافة ثمانية أيام عن (أقرب - فيما أتصور) مناطق إنتاج اللبان (إلى الشرق والجنوب الشرقي كما سيتضح) فمعنى هذا أن مناطق إنتاج اللبان (الممتدة لمسافة كبيرة نحو الشرق على خليج ساخاليتيس الذي ستحدث عنه لاحقاً ، وعن مدى امتداده والذي ورد ذكره في فقرات الطواف المقتبسة أعلاه) كانت تبعد مسافات كبيرة عن شبوة كان أقلها حوالى ثمانية أيام . هذا ربما يعنى أن الجمال كانت تنقل اللبان من مناطق إنتاجه القريبة نسبياً بطريق البر إلى شبوة مباشرة . أما مناطق الإنتاج الأبعد نسبياً فربما كان لبانها ينقل بالبحر بالقوارب الصغيرة أو السفن (حسب المسافة) من أقرب نقطة لمناطق الإنتاج على الساحل الحضرمي (ساحل مملكة حضر موت) إلى أقرب نقطة ساحلية على هذا الشاطئ إلى العاصمة شبوة في الداخل . هذه النقطة الساحلية الأقرب إلى شبوة (في مملكة حضر موت) هي بالتأكيد ميناء كاني (حصن الغراب) الذي كانت تنقل إليه حمولات اللبان من مناطق الإنتاج . لكن « كاني » لم تكن - في هذه الحالة - المحطة النهائية التي

يقطعها محصول اللبان على القوارب والسفن ، بل كانت المحطة قبل الأخيرة ، إذ كانت الجمال تنقل اللبان الذى تم تفريغه فى « كانى » من الأخيرة إلى شبة حيث المستودعات الملكية هناك .

هذا التفسير يتفق وما ورد عند بلىنى من أن اللبان كان ينقل بالجمال إلى شبة وأن إحدى بوابات المدينة كانت تفتح لهذا الغرض . وكانت هذه الجمال تنقل اللبان إما من مناطق الإنتاج إلى شبة مباشرة أو من « كانى » - حيث اللبان الذى أتى إليها بالبحر كما أوضحت - إلى شبة . وبعد وصول المحصول كله إلى شبة حيث المستودعات الملكية والموظفون الملكيون المنوط بهم مسألة إدارة الاحتكار الملكى يبدو أنه كان يتم حصر كميات محصول اللبان ومنح حصتها (عشورها) من اللبان التى أشار إليها بلىنى ، وبعد ذلك ربما كان المحصول يوزع بطريقة مركزية ومحسوبة من المستودعات الملكية المركزية فى شبة إلى منافذ وموانئ بيعه وتصديره البرية والبحرية .

وإذا كان بلىنى قد أوجز فيما يتصل بمناطق إنتاج اللبان فذكر أنها تبعد مسافة ثمانية أيام من شبة ، وأن ثلاثة آلاف عائلة قد تخصصت بصورة وراثية فى حصاد أشجار اللبان والعمل فيها وأطلق عليهم المباركون ، فإن « الطواف » قد افاض نسبياً فى الحديث عن مناطق الإنتاج وظروفه وموانئ التخزين والتصدير ، كما رأينا فى الفقرات المقتبسة عنه أعلاه . فقد ذكر هذا المؤلف معلومات عن « خليج ساخاليتيس الذى هو أرض اللبان وعن ميناء ومستودع سىاجروس (رأس فرتك) حيث يخزن لبان هذه المنطقة ، وبعدها بحوالى ألف ومائة ستاديون(*) (فى نهاية « خليج عمان » كما أسماه الطواف أو « خليج القمر » الحالى شرق رأس فرتك) يوجد ميناء موسخا (خور رورى قرب صلالة على ساحل ظفار غرب

(*) ال « ستاديون » وحدة إغريقية قديمة من وحدات قياس الطول تبلغ حوالى ٦٠٧ قدماً انجليزياً أى أقل قليلاً من مائتى متر أو ثمن ميل أو خمس كيلو متراً .

سلطنة عمان) حيث يتم تصدير وتجارة لبنان منطقة الساخاليتيس ، بالإضافة إلى ميناء كانى (حصن الغراب) المقابل لشبوة على الساحل الحضرمى الغربى والذى سبق الحديث عنه .

ونأتى الآن للحديث عن « خليج ساخاليتيس » هذا كما ورد عند «الطواف» الذى حدد بدايته من جهة الغرب بأنه ذلك الخليج العميق الذى يعقب أرض الشاطئ المنحسرة بعد ميناء « كانى » (ربما بدءاً من المكللا الحالية على الساحل فى وادى حضر موت) ، ثم يحدد مؤلف « الطواف » - بصفته تاجر وملاحاً - أهم المعالم التجارية على ساحل هذا الخليج الطويل الممتد $\epsilon\pi\iota\ \pi\omicron\lambda\upsilon\ \pi\alpha\rho\epsilon\kappa\tau\epsilon\iota\nu\omega\nu$.

فيذكر سياجروس (رأس فرتك) بصفتها مرتفع هائل على هذا الخليج به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان ، وبعدها يذكر خليجاً عميقاً منبعجاً فى الساحل هو خليج عمان - حسب تسمية الطواف - تبلغ المسافة بين طرفيه ستمائة ستاديون (خليج القمر الحالى) ومن بعده بخمسمائة ستاديون أخرى (ألف ومائة ستاديون من رأس فرتك) « يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس ويطلق عليه ميناء موسخا » . وفيما وراء هذا الميناء لمسافة ألف وخمسمائة ستاديون أخرى تقع (فى الداخل) سلسلة جبلية تمتد (نحو الشرق) حتى منطقة تسمى أسينخون يقابلها على الشاطئ سبع جزر يسميها جزر زنويوس (جزر كوريا موريا الحالية) وبعدها تمتد بلد أخرى أجنبية لا تنتمى لنفس المملكة أى مملكة إليازوس (حضر موت) بل تنتمى لبلاد الفرس (١٥) .

معنى الكلام السابق أن أقصى الحدود الشرقية لمملكة حضر موت - حسب وصف الطواف - كان المنطقة الداخلية المقابلة لجزر كوريا موريا فى سلطنة عمان الحالية ، وأن منطقة الساخاليتيس كانت تمتد من شرق كانى (حصن الغراب) نحو الشرق حتى ميناء موسخا - على الأقل - الذى كان لبان هذه المنطقة يشحن منه (١٦) ، رغم تسمى المنطقة الساحلية الواقعة قبل « موسخا » بمسمى محلى هو

« خليج عمان » ، بل ربما كانت منطقة الساخاليتيس تمتد أكثر من موسخا (خور رورى) نحو الشرق حتى نهاية حدود مملكة اليازوس (مملكة حضر موت) على الساحل وفى الداخل قبالة جزر كوريا موريا .

ولكن يرى بعض العلماء أن بطلميوس الجغرافى والفلكى السكندرى من القرن الثانى الميلادى قد حدد منطقة ساخاليتيس - أرض اللبان - بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس (رأس فرتك) على العكس من جغرافى سابق له هو مارينوس الذى يرى أن هذه المنطقة تقع إلى الغرب من رأس فرتك (١٧) ، وعلى العكس كذلك من فهم البعض الخاطىء للتحديد الجغرافى للمنطقة من قبل مؤلف « الطواف » على أنها تمتد من شرق « كانى » (حصن الغراب) حتى سياجروس (رأس فرتك) أى إلى الغرب من سياجروس كما وصفها مارينوس (١٨) .

والواقع أن بطلميوس الجغرافى لم يحدد منطقة « الساخاليتيس » بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس كما فسرهُ أو فهمهُ هؤلاء العلماء بطريق الخطأ ، بل أن وصفه الجغرافى لهذه المنطقة يكاد يتطابق مع التحديد الذى أوردناه قبل قليل عند مؤلف « الطواف » . ولكن العلماء الذين قالوا بوجود تناقض واختلاف بين تحديد المصدرين للمنطقة ، لم يقرأوا وصف بطلميوس القراءة الدقيقة والصحيحة فيما اعتقد . صحيح أن بطلميوس صنف مناطق « أرض حضر موت » من الغرب إلى الشرق وجعلها تبدأ بمنطقة تسمى « مدينة أبييسما Ηβισμα πόλις » وتنتهى فى الشرق بـ « رأس سياجروس εύαγρος ακρα » ، ثم بدأ الفقرة التالية بعد نهاية هذه الفقرة مباشرة - أى بعد الحديث عن « رأس سياجروس » - بالحديث عن إقليم « الساخاليتين » فى فقرة مستقلة تحدث فيها عن مواقع هذا الإقليم . ومن هنا ربما حدث الخلط الذى ذهب إليه العلماء المشار إليهم فذكروا أن بطلميوس قد أوضح صراحة أن « الساخاليتيس » تقع بعد « سياجروس » .

لكن بنظرة أعمق قليلاً إلى نص بطلميوس ندرك أن الأمر لم يكن كما ذهب هؤلاء العلماء إلى فهمه :

ففى حديث بطلميوس عن « أرض حضر موت » يجعل أول مناطقها من الغرب وهى « مدينة ابييسما » تقع على خط طول هو ٨٢ وخط عرض 11° ، وآخر هذه المناطق وهى « سياجروس » فى الشرق على خط طول 90° وخط عرض ١٤ . أما مواقع إقليم « الساخاليين » فتبدأ من الغرب بموقع يسمى « قرية ميتاكون » على خط طول ٨٨ وخط عرض 16° ، وتنتهى فى الشرق بموقع يسمى « مرتفع كورودابون » الذى يقع على خط طول ٩٣ وخط عرض $20^{\circ}(19)^{*}$.
٤

من هذا التصنيف أعلاه يتضح أن بطلميوس قد أورد إقليم « ساخاليين » بعد مواقع « أرض حضر موت » وآخرها سياجروس كنوع من الترتيب الوصفى لمادته ، وليس بحسب الموقع الجغرافى المحدد بخطوط الطول والعرض . فمن خلال ملاحظتنا لمواقع « أرض حضر موت » والواقعة بين خطى طول ٨٢ ، ٩٠ وخطى عرض 11° ، ١٤ ، ومواقع « الساخاليين » الواقعة بين خطى طول ٨٨ (أو بالأحرى 87° ، حيث أورد بعد الموقع الأول موقعين آخرين على خطى طول 87° ، 87°) ، ٩٣ وبين خطى عرض 16° ، 20° ، ندرك أن بطلميوس أورد تحت الفقرة المعنونة مواقع « أرض حضر موت » المواقع الساحلية « الجنوبية » من مملكة حضر موت ، ثم تلاها بمواقع « الساخاليين » وهى المواقع الداخلية (الشمالية) من المملكة وخصوصاً منها المناطق الداخلية المقابلة لخليج « الساخاليين » كما ورد عند « الطواف » وهى (أى المناطق الداخلية) ما أسماه بطلميوس هذه المرة باسم الساخاليين .

(*) هذا التحديد بخطوط الطول والعرض هو حسب رؤية بطلميوس الفلكى والجغرافى حسب معايير عصره طبعاً ، وليست خطوط الطول والعرض الحالية .

ولمزيد من تأكيد هذا الترجيح فإننا نجد أن ميناء « كانى » يقع عند بطلميوس على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرى) فى حين يبدأ أول موقع من منطقة « الساخاليين » عند خط طول ٨٧^١ ، (لكن فى المنطقة الداخلية من حضر موت) وآخر مواقعها يقع على خط طول ٩٣^٣ (وهى منطقة طويلة وممتدة) ومعنى ذلك أن كلا من « الطواف » و « بطلميوس » قد جعلتا منطقة « الساخاليين » تمتد من شرق ميناء « كانى » (حصن الغراب) حتى آخر حدود مملكة حضر موت فى الجزء المقابل لجزر زنبوس (كوربا موربا) التى تبدأ بعدها منطقة أجنبية تابعة للفرس . الفارق ببساطة هو أن « الطواف » أطلق مسمى « الساخاليين » على الجزء الساحلى من هذه المنطقة - بصفته تاجراً وملاحاً يتعامل مع الموانئ والمناطق الساحلية - ولذلك اسمى هذا الامتداد الكبير « خليج ساخاليين » ، أما بطلميوس فقد أطلق مسمى أرض « الساخاليين » على « المناطق الداخلية » لنفس هذا الامتداد السابق وهى المناطق المنتجة للبان فى مملكة حضر موت . والأصح - فى تقديرى - هو تحديد بطلميوس الجغرافى ، بمعنى أن المناطق الداخلية المنتجة للبان فى مملكة حضر موت حسب الامتداد الذى ذكره بطلميوس هى التى كانت تسمى فى الأصل « أرض الساخاليين » ثم صارت المنطقة الساحلية المقابلة لها تسمى باسم المنطقة الداخلية ، أى « خليج الساخاليين » إجمالاً حتى وإن اكتسبت مناطق منه مسميات محلية كخليج عمان مثلاً .

هذا التفسير - خصوصاً لوصف بطلميوس الجغرافى - يفسر عبارة وردت فى الكتاب الأول لبطلميوس يقول فيها « إن مارينوس حدد خليج ساخاليين بأنه يقع على الساحل الغربى من رأس سياجروس ، ولكن كل من يبشرون فى هذه البقاع يجمعون معى أنه (يمتد) إلى الشرق من سياجروس وأن الساخاليين منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليين اسمه (٢٠) . (الكتاب الأول - فقرة ١٧) . اعتقد أنه فى ضوء الوصف الجغرافى التفصيلى لبطلميوس لمنطقتى « أرض حضر موت » Αδραμιτων χωρας ثم منطقة « الساخاليين » Σαχαλιτων (فى

الكتاب السادس - الجزء السابع - فقرتى ١٠ ، ١١) فإن بطلميوس يعنى فى فقرته السابقة أن خليج الساخالييتيس لا ينتهى شرقاً عند رأس سياجروس وبالتالى لا يقع غربها فقط ، بل يمتد كذلك إلى الشرق من هذه النقطة بإجماع من أبحروا فى تلك البقاع ، أى أنه لم يقصد القول أنه يقع إلى الشرق - فقط - من رأس سياجروس .

لكن ما تزال هناك مشكلة فى وصف بطلميوس للمنطقة الساحلية من «أرض حضر موت» وهى أنه جعل « سياجروس » (التى حدد معظم العلماء موقعها بـ « رأس فرتك ») نقطة النهاية للساحل الحضرمى ، فى حين رأينا فى «الطواف» أن آخر المواقع الهامة على هذا الساحل هى « موسخا » (خور رورى) . هل معنى هذا أن بطلميوس لم يذكر « موسخا » فى وصفه الجغرافى لحدود منطقة حضر موت الساحلية ؟ بلى أوردتها وتحت اسم « ميناء موسخا » كما أورد قبلها « ثيالليلا » وهى صلالة الحالية فى ظفار قبل « خور رورى » أو موسخا القديمة . معنى هذا أن بطلميوس قد أخطأ فى تحديد موقع « سياجروس » وبدلاً من أن يجعلها قبل صلالة وموسخا جعلها تقع بعدهما . إذن فقد ذكر بطلميوس الجغرافى موانئ مملكة حضر موت على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وهى كانى وسياجروس وموسخا ولكنه أخطأ - على الأرجح - فى تحديد موقع سياجروس .

ومن الأمور الطريفة التى ألفت مزيداً من الضوء على موقع ساخالييتيس وميناء « موسخا » (خور رورى) أن بعثة أمريكية تابعة للمؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان قامت فى أعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ بحفائر فى موقع « خور رورى » وكان من بين اكتشافاتها من هذا الموقع ستة نقوش بالخط المسند تتحدث عن تأسيس مدينة أو ميناء فى منطقة « سكلان » (الاسم العربى للإقليم الذى يكتب «ساخالييتيس» باليونانية كما رأينا عند الطواف وبطلميوس) .

هذه النقوش نشرتها جاكليين بيرين فى العدد الأول من « مجلة دراسات عمان » عام ١٩٧٥ (هامش رقم ٧٢) .

تحدث هذه النقوش عن إقامة أو إنشاء مدينة تسمى « سمارام » (بمعنى « المبتغى السامى » من كلمتى سما يسمو ، ورام يرام (٢١) . أى يتغى وينشد ، وقد وردت فى خريطة فى مقدمة كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى عن حفائر « الفاو » باسم « سامراء » (فى أرض « سكلان » بأوامر من الملك « العز يالوط » ملك حضر موت أصدرها إلى قائد الجيش الحضرمى ويدعى أيباتاع صالحين بن ذمر على ، وأشرف هذا الأخير على كل مراحل التنفيذ . وكتب هذه النقوش موظفون ملكيون أسندت إليهم مهام مثل تنظيم موقع المدينة الجديدة وإمدادها بالمياه (النقش الأول) وبالبناء والتشييد (النقش الثانى) ، كما قام بعض المستوطنين الجدد بكتابة نقوش أخرى مثل الرابع الذى كتبه جماعة من النساجين .

وهذه النقوش تكاد تسير على وتيرة واحدة إذ يذكر كاتب النقش اسمه (أو أسماءهم لو كانوا مجموعة) ، كما يذكرون مواطنهم الأصلية التى قدموا منها إلى هذا المكان الجديد . وقد أتى معظمهم - إن لم يكن كلهم - من العاصمة « شبوة » ورحلوا عنها بأوامر ملكية لتوطين المدينة الجديدة « سمارام » . ويذكر فى نقشين من هذه النقوش (النقشين الثالث والرابع) (٢٢) . أن المستوطنين الجدد كانوا ينتمون إلى أحد بطون قبيلة حاتم فى شبوة هو بطن عميس حيث يذكر فى النقشين حرفيا أنهم من أهل (عميس ثلث حاتم ويضمون ذلك الجزء الذى اختير للتهجير) .

وهناك بعض التعليقات العامة للربط بين محتويات هذه النقوش وما ورد عند « الطواف » و « بطلميوس » . أول هذه الملاحظات هو أن مدينة « سمارام » الجديدة التى أمر الملك الحضرمى « العزيالوط » - من القرن الأول ق. م. حسب تأريخ جاكليين بيرين لهذه النقوش من خلال خطوطها - تقع فى موقع (خور

رورى) أو موسخا التى وردت عند « الطواف » ، وورد اسمها عند بطليموس رغم أنه لم يحدد موقعها بدقة كما رأينا أعلاه . إذن فإن « سمارام » هى نفسها «موسخا» (الأولى التسمية العربية والثانية اليونانية القديمة) ميناء تصدير اللبان لمنطقة « سكلان » (سا خاليتيس) المنتجة للبان . والملاحظة الثانية هو اسم الملك الحضرمى من القرن الأول ق. م. الذى أمر بإقامة المدينة وهو « العز يالوط » ومنه يتضح أن اسم « العز » كان اسماً مألوفاً فى العائلة الملكية الحضرمية حينذاك ، إذ نجد فى مؤلف « الطواف » - من حوالى منتصف القرن الأول الميلادى - أن مملكة حضر موت وعاصمتها شبوة مقر إقامة الملك الحضرمى كانت تعرف بـ «مملكة إليازوس» والتى تعنى بلا شك « مملكة العز » . والملاحظة الثالثة هو ان الموظفين الملكيين الذين أسندت إليهم بعض مهام تعمير وتخطيط المدينة الجديدة يصفون أنفسهم فى هذه النقوش (النقشين الأول والثانى) بأنهم « عبد العز يالوط ملك حضر موت » . هذه الإشارة فى النقوش تفسر ما سبق أن ذكر عند « الطواف » من أن القائمين على جمع لبان مناطق الساخاليتيس (السكلان) كانوا من العبيد الملكيين ومن أرسلوا لقضاء فترة عقوبة فى هذه المناطق (الفقرة ٢٩) . من خلال نقوش « سمارام » يبدو أن كل من كان يكلف بمهام من قبل الملك كان يعد من « عبيد الملك » كما رأينا أعلاه ، بمعنى أنهم ينفذون أوامر الملك تنفيذاً دقيقاً وصارماً أكثر من دلالتها على العبودية بمعناها الحرفى . أما الإشارة عند «الطواف» إلى أن بعضاً من جامعى لبان الساخاليتيس كانوا ممن يقضون فترة عقوبة هناك فربما ارتبطت من طرف خفى ببعض الإشارات الواردة فى بعض نقوش « سمارام » فمن المحتمل أن يكون مؤسسو هذه المدينة الجديدة قد هجروا قسراً من موطنهم الأصلي من بطن عميس فى قبيلة حاتم فى شبوة ، لا سيما أن هناك كلمات وردت فى ختام بعض هذه النقوش - بصورة منفردة منفصلة عن السياق - تعبر عن المعاناة مثل كلمة « أذيت » فى ختام النقش الثالث ، وكلمة « يشقى » فى النقش الثامن .

الهوامش

(1) Herodotus, *Historiae* III, 97,, 107-112.

(2) Theophrastus, *Enquiry into Plants* IX. 4.2.-6, 10.

(3) Strabo, *Geography* XVI.4.2-4.

(4) Diodorus Siculus, *Historical Library* III, 45; 47.2-3, 5-6.

(5) L. Casson, *PME*, 27 :

· ἐμπόριόν ἐστιν ἕτερον παραθαλάσσιον Κανή ,
Βασιλείας Ἐλεάζου , Χώρας Λιβανοτοφόρου

πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν
ὥσπερ ἐκδοχείῳν εἰσάγεται καμήλοις τε καὶ
σχεδίαις ἐντοπίαις δερματίναϊς ἐξ ἄσκων καὶ πλοίοις .

(6) Ibid. , 29 :

Μετὰ δὲ Κανή ἄλλος ἐκδέχεται βαθύτατος κόλπος ,
ἐπὶ πολὺν παρεκτείνων , ὁ λεγόμενος Σαχαλίτης , καὶ Χώρα
Λιβανοτοφόρος

ἔστιν δὲ τὰ δένδρα τὰ λιβανοφόρα οὐ μεγάλα λίαν
οὐδὲ ὑψηλά

Μεταχειρίζεται δὲ ὁ λίβανος ὑπὸ δούλων βασιλικῶν
καὶ τῶν ὑπὸ τιμωρίαν πεμπομένων .

(7) Ibid. , 30 :

Τούτου δ' ἐστὶν ἀκρωτήριον τοῦ κόλπου μέγιστον ,
ἀποβλέπον εἰς ἀνατολήν , ὁ καλούμενος Σύαγρος , ἐφ' οὗ
φρούριόν ἐστι τῆς χώρας καὶ λιμὴν καὶ ἀποθήκη τοῦ
συναγομένου λιβάνου .

(8) Ibid. , 32 :

· . . . καὶ μετ' αὐτοὺς ὅρμος ἀποδεδειγμένος τοῦ Σαχαλίτου
λιβάνου πρὸς ἐμβολήν , Μόσχα λιμὴν λεγόμενος

παρὰ τῶν βασιλικῶν πρὸς ὀθόνιον καὶ σῆτον καὶ
ἐλαιον λίβανον ἀντιφορτίζουσιν παρ' ὅλον δὲ τὸν
Σαχαλίτην .

(9) Pliny the Elder, NH 12. 30. 51 - 52 :

Tura praeter Arabia nullis, ac ne Arabiae quidem universae. in medio eius fere sunt Astramitae, pagus Sabaeorum, capite regni Sabota in monte excelso, a quo octo mansionibus distat regio eorum turifera Sariba appellata - hoc significare Graeci mysterium dicunt .

(10) Ibid., 12. 30. 54 :

Nec praeterea Arabum alii turis arborem viderunt, ac ne horum quidem omnes, feruntque III non amplius esse familiarum quae ius per successiones id sibi vindicent, sacros vocari ob id, nec ullo congressu feminarum funerumque, cum indicant eas arbores ut metant, pollui, alque ita religione merces augeri.

(11) Ibid., 12. 32. 63 :

Tus collectum Sabotam camelis convehitur, porta ad id una patente; degredi via capital reges facere. ibi decumas deo quem vocant Sabin mensura, non pondere, sacardotes capiunt, nec ante mercari licet :

(12) Gus W. Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 9.

(13) L. Casson, PME, 27 :

Τρουλλάς, ἀπὸ σταδίων ἑκατὸν εἴκοσι τῆς Κανῆς, ὑπέρεται δὲ αὐτῆς μεσόγειος ἡ μητρόπολις Σαυβαθία, ἐν ἣ καὶ ὁ βασιλεὺς κατοικεῖ. πῶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται.

انظر كذلك هامش رقم ٥٩ أعلاه .

(١٤) إن ما ورد في فقرات بليني المقتبسة - وخاصة حول اهتمام ملوك حضر موت بضرورة

نقل محصول اللبان كله إلى شبوة أولاً واعتبار عدم الامتثال لهذه الأوامر الملكية في هذا

الصدد جريمة كبرى - يشير بوضوح إلى احتكار ملكي للسلعة . كما أن ما ورد عند

الطواف عن العبيد الملكيين والمسجونين الذين يقومون بجمع المحصول من غابات اللبان

في إقليم خليج « ساخاليتيس » ، وكذلك تعامل التجار مع « الوكلاء الملكيين »

وحصولهم على اللبان منهم مقابل سلعهم يشير بوضوح إلى هذا الاحتكار الملكي للبان .

(15) L. Casson, PME.33 :

(15) L. Casson, PME.33 :

Ἀπὸ δὲ Μόσχα λιμένος ἐπ' ἄλλους σταδίους ὡς
χιλίους πεντακοσίους ἕως Ἀσίχωνος ἀχρι <ὄρος> τῇ γῇ
παρατείνει καὶ κατὰ τὸ ἀπολήγον αὐτοῦ μέρος ἑπτὰ
νῆσοι πρόκεινται κατὰ τὸ ἐξῆς, αἱ Ζηνοβίου λεγόμεναι,
μεθ' ἧς ἄλλη παράκειται χώρα βάρβαρος οὐκέτι τῆς αὐτῆς
βασιλείας ἀλλ, ἤδη τῆς Περσίδος.

(16) Ibid., note on 29 : 9. 22-23, pp. 165 - 66.

(17) Ibid., Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 10.

(18) Jacqueline Pirenne, « The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in
Dhofar », Journal of Oman Studies, vol., 1, 1975, pp. 81 - 96, p.
95.

(19) Claudius Ptolemaeus(ptolemy); Geography, 6. 7. 10 :

Ἀδραμιτῶν Χώρας

Ἰβισμα πόλις πβ ια δ
ساكنفى بذكر أهم الموانى التى تعيننا على هذا الساحل ومواقعها ولن أذكر كل المواقع
التي أوردتها بطليموس :

Κάνη ἐμπόριον καὶ ἄκρον . . .	πδ	ιβ	δ
Θιάλληλα κώμη	πζ	ιδ	
Μόσχα λιμήν	πι	δ	δ
Σύαγρος ἄκρα	γ	ιδ	

ثم الفقرة التالية مباشرة عند بطليموس (6. 7. 11) والخاصة بمواقع « الساخاليين »

Σαχαλιτῶν

Μέτακον κώμη	πι	ιβ	δ
Λύσσα πόλις	πζ	γ	ιδ δ
Ἀγγη κώμη	πζ	δ	ιδ δ

ثم ترد بعد ذلك مواقع عديدة سأذكر آخرها وهو :

Κοροδαβον	γ	κ	δ
---------------------	---	---	---

(20) J. Pirenne, loc, cit.

(21) Ibid., p. 82.

(22) Ibid., pp. 85 - 87.

الاستعراضات العسكرية عند الرسول ﷺ وأساليبها

د. عبد العزيز بن عبد الله السلوّم (*)

مقدمة :

كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بداية الانطلاق لتأسيس دولة إسلامية مستقلة ، ذات نظم شتى مستمدة منهجها ودستورها مما ينزل على رسول الله ﷺ من وحى ، وبما يعمل به أو يقوله أو يأمر به أو يقره عليه الصلاة والسلام ، فهو القدوة وهو المثل ، فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى البطولات والفداء ، فساس هذه الأمة سياسة حكيمة ، وقادها إلى الرفعة والسمو وإلى العز والتمكين فى شتى المجالات .

ومن هذه المجالات ما تمتع به الرسول الله ﷺ من شخصية عسكرية متميزة أبهرت الجميع ، مما يصعب الاستطراد فيه هنا ، بل يحتاج إلى بحوث وكتب كثيرة لدراسة هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وحيث أن موضوع البحث هو « الاستعراض العسكرى عند الرسول ﷺ وأساليبه » كأحد جوانب فنه وتعبته واعداده لجيش الدولة الإسلامية الناشئة التى تحتاج - بالطبع - إلى جيل متميز وفريد وجديد بأسلوبه العسكرى ، كما هو جديد بانتمائه لعقيدته السليمة الصادقة ، لذا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام رعى هذا الجيل ودربه وأشرف بشكل مباشر على تدريبيه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعرض جنده بين الحين والآخر ليتأكد من سلامتهم واقتدارهم ، كما يوجههم بالتوجيه المناسب حسب مقتضى الحال .

ومن هنا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبدع فى هذا المجال ، وتفنن ونوع وجدد مما يدل على عمق شخصيته العسكرية .

(*) قسم الحضارة والنظم الإسلامية - جامعة أم القرى .

فنجده وهو فى بدر يستعرض جنده - رغم قلة عددهم - وينظمهم صفوفاً أمام عدوهم اللدود « قريش » - الذين جاءوا حسب زعمهم لمناجزة محمد والتخلص منه والقضاء عليه - فكان يحرص على الدقة فى تنظيمهم ليحقق واحداً من أهداف هذا التنظيم وهو إظهار العدد كبيراً أمام الأعداء .

أما فى أحد فنجده ينظم جيشه تنظيمًا مغايراً لما سبق فى بدر ، كما أنه استعرض جنده بأسلوب مختلف ، حتى أننا نجده يعرض الغلمان الذين تسابقوا وحرصوا على الاشتراك فى الجهاد ، فكان عليه الصلاة والسلام يستعرض هؤلاء الأولاد فمن كان جديراً بالقتال وحمل السلاح أثبته ومن كان صغيراً خاف عليه ورده .

إن نظم الاستعراض فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءت متنوعة بين عرض للجند أمام الرسول ﷺ إلى استعراض للجيش أمام الأعداء .

ففى غزوة خيبر عبأ جيشه وسار على تعبثته بنظام الخميس ، حتى فاجأ اليهود بهذه التعبئة فقص مضاجعهم وأوهن عزائمهم وبث الرعب فى نفوسهم .

وفى الحديبية - وكجانب من جوانب عرض قوة المسلمين أمام رسل قريش - تمت بيعة العقبة بين المسلمين وبين الرسول ﷺ بأقوى صورها وأشكالها « على الموت وعدم الفرار » ، كل ذلك على مرأى ومسمع من مندوبى قريش ، كوسيلة ضغط على أهل مكة .

أما فى غزوة الفتح ، فبعد أن أسلم أبو سفيان ، وقبل أن يرجع إلى مكة لينخبر قومه بما حدث ، أمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يجلسه عند خطم الجبل ، حتى تمر جنود الله فيراها . وبعد أن تم العرض العسكرى أمام قائد مكة وزعيمها قبل الفتح ، رجع إليها حاملاً أكبر صورة وأبلغ أثر ليشعر قومه بأنه جاءهم أمر لا طاقة لهم به ، ولا قوة فكان ذلك درساً بليغاً حمله من خلال ذلك العرض

العسكري المهيب وبذلك نجح الرسول ﷺ بدخول مكة بأقل خسائر ممكنة من خلال تلك الخطة المحكمة .

ولم يقتصر الاستعراض على ذلك بل تعداه إلى استعراض الخيول ، والاهتمام بها وعمل المسابقات لها نظراً لما تشكله الخيول من أهمية بالغة في الفروسية وفي الميادين الحربية ، لذا نجد الرسول ﷺ هو الذى يتولى عرض الخيول بنفسه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول ﷺ استعمل أسلوب إشعال النيران أمام الأعداء حتى يث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء ، ونلمس ذلك واضحاً فى كل من غزوة حمراء الأسد وفتح مكة .

وهكذا كانت أساليب الاستعراض التى عمل بها الرسول ﷺ وأمر بها أو دعى إليها متعددة ومتنوعة ، بحسب طبيعة وظروف المعركة فالرسول ﷺ هو القائد القدوة الذى كان على علم بكيفية اكتشاف طاقات أمته شيوخاً وشباناً وأحداثاً وصبياناً بل ونساءً . كما كان على دراية واسعة بأدوات العدة الجهادية من سلاح وخيول وأساليب قتالية ، مع العمل على الأفادة من هذه الطاقات وتوجيهها نحو الخير فى خدمة الدعوة ، وتحقيق فرضية الجهاد التى تميزت بها هذه الأمة لتكون أمة هداية وخير ، كل ذلك ليتأسى به قادة الإسلام فى حركاتهم الجهادية ، وتفقدهم لأساليب القتال وإعداد العدة للجهاد فى سبيل الله .

وقد سرت فى هذا البحث على جمع المادة العلمية من كتب الأحاديث النبوية وكتب المغازى والسير التى تحدثت عن غزوات الرسول ﷺ وحرصت على نقل الروايات الصحيحة والاشهاد بها قدر المستطاع ، وإذا لم أجد شيئاً فى الصحيحين ، اعتمدت على اقوال أهل الحديث فى الحكم عليه ، كما قمت بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها حتى يسهل الرجوع إليها برواتها وأسانيدها، سائلاً الله عز وجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح إنه سميع مجيب .

استعراض (١) الصفوف :

من وسائل الاستعراض العسكرى الذى عمله الرسول ﷺ فى حربه مع الأعداء تنظيم الجيش الإسلامى على هيئة صفوف أمام الأعداء استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى للمقاتلة بنظام الصف كما جاء فى القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَا مَرْصُوصٌ﴾ (٢) . أورد ابن كثير قولاً لابن عباس فى معنى ذلك « أنه مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة ألم تر إلى صاحب البنيان لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره » (٣) .

وفى بدر بالذات كان نظام الصف الذى عمله الرسول ﷺ مفاجئاً للمشركين مما كان عاملاً فى إحداث خلل فى خططهم وصعوبة فى إعادة ترتيب وضعهم وكان ذلك مهماً فى انتصار المسلمين على أعدائهم . ولعل فى ذلك فوائد كثيرة منها :

- ظهور جميع المقاتلين أمام القائد والتعرف عليهم واحداً واحداً .
- الإيحاء للأعداء بكثرة عدد المسلمين وإظهار قوة المسلمين لبث الرعب فى قلوب أعدائهم (٤) .
- اختبار كفاءة المقاتلين وقدراتهم القتالية .
- سهولة حركة القائد بين الصفوف بشكل فيه مرونة وسرعة .
- أن القتال بالصف يصلح لأى من الظروف القتالية سواء كان هجوماً أو دفاعاً .
- الاستماتة والاستمرارية فى القتال لأطول فترة ممكنة .
- وجود قوة احتياطية متمثلة فى الصفوف الخلفية لمعالجة أى طوارئ غير متوقعة (٥) .

ومن هنا رغب الرسول ﷺ بذلك روى الإمام أحمد بسنده (٦) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله إليهم :

الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .
فعمل المسلمون بذلك .

كما أن الرسول ﷺ طبقه في بدر حيث دلت على ذلك الأحداث الكثيرة وتواترت في كتب المغازي والسير . من ذلك ما رواه الإمام أحمد (٧) . بسنده عن يونس بن محمد حدثه شيبان بن عبد الرحمن عن قتاده . قال : حدثنا انس بن مالك أن أبا طلحة رضى الله عنه قال : « غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر » (٨) .
وأورد ابن كثير رحمه الله من رواية للترمذي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : « صفنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً » (٩) .

وقد أورد البيهقي بسنده (١٠) من رواية الفضل بن دكين عن حمزة بن أبي أسيد عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صفنا لقريش و صفوا لنا ، إذا أكتبوكم فارموهم بالنبل » وهو بسند صحيح حيث أورده البخاري بقوله : « إذا أكتبوكم يعنى أكثروكم فارموهم بالنبل واستبقوا نبلكم » (١١) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبراني (١٢) وأحمد (١٣) من رواية عبد الله بن لهيعة حدثه يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التميمي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : « صففنا يوم بدر فندرت منا نادره - وفي رواية فبدرت منا بادرة - أما الصف فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال معي معي » ، قال ابن كثير رحمه الله في هذا الحديث تفرد به أحمد وإسناده حسن (١٤) ، وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه (١٥) .

وفي هذا المقام أيضاً ما تواتر عند أهل المغازي والسير في قصة سواد بن غزية الأنصاري (١٦) رضي الله عنه عندما كان الرسول ﷺ يسوي الصفوف ويعدها يوم بدر .. فقد أورد ابن اسحاق بسنده عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : « أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية حليف بني عدى بن النجار وهو مستتل (١٧) من

الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد . فقال يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذنني - فكشف الرسول ﷺ عن بطنه فقال : استقد... وذكر تمام الحديث «(١٨) .

وأورد الهيثمي رواية عن عبد الله بن جبير الخزاعي قال : « طعن رسول الله ﷺ رجلاً في بطنه إما بقضيب وإما بسواك . فقال : أوجعتني فأقذنني ، فأعطاه العود الذي كان معه فقال : استقد . فقبل بطنه . ثم قال : بل أعفو لعلك أن تشفع لي بها يوم القيامة » .

قال الهيثمي أورد هذه الرواية الطبراني ورجاله ثقات (١٩) .

إن هذه القصة لتدل دلالة واضحة على مدى الدقة والانضباط في الاستواء بالصفوف من دون أية تقدم أو تأخر ولو حتى يجرء من الجسم كما هو واضح من قصة سواد وبروز بطنه في الصف ، ولهذا وجد الرسول ﷺ بدأ من إشعار سواد بأهمية الاعتدال والاستواء والالتزام بذلك ولو جاء ذلك بأسلوب التأديب كما هو الحال هنا .

ثم أن موقف سواد ﷺ وطلبه القود من الرسول القائد ﷺ وعرض الرسول ﷺ نفسه والكشف عن بطنه لسواد في مثل هذه الظروف الحرجة بل والبالغة لتؤكد عدالة الرسول ﷺ والاستجابة من القائد لهذا الجندي في وقت العرض لما طلبه ، حيث أنه كان يطمح ، أن يكون آخر العهد أن يمس جلده جلد رسول الله ﷺ على ما أوردته المصادر في سياق تلك القصة .

كما أن الرسول ﷺ استعمل نظام الصف أمام الأعداء يوم أحد ، فقد روى أبو طلحة ﷺ بسند صحيح قال : « غشيننا ونحن في مصافنا يوم أحد حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذ . قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه ، والطائفة الأخرى . المنافقون ليس لهم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق » (٢٠) .

استعراض الغلمان لاختبار كفاءتهم القتالية :

فى غزوة أحد عندما علم رسول الله ﷺ بتعبئة المشركين لمهاجمة المسلمين بعد هزيمتهم فى غزوة بدر استشار ﷺ أصحابه فى مكان القتال ، فهناك من أشار عليه بدخول المدينة وكان عليه الصلاة والسلام يرى هذا رأى ، وهناك من أشار عليه بالخروج عن المدينة ليجنبها ويلات الحرب وكان هذا هو الرأى الراجع ، فعندئذ عبا الرسول عليه الصلاة والسلام جيشه وخرج إلى أحد ثم انسحب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى المنافق من جيش المسلمين . ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا سبعمائة رجل (٢١) . وقبل المعركة وضع فرقة من الرماة عليهم عبد الله ابن جبير ﷺ ووجههم إلى جبل الرماة لحماية ظهور المسلمين لئلا يلتف عليهم المشركون من الخلف (٢٢) ... كما استعرض الرسول ﷺ جيشه ، وقبل من قبل ورد من رد وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التى تثبت أنه استعرض أبناء الصحابة الصغار واحداً واحداً ، فمن كان سنه أقل من خمس عشرة سنة رده ، ومن كان أكثر من ذلك أجازته ، ولهذا نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جعل سن الخامسة عشر الحد ما بين من يشبههم فى عطاء المقاتلة من عطاء الذرية (٢٣) .

أورد البخارى بسنده ، حدثه نافع ، حدثه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه « ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى » (٢٤) . قال نافع : «فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة» (٢٥).

وقد رواه البيهقى بلفظ آخر بسنده ، من طريق محمد بن المشى ومحمد بن بشار ، قالاً حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا عبيدا الله عن نافع ، عن ابن عمر ،

قال : « عرضنى رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فاستصغرنى وردنى مع الغلمان ، فلما كان يوم الخندق عرضنى وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى .. الحديث » (٢٦) .

وأوردت كتب السير مجموعة من الغلمان الذين استعرضهم رسول الله ﷺ بعد العصر وقبل غروب الشمس (٢٧) منهم ، عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت ، البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيطى ، وابن سعيد بن خيثمة ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج (٢٨) . وزاد المقرئى عليهم الأسماء التالية : النعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، وعمرو بن حزم ، وسعد بن حبة الأنصارى (٢٩) .

وفى أثناء العرض رد الرسول ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة . فقبل للرسول ﷺ : إن رافعاً رام ، فأجازه رسول الله ﷺ ثم قال سمرة لقد اجزت رافعاً ورددتنى ولو صارعنى لصرعته ، قال فصارعته فصرعته فأجازنى فى البعث (٣٠) .

يقول ابن حجر : « أن عرض الجيش هنا هو اختبار لأحوالهم قبل مباشرة القتال ، للنظر فى هيبته وترتيب منازلهم ... » (٣١) .

أما قصة المصارعة وقت العرض فقد وردت فى كتب المحدثين ، إذ أوردها الحاكم فى المستدرک بسنده من رواية عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، عن سمرة ابن جندب رضى الله عنهم ... وذكر الحديث ... وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (٣٢) ، أى البخارى ومسلم .

كذلك رواه البيهقى والطبرانى أيضا (٣٣) :

ثم إن بعض المصادر أشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يقيم مثل هذه العروض فى كل سنة ، وليس خاصاً فى غزوة من الغزوات ، فقد وردت بذلك روايات عدة، منها على سبيل المثال : ما رواه البيهقى بسنده ، أخبره أبو عبد الله

الحافظ ، حدثه أبو الحسن محمد بن الحسن ، أنبأه علي بن عبد العزيز ، حدثه إبراهيم بن عبد الله الهروي ، حدثه هشيم ، حدثه عبد الحميد بن جعفر الأنصاري ، عن أبيه ، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار في كل عام فيلحق من أدرك منهم ... الحديث » (٣٤) .

غير أن الملاحظ هنا في نصوص هذا الحديث أن العرض في كل عام كان خاصاً بغلمان الأنصار دون المهاجرين . لكن سبق معنا في أحاديث صحيحة وردت عند البخاري ومسلم ما يدل على أن العرض كان حتى لأبناء المهاجرين . من ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه » (٣٥) . وعبد الله بن عمر من أبناء المهاجرين .

كذلك أورد ابن حجر حديثاً لأبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق » (٣٦) . هكذا مطلقاً ، ولم يحدد الراوي هل هم غلمان الأنصار ، أم غلمان الصحابة بشكل عام ، وهو الأرجح ، لثبوت الأدلة على ذلك بما سبق . ثم أن القصد من هذا العرض أمام الرسول ﷺ إنما هو لمعرفة من تكون له قدرة على القتال من هؤلاء الأبناء ، ممن لم يبلغ تلك المنزلة . فقصة رافع الذي أجازه الرسول ﷺ لأنه كان يجيد الرمي كما مر معنا آنفاً ، على الرغم من وجود غلمان كانوا في سنه ولم يجزهم الرسول ﷺ ابتداءً لكن لأن المسألة هنا كانت مسألة قوة واقتدار على القتال ، فإن سمرة بن جندب رضي الله عنه اعترض على ذلك وبين أنه يصرع رافعاً لو تصارع معه ، عندها وافق عليه الصلاة والسلام على المصارعة . فلما تمكن سمرة من مصارعة رافع ، أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا يقول ابن حجر في رواية أبي واقد الليثي : « أن الرسول ﷺ أجاز من أجاز ورد من رد إلى الذراري » (٣٧) .

استعراض الجيش بنظام الخميس :

وفى غزوة خيبر نجد أن الرسول ﷺ عبأ جيشه نحو يهود خيبر مستخدماً عنصرين أساسيين هما :

- عنصر المفاجأة حيث أنه صبحهم بكرة ، فما أن خرجوا إلى مزارعهم فى الصباح إلا وقد فوجئوا بجيش الرسول ﷺ أمامهم . وذلك أسلوب من أساليب بث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء .

- العنصر الثانى هو استعراض جيش المسلمين للأعداء وفق تنظيم عسكرى دقيق ، وهو نظام الخميس حيث تحرك الجيش إلى خيبر بهذه التعبئة التى فاجأت اليهود وجعلتهم يفرعون منها .

وأورد البخارى بسنده من رواية محمد بن سيرين عن أنس بن مالك ؓ قال : « صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحى ، فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس . فقال النبي ﷺ الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ... الحديث (٣٨) .

وقد أورده من طريق آخر بلفظ « أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يعز بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاثلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ... وذكر تمام الحديث « (٣٩) .

إضافة إلى ذلك فإن رسول الله ﷺ حاصر يهود خيبر ، واستمر فى محاصرتهم ومحاربتهم . وكان بذلك صافاً عساكره وجيوشه فى ليله ونهاره ، ومحاولاً فتح خيبر وهو على تعبته تلك . وأثناء تلك المحاولات أعلن عليه الصلاة والسلام أنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . عندها أخذ الناس يتناولون ويعرضون أنفسهم على رسول الله ﷺ كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ، إلى أن سأل عن على ؓ ثم دفعها له

فتم فتح خيبر ، وقد روى أحمد (٤٠) بسنده من رواية عبد الله بن بريده أنه سمع أبا بريدة يقول : « حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له ، وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إني دافع لوائى غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح له ، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا على بن أبى طالب وهو أرمم فتفل فى عينيه ومسح عنه ودفع إليه اللواء وفتح الله له . قال : وأنا فيمن تطاول لها » (٤١) .

استعراض قوة المسلمين عن طرق تجديد البيعة :

فى مستهل ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه من المسلمين ما يقارب ألفاً وأربعمائة على ما رواه البخارى من رواية جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما (٤٢) ، لقصد العمرة وذلك إظهاراً لتعظيم المسلمين للبيت الحرام ودحضا لأقاويل المشركين من أهل مكة الذين أدعوا على المسلمين عدم احترامهم للكعبة ، حيث بدأت مثل هذه الأقاويل تنتشر عند بعض قبائل الجزيرة العربية .

وتحسباً لوقوع صدام مع قريش فقد استعد الرسول ﷺ ومن معه بالسلاح وسار الرسول عليه الصلاة والسلام متجهاً نحو مكة عبر طرق بعضها غير معتادة ، حتى وصل إلى الحديبية - بالقرب من مكة بين الحل والحرم - على أن قريش حينما علمت بمقدمه اعترضت على دخوله مكة ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسلاً إلى قريش يخبرهم أنه لا يريد حرب أحد وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه . ومع ذلك رفضت قريش ، وظنت أن ذلك خدشاً بمكائنها عند العرب ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إرسال عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة ،

علمهم يستجيبوا لرغبة المسلمين . وحدث أن تأخر عثمان بن عفان فى مكة ، وكان فى الوقت نفسه عروة بن مسعود الثقفى مفاوضاً من قبل قريش ، فكان خلال وجوده مع الرسول ﷺ شديد الملاحظة ، فهاله تقدير واحترام المسلمين للرسول ﷺ ومكانته عندهم ، ومدى فداءهم له فنقل هذه الصورة لقريش فكان مما قال : « ... أى قوم والله . لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله أن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ... الحديث » (٤٣).

ولما أشيع أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ، دعا الرسول ﷺ أصحابه للبيعة فهبوا إليه جميعاً ليبايعوه وتسابق المسلمون لمبايعته على القتال (٤٤) .

إن هذه الصورة من المبايعة وصلت إلى مسامع قريش ، مما جعلهم يعيدون النظر فى أسلوبهم وتعاملهم مع هذا الحدث العظيم ، الذى أصبح خطراً يقض مضاجعهم ، فانصاعوا إلى الصلح بدلاً من إشعال الحرب التى خافوا أنها لا تكون فى صالحهم ، لما رأوا من عزيمة المسلمين وقوتهم وثباتهم ومبايعتهم للرسول ﷺ على القتال . فكان ذلك عرضاً عسكرياً بالغاً لتحويل توجيه الحدث وقبول مبدأ التفاوض مع المسلمين وتحقيق مطالبهم ولو آجلاً ، مما جعل قريش لا تقوم لها قائمة بعد هذا الصلح ، حيث تكفت يداها ، وأصبحت فى حكم المدافع ، وانتهى دورها كمهاجم للمسلمين .

عرض كتائب المسلمين أمام الأعداء :

وإذا ما انتقلنا إلى غزوة الفتح ، أو فتح مكة نجد أن العرض العسكرى هناك أخذ طابعاً مميزاً عن غيره من العروض العسكرية السابقة ، والتى كانت تعتمد على رؤية الرسول القائد ، ومتابعته لها ، والإشراف عليها ، وإبداء التوجيهات اللازمة،

واختبار كفاءة المقاتلين ، وخاصة الشباب الجدد منهم . أما هنا فإن الوضع مختلف والأسلوب مغاير ذلك أن الرسول ﷺ لما خرج قاصداً مكة حرص على أن لا تعلم قريش بخبره ، حتى أتى إلى مر الظهران (٤٥) . وأحست قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمون إليهم . وكان أبو سفيان زعيم المشركين وأهل مكة آنذاك . فخرج يستروح الأخبار حتى ظفر به العباس عليه السلام ، فاخبره خبر جيش المسلمين . وما زال العباس عليه السلام بأبي سفيان يدعوهُ للدخول في الإسلام حتى وضعه بين يدي النبي ﷺ ، حتى أسلم ثم أعطاه الرسول ﷺ الأمان ولكل من يدخل بيته أو المسجد الحرام أو من يغلق عليه بابه . ولكن قبل أن ينصرف إلى مكة وإلى قومه - على ما ذكره المحدثون وأهل السير - أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه عند خطم الجبل (٤٦) . حتى يرى جنود الله بكامل عدتهم وعتادهم ، لينقل هذه الصورة إلى قومه ، وقد أورد البخاري هذه القصة بحديث طويل في صحيحه (٤٧) . يمكن إيراد ما يخص هذه الحادثة وهو قول النبي ﷺ للعباس « ... احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة (٤٨) على أبي سفيان ، فمرت كتيبة قال يا عباس : من هذه ؟ قال هذه غفار . قال : مالي ولغفار ، ثم مرت جهينة ، وقال مثل ذلك . ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك ، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ... الحديث » .

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة (٤٩) وذكر الطبراني وغيره رواية مثل تلك إلا أنه وصف الكتيبة التي فيها الرسول ﷺ بقوله : « ... فلما مرت كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق (٥٠) ، قال سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. الحديث » (٥١) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى مبيناً أمر الرسول ﷺ للعباس فى حبس أبى سفيان عند خطم الجبل ... « وإنما حبسه هناك لكونه مضيقاً ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم » (٥٢) .

كما أن ترتيب الرسول ﷺ لجيشه وتقسيمه إلى عدة فرق كل فرقة تتجه إلى مكة من طريق غير الطريق الذى تسلكه الفرقة الأخرى ، هو نوع أيضاً من أنواع استعراض القوة أمام أهل مكة ، مما لا قبل لهم به ولا حول ولا قوة ، فيجعلهم يستسلمون وتسهل السيطرة على مكة وشعابها وجبالها . فقد أوردت كتب المغازى والسير والمحدثون ما يفيد بتقسيم الجيش ، حيث دخل رسول الله ﷺ من كداء بأعلى مكة (٥٣) ، وأمر خالد بن الوليد على المجنبه اليمنى أن يدخل من الليط أسفل مكة ، إضافة إلى فرقة أبى عبيدة بن الجراح على فرقة الرجاله ، والزبير بن العوام على المجنبه اليسرى (٥٤) ، ومعه الراية التى أمره الرسول ﷺ أن تركز بالحجون ، على ما رواه البخارى (٥٥) .

عرض الرسول ﷺ نفسه بين فلول الهاربين من المسلمين :

أما فى غزوة حنين فإن المسلمين لما خرجوا لملاقاة هوازن بعد فتح مكة ، وبعد أن انضم إليهم ما يقارب الألفى شخص من مسلمة الفتح ، وبعد أن احتدمت المعركة وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر وأخذوا فى جمع الغنائم ، إنهالت عليهم سهام هوازن ، حيث كانوا يجيدون الرمى ، فانكشف المسلمون فولوا هاربين إلا الرسول ﷺ ومن ثبت معه وهم قلة . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعرض وبنفسه وعلى بغلته البيضاء المسلمين وهو متجه نحو هوازن ويدعو الناس للثبات وعدم الفرار ، ويطلب من يذكر المسلمين بمواقفهم وبيعتهم تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان يوم الحديبية . وكان النبى ﷺ وهو على بغلته يصرخ فى المسلمين ويقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

وأخذ المسلمون في التوافد نحو ذلك الصوت . ثم صفهم الرسول ﷺ على ما أورده مسلم (٥٦) ، وأعاد المسلمون قواهم فكروا على عدوهم ، حتى كتب الله لهم النصر . وقد أورد البخاري ومسلم (٥٧) حديثاً من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً قال له : « أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال : لكن الرسول الله ﷺ لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لاقيناهم حملنا عليهم فأنهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهم ؛ فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

استعراض القوة بالنيران أمام الأعداء :

ومن الاستعراضات العسكرية التي كان الرسول ﷺ يثبت بها قوته واقتداره أمام الأعداء ، ما كان يعمل عليه الصلاة والسلام من إشعال النيران أحياناً ليرهب بها الأعداء وليشعرهم بقدمه ، وحرصه عليه الصلاة والسلام من تكثير هذه النيران وتوزيعها حتى يدرك الراءون لها كثرة عدد أصحابها . من ذلك مثلاً ما حدث في غزوة حمراء الأسد (٥٨) ، فبعد أن انتصر أهل مكة على المسلمين في أحد هموا بالرجوع إلى المدينة من أجل استئصال المسلمين دفعة واحدة ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمر الناس بالاستعداد لطلب العدو ، وأن لا يخرج معهم إلا من حضر في أحد - على الرغم مما أصاب المسلمين من الجراح والتعب - يقول ابن حجر رحمه الله في ذلك « وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم » (٥٩) .

وقد أورد ابن سعد في قصة إيقاد النيران أنه « ... كان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار ، حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم

ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهم «(٦٠) ، ووافق ابن سعد هنا كل من ابن سيد الناس ، وعلى الحلبي (٦١) .

أما المقرئ فقد ذكر أنهم أوقدوا خمسمائة ناراً وأن الرسول ﷺ كان يأمر المسلمين بجمع الحطب نهاراً وإشعالها ليلاً على انفراد (٦٢) ، وقد أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد على ذلك ثلاث أيام ، وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء . ثم رجع إلى المدينة لما علم برجوع المشركين إلى مكة (٦٣) .

وكان هذا الاستعراض مصدر قوة للمسلمين ليس فقط تجاه المشركين أهل مكة ، وإنما حتى على المنافقين فى المدينة الذين كانوا يخذلون المسلمين ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر .

وإذا ما انتقلنا إلى فتح مكة ، فإننا نجد جميع المصادر التى تحدثت عن هذه الغزوة أشارت إلى ما كان يعمل به الرسول ﷺ من إيقاد النيران الكثيرة التى تشعر العدو بكثرة عدد المسلمين . وتلك النيران جعلت أبا سفيان - على ما ذكرت المصادر - هو ومن معه من كبراء مكة يخرجون إلى خارج مكة تحسباً للأخبار . وفى ذات ليلة ، وكما أورد البخارى فى صحيحه (٦٤) « ... أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الخير عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفة . فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ... وذكر تمام الحديث » وقد اتفقت جميع المصادر على هذا الحديث ، وتلك المحاوراة بين أبا سفيان ورفاقه (٦٥) .

وعن عدد ما أوقد تلك الليلة من النيران ، فإننا نجد إشارة عند ابن سعد تفيد بأن الرسول ﷺ « .. أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ... » (٦٦) . وهذا العدد يمثل عدد جيش المسلمين الذى ذهب إلى مكة لفتحها .

عرض الرسول ﷺ للخيل :

تمثل الخيول أهمية بالغة في العسكرية الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام أهتم اهتماماً بالغاً بالخيل من حيث تنشئتها وتكثيرها ، وتدريبها والتدريب عليها ، ومعالجتها ، والحرص على إقتنائها . ووضع الحمى الخاصة بها . وكذلك عمل العروض اللازمة لها ، ثم الإسهام لها في الغنيمة ، وقد ورد في الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيمة الأجر والغنيمة » (٦٧) .

إن كل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى بحث مستقل بذاته ، وحيث أننا بصدد الحديث عن استعراض الخيول وعرضها في عهد الرسول ﷺ وما يتعلق في ذلك فلا بد من الإشارة هنا إلى الأحاديث الواردة في هذا الشأن ، حتى يتبين لنا مدى العناية البالغة من الرسول ﷺ بريضة الخيول وتدريبها لغرض الجهاد في سبيل الله . من ذلك مثلاً ما رواه الحاكم (٦٨) بسنده عن أبي بكر أحمد القاضي ، حدثه محمد بن سعد العوفي ، حدثه يعقوب الزهري ، حدثه محمد ابن طلحة التيمي ، حدثه أبو سهل بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يجهز أو كان يعرض جيشاً بيقيع الخيل (٦٩) فأطلع العباس بن عبد المطلب ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأحناء عليها » ، وقد أورد هذا الحديث أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وأبي يعلى في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط (٧٠) من طريق محمد بن طلحة .

وأورده الهيثمي بروايات متعددة . قال : « كنا عند النبي ﷺ بيقيع الخيل » ، وفي رواية أنه قال : « خرج النبي ﷺ يجهز جيشاً فنظر إلى العباس فقال ... وذكر تمام الحديث » ، قال الهيثمي عن رواية أحمد وأبي يعلى ثقات ورجاهم رجال الصحيح (٧١) .

ومما يدل أيضاً على استعراض الرسول ﷺ للخيل ما رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده (٧٢) من طريق أبي عثمان عن أبي موسى قال: «أخذ القوم في عقبه أو ثنية، فكلما علا رجل عليها نادى لا إله إلا الله والله أكبر، والنبى ﷺ على بغلة يعرضها في الخيل. فقال يا أيها الناس: إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً... الحديث»، كما روى هذا الحديث أيضاً البخارى وابن حبان في صحيحه وأبو داود في السنن، والنسائي في سننه الكبرى (٧٣).

وهناك حديث آخر ورد وبروايات متعددة يبين لنا مدى معرفة الرسول ﷺ بالخيل، وحرصه عليها، واستعراضه لها بين الحين والآخر، وهو ما رواه أحمد بسنده، حدثه صفوان بن عمرو، قال حدثني شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي، عن عمرو بن عبسة السلمى قال: «كان رسول الله ﷺ يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن الفزارى. فقال له النبى ﷺ أنا أفرس بالخيل منك. فقال عيينة وأنا أفرس بالرجال منك... وذكر تمام الحديث بطوله...» (٧٤). وقد أورده الحاكم في مستدركه وقال «هذا حديث غريب المتن صحيح الإسناد» ولم يخرجاه (٧٥) أى البخارى ومسلم.

أما الطبرانى فرواه بلفظ آخر من رواية معاذ بن جبل ؓ قال: «كان النبى ﷺ فى دارنا يعرض الخيل فدخل عليه عيينة... الحديث» (٧٦).

كما أورده الهيثمى من هذا الطريق وقال رواه الطبرانى ورجاله ثقات (٧٧).

أما عن رواية أحمد فقد قال أنه رواه متصلاً ومرسلاً ورجاله ثقات (٧٨).

وكما أن الرسول ﷺ اهتم بالخيل ورياضتها فإنه حرص أيضاً على تخصيص مكان لها فحمى النقيع (٧٩) للخيل - وهو على بعد عشرين فرسخاً من المدينة، وقدره ميل فى ثمانية أميال على ما أورده ابن حجر (٨٠) - فقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، منها ما رواه البخارى بسنده من رواية عبد الله بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أن النبي ﷺ حمى النقيع لخييل المسلمين » (٨١) ، كما رواه البيهقي بسنده عن نافع عن ابن عمر بلفظ « أن النبي ﷺ حمى النقيع لخييل المسلمين ترعى فيه » (٨٢) .

وقد تواترت فى ذلك الأدلة وروى هذا الحديث أغلب المحدثين (٨٣) .

وبالإضافة إلى عرض الخيول أمام النبي ﷺ فإنه كان أيضاً يعمل المسابقة بينها على حسب أنواعها ، وفئاتها وهو نوع من أنواع عرض الخيول ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر » (٨٤) .

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يسابق بين الخيول المضمرة وغير المضمرة (٨٥) . فقد روى البخارى بسنده حدثه أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد اضمرت فأرسلها من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك . قال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التى لم تضر فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بنى زريق . قلت : فكم بين ذلك ؟ ... قال : ميل أو نحوه . وكان ابن عمر ممن سابق فيها » (٨٦) .

وذكر الخزاعى رواية عن الزهرى قال : « سبق سهل بن سعد الساعدى ﷺ على فرس لرسول الله ﷺ يقال له الظرب . فكساه رسول الله ﷺ برداً يمانياً . وسبق أبو أسيد الساعدى على فرس لرسول الله ﷺ يقال له : لزاز فلما طلع الفرس جثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وأطلع من الصف وقال : كأنه بحر . وكسا أبا أسيد حلة يمانية » (٨٧) .

وكان التشبيه له بأنه بحر مما يدل على سرعة الفرس وعدم انقطاع جريه ، مثل البحر لا ينقطع ماؤه (٨٨) ، ولهذا نجد هناك أحاديث رواها البخارى وذكر فيها أن الرسول ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة يقال له « مندوب » فقال إنا وجدناه « لبحراً » . وقصة ذلك فيما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : « كان » بالمدينة

فزع فاستعار النبي ﷺ فرساً لأبى طلحة يقال له مندوب . فركبه وقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً» (٨٩) .

ومن خيل الرسول ﷺ التى سابق فيها وسبقت كانت « السكب » و « سبحة » و « الأدهم » وغيرها (٩٠) .

ولم يكن أجراء العروض للسباق خاصاً بالخيل فقط وإنما شمل حتى الإبل ، فلقد سابق الرسول ﷺ بين الإبل ومعهن القصواء وعليها بلال ؓ (٩١) . وذكر ابن جماعة أن للرسول ﷺ ناقة اسمها الجدعاء وكانت لا تسبق (٩٢) . مما يدل على أنه عمل لها ولغيرها سباق بين الإبل فسبقت ، كذلك أورد البخارى بسنده من رواية أنس ؓ قال : « كانت لرسول الله ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابى على قعود فسبقها . فشق على المسلمين . فلما رأى ما فى وجوههم ، قالوا يا رسول الله : سبقت العضباء ؟ قال : إن حقاً على الله أن يرتفع من الدنيا شىء إلا وضعه » (٩٣) .

عرض الصحابة الفارون أنفسهم على رسول الله :

ومن أساليب العرض على رسول الله ﷺ ما كان يعمل به بعض الصحابة رضوان الله عليهم ممن ارتكب خطأ فى القتال من فرار ونحوه ، أنهم يأتون ويعرضون أنفسهم على رسول الله ﷺ ليعفو عنهم أو يرى رأيهم فيه . من ذلك مثلاً ما رواه أبو داود وبسنده (٩٤) من رواية يزيد ابن أبى زياد ، أن عبد الرحمن ابن أبى ليلى حدثه أن عبد الله بن عمر حدثه ، أنه كان فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال : « فحاص الناس حيصة (٩٥) فكنت فيمن حاص . قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فقلنا ندخل المدينة فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون . فأقبل إلينا فقال : بل أنتم العكارون (٩٦) قال فدنونا فقبلنا يده فقال إنا فئة المسلمين » .

وقد أورد هذا الحديث مجموعة من المحدثين بأسانيدهم من طريق يزيد بن أبي زياد ، فقد أوردته الترمذى فى سنته (٩٧) ، كما أوردته ابن حبان فى صحيحه (٩٨) ، وكذا الحاكم فى المستدرک على الصحيحين (٩٩) ، وذكره الإمام أحمد فى مسنده (١٠٠) . والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١) ، وأبو يعلى فى مسنده (١٠٢) .

عرض الأسرى والمخاربين أمام الرسول ﷺ :

وكان الأسرى يعرضون على الرسول ﷺ بعد المعركة ليرى فيهم رأيهم ، ويحكم عليهم بحكمه ، بحسب مقتضى حالهم ، ومدى إيغالهم فى العداوة للإسلام وأهله ، ومدى حرص الرسول ﷺ وطمعه بإسلام البعض منهم . ولهذا نجد أن الرسول ﷺ - بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين وأسرههم لعدد من المشركين وأثناء عودتهم قافلين إلى المدينة - أمر بقتل كل من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على ما رواه ابن اسحاق ، قال : « ... حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبى طالب ... ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط ... » (١٠٣) . وقد وردت روايات عدة عند المحدثين عن ذلك (١٠٤) .

أما المخاربون - وهم اليهود بعد نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ - فقد وردت أحاديث فى غزوة بنى قريظة تبين أن الرسول ﷺ لما حاربهم وانتصر عليهم وجمع رجالهم وصبيانهم ونساءهم ، فإنه جعل النساء والذرارى من السبى . أما الرجال فتم قتلهم (١٠٥) . وأما الأولاد فإنهم عرضوا على النبى ﷺ فمن رآه قد أنبت شعره - أى وصل إلى البلوغ - قتل ، ومن لم ينبت لم يقتل . من ذلك ما رواه الترمذى (١٠٦) بسنده قال حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال : « عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلى سبيله ، فكنت ممن لم ينبت فخلى سبيلى .. » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (١٠٧) .

وقد رواه ثلة من المحدثين بأسانيدهم ، عن سفيان حدثه عبد الملك بن عمير ،
حدثه عطية القرظي (١٠٨) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٩) ، من رواية
أسلم بن بجره بلفظ « ... فكان ينظر إلى فرج الغلام فمن أنبت ضرب عنقه وإن
لم ينبت فقى المغنم ... » (١١٠) .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على استعراض أولئك
الغلمان للتأكد من واقع بلوغهم ، وإنزال الحكم فيهم ، وحتى لا يؤخذ أحد
بالظنة أو الخطأ أو النسيان ، لأن في هذا حكما من أحكام الله أجراه الله على
لسان سعد ابن معاذ ؓ ، حينما قال له الرسول ﷺ على ما أورده البخاري « ...
قضيت فيهم بحكم الله ... » (١١١) . وذلك بسبب جريمتهم البشعة في نقض
العهود في أحلك الأوقات أيام غزوة الأحزاب .

الهوامش

(١) الاستعراض من العرض ، يقال عرضت الجند عرض العين ، إذا أمررتهم عليك ونظرت ما حالهم ، وقد عرض العارض الجند ، واعترضوا هم . ومنه اعتراض الجند على قائدهم ، واعترض الناس : عرضهم واحداً واحداً . وقيل هو من عرض الجند بين يدي السلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم . ومنه الاعتراض على الدابة ، إذا كان وقت العرض راكباً . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢٨٨٥/٥ .

(٢) الآية ٤ من صورة الصف .

(٣) انظر ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/٤ .

(٤) وبالمقابل فإن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في نظر المسلمين حتى تقوى عزائمهم ومعنوياتهم ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ الآية ٤٣ من سورة الأنفال .

(٥) انظر محمود شيت خطاب - الرسول القائد ٧٨ ، ٧٩ ، أكرم العمرى - المجتمع المدني في عهد النبوة ٤٧ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٠/٣ .

(٧) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٩/٤ .

(٨) انظر عن هذا الحديث البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٤٩٣/٤ - وسنن الترمذى ٢٢٩/٥ ، النسائى - السنن الكبرى ٣١٦/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩٥/٥ .

(٩) انظر ابن كثير ، السيرة النبوية ٤٠٩ / ٢ .

(١٠) انظر البيهقى - السنن الكبرى ١٥٥ / ٩ وانظر أبى داود - السنن ٥٢ / ٣ بلفظ حين اصطفنا يوم بدر ، وانظر أيضاً الطبرانى - المعجم الكبير ١٩ / ٢٦٢ .

(١١) انظر البخارى - الصحيح ١٠/٥ - ١١ .

(١٢) سليمان الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٤/٤ .

- (١٣) مسند الإمام أحمد ٤٢٠/٥ .
- (١٤) السيرة النبوية ٤٠٩/٢ ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ٢٧١/٣ .
- (١٥) انظر الهيثمي - مجمع الزوائد ٧٥/٦ .
- (١٦) انظر عن ترجمته ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٩٣/٤ ، ابن حجر - الإصابة ٢٩٢/٤ - ٢٩٣ .
- (١٧) يقال نل من بن أصحابه نلاً و نلواً واستنل أى تقدم ، واستنل القوم على الماء إذا تقدموا. انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٣٣٧/٧ .
- (١٨) انظر عن ذلك - ابن اسحاق - سيرة النبي ﷺ ٤٥٦/٢ - ٤٥٧ ، ابن هشام من رواية ابن اسحاق فى السيرة النبوية ٦٢٦/٢ ، وكذا ابن كثير فى البداية والنهاية ٢٧١/٣ ، والسيرة النبوية ٤٠٩/٢ - ٤١٠ ، وكل هؤلاء أوردوها من طريق واحد هو هذا الإسناد الذى فيه جهالة شيوخ حبان بن واسع بن حبان .
- (١٩) انظر مجمع الزوائد ٢٨٩/٦ .
- (٢٠) قال الترمذى حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذى ٢٢٩/٥ كما رواه أحمد فى المسند ٢٩/٤ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٩٥/٥ .
- (٢١) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٤/٣ ، ٦٥ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٦/٣ - ٢٩ .
- (٢٢) انظر المصادر السابقة وانظر أيضاً البخارى - الصحيح ٢٩/٥ .
- (٢٣) انظر ابن سعد - الطبقات ٢٥٨/٥ ، ابن حجر العسقلانى - فتح البارى ٢٧٨/٥ ، ٢٧٩ ، ٣٩٣/٧ ، ٣٩٤ .
- (٢٤) البخارى - الجامع الصحيح ٤٥/٥ ، صحيح مسلم ١٢/١٣ ، أبو داود - السنن ٥٦١/٤ ، ٥٦٢ ، الترمذى - السنن ٦٤١/٣ ، أحمد - المسند ١٧/٢ .
- (٢٥) انظر - البيهقى - السنن الكبرى ٣٥٢/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٥٩/١ ، انظر فتح البارى ٢٧٦/٥ ، ٣٩٣/٧ حيث شرح هذا الحديث شرحاً وافياً .

(٢٦) انظر سنن البيهقي ٥٥/٦ ، كما أورد مسلم جزءاً من هذه الرواية ، انظر الصحيح ١٢/١٣ .

(٢٧) انظر المقرئى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ حيث قال : « فلما فرغ العرض وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب » .

(٢٨) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٩/٣ - ٣٠ المقرئى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ .

(٢٩) انظر إمتاع الأسماع ١٩٩/١ ، انظر أيضاً ابن سيد الناس - عيون الأثر ٧/٢ حيث ذكر أن عدد من ردهم الرسول ﷺ من الأولاد بلغ أربعة عشر غلاماً .

(٣٠) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٥٨/٤ ، الخزاعي التلمساني - تخريج الدلالات السمعية ٢٤١ .

(٣١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ .

(٣٢) انظر الحاكم - المستدرک على الصحيحين ٧٩ / ٢ وذكر محقق الكتاب عبد القادر عطا أن الذهبى قال فى التلخيص حديث صحيح .

(٣٣) انظر سنن البيهقي ١٨/١٠ ، الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٧ / ٧ .

(٣٤) انظر سنن البيهقي ١٨/١٠ ، الحاكم - المستدرک على الصحيحين ٦٩/٢ ، الطبرانى ، المعجم الكبير ١٧٧/٧ ، وانظر ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٥٨ / ٤ بلفظ « كان يستعرض غلمان الأنصار فى كل عام » .

(٣٥) انظر الجامع الصحيح للبخارى ٤٥/٥ ، صحيح مسلم ١٢ / ١٣ .

(٣٦) انظر ابن حجر - فتح الباري ٣٩٤/٧ .

(٣٧) انظر المصدر السابق ٣٩٤/٧ حيث ذكر أن معنى الإجازة هنا هو « امضاؤه والإذن له بالقتال » .

(٣٨) انظر صحيح البخارى ٥٧٣/٥ ، وصحيح مسلم بلفظ : « فأتيناهم حين بزغت الشمس ... الحديث ١٦٥/١٢ .

- (٣٩) انظر المصدر السابق ٧٣/٥ ، ابن حجر - فتح الباري ٤٦٧/٧ .
- (٤٠) انظر مسند أحمد ٣٥٣/٥ .
- (٤١) انظر السنن الكبرى ١٠٩/٥ ، ١٧٩/٥ ، وانظر أيضاً ، أحمد بن حنبل . فضائل الصحابة ٥٩٣/٢ وذكر المحقق أن أسناده هنا صحيح .
- (٤٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٤٣/٧ ، ٤٤٤ .
- (٤٣) أورده البخاري مطولاً في قصة الحديبية في باب الشروط في الجهاد ، وانظره مع الشرح في فتح الباري ٣٢٩/٥ وما بعدها .
- (٤٤) وردت روايات عدة عن صيغة البيعة وهل هي على الموت ، أو على عدم الفرار أو على الصبر حيث وردت أحاديث كثيرة في ذلك ظاهرها التعارض ، وقد جمع العلماء بين هذه الآراء فمن ذلك ما ذكره الترمذي من أن هناك من بايعه من أصحابه على الموت ، وبايعه آخرون فقالوا : « لا نفر » انظر سنن الترمذي ١٥٠/٤ ، أما ابن حجر فقال : « لا تنافي بين قولهم ، بايعوه على الموت وعلى عدم الفرار ، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا ، وليس المراد أن يقع الموت ولا بد وهو الذي أنكر نافع وعدل إلى قوله : « بل بايعهم على الصبر » أي على الثبات سواء أفضى ذلك إلى الموت أو لا » والله أعلم .
- انظر ابن حجر فتح الباري ١١٨/٦ .
- (٤٥) مر الظهران ، سمي مر لمراته والظهران وإد قرب مكة بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً . ويطن الوادي تخزعت خزاعة أيام سيل العرم ، وبه كان الرسول ﷺ ينزل إذا أتى إلى مكة ، انظر البكري - معجم ما استعجم ١٢١٢/٢ ، ياقوت - معجم البلدان ٦٣/٤ .
- (٤٦) الخطم رعن الجبل وهو الأنف منه حيث يضيق الموضع الذي يخرج فيه . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٢٠٣/٢ .
- (٤٧) انظر صحيح البخاري ٩١/٥ ، وانظر ابن كثير - السيرة النبوية ٥٤٩/٣ ، ٥٥٣ .
- (٤٨) الكتيبة هي القطعة العظيمة من الجيش والجمع كئائب . انظر الجزري - النهاية في غريب الحديث ١٤٨/٤ ، ابن منظور - لسان العرب ٣٨١٨/٦ .

(٤٩) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٦/١ ، البيهقي - السنن الكبرى ١١٩/٩ البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٥٥٩/٤ .

(٥٠) الحدق هو السواد المستدير وسط العين ومنه التحديق وهو شدة النظر بالحدقة ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٨٠٦/٢ .

(٥١) الطبراني - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٠/٤ .

(٥٢) انظر فتح البارى ٨/٨ ، وانظر أكرم العمرى - المجتمع المدنى فى عهد النبوة ١٧٦ .

(٥٣) انظر البخارى - الصحيح ٩٣/٥ .

(٥٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١٢٦ ، ١٢٧ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٧/٣ ، ابن سعد - الطبقات ٩٨/٢ ، ابن الديع الشيبانى - حقائق الأنوار ٦٦٩/٢ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٣/٤ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٥٥) انظر البخارى - الصحيح ٩١/٥ .

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١١٨ - ١٢٠ .

(٥٧) انظر صحيح البخارى ٢/٢١٨ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١٢١ .

(٥٨) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة إليه انتهى رسول الله ﷺ فى اليوم الثانى من يوم أحد بطلب المشركين ، انظر البكرى - معجم ما استعجم ٤٦٨/١ ، ياقوت معجم البلدان ٣٠١/٢ .

(٥٩) انظر فتح البارى ٧/٣٧٤ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، السيرة النبوية ٩٨/٣ .

(٦٠) انظر طبقات ابن سعد ٣٥/٢ الواقدى - المغازى ٣٣٨/١ .

(٦١) انظر عيون الأثر ٣٨/٢ ، على الحلبي - السيرة الحلبية ٣٣٩/٢ .

(٦٢) انظر امتاع الأسماع ١٦٩/١ .

(٦٣) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٤/٤٩ ، أما ابن سعد فقد أشار إلى أن الرسول ﷺ انصرف إلى المدينة ودخلها يوم الجمعة ، وقد غاب عنها خمس ليال ... انظر الطبقات ٣٥/٢ .

(٦٤) انظر الصحيح البخارى ٩١/٥ .

(٦٥) انظر مثلاً سنن البيهقى الكبرى ٩/١١٩ ، ومسند الإمام أحمد ١/٢٦٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٨/٩ ، وانظر أيضاً ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٤/٨٦١ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤/٤٠٢ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٣/٥٧٤ ، البداية والنهاية ٤/٢٨٩ .

(٦٦) انظر الطبقات ٢/٩٧ ، ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٤/٨٦١ ، وانظر ابن حجر - فتح البارى ٨/٧ حيث أشار إلى أن النيران قد أخذت الوادى كله .

(٦٧) الحديث رواه مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر صحيح مسلم ٣/١٤٩٣ ، النسائى - السنن ٦/٢٢١ ، البيهقى - السنن الكبرى ٦/١١٢ ، أبى يعلى فى المسند ٥/٥١ ، ٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٢/٣٣٧ .

(٦٨) قال الحاكم عن هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه البخارى ومسلم ، انظر المستدرک ٣/٣٧١ .

(٦٩) البقيع هو الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ومنه بقيع المدينة ، أما بقيع الخيل فهو مكان بالمدينة عند دار زيد بن ثابت . انظر ياقوت - معجم البلدان ١/٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٧٠) وانظر مسند أحمد ١/١٨٥ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٥/٥٢٨ ، مسند أبى يعلى ٢/١٣٩ ، الطبرانى - المعجم الأوسط ٢/٥٥٢ .

(٧١) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/٢٧١ .

(٧٢) انظر صحيح مسلم ٤/٢٠٧٧ ، ومسند الإمام أحمد ٤/٤٠٧ .

(٧٣) انظر الجامع الصحيح المختصر ٥/٢٣٥٤ ، ابن حبان - الصحيح ٣/٨٤ ، أبو داود السنن ٢/٨٧ ، النسائى - السنن الكبرى ٥/٢٥٥ ، ٦/١٣٧ .

- (٧٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٢/٤ ، فضائل الصحابة ٨٧٧ / ٢ .
- (٧٥) انظر المستدرک علی الصحیحین ٩١/٤ ، وقال فی التلخیص صحیح غریب .
- (٧٦) انظر المعجم الكبير للطبرانی ٩٨ / ٢٠ .
- (٧٧) انظر الهیثمی حیث ذکر أن رجال الطبرانی ثقات إلا أن خالد بن معدان لم یسمع من معاذ بن جبل ، فی مجمع الزوائد ٤٧ / ١٠ .
- (٧٨) انظر المصدر السابق ٤٦/١٠ .
- (٧٩) النقیع : هی الأرض السهلة المستویة تثبت الرمث والبقل وأطایب العشب ، وقیل هی متسع الوادی ، فأصل النقیع کل موضع یتنقع فیہ الماء ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٥٢٦/٨ ، وانظر فتح الباری ٤٥/٥ .
- (٨٠) انظر فتح الباری ٤٥ / ٥ .
- (٨١) انظر الجامع الصحیح المختصر ٥٣٥ / ٢ .
- (٨٢) انظر سنن البیهقی ١٤٦/٦ .
- (٨٣) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد ٩١ / ٢ ، صحیح ابن حبان بترتیب ابن بلیان ٥٣٨/١٠ ، سنن الدار قطنی ٢٣٨/٤ ، شرح معان الآثار ٢٦٩/٣ .
- (٨٤) انظر النسائی - السنن بشرح الإمام السیوطی ٢٢٦/٦ .
- (٨٥) من الإضمار أو التضمیر وهو تقلیل علف الفرس مدة وتجلیلها لتعرق ویجف عرقها فیخف لحمها وتقوى علی الجری ، وقیل هو تسمینها أولاً ثم ردها إلى القوت . انظر - السیوطی - شرح سنن النسائی ٢٢٦/٦ .
- (٨٦) البخاری - الصحیح ٢١٩ / ٣ ، ٢٢٠ ، بروایات متعددة ، النسائی - السنن بشرح الإمام السیوطی ٢٢٦/٦ .
- (٨٧) انظر تخریج الدلالات السمعیة ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
- (٨٨) انظر الثعالبی - فقه اللغة ١٥٢ .

(٨٩) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، كما رواه من طريق آخر بلفظ « ... أن النبى ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بجرأ . فكان بعد ذلك لايجارى » ، انظر البخارى ٢١٩/٣ .

(٩٠) انظر ابن جماعة الحموى - مستند الأجناد فى آلات الجهاد ٧٠ ، ٧١ ، الخزاعى التلمسانى تخريج الدلالات السمعية ٣٩٣ .

(٩١) انظر المقرئى - إمتاع الأسماع ٢٠٦/١ .

(٩٢) انظر مستند الأجناد لابن جماعة ٧٣ .

(٩٣) انظر صحيح البخارى ٢٢٠/٣ ، وانظر سنن النسائى بشرح السيوطى ٢٢٧/٦ .

(٩٤) انظر أبو داود - السنن ٤٦/٣ .

(٩٥) من الحيص : وهو الحيد عن الشيء ، يقال حاص عنه يحيص حيصاً أى رجع . يقال للأولياء : حاصوا عن العدو . وللأعداء انهزموا . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٠٧٠ / ٢ .

(٩٦) من عكر على الشيء يعكر عكراً واعتكر أى كر وانصرف ، يقال رجل عكار فى الحرب أى عطاف كرار . وقال ابن الأعرابى العكار : الذى يولى فى الحرب ثم يكر راجعاً . انظر الجوهري - الصحاح ٧٥/٢ ، ابن المنظور - لسان العرب ٣٠٥٥/٥ .

(٩٧) انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٢١٥/٤ قال عنه هذا الحديث حسن .

(٩٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٦٦/٥ .

(٩٩) المستدرک على الصحيحين ٤٣٩ / ٣ .

(١٠٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٠٨ / ٤ .

(١٠١) المعجم الكبير ٥/١٨ .

(١٠٢) انظر مسند أبى يعلى ٤٤٧/٩ ، ١٠٨ / ١٠ وذكر المحقق له حسين سليم أسد أن إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ابى زياد . أما الذهبي فقال عن يزيد بن أبى زياد أنه شيعى عالم فهم صدوق ردئ الحفظ لم يترك روى له مسلم والأربعة . انظر الكاشف ٢٧٨/٣ / أما ابن حجر فقال عنه ضعيف كبر فتغير ، انظر تقريب التهذيب ٣٦٥/٢ .

(١٠٣) ذكر ابن كثير من رواية ابن اسحاق أن عقبة بن أبي معيط لما أقتيد وقدم للقتل قال :
فمن للصبية يا محمد . قال : النار ... ثم قال لما أقبل عليه عاصم بن ثابت لقتله : يا معشر
قريش علام أقتل من بين هؤلاء ؟ قال له : على عداوتك الله ورسوله . انظر ابن كثير -
السيرة النبوية ٤٧٣/٢ ، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣ .

(١٠٤) انظر عن هذه الروايات أحمد باوزير - مرويات غزوة بدر ٣٠٤ - ٣١٢ .

(١٠٥) ذكر البخاري أن الرسول ﷺ طلب من سعد بن معاذ أن يحكم فيهم قال سعد فلاني
أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبي النساء والذرية وأن تقسم أموالهم . انظر صحيح
البخاري - ٥١/٥ .

(١٠٦) في الجامع الصحيح - سنن الترمذي ١٤٥/٤ .

(١٠٧) الجامع الصحيح - سنن الترمذي ١٤٥/٤ ، وذكر المحقق أيضاً أن الألباني صححه
وانظر أيضاً الضحاك في كتابه الآحاد والمثاني ٢٠٥/٤ .

(١٠٨) انظر مثلاً صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠٤/١١ ، الحاكم - المستدرک علی
الصحيحين ٤٣٠/٤ ، ابن ماجه - السنن ٨٤٩/٢ ، سنن الدرامي ٢٩٤/٢ ، مسند أبي
داود الطيالسي ١٨١ ، مسند الإمام أحمد ٣١٠/٤ .

(١٠٩) انظر المعجم الكبير ٤٣٦/١٩ .

(١١٠) أورده الهرثمي بسند أسلم بن بجره الأنصاري وقال فيه جماعة لم أعرفهم . انظر مجمع
الزوائد ١٤٤/٦ .

(١١١) انظر صحيح البخاري ٥٠/٥ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم :

- الآحاد والمثاني :

أحمد بن عمرو بن الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، ط / الراية - الرياض عام ١٤١١هـ ، مراجعة باسم فيصل الجوابره .

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب :

يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : طه محمد الزيني ، ط ١ مكتبة الكليات الأزهرية .

- الإصابة في تمييز الصحابة :

شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، ط الأولى . دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٩٣هـ .

- البداية والنهاية :

لأبي الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط / الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- الجامع الصحيح المختصر :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) . ط / دار ابن كثير «اليمامة» بيروت عام ١٤٠٧هـ . مراجعة د. مصطفى ديب البغا .

- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي :

لمحمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، ط / دار أحياء التراث ، بيروت ، مراجعة أحمد محمد شاكر .

- الرسول القائد :

محمود شيت خطاب ، الطبعة المصرية - القاهرة .

- السنن لابن ماجه :

أبو عبيد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ط / المكتبة الإسلامية
بتركيا . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

- السنن للدارمي :

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي (ت ٢٥٥هـ) ، الناشر : دار إحياء
السنة النبوية .

- السنن لأبي داود :

سليمان بن الأشعث المعروف بأبي داود ، ط / دار الفكر ، مراجعة : محمد
محيي الدين عبد الحميد .

- السنن الكبرى للبيهقي :

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت ٤٥٨هـ) ، ط / مكتبة دار الباز بمكة
عام ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

- السيرة النبوية :

أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ،
ط / دار المعرفة - بيروت عام ١٣٩١هـ .

- السيرة النبوية :

لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت ٥٨١هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا
وآخرون ، ط / الثانية عام ١٣٧٥هـ ، مطبعة البابي الحلبي .

- الصحاح :

إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٢ هـ .

- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة :

للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ ، ط / دار الكتب الحديثة - مصر ، ط / الأولى ١٣٩٢ هـ ، تحقيق : عزت علي عطيه ، موسى محمد موسى .

- الطبقات الكبرى :

لمحمد بن سعد الزهري مولاهم ، ط / دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة .

- المجتمع المدني في عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين » :

د. أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

- المستدرک علی الصحیحین :

أبو عبد الله محمد النيسابوري المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥ هـ) ، ط / دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ ، راجعه : مصطفى عبد القادر عطا .

- المعجم الكبير :

سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ط / مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤ هـ . مراجعة : حمدي السلفي .

- المغازي :

لمحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ، ط / عالم الكتب - بيروت ، تحقيق : د. ماردسن جونس .

- المسند :

للإمام أحمد بن حنبل - دار النشر ، مؤسسة قرطبة بمصر - مصورة عن الطبعة الميمنية .

- النهاية في غريب الحديث :

لمجد الدين أبى السعادات بن الأثير الجزرى ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى
ومحمود طنناحى ، ط ١ ، المطبعة عيسى البابى الحلبي عام ١٣٨٣هـ -
١٩٦٣م.

- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع :

تقى الدين أحمد بن على المقرئى ، صححه محمود شاكر ، ط / الشؤون الدينية
بقطر ، الطبعة الثانية .

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ « السيرة الحلبية » :

على بن برهان الدين الحلبي ، ط / المطبعة المصرية عام ١٢٩٢هـ .

- تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف
والصنائع والعمالات الشرعية :

أبى الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى (ت ٧٨٩هـ) ، مطبوعات
وزارة الأوقاف المصرية - عام ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .

- تفسير القرآن العظيم :

لأبى الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر
- بيروت ١٣٨٨م - ١٩٦٩م .

- تقريب التهذيب :

شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، ط / دار
المعرفة ، بيروت ١٣٩٥هـ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

- حقائق الأنوار ومطالع الأسرار :

لابن الديع الشيبانى الشافعى ، تحقيق : عبد الله الأنصارى ، ط / قطر عام
١٤٠٣هـ .

- سنن النسائي الكبرى :

أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، ط / المكتبة العلمية - بيروت ، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١١هـ ، مراجعة : عبد الغفار البنداري وسيد كروي حسن .

- صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ط / إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٧٤هـ ، وصحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية .

- صحيح البخاري :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ط / المكتبة الإسلامية باستانبول - تركيا .

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير :

لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) . ط / طبعة دار المعرفة للطباعة - بيروت .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري :

لابن حجر . شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيق : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء .

- فضائل الصحابة :

لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، ط / الأولى عام ١٤٠٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق : د. وصي الله محمد عباس .

- فقه اللغة وسر العربية :

أبي منصور الثعالبي ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤م .

- لسان العرب :

جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون ط / دار المعارف بمصر .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :

للمحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي (ت ٧٠٨ هـ) ط: ٢ عام
١٩٦٧م، دار الكتاب ، بيروت .

- مرويّات غزوة بدر :

أحمد محمد باوزير ، ط ١ ، مكتبة طيبة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٠ هـ -
١٩٨٠م.

- مستند الأجناد في آلات الجهاد :

لابن جماعة الحموي (ت ٧٣٣ هـ) ، تحقيق : أسامة ناصر النقشبندی ،
منشورات وزارة الثقافة بالعراق ١٩٨٣ م .

- مسند أبي يعلى الموصلي :

أحمد بن على بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧ هـ ، ط / دار المأمون للتراث ، ط
الأولى ١٤٠٥ هـ ، تحقيق : حسين أسد .

- معجم البلدان :

شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت عام
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :

عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧ هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط
عالم الكتب - بيروت .

العباسيون والأمويون

دراسة في العلاقات بين البيتين (١١-١٢٥هـ)

د. محمد بن ربيع بن هادي مدظل^{*}

يتصل البيتان العباسي والأموي بجد واحد يجمعهما ألا وهو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة (١) .

فالعباس هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٢) ، عم رسول الله ﷺ ، وصاحب المواقف الجليلة معه بعد وفاة أبي طالب بن عبد المطلب (في السنة العاشرة من البعثة النبوية) ، حيث شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو مشرك (٣) ، ثم ساند رسول الله ﷺ معنوياً بعد الهجرة إلى أن هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة سنة ٨هـ (٤) .

وحظي العباس عند رسول الله ﷺ بمكانته اللاتقة به ، وأنزله منه منزلة الوالد (٥) ، وكان يحله ، ويقدره ، ويعتز به بين صحابته (٦) ، وبقي على مكانته تلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، إذا أنزله الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) منزلته التي يستحقها حتى وفاته سنة ٣٢هـ (٧) ، وكان له عدد من الأبناء منهم الفضل (ت ١٨هـ) ، وعبد الله (ت ٦٨هـ) ، وعبيد الله (ت ٥٨هـ) (٨) ، وكان أشهرهم حبر الأمة ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

أما أبو سفيان فهو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة (٩) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

تولى قيادة جيوش قريش ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فى أحد والأحزاب ،
وبعض الغزوات الصغيرة (١٠) ، ثم هداه الله للإسلام فى يوم الفتح ، وذلك
عندما آمنه العباس بن عبد المطلب ، ودخل به على رسول الله ﷺ حيث أعلن
إسلامه . وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يميز أبا سفيان بشيء لأنه كما قال
رجل يحب الفخر ، فقال ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق
عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » (١١) .

وشهد أبو سفيان مع رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وفقت إحدى عينيه ،
وأعطاه ﷺ مائة من الإبل ، وأعطى ابنه يزيد (ت ١٨ هـ) ومعاوية (ت ٦٠ هـ)
يتألفهم على الإسلام (١٢) .

وهو قبل ذلك كله كان صهرا لرسول الله ﷺ قبل إسلامه إذ تزوج رسول
الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان (١٣) .

واستعمل رسول الله ﷺ ابنة معاوية على بعض الأعمال ومنها الكتابة (١٤) .
وبعد وفاة رسول الله ﷺ شارك أبو سفيان فى حركة الفتح الإسلامى تحت راية
ابنه يزيد ، ففقت عينه الأخرى فى معركة اليرموك (١٥) ، فعاد إلى المدينة مكرماً
من الخلفاء الراشدين إلى أن توفى سنة ٣٤ هـ (١٦) .

وهكذا كان هذان العلمان من ذوى الشرف والسؤدد فى قومهما ، يضاف
إلى ذلك أنه كانت تجمع بين العباس وأبى سفيان علاقة خاصة قبل الإسلام ،
فالأخير كان نديماً للعباس فى الجاهلية (١٧) ، هذه الصداقة جعلت العباس ﷺ
يعمل على حماية صديقه ، إجارته عام الفتح عندما التقى به فى مر الظهران (١٨) ،
وأردفه على بغلة رسول الله ﷺ زيادة فى الحرص على سلامته حتى دخل به على
رسول الله ﷺ وجادل عمر بن الخطاب ﷺ الذى كان يرى أن الله قد أمكن من

أبى سفيان من غير عهد ، فاتهم العباس عمر أنه متحامل على أبى سفيان لأنه من بنى عبد مناف (١٩) ، وهى تهمة نفاها عمر رضي الله عنه وكان صادقاً فى ذلك .

هذا الإصرار من جانب العباس عم رسول الله ﷺ على حماية أبى سفيان ، والحرص على سلامته توضح مدى وفاء العباس لصديقه القديم ، ومن ناحية أخرى حب العباس لقريش عموماً وخشيته عليها إن لم يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل وصوله ﷺ إلى مكة (٢٠) .

ولعل الصلة بين هذين البيتين والزعامة فيهما ، وقرابتهما من رسول الله ﷺ هى الدافع لأبى سفيان فى رواية (٢١) ، أو خالد بن سعيد بن العاص (ت ١٣ هـ) فى رواية أخرى (٢٢) ، لمخاطبة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ينكر عليهما موافقتهما على بيعة الصديق ، وحسب رأى القائل أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى عبد مناف . والملاحظ هنا أن هذا القائل لم يخص بنى هاشم أو بنى عبد المطلب ، وإنما عم بنى عبد مناف ، ومنهم بالطبع بنو أمية . ونستشف منه أن بنى أمية كانوا يرون لأنفسهم حقاً فى خلافة رسول الله ﷺ ، أو على الأقل إن نالها على بن أبى طالب فقد تحققت بواسطته زعامة بنى عبد مناف على قريش خاصة والمسلمين عامة .

وعلى كل فقد وضعت خلافة الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ من قبل المهاجرين والأنصار (٢٣) ، حداً فى مسألة الوراثة سواء من بنى هاشم ، أو غيرهم ، وأن مسألة الخلافة كما بين الصديق رضي الله عنه هى فى قريش عموماً للحديث الذى رواه عن رسول الله ﷺ فى ذلك وأنها غير محصورة ببيت من البيوت بعينه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الراشدين لم يستعينوا بزعمى بنى هاشم وبنى أمية فى أعمال الدولة الإسلامية ، وإنما جاءت الاستعانة بأبنائهما حيث برز كل من هؤلاء الأبناء فى مجال يختلف عن الآخر .

فعبد الله بن عباس رضى الله عنهما احتل مكانة مرموقة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخاصة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ كان يقدمه على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه ، وفقهه ، ودقة استنباطه للأمور الشرعية ، وخاصة تفسير كتاب الله العزيز ، الذى كان كثيراً ما يسأله عن معانى بعض آيات كتاب الله عز وجل . وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه معجباً به أيما إعجاب وكان يقول عنه : « ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول » (٢٤) ، ويقول فيه : « كيف تلوموننى على ابن عباس » (٢٥) ، وقد أوتى ابن عباس هذا العلم وهذا الفقه حتى نال هذه المكانة بفضل دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » (٢٦) .

هذا فى الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فقد برز دوره فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد .

أما أبناء أبى سفيان - يزيد ومعاوية - فقد جعل الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبى سفيان على رأس أحد الجيوش الأربعة المتوجهة إلى الشام لفتحها (٢٧) ، وبعدما توفى الصديق سنة ١٣ هـ ، وخلفه عمر رضي الله عنه استعمل يزيد على مدينة دمشق بعد فتحها ، واستمر فى منصبه ذاك حتى توفى سنة ١٨ هـ ، فولى أمير المؤمنين عمر مكانه أخاه معاوية ، ثم جمع له ولاية الشام بعد ذلك (٢٨) .

ظل معاوية أميراً على الشام حتى مقتل عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ فى الفتنة المعروفة . وكان من جراء ذلك أن دبت الفتنة والخلافات بين أبناء الدولة الإسلامية بسبب مقتل عثمان رضي الله عنه ، وذلك لاختلافهم حول القصاص من قتلته ، بعد أن اختير على رضي الله عنه ، (ت ٤٠ هـ) من قبل المهاجرين والأنصار خليفة وأميراً للمؤمنين (٢٩) .

كان ابن عباس نظراً لظروف الفتنة قد نصح علياً بعدم قبول البيعة في مثل تلك الظروف ، لأنه إن قبلها ، فسيلزمه الناس دم عثمان ، وليتظر فسيجتمع عليه الناس لا محالة (٣٠) ، لكن علياً عليه السلام رأى أن التأخير في القيام بأمر المسلمين ستترتب عليه مفسد كبيرة أخطرها : أن الذين قتلوا عثمان ربما يصرفون الخلافة عن أهل الحل والعقد من أهل المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وهو ما هددوا به فعلاً أهل المدينة (٣١) . وبعد البيعة كان من رأى ابن عباس أن يبقى أمير المؤمنين على عليه السلام معاوية في إمارة الشام حتى تستقيم الأمور ، ثم إن شاء بعد ذلك عزله . وكان رأيه هذا بعد أن طلب منه أمير المؤمنين على أن يتولى بلاد الشام ، لكن ابن عباس رفض ذلك لخطورة قدومه إلى تلك المنطقة في مثل تلك الأوضاع (٣٢) .

وعندما اشتد أوار الفتنة ، واحتكم إلى السيف في الجمل وصفين شارك بنو العباس - عبد الله ، عبيد الله ، قثم - في تلك المعارك مع علي عليه السلام . وكذلك استعان بهم في الإدارة حيث تولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، وقثم مكة (٣٣) ، وظلوا معه حتى قتل سنة ٤٠ هـ ، وبويع الحسن بن علي رضي الله عنهما بالخلافة التي تنازل عنها اصلاًحاً بين الناس وحققنا لدماء المسلمين ، ولتحقق فيه قول النبي ﷺ « إن أبني هذا سيد ولعل الله شاء أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٣٤) ، ومن ثم اجتمعت الأمة على معاوية وسمى عام ٤١ هـ الجماعة (٣٥) .

ومن الطبيعي أن ينخرط بنو العباس في هذه البيعة الجديدة ، بل إن عبيد الله بن عباس سارع إلى مكتبة معاوية قبل أن يعقد الصلح مع الحسن ، وشرط لنفسه ولمن معه الأمان وله الأموال . فلبى معاوية له شروطه ، فالتحق به عبيد الله ، فأكرمه معاوية ، وكافأه بألف ألف درهم وقيل ألفى ألف درهم (٣٦) .

وأصبح عبيد الله مطاع الرأي عند معاوية ويتقبل مشورته فيمن يتولى أمور البصرة. وحسب الرواية فإن معاوية كان يريد أن يولى عليها أحد بنى القين ، فعدل عنه إلى عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩ هـ) (٣٧) .

أما عبد الله بن عباس فتشير بعض الروايات إلى أنه كان قد غادر البصرة إلى الحجاز بعد أن استولى على بيت مالها ، وذلك عندما طلب منه أمير المؤمنين على عليه السلام أن يرفع إليه الحساب (٣٨) . ويبدو من هذه الرواية الوضع والاختلاق ، فهناك عدة قرائن تشير إلى أن عبد الله بن عباس عليه السلام ظل ملازماً لعلي عليه السلام إلى اليوم الذي قتل فيه . ومن هذه الروايات ماورد في ترجمة علي بن عبد الله بن عباس حيث ذكرت بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام افتقد عبد الله بن عباس في اليوم الذي قتل فيه وذلك في صلاة الظهر ، فسأل عنه فقيل له شغل بمولود ولد له . فلما قضى صلاته توجه إلى عبد الله بن عباس وهنأه بالمولود ودعا له ، ثم إن أمير المؤمنين سمي هذا المولود باسمه ، وكناه بكنيته ، فأصبح اسمه علي بن عبد الله بن عباس (٣٩) .

وهناك رواية ذكرها الطبري أن ابن عباس لم يرح البصرة حتى قتل على عليه السلام وبويع الحسن وشهد معه الصلح (٤٠) .

وهذه الروايات الأولى بالقبول والتصديق ، من تلك التي تقذف صحابياً جليلاً له من العلم والورع والتقوى ما يمنعه من استحلال مال المسلمين بغير حق (٤١) .

كما أنها تبين لنا أن ابن عباس صمد في وجه معاوية إلى أن تنازل الحسن ، فلما أصبح معاوية خليفة دخل ابن عباس فيما دخل فيه المسلمون ، وباع معاوية وتبعاً لما هو معروف عن معاوية الدهاء والحزم وحسن التصرف في الأمور وقد

وصف نفسه بقوله : « لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » (٤٢) ، لذا كان من الطبيعي أن يقرب إليه أهل العلم ، والشرف ، ويجعلهم من خواصه ومقريه ، فكيف برجل من بنى عبد مناف ، أقرب إليه رحماً ، ويتمتع بمكانة كبيرة في عهد من سبقه لعلمه ، وفقهه ومكانته مثل عبد الله بن عباس . بل إننا نجد أن معاوية يقرب إليه بنى هاشم أكثر من تقريه لبنى أمية ، ويجزل لهم العطايا أكثر من غيرهم؛ مثل الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠ هـ) مما جعل بنى أمية يعاتبونه على تقريهم أكثر منهم (٤٣) .

وفي المقابل فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قابل ود معاوية بود ، واحتراما باحترام . وعبارات الثناء التي صدرت منه في حق معاوية تدلنا على ذلك، ومن هذه الأقوال :

١ - « ما رأيت أحداً كان أحق بالملك من معاوية ، لله دره إن كان حلليماً ، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب » (٤٤) .

٢ - في إحدى قدمات ابن عباس إلى معاوية أمر الأخير ابنه يزيد أن يأتي ابن عباس ويسلم عليه ، فلم وصل إلى ابن عباس رحب به وحدثه . فلما خرج من عنده قال ابن عباس : « إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماة الناس » (٤٥) . وقال هذا القول في يزيد بحكم معرفته الوثيقة به عندما شاركه في الحملة المتوجهة إلى القسطنطينية لمحاولة فتحها سنة ٤٩ هـ (٤٦) .

٣ - وقال عن معاوية : « لله در ابن هند ، ولينا عشرين سنة ، فما آذانا على ظهر منبر ولا بساط ، صيانة منه لعرضه ، وأعراضنا . ولقد كان يحسن صلتنا ويقضى حوائجنا » (٤٧) .

وكان معاوية يستفيد من حضور ابن عباس إليه . روى على بن عبد الله بن عباس قال : « كنت مع أبي عند معاوية ذات ليلة فأتاه المؤذنون يؤذنون لصلاة

العشاء الآخرة ، فضعن بحديث أبى ، فأمر رجلاً أن يصلى بالناس ، ثم تحدثنا حتى إذا فرغنا من حديثهما ، قام معاوية فصلى وليس خلفه غيرى وغير أبى ، وذلك بعدما أصيب ابن عباس فى بصره ... » (٤٨) .

ولما أنكر على بن عبد الله على معاوية وتره بركعة واحدة ، قال له ابن عباس إنه أعلم منك (٤٩) .

هذه الروايات التى ذكرناها تختلف تماماً عن الروايات الأخرى التى تصور ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما ، كشخصيتين متنافرتين يتربص كل منهما بالآخر سقط الكلام ، ويبدو التباغض منهما كل تجاه الآخر ، ومن هذه الروايات :

١ - « ... لما جاء معاوية نعى الحسن بن على استأذن ابن عباس على معاوية ، وكان ابن عباس قد ذهب بصره ، فكان يقول لقائده ، إذا دخلت بى على معاوية فلا تقدنى ، فإن معاوية يشمت بى ، فلما جلس ابن عباس قال معاوية : لأخبرنه بما هو أشد عليه من أن أشمت به . فلما دخل قال : يا ابا العباس هلك الحسن بن على ، فقال ابن عباس : إنا الله وإنا إليه راجعون ، وعرف ابن عباس أنه شامت به ، فقال : أما والله يا معاوية ، لا يسد حفرتك ولا تخلد بعده ، ولقد أصبنا بأعظم منه فجبرنا الله بعده ، ثم قام . فقال معاوية : لا والله ما كلمت أحداً قط أعد جواباً وأعقل من ابن عباس (٥٠) .

وحقيقة هذا الموقف بين الرجلين جاءت فى رواية أخرى ، هى أن معاوية قال لابن عباس : « يا عجباً من وفاة الحسن شرب من غسله بماء رومه فقضى نحبه ، لا يحزنك الله ولا يسوؤك فى الحسن ، فقال ابن عباس : لا يسوؤنى ما أبقاك الله » ، فأمر له معاوية بمائة ألف وكسوة . وفى رواية ثانية أنه أمر له بألف ألف ما بين عرض وعين ، وقال له : « أقسم هذه فى أهلك » (٥١) .

هاتان الروايتان تدلان على أن كثيراً من الروايات التي وردت في بعض المصادر تحرف الكلام عن مواضعه وتنقل أخباراً كاذبة عنهما سواء في المفاخرة أو المعاتبة أو غيرهما من الأمور (٥٢) .

ونخرج من هذا كله بأن ابن عباس أقر بخلافة معاوية ، حامداً لها ، راضياً عنها ، إلى أن توفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٦٠ هـ ، لتبدأ أحداث جديدة في الدولة الإسلامية سنرى موقف ابن عباس منها عما قليل .

أدت وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى تغير الأوضاع في الدولة الإسلامية . وكانتبيعة يزيد بن معاوية مقدمة لهذه الأوضاع ، ذلك أن الموقف من خلافته أخذ يزداد وضوحاً في أهم إقليمين من أقاليم الدولة الإسلامية هما العراق ممثلاً في أهل الكوفة ، والإقليم الثاني هو الحجاز حيث يسكن كبار الصحابة وصغار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مقدمة هؤلاء الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما اللذين كانت لهما المواقف المعارضة بولاية العهد ليزيد في حياة أبيه . وبعد البيعة وضحت معارضتهم لخلافة يزيد من خلال فرارهم من المدينة إلى مكة (٥٣) . وبالطبع لم يكن ابن عباس من المعارضين ليزيد ، إذ يذكر البلاذري أن ابن عباس حين توفي معاوية كان في مكة ، فلما بلغه خبر وفاة معاوية استرجع ومدح معاوية ، وقال في حقه أنه لن يأتي أحد بعده مثله . ومدح يزيداً بأنه من صالحى أهله . ثم طلب ممن حوله أن يعطوا بيعتهم ليزيد . ومن ثم ذهب إلى والى مكة واعطى بيعته (٥٤) . ويذكر الطبرى رواية عن الواقدي أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير وهما في طريقهما إلى مكة وسألاههما فأخبرهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فوعظهما ابن عمر ، وسألهما ألا يفرقا جماعة المسلمين (٥٥) . فلما وصل الحسين إلى مكة قدمت رسل أهل الكوفة بمبايعته ودعوته للقدوم عليهم (٥٦) .

ويبدو أن يزيداً أحس بما يدبره شيعة الكوفة تجاهه ، لذا فإنه أراد أن يمنع الحسين بن علي من الخروج عليه بواسطة كبير بنى هاشم والمنظور إليه من قبل أهل مكة عامة وبنى هاشم خاصة ، ألا وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي أمل فيه يزيد أن يمنع الحسين من الخروج عليه . ولذلك كتب إليه يقول : «... نحسب أنه جاءه رجال من المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبره ، فلو فعل فقد قطع القرابة والرحم ، وأنت كبير أهل بيتك ، والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى في الفرقة » (٥٧) . وقد رد عليه ابن عباس في رسالة بقوله : « إني لأرجو أن لا يكون خروجه لأمر تكره ، ولست أدع النصيحة له ... » (٥٨) ، ويلاحظ هنا أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يلزم نفسه بشيء أمام يزيد غير الاجتهاد في النصيح للحسين حتى يكف عن الخروج .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس من خلال مرافقته لأمر المؤمنين على ﷺ في العراق ، عرف طبائع الشيعة هناك ، وأن الانقياد لهم سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة لاتحمد عقباها ، ولذلك ذهب إلى الحسين مبيناً له ما يخشاه عليه من الذهاب إلى العراق ، وذلك من خلال قوله : « ... إني لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان ... » (٥٩) ، فما كان من الحسين إلا أن قال له «إنك شيخ قد كبرت » ويبدو أن ابن عباس غضب من هذه الإجابة غير المتوقعة من الحسين ، ولذلك رد عليه ابن عباس بقوله : « ... لولا أن يزرى بى وبك ، لنشبت يدي في رأسك ، ولو أعلم أنك تقيم إذا لفعلت ... » (٦٠) . وهناك رواية أخرى أن الحسين استشار ابن عباس في خروجه من مكة إلى العراق فلم يؤيده في ذلك ورد عليه ابن عباس بقوله السابق ، مما يدلنا على الخوف الشديد الذي انتابه من جراء خروج الحسين إلى العراق الذي صمم على التوجه إلى شيعته . وفي الطريق تصدت له قوات عبيد الله بن زياد وقتلته في كربلاء سنة ٦١هـ (٦١) .

وقد ترك مقتل الحسين رضى الله عنهما آثار كبيرة أبرزها اعتصام ابن الزبير فى مكة والدعوة إلى نفسه فيها (٦٢) . ومن ناحية أخرى خرج أهل المدينة على يزيد ، ومن ثم حدثت وقعة الحرة التى قتل فيها الكثير من خيار أهل المدينة سنة ٦٣هـ (٦٣) .

هذه الأحداث وقعت وعبد الله بن عباس - كما يبدو من الروايات - فى مكة ، وبطبيعة الحال سيسعى ابن الزبير إلى أن يبايعه ابن عباس لتكون بيعته عوناً أمام المسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ليثبت أن مناداته بالخلافة لها وجه شرعى ، بدليل مبايعة ابن عباس له . فما موقف ابن عباس من يزيد بن معاوية ؟ وما موقفه من عبد الله بن الزبير فى خضم هذه الأحداث ؟ .

يذكر البسوى فى تاريخه أن ابن الزبير دعا عبد الله بن عباس إلى بيعته بعد مقتل الحسين رضى الله عنهما فامتنع ابن عباس من بيعته ، فما كان من يزيد إلا أن بعث إليه رسالة يشكره فيها على موقفه من ابن الزبير ، ومحافظته على بيعته ، ويوعده بالبر وتعجيل الصلة ، ويطلب منه فى رسالته أن يعلم الناس برأيه فى ابن الزبير ، لأنهم لرأيه أسمع ، وله أطوع (٦٤) . وكان يزيد يظن أن ابن عباس رضي الله عنه كما كان عارفاً بحقه ، طاعة لله عز وجل دون أن يدرك الألم الكبير الذى شعر به المسلمون عموماً وبنو هاشم خصوصاً ، ومنهم بالطبع ابن عباس ، من جراء مقتل الحسين بن على ومن كان معه من أهل بيته ، لذلك كان رد ابن عباس إليه معبراً عن شعوره الغاضب من ذلك الحدث حيث كتب إليه « ... وسألت أن أحجب الناس إليك وأبغضهم وأخذهم لابن الزبير فلا سرور ولا كرامة ، كيف قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب مصاييح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء ... » (٦٥) . ونرى من خلال هذه الإجابة أن ابن عباس كان فى شدة الغضب على يزيد ، إن التزم بالطاعة وفاء

للبيعة التي في عنقه . ولم يلبث أن توفي يزيد عقب هذه الأحداث ، وخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذي ما لبث أن مات هو الآخر بعد خلافته بشهر ونصف ، وذلك سنة ٦٤هـ (٦٦) . وأعقب وفاته اضطراب البيت الأموي ، مما أفسح المجال لابن الزبير أن ينتشر نفوذه من الحجاز إلى العراق إلى كثير من مناطق بلاد الشام ومصر ، حتى تولى مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) أمور الدولة الأموية ، لتقلب الأمور مرة أخرى لصالح بني أمية . وهذا بالطبع سيقودنا إلى الإجابة عن السؤال الثاني الذي طرحناه من قبل عن علاقة ابن عباس بابن الزبير خلال الفترة من وفاة يزيد إلى تولى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وهي فترة أصبح فيها ابن عباس في حل من البيعة بعد وفاة يزيد .

اشتهر في بعض المصادر امتناع ابن عباس ومحمد بن الحنفية عن مبايعة ابن الزبير ، وساق بعضها علة ذلك الامتناع وهي قولهم « لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس » (٦٧) . وهذه المصادر توحى بالرفض المطلق لابن عباس لبيعة ابن الزبير الذي آذى كلا من ابن الحنفية وابن عباس بسبب موقفهم هذا .

والواقع أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير وعضده ووقف معه في بداية خلافته . لكن الأخير لم يستمر هذا التأيد من ابن عباس ويدني ابن عباس منه ، بل نجده يدني إليه جماعة من بني أسد ، ويقصى ابن عباس على علمه ورأيه ومكانته ، مما جعل ابن عباس يصرف تأييده عنه إلى عبد الملك بن مروان . ونأخذ هذه الحقيقة من صحيح البخاري رواية عن ابن عباس نفسه الذي برر فيه انصرافه عن ابن الزبير فيقول : « ... ألا تعجبون لابن الزبير قام في أمره هذا فقلت : لأحاسبن نفسي له ما حاسبته لأبي بكر ولا عمر ، ولهما كانا أولى بكل خير منه وقلت : ابن عمه النبي ﷺ ، وابن الزبير ، وابن أبي بكر ، وابن أخى خديجة ، وابن أخت عائشة ، فإذا هو يتعلّى عنى ولا يرد ذلك ، فقلت : « ما كنت أظن

أنى أعرض هذا من نفسى فیدعه ، وما أراه يريد خيراً ، وإن كان لابد لأن يربنى (٦٨) ، بنو عمى أحب إلى من أن يربنى غيرهم « (٦٩) ، وفى رواية أخرى عنه يتضح سبب إحجام ابن عباس عن ابن الزبير وانصرافه إلى بنى أمية بقوله فى حديث طويل « ... فأثر على التوثيات ، والأسامات ، والحميدات » يريد أبطننا من بنى أسد (٧٠) . وبذلك فقد تأزمت الأمور بينهما إلى درجة أن ابن عباس صعد إلى الطائف تاركاً مكة لابن الزبير الذى ضايقه فيها أشد المضايقة ، ومن هناك أوصى ابنه علياً باللاحاق بعبد الملك بن مروان (٧١) ، ولم يلبث أن توفى ﷺ سنة ٦٨هـ (٧٢) ، لتبدأ علاقة جديدة بين عبد الملك وأبنائه وبين على بن عبد الله ابن عباس سند كرها عما قليل .

* * *

توجه على بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بن مروان فى الشام حسب وصية أبيه . وتذكر بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان سأله عن كنيته فأخبره بأنه يكنى بأبى الحسن ، فطلب منه أن يغير كنيته فغيرها إلى أبى محمد (٧٣) .

ويبدو فى هذه الرواية التى ساقتها تلك المصادر الوضع والاختلاق ، سواء بالنسبة لعلى بن عبد الله أو عبد الملك . ويتضح ذلك فى ضوء الأسباب التالية :

أولاً : أن عبد الملك بن مروان لم يكن رجلاً غريباً لدى على بن عبد الله ابن عباس ، وكذلك لم يكن غريباً عند عبد الملك ، فكلا الرجلين قرشى حجازى يعرف أحدهما الآخر تمام المعرفة من خلال نشأتهما فى المدينة ، وتلقيهما العلم على اصحاب رسول الله ﷺ فيها . وما حادثة ثورة المدينة عنا ببعيد ، فقد أخرج منها بنو أمية ومنهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك (٧٤) ، وقبض على على بن عبد الله بن عباس عقب موقعة الحرة ومطالبته بالبيعة ليزيد (٧٥) ، مما يدلنا على أن كلا الرجلين من خلال تواجدهما فى المدينة فى تلك الفترة كان معروفاً للآخر تمام المعرفة .

ثانياً : مولد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ٦٠ هـ أو سنة ٥٨ هـ (٧٦) .

وثورة المدينة سنة ٦٣ هـ وكانت سن محمد بن علي بين الثلاث إلى الخمس سنوات يومئذ فهل كان عبد الملك يجهل أن لعلي بن عبد الله ولداً يدعى محمداً ؟ الإجابة فيما يظهر هي أنه لم يكن يجهل ذلك .

لقد تغيرت كنية علي بن عبد الله بن عباس من قبل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وهو الذي طلب من عبد الله بن عباس أن يغير كنية علي إلى أبي محمد ، ليس بغضا في اسم علي بن أبي طالب وكنيته ، وإنما كما قال معاوية رضي الله عنه : « ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد » (٧٧) ، وهذا فيما يبدو إشعار من معاوية لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بمكانته عنده ، وأن منزلته لا تقل عن منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

ثم إن علي بن عبد الله بن عباس لم يحضر مرغماً إلى عبد الملك وإنما طوعاً واختياراً ورغبة منه . وليس من المعقول أن يفتح عبد الملك بن مروان بعد استخلافه في أول لقائه بعلي بن عبد الله بن عباس بأسلوب فظ « غير اسمك وكنيتك فلا صبر لي على اسمك وكنيتك » (٧٨) ، مما يؤكد لدينا زيف مثل هذه الروايات بناء على ما سبق .

ومهما يكن فإن علي بن عبد الله أصبح من خواص عبد الملك حيث أجار عليه عددا من قادة العرب في الكوفة من الذين خافوا غائلة عبد الملك ، فلجأوا إليه وقبل عبد الملك جواره ، وأمنهم حتى ظهرُوا (٧٩) . وتبعاً لمكانته تلك فإن علي بن عبد الله أصبح بإمكانه أن يدخل على عبد الملك في مجالسه الخاصة ويلقى منه الإكرام ، ويقبل منه النصيح ويقضى عنه دينه (٨٠) . واستمرت تلك العلاقة

الحسنة حتى أقدم على بن عبد الله على الزواج من أم أيها بنت عبد الله بن جعفر، والتي كان عبد الملك قد طلقها . واعتبر عبد الملك أن تصرف على هذا إهانة له ، ومن هنا بدأ يغير معاملته له (٨١) . ومما يجدر ذكره أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد ابن يزيد بن معاوية حتى يضع منه ويصغر شأنه (٨٢) . ومن أجل ذلك كان غضب عبد الملك إذا اعتبر تصرف على بن عبد الله مثل تصرف مروان ابن الحكم مع خالد بن يزيد .

كانت هذه الفعلة من قبل على بن عبد الله سببا في إقدام الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ) على إساءة معاملته . وتذكر بعض المصادر أنه ضرب بأمر من الوليد بسبب ذلك . ولم يكف بذلك فأمر بنفيه إلى الحميمة سنة ٩٥ هـ (٨٣) ، واستقر بها هو وبنيه منذ ذلك التاريخ .

ولم نعد نرى أى لقاء بين على بن عبد الله بن عباس والخلفاء الأمويين : الوليد ، سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩ هـ) ، عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥ هـ) ، بعد هذه الحادثة ، سوى لقاء واحد تحدث عنه ابن خلكان في الوفيات وكان مع هشام بن عبد الملك من أجل ديون كثرت عليه فطلب من الخليفة الأموي قضاءها ، فوجد منه كل ترحاب وقضى عنه دينه ، كما طلب منه أن يستوصى خيراً بحفيديه ، وهما عبد الله وعبد الله المعروفان فيما بعد بالسفاح (ت ١٣٦ هـ) ، والمنصور (ت ١٥٨ هـ) (٨٤) .

وقد توفي على بن عبد الله بن عباس سنة ١١٧ هـ (٨٥) ، ليحتل مكانته ابنه محمد بن على .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، هو أول عباسي عمل على إسقاط الدولة الأموية (٨٦) ، ووصول بني العباس إلى الخلافة ،

وهذا يقودنا إلى سؤال : هو هل كان محمد بن علي هو أول صاحب طموح سياسي للخلافة الإسلامية من بنى العباس ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة مرة أخرى إلى الجذور بدءاً من العباس بن عبد المطلب . وقد عرفنا مكانته عند رسول الله ﷺ ، تلك المكانة ، وذلك التقدير والاحترام من جانب الرسول ﷺ تجاهه ، لم يعطه الجرأة لسؤال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عن خلافته ﷺ ، ولذلك لجأ إلى ابن أخيه علي بن أبي طالب ليسأل رسول الله ﷺ عنها قائلاً له : « إني لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا علمناه فأوصي بنا ، فقال علي : إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها ، لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لا أسأله رسول الله ﷺ » (٨٧) . ويتضح من هذا الحوار أن العباس عليه السلام كان يجهل من سيكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ ، ولنقل أنه كان يطمع أن يلي هذا الأمر بنو عبد المطلب ، ولذلك قال : إن كان فينا علمنا . وكانت إجابة علي عليه السلام دالة أيضاً على فقهه وعلمه وخبرته بمقاصد رسول الله ﷺ ، وأن مثل هذا السؤال ، لو أعطى فيه رسول الله ﷺ جواباً في منعهم فلن يمكنهم الناس من الخلافة في المستقبل ، ومعنى ذلك حرمانهم من حق مشاع في قریش وهو الخلافة (٨٨) .

ثم إن علياً عليه السلام كان يرى رسول الله ﷺ يقدم أبا بكر الصديق في الصلاة عندما كان مريضاً ، ويرى إلحاحه في ذلك (٨٩) ، ففهم ما يقصده ﷺ .

وجاء اختيار خلفاء رسول الله ﷺ بعد ذلك ليدل على شكل قاطع على أن السبق والقدم في الإسلام ، والمكانة من رسول الله ﷺ ، هي المرشح للخلافة ، ولا علاقة للقربة من رسول الله ﷺ وحدها بهذه المسألة . من أجل ذلك فإن العباس رضي أن يكون كأحد أفراد المسلمين ، له مكانته وتقديره واحترامه من قبل

الخلفاء الراشدين . أما ابنه عبد الله بن عباس فقد أسهم مع أمير المؤمنين علي عليه السلام في جميع ما كلفه به ، واحتل لديه مكانة مرموقة . فلما قتل وتنازل ابنه الحسن ، عاد إلى ميدانه الذي وجد نفسه فيه وهو نشر العلم الذي فتح به الله عليه ، واكتسب مكانته عليه السلام بين المسلمين ، وأحلوه من أنفسهم أيما محل . يروى أن معاوية حج ، وحج معه عبد الله بن عباس فكان معاوية في موكب وابن عباس في موكب فمن يسأل عن الفقه (٩٠) ، مما يعطينا الدليل على ما يحمله المسلمون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من تقدير وإجلال ، وحب لهذا العالم لعلمه ولقربته من الرسول ﷺ . واستمر في هذا الميدان لم يتطلع لأي نفوذ سياسى . لقد قال له معاوية ذات مرة بعد وفاة الحسن بن علي : « أصبحت سيد قومك ، قال ما بقى أبو عبد الله فلا » (٩١) ، دلالة على تواضعه وعدم سعيه للنفوذ السياسى .

وبعد مقتل الحسين وجدناه التزم بيعته ليزيد حتى وفاته ثم بايع لابن الزبير . أما علي بن عبد الله بن عباس - وإن لم يكن مثل أبيه - فإنه كانت له المكانة الكبيرة فى نفوس أهل الحجاز لعلمه وورعه وتقواه (٩٢) .

وعلى ذلك ارتضى بأن يكون مثل أبيه ، ولم يتطلع إلى الخلافة : ومن جانب آخر فإن الشيعة عموماً لم يتطلعوا إلى البيت العباسى كتطلعهم إلى البيت العلوى ، حتى أحدث أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبى طالب (ت ٩٨ ، ٩٩ هـ) هذا الانقلاب من خلال اتفاهه مع محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ومن ثم أحدث هذا الاتفاق تحولاً كبيراً على يدى الأخير ، فتغيرت نظرة بنى العباس إلى الخلافة وبدأ تطلعهم نحوها .

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على العلاقة بين هاتين الشخصيتين ومنذ متى بدأت ؟ وكيف انتهى المطاف بأبى هاشم بأن يخص محمد بن علي العباسى

دون غيره من البيت الهاشمي بالدعوة السرية الهادفة إلى إسقاط بنى أمية والحلول محلهم فى الخلافة .

ويعد محمد بن على بن عبد الله بن عباس مؤسس الدعوة العباسية ومنظمها (٩٣) ، ذلك أنه كان قد ارتبط بأبى هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى تذكر بعض المصادر أنه سلم أمور الدعوة السرية المناهضة لبنى أمية إليه عند دنو أجله فى الحميمة (٩٤) . ويرى البعض أن السبب الذى جعل أبا هاشم يوصى لمحمد بن على هو عدم وجود من يخلفه من الذكور من ذريته (٩٥) ، فآثر أن يوصى إلى محمد بن على . وهذا الافتراض غير صحيح ، لأن أبا هاشم كانت له ذرية من الذكور والإناث ، كما جاء فى ترجمته فى الطبقات لابن سعد (٩٥) ، ، كذلك ذكر كل من المزى ، وابن حجر أن له ابناً يدعى عيسى بن عبد الله وهو ممن روى عن والده (٩٦) . يضاف إلى ذلك أنه كان له أخ يدعى الحسن بن عبد الله بن محمد بن الحنفية (٩٧) ، توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٨٩ ، ١٠٠ هـ) ، فإذا كانت المسألة هى عدم وجود من يخلفه من ذريته إذا افترضنا وفاة أولاده فى حياته ، فإن الشئ المؤكد أن أخاه الحسن قد توفى بعده بسنة على الأقل ، فلماذا لم يوص إليه أو إلى أحد من آل على بن أبى طالب ؟

ويفترض بعض الباحثين أن للظروف أثرها فى ذلك التنازل ، فعند وفاة أبى هاشم لم يكن بقربه إلا أولاد العباس ، وربما تنازل محمد بن على ، أو أخيره بأن يعطيها لغيره . وكان محمد طموحاً ، فأخذها لنفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمحمد ، فإنه عرف الدعاة وأسماءهم ، وسأل عنهم أبا هاشم قبيل وفاته .. « (٩٨) .

واعتقد أن كل هذه التساؤلات والافتراضات تأتى فى ظل غياب المعلومات الدقيقة فى المصادر التى ربما لم يطلعوا عليها ، إذ أن صداقة الرجلين كانت قديمة وطموحاتهما أيضاً كانت قديمة فى إسقاط الدولة الأموية ، إذ يذكر كل من ابن

عساكرو صاحب أخبار الدولة العباسية ، رواية عن عيسى بن علي العباسي ، أن أبا هاشم كان يقف موقفاً عدائياً من علي بن عبد الله بن عباس ، فلما بعث علي ابن عبد الله ابنه محمداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وجد عنده أبا هاشم محمد بن علي ، فتقرب محمد إلى أبي هاشم وأخذ عنه العلم ، وأظهر له التقدير والاحترام ، كما بعث له بالهدايا ، مما كون بينهما صداقة قوية ، كف بعدها أبو هاشم عن تناول علي بن عبد الله . وكانت هذه الصداقة أيضاً سبباً في تحول دعاة خراسان إليه فيما بعد (٩٩) .

ويؤكد هذه التلمذة والتلقي أن كتب تراجم رجال الحديث ذكرت أن من الرواة عن أبي هاشم محمد بن علي وابنه إبراهيم الإمام (١٠٠) .

ويبدو من خلال هذه الصداقة أن كل منهما عرف الآخر وعرف طموحاته . ووجد أبو هاشم في محمد طموحاً سياسياً للخلاص من الخلافة الأموية . والبلاذري يذكر رواية عن المدائني تستحق أن نتوقف عندها وتحليلها . تقول هذه الرواية : أن علي بن عبد الله بن عباس قال في اجتماع بينه وبين ابنه وأبي هاشم : « يا أبا هاشم أهل المغرب يؤملونك . وقال لابنه محمد : أن أهل المشرق يؤملونك . ثم نظر إلى حمار بين شجرتين ، فقال : والله لا تليان حتى يلي هذا الحمار ، كبرتما عن تبين صاحب هذا الأمر » (١٠١) .

هذه الرواية أوضحت : أولاً : أن أبا هاشم كان له أنصار يدعون إلى ولايته ويتزعمونه ، وأن كنت لم أتوصل إلى ما قصد علي بن عبد الله بأهل المغرب بالنسبة إلى أبي هاشم ، فإنه من المؤكد أن الذين كانوا يقولون بأمامة أبي هاشم هم طائفة من الفرقة الكيسانية (١٠٢) .

وثانياً : عرف علي بن عبد الله بن عباس أن لابنه أنصاراً من المشرق يدعون لإمامته . ومعنى ذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس كان قد بدأ

فى تكوين أنصار له من أهل المشرق لا علاقة لهم بأبى هاشم . ولعل الرواية التى ساقها البلاذرى والتى يذكر فيها أن رجلاً من أهل المشرق بحثوا عمن يقودهم ، تلقى أيضاً ضوءاً على ذلك . وهذا نص ما قال : « ... كان الخراسانيون الذين قدموا لطلب الإمام يقولون هذا أمر لا يصلح إلا لذى شرف ودين وسخاء ، فتبعه قوم لشرفه ، وآخرون لدينه ، وآخرون لسخائه ، وأتوا رجلاً من ولد على بن أبى طالب ، فدلهم على محمد بن على بن عبد الله وقال أفضلنا فأتوه » (١٠٣) ، ومع أن هذه الرواية لم تحدد تاريخ هذا اللقاء ، ولا الشخص العلوى الذى دلهم عليه ، إلا أنه من الراجح أن ذلك كان قبل وفاة أبى هاشم بمدة طويلة .

وهنا تبدو نقطة مهمة يجب إيضاها وهى تتعلق بأبى هاشم ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن الفرقة الكيسانية كانت تتعلق به وبأبيه من قبله . ومن الواضح أن محمداً بن الحنفية كان يترأ منهم لغلوهم فيه (١٠٤) . ولا يبعد أن أبا هاشم مثل أبيه . وكما قال ابن حجر يتحلونه أى يتسبون إليه (١٠٥) . ولم يذكر صراحة موقفه منهم . ومما يقوى عندنا براءة أبى هاشم منهم توثيق الزهرى (ت ١٢٤هـ) لأبى هاشم وقرنه بأخيه الحسن ، وكان عنده الحسن أوثق (١٠٦) . فلو كان أبو هاشم يؤمن بأفكار الفرقة الكيسانية لما وثقه الزهرى وهو من أعلام المدينة النبوية ومحدثيها ، ولولا معرفته الوثيقة به لما وثقه .

ويقودنا هذا مرة أخرى إلى طرح افتراض آخر وهو : أليس من الجائز أن أبا هاشم بحكم التجارب التى مر بها أهل بيته بدءاً من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الحسن إلى الحسين مع أهل الكوفة ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد (ت ٦٧هـ) ، اتضح لديه بجلاء أنه لا فائدة من الاعتماد على الشيعة العلوية فى مثل هذه الأمور الكبيرة التى برهنوا فيها على عدم نصحتهم وحديتهم تجاه أهل البيت ، مما ولد لديه القناعة الأكيدة بأنه من الأفضل أن يسلم زمام

الأمر إلى شخصية تتمتع بالقيادة وبعد النظر وحسن التنظيم ، وهى صفات يبدو
لى أنه عرفها فى محمد بن على . فلما حانت وفاته أوصى دعائه بعد إقناعهم ، بأن
ينضموا إليه ويقفوا إلى جانبه (١٠٧) . يضاف إلى ذلك السمعة الحسنة والمكانة
الكبيرة للبيت العباسى من خلال مكانة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم
على بن عبد الله بن عباس ، وأخيراً محمد بن على الذى كانت له منزلة كبيرة
أيضاً إلى درجة أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رحمه الله قال فى شأنه
عندما زاره ثم خرج من عنده : « لو كان إلى من الخلافة شىء لقمصتها هذا
الخارج » (١٠٨) .

كل هذه الأسباب والعوامل التى ذكرناها سابقاً تبين بوضوح سبب إقدام
أبى هاشم على أن يسلم مقاليد الدعوة التى كان يديرها إلى محمد بن على العباسى
لتضافر الجهود فى إسقاط الدولة الأموية .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل الدعوة العباسية وتنظيماتها وكيف أدارها
محمد بن على العباسى ، فهذا موضوع آخر ، ولكن الذى يعيننا فى المقام الأول
هو علاقته بالخلفاء الأمويين بعد قيامه بالتنظيم للدعوة ، وهل ابتعد عنهم ؟ أم ظل
كسابق عهده فى زيارتهم والتقرب إليهم ؟

تشير بعض المصادر إلى أن محمد بن على العباسى لم يقطع صلته بهم ،
وكما مر معنا فإنه دخل على عمر بن عبد العزيز وزاره أثناء خلافته . ولم أجد
فيما بين يدي من مصادر شيئاً عن اتصاله بيزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) .
وتأتى ذروة العلاقة فى خلافة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذى نشطت
الدعوة العباسية فى عهده نشاطاً ملحوظاً ، إذ بدأت المصادر تتحدث بشكل ظاهر
عن الدعاة العباسيين ، وذلك فى السنوات ١٠٥هـ ، ١٠٧هـ ، ١٠٩هـ ،
١١٧هـ ، ١١٨هـ (١٠٩) .

وهذا النشاط المحموم لدعاة بنى العباس فى عهد هشام بن عبد الملك يوضح لنا بجلاء استغلال محمد بن على ودعائه لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة الأموية. صحيح أن عهد هشام يعد من عهود الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، لكن يبدو أن قرب محمد بن على من بلاد الشام ، ومن البلاط الأموى جعله يطلع على كثير من أسرار هذا البيت ، ويعرف بوادى النزاع المقبلة بعد انقضاء خلافة هشام ، سيما وأن يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥ هـ) كان قد اشترط على هشام أن يجعل الوليد بن يزيد ولى عهده (١١٠) . وربما كان هذا الشرط من العوامل التى جعلت الحسد والتنافس يدب فى أفراد البيت الأموى الحاكم . ولذلك نشط دعاة بنى العباس فى تلك الفترة ، استثماراً لما بعد هشام ، وتهيئة الناس لتلقى فكرة ظهور العباسيين التى روجوا لها بالبشارات والأحاديث النبوية والطعن فى بنى أمية ، إلى غير ذلك من الأساليب التى استخدموها للتحضير لقيام دولتهم (١١١) .

ومن المؤكد أن هشام بن عبد الملك لم يكن غافلاً عن هذه الدعوة ، ولا عن أصحابها ، وذلك من خلال ولايته على خراسان ، وعلى رأسهم أسد بن عبد الله القسرى (ت ١٢٠ هـ) الذى سبق له أن قبض على عدد من الدعاة ونكل بهم (١١٢) . وقد عبر هشام عن غضبه على محمد بن على العباسى أكثر من مرة بسبب هذه الدعوة ، ومن ذلك أن محمد بن على استأذن على هشام بن عبد الملك ، فلما دخل عليه سألته عن سبب مجيئه ، فقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال له هشام : « انتظر بها دولتكم التى تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم » (١١٣) .

وأتهم هشام بنى العباس أنهم جعلوا رسول الله ﷺ لهم سوقاً (١١٤) . ويبدو أن هشام بن عبد الملك أدرك مدى خطورة الدعاية التى قام بها العباسيون فى أيامه ، وأنها أثرت فى الناس واستمالت كثيراً منهم . لذلك نراه قد هم بسجن

محمد بن علي وأبنائه ، لأنهم كما قال « يزعمون ان الخلافة تصير إليهم ، وقد استشرف لها الناس » (١١٥) ، وربما أن هشاماً لم يملك دليلاً قوياً ضد رجل بعينه منهم ، لشدة التكم على صاحب الدعوة ، أو أنه خشى من الإقدام على هذه الخطوة إذ ربما يكون لها عواقب وخيمة ، أو ليتخذ عندهم يداً بالإحسان إليهم ليكافئوه عند وصول الأمر إليهم ، كما قال له الأبرش الكلبي (١١٦) .

وعلى كل فقد توفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ (١١٧) ، وتوفي قبله محمد بن علي سنة ١٢٤هـ ، أو سنة ١٢٥هـ (١١٨) ، ودخلت الأسرة الأموية في صراع على السلطة ، وخاصة بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وقيام فتنة عمت أرجاء الدولة الإسلامية استثمرها بنو العباس ، وأعلنوا ثورتهم المسلحة على الدولة الأموية سنة ١٢٩هـ ، ومن ثم إسقاطها سنة ١٣٢هـ .

الهوامش

- (١) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٥ - الكلبي ، جمهرة النسب ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٤ ، ص ٥ .
- (٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
- (٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٤ ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ج ٦ ، ٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٦ ، ص ١٠ - ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٦ ، ص ١٠ - ١١ .
- (٨) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٢٦ . ٢٧ .
- (٩) ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ١٢٧ .
- (١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ، ٢١٥ .
- (١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .
- (١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٥ ، ص ١١٧ .
- (١٣) أم حبيبة هى : رملة بنت أبى سفيان ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى أسلماً وهاجراً إلى الحبشة حيث ارتد فيها زوجها إلى النصرانية وتوفى عنها هناك ، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها ، وأصدق النجاشى عن رسول الله ﷺ وزوجه إياها ثم بعث بها إلى المدينة ، توفيت فى المدينة سنة ٤٤ هـ انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ .
- (١٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ١٠ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج ٩ ، ص ٢٣٣ .

(١٥) ابن حجر ، الإصابة ، ج٥ ، ص ١٢٩ ، وانظر الزركلى ، الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٠١ .

(١٦) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ص ٣٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ ، قال العباس : « مهلاً يا عمر فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم » . ويدولى والله أعلم أن العباس لم يقصد اتهام عمر بالعصية والتحامل ، وإنما أراد أن يكسر حدة عمر فى ذلك الموقف ويصرفه عن أبى سفيان فقال له ما قال .

(٢٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٨ ، ونص الرواية : « لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبى فضيل إنما هى بنو عبد مناف » ، وهناك روايات أخرى حول موقف أبى سفيان من بيعة الصديق ﷺ يبدو عليها الوضع . انظر نفس المصدر ، ص ٢٦ . وانظر البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير الكامل ج٤ ، ص ٤٠٢ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٣ - ٢٦ .

(٢٤) ورد فى صحيح البخارى ص ٧١٩ حديث رقم ٣٤٩٥ عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » ، وفى مسند الإمام أحمد ، ج١ ، ص ١٩٩ من رواية أبى بكر الصديق ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

- (٢٥) النهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ٣٤٤ .
- (٢٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ٤٧ وسبب هذه المقولة أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ عاتبوا عمر بن الخطاب على دخول ابن عباس معهم عليه على حداثة سنه ، فطلب منهم عمر رضي الله عنه تفسير سورة النصر فكان ابن عباس رضي الله عنهما أحسن تفسيراً وأكثر فهماً لمعانيها ومقاصدها . وانظر أيضاً أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، ج٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٢٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج٢ ، ص ٤٨٦ .
- (٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٩ ، الطبري ، تاريخ الأمم ج٤ ، ص ٢٠٥ ، النهبي سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ١٣٢ .
- (٢٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج٢٤ ، ص ٤٠٢ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج٩ ، ص ٢٣٢ .
- (٣٠) الطبري ، تاريخ الأمم ج٥ ، ص ٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ١٥٨ .
- (٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج١ ، ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ص ١٩٨ .
- (٣٢) الطبري ، تاريخ الأمم ج٥ ، ص ٤٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ٢٤٧ .
- (٣٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج٢ ، ص ٥٧٣ - الطبري ، تاريخ الأمم ج٥ ، ص ٤٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٥) صحيح البخاري ، ص ٥٤٢ ، حديث ٢٧٠٤ .
- (٣٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٧) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الطبري ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٧٩ .

- (٣٨) الطبرى ، تاريخ الأمم - ج ٥ ، ص ٨٢ .
- (٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .
- (٤٠) المبرد ، الكامل فى الأدب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ص ٢٧٤ .
- (٤١) الطبرى ، تاريخ الأمم - ج ٦ ، ص ٥٨ .
- (٤٢) علق محمد بركات البيللى فى بحثه الدعوة العباسية ، ص ٧ - ٨ على رواية استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة بقوله : « سواء كان هذا الاتهام صحيحاً أم باطلاً ، فيبدو أن الأموال التى استحوز عليها عبد الله بن عباس ، قد جعلت بنيه فى سعة من العيش ومكنتهم فيما بعد من الانفاق على الدعوة العباسية وتحمل أعبائها المالية » ثم استند فى الحاشية على ما بذله محمد بن على بن عبد الله العباسى لبعض أهل خراسان من مال ، ليدلل على صحة استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة ، والواقع هو كذب تلك الرواية أولاً ، وثانياً لم يكن على بن عبد الله بن عباس الوارث الوحيد لأبيه ، فله أخوة كثيرون كما فى ترجمة العباس ولم يكن محمد بن على الوارث الوحيد لوالده فهو الآخر لديه أخوة كثيرون يشاركونه فى الميراث ، ويستبعد أن يكون مال البصرة المزعوم ما زال موجوداً إلى ما بعد المائة للهجرة .
- (٤٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .
- (٤٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .
- (٤٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٣ .
- (٤٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٥٤ .
- (٤٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .
- (٤٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٩١ .
- (٤٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٤ - ٩٨٥ .
- (٥٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٥ .

- (٥١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٢ .
- (٥٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .
- (٥٣) انظر مثلاً : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص ٨٠ - ٨٢ .
- (٥٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ٢٣٢ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٠ .
- (٥٥) أنساب الأشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- (٥٦) الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٣ .
- (٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٧ .
- (٥٨) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٥٩) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٦٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٦١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٢٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨ ص ١٧٣ .
- (٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٤٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٣٢٥ .
- (٦٣) يذكر خليفة بن خياط فى تاريخه أن ابن الزبير دعا إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية وذلك سنة ٦٤ هـ .
- (٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٩٦ -
- الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٥ .
- (٦٥) المعرفة والتاريخ ، مجلد ٢ ، ص ٥٣١ - وانظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٤ ص ١٢٧ .
- (٦٦) البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد ١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٥٥ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ص ١٧٢ ، وانظر : البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد ١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) يربنى : بفتح الياء وضم الراء والباء المشددة أى يكون على أميراً وذلك كما فسرہ ابن حجر ، أو بمعنى رباه وقام بامرہ وملك تدبيره . ومعنى كلام ابن عباس « لأن أكون فى طاعة بنى أمية أحب إلى من أن أكون فى طاعة بنى أسد » لأن بنى أمية أقرب إلى بنى هاشم من بنى أسد . انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ .

(٧٠) ابن حجر ، فتح البارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧١) ابن حجر ، فتح البارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٤٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٧٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ٧١ .

(٧٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٧ ، ص ٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٧٥) الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٦ ، ص ٤١٨ .

(٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٧٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٥ ، ص ٧٤٩ .

(٧٨) المبرد ، الكامل فى الأدب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٧٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، وفى الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٧ ، ص ٦٣٨ أن عبد الملك سألہ عن اسمه وكنيته فأخبره فقال عبد الملك لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم والكنية لأحد وسألہ هل له من ولد فأخبر بولده محمد فكناه به .

(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٨ . وذكر أن التى تزوجها على هى لبابة بنت عبد الله بن جعفر .

(٨٢) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ ٦ ، ص ٥٥٢ .

(٨٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، والحميمة - صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٨٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٨٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٨٦) ابن أسد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ١٨٧ .

(٨٧) ابن كثير ، البداية ، جـ ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) عليان ، قيام الدولة العباسية ، ص ١٥ . نقلاً عن محمد حلمى أحمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

(٨٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٩٨٣ .

(٩١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، تحقيق محمد بن صامل ، ويقصد بقوله : « ما بقى أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما .

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٩٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص ١٩ .

ويرى فاروق عمر ، أن على بن عبد الله بن عباس هو أول شخصية تطمح لنيل الخلافة ، دون أن يسند ذلك إلى مصدر ، والواقع هو أن ابنه محمداً هو الذى بدأ العمل من أجل ذلك . انظر : العباسيون الأوائل ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(٩٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٨ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢٠ ، ص ١٠٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٨ .

(٩٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٧ ، الدورى ، العصر العباسى ص ٢٢ ، الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ .

(٩٦) ج ٥ ، ص ٣٢٩ ، ومن هؤلاء الأبناء هاشم ، وبه كان يكنى ، ومحمد الأصغر وعلى ، وطالب ، وعون ، وعبيد الله ، ولم يذكر ابن سعد وفاة هؤلاء أو بعضهم فى حياة أبيه .

(٩٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(٩٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ص ١٦ .

(٩٩) الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ . وانظر فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ج ١ ، ص ٣٩ أخبار الدولة العباسية ، ص ١٧٣ ، تاريخ دمشق ، ج ١٤٥ ، ص ٧٤٩ .

(١٠٠) المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، ج ١٦ ، ص ٨٧ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠١) أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(١٠٢) نسبة إلى رجل يدعى كيسان مولى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وقيل تلميذ لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، والكيسانية تعتقد فى أبى الحنفية حده ودرجته من إحاطته بالعلوم كلها ، ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك على رجال وهم فرق متعددة ومنها المختارية أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، مجلد ١ ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(١٠٣) الأنساب ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

- (١٠٥) تهذيب التهذيب ، ص ٦٦ .
- (١٠٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .
- (١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، ج ١٦ ، ص ١٤٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .
- (١٠٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .
- (١٠٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٧ .
- (١١٠) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٥ ، ص ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، حوادث السنوات المذكورة .
- (١١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .
- (١١٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (١١٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣ .
- (١١٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (١١٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ - ١١٣ .
- (١١٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (١١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (١١٨) كانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٦١ .
- (١١٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ) .

١ - الكامل فى التاريخ ، ج ٣ ، ج ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

البخارى : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .

٢ - صحيح البخارى : الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

البسوى : يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ) .

٣ - المعرفة والتاريخ ، مجلدا ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٠ هـ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) .

٤ - كتاب جمل من أنساب الأشراف ، ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، تحقيق سهيل زكار ، ورياض زركلى ، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٨ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٥ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٧ - تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن .

- حنبل : الإمام أبو عبد الله أحمد بن بن حنبل (ت ٢٤١هـ) .
- ٨ - مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، بيروت .
- ٩ - كتاب فضائل الصحابة ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ) .
- ١٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ٣ ، ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .
- خياط : خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) .
- ١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الدينوري : أبو حنيفة بن داود (ت ٢٨٢هـ) .
- ١٢ - الأخبار الطوال ، مراجعة وتصحيح حسن الزين ، بيروت ١٩٨٨م .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .
- ١٣ - سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون الطبعة ١١ ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- الزبيرى : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) .
- ١٤ - كتاب نسب قريش ، عنى بنشره وتصحيحه ليفى بروفنسال الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٢م .
- ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٤٣٠هـ) .
- ١٥ - الطبقات الكبرى ، الطبقة الخامسة من الصحابة ، ج ١ ، ٢ تحقيق محمد بن صامل السلمى ، الطبعة الأولى ، الطائف ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- الطبقات الكبرى ، مجلد ٤ ، بيروت ، بدون تاريخ .

الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر (ت ٥٤٨ هـ) .

١٦ - الملل والنحل ، ج ١ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨ م .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت ٤٣ هـ) .

١٨ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ٥ ، ٦ ، ١٠ ، تحقيق طه محمد الزيني ، الطبعة الأولى مذيعة بكتاب الإصابة ، القاهرة ١٣٣٦ هـ ، ١٩٧٦ م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) .

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ) .

٢٠ - تاريخ دمشق ، طبعة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم الشيخ محمد بن رزق الطرهوني ، المدينة المنورة ١٤٠٧ هـ .

ابن كثير : الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) .

٢١ - البداية والنهاية ، ج ٥ ، ٧ ، ٨ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

الكلبي : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) .

٢٢ - جمهرة النسب ، تحقيق ناجي حسن ، بدون ذكر لتاريخ ومكان الطبعة .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت ٢٨٥هـ) .

٢٣ - الكامل في اللغة والأدب ، ج١ ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

مجهول : من مؤرخي القرن الثالث الهجري .

٢٤ - أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، وعبد الجبار المطلب ،
بيروت ١٩٧١م .

المزى : جمال الدين يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ) .

٢٥ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، ج١٦ ، تحقيق بشار عواد معروف ،
الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

٢٦ - مختصر تاريخ دمشق ، ج٤ ، اختصره على نهج ابن منظور وعنى بتحقيقه
إبراهيم صالح .

٢٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ج٢٥ ، تحقيق مأمون الصاغرجي ،
الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) .

٢٨ - السيرة النبوية ، ج١ ، ٢ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثانية،
القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع :

البيلي : محمد بركات :

٢٩ - الدعوة العباسية « ثورة بنى العباس على الخلافة الأموية » القاهرة ١٩٨٦م.

الدورى : عبد العزيز :

٣٠ - العصر العباسى الأول ، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ،

الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م .

الزركلى : خير الدين :

٣١ - الأعلام ، ج٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩م .

العبادى : أحمد مختار :

٣٢ - فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م .

عليان : محمد عبد الفتاح .

٣٣ - قيام الدولة العباسية ، وتفسير جديد لدوافع الفرس إلى مؤازرتها ، ط٢ ،

القاهرة ١٩٩٤م .

فوزى : فاروق عمر :

٣٤ - العباسيون الأوائل ٩٧هـ / ٧١٦م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، ج١ الطبعة

الأولى ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

الكيسى : عبد المجيد صالح :

٣٥ - عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) بغداد

١٩٧٥م .

المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب

من خلال كتابه : « أحسن التقاسيم »

د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح (*)

تقديم :

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب) . ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين فى الوقت نفسه (١) ، مثل : « هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م » (٢) ، واليعقوبى المتوفى سنة (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) (٣) .

وقد شهد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) - وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية - اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية ، فيما عرف بكتب (المسالك والممالك) . وقد أطلق كراتشكوفسكى على عدد من أعلام المصنفين فى ذلك المجال - من أمثال : البلخى (٤) ، (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، والاصطخرى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (٥) ، والمقدسى (أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر للميلاد) - لقب أصحاب (المدرسة الكلاسيكية) ، قاصداً بذلك اقتصارهم فى مؤلفاتهم على أقاليم دار الإسلام ، وبلوغهم منزلة جيدة فى فن رسم الخرائط (٦) ، وحول آخر هؤلاء الأعلام (المقدسى) يدور هذا البحث .

أولاً : التعريف بالمقدسى :

نبداً بالإشارة إلى ندرة المادة العلمية المتاحة فى تراجم ذلك العلم الجغرافى المؤرخ ، وإلى تناقل المراجع المتوالية لها واجترارها ، دونما إضافات حقيقية شافية . ولعل هذا النوع من العلماء ، الذين غلبت عليهم اهتماماتهم الجغرافية لم يحظ

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

باهتمام مصنفى كتب التراجم والطبقات ، الذين وجهوا انتباههم إلى المحدثين ،
والفقهاء ، والمفسرين وغيرهم ، ولم يفتنوا إلى تراجم الجغرافيين . وإزاء ذلك
النقص الشديد فى المادة ، حاولت سد الخلل عن طريق استخراج المزيد عنه من
خلال كتابه : (أحسن التقاسيم) .

أولاً : نسبه وأسرته :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى (٧) ،
الحنفى (٨) ، المعروف بـ (البشارى) (٩) ، ومن خلال سياقه نسبه السابقة ، وما
توفر لدى من معلومات نلاحظ ما يلى :

(أ) أن (المقدسى) شامى فلسطينى ، ينتمى إلى مدينة (بيت المقدس) تحديداً ،
كما هو ظاهر من نسبه ، وعلى نحو ما صرح به فى كتابه (١٠) .

(ب) أنه يتبع المذهب الحنفى فى الفقه ، وسرى بعض التفاصيل عن ذلك عند
تناول (ثقافته) .

(جـ) أن جده لأبيه (١١) المعروف بـ (أبى بكر البناء) كان من أشهر البنائين ،
وأمرهم ، وأبرعهم فى زمانه . ولعل ما قام به من تشييد التحصينات القوية
الخاصة بميناء (عكا) (١٢) ، زمن أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ /
٧٦٨ - ٨٨٣ م) يشهد له بالريادة فى مجال (الهندسة المعمارية) ، التى
تمكن - بمقتضاها - من الاهتداء إلى البناء فى الماء فى ذلك الوقت المبكر .
وقد حظى بإعجاب ابن طولون ، فدفع إليه ألف دينار ، بخلاف الخلع وغيرها
من المركوب ، علاوة على تخليد اسمه بتسجيله على الميناء ، اعترافاً بفضله فى
حماية الميناء ومراكبه من إغارة الأعداء (١٣) .

(د) عرفنا - من خلال قراءة كتاب المقدسى - أن والده كان على درجة ما من
الثراء ممتلكاً عدداً من الغلمان ، الذين روى عنهم المقدسى فى كتابه عند
حديثه عن بناء الحمامات فى (إقليم فارس) (١٤) .

(هـ) كان عمه (أبو على الحسن بن أبى بكر) ، مهتماً بالآثار المعمارية القديمة فى مدينة (بيت المقدس) ، وعنه روى المقدسى ما يتصل بموقع قبر سيدنا يوسف (عليه السلام) بأرض فلسطين . وقد ذكر أن عمه المذكور ، وجده ، كانا يشرفان على عمليات حفر العمال ، حتى انتهوا إلى خشب العجلة - ربما التى يظن أن جثمان يوسف حمل عليها - قد أكلتها الأرض . ولم يزل المقدسى يجد من بقاياها عند عجائر قومه ، يستشفين بها من الرمد (١٥) .

(و) وردت إشارة سريعة إلى أسرة والده المقدسى فى كتاب: (أحسن التقاسيم)، إذ ذكر المؤلف أن جده لأمه (أبا الطيب الشوا) ينسب - فى الأصل - إلى كورة (قوميس) (١٦) ، بـ (إقليم الديلم) ، وإلى مدينة (بيار) تحديداً ، تلك التى تعد إحدى مدن قصبة (قومس) المسماة بـ (الدامغان) . وقد رحل هذا الجد إلى بلاد الشام مع ثمانية عشر رجلاً (١٧) فى وقت لم يحدد بدقة . ويبدو أنه استقر مع أسرته هناك ، وطاب لهم المقام .

وأخيراً فقد أشار المقدسى - فى كتابه - إلى خاله (عبد الله بن الشوا)، وروى عنه خبراً يتصل بـ (قرية دير شمويل) القريبة من (ايليا) بـ (إقليم الشام) (١٨) .

وهكذا ، رسمنا الملامح العامة للأسرة التى نشأ فى رحابها المقدسى ، من خلال الشذرات المتناثرات فى كتابه . ويتضح منها مقدار ما تمتعت به هذه الأسرة من مكانة متميزة مادياً وعلمياً (من جهة الأب) ، وأنها تضرب بأصولها فى بلاد المشرق (من جهة الأم) . ولعل هذه الازدواجية كان لها تأثيرها فى تقسيم المقدسى كتابه إلى قسمين : (أقاليم العرب) ، و (أقاليم العجم) ، إلى جانب تأثيرات أخرى تتعرض لها عند دراسة كتابه فيما بعد .

ثانياً : حول مولده ، ووفاته :

لم تحدد سنة ميلاد (المقدسى) تحديداً مباشراً ، لكن أمكن معرفتها - على نحو قاطع - عن طريق التاريخ ، الذى حدده الرجل لظهور كتابه : (أحسن التقاسيم) ، إذ ذكر أنه أخرج إلى حيز الوجود سنة (٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) ، وهو فى الأربعين من عمره (١٩) . وبعملية حسابية يسيرة ندرك أنه ولد سنة (٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) (٢٠) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة ، فليست ثمة إشارة ، ترشدنا إلى تحديده على النحو الذى حدد به تاريخ مولده . وقد تباينت آراء الباحثين بهذا الصدد ما بين سنوات : (نحو ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) (٢١) ، و (حوالى ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) (٢٢) ، و (بعد سنة ٣٧٨ هـ / بعد ٩٨٨ م) (٢٣) ، و (بين ٣٧٥ - ٣٨١ هـ / ٩٨٥ - ٩٩١ م) (٢٤) .

والحق أنى لم أقف على دليل يؤدى إلى الجزم بأى من التواريخ السابقة ؛ فإن أحداث كتاب المقدسى إذا لم تتجاوز سنة ٣٨٠ هـ ، أو وقفت أخباره عند ذكر (الخليفة الطائع ٣٦٣ - ٣٨١ هـ / ٩٧٣ - ٩٩١ م) دون تجاوزه إلى ما وراءه من الخلفاء ، ليس بدليل أكيد على وفاته فى عهد ذلك الخليفة (٢٥) ، خاصة أن الكتاب كتاب جغرافى فى المقام الأول ، ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل أساسى ، حتى نعلل توقفه عند خليفة محدد بالوفاة . وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠ ، أو ٣٩٠ هـ ، فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد . ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨ هـ أقرب الآراء رغم عدم تحديده . وربما اتكأ فى ذلك - فيما يبدو - على ما ورد من صدور إحدى مخطوطتى الكتاب سنة ٣٧٥ هـ ، والأخرى سنة ٣٧٨ هـ ، فتكون الوفاة بعدها (٢٦) . وعلى كل ، فنخرجاً من هذا الخلاف أقول : لعله توفى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ثالثاً : سماته الشخصية :

اهتم بإبراز هذه السمات من واقع نصوص (كتاب المقدسى) ؛ تعويضاً للنقص الشديد فى معلوماتنا عنه ، وتسليطاً لمزيد من الأضواء عليه ، بما يفيدنا عند دراسة كتابه كمصدر من مصادر تاريخ العرب .

١ - الجانب الخلقى :

من خلال بعض عبارات المقدسى يتبين لنا ما يتمتع به من حس دينى ، وخلقى رفيع ، ونية صادقة دفعته إلى تأليف كتابه . فمثلاً : يتوجه إلى الله سائلاً إياه التوفيق فى إتمام هذا العمل ، فيقول : « وسألت الله عز اسمه - أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغنى الرجاء والأمل » (٢٧) . ويقول فى موضع آخر مبيناً هدفه منه ، فيذكر أنه يريد أن « يقيم علماً يحى به ذكره ، ويحقق به نفعاً للخلق ، يرضى به ربه » (٢٨) .

يرى بعض الباحثين أن المقدسى يتصف بالفخر والزهور ، والاعتداد بالنفس (٢٩)، إضافة إلى أنه ينقد سابقه جميعاً فى أسلوب لاذع ، لا يغفره له أن كتابه أحسن ما ألف المشاركة فى باب (المسالك ، والممالك ، والبلدان ، والرحلات) (٣٠) .

ولعل من أقوى العبارات ، التى دفعت إلى هذا الاتهام ما ذكره المقدسى - وهو يقارن بين كتابه ، وكتب الآخرين - من أن الناظر فى كتابه يجده (نسيج وحده ، يتيماً فى نظمه) (٣١) ، إلى جانب القصيدة التى نظمها فى ختام كتابه ، وافاض فيها فى ذكر ميزاته ، ومظاهر إبداعه (٣٢) .

والحق أن ما اتهم به المقدسى لا يمكن التسليم به على إطلاقه ؛ إذ يمكن تفسيره على أنه فرط ثقة بنفسه وقدراته ، وإنجازته ، حتى مدحه أحد الباحثين بقوله : إنه « لا يغمط حقه فى الفهم والذكاء والأصالة ، والطرافة ، وقوة الملاحظة » (٣٣) . ويدعم هذا التفسير وجود عدة مواضع فى كتابه نفسه يظهر

تواضعه فيها جلياً ، مثل قوله : « ثم إني لا أبرء نفسي من الزلل ، ولا كتابي من الخلل ، ولا اسلمه الزيادة والنقصان ، ولا أفلته من الطعن على كل حال » (٣٤) .

ثم إننا نجد الرجل يذهب إلى مدى أبعد في التنزه عن كل غرض وضيع من وراء تأليف كتابه ، ويسمو به إلى درجة الفرض الحتمي اللازم ، الذي يدفعه إلى أدائه ما امتلك من أسبابه وأدواته ، فيقول : (لو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلغنا الله (تعالى) أقاصي الإسلام ، وأرانا أسبابه ، وألهمنا قسمته ؛ وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل : سيروا في الأرض » (٣٥) ، و « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا » (٣٦) .

وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر (٣٧) ، وأخيراً ، فإن نقده الموجه إلى السابقين كان قائماً على أساس علمي (٣٨) ، ولم يكن هدفه التقليل ، أو الخط من شأنهم ، ثم إنه لم يمنعه من الاعتراف بمكانة بعضهم (٣٩) . وهكذا يمكن القول : إن المقدسي لم يكن يتسم بالزهو والخيلاء على طول الخط ، وإنما كان فيه خلق التواضع أيضاً ، ولا يعيبه إلا ما يند عنه - أحياناً - من عبارات الثقة الزائدة بالنفس ، مما كان التورع عنها به أولى .

يتصف المقدسي - أيضاً - بالتقوى والورع ، والزهد . ونلمس ذلك مما كشفه لنا في كتابه من حب الورعين والمتعبدين (٤٠) ، وإيراد بعض الروايات عن الزاهدين (٤١) . ويضاف - إلى ذلك - ما نثر من حكم في الزهد في كتابه ، عندما بين أن الأرباح - أبداً - مع الأخطار ، وأن على العبد أن يعلم أن الله يعطي العبد جزاء ركعتين ، يصليهما بإخلاص ، أكثر من الدنيا بخذافيرها . وماذا يصنع العبد بنعمة الموت من ورائها ، وجمع أموال لا بد من تركها (٤٢) ؟!

وأخيراً الناظر في خاتمة كتابه يقف على مدى تقواه وورعه من خلال تضرعه إلى الله (عز وجل) (٤٣) .

٢ - الجانب النفسى :

تمتع المقدسى بخلّة أصيلة فيه هي (قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة) . ولا ريب أن هذه السمة المهمة هي التي ارتكن إليها في تحمله مشاق رحلاته ، التي اعتقد انه جمع فيها خيري الدنيا والآخرة (المال من العمل والتجارة ، والعلم بجغرافية وتواريخ وأحوال البلدان التي زارها) . وقد سجل لنا الرجل في كتابه مدى الجهود الكبيرة ، والصعاب الشديدة التي تجشمها في جولاته بالبلدان ، وزياراته أقاليم الإسلام (عربيا ، وعجماً) ، ومنها يتبين لنا أنه كان يلتقى بالعلماء ، ويخالط الملوك ويدخل في خدمتهم ، ويجالس القضاة ، ويدرس على الفقهاء ، ويتردد على الأدباء والقراء والمحدثين ، ويفشى مجالس الزهاد والمتصوفة ، والقصاص والمذكرين ، ويعاشر التجار وعوام الناس ، كل ذلك مع تفتن قوى وفهم جلى ، مع ملاحظة ما حوله من مناخ ومياه ، وتحكم عظيم في النفس حيث الصبر عن المعصية ، ونصح المسلمين ، والصبر على ذل الغربة ، مع مراقبة الله والخشية منه (٤٤) .

واتفق مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على أن أمثال تلك الرحلات ، على ما فيها من تحمل المخاطر واستجلاء الجهول ، ليست من قبيل الفخر آنذاك (٤٥) ؛ إذ لم يكن ركوب المخاطر ، والمجازفة بالنفس مما يعلى قدر المرء حتى يتجشم الكذب فيه ، اللهم إلا إذا ثبت بالدليل المقبول عدم تحرى أصحابها الصدق (٤٦) ، وهو ما ننزه عنه عالماً من طراز المقدسى .

٣ - الجانب الثقافى :

لا شك في أن شخصية طلعة نهمة كشخصية المقدسى ، لابد أن تنهل وتروى من معين الثقافة التي تعاصرها . والمطالع كتاب المقدسى يلمس - بوضوح - موسوعية ثقافته . ومن أبرز معالم ثقافته (٤٧) :

(أ) ثقافته العربية الأصيلة :

لقد امتلك المقدسى ناصية البيان بالعربية - لغة عدد غير قليل من الأقاليم التى زارها - التى أحسن الكتابة بها ، وذلك واضح من أسلوبه الجزل الرصين ، وجملة ذات الفواصل الموسيقية المؤثرة ، التى رآها البعض تصنعاً وتكلفاً ، وجد فى بداية ، وخاتمة ، و صلب الكتاب دون داع (٤٨) .

وبالنظر فى اسلوب الرجل ومراجعته ، ألفيته أسلوباً بلاغياً راقياً ، لا تكرار ولا إملال فيه غالباً ؛ مما يدل على تمكنه اللغوى وفصاحته . ومن ذلك قوله فى خطبة كتابه : (الحمد لله الذى خلق فقدر ، وصور فاتقن صنع البرية ، بلا مشير يناصره ، ودبرها بلا معين يعاضده . اتقنها أى اتقان ، وأحكمها بلا أعوان) (٤٩) . وفى سياق حديثه عن جهاده فى رحلاته ، قال : (ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأخبار حتى عرفتها ، وتفتشى عن المذاهب حتى علمتها) (٥٠) .

ويلاحظ على المقدسى - أيضاً - أنه متقن لمفردات المعجم اللغوى العربى ، ويميل إلى استخدام غريب اللغة نوعاً ما . ومن ذلك قوله : (فكركرهم عنى) (٥١) . وذلك فى أثناء إشارته إلى إنقاذ أحد الكتبة له من بين أتباع أحد المفرطين فى حب معاوية رضي الله عنه ؛ لأن المقدسى تجاسر ، وكذب حديثاً موضوعاً ، رواه ذلك الرجل فى فضل معاوية . وكذلك قوله عن هواء بيت المقدس شارحاً موضعاً : سجسج (لا حر ، ولا برد شديد) (٥٢) . وأيضاً قوله عن ذهابه إلى إحدى المناطق ، فوجدها خالية : (فلم أر بها دياراً) (٥٣) .

وأخيراً ، فإن بكتاب المقدسى شواهد ، تدلل على إلمامه بعدد من فنون العربية (رجزاً) (٥٤) . وأمثالاً (٥٥) ، وشعراً (٥٦) . ويضاف - إلى ما سبق - معرفته بمدلولات الألفاظ المستخدمة المتباينة بتباين الأقاليم (٥٧) .

(ب) ثقافته الجغرافية :

لا شك في أن رحلات المقدسى إلى أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة ، واهتمامه بمطالعة المصادر الجغرافية قدم له زاداً وفيراً ، ومادة علمية غزيرة ، منها ألف كتاب (أحسن التقاسيم) . وسأكتفى بمثال واحد كشاهد على دقة معرفته بالبلدان (٥٨) حيث عقد فصلاً لبلدان وكور ، تتفق أسماؤها ، وتباين مواضعها ، ويشكل على الناس أمرها ، والمنسوبون إليها (مثل : البصرة بالعراق وبالمغرب (٥٩) ، وحلوان التي هي كورة بالعراق ، ومدينة بمصر ، وقرية بنيسابور (٦٠) .

(ج) ثقافته في العلوم الإسلامية :

في القراءات : تبين لنا - من خلال بعض نصوص كتابه - أنه لديه إلمام بـ (علم القراءات القرآنية) ، فهو - شخصياً - لديه ميل وإتقان لقراءة (عبد الله بن عامر) (٦١) ، وبها قرأ القرآن في مصر (٦٢) . ومن خلال تناوله ثقافات أهل الأقاليم التي يحدثنا عنها ، أورد معلومات تدل على إحاطته باتجاهات الأقاليم المختلفة في علم القراءات في زمانه (في القرن الرابع الهجري) . فمثلاً : في الحجاز توجد قراءات نافع ، وابن كثير ، وغيرهما . وقراءة أهل الشام - ومنهم : المقدسى - هي قراءة (عبد الله بن عامر) (٦٣) .

في الحديث : أورد المقدسى عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة في كتابه ، وحرص على ذكر أسانيدها كاملة ومناسباتها الجغرافية ، مثل : حديث إعادة بناء الكعبة لدى تعريفه بـ (مكة) (٦٤) ، وبمجموعة أحاديث عن مكان إحرام أهل المدينة ، والشام ، ونجد (وذلك عند تناول الجحفة ، وقرن) (٦٥) ، وغير ذلك من الأحاديث (٦٦) .

فى الفقه : اهتمام المقدسى بـ (علم الفقه ، ورجاله) اهتمام أصيل . فالرجل فقيه حنفى تتلمذ بالعراق على أيدي الفقهاء الأحناف ، وأختار مذهبهم ، وفضله عما سواه من المذاهب (٦٧) . وللفقهاء عنده منزلة سامية ، فيحترمهم ويعرف فضلهم ، ويرفعهم فوق أهل العلم والأدب عامة (٦٨) ، وقد تأثر المقدسى فى دراسته للأقاليم بمصطلحات الفقهاء ، فذكر أنه قد أجرى مسائل كتابه على (التعارف ، والاستحسان) ، كما أجرى الفقهاء كتابى (المكاتب ، والإيمان) ، ورتبه على مذاهب أهل العراق التى فيها تفقه ، وإياها اختار ، واستعمل القياس فى مواضع تحسن وتليق (٦٩) .

لقد احتوى كتاب (أحسن التقاسيم) على باب من (مقدماته) ، خصص لذكر المذاهب عامة (فقهية ، وكلامية ، وحديثية) . وتناول بالحديث المذاهب الفقهية وأصولها وأئمتها ، وما تفرد به كل مذهب منها عما سواه (٧٠) . هذا ، إلى جانب إشارات المتعددة فى كتابه إلى المناظرات والمناقشات الفقهية الدائرة حول بعض المسائل الخلافية فى الأقاليم الجغرافية التى يعرضها (٧١) ، إلى جانب سرد بعض أحكام الدين عندما تلوح المناسبة (٧٢) .

رابعاً : (دراسة القسم الأول من كتاب : «أحسن التقاسيم»)(٥٠):

من المعلوم أن المقدسى قسم كتابه المذكور إلى قسمين :

أحدهما : خاص بأقاليم العرب .

وثانيهما : يتعلق بـ (أقاليم العجم) . ولما كانت دراستنا فى هذا البحث تنصب على جانب (تاريخ العرب) ، فقد اقتصرنا الدراسة على (القسم الأول) فقط ، كمحاولة لتسليط الأضواء على المادة التاريخية - تقليدية ، وغير تقليدية - المبثوثة فى ثنايا هذا المصدر الجغرافى الأصيل .

١ - عرض عام لمحتويات هذا القسم :

١ - بدأ المقدسى كتابه بمقدمة عامة ، أثنى فيها على الخالق المبدع سبحانه ، مبيناً قدرته فى بعض ظواهر الكون ، ثم ذكر أهداف تأليف كتابه ، وموضوعه ، وفوائده ، وأهميته ، وما بذل فى جمعه من جهد (٧٤) .

٢ - وتحت عنوان : (مقدمات وفصول لا بد منها) أورد عدة موضوعات ، منها: الأسس المنهجية لكتابه ، وذكر البحار والأنهار ، والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلف فيها ، وغير ذلك (٧٥) .

٣ - عرض أقاليم العرب واحداً بعد الآخر : (جزيرة العرب (٧٦) ، والعراق (٧٧) ، وأقور (٧٨) ، والشام (٧٩) ، ومصر (٨٠) ، والمغرب (٨١) ، وبادية العرب (٨٢) . وكان المقدسى يقسم الإقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة فى أحجامها حسب توفر المادة العلمية عن كل منها ، فيدرس فى الأول مدن الإقليم ، والمواضع العامرة فيه . ويبحث الثانى فى المناخ وطوائف السكان ، ولغتهم ، والأوزان ، والنقود ، والعادات ، والمياه ، والمعادن ، والأماكن المقدسة ، وأخلاق سكانه ، وتاريخه السياسى والاقتصادى ، ويتناول الثالث الحديث عن المسافات ، وطرق المواصلات فى كل إقليم (٨٣) .

٢ - موارد :

فى هذه الجزئية نركز الحديث عن المصادر الواردة فى قسم (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، والتى استمد منها مادته . وقبلولوج إلى ذكر أنواع الموارد ، التى استمد منها مادته التاريخية غالباً ، نذكر القواعد النظرية العامة التى حكمت اختياره لهذه الموارد ، ونوعياتها ، وطريقته فى الأخذ منها (٨٤) ، وهى كالاتى :

(أ) البحث والتنقيب والتحرى فى اختيار وتحديد المصادر ، التى ينقل عنها مادته .

(ب) المشاهدة ، والقناعة العقلية ، سؤال أولى الأبواب عن الناس ممن لم يعرفوا بالغفلة والالتباس ، وسؤالهم عن الكور والأعمال فى المناطق التى بعد عنها المقدسى ، ولم يقدر على الوصول إليها (كالأندلس مثلاً) . فإذا اتفق أكثر من مصدر سألته ، أثبت ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه تركه ونبذه ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه ، قصده .

(ج) ما لم يقره قلبه ، ولم يقبله عقله ، أسنده إلى الذى ذكره ، أو قال : زعموا .
(د) الاجتهاد فى عدم ذكر شىء قد سطره أصحاب المصنفات قبله فى ذلك العلم ، ولا يشرح أمراً قد أوردوه وبينوه إلا عند الضرورة ؛ كى لا يبخسهم حقوقهم ، ولا يتهم بالسرقة من تصانيفهم (٨٥) .

(هـ) يذكر المقدسى فى كتابه ما رآه ، ويحكى ما سمعه . فما صح من الروايات بالمعينة وأخبار التواتر ، أرسل به القول (أى : لم يذكر مصدره) ، وما شك فيه من أخبار ، أو رواه من طرق الآحاد ، أسنده إلى راويه . ويلاحظ أنه لم يذكر فى كتابه مصدراً إلا وهو (صدر مشهور ، أو عالم مذكور ، أو سلطان جليل) ، وباستثناء مواضع ذكر فيها موارد ، لا تندرج تحت هؤلاء المذكورين ؛ لضرورة ، أو لورودهم عرضاً خلال إحدى الروايات . ويميز هذا المصدر الأقل مكانة بتسميته رجلاً ذاكراً محله (مكانته) ، ليفرق بينه وبين جلة المذكورين .

أقسام موارد :

* لخص لنا المقدسى هذه الأقسام فى عبارة مجملة ، جاء فيها : أن موارد

كتابه على النحو الآتى :

(أ) ما عاينه .

(ب) ما سمعه من الثقات .

(ج) ما وجدته في الكتب المصنفة في هذا الباب . وفي غيره . فما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ، ولا مذكر وبلد إلا وشهدهم ، حتى استقام له ما ابتغى في هذا الباب (٨٦) .

والآن نتقل إلى الجانب التطيقي الفعلي لمصادر المقدسي ؛ وهي على النحو الآتي :

(أ) مصادر ذكر عناوينها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها :

(قرأت في أخبار المدينة) (٨٧) ، و (قرأت في أخبار البصرة) (٨٨) ، وهو (قرأت في كتاب الطلسمات) (٨٩) .

(ب) مصادر لم تحدد عناوينها ، ولا أسماء مؤلفيها :

(وجدت في بعض خزائن الخلفاء) (٩٠) ، و (قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة) (٩١) ، و (قرأت في بعض الكتب) (٩٢) .

(ج) مصادر معلومة الاسم ، والمؤلف :

(وجدت في كتاب ابن خرداذبه) (٩٣) ، و (قرأت في كتاب ابن خرداذبه) (٩٤) ، و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب) (٩٥) ، وأما الدخل ، فقرأت في كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر (٩٦) ، و (قرأت في كتاب ابن الفقيه) (٩٧) .

ملاحظتان :

الأولى : هناك مصدر ، نقل عنه المقدسي ، ولم يذكر اسمه تحديداً ، واكتفى بذكر نسب المؤلف دون اسمه . ومثال ذلك قوله : (وذكر الشمشاطي) (٩٨) . في (تاريخه) (٩٩) .

الثانية : هناك بعض المرويات المصدرة بلفظة (قال) ، لكن الرواية فيها عن أشخاص ، يستحيل على المقدسى النقل المباشر عنهم ؛ مما يدل على أنها منقولة عن مدونات مجهولة العناوين : (قال عبد الله بن عمرو (١٠٠) ، وقال قطرب (١٠١) ، وقال كعب الأحبار (١٠٢) .

(د) مصادر شفوية :

توجد مرويات عديدة - فى كتاب المقدسى - مصدرة بألفاظ ، يغلب على الظن معها ، أنها نقلت شفاهاً . ولعلها دونت فيما بعد . وقد وردت هذه الروايات بأشكال متعددة منها :

- ما صدر بلفظة (سمعت) ، بعدها المورد المذكور :

(سمعت - يوماً - القاضى أبا الحسين القزوينى (١٠٣) ، وسمعت أبا على الحسن بن أبى بكر البناء (١٠٤) ، وسمعت عمى (١٠٥) ، وسمعت خالى عبد الله بن الشوا (١٠٦) .

- ما صدر بلفظة (سمعت) بعدها المصدر غير مذكور تحديداً :

(سمعت بعض العثمانية (١٠٧) ، وسمعت هذه الحكاية من عدة من مشايخ الأندلس (١٠٨) ، وسمعت بعض مشايخ القيروان (١٠٩) .

- ما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها مصدر غير محدد :

(وسألت بعض المصريين بينخارى عن الخراج (١١٠) .

- وما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها غير محدد ، ثم سؤال

أكثر من مصدر محدد :

(وسألت جماعة منهم (أى : من الروم) ، وسألت عريباً الخادم (وكان من أهل العلم والصدق) ، وذكرت قوله لأبى سعيد الجورى ب (نيسابور) (١١١) .

- روايات مصدرة بلفظة (أخبرنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة ، تنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ (١١٢) ، وروايات أخرى مصدرة بلفظة (حدثنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة فى معظمها ، وتنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ (١١٣) .

- الجمع بين مصدر شفهي غير محدد ، وآخر مكتوب غير محدد أيضاً :

(وسمعت بعض العلماء ، وقرأت فى بعض الكتب) (١١٤) .

- وأخيراً ، روايات مجهولة المورد ، مصدرة ببعض الألفاظ ، مثل :

(يزعمون) (١١٥) ، وسمعتهم يزعمون (١١٦) ، و (قالوا) (١١٧) ، و (قيل) (١١٨) ، و (يقال) (١١٩) ، و (يقولون) (١٢٠) ، و (يحكى) (١٢١) ، و (حكى لى) (١٢٢) ، و (زعم) (١٢٣) ، و (حدثت) (١٢٤) ، و (حدثونا) (١٢٥) .

ملاحظات على موارد المقدسى :

(أ) اتضح من النماذج المختارة السابقة تنوع المصادر ، التى استمد منها المقدسى مادته ما بين مصادر مكتوبة ، وشفهية (محددة ، وغير محددة) ، وأخرى مجهولة . وتنوعت الألفاظ المستعملة للتعبير عن النقل من تلك المصادر ، فاستخدم المقدسى (قرأت) فى التعبير عن مطالعة المصادر المكتوبة ، وكذلك (وجدت ، وذكر) . وفى المصادر الشفهية استخدم ألفاظاً ، مثل : سمعت ، وسألت ، وأخبرنا ، وحدثنا . وفى الموارد المجهولة استخدام عدداً من الألفاظ الدالة على الظن والتشكيك ، مثل : يزعمون ، وقيل ويقال .

(ب) بالنسبة للروايات المنقولة عن كتب جغرافيين سابقين ، فما تيسر لى الإطلاع عليه من المطبوع ، قارنت ما فيه من مادة تاريخية بما أورده المقدسى نقلاً عن

هذه الكتب . وقد تبين لي أن المقدسى كان دقيقاً في نقله من كتاب (ابن خرداذبه) ما يتصل بعدد مدن الأندلس الأربعين (١٢٦) ، وكذلك كان دقيقاً فيما يتصل بمقادير خراج (حمص ، والأردن وفلسطين) (١٢٧) . وثبت دقته كذلك في نقله عن (ابن خرداذبه) - أيضاً - ما يتصل بمقدار (خراج اليمن) ، وإن لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه ابن خرداذبه في ذلك (ووجد في ديوان الخراج ، رفع لبعض عمال اليمن) (١٢٨) . ووقفت - أيضاً - على دقة المقدسى في نقله عن (كتاب الخراج) لقدامة بن جعفر ، فيما يخص مقادير خراج (الحرمين واليمن ، واليمامة والبحرين ، وعمان) (١٢٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن المقدسى كان يتصرف - أحياناً - في نقله عن المصادر ، فهو عندما اقتبس من كتاب (ابن خرداذبه) قيمة خراج (ولاية اليمن) ، أغفل ذكر تعليق ابن خرداذبه بأن هذا هو أكثر ما ارتفع من خراج في هذه الدولة . ثم إنه عندما ذكر (التقسيم الإداري لليمن) ، عبر عن (الولاية) بلفظة (أعمال) ، فقال : مقسومة على ثلاثة أعمال (بدلاً من ثلاثة ولاية) . ونقل مختصراً ما قاله ابن خرداذبه ، فأسقط ذكر حجم ومنزلة ولاية من الولايات الثلاث ، فقد قال ابن خرداذبه عنها ما يلي : الجند ومخاليفها (وهي أعظمها) ، وصنعاء ومخاليفها (وهي أوسطها) ، وحضر موت ومخاليفها (وهي أدناها) (١٣٠) .

وقد يبدو المقدسى مجانباً الدقة والصواب ، عندما نقل عن كتاب ابن خرداذبه أن خراج قنسرين أربعمائه ألف دينار (١٣١) ؛ لأنه بالعودة إلى كتاب ابن خرداذبه ، ألفينا هذا الرقم خاصاً بخراج قنسرين والعواصم معاً (١٣٢) . وقد ذكر ياقوت في حديثه عن (العواصم) (١٣٣) ، أن البعض يزعم أن (حلب) ليست منها ، والبعض يزعم أنها منها ، ثم استحسن دليل من قال : إن حلب ليست من أعمال (العواصم) أنهم اتفقوا على أنها من أعمال (قنسرين) وهم يقولون : قنسرين

والعواصم ، والشئ لا يعطف على نفسه (١٣٤) . فتكون (قسرين) شيئاً ، و (العواصم) شيئاً آخر ، ويكون المقدسى غير دقيق فيما ذكر . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بما ذكره ياقوت نفسه بعد ذلك فى التعريف بـ (قسرين) (١٣٥) ، لما قال : وبعض يدخل قسرين فى العواصم (١٣٦) . فلعل المقدسى من هؤلاء ، فيكون ما نقله عن خراج قسرين معبراً عن خراجها وخراج العواصم معاً ، فيسلم بذلك من المؤاخذه .

وثمة جزئية أخيرة يمكن أن تؤخذ على (المقدسى) بهذا الصدد ، وتتعلق بمقدار دخل مصر ، حيث نقل عن (قدامة) أن هذا الدخل بلغ من العين ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار . وبالعودة إلى كتاب (قدامة) وجدت أن هذا الرقم يختص بـ (مصر ، والإسكندرية) معاً (١٣٧) . والراجع أن المقصود بـ (مصر) مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية لمصر . أما الإسكندرية ، فهى العاصمة القديمة قبل دخول الإسلام مصر ، وكانت تعامل معاملة خاصة فى ظل النظام الإدارى بعد الفتح الإسلامى ، فهى مدينة بارزة من مدن الوجه البحرى ، ولها وال يحكمها ، ودخل تختص به ، بخلاف دخل العاصمة (الفسطاط) (١٣٨) .

(جـ) كان المقدسى دقيقاً فى استخدام الألفاظ ، التى تصدر بها روايات كتابه ، فالرويات التى لا يستطيع التحقق من صحتها يستخدم معها ما يدل على ميل إلى عدم الاقتناع بمضمونها ، مثل : يقولون (١٣٩) ، ويزعمون (١٤٠) .

(د) حرصه على ذكر الأسانيد الكاملة للمرويات الحديثة ، وإن لم يتعرض لها بتحديد مدى صحتها من عدمه . وفى الوقت نفسه أتى فى إحدى الروايات ، التى تغلب عليها الأسطورة والخرافة بالإسناد الكامل (١٤١) . وأحياناً كان يروى عن مصدر له صلة غير واضحة بموضوع الرواية (١٤٢) ، وأحياناً يسأل أهل الاختصاص (١٤٣) . ويكرر السؤال نفسه لدى أكثر من مصدر ، واصفاً أحدها بأنه من أهل العلم والصدق (١٤٤) ، وكل ذلك لمزيد من التدقيق والتثبت .

(هـ) وأخيراً ، فإن هذا القسم الخاص بـ (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) به كثير من المعلومات والروايات ، التي لم يذكر المقدسى لها مصدراً ، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها . ويغلب على الظن أنها من المواضع التي اتفق عليها ، وصحت للمقدسى بالمعينة والتواتر (عل نحو ما ذكر فى منهجه فى ذكر الموارد سابقاً) . وهذا يعنى أن كثيراً من مرويّات المقدسى قائمة على (المشاهدة والمعينة) ، وهى ناتجة - ولا شك - عن الرحلات الطويلة التى قام بها لأقاليم الإسلام (١٤٥) . وجولانه فى البلاد (١٤٦) ، وكثرة أسفاره فى البحار والمحيطات (١٤٧) . وهكذا ، فإن المشاهدة تأتى فى المقام الأول بين موارده (١٤٨) . وما لم يطالعه بنفسه ، اعتمد فى معرفته على المصادر المكتوبة ، سؤال أهل العلم (١٤٩) .

٣ - منهجه :

قبل الحديث عن عناصر المنهج التطبيقي ، الذى سلكه المقدسى فى عرض قسم (أقاليم العرب) من كتابه ، نضع أيدينا - أولاً - على الأسس والقواعد النظرية التى أتبعها المقدسى قبل وعند وضع كتابه ، وهى كما يلى :

أولاً : دوافع التأليف : هناك دافع عام رغب المقدسى فى تأليف كتابه ، يشاركه فيه عامة العلماء (١٥٠) ، ودافع خاص يتعلق بالمقدسى . لقد نظر فى العلوم عامة ، فوجد أن الأمور تسير على هذا النحو : علماء لهم قدم السبق والريادة ، يقومون بالتأليف فى البداية ، ثم يأتى آخرون بعدهم ، فينظرون فى مؤلفات الأولين ، فإذا أن يشرحوها ، أو يختصروها أما هو ، فرأى أن يكتب فى علم قد أغفلوه ، وينفرد بفن لم يذكره إلا وعليهم فيه مأخذ ؛ إذ عاجلوا بإخلال . فرأى هو أن يذكر الأقاليم الإسلامية ذكراً شاملاً متكاملأ ، يصف طبيعة الإقليم الجغرافية ، ويصف مدنه المشهورة ، ويذكر الطرق الموصلة إليه ، مع بيان ما فيه من أنشطة بشرية صناعية وتجارية وغيرها ، مع التعرض للغة أهل

الإقليم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، ومطاعمهم وشرابهم ، وصادراتهم ووارداتهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم ، ومذاهبهم ، وغيرها (١٥١) .

ثانياً : مطالعة الكتب السابقة عليه في هذا العلم ، وقراءتها قراءة نقدية . وانتهى - بعد ذلك - إلى اقتناع بأن هؤلاء الذين تقدموه ، جاءت مصنفاتهم مختلة ، واعتمدوا فيها على السماع (١٥٢) . فالجيهاني (١٥٣) صاحب معرفة بالفلسفة والنجوم والفلك . قام بالاعتماد على سؤال الغرباء عن ممالكهم ، ودخلها ، وكيفية الوصول إليها (فلم يعتمد على الرحلة إلى تلك الأقطار) . ومما أخذه عليه المقدسي أنه اهتم بذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ، ولم يفصل ذكر الكور ، ولم يرتب أجنادها ، ولم يصف مدنها ، ولا استوعب ذكرها . وكذلك انتقده المقدسي بالإطالة في الكتاب ؛ نتيجة شرح ما في الطرق من سهول وجبال ، وأودية ، وتلال ، وأنهار ، ثم أغفل أكثر طرق الأجناد (١٥٤) .

* وطالع المقدسي كتاب (أبي زيد البلخي) ، وعاب عليه تركه كثيراً من أمهات المدن ، وعدم الارتحال إلى البلدان والأعمال .

* وأخذ على ابن الفقيه الهمداني عدم ذكره إلا المدن العظمى ، وعدم ترتيبه الكور والأجناد ، وإدخاله في كتابه علوماً ، لا علاقة له بها (زهد في الدنيا ورغبة فيها وحكايات مبكية وأخرى ملهية مضحكة) .

* وأما كتاباً الجاحظ ، وابن خرداذبه ، فذكر أنهما مختصران جداً ، ولا يحصل منهما كثير فائدة (١٥٥) .

* ولا شك في أن المقدسي حاد في نقده ، لكن لا استطيع القطع بأنه كان ناقداً متعسفاً - أحياناً - على السابقين في هذا المجال (١٥٦) . لأن بعض الكتب التي ذكرها في حكم المفقودة .

ثالثاً : القيام بزيارات ميدانية ، ورحلات شخصية مطولة ؛ لجمع مادة كتابه بنفسه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ومخالطة الناس والعلماء في البلاد المختلفة التي

زارها وحضور مجالس علمائها ، وعقد صلات مع بعض الحكام ، وتصفح خزائن الكتب ومطالعة الدفاتر والخرائط (١٥٧) .

رابعاً : أثناء كتابة المقدسى مصنفة راعى تجنب الكذب والطغيان (مجاوزة الحدود والمبالغة) ، والتحرز بالحجج (الإتيان بالأدلة) من الطعان (الطعن والنقد) ، فلم يودعه المجاز والمحال (الخيالات ، والمستحيلات) ، ولم يسمع إلا قول الثقات من الرجال (١٥٨) .

خامساً : وأخيراً التأنى والمراجعة قبل إخراج الكتاب : ذكر المقدسى أنه حرص على استشارة الأئمة والعلماء قبل إخراجه إلى الناس ، فكل أشار به وقبله ، وبعث على إحضاره ومدحه (١٥٩) .

العناصر الإيجابية فى منهج المقدسى التطبيقى :

أولاً : توضيح مفاهيم مختصراته ، ومصطلحاته ، وجغرافية أقاليمه :

* قبل أن يدخل المقدسى فى صلب كتابه ، أوضح مفاهيم عدد من الألفاظ المختصرة التى يستخدمها ، فقال : لا نظير له تعنى : ليس مثل بته . فإن قال : غاية ، فإنها تعنى : غاية فى الجودة . وإن قال : جيد ، فقد يوجد أجود منه (١٦٠) .

* وقد يجمل المقدسى القول ، ويدع شرحه إلى حينه ، مثل قوله : ﴿ ولا أعز من أهل بيت المقدس ﴾ (١٦١) .

ومن مصطلحات المقدسى التى شرح مقصوده منها ما يلى :

البلد : وتشمل - عنده - مصر ، والقصب ، والرساق ، والكورة ، والناحية .

* عند ذكر قصبة فى كورتها ، يذكرها باسمها (مثل : الفسطاط) ، فإذا أوردتها فى موضع آخر ، جعلها باسمها المعروف عند الناس ، فيقول : (مصر) .

المشرق : دولة آل سامان . فإن قال : الشرق ، فإنه يعنى كرمان ، وفارس ، والسند أيضاً .

المغرب : هو الإقليم المعروف . فإن قال : الغرب ، ضم إليه (مصر ،
والشام) (١٦٢) .

* وأخيراً ، فإن المقدسى لم يكف بكل هذه التوضيحات ، وإنما ابتكر لوناً
جديداً من التوضيح ، تمثل فى رسم خرائط ملونة لأقاليم كتابه ، فكان يرسم
حدودها وخطوطها ، ويميز طرقها المعروفة بالحمرة ، ويشير إلى رمالها الذهبية
باللون الأصفر ، ويجعل بحارها المالحة باللون الأخضر ، وأنهارها المعروفة باللون
الأزرق ، وجبالها المشهورة بالغبرة . وقد لجأ الرجل إلى ذلك ؛ لتقريب الوصف
إلى الأفهام ؛ كى يقف عليه الخاص والعام (١٦٣) . وللأسف ، فإن هذه الخرائط
الملونة لم تصل إلينا فى النسخة التى بين أيدينا ، ويبدو أنها سقطت من مخطوطات
الكتاب ، لكن عبارات المقدسى تشير إلى وجودها فى كتابه (١٦٤) .

ثانياً : الدقة فى توزيع مادة كتابه :

نلمح تلك الجزئية المنهجية من خلال قراءة كتاب المقدسى ، حيث لا نجد
تداخلاً بين معلومات الأقاليم المختلفة . فالرجل يحسن توزيع مادته العلمية ،
ويضعها فى مكانها اللائق بها . فمثلاً : عند تناوله (ذكر المذاهب ، وأهل الذمة)
فى فصوله الموجودة بـ (مقدمات كتابه) ، قال : واخترت من المذاهب مذهب
أبى حنيفة (رحمة الله) ؛ للخلال التى ذكرها فى (إقليم العراق) (١٦٥) . وعند
إشارته إلى أتباع المذاهب الكبرى ، قال : قد بينت ذلك فى شرح الأقاليم من هذا
الكتاب (١٦٦) . وعندما تناول القراءات ، قال : ومن الحروف مقراً (أبى عمران
عبد الله بن عامر اليحصبى) ؛ للمعانى التى أصفها فى إقليم (أقور) (١٦٧) .

ثالثاً : وضوح شخصيته فى كتابه :

هذه جزئية مهمة فى الوقوف على عقل وفكر المقدسى ، ودرجة تفاعله مع
المعلومات التى يكتبها ، من حيث القدرة على التعليل ، والاستدلال ، والتعليق ،
والنقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين . ولا شك فى أن عناصر ثقافة الرجل

الموسوعية تفاعلت معاً ، حتى أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقدة فهماً وذكاء ، حتى قال عنه كراتشكوفسكى : تمتع المقدسى بشخصية واضحة للعيان ، حتى من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشيء ، إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقه (١٦٨) .

١ - التعليل : وقد اتخذ أشكالاً وأنماطاً ، منها : تعليل فى منهج التناول ، فكثيراً ما يعلل طريقته فى عرض كتابه ، فقد حرص أن يودعه شيئاً من الغوامض والمعانى ؛ ليجل (يعظم قدره) ، ويقل (أى : المتهاونون بشأنه) ، وأورد فيه الحجج توثيقاً (زيادة فى التوثيق) ، والحكايات تحقّقاً (أى : من صدق ما يورد) ، والسجع تظرفاً (درءاً للسامة) ، والأخبار تبركاً . وبسط أكثره ؛ ليقف عليه العوام إذا تأملوه . وأوضح الطرق ؛ لأن الحاجة إليها أشد ، وصور الأقاليم ؛ لأن المعرفة بها أروج ، وفصل الكور ؛ لأن ذلك أصوب (١٦٩) .

وتنوعت تعليقات المقدسى بين التوسط والإيجاز . ومن النوع الأول ما ورد عن تخصيص باب مستقل لـ (بادية الشام) ؛ بأن أحداً من أهل الأقاليم لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ، ولا غنى عن معرفتها ، كما أن بها طرقاً ومياها قد تجهل ولا تعرف وبها فوائد لا تحصى (١٧٠) . وكذلك تعليله ببدء عرض (أقاليم العرب) بـ (إقليم جزيرة العرب) ؛ لما يتمتع به من وجود بيت الله الحرام ، والمدينة المنورة ، ومقر الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين والأنصار ... إلخ (١٧١) .

ومن التعليقات الوجيزة ما قاله عن سبب تركه التعريف بـ (طرسوس ، وأعمالها) ؛ لأنها بيد الروم (١٧٢) . وأيضاً تركه ذكر بعض مدن الإسلام فى الأندلس غالباً ؛ لجهله إياها (١٧٣) . وإعجابه بالبصرة أكثر من بغداد ؛ لرفقها ، وكثرة الصالحين بها (١٧٤) . وسر تسمية (واسط) ، التى اختطها الحجاج ؛ لأنها بين قصبات العراق والأهواز (١٧٥) .

٢ - الاستدلال : دلل المقدسى على انقاص (سعيد بن العاصى) مقدار الصاع ، الذى قرره عمر بن الخطاب فى إقليم (شبه جزيرة العرب) بحضور الصحابة، وبه كان يكفر الإيمان ، فهبط به سعيد من (ثمانية أرتال) إلى (٥^١) من الأرتال . وقد استدل على مجمل عمل سعيد هذا - معتمداً على ثقافته الأدبية - بقول الراجز :

وجاءنا مجموعاً سعيد ينقص فى الصاع ولا يزيد (١٧٦)

٣ - النقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين المطولة نوعاً ما :

هذا الملمح المهم إن هو إلا إنعكاس واضح لثقافة المقدسى الفقهية ، وذكائه وتوقد ذهنه ، وكثرة مطالعته ، ومشاهداته مجالس الفقهاء والعلماء ، وما يدور به من مناظرات ومناقشات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) استدلاله على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم بشيوع تلك التسمية، وعدم معرفة الناس تسمية (إقليم بابل) ، وهو متمسك بتلك التسمية ؛ لأنه يرى كتابه على المعروف المشهور . ثم قال : بالضبط كمن حلف على ألا يأكل رعوساً ، فأكل من رعوس البقر والغنم ، فإنه يحنث على رأى أبى حنيفة ، خلافاً لما قاله الفقيهان الحنفيان (أبو يوسف ومحمد) . وقد شرح بعض الأئمة من مشايخ القلس ذلك بأنه لا خلاف ، فقد كانت تؤكل الرعوس وتباع زمن أبى حنيفة ، ثم زالت تلك العادة زمان أبى يوسف ومحمد . وأيضاً استدل على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم ، دون (إقليم بابل) بقول أبى بكر لعمر ، عندما سأله إرسال جيوش إلى العراق ، / فبين له أبو بكر أن فتح شبر من الأرض المقدسة (الشام) أحب إليه من رستاق من رساتيق العراق . قال المقدسى : ولم يقل : (من رساتيق بابل) . ويواصل المقدسى نقاشه ، فيحشد مزيداً من البراهين ، فيقول : وأما ما جاء فى آية : « وما أنزل على الملكين ببابل » (١٧٧) ، فيجوز أن يتناول ذلك الإقليم والمدينة جميعاً ، ووقوعه على المدينة مجمع عليه ، لكن إطلاق اسم (بابل) على (الإقليم) مختلف فيه ، فمن أطلقه على الإقليم ككل ، فعليه وجب الدليل (١٧٨) .

(ب) الأدلة الكثيرة التي ساقها المقدسى ؛ دفاعاً عن إتباعه مذهب أبى حنيفة الفقهى ، والتي منها : اعتماد ذلك المذهب على أقوال وفتاوى الإمام على عليه السلام ، وقدم ذلك المذهب ، واقترابه من عهد الصحابة ، وصوابه عما سواه من المذاهب الفقهية الأخرى . ولا حجة لمن طعن على أبى حنيفة ومذهبه ، فقد سبق أن طعن الطاعنون على الخلفاء الراشدين (١٧٩) .

٤ - التعليق :

اتخذ تعليق المقدسى على بعض الأخبار الواردة فى كتابه عدة صور على النحو الآتى :

(أ) تعليق على فضائل الأمصار : دخل عبد الرحمن بن أخى الأصمعى على الجاحظ ، فقال : افدنى فى البلدان فائدة . فذكر له ميزات عشرة أمصار ، ومن ذلك قوله : (الصنعة بالبصرة ، والمروءة ببغداد ، والتجارة بمصر) .

فعلق المقدسى : وقد صدق لعمري . ثم استدرك قائلاً : إلا أن بنيسابور - أيضاً - صناعات حذاقاً ، وبالبصرة تجارات ، وبمكة فصاحة ، وببيت المقدس حسنة البناء ... إلخ (١٨٠) .

(ب) تعليق على رواية بها معلومة اقتصادية : لقد تساءل المقدسى دهشاً ، لما قرأ عند ابن خرداذبه أن خراج اليمن ستمائة ألف دينار ، إذ قال : فلا أدرى ما أراد بذلك ، ولم أر ذلك فى كتاب (الخراج) ، بل المعروف أن جزيرة العرب عشرية (١٨١) . وهذا يعنى أنه مر فى تعليقه - أولاً : بمحاولة تفهم النص الاقتصادى الوارد ، ثم شكك فى صحته ؛ لعدم مطالعته إياه فى كتاب (الخراج)، الذى أرجح أنه كتاب (قدامة بن جعفر) ؛ لاحتوائه على قوائم الخراج فى أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم بين أن الغالب عدم تصديق النص ؛ لأن أرض الجزيرة يؤخذ من أهلها الزكاة ؛ إذ لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان . فكأن المقدسى يتحفظ على النص ، ويميل إلى رفضه بطريقة غير مباشرة .

(ج) تعليق على نص به معلومة عن إحدى الفرق المنحرفة : قرأ المقدسى فى كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور : أن بالمغرب سبعمائة خائفاه (رباط الصوفية) لهم . فعلق قائلاً : لا ، والله ولا واحدة (١٨٢) .

(د) تعليق فقهى على حادثة تاريخية : ذكر المقدسى أن المنصور العباسى لما حج ، رأى ضيق المسجد الحرام هناك فأراد شراء ما حوله من الدور ، وزيادتها فيه مع تفخيمه ، فعرض على اصحاب الدور أموالاً جمّة ، لكن رفضوا البيع . وقد علم أبو حنيفة بحيرة الخليفة ، ولم يكن اشتهر فقهه بعد ، فلقى المنصور وعرض عليه أن يسأل هؤلاء الناس : هل الكعبة نزلت عليهم أم العكس ؟ فلما ذكروا أنهم حلوا بها ، قال : ردوا فناءها ، فقد كثر زوارها ، واحتاجت إليه . فرضى الناس بالبيع . ثم علق المقدسى قائلاً : وهذه الحكاية تقوى إحدى الروايتين عن أبى حنيفة فى كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها ، إلا على تأويل (١٨٣) .

٥ - آراء نقدية يديها :

(أ) رأيه فى سر رخاء العراق : قال المقدسى : (واعلم أن العراق ليس ببلد رخاء ولكن جل وعمر بهذين النهرين ، وما يحمل فيهما ، وبيحر الصين المجاور له (١٨٤) . فهو يضع يده على عوامل ثراء ورخاء العراق عن طريق ما حباه (الله عز وجل) من عوامل الخصب والرخاء والتجارة (وجود نهري دجلة ، والفرات ، والمحيط الهندي) .

(ب) رفضه اتهام الأمويين بالجنين أمام أعدائهم : حيث ذكر أياتاً لمن يهجو الأمويين فعلق على واحد منها يقول :

أسد على الجيران أعداؤهم آمنة تخطر فى دارهم .

علق المقدسى قائلاً : وكذب فى هذا البيت ؛ لأن الأعداء - أبداً -

يخافونهم (١٨٥) .

(ج) نقده كثرة إنفاق الوليد بن عبد الملك على بناء جامع دمشق ، إذ قال لعمه يوماً : يا عم ، لم يحسن الوليد ، حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو أنفق ذلك فى عمارة الطرق والمصانع ، وترميم الحصون ، لكان أصوب وأفضل . فرد عمه عليه قائلاً : لقد وفق الوليد فيما فعل ؛ لأنه رأى الشام بها النصارى ، ولهم فيها بيع حسنة مزخرفة انتشر ذكرها ، مثل : كنيسة القيامة ، وبيعة الرها . فأراد أن يشغل المسلمين عن ذلك بالمسجد ، وجعله أحد عجائب الدنيا . وقد فعل والده (عبد الملك بن مروان) ذلك ، لما رأى عظم قبة القمامة ، فخشى أن تعظم فى قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة (١٨٦) .

٦ - القدرة على الاختيار والتزجيج :

(أ) من المواضع إلى برزت للمقدسى فيها هذه القدرة ذكره خبراً مرفوعاً إلى النبی ﷺ عند حديثه العام عن المذاهب فى (أقاليم العرب) - فيه أن الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتين وسبعين فى الجنة ، وواحدة فى النار . وذكر أن بقية الأئمة يحتجون بخبر آخر فيه (اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة ناجية) (١٨٧) . فالمصيب من وافق الحق ، وهم صنف واحد . ثم قال المقدسى : وهذا أشهر إلا أن الأول أصح إسناداً ، والله أعلم . فإن صح الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثانى فالناجية السواد الأعظم (١٨٨) .

(ب) وثمة نموذج آخر : جعل المقدسى الأمصار - فى كتابه - كالمملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة . ثم أراد تعريف الـ (مصر) ، فذكر قول الفقهاء : هو كل بلد جامع يقام فيه الحدود (مثل : نابلس) . وبه أمير لإدارته ، يجمع ضرائبه ، وينفق عليه . ثم ذكر تعريف فى اللغة : هو كل ما حجز بين جهتين (مثل : البصرة ، والركة) . ثم أورد تعريفه لدى العوام : كل بلد كبير جليل (مثل : الرى والموصل ، والرملة) . ثم اختار لنفسه تعريفاً ، قال فيه : وأما نحن فجعلنا الـ (مصر) كل بلد حله السلطان الأعظم ، وجمعت

له الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم (مثل : دمشق ، والقيروان) (١٨٩) .

العناصر السلبية فى منهج المقدسى التطبيقى :

(أ) التكرار ، وضعف التنسيق والترابط :

رغم إحكام المقدسى تنظيم مادته ، وإحسانه توزيعها على أماكنها المناسبة ، إلا أنه وقع - أحياناً - فى خطأ التكرار ، الذى أفضى إلى الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل فى عرض مادته . ومن أمثلة ذلك : تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه فى أكثر من موضع (١٩٠) . ، رغم أن ذلك يكتفى بذكره فى المقدمة فحسب ، وكذلك تكراره ذكر منهجه النظرى الذى ارتضاه لنفسه عند جمع مادته من مصادرها ، والذى سيسير عليه فى تأليف كتابه (١٩١) ، وأخيراً تكراره نقد كتب السابقين عليه فى مجال التصنيف الجغرافى (١٩٢) .

(ب) التطويل ، والاستطراد :

على الرغم من توخى المقدسى الإيجاز فى كتابه ، ونصه على ذلك فى بعض المواطن وخوفه الإطالة ؛ كراهية الملal (١٩٣) ، إلا أنه حتى فى بعض المواضع التى توقف فيها عن مواصلة السرد ، فعل ذلك بعد أن أطال إلى حد ما فعلاً (١٩٤) . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المقدسى أطال بعض الشئ فى محتويات (مقدمات كتابه) (١٩٥) . رغم أهميتها إلا أنه كان يمكنه تجميعها وتركيزها ، وعرضها على نحو مختصر منظم . ويلاحظ أنه بينما نجد الإطالة فى بعض المواضع ، فإننا نشكو ندرة وشحاً فى ذكر الشخصيات العلمية المنسوبة إلى بعض الأقاليم الجغرافية . والتعريف الوافى بها (١٩٦) ؛ مما دفع أحد الجغرافيين اللاحقين لسد هذا النقص فيما بعد ، ألا وهو (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) .

وبالنسبة للاستطراد فأرى أن سيل المعلومات الفقهية لدى المقدسى دفعه للوقوع - أحياناً فى عيب (الاستطراد) . ونلاحظ ذلك عند الحديث عن

(الجحفة) ميقات أهل الشام فقد استطرد في ذكر بقية مواقيت أهل الأمصار الأخرى ، وذكر الروايات الواردة في ذلك . ثم انتهز الفرصة ، فاستطرد متحدثاً عن مناسك الحج (فرائض ، وواجبات ، وستنا) . وبعد أن استطرد ، آب إلى نفسه قائلاً : نرجع - الآن - إلى وصف مدائن هذه الكورة ونواحيها (١٩٧) . (يقصد كورة الحجاز) ؛ لأنه قسم شبه الجزيرة إلى أربع كور : الحجاز ، واليمن ، وعمان ، وهجر (١٩٨) . وكذلك أفاض - قبل ذلك الموضع بعض الشيء - في ذكر مدن كور إقليم (شبه الجزيرة) ، ثم قال : الآن نرجع إلى وصف ما أمكن من بلدان الكور ، وندع ما لا فائدة فيه (١٩٩) .

(ج) مجانية الحياد والموضوعية ، والوقوع في التناقض والغموض :

مما يحسب للمقدسى في كتابه أنه أعطانا صورة شاملة متكاملة في دراسة جيدة متميزة لأقاليم العرب ؛ إلا أنه جانبه التوفيق ، وتجاوز الحياد الواجب ، وظهر منه شيء من التحيز نحو العلماء عامة والفقهاء منهم خاصة . وخير مثال على ذلك قوله : (وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل ، خاصة الفقهاء ؛ لأنى رأيت الفضل فيهم) (٢٠٠) . وواضح أن الرجل - هنا - يلجأ إلى تعميم الأحكام ، وهذا يبعده عن الموضوعية ؛ إذ إن لكل قاعدة شواذ ، فلا نستطيع تبرئه كل المنتسبين إلى العلم والفقهاء من العيوب والمذمات . وكذلك يؤخذ عليه كثرة استخدام صيغة (أفعل التفضيل) في مجال المدح (٢٠١) ، واستخدامها بعيداً عن التفصيل - في مجال الذم (٢٠٢) ، مما كان الأولى الاحتراز منه . وثمة نماذج أخرى : نأى الرجل فيها عن (الموضوعية) ، وذلك عندما خصص فقرة تقريباً عن عجائب كل إقليم شرح لنا جغرافيته . يلاحظ أنه لم يذكر أسانيد بعض تلك الروايات المتصلة بهذه العجائب ؛ اعتماداً على اشتهارها وذيوع الحديث عنها في الأقاليم التي زارها . وبالنظر إلى مجموع هذه العجائب نجدها كثيرة ، وكنا نود أن يتحقق من مدى صديقها ، وألا يترك واحدة منها غفلاً من التعليق . ومن تلك العجائب ما ورد في (إقليم أقور) عن دير الكلب الموجود

بأرض الموصل ، حيث يحمل إليه من عضه كلب عقور ، فيقيم خمسين يوماً عند رهبانه ، فيبرأ ، بإذن الله تعالى (٢٠٣) . وكذلك عين الماء التي من شرب منها مات بعد ثلاثة أيام (٢٠٤) . وأيضاً منارة الإسكندرية التي يقال : إنها من عمل الأنبياء ، وكان الناظر فيها يصير مراكب العدو ، فيخير أمير البلد بذلك ، ثم احتال الروم ، فذهبوا بها ، أو كسروها (٢٠٥) .

ويعلق د. حسين مؤنس (٢٠٦) على ورود تلك العجائب ، وأخبار المستبعدات وأوصافها في الكتب ، بأن ذلك راجع إلى ولع أصحابها آنذاك بذكرها ، وسذاجة في تصوراتهم ؛ إذ يسارعون في تصديق ما يسمعون ، ويبالغون في تصوير ما يجاوز المعقول ، رغم أنهم لدينا من أهل الثقة والصدق ، ويؤكدون أنهم رأوا وشاهدوا ما يصفون . وذلك كله نابع من إحساس غير صادق ولا دقيق لديهم ؛ رغبة في تشويق السامعين ، ولفت انتباه المتلقين عن نيه حسنة ورغبة ساذجة في المتعة والتسلية . والحق أن ذلك التفسير عام ، ويغلب على ظني أنه لا ينطبق على المقدسى تمام الانطباق ، فلم يكن الرجل يمثل هذه السذاجة ، ثم إنه ينقل لنا ما شاع وذاع في البلد الذي يتحدث عنه ، أو ما طالعه في بعض الكتب ذاكرةً رأيته أحياناً بالموافقة (٢٠٧) ، أو المخالفة (٢٠٨) . وأخيراً فإنني أرى أن هناك حلقة مفقودة في مثل روايات العجائب السابقة ، فمثلاً : من عضه كلب عقور ، لعل ذهابه إلى هذا الدير كان للاستشفاء على يد بعض الرهبان الأطباء طيلة الفترة المذكورة . وقد يكون الماء الذي يموت منه شارب مسموماً ، أودى بحياة بعض شاربيه بعد فترة قصيرة ، فشاع بين الناس خبره . وقد تكون منارة الإسكندرية اخترعت وفق نظام هندسى معين - والإسكندرية مشهورة بعلمائها منذ القديم - بحيث تؤدي الغرض الدفاعي منها . إذا هناك تفسيرات لم ينقب المصنفون عنها ، مكتفين بما سمعوا ، أو قرأوا ، ولعلهم لو دققوا البحث ، واستقصوا الظاهرة ، لتوصلوا إلى نتائج طيبة .

وأخيراً ، فإن المقدسى كان - أحياناً - يأتي بالشئ ، ثم يذكر نقيضه بعد قليل ، فيوقعنا بين أمرين : إما أننا لم نفهم مراده حق الفهم ، فتهم أنفسنا

بالقصور ونتممه بالغموض ، وإما أنه لم يتقح هذا الجزء جيداً ، فأتى على هذا النحو من التضارب والتناقض (كما هو الحال في حديثه عن أهل حمص (٢٠٩) ، وبلدة بيت المقدس (٢١٠) .

٤ - المادة التاريخية : عرض ، وتحليل :

أحاول - خلال الصفحات التالية - رصد المادة التاريخية التقليدية (الأحداث السياسية خاصة) ، التي أوردها في القسم الأول من كتابه : (أحسن التقاسيم) ، فأقوم بعرضها ، والتعليق على ما يتيسر لي منها . ثم بعدها أذكر بمجمل المادة التاريخية غير التقليدية الموجودة في القسم نفسه (بجوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى جانب ملمح من ملامح العلاقات الدولية) ، باعتبارها مادة جديدة وغزيرة ، يصعب رصد كافة جزئياتها ، أو الحكم عليها ، وإنما ثبتت بها مع سابقتها . أن (أحسن التقاسيم) - في شقه الأول - يعد - بحق - مصدراً من مصادر (تاريخ العرب) ؛ إذ يجد فيه الباحثون مادة جديدة في مصدر غير تقليدي (جغرافي في الأساس) ، تعينهم على كتابة تواريخ أقاليم العرب بصورة شاملة متكاملة ما أمكن ، وتسد بعض النقص في مصادر التاريخ المعروفة .

أولاً : المادة التاريخية التقليدية :

(أ) حادثة ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق : ساق المقدسي ذلك الحدث ، وهو يتحدث عن (إقليم شبه الجزيرة) ، وبالتحديد عند تناوله (مكة) ، وأشار إلى إدخال ابن الزبير - قبلها - عشرة من مشايخ الصحابة ، حتى سمعوا من عائشة ما روته عن الرسول ، من أن (الحجر) جزء من (البيت) ، وأن قريشاً لم تدخله في بنائه ؛ لقصور النفقة عن ذلك ، وأن الرسول ﷺ كان يرغب في إعادة بناء الكعبة ، وإدخال الحجر فيها لولا أنهم حديثو عهد بالجاهلية . ومن هنا فإن ابن الزبير أصر على تنفيذ ما كان يتطلع إليه الرسول ، وقد اجتمع الناس وخشوا عاقبة الإقدام على ذلك ؛ خشية أن يحل

بهم العذاب ، لكن ابن الزبير أعاد بناءها على ما حكى عائشة ، وكان فى ذلك الخير وسكن الناس .

فلما قدم الحجاج ، تحصن ابن الزبير بالكعبة ، فأمر الحجاج بوضع المنجنيق على (جبل أبى قبيس) بمكة ، وقال : أرموا الزيادة التى ابتدعها هذا ، فرموا موضع الخطيم ، وتم إخراج ابن الزبير بعد قتله ، فصلب . وأعاد الحجاج الحائط ، كما كان قديماً ، وأخذ بقية الأحجار ، فسد بها الباب الغربى ، ورصف بقيتها فى البيت ؛ كى لا تضيع (٢١١) .

(ب) فى حديثه عن (المدينة) ذكر (جبل أحد) ، وبين أن به موضعاً ، اختبأ فيه النبى ﷺ ، باعتباره أقرب الجبال إلى المدينة (٢١٢) .

(ج) فى (إقليم شبه الجزيرة) ، وعند تناوله مدينة (صحار) ، قال المقدسى : هى قصبة عمان . ثم قال : بها مسجد صحار على نصف فرسخ . ثم (هناك) بركت ناقة الرسول وقد بنى المسجد أحسن بناء (٢١٣) .

(د) (الأحساء) : قصبة هجر (البحرين) . بها مستقر القرامطة من آل أبى سعيد . ثم نظر وعدل ، غير أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدي ، وخزائن أخرى أيضاً ، فبعض الأموال بتلك ، بوقيته فى خزائهم (٢١٤) .

(هـ) أهم حكام شبه الجزيرة : هى أبداً لصاحب مصر ، لأجل الميرة . واليمن . لآل زياد ، وأصلهم من (همدان) . وعلى صنعاء أمير غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ؛ لينخطب له . وربما أخرجت عدن عن أيديهم . وآل قحطان فى (الجبال) ، وهم أقدم ملوك اليمن . والعلوية على (صعدة) ينخطبون لآل زياد . وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى (الأحقاف) أمير منهم (٢١٥) .

(و) فى إقليم العراق : قال المقدسى : هى مستقر خلفاء ولد العباس ، وظل الأمر أمرهم حتى ضعفوا ، وغلب عليهم الديلم . والآن لا يرون ، ولا

يلتفت إلى رأيهم . ثم ذكر خلفاء العباسيين ، وبداية ونهاية حكم كل منهم ، ومكان وفاة بعضهم ، وعدداً كبيراً من قضاتهم . ووصل في الخلفاء حتى (الطائع لله) . ثم قال : وأول من استولى من الديلم : أبو الحسن ابن بويه ، ثم ابنه (مجتبار) ، ثم عضد الدولة ، ثم ابنه بلكارزار ، ثم ابنه الأكبر (أبو الفوارس) (٢١٦) .

(ز) وفي (إقليم الشام) : اكتفى بقوله : والولايات لصاحب مصر ، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه (٢١٧) .

(ح) وفي إقليم (مصر) قال : وأما الولايات ، فللفاطمي (٢١٨) .

(ط) وفي إقليم (المغرب) قال المقدسي : وأما الولايات ، فلم يخطب لغير بني أمية بالأندلس قط .

وأما السوس الأقصى ، فأول من غلب هناك (إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب) ، وذلك أن إدريس أفلت من وقعة من وقعة العباسيين بالطالبيين بـ (فخ) في خلافة الهادي ، وأتى إلى مصر فساعده صاحب بريدها (واضح مولى المنصور) الشيعي ، فحمله على البريد إلى المغرب بـ (طنجة) ، فاستجيب لدعوته هناك . وقام الرشيد في خلافته بضرب عنق (واضح) ، وصلبه . ثم دس إلى إدريس رجلاً ، يدعى الشماخ (مولى المهدي) ، وكتب له كتاباً إلى عامله (إبراهيم بن الأغلب) على إفريقية ، فخرج حتى وصل إلى (زويلة) ، وأعلمهم أنه طيب ، وأنه من أوليائهم . فاطمأن إليه إدريس ، ثم شكاه له علة في أسنانه فأعطاه ما يستن به مسموماً ليلاً ، وأمره باستخدمه عند الفجر . فقتل إدريس ، ولم يلحق بالشماخ ، فولاه الرشيد بريد مقنر (٢١٩) .

*** ملاحظات على ما تيسر من المادة التاريخية التقليدية السابقة :**

١ - المعلومات الواردة مختصرة وسريعة ، فهي لم تقصد لذاتها ، وإنما أتت عرضاً أثناء دراسة الأقاليم الجغرافية الشاملة ، فرأى المقدسى أن يتحدث عن حكام كل إقليم بسرعة ولذلك فهي ليست تاريخاً مفصلاً ، لكنها كتابات طالت شيئاً ما عند خلفاء العباسيين بالعراق ، بينما تضاءلت جداً عند تناول إقليمى (الشام ، ومصر) ، وكأنه اكتفى فيهما بالإشارة إلى القوى التى حكمتها مؤخراً . بينما أتى حديث المقدسى عن حكام (شبه الجزيرة) خالياً من ذكر مواقيت ولاياتهم مقتضياً . وبخصوص المغرب فقد عاد إلى بدايات حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وأشار إلى سيطرة بنى أمية على الأندلس .

٢ - بعض المعلومات التاريخية الواردة تلقى ظلالاً جديدة على بعض الأحداث ، فالحجاج لم يهدم الكعبة ويضربها بالمنجنيق لذات الهدم والتخريب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة ما أحدثه عبد الله بن الزبير من تعديل على بنيانها ؛ نكاية فى خصمه اللدود . ولا شك فى أن الحجاج كان يهدف من الضرب - ايضاً - إجبار ابن الزبير على الاستسلام . وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى : أن الحجاج نصب المنجنيق على (ابى قبيس) ؛ ليضرب ابن الزبير ، وأهل المسجد المتحصنين بالكعبة ، فناها شر حتى مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م (٢٢٠) . ويتفق الطبرى مع هذا القول ، وتزيدنا روايته أن الحصار دام سبعة شهور ، وأن الرعد والبرق أصاباً مكة وبعض جند الشام مع الحجاج ، عندما سلط المنجنيق على الكعبة ، لكن الحجاج طمأن جنده بأن ما أصابهم يصيب عدوهم كذلك : فواصلوا الضرب (٢٢١) .

ويذكر لنا ابن كثير أن حجارة المنجنيق سقطت فى الكعبة ، وأن ابن الزبير قتل فى المسجد الحرام ، ودخلت جيوش الحجاج من أبواب المسجد (٢٢٢) .

ويضيف الطبرى قائلاً : إن الحجاج نقض بنيان الكعبة ، الذى كان بناه ابن الزبير ، لما أدخل الحجر فى الكعبة ، وجعل لها بايين ، فأعادها الحجاج إلى بنائها الأول سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م (٢٢٣) .

٣ - بعض المعلومات المذكورة مخالف للمعروف المتواتر ، فناقرة رسول الله لم تبرك قرب مسجد صحار بعمان وإنما بركت بالمدينة عند دار بنى مالك بن النجار ، وذلك فى مكان مربد لفلامين يتيمن من بنى النجار (٢٢٤) . وكذلك لم يؤثر أن الرسول ﷺ اختبأ فى جبل أحد ، وإنما كان الجبل فى ظهر جيش المسلمين ، ووضع الرسول عليه الرماة ؛ حماية لظهورهم من خيل عدوهم (٢٢٥) . وبخصوص كلام المقدسى عن (القرامطة) ، فمن الواضح الربط بينهم وبين الفاطميين ، لكن غير المفهوم أن يذكر المقدسى أن دولتهم بالبحرين كان بها نظير وعدل ، ولا أدرى كيف يتأتى ذلك وأحكام الشرع معطلة ، وانحرافاتهم على أشدها ، وقد قال المقدسى نفسه : إن الجامع هناك معطل !؟

٤ - بالنسبة لفرار إدريس إلى مصر ، فقد ذكر المقدسى إن إدريس نزل على واضح (مولى المنصور) ، الذى سهل له مهمة الانتقال إلى المغرب . وبالعودة إلى (تاريخ الطبرى) (٢٢٦) . تبين أن (واضحاً) هذا هو (مولى صالح ابن المنصور) ، وأنه كان رافضياً خبيثاً . وقد قال بنسب (واضح) السابق ابن عذارى أيضاً (٢٢٧) ، خلافاً لما قاله المقدسى . ويلاحظ أن المقدسى ذكر أن واضحاً حمل إدريس على البريد حتى نزل به (زويلة) بالمغرب . والصواب ما ذكره الطبرى (٢٢٨) ، وابن عذارى (٢٢٩) : أنه نزل (ليلة) (٢٣٠) . وقد ذكر المقدسى أن الشماخ كوفىء بتوليته بريد مصر ، وهى معلومة صحيحة ، وردت لدى الطبرى (٢٣١) من قبل ، وابن عذارى من بعد (٢٣٢) .

٥ - إذا ألقينا نظرة فاحصة على المادة التاريخية ، التى أوردها المقدسى عن (الخلافة العباسية) ، والحكام الديلم (البويهيين) ؛ فإننا نخرج بعدة ملاحظات على النحو الآتى :

(أ) ورد نسب الخليفة العباسى السفاح فى كتاب المقدسى هكذا : (عبد الله بن محمد بن على بن العباس) (٢٣٣) . وبالعودة إلى الطبرى ، وجدت أن الصواب كالآتى : (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس) (٢٣٤) .

(ب) أسقط المقدسى الخليفة (المهتدى) ، فلم يذكره ، رغم أنه ولى الخلافة بين (المعتز والمعتد) (٢٣٥) ، من شهر رجب سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، حتى عزل وتوفى فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م (٢٣٦) . ومن قبل لم يذكر خلافة (الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ / ٨٠٨ - ٨١٣م ، واكتفى بالإشارة إلى خروج أخيه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) عليه ، وقتله إياه (٢٣٧).

(ج) وقع خلل فى نسبة بعض الخلفاء لمن قبلهم : فمثلاً : قال المقدسى بعد مقتل المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) : فبويع لابنه أبى العباس أحمد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) (٢٣٨) . والصواب : فبويع لعمه (أحمد بن المعتصم) ؛ لأن الأتراك - بعد مقتل المتوكل ، وابنه المنتصر على أيديهم - خشوا أن يلى أحد أبناء المتوكل ، فلا تبقى لهم باقية ، فولوا ابن أستاذهم (أحمد بن المعتصم) (٢٣٩) .

وأيضاً وقع خلط عندما قال المقدسى بعد وفاة المعتد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) :

ثم بويع لابنه أبى العباس (أحمد بن أبى أحمد المعتضد) (٢٤٠) . والصواب : بويع لابن أخيه الموفق : فالموفق يكنى أبا أحمد ، والذى ولى هو ابنه أبو العباس (٢٤١) .

وكذلك وقع خطأ فى قول المقدسى بعد وفاة المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠١ - ٩٠٧م) ، حين قال : ثم بويع ابنه (أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م) (٢٤٢) . والصواب : ثم بويع أخوه (جعفر بن المعتضد بالله) (٢٤٣) ؛ لأن المقتدر والمكتفى أخوان ، فهما ابنا الخليفة (المعتضد) .

(د) بالنسبة لذكر الخلفاء العباسيين : فإننا نلاحظ عدم ذكر قضاة (الأمين، والمهتدي) ، فهماً لم يذكر أصلاً ، ومن ثم لم يشر المقدسي لقضاتهما ، وكذلك لم يشر إلى قضاة الخلفاء : القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣ م ، والراضي ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٣ - ٩٤٠ م ، والمتقى ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م. وأيضاً الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٣ م) (٢٤٤) .

وجدير بالذكر أن المقدسي كان يذكر أكثر من قاض في عهد الخليفة الواحد عند تعددهم ، لكنني أرصد الملاحظات الآتية :

١ - أن الاسم الصحيح لجده قاضي المهدي (محمد بن عبد الله بن علاقة) هو (علاقة) (٢٤٥) .

٢ - أن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ١١٣ - ١٨٣ هـ / ٧٣١ - ٧٩٨ م) قاضي القضاة المشهور لم يكن أحد قاضين ولاهما الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) فقط (٢٤٦) ، وإنما الصحيح : أنه ولي القضاء لثلاثة من خلفاء بني العباس (المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ هـ ، والهادي ، والرشيد ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) (٢٤٧) .

٣ - أن ابن أبي الشوارب (الحسن بن محمد بن أبي الشوارب) كان قاضياً للمعتز ، كما ذكر المقدسي ، لكن الأخير عاد وجعله قاضياً للمعتد (٢٤٨) . وقد وجدت لدى الطبري أن هذا الرجل حبس أواخر عهد المهتدي ، وولي مكانه (عبد الرحمن بن نائل البصري) قضاء سامرا (٢٤٩) .

ثم وجدت له ذكراً ثانياً سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م أيام (المعتد) عند إعطائه نسخه من كتابه ولاية العهد ؛ ليقوم بتعليقه في الكعبة (٢٥٠) . فلعله أعيد للقضاء ثانية . وعلى كل فقد وافته المنية في العام نفسه (٢٥١) .

(هـ) وأخيراً ، فبالنسبة لحكام الديلم ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين إبان ضعفهم فلي عدة ملاحظات هي :

١ - ذكر المقدسى أن أول من استولى من الديلم (أبو الحسن بن بويه ، ثم ابنه بختيار) . والصواب : أول من استولى من الديلم (البويهيين) على العراق هو أبو الحسين بن بويه (٢٥٢) ؛ حتى يصح أن يكون الحاكم بعده ابنه (بختيار) المذكور (٢٥٣) .

٢ - ما ذكره المقدسى عن ولاية (عضد الدولة) (٢٥٤) حكم العراق بعد (بختيار) صحيح . أما ابن عضد الدولة (بلكارزار) هذا ، الذى ولى بعد أبيه ، فلم أقف عليه فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - وبخصوص أبي الفوارس (الابن الأكبر لعضد الدولة) ، فاعتقد أنه هو الذى أشار إليه ابن الأثير ، وقال : هو شرف الدولة أبو الفوارس شيرزىل بن عضد الدولة . ولى العراق سنتين ، وثمانية أشهر ، وأياماً ، وتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (٢٥٥) .

ثانياً : مجمل المادة التاريخية غير التقليدية :

بعد أن استعرضنا المادة التاريخية الواردة فى القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، وكانت تتعلق - فى غالبها - بالجانب السياسى ، ننتقل إلى أبرز معالم المادة التاريخية غير التقليدية ، التى يمكن أن تخدم الباحثين فى مجال التاريخ وهى على النحو الآتى :

١ - فى المجال الاقتصادى : اهتم المقدسى برصد العديد من المظاهر الاقتصادية فى (أقاليم بلاد العرب) كما يلى :

(أ) فى مجال الزراعة : اهتم الرجل بالحديث عن الكثير من النواحي المرتبطة بالمجال الزراعى ، مثل : ذكر الأنهار لموجودة فى الأقاليم الجغرافية ، التى قام بالتعريف بها والتى تروى الأراضى الزراعية عن طريقها ، وكذلك طرق الري المستخدمة كالسدود المقامة على بعض الأنهار (٣٥٦) ، والاستفادة من ظاهرة المد والجزر (٣٥٧) . وأشار - أيضاً - إلى مصادر الري الأخرى ، مثل : الآبار العذبة ،

والعيون ، والبرك العظيمة ، والقنوات (٣٥٨) . ولم يفت المقدسى الاهتمام بالإشارة إلى المقاييس المقامة على الأنهار (٣٥٩) ، باعتبارها خطوة مهمة متقدمة ، تبرز مدى الاهتمام بكمية المياه الواردة إلى الأنهار الكبيرة ، لتوسيع الرقعة الزراعية التى يمكن استغلالها ، وتحقيق عدالة توزيع المياه بين الناس ، وتجنب حدوث الكوارث بالاحتياط لها (٢٦٠) . وأخيراً ، تناول المقدسى بالذكر المحاصيل الزراعية التى تجود زراعتها فى أقاليم العرب المختلفة من حبوب ، وبقول ، وخضراوات ، وفواكه على مختلف أنواعها ، ذاكراً ما تشتهر به المدن المختلفة ، والظروف المناخية ووسائل الري الملائمة لذلك (٢٦١) .

(ب) فى مجال الثروة الحيوانية : أورد المقدسى بعض المعلومات المتصلة بالنشاط السكانى فى أقاليم العرب ، فذكر الخيول ، والأغنام ، والأنعام ، والأسماك ، وبعض أنواع الطيور (٢٦٢) ، إلى جانب الإشارة إلى بعض التماسيح الموجودة فى بعض المناطق (٢٦٣) .

(ج) فى مجال الصناعة : أطلع المقدسى على عدد من الثروات المعدنية التى تحويها أقاليم العرب ، مثل : الذهب والحديد والفضة ، والرخام ، واللؤلؤ ، والمرجان (٢٦٤) . وقد قامت بتلك الأقاليم عدد من الصناعات اليدوية كالمنسوجات والملابس خاصة الثياب الصوفية الرفيعة ، والأردية الملونة ، والستور ، والأنماط (٢٦٥) . وكذلك وجدت صناعة الأرحية ، التى أقيمت على أفواه الأنهار ، وتدار بواسطة المياه (٢٦٦) . وفى البلدان التى راجت فيها زراعة الزيتون ، أقيمت معاصر الزيتون . ويضاف إلى ذلك صناعة الصابون الجيد ، والمكاتل ، والسلاسل ، والسيور الجلدية ، والأقلام والشمع ، والحلوى (٢٦٨) .

(د) فى العمران : أكثر المقدسى من الاهتمام بمظاهر العمران فى أقاليم العرب ، وسجل لنا العديد من شواهد ذلك فى وصف بارع دقيق . ولا شك أن نبوغ جده وعمه فى الفن المعماري كان له تأثيره فى رؤية المقدسى الثاقبة لفنون المعمار فى الأقاليم التى زارها وكتب عنها . اهتم المقدسى فى كتابه بالإشارة إلى

قيام المدن (مثل : بغداد ، وسامرا) ، والعوامل المساعدة على قيامها (بيئية ، وزراعية ، ودينية ، وإدارية ، ومناخية ، ودفاعية وتجارية ، وغيرها) . وكذلك أهتم بإبراز عوامل ضعف المدن وانهارها كتحول مركز الدولة عنها ، وضعف الخلفاء وسوء الإدارة ، وغير ذلك (٢٦٨) . ولا شك في أن المساجد باعتبارها فنوناً معمارية مهمة جذبت انتباه المقدسى بتميزها وفخامتها ، فقام بوصف العديد منها كالسجد الحرام بمكة وتطورات زيادة مساحته (٢٦٩) ، والمسجد النبوى بالمدينة (٢٧٠) ، وبيت المقدس بفلسطين (٢٧١) ، والجامع الأموى بدمشق (٢٧٢) ، وجامع عمرو بن العاص فى مصر (٢٧٣) .

(هـ) التجارة : تطرق المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) إلى ذكر مختلف أنواع الصادرات والواردات المتبادلة بين أقاليم العرب من مصنوعات جلدية ، وغزل ونسيج ، ومواد غذائية ، وجلود ، ومنتجات حيوانية وصناعات معدنية ، وزيتية ، وغيرها (٣٧٤) . ولا شك فى أن الترابط والتكامل كان قائماً بين هاتيك الأقاليم من خلال الأسواق الداخلية ، وشبكة المواصلات البرية الرابطة بين مختلف الأجزاء والبلدان (٢٧٥) ، وكان المقدسى حريصاً على بيانها مع نهاية حديثه عن كل من هذه الأقاليم . ولا شك فى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع بالرخاء ، ويدخل خزينتها أموال طائلة من جراء هذا التبادل التجارى ، إلى جانب مصادر الدخل الأخرى من خراج وجزية وضرائب أخرى (٢٧٦) . ونعتقد ومن خلال الصورة التى نقلها المقدسى - أن الرخاء كان منتشراً فى عدد غير قليل من تلك الأقاليم إذ كانت أسعار السلع رخيصة على نحو ما لمس المقدسى بنفسه ، مثل : أسعار اللحوم ، والتمور ، والتين ، والزبيب ، والأعناب ، والزيتون ، وغيرها (٢٧٧) . وأخيراً ، حوى كتاب المقدسى الكثير عن المكايل والأوزان ، والنقد المستعمل فى الأقاليم العربية التى درسها (٢٧٨) .

٢ - فى الناحية الاجتماعية : سلط المقدسى الأضواء على حياة سكان الأقاليم العربية المختلفة من كافة زواياها بشكل يدعو إلى الإعجاب والانبهار .

فأهتم بالحديث عن عناصر السكان الغالبة على بعض الأقاليم (٢٨٠) وذكر حرفهم وأنشطتهم وأعطانا صورة واضحة لدورهم وأماكن سكنهم ، وعدد سكان الدار الواحدة (٢٨١) . واهتم بدراسة نفسيات شعوب هذه الأقاليم ، وطبائعهم ، وأخلاقياتهم وسلوكياتهم بإيجابياتها وسلبياتها (٢٨٢) . وتعرض أيضاً - للحديث عن عاداتهم وتقاليدهم المتبعة في حياتهم ، وأحوال حماماتهم (٢٨٣) ، والإضاءة في مساجدهم (٢٨٤) . وكذلك اهتم بأزيائهم وملابسهم التي يرتدونها (٢٨٥) ، وبمظاهر احتفالاتهم وأعيادهم (٢٨٦) ، ومستوى معيشتهم (٢٨٧) .

٣ - في الناحية الثقافية : حرص المقدسى على دراسة الأوضاع الفكرية والثقافية بعامة في كافة الأقاليم الجغرافية التي تعرض لها ، فدرس المذاهب الدينية الموجودة ، واتجاهات الفقهاء ، وأحوال الفرق الدينية الموجودة (٢٨٨) ، وعلماء القراءات (٢٨٩) ، ومظاهر الخلافات والصراعات بين أتباع الشيعة والسنة (٢٩٠) ، إلى جانب تركيز الأضواء على أهل الذمة الموجودين في كل إقليم (من يهود ، ونصارى ، ومجوس) (٢٩١) . ويضاف إلى ذلك - اهتمامه بأحوال العلم في الإقليم ومدى توافر حلقاته في المساجد (٢٩٢) . وأخيراً ، فقد كان يركز على بيان الأوضاع اللغوية في الأقاليم (٢٩٣) ، ومدى قوة وازدهار الواقع اللغوي ، وفصاحة ألسن سكانه من عدمها .

٤ - وأخيراً ملمح من ملامح العلاقات الدولية : وتمثل في معلومات جديدة عن تفاصيل عمليات تبادل الأسرى بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، ومراسم الفداء بالشام (٢٩٤) ، وتتبع أحوال هؤلاء الأسرى من المسلمين في القسطنطينية (٢٩٥) .

وبعد فقد انتهينا - بعد هذا التطواف الكبير - من دراسة القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، فبينما موضوعاته ، وأقسام موارده ، ومنهجه في تناول إيجابياته وسلبياته . وأخيراً ، عرضنا وحللنا - ما أمكن - المادة التاريخية التقليدية لديه ، وعرضنا جوانب المادة التاريخية غير التقليدية (اقتصادية ،

اجتماعيا، وثقافيا ، وجانبا من العلاقات الدولية) فى هذا القسم ؛ كى نصل -
فى النهاية - إلى قناعة بأننا أمام مصدر جديد من مصادر تاريخ العرب .

وقد يرى البعض أن هذا المصدر مساعد وغير أصيل فى باب (التاريخ) .
ونرد بأن المهم أنه بمنهج التميز ، وبمادته الموثقة فى ثناياه ، به من المادة التاريخية
الجديدة ربما ما لا نجده فى كتب التاريخ العام الأصيلة . وثمة ملاحظة أخرى ،
وهى أن (أحسن التقاسيم) لم ينقل عنه المؤرخون . والحق أننى وقفت على نقول
منه لدى ياقوت صاحب (معجم البلدان) فى عدة مواضع جغرافية بالطبع (٢٩٦) ،
إذ لم يفتن الأقدمون إلى أهميته التاريخية .

والخلاصة :

١ - أننا أمام باحث جاد ، وجغرافى بلغ أعلى درجة فى وصف البلدان بعد طول
الارتحال (٢٩٧) ، وكثرة الإطلاع ، وهو - أيضاً باحث ناقد يتحرى تمحيص
ما ينقل (٢٩٨) .

٢ - أننا أمام باحث موسوعى الثقافة منهجى التفكير ، استطاع أن يصهر عناصر
ثقافته فى بوتقه مؤلفه ، ونجح فى عرض جغرافى شامل متميز ، حيث تركنا
وكأننا نعيش هذه البلدان ، ونعاصر ما فيها (بعد أن عاجلها من كافة
زواياها) .

٣ - أن الدراسة الشاملة التى قدمها المقدسى أعطتنا نموذجاً عملياً ناجحاً ، ومثلاً
يحتذى فى التأزر والتناسق ، والتعاون والتكامل بين فروع المعرفة ؛ إذ نجح فى
أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية ، فقدم للباحثين المعاصرين
فى مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة ، تسد كثيراً من الثغرات الموجودة فى
كتب التاريخ الأصيلة . ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً
جديداً من مصادر تاريخ العرب .

الهوامش

- (١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس (ط٢ - ١٩٨٦م ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم) ص ١ .
- (٢) أورد له ابن النديم عدة مؤلفات ، يمكن - من عناوينها - أن نعلمها فى كتب الجغرافية مثل : (كتاب البلدان الصغير) ، و (كتاب البلدان الكبير) ، و (قسمة الأرضين) و (كتاب الأقاليم) . (الفهرست ، ط . دار المعرفة - بيروت) ص ١٤٢ .
- (٣) راجع ترجمته فى (معجم الأدباء) لياقوت (ط٣ - دار الفكر ١٩٨٠م ، ١٥٤/٥) .
- (٤) راجع ترجمته المفصلة الواردة فى (المصدر السابق) ٦٤/٣ - ٦٨ ، وكذلك دراسة كراتشكوفسكى عنه فى كتابه : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م) ١٩٧ - ١٩٩ (من الترجمة العربية لصالح الدين عثمان هاشم) .
- (٥) راجع الدراسة التى كتبها كراتشكوفسكى عنه فى (المرجع السابق) ١٩٩/١ - ٢٠١ . وتجدر الإشارة إلى أن مصنف الاصطخرى (المسالك والممالك) قد نشر فى سلسلة (تراثنا) ، التى كانت تصدرها (وزارة الثقافة والإرشاد القومى) بالقاهرة ، بتحقيق : دكتور محمد جابر الحينى سنة ١٩٦١م .
- (٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٧/١ .
- (٧) كذا ضبط النسبة ابن خلكان فى (وفيات الأعيان ، طبعة دار صادر ، تحقيق د. إحسان عباس) ج٣ ص ٢٩٢ ، وجعل النسبة إلى (بيت المقدس) . وكذا ذكر السمعانى فى (الأنساب ، ط دار الجنان - بيروت) ج٥ ص ٣٦٣ ، زاد قائلاً بلدة (بيت المقدس) هى البلدة المشهورة ، التى ذكرها الله فى القرآن فى غير موضع ، وبها المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والمواضع الشريفة ، وإليها قبله المسلمون سبعة عشر شهراً أول مقدم الرسول المدينة .
- وتجدر الإشارة إلى وجود صيغة أخرى لهذه النسبة هى (المقدسى) . وقد أشار بروكلمان إلى استخدام (دى غويه) لهذه الصيغة فى نشرته لكتاب (أحسن التقاسيم) .

ويضيف بروكلمان أن هذه ربما كان المقدسى نفسه يستخدمها ، بدليل ما ورد فى قصيدة له فى نهاية كتابه (ص ٣٧٢ ، ط . دار إحياء التراث العربى) ، حيث وصف كتابه بأنه (حكمة مقدسة) . (تاريخ الأدب العربى ، طبعة الهيئة العامة ، القسم الثانى ص ٦٦١ ، هامش ١) . والحق أن هاتين الكلمتين وردتا متفرقتين فى آخر بيتين من القصيدة المذكورة . لكنى أرى أن هذا التخريج بعيد . والصواب لدى أن كلتا الصيغتين صحيح ، فالمقدسى نسبة إلى (بيت المقدس) ، أى : البيت المطهر الذى يتطهر به من الذنوب . و (المقدسى) : نسبة إلى (البيت المقدس) ، أى : المبارك ؛ لأن القدس تعنى البركة . (راجع مادة : القدس فى (معجم البلدان) لياقوت ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) (١٩٣/٥ - ١٩٤ ، و (لسان العرب) لابن منظور (ط . دار المعارف) ، مادة (ق. د. س) ج ٥ ص ٣٥٥٠ ، و (المعجم الوسيط ، ط ٢ - مجمع اللغة العربية) ج ٢ ص ٧٤٦ .

- (٨) كشف الظنون ، لحاج خليفة (طبعة دار العلوم الحديثة - بيروت) ١٦/١ .
- (٩) ورد لقبه هذا فى (معجم البلدان) لياقوت ١٩٦/٥ ، لكنى لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لى من معاجم اللغة ، ومصادر الأنساب .
- (١٠) أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ .
- (١١) جعله د. فلاح شاکر والد المقدسى ، لا جده . (المقدسى ، طبعة دار الشؤون الثقافية - بغداد ص ٧) . والصواب ما أثبت بالمتن .
- (١٢) قال عنها المقدسى : مدينة حصينة على البحر يبلد الشام ، كبيرة الجامع ، وبه غابة زيتون . وتم تحصينها فى عهد (أحمد بن طولون) بعد زيارته لها . (أحسن التقاسيم ص ١٤٢) .
- (١٣) المصدر السابق .
- (١٤) السابق : ص ٣٣٥ . وأرى أن سفر المقدسى ، وترحاله الطويل مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، إلى جانب ما عرفنا عن مكانة جده ، وامتلاك والده الغلمان ، كل ذلك يجعلنى أميل إلى جعل أسرته فى مصاف الأثرياء ، خلافاً لما رآه محرر مادة (المقدسى) من أن أسرته من الطبقة المتوسطة .

(M. Miquel : AL - Muk addasi, Published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492).

(١٥) أحسن التقاسيم : ص ٥٣ .

(١٦) كذا ضبطها ياقوت بالحروف ، وقال : هى كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طيرستان ، وأكبر ما يكون فى ولاية ملكها قصبتها مشهورة هى (مامغان) ، ومن مدنها المشهورة (ييار) . (معجم البلدان ٤/٤٧٠) .

(١٧) أحسن التقاسيم ص ٢٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٦١ .

(١٩) السابق ص ٢٣ (أيام دولة أمير المؤمنين أبى بكر عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣ - ٣٨١هـ) فى المشرق ، وأبى منصور نزار العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أمير المؤمنين بالمغرب) .

(٢٠) وقد نص على ذلك كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ج ١ ص ٢٠٩ ، ود. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ٧ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A vol. 7, 1985, P. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (946) . وبناء على ما تقدم ، فإن تحديد الزركلى ، وكحالة تاريخ ميلاد المقدسى بـ (سنة ٣٣٦هـ) تنقصه الدقة (الأعلام ، ط ٩ ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٩٠م) ٣١٢/٥ ، ومعجم المؤلفين (ط . مؤسسة الرسالة) ٥٢/٣ .

(٢١) الأعلام ٣١٢/٥ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492.

(٢٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢١٠ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985, p. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (1000) .

(٢٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مونس ص ١٠ .

(٢٤) المقدسى ، للدكتور فلاح شاكر ص ٨ .

(٢٥) والشيء نفسه يمكن أن يقال رداً على أن المقدسى توقف فى ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبى الفوارس بن عضد الدولة) المتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (الكامل لابن الأثير ، ط. دار الكتب العلمية) ص ٧ ص ٤٣٦ .

(٢٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York) , vol.7, 1993, p. 493.

(٢٧) أحسن التقاسيم ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢١٥ .

(٣٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ١٠ .

(٣١) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ . والملاحظ أن كلمة (نسيج) الواردة فى النص قد حرفت إلى (تسبح) ، ولم يصوبها المحقق (د. محمد مخزوم) . ومن قبل قراها كراتشكوفسكى (تسبح) ، كما ورد فى الأصل ، لكن المترجم صوبها . (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١١/١ (راجع الهامش) .

(٣٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣٣) هو كراتشكوفسكى فى كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٥/١ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ص ٢١ .

(٣٥) تمام الآية : (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . (سورة الأنعام ٦ الآية ١١) .

(٣٦) تمة الجملة من الآية : (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . (سورة يوسف ١٢ / من الآية ١٠٩) .

(٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

(٣٨) لما أخذه على السابقين نقلهم الكثير عن كتب سبقتهم (كما هو الحال في احتواء كتاب الجيهااني على جميع أصل ابن خرداذبه) . (راجع المزيد عن ذلك في المصدر السابق ، والصفحة نفسها) .

(٣٩) مثل قوله عن (ابي زيد البلخي) في أحد المواضع : أما أبو زيد ، فهو إمام في هذا العلم ، خاصة في إقليمه . (السابق ص ٧٣) .

(٤٠) السابق ص ١١٣ .

(٤١) السابق ٢٠٨ .

(٤٢) السابق ص ٩٣ .

(٤٣) السابق ص ٣٧٢ .

(٤٤) السابق ص ١٦ - ١٧ . ويمكن مراجعة المزيد عن كثرة رحلاته ، والبلدان التي حل بها حتى نسب إليها (ص ٤٩ - ٥١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩١ - ٩٢ ، ٩٥) .

(٤٥) يرى الدكتور مؤنس أن الرحلة في ذاتها لم تكن من مواضع الفخر في تلك العصور . ثم يستثنى قائلاً : اللهم إلا إذا كانت رحلة حج ، أو رحلة لقاء شيوخ ، وسماع منهم (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) ص ٤١٧ . وفي ص ٣٢٤ : يرى أن هذه الرحلات كانت جزءاً من ذلك النزوع العلمي ، الذي ملأ قلوب أمة العرب في عصور النشاط والازدهار العلمي .

والحق أنني إذا كنت أوافق على الشطر الأخير من كلامه ، فلأن لي تحفظاً على شطره الأول ؛ لأن تجشم مشاق الحج آنذاك بما كان يكتنف رحلاته من مخاطر جمة لم يكن - أيضاً - دافعه الفخر . والشئ نفسه يقال عن رحلات طلاب العلم ، وإذا كان بعضهم يذكر كثرة رحلاته وشيوخه ، فلأن ذلك مرتبط بوثاقة الرواية عموماً ، ورواية الحديث النبوي على وجه الخصوص ، اللهم إلا إذا وجد كذابين مدلسون ، فهذا موضوع آخر .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤٧) سوف أغفل الحديث عن (ثقافته التاريخية) ؛ لأننى سأتناولها فى مبحث خاص بها فى نهاية البحث ، حيث يتم رصد ما يتيسر لى من (المادة التاريخية التقليدية ، وغير التقليدية) فى القسم الأول من الكتاب الذى ندرسه (أحسن التقاسيم) .

(٤٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢١٤ .

(٤٩) أحسن التقاسيم ص ١٥ .

(٥٠) المصدر السابق ص ١٦ .

(٥١) السابق ص ١١٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً نقول : كر كر فلاناً عن الشيء : دفعه ورده وكر كر الشيء : أعاده مرة بعد أخرى . (اللسان ، مادة : ك . ر . ر) (٣٨٥٢/٥ ، والمعجم الوسيط (مادة : ك . ر . ر . ك) ٨١٥/٢ .

(٥٢) احسن التقاسيم ص ١٤٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً وجدت أن الهواء السجسج هو المعتدل الطيب ، والأرض السجسج لا سهلة ولا صلبة . والجمع : سجاسج (اللسان ، مادة : س . ج . س . ج) ج٣ ص ١٩٣٩ ، و(المعجم الوسيط ، مادة) س . ج . س . ج (ج) ٤٣٣/١ .

(٥٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٨ . وديار معناها : أحد . نقول : ما بالدار ديار . قال الله (تعالى) : ﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (سورة نوح : ٧١ الآية ٢٦) . راجع المعنى اللغوى فى (اللسان ، مادة : د . و . ر) ج٢ ص ١٤٥٢ ، و(المعجم الوسيط) ٣١٣/١ .

(٥٤) أحسن التقاسيم ص ٩٤ .

(٥٥) راجع المصدر السابق ص ٧٩ .

(٥٦) هناك شعر يحفظه ويرويه (راجع السابق ص ١٤٠) ، إلى جانب شعر نظمته فى كتابه (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) وفيها تختلف الأسماء المطلقة على المدلول الواحد (مثل : لحام ، وحزار ، وقصاب - وقطة ، وهرة ، وسنور) (السابق ص ٣٩) .

- (٥٨) راجع السابق ص ٣٥ - ٣٩ تحت عنوان : (ذكر الأسماء واختلافها) .
- (٥٩) السابق ص ٣٥ .
- (٦٠) السابق ص ٣٥ - ٣٦ .
- (٦١) السابق ص ١٢٦ .
- (٦٢) السابق ص ١٧٢ .
- (٦٣) السابق ص ٤٦ .
- (٦٤) الحديث فى (السابق) ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٦٥) راجع فى (السابق) ص ٧٩ - ٨٠ .
- (٦٦) راجع هذه الأحاديث فى (السابق) ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٦٧) راجع السابق ص ٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .
- (٦٨) السابق ص ٤٣ .
- (٦٩) السابق ص ٤٠ .
- (٧٠) السابق ص ٤٤ - ٤٧ .
- (٧١) السابق ص ٧٨ ، ١٦٠ - ١٦١ .
- (٧٢) كحديثه عن فرائض ، وواجبات ، وسنن الحج عند حديثه عن (مشاهد مناسك الحج) .
- (السابق ص ٨٠) .
- (٧٣) اعتمدت فى دراسة هذا القسم من ذلك المصدر على طبعة (دار إحياء التراث العربى) - بيروت ، ١٩٨٧ ، بتقديم ، وهوامش ، وفهارس : (د. محمد مخزوم) .
- (٧٤) السابق ص ١٥ - ١٧ .
- (٧٥) السابق ص ١٩ - ٧٢ .
- (٧٦) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ٧٣ - ١٠٢ .

- (٧٧) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٠٣ - ١٢٠ .
- (٧٨) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٢١ - ١٣٢ . قال المقدسى فى تعريفه ص ١٢١ : منطقة واسطة بين العراق ، والشام ، ومنازل العرب فى الإسلام . وقال عنها ياقوت : اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة - بين الموصل والفرات - بأسرها . (معجم البلدان) ٢٨٢/١ . ويبدو أن مترجم كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) اعتمد على (ياقوت) فى تعريفه ؛ إذ قال : (أقور ، أو أثور : منطقة شمال العراق ، أى : الجزيرة) . المرجع السابق ٢١٤/١ بالهامش .
- (٧٩) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٣٣ - ١٦٤ .
- (٨٠) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٦٥ - ١٨٢ .
- (٨١) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٨٣ - ٢٠٤ (وفيه جمع بين المغرب والأندلس) .
- (٨٢) يمتد الكلام على هذا الإقليم (وهو بادية الشام) من ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .
- (٨٣) بين هذه الأقسام الثلاثة كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٣/١ - ٢١٤ ، وعنه نقل - دون إحالة عليه - د. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ١١ .
- (٨٤) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ .
- (٨٥) وهذا يدل على رغبة أصيلة لدى المقدسى فى أن يجعل كتابه على غير منوال سابقه ، ومثالاً للدقة والأمانة العلمية ، خلافاً لنقل الجيهانى كتاب (ابن خرداذبه) ، ونقل ابن الفقيه كتاب (الجاحظ) ، وغيره . (راجع المصدر السابق ص ١٩٩) .
- (٨٦) راجع السابق ص ٤٩ .
- (٨٧) وذلك فى رواية تتصل بأمر معاوية بن أبى سفيان حمل منبر المسجد النبوى إلى جانب المحراب كسائر المنابر ، وما ترتب على ذلك (السابق ص ٨٢) .
- (٨٨) فى رواية تتصل بآثر ريح الشمال والجنوب فى حياة السكان بالبصرة (السابق ص ١١٢) .

(٨٩) فى روايتين تتعلق إحداهما بتماسيح مدينة القسطنطين ، والأخرى بوضع طلسم ؛ لئلا يغلب ماء البحر على ارض مصر (السابق ص ١٧٩) . والطلسمات جمع طلسم ، وهو - فى علم السحر - خطوط وأعداد ، يزعم أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ؛ لجلب محبوب ، أو دفع أذى . وهو لفظ يونانى لكل ما هو غامض مبهم كالألفاظ والأحاجى . (المعجم الوسيط ٥٨٢/٢) .

(٩٠) فى رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المنصور على مدينة السلام ، وأجرة بعض العمال (أحسن التقاسيم ص ١٠٨) .

(٩١) عن مقادير غلة ارض السواد بالعراق (السابق ص ١١٨) .

(٩٢) حول مقدار ما أنفق على جامع دمشق (السابق ص ١٤٠) .

(٩٣) حول خراج اليمن ، وتقسيمها الإدارى (السابق ص ٩٨) .

(٩٤) حول خراج قنسرين ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين (السابق ص ١٦٣) .

(٩٥) حول خراج الحرمين ، واليمن ، واليمنية ، والبحرين ، وعمان (السابق ص ٩٨) .

(٩٦) حول دخل مصر (السابق ص ١٨٠) .

(٩٧) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ، ثم الحجاج ، ثم ولد العباس (السابق : الصفحة نفسها) .

(٩٨) هو أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى . من بلاد أرمينية من الثغور . كان معلم أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه ، ثم نادى بهما . وكان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً ، كثير الحفظ . ذكر محمد بن إسحاق النديم أنه كان حياً فى عصره (سنة ٣٧٧هـ) ، وترك كثيراً من أخلاقه لما علت سنه . (راجع ترجمته فى : الفهرست ص ٢٢٠ ، ومعجم الأدباء ١٤/٢٤٠ - ٢٤٤) . ويلاحظ أن (الشمشاطى) حرفت إلى (السميشاطى) فى (الفهرست ص ٢٢٠) . والراجع ما ورد فى (معجم البلدان) ج ٣ ص ٤١١ ، حيث قال : شمشاط (وضبطها بالحروف) غير (سميشاط) بمهملتين ، وإن كانت كلتاهما على الفرات ، إلا أن التى ينسب إليها هذا المؤرخ تقع فى طرف أرمينية ، والأخرى من أعمال الشام .

(٩٩) للشمشاطى مؤلفات عديدة ذات طابع أدبى ، منها : (أخبار أبى تمام والمختار من شعره) ، و (أخبار أبى نواس والمختار من شعره) . (الفهرست ص ٢٢٠ ، ٢٢٨) .
وقد اشار ابن النديم فى (المصدر السابق) ص ٣٢٧ ، إلى أن الشمشاطى أحد من اختصر (تاريخ الطبرى) ، وحذف أسانيده . وأرجح أن النص الذى اقتبسه المقدسى من (تاريخ الشمشاطى) هنا ، ويتعلق باستقدام المنصور ذوى الخيرة والكفاءة عند بناء بغداد، اقتبسه من (تاريخ الطبرى) بشىء من التصرف والتجميع والتنسيق ، ويمكن التحقق من ذلك بمقارنة ما ورد فى (أحسن التقاسيم) ص ١٠٨ - منقولاً عن (تاريخ الشمشاطى) - بما جاء فى (تاريخ الطبرى ، ط . دار المعارف بالقاهرة) ج٧ ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٥٢ .

- (١٠٠) حول مقدار مسيرة الدنيا (أحسن التقاسيم) ص ٦٩ .
(١٠١) حول معنى البصرة لغوياً (المصدر السابق) ص ١٠٦ .
(١٠٢) حول سؤال الخضر ملكاً من الملائكة عن ظاهرة المد والجزر . (السابق ص ٢٦) .
(١٠٣) فى رواية تدور حول نقاش دار بين المقدسى ، وهذا القاضى عن عالم بغدادى (السابق ١٠٩ - ١١٠) .
(١٠٤) حول قبر يوسف بالشام (السابق ص ٥٢ - ٥٣) .
(١٠٥) حول بناء جامع فى الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (السابق ص ١٤٣) .
(١٠٦) حول ذكاء رجل ، وصف دير شمويل بالشام لأحد الملوك وصفاً ، نقره من السيطرة عليه . (السابق ص ١٦١) .
(١٠٧) حول مكانة قرطبة ، وصفتها (السابق ص ١٩٢) .
(١٠٨) ذيل بها للمصدر حديثاً مطولاً عن (للذهب فى الأندلس) (السابق ص ١٩٥ - ١٩٦) .
(١٠٩) فى رواية تتصل بحج الخليفة المنصور ، وتوسيع المسجد الحرام بعد شراء دوره المجاورة له بمكة ، ودور أبى حنيفة فى حل إشكال فقهى وقع آنذاك . (السابق ص ٧٧ - ٧٨) .
(١١٠) فى رواية عن خراج مصر ، وحوار بين المقدسى ، والمصدر الذى روى عنه حول هذا الشأن . (السابق ص ١٨٠ - ١٨١) .

(١١١) فى روايات متابعة حول الخضاء وكيفيته لدى الروم ، وحديث عن العبيد والصقالبة بالأندلس (السابق ص ٢٠٠) .

(١١٢) راجع هذه الروايات بأسانيدھا فى (السابق) ص ٢٨ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ (بها روايتان) ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١ .

(١١٣) راجع (السابق ص ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٧٦ .

(١١٤) فى رواية حول مغارة ، ترجع إل عهد قوم موسى ، وتعد من عجائب إيليا (السابق ١٥٩) .

(١١٥) السابق ص ١٢٩ ، ١٤٧ (روايتان) ١٤٩ ، ١٧٩ .

(١١٦) السابق ص ٦٢ .

(١١٧) السابق ص ٨٤ .

(١١٨) السابق ص ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ .

(١١٩) السابق ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس : أنها جنات) ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ،

١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .

(١٢٠) السابق ص ١٢١ .

(١٢١) يحكى عن سفيان بن عيينة رواية عن تشجيع وتأيد عزم العزب الذى يريد الزواج والمريد

الذى يسأل الحج وليس معه زاد ؛ لأنه حق على الله أن يعينهما (السابق ص ٢٠٨) .

(١٢٢) حكى لى عن بعض الزهاد (رواية عن تيسير الله الحج لمن أراد) ص ٢٠٨ .

(١٢٣) السابق ص ٢٦ .

(١٢٤) السابق ص ٩٠ .

(١٢٥) وحدثونا عن ابن عباس (رواية عن وصف الساهرة أرض القيامة) ص ١٤٧ .

(١٢٦) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٦٥ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك ، طبعة صورتها ، ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه) لابن خرداذبه ص ٨٩ .

(١٢٧) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ١٦٣ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ (بترتيب ذكر البلدان الواردة) .

(١٢٨) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٢٩) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (كتاب الخراج) لقدامه ابن جعفر المنشور بقيته بعنوان : (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) فى طبعة (صورتها . ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه ، ملحقة بكتاب ابن خرداذبه فى مجلد واحد) ص ٢٥١ .

(١٣٠) راجع (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٣١) أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

(١٣٢) المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ص ٧٥ .

(١٣٣) العواصم : جمع عاصم ، وهو المانع . وهى اسم ناحية ، وليس موضع بعينه يسمى (العواصم) . وهى حصون موانع بين حلب وأنطاكية أكثرها فى الجبال ، وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس . وقصبتها أنطاكية . (المسالك والممالك للاصطخرى) ص ٤٦ ، و (معجم البلدان لياقوت ح ٤ ص ١٨٦) .

(١٣٤) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها . وتجدر الإشارة إلى أن (الاصطخرى) ممن يجمعون بين (قنسرين ، والعواصم) ، ويضيف إليهما (الثغور) ، فيقول : (جند قنسرين والعواصم والثغور) . (المسالك والممالك) ص ٤٣ .

(١٣٥) قنسرين : كورة بالشام منها مدينة حلب ، وهى عامرة أهلة بالسكان ، تقع على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات . وظلت كذلك حتى غلب الروم على مدينة حلب سنة ٣٥١هـ ، وقتلت من كان بضواحيها ، ففر أهل قنسرين ، وتفرقوا فى البلاد ،

فغير بعضهم القرات ، وآخرون نقلهم سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من
بقي من أهلها . (المسالك والممالك للاصطخري ص ٤٦ ، ومعجم البلدان لياقوت
(٤٥٨/٤) .

(١٣٦) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها .

(١٣٧) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٨٠ ، وقارنه بـ (الخراج) لقدامة بن جعفر ص ٢٥١ .

(١٣٨) ولعل مما يقوى هذا المنطق أن المقرئ يذكر بعض ولاية الإسكندرية في العصر
الإسلامي (مثل : محمد بن هبيرة سنة ١٩٩هـ) . (الخطط ، نشر : مكتبة الثقافة
الدينية) ج ١ ص ١٧٢ ، و(معاوية بن عبد الواحد سنة ٢١٦هـ) . (المصدر السابق
١٧٣/١ - ١٧٤) . وتري د. سيدة الكاشف أن المدن الساحلية ، وغيرها من المناطق
البعيدة كان يولى عليها حاكم ، يعينه الأمير أو الخليفة مباشرة (مصر في عصر
الإخشيديين ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب) ص ١٦٩ . والظاهر أن هذا الوضع تمتعت به
الإسكندرية حتى تولية أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) الأعمال
الخارجة عن قصبة مصر (الفسطاط) ، ومنها الإسكندرية التي كان يتقلدها (إسحاق
ابن دينار) ، ثم أقره عليها سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩ م) (الخطط ٣١٤/١ - ٣١٥) .
وأخيراً ، فإن مقدار الدخل الخاص بمصر والإسكندرية الذي نقله إلينا المقدسي عن (قدامة
ابن جعفر) ، إنما يرجع - في الأساس - إلى ما وجد من وثائق الأوضاع المالية في
الخلافة العباسية بدءاً من سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩ م ، لأن الدواوين السابقة على ذلك أحرقت
في الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون (سنة ١٩٧هـ / ٨١٢ م) . (الخراج) لقدامة
ابن جعفر ص ٢٢ - ٢٣٧ . وهذا يعنى أنها قوائم الخراج الخاصة بعصرى المأمون
والمعتصم (من خلال السياق العام لكلام قدامة) . (الخراج والنظم المالية للدولة
الإسلامية) للدكتور الرئيس (طه - ١٩٨٥ ، دار التراث بالقاهرة) ص ٤٩٤ . وهذه
الفترة - أي ما كانت - سابقة على حكم ابن طولون ، فيكون للإسكندرية فيها وال
خاص بها ، ودخل خاص بها .

(١٣٩) كما في رواية تذكر أن من زار مسجد يونس بإقليم (أقور) سبع مرات ، فلأنهن
يعدلن حجة (أحسن التقاسيم) ص ١٢١ .

(١٤٠) كما فى (المصدر السابق) ص ١٢٩ (بخصوص عين يونس فى إقليم أقور ، يزعمون أن يونس خرج منها ، ويستشفى بمائها من البرص .

(١٤١) كما فى (السابق) ص ١٧٦ (عن عروس النيل فى مصر ، وأسطورة إلقاء فتاة بكر فيه ؛ ضمناً لجريانه) .

(١٤٢) مثل : سؤاله بعض المصريين فى بخارى عن خراج مصر (السابق ص ١٨٠) .

(١٤٣) كسؤاله بعض الروم عن الخصاء وكيفيته (السابق ص ٢٠٠) .

(١٤٤) مثل : عريب الخادم ، وعرض كلام عريب هذا على أحد الثقات لديه . (السابق : الصفحة نفسها) .

(١٤٥) كرحلاته إلى (مدينة زيد باليمن) . (السابق ص ٨٥) ، ورحلته إلى عدن (ص ٩٤ - ٩٥) ، وبغداد (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، وجبل لبنان بالشام (ص ١٦٢) .

(١٤٦) مثل : تجواله بالبصرة ، يعاين حديث الناس بعضهم إلى بعض ، يقررون حالة فى بلادهم يعايشونها (حديث الرجل إلى صاحبه فى البصرة عن دور ربح الشمال فى تلطيف الجو عندهم ، وسوء حالهم فى ظل ربح الجنوب) . (السابق ص ١١٢) . وكذا ما ذكره عن مسحه بادية الشام يمينا وشمالا ، وشرقا وغربا (ص ٢٠٤) .

(١٤٧) مثل : جوبانه المحيط الهندى أكثر من مرة ، ومطالعة المقدسى الخرائط النظرية التى معه للتوضيح ، ومعرفة مواقع البلدان ، ومقارنتها بالخرائط العملية الموجودة مع إمام التجار (أبى على بن حازم) فى البحر ، ومجالسته ، حيث تجوب مراكبه هذا المحيط أبداً . (ص ٢٤ - ٢٥) .

(١٤٨) على رأس أنواع المشاهدة ما يتصل برؤية (المشاهد الأثرية) ، تلك التى رصدها المقدسى بدقة من واقع زيارته الميدانية لأقاليم العرب ، وكأنه يضع أمام المؤرخين صورة للأماكن الأثرية ، التى تفيدهم زيارتها فى دعم كتابتهم التاريخية عن أحداث هذه البلدان . (راجع ذلك فى صفحات ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، مثل : أثر قدم إبراهيم (عليه السلام) ، ومكان مولد الرسول ، ودار خديجة ، وقبور طلحة والزبير وعلى) .

(١٤٩) وذلك فى البلدان التى لم يزورها المقدسى ، مثل : بلاد الأندلس ، التى عرضها - باختصار - مختلطة بإقليم المغرب ، معتمداً على النقل والسؤال . (ص ١٨٣) .

(١٥٠) السابق ص ١٥ .

(١٥١) السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٥٢) السابق ص ٤٩ .

(١٥٣) هناك غموض يعترى هذه الشخصية السياسية الجغرافية فى آن . وقد اختلف حول اسم هذا العالم ، فبينما ياقوت يسميه فى موضع بـ (أحمد بن محمد بن نصر الجيهانى) ، ويكنيه بـ (أبى عبد الله) . (معجم الأدباء) جـ ٤ ص ١٩٠ ، ويسبقه إلى ذلك ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٧ ، فإن صاحب (معجم الأدباء) يعود ثانية فى حـ ١٧ ص ١٥٦ - ويسميه (محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى ، ويكنيه الكنية نفسها) . وقد تبع التسمية الأولى بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) القسم الثانى ص ٦٥١ . أما كراتشكوفسكى ، ود . حسين مونس فقد تبعاً التسمية الأخيرة (تاريخ الأدب الجغرافى ٢١٩/١ ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٩٦ ، وإن لقبه بالجيجانى ، أو الجيانى ، وهو ما انفرد به دون غيره) . والراجع - عندى - التسمية الأخيرة ؛ لمجيئها فى مصادر أخرى ، ألفت لنا بعض الأضواء على حياة هذا الرجل ، كما سنرى .

وحول التعريف بهذا الرجل ذكر بروكلمان أنه وزير (نصر بن أحمد بن نصر السامانى ٢٦١ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٤ - ٨٩٢ م) . (تاريخ الأدب العربى ، القسم الثانى ص ٦٥١) . واعتقد أن بروكلمان نقل ذلك عن ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٨ ، وكذلك عنه نقل ياقوت فى (معجم الأدباء) ١٩٠/٤ . ولى ملاحظتان حول هذه المعلومة : الأولى : أن نسب الأمير المذكور الصحيح هو (نصر أحمد بن أسد بن سامان) أول حكام الدولة السامانية (راجع تاريخ الطبرى ٥١٤/٩ ، والكامل ٥٣/٦) ، وفيات الأعيان ١٦١/٥ ، ونهاية الأرب للنويرى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) جـ ٢٥ ص ٣٣١) .

والثانية : أن الجيهاني كان وزيراً للأمير نصر الثاني (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان ٣٠١ - ٣٣١ هـ) . وقد لعب الجيهاني دوراً مهماً في عهد ذلك الأمير الصغير ، الذي ولي بعد مقتل والده ، وهو ابن ثمانى سنين ، فتولى أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني تدبير الدولة ، فأمضى الأمور ، وضبط المملكة ، واتفق هو وحشم والد الأمير (نصر بن أحمد) على تدبير المملكة . (معجم الأدباء ١٥٧/١٧ ، والكمال ٤٧٩/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤١ - ٣٤٢) . هذا وقد ورد ذكر الجيهاني في (أحداث سنة ٣٠٢ هـ) ، عندما خلص من الأسر رجلاً يدعى (الحسين بن علي) في بخارى ، أثناء فترة الصراعات المحتدمة ؛ مما أعاد هذا الرجل إلى الطاعة (الكامل ٤٨٥/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤٤) . ولا نجد ذكراً - بعد ذلك - للجيهاني ، لا ندرى تاريخ وفاته ! غير أنى وجدت في (معجم الأدباء ١٩٢/٤) ، وفيما نقله عن كتاب محمد بن سليمان (فريد التاريخ في أخبار خراسان) : أن الجيهاني كان على وزارة نوح بن منصور ، ثم صرفت عنه الوزارة في (شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧ هـ ، ووليها أبو الحسين عبد الله بن أحمد العنبي) . فلتن صرح هذا الخبر ، فيكون الجيهاني توفي بعد السنة المذكورة ، لكن يحترز من ذلك بأنه لم يرد له ذكر في فترة تحكم هذا الأمير (نوح بن منصور) (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ - ٩٩٧ م) ، والذي ذكر هو الوزير العنبي الذي قتل سنة ٣٧٢ هـ (نهاية الأرب ٢٥ / ٣٥٩) ، بالإضافة إلى امتداد حياة الرجل - بناء على ذلك التاريخ - فترة طويلة ، خاصة أن الراجح أنه ألف كتابه (المسالك والممالك) المذكور في الفهرست ص ١٩٨ م ، ومعجم الأدباء ١٩٠/٤ - بين عامي (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ، ٢٩٥ / ٩٠٧ م) ، بناء على صلاته بالجغرافيين الآخرين . ونقلهم عنه (مثل : ابن خرداذبة المتوفى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) . (تاريخ الأدب الجغرافي ٢٢١/١) .

(١٥٤) أحسن التقاسيم ص ١٩ - ٢٠ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(١٥٦) قال بذلك كراتشكوفسكى في (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ج ١ ص ٢١٠ .

(١٥٧) راجع المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٦٢ .

(١٥٨) السابق ص ١٧ .

(١٥٩) السابق ص ٢٣ .

(١٦٠) السابق ص ٢١ (وبها أمثلة ضربها للتوضيح) .

(١٦١) السابق ص ٢٢ (وقد علل ذلك بعلة ، تذكرها عند تناول وضوح شخصيته) .

(١٦٢) السابق : الصفحة نفسها .

(١٦٣) السابق ص ٢٣ .

(١٦٤) من ذلك قوله : (وهذا مثاله وشكله ، هذا شكله ومثاله ، وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة . (راجع صفحات ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٨٣) ولعل خرائط المقدسى المشار إليها تفوق تلك الخرائط النظرية ، التى أشار إليها د. حسين مؤنس ، والموجودة لدى الخوارزمى وغيره من الرحالة الجغرافيين (كأبن حوقل) ، تليد التى كانت لمجرد التوضيح ، وبيان مواقع البلاد بالنسبة لبعضها دون تدقيق ، ولمجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ص ٢٦٧ .

(١٦٥) أبو حنيفة فقيه عراقى ، فناسب ذلك ذكر مذهبه فى (إقليم العراق) ، وقد ذكره بالفعل (راجع أحسن التقاسيم) ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٦٦) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٦٧) فهى القراءة المختارة فى ذلك الإقليم (راجع السابق) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢١١ .

(١٦٩) أحسن التقاسيم ص ٢٢ .

(١٧٠) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) السابق ص ٧٣ .

(١٧٢) السابق ص ١٣٤ .

(١٧٣) السابق ص ٦٥ .

- (١٧٤) السابق ص ١٠٥ .
- (١٧٥) السابق ص ١٠٦ .
- (١٧٦) السابق ص ٩٤ .
- (١٧٧) سورة البقرة : ٢ / من الآية ١٠٢ .
- (١٧٨) أحسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥ .
- (١٧٩) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .
- (١٨٠) السابق ص ٤١ - ٤٢ .
- (١٨١) السابق ص ٩٨ .
- (١٨٢) السابق ص ١٩٧ .
- (١٨٣) السابق ص ٧٧ - ٧٨ .
- (١٨٤) السابق ص ١١١ .
- (١٨٥) السابق ص ١٤٠ .
- (١٨٦) السابق ص ١٣٩ .
- (١٨٧) فى (سنن ابن ماجة ط. دار الريان) حديث ورد فى (كتاب الفتن) ، باب (افتراق الأمم) ج ٢ ص ١٣٢٢ (حديث رقم ٣٩٩٢) ، رواه بسنده إلى راشد بن سعد ، عن عوف بن مالك ، عن الرسول ﷺ ، قال : (افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار . وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فأحدى وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة . والذى نفس محمد بيده ، لتفترقه أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة فى الجنة ، واثنتان وسبعون فى النار . قيل يا رسول الله ، من هم ؟ قال : الجماعة) . وعلق المحقق أن إسناد الحديث فيه مقال .
- (١٨٨) أحسن التقاسيم ص ٤٥ - ٤٦ .
- (١٨٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٩٠) السابق ص ١٥ - ١٦ ، ١٩٩ .

(١٩١) السابق ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ١٩٩ .

(١٩٢) السابق ص ١٩ - ٢١ ، ٤٩ .

(١٩٣) من أمثلة ذلك : وصفه المحيط الهندي (ولا أحب أن أطول هذا الأصل ، وإلا ذكرت مراسى هذا البحر ، والطرق فيه) . السابق ص ٢٦) . وكذلك قوله فى (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملل وطول الكتاب ، لوصفت بقية مدائن إفريقية ، وأكثر مدائن الكور فى جميع الإسلام ، وكلنا نميل إلى الإيجاز ، ونذكر ما لا بد منه) . (السابق ص ١٨٩) .

(١٩٤) وذلك فى موضع (الأشياء التى يختلف فيها أهل الأقاليم) ص ٣٩ .

(١٩٥) امتدت من (ص ١٥ - ٧٢) ، وهى ضرورية على اختلاف فصولها ، لكنها كان يمكن اختصار مادة بعضها من الداخل ، فتكون أوجز وأخصر وأعمق (مثل : توسعه فى ذكر البحار والأنهار ص ٢٤ - ٣٤ ، والباب الذى اختصره للفقهاء ، واكتفى فيه بسرد الأمصار ومدنها من ص ٥٤ - ٦٥ ، وفصل ذكر اقاليم العالم ومركز القبلة ص ٦٦ - ٧٢) . والملاحظ أن عدداً من تلك الفصول سيأتى بيان ما فيها داخل الأقاليم الجغرافية عند وصفها .

(١٩٦) من الأمثلة النادرة : إشارته السريعة الخاطفة إلى الفقيه الإمام (أبى جعفر الأزدى - ولعله يقصد الطحاوى عند تعريفه بمدينة (طحا) فى مصر . (ص ١٧١) .

(١٩٧) ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٩٨) ص ٧٤ .

(١٩٩) ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٠٠) ص ٤٣ .

(٢٠١) مثل قوله ص ٤٢ : « ولا أعف من أهل بيت المقدس ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، وعسكر مكرم ... ولا أحسن من أهل حمص ... ولا أوطأ من أهل مصر » .

(٢٠٢) قال المقدسى فى الصفحة نفسها : (وليس أكثر ولا أرذل من مذكرى نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ... ولا أفقر من أهل يثرب ... ولا أنجس من أهل عمان ، ولا أجهل من أهل عمان) .

(٢٠٣) ص ١٢٩ .

(٢٠٤) الصفحة السابقة نفسها .

(٢٠٥) ص ١٧٩ .

(٢٠٦) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٠٧) فمثلاً : يمدى المقدسى موافقته على ما طالعه فى كتاب (الطلسمات) ، حول وجود طلسمين فى مصر ؛ للوقاية من خطر تماسيح النيل ، حيث يقول : ألا ترى أن التماسيح فى كورة (الفسطاط) لا تضر مع عظمها وكثرتها . (أحسن التقاسيم ص ١٧٩) .

(٢٠٨) يظهر ذلك عند حديثه عن (عجائب إيليا بالشام) ، حيث المغارة العظيمة الموجودة بظاهر البلد ، تلك التى قرأ عنها فى بعض الكتب ، حيث أرجع تاريخها إلى قوم موسى . قال المقدسى : وما صح لى ذلك . (المصدر السابق ص ١٥٩) .

(٢٠٩) حيث وصفهم مادحاً بقوله : (ولا أحسن من أهل حمص) ، ثم قال بعدها بقليل (ولا أحق من أهل حمص) . (السابق ص ٤٢) . وكان الأولى أن يوضح جمال إحسانهم ، وموطن حمقهم .

(٢١٠) هذه بلدة المقدسى ؛ ولذلك أظهر كثيراً من محاسنها ، وأفرط فى مدحها ، وفضلها على ما سواها ، شارحاً ومحللاً ومعللاً . فمن ذلك قوله : (لا ترى بها نجساً ولا تطفيفاً ، ولا شرباً ظاهراً ، ولا سكران ، ولا دور فسق سرراً ولا إعلاتاً ، مع تعبد وإخلاص . ولقد بلغهم أن الأمير يشرب ، فتسوروا عليه داره ، فرقوا أهل مجلسه) (السابق ص ٢٢) . وبلغ به الإعجاب ببلده أنه كان وهو يتحدث عن السوق العام بمدينة (حلوان) بالعراق ، وبساتينها ، والفاكهة بها ، لا ينسى بلده ، فيعقد مقارنة بينهما لصالح بلده ، فيقول : (بيت المقدس أكبر وأجل ، وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها) . (السابق ص ١١٠) . ويواصل فى موضع آخر الحديث عن بلده ، وطيب هوائها ، فلا ترى

أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أكثر من خيراتها (السابق ١٤٣ - ١٤٤) .
ويقال فى القسم الثانى من كتابه ، وهو يذكر مدينة (سرخس) من (إقليم خراسان) :
بيت المقدس مثل سرخس ، غير أن بيت المقدس بلد نظيف حسن ظريف (السابق ص
٢٤٦) . وبعد هذا الإغراق فى المدح لبلده ، إذا به يقول : إلا أن لها عيوباً عدة ،
فيذكر منها ما يلى : (ثم لا ترى أقلر من حماماتها ، ولا أثقل مؤنة . قليلة العلماء ،
كثيرة النصارى ... لا مجلس نظر ولا تدريس ، وقد غلب عليها النصارى واليهود ،
ونحلا المسجد من الجماعات والمجالس) . (السابق ص ١٤٤) .

(٢١١) السابق ص ٧٧ .

(٢١٢) السابق ص ٨٣ .

(٢١٣) السابق ص ٨٧ .

(٢١٤) السابق ص ٨٨ .

(٢١٥) السابق ص ٩٧ - ٩٨) .

(٢١٦) السابق ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢١٧) السابق ص ١٦٢ .

(٢١٨) السابق ص ١٨٠ .

(٢١٩) السابق ص ٢٠١ .

(٢٢٠) الأخبار الطوال (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى) ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢٢١) تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢٢٢) البداية والنهاية (طبعة دار الريان للتراث) ج ٨ ص ٣٣٤ - ٣٤٩ .

(٢٢٣) تاريخه ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢٢٤) راجع (السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ م ، طبع ونشر : مصطفى

الخلبى) ، القسم الأول ص ٤٩٥ .

(٢٢٥) راجع أحداث غزوة أحد تفصيلاً في (المصدر السابق) ، القسم الثاني ص ٦٠ وبعدها .

(٢٢٦) حـ ٨ ص ١٩٨ .

(٢٢٧) البيان للمغرب (ط ٣ - دار الثقافة بيروت) حـ ١ ص ٨٣ ، فيما ينقله عن (تاريخ الرقيق) .

(٢٢٨) في تاريخه حـ ٨ ص ١٩٩ .

(٢٢٩) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٠) كتبت في (معجم البلدان) لياقوت حـ ٥ ص ٤٤٢ بالقصر هكذا : وليلى ، وقال عنها: مدينة بالمغرب قرب طنجة ، دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي ناجياً من وقعة (فخ) ، وحصل بها سنة ١٧٢هـ أيام الرشيد إلى أن مات بها مسموماً - في قصة طويلة - سنة ١٧٤هـ .

ويلاحظ أن هذا هو الاسم الصواب لتلك المدينة . أما (زويلة) الواردة في كتاب (المقدسى) ، فغير مقصودة هنا ، ولعلها تحريف من النساخ ، لم يفتن إليه المحقق ، ولعل مطالعنا تعريف ياقوت لها يؤكد صحة ما نقول ، فهناك (زويلة السودان) ، وتقع بين بلاد السودان وإفريقية وسط الصحراء (أول بلاد السودان) . (معجم البلدان) حـ ٣ ص ١٧٩ . وهناك (زويلة المهدية) ، وهي مدينة بإفريقية ، بناها عبيد الله المهدي ، وأسكنها العامة (المصدر السابق ١٨٠/٣) . وواضح أن كلتا المدينتين غير مقصود في هذا السياق .

(٢٣١) تاريخه حـ ٨ ص ١٩٩ .

(٢٣٢) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٣) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الطبرى ٤٢١/٧ .

(٢٣٥) ولى المعتز سنة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ /

٨٦٩ - ٨٩٢م) .

- (٢٣٦) راجع أخباره في (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٣٩١ - ٤٥٦ .
- (٢٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .
- (٢٣٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (٢٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ط . دار القلم - بيروت) ص ٤٠٥ .
- (٢٤٠) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤١) تاريخ الخلفاء ص ٤١٩ .
- (٢٤٢) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٣١ .
- (٢٤٤) أحسن التقاسيم ص ١١٨ .
- (٢٤٥) تاريخ الطبري ١٧٣/٨ .
- (٢٤٦) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤٧) راجع (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٣٧٩/٦ .
- (١٤٨) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١١٧ ، وتاريخ الطبري ٣٧١/٩ .
- (٢٤٩) المصدر السابق ٤٣٧/٩ .
- (٢٥٠) السابق ٥١٤/٩ .
- (٢٥١) السابق ٥١٥/٩ .
- (٢٥٢) معلوم أن أولاد بويه ثلاثة : الأكبر (ابو الحسن عماد الدولة علي بن بويه) ، والأوسط (ركن الدولة الحسن بن بويه) ، وهو والد عضد الدولة المشهور ، والأصغر أبو الحسن أحمد في حكم بلاد فارس (٣٢٠-٣٣٨هـ / ٩٣٢ - ٩٤٦م) . (راجع ترجمته في : الكامل ٢٣٠/٧ ، وفيات الأعيان ٣٩٩/٣ ، والنجوم ٣٤٣/٣) . أما معز الدولة الذي ولي العراق ، فقدم بغداد سنة ٣٣٤هـ ، توفي سنة ٣٥٦هـ ، وعهد لولده (بختيار) من بعده . وكان يحكم إلى جانب العراق - الأهواز - وهو عم عضد الدولة .

له ترجمة فى تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤٠٧ ، ووفيات الأعيان ١٧٤/١ - ١٧٦ ، والنجوم الزاهرة ١٦/٤ (وفيه حرفت كنيته من أبى الحسين إلى أبى الحسن) .

(٢٥٣) هو أبو منصور بن معز الدولة . ملك العراق بعد وفاة أبيه ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وكانت بينه وبين ابن عمه (عضد الدولة) منازعات ، حتى قتل فى إحدى معاركه أمامه بعد فترة إمارة ، امتدت أحد عشر عاماً وشهوراً ، سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . (راجع تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤١٠ ، والكامل ٣٧٨/٧ ، والنجوم ١٣٣/٤ - ١٣٤) .

(٢٥٤) هو فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى . ولى سنة ٣٦٧هـ ، وتوفى ٣٧٢هـ بالعراق . (وفيات الأعيان ٥٠/٤ - ٥٥) .

(٢٥٥) الكامل ٤٣٦/٧ .

(٢٥٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٥٧) المصدر السابق ١١١ .

(٢٥٨) كتاب (المقدسى) للدكتور فلاح شاكى ص ١٣٤ .

(٢٥٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٦٠) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكى ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢٦١) أحسن التقاسيم ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢٦٢) السابق ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٢٦٣) السابق ١٧٧ .

(٢٦٤) السابق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٦٥) السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦٦) السابق ص ١١١ .

(٢٦٧) السابق ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢٦٨) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكى ص ١٠٣ - ١٢٧ .

- (٢٦٩) أحسن التقاسيم ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٢٧٠) المصدر السابق ص ٨٢ .
- (٢٧١) السابق ١٤٤ - ١٤٥ .
- (٢٧٢) السابق ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٢٧٣) السابق ص ١٦٩ .
- (٢٧٤) السابق ص ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٩٧ .
- (٢٧٥) السابق ١٦٧ ، وكتاب (المقدسى) د. فلاح شاکر ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٢٧٦) أحسن التقاسيم ٧١ - ٧٢ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٨٠ - ١٨١ .
- (٢٧٧) المصدر السابق ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .
- (٢٧٨) السابق ص ٩٣ - ٩٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ . وراجع (المقدسى)
- د. فلاح شاکر ص ١٥٧ - ١٦١ (وما يقابل المكايل والأوزان الآن ص ١٦٢ - ١٦٧) . وراجع ما يتصل بالنقود ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- (٢٧٩) أحسن التقاسيم ص ٨٤ ، ١١٢ .
- (٢٨٠) السابق ص ١٥٧ ، ١٩٧ .
- (٢٨١) السابق ص ١٦٨ - ١٦٩ (الدور فى القسطا ط اربع طبقات وخمس طبقات ويسكن الدار نحو مائتى نفس ، والناس كالجراد ، هكذا رأهم الحسن بن أحمد القرمطى ، فهاله ما رأى ، فقيل له : هولاء نظارة فقط ، وما لم يخرج أكثرهم) .
- (٢٨٢) السابق ص ٩٧ (حفاء أهل مكة ، وظرف أهل اليمن ، وتطفيف وتخسير وفسق أهل عمان ، ٩٩ (نخافة وقناعة سكان شبه الجزيرة العربية ، واكتفاؤهم بالخفيف من الثياب)، ص ١٦٩ (أهل مصر وخوفهم من القحط ، وتربصهم البلاء ، وإشرافهم على الجلاء ؛ خوف انقطاع النهر) .
- (٢٨٣) السابق ص ١١٥ ، وعن الحمامات راجع ص ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٧ .

(٢٨٤) السابق ص ١٥٦ .

(٢٨٥) السابق ص ٩٤ ، ١٩٧ .

(٢٨٦) السابق ٩٤ ، ٩٥ (زينات فوق المنازل ، ونصب للقباب ، وتزيين للأسواق) .

(٢٨٧) السابق ١٦٩ .

(٢٨٨) السابق ص ٤٤ - ٤٦ ، ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٨٩) السابق ص ٤٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٩٧ .

(٢٩٠) السابق ص ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ .

(٢٩١) السابق ص ١١٢ .

(٢٩٢) السابق ص ١٧٤ .

(٢٩٣) السابق ص ٩٠ - ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ .

(٢٩٤) السابق ص ١٥١ .

(٢٩٥) السابق ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٩٦) ح ٣/١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٤ ، ح ٤/١٧١ ، ٥١٦ ، ١٩٦/٥ ، ٣٢٦ . ويلاحظ أنه

سمى كتاب المقدسى (أخبار بلدان الإسلام) . ونقل عنه فى (معجم الأدباء) ٨٦/٣ ،

وسماه (كتاب البلدان) . وتجدر الإشارة إلى أن د. حسين مؤنس ذكر أن كتاب الروض

المعطار (للحميرى حافل بالنقل عن المقدسى وغيره ، لكن صاحبه لم يكن يصرح

بمصادره . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ٥٣٨ .

(٢٩٧) الحضارة الإسلامية فى ق ٤ هـ ، لآدم متز (من الترجمة العربية - طبعة ١٩٤١) ح ٢

ص ٤ .

(٢٩٨) المرجع السابق ص ٧ .

مصادر ومراجع البحث(*)

* القرآن الكريم :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر البناء المقدسي (المتوفى أواخر ق ٤هـ) . دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م . وضع مقدمته ، وهوامشه ، وفهارسه : : د. محمد مخزوم .
- الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ) . سلسلة (تراثنا) . نشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د. ت . تحقيق : عبد المنعم عامر . مراجعة : د. جمال الدين الشيال .
- الأعلام : لخير الدين الزركلي ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٠م .
- الأنساب : الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ) . الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع دار الجنان - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . تقديم ، وتعليق : عبد الله عمر البارودي .
- البداية والنهاية : أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ . دقق أصوله ، وحققه : د. أحمد ملحم ، وآخرون .

(*) القرآن الكريم هو المصدر الأول ، ويوضع على رأس القوائم . ويتم ترتيب المصادر والمراجع معاً ترتيباً هجائياً حسب عناوين الكتاب ، مع إسقاط (ال) من الترتيب ، ويتم إفراد المراجع الأجنبية وحدها في نهاية المصادر والمراجع العربية .

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب : لابن عذارى المراكشى (توفى حوالى نهاية ق ٧هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة - بيروت ، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢) ، ١٩٨٣م . تحقيق ، ومراجعة : ج . س . كولان ، أ. ليفى بروفنسال .
- تاريخ الأدب الجغرافى العربى : تأليف : كراتشوفسكى . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م . ترجمة إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم .
- تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م . نقل الكتاب إلى العربية : أ . د. عبد الحليم النجار ، وآخرون . الإشراف على الترجمة العربية : أ. د. محمود فهمى حجازى .
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس : ، للدكتور حسين مؤنس . الطبعة الثانية ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦م .
- تاريخ الخلفاء : لجلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) الطبعة الأولى ، دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م . حققه ، وقدم له ، وخرج آياته ، قاسم الشماعى الرفاعى ، ومحمد العثمانى .
- تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .
- تكملة تاريخ الطبرى : لمحمد بن عبد الملك الهمداني (ت ٥٢١هـ) . الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة (نشر ضمن ذبول تاريخ الطبرى فى ج ١١ منه) ، ١٩٨٢م . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : لآدم متز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادي أبو ريذة .

- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية : للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، ١٩٨٥م .

- سنن ابن ماجه : للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، د. ت . حقق نصوصه ، ورقم كتبه ، وأبوابه ، وأحاديثه ، وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي .

- السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨هـ) . الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . حققها ، وضبطها وشرحها ، ووضع فهرسها : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي .

- الفهرست : لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بـ (ابن النديم) (ت حوالي سنة ٣٧٧هـ) . الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، د. ت .

- الكامل في التاريخ : لأبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م . راجعه وصححه : د. محمد يوسف الدقاق .

- كشف الظنون : لحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) . طبعة : دار العلوم الحديثة - بيروت ، د. ت .

- لسان العرب : لجمال الدين بن منظور (ت ٧١١هـ) . نشر : دار المعارف بمصر ، د. ت. تحقيق : نخبة من العاملين بدار المعارف .
- المسالك والممالك : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بـ (ابن خرداذبه) المتوفى حوالى (٣٠٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته . ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية) د. ت .
- المسالك والممالك : لإبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى (توفى فى النصف الأول من ق ٤ هـ) سلسلة (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى . مراجعة : محمد شفيق غربال .
- مصر فى عصر الإخشيديين : للدكتور سيدة إسماعيل كاشف . نشر فى سلسلة (تاريخ المصريين برقم ٢٩) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .
- معجم الأدباء : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الثالثة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م .
- معجم البلدان : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى .
- معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية : لعمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- المعجم الوسيط : إعداد ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م .

- المقدسى : للدكتور فلاح شاكر أسود . سلسلة (نوايغ الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، دار الشتون الثقافية العامة بالعراق - بغداد ١٩٨٨ م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : لتقى الدين أحمد بن على المقرئ (ت ٨٤٥ هـ) ، الطبعة الثانية . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧ م .

- نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة) لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٢٠ هـ) . نشر : دى غويه (صورته ، ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية فى نفس مجلد كتاب ابن خرداذبه) د. ت .

- نهاية الأرب فى فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣ هـ) ، الجزء الخامس والعشرون ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م . تحقيق جابر عبد العال الحينى ، مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) . دار صادر - بيروت ، د. ت . حققه : د. إحسان عباس .

1 - M. Miquel : AL - Mukaddasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol.7, 1993.

2 - Maqdisi, al, published in the new Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985.

المنهج التاريخي للحافظ أبى الطاهر السلفى

فى تأليف كتابة « معجم السفر »

د. هشام عطية عطية أحمد(*)

زخرت الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل بالعديد من العلماء ورجال الفكر الذين أثروا تراثها الحضارى فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، أفنوا أعمارهم المديدة فى مجال البحث والدراسة المتعمقة . ولم يدخروا وسعاً فى سبيل تحصيل العلم وتقديمه لطالبه .

وجدير بنا ونحن نقتفى آثار أولئك السلف الصالح ، ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم . أن نكون أوفياء لهم ، فنقدرهم حق قدرهم ، ونحىى بالدراسة ذكرهم ونعرف الأجيال بتجاههم ومكائهم ، وما أسهموا به فى خدمة تاريخنا الإسلامى .

ومن بين أولئك الأعلام :

الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى . أحد الشخصيات البارزة التى أسهمت بجهده وافر فى مجال علم التاريخ خلال القرن السادس الهجرى .

وكتاب « معجم السفر » ، الذى نحن بصدد الحديث عنه يعد واحداً من أهم وأبرز الكتب التى قام السلفى بتأليفها فى مجال علم تاريخ الرجال «أو ما اصطلح على تعريفه بين جماعة المؤرخين » بتاريخ السير والأعلام .

وسوف تتركز دراستى - بمشيئة الله تعالى وعونه - فى هذا البحث فى بيان المنهج التاريخى الذى سلكه السلفى فى تأليف كتابة « معجم السفر » ، وقد مهدت لذلك بالحديث عن حياة السلفى وطلبه للعلم بصورة موجزة ، ثم توثيقة

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة .

وعدالته من قبل علماء الجرح والتعديل الذين أرخوا لحياته ، ثم توضيح مكانته التاريخية ، مع عرض موجز لجهوده العلمية فى هذا الميدان ، ثم تطرقت للحديث عن عدة مسائل هامة مرتبطة أشد الارتباط بمنهجه ، منها : نسبة الكتاب إليه ، وبيان الكيفية التى وصل بها إلينا فى صورته الحالية . وأخيرا عرضت لمنهجه فى تأليف الكتاب ، وغير ذلك من مسائل جاءت مبسطة فى ثنايا البحث .

السلفى - حياته - طلبه للعلم :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة (١) الأصبهاني . وكان مولده بـ « جروان » (٢) سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) وقد أوردت المصادر ما يؤيد صحة هذا التاريخ على لسان السلفى نفسه ، حيث كان دائما يردد « أنا أذكر قتل نظام الملك الوزير (٣) الذى وقف المدرسة النظامية ببغداد فى سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وكان عمرى عشر سنين » (٤) كذلك كان السلفى يحكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وما فى وجهه شعره وأنه كان ابن سبع عشرة سنة (٥) .

واللقب الذى اشتهر به منذ ذلك الحين ، وأصبح علما عليه وحده ، هو «السلفى» بكسر السين وفتح اللام - نسبة إلى لقب جد جده « إبراهيم » الذى كان يطلق عليه اسم سلفة (٦) . وإذا انتقلنا إلى بيئة السلفى نرى أن والده محمداً كان رجلاً صالحاً من العلماء المتصوفين المشهورين بالثقة ، وصفه ابن كثير بقوله « أبو أحمد كان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير » (٧) .

وتربى السلفى فى كنف أبيه منذ صباه ثم ارتحل لطلب العلم وعمره أقل من عشرين عاما . ومن يتبع رحلته فى هذا المجال يندهش لهذه العزيمة التى امتاز بها والتى لا تعرف الكلل ولا تقف عند مطمح ، ذلك أنه جاب الكثير من البلاد طولا

وعرضاً للقاء المشايخ أصحاب الأسانيد العالية ، ببغداد والحجاز والشام ، وسمع الكثير ببلدان المشرق الإسلامى وغيرها ، حتى صار طالباً للعلم من الطراز النادر .
ويكفى ما قاله الذهبى عنه « وبقي فى الرحلة بضع عشرة سنة ، وسمع مالا يوصف كثرة » (٨) .

ولاشك فى أن هذه الرحلة الواسعة أكسبت السلفى علماً غزيراً ومعرفة واسعة ، فأتقن علوماً كثيرة من بينها : علم القراءات والحديث والفقه على المذهب الشافعى ، وتقويم البلدان ، والتاريخ ، والأدب واللغة (٩) .

واستقر به المقام أخيراً بمدينة الإسكندرية ، وذلك فى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) فاستوطنها بضعاً وستين سنة ، ينشر فيها العلم ، حتى توفى بها سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) وما خرج منها سوى مرة واحدة إلى القاهرة للأخذ عن كبار العلماء فيها (١٠) .

وقد ذاعت شهرة السلفى بالإسكندرية ، واكتسب تقدير أهلها وحبهم ، حتى علا قدره ونبه ذكره ، وأفاد بعلمه خير إفادة ، فكان لا يكل ولا يمل من تحصيل العلم وإفادة طلابه . ولعل خير أمثلة على ذلك ما قاله عنه المؤرخون الثقات . فقد وصفه الذهبى بقوله : « ومن شدة انشغاله بالعلم يروى عنه أنه قال : لى ستون سنة بالإسكندرية ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غرفة يجلس فيها » (١١) .

ويقول عنه فى موضوع آخر « وكان مكباً على الكتابة والاشتغال بالراوية » (١٢) وذكره الياقعى بقوله : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الاشتغال والمطالعة والنسخ » (١٣) .

واتخذ السلفى من « المدرسة العادلية » التى بناها له الأمير « أبو الحسن على ابن السلار » بالإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) (١٤) مكانا للتدريس وإفادة طلاب العلم . وقد أنشئت هذه المدرسة بهدف نشر المذهب السنى ، يقول ابن خلكان عن منشئها « وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ السلفى فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية » (١٥) .

ومن العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة : القراءات ، والحديث ، والفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى (١٦) :

• أخلاق السلفى - عدالته وسعة علمه - مذهبه :

كان للسلفى - رحمه الله - شخصية متميزة جعلت الكثير يثق فيه ويحترمه ويحمله ، فقد كان حليما متواضعا يألف الناس ويألفونه ، ويقبل على الجميع بالتلطف معهم ، والإخلاص لهم ، يقول عنه الذهبى « وكان حليما متحملا لجفوة الغرباء » (١٧) ، ويصفه الصفدى بقوله « لا يكاد تبدو منه جفوة فى حق أحد وإن بدأت بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » (١٨) .

ومن الآداب التى التزم السلفى بها عند جلوسه لتعليم الحديث أو إلقاء درس من الدروس ، أنه كان ، يجلس من أول المجلس إلى آخره لا يصق ، ولا يتنخم ، ولا يشرب ، ولا يتورك فى جلوسه ، ولا يبدو له قدم ، وإن بدت غطاها (١٩) . وإذا نظرنا إلى عدالته وسعة علمه ، وما قيل فى شأنه من قبل المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ، نجد أن هناك شبه إجماع بينهم على الثقة به وبعلمه ، ومدى تحريه وضبطه لما ينقل .

وها هم أولا أبرز العلماء الذين تحدثوا عنه :

قال عنه ابن الآبار الاندلسي « تفرد [أى السلفى] فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل» (٢٠) . وقال عنه ابن خلكان « أحد الحفاظ الكثيرين ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » (٢١) . ووصفه الذهبى بقوله : « كان السلفى جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعرفهم بقوانين الراوية والتحديث ، جمع بين علو الإسناد وعلو الانتقاء وبذلك تفرد عن أبناء جنسه » .

كذلك وصفه الصفدى ، وصفا جامعا ، كشف لنا فيه عن عالم قلما يجود الزمان بمثله فقال : « كان (السلفى) إماما مقرئا مجودا محدثا حافظا جبهذا ، فقيها مفننا ، نحويا ماهرا ، لغويا محققا ، ثقة فيما ينقله ، حجة ثبنا » (٢٣) .

وذكره ابن الجزرى فقال عنه « كان السلفى أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم » (٢٤)

وأخيرا يقول عنه السيوطى « كان إماما حافظا متقنا ، ناقدًا ، ثبنا ، دينا خيرا ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الراوية » (٢٥) .

هذه أشهر الروايات التى وصف بها السلفى من علماء ثقات ، وعلى الرغم من بعض المبالغات التى نلمسها فى بعض الألفاظ التى قيلت فيها ، إلا أنها جاءت مجمعة على أنه كان ثقة فى رواياته متحريرا ناقدًا صاحب ورع وتدين امتد به العمر حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسنادا .

أما عن مذهب السلفى وعقيدته ، فقد اشتهر بأنه كان سنى المذهب حسن الاعتقاد متقنا للفقہ على المذهب الشافعى ، وشيخه فى هذا المجال هو « الكيا الهراسى » البغدادى (٢٦) وكان السلفى دائما ما يعتز بانتسابه إلى مذهب الإمام الشافى — رحمه الله تعالى — وقد سجل ذلك عن طريق بعض الآيات التى يقول فيها :

إمامى الشافعى وحين أفتى
بمذهبه المذهب طال عيشى
وإنى لا أبالى بانفرادى
وبقوة حجتى فى ألف جيش (٢٧)

ولم يكن السلفى متشددا فى مذهبه ، بل كان ذا عقلية متفتحة لا يعميها التعصب ، وآية ذلك أننا نراه ينقل فى كتابه بعض الأشعار عن مدح المذهب المالكى وإمامه ، منها رواه مسنداً إلى " ابن العسال " بقوله :

أيا من غدا جاهلا ناسكا
إن أحييت أن لا ترى هالكا
فأم إمام الهدى مالكا
ولا تك مذهبه تاركا
فمذهبه ناشر من كـ
فن لمن كان مذهبه فى جهله قد دفن (٢٨)

ونراه أيضا يعلق بعض الأشعار الحسنه عن أناس اشتهروا بالتشيع ، ويصرح بذلك ، فيقول مثلا عن " أبى الوفاء صادق بن عبد الله " قاضى الإسكندرية أنشدنى لنفسه :

العلم فرع طيب أصله
لا شك والعقل له أصل
فارجع إلى العقل وخل الهوى
فما لك العقل له الفضل

ويتّرجم له فيقول : أبو الوفاء هذا كان من أهل الوفاء حسن العشرة عارفا بالأحكام وكان إسماعيلى المذهب " (٢٩) كذلك بلغ من عدم تعصب السلفى وحسن دينه وحياده ، أن كاتب الزمخشري (٣٠) وهو معتزلى المعتقد يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته (٣١).

مكانته التاريخية :

كان للسلفى ميل كبير لدراسة التاريخ وروايته وتدوينه ، والتصنيف فيه ، خاصة علم الرجال أو ما اصطلح على تسميته « بتاريخ السير والإعلام » ، لما لهذا اللون من التأليف من صلة وثيقة بعلم الحديث الشريف الذى كان السلفى متخصصا فيه ، وكرس حياته لخدمته ودراسته .

وسوف نتناول بشيء من التفصيل هذه الجوانب التاريخية من حياة السلفى حتى يمكننا الوقوف على مدى إسهاماته ومكانته فى هذا المجال .

وأول ما نلاحظه فى تنفيذ هذا المنهاج هو روايته لكب الأقدمين المشهورين بالثقة فى تدوين التاريخ الإسلامى أمثال ، المؤرخين : « ابن هشام » « وابن عبد الحكم » فى كتابيها « السيرة النبوية » ، « وفتوح مصر وأخبارها » .

أما عن السيرة النبوية لابن هشام فإن رواية السلفى لهذا الكتاب قد لاقت شهرة كبيرة فى أكثر من بلد (٣٢) وآية ذلك أننا نجد بعض الطلاب الذين سمعوه منه وقرأوه عليه . يحدثون بروايته (٣٣) وبما نسخوه عن الأصل المكتوب بخط يده فى البلاد التى رحلوا إليها ومنها مكة والشام (٣٤) ويعنى ذلك أن الكتاب محاط بأكبر قدر من الثبوت والتحري ، مادام منقولاً عن طريق السلفى الذى اشتهر بالصدق والعدالة ، وهذه شهادة تحسب له .

أما عن روايته لكتاب فتوح مصر وأخبارها — للمؤرخ « ابن عبد الحكم » الذى يعد أبرز وأهم وثيقة تاريخية عن الفتح الإسلامى لمصر وقيام دولة الإسلام فيها فنجدها (أى رواية السلفى) مصدرة فى الصفحة الأولى من الكتاب (٣٥) بإسناد متصل بدءاً من شيخه « أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى » وانتهاء بعلى ابن الحسن المعروف بابن قديد الذى يعتبر آخر من تلقى كتاب فتوح مصر مباشرة كما دون عن صاحبه الأصيل ابن عبد الحكم (٣٦) .

وقد اتضح من خلال هذا الإسناد أن « السلفى » هو الراوى الأخير ،
الذى وصلنا عن طريقه كتاب « فتوح مصر وأخبارها » بنصه الحالى ، فهو آخر
حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم مدون الراوية وصاحبها (٣٧) .

ومع ما اشتهر به السلفى من حفظ وتحقيق وعدالة ، فضلا عن تعمقه فى
مجال الجرح والتعديل ، فإننى أرجح رأى القائل : بالاطمئنان والثقة إلى أن كتاب
فتوح مصر بنصه الحالى مطبوع بطابع عميق من الثبوت والصحة والضبط مع خلوه
من أى دس أو لبس (٣٨) .

وأزيد على ذلك بقولى : أننا مدينون لهذا الرجل العظيم (السلفى)
بالفضل ، إذ لو لا أن قيده الله تعالى لهذا العمل ، لكان من الجائز جدا أن تحوم
الشبهات وتتدخل الاساطير فى أقدم وأنفس وثيقة وصلتنا عن الفتح الإسلامى
لمصر .

ومن الكتب التاريخية التى رواها السلفى أيضا : كتاب « فضائل مصر
وبيت المقدس والشام » للمؤرخ عمر بن يوسف الكندى (ت ٣٥٠هـ — /
٩٦١م) (٣٩) كذلك من مجهوداته المشكورة وإسهاماته فى علم التاريخ ، مختصراته
لبعض الكتب المشهورة مثل « مختصر كتاب تاريخ بخارى » لمحمد بن أحمد
البخارى (ت ٤١٢ هـ — / ١٠٢١ م) (٤٠) .

« وكتاب تاريخ طرابلس » لأبى الحسن على بن عبد الله الطرابلسى
(ت ٥٢١ هـ — / ١١٢٧ م) وذكره السلفى فى كتابه « معجم السفر » بقوله :
« أبو الحسن هذا كان من بين الصلاح ... وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف
لطرابلس تواريخ وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربه وحدثنى به » (٤١) .

وإلى جانب ذلك قام السلفى بانتقاء بعض المصنفات من كتب التاريخ ،
وتحقيقها والتعليق عليها والتدريس منها . من أشهرها : كتاب « الإرشاد إلى
معرفة علماء الحديث والبلاد » لأبى يعلى الخليل بن عبد الله القزوينى (ت ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) (٤٢) .

• أما عن أهم الكتب التاريخية التى قام السلفى بتأليفها فهى على
النحو التالى :

« معجم أصبهان » أو « المشيخة الإصبهانية » وهذا المعجم عبارة عن
تراجم جمعها السلفى عن شيوخه بمدينة أصبهان وهم يزيدون على ستمائة شيخ .
يقول الذهبى : « وله معجم لمشيخة أصبهان فى مجلد أزيد من ستمائة شيخ » (٤٣)
ووصفه السبكى بقوله : « وعمل معجما حافلا لشيوخه الإصبهانيين » (٤٤) وهذا
الكتاب مفيد لدارسى تاريخ الحركة الأدبية والفكرية لمدينة أصبهان خلال القرن
الخامس الهجرى .

« معجم بغداد » أو « المشيخة البغدادية » قام السلفى بتأليفه لشيوخه
الذين أخذ عنهم ببغداد ، وأورد ذكره ضمن كتابه « معجم السفر » (٤٥)
ومعجم بغداد لاغنى عنه للمشتغلين بتاريخ الحركة الفكرية ببغداد فى أواخر القرن
الخامس الهجرى .

• أما آخر هذه المعاجم وأهمها وأشهرها ذكراً فهو « كتاب معجم
السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وقد ذكره السخاوى ضمن كتابه
« الإعلان بالتوبيخ » (٤٦) وسوف اقتصر على ذلك فى الإشارة إليه ، كى أخصه
بمزيد من التفصيل بعد قليل .

ولم تقف مجهودات السلفى فى التأليف التاريخى عند هذا الحد ، بل ترك لنا عددا آخر من المؤلفات عبارة عن تراجم مفردة - لبعض العلماء الذين تأثر بهم - واصطلح على تعريفها « بالسير الذاتية » من أشهرها :

• كتاب : « ترجمة حياة محمد بن أحمد الأيوردى » المعروف بأبى المظفر (٤٨) .

• ترجمة : « حياة أبى نعيم الأصبهاني » قال عنه الذهبى قد جمع ... السلفى أخبار أبى نعيم وذكر من حدثه عنهم وهم نحو ثمانين رجلا (٤٩) .

وبعد فهذه هى أبرز إسهامات السلفى فى ميدان علم التاريخ ، ما بين رواية لكتب المؤرخين الأقدمين المشهورين بالثقة ، ومختصرات لبعض الكتب وانتقاء المستغرب منها وتحقيقه ، ثم مؤلفاته القيمة فى مجال علم الرجال أو السير والإعلام الذى كان فارسه المجلى خلال القرن السادس الهجرى .

والآن يأتى دور الحديث عن أهم وأبرز الكتب التى ألفها ، وهو كتاب «معجم السفر» .

نسبة الكتاب إلى السلفى :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب « معجم السفر » إلى السلفى ، فقد أجمع أكثر من مؤرخ موثوق به على نسبته إليه . من بينهم :

« ابن خلكان » الذى أشار إليه فى كتابه « وفيات الأعيان » فى أكثر من موضع نقل فيه عن السلفى (٥٠) .

وها هو ذا أحد الأمثلة :

يقول ابن خلكان فى ترجمته لأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن القابسى « وذكر الحافظ السلفى فى « معجم السفر » أن شخصا قال فى مجلس القابسى وهو بالقيروان » (٥١) .

وبمقارنة ذلك المثال على ما ورد بالنسخة المطبوعة لكتاب «معجم السفر»، والتي اعتمدت عليها هذه الدراسة وجدت أنهما متطابقتان تماما مما يوضح أن الكتاب للسلفى (٥٢) .

وهناك أيضا ما ذكره « الذهبى » فى كتابه « تذكرة الحفاظ » بقوله : « وله (أى للسلفى) معجم لباقى البلاد سماه « معجم السفر » (٥٣) بالإضافة إلى ما أورده فى كتابه سير اعلام النبلاء بقوله « وقد جمعوا له من جزاة وتعليقه " معجم السفر " فى مجلد كبير » (٥٤) .

وأخيرا يؤكد السخاوى على نسبة الكتاب للسلفى ، ليس هذا فحسب بل نراه يصنف كتابه ضمن أهم المؤلفات التاريخية فى التراجم تحت باب « الرواة المعتمدون أو المصنفون » ، يقول السخاوى « ومعجم السفر . للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد » (٥٥) . وفى باب « المعاجم والمشيخة » يؤكد السخاوى مرة أخرى على ذلك بقوله : « ... ومنهم السلفى له ... معجم السفر » (٥٦) . وعلاوة على هذه المصادر ، فإن الكتاب الذى بين أيدينا نشر عن نسخ خطية معترف بها فى أكثر من خزانة لكتب التراث فى أنحاء العالم ، منها نسخة محفوظة فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، وهى التى اعتمدها المحقق فى طبع الكتاب (٥٧) .

• هل « معجم السفر » هو ذاته معجم الشعراء ؟

ذكر « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن للسلفى معجما بعنوان « معجم الشعراء » وقد نقل ذلك عن ياقوت الحموى من كتابه الشهير « إرشاد الأريب أو معجم الأدباء » (٥٨) .

وهذا المعجم المذكور لم أجد له شبيها بهذا الاسم ضمن المصادر التى اطلعت عليها سوى فى كتاب « معجم الأدباء » فالمشهور والمتواتر فى المصادر التاريخية الأخرى أن للسلفى ثلاثة معاجم فقط هى : معجم أصبهان ، ومعجم بغداد ، ومعجم السفر (٥٩) .

فكيف انفرد إذا ياقوت الحموى بذكر هذا المعجم دون سواه من المصادر التاريخية الأخرى ؟

وللإجابة نقول : لقد اتضح من خلال المقارنة بين ما صرح به ياقوت فى معجم الأدباء بالنقل من معجم الشعراء وبين ما دونه السلفى بكتاب « معجم السفر » أن ما نقله ياقوت هو ذاته ما وجد مدونا « بمعجم السفر » دون أدنى تبديل أو تغيير (٦٠) وعلى سبيل المثال :

ذكر ياقوت فى ترجمة « الحسن بن أحمد بن على الفارسى » ما نصه : « قرأت فى معجم الشعراء للسلفى : أنشدنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى بديار مصر قال : أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف النحوى لنفسه بالأندلس فى كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى :

أضع الكرى لتحفظ الإيضاح وصل الغدو لفهمه برواح

إلى آخر الأبيات (٦١) .

ونص ما ذكر موجود بتمامه فى كتاب « معجم السفر » المطبوع الذى

بين أيدينا ص ٣٩ - ٤٠ .

وغير ذلك فهناك أكثر من مثال يتمشى مع هذا النمط (٦٢) .

وإزاء ذلك فإننى أرجح احتمالاً واحداً وهو : أن كتاب معجم الشعراء الذى انفرد بذكره ياقوت هو نفسه كتاب « معجم السفر »

ومما يجعلنى أرجح هذا الاحتمال عدة أمور :

أولها : أن ياقوت هو الوحيد من بين جميع المصادر التى اطلعت عليها هو الذى نسب هذا الكتاب للسلفى .

ثانيها : أن ما نقله هو ذاته ما وجد فى « معجم السفر » .

ثالثها : أن الاسم الأخير للكتاب وهو « معجم السفر » هو الذى ظل مشهوراً وتناقله الخلف عن السلف حتى يومنا هذا .

وبناء على ما تقدم فإن ياقوت قد جانبه الصواب فى تحديد الاسم الأصلى للكتاب بيد أنه من باب الإنصاف أن نذكر أن كتاب « معجم السفر » قد ضمنه صاحبه السلفى الكثير من الأشعار ، حتى أنه يخيل للقارئ أن كل من التقى بهم السلفى وجمعهم فى معجمه هذا من الشعراء (٦٣) .

ويبدو أن كارل بروكلمان ، اعتمد على ما نقله ياقوت دون تمحيص أو تحليل . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا الصدد وهى : أن أحد المستشرقين ذكر - فى مقال له نقل فيه بعض الأخبار الخاصة بمسلمى صقلية عن كتاب « معجم السفر » - أن كارل بروكلمان لم يصنف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » معجم السفر « من بين مؤلفات السلفى التى ذكرها (٦٤) .

ويعلق على ذلك فى موضع آخر فيقول « ربما جهل بروكلمان وجوده » (٦٥) .

والحقيقة أن هذا المستشرق يشترك مع بروكلمان فى عدم الإحاطة بهذا الكتاب « معجم الشعراء » ، و بالتالى فإنه لم يدرك أن معجم الشعراء ما هو إلا « معجم السفر » .

• كيف وصل إلينا كتاب « معجم السفر » ؟ :

ورد فى صدر الصحيفة الأولى من مخطوطة « معجم السفر » المحفوظة فى مكتبة عارف حكمت والمعتمدة لدى المحقق النص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله على آلائه وصلواته على محمد خاتم أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفياه وسلم كثيرا وبعد ، فإن جزازات من معجم السفر وقعت بخط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني رضى عنه فيبضتها ورتبتها كما يجب ، والله أسأل النفع بذلك إنه رحيم كريم » (٦٦) .

ويتضح من هذا النص عدة أمور على جانب كبير من الأهمية : أفصلها على النحو التالى :

أولا : أن كلمة « جزازات » الواردة جمع جزازة من كل شئ ما قطع منه فهى مأخوذة من جَزَّ بمعنى قطع (٦٧) . وغاية ما نستطيع أن نفهمه من ذلك أن كلمة « جزازات » عبارة عن قطع من الورق أشبه بمسودات أو صحائف صغيرة تكتب لأول مرة ثم تنقح وتحرر وتبيض (٦٨) ومعنى هذا أن السلفى - رحمه الله - اتبع هذه الطريقة فى تدوين كتابه ، فكان يسجل ما يسمعه أو يعرفه من تعليقات - على عدة مراحل بما يشبه الكشف المتدرج - فى بطاقات أو صحائف ، على أن يعاود تنظيمها وضبطها فى مواضعها ، وهذه الطريقة تتطلب أن يترك المؤلف فراغات واضحة بمسوداته لما قد يضيفه من معلومات طارئة أو متجددة (٦٩) وهذا ما وجدناه متبعاً فى كتاب « معجم السفر » فالكثير من التراجم التى أوردها السلفى جاءت ناقصة وبها فراغات واضحة . وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول السلفى : « أنشدنا أبو محمد بن توهيب الوراق لنفسه » (٧٠) ثم نرى بعد ذلك فراغا ولا نجد شعرا لابن توهيب . وعلى هذا يمكننا قياس الكثير من التراجم والأخبار التى وردت فى المعجم (٧١) .

وهناك أيضا سبب آخر جعل الكتاب به ثغرات كبيرة لم تكتمل - بناء على الطريقة التى اتبعها السلفى - وهو : أن مجموعات كبيرة من التعليقات التى دونها عن شيوخه كان قد تركها وديعة فى بعض البلاد التى زارها أثناء رحلته ، على أمل أن يهين الله له إحضارها بطريقة أو بأخرى . غير أن هذا الأمل لم يتحقق ، ولم يمهله القدر فى إحضارها ووضعها فى كتابه ، ولذلك جاءت معظم ترجماته فى « معجم السفر » ناقصة .

ويمكننا أن نتبين هذا من خلال الإشارات الكثيرة التى أوردها فى ثنايا كتابه والتى تفيد أيضا أن هذه المجموعات كانت ذات قيمة كبيرة لديه .

وها هى ذى بعض النماذج :

يقول السلفى فى ترجمته للفقير شريف بن فياض « وقرأت عليه أحاديث وهى مودعة فى جملة ما أودعته بثغر آمد » (٧٢) .

وفى ترجمته « لشفاء بن عبد الجبار » يقول : « وما كتبه عنه فى جملة ما خلفته بثغر سلماس مودعا » (٧٣) .

وفى ترجمة عبد الله بن الحسين يقول : « وما كتبه عنه فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس أوصلها الله تعالى إلى بكرمه » (٧٤) .

وذكر فى ترجمته « لـ عبد الله بن أبى نصر الشيرازى » « وعلقت عنه من حكايات الشيوخ وهى كلها فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس جمعها الله على قبل الممات بفضله وكرمه » (٧٥) .

وفى ترجمة « على بن السند » يقول : « ولم أظفر الآن بما كتبه عنه فهو بثغر آمد مع فوائد ديار بكر مودع سهل الله وصول الكل إلى » (٧٦) .

ولا أطيل بذكر هذه الأمثلة العديدة (٧٧) وحسبى أن يكون فيما أوردته بيانا على أن الكثير من أجزاء هذا الكتاب لم تدون ، والتي تركت معها ثغرة كبيرة جعلت الكتاب يبدو ناقصا من نواحي كثيرة (٧٨) .

وهذه النقطة تحيلنا إلى تساؤل على جانب كبير من الأهمية ، وهو : متى انتهى السلفى من تدوين كتابه ؟

والإجابة على هذا التساؤل تبدو عسيرة بعض الشيء ، لأن آخر تاريخ صرح به السلفى فى معجمه كان سنة ٥٦٣ هـ (٧٩) مما يعنى أنه وقف فى تدوين كتابه عند هذا التاريخ .

بيد أن ذلك الحكم يؤخذ بتحفظ ، لأن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ . ومن المستبعد أن يظل ثلاثة عشرة سنة لا يدون فيها شيئا عن شيوخه سواء الذين كانوا بالإسكندرية أو الوافدين عليها ، خاصة بعد ما عرفنا من المصادر أنه ظل متمتعا بالصحة والحواس السليمة ودقة الملاحظة حتى آخر ليلة من وفاته . ويؤكد ذلك الذهبى بقوله : « وحدث ليلة موته ، وهو يرد اللحن الخفى على القارئ ، وصلى الصبح ومات فجأة » (٨٠) .

وهذا يجعلنى أعتقد أن السلفى لم يتوقف فى كتابه عند سنة ٥٦٣ هـ . ولعل ما يقوى هذا الاعتقاد ويرجح أنه أورد تراجم فى كتابه « معجم السفر » لبعض الرجال الذين عاصروهم وقابلهم عاشوا بعد هذا التاريخ بمدة . وقد وجدنا تاريخ وفاتهم مدون فى المصادر الأخرى ، منهم على سبيل المثال :

« اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى الأندلسى ، (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) (٨١) و « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى اليابس » (ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) (٨٢) و « أبو الطاهر إسماعيل بن عوف » ، (ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) (٨٣) .

والذى يمكن أن نستخلصه أخيراً بعد هذا العرض هو : أن السلفى جمع أجزاء كثيرة من مادة كتابه ، ولكنه لم يتمها على الوجه الأمثل الذى أراده هو

وأردناه نحن ، بل ظل نمو جمعه للمادة العلمية يطرد مع الأيام لم يصل فيها إلى نهاية محددة تنتهى بتاريخ معين . ولم يمهله القدر ليدون ما جمعه فى كتاب خاص بذاته مرتب ومبوب عن طريقه هو ، بل ظلت مادة كتابه على هيئة مسودات أو صحائف أو ما أطلق عليه « جزازات » إلى أن هيا الله تعالى من يقوم من بعده يجمعها وترتيبها ثم نسخها فى شكل كتاب .

ومن هنا نصل إلى « ثانى الأمور » المتعلقة بما ورد فى صدر الصحيفة الأولى من المخطوط الذى طبع عنه الكتاب الذى بين أيدينا . وهذا الأمر متعلق باسم الناسخ الذى قام بتبيض وترتيب هذه الجزازات .

وبما أن النص لا يشير إلى اسم الناسخ ، فقد وجدنا ما يدلنا عليه ، وهو السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتويخ » . يقول السخاوى « ومعجم السفر ، للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد بخط محمد بن المنذرى ، قال عن أبيه الزكى : أنه وقع له بخط السلفى فى جزازات ، كل ترجمة فى جزاة ، فييضها ورتبها كما تجى لا كما يجب ، وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » (٨٤).

وحلقة الاتصال الأولى كما تبدو من هذا النص شملت الزكى المنذرى بصفته الجامع الأصل لمسودات السلفى ، والقائم بترتيبها . أما الحلقة الثانية فهى ابنه محمد الذى أوكل إليه المنذرى مهمة نسخ الكتاب . ، ويفسر ذلك قوله « فييضها ورتبها كما تجى لا كما يجب » بالكسرة المشددة فى حرف الياء فى (ييضها) والتاء فى (رتبها) ومع أن هاتين الكلمتين لم يضبطا بالشكل فى النص الوارد إلا أن ذلك يتمشى مع سياق الجملة ، فضلا عن أنه يتفق مع ما ورد فى صدر الصحيفة الأولى من المخطوط فى قوله « فييضها ورتبها كما تجى لا كما يجب » بلفظ المتكلم على لسان محمد بن المنذرى ناسخ المخطوط كما بين السخاوى .

ولعل ما يفسر قول المنذرى الوارد فى النص « كما تجى لا كما يجب » أنه أضاف إلى جانب ترتيبه لمسودات تراجم السلفى بعض القول والإشارات ، فأراد بذلك أن يضع قاعدة لابنه « محمد » يسير عليها عند نسخ الكتاب فلا يشذ عنها.

وربما يكون هذا ما قصده السخاوى من قوله عن المنذرى « وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغي » .

بيد أن الشئ الذى يحسب للمنذرى فى نقوله وإشاراته التى أوردها فى معجم السفر ، أنه أضاف نصوصا بأكملها ، من المرجح أنها ضاعت من أصول السلفى ، وعثر هو عليها مدونه بخطوط أصحابها . ليس هذا فحسب بل كان ينبه القارئ بين ما كتبه السلفى بخطه ، وبين ما كتبه غيره له . وفى كل هذه المواضع كان المنذرى يصرح باسمه ، فإذا ما كان الكلام للسلفى بعد ذلك أبانه بقوله « قال الحافظ » أو « رأيت بخط السلفى » كى يفطن القارئ بين هذا وذاك فلا يحدث التباسا ، والأمثلة على ذلك قليلة فى « معجم السفر » (٨٥) مما يعنى أن مداخلات المنذرى كانت بغرض حفظ تراث السلفى وإثباته .

كذلك يحسب « للمنذرى » ترتيبه وتنسيقه للكثير من الورقات التى قام السلفى بتعليقها ولم يضعها فى مظانها . وكان « المنذرى » ينص على ذلك صراحة مكثفيا ببعض العبارات مثل « وفى ورقة أخرى » (٨٦) و « بخطه يعنى السلفى يقول » (٨٧) و « قال السلفى فى رقعة أخرى » (٨٨) وهكذا .

وإزاء ذلك فنحن أمام حقيقتين : الأولى : أن المنذرى هو الجامع الأصلى لمسودات « معجم السفر » وصاحب الترتيبات والإضافات التى فيه ، والثانية : أن ابنه محمداً هو الناسخ الذى يمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة توصيل الكتاب إلينا .

فمن هو إذا المنذرى ، وما مدى توثيقه وعدالته ، وكيف استطاع الحصول على مسودات كتاب « معجم السفر » ؟ ومن هو ابنه محمد ، وما مدى عدالته ؟ ولارىب فى أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تعيننا كثيرا على الاطمئنان والتثبت من أصول الكتاب ، وبأنه دون فعلا عن صاحبه السلفى .

أما عن المنذرى : فهو : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله الشهير «بزكى الدين المنذرى» أصله من الشام ، وولد بمصر سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ،

ونشأ وتوفى بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، أى أنه مصرى المولد والدار والوفاة. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر وانقطع بهما مدة عشرين سنة، وكان من المتبحرين فى علم الحديث على اختلاف فنونه ، وله اليد الطولى فى علم اللغة والفقه والتاريخ (٨٩) .

وعن توثيقه وعدالته ، فقد قال فيه ابن خلكان « الحافظ زكى الدين محدث مصر فى زمانه » (٩٠) .

ووصفه ابن كثير بقوله « الإمام العلامة ... سمع الكثير ورحل وطلب ، وعنى بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه ... وكان ثقة حجة متحريراً زاهداً » (٩١). وذكره ابن تغرى بردى فقال : « الإمام الحافظ الحجة ، سمع الكثير ، ورحل وكتب وصنف وخرج وأملى وحدث بالكثير ... وهو أحد الحفاظ المشهورين » (٩٢).

وأخيراً يصفه السيوطى بقوله « الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام ... كان عديم النظر فى علم الحديث إماماً حجة ، بارعاً فى الفقه والعربية والقراءات ورعاً متبحراً » (٩٣) .

إذن كان المنذرى آية عصره فى الحفاظ والتثبت وحجية القول ، وفى ذلك ما يرفع من قيمة ما دونه من كتاب «معجم السفر» ويطبعه بطابع عميق من الصحة . أما عن كيفية حصوله على مسودات كتاب « معجم السفر » فقد ثبت تاريخياً استحالة أن يكون أخذها من السلفى مباشرة ، لأنه لم يتقابل معه أصلاً . والسبب بسيط وهو : أن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمنذرى ولد سنة ٥٨١ هـ أى أن السلفى توفى ولم يكن المنذرى قد ولد بعد .

ولم يبق أمامنا إزاء ذلك إلا احتمالين :

أما الأول : فهو ما ذكرته المصادر من أن السلفى كانت لديه مكتبة ضخمة حوت كل تراثه ومدوناته وغيرهما من نفائس الكتب ، للدرجة أن وصفها الذهبى

بقوله « قل ما اجتمع لعالم مثلها فى الدنيا » (٩٤) ولكن الشئء المؤسف أن هذه المكتبة تلف أكثرها بعد وفاته ، ويصور لنا ذلك المنذرى (٩٥) بقوله : وكان عنده (أى السلفى) خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة البلد (الإسكندرية) فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها «(٩٦) .

وما نستطيع تفسيره من هذا النص هو : أن مكتبة السلفى ظلت مغلقة حينما من الدهر بعد وفاته ربما حتى زمن المنذرى ، وبأمر من سلطان الدولة أو حاكم الإسكندرية مثلاً تم فتحها للتصرف فى محتوياتها . وكان المنذرى حاضراً هذا المشهد ، وبطريقة أو بأخرى وقعت فى يده هذه المسودات فجمعها ودونها . وهذا الاحتمال بعيد فيما اعتقد .

وأما الاحتمال الثانى الذى ارجحه فهو أن يكون تراث السلفى هذا انتقل بعد وفاته إلى ابنته الوحيدة « خديجة » التى نشأت فى كنفه وتعلمت منه الحديث وروته عنه بالإسكندرية ، وتوفيت سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (٩٧) . ولكى تحفظ « خديجة » هذا التراث لأبيها رأت أن تجيز لطلاب العلم النبهاء فيدونوه ويحفظوه ثم تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل حتى يصبح أثراً خالداً . ويؤيد هذا التصور أن المنذرى كان أحد الطلاب الذين اجازتهم خديجة ، وقد أكد بنفسه على ذلك بقوله « ولنا منها إجازة ، كما مدحها بـ « الشيخة الأصيلة » (٩٨) .

لهذا فإنه من المرجح أن تكون خديجة هى التى أعطت المنذرى مسودات «معجم السفر» وأجازت له تدوينها وحفظها وهى تعى تماماً أنها ستكون يد أمينة لأن المنذرى - كما بينا - هو من هو فى علمه وفهمه وتحريره وزهده .

أما عن إجابة الشق الثانى من الأسئلة الخاصة « بمحمد بن المنذرى » ناسخ كتاب « معجم السفر » فما نعلمه من أمر حياته أنه ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م (٩٩) وقام أبوه المنذرى باصطحابه إلى العلماء الأفاضل للسمع عليهم ، ثم أكب على طلب العلم بنفسه فرحل وسمع بدمشق وحلب ، حتى وافته المنية وهو شاب فى سنة (٦٤٣ و قيل ٦٤٤ هـ) (١٢٤٥ - ١٢٤٦) (١٠٠) .

وعلى الرغم من تلك الفترة القصيرة التي عاشها « محمد بن المنذرى » إلا أنه أظهر فيها نبوغا وفطنة وفضلا . وقد دلنا على ذلك تلك الأسطر القليلة التي وصفه فيها بعض المؤرخين :

فقد قال فيه الذهبي : « الحافظ الزكى ... أحد الشباب الفضلاء كتب الكثير ولو عاش لساد » (١٠١) .

ووصفه الصفدى بقوله : « الحافظ المتقن ... كان ذكياً فطناً حافظاً » (١٠٢) .

نستخلص من هذا : أن شخصية محمد بن المنذرى كانت على شاکلة أبيه من الأخلاق الحسنة والذكاء والإتقان والحفظ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقاء سريرته والثقة به وبعلمه مما يجعلنا نطمئن إلى الاعتقاد بأن ما نسخه من كتاب « معجم السفر » على أعلى قدر من الثبوت والضبط .

وثمة تساؤل أخير ينبغي أن نعالجه فى هذا الموضوع . وهو : هل كتاب «معجم السفر» الذى بين أيدينا تم نشره مباشرة عن النسخة التى كتبها محمد بن المنذرى بخطه ، أم أن هناك حلقة أخيرة فى سلسلة توصيل الكتاب ؟

وللإجابة أقول : بعد الإطلاع على خاتمة كتاب « معجم السفر » وجدنا عبارتين تفيدان أن هناك ناسخ أخير كتب تلك النسخة التى خطها محمد بن المنذرى ، وعنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا .

العبارة الأولى « آخر ما وجد من معجم السفر » بخط الإمام الحافظ أبى طاهر الأصبهاني فى جزازات . « ويبدو أنها عبارة المنذرى » التى خطها بقلمه ابنه محمد» (١٠٣) .

أما العبارة الثانية : فهى كلمة الفراغ من الناسخ الأخير للمخطوط ونصها « فرغ من نسخه العبد الفقير إلى ربه الجواد » عبد الحفيظ بن المرحوم محمد صالح حماد « يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شوال سنة ١٢٣٩هـ » (١٠٤) .

وبناء على ذلك فإن « عبد الحفيظ » هذا يكون آخر حلقات الاتصال فى سلسلة نسبة سياق الكتاب إلى مؤلفة الأصيل السلفى .

بالإطلاع على المصادر التى تحت يدى لم أعثر لهذا الناسخ على ترجمة ، وكل ما استطعنا معرفته « فى ضوء النص السابق » أنه كان موجودا عام ١٢٣٩هـ ، وهى سنة انتهائه من كتابة « معجم السفر » ، فهو إذا من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

وحتى يمكننى التأكد من نزاهة وأمانة هذا الناسخ ، للتحقق من صحة أصول الكتاب ، لم يكن أمامى إلا التعرف على أسلوب السلفى ذاته فى « معجم السفر » وهل هو يتفق مع ذات الأسلوب الذى اشتهر به فى أعمال أخرى له أم لا ؟ ثم مقارنة ذلك على أساليب وصيغ كتاب العصر الذى عاش فيه السلفى ، وفى هذه الحالة إما أن يجعلنا الناسخ مرتبطين بأصول وجذور الكتاب كما دون عن صاحبه الأصيل ، وأما أن يخرجنا عن هذا الإطار .

والمطلع على أسلوب السلفى فى معجمه هذا يلحظ بوضوح أنه يغلب عليه طبع المحدثين ، فهو لا يلقى بالاً للأناقة اللفظية أو الجمال الفنى بقدر ما يعطى من الحرص على سلامة السند ، وصحة الرواية ودقة التاريخ وضبط الأسماء .

فأسلوبه سهل يبين يعتمد الألفاظ الدقيقة المؤدية للمعنى المراد بلا تعقيد ولا إبهام ، بالإضافة إلى أن أسلوبه يتسم بالزهد والتواضع ونزاهة النفس والإيجاز الذى يتحقق به التيسير على القارئ فيصل إليه ببساطه وعدم تكلف لدرجة أننا نجد فى بعض عباراته بعض الأساليب التى تصل إلى مستوى لغة العامة .

وإليك بعض النماذج :

فمن أساليبه التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام وتؤدى إلى المعنى المراد قوله : «المهذب هذا كان مهذباً كاسمه فى العربية وحسن الصحبة» (١٠٥) و«مفرج هذا كان كفيها وفقهها عفيها» (١٠٦) ومن أساليبه التى تتسم بالزهد والتواضع :

نقتطف هذه العبارات : فيقول مثلاً في ختام تراجمه التي يوردها عن شيوخه وأصحابه « رحمه الله - والله أعلم - عفا الله عنا وعنه - رحمه الله وإيانا - والله تعالى يوفقنا ويحلنا دار كرامته - رحمه الله وتجاوز عن سيئاته » وهكذا (١٠٧) .

ومن أساليبه التي تصل إلى مستوى لغة العامة قوله : « ابن خير هذا كان معجوناً من الخير » (١٠٨) أو « وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء » (١٠٩) .

وتتجلى صفة الأريّة والتواضع في أسلوبه ، في أنه لم يثبت في كتابه أية قصيدة أو مقطوعة قيدت في مدحه ، مع أنها كانت كثيرة ، وإنما كان يكتفى - أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذي يمتدحه - بقوله « له فـى غير قصيدة » و « له فـى قصائد جمّة » « وقد مدحني بغير قصيدة » (١١٠) إلى غير ذلك من أمثلة.

وبالكشف عن درجة هذا الأسلوب ومستواه في أعمال السلفى الأخرى أدركنا الكثير من نواحي الاتفاق بين الأسلوبين . وها هو ذا مثال : من طلب الإجازة التي كتبها بخطه إلى « الزمخشري » كي يميز له مسموعاته وما ألفه في فنون العلم نلمس فيها تواضع السلفى في مخاطبة العلماء ، وأسلوبه السهل اليسير ، وكثير من الصفات التي تجتمع مع أسلوبه في معجمه - ونقتطف من تلك الإجازة العبارات التالية : يقول السلفى « إن رأى الشيخ الأجل العالم أدام الله توفيقه أن يميز جميع مسموعاته وإجازاته ومروياته لأحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصبهاني ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب ... وإن تم إنعامه أبيات قصار ومقطوعات مستفادة من الحكم والأمثال والشرط في كل هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله ويعلم وفقه الله - أنه وقع إلينا كتاب من « يعقوب ابن شرين الجندی ... والحاجة داعية إلى تعرف اسمه ونسبه وضبطه » (١١١) .

كذلك اتضح لنا بعد قياس أسلوب السلفى في « معجم السفر » على كتابه « معجم بغداد » الكثير من نواحي الاتفاق بين الأسلوبين ، ففي الأول نراه

معنيًا برواية ما سمعه عن شيوخه من أحاديث متصلة الإسناد إلى قائلها ، إلا أنه يستطرد بين الحين والحين إلى ذكر حادثه طريفة أو نادرة أو أبيات من الشعر مسندة أيضا إلى قائلها وهذا ما وجدناه متبعا في أسلوبه « بمعجم بغداد » (١١٢) .

واعتقد أن في هذه الأمثلة التي أوردتها كفاء لما أردت بيانه عن هذه النقطة.

نأتى بعد ذلك إلى مقارنة هذا الأسلوب مع أساليب وصيغ كتاب القرنين الخامس والسادس للهجرة حيث كان السلفى موجوداً .

والمحصلة التي استطعنا أن نخرج بها في النهاية أن أسلوب السلفى في «معجم السفر» والصيغ التي استخدمها في كتابته متفقة أيما اتفاق مع الأساليب التي كان يستخدمها كتاب هذا العصر ويصوغون في قالبها كتبهم المتخصصة التي تدور حول رجال الحديث وعلومهم وتوضيح أخبارهم وإيراد الحكايات والأشعار عنهم مع ذكر أنسابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم الخ .

ومن أمثال هؤلاء الكتاب « الإمام المحدث عبد الكريم السمعاني » (ت ٥٦٢ هـ) وكتابه الشهير « الأنساب » وابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) وكتابه « غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة » والحافظ أبو بكر الحازمي (ت ٥٨٤ هـ) وكتابه « عجالة المبتدئ وفضالة المنتهى في النسب » وغير هؤلاء كثيرون ممن يزخر بهم تراثنا الإسلامى حتى وقتنا الحاضر .

وأساليب هؤلاء الكتاب في الغالب الأعم ، أساليب محدثين يتبين منها الحرص على الأسانيد ، والكشف عن أحوال الرواة ، والاعتناء بمعرفة شيوخهم وتلاميذهم ، والتمييز بين الخيث والطيب وبين المجروح والمعدل منهم . وكل ذلك بأسلوب سهل من غير تكلف ولا تعقيد (١١٣) .

وأخيراً، وبعد هذا العرض لأسلوب السلفى وبيان درجته ومستواه وقياسه على أسلوبه في أعماله الأخرى ، وعلى أساليب الكتابة التي كانت سائدة في عصره نقرر حقيقتين :

أولا هما : أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب « معجم السفر » الذى بين أيدينا هو لمؤلفه السلفى وذلك عن طريق الأدلة التى بينها .

ثانيهما : أن الناسخ الأخير للكتاب وهو « عبد الحفيظ بن محمد صالح حماد - الذى لم نعر له على ترجمة فى المصادر التى تحت أيدينا - كان أميناً فى ما نقله . إلينا عن السلفى من أصول كتابه « معجم السفر » وهذا يجعلنا نطمئن إلى أنه لم يخرجنا عن أصل صورته الأولى . ولعل الشئ الذى يؤكد نزاهته أيضاً هو : أنه لم يتدخل فى أصول الكتاب ألا فى حدود ضيقة كإبراز كلمة مثلاً غير واضحة فى الأصل الذى كان ينسخ عنه ، أو تصحيح كلمة تحتل معنيين مختلفين وهكذا . وكان ينص على ذلك صراحة فى هامش النسخة التى طبع عنها هذا الكتاب ، وقد أورد لنا المحقق بعض الأمثلة التى تشير إلى هذا (١١٤) .

وإذا كان الفضل ينسب بادئ الأمر فى جمع شتات هذا السفر التاريخى القيم - إلى عبد العظيم المنذرى ، ويليهِ ابنه محمد الناسخ الأصيل للكتاب . فإننى أرى أن هذا الرجل « عبد الحفيظ بن محمد صالح » لا يقل فضلاً عنهما لأنه حافظ على ما دوناه رغم الفارق الزمنى الهائل بينهما وبينه ، وبذلك وصل الكتاب إلينا فى صورته الحالية التى بين أيدينا مما جعلنا مرتبطين بأصوله وجذوره .

* أهم محتويات الكتاب :

كتاب « معجم السفر » يضم بين دفتيه تراجم حياة شيوخ السلفى ورفاقه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم وسمع منهم خلال رحلته الطويلة التى طاف فيها الكثير من بلدان المشرق الإسلامى ، والذين عاش بينهم من أهالى الإسكندرية وعلمائها منذ أن استقر فيها حتى وفاته ، ويشتمل الكتاب أيضاً على تراجم لأعداد من شيوخ القاهرة الذين التقى بهم السلفى وسمع عليهم .

كذلك يتضمن الكتاب تراجم لأعداد غفيرة من العلماء المغاربة والأندلسيين وغيرهما ، من الذين وفدوا على الإسكندرية والتقوا فيها بالسلفى ، سواء فى بيته

أم مدرسته ، فضلاً عن أن الكتاب يتضمن الكثير من الأخبار والحكايات والحكم التي فيها الكثير من العبر والفضائل ، وغير ذلك من معلومات هامة عن الحركة الفكرية والعلمية خلال القرن السادس الهجري ، في الإسكندرية بصفة خاصة ، وبلدان المشرق الإسلامي بصفة عامة .

الخصائص المتعلقة بمنهج السلفي في تأليف كتابه " معجم السفر " .

وقد رأيت أن أبدأ بالحديث عن الغرض من تأليف الكتاب ثم بيان مصادر السلفي التي اعتمد عليها في تأليف كتابه . وأخيراً نعالج مسألة المنهج الذي سلكه في عرضه التاريخي .

*** الغرض من تأليف الكتاب :**

كان من عادة العلماء في كل فن أن يقدموا لمصنفاتهم بمقدمات يشرحون فيها مقاصدهم وأغراضهم التي دعتهم إلى التأليف ، حتى ينيروا السبل أمام القارئ ليكونوا على بينة وإدراك عما بداخل هذه المؤلفات . ومن هنا تصبح المقدمة جزءاً مكملًا لكل كتاب .

وكتاب « معجم السفر » الذي بين أيدينا جاء خالياً من أى تقديم (١١٥) نستطيع من خلاله التعرف على دواعي ومقاصد مؤلفه . ولعلنا نلتمس للسلفي العذر في ذلك لأنه لم يكمل كتابه على النحو الذي أراده _ كما بينا آنفاً _ فكيف إذا يضع له مقدمة ! ؟

لهذا كان البحث في ثنايا الكتاب وقراءة موضوعاته وقضاياه المختلفة هو الطريق الأمثل لبيان ذلك .

وبعد بحث وتدقيق ، هدانا الله أخيراً إلى أن الغرض الأساسي والهدف الواضح الذي سعى السلفي من أجله لتأليف كتابه هو : « خدمة السنة النبوية » : في جميع مجالاتها المتمثلة في إيضاح الصحيح والضعيف من الأحاديث ، وأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً ، مع أفراد تراجم خاصة لرجال عصره تحوى معلومات وافية

ودقيقة توضح حقيقة الأشخاص ، بما لهم وما عليهم من غير ظلم أو مجاملة في ثناء لا يستحقوه .

والمتبع لكتاب « معجم السفر » يلحظ هذه الغاية بدقة ووضوح ، فقد حوى الكتاب على ما يقرب من مائتين وخمسة وثلاثين حديثا نبويا رواها السلفى عن شيوخه (١١٦)، مفردا تراجم عن كل واحد منهم ، بالإضافة إلى أن هناك شواهد أخرى في الكتاب ترجح ما ذهبنا إليه في هذا الصدد وتقويه ، من أبرزها: تلك الأشعار والحكايات الصالحة التي يوردها على لسان أصحابها والتي تدل على حماسه وتأثره وحبه لسنة النبي ﷺ والرغبة الصادقة لديه في خدمة دينه العظيم - الدين الإسلامى . وإليك بعض النماذج من الشعر والحكايات الهادفة التي تدخل في إطار غايته الأساسية من تأليف كتابه :

فمن الشعر : تلك القصيدة التي أوردتها في مدح النبي ﷺ « على لسان أبى الفضل جعفر بن الطيب الصقلى » جاء فيها :

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الْكِرَا	مِ وَمَنْ أَتَى بِالْمُعْجَزَاتِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ مَا	أُوتِيَتْ مِنْ حَسَنِ الصِّفَاتِ
لَقَهَرْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ	وَعَلَوْتَ فَوْقَ النِّيَرَاتِ
لَكَ هَيْئَةٌ وَجَلَالَةٌ	سَارَتْ إِلَى كُلِّ الْجِهَاتِ
ومودة تلقاك من	كل العيون الناظرات
صَلَّى إِلَهُ عَلَيْكَ مَا	قَطَرَتْ دُمُوعُ الْجَارِيَاتِ (١٧٧)

ومن صريح ما أورده السلفى في تمجيد السنة النبوية المطهرة ، تلك الحكاية التي سمعها من « أبى العز نصرود بن فتوح » حيث يقول « أى السلفى » سمعت نصرود يقول : « مرضت مرضه أشفيت منها على الموت وبعث فيها كتباً أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، فذكرت ذلك بعد أفاقتى

من مرضى لأبى القاسم بن القطاع (١٨٨) فغضب على غضباً شديداً وقال : كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ، هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ولم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسى ومن الحاضرين وندمت غاية الندم» (١٩٩).

وإلى جانب ذلك فقد ضمن السلفى كتابه الكثير من الأخبار عن المتصوفين الحقيقيين ، وذكر الحكايات ذات العظة والعبرة عنهم ، التى تدعو إلى مكارم الأخلاق والصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم (١٢٠) والسلفى بذلك يفتح أكثر من نافذة لكى توصله إلى هدفه المنشود وهو خدمة السنة النبوية ، وليكن التصوف الحقيقى وأخبار رجاله أحد هذه التوافذ التى توصله إلى غرضه السامى والنبيل .

وإضافة إلى ما ذكر : فإن ثمة شئ جدير بالتسجيل فى هذا الصدد ، وهو . أن تلك الغاية التى ارتضيها من وراء تأليف هذا المعجم نراها تمشى بوضوح مع مذهب السلفى الذى كان يدين به وهو : المذهب السنى .

مصادر السلفى فى « معجم السفر » :

اتخذ السلفى لنفسه منهجاً خاصاً فى ذكر مصادره ربما اختلف عن الطريقة التى سلكها المؤلفون السابقون له أو الخالفون من بعده .

فالمصادر التى استقى منها مادته الخيرية ، تعتمد على المصادر المباشرة التى تقوم على المقابلة والمشافهة والأخذ المباشر عن السنة الرواة . وقد التزم السلفى بذلك التزاماً شديداً فلم يجمع مادة كتابه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ،

ولم يسجل ترجمة دون أن يكون قد قابل صاحبها وتحدث معه وكتب إليه ، ليس من بينهم ترجمة لعالم من الذين ماتوا قبله .

والصيفغ التي وردت في الكتاب واستخدمها السلفي في التلقى تكاد تجمع على ذلك ، وهي : إما : (سمعت فلانا) أو (اخبرني) أو (أنشدني) ، أو (حدثني) أو (رأيت فلانا وقال لي) وهكذا تطالعنا هذه الصيفغ في كل صفحات الكتاب .

وهذه المصادر التي تلقى عنها مادته العلمية : كثيرة بشكل ملحوظ حيث يبلغ عددها على وجه التقريب - ٧٩٤ - مصدرا الغالبية العظمى منها لشيوخ وعلماء عاشوا بالإسكندرية ، فهم إما من أهلها أو من بلاد أخرى نزلوا بها واتخذوها مقر إقامة دائمة ، وما عدا ذلك لعلماء من بغداد والحجاز أو غيرهما من البلاد ، أخذ عنهم السلفي وسمع منهم ببلادهم أو أثناء عبورهم بالإسكندرية . ولو أردنا التحدث عن جميع هذه المصادر لا تسع بنا المدى ، وابتعدنا بعض الشيء عن مقصدنا ، لذلك سوف نكتفي بالحديث الموجز عن أشهرهم ذكراً وأكثرهم مساهمة في إعداد المادة العلمية ، وعليهم كان اعتماد السلفي في تدوين معلوماته ثم نعقب بالحديث عن بعض الرواة المشهورين الذين اكتفى السلفي بإيراد القليل من الأخبار عنهم ، ثم نعرض للقلة غير المشهورة من الرواة الذين أخذ عنهم ، وأخيرا نعرض لبعض المصادر المباشرة التي تجاهل السلفي ذكرها .

* أما عن الفريق الأول فمن أبرز أفرادہ :

- « أبو الكرم حميس بن علي الحوزي » (ت ٥١٠هـ / ١١١٦ م) :

وينسب إلى قرية حَوْز بمدينة واسط (١٢١) وهو من الرجال الذين عثرنا لهم على ذكر وصدى طيبين في المصادر ، فمن أشهر ما قيل عنه : أنه كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفي شيوخه كثرة ، وكان معلما لم يزل يعرف فضله ومؤدبا كل متأدب . أنار بواسط لأهلها كل ليل من الجهل (١٢٢) .

وعلاوة على ذلك فقد خصه السلفى بترجمة فى كتابه « معجم السفر » .
تحمل هذه المعانى وتبين درجة اعتماده عليه فقال : « علقت عنه فوائد ، وسألته
عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبتته فى جزء ضخيم هو عندى (١٢٣) وقد أملى
على نسبه ... ومولده سنة (٤٤٧هـ) والله تعالى يرحمه وإيانا إذا صرنا إلى ما
صار إليه ، فقد كان إتقانه ممن يعول عليه » (١٢٤) .

و « خميس بن على » هذا من أكثر شيوخ السلفى الذين اعتمد عليهم فى
السؤال عن أحوال الرواة، فعليه كان معول السلفى الأساسى فى تدوين معلوماته
- فقد أخذ عنه بطريق مباشر فى حوالى اثنى عشر موضعاً . مصرحاً باسمه فى
جميعها (١٢٥) .

- و « أبو صادق مرشد بن يحيى المدينى المصرى » (ت ٥١٧هـ /
١١٢٣م) كان من المحدثين المنفردين بعلو الإسناد بمصر ، مشهوراً بالثقة والصلاح
والخير، يقول عنه السيوطى « كان أسند من بقى بمصر » (١٢٦) .

وأبو صادق هذا سافر إليه السلفى خصيصاً من الإسكندرية للأخذ عنه وعن
طبقة خلال رحلته الوحيدة التى قام بها إلى القاهرة (١٢٧) ومن خلال تتبعنا
لـ «معجم السفر» وجدنا أن أبا صادق كان له أثر كبير فيه ، إذ أفاد منه السلفى
فى كثير من التراجم التى جمعها عن شيوخ مصر الذين التقى بهم فى مجالس أبى
صادق . وقد ذكرها السلفى فى كتابه حوالى أربعة عشر مرة (١٢٨) .

- و « أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى » (١٢٩) (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) .
كان إماماً عالماً زاهداً ، فقيهاً على المذهب المالكى ، عنده تواضع وتقشف
راضياً من الدنيا باليسر (١٣٠) ولد سنة (٤٥١هـ / ١٠٥٩م) بالأندلس ورحل
إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) واستقر به المقام بالإسكندرية فقطنها
حتى وفاته دفن بها (١٣١) ونكفى لتوضيح مكانة ما قاله عنه ابن تفرى بردى «
وفضله مشهور لا يحتاج إلى بيان » (١٣٢) ومن خلال ما ورد فى « معجم السفر »

نستطيع أن نتعرف على أن السلفى قابل الطرطوشى بالإسكندرية ، وكان يحضر مجالس علمه ، التى استفاد منها فى بعض نقوله التى صرح بها فى معجمه (١٣٣)

* أما عن الفريق الثانى فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء كثيرون ، وقد استطعنا من خلال تتبعهم فى كتب التراث الأخرى أن نتعرف على أصالتهم والثقة بهم ، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال :

- « أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق المقرئ » المعروف بابن الفحام (ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) ، قال عنه السلفى « من كبار القراء وكان حافظاً صدوقاً متقناً عالماً كبير السن » (١٣٤) .

وما قاله عنه المؤرخون لا يختلف عن هذه المعانى بل يؤكد عليها ويبين مدى الصدق بها فقد قال فيه ابن تغرى بردى : « كان من كبار شيوخ القراء سكن الإسكندرية وقصده الناس من النواحي لعلو إسناده وإتقانه » . (١٣٥)

وقال عنه السيوطى « إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية علواً ومعرفة وروى عنه السلفى » (١٣٦) .

- كذلك صرح السلفى بالرواية عن « أبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى الإسكندراني » المحدث المعروف بابن الخطاب (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) ، وذكره فى بعض مواضع من كتابه تفيد بالسماع منه ومقابله ، والاستخبار عن أحوال بعض الرواة (١٣٧) .

وأبو عبد الله هذا من الرجال المشهورين والرواة المعروفين الذين وقفنا لهم على ذكر حسن فى المصادر ، فهو مسند الديار المصرية فى وقته . وشيخ الإسكندرية وأحد عدولها المبرزين فى علم الحديث ، وقد ذكره السيوطى فى جملة المحدثين المنفردين بعلو الإسناد (١٣٨) .

وما أورده السلفى عن هذين العالمين يمكننا قياسه على معظم مصادره
المباشرة أو رجاله الذين روى عنهم فى هذا الباب حيث أنهم معروفين من قبيل
ابن الفحام ، وابن الخطاب السابق ذكرهما (١٣٩) .

* وأما عن الفريق الثالث فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء يختلفون عن سابقهم من حيث الشهرة والمعرفة ، ربما لأنهم كانوا
من عامة الناس أو أرباب المهن الأخرى . ومع ذلك قابلهم السلفى وسمع منهم لما
رأى أن هناك فائدة مرجوة من ذكرهم وتدوين أخبارهم فعلى سبيل المثال : نراه
أى « السلفى » يكتب عن أحد الأشخاص ويدعى : « وجيه الدين بن شبل بن
ذى القرنين » فيقول : عنه « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمه لالعلو سنده ولا
علمه » (١٤٠) .

ويقول عن « وهيب بن مترف بن مهيوف » الذى انشد السلفى شعر
بمدينة تَدْمُرُ - « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه وللموضع كذلك » (١٤١) .

كذلك يورد لنا السلفى شعرا عن شخص اسمه « على بن عبد المعطى »
كانت له صَبْوَةٌ ثم تاب على يديه ، ويقول عنه « كان يحفظ من الشعر كثيرا
وصحب الشعراء وكان من أذكى البرية وكانت له صبوة ثم تاب على يدي
ويجلب إلى واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » (١٤٢) .

* أما عن الفريق الرابع والأخير من مصادر السلفى المباشرة التى تجاهل
ذكرها :

فقد وجدنا أنه فى بعض الأحيان يترك تعيين الشيخ أو المصدر المباشر الذى
أبلغه عن أحوال بعض الرواة فيقول مثلا عن « أبى محمد عبد الرحمن الدونى » «

وبلغنا أنه توفي سنة » (١٤٣) ويقول عن « أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل » « بلغنا أن أبا المحاسن أملى بآمل وقتل بعد فراغه من الإملاء (ت ٥٠٢ هـ) (١٤٤) ونلمس شبيه ذلك بعض العبارات مثل « وقد بلغنى بعد خروجي من مصر » و « ثم قال لي من أثق به » و « توفي سنة على ما حكاها لي من أثق به من أهل المغرب » (١٤٥) .

والظاهر من هذه الأخبار القليلة ، أن السلفي قد استقاها من مصادر مباشرة ، مجهولة لنا معروفة عنده . وذلك الشيء يؤخذ بتحفظ لأنه بعد مقارنة إحدى هذه الروايات - بالمصادر التاريخية الأخرى - وأخص منها ما تعلق بوفاة أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل « الذي ذكر السلفي موته سنة ٥٠٢ هـ - قد ثبت أن هذه الرواية لها شاهد ، فقد أوردها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٩٩ نقلا عن السلفي بل وأكد صحتها عن طريق ما اعتمد عليه من مصادر أخرى .

ولعل ذلك يدعونا إلى نفى الشبهة عن السلفي في التدليس في رواياته ، ويرشدنا إلى الباعث الذي دفعه إلى عدم ذكر أسماء الذين روى عنهم تلك النصوص القليلة ، فرمما كان الباعث هو ميله إلى عدم الإكثار من ذكر رواياته ، وربما كان هؤلاء الرواة أو بعضهم ثقة لا يقلون عن صرح بأسمائهم ، وهذا في رأيي هو الأقرب إلى الصواب .

وأخيراً ، وبعد دراسة هذه المصادر : فإن الانطباع الذي خرجت به هو : أن السلفي قد تعمد ، وبدون موارد ، أن يكون لكتابه مصادر واضحة محددة يستمد منها نصوصه ويؤسس عليها بناء معجمه ، باعتباره كتاباً عماده وأساسه الرواية المباشرة بطريق المشافهة والمقابلة . وغنى عن البيان أن سلوك هذا السبيل في التصنيف التاريخي يضيف على الكتاب الاحترام اللائق ويزيد من قيمته العلمية ،

ومن ثم يصبح الكتاب محل تقدير لدى كل من يطلع عليه ، ويصير بعد ذلك مصدراً يعتمد عليه الباحثون ، ليس هذا فحسب بل إن ما يزيد من قيمته أن تأتي رواياته وأخباره عن مؤرخ ثقة حافظ ، أجمع المؤرخون على عدالته وصدقه كما بينا سالفاً .

* منهج السلفى فى العرض التاريخى :

وصل إلينا كتاب « معجم السفر » مرتباً حسب حروف الهجاء ، بمراعاة الحرف الأول فقط من كل إسم ، دونما النظر إلى ترتيب باقى الحروف . ففى باب الهمزة مثلاً لم يراع فى الترتيب الحرف الثانى من بعد الهمزة أو ما هو أقرب إليها . وهكذا يمكننا قياس ذلك على باقى التراجم التى تبدأ بحرف الباء إلى آخره . ولهذا لم يكن ترتيب الكتاب كما ينبغى .

والحقيقة أن السلفى - رحمه الله - برئ من هذا الترتيب الذى حل بكتابه لأنه - كما أوضحت سابقاً - كتبه على شكل « جزازات » فى بادئ الأمر ولم يتمه على الوجه الأمثل . لهذا فإن المسئول أمامنا عن ترتيب الكتاب على هذا النحو هو : الزكى عبد العظيم المنذرى كما ذكر السخاوى .

والمستبع لمنهج السلفى فى عرضه التاريخى ، فإن أول ما يلحظه بوضوح هو : التزامه الشديد بالإسناد المتصل لكل من ينقل عنهم بدءاً من راوى الخبر مباشرة ووصولاً إلى الشاهد الحقيقى للواقعة ، سواء أكانت حديثاً نبوياً أو حكاية ، أو شعراً .

وأغلب أسانيده تأتى بصيغة التحديث والإخبار والسماع مثل « حدثنا - أخبرنا - سمعت » خاصة فى الأحاديث النبوية ، وإذا كان المروى شعراً يقول « أنشدنى - أنشدنا » .

وهذا اللون من التأليف له صلة وثيقة بعلم الحديث الذى يتخذ الإسناد شرطاً أساسياً لصحة الخبر . ولا عجب فى ذلك فقد كان السلفى ذاته محدثاً قبل أن يكون مؤرخاً ، ومن هنا تأتى أهمية كتابته للتاريخ كعلم يتخذ الإسناد شرطاً أساسياً لصحة الخبر أيضاً . لذا فإن السلفى كان يكتب التاريخ عن دراية ووعى بنظرة الفاحص المدقق .

وعلى الرغم من أن أغلب روايات السلفى جاءت مسندة إلى الشاهد الحقيقى للحدث ، فقد شذ عن ذلك فى حالات قليلة ، تاركاً العهدة على الراوى .

فعلى سبيل المثال : يقول : « أنشدنى عبد الله بن قاسم قال : أنشدنى أبو عبد الله التونسى بمكة ، ولم يسم قائله » (١٤٦) .

وفى موضع آخر يقول « أنشدنى قيس بن غالب وقد أنشدنى قبل قيس غيره ببغداد ولم يذكر أحد منهما قائله » (١٤٧) .

والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو : أن السلفى لم يكن يترك الأمر على علته هكذا ، بل كان فى بعض هذه الحالات يسعى جاهدا وراء المعلومة حتى يعرف قائلها الأسمى عن طريق رواية آخرين ، ومثال ذلك قوله : « أخبرنى أبو القاسم عمر بن الحسين - أخبرنى أبى الحسين ، أخبرنى أبى عمر أنه قال عمن تقدمه :

بُنِىَّ إِنْ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيْنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيْسَ

ثم يرد السلفى معقبا على هذا الشعر بقوله « هذا الكلام لخالد بن صفوان ويورد إسناداً آخر يتصل بخالد بن صفوان هذا » (١٤٨) . وينهج السلفى فى تأليف معجمه منهجاً لا يكاد يشذ عنه فهو يبدأ بما رواه له صاحب الترجمة من حديث أو شعر أو حادثة أو نادرة من النوادر ثم يعقب ذلك بترجمة له قد تطول أو تقصر (١٤٩) .

وعناصر الترجمة عنده تتكون - فى أغلب الأحوال - من سياق اسم المترجم له ونسبه ولقبه وبلده وشيوخه ، والزمن والمكان الذى تمت فيه المقابلة بين السلفى وبينه والسؤال عن سنه أو ميلاده ، وتحديد سنة الوفاة إن أمكن ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلاً للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيراً ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التى تتشابه مع غيرها (١٥٠) .

ولعل فى تفصيل هذه الأمور وغيرها ما يعيننا على بيان وتفسير هذا المنهج والصفات العامة التى انفرد بها السلفى وميزت كتابه عن غيره من المؤلفات فى هذا المجال وهى على النحو التالى :

* أولاً : كان السلفى يدقق فى أمور معينة ، منها ما هو خاص بالمكان الذى التقى فيه بالراوى والسماع منه كأن يقول مثلاً « سمعت القاضى أبا بكر عتيق بالإسكندرية » أو « أخبرنى أبو عبد الله محمد بدمشق » (١٥١) .

ومنها ما هو خاص بالرواية فكان يحدد حتى لا يختلط الأمر أن هذا الشعر مثلاً (للقاضى فلان) أو (للشاعر الفلانى) وذلك بقوله « لنفسه » ، وإذا كانت الرواية لغيره أوضحها بإسناد يتصل إلى الشاهد الحقيقى ، وهذه السمات نجدها واضحة تمام الوضوح فى جميع صفحات كتابه .

أيضاً من الأمور التى دقق فيها السلفى ، التحديد التاريخى لمن ينقل عنهم ، فكان يحرص على تسجيل تواريخ ميلادهم معتمداً على ذلك بصيغة السؤال بنفسه كأن يقول « وسألته عن مولده » أو ما يذكره له صاحب الترجمة بصيغة « ذكر لى مولده » أو « قال لى » أو « سمعته يقول » (١٥٢) .

وفى بعض الأحيان نراه يسأل المترجم له عن مولده فيمتنع كما حدث مع «عبد الملك بن على» يقول عنه السلفى « وسألته عن مولده فامتنع من ذكره » (١٥٣)

وفى مناسبات قليلة يذكر مكان ميلاد المترجم له ولا يحدد السنة (١٥٤) كذلك حرص السلفى على تسجيل تاريخ الوفيات فى معظم تراجمه (١٥٥) .

* ثانيا : من الأمور الرئيسية التي سار عليها السلفى فى منهجه ، الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافى وأعنى بذلك ضبطه لأسماء الأماكن وتحديد مواقعها بدقة، والمطلع على الكتاب يندهش إلى حد الإعجاب لكثرة البلاد التى أوردتها ، إلى درجة يمكن معها وصف كتابه - فوق ما تميز به - بأنه معجماً للبلدان (١٥٦) .

وقد استطاع السلفى أن يكتسب هذه الخبرة عن طريق رحلاته العلمية الكثيرة التى طاف فيها المئات من المدن والقرى ، فرأى أماكنها بعينه . وسمع نطق أسمائها بأذنه ، وبسؤال من يترجم لهم عن الأماكن التى ينتسبون إليها ، عرف أسماء بلدانهم وحدد أسماء مدنهم وقراهم .

كذلك يستفاد مما ذكره فى معجمه أنه كان يصاحب العلماء الذين لهم معرفة وخبرة ودراية بالأماكن ، ومن المرجح أنه قد استفاد منهم فى تحديد الكثير من البلاد التى أوردتها ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو الحسن على النهاوندى المعروف بالأشترى « يقول عنه السلفى » سمعته بهمدان وهو من المعروفين المشهورين ومن لم يكن له نظير فى وقته فى معرفة المنازل التى بين الكوفة ومكة... ولا يعرف أحد طريق البادية مثله ، وبه يضرب المثل فى جملة مسافرى الحجاز ومقدمهم ، وقد سافر إلى الشام ... ودخل خراسان ووصل إلى غزنة» (١٥٧) .

أما عن المنهج الذى سلكه السلفى فى ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها ، فقد كان يذكر اسم المدينة أو البلد بعد أن يذكر اسم من يترجم له أو فى نهاية ترجمته ، ولعل فى ذكر هذه الأمثلة المختارة التى نعرضها من نص « معجم السفر » ما يغنى عن جميعه ، فمن ذلك قول السلفى :

« ضياء هذا رجل صالح ... وسمعته يقول حطين قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع بن نون » .

« ظافر هذا من أهل رشيد مدينة من مضافات الإسكندرية » .

« ابن الصُّغْدِي هذا من بيت العلم ... ونسبته مستفادة من الصُّغْدِي ومع الصُّغْدِي وصَعْدَة مدينة باليمن » .

« حدثني عبد الله بن محمد ... الفَلَيْشِي ... وفَلَيْش قرية من قرى لُرْقَة بشرق الأندلس » .

« عبد الحميد هذا سألته عن مولده ، فقال ولدت ... بمدينة بَلْعَى بشرق الأندلس » (١٥٨) .

* ثالثا : من الأمور المتميزة أيضا التي استطعنا أن نتبينها من منهج السلفي ، وتكاد تطالعنا في كل صفحة من صفحات معجمه ، النقد لكل من دون عنهم . وبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان ثقة ، ويضعف من كان ضعيفا مبينا السبب وعلته ، ومكانة روايته ومدى صحتها . كل ذلك من غير مجاملة لأحد . وكلماته التي يستخدمها في النقد عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات مدلول واضح يبدو فيها بارز الشخصية ، واضح الرأي قوى الاستدلال . ومن الأمثلة على ذلك قوله :

« أبو البركات هذا من أهل العفاف قليل الرواية والسماع » .

« عبد الكريم هذا ... كان مائلا إلى الخير ، وشعره في غاية الجودة » .

« عبد الرازق هذا ... أخرج إلى كتابا بخط جده من تأليفه ... وليس فيه سماع وقال أخبرني به أبي عن أبيه عن جده ، والعهد في ذلك عليه ، وكان ظاهر الصلاح محموداً عند أهل بلده »

« أبو البركات هذا ... تغير بأخوه ودخل فيما لا يرضى عفا الله عنه » .

« أبو الحسن هذا كان من أهل الأدب والفقه وكانت دعاويه أكثر من علمه » .

« أبو الحسين هذا كان من فقهاء المالكية وكان غيره أوثق منه » (١٥٩) .

* رابعا : ضبط أسماء الأشخاص بالشكل ، وذكر الأسماء التى قد تتشابه معها فى النسبة .

ومن الشواهد على ذلك قوله :

« ابن هَراش » : ربما قيل فى ابن الهراش بالتعريف فيذكر حيثثذ مع إلكيا الهراس» .

« ابن حرَّان » : وإن قيل فى ابن حران هذا الحرانى فيستفاد أيضا فى بابه .

« ابن ثُنيَّة » : وثنية فى نسبه مستفاد يذكر مع بُنيّه وبتنه ، ونَبِيّه وغيرهم .

« ابن تاكُرات » : وربما قيل تاجُرات بالجيم بدلا من الكاف فيستفاد حيثثذ ويذكر مع « جواب » و « خوات » وغيرهما (١٦٠) إلى غير ذلك من الأمثلة.

* خامسا : كذلك من أهم وأبرز الأمور التى تبينها فى منهج السلفى ، التجديد فى عرض المادة التاريخية وليس التجديد هنا سوى اعتماده المقابلة والسماع شرطا أساسيا لكل من ترجم لهم ، فالكتاب رغم ضخامته وكثرة عدد أشخاص لم نجد فيه ترجمة واحدة منقولة من كتاب أوهى لشخص لم يقابله ، وهذا يخالف منهج الكثير من كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم فى تدوين الأخبار على المصادر غير المباشرة أو الأخذ من كتب السابقين أو المعاصرين لهم .

* أثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين :

المادة العلمية التى قدمها إلينا السلفى فى كتابه والتى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وبيننا منهجه المتميز فيها تعدد من أنفس المصادر التاريخية التى قدمت إلينا صورة صادقة ودقيقة عن رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ويكفى الحافظ السلفى فخراً فى هذا المجال أن تراجمه للرجال والأخبار التى دونها عنهم وسجلها فى كتابه بتحر واضح وشمول ودقة ، ظلت موردا ومعينا لا

ينضب ، ومرجعاً أصيلاً يعتز به الخالفون من بعده ، ويستعينون بما كتبه فى مؤلفاتهم سواء ، التاريخية أو الجغرافية أو الأدبية ، بل أكثر من هذا أن معظمهم اتخذ ما كتبه السلفى حجة دونها ما سواها وحكماً فصلاً عند تعارض الأقوال أو اختلاف الروايات التى كتبوها فى مصنفاتهم .

ويتضح هذا وذاك فى بعض النماذج التى اخترناها من نقول بعض المؤرخين اللاحقين عن السلفى ، لنرى كيف انتفع هؤلاء بجهده المتمثل فى «معجم السفر» .
* ونبدأ هذه النماذج بذكر ما اقتبسه «ياقوت الحموى» (ت ٦٢٦هـ) وذلك فى كتابيه الشهيرين «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» .

وقد اعتمد ياقوت على السلفى فى هذين الكتابين اعتماداً كبيراً دون غيره من المؤرخين ، فنراه فى كتابه الأول «معجم البلدان» ينقل عنه أكثر من مائة مرة متفرقة فى أجزائه الخمسة (١٦١) ورغم أنه كان يصرح باسم السلفى فى كل موضع من هذه المواضع ، إلا أنه يؤخذ عليه عدم ذكره له ولكتابه «معجم السفر» ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته والتى ذكرها فى مقدمة كتابه «معجم البلدان» (١٦٢) .

واليك نموذجاً من اقتباسات ياقوت :

يقول ياقوت عن تعريف بليده «زَرْنَد» بالجزء رقم (٣) ص ١٣٨ من كتابه معجم البلدان : قال السلفى : «أنشدنى القاضى أبو العميد بن أحمد بن على الجرجانى بمأمونية زرنند فى مدرسته ، وهى بين الرى وساعة» .

وقرين هذا النموذج فى كتاب «معجم السفر» ص - ١٨٨ .

أما عن كتاب «معجم الأدباء» فقد نقل فيه ياقوت أيضاً الكثير من النصوص عن السلفى مصرحاً بالأخذ عنه ، ولكن جانبه الصواب فى تحديد اسم الكتاب الذى نقل منه فبدلاً من أن يذكر «معجم السفر» صرح باسم آخر هو «معجم الشعراء» «وقد فصلنا القول فى هذه المسألة مما سبق من هذا البحث» (١٦٣) .

وهذا نموذج لما اخترناه من كتاب « معجم الأدباء » :

يقول ياقوت في ترجمة « عثمان بن علي السرقوسي النحوي » بالجزء رقم (٣) ص ٤٨٨ - ٤٨٩ من كتابه .

قال السلفي « كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقد قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما وله تواليف في القراءات والنحو والعروض ، وصارت له في جامع مصر حلقه للأقراء وانتفع به ولا زمني مدة مقامي بمصر وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ كأبي صادق والفراء الموصلي وآخرين » .

وقرين هذا في كتاب « معجم السفر » ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

* أما المؤرخ التالي من الذين انتفعوا بجهود السلفي في « معجم السفر » فهو : « جمال الدين علي بن يوسف القفطي » (ت ٦٤٦ هـ) في كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » الذي نقل فيه عن السلفي قدراً كبيراً من نصوصه بلغت على وجه التقريب ثلاثة وعشرين صفحة (١٦٣) وقد اخترنا منها النص التالي :

يقول القفطي في كتابه جـ ٤ ص ٤٣ أنبأنا أبو طاهر السلفي في أجازته العامة « أنشدنا أبو الحسن يونس بن يحيى بن سلامة الحصكفي التاجر بديار مصر قال : أنشدني أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بميفارقين لنفسه :

والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا يأتي رزقها غداً

ما كان من حق حر أن يذل لها فكيف وهي متاع يضمحل غداً

وقرين هذا في كتاب « معجم السفر » ص ٤٥٩ - ٦٤٠ .

والحقيقة التي يجب أن تذكر في هذا المقام هي : أن القفطي من خلال نقوله هذه ينقل ترجمات كاملة من معجم السفر (١٦٥) ، مما يوضح الأثر البارز للسلفي

فى كتابه وثمة شىء آخر وهو : أنه نقل عن السلفى فى بعض المواضع دون أن يصرح بذلك (١٦٦) .

* كذلك من المؤرخين اللاحقين الذين أفادوا من « معجم السفر » المؤرخ الشهير « ابن خلكان » (ت ٦٨١ هـ) فى كتابه « وفيات الإعيان وأنباء أبناء الزمان » .

وبعد الإطلاع على هذا الكتاب المذكور وجدت أن ابن خلكان صرح فيه بالنقل عن السلفى فى الكثير من المواضع . ليس هذا فحسب ، بل اتخذ ما كتبه السلفى حجة وحكماً فصلاً دون ما عداه من الكتب التاريخية الأخرى وذلك فى بعض المواضع .

ولكن ما يؤخذ على ابن خلكان أنه أضاف إلى بعض نقوله التى أخذها عبارات من عنده لم يصرح بها السلفى ، مما يوضح عدم دقته فى النقل .

وفيما يلى سوف أقدم نموذجاً عن كل موضع من المواضع السالفة التى نقل فيها:

١ - نموذج لما صرح فيه بالنقل عن السلفى : وذلك فى الجزء رقم (١) ص ١٦١ من كتابه وفيات الأعيان « ترجمة القاضى الرشيد بن الزبير » .

قال عنه السلفى « ولى النظر بشجر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ثم قتل ظلماً وعدواناً فى المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحمه الله وقرين هذا النموذج فى «معجم السفر» ص ٥٨ .

٢ - نموذج لما نقله عن السلفى واتخذه حجة دون ما عداه من الكتب الأخرى : قال ابن خلكان فى ج ٧ ص ١٤٦ عندما اختلفت الأقوال فى تاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة « قال شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد فى كتابه الذى وسمه بـ « سيرة صلاح

الدين » أنهم دخلوا مصر فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقبول الأول (فخرجوا من دمشق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر فى رجب من نفس السنة) أصبح ، لأن الحافظ أبا طاهر السلفى ذكر فى « معجم السفر » أن الضرغام بن سوار قتل فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وأنه كان فى أول وصولهم - والحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيماً فى البلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به وقرين ما ذكره عن السلفى بنجده فى « معجم السفر » ص ١٢٨ .

٣ - نموذج لما نقله ابن خلكان وأضاف إليه عبارات لم يصرح بها السلفى:

قال ابن خلكان فى جـ ٣ ص ١٩٩ ، بصدد حديثه عن أبى المحاسن الرويانى: « قال الحافظ أبو طاهر السلفى : بلغنا أن أبا المحاسن الرويانى أُملى بمدينة آمل ، وقتل بعد فراغه من الإملاء (بسبب التعصب فى الدين) فى المحرم سنة اثنتين وخمسمائة » .

وقرين هذه الترجمة بنجدها فى « معجم السفر » ص ١٨٣ بيد أن العبارة التى بين القوسين لم يذكرها السلفى ولم يصرح بها .

كانت هذه أبرز النقول التى دونت من كتاب « معجم السفر » ، ولعلنا بهذا نكون قد وقفنا على أثر السلفى الواضح فى مصنفات هؤلاء المؤرخين الذين جاءوا من بعده . ولو اتسع بنا المقام أكثر من ذلك لأفردت غير هؤلاء الكثيرين ممن انتفعوا بهذا العمل الرائد لذا فليس أمامى سوى أن أجملهم على النحو الآتى : مبينا أمام كل منهم اسم الكتاب الذى استرشد فيه بالمادة العلمية لكتاب « معجم السفر » .

- « المنبرى » فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » .

- « الذهبى » فى كتابيه « العبر » و « تذكرة الحفاظ » .
 - « ابن حجر العسقلاتى » فى كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » .
 - « السخاوى » فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .
 - « السيوطى » فى كتابه « بغية الوعاة » .
 - « ابن العماد الحنبلى » فى كتابه « شذرات الذهب » .
- وهكذا لبث كتاب « معجم السفر » على مر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى الإسلام بعامة ، فعرفوا له قيمته وانتفعوا به على أكمل وجه ، ووثقوا به مصنفاتهم .

الهوامش

(١) سلفة : ضبطها ابن خلكان وبين معناها بقوله : ونسبته (أى سلفة) إلى جده إبراهيم سلفة - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفي آخره الهاء - وهو لفظ أعجمي الأصل فيه (سلبه) بالباء فأبدلت بالفاء ، ومعناه بالعربي ثلاث شفاه لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج١ ص ١٠٧ دار صادر بيروت د. ت . وانظر في هذا المعنى ابن كثير البداية والنهاية مجلد ٦ ج١٢ ص ٣٢٨ تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الريان للتراث القاهرة ط ١٩٨٨ م . ويقول د. السيد يعقوب بكر مترجم كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل برو كلمان عن هذا اللفظ (سلية) بأنه مركب من « سه أى ثلاثة + لب أى شفة » في الفارسية ج٦ ص ٢٤٨ هامش (١) دار المعارف القاهرة ط ١٩٨٣ م .

(٢) جرواءن : محلة بأصبهان ويقال لها بالأعجمية « كرواءان » ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ١٣٠ دار صادر بيروت د. ت .

(٣) نظام الملك : هو أبو علي الحسن بن علي الطوسي ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م بقرية من نواحي طوس عمل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان ، فلما أفل نجمهم انتقل إلى خدمة السلاجقة ، واتخذه الب أرسلان سلطان السلاجقة وزيراً له ثم عينه ابن ملكشاه في المنصب نفسه إلى أن قتل سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٩ ص ٦٤ دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ط ١٩٤٠ م .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ٧ تحقيق بشار عواد معروف ، ومحيى هلال سرحان ، مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٩٨٤ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص ٣٣ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وعمود محمد الطناحي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٨ م .

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت د. ت ، السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص ٣٣ .

- (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٧ .
- (٧) البداية والنهاية ج١٢ ص ١٧٦ .
- (٨) تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٩ .
- (٩) انظر الفقرة الخاصة بأقوال المؤرخين في عدالته وسعة علمه ، ص ٣ .
- (١٠) النهي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٩ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٢ ،
اعتناء محمد يوسف نجم ، ألمانيا ط٢ ١٩٨٢ : الزركلي : الأعلام ج١ ص ٢١٥ ، دار
العلم للملأين بيروت ط٥ ١٩٨٠ م .
- (١١) سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٢ ، الصفدي : الوافي ج٨ ص ٣٥٢ .
- (١٢) سير إعلام النبلاء ج٢١ ص ٢١ .
- (١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج٣ ص ٤٠٤ ، مؤسسة الأعلمى
بيروت ط٢ ١٩٧٠ م .
- (١٤) المقرئزي : اتعاظ الخفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج٣ ص ١٩٨ ، تحقيق د. محمد
حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣ .
- (١٥) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ .
- (١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٣١٧ .
- (١٧) سير اعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٤ .
- (١٨) الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٤ ، وانظر أيضاً السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص ٣٧ .
- (١٩) الصفدي : المرجع السابق والجزء والصفحة .
- (٢٠) المعجم في شيوخ أبي علي الصدفي ص ٥١ ، بحريط ١٨٨٥ م .
- (٢١) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ .
- (٢٢) تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٣٠١ .
- (٢٣) الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٢ .
- (٢٤) غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص ١٠٢ ، نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية
بيروت ١٩٨٢ .

- (٢٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ج١ ص ٣٥٤ ، د. ت .
- (٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ ، النهى : سير أعلام النبلاء ج١ ص ٢١
- ١٢ ، وإلكيا المراس هو : على بن محمد بن على ، تفقه ببلده ببغداد ، ورحل فى طلب العلم وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكان بارعاً فى الفقه الشافعى وأصوله ، وأماماً قوى البحث دقيق النظر . ومن أشهر مؤلفاته « شفاء المسترشدين » وتوفى سنة (٥٠٤هـ / ١١١٠م) ابن عساكر : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعري ص ٢٨٨ ، دمشق ١٩٢٨م ، ابن هداية : طبقات الشافعية ص ١٩١ ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ط ٣ ١٩٨٢ .
- (٢٧) البلوى : ألف يا للألبا ج٢ ص ٢٩٤ القاهرة ١٨٧٠م .
- (٢٨) السلفى : معجم السفر ص ٢٢٣ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م ، وهذه النسخة من معجم السفر هى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .
- (٢٩) السلفى : معجم السفر ص ١٢٣ .
- (٣٠) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، كان أماماً كبيراً فى التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان تشد إليه الرحال فى فنونه ، وكان معتزلى الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد أحداً واستأذن عليه فى الدخول : يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب . وتوفى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص ١٦٨ - ١٧٣ .
- (٣١) المصدر السابق ج٥ ص ١٧٠ .
- (٣٢) معجم السفر ص ٢٨٣ .
- (٣٣) المصدر نفسه ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .
- (٣٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، النهى : سير أعلام النبلاء ج٢٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
- (٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣ ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م .
- (٣٦) المصدر نفسه والصفحة .

- (٣٧) محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ص ١٤ ،
مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١ م .
- (٣٨) المرجع نفسه ص ١٥ .
- (٣٩) حسن عبد الحميد : الحافظ أبو طاهر السلفى ص ٢١١ ، بيروت ط ١ ١٩٧٧ م .
- (٤٠) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٥٢ ، تحقيق وتعليق فرانز وروزنثال ،
ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣ م .
- (٤١) معجم السفر ص ٢٧٢ ، السخاوى : الإعلان ص ٢٦٧ .
- (٤٢) السلفى : الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز ص ٣٩ ، تعليق محمد خير البقاعى ، دار الغرب
الإسلامى بيروت ط ١ ١٩٩٣ م .
- (٤٣) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٢٩٩ .
- (٤٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٤٤ .
- (٤٥) ص ١١٣ ، ومعجم بغداد توجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة
تحت رقم ٧٩ ، أدب .
- (٤٦) ص ٢٢٤ .
- (٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥١٢ .
- (٤٨) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧٨ .
- (٤٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٠٩٣ ، السخاوى : الإعلان ص ٣٧٠ .
- (٥٠) انظر المبحث الخاص بآثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين فى هذه الدراسة .
- (٥١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٢٠ .
- (٥٢) معجم السفر ص ٢٣٠ ، قارن ما ورد فى هذه الصفحة بما ذكره ابن خلكان فى الجزء
والصفحة السابقة .
- (٥٣) ج ٤ ص ١٢٩٩ .
- (٥٤) ج ٢١ ص ١٦ .
- (٥٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

- (٥٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
- (٥٧) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٣ .
- (٥٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج٦ ص ٢٤٩ .
- (٥٩) سبق الحديث عن هذه المعاجم في هذا البحث .
- (٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث .
- (٦١) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج٢ ص ٤٢١ ، دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ، ١٩٩١ م .
- (٦٢) انظر المصدر السابق ج٣ ص ٢٢٧ ، وقارن بمعجم السفر ص ٨٦ - ٨٧ ، وللمزيد انظر المبحث الخاص بآثار السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين ، آخر هذه الدراسة .
- (٦٣) انظر على سبيل المثال : ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وهكذا إلى آخر الكتاب مع تفاوت بسيط بين الصفحات .
- (٦٤) أميرنو ريزتيانو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر جلد ٣ ص ٤٩ هامش (١) مجلة كلية الآداب عين شمس ، عدد يناير ١٩٥٥ م .
- (٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ .
- (٦٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٨ ، بيد أن هذا النص سقط من طبعة الكتاب ولم يرد منه سوى الجزء الأخير الذى يتدى بعبارة « محمد الأصبهانى » إلى آخره ، المصدر نفسه ص ١٣ .
- (٦٧) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ص ٦٤٩ مادة جزء ، بيروت ط ٢ ١٩٨٧ م .
- (٦٨) المعجم الوجيز ص ٣٢٧ ، القاهرة ١٩٩٠ م .
- (٦٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج٣ ص ٦٢ ، دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٩١ م .
- (٧٠) معجم السفر ص ٢١٩ .
- (٧١) انظر على سبيل المثال - معجم السفر صفحات ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٦ .

- (٧٢) معجم السفر ص ١١٣ - ١١٤ .
- (٧٣) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣ .
- (٧٥) المصدر السابق ص ١٤٦ .
- (٧٦) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
- (٧٧) للمزيد انظر معجم السفر : صفحات ١٥٤ - ٢٤٧ - ٢٧٤ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ .
- (٧٨) يحدونا الأمل فى العثور على هذه الأجزاء الهامة من معجم السفر فى القريب العاجل أن شاء الله تعالى حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذه الوثيقة الهامة على النحو الأمثل.
- (٧٩) ورد هذا التاريخ فى ثلاثة تراجم فقط بمعجم السفر ، انظر ص ٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ .
- (٨٠) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٠٣ .
- (٨١) معجم السفر ص ٤٦٤ ، ابن الجزرى : غاية النهاية ج ١ ص ٤٣ .
- (٨٢) معجم السفر ص ١٦٨ ، الذهبى : العبر ج ٣ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٠ القاهرة د. ت.
- (٨٣) معجم السفر ص ٤٦٤ ، الذهبى : سير إعلام النبلاء ج ٢١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، العبر ج ٣ ص ٨١ .
- (٨٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .
- (٨٥) انظر ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .
- (٨٦) انظر معجم السفر ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .
- (٨٧) المصدر السابق ص ١٧١ .
- (٨٨) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦٧ السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٥٥ .

(٩٠) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٦ .

(٩١) البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٩٢) النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦٧ .

(٩٣) حسن المحاضرة ج١ ص ٣٥٥ .

(٩٤) سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ١٧ .

(٩٥) وهو : المنذرى جامع مسودات « معجم السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه .

(٩٦) نقلاً عن الذهبى : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٣٠٣ ، سير إعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٨ .

(٩٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ١٨٧ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ،

بيروت ط ٢ ١٩٨١ م منصور بن سليم : ذيل مشتببه الأسماء والنسب ورقة ٢٥ ، مخطوط

بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

(٩٨) التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ١٨٧ .

(٩٩) الذهبى : سير إعلام النبلاء ج٢٣ ص ٢١٨ ، الصفدى الوافى بالوفيات ج٣ ص ٢٦٤

- ٢٦٥ .

(١٠٠) الذهبى : المصدر السابق ج٢٣ ص ٢١٩ ، الصفدى : المصدر السابق ج٣ ص

٢٦٥ .

(١٠١) سير إعلام النبلاء ج٢٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٢) الوافى بالوفيات ج٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠٣) معجم السفر ص ٤٦٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ .

(١٠٥) ، (١٠٦) المصدر نفسه ص ٣٧٩ .

(١٠٧) المصدر نفسه ص ٤٧ ، ٨٨ ، ٣٨٥ ، ٤٢٠ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

(١٠٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(١٠٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

(١١٠) انظر المصدر نفسه الأمثلة بترتيب الصفحات ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ .

(١١١) استجازة السلفي الأولى من الزخشرى مجلد ٢٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ ي ، تحقيق د .

بهيجه الحسنى ، مجلد الجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٣ م .

(١١٢) انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٣٩ وقارنها بمعجم بغداد : ورقة ٤٦ -

٤٧ .

(١١٣) انظر على سبيل المثال : السمعاني : كتاب الأنساب ج ١ ص ١٨ - ١٩ تحقيق عبد

الله عمر البارودي بيروت ط ١ ، ١٩٨٨ م .

(١١٤) انظر معجم السفر : ص ٧٩ هامش (٣) ، ٩٢ هامش (٢) ، ٩٤ هامش (١) (٢) ،

١١٣ هامش (١) ، ١٥٨ هامش (٢) ، ٢٦٠ هامش (٤) ، ٣٥٤ هامش (٢) .

(١١٥) كذلك لم يقدم له المحقق ، اللهم إلا بعض شذرات تتعلق بتعريف كلمة

«معجم» اصطلاحاً مع نبذة مختصرة عن حياة المؤلف «السلفي» ، معجم السفر ص ٤

- ٧ .

(١١٦) انظر فهرس الأحاديث بمعجم السفر ص ٤٧٤ - ٤٩٣ .

(١١٧) معجم السفر ص ١٧٦ .

(١١٨) وهو : علي بن جعفر بن علي الصقلي المعروف بابن القطاع ، أحد العلماء المبرزين في

علم اللغة والنحو ، وله في علم المعاني والشعر حظ كبير ، وكان موجوداً بصقلية حوالى

سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، القفطي : إنباه الرواة على إنباه النحاه ص ٣٠٠ - ٣٠١ ،

تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم ، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية

بيروت ط ١ ١٩٨٦ م ، وابن القطاع هذا أورد عنه السلفي الكثير من الأخبار عن تلاميذه

- انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٥٨٢ .

(١١٩) معجم السفر ص ٤٠٣ .

(١٢٠) انظر على سبيل المثال المصدر نفسه ص ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧١ ، ٣٥٩ .

(١٢١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٨ .

(١٢٢) القفطى : اتباع الرواه جـ ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣١٨ .

(١٢٣) لعل السلفى يقصد بذلك كتابه « معجم السفر » .

(١٢٤) ص ٨٠ .

(١٢٥) الأمثلة على ذلك ص ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ .

(١٢٦) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٧٤ .

(١٢٧) صرح السلفى فى معجمه أكثر من مرة بأخبار هذه الرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات من عمره ، مكث خلالها بالقاهرة من سنة ٥١٥ إلى ٥١٧ هـ انظر ص ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ص ٧٩ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ٢٣٦ ، ٤١٦ .

(١٢٩) الطرطوشى : نسبة إلى طرطوشة وهى مدينة بالأندلس تقع بالشرق من قرطبة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٠ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ٤ ص ٢٦٢ .

(١٣١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(١٣٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) انظر ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

(١٣٤) معجم السفر ص ١٧٥ .

(١٣٥) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٥ .

(١٣٦) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٩٥ .

(١٣٧) انظر على سبيل المثال ص ١٤٠ ، ١٦٩ ، ٣٤٠ .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٢٤٧ .

- (١٣٩) انظر على سبيل المثال : ترجمة « أبو المحاسن الروياني » بمعجم السفر ص ١٨٣ - ١٨٤ وقرينها بكتاب وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩ .
- (١٤٠) معجم السفر ص ٤٣٤ .
- (١٤١) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .
- (١٤٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .
- (١٤٣) المصدر نفسه ص ١٧٩ .
- (١٤٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ .
- (١٤٥) المصدر نفسه والعبارات الثلاث على التوالي بترتيب الصفحات الآتية : ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ١٤٩ .
- (١٤٦) المصدر نفسه ص ١٦٥ .
- (١٤٧) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
- (١٤٨) المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (١٤٩) أمثلة ذلك في معجم السفر ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٩ .
- (١٥٠) انظر على سبيل المثال ترجمة « على بن المشرف الأنماطي » بمعجم السفر ص ٢٩٩ .
- (١٥١) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، ٣٤٨ .
- (١٥٢) هذه العبارات نطالعها بكثرة في معظم صفحات الكتاب ، والأمثلة على ذلك ص ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٥٣ .
- (١٥٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ .
- (١٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٦ .
- (١٥٥) انظر على سبيل المثال ص ٢٤٧ ، ٢٩٨ .
- (١٥٦) من ضمن خطة الباحث - أن شاء الله تعالى - عمل معجم للبلدان التي وردت بمعجم السفر وذلك في القريب العاجل .
- (١٥٧) معجم السفر ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٥٨) انظر هذه الأمثلة على التوالي بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٢٦ ،
١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ .

(١٥٩) انظر هذه الأمثلة على التوالي بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٨٤ ،
١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٤٤٦ .

(١٦٠) انظر هذه الأمثلة ، بترتيب صفحاتها كالتالى : ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ .

(١٦١) لا يتسع المقام لذكر كل هذه المواضع : واحيل من يريد الإطلاع عليها إلى الأجزاء
الخمس من كتاب معجم البلدان وقرائنها فى كتاب معجم السفر .

(١٦٢) انظر ص ١٠ - ١٢ .

(١٦٣) انظر ص ٨ - ٩ .

(١٦٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر جـ ١ ص ١٠٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ وجـ ٢
ص ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٩٠ ، وجـ ٣ ص ٥٢ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، جـ ٤
ص ٤٣ .

(١٦٥) انظر على سبيل المثال جـ ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، جـ ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٦٦) مثال ذلك فى انباه الرواة جـ ٢ ص ١١٥ ، وقرينه فى معجم السفر ص ١٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأبار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) .
- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى بحريط ١٨٨٥ م .
- البلوى : يوسف بن أحمد (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩ م) .
- ألف با للآبأ ج٢ القاهرة ١٨٧٠ م .
- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د. ت .
- ابن الجزرى : شمس الدين محمد (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) .
- غاية النهاية فى طبقات القراء جزآن نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ م .
- ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) .
- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ دائرة المعارف العثمانية بحيدر إباد الدكن - الهند - ط ١ ، ١٩٤٠ م .
- ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سبعة أجزاء تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت د. ت .
- الذهبي : محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .
- سير أعلام النبلاء جزء ٢١ ، ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف ، محيى هلال سرحان مؤسسة الرسالة بيروت ط ١ ١٩٨٤ م .
- تذكرة الحفاظ جزء ٤ دار الكتب العلمية بيروت د. ت .

- السبكي : أبو النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٢م) .
- طبقات الشافعية الكبرى جزء ٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٨م .
- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) .
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تحقيق وتعليق فرانز روز نثال ترجمة د. صالح أحمد العلي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .
- السلفي : أبو الطاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) .
- معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودي دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .
- معجم بغداد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٧٩ أدب .
- الوجيز في ذكر المجاز والمجيز تعليق محمد خير البقاعي دار الغرب الإسلامي بيروت ط ١ ١٩٩٣م .
- استجازة السلفي الأولى من الزمخشري تحقيق د. بهيجة الحسنی مجلة الجمع العلمي العراقي بغداد مجلد ٢٣ ، ١٩٧٣م .
- ابن سليم : وجيه الدين منصور (ت ٦٧٣هـ / ١١٦٦م) .
- ذيل مشتهر الأسماء والنسب مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .
- السمعاني : عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ / ١٠٥٠م) .
- كتاب الانتساب جزء (١) تحقيق عبد الله عمر البارودي بيروت ط ١ ١٩٨٨م .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جزء (١) د. ت.

- الصفدى : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .
- الوافى بالوفيات جزء ٨ اعتناء محمد يوسف نجم ألمانيا ط ٢ ، ١٩٨٢م .
- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٦٧م) .
- فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤ .
- ابن عساكر : أبو القاسم علي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) .
- تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري دمشق ١٩٢٨م .
- الفيروز آبادي : مجد الدين محمد (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .
- القاموس المحيط بيروت ط ٢ ١٩٨٧م .
- القفطى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .
- أنباه الرواة على أنباه النحاة أجزاء ١ : ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط ١ ، ١٩٨٦م .
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
- البداية والنهاية ١٤ جزء تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون دار الريان للتراث ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨م .
- المقريزى : تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جزء ٣ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣م .
- المنذرى : زكى الدين عبد العظيم (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .
- التكملة لوفيات النقلة أجزاء ١ : ٤ تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢ ، ١٩٨١م .

- ابن هداية : أبو بكر الحسيني (ت ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م) .
- طبقات الشافعية تحقيق عادل نويهض بيروت ط ٣ ، ١٩٨٣ م .
- اليافعي : أبو محمد عبد الله (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج ٣ مؤسسة الأعلمى بيروت ط ٢ ، ١٩٧٠ م .
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .
- معجم البلدان خمسة أجزاء دار صادر بيروت د. ت .
- معجم الأدباء أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب « خمسة أجزاء دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ١٩٩١ م .
- ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة :
- بروكلمان : كارل :
- تايبخ الأدب العربي جزء ٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر دار المعارف . القاهرة ط ٢ ١٩٨٣ م .
- ريز تيانو : اميرنو .
- أخبار عن بعض مسلمي صقلية الذين ترجم لهم السلفي في معجم السفر مجلة كلية الآداب عين شمس مجلد ٣ عدد يناير ١٩٥٥ م .
- الزركلي : خير الدين .
- الاعلام جزء (١) دار العلم للملايين بيروت ط ٥ ١٩٨٠ م .

صالح : حسن عبد الحميد (دكتور) .

- الحافظ أبو طاهر بيروت ط ١ ، ١٩٧٧ م .

عنان : محمد عبد الله .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى القاهرة ١٩٩١ م .

مصطفى : شاكر .

- التاريخ العربى والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٩٠ م .

عمران سبته كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتي

د . كمال عنانك إسماعيل(*)

نظرة عامة حول تاريخ سبته منذ خضوعها للمسلمين حتى سقوطها في
أيدي البرتغاليين :

سبته بفتح السين وسكون الباء مدينة ساحلية قديمة (١) ، من مدن المغرب الأقصى . وتحتل سبته موقعاً استراتيجياً يتحكم في مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الغرب . وهذا الوضع الجغرافي جعل اتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الذي تقوم على أرضه . ولهذا قدر لسبته منذ بداية الحكم العربي في بلاد المغرب أن تلعب دوراً رئيسياً في شئون الأندلس إذ كانت على صلة وثيقة ومستمرة به بحيث أصبحت مدينة عربية ذات طابع أندلسي في مظهرها وثقافتها وفي وضعها السياسي (٢) .

والواقع إن قرب مدينة سبته من الشاطئ الأندلسي جعل تاريخها على مر العصور مرتبطاً بتاريخ الأندلس ، فمن سبته كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العدو المغربية إلى الأندلس . وقد نجح الأمويين بالأندلس في السيطرة على مدينة سبته التي كان يحكمها يوليان (٣) . واتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمي في القرن ٤ هـ / ١٠ م زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر (٤) . كما استولى عليها الحموديون حكام مالقة زمن ملوك الطوائف في القرن ٥ هـ / ١١ م (٥) . ولقد تعرضت سبته في عصر الطوائف لنفس ما تعرضت له سائر بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية فانتهاز سقوط البراغواطي (٦) . فرصة تدهور أوضاع الحموديين ، وأعلن استقلاله بسبته ، مكوناً دولة من دول الطوائف العديدة التي ظهرت في بلاد المغرب والأندلس في تلك الفترة (٧) .

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد دخل سقوط البراغواطى فى صراع مع المرابطين انتهى بدخول سبته فى طاعة المرابطين على يد المعز بن يوسف بن تاشفين (٨) . ولم تبق سبته طويلاً فى يد المرابطين حيث خضعت للموحدين على أثر مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين فأعلن أهل سبته طاعتهم لعبد المؤمن بن على عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥ م (٩).

وكان أن ظلت سبته خاضعة للموحدين حتى وفاه الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م حيث أعلن واليها اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، وأعلن بيعته للأمير الحفصى أبى زكريا يحيى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م ، وبذلك صارت سبته تابعة للحفصيين (١٠) إلى أن استقلت بها أسرة أندلسية تعرف ببني العزفى فى القرن ٧هـ / ١٣م (١١) . وفى عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبته ، ونقل بني العزفى إلى غرناطة حيث بقوا هناك إلى أن عاود المرينيون استخلاص سبته من يد النصريين سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م على أثر ثورة داخلية بالمدينة . وفى سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م عاد يحيى بن أبى طالب العزفى والياً على سبته من قبل السلطان المرينى أبى سعيد (١٢) . وأخيراً سقطت سبته فى أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م نتيجة الصراع على السلطة بين أبناء البيت المرينى ، وكذلك المنازعات بين بني مرين وبني عبد الواحد أصحاب تلمسان (١٣) وفى عام ١٥٨٠م آلت سبته إلى أسبانيا عندما ضم ملك أسبانيا فيلب الثانى البرتغال إلى مملكته . ومازالت سبته فى أيدي الأسبان إلى الآن (١٤) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن مدينة سبته اشتهرت على مر العهود الإسلامية كدار للعلم والعلماء ، ويكفى أنها أنجبت من العلماء القاضى عياض بن موسى السبتي ، والشريف الإدريسي . وقد أورد صاحب كتاب بلغة الأمنية أسماء سبعة وأربعين رجلاً وامراً واحدة من علماء سبته من القرن ٨هـ / ١٤م . فى مختلف الفنون والعلوم (١٥) . نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى الذى كان

يتولى التدريس والقراءة بمسجد القفال (١٦) وأبو القاسم بن عمران الحضرمي ناظر خزانة الجامع الأعظم (١٧) . وأبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصاري أستاذ المدرسة الجديدة (١٨) . والطبيبة الشهيرة عائشة ابنة الشيخ الكاتب أبي عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبته (١٩) .

وفى ضوء الثبت المفصل لمعالم مدينة سبته الذي زودنا به الأنصاري يتضح أن مدينة سبته ظلت حتى أوائل القرن ٩هـ / ١٥م تنعم بالرخاء والازدهار والعمران إلى أن سقطت المدينة في أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م فتعرضت لأعمال السلب والنهب ونزح عنها معظم سكانها وتلاشت الآن معظم معالمها التي سنحاول كشف النقاب عنها من خلال ما دونه الأنصاري عن أثار تلك المدينة ومعالمها .

نبذه عن الكتاب ومؤلفه :

الواقع أننا لا نعرف شيئاً عن مؤلف كتاب اختصار الأخبار سوى أنه كان من أبناء سبته حيث عرف نفسه في مقدمة الكتاب بأنه محمد بن القاسم بن محمد ابن محمد بن أحمد عن بن عبد الملك الأنصاري السبتي الدار والنشأة والمولد (٢٠) . وسوى ما ذكر من أن أبا العباس بن أبي الخير الأنصاري جده من قبل الأم . وأن أبا العباس الدقاق من أصهار سلفه (٢١) .

وفى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور أن أصل هذا السلف من قرية بحوز سبته تسمى بزبج ، لأنه يسميها قريتنا عندما يذكرها ، حيث كانت لهم بها أملاك ثم انتقلوا منها إلى سبته حيث تملكوا بعض العقارات (٢٢) .

وقد أشار الأنصاري في كتابه اختصار الأخبار إلى ثلاثة كتب الأول بعنوان « بغيه السامع » وقد ذكر صراحة أنه من تأليفه (٢٣) . والكتاب الثاني يسمى الأعلام . ورغم أنه لم يشر صراحة إلى أنه من تأليفه إلا أنه يحيل عليه كثيراً في كتابه اختصار الأخبار ، كقوله « حسبما استوعبنا وصفه في الأعلام » . وبسطنا القول في الأعلام وبالغنا في وصفه في الأعلام (٢٤) . مما يدل على أن كتاب الأعلام أيضاً من تأليفه .

أما الكتاب الثالث فعنوانه الكواكب الوقادة (٢٥) ، وربما كان من تأليفه أيضاً .

الكتاب :

أما عن كتاب اختصار الأخبار موضوع الدراسة فإن النظرة المتأنية فى محتويات هذا الكتاب تجعلنا نضعه بين كتب الخطط ، التى تعالج عمران المدن وتعين فى رسم خرائطها الطبوغرافية .

وتبرز أهمية الكتاب وقيمه فى أن مؤلفه كان من أبناء سبته ، وأنه استقى معلوماته من خلال المعاينة والمشاهدة الشخصية ، بحيث لا يدين لأحد بشئ من معلوماته الغزيرة وأوصافه الدقيقة لمختلف مظاهر عمران سبته . ففى هذا الكتاب ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن مدينة سبته ، لا سيما ما يتعلق بعمران المدينة فى عصرها الإسلامى . ومن هنا تتأكد قيمته وأهميته من حيث إنه زودنا بصورة واضحة لعمرانها الإسلامى قبل أن يحتلها البرتغاليون ويتحول مظهرها الإسلامى إلى تراث أسباني برتغالى .

• وتجدد الإشارة إلى أننى لست أول من عنى بكتاب اختصار الأخبار ، فقد نشره لأول مرة الأستاذ ليفى بروفنسال عام ١٩٣١م بمجلة هيسبريس ثم أعيد طبعه بتطوان سنة ١٩٤٠م (٢٦) اعتماداً على نسخة كانت فى حوزة آل بنونه بتطوان ، كما نشر هذا النص أيضاً الأستاذ محمد بن تاويت سنة ١٩٥٨ فى العددين الثالث والرابع من مجلة تطوان . وفى سنة ١٩٦٢م قام الأستاذ خواكين بالين بترجمة هذا النص إلى اللغة الأسبانية ، ونشر الترجمة بمجلة الأندلس تحت عنوان وصف سبته فى القرن ١٥م (٢٧) .

وأخيراً نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فى الرباط سنة ١٩٨٣م . ورغم أهمية كل هذه النشرات التى صدرت لهذا النص ، إلا أن جهود الناشرين اقتصرت على مقابلة نصوص الكتاب ، وإبراز ما بينها من اختلافات بسيطة مع إبداء بعض الملاحظات والتعليقات حول الشخصيات التى استفدت منها فى دراستى ، لاسيما ، ما نشره كل من الأستاذين خواكين بالين وعبد الوهاب بن منصور .

وهكذا تحدد عملى الذى يهدف على خلاف كل النشرات سالفة الذكر- إلى إبراز قيمة كتاب اختصار الأخبار فى رسم صورة واضحة لعمران سبته الإسلامية فى ضوء مقابلة ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية فى الفترة الطويلة التى سبقت تأليف هذا الكتاب ، وما استجد من أبحاث فى الفترة التى تلت تأليفه والتى تقدر بنحو ستة قرون إلا قليلاً .

التخطيط العام لمدينة سبته الإسلامية وأهم المظاهر العمرانية فى ضوء وصف الأنصارى :

الواقع إن دراسة العمران فى مدينة سبته ومحاولة رسم صورة واضحة لها فى العصر الإسلامى من حيث تخطيطها ومظاهر عمرانها الاجتماعى والاقتصادى يتسم بالصعوبة . ذلك أن تلك المدينة فقدت طابعها كمدينة إسلامية منذ أن احتلها البرتغاليون فى عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م حيث تبدل مظهر المدينة ، ولم يبق الآن من الفن المعمارى الإسلامى ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر ، إذ أن معظم تراثها المشاهد الآن هو تراث أسباني برتغالى حل محل التراث المعمارى الإسلامى . ولذا فإننا نجد حاجة ملحة إلى إلقاء الضوء حول عظمة التراث المعمارى المندرس بمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

أولاً : النطاق المسور للمدينة :

(أ) الأسوار :

تعد الأسوار من أهم المنشآت العسكرية التى تميزت بها المدن الإسلامية . وتؤدي الأسوار إلى جانب وظيفتها الحربية فى حماية المدينة من أى عدوان خارجى ، وظيفة اجتماعية ، وهى تحديد النطاق العمرانى الأهل بالسكان (٢٨) .

ولما كانت مدينة سبته-بفضل موقعها الاستراتيجى- تعتمد فى الدفاع عن نفسها على البحر المتوسط الذى يدور بها شمالاً وجنوباً وشرقاً (٢٩) مشكلاً خندقاً طبيعياً مانعاً يكفل حمايتها ، ويتيح لعمرانها المرتفع التحكم فى الدفاع عنها ، بحيث

أصبحت على حد تعبير ياقوت الحموى « ضاربة فى البحر داخله كدخول كف على زند » (٣٠) .

وهكذا نرى أن المنطقة الوحيدة التى تحتاج إلى حماية هى الجهة الغربية (٣١) .
ولذلك استلزم الأمر إحاطتها بسور يحميها من هذه الجهة بحيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصانتها .

وللأسف أن الأنصارى لم يزدنا بأية معلومات عن هذا السور . غير أن البكرى أكد على أن المدينة كانت مسورة بسور محكم البناء بناه عبد الرحمن الناصر (٣٢) ، وذلك عندما اقتحم مدينة سبته وأقام الدعوة الأموية بها عام ٣١٩هـ / ٩٣١م . وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله (وقد عمل الناصر على تحصين تلك المدينة فشكها بالرجال وأتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكذان (٣٣) .
وألزم فيها من رضىه من قواده وأجناده (٣٤) .

وقد تهدم هذا السور وأعيد بناؤه فى عهد البرتغاليون ، وبذلك اختفت معالمه الإسلامية باستثناء بعض أجزاء شوهتها أعمال التجديد والترميمات التى ألحقت بها منذ أن سقطت سبته فى أيدي البرتغاليين (٣٥) . ولم يعد باقياً الآن من السور سوى برج مربع (٣٦) نسبة الأستاذ تراس إلى عصر الدولة الأموية ، وبالتحديد لعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، على أساس أن البرج مبنى بقطع ضخمة وغير منتظمة من الحجارة على نظام أديه وشناوى ومثل هذا النظام وكذلك مادة البناء كانت من أكثر مواد البناء شيوعاً فى بلاد الأندلس فى عصر الخلافة على حين ندر استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب (٣٧) .

هذا عن السور الغربى لمدينة سبته ، أما عن النظام الدفاعى لبقية أجزاء المدينة الشمالية والشرقية والجنوبية فلا تظهر فى وصف الأنصارى أيضاً بأية إشارة تتعلق بما كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى تلك الجهات .

وفى ظل هذا الصمت من قبل الأنصارى ، تتسأل هل ظلت تلك الجهات تعتمد فى تحصينها على البحر المتوسط كخط الدفاع الأول عن المدينة . أم أنها كانت مسورة هى الأخرى بأسوار لحمايتها؟

ومع أن ما وصلنا فى المصادر العربية عن أسوار سبته وحصينها يعتبر شحيحاً للغاية ، بحيث لا تعين بشكل كاف على دراستنا التحليلية لهذه الأسوار ، ولا تتضمن أية تفاصيل عن موقعها ، إلا أننا نستطيع من هذه المادة الهزيلة التى زودنا بها مؤرخو العرب وجغرافيتهم أن نجيب على التساؤل السابق . فنقول بأن الجهة الشرقية من المدينة كانت محاطة بسور بناه المنصور محمد بن أبى عامر عندما شرع فى بناء قصبة أو مدينة جديدة فى الجهة الشرقية من مدينة سبته فوق جبل الميناء^(٣٨) والتى عزم على نقل سكانها إليها . ولكنه توفى قبل أن يتم مشروعه . وفى ذلك تشير المصادر العربية فتقول (وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبير يسمى جبل الميناء . وقد كان محمد بن أبى عامر أمر أن يبنى لهذا الجبل مدينة ويتصل إليها أهل سبته ، فبنى سورها ، ومات ، ولم يتم ما أراد . والسور باق إلى وقتنا هذا كأنه بنى بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما فى ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها ومبنية بالزيت عوضاً من الماء . وكان غرضه إتمام عمله على هذا ، لولا الإنفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصعب وأبقى مع مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله)^(٣٩) .

وإلى الشمال الشرقى من هذا السور الذى بناه المنصور بن أبى عامر ، أقام أبو القاسم العزفى سوراً آخر ، حيث أشار ابن أبى زرع فى سياق حديثه عن أحداث عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م إلى أن أبا بكر أبى قاسم العزفى بنى فى السنة المذكورة سور سبته بجانب المنارة . وقيل بل كان ذلك فى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وهو الأصح^(٤٠) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستدل على أن الجهة الشمالية الشرقية من مدينة سبته حيث كانت تقع المنارة أو الناظور - كما هو موضح فى

الخرائط التى تبين مواقع المدينة ومعالمها الإسلامية(٤١) - ظلت بدون سور إلى أن دعت الضرورة أبا القاسم العزفى أن يطوق هذه الجهة بسور لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وتوضح المخططات التى وضعت لأسوار سبته قبل تدميرها ، أن السور الشرقى كان يمتد شمالاً ثم يتجه شرقاً فى شكل زاوية قائمة إلى المنطقة المعروفة بجبل المينا ، حتى يصل إلى باب المينا ، ثم يواصل سيره صعوداً إلى أن يصل أقصى ارتفاع له عند الربوة التى يوجد بها مسجد المقبرة(٤٢) .

أما عن الجهة الجنوبية فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تبين الوضع الذى كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى هذه الجهة ، إلا أن أحد الباحثين أكد بأن الجهة الجنوبية من المدينة والتى كان يحيط بها بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى ، كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامى(٤٣). وقد استند فى ذلك على المخططات التى وضعت لمدينة سبته فى القرن ١٥ م ، والتى نرى فيها بوضوح جزءاً من سور إسلامى قد فتح فيه باب يعرف بباب مضرب الشبكة أو باب الزلاقه ، يتقدمه برج يعرف ببرج الماء(٤٤) . كما نلاحظ أيضاً من خلال أحد هذه المخططات أن مدينة سبته كانت محاطة تقريباً بأسوار تبدأ من الجهة الشمالية الشرقية وتمتد مارة بباين فى السور الشرقى المشار إليهما برقمى ٢،٣ لتصل إلى أقصى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة(٤٥) . ونخرج من ذلك بنتيجة هامة وهى أن الجهة الجنوبية من المدينة كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع إلى العصر الإسلامى ، أقيم لحماية تلك الجهة التى كان يتركز فيها أهم أحياء سبته ومراكزها العمرانية ، مثل الجامع والمدرسة الجديدة والقيسارية .

وأما عن الجهة الشمالية من المدينة ، فكانت فيما يبدو هى الجهة الوحيدة غير المسورة ، حيث اعتمدت قى حمايتها بشكل رئيسى على بحر الرملة فى الطرف الشمالى من المدينة . ويؤكد ذلك ، المخططات التى وضعت للمدينة ، والتى لا نرى فيها أية آثار لأسوار تطوق المدينة من هذه الجهة(٤٦) . كما أكد الأستاذ

كارلوس جوثالبت على هذه الحقيقة بقوله أن المسلمين لم يقيموا أسوار حول هذا القطاع الممتد بطول بحر الرملة في شمال المدينة ، ويدلل على ذلك بأن جيوش البرتغاليين عندما فكرت في غزو المدينة دارت حولها ثم استقر رأى قائد الأسطول البرتغالى على أن يكون غزوها من الجهة الشمالية المطلّة على بحر الرملة ، حيث إنها الجهة الوحيدة التى يسهل الوصول منها إلى داخل المدينة لأنها غير مسورة (٤٧) .

وفى تصورى أن إحجام أهل سبته عن تسوير الجهة الشمالية من المدينة يرجع إلى أن التوسع العمرانى فى العصر الإسلامى لمدينة سبته - وفقاً لما نراه فى الخرائط التى توضح مواقع المدينة ومعالمها - كان مركزاً بصفة أساسية فى ثلاثة قطاعات رئيسية ، هى القطاع الشرقى حيث كانت المدينة التى شرع فى بنائها المنصور بن أبى عامر . والقطاعان الجنوبي والغربي حيث كان يضمنان بداخلهما كافة المراكز العمرانية للمدينة الدينية والمدنية والاقتصادية ، والتى سوف نشير إليها بعد ذلك فى دراستنا لمراكز المدينة العمرانية .

وبهذا نكون قد أوضحنا فى ضوء المصادر العربية والمخططات التى وضعت للمدينة ، الشكل الذى كان عليه النطاق المسور لمدينة سبته فى العصر الإسلامى . والواقع أن تتبع ذلك النطاق فى الوقت الحالى أمر بالغ الصعوبة ، لأن معظم أسوار المدينة قد تهدم واختفى فى جملة ما اختفى من آثارها الإسلامية التى كانت تزدهو بها فى العصر الإسلامى . وما تبقى من تلك الأسوار تعرض للسقوط وتحول إلى أسوار درست عبر السنين . وهذا ما تبينه المخططات التى أعدت لسبته منذ القرن ١٥م وحتى بداية القرن ١٩م (٤٨) .

(ب) أبواب المدينة :

أحصى الأنصارى عدد أبواب سبته فى العصر الإسلامى بـ ٥٠ (خمسين) باباً (٤٩) . ونظراً لاندثار معظم هذه الأبواب فمن الصعب تحديد مواقعها ، وتتبع

أسمائها التي أطلقت عليها عبر حقب التاريخ الإسلامى لمدينة سبته . كما أن الأنصارى نفسه لم يذكر من أسماء تلك الأبواب سوى تسعة أبواب ، وهى حسب ترتيب ذكره لها .

أولاً : الأبواب ذات الطابع الحربى :

١ - الباب الأحمر :

أورد الأنصارى ذكر هذا الباب بمناسبة حديثه عن أحد مقابر سبته بقوله (ومن أشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينيين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة (٥٠) . وكانوا رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم أهل علم وصلاح ودين) (٥١) .

ويبدو أن هذا الباب كان يفتح فى سور المدينة الجنوبى ، المعروف بسور البحر لإطلاله على بحر أبى السؤل فى الشاطئ الجنوبى . ويؤكد ذلك ما ذكره الأنصارى فى موضع آخر عن مقبرة أخرى من مقابر المدينة بقوله : (ومقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله عمر بن مسعود والعكس المعروف بابن الكنفر) (٥٢) .

وبإمعان النظر فى هذا النص والنص السابق ، يمكن الاستدلال على أن الباب الأحمر كان يقع داخل النطاق المسور الجنوبى لمدينة سبته ، بحيث يفضى من الجهة الجنوبية إلى خارج المدينة ، ومن الجهة الشمالية إلى داخلها ، فيصبح موضع مضرب الشبكة بقبورها خارج السور من الداخل وفقاً لما ورد فى نص الأنصارى .

٢ - باب فاس :

كان يقع هذا الباب فى القطاع الغربى من سور المدينة (٥٣) الذى يطوق منطقة أفراك Afrag (٥٤) على مقربة من أحد زوايا المدينة التى شيدها السلطان أبو عنان بن أبى الحسن (٥٥) . وقد أشار الأنصارى إلى اسم هذا الباب وموقعه ومشيده فى أكثر من موضع . فمرة يذكره بمناسبة حديثه عن زوايا مدينة سبته

بقوله (ومن الزوايا الترابية التي أُنشِئت على السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبي الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك) (٥٦) .

ومرة أخرى يشير إليه بمناسبة حديثه عن أبواب المدينة ، فيؤكد أنه كان أحد أكبر أبواب قصبة أفراك ، وفي هذا الصدد يقول (وأبواب أفراك ثلاثة أكبرها باب فاس الذي وضعه السلطان أبو الحسن المريني ، بانيه على شكل باب السبع من فاس الحديد كرسى مملكته وعلى مثاله) (٥٧) ومرة ثالثة يشير الأنصارى إلى هذا الباب فيقول (وبخارج باب فاس من أبواب أفراك المذكور سبقتان سابقة (٥٨) من ألف باع ومائتين وسبعة من ألف باع) (٥٩) .

وإذا فحصنا بقايا هذا الباب التي لا تزال قائمة بين أسوار حديثة بنيت في العهد البرتغالي (٦٠) نلاحظ أنه كان يحظى بمظهر الحصانة والفخامة التي تتجلى في ضخامة واجهته التي يتوسطها فتحة متسعة يكتنفها من الخارج على الجانبين بروزان أو كتفان يبدوان من ضخامتها أشبه ببرجين مبنيين بقطع حجرية منتظمة الشكل . أما بنية جدران الباب ، فتشير بقاياها إلى أنه كان مشيداً بالدبش والآجر المصقول والمتنظم في صفوفه .

ويقارن الأستاذ بافون مالدونادو بين هذا الباب وبين غيره من الأبواب الموحدية ، فيؤكد أنه كان مطابقاً في تصميمه لبعض الأبواب الموحدية ذوات المداخل المستقيمة المقسمة إلى ثلاثة ممرات متتابعة في خط محوري (٦١) . ويذكر بأن هناك تطوراً واضحاً طرأ على نظام العمارة الحربية المغربية ، بتأثير من الأندلس . فنظام هذا الباب يعد امتداداً للتقاليد الموحدية وتطوراً لما وصلت إليه العمارة الحربية في عصر بني نصر من حيث تطبيق فكرة نظام التقسيم الثلاثي المدرج في تتابع (٦٢) الذي طبق على نحو رائع في العديد من أبواب غرناطة لاسيما باب السلاح (٦٣) والعدل (٦٤) .

وبوجه عام يعد باب فاس رغم تدهم أجزاء كثيرة منه الوحيد بين أبواب المدينة الذي لا يزال في حالة أقرب ما تكون إلى حالته الأصلية فلولا آثار هذا

الباب ما كنا قد عرفنا شيئاً عن أبواب سبته الإسلامية التي تهدمت فى جملتها ، وأقيم مكانها أبواب حديثة .

٣ - الباب الجديد أو الأعظم :

كان يقع هذا الباب فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة على مقربة أيضاً من قصبتها (٦٥) . وكان يمثل حلقة الوصل بين مدينة سبته وربضها الخارجى ، حيث يقع على مشارف الطريق المؤدى إلى ذلك الربض (٦٦) .

ويصف الأنصارى هذا الباب بقوله (وعدد الأبواب خمسون باباً ، منها الباب الأعظم الشهير الضخم ، والهيكل الذى لا يلقى له نظير ، المعروف بالباب الجديد . هذا الباب من مفردات سبته ، ومن آثار الملوك بها اكتنفته قلهره (٦٧) ، عظيمة البناء هائلة المنظر ، سامية فى الجو ، قد استقلت على عشرة قباب وأربعة عشر قوساً . وبابه الأوسط بين قلهرتين ثنتين بارزتين من القلهرة العظمى . والباب فى اتساعه والارتفاع قد أربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية . وقوسه وفياصله قد أحكم بناؤها بالكذان بأعجب صفة وأبدع واتقان (٦٨) .

ويبدو من وصف الأنصارى لهذا الباب وأسلوب بناءه أنه كان أكبر أبواب سبته الحربية ، وأكثرها فخامة و ضخامة ، وبذلك صحت تسميته بالباب الأعظم . كما يفهم أيضاً من وصف الأنصارى لهذا الباب بأنه كان يتألف من فتحتين إحداهما تؤدى إلى خارج المدينة ، وكان يكتنفها برجين بارزين عن البرج الذى يحمى الفتحة التى تؤدى إلى داخل المدينة .

وإذا كان وصف الأنصارى السابق لهذا الباب هو الشاهد الوحيد لما كان عليه فى العصر الإسلامى ، إذ اختفى فى الوقت الحاضر بين أطلال المدينة بحيث لا نستطيع التعرف على شكله المعمارى ونظامه التخطيطى ، فإن الأستاذ كارلوس جوثابلس استطاع أن يرسم صورة تقريبية افتراضية لهذا الباب (٦٩) من خلال بعض بقاياها التى تم الكشف عنها ، فضلاً عن الرواية البرتغالية التى دونها المؤرخ البرتغالى

جوميث ايانيش دى ازورارا ، Gomez Ennes de Azurara ، والتي تحكى قصة غزو البرتغاليين لمدينة سبته على يد الملك البرتغالى خوان الأول . وقد اعتمد الأستاذ كارلوس على الأحداث التاريخية التى ساقها ازورارا والتي تؤكد أن جيوش البرتغاليين قد دخلت مدينة سبته عبر باب مكون من ثلاثة مداخل (٧٠) تتصل فيما بينها عن طريق ممر منكسر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام متتابعة ، يقطعها ساحتان أو رحبتان (٧١) يشغلها غرف مقبية ، يفصلها فى مراحل أو مسافات منتظمة جدران بها فتحات معقودة تؤلف فيما بينها ممرات جانبية بها شرفات صغيرة، تمكن المدافعين عن الباب من قذف العدو بالسهام والمواد الملتهبة (٧٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ ترأس نسب هذا الباب إلى بداية القرن ١٢هـ / ١٢م (٧٣) ، وقيمه بأنه كان من نوع الاستحكامات الضخمة التى تمتاز بقيمتها العظيمة فى الدفاع عن المدن ، لاشتمالها على العديد من النقاط الدفاعية، مثل الممر متعدد الانكسار ، والأبراج الضخمة التى تحيط بفتحة الباب . ومثل هذا النوع من الأبواب فى رأى ترأس يماثل الأبواب المرابطية وأبواب عصر بنى مرين ، وإن كان ارتفاعه الهائل يجعله قريب الشبه بأبواب عصر بنى نصر فى القرن ٨هـ / ١٤م (٧٤) .

ثانياً : الأبواب ذات الطابع المدنى :

يقتصر استخدام هذا النوع من الأبواب على أوقات السلم ، فليس لها أية قيمة حربية وتنحصر وظيفتها فى تسهيل مهمة الاتصال بين العمران الداخلى للمدينة من حيث إفساح الطريق أمام المارة أو القوافل التجارية ، أو لتصريف مياه الأمطار . ويستدل من أسماء أبواب سبته ذات الطابع المدنى التى زودنا بها الأنصارى أن بعضها كان يسمى عادة باسم المنطقة المؤدية إليها مثل باب الفرج (٧٥) وباب المينا (٧٦) وباب الزلاقة (٧٧) أو بأسماء أصحاب الحرفة التى يزورها سكان تلك المنطقة مثل باب المشاطين (٧٨) وباب الحلويين (٧٩) وباب الحلفاويين (٨٠) وباب القصايين (٨١) .

ومن أهم ما أمدنا به الأنصارى أيضاً من معلومات عن أبواب مدينة سبته ذات الطابع المدني ، ذكره لخمسة أبواب كانت تنفتح فى سور الربض البرانى الذى هدمه السلطان أبو سعيد(٨٢) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستطيع أن نقرر حقيقة ما ذكره العلامة ليفى بروفنسال بأنه قد تنمو خارج هذه الأبواب (أى أبواب المدينة بنوعيتها الحربى والمدنى) . أرباض تزدهر غير مرور السنين ، وتنتهى بالاندماج فى المدينة ، فيبنى سور جديد أوسع يضم هذه الأرباض فتصبح بدورها حومات ، وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن وقد يهدم الباب بعد انعدام سبب وجوده ، وقد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، ولكن الأسماء تظل باقية(٨٣) .

ثانياً : أرباض سبته فى نص الأنصارى

المقصود بالربض البؤرة العمرانية أو الضاحية التى تقع خارج أسوار المدينة ، والتى تنشأ غالباً نتيجة اتساع العمران داخل نطاق المدينة ، وفيضه إلى خارجها بعد تسويرها . وفى بعض الأحيان تطلق لفظة ربض خطأً على الأحياء الداخلية الواقعة داخل النطاق المسور للمدينة ، حتى ولو كانت قرية جدا من مركز المدينة العمرانى ، وليست كما تعنى هذه الكلمات فى معناها المتعارف عليه وهو أن الربض يكون خارج النطاق المسور للمدينة وليس بداخله .

وقد فسر الأستاذ توريس بلباس هذا اللبس فى استعمال كلمة ربض هذه فى غير موضعها بأن هذه الكلمة - وهى كلمة حى أو حارة - تطلق بصفة عامة على المواضع المبهمة غير المحددة بحدود معينة ولذلك نشأ الخلط بين كل منهما(٨٤) .

وعن أرباض مدينة سبته يقول الأنصارى (وعدد الأرباض فى الحقيقة ستة: الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد ، والربض البرانى حيث الحارة(٨٥) والكسابون(٨٦) الذى هد سوره السلطان أبو سعيد المرينى من حافة (٨٧) الغد إلى مضرب الشبكة(٨٨) .

ويكشف نص الأنصارى عن حقيقة ما ذكرناه آنفاً من أن لفظة ربض كانت أعم وأشمل من كلمة حى ، وأن هناك خلطاً بين الاصطلاحين بحيث أصبحت كلمة ربض تطلق على الأحياء الداخلية . ومن أمثلة ذلك الخلط ما ذكره الأنصارى عن الربض البرانى تمييزاً له عن الأرباض الداخلية المتصلة بالبلد .

ويفهم من نص الأنصارى أيضاً أن الربض البرانى كان محاطاً بسور لحمايته من الأخطار الخارجية ، ويبدو أن هذا السور قد فقد أهميته بمرور الزمن بعد اتساع النطاق العمرانى للمدينة واندماج الربض داخل المدينة ، وهو الأمر الذى دعى السلطان أبا الحسن إلى هدم السور المذكور حسبما نص على ذلك الأنصارى.

وللأسف ليس فى إمكاننا أن نعرف على وجه التحديد مواقع الأرباض الستة التى أشار إليها الأنصارى وأسماءها ، وإن كان قد ذكر فى أكثر من موضوع فى ثنايا وصفه لمعالم مدينة سبته اسم ربضين هما : الربض الأسفل والربط الأوسط ، فضلاً عن الربض البرانى سالف الذكر . ويستدل من اسم الربضين الأولين (الأسفل والأوسط) على وجود ربض ثالث علوى لم يذكره الأنصارى ، لعله ربض زكلو الذى ورد ذكره فى المدونات البرتغالية فى سياق عرضها لسقوط سبته فى أيدي البرتغاليين (٨٩) وبذلك يكتمل عدد الأرباض الثلاثة المتصلة بالبلد التى حسب نص الأنصارى كانت عامرة بالمنشآت ، لاسيما الأسواق ، حيث كان يوجد بها وحدها ٣٢ (اثنان وثلاثون سوقاً) . من مجموع ١٧٤ (مائة وأربعة وسبعين سوقاً) وهو عدد أسواق المدينة كلها (٩٠) .

وإذا كان الأنصارى لم يشر إلى مواقع الأرباض الستة التى ذكرها ، ولم يزودنا بأية تفاصيل عنها ، فإن أحد المصادر البرتغالية عوضتنا عما أغفل الأنصارى بشأن مواقع تلك الأرباض ، حيث أمكن الأستاذ كارلوس جوثابلس أن يرسم صورة تقريبية لمواقع الأرباض الثلاثة التى أشار إليها الأنصارى من خلال رواية المؤرخ البرتغالى ازورارا Azurara فمن خلال الوصف التفصيلى الدقيق لأحداث

المعارك التى دارت بين البرتغاليين وأهل سبته داخل تلك الأرباض ، استنتج بأن تلك الأرباض كانت تقع فى القطاع الأوسط من المدينة ، والمحصور بين سورين يمتدان شرقاً وغرباً ، ويصل بينهما سور أوسط يفصل بينهما ، ويحدد النطاق العمرانى للأرباض الثلاثة(٩١) . وكان يفتح فى السور الشرقى بابان الأول مشار إليه فى المخطط الذى وضعه جوثابلس برقم (٢) ، ويعرف بالباب العلوى والثانى مشار إليه برقم (٣) ويعرف بالباب السفلى ، ومن هذين البابين حسب رواية ازورارا دخلت جيوش البرتغاليين إلى أرباض المدينة الثلاثة(٩٢) .

وقد أشاد الأنصارى باتساع عمران أرباض سبته ، وكثرة مبانيها الجنائزية التى كانت لها مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، لما تضمه من قبور العلماء والفقهاء . فيذكر بأنه كان فى الربض السفلى قبر الشيخ الفقيه الحافظ أبى الربيع سليمان بن سبع العجيسى(٩٣) مؤلف شفاء الصدور(٩٤) .

وفى الربض الأوسط كانت توجد مقبرة الشريعة ومن أشهر مقابرها قبر الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله القرمونى من أهل سبته ، وقبر الفقيه القاضى أبى الحسن ، وقبر الإمام الصوفى أبى محمد عبد الجليل الأوسى الأندلس(٩٥) .

كذلك يشير الأنصارى إلى وجود العديد من المباني الدينية ، والأسواق التجارية ، والصناعية ، بتلك الأرباض ، مثل خزانة جامع الربض الأسفل(٩٦) ، وسوق العطارين(٩٧) فضلاً عن مصليات الأرباض التى كانت تقع فى أرض عظيمة الاتساع(٩٨) .

ثم يوضح الأنصارى بعد ذلك أن تلك الأرباض كان يفصلها عن بعضها البعض حفائر(٩٩) مثل الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى ، والحفير بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين(١٠٠) إلى مضرب الشبكة ، والحفير الهائل المعروف بالسهاج(١٠١) الفاصل بين الأرباض والمدينة(١٠٢) .

ثالثاً : الأزقة :

من الثابت أن معظم الشوارع الرئيسية بمدن المغرب الإسلامى تمتاز بضيقها وتعرجها وتتفرع من تلك الشوارع شبكه من الأزقة والدروب والزنقات بعضها نافذ ومعظمها غير نافذ(١٠٣) .

وقد أخبرنا الأنصارى بأن عدد أزقة مدينة سبتة كان ٢٥٠ (مائتا زقاق وخمسون) (١٠٤) . كما حفظ لنا العديد من أسماء تلك الأزقة المندثرة . مثل زقاق ابن عيسى (١٠٥) وبنى العزفى ، وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار ، وزقاق أبى عبد الله القاضى الزاهد من أشياخ القاضى عياض . وزقاق ابن يربوع (١٠٦) . وزقاق العزفى أبى العباس وزقاق أبى على ابن الشراك وأبى القاسم ابن الشاط (١٠٧) وزقاق خطاب (١٠٨) .

وفى ضوء ما ذكره الأنصارى من أسماء أزقة سبتة يتضح أن معظمها كان يحمل اسم أعلام الأسرات التى كانت تعيش فيها واسم شخصية هامة . كما أن بعضها يحمل اسم المنطقة التى تقع بجوارها أو يوجد فيها أو يؤدى إليها الزقاق مثل زقاق الخندق الكبير الذى يعرف فى القديم بخندق المين (١٠٩) ويعرف الآن بخندق الدجاج (١١٠) .

ويضيف الأنصارى أن كل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب ، وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات إلى غير ذلك (١١١) .

وفى الفقرة السابقة إشارة إلى الأمور المتعلقة بالتحكم فى تلك الأزقة وتوفير الآمان لسكانها عن طريق حراس لها يسمون بالدرايين (١١٢) .

ويفهم مما ذكره الأنصارى عن أزقة سبتة أن بعضها كان من الاتساع بحيث كان يضم العديد من المنشآت مثل القصور والحمامات (١١٣) والأفران (١١٤) .

أما عن شوارع سبتة الإسلامية فلم يرد فى نص الأنصارى أى ذكر لها غير أن الدراسات الطبوغرافية الحديثة المعتمدة على المصادر الأسبانية والبرتغالية المتعلقة

باسترداد المدينة أكدت على أن بعض شوارع سبته كانت موجودة على هيأتها في العصر الإسلامي ، واحتفظت بأسمائها العربية بعد الاسترداد البرتغالي للمدينة وتوزيع عقاراتها على النصارى البرتغاليين . ومن أهم تلك الشوارع ، الشارع الكبير الذى كان يخترق الجهة الشرقية من المدينة والمعروف الآن باسم شارع Sanjurjo (١١٥) ، ومن هذا الشارع كان يتفرع زقاق أبى عيسى المعروف الآن باسم الطريق الأعظم Gran via (١١٦) والذى كان يقسم المدينة إلى قسمين أو شطرين حسب نص الأنصارى (١١٧) .

وفضلاً عن هذا الشارع كانت تشتمل المدينة على شارعين متعامدين يؤلفان محوري المدينة ، أحدهما كان يطلق عليه شارع العطارين والمعروف حالياً باسم شارع خاودينس Calle jaudenes (١١٨) والآخر كان يسمى بشارع الموثقين أى كتاب الوثائق Calle de los Notarior (١١٩) والمعروف حالياً باسم شارع سان اودنيا Calle de O'donnell (١٢٠) .

وفيد الباحث كارلوس جوثابلس بأن هذين الشارعين كانا يخترقان القطاع الشمالى الشرقى من المدينة ، ويمتدان إلى مسجدها الجامع ومدرستها المعروفة بالمدرسة الجديدة (١٢١) . وكانت المنطقة التى يشقها الشارعان المذكوران من أهم أحياء المدينة إذ تضم العديد من المنشآت الدينية والمدنية الملتفة حول مسجد المدينة الجامع والذى تتفرع من ساحته الحارات والدروب المؤدية إلى معظم أحياء المدينة (١٢٢) .

رابعاً : المراكز العمرانية بمدينة سبته :

١ - المراكز الدينية :

كانت مدينة سبته فى العصر الإسلامى تضم عدداً من المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ، بحيث شكلت تلك المنشآت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية لمدينة سبته الإسلامية ، تدل عليه الإحصاءات التى أوردها الأنصارى لتلك المنشآت . وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت الدينية حسب ترتيب ذكر الأنصارى لها .

- المساجد :

يصور لنا الأنصارى أهمية المساجد وكثرتها بمدينة سبته بقوله (وعدد المساجد ألف مسجد . وأعظم هذه المساجد وأشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق . بلاطاته اثنان وعشرون بلاطاً وبقيلتها شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص ، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجاري القسائم والميازيب من الرصاص كذلك . ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة (١٢٣). وتتميز عن سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم والبناء المرتفع السمك ، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (١٢٤) . وبه صحنان ، أحد الصحنين أكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان ، وصومعته قديمة من عمل الأوائل (١٢٥) .

ومن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات على النص السابق ما

يلى :

١ - أنه على الرغم من مغالاة الأنصارى في تقدير أعداد مساجد سبته فإن ذلك يبين مدى كثرتها . ويمكن تحديد العدد الضخم الذى ذكره الأنصارى لمساجد سبته بأنه يشمل المصليات الملحقة بالمنازل العامة .

٢ - لم يشر الأنصارى إلى موقع الجامع بالنسبة لعمران سبته أو الأصل الذى أقيم عليه ، ولا إلى تاريخ تشييده . وعلى الرغم من ذلك نستطيع بفضل الإشارات التاريخية المقتضية التى أمكن استخلاصها من المصادر العربية والمدونات المسيحية الأسبانية والبرتغالية ، أن نجيب عما أغفل ذكره الأنصارى . فالنسبة لموقع الجامع فأغلب الظن أنه كان يقع فى وسط المدينة (١٢٦) فى نفس الموضع الذى تشغله الكاتدرائية الحالية على مقربة من البحر . ويؤكد هذا الافتراض إشارة أحد المدونات البرتغالية الخاصة بالاسترداد البرتغالى للمدينة فى سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م . وفى ذلك يقول المؤرخ البرتغالى جوميث ايانيس دى ازورارا (وفى اليوم الثالث والعشرين من

شهر أغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر في يوم الأحد التالي ١٤١٥/٨/٢٥م وجرى في ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة حسب رغبتهم فرساناً .

ويضيف أزورارا أن المسجد المذكور كان مفروشاً بالحصير وفقاً لما هو متبع في عادة المسلمين من فرش أرضية مساجدهم بنبات الحلفا . وأنه عندما تم استرداد المدينة والاستيلاء على المسجد لم ينزع هذا الحصير وإنما أضيف إليه حصير جديد فوق الحصير القديم (١٢٧) .

أما عن أصل البقعة التي أقيم عليها جامع سبته فكان موضعه الأول كنيسة بيزنطية ، هدمها فيما يبدو الفاتحون المسلمون ، وأقاموا على أرضها مسجدهم الجامع . ونستند في ذلك على نص رواه البكري في ذكر مدينة سبته نصه (ومدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول . وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر آويات مع ضفة البحر القبلى في فناء إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع) (١٢٨) .

وأما عن تاريخ جامع سبته فيكتفه الغموض . ولعل قلة ما أورده مؤرخو العرب عن هذا الجامع كان سبباً في أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ أو أسماء العرفاء الذين أشرفوا على بنائه . ومع ذلك فمن الممكن أن نضع تاريخاً تقريباً لهذا الجامع بفضل نص أورده الأستاذ خواكين بالين جاء فيه أن الخشنى صاحب كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذى عاش السنوات الأولى من حياته في القيروان ، كان قد خرج منها إلى الأندلس ، وفي طريقه إلى الأندلس مر على سبته في عام ٣١٢هـ/٩٢٤م وفيها تعلم أصول الفقه وشارك في تصحيح اتجاه قبلة مسجد سبته التي كانت منحرفة عن الاتجاه الصحيح (١٢٩) . ومعنى ذلك أنه شرع في تشييد هذا الجامع في التاريخ المشار إليه أو قبله بقليل .

ويبدو أن جامع سبته ظل موضع اهتمام الأمراء والخلفاء الذين تناولوه بالزيادة والتعديل على مر العهود ، حيث أن سنة ٤٨٤هـ/١٠٨٧م تسجل تاريخ قيام الأمير يوسف بن تاشفين بالزيادة فى جامع سبته . وفى ذلك يقول صاحب كتاب الحلل الموشية (ولما كان سنة ٤٨٤هـ تحرك يوسف بن تاشفين إلى سبته لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصار بلادهم . وفى أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبته والزيادة فيه . فزاد فيه حتى أشرف على البحر وبني البلاط الأعظم منه) (١٣٠) .

وقد أورد ابن عذارى نص آخر أشار فيه إلى الزيادة المذكورة بقوله (وكان يوسف بن تاشفين أمر القاضى محمد بن عيسى بينان جامع سبته وزاد فيه حتى أشرف على البحر وكان بنيانه عام واحد وتسعين) (١٣١) .

ومن الملاحظ أن ابن عذارى لم يكمل تاريخ البناء حيث أشار إلى التاريخ المذكور (٩١) ضمن حوادث عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م . والراجح أن تاريخ هذه الزيادة حسب نص ابن عذارى كانت سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م على أساس أن يوسف بن تاشفين توفى فى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م (١٣٢) .

وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين فى تحديد تاريخ الزيادة المذكورة فإن الذى لا شك فيه أنها تمت فى عهد يوسف بن تاشفين ، وأنها نفذت من الجهة الجنوبية أى من جهة جدار القبلة حيث كان يطل الجامع من هذه الجهة على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى كما أن الأمير يوسف بن تاشفين هو الذى أقام البلاط الأوسط الضخم المرتفع السمك حسب وصف الأنصارى (١٣٣) أو الأعظم كما يسميه صاحب الحلل الموشية (١٣٤) .

وفهم من وصف الأنصارى للبلاط الأوسط بمسجد سبته أنه كان أكبر بلاطات الجامع وأكثرها ارتفاعاً ، وأن هذه ميزة ميزت جامع سبته عن جوامع بلاد المغرب كلها . والحقيقة غير ذلك ، لأن ظاهرة ارتفاع البلاط الأوسط واتساعه عن بقية البلاطات تمثلت فى العديد من المساجد المغربية والأندلسية قبل

جامع سبته ، مثل جامع القيروان والزيتونة وقرطبة . كما طبقت أيضاً فى قصور عصر الخلافة التى تتبع فى تخطيطها نظام البلاطات . وعلى هذا فإن تلك الظاهرة تعد من الظواهر الهامة التى تميزت بها أغلب عمائر المغرب والأندلس الدينية والمدنية بحيث أصبحت الطابع المميز لتخطيط تلك المنشآت (١٣٥) . وتجدر الإشارة إلى أن جامع سبته قد تعرض لزيادة أخرى على يد القاضى عياض (١٣٦) وذلك فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م (١٣٧) .

وتصمت المصادر العربية خلال القرون الثلاثة التالية وحتى سقوط مدينة سبته فى أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م عن ذكر شىء عن هذا الجامع بحيث يعد وصف الأنصارى سالف الذكر هو الشاهد الوحيد لما كان عليه جامع سبته بعد احتلالها بنحو سبع سنوات (٨٢٦هـ / ١٤٢٢م) . وهو تاريخ تأليف الأنصارى لكتابه موضوع الدراسة والذي أكد فيه بأن بلاطات الجامع قد بلغت اثنتين وعشرين بلاطة (١٣٨) .

ولا يجب أن نترك ما ذكره الأنصارى دون مناقشة ، لأن الرقم الذى أورده بشأن عدد بلاطات الجامع مبالغ فيه . وأغلب الظن أن هذا الرقم يمثل عدد الأساكيب الممتدة بعرض الجامع وليس عدد البلاطات أو الأروقة الطولية ، لأنه لو صح هذا الرقم (٢٢ بلاطة) لأصبح الجامع ، عميقاً جداً (١٣٩) . كما أن البكرى الذى وصف الجامع فى عصر المرابطين ، وهو العصر التى تمت فيه زيادة كل من الأمير يوسف بن تاشفين والقاضى عياض أشار بأن الجامع كان يتألف من خمس بلاطات فقط (١٤٠) . ومهما بلغ عدد البلاطات التى أضيفت للجامع فيما بعد فمن المستبعد أن يصل عددها إلى اثنين وعشرين بلاطة . لاسيما وأن هناك مساجد أخرى فى بلاد المغرب والأندلس تعرضت لزيادات عديدة على مدار عهود متباعدة . ومع ذلك لم يصل عدد بلاطاتها إلى هذا العدد الذى ذكره الأنصارى . ومثال ذلك جامع القيروان أكبر المساجد الجامعة الباقية وأعظمها مظهراً ، كان يتألف بعد أن بلغ منتهاه من سبع عشرة بلاطة تمتد على عشرة أساكيب (١٤١) وكذلك

جامع الزيتونة الذى بلغ عدد بلاطاته (١٥) خمس عشرة بلاطة (١٤٢) وأيضاً جامع قرطبة الذى على الرغم من عظم مساحته لم تزد عدد بلاطاته عن ١٩ تسع عشرة بلاطة (١٤٣) .

مساجد أخرى جامعة وغير جامعة بمدينة سبته :

وإلى جانب جامع سبته الكبير كان يوجد بالمدينة جامعان آخران هما مسجد زكلو أكبر مساجد سبته بعد المسجد الأعظم حيث كان يتألف من سبع بلاطات ، وقد بناه أبو القاسم العزفى صاحب سبته (١٤٤) وجامع التبانين الذى كانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وكان يقع فى ربض المدينة السفلى (١٤٥) .

ونضيف إلى تلك المساجد الجامعة عدد آخر من المساجد غير الجامعة التى كانت تزخر بها مدينة سبته فى العصر الإسلامى ، والتى اندثرت شأن مساجدها الجامعة ولم يعد لها أى أثر ولم يرد بشأنها أية إشارات لافى المصادر أو فى المدونات المسيحية ، وإن كان الأنصارى قد زودنا بأسماء بعضها مثل مسجد الحلفاوين (١٤٦) ومسجد المحلة (١٤٧) ومسجد القفال (١٤٨) .

- المصليات :

أشار الأنصارى إلى توافر المصليات خارج أسوار مدينة سبته ، حيث بلغ عددها ستة مصليات (١٤٩) وقد دلت أوصاف الأنصارى لتلك المصليات على حسن تصرف المعمار ، وإقامة نماذج منها مختلفة عن بعضها البعض ، بسبب اختلاف مساحتها وموقعها ووظيفتها . فالمصلى الكبير أو مصلى المدينة أتاح موقعه المتميز خارج أسوار المدينة فى مساحة واسعة فرصة استخدامه كمصلى للعديد جرياً على سنة الرسول فى إقامة الصلاة فى أماكن واسعة خارج المدينة (١٥٠) . كما أعطى هذا الموقع المتميز لهذا المصلى المتمثل حسب وصف الأنصارى فى أنه يقع فى موضع منقطع وسط البحر (١٥١) ميزة أمنية بحيث أوجبت الضرورة فى أوقات الحصار والفتن استخدامه للصلاة ، لما يتوفر فيه من

شروط أمنية قد لا تتوفر في غيره من المساجد والجوامع التي كانت تتركز في قلب المدينة (١٥٢). ويتجلى أيضاً أثر الموقع والوظيفة في اختيار مصليات سبته في المصلى الملكى الذى كان خاصاً بسكان القصر الملكى (أفراك) من الأمراء والسلاطين وما يتبع هؤلاء من جنود وحراس (١٥٣) وفي تخصيص بقيه مصليات سبته حسب ما نص عليه الأنصارى لأهل الأرباض والقصبه (١٥٤) .

- المدارس :

بعد ما كانت جوامع سبته ومساجدها تؤدي مهمتها في خدمة الدين والعلم صارت المدارس تبنى للمشاركة في القيام بهذه المهمة . والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الوافدين على سبته للتعلم على أساتذتها (١٥٥) فقد كانت مدينة سبته منذ القرن ٥هـ / ١١م مركزاً مرموقاً للدراسات العربية الفقهية والطبية بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها ، وهى العناصر التى تزايد عددها منذ أوائل القرن ٧هـ / ١٣م .

وتزخر كتب التراجم بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين من أبناء سبته من أصول أندلسية (١٥٦) .

ويمكن أن نستنتج من النصوص التاريخية أهمية مدينة سبته كمركز إشعاع ثقافى حيث أكد ذلك وصف البكرى لها فى قوله (إنها لم تزل دار علم) (١٥٧) كما يؤكد ابن الخطيب فى قوله (بأنها بصره علوم اللسان وخزانة كتب العلوم) (١٥٨) . وكذلك يبين المقرئ المناظرات الأدبية التى كانت تجرى بين علماء سبته كالمناظرة التى جرت حول استعمال (ماذا) بين النحوى الشهير أبى الحسن ابن أبى الربيع وبين الأديب مالك ابن المرحل (١٥٩) .

ويكفى دليلاً على مكانة سبته العلمية أن الباعث على كتابة رسالة الشقندى فى فضائل أهل الأندلس كان الجدل الذى وقع فى مجلس صاحب سبته أبى يحيى ابن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب (١٦٠) .

ويذكر الأنصارى مدرستين شهيرتين بسبته هما مدرسة الشيخ المحدث على الشارى الغافقى السبتي (١٦١) والمدرسة الجديدة التى ابتناها السلطان المرىنى أبو الحسن (١٦٢) .

ولم يصرح الأنصارى بأية تفاصيل عن المدرسة الأولى التى بناها أبو الحسن الشارى ، على حين أفاض بعض الشىء فى وصف المدرسة الجديدة التى بناها أبو الحسن المرىنى بقوله (والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان أبو الحسن المرىنى مغلد الآثار الدالة على شماعة الملك وعلو المقدار) (١٦٣) .

وفى موضع آخر يشيد الأنصارى بمىضأة تلك المدرسة بقوله (وأبدعها صناعة وأحكمها بناء مىضأة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبير (١٦٤) وفى كل منها نقىر من الرخام (١٦٥) يصب فيها ميزاب من النحاس ، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر ، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج (١٦٦) الملون . وقبتها مؤلفة (١٦٧) ومن بعض صنائعها نور البابونج (١٦٨) يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة يجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب (١٦٩) .

ووفقاً لما أوردته الوثائق البرتغالية الخاصة بسقوط مدينة سبته فى أيدي البرتغاليين فإن هذه المدرسة تحولت بعد الاسترداد مباشرة إلى دير ، وأنه قد أطلق عليها بعد تنصيرها اسم مصلى ستياجو ermita de santiago (١٧٠) .

وفى عام ١٥٦٠م أقيم فى المدرسة مصلى آخر يبعد عن الأول الذى كان قد أقيم فى وسط المدرسة (١٧١) وقد ظلت المدرسة رغم تحويلها إلى عدة أديرة ومصليات مسيحية محتفظة بصورتها التى كانت عليها فى العصر الإسلامى ، حيث ورد ذكرها فى الأدب البرتغالى عام ١٦٤٨م (بأنها بناء عظيم من عمل المسلمين يضم ١٠ (عشرة) أعمدة من الرخام الأبيض ، قواعدها من الرخام الأسود وجدرانها منقوشة بزخارف رائعة . ولا يزال يتوج مدخلها - حتى بعد

تحويلها إلى دير - لوحتان من الرخام تتضمنان نقوشاً كتابية بالخط العربى نصها «الحمد لله. تم بحمد الله هذا البناء رجاء ثواب الله بأمر من أبى عنان سنة ٧٤٧هـ» (١٧٢) .

وإذا نظرنا إلى نهاية هذا النص الذى نقله الكاتب الأسباني مسكرنيلاس Mascarenilas عن أحد المدونات البرتغالية ، يتضح أن ما ورد يشوبه الخلط والخطأ، حيث ذكرت الرواية أن السلطان أبا عنان هو الذى شيد المدرسة الجديدة على أساس أن ذلك مسجلاً بنقش كتابى كان لا يزال يتوج مدخلها حتى منتصف القرن ١٧م . وهذا يتعارض مع ما ذكره الأنصارى الذى أكد بأن المدرسة من بناء السلطان أبى الحسن . ويؤكد صحة ما ذكره الأنصارى أن التاريخ المسجل فى النص الكتابى لا يقع فى فترة حكم السلطان أبى عنان الذى كان قد ثار على أبيه أبى الحسن بتلمسان عام ٧٤٩هـ واستولى على المغرب الأقصى (١٧٣) ، فى حين يقع التاريخ المذكور ٧٤٧هـ فى النص الكتابى فى فترة حكم أبى الحسن . وعلى هذا فمن المؤكد أن هذه المدرسة قد شيدت فى عهد السلطان أبى الحسن واستكملت فى عهد ابنه أبى عنان الذى ربما حاول طمس أعمال أبيه . لاسيما وأنه قد ثار عليه فأزال اسم أبيه ووضع مكانه اسمه دون أن يغير التاريخ الأصلى.

وفى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، تم تجديد المدرسة بما فيها من أديرة ومصليات . ومع ذلك لم تمس التغيرات المتوالية جوهر البناء . ويقرر ذلك وصف Carrea de Franca أحد كتاب القرن الثامن عشر الميلادى لها بقوله (بأنها كانت عبارة عن قاعة مقسمة إلى ثلاثة أروقة تقوم على عمد وتيجان وقواعد من الرخام والحجارة السوداء) . كما وصف محرابها بأنه (ظل قائماً على حاله لم يحدث فيه شئ سوى أنهم جعلوا عليه صلياً) (١٧٤) .

مما سبق ذكره يتبين مدى إسهام أعمال الإضافات والترميم والهدم فى تشويه المدرسة الإسلامية وطمس معالمها التى تحتاج من أجل الكشف عنها إلى دراسات مبنية على حفائر علمية . وهذا أمر يصعب تحقيقه بعد أن أقيم مكانها

الآن مبنى حديث عبارة عن ثكنات للجند . ومن هنا فإن تصورنا لنظام المدرسة التخطيطي يبدو صعباً . ومع ذلك فقد قام الأستاذ كارلوس جوثالبس Carlos Gozalbes بوضع رسم افتراضى لتلك المدرسة (١٧٥) اعتمد فيه على أوصاف بعض الكتاب والرحالة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . فضلاً عن بعض الرسوم التوضيحية التى سجلتها الخرائط القديمة للمدرسة بعد تحويلها إلى دير أو مصلى كنسى .

وقد اعتمد الأستاذ كارلوس فى نظريته الافتراضية لتخطيط أو منظور المدرسة على تجريدها من كل الملحقات غير الإسلامية ، بحيث يبقى منها عناصر المدرسة الأصلية التى رجح أنها كانت تتألف من قاعة مكونة من ثلاثة أروقة عمودية على جدار المحراب الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية من القاعة ، ويغطى الأروقة الثلاثة أسقف هرمية مسنمة تمتد من الغرب إلى الشرق . وتطل القاعة على بهو يتوسطه صهريج ، ويكتنف هذا البهو من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية سقائف معقودة تشغلها حجرات لإقامة الطلبة . وخلف السقيفة الجنوبية توجد قاعة كبيرة للوضوء والاغتسال مغطاه بقبة نصف أسطوانية.

أما المئذنة فكانت تتوج الجهة الشمالية من المدرسة . وكان ارتفاعها حوالى ٢٥ م وكانت تتكون من طابقين الأول مربع الشكل يفتح فيه على مستويين نوافذ توأمية فى المستوى الأول من أسفل ومفردة فى المستوى الثانى من أعلى.

أما الطابق الثانى من أعلى فكان أصغر من الطابق الأول وهو على شكل مئمن يعلوه سقف أو خربوش مسنم.

ويضيف الأستاذ كارلوس بأن أبواب المدرسة كانت تفتح فى جهتيها الشرقية والغربية (١٧٦) .

الأربطة والزوايا :

من المنشآت الدينية بمدينة سبته الأربطة (١٧٧) والزوايا (١٧٨) فمع شيوع وانتشار التصوف بتلك المدينة التي تكون فيها تفكير صوفى لم تنطفئ شعلته من سبته إلا بانتهاء السيادة الإسلامية عليها (١٧٩) .

أقيمت العديد من الربط والزوايا كمساكن للفقراء والزهاد والغرباء . وكان يتولى إنشاء تلك الربط والزوايا الحكام والأثرياء من أهل سبته . ويشيد الأنصارى بكثرة ما شيد بمدينة سبته من تلك الربط والزوايا بقوله (وعدد الروابط والزوايا سبع وأربعون زاوية ورابطة محاذية للبحر من جانب الجنوب والشمال داخل المدينة والأرباض وخارجاً عنها. أضخمها بناء وأعظمها هيكلًا الرابطة المعروفة برابطة الصيد ، مربعة الشكل قائمة فى الهواء على اثنى عشر عموداً منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد . والأربعة الباقية مبنية بالأحجار تحت معابد أركان القبة ، ولكل عمود منها خمسة أركان واستدارت بها ثمانية عشر سرجباً (١٨٠) فى أربع بلاطات وبابها مبنى بالكذان (١٨١) المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها (١٨٢) .

وفى النص السابق عدة أمور هامة منها تحديد مواقع ربط سبته على سواحلها الشمالية والجنوبية . وفى ذلك تأكيد لصفة تلك الربط ودورها فى حماية السواحل والثغور كنقاط حصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد ، تقوم بالدفاع عن المدينة فى المواقع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة يرسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر ، حيث كانت تزود هذه الربط بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح بأن يرى الواحد منها الآخر ويمكن إرسال إشارات الإنذار من رباط إلى آخر بواسطة النار أو الدخان.

وهكذا نلاحظ أن ربط سبته لم يكن مقصود إقامتها فقط على السواحل وإنما داخل المدينة ، وفى الأرباض ، وذلك على غرار الربط الداخلية التي أقيمت على حدود مصر الجنوبية . ويتضمن النص السابق أيضاً صورة تقريبية لعمارة

الرباط ساعدت فى الكشف عن تخطيطه المربع ، ودلت فى وضوح على فخامة بنائه وسعة مساحته وتباين ألوان أعمدته وتنوع ألوان بناته ما بين الرخام والأجر المستخدم فى صنع الأعمدة وحجر الكذان المستخدم فى تشييد بابه.

ومع أن الأنصارى أكد استخدام القبة كوسيلة من وسائل تغطية رباط الصيد سالف الذكر ، إلا أنه لم يحدد الشكل الذى اتخذته هذه القبة . وفى تصورى أنها كانت من نوع القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى شاع استخدامها على نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس منذ ابتكارها فى زيادة الحكم المستنصر بجامع فرجة وجامع قرطبة وعلى نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس . ويدعونى إلى إبداء هذا رأى ما نستقيه من وصف الأنصارى الذى أشار فيه إلى عقود ونوافذ القبة ، فربما قصد بالمعاقد والأركان هو أشكال الضلوع التى تتكون من خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة تحمل هذه العقود التى يستند عليها غطاء القبة، وذلك على غرار قبة المحراب بجامع قرطبة التى تقوم على اثنى عشر عموداً محاطاً بركائز فى قاعدة القبة تحمل رؤوس الضلوع التى تتكون من أنصاف دوائر متقاطعة . كما أن كلمة شرجباً تشير إلى أن ضلوع القبة كانت تترك فراغاً تفتح فيه بقاعدة القبة ثمان عشرة طاقة مشبكة تشبه النوافذ أو القناطر المدفوعة على عمد مندمجة فى ركائز قاعدة القبة .

ويذكر الأنصارى رباطاً آخر بسبته دون أن يوضح اسمه ، كان مجاوراً لرباط الصيد سالف الذكر ، ووصفه بأنه كان يضم فى وسطه قبر جارية لأحد أمراء الموحدين (١٨٣) . كما يذكر المقرئ أن أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي - وكان من قضاة سبته - قد بنى بجبل المينا رباطا يعرف برباط العباد (١٨٤) .

- الزوايا :

أما عن زوايا سبته التى تقابل فى المشرق الخانقاوات ، فقد حفظ الأنصارى اسم واحدة منها فقط وهى الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان أبو عنان بن أبى

الحسن خارج باب فاس لتزول الغرباء . ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم . ثم ينتقل الأنصارى إلى وصف عمارة تلك الزاوية فيشير إلى عظمة بنائها وكثرة زخارفها وتعدد مساكنها وروعة صومعتها (١٨٥) .

- ثانياً المراكز الاجتماعية :

المقصود بالمركز الاجتماعى القطاع العمرانى الذى تتركز فيه منشآت المدينة ذات السمة الاجتماعية مثل دور الإمارة ودور العامة والخاصة والحمامات والقناطر أو السواقى .

- دار إمارة سبته :

الواقع أن دراسة دار إمارة سبته وقصورها الملكية تعد من الأمور الصعبة للغاية ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة نخص بالذكر منها اختفاء تلك المنشآت ، كما أن الأنصارى وكذلك بقية المصادر العربية لا تتضمن أى وصف لها ، وتكاد تقتصر معلوماتنا عن دار إمارة سبته على ما ذكره البكرى فى سياق حديثه عن المدينة بقوله (ودار الإمارة فى جوفى المدينة وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه المدينة قاطعاً إلى آخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة فى الجانب الغربى منها) (١٨٦) .

وأهم ما نستنتجه من هذا الوصف تحديده بشكل واضح لموقع دار الإمارة فى الجهة الشمالية من المدينة . كما يستشف منه مدى اتساع تلك الدار بحيث بلغ طولها من جهة سور المدينة الغربى خمسة أميال .

- قصر قصبة سبته (أفراك) :

من الجدير بالذكر أن أى بلد فى المغرب الإسلامى حين يصل إلى درجة معينة من النمو ويتحول إلى مدينة وتصبح هذه المدينة قصبة إقليم (١٨٧) ، وبالتالي تصبح مقراً للعامل أو الأمير صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لابد منها لتيسير النظم المدبرة لشتون الحياة الاجتماعية فى المدينة . وكان ممثلو السلطة

المركزية يقيمون عادة إلى جوار العامل أو الأمير القائم بولاية المدينة في موقع يسهل منه الدفاع عن المدينة في حالة تعرضها لأي عدوان خارجي ، ويتمثل ذلك في قصبة المدينة أو حصنها المنيع . وفي داخل هذه القصبة كان يوجد القصر الملكي حيث مقر الإدارة والحكم (١٨٨) .

وكان لسبته قصبة أو كما يسميها الأنصارى وبعض المؤرخين المغاربة أفراك (١٨٩) .

ويبدو أن هذه القصبة أقيمت في نفس موضع دار الإمارة القديم التي أشار إليها البكري ، وذلك بعد أن تطور عمران سبته في عهد بنى مرين وأصبحت قصبة إقليم . ويستدل على ذلك من إشارة ابن خلدون إلى أن السلطان أبا سعيد المريني هو الذى أمر ببناء البلد المسمى أفراك على سبته سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م (١٩٠) .

وباستثناء تلك الإشارة لا تتضمن المصادر العربية أى وصف لها كما أن منطقة القصبة المعروفة بأفراك اختفت الآن ، وذلك بعد حوالى عشرة سنوات من سقوط مدينة سبته في أيدي البرتغاليين (١٥٤٠-١٥٥٠م) (١٩١) .

ولعل اندثار هذه القصبة ٩٤٧هـ - ٩٥٧هـ كان من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم اهتمام المؤرخين العرب بها ، لاسيما الأنصارى الذى لم يزودنا للأسف بأية تفاصيل عن موقعها أو نظامها التخطيطي . وإن كان الأستاذ كارلوس جوثابلس قد وفق بفضل دراسته لطبوغرافية مدينة سبته التي اعتمد فيها على بعض الخرائط والصور في تحديد الشكل الذى كانت عليه قصبة سبته بما فى ذلك القصر الملكي الذى كان يتخذه حاكم سبته مقراً لولايته . فذكر أن قصبة سبته المعروفة بأفراك ، والتي أطلق عليها أسماء أخرى مثل المنصورة (١٩٢) . كانت تقع فى القطاع الشمالى الغربى للمدينة (١٩٣) وأنها كانت تتخذ شكلاً مستطيلاً ضلعه الغربى ، يؤلف جزءاً من أسوار حفير السهاج (١٩٤) . وكان يدعم هذا الضلع أو السور الغربى من القصبة أربعة أبراج أو سطها أكبرها ، حيث أقيم هذا

البرج فوق برج آخر قديم أصغر منه ، وسقف هذا البرج مسنم . وكان يتوسطه باب مقبى يفضى إلى خارج المدينة . ومن خلال هذا الباب كان يمكن الدخول إلى القصبة والخروج منها دون الحاجة إلى اجتياز المدينة (١٩٥) .

أما السور الشرقي للقصبة الموازي للسور الغربى فكان يدعمه ثلاثة أبراج (١٩٦) أو سطها أصغرهما ، وهو البرج المعروف ببرج سابق Torre Sabek الذى ذكره البكرى . وأكد على أنه كان يفتح به باب يدخل منه إلى دار الإمارة (١٩٧) .

وفى ضوء إشارة البكرى السابقة والدراسات الحديثة التى أجريت حول منطقة القصبة يتأكد صحة ما أشرت إليه سابقاً من أن القصبة وقصرها أقيمت فى نفس موضع دار الإمام القديم.

ويضيف الأستاذ كارلوس جوثابلس أن الضلعين الشمالى والجنوبى كان يطوقهما سورين يمتدان طولاً من الشمال إلى الجنوب . وأن هذين السورين كانا يضمنان بداخلهما ساحة القصر ، ويفصلان فى ذات الوقت منطقة القصبة عن أرباض المدينة الخارجية.

وهكذا يتضح من خلال الدراسة التى قام بها كارلوس جوثابلس أن منطقة القصبة كانت تنقسم إلى قسمين : قسم شمالى شرقى يضم بداخله مبنى القصبة أو الحصن . وقسم جنوبى غربى كان يضم القصر وساحته (١٩٨) . كما كان يضم وفقاً لما ذكره الأنصارى مسجداً كان يصلى فيه السلطان أبو الحسن بجيشه وحمام ودار للإشراف على دار السكة (١٩٩) .

- الدور :

لم يصلنا أى أثر لدور سبته الإسلامية التى تعد واحدة من أهم المنشآت المعمارية فى المركز العمرانى الاجتماعى . كما أن أخبار تلك الدور فى المصادر العربية يكتنفها الغموض بحيث لا نستطيع التعرف على المظاهر العامة لبنائها أو نظامها التخطيطى . وكل ما وصلنا من أخبار عن دور سبته الإسلامية يكاد يقتصر على ما زدنا به الأنصارى من إشارات متثرة عن بعض دور المدينة دون أن يذكر أى وصف لها.

وأهم ما نستنتجه من هذه الإشارات عن هذه الدور هو أن المدينة كانت تكتظ بالدور الموزعة حول مسجدھا الجامع ، وفى الطرق الرئيسية والدروب والأزقة والزنقات والحارات ، بحيث يبلغ عددها ما يزيد عن ٤٠ ألف دار (٢٠٠) .
وتتميز معظم هذه الدور باشتغالھا على حمام ومصلی لتأدية الصلوات الخمس (٢٠١) .

كما تتميز جميعاً بأنها لا تخلو من المياه الجارية التى تعتبر من ضرورات الحياة المنزلية . وكانت جميع دور سبته الخاصة والعامة تتصل بشبكة من الأنابيب والقنوات لجلب المياه من الأودية والأنهار والآبار ، بحيث كانت مساكن سبته بمياهها العذبة الدائمة على حد تعبير الأنصارى (لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء حيثما كانت بأقطار المدينة) (٢٠٢) .

وبالإضافة إلى دور الخاصة والعامة كانت تقوم فى بعض الدروب والحارات التجارية مصريات وعلیات (٢٠٣) وهى عبارة عن دور صغيرة للغاية تتكون من طابق واحد أو من غرفة واحدة تعلو فى الغالب حانوتاً أو مصنعاً أو فندقاً . وكان أهل المغرب والأندلس يكرونها للتجار الغرباء أو للعزاب من القومة والخدم . وفى بعض الأحيان كان أرباب الحرف يتخذونها لمزاولة صناعتهم فقط ، إذ كانوا يبتون فى مساكن أخرى (٢٠٤) . وذلك بعكس ما كان معروفاً عند الصناع فى المشرق الإسلامى حيث كانت المصانع والورش تقام فى الطابق الأرضى فى حين كانوا يبتون مع أسرهم بالغرف العليا التى تعرف فى المشرق بالعلیات وفى بلاد المغرب بالمصريات (٢٠٥) .

وقد طبعت دور سبته بطابعها الاقتصادى ، فكانت تشتمل بعض دور الصناع على غرفة أو محل أو ورشة تزاوّل فيها أى صنعة من الصناعات التى كان يزاوّلھا صاحب الدار . ويستدل على وجود مثل هذا النوع من الدور من خلال

إشارة الأنصارى إلى ورش التجارة المخصصة لعمل القسى بقوله (وعدد المنجرات المعدة لعمل القسى أربعون منها عشرون بمنازل المسلمين والصناع كبنى القنطرى وبنى العاقل وبنى ابن غالب وغيرهم) (٢٠٦).

- الحمامات :

أشار الأنصارى إلى كثرة حمامات سبته بقوله (وعدد الحمامات العامة المبررة للناس اثنان وعشرون حماماً) (٢٠٧). كما أمدنا بأسماء بعضها ، وبصورة واضحة عن بعض المظاهر العامة لبنائها ، فيذكر أن من بينها (حمام القائد وهو أبو على ناصح الذى كان بناؤه على يده. وهذا الحمام بلغ الغاية فى الكبر يسع المئتين) (٢٠٨) من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على أعمدة الرخام مفروش بالواحة الساطعة البياض . والمسلخ (٢٠٩) متسع الساحة له بابان اثنان ، وسقفه قبه مؤلفة (٢١٠) متقنة على أربع حنيات . وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض . وفى وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور (٢١١) من الرخام يصعد الماء فى حوض السارية إلى أن يفور فى الطيفور ، وفيضه يملأ الصهريج . ومن الحمامات ذات الرخام سواه بسبته حمام ابن عيسى ، وحمام اليانشتى وحمام عبود بناحية الميناء ، وهو نظير حمام القائد فى الفخامة والهيكل ، وبمساحها طيافير من الرخام على سوار مجوفة أيضاً فى وسط الصهريج على نحو ما وصفناه . وبالقصبه عشرة حمامات سوى العدد المذكور أبدعها حمام القصر . وبكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل (٢١٢).

وفى ضوء النص السابق والمطول للأنصارى عن حمامات سبته الإسلامية يتضح ما يلى :

أولاً : أن الحمامات كانت تشكل عنصراً من أهم عناصر عمارة المنافع العامة أو منشآت المركز الاجتماعى ، حيث اكتظت بها شوارع وأحياء المدينة فى

شكل حمامات عامة ، كما حفلت بها بعض المنشآت كقصة المدينة وقصرها ، وكذلك شيد معظمها داخل المنازل.

ثانياً : ساعد النص فى الكشف عن مدى فخامة بناء حمامات سبته وسعة مساحتها ومدى العناية بتكسية أرضيتها بألواح الرخام . كذلك أمدنا النص بصورة واضحة عن نظامها التخطيطى حيث أنها كانت من النوع الذى يتألف من أربع قاعات رئيسية مقباه (٢١٣) . وقد ركز الأنصارى بشكل أساسى على قاعة المسلخ فبين حدودها المتسعة وسقفها المبنى بقبة تقوم على أربع حنايا ركنية . ويستدل من وصفه لها بأنها كانت تعتمد فى تخطيطها على وجود فراغ مركزى أو صحن يتوسطه صهريج للمياه.

ويتجلى الاهتمام بتجميل هذه القاعة فى أنها كانت مزودة بحوض كبير يتوسطه فسقية ، وذلك على غرار الفساقى التى كانت تتوسط مساح حمامات المغرب والأندلس والتى بلغت أوج ازدهارها فى حمامات قصور الحمراء (٢١٤) .

- المنشآت المائية :

تعتبر عذوبة الماء من السمات التى تميز مدينة عن أخرى . ويمكننا أن نستنتج من النصوص المختلفة وروايات الجغرافيين أن مدينة سبته لم تكن تفتقر إلى الماء العذب منذ أقدم العصور . ويؤكد ذلك وصف ابن حوقل لها فى قوله (إن ماء سبته من داخلها يستخرج من آبارها كما أن فى خارجها أيضاً آباراً كثيرة عذبة الماء) (٢١٥) .

وقد تنوعت أساليب تغذية مدينة سبته بالمياه . فالبكرى يقول (إن حمامات سبته يجلب إليها الماء على الظهر من البحر) . ويضيف فى موضوع آخر بأن الماء يجلب فى قناة من نهراويات على بعد ثلاثة أميال من المدينة على ضفة البحر القبلى إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع (٢١٦) .

كذلك يشير الإدريسي إلى وجود (عين ماء لا تجف البتة بأعلى الجبل فى وسط المدينة) (٢١٧) . وتشير الروايات التاريخية إلى مدى عناية حكام سبته بحلب الماء العذب إلى المدينة . ومن هذه الروايات ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار من أن ثالث خلفاء الموحدين أبا يعقوب المنصورى أمر سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م بحلب الماء من قرية بليونش التى تبعد عنها بنحو (٦) ستة أميال وذلك فى قناة تحت الأرض غير أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م (٢١٨) .

وقد اكتسب أهل سبته خبرة عظيمة فى استغلال مائها العذب استغلالاً حسناً حيث أنشئت بها أنواع أخرى من المنشآت المائية ، وهى السقايات التى تساعد على خزن الماء العذب لسقاية الناس والحيوانات ومد كافة مرافق المدينة بمصادر دائمة للمياه . وقد أشار الأنصارى إلى تلك السقايات بشيء من التفاصيل بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة ووضعاً السقاية التى بطرف العطارين وأول سباط العدول . وبازاء باب الشوائين من أبواب الجامع ذات الأنابيب) (٢١٩) النحاسية والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق . ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور ، الذى ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفى المذكور ، وخلده أثراً غريباً بعده رحمه الله . صهريجان مشترك كان يمد إحداهما الآخر وقد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بالألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكماله . ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل بيثر معينة قرية التناول طيبة الماء عليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل (٢٢٠) وربما تبلغ الثمانين (٢٢١) .

وفى ضوء الوصف السابق يتضح أن السقايات التى ذكرها الأنصارى كانت عبارة عن صهاريج ضخمة شيدت بنظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ بحيث كان يجرى توزيع الماء بتلك الصهاريج المعبر عنها بالسقايات بحيل هندسية

دقيقة . ويتجلى ذلك فى إشارة الأنصارى إلى أسلوب من الأساليب التى يمكن بها تكثير مياه السقاية عن طريق جعل السقاية الواحدة تتكون من صهر يحين متجاورين يمد أحدهما الآخر بالمياه . وهذه الطريقة استخدمت بكثرة فى حفر معظم آبار مدن الغرب الإسلامية لاسيما مدينة بحريط أو مدريد العربية . كما انتشرت فى القسطنطينية فكرة حفر الآبار المتجاورة المتصلة ببعضها مع اختلاف مستوياتها بهدف تكثير الماء المستمد من جوف الأرض (٢٢٢).

ثالثاً - المراكز الاقتصادية بمدينة سبتة :

إن أهل سبتة بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس توفرت لديهم إمكانيات اقتصادية هائلة ساعدت على ازدهارها التجارى والصناعى . وفى مجال التجارة عبر الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذا الازدهار فيما كتبوه عن سبتة . فابن سعيد المغربى يشبه سبتة بمدينة الإسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة (٢٢٣) . كما يذكر ابن الخطيب فى سياق وصفه للمدينة (أنها كانت محط قوافل العصير (زيت الزيتون) والحرير والكتان) (٢٢٤) ويتبين من رحلة ابن جبير أن سبتة كانت نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية إلى المشرق (٢٢٥) .

ويبدو أن التجارة بين سبتة وجنوة كانت نشطة ، وأن ثراء سبتة من التجارة أطمع فيها الجنوبيين . ويستدل على ذلك مما ذكره ابن عذارى من أن الجنوبيين حاولوا الاستيلاء على سبتة بالخديعة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٤م ولكنهم فشلوا وانتهبت أموالهم التى فى فنادقهم ، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبتة الجنوبيين عما فقدوه (٢٢٦) . ويستدل أيضاً مما رواه المقرئ على أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلى سبتة طرائف السلع . ويوضح ذلك قصة القائد أبى السرور صاحب ديوان سبتة الذى أنعم على الأديب النحوى أبى عمران موسى الطريانى بتحف مما كان فى الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبتة (٢٢٧) .

هذا ويشير ابن بطوطة إلى أن التجار السبتيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع الصين وبلاد السودان الغربى . ففى أثناء وجوده بمدينة قنجنفو بالصين قابل تاجراً من سبته وهو قوام الدين السبتي كان قد وصل إلى الصين وفيها عظم شأنه واكتسب الأموال الطائلة وبعد ذلك يبضع سنوات قابل ابن بطوطة أخا لهذا التاجر السبتي من السودان الغربى (٢٢٨) .

ونتيجة لهذا الازدهار التجارى الذى نعمت به مدينة سبته غزت أسواق مرسيليا الدراهم السبتية ، فكان تجار مرسيليا عن طريق وكلائهم من اليهود فى سبته يبيعون عملات عربية فى مونيلىه (٢٢٩) .

أما بالنسبة للصناعة التى تعتبر من أهم مصادر الثروة الاقتصادية لسبته فقد عرف أهل سبته كيف يفيدون من ثروة مياهها من المرجان الجيد الذى أمد المدينة بفائض من الإنتاج ، فكانت تصدره إلى الأندلس والمشرق والهند ، وذلك بعد تجهيزه تجارياً على هيئة قطع صغيرة تصنع منه الأواني الطريفة (٢٣٠) .

وقد امتدح الأدريسى مرجان سبته وأشار إلى شهرتها فى إنتاجه وصناعته وتصديره بقوله (ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . ومدينة سبته سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد) (٢٣١) .

وهكذا أدى الازدهار التجارى والصناعى الذى نعمت به مدينة سبته إلى العناية بتشيد العديد من المنشآت التجارية والصناعية بحيث شغلت تلك المنشآت أكبر مراكز المدينة العمرانية التى وصلتنا أخبار عنها . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نطالع ما سجله الأنصارى من أوصاف لتلك المنشآت على النحو التالى :

١ - الأسواق :

المقصود بالأسواق الأماكن التى تتجمع فيها الحوانيت والتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف . ولم تكن أسواق مدن الغرب الإسلامى تقام فى موضع معين من المدينة ولكنها تتوزع فى عدة مواضع داخل المدينة وخارجها .

وتتنوع الأسواق بأنواع السلع التى تباع فيها من ذلك سوق العطارين وسوق النحاسين وسوق البزازين (٢٣٢).

وقد أشار الأنصارى إلى أسواق سبته الإسلامية وتعدد مواضعها وتنوعها حسب أنواع السلع التى كانت تباع فيها بقوله : (وعدد الأسواق (١٧٤) مائة وأربعة وسبعون سوقاً تخص منها المدينة بمائة واثنين وأربعين سوقاً. والأرباض الثلاثة باثنين وثلاثين. ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم (٢٣٣). وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما يجوفى الجامع الأعظم . والقيسارية خلف ذلك . ومن أسواق المأكول والمطعم والفواكه والأدم ، وغير ذلك السوق الكبير . وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقى من المدينة . ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية (٢٣٤) القوية الصبغ العجيبة الصنعة الخاصة بسبته دون غيرها سوق السقاطين (٢٣٥) . ما أدراق ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب (٢٣٦) .

- القيسارية :

تعد القيساريات من أهم المؤسسات التجارية فى المركز العمرانى الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام . وكلمة قيسارية هى تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية Kaisareie وتعنى السوق القيصرى . وكان يباع فى القيساريات أفخر أنواع السلع التى يندر وجودها فى الأسواق الأخرى (٢٣٧) .

وقد أشار الأنصارى إلى أن قيسارية سبته كانت تقع بجوار مسجدتها الجامع وبالتحديد خلف هذا الجامع (٢٣٨) . ويرجع أحد الباحثين أن تلك القيسارية كانت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدرسة سبته المعروفة بالمدرسة الجديدة . وأنها ظلت تحتفظ بعد حركة استرداد المدينة بنفس الموضع الذى كانت تقوم به فى العصر الإسلامى إلى أن تهدمت فى العصر الحديث وأقيم مكانها فندق يعرف بـ Hotel Muralla . ويضيف أنه من الصعب أن تحدد بدقة حدود قيسارية سبته ، ولكن يبدو أنها كانت تمتد فى شارع واحد معلق من جهته الجنوبية بواسطة برج يعرف اليوم ببرج كمبانيا Torre de la compaña (٢٣٩) .

وفى رأى الأستاذ خواكين بالين أن قيسارية سبته كانت تقع بالقرب من سوق سبته الحالى وبالتحديد فى الموضع الذى يقوم عليه الآن مبنى بنك أسبانيا حيث كان يشغل هذا الموضع وفقاً لوثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م شارع كبير كان يعرف بشارع القصر الأسقفى . ومن هذا الشارع كانت تتفرع عدة أزقة منها زقاق مسدود كان يعرف بزقاق القيسارية (٢٤٠).

• الحوانيت والتربيعات التجارية :

كانت أحياء سبته التجارية تزخر بالعديد من الحوانيت التى كانت تسمى باسم السلعة التى تباع فيها أو بأسماء أصحابها . وقد أحصى الأنصارى حوانيت سبته ب ٢٤ ألف حانوت (أربعة وعشرون ألفاً).

وعلى الرغم مما فى هذا الرقم من مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل على أن الحوانيت التجارية كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية التجارية لمدينة سبته.

- التربيعات :

يقصد بالتربيعات حى أو سوق تجارى مربع أو دائرى أو مستقيم تتجمع فيه الحوانيت التجارية ويتخذ تكوين هذه المربعات أو التربيعات هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التى تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع (٢٤١).

وقد كانت هذه التربيعات من المنشآت التجارية الهامة بمدينة سبته الإسلامية ويؤكد ذلك وصف الأنصارى لها بقوله (وعدد التربيعات المعلومة للحرارين والقزازين خاصة إذ هناك تربيعات غيرها داخلات فى حكم الأسواق إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة (٢٤٢) من أول المدينة

إلى آخرها أعظمها التريعة التى بأسفل زقاق خطاب سامية فى الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفى صحنها مسجد (٢٤٣) .

ويبدو أن مثل هذه التريعات كانت تمثل امتداداً لحوانيت قيسارية سبته فى الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الأعظم الذى كانت تشغله قيسارية المدينة الرئيسية ، والتى يمكن أن تطلق عليها قيساريات الأزقة . ويرجح ذلك وصف ليو الأفريقى لمصطلح قيساريات الأزقة التى انتشرت فى مدن الغرب الإسلامى على أنه شبكة الأزقة التى تتفرع على جوانبها الحوانيت (٢٤٤) . كما يدعم هذا الاستنتاج ما ورد فى وثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م تشيران إلى وجود زنقات بمدينة سبته كانت تسمى بزنقات القيسارية (٢٤٥) .

• الفنادق :

تعتبر الفنادق من أهم المؤسسات التجارية فى المركز الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام وهى تقابل فى بلاد المغرب والأندلس الختان فى المشرق الإسلامى (٢٤٦) .

وتمتاز الفنادق بأنها تجمع بين الصفة الاقتصادية التجارية والاجتماعية فلم تكن وظيفتها مقصورة على إيواء المسافرين من التجار الغرباء فحسب بل كانت سوقاً لبيع السلع بالجملة (٢٤٧) .

ويشير الأنصارى إلى توفر عدد كبير من الفنادق فى مدينة سبته فيذكر أنه كان بها ٣٦٠ فندقاً (٢٤٨) .

ورغم ما فى هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يتأكد لنا مما سبق أن أشرنا إليه أن مدينة سبته كانت محطاً للتجار من مختلف الأنحاء ، الأمر الذى دعا إلى توفير هذا العدد الهائل من الفنادق لإقامتهم بل وتخصيص أكبر هذه الفنادق وهو الفندق الكبير فقط لحفظ المنتجات الزراعية (٢٤٩) .

ويستدل مما ذكره الأنصارى عن فنادق سبته بأنها كانت تمتاز فى جملةها بالضخامة وتعدد طوابقها وبيوتها المخصصة لإقامة التجار (٢٥٠). فضلاً عن العناية بتجميلها بالنقوش الجصية وأعمال النجارة ، إذ تعرض الأنصارى لذكر أحد التفاصيل التى تتعلق بأعمال الزخرفة فى فندق الوهرانى ، والتى أشار إليها بقوله (وأبدعها صفة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظر) (٢٥١).

• المنشآت الصناعية :

من الملامح الرئيسية لمدينة سبته أنها ذات طابع صناعى تجارى ، ولذلك كثرت بها المنشآت الصناعية التى شكلت جانباً هاماً فى تكوينها المعمارى . ومن أمثلة تلك المنشآت التى ذكرها الأنصارى.

• المقاصر (٢٥٢) :

كانت الصباغة من الصناعات الشهيرة بمدينة سبته الإسلامية حيث أحصى الأنصارى الأماكن المعدة لتلك الصناعة بـ ٢٥ مقصراً وحدد لنا موقعها بقوله (وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب . ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا يتكلف بحملها بالغداة والعشى مؤنه كما فى سائر البلاد) (٢٥٣).

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، إذ يوضح لنا مدى شهرة سبته فى صناعة المنسوجات على أسس أن صباغتها من العمليات الأساسية فى تلك الصناعة . كما يبلنا على أن تلك المقاصر أو المصانع كانت تقع فى أطراف المدينة بالقرب من أسوارها وأبوابها وأبراجها . وواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن حرفة الصباغة تستلزم وجود ورشها أو مقاصرها خارج أبواب المدينة حتى لا تؤذى السكان ، فضلاً عما توفره أبراج الأسوار من حماية للمنسوجات المعدة للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم

للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم وقوعها داخل أبراج المدينة ، وبذلك توفرت فى تلك المصانع كافة الشروط المناسبة لتفى بالغرض من إنشائها . حيث كان الأمان شرطاً أساسياً فى إقامة تلك المقاصر (٢٥٤) كما أوجبت الضرورة الوظيفية إقامة المقاصر الغزلية بمدينة سبته البالغ عددها ١٩ (تسعة عشر مقصراً) عند مجرى مائى حيث تم توزيع تلك المقاصر على ستة أماكن تتوفر فيها المياه ، منها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين (٢٥٥) . ويعكس ذلك بوضوح تعريف مصطلح القالة بأنه كان يطلق بالمغرب فى القديم على بعض الأسوار التى يجرى فوقها الماء داخل قواديس (٢٥٦) .

• المنجرات :

المقصود بالمنجرات المكان الذى ينجر فيه الخشب والعود . وكان يطلق خاصة على دور صناعة السفن بالمراسى ودور صناعة السلاح بها وبغيرها . وقد يطلق تجاوزاً على المكان الذى يجلس به جباة الأموال وولاية الأحكام (٢٥٧) . ومعظم تلك المنجرات كان معداً لصناعة القسى (٢٥٨) التى اشتهرت سبته بصنعتها معتمدة فى ذلك على ما لديها من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة وقد أشار الأنصارى إلى تلك المنجرات المعدة لصناعة القسى وأحصاها بـ ٤٠ منجرة بقى منها فى زمانه ١٥ (خمسة عشر منجرة) . كما أشار إلى أشهر الشخصيات المتخصصة فى هذه الصناعة منذ القدم مثل الشيخ أبو عبد الله محمد الحسنى . والشيخ أبو عبد الله محمد عبد الله المعروف بالعقدة ، وكان متقدماً فى هذه الصناعة فى زمانه ، فضلاً عن الشيخ أبى الحسن العبادى الذى اشتهر بكثرة أدواته ومتعلقاته التى كانت تعينه على اتقان هذه الصنعة (٢٥٩) .

• المضارب والمصايد :

المقصود بالمضارب المكان الذى تضرب فيه شباك صيد الأسماك من البحر فى عامية المغرب والأندلس . وهذه الكلمة العربية -مضربة أو المضربة- بقيت فى اللغة الأسبانية بهذا الشكل Almadraba (٢٦٠) .

أما عن المصايد فيقول (وعدد ما وقفنا عليه من المصايد سوى ما لم نقف عليه مئتان واثنان وتسعة وتسعون مصيداً) (٢٦٢) .

وإذا كان النص قد أورد فيه الأنصارى أرقاماً مغالى فيها بالنسبة لعدد تلك المضارب والمصايد ، إلا أنها تدل في وضوح على أن تلك المنشآت الصناعية الخاصة بصناعة أدوات الصيد كانت من الصناعات الزاهرة بمدينة سبته . وقد ساعد على هذا الازدهار تعدد مواقع مصايد الأسماك على امتداد سواحل سبته على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، حيث اشتهرت تلك السواحل بثرائها في الأحياء البحرية لاسيما المرجان (٢٦٣) . فضلاً عن تعدد أنواع أسماكها إلى أن بلغت نحو مائة نوع (٢٦٤) .

المطامير :

ومن المنشآت الاقتصادية بمدينة سبته المطامير أى الأهراء تحت الأرض والتي كانت تستخدم كمستودعات لطمر القمح وخزن الغلال . من أجل تصديره أو استهلاكه محلياً.

وقد أحصى الأنصارى مطامير سبته بأربعين ألفاً - ٤٠ ألف - وأشاد بقدرتها في المحافظة على ما كان يحفظ بها من القمح بقوله (يمكنك الزرع في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير ، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية) (٢٦٥) .

ويبدو أن العناية بإنشاء تلك المطامير ترجع إلى أن أحواز سبته كانت فقيرة ووعرة ، مما جعل المدينة تعاني دائماً من قلة الحبوب (٢٦٦) . وإن كانت قد توافرت بها الخضروات والفواكه حيث كان بسبته من البساتين والأجنة ما يقوم بأهلها وفقاً لما ذكره ابن حوقل (٢٦٧) .

• ديار الإشراف المالى (٢٦٨) :

كان لسياسةحكام سبته في مراقبة نشاطها التجارى والصناعى أثرها الواضح فى تطور هذه المدينة وازدياد عمرانها ، حيث اهتم هؤلاء الحكام بإنشاء دور للإشراف المالى

لعبت دوراً هاماً فى تنظيم الشؤون الاقتصادية والتجارية ، وأثرت تأثيراً واضحاً فى المحافظة على المنشآت التجارية والصناعية.

ويحدثنا الأنصارى عن دور الإشراف المالى بمدينة سبته فيقول إنها أربعة وهى دار الإشراف على عمال الديوان (٢٦٩) . ودار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة ودار الإشراف على شد الأمتعة وحلها (الجمارك) وهى المعروفة بالقاعة (٢٧٠) حيث تجارة العطر (٢٧١) .

• المقابر :

الواقع أن ما ورد فى المصادر العربية عن مقابر سبته يعد شحيحاً . ولكن بفضل ما زودنا به الأنصارى عن تلك المقابر نستطيع أن نحدد على نحو مؤكد وجود نوعين من المقابر الإسلامية بمدينة سبته . أحدهما . مقابر الأولياء الصالحين والعلماء والفقهاء ، والآخر مقابر العامة.

(أ) مقابر الأولياء الصالحين أو المزارات المباركة ::

اتخذت المنطقة الممتدة بسفح جبل الميناء شرقى مدينة سبته (٢٧٢) نواة لإقامة قبور الأشخاص المشهود لهم بالورع والتقوى من الأولياء الصالحين من أهل سبته . وكان لتلك القبور مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، فكانوا يقصدونها للزيارة والتبرك . وقد أحصى الأنصارى بعض تلك المقابر بـ ٨٢ (اثنين وثمانين قبراً) . فضلاً عن بعض المزارات التى تضم قبور عديدة ليست بداخله فى هذا العدد (٢٧٣).

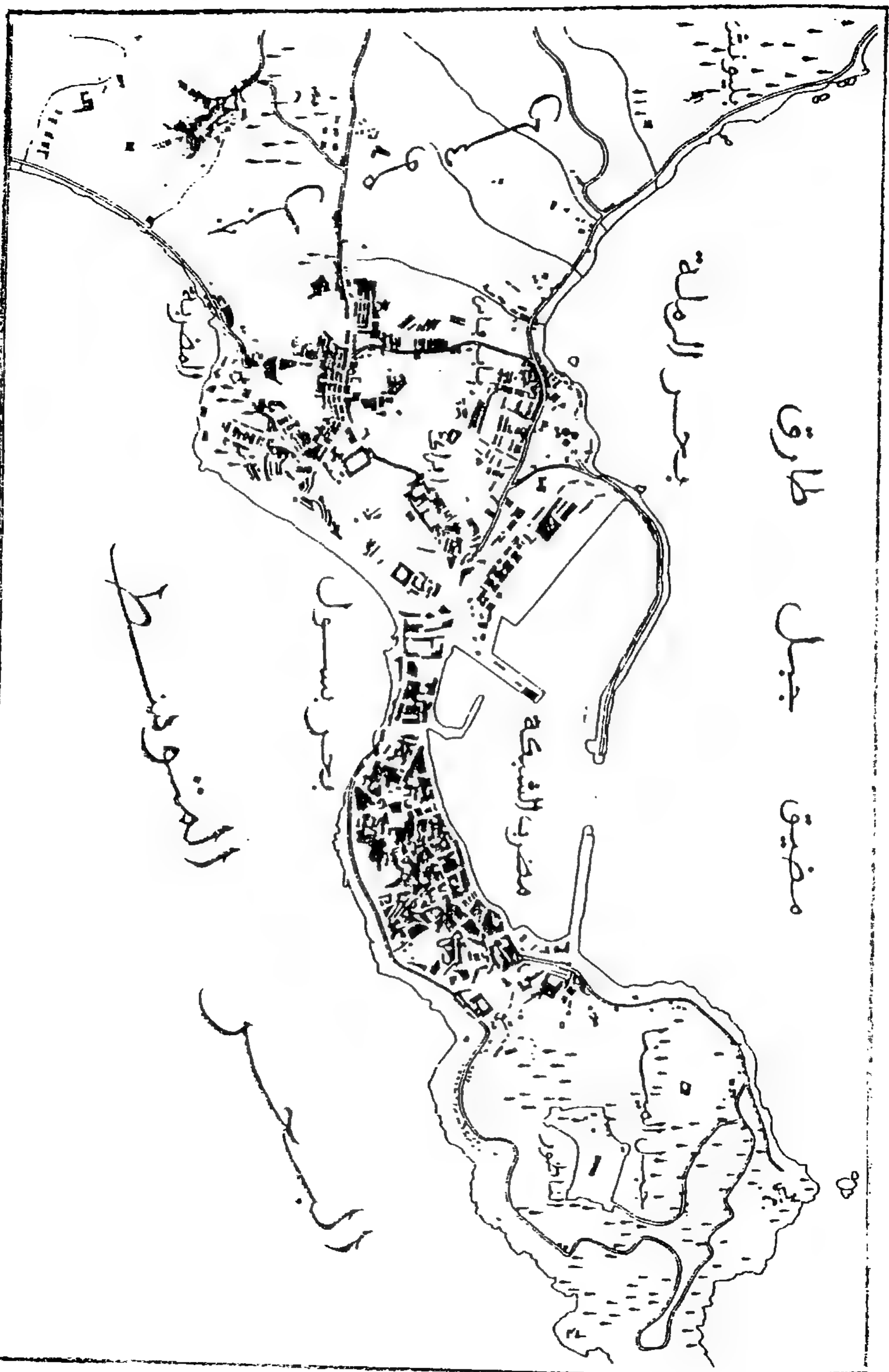
وتجلى أهمية نص الأنصارى الخاص بوصف تلك المقابر فى أنه زودنا بأسماء من دفن بهذه المقابر من أهل العلم والفقهاء الصالحين ، بحيث يعد ما سجله عنها من أسماء من دفن بها سجلاً وافياً ودليلاً كاملاً لمعظم كبار أعلام سبته فى مختلف الفنون والعلوم . وأهم المزارات أو مقابر الصالحين التى وصفها الأنصارى مقبرة التوته من الميناء بشرقى المدينة وفيها قبر الولي أبى ذرعه وهو مزار مشهور . وأبى ذرعه هذا

هو الذى أدخل القرآن الكريم إلى المغرب (٢٧٤) والدعاء عند قبره مستجاب على حد قول الأنصارى (٢٧٥). ومن مزارات سبته الشهيرة أيضاً المقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء ، وفيها كان يوجد قبر الشيخ الأستاذ العلامة المصنف أمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأموى العثمانى الأشبيلى نزيل سبته (٢٧٦) ومقبرة المنارة (٢٧٧) ومقبرة الحافة (٢٧٨) ومقبرة مسجد المحلة (٢٧٩) ومقبرة الشريعة بالربض الأوسط (٢٨٠) .

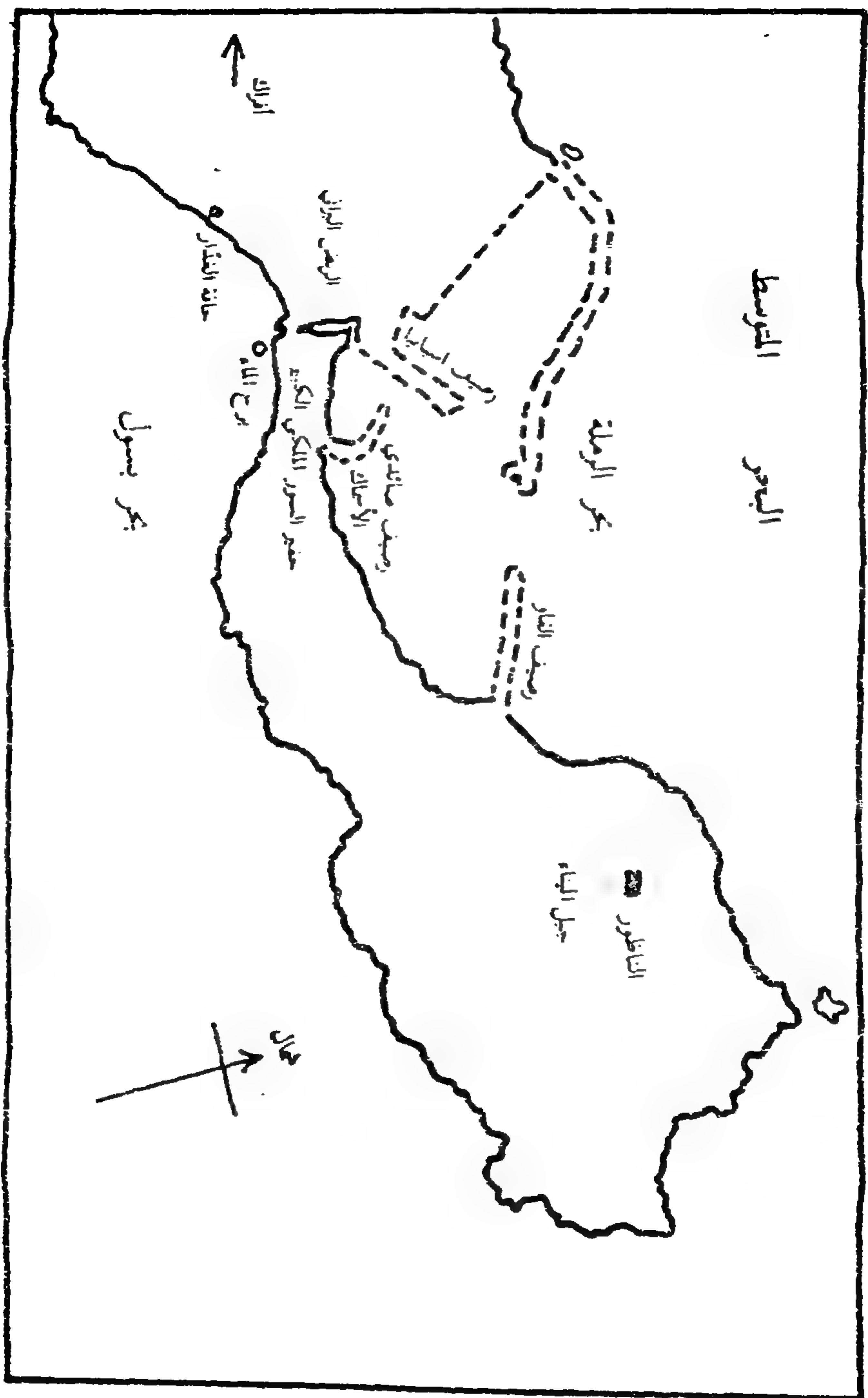
(ب) مقابر العامة :

أما مقابر العامة فقد أحصاها الأنصارى بـ ١٣ ثلاث عشرة ، موزعة بداخل المدينة وخارجها ، منها مقبرة المنارة . ومقبرة البلد القديم ومقبرة الحارة ومقبرة مضرب الشبكة ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية (٢٨١).

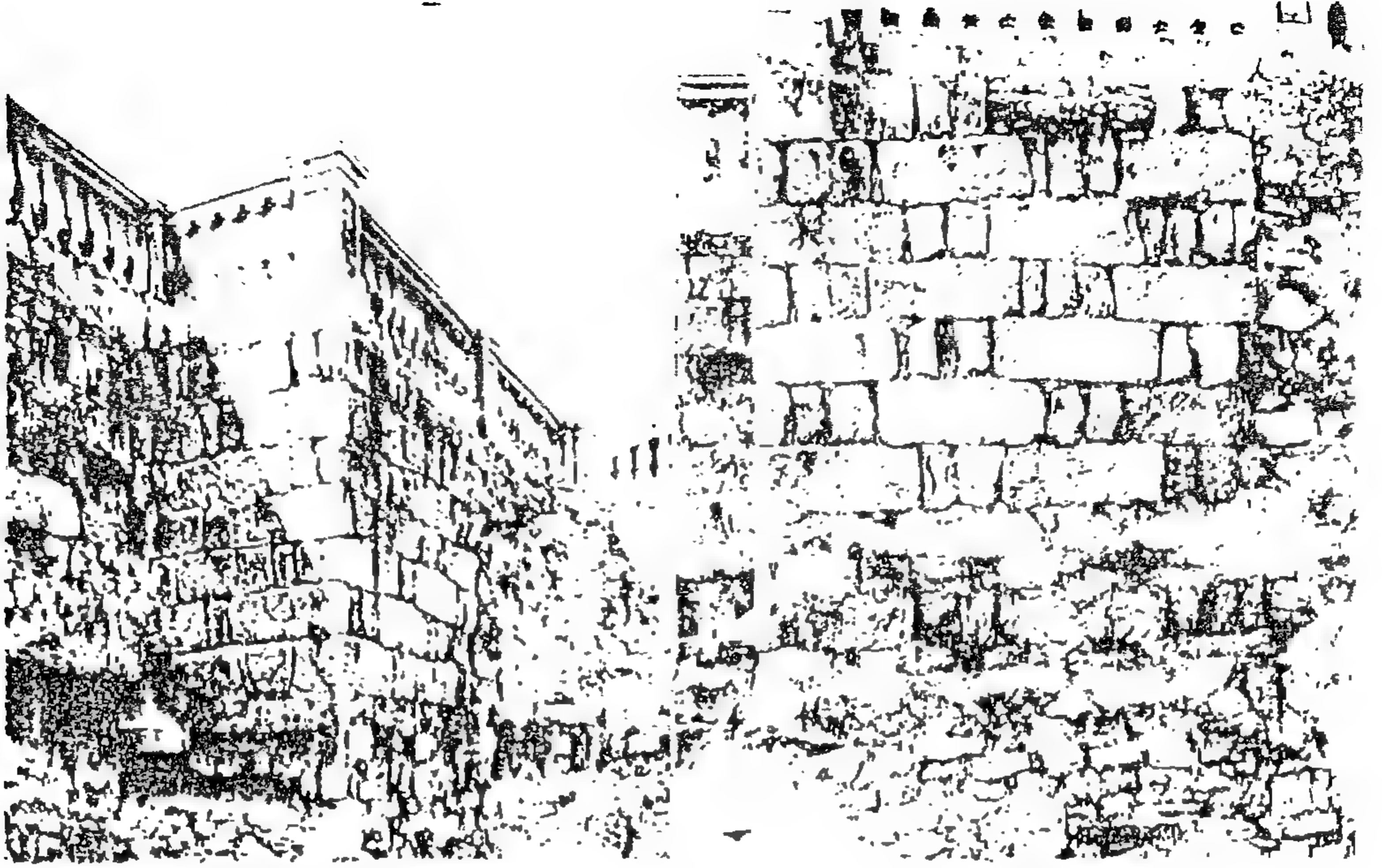
ولم يزودنا الأنصارى فى وصفه لتلك المقابر بأسماء من دفن بها . ومرجع ذلك أنها كانت على عكس مقابر الفقهاء والأولياء الصالحين ، كان يدفن بها عامة الناس من غير المشاهير .



ش (١) (أ) خريطة سبتة وضواحيه (عن عبد الوهاب بن منصور)

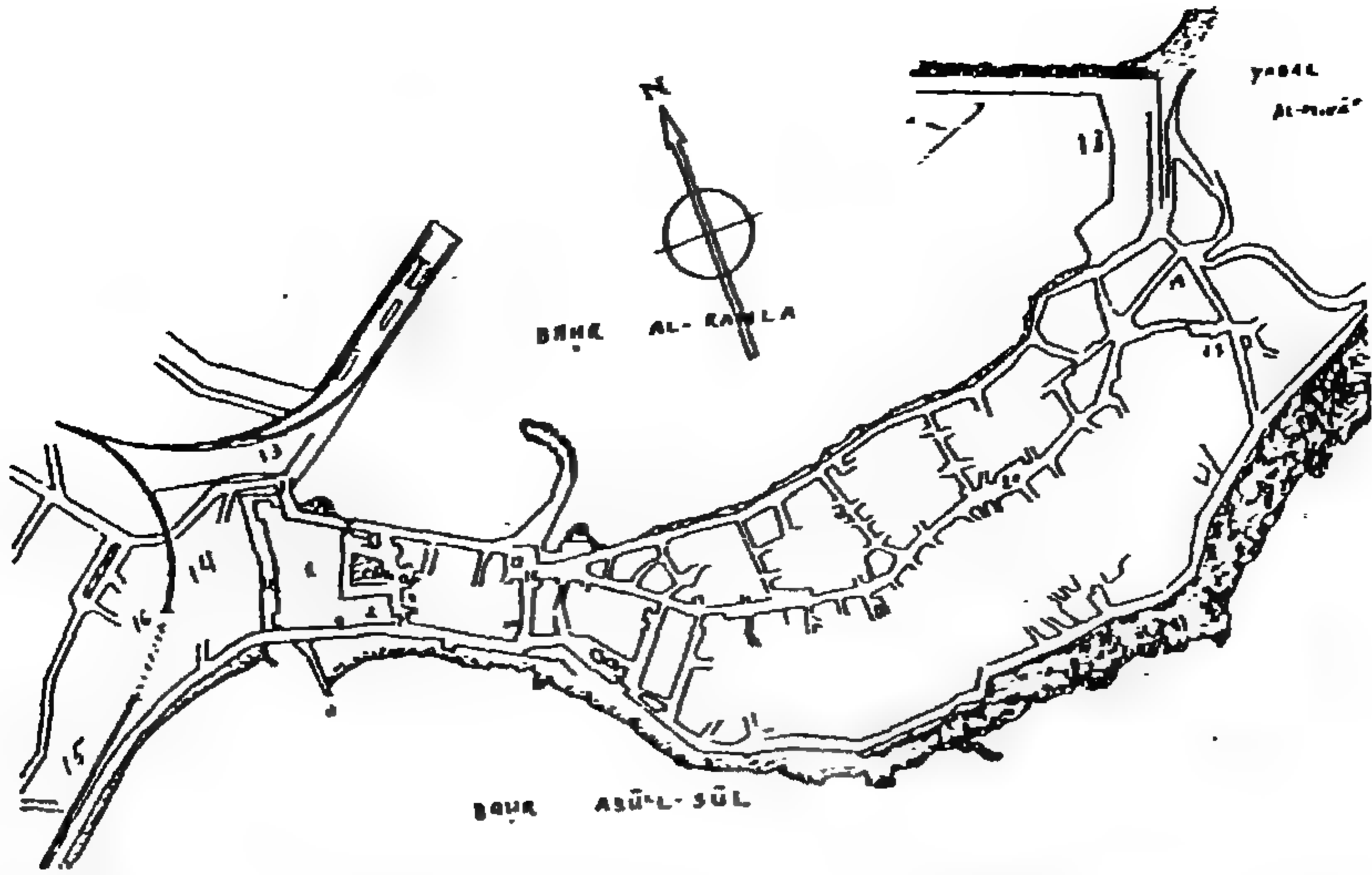


من (اب) خريطة تربيته لسبته في أواخر الفترة الإسلامية (عن ج. د. ليام)

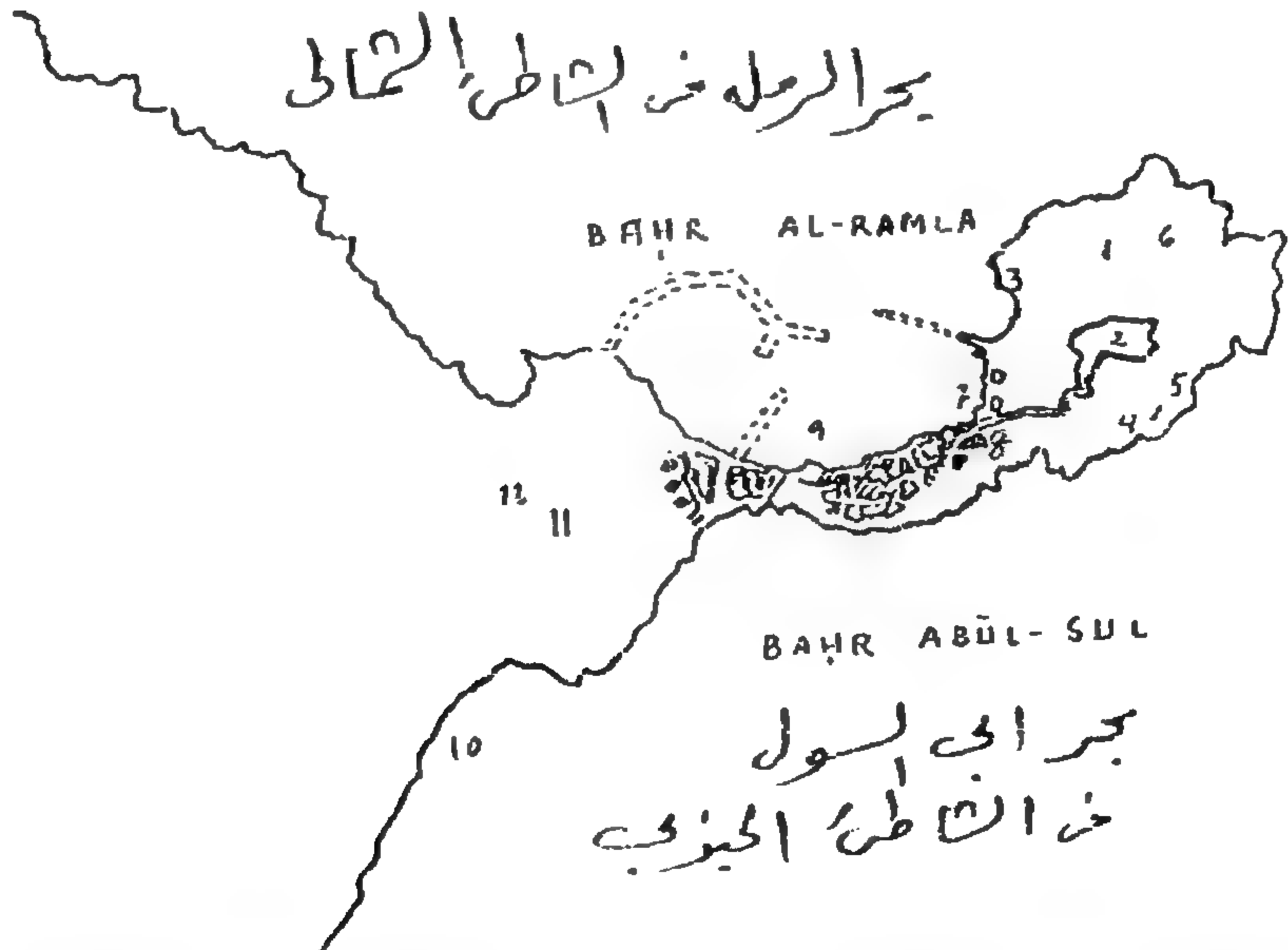


شكل (٢)

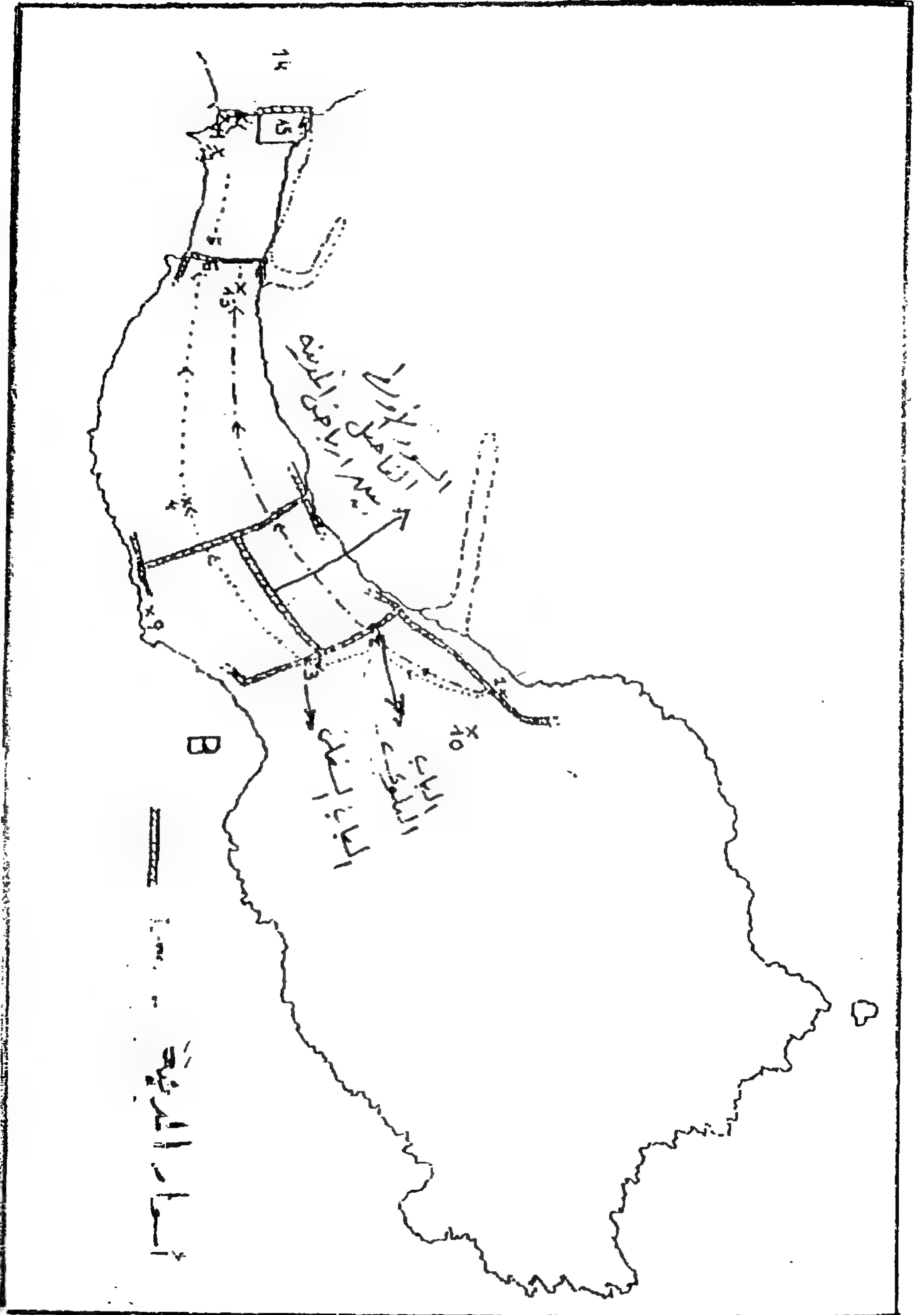
أحد أبراج السور الشمالى لمدينة سبته (عن تراس)



(شكل ١٣) (عن خواكين بالين) خريطة توضيحية لمواقع مدينة سبته ومعالمها الإسلامية
 (١) القصر ، (٢) الجامع ، (٣) المدرسة الجديدة ، (٤) سوق العطارين ، (٥) المسجد ،
 (٦) سماط العلول ، (٧) القيساريه ، (٨) الباب لأعظم ، (٩) باب الزلاقة ، (١٠) بابالقصابين ،
 (١١) برج للماء ، (١٢) حفير الهاج ، (١٣) القصابون ، (١٤) الربض البراني ، (١٥) حافة القلندر (الكدار)
 (١٦) حفير ، (١٧) مسجد المقررة ، (١٨) الميناء ، (١٩) باب الميناء ، (٢٠) زقاق ابن عيسى.



شكل (٣ب) (عن خواكين بالين) خريطة أخرى لمواقع مدينة سبته و معالمها الإسلامية
 (١) الناضور ، (٢) القصبة ، (٣) دار الصناعة ، (٤) رباط أبي العباس ،
 (٥) المصلى ، (٦) المقبرة ، (٧) حفير أو حفرة المختار ، (٨) عرقوب ،
 (٩) مضرب الشبكة ، (١٠) مضرب أويات ، (١١) أفراك ، (١٢) باب فاس.



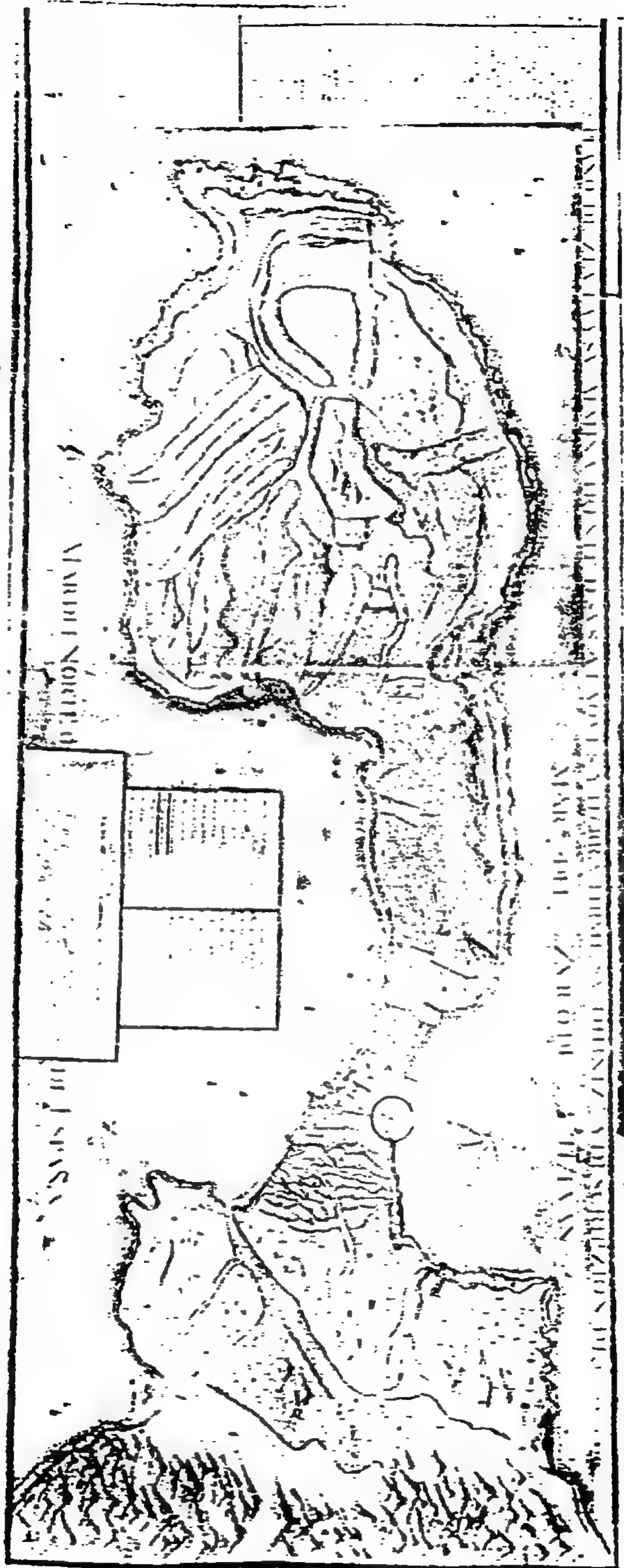
شكل (٤) رسم كروكي لأسوار سيرة من خلال الرسوم التخطيطية القديمة للمدينة (عن كارلوس جوثاليس)



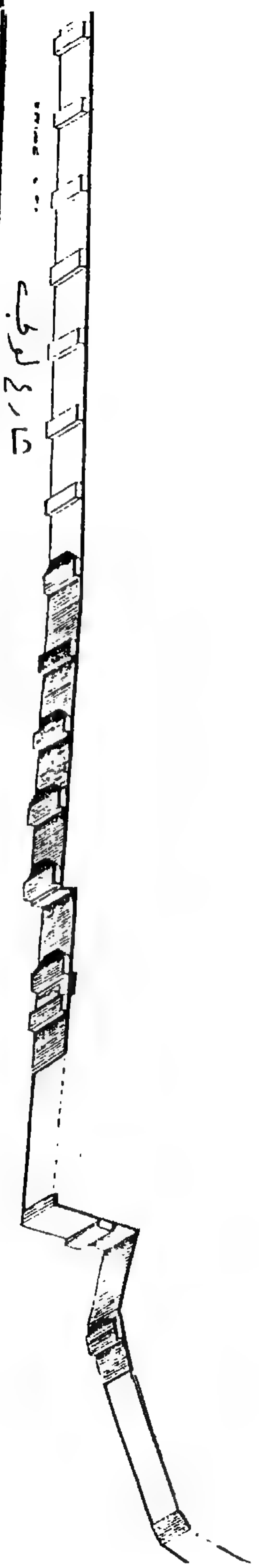
شكل (٥)

الجانب الغربى لمدينة سبته كما وردت صورته فى مصدر يرنثالى مؤرخ بالقرن ١١هـ/١٧م

(عن أمين توفيق الطيبي)



شكل (٦) خريطة كورنبره للمدينة سبتة في بداية القرن ١٨ م محفوظة في مصلحة المساحة العسكرية (عن بافون)

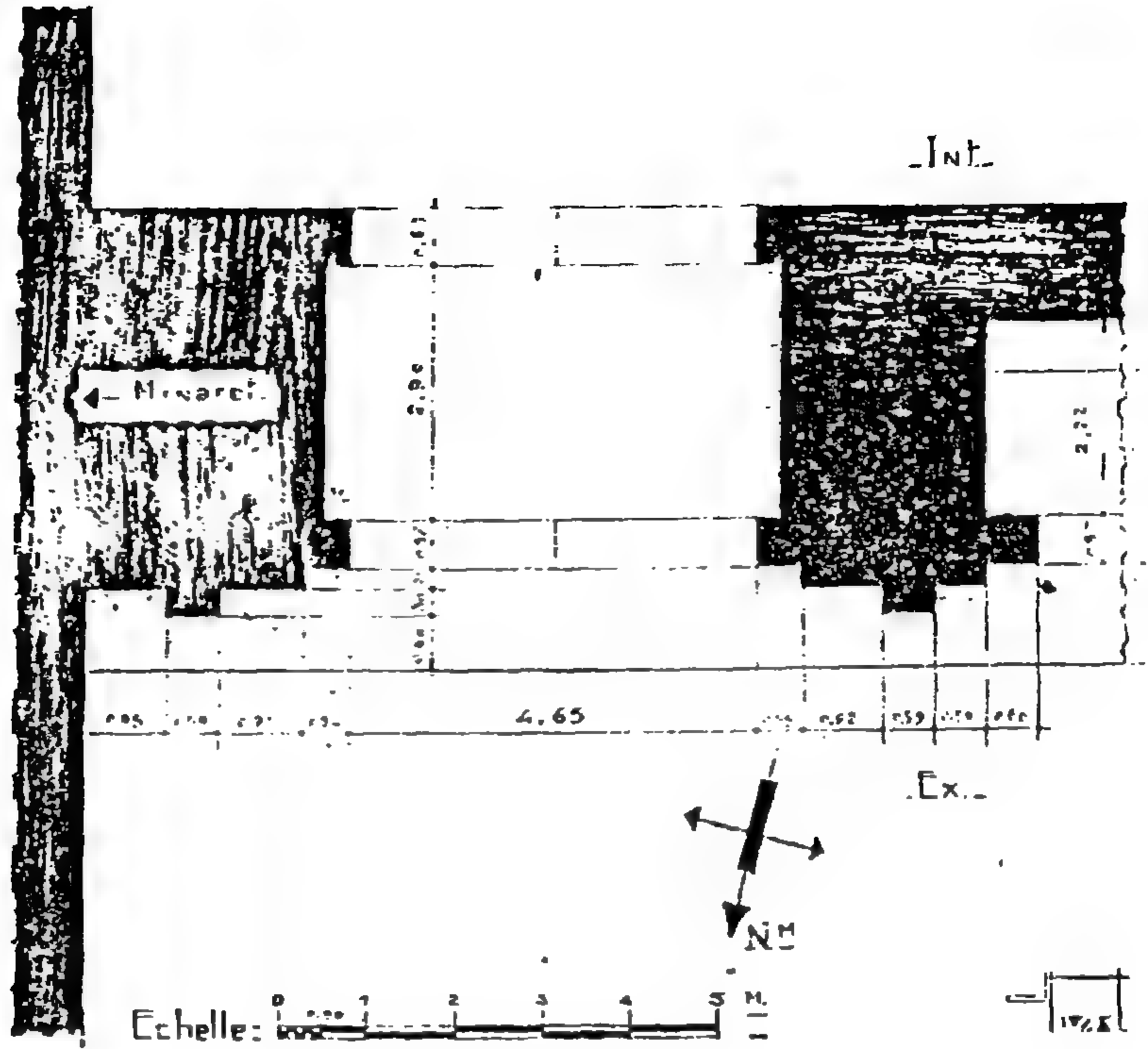


شارع لوطي

شكل (١٧) رسم افراضي لمنطقة أفرانك في ضوء مخطط في سبته في القرن ١٨ م (عن بالون)

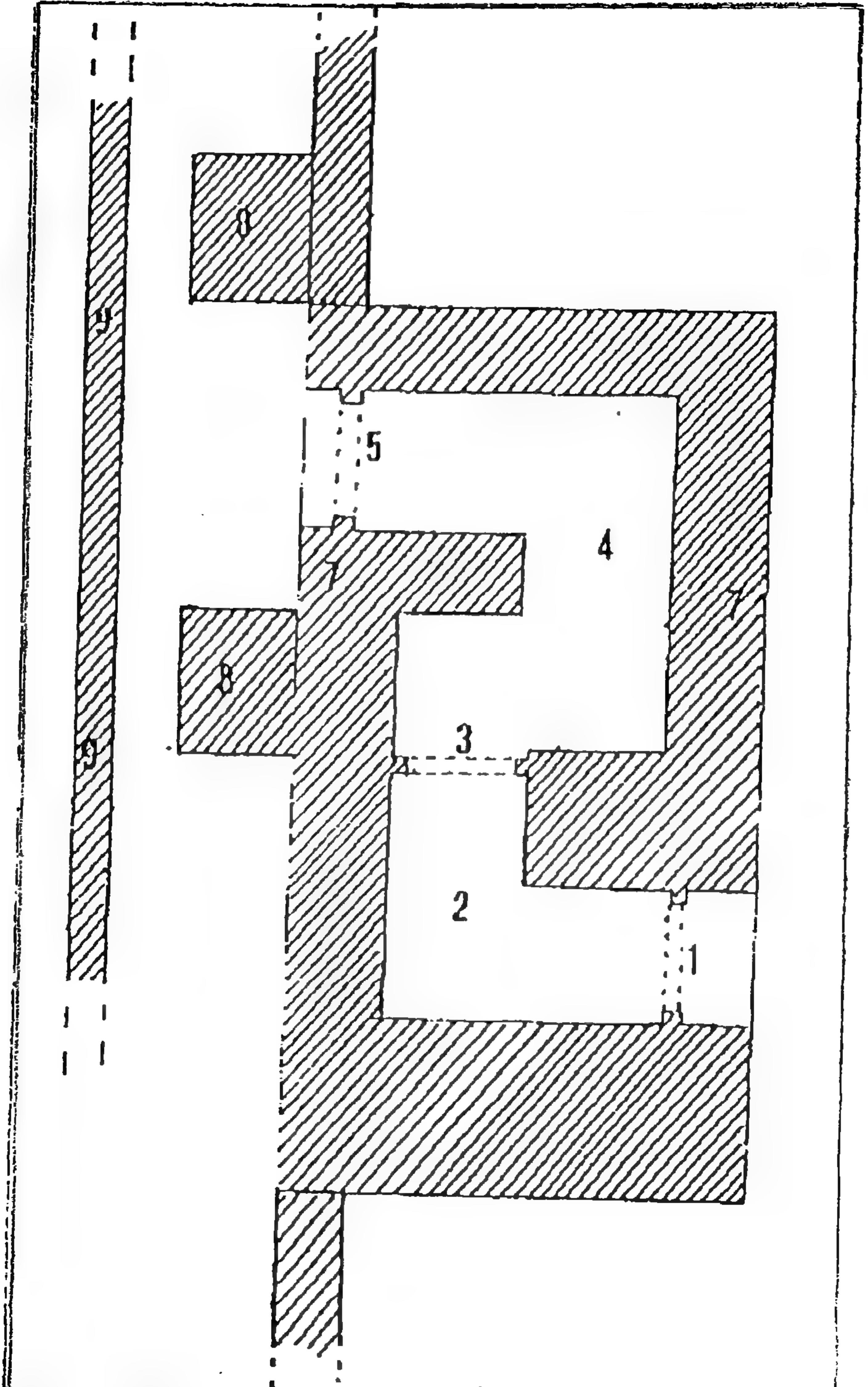


شكل (٧ب) خريطة كوربيه لمنطقة أوراك (عن باقرن)

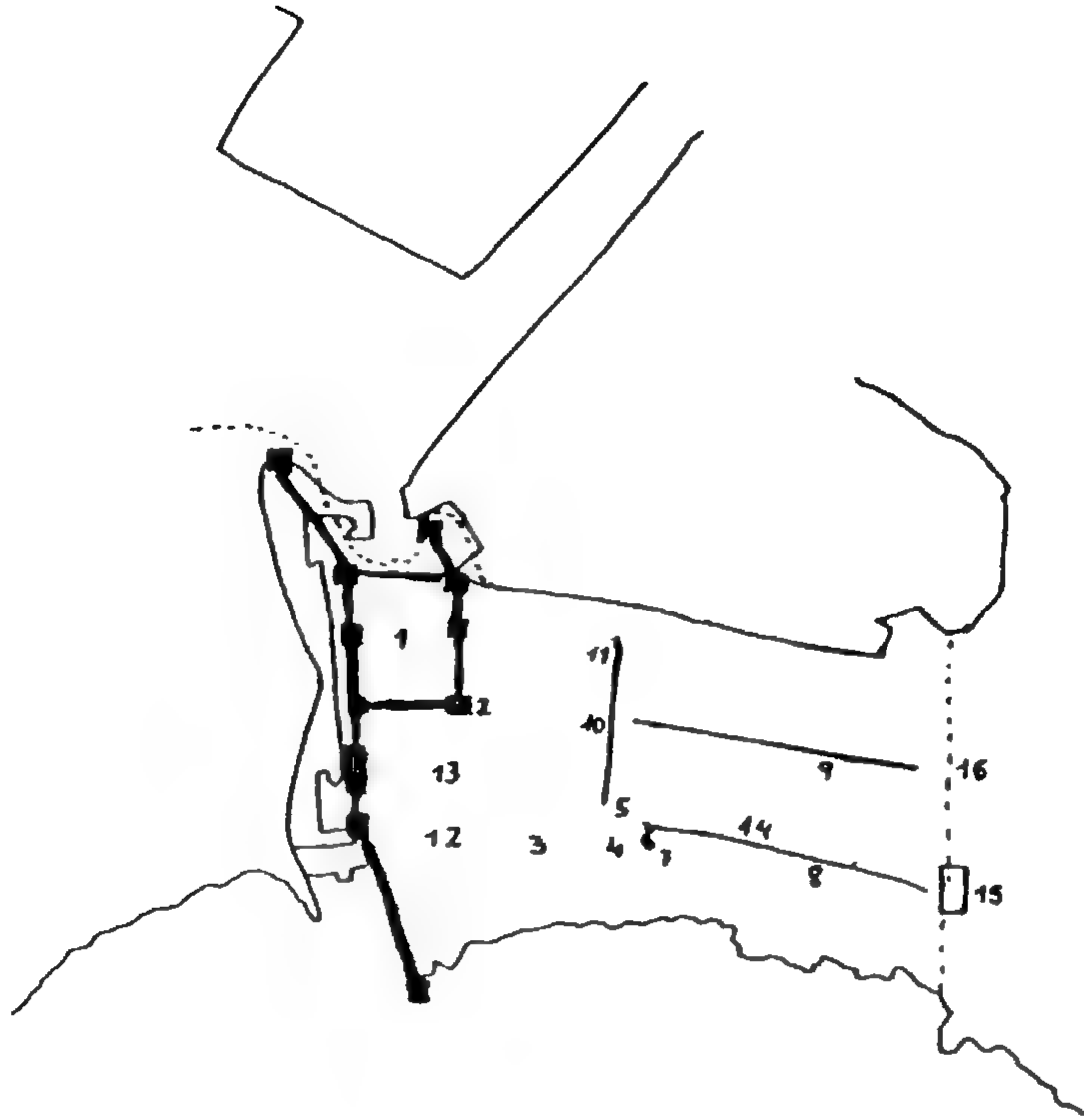


شكل (٨)

رسم تخطيطي لباب مسجد حسان بالرباط (عن بافون)



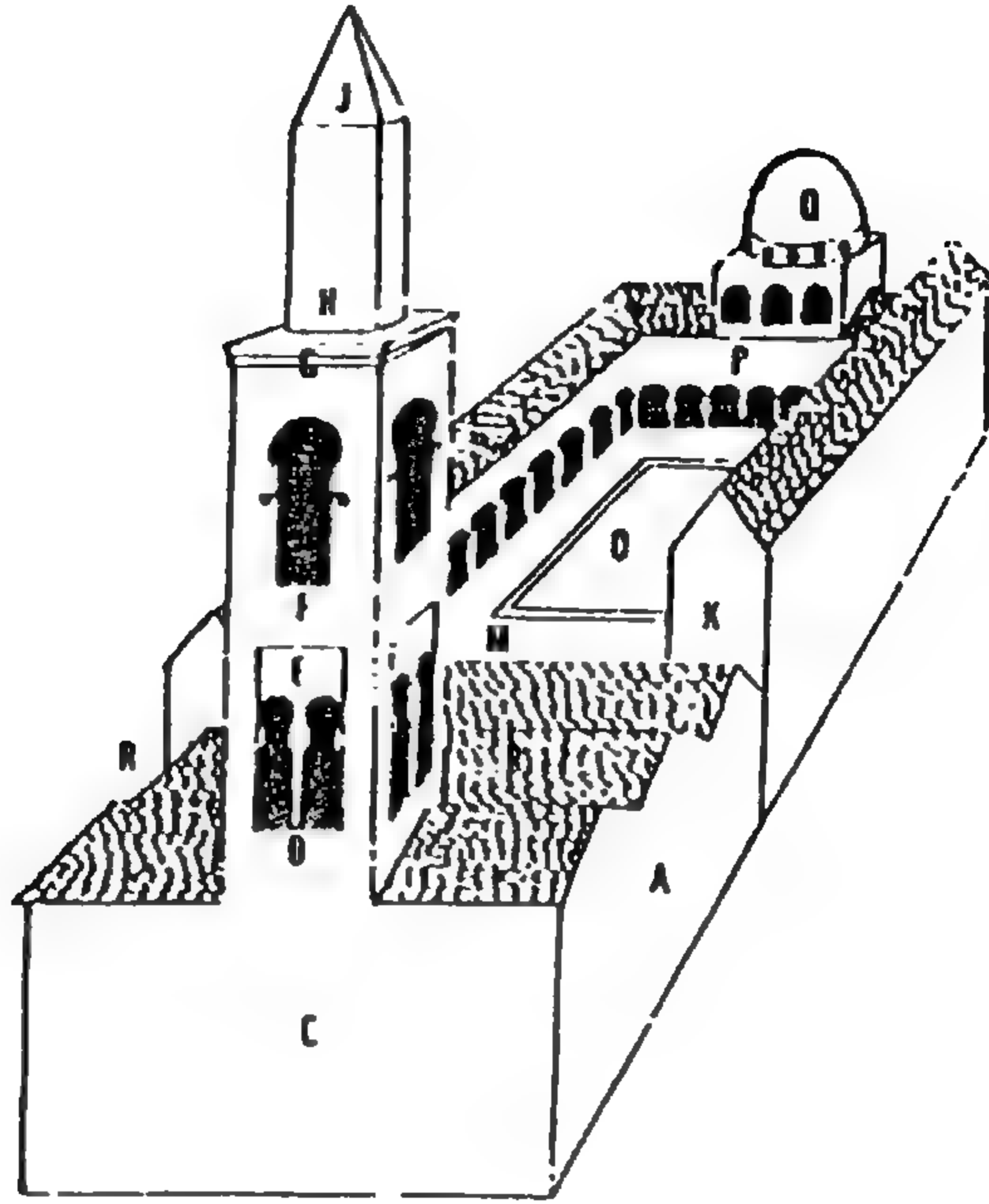
شكل (٩) رسم افتراضى لباب سبته المعروف بـ (الباب الجديد) (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٠)

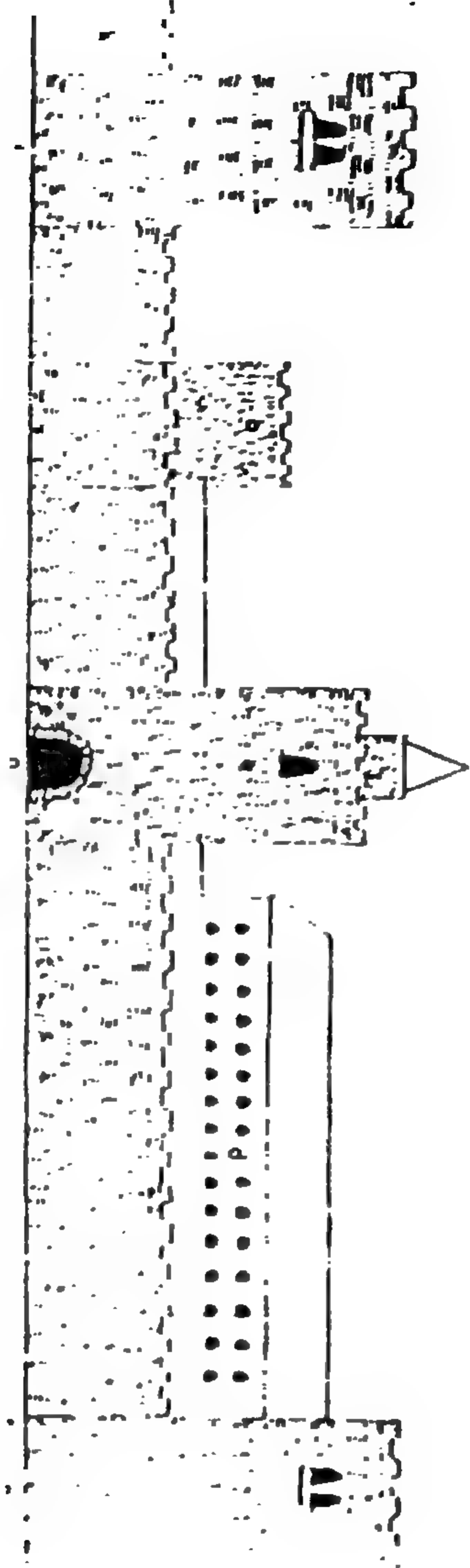
رسم تخطيطي لمركز سبتة العمرانية (عن كارلوس جوثابلس)

- | | |
|---|-----------------------------|
| ١ - القصبة أو القلعة . | ٢ - برج الحراسة . |
| ٣ - المسجد الجامع . | ٤ - حمام القائد . |
| ٥ - المدرسة الجديدة . | ٦ - نافورة . |
| ٧ - حباب . | |
| ٨ - سوق العطارين الموجود الآن بشارع خاودينس) . | |
| ٩ - شارع ابن عيسى (المعروف الآن بالشارع الأعظم) . | |
| ١٠ - شارع الموثقين (المعروف ان بشارع سان اودنيا) | |
| ١١ - مسجد الموثقين . | ١٢ - القيسارية . |
| ١٣ - سوق السقاطين . | ١٤ - دابة الأشراف الإداري . |
| ١٥ - منطقة الجمرك . | ١٦ - باب الرياض الأوسط . |



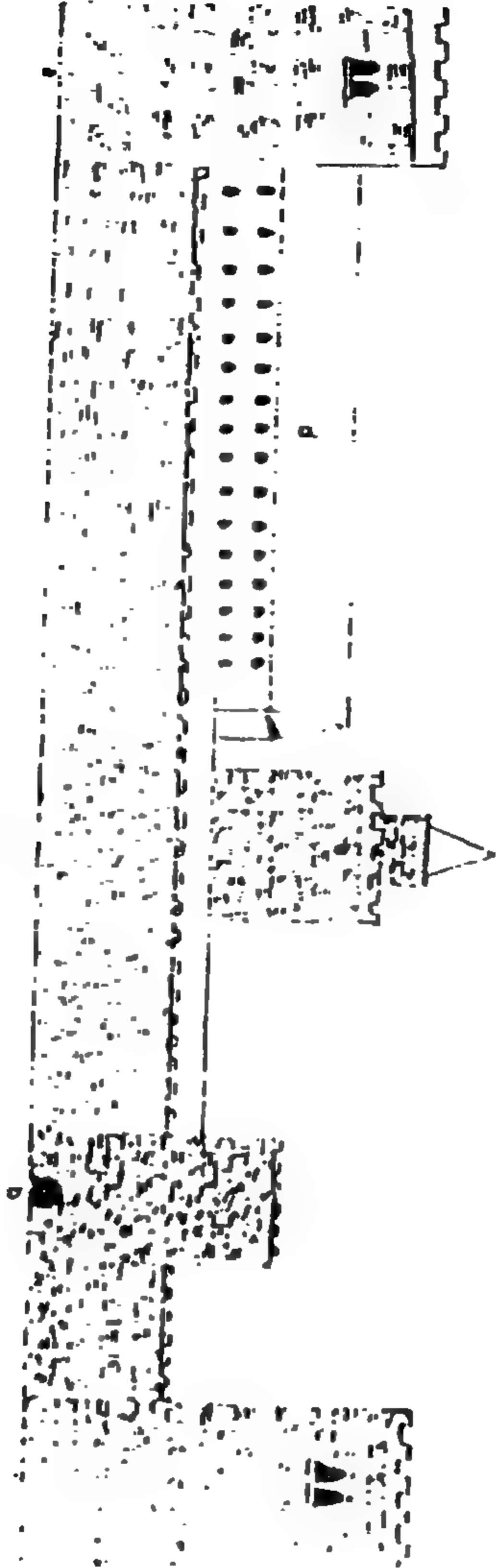
شكل (١١)

رسم افتراضى للمدرسة الجديدة بمدينة سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



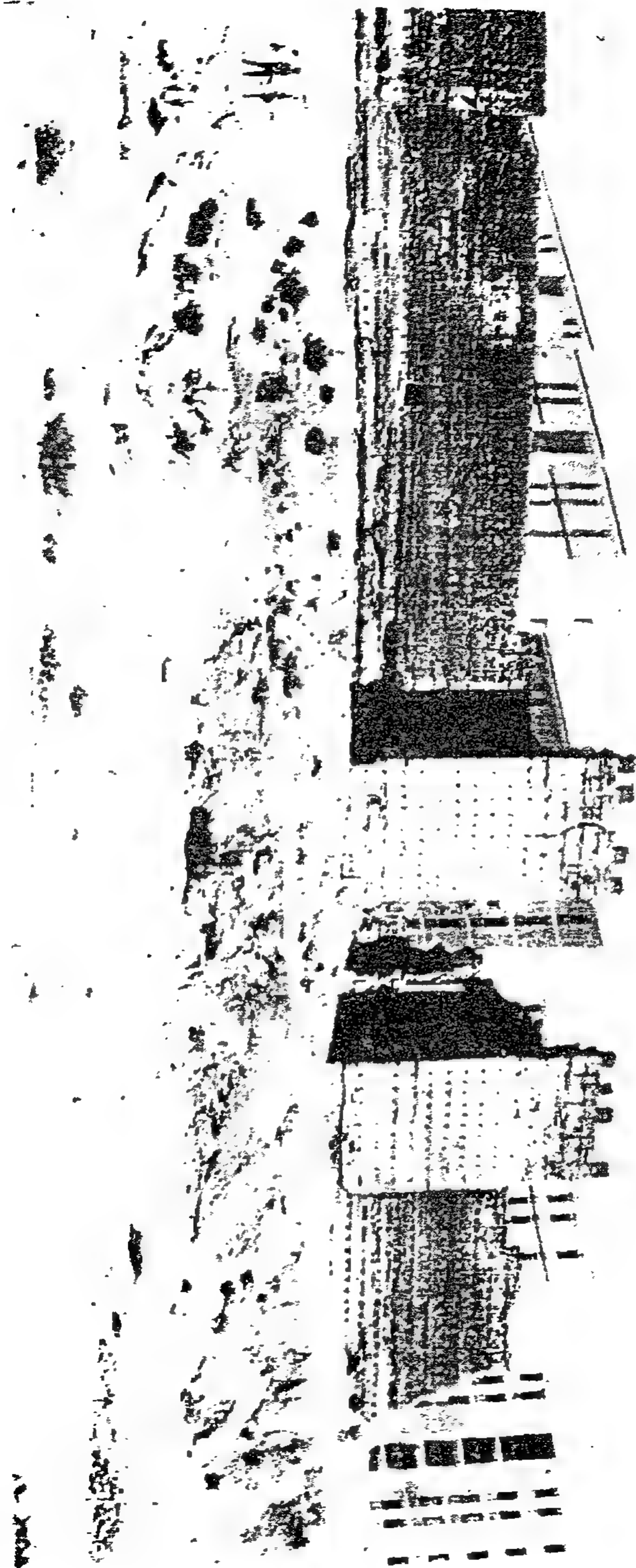
شكل (١٢)

رسم القواعد للمصور الغربي لقضية سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



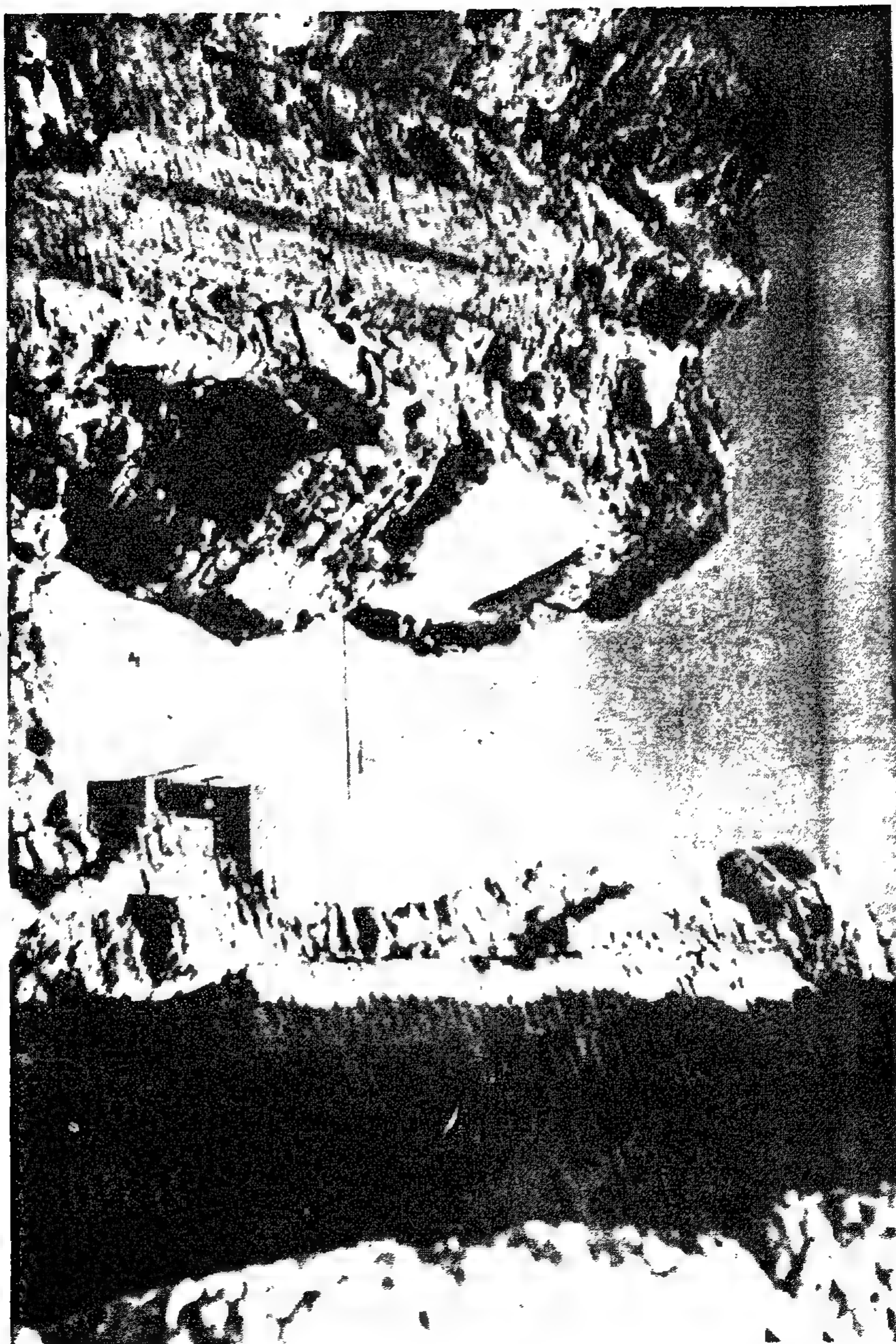
شكل (١٣)

رسم افراضى للسور الشرقى لقصبة سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



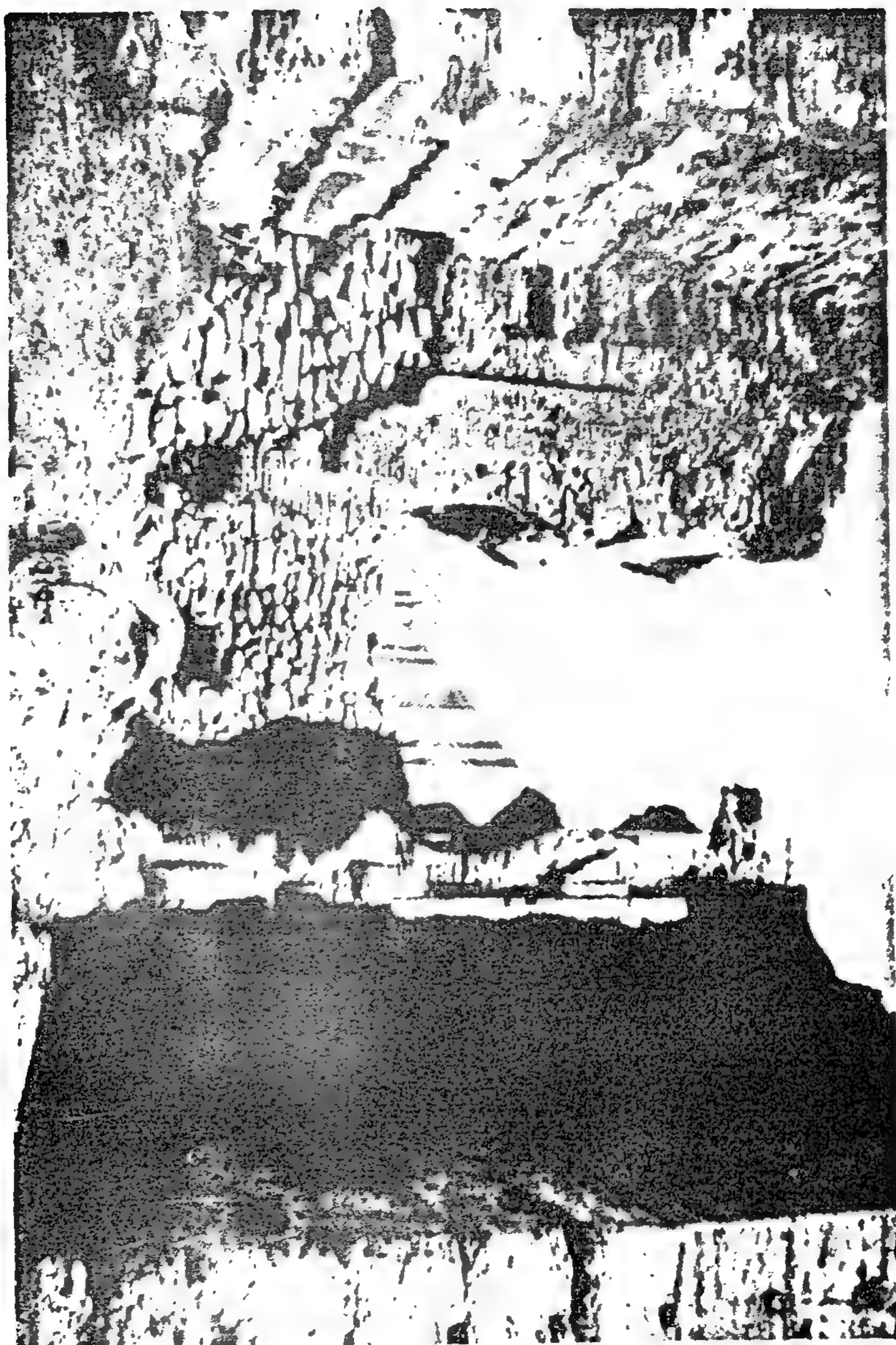
لوحة (١)

باب فاس بحدينة سيته (عن بالون)



لوحه (١٢)

بقايا باب فارس جديده سبتة (عين بالون)



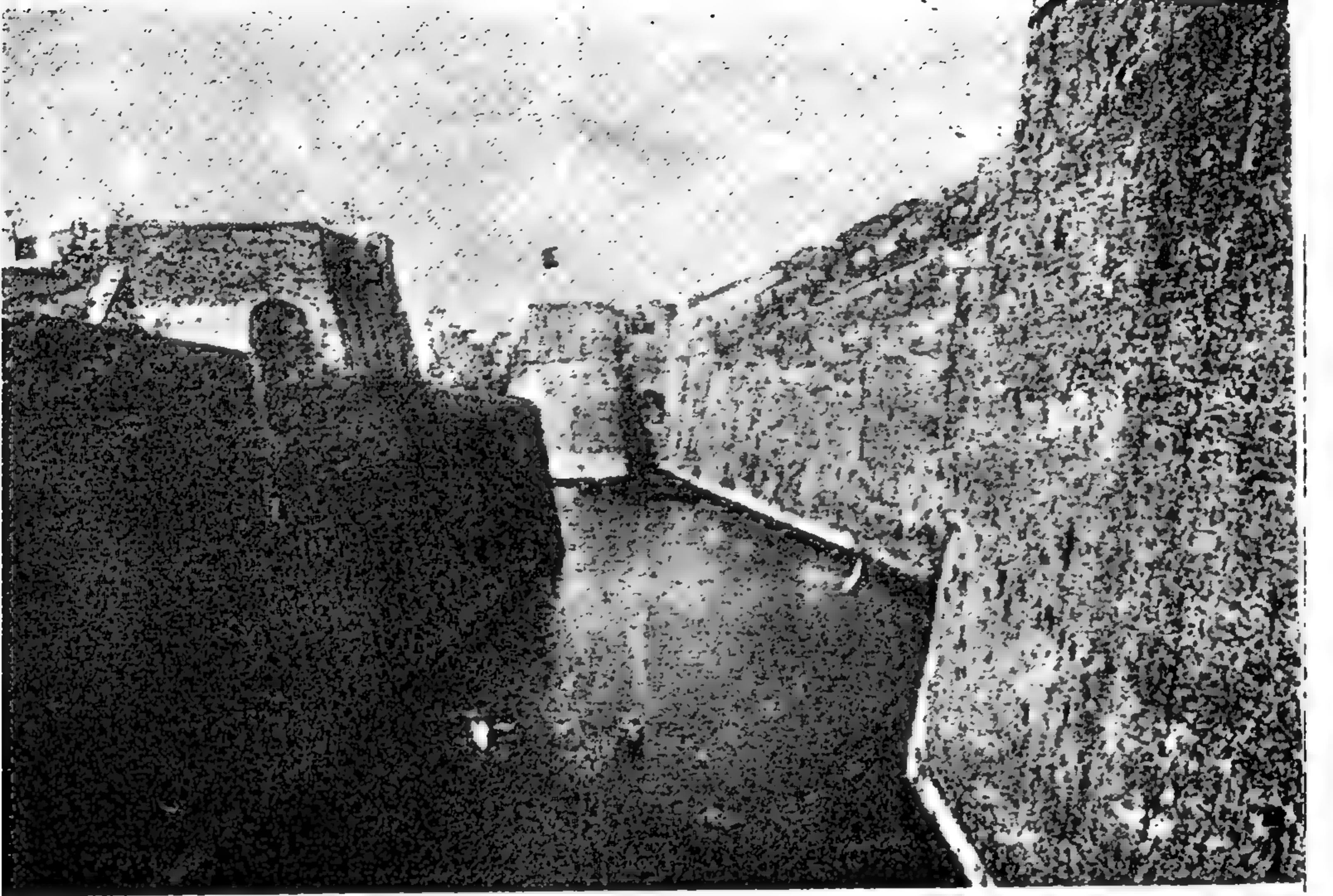
لوحه (٢ ب)

بقايا باب فاس بمدينة سبتة (عن بافون)



لوحة (٣)

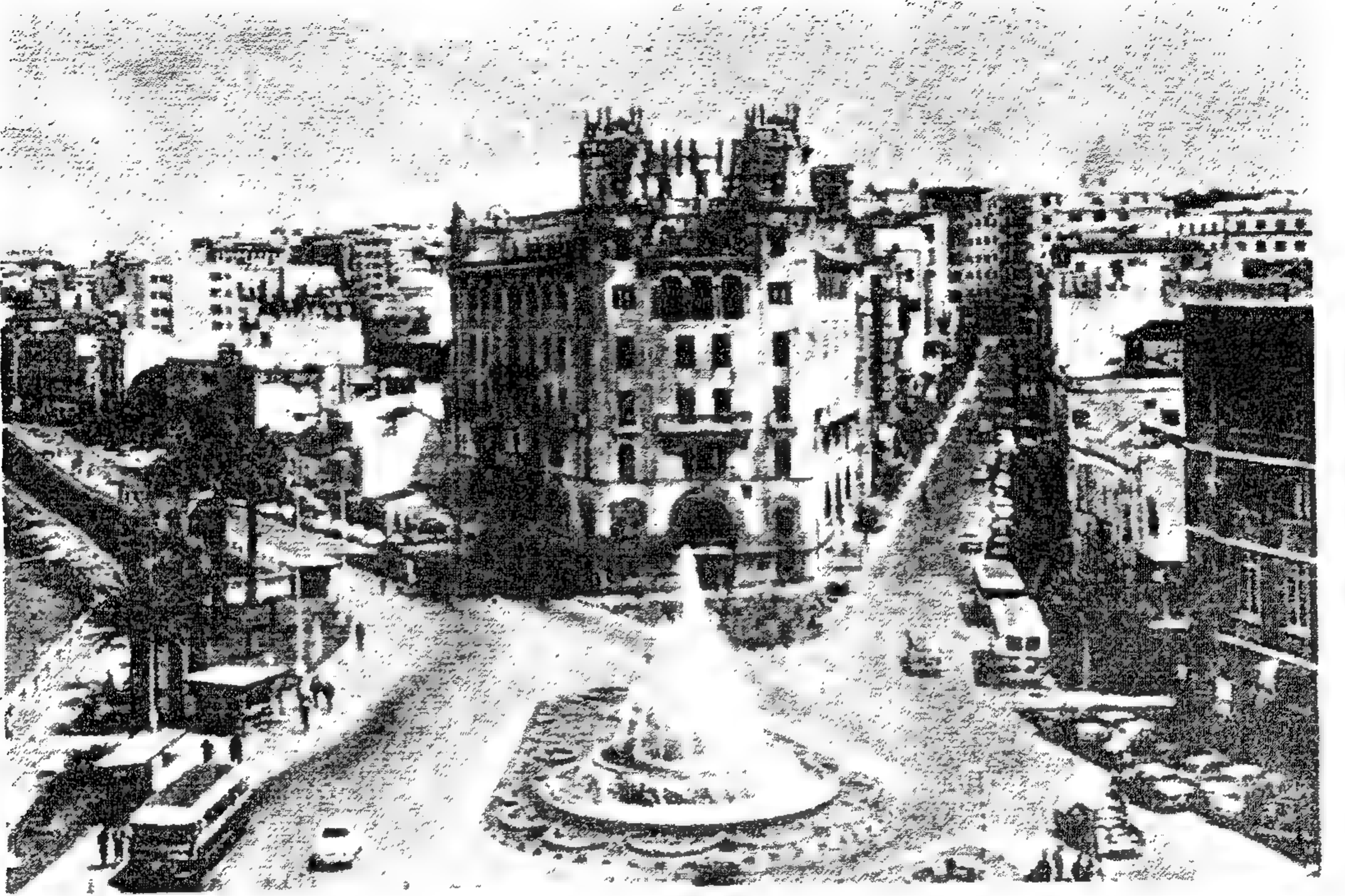
باب السلاح بغرناطة (عن بافون)



لوحة (٥)

بقايا حصون أسبانية وبرتغالية مواجهة للمغرب يفصلها بحرايى السول

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٤)

أحد شوارع سبته المعروف بالشارع الكبير والى اليمن
كان يوجد زقاق ابن عيسى (عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٦)

مسجد حديث يمثل الأثر الإسلامى الوحيد بمدينة سبته

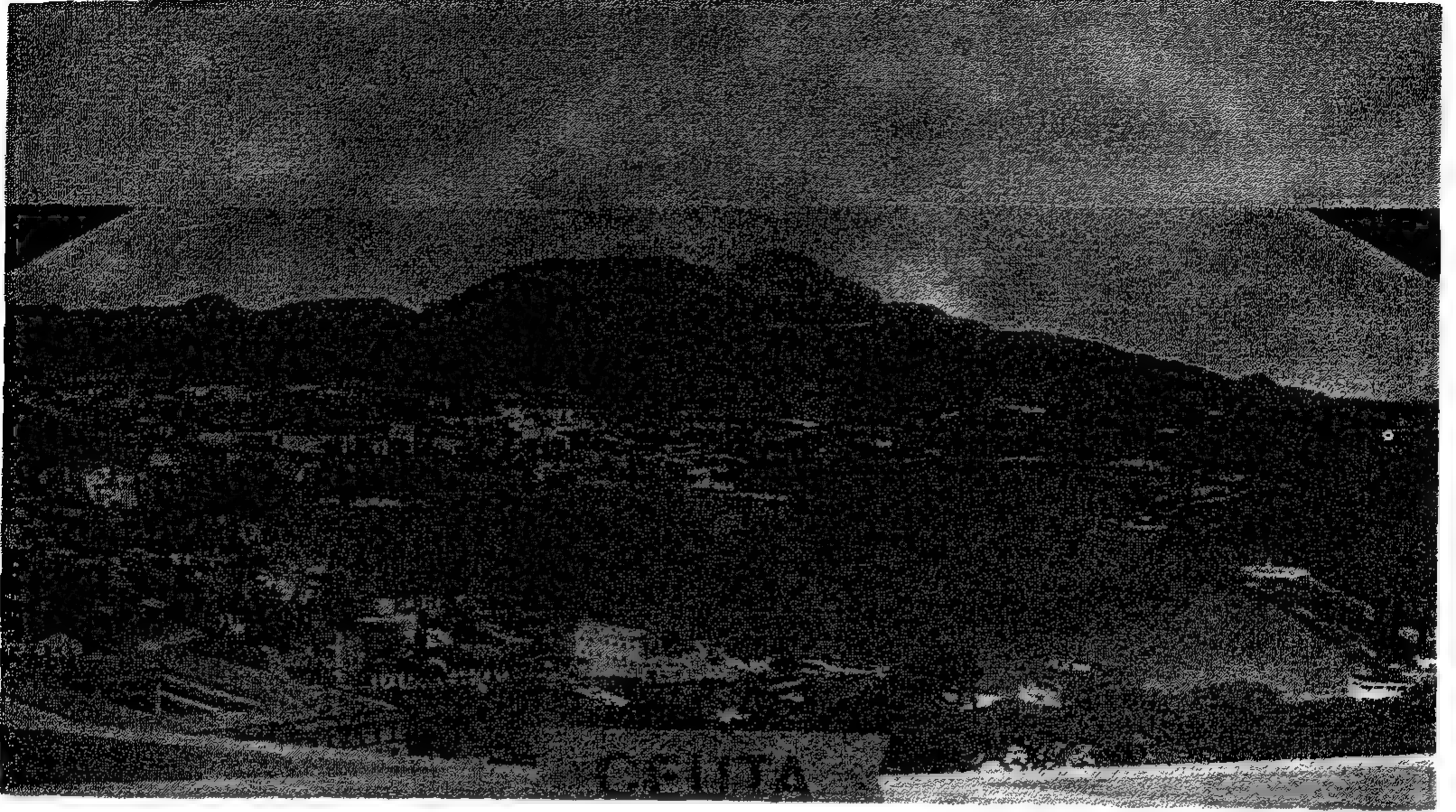
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٧)

منظر عام سبتة

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٨)

منظر آخر لمدينة سبتة وفي الخلفية يظهر جبل طارق

(عن عبد الوهاب بن منصور)

الهوامش

- (١) راجع البكرى (عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك . مكتبة المثنى بغداد (مصور من طبعة دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ م .) ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى أن مدينة سبتة مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم وبقايا كنائس وحمامات .
- وكذلك راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار . نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة الإسكندرية ١٩٥٨ . ص ١٣٧ ، الحميرى (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق . د. إحسان عباس . بيروت . ١٩٨٤ . ص ٣٠٣ .
- وقد اختلف المؤرخون حول تفسير اسم مدينة سبتة فالبكرى والإدريسى يذكران بأنها سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم (راجع البكرى : المصدر السابق . ص ١٠٣) ، كذلك راجع الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ . ج ٢ . ص ٥٢٨ .
- أما المقرئ فيذكر نقلاً عن ابن سعيد بأن سبتة سميت بهذا الاسم نسبة إلى سبت بن تافث ابن نوح) : المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق د. إحسان عباس . بيروت ١٩٨٨ . ج ١ . ص ١٢٥ . ويفيد ليو الأفريقى بأن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيسطاس ، وسموها البرتغاليون سوتبة : ليو الأفريقى (الحسن ابن محمد الوزان الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية د. محمد حجي ، د. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر دار الغرب الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٣ . ج ١ . ص ٣١٦ . وفى رأى أحد الباحثين أن اسم سبتة مشتق من الكلمة اللاتينية (سبتوم أو سيقوم) Septum . معنى سبعة لأن سبتة كما يذكر الأدريسى ، عبارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض . (راجع الإدريسى . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٥٢٨ ، كذلك راجع . رضوان البارودى . التاريخ السياسى لمدينة سبتة منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . فصلة من المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس . والثلاثون ١٩٨٩ . ص ٣٥ - ٣٦ حاشية (١) .

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادي . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ . ص ١٠١ . هامش (١).

(٣) عندما سيطرت جيوش الدولة البيزنطية على مدينة سبته قام جستنيان بتحصينها عام ٥٣٥م. ومنذ ذلك التاريخ وولاية الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم يليان الكونت في أواسط القرن السابع الميلادي ، والمشهور أنه كان مغربياً من قبيلة غمارة التي استمرت صاحبة هذه الجهات حتى في العصر الإسلامي (راجع محمد ابن تاويت . تاريخ سبته . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى . ١٩٨٢ . (ص ١٤ - ١٥) . وقد لعب يوليان دوراً هاماً في تحريض العرب على فتح الأندلس حيث اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة وطلب منه فتح الأندلس . (راجع السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٩٧ . ص ٦٦ - ٦٧ كذلك راجع . أحمد مختار العبادي . في تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية بدون تاريخ . ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) بعد فتح المسلمين للأندلس عن طريق سبته ساعدتهم الظروف في ضم هذه المدينة إلى دائرة نفوذهم . وقد خضعت سبته لحكم قبيلة غمارة وزعيمها ماجكس أوما جكن . كما كانت من المدن التي ولاها الإمام محمد بن ادريس الثاني عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م . ولمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة راجع : سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربي : نشر منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٩٠ . ج ٢ . ص ١١٠ - ١١١ ، كذلك ج ٣ ص ٢١١ ، ٢٣٤ ، رضوان البارودي المرجع السابق . ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥) كان سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قد عين على بن حمود على سبته عام ٤٠٣هـ / ١٠١٣م . مكافأة له على انضمامه معه في صراعه ضد الخليفة الأموي هشام المؤيد : ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . القسم الثاني . الخاص بأسبانيا الإسلامية . تحقيق أ. ليفي بروفنسال . بيروت . ١٩٥٦ . ص ١١٩ ولمزيد من التفاصيل راجع (سعد زغلول عبد الحميد . المرجع السابق . ج ٣ . ص ٥٠٦ ، ٥٠٨ .

- (٦) عن سقوط البراغواطى وكيف قدر له أن يظهر فى هذه الفترة من تاريخ سبته . راجع البكرى . المصدر السابق . ص ١٢٤-١٤١ ، ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد). البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق . ج.س. كولان أ. ليفى بروفنسال بيروت ١٩٨٣ . ج ١ . ص ٢٢٣-١٢٨ ، سعد زغلول. المرجع السابق . ج ٣ . ص ٥٠٨-٥٠٩ ، رضوان البارودى. المرجع السابق. ص ٥٧-٦٠ .
- (٧) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته خلال فترة حكم سقوط البراغواطى . راجع . ابن بسام. المصدر السابق. م ٢. ق ٢. ص ٦٥٨-٦٦٠ ، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخير. طبعة بولاق. ١٨٢٤ . ج ١ . ص ١٥٧ رضوان البارودى : المرجع السابق ص ٦٠-٦٥ .
- (٨) راجع : ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص ٩٣ . حيث الإشارة إلى أنه بمجرد دخول سبته فى طاعة المرابطين خرج إليها يوسف بن تاشفين «فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود».
- (٩) ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . تحقيق كل من محمد ابراهيم الكتانى ، محمد ابن تاويت ، محمد زنيير ، عبد القادر زمامة . بيروت. ١٩٨٥ ص ٢٤-٢٦ ، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته على عهد الموحدين راجع ابن خلدون. العبر . ج ٦ ص ٢٣٥ . محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٥-٧٦ .
- (١٠) عن تاريخ سبته فى عهد الحفصيين راجع : أمين توفيق الطيبى. بنو العزفى أصحاب سبته بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية. طرابلس. بدون تاريخ . ص ٦٨-٧٦ ، محمد بن تاويت. تاريخ سبته . ص ١٠٨-١٠٩ .
- (١١) يبدأ تاريخ ابن العزفى بفتنه سبتى هو أبو العباس أحمد العزفى الذى يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيهاً وعالمًا ومحدثاً وقاضياً ، وقد أعلن سلطانه على سبته واستقل بها عن الحفصيين ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م وظل يحكمها حوالى ثلاثين سنة إلى أن توفى عام ٦٧٧هـ / ١٢٦٨ م، ولمزيد من التفاصيل عن الظروف التى ساعدت أبا العباس أحمد فى السيطرة على مدينة سبته ومدى حب وتقدير أهلها له راجع . ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . ص ٣٩٧ - ٣٩٩ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١١٠-١١٣ .

- (١٢) أمين توفيق الطيبى . النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته - ص ٤٦ - ٤٧ ، كذلك راجع محمد بن تاويت . المرجع السابق ص ١٣٤ وما بعدها .
- (١٣) نفس المرجع ص ٤٧ - ٤٨ ، كذلك راجع :
جوليان شارل أندرى : تاريخ أفريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزالى والبشير بن سلامة : تونس ١٩٧٨ ص ٢٤٩ .
- (١٤) أمين توفيق الطيبى : احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية (مقدماته ودوافعه ونتائجه) . (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته) ص ١٣٧ .
- (١٥) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب . تحقيق : عبد الوهاب المنصوري . الرباط ١٩٨٤ .
- (١٦) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية . ص ٢٣ حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م . وكان موضع أقرانه بمسجد القفال وكان يدير ظهره إلى جوار القبلة من بعد صلاه الصبح ويمشى دوله أثر دوله فى الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس .
- (١٧) نفس المصدر . ص ٣١ - ٣٢ . حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م . وكان يحمل صحيح البخارى عن الحجار وهو سند عادل متصل السماع لانظير له فى المغرب .
- (١٨) نفس المصدر . ص ٤٤ - ٤٥ . حيث الإشارة إلى وفاته عام ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م وإلى أنه كان فقيهاً محدثاً حماسياً مشاركاً فى أصول الدين والنحو والتاريخ وكان متودداً للطلبة حسن التعليم والإلقاء .
- (١٩) نفس المصدر : ص ٥٥ - ٥٦ . حيث الإشارة إلى أنها قرأت الطب على صهرها الشيخ أبى عبد الله الشريشى ونبغت فيه . وكانت عارفة بالطب والعقاقير كما كان لها رباع تفتلها عهدت بتوقيفها فى وجوه البروسبيل الخيرات .
- (٢٠) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ١
- (٢١) المصدر السابق . ص ٣ .
- (٢٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتي : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الطبعة الثانية . الرباط . ١٩٨٣ ص ٧ .

(٢٣) المصدر السابق نشر بروفنسال . ص ٩ . حيث الإشارة إلى أنه استوعب وصف جامع سبته وذكر ما ينبغي أن يذكر من تاريخ وخير في بغية السامع من تأليفنا .

(٢٤) نفس المصدر . ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

(٢٥) نفس المصدر . ص ٢ .

(٢٦) يظن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . أن الكتاب طبع بعد طبعة تطوان طبعين آخرين إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط ولكنه لم يشر إلى سنة الطبع ولا إلى اسم الناشر راجع الأنصاري . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٨ .

(27) Joaquin Valve Bermejo : Descripcion de cetua Musulmana.
En el siglo XV,, Alandalus vol, XXVII. Madrid 1912.

(٢٨) كمال عناني إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي . رسالة ماجستير (غير منشورة) إسكندرية ١٩٨٩ . ص ٦٣ .

(٢٩) شكل رقم (١) .

(٣٠) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) معجم البلدان . دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥ . ص ١٨٣ .

(٣١) حبت الطبيعة مدينة سبته موقعاً استراتيجياً جعلها من أمنع مدن الغرب الإسلامي . فهي تقع على برزخ يصل اليابسة في الغرب بشبه جزيرة الميناء في المشرق . وتطل على البحر المتوسط من الشرق ويكتنفها خليجان أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب بحيث لا يمكن الوصول إليها براً إلا من الغرب . (راجع مؤلف مجهول الاستبصار . ص ١٣٧ حيث الإشارة إلى أن البحر قد أحاط بها (أي بسبته) شرقاً وجنوباً وقبله وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه .

(٣٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب . ص ١٠٣ .

(٣٣) الكذان : أو كذان نوع من الحجارة البيضاء يستعمل في تشييد الجدران وتبليط الأرضيات . وقد شاع استخدام هذا النوع من الحجارة في بلاد المغرب والأندلس منذ عصر الدولة الأموية (عبد الرحمن غالب . موسوعة العمارة الإسلامية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ . ص ٢٠٤ .

(35) Carlos Gozalbes cravioto: ceuta Hispano portugesas (instituto de estudios ceuties):, cetua, 1993. p.p 93-94.

- (٣٦) شكل رقم ٢ .
- (37) Henri Terrasse: un vestige des fortifications omeiyades: Alandalus. v, XXVII. Fasc I. 1992. p, 245.
- (٣٨) شكل رقم (١) أ ، ب .
- (٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ ٢ ص ٥٢٨ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ ، الحميري : الروض المعطار . ص ٣٠٣ .
- (٤٠) ابن أبي زرع : (أبو الحسن بن عبد الفاسي) : الزخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. منشورات دار المنصور للطباعة . الرباط . ١٩٧٢ ص ٨٠ .
- (٤١) شكل رقم (١) أ ، ب ، شكل رقم (٣) أ ، ب .
- (٤٢) شكل رقم (٤) ، شكل رقم (٣) أ ، ب .
- (43) Carlos Gozalbes : op .cit, p.p . 195-198 .
- (٤٤) شكل رقم (٣) أ .
- (٤٥) شكل ٤ .
- (٤٦) شكل رقم (٣) أ ، ب ، شكل رقم (٤) .
- (47) Carlos Gozalbes: op cit, p.p 193-194 .
- (٤٨) شكل رقم (٥ ، ٦) ، شكل رقم (١) أ ، ب شكل رقم (٣) أ ، ب .
- (٤٩) الأنصارى اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ٢٠ .
- (٥٠) تقع هذه الروضة عند رابطة الفصيل ، وكانت تضم ثلاثين مقبرة دفن فيها كل أفراد أسرة الأشراف الحسينيين الذين أتوا إلى سبته من صقلية ، وهناك صاهروا بنى العزفى أمراء سبته وبعد أسرة بنى العزفى نفوا إلى أسبانيا وظلوا تحت الحكم المسيحي إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد فعادوا إلى سبته واستقروا بها .
- Joaquin vallva : opcit, p, 411. Not46.
- (٥١) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٧ .
- (٥٢) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٦ ، وكذلك راجع نشره محمد بن تاويت حيث الإشارة إلى أنه الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات أبى عبد الله محمد بن مسعود المكي المعروف بابن الكنغر .
- (٥٣) شكل رقم (٣) ب .

(٥٤) كلمة أفراك أو أفراق تعنى الحصن أو القصبه التى كان يوجد بها قصر الحاكم . وفيه كانت تدار شئون المدينة والإقليم حيث كان يقيم السلطان وحراسه وحاشيته (راجع الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢) حيث الإشارة إلى أن منطقة أفراك كانت مخصصة لسكن الأمراء والأجناد وغيرهم . وفى موضع آخر يشير الأنصارى إلى أن أفراك المدينة كانت تمثل القصر الملوكى الذى أعده بنى مرين هناك لنزولهم . (الأنصارى . ص ٢٠) . كذلك راجع ابن الحاج النميرى (فيض العباب وإفاضة قدح الآداب فى الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب . (تحقيق محمد بن شقرون . الرباط ١٩٨٤ . ص ٦٤-٦٧ .

(٥٥) هو السلطان فارس المكنى بابى عنان والملقب بالمتوكل على الله ولد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨ م بفاس وثار على أبيه أى الحسن بتلمسان علم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م واستولى على المغرب الأقصى وكان محباً للعلوم ومغرمًا بالبناء وقد توفى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧ م بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (ولمزيد من التفاصيل عنه راجع: مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر غلوس . رباط الفتح ١٩٣٦ . ص ١٥٠) كذلك راجع أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين . مطبوعات القصر الملكى . الرباط ١٩٦٢ ص ٢٧-٢٨ ، لسان الدين بن الخطيب : نفاضة الجراب من غلالة الاغتراب (تحقيق أحمد مختار العبادى ومراجعة عبد العزيز الأهوانى . دار الكتب العربية بالقاهرة . بدون تاريخ) . ص ٧٤ حاشية (٥) .

(٥٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٥٧) نفسه : ص ٢١ .

(٥٨) المقصود بالسبقة المسافة المحددة لرمى السهم (ج.س لثيام موقع سبته الاستراتيجى ووسائل الدفاع عنها فى أواخر الفترة الإسلامية . بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته : ص ٣٤١ حاشية ٧٥ .

(٥٩) الأنصارى : المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) لوحة ١ ، ٢ .

(٦١) شكل رقم (٨) .

(٦٢) يطلق على هذا الأسلوب فى المصطلح الأسبانى اسم *escalo de Los tres plano* *que integran el alzado* التقسيم الثلاثى المتتابع والمقصود تقسيم الامتداد الأفقى

والرأسي لواجهات الأبواب إلى ثلاثة فواصل متساوية ثم تجزئة القسم المركزي المصمت بنفس الطريقة ، بحيث يتمكن المعمار من تحديد اتساع وارتفاع فتحة المدخل من خلال تقسيم الاتساع الكلى للواجهة ، بحيث يكون ارتفاع فتحة الباب فى الغالب تساوى ربع الاتساع الكلى للواجهة . وقد طبق هذا النظام على نحو رائع فى أبواب قصر قمارش بالحمرء Antonio Fernadez puertas : La fachada del palacio de comares Granada McMLXXX, p. 34 وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . رسالة دكتورة غير منشورة إسكندرية ١٩٩٥ . ص ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦٣) لوحه رقم (٣) .

(64) Pavon Maldonado : opcit, p, 75.

(٦٥) شكل رقم (٣) أ .

(66) Carlos Gozalbes Cravioto : ceuta Hispano Protuguesa, p, 199.

(٦٧) قلهرات جمعها قلهرات Calahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة - راجع . Doz R . supplement aux dictionnaires arabes, Tom, II leiden. Paris 1972. p. 401. وتعنى الكلمة فى اللغة الأسبانية القلعة الحرة أو البرج البرانى.

(٦٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠-٢١ .

(٦٩) شكل رقم (٩) .

(٧٠) شكل رقم (٤) حيث الإشارة إلى المدخل الأول برقم (١) والمدخل الثانى برقم (٢) والمدخل الثالث برقم (٥) .

(٧١) شكل رقم (٩) حيث الإشارة فى الرسم الافتراضى للباب إلى هاتين الساحتين برقمى ٤ ، ٥ .

(72) Carlos Gozalbes: ceuto Hispano portuguesa p. 199.

(٧٣) أشار الأستاذ خواكين بالين نقلاً عن الأستاذ أويشى ميراند فى - كتابه التاريخ السياسى للموحدين بأن هذا الباب قد أمر بتشيدده أبو العلاء إدريس ابن السلطان الموحدى يوسف ابن عبد المؤمن عندما كان حاكماً على مدينة سبتة وذلك فى الفترة من ٥٩٩هـ- إلى ٦١٨هـ. (راجع :

Joaquin vallve : Decripcion de ceuta en el siglo XV, p. 430. Not . 96.

(74) Henri Terrasse les Monuments de ceuta d'apres la Description D'Al-Ansari : Al-Alandalus : VXXVII, 1962 p, 444.

(٧٥) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال ص ١ .

(٧٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٩) ويقع هذا الباب فى القطاع الشمالى من المدينة ويبدو من موقعه أنه كان يستعمل لتحصيل رسم خاص نظير المرور من خلاله Carlos Gozalbes : op .cit, 196 وربما يدعم هذا الظن أن سبته اشتهرت فى ميدان التجارة برأ وبجراً بحيث احتلت مكان الصدارة بين موانئ شمال أفريقيا وأصبحت محط رحلات المراكب من جنوة إلى أسبانيا وفرنسا. (امين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص ٤٩) .

(٧٧) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢٨ حيث الإشارة إلى أن هذا الباب كان أحد أبواب بحر أبى السول وكان يقع أمام مiazza جامع سبته . وبمطالعة الخريطة الموضحة لمعالم مدينة سبته ، يتضح أن هذا الباب كان يقع فى القطاع الجنوبى من المدينة (شكل رقم (٣) أ ، (رقم ٩) . ويبدو أن الهدف من إقامة هذا الباب هو تصريف مياه الأمطار المتدفقة فى هذه المنطقة لتتحد نحو بحر أبى السول حتى لا تكتسح مياه الأمطار المنشآت التى كانت قائمة فى تلك المنطقة لاسيما جامع المدينة . وكان يتقدم هذا الباب برج يعرف ببرج الماء، شيده السلطان المرينى أبو الحسن ، بهدف التحكم فى حركة المراكب التى كان تحط فى ساحل سبته الجنوبى (راجع ابن مرزوق (محمد التلمسانى) المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن : الجزائر ١٩٨١ . ص ٣٩٩ .

(٧٨) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٧٩) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٨٠) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٨١) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٠) وتجدر الإشارة إلى أن موقع هذا الباب خارج المدينة يتفق مع ما جرت عليه العادة فى معظم مدن الغرب الإسلامى حيث كان القصابون أو اللحامون (الجزارون أو باعة اللحوم) يشترون الدواب حية من تجار المدينة ثم يسوقونها إلى مذابح تقع خارجها ، ثم تحمل إلى حوانيت القصابين بالسوق (السقطى) (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد) كتاب آداب الحسبة نشر كولان وليفى بروفنسال . باريس ١٩٣١ . ص ٩٠) وكانت حوانيت القصابين فى سبته تقع بالقرب من الباب المذكور ،

فكان ذلك سبباً في أن يطلق اسمهم على الحى الذى كان يرتبط بذلك الباب عبر طريق يصل بينهم (شكل رقم (٣ أ - رقم ١٢) .

(٨٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٨٣) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة في آداب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادى . المطبعة الأميرية ١٩٥١ . ص ٨٩ .

(84) Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanas Pulibicado Por instituto Hispano arabe de cultura Madrid. Sin Fecha V.I. p, 179.

Torres Balbas : aspectos de la ciudades Hispano Musulmanas : Revista del instituto Egipcio de Estudios islamicos en Madrid Vol, II, Madrid. 1954. p 92.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامى ص ٧٨-٧٩ .

(٨٥) الحارة في اللغة محلة متصلة المنازل تدل على معنى الحومة (أى الحى) فى عرف أهل

المغرب . أما فى العامية المغربية فتدل على حفير تلقى فيه جيف الدواب ، يكون بعيداً

عن المدن حتى لا تؤذى السكان (الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن

منصور ص ٤٣ هامش ٨٧ .

(٨٦) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة (الكسابون) فمنهم من يرى بأن صحتها الكناسون

(الأنصارى: اختصار الأخبار نشرة محمد بن تاويت . ص ٥٨ هامش ٥٧) بينما يرى

الأستاذ خواكين بالبين أن المقصود بالكسايين هم رعاة البقر ، والقصابون أى باعة

اللحوم (الجزارون) . ودليله على ذلك أنه ورد فى المدونات المسيحية ما يشير إلى أنه

كان يوجد فى هذا الموضع حظيرة مسورة للمواشى ، يشغل مكانها الآن رصيف يعرف

برصيف أسبانيا ، حيث ترسو عبارات أو مراكب الجزيرة الخضراء . Joaquin

Vallve: opcit, p. 429 No T . 93. (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (١٢) حيث

الإشارة إلى مكان القصابين .

(٨٧) شكل رقم (٣) أ رقم (١٥) حيث الإشارة إلى موضع حافة الغدر .

(٨٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠ ، كذلك راجع شكل رقم (٣) وشكل رقم (١) أ ،

ب .

(89) Carlos Gozalbes : ceuta Hispano Portuguesa, p. 195.

(٩٠) الأنصارى . ص ١٤ .

- (٩١) شكل رقم (٤) .
- (٩٢) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 195 - 196.
- (٩٣) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٦ .
- (٩٤) هذا الكتاب فى فضل النبى ﷺ وفضل صحابته . ويقال إنه أقدم مؤلف مغربى معروف إلى الآن . ويوجد منه الجزء الثانى محفوظاً بالخزانة الحسينية تحت رقم ٥٧٣٣ وكان فى ملك عبد العزيز بن أبى بكر بن عبد الكبير الفرديسى . (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٢ . حاشية (٣١) .
- (٩٥) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٦ .
- وعن ترجمات شخصيات العلماء وأصحاب تلك المقابر راجع ص ٢٣ من نشرة عبد الوهاب بن منصور .
- (٩٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .
- (٩٧) نفس المصدر ص ١٤ (شكل رقم (١٠) رقم (٨)) .
- (٩٨) نفس المصدر ص ٢٢ وكذلك راجع شكل رقم (١٠) حيث ورد فى المخطط الخاص بمراكز عمران مدينة سبته أن منطقة الأرباض الثلاثة الداخلية كانت تضم أيضاً مسجداً يعرف بمسجد الموثقين Mezquita de lo Notarios (رقم ١٠) نسبة إلى موضع يعرف بسماط العدول الموثقين القريب من سوق العطارين (الأنصارى : ص ١٤) .
- كما ورد فى المخطط ما يشير إلى وجود المدرسة الجديدة (رقم ٥) وحمام القائد (رقم ٤) وباب الربض الأسود (رقم ١٦) فى تلك المنطقة .
- (٩٩) جمع حفير وهو الخندق ، وينطق به عوام المغرب مبرراً (١ حفير) راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٦ . هامش (٩٨) .
- (١٠٠) جمع شطاب وصانع الشطابة أى المكتسة (راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٦ . هامش ٩٨ .
- (١٠١) يبدو أن تلك السلسلة من الحفائر قد أقيمت بصورة رئيسية لدرء أى هجوم قد يقع من ناحية الغرب فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو الربض البرنى ، وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب بل أيضاً حفيراً يحيط بها وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البرانى عن بقية سبته . (ج.د.

ليثام . موقع سبته الاستراتيجي . ترجمة أمين توفيق الطيبي « بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ سبته ص ٢٧ .

(١٠٢) الأنصاري : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل عن سمات شوارع مدن المغرب الإسلامي ونظامها التخطيطي راجع Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 93 - Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanes. V,I p.p 327 - 328 p. 335 p, 340.

(١٠٤) الأنصاري : نشره بروفنسال ص ١٢ .

(١٠٥) هو محمد بن عيسى بن حسين التميمي السبتي ويكنى ابا عبد الله ، وكان من أهل العلم والفضل وتولى القضاء بسبته وبفاس أيضاً . وقد توفي في سنة ثلاث أو أربع وخمسمائة وقيل في سنة « خمسة » وخمسمائة « وكان مولده سنة » ثمان وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال . (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة «نشر الدار المصرية» للتأليف والترجمة . « القاهرة » ١٩٦٦ . ج ٢ . ص ٦٠٥ ترجمة رقم ١٣٢٧) . (راجع شكل رقم (٣) أ رقم (٢٠) ، شكل رقم (١٠) رقم (٩) .

(١٠٦) هو إبراهيم بن أبي العيش بن يربوع السبتي ويكنى أبا إسحاق ، وكان من فقهاء سبته في القرن الخامس الهجري . وقد توفي في سنة ٤٣٠ هـ (ثلاثين وأربعمائة) وهو ابن ثمان وسبعين سنة وقيل أنه توفي سنة ٤٢٣ هـ (سنه ثلاث وثلاثين وأربعمائة) . راجع ابن بشكوال ج ١ نفس المصدر . ص ١٠١ ترجمة رقم (٢٣٠) .

(١٠٧) الأنصاري : نشره بروفنسال ص ١٣ . أما أبو القاسم بن الشاط فقد ولد بمدينة سبته عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وتوفي بنفس المدينة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م . (راجع ترجمته في Joaquin Vallve. Opcit, p. 420. Not. 74

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٥ .

(١٠٩) وردت في نشره محمد بن تاويت بأنه خندق أيمن ص ٨٤ .

(١١٠) الأنصاري : نشره بروفنسال ص ١٢ ويوجد مكان هذا الخندق الآن أحد أودية المدينة.

راجع . Joaquin vallve: Opcit. 420. Not 70

(١١١) الأنصاري : ص ١٣ .

(١١٢) شاع في بلاد المغرب والأندلس الاستعانة بهؤلاء الداربيين في حماية الأزقة من اللصوص حيث أكد على ذلك المغزي بقوله (لأن بلاد الأندلس لها دروب بإغلاق تغلق

بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغياتهم (راجع المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٩٨٨ . ج ١ ص ٢١٩ ، ومن طريف ما يذكر أن عادة إغلاق الأبواب مازالت متبعة حتى الآن في أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة درابزين يعرفون باسم سيرنيوس Serenos وعلى كل من يريد الخروج أو الدخول أثناء الليل أن ينادى هذا الحارس الليلي بواسطة التصفيق (راجع أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية . مقال ضمن كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . الطبعة الثانية دار ذات السلاسل ١٩٨٦ . ص ٣١٥ .

(١١٣) الأنصاري : ص ١٣ حيث الإشارة إلى زقاق ابن عيسى أشهر أزقة مدينة سبته والمعروف عندهم بزقاق الأكابروية يضرب المثل بينهم متسع المساحة يحتوى على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وفيه أربعة وعشرون حماماً ، حمامان مبرزان وباقي العدد بدور السادة من الشرفاء.

(١١٤) الأنصاري : ص ١٥ - ١٧ .

(115) Carlos Gozalbes cravioto: La Madinao Nucleo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana , cuadernos del archivo Municipal de ceuta año, II No, 4. 1989. p. 47.

(١١٦) شكل رقم (١٠) رقم ٩ ، لوحة (٤) .

(١١٧) الأنصاري : ص ١٣ .

(١١٨) شكل رقم (١٠) رقم ٨ .

(١١٩) شكل رقم (١٠) رقم (١٠) .

(120) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 47 - 48.

(121) I Bid. P, 47 .

(١٢٢) الأنصاري : ص ١٤ حيث الإشارة إلى سوق العطارين الأعظم وسماط العدول الموثقتين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما يجوفى الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك . وفي موضع آخر أشار الأنصاري إلى أهمية تلك المنطقة بمناسبة حديثه عن سقايات المدينة بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة الساقية التي بطرف العطارين وأول سماط العدول بازاء باب الشوائين من أبواب الجامع) . الأنصاري ص ١٧ .

(١٢٣) لم يرد في نشرة ليفي بروفنسال تاريخ صناعة هذا المنبر في المتن وإنما أشار في الحاشية إلى ذلك هكذا (في الطره كان صنع هذا المنبر في شعبان المكرم سنة ٤٠٨ هـ - الأنصاري نشرة بروفنسال - ص ٩) على حين ورد تاريخ صناعة هذا المنبر في المتن في نشرة كل من محمد بن تاويت وعبد الوهاب بن منصور على النحو التالي (ودرجات المنبر اثنا عشرة درجة صنع في شعبان المكرم سنة ثمان وأربعمائة) راجع نشرة محمد بن تاويت ص ٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٢٨ .

(١٢٤) تضمنت نشرة كل من ابن تاويت وعبد الوهاب بن منصور الإشارة إلى تاريخ صناعة المقصورة المذكورة على النحو التالي (والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (كان صنعها في رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨ هـ) . راجع نشرة ابن تاويت ص ٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٢٨ .

(١٢٥) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ٩ .

(١٢٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ٢) ، شكل رقم (١٠) رقم (٣) .

(127) Carlos Gozalbes: la Medina o Nucleo urbano central en la ceuta hispanomusulmana. p. 63

وكذلك راجع أمين توفيق الطيب. احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م مقدماته ودوافعه ونتائجه (مقال ضمن كتاب دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية ص ١٣٣ .

(١٢٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وكذلك راجع (مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار) ص ١٣٧ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣٠٢ .

(129) Joaquin vallve: Decripcion de ceuta Musulmana. p. 414. Not. 56.

(١٣٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشيه ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٣١) ابن عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٤ تحقيق إحسان عباس بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص ٥٨ .

(١٣٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٣٣) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ٩ .

(١٣٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٥٩ .

(١٣٥) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ج١ ص ٣٢٠ .

Christin Ewert: Die Moschee am Bab al Mardum in toledo. Emi
kopic. der Moschee vceu cordoba. Hidberg 1994. p. 352.

كمال عناني إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي ص ٢٢٤ .

(١٣٦) هو عياض بن موسى بن عياض البحصي من أهل سبته ويكنى أبا الفضل ، وقد كان

من كبار أعلام سبته إذا كان من أهل العلم والذكاء واليقظة ، وقد تولى قضاء سبته مدة

طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة . وقدم إلى قرطبة في ربيع الآخر

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة . وقد ولد في منتصف شعبان سنة ست وسبعين

وأربعمائة وتوفي أواسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة (لمزيد من التفاصيل راجع ابن

بشكوال كتاب الصلة القسم الثاني ص ٤٥٣ - ٤٥٤ - ترجمة رقم ٩٧٤) .

(١٣٧) عياض (أبو الفضل عياض بن موسى) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام

مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير محمود منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥

ص ١٩ .

(١٣٨) الأنصاري : نشرة بروفنسال - ص ٩ .

(139) Terrassi: les Monuments de ceuta, p. 445

(١٤٠) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٠٣ .

(١٤١) أحمد فكري : مساجد الإسلام (مسجد القيروان) نشر دار المعارف . القاهرة ١٩٣٩

ص ١٩ .

(١٤٢) أحمد فكري : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ج١ نشر دار المعارف ١٩٦٩

ص ٣٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي . نشر مؤسسة

شباب الجامعة . إسكندرية . ١٩٨٢ ص ٣٥٢ .

(١٤٣) سالم : قرطبة . ج١ . ص ٣٤٨ .

(١٤٤) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ١٠ - ١١ أما عن أبي القاسم العزفي فهو محمد بن

أحمد بن محمد اللخمي العزفي ولد بسبته في منتصف شوال . عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م .

وتولى إمارتها في ٢٧ رمضان عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م في دولة الخليفة الموحد المرتضى .

وتوفي في ١٣ ذي الحجة عام ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م . وهو الذي أكمل كتاب الدر المنظم

في مولد النبي المعظم الذي بدأ والده القاضي أحمد العزفي تأليفه (راجع . المقرئ ،

أزهار الرياض . ج ٢ . ص ٣٧٤ - ٣٧٧ ، كذلك راجع . اختصار الأخبار . نشره عبد

الروهاب بن منصور ص ٣٠ هامش (٥٠) .

(١٤٥) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص ٦ .

(١٤٦) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص ٣ .

(١٤٧) نفس المصدر . ص ٥ .

(١٤٨) نفس المصدر . ص ١٠ .

(١٤٩) نفس المصدر . ص ٢١ .

(١٥٠) نفس المصدر ص ٢١-٢٢ حيث وصف الأنصارى المصلى الكبير بقوله (وأشرفها

وأسنها المصلى الكبرى مصلى المدينة . ومن ما اتصف به هذا المصلى كونها (كونه)

خارجة عن المدينة داخلية فى حكمها فوجه خروجها أنها خلف السور فى براح متصل

بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنات ودمن ومجاشر وجبال وخنادق وشعار وسوى

ذلك دور الجميع سته أميال فصارت المصلى فى حكم الصحراء على السه فى ذلك) .

(١٥١) نفس المصدر . ص ٢٢ .

(١٥٢) نفس المصدر ص ٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى اتصال استخدام المصلى الكبير فى

أوقات الفتن بقوله (ووجه دخولها هو أن البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط

البحر فلا يلحق أحد فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تعطل من إقامة الصلاة فى

أيام الفتن والقتال ، وفى حالة الحصر والنزال بخلاف غيرها) . ويبدو أن الأحداث

السياسية والحربية التى تعرضت لها سبته فى عصورها المتتابعة أثرها المباشر فى تشييد هذا

النوع من المصليات .

(١٥٣) نفس المصدر . ص ٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى المصلى الملكى بمدينة سبته بقوله

(وفىها بأعلى حافة الغدر المصلى الملوكية المتسعة المستوية الأرض المشرفة على البحر

هنالك المختصة بسكان أفراك من الأمراء والأجناد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان أبو

الحسن المرىنى بجيشه) .

(١٥٤) نفس المصدر . ص ٢٢ .

(١٥٥) محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٨٨ .

(١٥٦) أمين توفيق الطيب : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية . ص ٥٥ .

- (١٥٧) البكرى : المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب . ص ١٠٣ .
- (١٥٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب . ص ١٠٢ .
- (١٥٩) المقرئ : نفح الطيب . ج ٤ . ص ١٤٥ .
- (١٦٠) نفس المصدر . ج ٣ . ص ١٨٦ .
- (١٦١) هو على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى من أهل سبتة وبها ولد ويعرف بالشارى نسبة إلى شاره فلين معقل يجوفى مرسية ومنها أصل سلفه وكان انتقال والده محمد منها إلى سبتة سنة ٥٦٢هـ حيث سمع من العلماء والأدباء بسبتة وفاس وغيرهما من بلاد المغرب (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٧ حاشية (٤٤) - وقد أشار ابن الخطيب إلى شخصية الشيخ على الشارى بما يفيد بأنه كان جماعه للكتب وذلك بقوله (انتقى منها جملة وافره فى مدرسته التى احدثها وعين لها من خيار املاكه وحيد رباعه وقفاً صالحاً سالفاً فى ذلك ما بين أهل المشرق راجع ابن الخطيب الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة ١٩٧٧ - ج ٤ ص ١٨٨) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع محمد بن تاويت . تاريخ سبتة Joaquin vallve: Descripcion ceuta Musulmana p, 409. ، ص ٨٨ ، Not. 34
- (١٦٢) الأنصارى : ص ٩ أما السلطان المرينى أبو الحسن فهو أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (تولى فى الفترة من (٧٣١هـ / ١٣٣٠ م - إلى ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) وقد كان مجاهداً فى سبيل الله واستطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم اتجه بجيوشه نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية ، غير أن الجيوش الأسبانية انتصرت عليه فى موقعه بالقرب من مدينة طريف وذلك فى عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م . وبعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط عليه كما ثار عليه ابنه فارس أو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة فمات حزناً شهيداً عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة فى المغريين الأوسط والأقصى وبالأندلس . ومن آثاره الهامة بسبتة فضلاً عن المدرسة الجديدة برج الماء ببحر السول من ساحل سبتة الجنوبي (ولمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان راجع ابن مرزوق : المسند . ص ٣٣٩) وقارن تاريخ وفاته فى كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين لأبى الوليد إسماعيل بن الأحمر ص ٢٥ حيث الإشارة إلى أنه توفى بعد التاريخ الذى حدده ابن مرزوق وذلك فى عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١ م ،

كذلك راجع المقرئ : المصدر السابق . جـ ٤ . ص ٤٠٠-٤٠٤ ، ابن الخطيب :
مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص ١٢٣ - ١٢٤ حاشية (٤) .

(١٦٣) الأنصارى - ص ٩ .

(١٦٤) ربما قصد بها ميضأه المدرسة التى من المحتمل أنها كانت تشتمل إلى جانب تلك
المطهرة على مراحيض عبر عنها الأنصارى بالبيوت الثمانية . فالبيضأه فى عرف أهل
المغرب اسم جامع لمكان التغوط والوضوء ويسمى أيضاً مطهرة أى مكان الطهارة وإذا
كان خاصاً بالتغوط سمي بيت الماء . وكلمات المرحاض والكنيف والمستراح كلمات
عربية طرأت حديثاً على ألسنة الناس (راجع اختصار الأخبار نشره : عبد الوهاب بن
منصور . ص ٤٠ حاشية (٤٥) .

(١٦٥) المقصود بهذا النقيير الأحواض أو الصهاريج الخاصة بحفظ المياه . وقد تعنى فى رأى
الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتلة من الحجر أو الرخام منقورة الوسط تكون
بالميضأت والمظاهر ينصب فيها ماء الاستنجاء من عيون أو أنابيب (الأنصارى : اختصار
الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٧٧) .

(١٦٦) يطلق على هذه الكلمة فى اللغة الأسبانية Azulejas أى الزليج . بمعنى القراميد أو
البلاطات الخزفية وتعرف فى العراق باسم القاشانى وفى مصر باسم الزليزلى (محمد عبد
العزیز مرزوق . الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس بدون تاريخ ص ٧٦ -
٧٨ حاشية (١) . كما تسمى عند الأوربيين بالمزيكو ويقال فى بعض المدن المغربية الزلايج
وصانعه زلايجى جمع زلايجيه واشتقوا منه زلج المضعف . ويقال زلج فلان دار . بمعنى رصفها
بالزليج (راجع اختصار الأخبار نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٤٨) .

(١٦٧) قد يكون صحتها مؤنقة حيث وردت على هذا النحو فى نشره عبد الوهاب بن
منصور . راجع ص ٤١ .

(١٦٨) البابونج نبات عشبي من فصيلة المركبات يستعمل فى الصباغة أو التداوى (المعجم
الوسيط ج ١ . الطبعة الثالثة مجمع اللغة العربية . ص ٣٧ . وقد فسر أحد مؤرخى الفن
نور البابونج على أنه التوريقات النباتية التى كانت تكسو قبه الميضأة والتى كانت
منقوشة نقشاً غائراً بحيث تجسمت فبدت لمن يتأملها كأنها رسوم حيه مجسدة) .

Corlos Gozalbes - Ia Medina o Nuclo urbano central en La ceuta p. 55.

(١٦٩) الأنصارى . ص ١٨ .

(170) Mascarenilas: jeronimo de Historia de la ciudad de ceuta. Lisboa. 1918. p. 17.

(171) Carlos Gozalbes . op. cit, p. 56

(172) Mascarenilas: Op .cit, p.p 24 -25 .

(١٧٣) راجع هامش (٨) من البحث ص ٢٩ .

(174) Carlos Gozalbes: opcit. p. 58.

(١٧٥) شكل رقم ((١١)) .

(176) Carlos Gozalbes: opcit. p.p 59 - 60

(١٧٧) الأربطة مفردتها رباط وتجمع على أربطة ورباطات وربط . وهي لفظة تعنى فى الأصل

إعداد الخيل وربطها وملازمة ثغور العدو تأهباً للجهاد فى أية لحظة . وعلى هذا فإن

الرباط بناء عسكري ديني شيد ليكون مقراً للمجاهدين فى سبيل الله . ولكن مع فتور

الهمم أصبح مأوى للمنصرفين إلى ذكر الله وللمتعيشين على نفقة السلطان ولأبناء السبيل

(عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٩٥-١٩٦) ولهذا فقد كانت

تشمل مساكن لهؤلاء الزهاد ومسجد لأداء الصلوات . وكانت إلى جانب أنها مؤسسات

صوفية كانت أيضاً معاهد علمية لتدريس العلوم الدينية . وكان لكل رباط شيخ يرأسه

وله خادم يتولى العناية بالرباط . وعلاوة على دور الربط فى حماية الثغور والسواحل

كانت تستخدم أيضاً كمراكز للإنذار وإرسال الأخبار الملحة فى حالة تعرض البلاد

للخطر . ويؤكد ذلك قول المقرئى (ولما ولى إبراهيم بن محمد بعد الأغلب أفريقية فى

سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى

آمنة . وبنى الحصون والمخارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبته

إلى الإسكندرية فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر)

(راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . نشر مكتبة الثقافة الدينية .

الطبعة الثانية. ١٩٨٧ م ج ١ ص ١٧٤ . وعن الاشارات التى كانت تستخدم فى إرسال

الأخبار يذكر المقدسى (وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم وينهبون إليهم من

الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن

كان نهراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقه قد رتب فيها أقوام فتوقد

المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انقز بالقصبة وضرب

الطبل على المنارة) ، راجع المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد المقدس) أحسن

التقاسيم في معرفة الأقاليم : طبعة لندن ١٩٠٦ م ، دار صادر بيروت ص ١٧٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الرباط : نشأته وتطوره راجع (فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول نشر الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الطبعة الثانية . نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ٩ ، حسين مجيب المصرى : أثر الفرس فى حضارة الإسلام ، مقال ضمن دراسات فى الحضارة الإسلامية . ج ١ . القاهرة ١٩٨٥ ص ١٩٦ .

(١٧٨) تقابل الزاوية فى المغرب الإسلامى الخانقاه فى المشرق أى أن كليهما يودى وظيفة واحدة كمبان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم للعبادة . ويؤكد تطابق وظيفة الزاوية فى المغرب مع وظيفة الخانقاه فى المشرق ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزوايا فى مصر بقوله (وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق وأحدثها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا) (راجع ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تحقيق محمد عبد المنعم العريان . ومراجعة : مصطفى القصاص . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٢ . ج ١ ص ٥٦ ، محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين . الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . ص ٩٧ .

(١٧٩) اشتد تيار التصوف بمدينة سبته منذ عهد المرابطين وازداد عدد المتصوفة سواء منهم السبتيون أصلاً ومنشأً والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين . ومن بين أشهر هؤلاء المتصوفة أبو العباس أحمد العزفى الذى كان فقيهاً وعاملاً محدثاً وقاضياً (راجع المقرئ . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٥ ج ٢ ص ٣٧٥ . وقد تولى التدريس طيلة حياته فى المسجد الجامع بسبته . ويشتهر أبو العباس أحمد العزفى بأنه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف إلى الأندلس (راجع المقرئ نفس المصدر ج ١ ص ٣٩ ، ٢٤٣) ولمزيد من التفاصيل عن انتشار تيار التصوف وكثرة المتصوفة بمدينة سبته راجع محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٠-٦٢ .

(١٨٠) وردت هذه الكلمة فى نشرة عبد الوهاب بن منصور (شرحاً) وهى عبارة عن نافذة تفتح فى جدار بيت أو غرفة للتهوية والترزين . وقد تثبت بها قضبان من حديد فى أشكال جميلة لمنع الدخول منها والخروج تسمى حيثد شباك . وإذا كانت مجرد كوة صغيرة فهى الطاقة ، ويكتب الأدباء الشرحب وينطقون به بشين مثلثة وعند العوام بسين

- (راجع الأنصارى ، نشرة محمد بن تاويت ص ٣١ هامش (٥٣) وكذلك راجع ابن الرامى : الإعلان بأحكام البنيان دراسة أثرية معمارية ، تحقيق محمد عبد الستار عثمان نشر دار المعرفة الجامعية . إسكندرية ١٩٨٩ . ص ١٨٦ .
- (١٨١) الكذان : نوع من الحجارة فيها رخاوة وربما كانت نخرة مثل الأحجار الرملية الموجودة بشطوط الأنهار ومجارى المياه وتسمى الكذان بالبربرية (تافزة) وقد يطلق على الصلصال المتحجر المنعقد من صعود البخار داخل الأباريق والبراريد عند غليان الماء وهو ما يسمى عند البربر أيضاً (بتافكرة) (راجع الأنصارى : نشرة محمد بن تاويت ص ٣١ حاشية رقم (٥٤) . وقد عم استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس لاسيما فى بناء الجدران وتبليط الأرضيات (عبد الرحيم غالب : المرجع السابق . ص ٢٣) .
- (١٨٢) فريد شافعى . العمارة العربية ص ٥١٣ .
- (١٨٣) الأنصارى نشرة بروفنسال ص ١١ حيث الإشارة إلى هذا الرباط بقوله (وإلى جانبها) أى رابطة الصيد) رابطة أخرى على شكلها ومثلها وفى وسطها القبر المعروف بقبر حيدة (صيدة) حارية لأحد أمراء الموحدين . وعلى القبر قطعة رخام أبيض فى طول اثنى عشر شبراً وارتفاع خمسة أشبار أو ما يقرب منها ويجوانبها خمسة أدراج منجورة ظريفة الصنعة .
- (١٨٤) المقرئ : ترتيب المدارك . ج ١ . ص ١٩ .
- (١٨٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١-١٢ حيث الإشارة إلى هذه الزاوية بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس وأعدّها هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى البيت بها من التجار أو غيرهم . ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة المساحة متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبته وأتمها إحكاماً) .
- (١٨٦) البكرى : وصف أفريقية . ص ١٠٣ .
- (١٨٧) يطلق على القصبة الأسبانية Alcazaba أو المدينة Almudiana تصغير للفظ مدينة والاسم الثانى وإن كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير فى مختلف مدن أسبانيا الإسلامية (محمود على مكى : مدريد العربية . وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والنشر . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بدون تاريخ ص ٧٤-٧٥ ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم فى بعض المدن كالقاهرة ، وأحياناً أطلقت على قطاع مستوى من هذا الشارع الأعظم بها وكان له صفة تجارية بارزة كأن يقال قصبة رضوان وكانت تطلق أيضاً على المدن الكبيرة وفى الأقاليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن (راجع . محمد عبد الستار عثمان . المدينة الإسلامية . عالم المعرفة . (الكويت) . عدد ١٢٨ . أغسطس ١٩٨٨ . ص ١٦٧ .

(١٨٨) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ومراجعة عبد الحميد العبادى . مطبوعات كلية الآداب . جامعة فاروق الأول إسكندرية . ص ٧٩ ، ٩٦-٩٧ .

(١٨٩) راجع ص ٣٥٦ هامش ٥٤ من البحث .

(١٩٠) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت ١٩٧٩ ج ٧ . ص ٢٤٧ .

(191) Carlos Gozalbes: opcit. p. 50.

(192) Pavon Maldonado: arte Hispano Musulman en ceuta y tetuan p.72 .

(١٩٣) شكل رقم (٣) ب (رقم ١١) .

(١٩٤) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٢) .

(١٩٥) شكل رقم (١٢) .

(١٩٦) شكل رقم (١٣) .

(١٩٧) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى هذا البرج وبابه بقوله (ولها

باب ثانى مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة) .

(198) Carlos Gozalbes : opcit. p.p 49-50

(١٩٩) الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٤ ، ١٨ .

(٢٠٠) نفس المصدر . ص ١٩ حيث الإشارة إلى عدد المطامير (أى مكان طمر القمح خاصة

وخزن الغلال) المعدة لخزن الزرع والتي تبلغ أربعون ألفاً مفترقة بالديار .

(٢٠١) نفس المصدر ص ١٤ حيث الإشارة إلى أنه كان بكل دار من ديار سبته حمام ومسجد

إلا القليل .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

(203) Torres Balbas: algunos aspectos da la casa Hispano musulmano. Alandalus. V,XV. 1950 p. 185 .

(204) Torres Balbas : ciudades Hispanomusulmanas V,I p. 31 .

(205) Torres Balbas: opcit. p. 179.

وكذلك راجع كمال عناني إسماعيل ، العمارة الإسلامية بمدينة طليطلة ص ١٦٤ .

(٢٠٦) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشرة بروفتسال ص ١٥ .

(٢٠٧) الأنصارى نفس المصدر . ص ١٣٥ .

(٢٠٨) ربما صحتها المئات .

(٢٠٩) المسلخ لغويا يعنى المكان المخصص للراحة وتناول المشروبات وكانت تعقد فيه

حفلات السمر (عبد الله البستاني . معجم البستان . ج ١ بيروت ١٩٢٧ ص ١١٢١ -

١١٢٢ وقد تعنى خلع الثياب والتأهب للانتقال إلى الغرفة الثانية ثم ارتداء هذه الثياب

قبل الخروج من الحمام . ولذلك فهى تقابل فى الحمامات الرومانية Apdoyierum

وفى هذه الحالة كانت تزود بخزائن أو طاقات غير نافذة توضع فيها الملابس ولوازم

المستحمين (عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٤٠) . وقارن

الأنصارى اختصار الأخبار . نشر محمد عبد الوهاب منصور ص ٣٤ جاشية (٦٣) حيث

الإشارة إلى أن المسلخ تعنى المكان الذى يجرد فيه المستحمون من ثيابهم قبل دخول

الحمام. ويسمى اليوم فى العامة المغربية الجلسة .

(٢١٠) وردت فى نشرة عبد الوهاب بن منصور هذه الكلمة على أنها (مرتبة بدلاً من مؤلفه)

ص ٣٤ .

(٢١١) المراد هنا بالطيفور الجفنة أو الحوض أو البيله/ الرخامية المستديرة المرتفعة التى يفور

منها الماء وينزل إلى الصهريج (راجع الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب

ابن منصور ص ٣٥ جاشية (٦٤) ، أما الطيفور أو التيفور فيعنى فى المصطلح الفنى الطبق

أو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . وقد انتقل هذا اللفظ

العربى إلى اللغة الأسبانية بهذه الكلمة Ataifor . وكان هذا اللفظ يدل فى غرناطة

الإسلامية على نوع من الموائد الصغيرة (سيكودى لو ثينا : وثائق عربية غرناطية :

صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٦ . ص ١٧٧ جاشية (١) .

(٢١٢) الأنصارى : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

(٢١٣) تنقسم حمامات المغرب والأندلس إلى نوعين ، الأول يتألف من أربع قاعات هى بيت المسلخ والبيت البارد والوسطانى والساخن ، أما النوع الثانى فلا يشتمل على قاعة المسلخ التى كان يستعاض عنها بممر طويل مقبى يفضى إلى الغرف الثلاثة الأخرى

(Pavon Maldonado: Tratado de Arquitectura Hispano Musulmana. Madrid 1990. p. 311.)

(٢١٤) كمال عنانى إسماعيل : الحمامات الإسلامية فى الأندلس (دراسة أثرية) بحث تحت الطبع .

(٢١٥) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى) : كتاب صورة الأرض . طبعة ليدن ١٩٣٨ . ص ٧٨-٧٩ .

(٢١٦) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١-٣-٤-١ .

(٢١٧) الادريسى : نزهة المشتاق . ج ٢ . ص ٥٢٨ .

(٢١٨) مؤلف مجهول : الاستبصار . ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢١٩) قارن نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤٠ حيث الإشارة إلى هذه الكلمة على أنها العنابيب بدلاً من الأنابيب والعنوب فى نطق عوام المغرب لفه فى أنبوب يقصد بها القناة التى يخرج بها الماء مطلقاً من القادوس إلى الساقية . وإذا كان الماء يخرج منها مقيداً بإدارة لولب سميت بزبوراً أى ما يعادل الحنفية أو الصنبور عند أهل المشرق (راجع نفس المصدر . ص ٤٠ هامش (٧٣) .

(٢٢٠) أى للعموم مجازاً بدون مقابل . وأهل المغرب يطلقون كلمة السبيل على كل مرفق من المرافق العامة أو لكل شئ معد للعموم . حيث يقال جنان السبيل للحديقة العمومية ، وكذلك ماء السبيل ، واشتقوا من الكلمة فعل سبل المضعف ومعناه إعطاء الشئ وهبته من غير مقابل حيث يقال سبل فلان قربة الماء وسبل نفسه فى سبيل الله (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ هامش (٧٤) .

(٢١٢) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال . ص ١٧ - ١٨ .

(٢٢٢) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٨١ .

(٢٢٣) ابن سعيد المغربى . كتاب الجغرافيا . بيروت . ١٩٧٠ ص ١٣٩ نقلاً عن أمين توفيق

الطبيب النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبتة ص ٤٨ حاشية (١٨) .

(٢٢٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . ص ١٠٢ .

(٢٢٥) ابن جبیر (أبو الحسن محمد بن أحمد) : رحله ابن جبیر . دار صادر بيروت ص ٨
حيث الإشارة (فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني يسر الله علينا في عيون البحر
إلى القصر مصمودة تيسيراً عجيباً . ونهضنا منه إلى سبته غدوة يوم الأربعاء الثامن
والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً إلى الأسكندرية بحول الله عز وجل
فسهل الله علينا في الركوب منه) كذلك ص ٤٨ حيث الإشارة (ويمكن أن يجد مركباً
من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين) .

(٢٢٦) ابن عذاري : البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد
ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر رزماني . نشر دار الثقافة
للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٨٥ . ص ٣٥٠ .

(٢٢٧) المقرئ . ج ٣ ص ١٣١ ، كذلك راجع : أمين توفيق الطيب . المرجع السابق ص ٥٠ .
(٢٢٨) ابن بطوطة : المصدر السابق رحل . ص ٦٤٩-٦٥٠ .

(٢٢٩) أندرية حوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي . والبشير بن سلام .
تونس ١٩٧٨ . ص ١٦١ ، أمين توفيق الطيب . المرجع السابق . ص ٤٩ .
(٢٣٠) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل من المرجان
بسبته قويريات لطاف .

(٢٣١) الأدريسى : نزهة المشتاق . ج ٢ . ص ٥٢٩ .

(232) Torres Balbas : ciudades hispano musulmana V.I.P. 301 .

كمال عناني إسماعيل . العمارة الإسلامية في طليطلة . ص ١٨٠ .

(٢٣٣) كان يقع هذه السوق في الشارع المعروف الآن باسم شارع خوادينس

Call de: jaudenes - carlos Gozalbes; La Madima o Nuclo
urbano central en la ceuta Hispano Musulmana p. 40

شكل رقم (١٠) (رقم ٨) .

(٢٣٤) كانت صناعة التحف المعدنية لاسيما النحاسية من أهم الصناعات التي ازدهرت بمدينة
سبته وذاعت شهرتها بحيث صار انتاجها من التحف النحاسية يصدر إلى إيطاليا وقد عبر
الحسن الوزان عن هذا الازدهار فيما دونه عن سبته بقوله (وفيها عمال مهرة في
المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجنان والمحاجر وغيرها . فكانت هذه الأشياء تباع
كما لو كانت من الفضة . وقد رأيت بعضها في إيطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من

صنع دمشق راجع : الحسن بن محمد الوزان الناسى المعروف بليو الأفريقى : وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر . دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية ج ١ ص ٣١٧ .

(٢٣٥) شكل رقم (١٠) (رقم ١٣) والمقصود به هو السوق المخصص لبيع الملابس المستعملة وكان يقع فى وسط المدينة بالقرب من مسجدها الجامع . ومثل هذ النوع من الأسواق المخصصة لبيع الملابس القديمة عم انتشاره فى معظم مدن الأندلس لاسيما غرناطة وأشبيلية ومالقه والغريب أن الأنصارى يؤكد أنه كان مخصص لبيع الأوانى النحاسية Carlos Gozalbes : opcit. p. 43.

(٢٣٦) الأنصارى اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٤ - ١٥ .

(٢٣٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة المدنية بالأندلس . دائرة معارف الشعب . العدد ٦٤ ، ١٩٥٩ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، كذلك راجع أحمد الطوخى . القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس . فصله من مجله كلية الآداب . جامعة الإسكندرية العدد ١٨ سنة ١٩٨١ ص ٩٢ - ٩٥ ، Torres Balbas ; Alcaicerias. Alandalus, v, ١٩٨١ p. 434 كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص ١٩٤ .

(٢٣٨) الأنصارى : اختصار الأخبار : نشرة بروفنسال ص ١٤ ، شكل رقم (٣) أ رقم (٧) ، شكل رقم (١٠) رقم (١٢) .

(239) Carlos Gozalbes: La Medina o Nucleo urbano central en la ceuta. p.p 41 - 42 .

(٢٤٠) الأنصارى . المصدر السابق . ص ١٥ .

(٢٤١) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٦٢ كذلك راجع عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٠١ . ((ويقال فى بعض المدن أيضاً التريعة سوق صغير مربع الشكل رقم يشتمل على عديد من حوانيت الحرارين والخياطين وأمثالهم . وهو ليس كاطرزه الصناعة ولا كأسواق التجارة ولا كالأزقة العمومية بل هو بينها جميعاً . ولا تزال بقاس تربيعات معروفة بهذا الاسم إلى اليوم أشهرها تربيعة العطارين راجع الأنصارى . اختصار الأخبار : نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٣٧ حاشية (٦٧) .

(٢٤٢) جمع طراز وهو مكان صنع الثياب الرقيقة كثياب السلطان . ودلالته في المغرب أوسع فهو يشمل أماكن صنع الثياب وتوشيتها كما يشمل أماكن خرز الأحذية وتنميق المصنوعات الجلدية . وينطق به عوام المغرب دراز بقلب الطاء ذالاً ويجمعونه على درازات ويطلقونه أحياناً مجازاً وتهكماً على الحبس (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٣٧ حاشية (٦٨) .

(٢٤٣) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٥ .

(٢٤٤) ليو الأفريقى : وصف أفريقيا . ج ١ . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(245) Joaquin vallve : opcit, p.p 423. Not . 82

(٢٤٦) ابن بطوطة . المصدر السابق ص ٧٢ حيث الإشارة إلى أن الفنادق في المغرب تعرف في المشرق باسم الخانات .

(247) Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 92 .

عبد العزيز سالم : العمارة المدنية . ص ١٤٣ ، كمال عناني . العمارة الإسلامية في طليطلة ص ١٩٥ ولزيد من التفاصيل عن الفنادق نشأتها وتطورها ونظامها المعماري ، راجع : أمال العمرى : المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكى . رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٤ ص ١٣٩ وما بعدها . ابن الرامى الإعلان بأحكام البنين . تحقيق محمد عبد الستار . ص ١٩٨ ، د. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية . ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٤٨) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٦ .

(٢٤٩) نفس المصدر . ص ١٦ حيث الإشارة إلى الفندق الذى بناه أبو القاسم العزفى بأنه معداً لاختزان الزرع .

(٢٥٠) نفس المصدر . ص ١٦-١٧ حيث أشار الأنصارى إلى نموذج من هذه الفنادق وهو فندق غانم بقوله (ويليه في الكبر من الفنادق المعدة لسكن الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاثة طباق وثمانين بيتاً وتسع مصريات وهو قديم أظنه من بناء المرابطين) .

(٢١٥) نفس المصدر . ص ١٧ .

(٢٥٢) جمع مقصر ويقصد بها ورش صباغة الملابس وتطلق على المكان الذى تدق فيه الثياب وتحور وتبيض والكلمة فارسية الأصل . وقد كان لحرفة القسارة أهمية في المغرب القديم ولكنها اندثرت الآن . ولم يبق ما يذكر بها إلا بعض الألفاظ المشتقة منها كالقصار . اسم أسرة شهيرة . والقصرية هو الأنية التى تقصر فيها الثياب (الأنصارى . اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٩ حاشية (١٠٢) ، وكذلك راجع
Joaquin valve : op . cit p .435 أمين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادي
والعلمي بمدينة سبته . ص ٥٢ .

- (٢٥٣) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ٢٤ .
- (٢٥٤) يعكس ذلك بوضوح وصف الأنصارى لمقاصر سبته بقوله : (ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنتشر نهاراً فلا يخاف عليها طول المدة من لص) راجع الأنصارى . اختصار الأخبار ص ٢٤ .
- (٢٥٥) الأنصارى . نشر بروفنسال ص ٢٤ .
- (٢٥٦) الأنصارى . نفس المصدر . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٩ حاشية (١٠٣) .
- (٢٥٧) الأنصارى . نفس المصدر ص ٣٧ حاشية (٦٩) .
- (٢٥٨) اشتهرت مدينة سبته بأسلحة الرمي حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها . ومما ذكره الأنصارى عن مهنة الرمي يتضح بانها كانت مهنة شريفة ومحترمة حيث عبر عن ذلك بقوله (إذ الرمي طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الأشياء التي تميزوا بها) . (الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢ - ٢٣) .
- وفي الفقرة الأخيرة من النص إشارة واضحة إلى أن قوس العقارة كان أكثر الأقواس استعمالاً بسبته ، وقد كان هذا النوع من الأقواس معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى باسم arbalista ad duo pedos وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامي لكى يجذب القوس كان يثبت بوضع قدميه على طرفيه . واستعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامي من رمي سلاح أثقل وزناً وبالتالي أقوى مما كان سيرمييه لو أنه استعمل قدماً واحدة فقط كما هو الحال في قوس الركاب راجع ج.د. ليثام: موقع سبته الاستراتيجية ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الإسلامية (بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ مدينة سبته الإسلامية . ترجمة . أمين توفيق الطيبي . طرابلس . بدون تاريخ ص ٣٥ .

- (٢٥٩) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر بروفنسال ص ١٥ - ١٦ .
- (٢٦٠) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٥١ حاشية (١٠٥) .
- (٢٦١) نشر بروفنسال ص ٢٦ .
- (٢٦٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

- (٢٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل منه بسبته قويريات لطاف .
- (٢٦٤) الإدريسي . ج ٢ . ص ٥٤١ حيث الإشارة إلى أنه كان يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التين الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح في استنها أجنحة بازرة تنشب في الحوت ولا تخرج . وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم في ذلك دربه وحكمه سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .
- (٢٦٥) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٩ .
- (٢٦٦) ليون الأفريقي . وصف أفريقيا ج ١ ، ص ٣١٧ .
- (٢٦٧) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٨ .
- (٢٦٨) المقصود بديار الإشراف . كلمة إدارية مغربية قديمة معناها الإشراف على جباية الأموال لخزينة الدولة . متوليها يسمى المشرف وقد حل محلها في القرون الأخيرة كلمة أمين (راجع . اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٧٩) .
- (٢٦٩) المقصود بالديوان هنا هو مكان تسجيل المكوس و الأعشار وأدائها . ثم تخصصت كلمة (الديوان) بالمراكز المقامة بالحدود بين قطر وقطر لمراقبة السلع المجلوبة والموسوقة أى المستوردة والمصدرة . واستخلاص الضرائب المفروضة عليها . فهي تعادل كلمة كمرك أو جمرك عند المشاركة (راجع اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٨٠) .
- (٢٧٠) لكلمة القاعة خصوصية في عرف المغاربة فهي تدل فقط على السوق التى توضع فيها أنواع الأدام لبيعها بالجملة كالزيت والسمن والعسل ويظهر انها كانت تشمل فى عرف السبتيين سوق بيع العطور (اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٢ حاشية (٨٢) .
- (٢٧١) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ١٨ - ١٩ .
- (٢٧٢) شكل رقم ٣ (ب) رقم ٦ .
- (٢٧٣) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ٢ .
- (٢٧٤) من المعروف أن عقبة بن نافع كان قد ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأحكام الدين منهم صاحبه شاكر المنسوب إليه الرباط المشهور والمشهور كما أن

موسى ابن نصير أنتدب أيضاً عدداً من الفقهاء لتعليم البربر القرآن وأنزل من حفاظة جماعة بين بربر طنجة وقبائل غمارة المصمودية التي تقع سبته فى ترابها أما أبو ذرعه المشار إليه فلم يذكره من المؤرخين سوى الأنصارى (راجع اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ١٣ حاشية (٧) .

(٢٧٥) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال ص ٢ - ٣ .

(٢٧٦) نفس المصدر ص ٣ وصاحب هذا القبر ولد بأشيلية فى رمضان عام ٥٩٩هـ وأخذ عن شيوخها وقرأ بأشيلية إلى أن استولى النصارى عليها فخرج منها واستقر بسبته يقرء ويعلم إلى أن توفى بها فى عام ٦٨٨هـ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ١٤ هامش (٨) .

(٢٧٧) من أشهر مقابر هذه المقبرة قبر الفقيه القاضى ابن الدراج الأنصارى وهو محمد بن محمد بن عمر ابن الدراج الأنصارى . فقيه من أهل سبته وأصله من تلمسان (راجع اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٩ حاشية (٢٥) وقبر الفقيه القاضى عبد الله ابن محمد ابن عبيد الله الحجرى السبتي . ولد بقناجر فى شهر ذى الحجة سنة ٥٠٥هـ وعلم بمالقه القرآن والحديث واللغة ثم سكن سبته ثم فاس مدة ، وعاد إلى سبته فاستقر بها وولى قضاء سبته يوماً واحداً . وكان مما جمع الله له بين العلم والعمل واتساع الرواية وعلو الذكر إلى أن توفى لسبعة ليله الأحد ٢١ محرم عام ٥٩١هـ (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٣ حاشية (٦) .

(٢٧٨) بها قبور الشهداء وهى مزار مشهور بموضع متسع جامع لعدد كبير (الأنصار ص ٥) .
(٢٧٩) من أشهر قبور تلك المقبرة قبر الفقيه محمد بن عبد الله الأموى السبتي (الأنصارى . ص ٥) وقد تولى صاحب هذا القبر قضاء سبته مرتين فى عهد أسرة برغواطه والآخر فى أيام المرابطين ، وقد ولد عام ٤٢٣هـ وتوفى فى عام ٥١٧هـ (راجع اختصار الأخبار نشرة محمد عبد الوهاب بن منصور . ص ٢١ حاشية (٣٠) .

(٢٨٠) كان بها قبر الشيخ أبى عبد الله القرمونى . من أهل سبته (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . ص ٦) .

(٢٨١) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال ص ٢٥ .

علم الجراحة فى الأندلس

د. حنان عبد الفتاح مطاوع(*)

تمهيد :

(أ) الطب ومفهوم الحضارى :

الطب علم من العلوم القديمة التى عرفها الناس عن طريق التجربة والخبرة ، وهو ضرورى لكافة المجتمعات لما له من اتصال بحياة الإنسان وصحته فى جسمه ونفسه ، وهو يعود عليه بالراحة والسعادة فى حالة الصحة ، ويخلصه من الألم فى حالة المرض. وقد عرّف ابن خلدون صناعة الطب فقال : « هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداداة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم »(١).

(ب) أهمية الطب فى الحضارة الإسلامية(٢) :

اهتم الإسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، وفى ممارسة مهنة الطب اتجه المسلمون نحو تراث اليونانيين يشجعون على نقلة إلى العربية ليفيدوا منه ، فأشادوا بابقراط(٣) . وجالينوس(٤) . وغيرهما من أطباء اليونان ، وأخذوا عنهم المبادئ والأساليب التى تستهدف السمو بمهنة الطب(٥) .

(ج) الجراحة فرع من فروع الطب :

كانت الجراحة عند العرب تسمى صناعة اليد(٦) . وهى ترجمة حرفية لكلمة Chirurgie اليونانية ، ولم تكن علماً مستقلاً بل كانت فى بداية الأمر

(*) مدرس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

ترتبط بصناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر (٧) . ولعل ترفع العرب عن الجراحة فى أيامهم الأولى وتقليلهم من شأنها يرجع إلى أنهم اعتبروها صناعة يدوية ، أما الطب فكان نتاج العقل ، والعقل فى اعتقادهم كان اسمى من اليد (٨) .

واستمر العرب فى ترفعهم عن مهنة الجراحة فى فجر العصر الإسلامى (٩) . لا سيما وان الإسلام منع التمثيل بالجسم الإنسانى (١٠) . ومن ثم فإن الطب الإسلامى لم يعن كثيراً فى أول الأمر بالجراحة على أساس فكرة المحافظة على جسم الإنسان كما خلقه الله (١١) . وقد تغلب العلماء فى العصور الإسلامية الأولى على هذه العقبة بتشريح أجسام القرود بوصفها أقرب الحيوانات فى تركيبها إلى الإنسان (١٢) ، وقد استقى العرب معلوماتهم فى التشريح عن سبقوهم من اليونان (١٣) والفرس (١٤) . ومن مشاهدة الهياكل العظمية بالمقابر . ولكن لابد أنهم مارسوا التشريح ولو بصورة سرية ومحدودة (١٥) . وعلى أية حال فإنه مع تقدم الطب العربى الإسلامى تقدمت معه الجراحة ، وأقبل العرب على ترجمة أمهات الكتب اليونانية (١٦) . التى ألفها أبقراط وجالينوس وغيرهما . وفى هذه المؤلفات معلومات جراحية غاية فى الأهمية ، تمكن الأطباء المسلمون من دراساتها وتفهم ما فيها من معلومات جراحية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ازدهار علم الجراحة فى الدولة الإسلامية على يد جراحين مسلمين اعتمدوا فى البداية على ما أخذوه فى هذا المجال من العلماء اليونان ، ثم كان لهم فى النهاية نظرياتهم الخاصة التى توصلوا إليها بالبحث والتجارب الشخصية . وعلى يد هؤلاء الأطباء أصبح للعرب المسلمين طب جراحى أصيل تناولوه بالشرح والنقد ومارسوه عملياً (١٧) . حيث استخدموا (الكى) فى علاج كثير من الأمراض ، وفضل بعضهم (الكى) بالنار على (الكى) بالمواد الكاوية ، واشترطوا أن تكون المكواة من الحديد وليست من الذهب ، وأوصوا بان يكون (الكى) فى الربيع (١٨) . كما قاموا

باستخراج الحصى أو تفتيتها فى المسالك البولية ، وباشروا جراحات الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان. وفى خياطة الجروح استخدموا الخيوط المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط (١٩) .

وكان العرب أول من استعمل المخدر فى الجراحة حيث نجح الأطباء المسلمون الأوائل فى اكتشاف نباتات لها قوة التخدير . كما أن استخدام الإسفنجة المخدرة فن عربى أصيل . وقد دخل هذا الاكتشاف العلمى إلى أوروبا بطرق كثيرة ومختلفة ، وظل معمولاً به حتى القرن ١٨ م حيث اكتشف التخدير بواسطة الاستنشاق عام ١٨٤٢ م . وكان الطبيب العربى المسلم أبو القاسم الزهراوى يستخدم خليطاً من نباتات الشيلم والسيكران، وكانت هذه الخلطة تخدر المريض لفترة طويلة تكفى لأجراء العمليات الجراحية التى يقوم بأجرائها بنفسه (٢٠) .

أولاً: نبذة عن الطب فى الأندلس :

كان الطب الأندلسى بدائياً فى مطلع الحكم العربى الإسلامى . ذلك لأن معظم الباحثين والدارسين المسلمين كان اهتمامهم فى تلك المرحلة بالعلوم الدينية واللغوية (٢١) .

وهكذا لم يكن فى بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامى وحتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢ م) علم طبى يعول عليه إلا ما كان يقوم به بعض الأفراد من النصارى الذين اكتفوا بالإطلاع على كتاب واحد مترجم من كتب النصارى يقال له (الأبريشم) ومعناه المجموع أو الجامع ، يأخذون منه معلومات سهلة وسطحية ، تساعدكم فى ممارسة مهنة الطب بالقدر الذى يكفى لكسب قوتهم دون الوصول إلى تفهم ما فيه من معلومات بشكل صحيح . وقد عبر ابن جليل عن سطحية معلومات هؤلاء الأطباء بقوله « ولم تكن لهم

بصاره (أى رؤية) بصناعة الطب والفلسفة والهندسة فى أيام عبد الرحمن بن الحكم» (٢٢) .

غير انه سرعان ما تقدمت الحركة الطبية فى الأندلس فى زمن الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨هـ/٨٥٢م - ٢٧٣هـ/٨٨٦م) على أثر قدوم بعض الأطباء المشاركة إلى الأندلس ، ومعهم أفضل ما توصلوا إليه من أدوات طبية ، وآخر ما صدر عن علماء المشرق من نظريات علمية. وعلى رأس هؤلاء الطبيب المشرقى الشهير « الحرانى » الذى استقر فى قرطبه ، وحمل معه إلى بلاد الأندلس معجونا كان يبيع السقيه منه بخمسين دينارا لأوجاع الجوف (٢٣) .

وفى نفس الفترة الزمنية أقدم « ابن اياس » القرطبى - ولأول مرة فى تاريخ الأندلس - على التصدى لدراسة العلوم الطبيعية فكان أول من اشتهر بالطب فى الأندلس من المسلمين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٤) .

وفى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر أصبح لأهل الأندلس علم طبى راسخ الأركان بعد أن أخذ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب الخبرات الطبية عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامى (٢٥) ، وجلب أفضل المصنفات الطبية الشرقية (٢٦) ، وتشجيع ترجمة الكتب الطبية اليونانية والتى كان من أهمها كتاب ديسقوريدس فى الأعشاب . ونتيجة لكل ذلك ازدهرت الدراسات الطبية فى أسبانيا الإسلامية زمن الخليفة الناصر ، وظهرت مجموعة من الأطباء كان لهم فضل كبير على الطب ، جمعوا بين المهارة وحسن التصرف والقدرة على العلاج حتى أن الخليفة الناصر اختار منهم أطباء البلاط . ويأتى على رأس هؤلاء حسداى بن شيروط الذى كان أحرص الأطباء على التقرب من عبد الرحمن الناصر ، وكذلك عالم النبات المعروف « بالشجار » الذى كان من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير ديسقوريدس ، فعرف منه ما هو صحيح وما هو مخالف للواقع (٢٧) .

وفى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) واصلت الدراسات الطبية تقدمها حيث انه شمل الباحثين فى الطب برعايته عن طريق إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ، ويزاؤها ، فإذا ارتكب خطأ يستوجب العقاب يسقط اسمه من الديوان، كما هو الحال بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون (٢٨) . كذلك جعل الحكم فى قصره خزانة للطب رتب لها اثنى عشر صيباً من الصقالبة لتجهيز الأدوية والمعجونات ، وكان يتولى الإشراف عليها أحمد الحرانى (٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى عصر الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) نجد أن طليطلة كانت أشهر مراكز الدراسات الطبية حيث شمل ملوك بنى ذنون أصحاب طليطلة كل من برع من الأندلسيين فى العلوم الطبية من طليطليين أو ممن كانوا يقيمون فى طليطلة. وكان من أبرزهم ابن وافد الذى اهتم بدراسة علم الأدوية المفردة ووضع فيها مصنفاً جامعاً كان نتاج إطلاعه العميق على كتب اليونان القديمة وتجاربه الشخصية خلال عشرين عاماً من البحث والدراسة (٣٠) .

ويكفى دليل على تقدم حركة الطب فى مدينة طليطلة زمن الطوائف ما ذكره لكلارك مؤرخ الطب العربى من انه كان يوجد بطليطلة تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء العرب والمسلمين (٣١) .

وقد تابعت الدراسات الطبية فى الأندلس تطورها بعد عصر الطوائف ولا سيما فى عصر الموحدين « أواخر القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وأوائل القرن التالى » حيث بلغ الطب فى هذا العهد قمة تطوره (٣٢) . وقد يطول بنا القول إذا أردنا تتبع هذا التطور الأمر الذى قد يبعدنا عن موضوع البحث الذى يركز بشكل أساسى على علم الجراحة فى الأندلس ، ولكن يمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى الرواد من مؤرخى العلوم الذين بذلوا جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب

الأندلسي ، ووصفوا كيف نشأ ونما وازدهر هذا العلم حتى بلغ أوجه في عهد بني نصر - في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد - ، ويكفي أن نشير هنا إلى كتابين شهيرين هما « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلعجل الأندلسي وكتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) الذي افرد فيه الباب الثالث عشر لطبقات الأطباء الذين ظهوروا في بلاد المغرب وأقاموا بها.

ففي ثنايا هذين الكتابين نستطيع أن نستخلص العديد من الحقائق ونوجزها فيما يلي :

١- أن الأطباء الأندلسيين كانوا من النوع الموسوعي بمعنى أنهم مارسوا إلى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها (٣٣) .

٢- بلغ من تكريم الأطباء الأندلسيين أنهم وصلوا إلى أعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب فكان منهم من ولى الوزارة ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغاً جعلهم يتبارون مع الخلفاء في الإنفاق عن سعه والعيش في أبهة ورخاء (٣٤).

٣- يمكننا من خلال الدراسة التحليلية لتاريخ الطب الأندلسي أن نستخلص حقيقة هامة وهي أن مهنة الطب كان يتوارثها أحياناً كثيرة الأبناء عن الآباء (٣٥) .

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة إلى أبرز سمات الطب الأندلسي حتى يتسع المجال لإلقاء نظرة عامة على علم الجراحة في الأندلس في ضوء ما جاء في مخطوط الزهراوى وما عثر عليه في متاحف أسبانيا من آلات جراحية .

ثانياً: الطب الجراحي في الأندلس :

إذا كانت الجراحة لم تتقدم عند العرب كما سبقت الإشارة لارتباطها بفن التشريح ، ولا اعتبار الجراحة من المهن اليدوية التى لا تليق بمقام الأطباء . فان

المسلمين فى شرق وغرب العالم الإسلامى مارسوا مهنة الجراحة فى إطار دعوة الإسلام إلى الأخذ بالعلم بوجه عام ، حيث أطلق الإسلام العلم من عقله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة ، وبين السحر ، وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكى وغيرها(٣٦) .

ونتيجة لذلك عنى المسلمون بمؤلفاتهم الطبية التى أفرد بعضهم فيها فصلاً عن علم الجراحة ، ولعل من أشهرهم فى بلاد الأندلس :

١- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى : (٣٢٥هـ-٤٠٤هـ / ٩٣٦م-١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى(٣٧) ، وكنيته بالزهراوى تدل على انه عاش وتعلم ومارس مهنة الطب ، وتوفى بمدينة الزهراء . وقد كان طبيباً خاصاً للحكم المستنصر ، وكان يعرف عند اللاتين باسم أبولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبى القاسم وAlsaharavius تحريفاً من الزهراوى(٣٨) .

ويعد الزهراوى أشهر من كتب فى علم الجراحة عند العرب ، وأكبر من نبغ فيها ، وللزهراوى مصنفات طبية عديدة من أبرزها وأكثرها شهرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو موسوعة طبية كاملة تضم جميع فروع الطب المعروفة فى زمانه(٣٩) . إلا إن ما رفع قدرة وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « المقالة الثلاثون » التى خصصها للجراحة(٤٠) وهى أكبر وأغنى مصدر علمى فى الجراحة ، كما تعتبر مرجعاً حتى الآن لطلبة الطب ومعيناً للأطباء فى مواجهة مشاكلهم الجراحية(٤١) . وتنقسم هذه المقالة التى عثرنا لحسن الحظ على نسخة خطية منها(٤٢) إلى ثلاثة أبواب :

* الباب الأول : يتعلق بالكى وينقسم إلى ٥٦ فصلاً .

* الباب الثانى : يتناول الشق والبطن والفصد ومختلف العمليات الجراحية وينقسم إلى ١٠٠ فصل .

* الباب الثالث : تحدث فيه عن جبر الكسور والفك الحادثين فى العظام .

وتبرز قيمة هذه المقالة وأهميتها فى أن الزهراوى زودها برسوم توضيحية للعديد من الآلات الجراحية مثل آلات الكى ، والمباضع ، والمقصات ، والمجسّات ، وأدوات التوليد ، وخافض اللسان ، والصنانير ، والملاقط ، والموسعات منها ما هو مصنوع من النحاس أو الزجاج أو الرصاص .

ولأهمية هذه المقالة سوف نعرض مقتطفات ملخصة من أقوال الزهراوى التى توضح ما وصلت إليه معرفته فى علم الجراحة . وفى الباب الأول الذى خصصه للكى ناقش فيه أساليب الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم موضحاً ذلك بالرسوم التفصيلية للمكاوى التى كان يستعملها ، والتى من بينها المكواة السكينية والهلالية والمسمارية وذات السفودين وذات السفايفد الثلاثة .

وفى ثنايا عرض الزهراوى للمكاوى الجراحية أوضح أنواع الأمراض التى يصلح فيها العلاج بالكى ومنها :

١- برودة المعدة^(٤٣) وعلاجها ويتم بكيها كية واحدة فوق المعدة بمكواة دائرية أو يكوى ثلاث كيات بمكواة مسمارية^(٤٤) .

٢- فى أمراض الكبد^(٤٥) ويكوى المريض ثلاث كيات فوق الكبد ويكون ذلك بمكواة سكينية^(٤٦) .

٣- فى أمراض الطحال(٤٧) يكوى ثلاث أو أربعة كيات على طول الطحال
ويستخدم فى ذلك مكواة خاصة ذات سفودين أو ثلاث سفايد(٤٨) .

٤- فى علاج النقرس وأوجاع المفاصل(٤٩) ويتم الكى بعد الاستفراغ حول
مفصل الرجلين وتكون المكواة زيتونية متوسطة(٥٠) .

٥- فى علاج الأورام السرطانية نصح الزهراوى بكى السرطان(٥١) إذا كان مبتدأ
واستعمل فى ذلك مكواة دائرية جاعلاً الورم السرطاني فى داخل حلقة
المكواة بحيث يكون الكى حول الورم . وهو فى ذلك يختلف عن الأسلوب
الذى اتبعه بعض الأقدمين فى علاج الورم السرطاني بكيه كيه بليغة فى وسط
الورم ، ويوضح سبب عدوله عن استخدام هذا الأسلوب بأن كى الورم فى
الوسط يؤدى إلى تقرحه .

٦- فى علاج النزف الحادث عن قطع الشريان يقول الزهراوى « واعلم أن
الشريان إذا نرف منه الدم فانه لا يستطيع وقفه ولا سيما إذا كان الشريان
عظيماً إلا بأحد أربعة أوجه :

(أ) أما بالكى .

(ب) وأما ببتزه إذا لم يكن قد أبتز فانه إذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

(ج) وأما أن يربط بالخيط وربطاً وثيقاً .

(د) وأما أن توضع عليه بعض الأدوية التى من شأنها قطع الدم والشد
بالرفائد شداً محكماً . وان عرض لأحد ذلك ولم يحضره طبيب ولا دواء
فليبادر ويضع الإصبع السبابة على فم الجرح نفسه وبشده جيداً حتى
ينحصر الدم(٥٢) .

وفى الباب الثانى من مقالة الزهراوى المخصص لعلاج الشق والبط والفصد والخراريج وغيرها . يبدأ بتوجيه بعض النصائح التى تقوم عليها تقاليد ممارسة هذا النوع من الجراحة والتى ينبغى للجراح مراعاتها (٥٣) . وأهم ما تناوله بالشرح والتحليل فى فصول هذا الباب ما يلى :

١- وصف الأورام الصغيرة ويسمىها العقد وتظهر فى الشفتين ، وقد بين أسلوب علاجها عن طريق قلب الشفه ويشق على كل عقدة ثم يملئ الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ويتمضمض المريض بالخل (٥٤) .

٢- تعرض للقشور العالقة بأسطح الأسنان بألوانها المختلفة الصفراء والسوداء والخضراء (٥٥) . ووضح مدى خطورة تلك القشور على الأسنان وما قد تسببه من تقيح . وأكد على ضرورة جردها جيداً ، وربما يحتاج المريض إلى أكثر من جلسة لتنظيفها تماماً ، وبين أن الضرر يحتاج فى جرده إلى مجارد كبيرة ومتنوعة وأتى بأربعة عشره مجرد تصلح لهذا الغرض (٥٦) .

٣- فيما يتعلق ببط الأورام وشقها يقول (إن أنواعها كثيرة وهى تختلف فى بطها من وجهين أحدهما نوع الورم والثانى مكان الورم لأن الورم الحادث فى المقعد والورم الحادث فى المفصل لكل منهما حكم فى العمل) (٥٧) . ثم يشير إلى أنه من الأورام ما لا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج التقيح فيها وكماله . ومنها ما ينبغى أن يبط وهى نيه لم تنضج على التمام ، ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعد لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعد فيصير ناصوراً (٥٨) .

٤- وفى علاج أورام الحنجرة يقول أن الأطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الحنجرة وأمروا بترك الجرح مفتوحاً حتى تنقضى سوره المرض ، وتكون سوره ثلاثة أيام ونحوها وحيثذاً أمروا بخياطة الجرح حتى يبرأ (٥٩) .

٥- فى الفصل السادس والأربعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من صور الآلات المستخدمة فى الشق والبط (٦٠) . وفى هذا الباب تتجسد مكانه الزهراوى كأعظم من أرخ للطب الجراحى التطبيقى (٦١).

٦- يعتبر الزهراوى من أفضل من وصف علاج السرطان ، فى الفصل الثالث والخمسين ينصح الأطباء باستئصال الورم السرطانى متى كان فى موضع يمكن استئصاله ، وضرب المثل لذلك بسرطان الثدي أو الفخذ ، كما حذر من استئصال الورم السرطانى متى كان عظيماً ويشير إلى تجربته الشخصية فى ذلك بقوله (فإننى ما استطعت أن أبرئ أحداً منه ، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكناً) وبعد ذلك يشرح إذا دعت الضرورة القصوى لاستئصال الورم العظيم بقوله :

« ثم تلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يتبقى شيئاً من أصوله . فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكوى العروق حتى ينقطع الدم » (٦٢) .

٧- وفى ختان الصبيان يشير الزهراوى إلى طريقة جديدة من ابتكاره يسميها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) وقد عدّد مزايا هذه الطريقة وتناولها بالشرح (٦٣) .

٨- يعتبر الزهراوى من أفضل من كتب فى كيفية استخراج الحصاة حيث فرق بين حصاه الكلية والمثانة ونصح بالشق فقط على حصاه المثانة أو قناة مجرى البول (٦٤) . وقد سمي جراحه حصاه المثانة بالشق على (العجان) المسمى فى الطب الحديث Perineal Urethra Tomy (٦٥) وقد حذر من أن يكون القطع كبيراً حتى لا يحدث سلس البول ، وأشار إلى انه فى حالة إذا ما كانت

الحصوه كبيرة فإنه يجب تكسيها بالكلايب وإخراجها قطعاً ، ويعد هذا أول وصف فى الجراحة لعملية تفتيت الحصوه المعروفة الآن فى الطب الحديث باسم Litholapay (٦٦) .

٩- فى الفصل السابع والستين أمدنا الزهراوى بمعلومات هامة عن علاج الفتق الذى فى الأريية (٦٧) وهو ما يسمى الآن باسم الفتق « الأربى المباشر » Direct Inguinal Hernia (٦٨) . وفى هذا النوع من الفتق لا يستأصل الزهراوى كيس الفتق بل يكتفى بدفعه إلى الداخل بواسطة المروء ثم يخيطة القطعة الضعيفة التى برز منها كيس الفتق من خلال جدار البطن ، وهذه أول محاولة فى تاريخ الجراحة لعمل الرتق الجراحى للفتق الأربى Hernial Repair (٦٩) .

١٠- فى الفصل السابع والسبعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من الصور التى تستخدم فى إخراج الجنين (٧٠) وبين نوعيه المواد المستخدمة فى صنعها . حيث نصح بأن تكون من الأبنوس أو من خشب البقس (٧١)

١١- فى الفصل الثمانين يصف الزهراوى كيفية علاج النواصير التى تحدث فى الأسفل ، وقد أجاد فى بيان الفرق بين الناصور النافذ وغير النافذ إلى المستقيم (٧٢) . ويقر المتخصصون بأن وصف الزهراوى لعملية الشق على الناصور غير النافذ يتفق مع ما يمارسونها فى هذه العملية حتى الآن (٧٣) . وقد أمدنا الزهراوى فى هذا الفصل بصور لبعض الآلات المستخدمة فى قطع الناصور مثل المسبار المثقوب الطرف كإبره الأسكاف أو الموضع الشوكى (٧٤) .

١٢- فى الفصل الثالث والثمانين أمدنا الزهراوى بصور لبعض الآلات التى تستعمل فى الحقن ، ونصح بأن تكون مصنوعة من فضة أو صينى أو نحاس مفروغ أو مضروب ، وفرق بين حقن الكبار وحقن الصغار (٧٥) .

بقوله « وقد تصنع من هذه الآلات صغاراً وكباراً على حسب المستعملين لها فيكون التي تستعمل في علاج الصبيان الصغار صغار والذين مقعدهم ضيقه أو متوجعة يكون محاقنهم لطاف جداً » (٧٦) .

١٣- فى الفصل الرابع والثمانين يتحدث الزهراوى عن الجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف أو السكين أو بطعنه رمح أو سهم أو نتيجة لصكه حجر ، وقد وضع الزهراوى لهذا الفصل عنواناً مختصراً هو علاج الجراحات (٧٧) . وتناول فيه بالتفصيل كيفية علاج جروح الرأس والصدر وما بين الكتفين . وفى علاج الرأس مثلاً فرّق بين الجروح البسيطة بالرأس التى تعالج بوضع قطنه مغموسة فى دهن الورد على مكان الجرح . أما إذا كان الجرح كبيراً من قطع سيف أو نحوه ولم يجتمع شفتاه بالرفائد بأجمعها بالخياطة (٧٨) .

١٤- يتناول الزهراوى فى الفصل السادس والثمانين علاج الزكام والناصور (٧٩)، وأهم ما فى هذا الفصل صور الآلات التى كان يستعملها فى إزالة العظام المريضة مثل المناشير بأحجامها المختلفة ما بين كبيرة وصغيرة ، وكذلك المجارد بأشكالها المتباينة من مجارد مستقيمة ومجوفة ومعطوفة الطرف (٨٠) .

١٥- فى الفصلين التسعون والواحد والتسعون زودنا الزهراوى بصور واضحة عن كيفية قطع الدوالى وعلاجها . حيث عرف فى الفصل التسعين الدوالى على أنها « عروق ملتوية غلاظ ، مملوءة فضولاً سوداوية تحدث فى أكثر أعضاء الجسم ، وأكثر حدوثها فى الساقين ولا سيما سوق الشيوخ والاكارين والجمالين » (٨١) . ثم يصف بعد ذلك عملية سل العروق التى تبدأ بحلق شعر المريض إذا كان فيه شعر ، ثم توضع فى حمام ساخن حتى يسخن العضو ويشق الجلد قبالة العرق بالطول ويشد الجلد بالصنابير ويسلخ العرق من كل جهة حتى يظهر للحس ، ثم يدخل تحته مروداً حتى إذا أرتفع وخرج من

الجلد علق بصناره عمياء ملساء (٨٢) . ويختم هذا الوصف المطول لعملية سل العروق بقوله « فإذا سللته كله تضع على مواضع الجراحات صوفاً مغموساً في شراب ودهن ورد أو زيت » (٨٣) .

أما الباب الثالث والأخير من مقالة الزهراوى فقد أفرد له لجير الكسور والفك الحادثين فى العظام ويبدأ هذا الباب بمقدمه يشير فيها إلى أن فن جبر الكسور كان من الفنون المعروفة فى بلده ، وأنه اعتمد فى ممارسته لهذا الفن على إطلاعه الواسع فى كتب الأوائل وحرص على فهمها ، ويشير إلى أن ما ذكره فى هذا الباب هو نتاج خبرته وتجربته الخاصة .

وينقسم هذا الباب إلى خمس وثلاثين فصلاً . تناول فى جملتها وصفاً تفصلياً لكل أنواع الكسور وأعراضها وطرق علاجها وأساليب لف الكسور حسب حجم الكسر صغيراً أو كبيراً ، وطريقة وضع العضو المكسور داخل اللفائف وصور لتلك اللفائف (٨٤) .

ونظراً لأن فصول هذا الباب كلها تناول موضوع واحد وهو الكسور التى تصيب مختلف أعضاء الجسم مثل كسور الضلوع والظهر والذراع والفك والساقين وعظام القدم (الرجل) والأصابع (٨٥) . لذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأنه من خلال إطلاعنا على تلك الفصول نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان بأنها لا تختلف عن فصول الباين السابقين من حيث وضوح التفكير وسلامة ودقة التعبير مما يعطينا فكره عن مدى إحاطة الزهراوى بهذا الفرع من فروع الطب ، ومدى ما وصلت إليه الكتابة العلمية فى بلاد الأندلس التى كانت بمثابة الأسس القوية التى قامت عليها أصول الطب الحديث فى كثير من الأفكار والأصول التى قدمها الزهراوى للطب الجراحى ما زالت متبعة ومعترف بها حتى الآن ، ويكفى دليلاً

على ذلك أن كثيراً من الآلات الجراحية التي استخدمها الزهراوى وزودنا بمجموعة رائعة منها لحسن الحظ ما زال منها ما يستعمل حتى الآن رغم اختلاف الوسائل منذ تلك القرون الطويلة .

وآخر ما نسجله من ملاحظات على مقالة الزهراوى أن كل ما كتبه فيها أتسم بالأمانة العلمية المطلقة فنراه ينسب في كثير من المواضع كل معلومة إلى صاحبها .

٢ - جراحون آخرون من الأندلس :

بخلاف الزهراوى نبغ في علم الجراحة في الأندلس عدد من الجراحين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(أ) ابن ملوكه النصرانى :

كان في أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وقد أورد كل من ابن جليل ، وابن أبى أصيبعة ما يفيد بأنه كان يصنع بيده (أى جراحاً) وكان يفصد العروق ، ويبدو أنه كان يعالج الناس في داره حيث كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لجلوس الناس (٨٦) .

(ب) خالد بن يزيد :

كان معاصراً لقسطاس بن جريح المصرى الذى كان فى دولة الإخشيد (٣٢١هـ - ٣٣٤هـ) (٩٣٣م - ٩٤٥م) . وقد أورد ابن جليل فى ترجمته ما يفيد بأنه كان جراحاً (صانعاً بيده) . إلى جانب أنه أمتاز بخبرته فى الأدوية الشجارية (٨٧) .

(ج) يحيى بن إسحاق :

كان معاصراً للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعنه يقول ابن جليل (كان طبيباً نبيلاً عالماً حاذقاً بيده وكان فى صدر دولة الناصر وأستوزره وولى الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زماناً وكان له من أمير المؤمنين الناصر كبير محل ينزل منزله الثقة) (٨٨) .

(د) أبو موسى بن هارون الأشبوني :

كان معاصراً لكل من الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم وكان خادماً بيده (أى جراحاً) (١٩) .

ثالثاً : فن صناعة أدوات الجراحة الأندلسية :

لا شك أن صناعة أدوات الجراحة في الأندلس كانت من الصناعات القديمة المعروفة بها قبل العصر الإسلامي . بدليل وجود نماذج لها من العصرين الروماني والقوطي في متحف مدريد الوطني . وقد واصلت صناعة أدوات الجراحة نشاطها في الأندلس في العصر الإسلامي حيث وصلنا منها أحد عشر آلة أو نموذج مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر . وتكشف لنا تلك النماذج مدى التنوع في أساليب تشكيلها الأمر الذي يوضح تباين استخداماتها حيث تراوحت أشكالها ما بين آلات في شكل ملاعق أو شكل صنابير أو مباضع أو ابر أو مثاقب ويمكن تقسيم آلات الجراحة الأندلسية التي وصلت إلينا بحسب مكان العثور عليها إلى مجموعتين .

١ - مجموعة متحف قرطبة الأثرى :

يمثل هذه المجموعة تسع آلات تمتاز بتنوع أشكالها بحيث يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط أو طرز فنية في صناعتها وهي :

(أ) الطراز الأول : (آلات في شكل ملاعق) لوحة (٢) أ ، ب ، ج ، لوحة ٣ - أ :

يمتاز هذا الطراز من حيث الشكل بيدنه المكون من قضيب أسطوانى المقطع مدبب من أسفل على هيئة سن القلم . وينتهى من أعلى بحلقه دائرية ذات فراغ مقعر يشبه تجاويف الملاعق . وينصف بدن القضيب أو ساق الآلة مقبض يختلف في شكله من آلة إلى أخرى فأحياناً نجده في شكل مستطيل مقطوع الزوايا محزوز

فى أقسام مضلعة مدقوقة وأحياناً أخرى نجده عبارة عن خطوط دائرية محزوزة موزعة فى تراكب رأسى . كما يختلف طول المقبض باختلاف طول الساق أو بدن الآلة فكلما زاد طول القضيب زاد طول المقبض وتتفق جميع آلات هذا الطراز فى خلوها من آيه حليات زخرفيه حيث بدا سطحها الخارجى أملس مصقول باستثناء الجزء العلوى الواقع أسفل الرأس الملعقية حيث زوده الصانع بخطوط محزوزه أفقية موزعه فى تراكب مما أضفى شيئاً من الجمال النسبى على الآلة .

وهكذا تتوافق تشكيلات آلات هذا الطراز فى الصياغة والتنسيق مع وظيفتها العلمية فى كحت الأورام والخراجيج وفى جراحه بعض أمراض النساء والتوليد (٩٠) .

(ب) الطراز الثانى : (آلات فى شكل قضبان صناريه) (لوحة ٣ ب):

يمثل هذا الطراز آلة واحدة فقط . ويمتاز البدن فى هذا الطراز باستطالته ويتشكل من لوح عريض أصم ينتهى من أسفل بسن مدبب ومن أعلى تبدو فيه آثار كسر يتجه ناحية اليسار الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الآلة كانت مزوده برأس منكسرة يميناً أو يساراً فى شكل خطاف أو صناره . ويتخلل البدن مقبض مستطيل المقطع محزوز البدن يشبه مقابض آلات الطراز الأول وأن اختلف عنها فى إنه أكثر استطالة . ويخلو البدن من آيه زخارف .

أما عن استخدام هذه الآلة فمن المرجح بأنها كانت تستخدم فى جراحه الفم والأسنان لا سيما قطع اللحم الزائد فى اللثة . وفى سحب الأوعية والأعصاب والأوتار التى تصل العضل بالعظم أو فى ثقب القصبة الهوائية لتثبيت الغضروف الحلقى (٩١) .

(ج) الطراز الثالث : قضبان مثقايه (لوحة ٣ - ج) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة ورغم الاتفاق فى تشكيل هذه الآلة مع الآلة السابقة إلا أن بدنها وكذلك مقبضها أقل طولاً . كما أن طرفيها مديبان تديباً خفيفاً . وأغلب الظن أن هذه الآلة كانت تستخدم كمثقب أو ميرد لإزالة العظام المريضة (٩٢) .

(د) الطراز الرابع : آلات على شكل مبضع أو مشرط (لوحة ٤ أ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة تختلف شكلاً ونظاماً عن الآلات السابقة حيث يتشكل بدن الآلة من صفيحه عريضة ذات مقطع مستطيل أحد طرفيه منحنى فى شكل ربع دائرى . أما الطرف المقابل فعبارة عن مقبض غنى بتشكيله فى صورة جديدة قوامها بدن أسطوانى ملفوف تجاوز فى اتساعه ساق الآلة بحيث يعكس المبالغة فى تغليظ مقابض آلات هذا الطراز مع العناية بتقسيم بدن المقبض إلى ثلاث حشوات مستطيلة بواسطة خطوط أفقية محفورة على مستويين مما ساعد على بروز تلك الحشوات بشكل واضح . وأغلب الظن أن هذا النوع من آلات الجراحة كان يستخدم كمبضع أو مشرط لشق الأورام أو شق الجلد فوق الشرايين (٩٣) .

(هـ) الطراز الخامس : آلات على شكل عتله (لوحة ٤ ب) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مستطيلة المقطع تنتهى من أعلى برأس مستديرة مثقوبة الوسط حافتها الخارجية تفتقر إلى التشذيب ويستوقف النظر فى هذا الطراز من الآلات ما يلى :

١ - أن ساق الآلة يخلو من المقابض المركزية المستطيلة المقطع التى اقترن ظهورها بتمثل هذه الهيئة فى معظم الآلات السابقة حيث استعاض عنها الصانع هنا بحلقه دائرية مثقوبة الوسط فى أحد طرفى ساق الآلة .

٢ - شدة المبالغة فى استطالة ساق الآلة بحيث يصل طوله إلى ذارعين وعرضه أربع أصابع ويستدل من هيئة هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن عتله تستخدم فى استبدال وفرد العظام المكسورة (٩٤) .

(و) الطراز السادس : آلات مسمارية الشكل (لوحة ٤ ج) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مصنوعة من سلك صلب يصعب طيه أو ثنيه مما يتيح المتانة والثبات عند استخدامه ينتهى من أسفل بسن مستدق شديد التدبيب ومن أعلى بمقبض عبارة عن رأس مستديرة مصممة مخروطية المقطع . ويستدل من شكل هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن آلة لثقب العظم (٩٥) .

٢ - مجموعة متحف مدريد الوطنى (لوحة ٥ - ٦) :

عثر على هذه المجموعة من الآلات الجراحية فى أماكن متفرقة من أسبانيا . وللأسف أن معظمها قد وصل إلينا فى حالة سيئة من الحفظ باستثناء آلتين يعدان من بين أهم نماذج هذه المجموعة . وهما عبارة عن آلات مسمارية الشكل تستخدم كمجسات أو مسابر للكشف عن النواصير كما تصلح لتفتيش الأورام والجراحات .
وجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه واضح فى الشكل بين هاتين الآلتين إلا أن هناك اختلاف فى التفاصيل يتمثل فى أن مقبض الآلة الأولى لا يتوسط ساقها ويمتاز بتكوينه المقعر حيث يتألف من عشر حشوات مستطيلة ملساء يفصل بينها خطوط محفورة حفرًا عميقًا .

أما الآلة الثانية فالمقبض يتوسط الساق تقريبًا كما أنه أقل استطالة من السابق إذ يتألف من ثلاث حشوات فقط الأولى والثالثة فى شكل معين أما الثانية المركزية فتأخذ شكل مثنى الأضلاع . ويدور بالحشوات الثلاثة من أعلى وأسفل خطين أفقيين .

رابعاً : أساليب صناعة وتشكيل آلات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها :

لم تختلف أساليب صناعة وتشكيل أدوات الجراحة عبر العصور المختلفة وإن اختلفت قدرتها على الأداء نتيجة لبعض التطورات التى تتفق مع سته التطور التى سارت عليها الحضارات المختلفة .

وفى ضوء ما وصلنا من آلات الجراحة الأندلسية يتضح أنها قد صنعت إما من البرونز أو النحاس ونظراً للارتباط الوثيق بين نوع المادة وأسلوب صناعته فىمكن حصر أساليب صناعة أدوات الجراحة الأندلسية فى أسلوبين رئيسيين هما :

(أ) أسلوب الصب بطريقة الشمع أو الرمل المفقود الذى يعد أنسب الطرق فى تهيئة معدن البرونز(٩٦) .

(ب) أسلوب الدق أو الطرق ويعد هذا الأسلوب من أنسب الطرق التى تصلح لمادة النحاس(٩٧) .

أما عن أساليب تشكيل أدوات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها يتضح أنه على الرغم من تنوع استخدامات تلك الأدوات إلا أنها فى مجملها تفتقر إلى التنوع فى أشكالها حيث اعتمدت فى تشكيلها على عنصرين رئيسيين هما الساق المطروقة أو المصبوبة والمقبض المحفور فى بدن الساق . ويتسم العنصر الأول وهو الساق فى العادة بشكله المستطيل أو شبه الدائرى أو السفودى المسمارى الشكل .

أما المقبض فقد تراوحت أشكاله ما بين حشوات مربعة أو مستطيلة أفقية موزعة فى تراكب رأسى(٩٨) أو حشوه واحدة مستطيلة تميزت باعتمادها على أسلوب واحد فى تشكيلها يقوم على تقسيمها إلى خطوط جزائية على شكل حرف V(٩٩) .

خامسًا : أساليب وعناصر زخرفة آلات الجراحة الأندلسية :

من أهم ما نسجله من ملاحظات على آلات الجراحة الأندلسية أنها تفتقر إلى الناحية الزخرفية بحيث يمثل ذلك اتجاه فنى سارت فيه زخارف أدوات الجراحة الأندلسية .

والواقع أن لهذا الاتجاه ما يبرره لأن هذه الأدوات تستخدم بكثرة فى العمليات الجراحية وعلى هذا فليس من المنطقى استخدام أية زخارف فى تزيين مثل هذه الأدوات لأنها سوف تتعرض للطمس والتلوث .

وهكذا يمكن القول بأن الصانع استبعد زينه أدوات الجراحة قسرًا لا طواعية بمعنى أن أشكال الزخرفة فى تلك الأدوات تتحكم فيها مقتضيات الوظيفة لا الصنعة الفنية بحيث اقتصر فى زخارفها على خطوط محزوزه ذات طابع هندسى تتألف فى مجموعها من أشرطة زخرفيه يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

(أ) النوع الأول : أشرطة تتكون من خطوط صغيرة مائلة ومتراكبة فى تدرج تقع أسفل رؤوس الآلات الملحقية (١٠٠) .

(ب) النوع الثانى : أشرطة مكونة من خطوط متداخلة ومتراصة بحيث يتولد من ترابطها شبكة من المعينات (١٠١) .

(ج) النوع الثالث : ظهرت فيه الخطوط أكثر وضوحًا وأكبر حجمًا وتنوعت حركاتها فأصبحت زجاجية متموجة تربطها من أسفل السنة أبدانها مشدودة وملساء على التناوب (١٠٢) على نحو يذكر بأشكال الصليبان المعقوفة (١٠٣) .

وقد تم تنفيذ كل هذه الزخارف بأنواعها المختلفة بأسلوب الحز على سطح المعدن بواسطة أداه نهايتها مدببة تعرف بالأزميل أو المثقب .



(أ)

(شكل - ١)

مكواة دائرية تستخدم في كي الرطوبة التي قد تصيب المعدة

(عن الزهراوى)

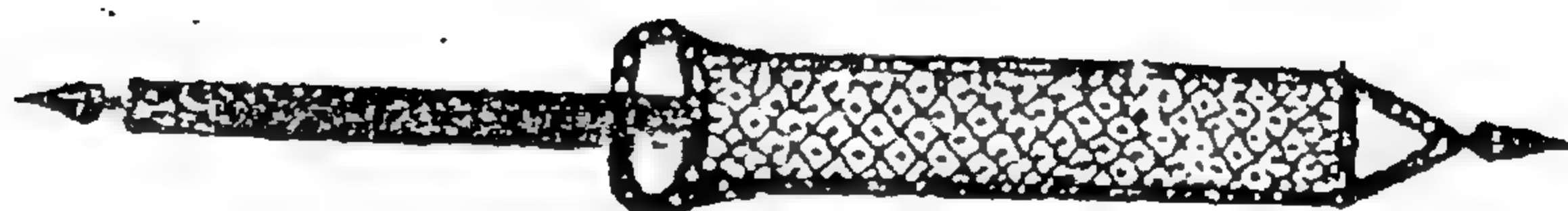


(شكل - أ - ب)

مكواة مسمارية (عن الزهراوى)



(شكل - ٢)



(شكل - ٣)

أشكال من المكاوي الخاصة بالكبد

(عن الزهراوى)



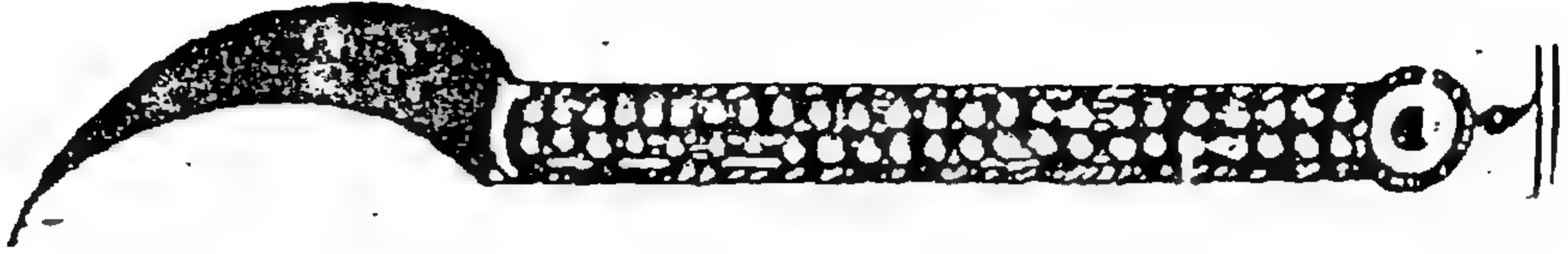
(شكل - ٤)



(شكل - ٥)

مكواة ذات سفودين وأخرى ذات ثلاث سفايد خاصة بكى الطحال

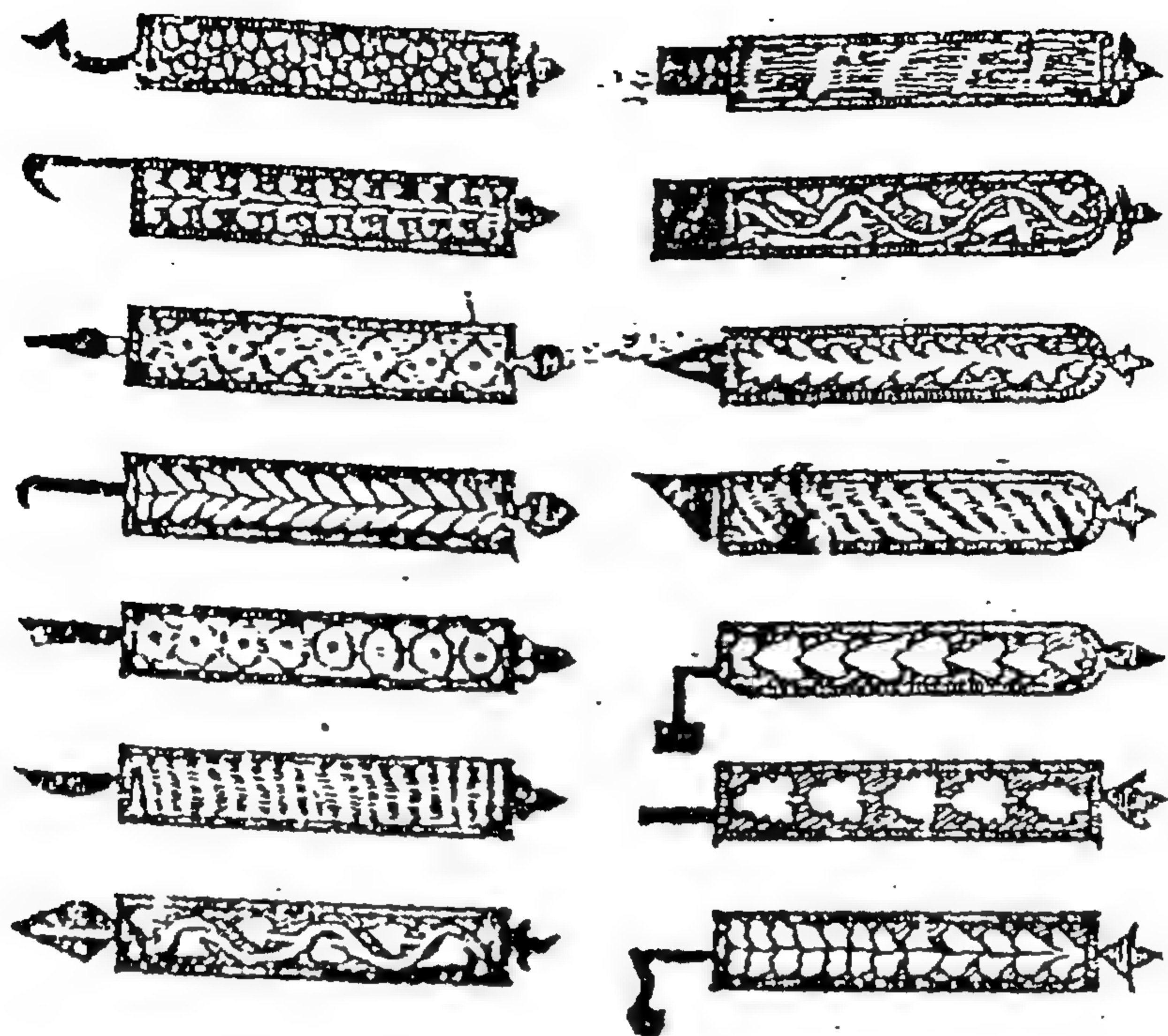
(عن الزهراوى)



(شكل - ٦)

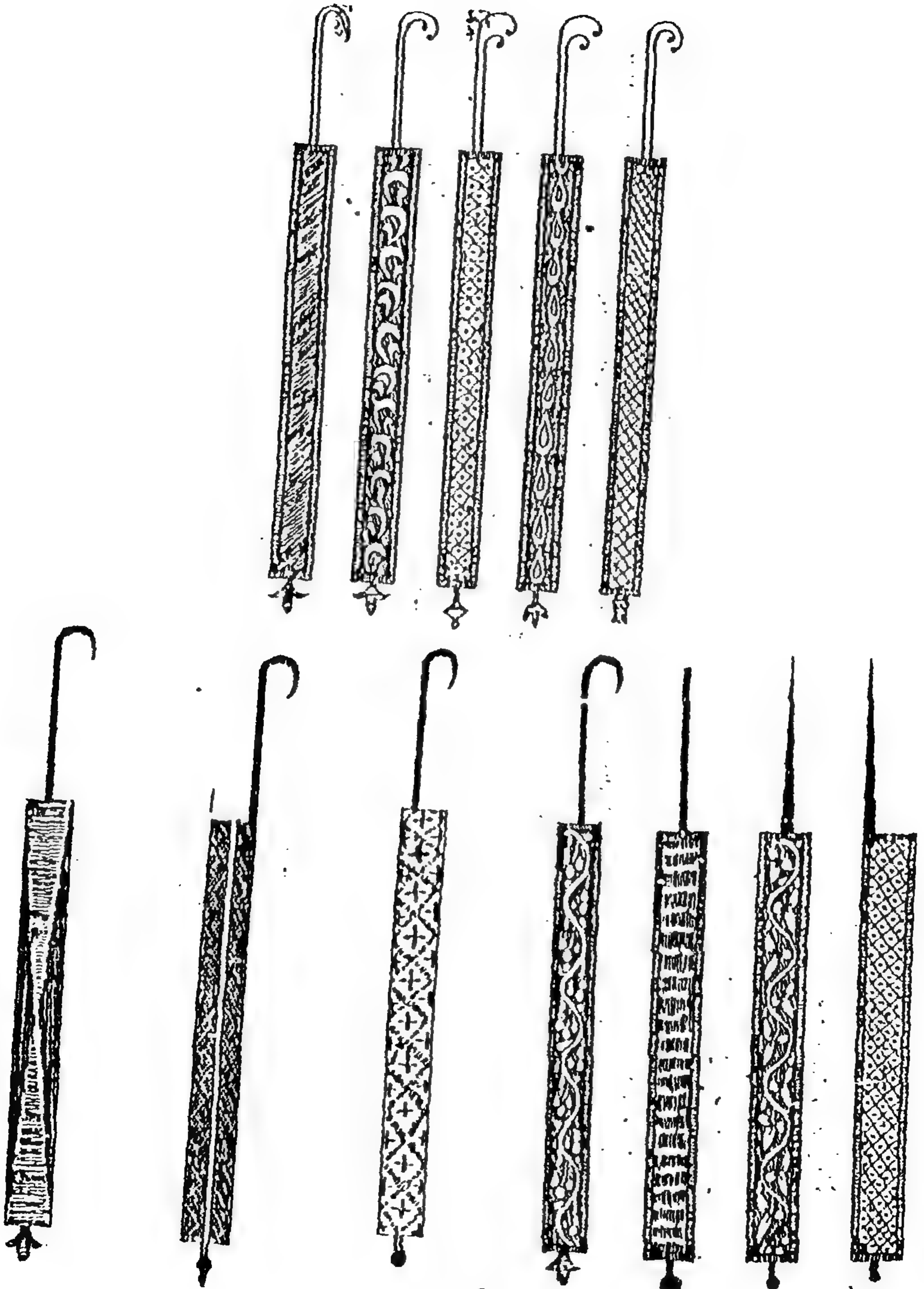
مكواة زيتونية لكى النقرس وأوجاع المفاصل

(عن الزهراوى)



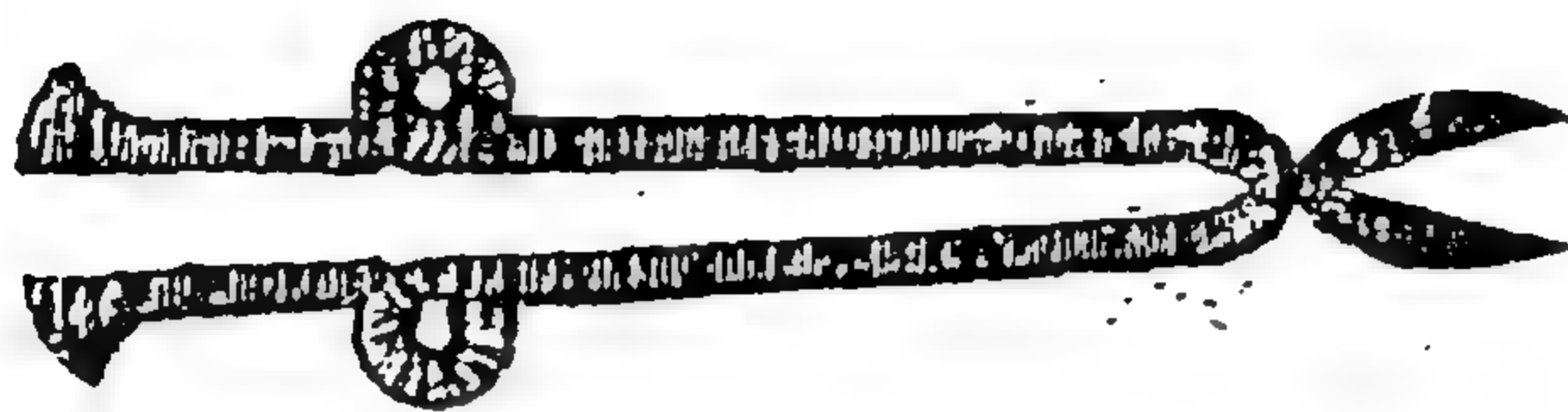
(شکل - ٧)

مجارى للأسنان والضروس (عن الزهراوى)

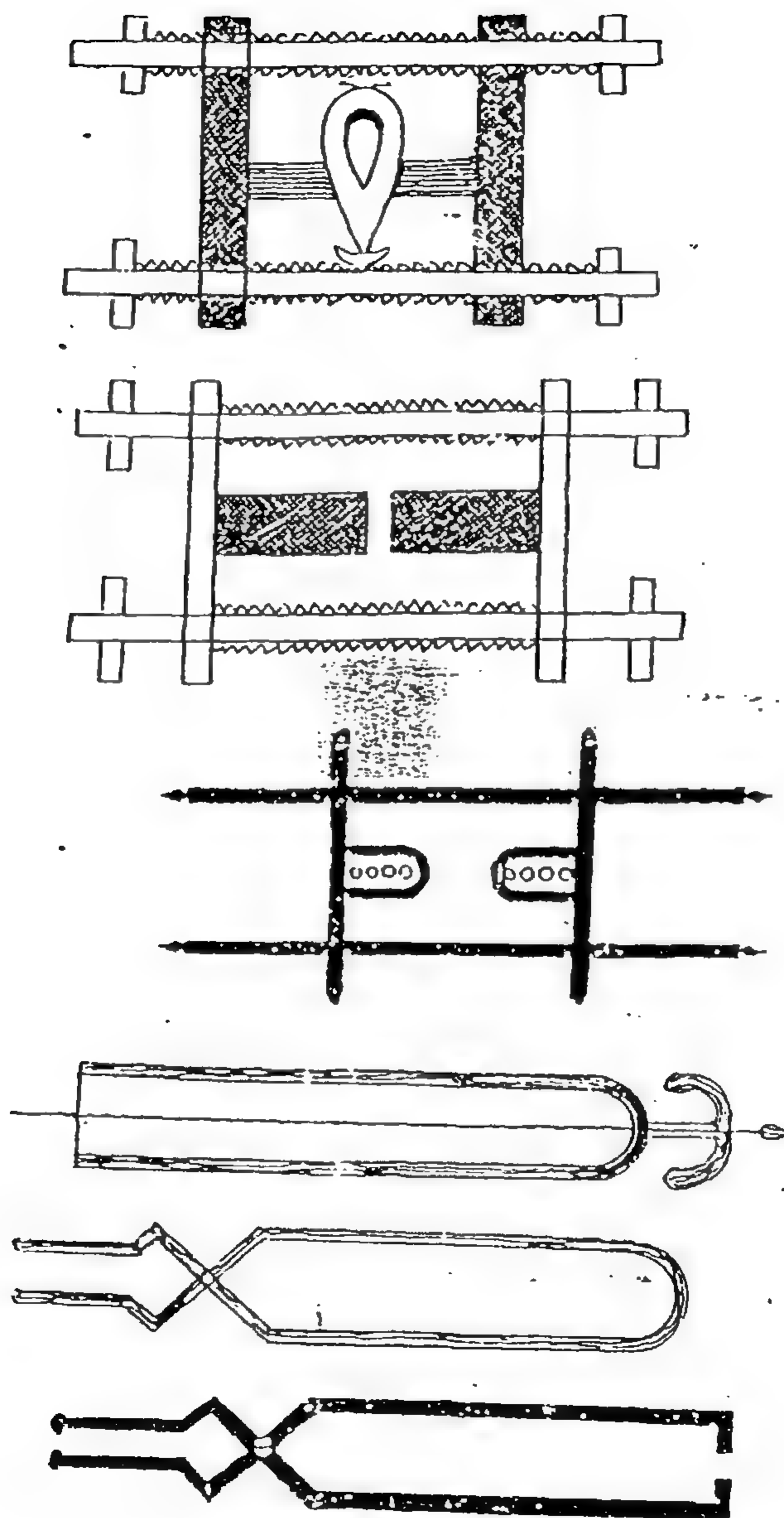


(شكل - ٨)

مجموعة من آلات الجراحة الصنارية الشكل التي تستخدم في الشق، والبط

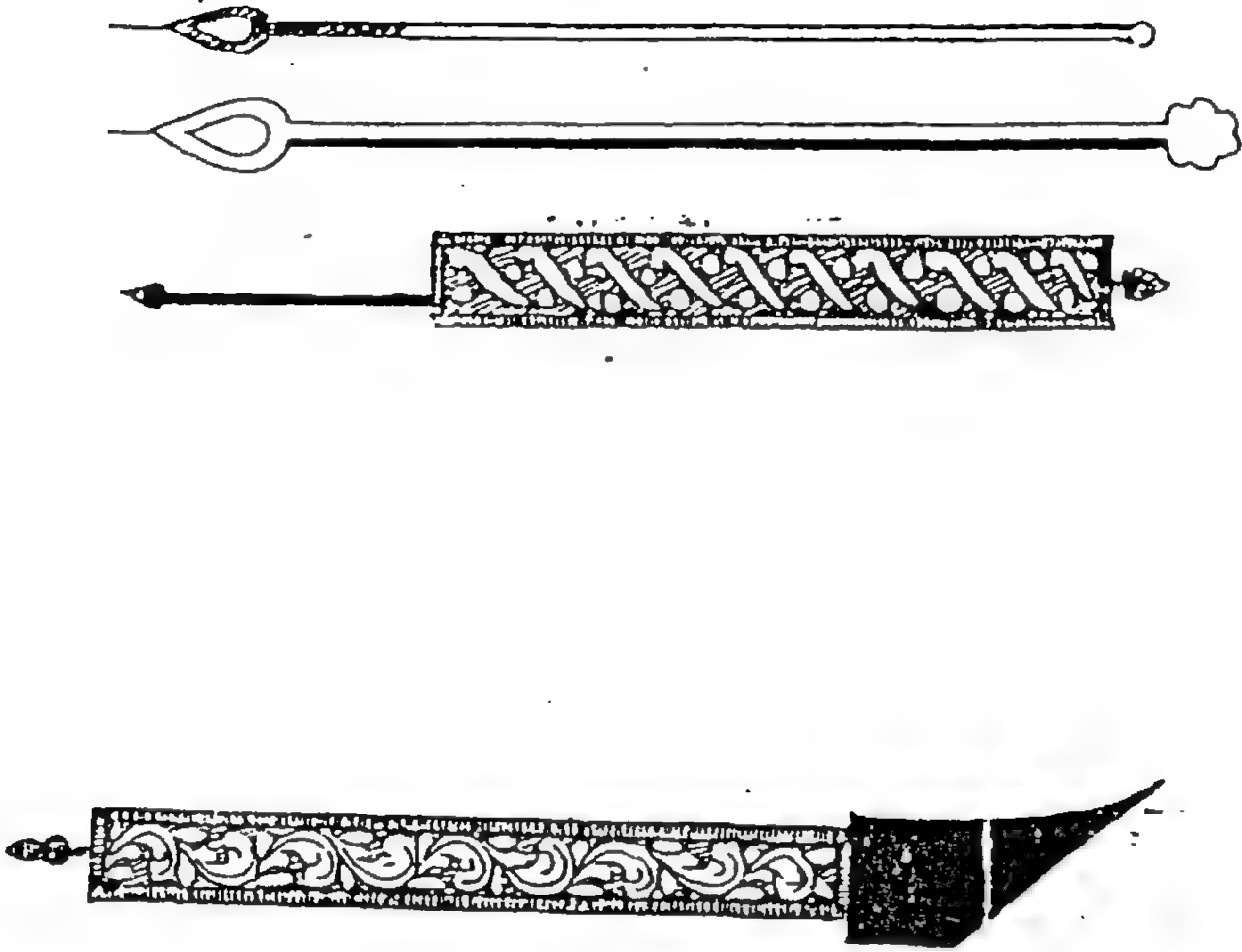


(شکل - ٩) مقص خاص بختان الذکور (عن الزهراوی)



(شکل - ١٠)

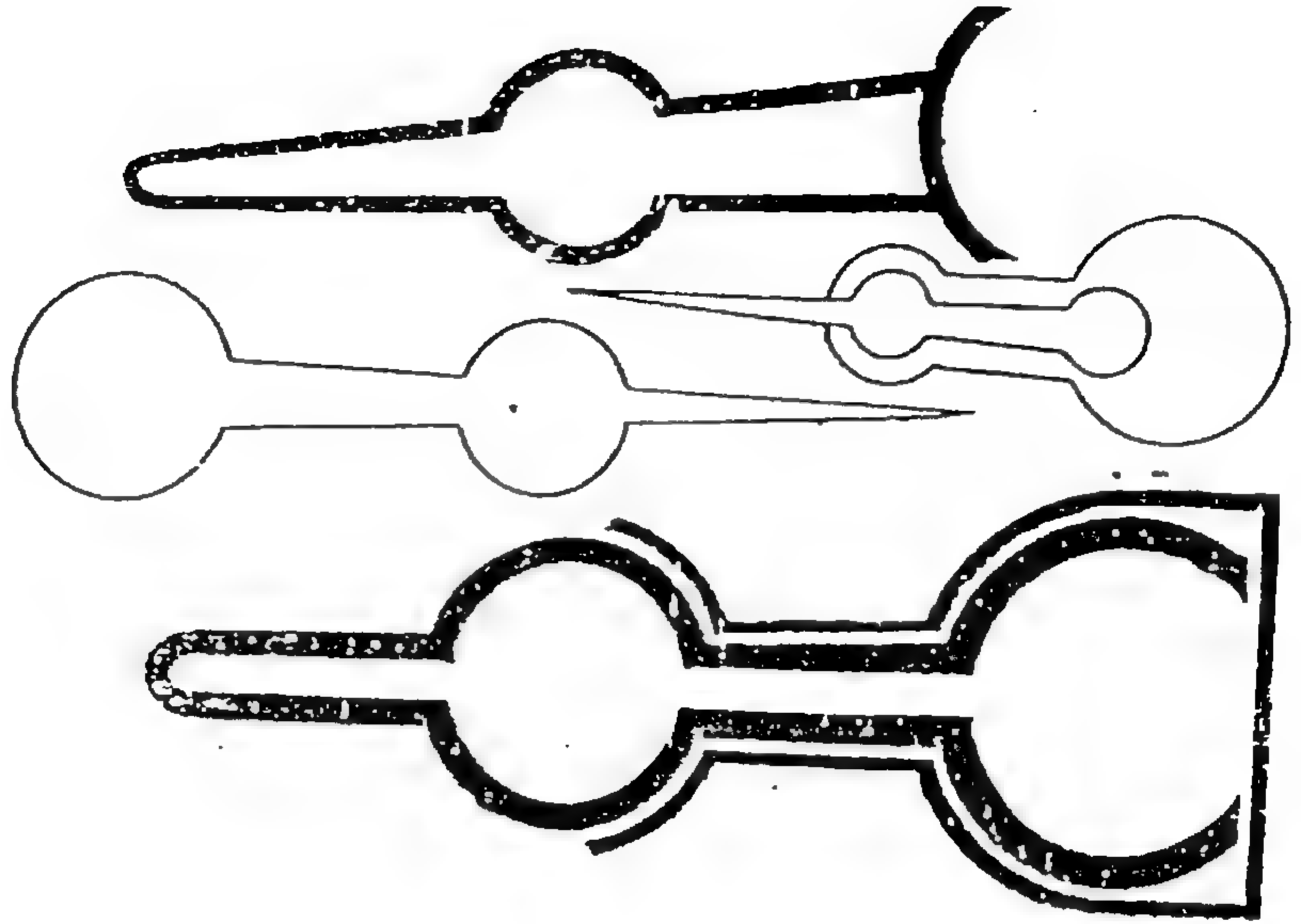
(شکل - ١٠) صور لآلات التوليد وإخراج الجنين (عن الزهراوى)



(شكل ١١)

صور للإبر والمباضع التي تستخدم في علاج النواصير

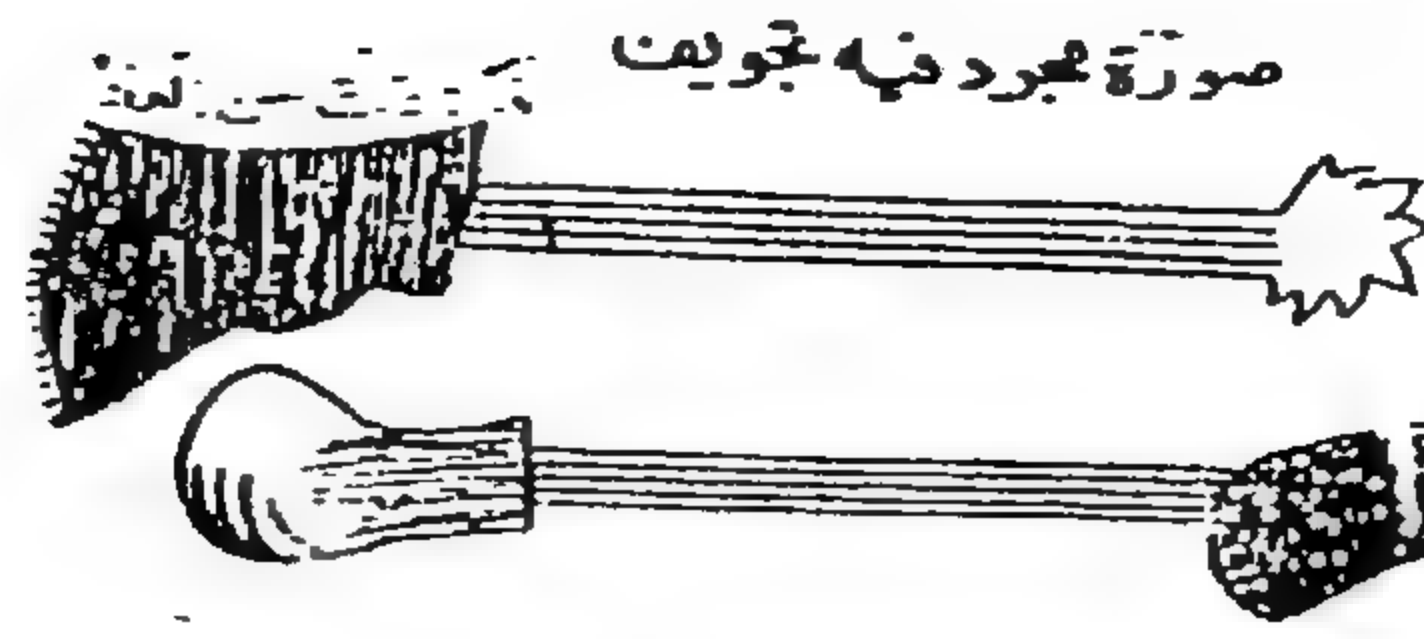
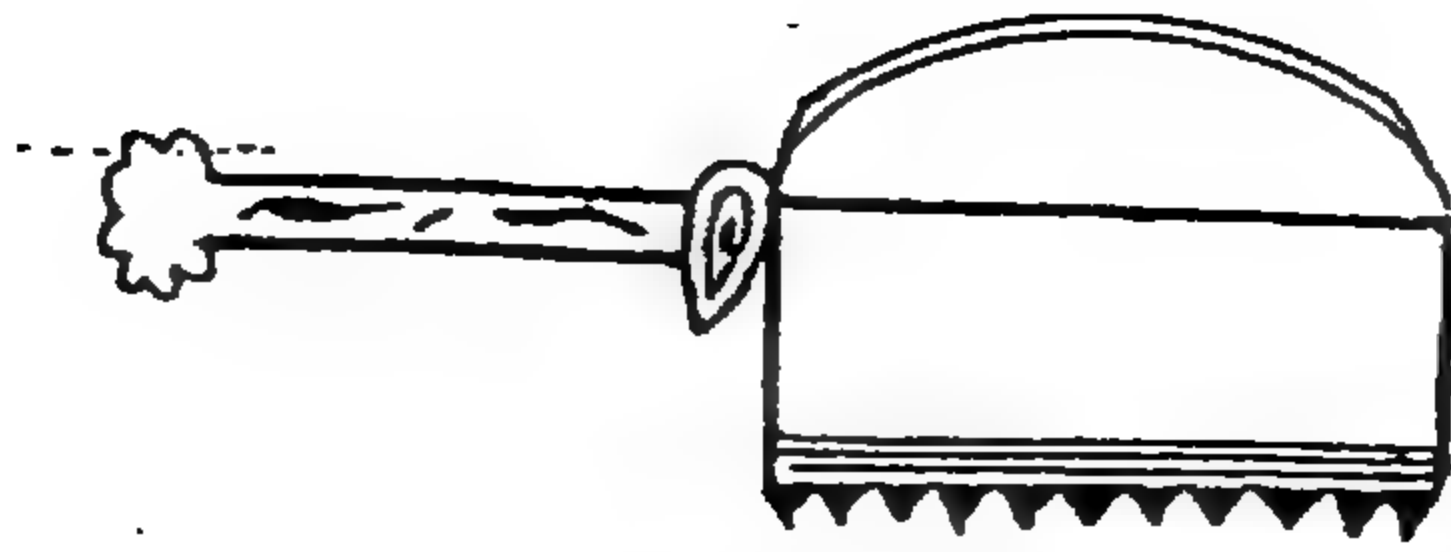
(عن الزهراوى)



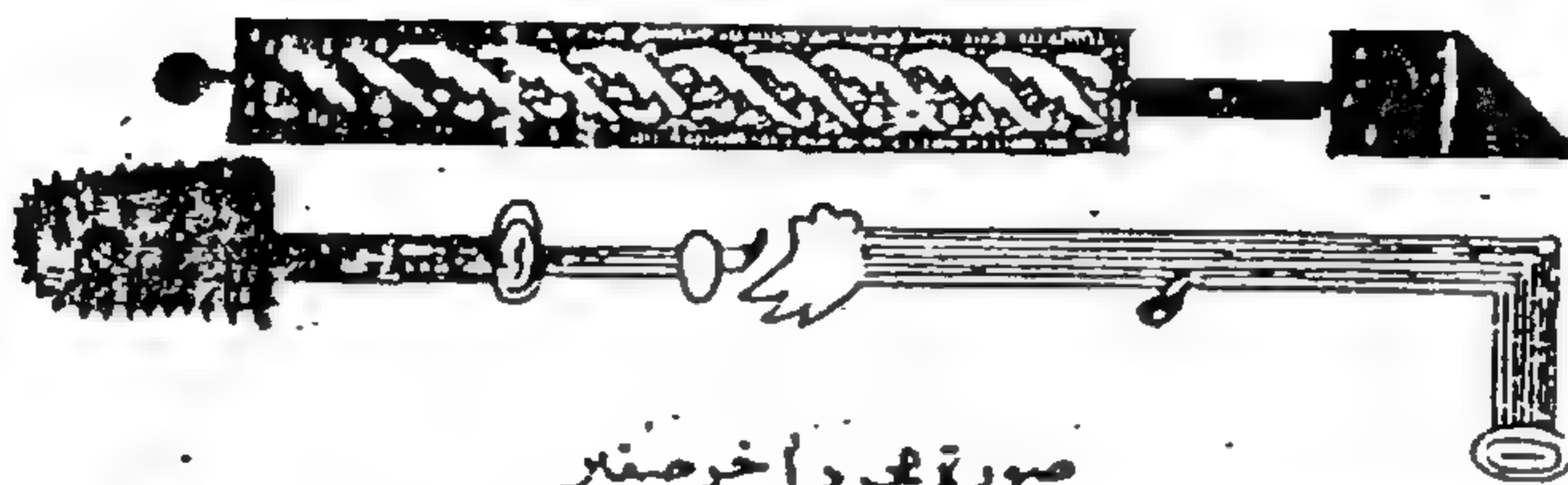
(شكل - ١٢)

صور مختلفة التي يستعملها الكبار والصغار

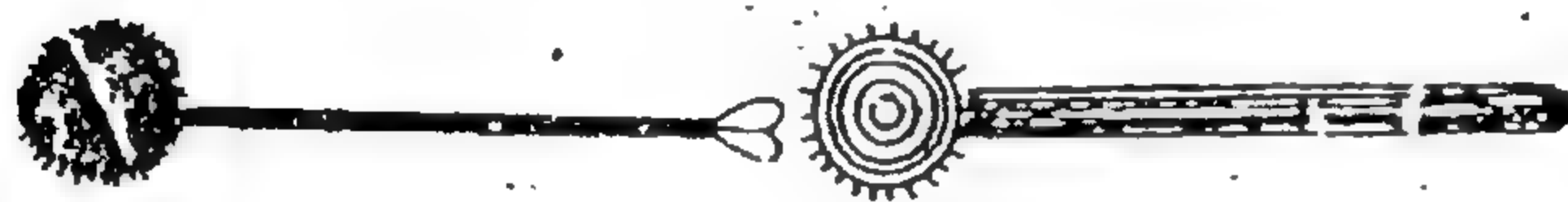
(عن الزهراوى)



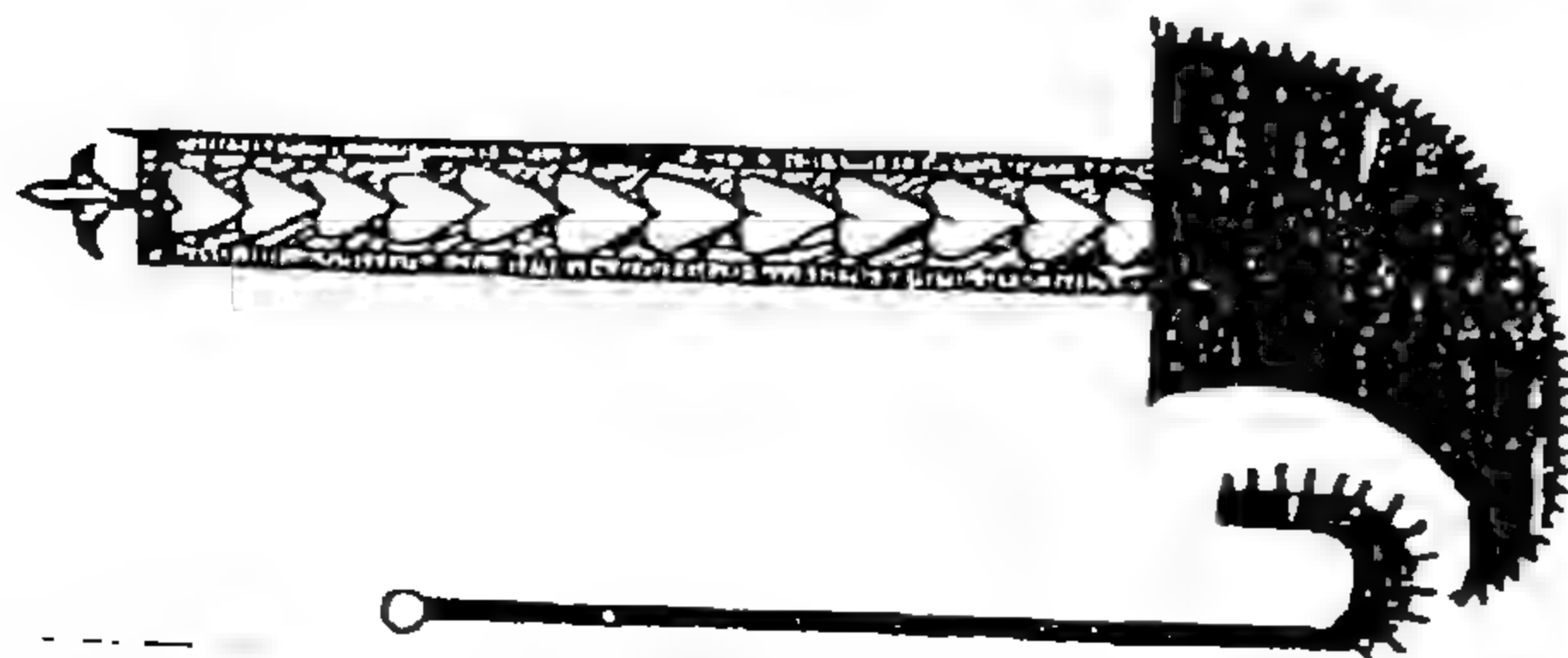
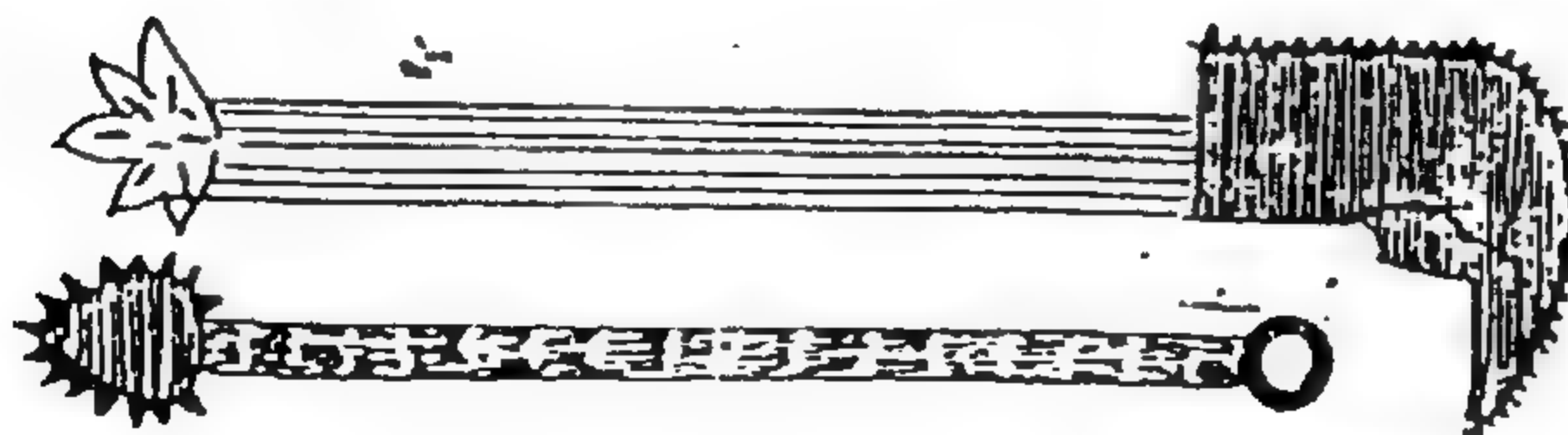
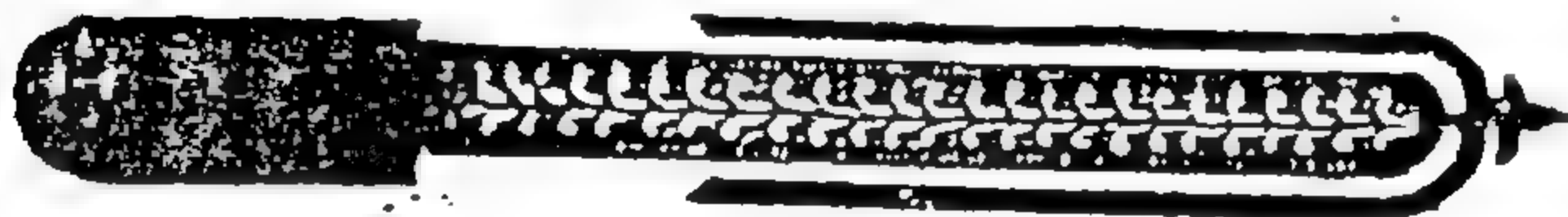
صورة مجرد معطون الطرف

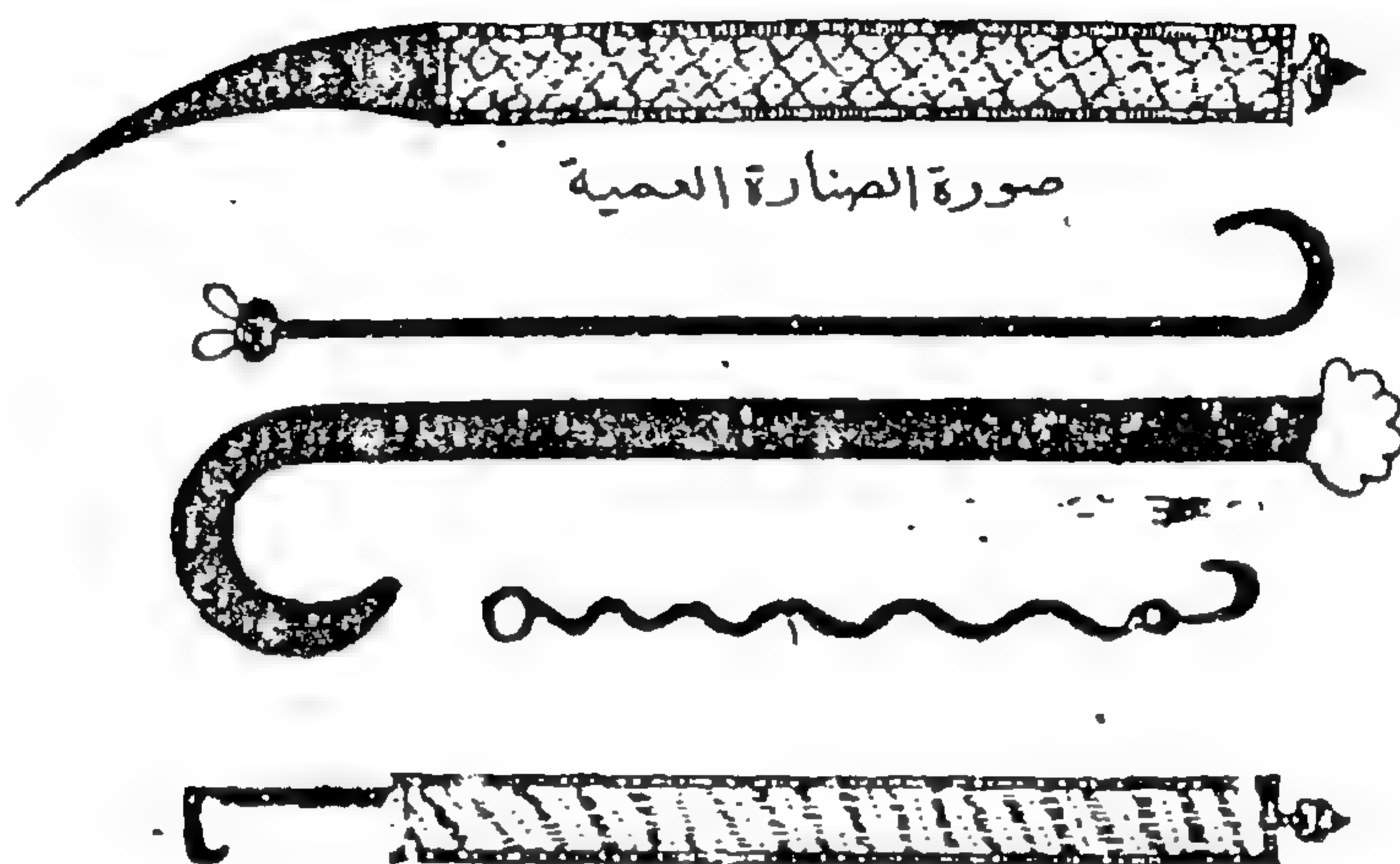


صورة مجرد آخر صغير



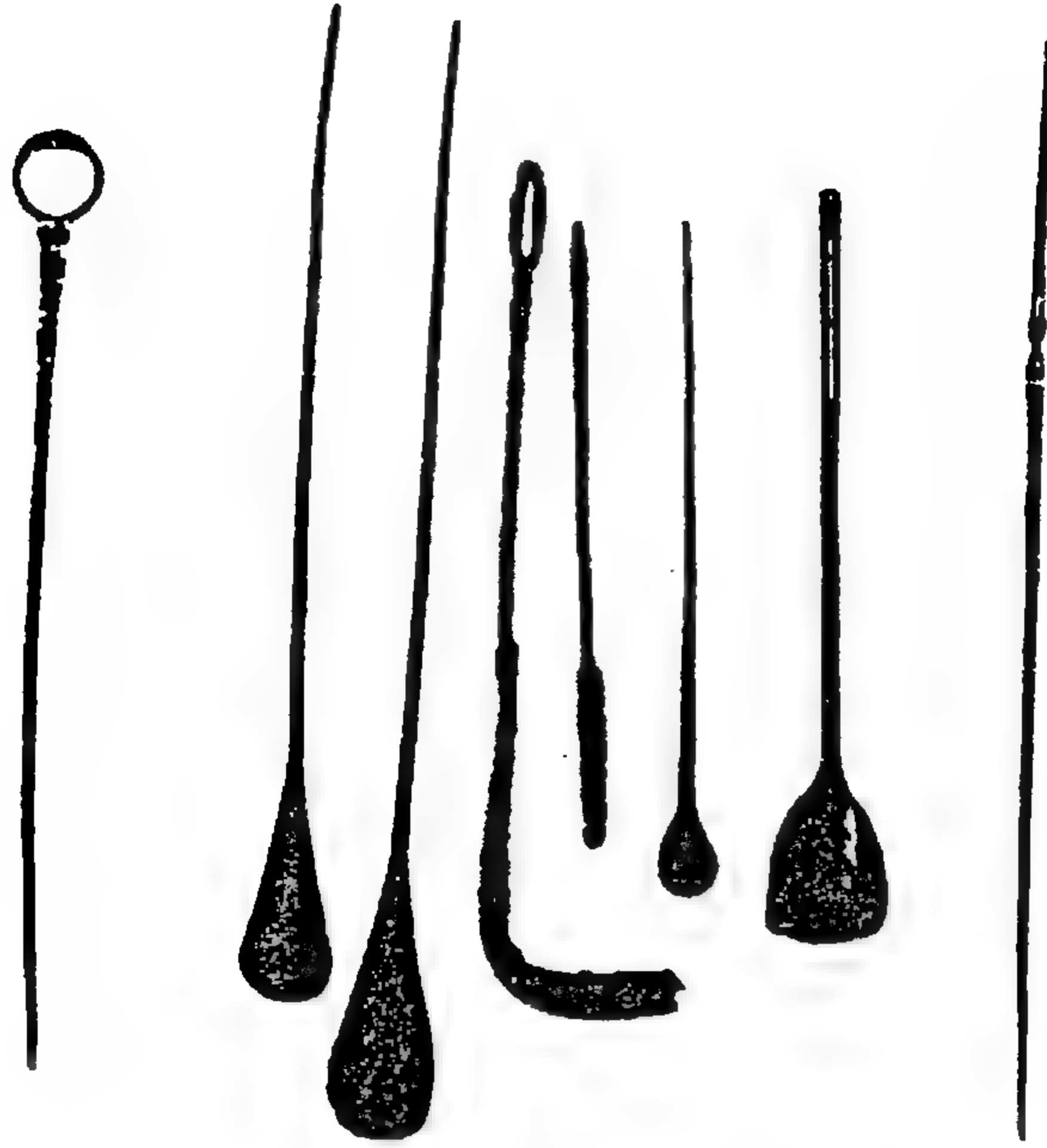
صورة مجرد آخر





(شكل - ١٤)

(عن الزهراوى)



(شكل - ١٥)

مجموعة من الملاعق المكثية من العصرين اليوناني والروماني
محفوظة بتحف كلية الآثار بالقاهرة (عن د. عنايات محمد)

Carneilius, S. Medizin der Pharaonen أدوات جراحة بعبد كوم أمو (لوحة - ١)

القسم الأول بعضم : ١ - قسطرة مائة . ٢ - تميمة . ٣ - مشرط .

٦ - ملعقة مكحتية ٧ ، ٩ - مناقب نارية ٤ ، ٥ أبر طية

٨ - منشار لنشر العظام ١٢ ، ١٣ - قرون حيوانية .

القسم الثاني : ١ ، ٢ - ثلاث صنابير ٤ ، ٦ - ثلاث ملاعق مكحتية

٧ - حافظة كناية ٨ ، ٩ - ماسكات فوط (حفت)

١٠ - شعلة ١١ - أناء

١٢ - منجرة ١٣ ، ١٤ - أناء وسكين .

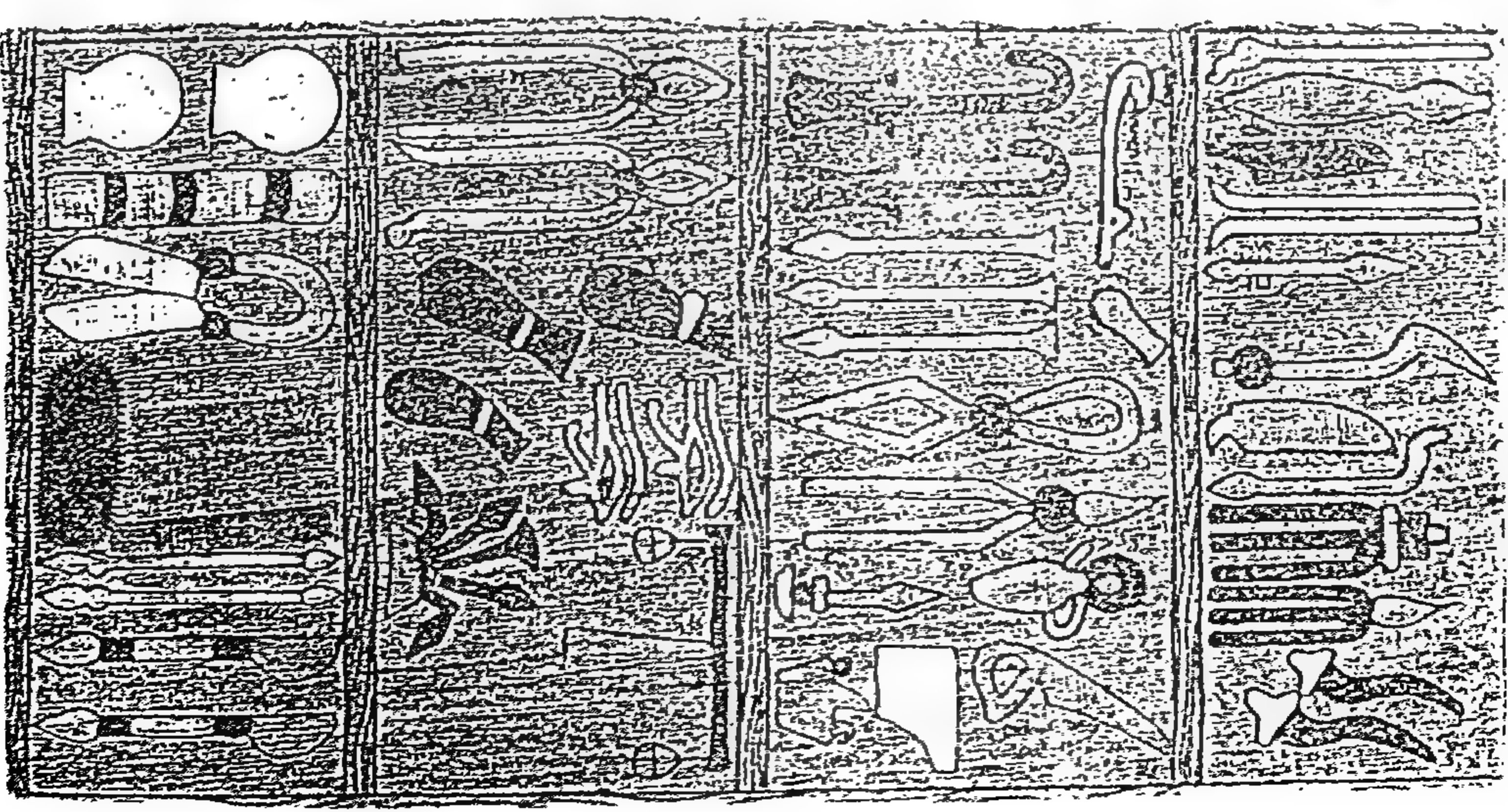
القسم الثالث : ١ ، ٢ - كلايتان ٣ ، ٤ - حافظتان

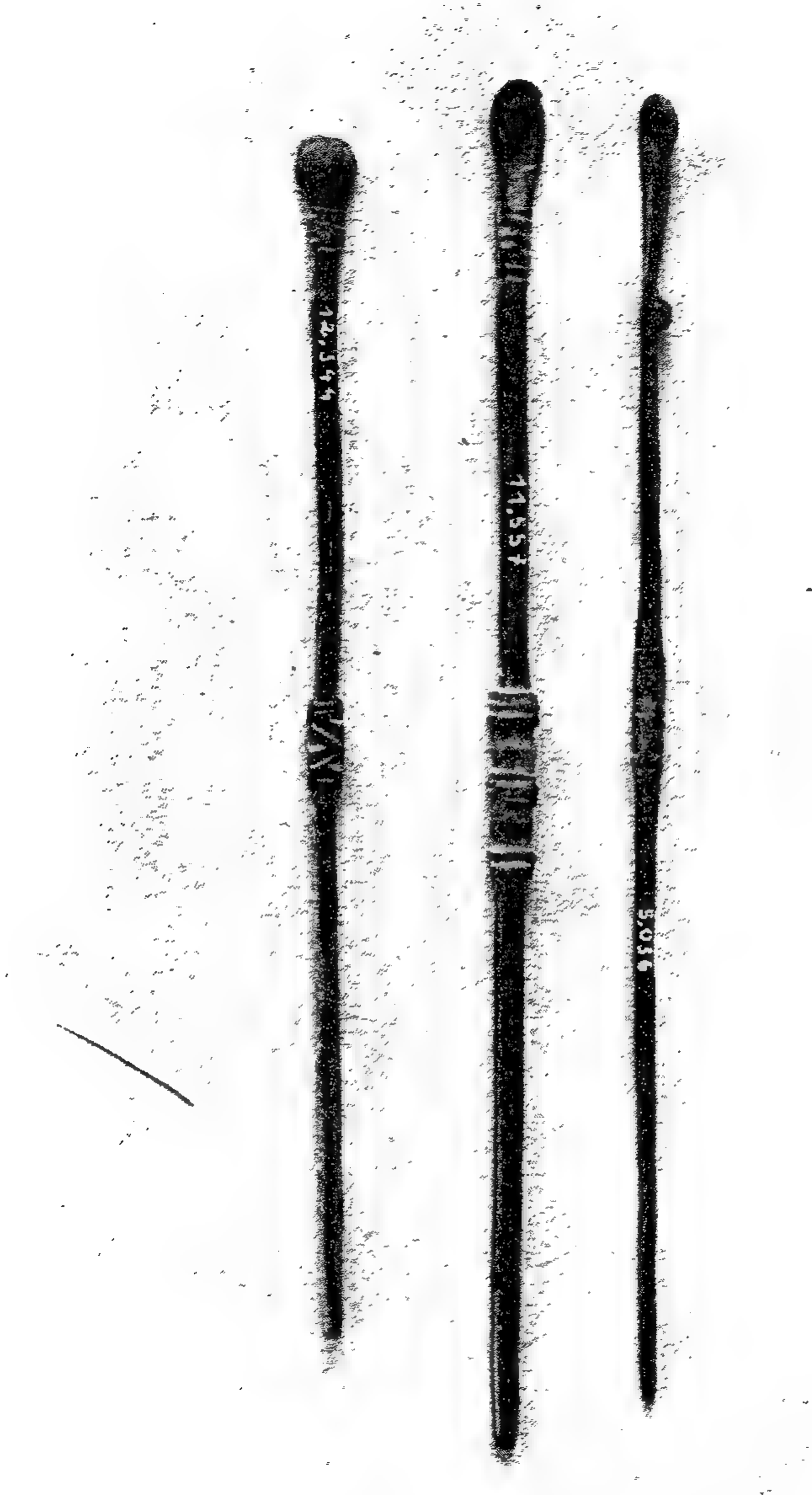
٥ ، ٦ - تميتان ٧ - ميزان ٨ - علامة

القسم الرابع : ١ ، ٢ - أناتين ٣ - لفافة ٦ ، ٧ - ملاعق

٤ - حفت ٥ - أسفنجة ٨ ، ٩ - قنطريون

(شرح د. عنايات محمد)



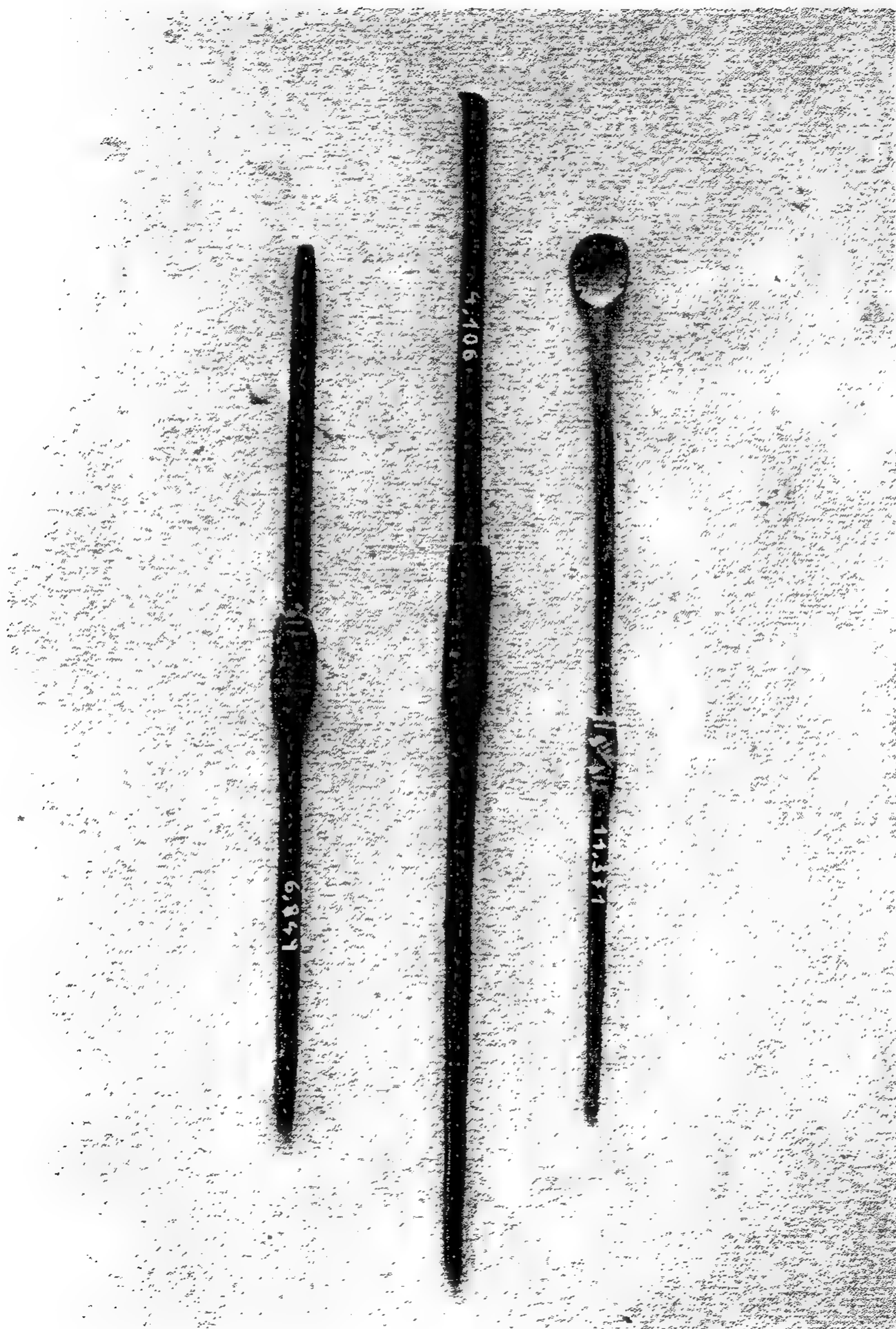


أ ب ج

(لوحة - ٢)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

(نشر الباحثة)

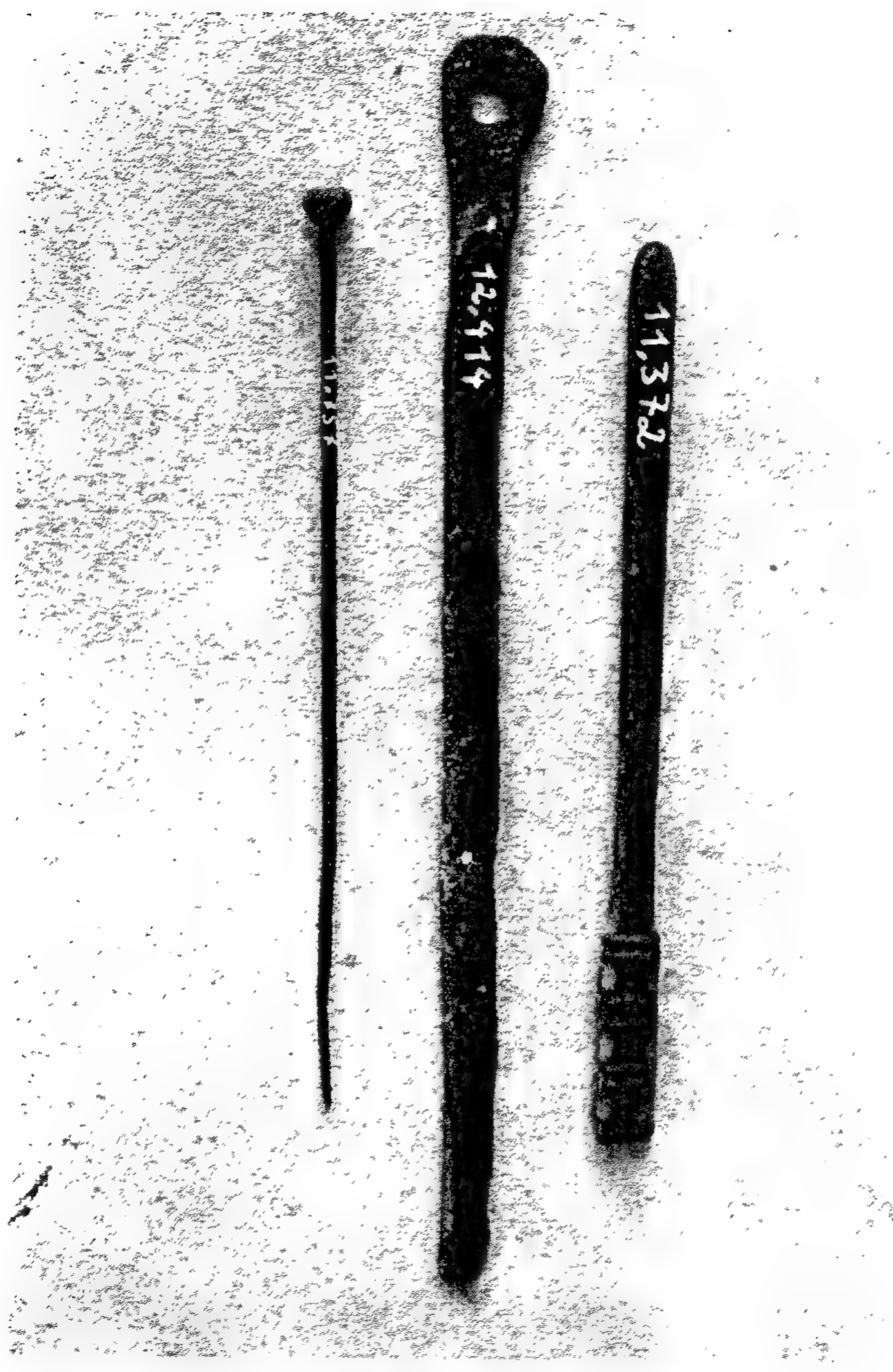


ا . ب . ج

(لوحة - ٣)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

(نشر الباحثة)

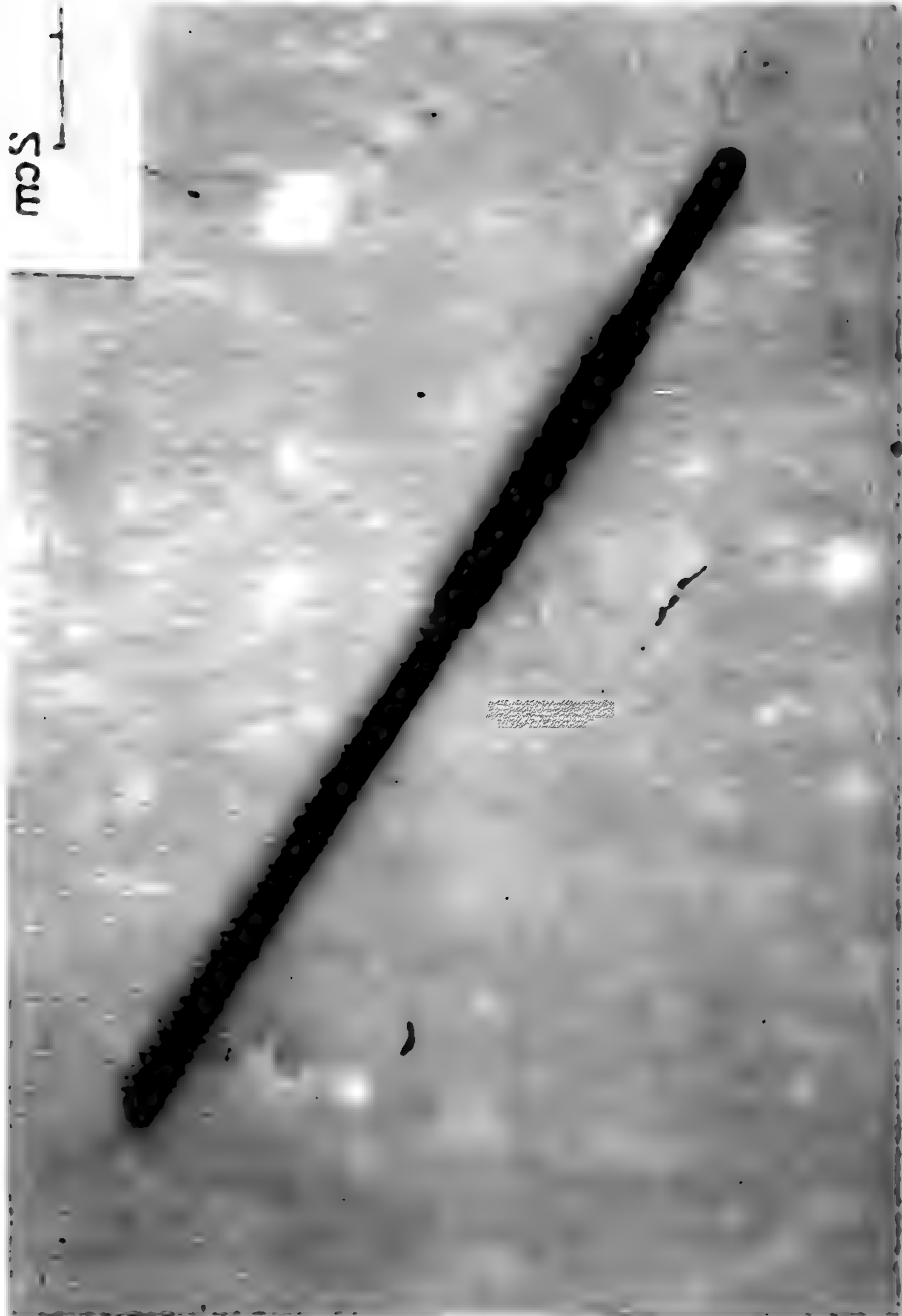


ا ب ج

(لوحة - ٤)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

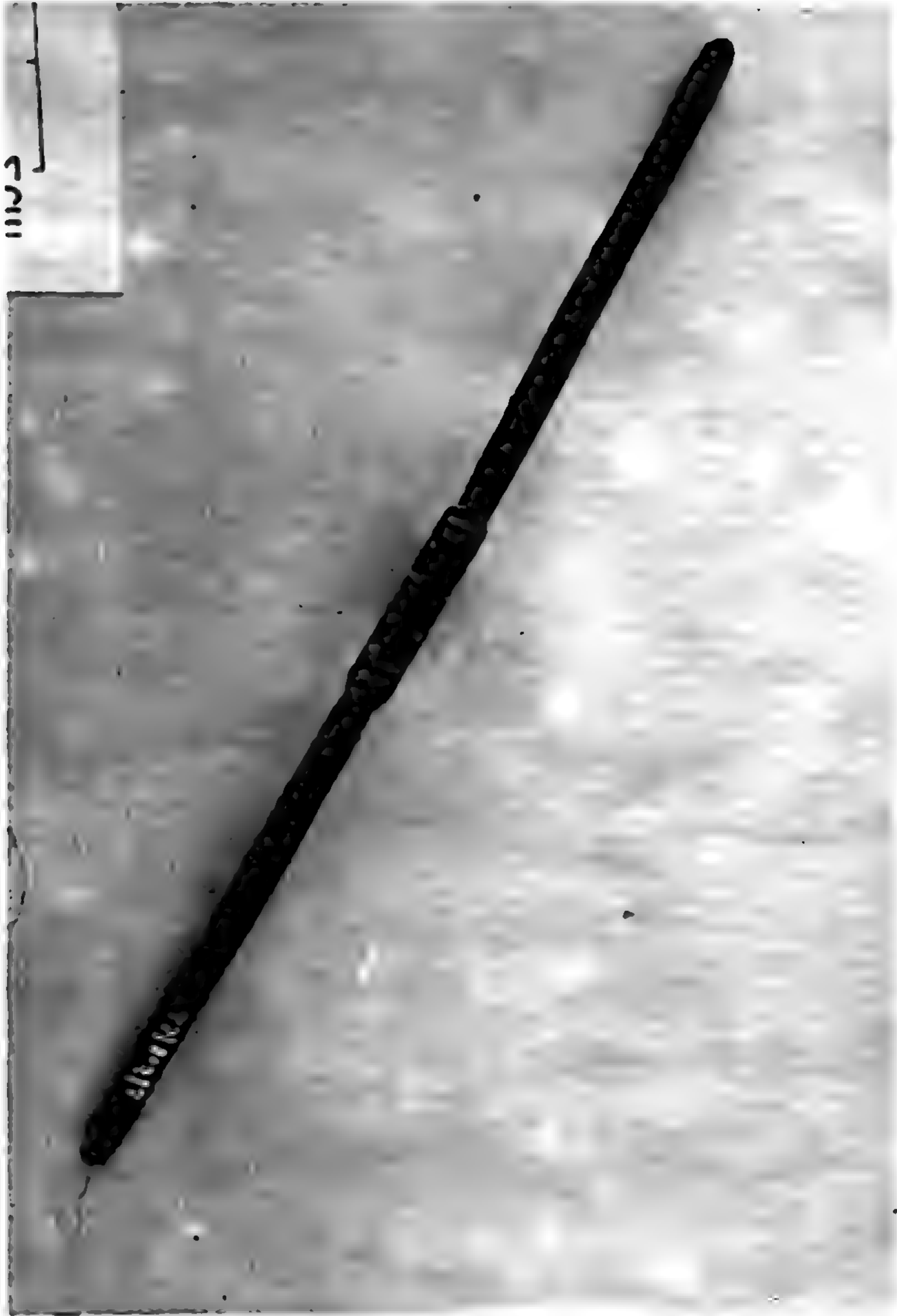
(نشر الباحثة)



(لوحة - ٥)

آلة جراحية محفوظة في متحف ملر يد الوطني

(نشر الباحثة)



(لوحة - ٦)

آلة جراحية في متحف ملريد الوطنى

. (نشر الباحثة)

الهوامش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت .
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ص ٤١٥ .

راجع : المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة - ١٩٨٥ - الجزء الثاني - ص ٥٦٩ . ومن يقوم بحرفة الطب أو الطبابة يعرف باسم الطبيب جمع أطبه وأطباء - راجع - نفس المعجم - ص ٥٦٩ .

(٢) كان العرب يبحثون عن العلاج لأمراضهم التي تصيبهم بما يتوافر لهم في بيئتهم من أعشاب ونباتات أو بطرق أخرى كالكي بالنار أو الحجامة ، وحينما جاء الرسول شجع على التداوى والبحث عن العلاج .

راجع: ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزي) زاد المعارف في هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ - ج ٣ - ص ٦٣ ، وكذلك راجع عبد العزيز بن إبراهيم العمري - الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول - مركز التراث الشعبي - الدوحة - ١٩٨٥ - ص ٢٤٢ .

(٣) أبقرط من مشاهير الطبقة الحكيمة الرومية اليونانية ومسكنه (قو) وهي مدينة حمص من أرض الشامات ، وهو الذي تكلم في الطب وألف فيه الأسفار والكتب ، وهو صاحب كتاب الفصول ، وكتاب تقدم المعرفة وكتاب أفيزيميا ، وكتاب الأمراض الحادة ، وكتاب الجبر والخلع ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الاخلاط ، وغيرها كتب كثيرة، ولعله قد توفي في عام ٣٥٧ ق.م. راجع

ابن جلجل (أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي) - طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد - نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ - ص ١٦ ترجمة رقم ٦ .

(٤) من أهل مدينة برغمش ببلاد آسيا شرقى القسطنطينية ، وهو سادس القياصره الذين ملكوا روما ، وبرع في الطب وجميع العلوم الرياضية ، وحدد من علم أبقرط وشرح من

كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه ، وهو مفتاح الطب وله فيه ستة عشر (١٦) ديواناً منها كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأدوية المركبة وثالث فى العلل والأعراض ، وألف فى علم التشريح سبع عشرة مقالة - (المزيد من التفاصيل راجع ابن حلجل - نفس المصدر - ص ٤١-٤٤) .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام. معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م - ص ١٢٨ .

(٦) ورد فى تراجم طبقات الأطباء ما يفيد بأن من كان يمارس مهنة الجراحة فى الطب يسمى صانعاً بيده أو حاذقاً بيده أو خادماً بيده راجع - ابن حلجل. طبقات الأطباء والحكماء - ص ٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ص ٩٧ ، ترجمة رقم ٣٩ ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص ١٠٠ ، ترجمة رقم ٤٣ .

وكذلك راجع: ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. تحقيق د. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥ . ص ٤٨٦ ، ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ . أما الطبيب فهو الذى يقوم بمهنة الطب. راجع ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلانى) . فتح البارى بشرح صحيح البخارى. ٢٨ جزءاً فى ١٤ مجلداً. مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ج ٢١ - ص ٢٤٨ .

(٧) الحجامة: الحجم هو المص ، يقال للحاجم (أحجام) لامتصاصه فم الحجم ، والمحجم والمحنة بالكسر. ما يحجم به ، وهى الآلة التى يجمع فيها دم المحجوم عند المص ، والمحجم أيضاً مشروط الحجام وحرفته الحجامة . راجع الزبيدى (عبد الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ - ج ٨ - ص ٢٣٧ .

والحجامة كانت شائعة عند العرب وهى من ضروب العلاج والتداوى وتكون بإخراج الدم من الجسم بكميات معينة ، وفى مواضع معينة ، وأوقات محددة ، وليس أدل على أهميه الحجامة وتداولها فى بداية العصر الإسلامى من أن البخارى وضع فى صحيحه

أبواباً تتعلق بالحجامة وهى « باب الحجامة من الداء » و « باب الحجامة على الرأس »
و « باب الحجامة من الشقيقة والصداع » .

راجع : ابن حجر - فتح البارى - ج ٢١ - من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٧٠ ، وكذلك عبد
العزیز العمرى - الحرف والصناعات - ص ٢٥٢ .

(٨) لم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة للطب مقصوراً على العرب فقط ، بل وجد هذا
الوضع أيضاً عند اليونان وقد جاء فى قسم أبقراط لممارسة مهنة الطب نص على العبارة
التالية « وآلا استعمل الموضع ولو على يقين فى علاج المرضى بالحصيات وإنما أعالجهم
بمقتضى ما يراه ذو الخبرة . يمثل هذا العلاج » .

راجع : الجراحة عند العرب - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب -
ج ١ - أشترك فى تأليفه مجموعه من العلماء - من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية -
بدون تاريخ - ص ٩٧ .

ومن الأمثلة الواضحة أيضاً على عدم العناية بمهنة الجراح فى الطب حتى عهد قريب فى
أوروبا أن مدرسة مونيبلية الطب الشهيرة فى فرنسا ألغت خلال القرن السابع عشر
دراساتها الجراحية وأصدرت أمراً يحرم على تلاميذها دراسة الجراحة ومزاولتها .

راجع - نفس المرجع - ص ٢٤٦ .

(٩) لعل من دواعى الابتعاد عن الجراحة فى بداية العصر الإسلامى بالإضافة إلى كونها من
الصناعات اليدوية أنها مهنة طبية شاقة يحتاج صاحبها لكثير من الدقة والمهارة لضمان
أحسن النتائج ويفسر الزهراوى ذلك بقوله « يا بنى ينبغي لكم أن تعلموا أن العمل باليد
ينقسم إلى قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات » راجع .
(أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - المقالة الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز
عن التصريف - ص ٣٠)

ولعل هذا السبب يرتبط بما كان شائعاً قديماً عند اليونان حيث ذكر الزهراوى نقلاً عن
أبقراط بأن « الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولا سيما فى صناعة اليد »

راجع - نفس المصدر - ص ٢ .

(١٠) عبد المنعم ماحد-تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى-القاهرة-١٩٧٣-ص٢٤٤.

(١١) على عكس القاعدة الشرعية التى تحرم تشريح جسم الإنسان نجد ابن رشد يجعل التشريح وسيلة من وسائل الإيمان بالله حيث عبر عن ذلك بقوله : « من اشتغل بعلم التشريح أزداد إيماناً بالله » راجع . ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص٥٣٢ .

كما أن الزهراوى جعل من التشريح أساس علم الجراحة حيث أكد على ذلك بقوله : « ويتبغى لصاحبها (أى مهنة الجراحة) أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهياتها ومتدرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها » .

راجع الزهراوى - التصريف لمن عجز عن التأليف - المقالة الثلاثون - ص٢ .

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام . ص ١٣٠ ، وهذه الطريقة فى التعرف على الجسم البشرى عرفها المصريون القدماء حيث كانت الحيوانات المذبوحة تمثل مصدراً لمعرفة أجزاء الجسم البشرى والدليل ذلك على أنهم عبروا عن بعض أجزاء من الجسم البشرى بما يقابله فى الحيوان مثل الأسنان التى كان يعبر عنها بناب الفيل ، والأذن التى يعبر عنها بأذن ثور - راجع .

Ghalioungui, P.; Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlos of Royal mumies, London, 1980, P. 58 .

ويرجع اتجاه الطب الفرعونى إلى الذبائح من الحيوانات الثدية إلى تحريمهم لفكرة التشريح الآدمى وذلك لأن عقيدة البعث والخلود عندهم تستلزم ضرورة وجود الجسد وقت الوفاة فى حالة سليمة ولعل هذا ما عاق تقدم الطب الفرعونى الذى أحيط بسياج من الدين فقيده انطلاقته - راجع

Peck H . W ., Mummies of Ancient Egypt, Mummies disease and ancient cultures, New York, 1980, P. 12 .

(١٣) يرجع الفضل فى تطبيق علم التشريح على الآدميين لأول مرة فى تاريخ البشرية إلى مدينة الإسكندرية ومدرستها المعروفة (بدار الحكمة) والتى تبوت مركز الصدارة فى العلوم الطبيعية فى العصرين اليونانى والرومانى أى على مدى خمسة قرون (منذ

بداية القرن ٣ ق. م. وحتى نهاية القرن ٢ م) وكانت دروس التشريح تتم عملياً فى قاعات أعدّها الملوك البطالمة خصيصاً لهذا الغرض وفيها مارس الأطباء وعلى رأسهم « هيروفيلوس » فنون التشريح على حث الموتى والأحياء من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام - راجع :

Aluguste couat Alexandria poetry under the first threee (324-222 B.C.) London, P. 77.

(14)Hurry Y. B; Imhotep the vizier and physicion of king zoser and of terwards the Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926, P.77.

(١٥) يدل على ذلك شرحهم الدقيق والصحيح فى التشريح ومخالفتهم لكثير من آراء السابقين من أطباء اليونان ، فقد ناقش ابن النفيس فى كتاب (شرح تشريح القانون) تشريح العظام والقلب والرئة ، ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية) وكثير من مكونات الجسم مما يدل على ممارسته للتشريح ، وموفق الدين البغدادى فى كتاب (الإفادة والاعتبار) أول من أشار إلى مواطن الخطأ فى وصف جالينوس وقد ذكر أن الفك مكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة .

راجع : هنرى أمين عوض - الجراحة فى العصر الحديث الإسلامى . مجلة دراسات أثرية إسلامية نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة - ١٩٨٨ - ص ٢٧٢ .

(١٦) من أشهر ناقلى كتب الطب اليونانى من العرب يوحنا بن ماسويه - راجع ابن حنبل - طبقات الأطباء - ص ٦٥ ترجمة رقم ٢٥ ، وحنين ابن اسحاق - نفس المصدر - ص ٦٨ ترجمة رقم ٢٤ ، قسطا بن لوقا البعلبكى - نفس المصدر ، ص ٧٦ ، ترجمة رقم ٢٧ .

(١٧) هنرى عوض - المرجع السابق ص ٢٧٥، ٢٧٦ حيث الإشارة إلى مشاهير الأطباء الذين مارسوا الجراحة فى العصور الإسلامية المختلفة.

(١٨) أبو القاسم الزهراوى - التأليف لمن عجز عن التصريف - ص ٦٥، ويجدر بالذكر أن القدماء المصريين عرفوا الكى وحذا حذوهم اليونان والرومان وأن كان يستخدم الكى عند القدماء المصريين قد أقصر فقط على علاج بعض الأورام السرطانية ويؤكد ذلك ما جاء فى برديتى أدوين سميث وايرس الخاصة بالجراحة عن الفراعنة - راجع :

Breasted, Y. H, The edwin Smith surgical papyrus, 2Vols, Chicago 1930 , cases nos 7, 9, 10, 12, 30

وكذلك Ebbell, B; The papyrus Ebers, copenhagen, 1937

وكذلك راجع وفاء احمد السيد بدار : الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة . دراسة تاريخية وحضارية . مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣-ص ٨٤ .

(١٩) استخدام الخيط فى تضميد الجروح كان معروفاً منذ أقدم العصور حيث أستعمله المصريون القدماء ولكن على نطاق ضيق حيث كانوا يفضلون فى الغالب أسلوب آخر لتضميد الجروح يعتمد على ضم حافتى الجرح ووضع قطعة من اللحم الطازج عليها لوقف النزيف -

Petrie F; Tools and Weapons, London, 1917, P. 58 .

أما فى العصرين اليونانى والرومانى فقد اختلف الأمر تماماً حيث شاع استخدام الخيط فى تضميد الجروح ، والدليل على ذلك ما عثر عليه من أبر طبية محفوظة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار تحتفظ بآثار من تلك الخيوط التى يصعب التعرف على نوعها .

راجع : عنايات محمد أحمد - الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين - ١٩٩٤ ص ٤٢٨ .

ومن جانبى أرجح أن الخيط الذى كان يستخدم فى تضميد الجروح عند قدماء المصريين وكذلك اليونان والرومان كان من مادة الكتان نظراً لشيوع استخدام هذه المادة فى صناعة الحافظات المخصصة لحفظ القتائل الكتانية التى كانت تستخدم للحشو بعد أن تشبع بالعقاقير ، بالإضافة إلى استخدامها فى صناعة القوط الكتانية المعقمة التى كانت توضع على الجلد حول المنطقة التى سيجرى فيها العملية الجراحية ، ويستدل على ذلك وجود بعض أشكال هذه الأدوات على لوحة طبية بالجدار الغربى من معبد كوم أمبو فى أدفو - (لوحة رقم ١ - القسم الثالث) .

(٢٠) محمد مصطفى السمرى - التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - السنة

الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢ - ص ١٠٤ .

(٢١) عبد المجيد نعنعي - الإسلام في طليطلة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت بدون تاريخ ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن جليل - طبقات الأطباء - ٩٢.

(٢٣) نفس المصدر - ص ٩٤، وكذلك ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٨٦-٤٨٧.

(٢٤) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠ - جزآن - الجزء الثاني - ص ٢١٢، عبد المجيد نعنعي - الإسلام في طليطلة - ص ٢٥٢.

(٢٥) كان من أشهر من رحل إلى المشرق لتلقى العلوم الطبية :

أ - أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحرائي حيث رحلا إلى المشرق في دولة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقاما هناك عشرة أعوام ، ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصائبي كتب جالينوس عرضاً ، وخرجا ابن وصيف في علل العين ، وانصرفا إلى الأندلس في دولة المستنصر بالله ، وذلك في عام إحدى وخمسين وثلثمائة وألحقهما في خدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء وأستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان في ذلك الوقت من الأطباء . راجع

• ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٨٧.

(ب) أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى الذى سافر من الأندلس إلى الديار المصرية وأشتهر في أيام الأمر بأحكام الله .

• ابن أبي أصيبعة - نفس المصدر - ص ٤٩٩.

(ج) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، وهو من بلده دانيه من شرق الأندلس ، وكان من أكابر الفضلاء في صناعة الطب ، وقد رحل من الأندلس إلى مصر وأقام بها عدة سنوات ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس وكان رحيله إلى مصر في حدود عام ٥١٠هـ / ١١١٦م.

• ابن أبي أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٠١ - ص ٥٠٢.

(٢٦) ابن جليل - طبقات الأطباء ص ٩٧ - ص ٩٨ حيث الإشارة إلى أنه فى عهد عبد الرحمن الناصر تابعت الخيرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الأطباء المشهورين .

(٢٧) ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص ٤٩٣ - ص ٤٩٤ حيث الإشارة إلى تفاصيل ما نقله عن ابن جليل بشأن وصول الراهب البيزنطى نقولا إلى قرطبة بناء على طلب الخليفة عبد الرحمن الناصر ليساهم فى نقل مخطوطة ديسقوريدس الطبية إلى العربية والتى كان قد أهداها قسطنطين السابع أرمانبوس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م .

(٢٨) ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٩٢ . وكذلك عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - ج ٢ - ص ٢١٤ .

(٢٩) نفس المصدر - ص ٤٩٢ .

(٣٠) نفس المصدر - ص ٤٩٦ .

(٣١) نظرة العلماء والمؤرخين غير العرب للطب العربى - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب - ج ١ - ص ٢٤٩ .

(٣٢) من مشاهير أطباء عصر الموحدين :

(أ) أبو جعفر بن هارون الترحالى : وقد خدم لأبى يعقوب والد المنصور .

راجع ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص ٥٣٠ .

(ب) أبو الوليد بن رشد : وقد ترك كتباً عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب جعلته من أشهر مفكرى العصور الوسطى ، ومن مؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير كتاب الكليات ، وتلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وكتاب الحميات .

راجع ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٣٠ - ٥٣٣ .

(ج) أبو الحجاج يوسف بن موراطير ، وقد خدم بصناعة الطب المنصور أبا يوسف يعقوب ، ولما توفى المنصور خدم لولده الناصر ، ومن بعد الناصر خدم لولده أبى يعقوب يوسف المستنصر بن الناصر وكان حظياً عند المنصور .

راجع - ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٢٣-٥٢٤.

(٣٣) راجع ابن جليل - طبقات الأطباء - ص ٩٤، ص ١٠٤، ١١٠، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء ٤٧٩، ص ٤٨١، ص ٤٨٩، ص ٤٩١، ٤٩٥، ص ٤٩٧، ٤٩٩، ص ٥٣٥ - حيث الإشارة إلى نماذج من هؤلاء الأطباء الذين مارسوا إلى جانب الطب أيضاً علوم أخرى .

(٣٤) راجع ابن جليل - المصدر السابق - ص ١٠٠، ص ١٠٤، ص ١١٢، وكذلك ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - من ص ٤٨٧، إلى ص ٤٨٩، ص ٤٩٢، ص ٤٩٥، ص ٤٩٦، ص ٥٢٤، حيث الإشارة إلى بعض من الأطباء الذين تولوا مناصب فى الدولة .

(٣٥) من بين هذه الأسر الطبية أسرة الحرانى ومن أشهر أبنائها أحمد وعمر ويونس بن أحمد راجع ابن جليل - المصدر السابق ص ١١٢، وابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ص ٤٨٦-٤٨٧.

وأيضاً أسرة أسحق الطبيب ، وأسرة الكنانى ، وأسرة حسداى بن أسحق ، وأسرة ابن زهر ومن أشهر أبنائها أبو مروان ، وأبو العلا ، وأبو مروان بن أبو العلا ، والحفيد أبو بكر ، وأبو محمد بن الحفيد .

راجع ابن أبى أصيبعة . المصدر السابق ص ٤٨٨، ص ٤٩١، ص ٤٩٨، ص ٤٩٩، ص ٥١٧، - ٥٣٠.

(٣٦) تقاليد وآداب المهنة الطبية عند العرب . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب . ج ١ . ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣٧) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ص ٥٠١ حيث الإشارة إلى أنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج .

(٣٨) سالم - قرطبة حاضرة الخلافة . ج ٢، ص ٢١٤، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٢٤٨.

(٣٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، وطبع باللاتينية بعنوان .

كما نشر بالعربية واللاتينية فى Oxford عام ١٧٧٨م، وله ترجمة فرنسية على يد
Leclerc بعنوان . La chirurgi de, Abulcasis, Paris 1861

عبد المنعم ماجد . المرجع السابق ص ٢٤٨ ، حاشية رقم ٣ .

كما ترجم هذا الكتاب إلى العبرية ونال شهرة واسعة فى البلاد المسيحية حيث كانت
شهرته فى الجراحة عظيمة حتى بين المحدثين ، وهكذا أنتشر هذا الكتاب وجذب إليه
الاهتمام فى الجراحة أكثر مما اجتذبه جراحة الثلاثة العرب المشهورين الرازى .
والمجوسى . وابن سينا .

مشاهير العرب فى الصيدلة . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند
العرب ، ج ٢ . ص ٤٠٨ .

(٤٠) غير الزهراوى عن مدى استيائه لما كانت عليه الجراحة حتى زمانه الامر الذى دفعه
لتقديم تلك المقالة الجراحية موضعاً منهجه والجديد الذى سوف تقدمه المقالة حيث
يقول: « العمل باليد مخسة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه
وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيره فى كتب الأوائل قد صفحته الأيدى وواقعة الخطأ
والتدنس حتى استغلت معانية وبعدت فائدته فرأيت أن أحيه وأؤلف فيه هذه المقالة على
طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور جديدة للكى وسائر الآلات للعمل باليد
إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما نحتاج إليه »

الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . المقالة الثلاثون . ص ٢ .

(٤١) هنرى عوض . الجراحة فى العصر الإسلامى . ص ٢٧٨ .

(٤٢) المقالة المذكورة عبارة عن نسخة خطية نسخها أحد تلاميذ الزهراوى وقد كانت بحوزة
الأستاذ الدكتور محمد رفيق خليل أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب جامعة الإسكندرية
وقد تفضل سيادته بإعارتي لهذه النسخة التى استفدت منها استفادة كبيرة ، وبهذه
المناسبة أتوجه لسيادته بخالص الشكر وعظيم التقدير على أنه سمح لى بالإطلاع على تلك
النسخة فضلاً عما قدمه لى من آراء وتفسيرات لاستخدامات بعض أدوات الجراحة التى
تضمنها البحث .

(٤٣) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . ص ١٩-٢٠.

(٤٤) شكل ١.

(٤٥) نفس المصدر ص ٢٠-٢١.

(٤٦) شكل ٢، ٣.

(٤٧) نفس المصدر . ص ٢٢.

(٤٨) شكل ٤، ٥.

(٤٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٢٩.

(٥٠) شكل ٦.

(٥١) الزهراوى - نفس المصدر ص ٣٣.

(٥٢) نفس المصدر . ص ٣٥-٣٦.

(٥٣) لخص الزهراوى تلك النصائح بقوله « ... ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة . واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمه المعرفة والإنذار إلى ما يؤول إليه السلامة ، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم » .

الزهراوى . نفس المصدر . ص ٣٦-٣٧.

(٥٤) نفس المصدر . ص ٦٢.

(٥٥) نفس المصدر . ص ٦٢-٦٣.

(٥٦) شكل ٧.

(٥٧) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٧٤-٧٥.

(٥٨) هو رأى صحيح لا يزال الآن . راجع الموحز فى تاريخ الطب ، ص ١١٣.

(٥٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٧٩.

(٦٠) نفس المصدر . ص ٨٢.

(٦١) شكل ٨.

(٦٢) الزهراوى . المصدر السابق . ص ٩٠-٩١.

(٦٣) شكل ٩.

الزهراوى - نفس المصدر ص ٩٦ حيث الإشارة إلى أن « الأوائل لم تذكر الاختتان فى شئ من كتبها لأنه لم يكن يستعمل فى شرائعهم وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة » .
وواضح من نص الزهراوى أن عملية الختان لم تكن معروفة عند القدماء غير أن الواقع غير ذلك ، فالدراسات الحديثة أثبتت أن المصريين القدماء قد مارسوا عملية ختان الذكور حيث وجدت تلك العملية مصوره على العديد من الرسوم الجدارية المصرية القديمة (الفرعونية) . راجع

Mahmoud Karim, Circunncision & mutilations Male & Female,
London, 1995 .

(٦٤) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٠٠-١٠١ .

(٦٥) الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٢٣.

(٦٦) نفس المرجع . ص ١٢٣.

(٦٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١١١ .

(٦٨) الموجز فى تاريخ الطب ص ١٢٨.

(٦٩) نفس المرجع . ص ١٢٩.

(٧٠) الزهراوى . التأليف لمن عجز عن التصريف . ص ١٢١-١٢٤.

(٧١) شكل ١٠.

(٧٢) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٣٨.

(٧٣) الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٣٢ .

(٧٤) شكل ١١.

(٧٥) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٤.

(٧٦) شكل ١٢.

(٧٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٧٨) نفس المصدر . ص ١٣٥-١٣٨.

(٧٩) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . ص ١٤٤-١٥٥.

(٨٠) شكل ١٣.

(٨١) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٥٩.

(٨٢) شكل ١٤.

(٨٣) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٦٠.

وينطبق هذا الوصف تماماً مع ما يقوم به الأطباء فى العصر الحالى حيث تسمى هذه العملية Stripping of the veins وبهذا يكون الزهراوى أول جراح أستخدم طريقة سل العروق لعلاج دوالى الساق وذلك منذ حوالى ألف عام تقريباً . ولم تستخدم هذه الطريقة فى وقتنا الحاضر إلا منذ حوالى ثلاثين عاماً فقط بعد إدخال بعض التعديل عليها.

راجع . الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٤٢.

(٨٤) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٨٤.

(٨٥) الزهراوى - التصريف . ص ١٨٤-٢٣٨.

(٨٦) ابن حليجل . طبقات الأطباء ص ٩٧ ، ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء . ص ٤٨٦.

(٨٧) ابن حليجل . نفس المصدر . ص ٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص ٤٨٥-٤٨٦.

(٨٨) ابن حليجل . طبقات الأطباء ص ١٠٠ ، وابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء . ص ٣٨٨.

(٨٩) ابن حليجل . نفس المصدر . ص ١١٢ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص ٤٤٨.

(٩٠) فى مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد رفيق أستاذ الجراحة بكلية الطب جامعة الإسكندرية أكد لى بأن هذه الآلات كانت تستخدم فى كحت الأورام الخاصة بالنساء . وتتفق

أشكال تلك الأدوات مع مجموعة من الأدوات المحفوظة حالياً فى متحف كلية الآثار بالقاهرة (شكل - ١٥) والمصورة على جدران معبد كوم أمبو (لوحه رقم ١ - القسم الأول رقم ٤ ، القسم الثانى من ٤ - ٦ ، والقسم الرابع من ٦ - ٧ والتي كانت تستخدم فى مجال أمراض النساء فى العصرين اليونانى والرومانى وبخاصة فى إزالة الأجزاء غير الصحية من جدار الرحم ويؤكد ذلك أن هيروفيلوس فى العصر البطلمى قام بتشريح الرحم عند المرأة على سيدات مسنات - راجع

Fraser P. M, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, P. 250.

وكذلك عنايات محمد : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، ص ٤١٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٢٩ ،

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن تلك الأدوات الملقبة تمثل استمراراً لما كانت عليه نظائرها فى العصرين اليونانى والرومانى من حيث الشكل والاستخدام .

(٩١) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه

ويصف الزهراوى عملية قطع اللحم الزائد فى اللثة فيقول « كثيراً ما ينبت على اللثة لحم زائد فينبغى أن تعلقه بصناره أو تمسكه بمنقاش وتقطعه عند أصله » .

الزهراوى . التصريف . ص ٦٢ .

وقد ظهرت تلك الصنابير على اللوحة المصورة بمعبد كوم أمبو (لوحه - ١ القسم الثانى) (١-٣) مما يؤكد أن استخدام تلك الآلات كان استمراراً لما كانت عليه فى العصرين اليونانى والرومانى .

(٩٢) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٣) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٤) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٥) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٦) تتم هذه الطريقة على مراحل متعددة تبدأ بعمل الشكل المطلوب من الشمع ثم تحفر عليه جميع التفاصيل المطلوبة ويسمى ذلك « النموذج » ثم يغطى هذا النموذج بطبقات من عجينه الفخار حتى يطبع عليها التفاصيل المنحوتة معكوسة ويسمى ذلك القالب ويراعى دائماً وجود دعائم ل تماسك النموذج مع القالب فضلاً عن وجود فتحتين أحدهما فى الجزء العلوى من القالب لصب المعدن المنصهر والأخرى فى أسفله للتخلص من الشمع الذائب والغازات أثناء عملية الصب .

لطفى خليل : تعدين النحاس . مجلة المتحف . العدد الثانى . ١٩٨٧ ص ٦٢ ، مرجعيت
ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا . ترجمة مجدى فريد . القاهرة . بدون تاريخ ص ٧٣ .

(٩٧) يبدأ هذا الأسلوب بقطع الرقائق حسب الشكل المطلوب ثم طرقها على آلة مصنوعة من الحديد طرفها من الصلب تعرف بآلة السندال . ويطرق على المعدن بأداة تشبه الجاكوش أو الأجنه التى لاتزال مستعمله حتى اليوم والهدف من عملية الطرق تجميع ذرات المعدن حتى يكتسب مزيداً من الصلابة وإعطاؤه الشكل المراد تنفيذه وبعد تشكيل التحفه فى الصورة المطلوبة تنعم وتصلق بسكين أو بواسطة دواليب حتى تصير ملساء (حنان عبد الفتاح مطاوع . التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بنى الأحمر . رسالة دكتوراه . كلية الآداب جامعة الإسكندرية . ١٩٩٦ ص ٣١٩) .

(٩٨) لوحة ٢-ب ، لوحة ٣ب ، لوحة ٤-أ ، لوحة ٦،٥ .

(٩٩) لوحة ٢-ج ، لوحة ٣أ .

(١٠٠) لوحة ٢أ ، ب ، ح

(١٠١) لوحة ٦ . وحدير بالذكر أن أشكال المعينات المتداخلة رأسياً أو أفقياً قد استخدمت على نطاق واسع فى العديد من المنتجات الفنية الأندلسية لاسيما فى زخارف الحجر والرخام حيث تمثلت على نحو رائع فى زخارف الدعامات الرخامية فى زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبه وفى العضادات الرخامية بالمجلس الغربى بقصر الزهراء وفى شرفات مسجد الزهراء .

George Marcais : Manuel d'art musulman C, I.Paris. 1926.P . 285.

Pavon Maldonado: Memoria de la excavacion de la Mazquita de Medina Alzahra. Madrid. 1966. P . 87 .

(١٠٢) لوحة ٢ ج ، (لوحة ٣ أ) .

(١٠٣) كان الصليب المعقوف من رموز البوذية في الديانة الهندية وهو عبارة عن خط رأسى قائم يمتد منكسراً فى أعلاه إلى جهة تعكس انكساره عند القاعدة ويتقاطع هذا الخط القائم مع خط أفقى منكسر بدوره يميناً ويساراً فى اتجاه الانكسار السابق . وقد تمثلت الصلبان المعقوفة بكثرة فى الفنون القديمة لاسيما الفن الإغريقى واليونانى والساسانى والبيزنطى .

Pavon Maldonado: El arte Hispona musulman en su de coracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid. 1975 . Labla. I.

فريد شافى : العمارة العربية فى عصر الولاة . نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة . ١٩٧٠ . ص ٢١٧ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية :

- ١- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزر جى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - بيروت - ١٩٦٥ .
- ٢- ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ .
- ٣- ابن جلدجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ .
- ٤- ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ٢٨ جزءاً فى ١٤ مجلداً - مكتبة الأزهرية القاهرة - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٥- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) - المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٦- أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى - مقاله الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف .
- ٧- الزبيدى : (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

- ١ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضره الخلافة - جزآن - نشر مؤسسه شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠م .
- ٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام - معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .
- ٣ - عبد العزيز بن إبراهيم العمري : الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول - مركز التراث الشعبي - الدوحة ١٩٨٥ .
- ٤ - عبد المجيد نعنعي : الإسلام في طليطله - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .
- ٥ - عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٧٣م .
- ٦ - عنايات محمد أحمد : الأدوات الطبية في مصر في العصرين اليوناني والروماني - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثاني والأربعين ١٩٩٤م .
- ٧ - فريد شافعي : العمارة العربية في عصر الولاة - نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة - ١٩٧٠م .
- ٨ - لطفى خليل : تعدين النحاس - مجلة المتحف - العدد الثاني - ١٩٨٧م .
- ٩ - محمد مصطفى السمرى : التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - للسنه الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢م .
- ١٠ - مرجريت ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا - ترجمة مجدى فريد - القاهرة - بدون تاريخ .
- ١١ - هنرى أمين عوض : الجراحة فى العصر الإسلامى - مجلة دراسات أثرية إسلامية - نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة ١٩٨٨ .

- كتاب الموجز فى تاريخ الطب - ج ١ اشترك فى تأليفه مجموعة من العلماء من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1. Aluguste Couat : Alexandria poetry under the first threee (324- 222 B. C) London, 1990.
2. Breasted Y. H : The edwin Smith surgical papyrus, 2 Vols, Chicago, 1930.
3. Ebbell, B: The papyrus Ebers, Copenhagen, 1937.
4. Fraser P. M. : Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.
5. George Marcais : Manuel d' art musulman, Paris, 1926.
6. Ghalioungui : P. Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlas of Royal mummies, London, 1980.
7. Hurry, Y, B : Imhotep the vizier and physicion of king Zoser and of terwards Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926.
8. Mahmoud Karim : Circunncision y mutilations male y female, London, 1995.
9. Pavon Maldonado : El arte hispano musulman en su decoracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid, 1975.
10. Pavon Maldonado : Memoria de la excavacion de la Mezquita de Medina Alzahra, Madrid, 1966.
11. Peck, H. W : Mummies of ancient Egypt, mummies disease and ancient, cultures, New York, 1980.
12. Petrie, F : Tools and weapons, London, 1917.

رابعاً : الرسائل العلمية :

١ - حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بنى الأحمر - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٦ م .

٢ - وفاء السيد بدار - الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة - دراسة تاريخية وحضارية - مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية

أ. د. محمد زید (*)

وقد اعقبت وفاة صلاح الدين فترة قلقه في تاريخ مصر والشام وما حولهما، إذ تنافس أهل بيته على اقتسام دولته ، فظهر في دمشق ابنه الأفضل نور الدين علي (٥٨٩ - ٥٩٢ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٦ م) وفي القاهرة العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠ م) ، وفي حلب الظاهر غازي (٥٨٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦ م) ، واستمرت حلب بيد الظاهر غازي وأبنائه من بعده إلى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، حيث كان الظاهر واليا على حلب قبل وفاة أبيه ، وانفرد بحلب إلى أن توفي في عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م حيث نصب ابنه العزيز غياث الدين محمد ملكاً على حلب في سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م واستمر حكمه إلى سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م . وكانت المنية قد اتت على مؤرخنا قبل أربع سنوات من انتهاء حكم العزيز محمد ، وهذا يعني أن « ابن أبي طي » عاصر كلا من صلاح

الدين ، وابنه « الظاهر غياث الدين غازى » وحفيده العزيز محمد . واستمر يوسف بعد العزيز يحكم حلب إلى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، حيث قتل مع أخيه الظاهر غازى . فى جمادى الأول من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، على يد هولاكو ، عندما اجتاحت حلب وأباحها لجيشه . وبقي ولده الصغير المسمى العزيز فى أيدي المغول .

وفى حين استمر الحكم الأيوبى فى حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه إلى ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ ، فإن العادل سيف الدين أخا صلاح الدين تمكن فى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م من أخذ دمشق من الأفضل ، وعزل الملك المنصور الذى خلف أباه العزيز بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م وبذلك استأثر العادل بالسلطنة بعد صلاح الدين .

والواقع أن الشام ومصر كانتا فى تلك الحقبة تخضعان لسلطة واحدة فى أغلب الأحيان ، أو لأفراد من أسرة واحدة ، ولأول مرة تشهد الشام ومصر وشمال العراق ، منذ تفكك الدولة العباسية وحدة سياسية بقيادة نور الدين محمود ابن زنكى الذى عمل بكل طاقته لتوحيد الشام وشمال العراق ومصر وهى الوحدة التى جنى ثمارها صلاح الدين ومكنته من انزال الهزائم بالصليبيين .

وفى ظل هذه الوحدة السياسية ، وخضوع المنطقة لسلطة واحدة عاد العلماء ينتقلون بين هذه الأقطار ، وبخاصة بين الشام ومصر فى سهولة ، مما جعل من الصعب أن نربط عالماً من العلماء بقطر واحد دون سواه ، وكان هذا مما ساعد على قيام وحدة فكرية متقاربة ، وثقافة أدبية وعلمية متناظرة ، وخاصة بين مصر والشام .

ومع ظهور المدارس فى الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس للميلاد ، إلا أن المسجد ظل يشكل المركز الدراسى الأساسى للعلم ، ففى مصر قام جامع عمرو ابن العاص (الجامع العتيق) ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الأقمر ،

والعطارين بالإسكندرية بدور كبير ، وأما فى الشام فكان الجامع الأموى (جامع دمشق) وجامع حلب ، والمسجد الأقصى .

وظلت حلقات العلم تعقد بالجامع العتيق فى مصر ، وتتطرق إلى مختلف فروع الثقافة ، وذلك فى العصرين الفاطمى والأيوبرى (١) ، وكان الأزهر الذى شيد فى مطلع الدولة الفاطمية فى مصر ، فعلى الرغم من أن التعليم فيه اصطبغ بالصبغة المذهبية الشيعية الإسماعيلية وألقيت فيه رسائل هذا المذهب وعلى رأسها كتاب « الاقتصار » ، ودعائم الإسلام وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار ، وغيرها من الكتب والرسائل التى ألفها القاضى النعمان وابنائاه من بعده وغيرهم من أئمة المذهب الشيعى فيه الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى الإسماعيلى التى وضعها الوزير « ابن كلس » هذا فى حين وجدت العلوم الفلسفية والحكمية ، مجالها فى دار الحكمة التى أسست فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٧٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م) . وبظهور صلاح الدين على المسرح ، قام بإجراءات كثيرة استهدفت وقف الدعوة الإسماعيلية فأقدم فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م على إسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمى من الخطبة ، وأعلنها باسم الخليفة العباسى ، وعين على القضاء « صدر الدين عبد الملك بن درباس » ، الشافعى المذهب ، وأبطل الخطبة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، قاصداً إهمال الأزهر باعتباره رمزاً للمذهب الفاطمى ، كذلك قام صلاح الدين بأنشاء عدة مدارس أخذت تنافس مراكز الدعوة الفاطمية وكان أن أقبل المدرسون والطلاب على هذه المدارس أكثر من إقبالهم على بقايا المؤسسات الفاطمية .

على أن الدراسة فى الأزهر لم تتوقف تماماً ، اثر انقطاع الخطبة فيه وإهماله من قبل السلاطين لمدة تزيد عن مائة عام (٢) ، وكان ذلك فى صدر دولة سلاطين المماليك - فى عهد السلطان الظاهر بيبرس - عندما عادت الحياة إلى الأزهر وأذن

القاضي الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م ودرست فيه القراءات والتفسير ، والمنطق والحساب والهيئة والطب ، واللغة والعروض والقوافى والتاريخ . وهكذا لم تقتصر الدراسة فى الأزهر على علم الفقه أو علم الكلام والنحو والأدب بل كانت تدرس به كذلك فروع المعرفة الأخرى . هذا فضلاً عن جوامع أخرى فى مصر ساهمت فى التدريس والنهضة الثقافية ، أمثال الجامع الطولونى ، وجامع الحاكم ، والأقمر ، والأفخر ، والعطارين ، وغيرها من الجوامع التى بنيت لتكون دور عبادة ومعاهد علم ونباييع ثقافة ومعرفة .

أما المساجد فى بلاد الشام فعلى رأسها جامع دمشق الذى بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وتم بناؤه فى سنة (٩٦هـ / ٧١٤م) وهو من أشهر مساجد بلاد الإسلام حسناً واتقاناً وغرابة صنعه . وفيه مقصورات عديدة بعضها للحنفية يجتمعون فيها للتدريس كما أنه به أماكن وزوايا خصصت لطلبة العلم .

وتردد على هذا الجامع فى عصر الحروب الصليبية طائفة من العلماء الذين لا تزال آثارهم لامعة فى تاريخ الحركة الفكرية . وبقيت آثارهم إلى أيامنا ومن علمائه الأفاضل فى ذلك العصر :

- علم الدين السخاوى ، شيخ القراء والنحاة ، والفقهاء (٦٤٣هـ) (٣) .

- الحافظ ابن عساكر ، شيخ دار الحديث بدمشق (٥٧١هـ) .

- أحمد بن فرج الأشيلى (٦٩٩هـ) .

- ضياء الدين الدولعى (٥٩٨هـ) .

- عبد الله بن سعد القطرى .

- عماد الدين بن الحرستاني (٥٩٧هـ) .
 - محمود بن عبد الله أبو المثنى المراغي (٦٨١هـ) .
 - أبو القاسم الدمشقي المشهور بابن الماسح (ت ٥٩٢هـ/١١٦٦) من أعيان الفقه الشافعي والقراءات (٤) .
 - عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور المقدسي (ت ٦٠٠هـ/١٢٠٣) وكان يقرئ القرآن بالجامع الأموي ليلة الخميس والجمعة (٥) .
 - وغيرهم كثيرون .
- أما جامع حلب فكان في تلك الحقبة من أهم المراكز العلمية في بلاد الشام، حيث كانت حلب ذات دور هام في العصر الصليبي في الشام ، وكان جامعها من أحسن الجوامع وأعمرها ثقافة .
- واستمرت حلب من أعظم مراكز العلم في تلك الحقبة ، باستثناء فترات قصيرة محدودة ، بسبب التهديد الذي تعرضت له في عصر الحروب الصليبية . على أن حلب لم تلبث أن استعادت بعد ذلك مركزها العلمي ، وغدت أم البلاد الشامية ، وغصت بالعلماء ، وأشار ابن خلكان إلى ذلك عندما زارها في سنة ٦٢٦هـ (٦) / ١٢٢٨م ، وبذلك عاد جامعها مركز إشعاع للعلم والعلماء .
- ولم تتوقف مسيرة هذه الحركة العلمية في حلب إلا عندما انطفأت شعلتها على يد التتار سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م . فأحرقوا جوامعها ودمروا معاهدها ، وقضوا على مدارسها ، وخرّبوا دور السلطنة ، وقصور الأمراء وأفسدوا كل شيء فيها . وظلت حلب تعاني من تلك الضربة زهاء ثلث قرن ، ثم بدأت العمارة والحياة تعود إليها في سنة ٦٩٠هـ (٧) / ١٢٩١م .

يتضح مما تقدم أن حلب فى عهد مؤرخنا - ابن أبى طىّ - الذى عاش فيما بين (٥٧٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٧٩ - ١٢٣٢ م) مرت فى مرحلة انفتاح علمى ، واستعادت مركزها الذى انتكس فى بداية الحروب الصليبية . واستمرت بعد ذلك محافظة على نشاطها العلمى حتى قدوم التتار واستباحتهم لمدن الشام كغيرها من المدن الأخرى التى استباحوها فى البلاد الإسلامية . وفى تلك المرحلة كان ابن أبى طىّ قد مضت على وفاته بضعة عقود ، وربما ضاعت بعض كتاباته فى هذا الغزو التترى ، الذى أحرق الأخضر واليابس . وبعبارة أخرى فإن فترة حياة المؤرخ «ابن أبى طىّ» التى استمرت زهاء خمسة وخمسين عاماً ، تمثل أحد العصور الذهبية لحلب ، فى المجال الأدبى والثقافى ، والسياسى أيضاً . لقد استعادت فى تلك الفترة قواها وشكلت قاعدة هامة للدفاع عن الأمة الإسلامية وتراثها الحضارى والسياسى .

٣ - ابن أبى طىّ فى المصادر العربية :

هو منتجب الدين « أبو زكريا »^(٨) ، وقيل « أبو الفضل » يحيى بن حامد أو حميده^(٨) بن ظافر بن على بن الحسين بن على بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن سعيد بن أبى الخير الطائى^(٩) الفسائى الحلبى النجار^(١٠) المؤرخ والأديب ، الحلبى المولد والمنشأ ، ولد حسب ما ذكرته معظم الروايات فى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ومات سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م^(١١) ، وقيل غير ذلك ، حيث لا تعرف سنة وفاته بدقة .

أما والده فتذكر بعض المصادر أنه ولد فى العقد الأول من القرن السادس الهجرى ما بين (٥٠١ هـ - ٥٠٩ هـ) ، وكان من وجهاء حلب ، ورئيس حرفة النجارين فيها . وكانت هذه المهنة ولا تزال من المهن المشهورة فى حلب ، وتعود

أهميتها إلى أن حلب ، من الأماكن الهامة في استنبات الأشجار الضرورية لمهنة النجارة . ومما يدل على كثرة الأشجار وتنوعها ما ذكره كل من ابن العديم مؤرخ حلب المشهور (١٢) ، والشاعر الصنوبري الحلبي وغيرهما ، وقد حظى والد ابن أبي طىّ في حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها . غير أن هذا الأمر عرضه للخلاف الشديد مع حكام حلب في عهد نور الدين (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦م - ١١٧٣م) ومن جاء بعده . ونتيجة لما تعرض له والد ابن أبي طىّ من اضطهاد ، فإنه اضطر إلى الفرار من حلب أكثر من مرة نتيجة للتحويل الذى حصل فى تلك الحقبة من التحويل إلى المذهب السنى ، وما رافق ذلك من مضايقات لبعض الناس والأسر التى كانت تعتنق المذاهب الشيعية ، وكانوا أكثرية فى حلب . وأخذت بعض أسر ذات الصلة بالأمور الإدارية تتحول إلى السنة كأسرة ابن أبي جرادة (١٣) ، و« ابن العديم » وغيرها . ومن هذه الإجراءات منع الشيعة من استخدام الزاوية الشرقية فى جامع حلب ، وحظر عليهم الأذان (بحى على خير العمل) ، وغير ذلك من مضايقات ، أدت إلى رضوح الشيعة على مضض أو إلى الهروب . ومن الذين هربوا أو أخرجوا - من حلب أكثر من مرة - والد المؤرخ يحيى بن حميد المرة الأولى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، والمرة الثانية لم تحدد المصادره . ومكث والد مؤرخنا فى حران (١٤) ، بعض الوقت بحدود سنة ٥٢٥هـ / ١١٥٧م . وفيها ألف كتاباً فى التاريخ . وكان أولاده يموتون صغاراً . ولم يسلم له أحد من أبنائه . وبعد مضى وقت من اليأس رزق بعد طول انتظار - وبعد أن تقدم به العمر - بولده يحيى - مؤرخنا هذا - فى حدود سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م كما أشرنا . وقدر لهذا المولود أن يعيش ، ويكبر ويتعلم على أبيه ، ويأخذ عنه مذهبه الفكرى ، وتوجهه الأدبى ، وعمله المهنى . فتعلم على يده مهنة النجارة وورثها عنه ، وكذلك مذهبه الشيعى .

أما والدته حميدة (١٥) أو فضائل ، فإنها ماتت سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وهي السنة التي ولد فيها مؤرخنا . ولهذا كثيراً ما كان يقال عنه يحيى بن حامد أو حميدة ، نسبة إلى أمه وهي عادة عربية معهودة ومتبعة .

كذلك تعلم مؤرخنا من علماء حلب ، ونهل عنهم أصناف العلوم كالبلاغة واللغة والأدب والتصوف وغيرها من العلوم . وأما أساتذته فهم كثيرون ويأتى على رأسهم والده ، ومجموعة من المحدثين منهم : إدريس بن حسن ابن علي الأدريسى (ت ٦١٠هـ) وقد عرف به ياقوت في معجمه .

كذلك درس مؤرخنا الفقه الشيعي أيضاً وتعمق به على يد ابن جعفر بن علي بن شهر آشوب المازرائي . وعرف عن هذا الفقيه البراعة والفقه الإسلامي على المذهب الشيعي الإمامي وعرف عنه بأنه كان عالم الشيعة في القرن السادس الهجري ، وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبي في كتابه « مناقب آل أبي طالب » وله مشاركة فعالة في علم الأصول والقراءات وقدم مؤلفات كثيرة في هذه العلوم الدينية (١٦) ، وقد قدم ابن شهر آشوب إلى حلب ومكث فيها وتزوج أخت ابن أبي طي ، ودرس هذا عليه شيئاً مما كان يعلمه . ومات ابن شهر آشوب في حلب.

كذلك اعتمد ابن أبي طي في إعداد نفسه فكرياً وعلمياً على مجموعة كبيرة من الأعلام في الفكر والأدب ومن عرفتهم الشام وحلب خاصة نذكر من هؤلاء:

- ابن أبي زريق : صاحب كتاب أو تاريخ آمد وما فارقين .

- وابن أبي جواده (جد ابن العديم) :

- وحمدان بن عبد الرحيم الأتاربي (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) : مؤرخ حلبى ، وكان

أمامياً له مصنفات عدة أهمها المفوف . والمصباح (١٧) .

- والعظيمى : (ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) وتاريخه عن حلب وهو تاريخ شامل .
 - وابن القلاتسى الدمشقى (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : وقرأ عنه كتابه المشهور ذيل تاريخ دمشق .
 - والعماد الأصبهاني : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) فى كتابه البرق الشامى ، وتايخ السلاجقة والفتح القسى فى الفتح القدسى .
 - وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) نشأ بدمشق وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع فيها ألفا وثلاثمائة شيخ وتاريخه عن مدينة دمشق خرج فى ثمانين مجلدة .
 - وابن دحية :
 - وأسامة بن مرشد بن منقذ الأمير مؤيد الدولة (ت ٥٨٤هـ / ١١١٨م) وكتابہ الاعتبار .
 - وابن شداد ، بهاء الدين بن رافع (٦٣٢ / ١٢٣٣هـ) .
 - ابن الأعز (ت ٦١٠هـ / ١٣١٣م) الأشرف بن الأعز وقيل أبو العز . درس ما عرفه من علم التاريخ لطلابہ (١٨) .
 - والصنهاجى فى تاريخ القيروان .
 - ومؤلفاً مجهولاً فى تاريخ مصر .
- وكل هؤلاء أعلام فى عصرهم قدموا الكثير، وتركوا لنا الدلائل على عظمتهم.
- وكثيراً ما كانت تشغله الوثائق التى اعتمد مؤرخنا عليها وعلى كتب هؤلاء المؤرخين ، كما كان ينجذب إلى رسائل وروايات متعددة ، منها رسائل القاضى الفاضل وأخباره ، فضلاً عن مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة بعضها شفهى والآخر مخطوط .

و خلاصة القول فإن ابن أبى طىّ اعتمد فى كتاباته التاريخية أسلوب معاصريه كابن الأثير وغيره . كما اعتمد على المصادر الشفهية ، وهى إحدى المصادر الرئيسية للكتابة التاريخية فى ذلك العصر . ثم اعتمد على مصنفات المتقدمين فى التاريخ ، ومنها استقى مواد كتاباته . أما الأحداث المعاصرة . فقد اعتمد على مشاهداته لها عن كثب ؛ معتمداً على خبراته الشخصية ، كما استند على الوثائق الرسمية التى أعدها كل من العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

وعلى العموم فمؤرخنا هو من أدباء حلب ، وخريج مدرستها الأدبية والفكرية والمذهبية ، والتى نشطت منذ ما قبل منتصف القرن الرابع الهجرى واستمرت طيلة القرنين الخامس والسادس الهجرين تعطى ثمارها وتخرج علماء فى كل فروع العلوم والمعرفة ، كما أشرنا أثناء الحديث عن عصر المؤرخ .

وكما عاش والد المؤرخ محنة الاضطهاد والإهمال والنفى نتيجة لعقديته المذهبية ، كذلك تعرض الابن للضنك والإهمال ، وربما للنسيان المتعمد من الكثيرين ، فلم يعهد له بأى منصب إدارى أو رسمى ، لا فى التدريس ولا فى القضاء ، أو غير ذلك من الأعمال الحكومية ، على الرغم من أن حلب فى عهده كانت بحاجة لمثل هذه الخدمات وغيرها ، نتيجة لما كانت تمر به فى تلك الأثناء من ظروف حرجة .

وفى هذه الأجواء غير الطبيعية نشأ المؤرخ ابن أبى طىّ . ولا شك فى أن ذلك أثر تأثيراً كبيراً فى مجريات حياته ، إذ أجبرته هذه الظروف المؤقتة أن يعيش فترة طويلة من حياته متكسباً بما تدره عليه مهنته وعمله بالنجارة التى اشتغل بها وورثها عن أبيه كما أشرنا . واستمر كذلك إلى أن انتقل إلى عمل أقل جهداً ، وفضل قيمة ، وهى مهنة تعليم الصغار والصبية ، فمارس هذه المهنة فى المكاتب حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، واختص بتعليم أبناء أحد الوزراء سنة

٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وبعد ذلك انتقل إلى مهنة الوراقة وتصنيف الكتب ، مترفعاً عن التعليم وأنف منه ولزم داره ، وطلب مشايخ الأدب فقراً عليهم ، وتعلم منهم ونظم الشعر ، فمدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ، وارتفعت منزلته عنده ، حتى ولاه نقابة الفتيان في حضرته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وغدا نقيب الحضرة السلطانية في الفتوة .

وكان أن تابع ابن أبي طي عمله الجديد في التأليف والتصنيف ، فصنف كتباً في التاريخ وتفسير القرآن الكريم والآداب والفقه والأصول ، وهكذا انتقل إلى عمل مفضل ، ظل يمارسه بقية حياته ، واتخذ من ذلك مصدراً لرزقه وعيشه ، إذ فتح له هذا العمل الأبواب الفكرية والمعرفية على مصراعيها عاملاً بمهنة الوراقة ، ونسخ الكتب . ويبدو أن هذا العمل حقق له كسباً كبيراً ، جعل ياقوت الحموي الأديب المعروف المعاصر له يحسده ويغمز عليه فقال عنه أنه : « كان يدعى العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية ، وجعل التأليف حانوته ، ومنه قوته ومكسبه ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس ، يأخذ الكتاب الذي اتعب جامعه خاطره فيه فينسخه كما هو ، إلا أنه يقدم فيه ويؤخر ، ويزيد وينقص ويختار له اسماً غريباً ، ويكتبه كتابة فائقيه لمن يشبه عليه ، ورزق من ذلك حظاً » . وربما أراد ياقوت أن يتهم ابن أبي طي ، فذكر أن عدداً من الكتب التي تعزى إليه ليست سوى مستنسخات تصرف بها ابن أبي طي على هواه . ومعلوم أن ابن أبي طي معاصر لياقوت ولا شك في أن كلا منهما كان يحمل في نفسه شيئاً للآخر . وقد يكون كلام ياقوت الحموي عن ابن أبي طي نوعاً من الغمز ، والطعن بأديب معاصر له ، يختلف معه في المذاهب والمشارب والاتجاهات ، وجمعهما حلب الشهباء التي كثيراً ما عرفت أمثال هذه المنافسات والمشاحنات بين العلماء منذ أيام سيف الدولة الحمداني .

ومهما يكن الأمر ، فهذه المنافسات بين العلماء كثيرة الحدوث . غير أن موقف ياقوت من ابن أبي طى لا ينكر وسيظل كل من يريد التعرف على ابن أبي طى يعترف بموقف ياقوت منه وما قدمه من معلومات عنه . ومع ذلك فإن ياقوت ترجم له بوصفه من الأدباء المرموقين وذكره بين الأحياء الذين عاصروه فى حلب . وجاءت ترجمته من المصادر المهمة والمفيدة للكثيرين ممن أرخ لابن أبي طى وترجم سيرته بعد ياقوت : وقد تكون هذه المعلومات على الرغم مما جاء بها من طعن وغمز من افضل ما كتب عنه ، وساهمت فى التعريف به ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن ترجمة ابن أبي طى التى جاءت فى الجزء السابع من المخطوط ، لم تظهر فى النص المطبوع من معجم الأدباء ، ولعل ذلك فات على المحقق ، فزاد ذلك من سوء حظ هذا المؤرخ الذى عده بعض الباحثين من طبقة (١٩) ، المؤرخين الأول فى الإسلام . وهكذا خانه الحظ فلم يبق من إنتاجه التاريخى والأدبى والعلمى أى أثر ظاهر الآن وليس أمامنا عن هذا المؤرخ سوى مقتبسات مبعثرة فى كتب المؤرخين الذين أتوا بعده أو أخذوا عنه ، مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يذكره عندما نقل رواياته ولا ندرى أكان ذلك متعمداً أم غير متعمد . وفى جميع الأحوال فقد زاد ذلك فى إغفاله ، حتى استمر فى طى النسيان .

والواقع إن مؤلفات ابن أبي طى كثيرة ، يعصب حصرها ، وتحديدتها . وما قدمه ياقوت عنها ربما كان بعض مسودات لم تكتمل ، وأثبتها فى معجمه قبل أن يستكمل إعدادها كما قدمها له ابن أبي طى فيما أظن . ولهذا جاءت غير متفقة مع الكتب التى عرفها المؤرخون ونقلوا عنها ، والتى أتت على ذكرها المصادر التى أطلعنا عليها والتى تضم حوالى بضعة وثلاثين مؤلفاً ، منها مؤلفات عديدة فى علم القراءات والفقه ، والأدب ، والنحو ، والبلاغة ، والنبات ، والتراجم ، وجاء معظمها فى التاريخ . ويمكن أن نذكر من مؤلفاته وكتبه كما أوردتها بعض

المصادر والمراجع ، وإن جاءت مختلفة فى أسمائها وعددها . وبعد المقارنة تمكنا من إحصاء المؤلفات الآتية :

١ - معان الذهب فى تاريخ حلب ، وجاءت فى بعض المراجع . معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء ، وذوى الرتب ، وكان فى عدة مجلدات .

٢ - كتاب شرح لامية العرب أو المنتخب فى شرح لامية العرب .

٣ - كتاب سلك النظام فى تاريخ الشام .

٤ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ، ومنه مقتطفات عديدة لدى أبى شامة (الروضتين) .

٥ - حوادث الزمان على حروف المعجم ، وأهم ما فيه أنه ألف على أساس أبجدى ، فهو موسوعة لمعارف التاريخ وكان فى خمس مجلدات .

٦ - أطباء الشعراء الشيعة .

٧ - طبقات العلماء ، وربما يكون هو الكتاب الذى ورد عند الأستاذ الدكتور شاکر مصطفى « طبقات أو تاريخ الإمامية » .

٨ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب بين سنتى (٥٨٩ - ٦١٣ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦ م) . بينما يرد عند الأستاذ شاکر ما بين (٥٨١ - ٦١٣ هـ / ١١٨٥ - ١٢١٦ م) وهو فى تاريخ حلب نقل عنه ابن شداد فى الإغلاق الخطيرة (قسم حلب) صفحات هامة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع (ضرائب) حلب فى مطلع القرن السابع الهجرى ٦٠٩ هـ أخذها عن مستوفى حلب (٢٠) .

٩ - مختار تاريخ العرب ، وهى التى وردت عند بعض الباحثين مختار تاريخ المغرب .

- ١٠ - مناقب الأئمة الأثنى عشر .
- ١١ - تاريخ مصر . ولعله اهتم فيه بالتاريخ الفاطمي واقتبس من ابن ميسر والمسيحي وغيرهم كالمقرئزي .
- ١٢ - مختار تاريخ المغرب . وقد يكون له كتابات .
- ١٣ - تاريخ الشيعة ، ورد عند بعض الباحثين أسماء رواة الشيعة ومصنفها ، وجاء عند محسن الأمين كتاب الحاوي ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم .
- ١٤ - تهذيب الاستيعاب في معرفة الأصحاب (لابن عبد البر) جاءت عند الطباخ للقرطبي .
- ١٥ - كتاب الأول والعذب والزلال .
- ١٦ - بيان العالم .
- ١٧ - ذيل معادن الذهب في تاريخ حلب أى أنه ذيل كتابه هذا في التاريخ (٢١)، وتمة له .
- ١٨ - سيرة ملوك حلب .
- ١٩ - البستان في محاسن العلمان .
- ٢٠ - اشتقاق أسماء البلدان .
- ٢١ - مجموعة كتب حول الجاهلية والرسول ﷺ وأجداده في ثلاث مجلدات يعطيها صاحب كشف الظنون عنوان السيرة (٢٢) .
- ٢٢ - له ديوان في المدائح (٢٣) .

- ٢٣ - كتاب التنبيه على محاسن التشبيه .
- ٢٤ - وشرح نهج البلاغة فى ست مجلدات يقال أنه درسه على ابن الأغر (٢٤) ،
وعلى ابن شهر آشوب المازندراني عالم الشيعة فى القرن السادس وخطيبهم
وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه مناقب آل البيت (٢٥) .
- ٢٥ - ولح القرآن فى تفسير القرآن .
- ٢٦ - البيان فى اسباب نزول القرآن .
- ٢٧ - غريب القرآن مختصر .
- ٢٨ - كتاب المجالس الأربعين فيه فضائل الأئمة الطاهرين .
- ٢٩ - خلاصة الخلاص فى آداب الخواص .
- ٣٠ - شفاه الملعيل فى ذم الصاحب والخليل .
- ٣١ - كتب الحاوى ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم
أئمتهم المصنفين فى مذهبهم .
- ٣٢ - تراجم رجال الأدب والشعراء وهو مخطوط موجود فى القاهرة تيمورية رقم
١٤١٨ تاريخ وهوفى عداد كتبه المفقوده أيضاً ، ولم نجده تحت هذا الرقم .
- ولا يمكننا أن نؤكد أن هذه المؤلفات جميعاً من نتاجه ، أو أن هذه هى كل
مؤلفاته ، فقد تأتى الأبحاث بأمور جديدة ، وقد تكشف السنوات القادمة بعضاً من
تراث هذا المؤرخ . أو ربما يكشف الباحثون عن أسماء بعض كتبه لم ترد فى
المصادر التى تم الإطلاع عليها . ولا ندعى أن ما أتينا عليه ، وذكرناه ، فاصل
وقطعى . وإنما نعتزف بأننا لم نتمكن من الوقوف على جميع المصادر التى أخذت
عنه ، ولم نتعرف على كل النقولات منه ، وكل ما نرجوه هو أن ندفع بالهمم
ونحثها للبحث لاكتشاف الجديد والمفيد عن هذا المؤرخ .

وأما الذين أخذوا عن ابن أبي طى من المؤرخين فكثيرون ، وغالباً ما أغفل بعضهم التنويه عنه . ولم يوضحوا مقتبساتهم عنه . وإن فعلوا ذلك فقد أغفلوه من قائمة المصادر الأساسية . ومن هؤلاء أبو شامة فى كتابه « الروضتين » فعلى الرغم من كثرة مقتبساته عنه ، لم يذكره فى قائمة مصادره التى اشار إليها فى بداية كتابه ، مع أنه ذكر مصادر أقل من مصادره إفادة ، وبعض المؤرخين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى الأخذ عنه أو الاعتماد عليه . وكثيراً ما كانت تأتى الإشارات بكتابات لاحقه . وعلى الرغم من ذلك فقد أوردت المصادر مجموعة من المؤرخين اعتمدوا على مؤلفاته وكتبه ، جاء بعضها على لسان أصحابها ، وبعضها فى مصادر أخرى .

ويمكن أن نذكر من المؤرخين الذين افادوا منها كلا منه :

١ - ابن العديم : كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) فى كتبه الكثيرة وخاصة فى تاريخه « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » الذى صنفه لحلب على الحوادث ، وجاء بثلاثة مجلدات ثم « بغية الطلب » . والذى خطه لحلب ورجالاتها وترجم لمن نشأ أو مر أو ذكر فى تاريخها وجاء فى أكثر من عشرة مجلدات ، وكلا الكتابين حققا ونشرا فى دمشق . ولا بد من الإشارة إلى كثرة ما نقل عن ابن أبي طى ، مثل القول : ذكر أو قال أو ورد عند ابن أبي طى ... إلخ .

٢ - وكانت مؤلفاته فى المصادر المهمة التى اعتمد عليها الإمام العلامة ، شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٧م) فى تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام أو دول الإسلام وغيرها من مؤلفات استقت معلومات كثيرة من أخبار ابن أبي طى .

٣ - أما المؤرخ الكبير أبو شامة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » فاقبাসاته كثيرة وواضحة ، وتعطينا فكرة بينة عن تراث هذا المؤرخ الواسع إطلاعه ، كما تقدم لنا الدليل الأكيد على إهمال المؤرخين له ونكران فضله ، ولم يضعوه فى المكان اللائق به ، والمناسب لجهد ومكانته .

٤ - وأخذ عنه ابن شداد (٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) فى مؤلفاته . ومنها كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ولا سيما ما اقتبسه منه عن مؤلفه عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبي ، وأخذ عنه ابن شداد التاريخ المتعلق بحلب فى مطلع القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م . وابن أبى طى أخذها بدوره عن مستوفى حلب ، وهى صفحات مهمة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع ضرائب حلب ، وهى قائمة مهمة تفيد كل باحث فى التاريخ الاقتصادى أو الاجتماعى ، هذا إضافة لما اقتبسه ابن شداد عنه فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

٥ - كذلك استفاد منه ابن عبد الظاهر فى كتاباته (ت ٦٩٢هـ) .

٦ - وابن ميسر (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) ومؤلفه « أخبار مصر » وهو من المؤلفات المهمة عن مصر الفاطمية بخاصة ، ويعد ما كتبه ابن أبى طى عن الفاطميين من المصادر المهمة كونه قريب الصلة بهم ، وكانت كتب ابن ميسر مصدر أساسياً لكل من النويرى والمقرئزى وابن حجر العسقلانى ، وهؤلاء من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، واعتمدوا على ابن أبى طى بشكل مباشر أو غير مباشر .

٧ - أما المقرئزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) فيعد أفضل من كتب عن الدولة الفاطمية ، وخاصة فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فقد أورد المقرئزى فى كتاباته

روايات عديدة أخذها عن ابن أبي طى وكثيراً ما اشار إلى بعضها ، وأهمل الإشارة إليها فى بعض مقتبساته الأخرى فى كتبه الكثيرة كالسلوك ، المواعظ والمقفى ، والاتعاظ .. إلخ .

٨ - ولابد أن تذكر فى هذا الصدد مقتبسات ابن قاضى شهبه (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) فى كتابة الأعلام . عن ابن أبي طى ، فقد ذكر أنه أخذ عنه الكثير عندما أرخ لأعلام الشيعة . كما وردت مقتبساته فى كتاباته عن « طبقات الشافعية » والكواكب الدرية فى السيرة النورية .

٩ - ويظهر أن كتب ابن أبي طى استمرت إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أو بعض منها حين استخدمها ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) واستفاد منها ناقلاً معلومات كثيرة عنها .

لكن من المؤسف أنه لم يبق لهذا المؤرخ الآن فيما هو معروف من المخطوطات إلا كتاب فى التراجم الأدبية والشعرية يحتاج نسبه إليه إلى أمور كثيرة ، وتحقيق مضمّن ، وقد أورد الأستاذ المرحوم شاكّر مصطفى أن هذه التراجم مخطوطة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٤١٨ تاريخ . وقد حاولت كثيراً الحصول عليها ، فلم أتمكن من ذلك ، ولا شك أن هذا المخطوط مفقود كغيره من كتب مؤرخنا العديدة .

٤ - أسلوب كتاباته :

يعبر معظم ما كتبه ابن أبي طى وذكره عن وجهات نظر أصلية ، وفيها مكان واسع للمجادلات الدينية والأثرية ، ورفض للعجائب ، بأسلوب سلس ومقبول ، ابتعد فيه عن أسلوب العماد الأصفهاني الذى طغت عليه فنون اللغة من سجع وطباق وغير ذلك من فنون الكتابة التى يكثر فيها الوصف وعمل الناظر

فيها ويصاب بالذهول والتعب قبل التأكد من معرفة الأحداث والوقائع التاريخية (٢٦) .

ولابن أبي طىّ موقف خاص من الأيوبيين ، يستند على أن ابن صلاح الدين، الظاهر غازى لم يكن متعصباً للسنّة كثيراً ، ولم يكن هو الذى أخرج والد مؤرخنا ابن أبي طىّ من حلب ؛ فقد أخرج فى عهد نور الدين محمود كما أسلفنا، وكما يتضح من مقارنة الأخبار (٢٧) ، والروايات المتعلقة بهذا الموضوع . ولهذا نراه فى كتاباته عن صلاح الدين وغيره من الأيوبيين يأتى بأخبار مفصلة ودقيقة ، ويتحرى فيها الابتعاد عن المشاعر والعواطف التى كانت تلون الكتابات التاريخية ، وتؤثر فيها وتجعل النزعة المذهبية مهيمنة عند بعض المؤرخين . وضمن توجهه هذا نراه يؤرخ لصلاح الدين ويكتب سيرته ، ويقربه لابن الظاهر غازى فيمدحه بقصائد شعرية ، وغدا نقيب الفتيان فى حلب ، وربما ساهم ابن أبي طىّ وغيره فى تضخيم الخلاف بين صلاح الدين وسيد نور الدين .

ويجب أن ندرك أنه لا يمكننا أن نحكم على هذا المؤلف إلا من خلال ما اقتبس عنه مما أشارت إليه المصادر صراحة ، مع العلم بأن هذه المقتبسات العديدة قد يكون مقتبسوها قد حوروا فيها ، أو غيروا أسلوبها ، أو بدلوا من عباراتها ، وصبغوها بأساليبهم الخاصة . وربما تصرفوا بهذه النقول . ولم يكتبوها حرفياً حتى غدت هذه المقتبسات لا تمثل بقدر ما تمثل الذى صاغها . غير أنه إذا جاز لنا أن نحكم على هذا المؤرخ من خلال ما وصلنا عنه من هذه النقول والمقتبسات ، وما سمحت به الظروف المتعلقة بها ، فإنه يمكننا أن نقول : أن كتابه « معادن الذهب فى تاريخ حلب » قد يكون كتاباً عاماً فى التاريخ ، إلا أنه اهتم فيه بتاريخ حلب أساساً ، وما كتبه عنها يمكن اعتباره مصدراً مهماً ومباشراً ، لا سيما فى حياته . وعندما نقول أن معظم كتاباته قد فقدت أو جهلت فإن علينا أن نذكر أنه

كثيراً ما اعتمد على المصادر الشفهية . فروى عن والده ، كما كان يعتمد على الوثائق ومنها رسائل القاضى الفاضل . ومعظم كتبه لا تخرج عن هذا السياق . ويمكننا الاطمئنان إلى أن كتاباته عن صلاح الدين وابنه الظاهر غازى فى كتابه « عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر » قد كتب أحداثها معاينة ومعاصرة .

أما أسلوب ابن أبى طىّ فلا يخرج كثيراً عن أسلوب معاصريه ، ويقترّب من أسلوب المؤرخ الكبير ابن الأثير وهو معاصره ، وتوفى فى سنة واحدة . فكتاباته تتسم بالإيجاز ، والسرد البسيط ، الذى يتعد فيه عن الأسلوب الأدبى لعصره ، فهو يحاول تجنب الزخرفة والصنعة ، والتكلف والألفاظ البديعة والمنمقة ، وغير ذلك من أساليب الصنعة ، ويحاول أن يختار الألفاظ المقبولة السهلة الوقع على السامع والى تحافظ على الخير وتظهره .

كذلك يلاحظ عليه أنه كان أحياناً يسرد دقائق الأمور ، ويغوص فى التفاصيل إيضاحاً أو جواباً . وهذا ما يجعلنا نقول : إنه كان يقدم الأحداث الجزئية للاقترب من الحقائق . وهذا الأمر يدل على سعة إطلاعه وبعد نظره ورؤيته التاريخية الواضحة فى رواياته .

والآن وبعد ما تقدم فإننا نضع بين أيدي القراء بعض الإشكالات المثارة حول هذا الموضوع ، آمل أن تتضافر الجهود للوصول إلى مقترحات محددة ومفيدة حياها . ونضع لمن يعمل على هذا الطريق الحلول والتصورات المناسبة والرؤية الواضحة المفيدة . علنا نساعد كل من يبحث فى هذا التراث المفقود ليجد ضالته المنشودة الصعبة المنال .

الهوامش

- (١) السيوطي : طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة ج١ ص ٢٣٥ ، ياقوت : معجم الأدباء ج١ ص ٢٣٢ ، ابن أبيك الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ١٠٦ .
- (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ١٥٥ ، المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٥٦ .
- (٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٧ ، النهبي : العبر ج٥ ص ١٧٨ ، طبقات الشافعية ج٤ ص ٢٦١ للسبكي ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ص ٣١٦ - ٣٢٢ ، ابن العماد : شذرات ج٥ ص ٢٢٢ .
- (٤) القفطي : أبناء الرواة ج٢ ص ٢٤١ / ٢٤٢ ، النهبي : سير اعلام النبلاء ، ج٢ ص ٤٦٧ ، السبكي : طبقات ج٥ ص ١٥٤ ، المقرئزي : السلوك ص ٨١ ، طبقات الشافعية : ج٧ ص ١٤ ، السيوطي : بغية الرعاء ج٢ ص ١٥٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٠٣ .
- (٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص ٥١٩ - ٥٢٢ ، العماد : شذرات ج٤ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .
- (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٤١ .
- (٧) أبو المحاسن : النجوم ج٧ ص ٢٩٩ .
- (٨) ورد أبو الفضل : انظر عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين ج١٣ / ١٤ ، ص ١٩٥ « بيروت دار إحياء التراث العربي » ، شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٢ ، البغدادي : هدية العرابين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : المجلد الثاني ص ٥٢٤ (طهران ط ٣ ١٣٨٧ هـ / ١٩٤٧ م) .
- (٩) قيل ابن حميده : وهي أمه ، انظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قيل أن اسم أمه فضائل بنت صفيد وهي ابنة قاضي صور : كماء جاء عند كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 .
- (١٠) الطائي : نسبة إلى اسمه ابن أبي طي وليس كونه من قبيلة طي .
- (١١) يذكر عمر رضا كحاله : أنه بخاري ص ١٤٥ ، المرجع السابق . لكن ليس بخاري إنما بخاري لأنه ورث مهنة التجاره عن والده .

- (١٢) لا تعرف سنة وفاته ولعلها ما بين ٦٢٥ أو ٦٢٧ - ٦٣٠ هـ ، شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .
- (١٣) ابن العديم : بغية الطلب ورقة ١٦٣ ، ١٧٣ ، والغزى : نهر الذهب ج١ ص ١٢٥ ، زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص ١٤٤ ، بيروت ١٩٩٢ .
- (١٤) انظر ذلك فى ترجمة ابن العديم فى معجم الأدباء لياقوت الحموى : حيث يورد أن أحد أجداد ابن أبى جرادة كان شيعياً .
- (١٥) شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٢ ، محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١ ص ٢٨٦ ، « تحقيق حسن الأمين ، بيروت ١٩٨٣ » .
- (١٦) ورد اسمها كما أشرنا فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور انظر كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 . وشاكر مصطفى : المرجع السابق، ج٢ ص ٢٥٢ .
- (١٧) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج٦ ص ٢٦٣ / ٢٦٤ ط بيروت ١٩٧١ م .
- (١٨) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٧٩ (مادة أنارب) ومعجم الأدباء ص ١٤٢ . ابن العديم : بغية الطلب ج٤ ص ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ٢٩٢٦ ، ٢٩٢٧ ، دمشق ١٩٧٩ م .
- (١٩) ابن العديم : بغية الطلب ج٤ ص ١٨٧٥ ، ١٨٨٤ .
- (٢٠) شاكر مصطفى : المرجع السابق والصفحة .
- (٢١) انظر : ابن شداد : الأعلام قسم حلب ص ١٥٠ ، ١٥٣ .
- (٢٢) انظر : كل من شاكر مصطفى ج٢ ص ٢٥٣ - ومحسن الأمين ج١ ص ٢٧٦ .
- (٢٣) شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ج١ ص ٥٨٢ .
- (٢٤) محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١٠ ص ٢٨٦ .
- (٢٥) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ج١٣ ، ١٤ ، ص ١٩٥ .
- (٢٦) مصطفى جواد : مجلة الكتاب ص ٤٧٧ ، مصر دار المعارف للطباعة والنشر العدد ٦ لعام ١٩٤٨ .
- (٢٦) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٤ ، ٥ .
- (٢٧) انظر فيما سبق من هذا البحث ، كلود كاهن : المرجع السابق والصفحات .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
- أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ١٩٧٢ .
- البغدادى : هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج٢ استانبول سنة ١٩٥٥ و ج٣ طهرن ١٩٤٧م (١٣٨٧هـ) .
- ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج٦ ، ط٢ بيروت ١٩٧١ .
- حاجى خليفة : كشف الظنون (الاستانة ١٩٤١م) .
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨م .
- خليل بن ابيك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان (مصر ١٩١١م) .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ، بيروت ١٩٨٨ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخير .
- الذهبى : تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٨٨م) .
- الزركلى : الإعلام ج٨ « بيروت دار العلم للملايين » .
- السبكى : طبقات الشافعية ج٤ (ط ١٣٢٤هـ) .
- السيوطى : طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٨م) - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط مصر ١٣٢١هـ) .
- سرور جمال الدين : الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٩٥) .
- ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) .
- أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين (طبع مصر ١٢٨٠هـ) .

- شاكِر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخين ج٢ الكويت .
- ابن شداد : الإغلاق الخطيرة - قسم حلب (دمشق ١٩٩١م) .
- عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين ج١٣ ، ج١٤ دار أحياء التراث العربى «ونسخة دمشق ١٩٦١م» .
- ابن العديم : زبدته الحلب فى تاريخ حلب (دمشق ١٩٥٤م) بغية الطلب فى أخبار حلب ج٤ و ج٦ ، دمشق ١٩٧٩ .
- محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٤ « حلب دار القلم العربى » طبعة ١ ، ١٩٢٣ وطبعة ٢ ، ١٩٨٩ .
- محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١٠ ، بيروت ١٩٨٣ .
- مصطفى جواد : « مجلة الكتاب » مصر العدد ٦ لسنة ١٩٤٨م .
- الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب « المطبعة المارونية » .
- الشيخ اقابزرك الطهرانى : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج١ وج٣ ، بيروت ١٩٨٣ .
- المقرئى : الخطط ج١ ، ١٣٢٥هـ - وكتاب السلوك ج١ وج٣ طبع القاهرة ١٩٣٩م .
- ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية - والإعلام .
- القفطى : تاريخ الحكماء « طبعة ليبسك ١٩٠٣م وطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .
- كرد على : خطط الشام ج٢ ، ج٤ (دمشق ١٩٣٨م) ، طبعة ١٩٢٥م .
- ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ، مصر السعادة .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان (١٣٢٣هـ) معجم الأدباء (١٩٣٦م) .

موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل

فى ضوء وثائق الخارجية المصرية

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي (*)

تعددت مصادر تاريخ العرب منذ فجر التاريخ حتى الآن من نقوش وآثار وكتابات وكانت الوثائق بطبيعة الحال مصدر من مصادر تاريخ العرب ومعرفة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحينما دونت الوثائق لم يكن يدر بخلد كاتبها أنها ستكون مرجعا تاريخيا ، بل كانت تدون لحفظ الحقوق ولتنظيم العلاقات سواء على مستوى الدول (كمعاهدات واتفاقيات) أو على مستوى الأفراد (كوثائق البيوع والوثائق الشرعية وغيرها) ووثائق وزارة الخارجية المصرية(*) تعد من أهم مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر نظر لأنها أقدم زمنا من غيرها فى الدول العربية الأخرى.

ولأهمية هذه الوثائق التاريخية قسمت هذه الدراسة قسمين :

(أ) قسم نظرى . (ب) قسم تطبيقى .

أولاً : القسم النظرى :

(أ) كيفية تصنيف هذه الوثائق فى دار الوثائق القومية :

تعد وثائق الخارجية المصرية من الوثائق البكر التى تم السماح للباحثين بالاطلاع عليها منذ فترة ليست بالبعيدة ، وتحفظ معظم هذه الوثائق بدار الوثائق القومية(*) بالقاهرة وهناك مجموعة أخرى محفوظة بقصر عابدين ، وتتناول وثائق الخارجية المصرية كافة المسائل التى تتعلق بالشئون السياسية (داخلية وخارجية) ، والاقتصادية ، والاجتماعية ولم ترصد هذه الوثائق كل ما يتعلق بمصر فحسب بل أنها ترصد ما يتعلق بالدول العربية والدول الأجنبية - أحيانا .

(*) جامعة الأزهر .

ويوجد فى دار الوثائق - فيما يخص وثائق الخارجية - ما يقرب من خمسة
فهارس هى :

١ - الأرشيف السرى القديم « جزءان » .

٢ - الأرشيف السرى الجديد « جزءان » .

٣ - أرشيف الإدارة الاقتصادية .

٤ - أرشيف الإدارة الأوربية .

٥ - الأرشيف العادى .

وقد تم الانتهاء من فهرسة الأرشيفين الأول والثانى ، ويجرى العمل فى
الأرشيفات الثلاثة الباقية .

أما الأرشيف السرى القديم فيحتوى على ما يقرب من (٩٢٣) محفظة ،
بكل محفظة عدد من الملفات المختلفة التى قد يصل بعضها إلى ثلاثين (٣٠) ملف
وبمحصر ملفات هذا الأرشيف ، نجد أنه يهتم بالأمور القنصلية والاجتماعية
والصحية والاقتصادية ، وجاءت غالبية الوثائق بهذا الأرشيف مكتوبة باللغة
الفرنسية باستثناء بعض الوثائق التى كتبت باللغة العربية .

أما الأرشيف السرى الجديد ، ففيه ما يقرب من ألف وستمائة وسبع عشرة
محفظة (١٦١٧) تصل الملفات فى بعضها إلى (١٧) ملف .

وتتناول معظم الوثائق الخاصة بهذا الأرشيف الأمور السياسية ، بالإضافة
إلى الأمور التجارية . ويتناول هذا الأرشيف الفترة من العشرينات حتى بداية
الستينات من هذا القرن .

وجدير بالذكر ، أن الأرشيف السرى الجديد به مادة غزيرة جداً لفترة
الخمسينات ، حيث الأحداث السياسية الهامة التى أعقبت الثورة المصرية عام
١٩٥٢ م . واللغة السائدة فى كتابة هذا الأرشيف هى اللغة العربية ، اللهم بعض

الوثائق الخاصة بفترة العشرينات والثلاثينات والتي كتب بعضها باللغة الفرنسية ، ويعود السبب فى كتابة بعض هذه الوثائق باللغة الفرنسية إلى أنها فرضت كلغة أساسية للعمل الدبلوماسي .

وبالإضافة إلى الأرشفات الخمسة - المذكورة آنفا - هناك بعض الأرشفات الخاصة بدول معينة ، فهناك على سبيل المثال ثلاث محافظ خاصة بالمراسلات الواردة من السفارة المصرية بجدة والرد عليها ، وهى تغطى الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٥٩ م وكلها تقارير سياسية ، اللهم بعض الملفات التى تتناول بعض الأمور الاقتصادية وأمور الحج . هذا بإيجاز عرض لكيفية تصنيف هذه الوثائق وكيفية فهرستها ، وهنا يبرز سؤال وهو : هل من الممكن تزييف تلك الوثائق ؟

الإجابة فى رأى لا ، حيث تعد هذه الوثائق من الوثائق الرسمية ولا يعتد بها إلا إذا كانت ممهورة بخاتم الوزارة أو خاتم السفارة ، مع توقيع الراسل عليها ، فضلا عن أن هذه الوثائق ترسل عادة بالحقيبة الدبلوماسية حسب درجة الأهمية أو السرية .

وهناك أمر آخر وهو أنه حينما كان يتم الرد على الوثائق الصادرة والواردة من وإلى الوزارة كان يرمز إليها برقمها وملخصها فإذا ما دست برقية على السفارة أو على الوزارة كان من اليسير اكتشافها ، خاصة وأن هناك بعض الرموز الاصطلاحية المتفق عليها بين الوزارة والبعثات الدبلوماسية فى الخارج ، وإذا زيفت وثيقة خاصة بالسفارة أو الوزارة كان يمكن اكتشافها من ألفاظها أو من الخاتم الذى تختتم به .

وهناك بعض الأمثلة على ذلك حيث دست بعض المستندات على السفارة المصرية فى بيروت ووصلت المستندات المزيفة إلى السفارة السعودية فى بيروت على أنها صورة طبق الأصل لتقارير صادرة من السفارة المصرية ولكن تم الكشف عن هذه الوثائق من خلال الصياغة التى صيغت بها ، حيث أستعمل المزورون

ألفاظا ، وتعابير سورية ، أو لبنانية ، مما لا يستخدم فى الصياغة المصرية(*) ومن هنا كان الجواب على سؤال عما إذا كان من الممكن تزيف الوثائق المصرية أم لا ؟ ، بالنفى .

(ب) كيفية الاطلاع على هذه الوثائق :

هناك العديد من الإجراءات التى على الباحث أن يتبعها حتى يتسنى له الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية ، وتكون هذه الإجراءات على النحو التالى:

١ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى مدير عام دار الوثائق القومية ، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية .

٢ - يملأ الباحث الاستمارات اللازمة لاستخراج التصريح .

٣ - ضرورة الحصول على موافقة الأمن بدار الوثائق وتستغرق هذه الموافقة ما بين ١٥ - ٤٥ يوما .

٤ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى السيد السفير مدير إدارة المعلومات بوزارة الخارجية المصرية، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية.

٥ - تستغرق هذه الموافقة عدة أشهر تتراوح ما بين شهر إلى ستة أشهر حسب أهمية الموضوع .

٦ - بعد موافقة الأمن بدار الوثائق يتم استخراج تصريح بالاطلاع على الوثائق يدون فيه رقم التصريح ورقم الموافقة ، وجميع البيانات الشخصية للباحث ، وموضوع البحث .

٧ - لا يحق للباحث الاطلاع على الوثائق إلا بعد الحصول على موافقة إدارة المعلومات بوزارة الخارجية .

٨ - غير مسموح بتصوير هذه الوثائق لأنها تعد من الوثائق السيادية ولا يتم التصوير منها إلا إذا وافقت الجهات المعنية بوزارة الخارجية .

٩ - هناك مدة اعتبارية للتصريح الذى يحصل عليه الباحث وهى خمسة أعوام وأحيانا يتم التجاوز عنها لحين الانتهاء من البحث .

١٠ - تسرى هذه الإجراءات على المصريين والعرب والأجانب بدون استثناء .

(ج) أهمية وثائق الخارجية المصرية :

قبل استعراض أهمية هذه الوثائق ينبغى أن نحدد أهميتها وخصائصها .
والواقع إن هذه الوثائق عبارة عن تقارير يومية ترسل من الهيئات الدبلوماسية المصرية (سفارات - مفوضيات - قنصليات) فى الخارج إلى الوزارة والعكس ، وهى تتناول الأحداث الجارية - زمن كتابة الوثيقة - ويستعرض فيها السفير أو الوزارة الآراء المختلفة فى موضوع ما ، وأحيانا يرفق بالمراسلات التى يبعث بها السفراء بعض التقارير التى يكتبها المستشارون والملاحق بناء على تكليف من السفير أو القنصل أو الوزير المفوض . وتكون هذه التقارير ، فى معظم الأحيان مستخلصات للقاءات تمت بين المستشار أو الملحق مع بعض المسئولين فى بلد ما ، بالإضافة إلى مستخلصات لأهم ما تناقلته الصحافة ووكالات الأنباء فى ذلك البلد . وهذه الوثائق ليست خاصة بالمراسلات بين الوزارة والهيئات الدبلوماسية فحسب ، بل تضم أيضا محاضر الجامعة العربية والمراسلات التى تبودلت بين الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات العربية والأجنبية ، بالإضافة إلى نصوص بعض المعاهدات والاتفاقيات (تجارية - اقتصادية - زراعية - سياسية ... الخ) وربما يوجد فيها بعض المذكرات لكبار الشخصيات كمذكرات الملك فاروق ملك مصر ، وكانت تنشر فى بعض الصحف الأجنبية .

أما أهمية هذه الوثائق فلا يمكن الحكم عليها إلا بقراءة بعض النماذج ومنها:

١ - وثائق تبرز التضامن العربى :

فمن الوثائق الهامة التى تبرز التضامن العربى والوحدة العربية تلك المراسلات التى تبودلت قبيل عقد اللجنة التحضيرية لتكوين الجامعة العربية ، والتى انعقدت

فيما بين يوليو / تموز - أغسطس / آب ١٩٤٤ م بين مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر والزعماء العرب ، من أجل تكوين الجامعة العربية وبرز خلال تلك المراسلات حرص العرب على ضرورة إيجاد ممثل لفلسطين في هذه الاجتماعات ، ومدى تضافر الجهود العربية للحفاظ على عروبة فلسطين ، وتتجلى هذه المراسلات وهذه الروح من خلال الرسالة التي بعث بها الملك عبد الله بن الحسين إلى رئيس الوزراء النحاس باشا بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٦٣ هـ الموافق ١٤ أغسطس / آب ١٩٤٤ م مبينا له أهمية تمثيل الفلسطينيين في هذه اللجنة، وموضحا خطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على ما وراءها من بلاد عربية أيضا ، وفي مقدمتها الأردن . وفي نهاية الرسالة اقترح الملك عبد الله بعض الأسماء الفلسطينية لتمثل الجانب الفلسطيني في اللجنة التحضيرية(*) وهناك أيضا الرسالة التي تلقاها النحاس باشا من السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان معربا عن موافقته على الاشتراك في اللجنة التحضيرية ، وكذلك عن أمله في أن يكون هناك ممثلون لفلسطين في تلك الاجتماعات . وفي نهاية الرسالة أعرب له عن أن غياب فلسطين عن الاجتماعات لن يزيد ممثلي شقيقاتها إلا عطفًا على قضيتها وتمسكا بحقوقها(**).

٢ - وثائق تبرز سياسة مصر تجاه بعض القضايا العربية :

من الأمور الهامة التي تناولتها الوثائق المصرية على المستوى السياسى المصرى واتجاهات وزارة الخارجية تجاه القضايا العربية ، ذلك الاجتماع الذى عقد تحت اسم « المؤتمر الدبلوماسى العربى » بتاريخ ٤ فبراير / شباط ١٩٥٠ م ، وهو خاص بوزارة الخارجية المصرية ، حيث حضره وزير الخارجية والسفراء المصريون فى الدول العربية وفى نهاية المؤتمر تم إصدار عدة قرارات سرية للغاية ، ومن أهم - وأخطر - تلك القرارات ما كان يتصل بموقف مصر وسياستها تجاه موضوع

(*) انظر الملحق رقم (١) .

(**) انظر الملحق رقم (٢) .

اتحاد سوريا والعراق (مشروع الهلال الخصيب) حيث صدر عن المؤتمر عدة قرارات فى هذا الشأن منها :

١ - يكون الموقف الرسمى للحكومة المصرية هو الحياد المطلق بين جميع التيارات الموجودة داخل سوريا .

٢ - معارضة الاتحاد بين البلدين بطريق مفتعل .

٣ - تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا .. إلخ(*) .

أى أن القرارات طالبت بأن تكون سياسة مصر فى هذا الموضوع ذات شقين ، شق ظاهرى وهو الحياد المطلق بين جميع التيارات السياسية السورية سواء التى تدعو للوحدة مع العراق أو التى تدعو للوحدة مع مصر ، وشق آخر سرى وهو عرقلة هذا المشروع ومعارضته بصور مفتعله مع تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا حتى يتم فشل المشروع .

٣ - وثائق تبرز تعاون مصر مع جامعة الدول العربية :

وهناك وثائق تظهر مدى التعاون بين مصر وجامعة الدول العربية فيما يختص بالشئون الدولية والعربية ومن ذلك ، تلك المذكرة التى بعثت بها الإدارة السياسية بجامعة الدول العربية إلى وزارة الخارجية المصرية تحيطها علما بطلب إمامة عمان الداخلية الانضمام إلى الجامعة ١٩٥٤ م ، وتطلب من وزارة الخارجية المصرية تزويدها بما تستطيع من بيانات أو دراسات أو وثائق خاصة بشئون إمامة عمان ووضعها السياسى(**)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية . محفظة ١٤٠١ ملف ٤ / ١٩٨ / ١ سرى جدًا " المؤتمر

الدبلوماسى العربى ٤ فبراير ١٩٥٠ م "

(**) انظر الملحق (٣) .

٤ - وثائق تبرز التأيد الشعبى للقضايا العربية :

ومن الوثائق التى تبرز التضامن العربى على المستوى الشعبى ما جاء إبان أزمة السويس من برقيات تندد بالاستعمار والمستعمرين ، وتؤيد الموقف المصرى . ومن هذه الوثائق البرقية التى أرسلها أحد خطباء المساجد فى سوريا إلى الرئيس جمال عبد الناصر مؤيداً له ولسياسته، وينقل إليه عاطفته وعاطفة الشباب السورى تجاه مصر ورئيسها وقضيتها.

٥ - وثائق تصحح بعض الأخبار المغلوطة :

وكما توجد وثائق هامة تبرز لنا التعاون العربى والسياسة العربية وبعض المواقف الشعبية ، فهناك وثائق أخرى على درجة كبيرة من الأهمية ومهمتها تصحيح بعض الأخبار المغلوطة ، ومنها - على سبيل المثال - ما ذكرته إحدى الدوريات الأجنبية Middle East Journal فى عددها شتاء عام ١٩٥٧ م العدد (١١) رقم (١) بتاريخ ٢٢ ديسمبر / كانون أول ص ٧٦ ، بأن وزير خارجية ألمانيا الغربية صرح بأنه «يستعجل حكومته لوقف دفع التعويضات لإسرائيل ودفعها لمصر بدلاً منها» فالباحث فى موقف حكومة ألمانيا الغربية من أزمة السويس عام ١٩٥٦ م حينما يعتمد على هذه الدورية سوف يورد هذا الخبر على أنه حقيقة مسلم بها ، ولكن بالرجوع إلى وثائق الخارجية المصرية ، نجد أن الخارجية المصرية قد تعجبت حينئذ من هذا الخبر لأنه يخالف الواقع ويتنافى مع ما كان يذكره وزير خارجية ألمانيا الغربية من أن بلاده سوف تستمر فى دفع التعويضات لإسرائيل بدون النظر إلى النزاع العربى / الإسرائيلى ، فأرسلت الخارجية بدورها إلى المستشار الصحفى بالسفارة المصرية فى واشنطن - حيث تصدر المجلة - تستعلم منه عن صحة هذا الخبر ، فأرسل الأخير بدوره إلى رئيس تحرير المجلة الذى أفاد « بأن خطأً مطبعياً قد وقع فى كتابة الخبر ، وأن التصريح المشار إليه صدر عن وزير خارجية ألمانيا الشرقية وليس الغربية كما ورد خطأً فى المجلة »(*)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية - محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٨ وثيقتان بتاريخ

١٩٥٧/٥/٢١ م ، ١٩٥٧/٦/١١ م من وكيل الخارجية إلى المستشار الصحفى لسفارة

مصر بواشنطن والرد عليها برقم ١١٥ .

وكان الأمر يستلزم نشر تكذيب أو تصحيح للخبر فى العدد التالى أو فى الأعداد التالية فى نفس المكان كما تنص الأعراف ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث وظل الأمر كما هو بصورته المغلوطة ولكن الوثائق على هذا النحو قد صححت خطأ لم تصححه المجلة التى أوردت الخبر المكذوب .

٦ - وثائق تبرز مساعدات مصر لبعض الدول على المستوى الفردى :

تكتظ وثائق الخارجية المصرية بالعديد من الوثائق التى توضح المساعدات المصرية لبعض الأقطار العربية الشقيقة ، وعلى سبيل المثال تلك البرقية التى وردت إلى الإدارة العربية بوزارة الخارجية من السفارة المصرية بالرباط بشأن الوضع السياسى فى المغرب وكيفية مساعدة مصر والدول العربية لهذا البلد الشقيق . وأهم ما ذكره التقرير فى هذا الشأن هو ضرورة طرد الكادر الفنى الفرنسى الذى تستعين به الحكومة المغربية وإحلال العرب من الفنيين محله وضرورة مناصرة مصر للعناصر المغربية للاتجاه نحو الدول العربية (**).

هذا عرض موجز لأهمية هذه الوثائق سواء فى مجال التعاون العربى أو فى مجال تصحيح بعض المفاهيم والمواقف السياسية .

- أضواء على القسم النظرى :

جدير بنا قبل البدء فى الجزء التطبيقى أن نلقى الضوء على القسم النظرى من خلال الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذه الوثائق ، والاقتراحات التى يمكن بها تلافى تلك الصعوبات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين فى هذه الوثائق منع التصوير منعاً باتاً إلا بالحصول على موافقة الخارجية المصرية ، وهذا لا يحدث إلا فى القليل النادر جداً ، وبجهود خاصة ، مما يجعل بعض الباحثين يحصلون على الوثائق بطرق غير مشروعة . وهنا يجب فتح باب التصوير من هذه الوثائق ، كما هو متبع

(**) انظر الملحق رقم (٤).

فى كبرى دور الوثائق ، وهذا من شأنه أن يعود بالنفع على تطوير دار الوثائق، كما يكون مصدر دخل للدولة ، نظرا لأهمية هذه الوثائق ، التى اتجهت إليها أنظار الباحثين من كل مكان .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين أيضا ، كثرة تكرار صور الوثائق فى الملف الواحد . ويجب هنا تنقية هذه الملفات من الوثائق المتكررة ، حتى لا تكون مطمعا لبعض الباحثين من ضعاف النفوس بنزعها من الملفات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود بعض الوثائق الممزقة ، نتيجة لسوء التخزين والاستخدام ، مما يستدعى ضرورة نقل هذه الوثائق على مصغرات فيلمية أى / « ميكروفيلم » لسهولة حفظه والاطلاع عليه والتصوير منه دون أضرار .

- ومن الصعوبات -أيضا- عدم التطابق بين ملفات المحفظة الواحدة فى الموضوع .
- فى أغلب الأحيان - وعلى سبيل المثال المحفظة رقم ١٣٢٨ بها عدد ثلاث ملفات وهى :

١ - ملف رقم ١٣٩/١٤٢/٤١ ج ٢ « عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن أكتوبر ١٩٥٦ » .

٢ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/١ « المجلس الدولى للأرز - اجتماعات اللجان » .

٣ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/٩ « اللجنة الخاصة يبحث مشاكل تصريف ومداركة السلع الغذائية والزراعية » .

فتلاحظ أن ملفات المحفظة لا يربطها موضوع واحد كما أن الفترة الزمنية متباعدة فالملف الأول فى عام ١٩٥٦ م ، والثانى عام ٥٢ - ١٩٥٣ م ، والثالث ٤٩ - ١٩٥٠ م ، فيجب حصر الملفات الخاصة بموضوع واحد ووضعها فى محفظة أو محفظتين حسب عدد الملفات وتأخذ أرقاما متسلسلة حتى يسهل الاطلاع عليها .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود عناوين لبعض الملفات فى المحافظ ، وبالرجوع إلى محفظة ما ، نجد أن هذا الملف مسحوب وبالسؤال عنه لا نجد إجابة ؟ وعلى سبيل المثال ملف رقم ٣٧ / ٤٠ / ١٣ (أحداث فلسطين السياسية) مسحوب من المحفظة رقم (١٥١٦) .

ومن الأمور التى توضح عدم الدقة فى التصنيف ما لاحظته الباحث فى الملف رقم ١٤ / ١٤ / ١ فى المحفظة رقم ١٢٤٧ حيث أخذ الملف اسم ((الحالة على الحدود النجدية / العراقية)) وبالرجوع إلى الملف وجد أن الورقة الأولى فقط هى التى تتناول هذا الموضوع وباقي الملف لا يمت للموضوع بصلة . وهذا الأمر يستدعى تأليف لجنة متخصصة لقراءة هذه الوثائق وتصنيفها حسب الموضوعات وحسب درجة الأهمية .

وبعد ، فهذه بعض الصعوبات التى قد تواجه الباحثين فى وثائق الخارجية المصرية ، ولكنها لا تمثل شيئاً فى سبيل الحصول على المعلومة المفيدة والجديدة ، وتجعلنا نقف على وجهة النظر المصرية والعربية من خلال وثائق عربية صميمة وليست من خلال الوثائق الأجنبية وحدها .

* * *

ثانياً : القسم التطبيقي :

هذا القسم أفردته للحديث عن « موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ». وهذه القضية تعد من القضايا السياسية ذات الصبغة الاقتصادية ، فالإقتصاد والسياسة عاملان متداخلان ممتزجان من الصعب الفصل بينهما . وترجع فكرة التعويضات إلى عام ١٩٤٣ م وكان صاحبها أحد اليهود الصهاينة فى الولايات المتحدة وهو جورج لاندوير George Landauer ، ثم تولى الصهيونى زجفريد موسى Siegfried Moses أمر عرضها أمام رأى العام العالمى منذ عام ١٩٤٤ (١) .

وقد بدأت المفاوضات المباشرة بين ألمانيا وإسرائيل بشأن هذه التعويضات اعتباراً من مارس (آذار) ١٩٥٢ م ، حيث وافق الكنيست الإسرائيلي على الدخول في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا بشأن التعويضات بأغلبية ٦١ - ٥٠ صوتاً . وقد استمرت المفاوضات ما يقرب من سبعة أشهر تم خلالها الاتفاق على حجم التعويضات وكيفية سدادها ، وانتهت بعقد اتفاقية لوكسمبورج Luxembourg في ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ م (٢) .

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل البرلمان الألماني بمجلسيه البوندستاج (*) Bundestag في ١٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ م ووافق عليها بأغلبية ٢٣٨ ضد ٣٤ وامتناع ٨٦ صوتاً ، والبندسرات (**) Bundesrat في ٢٠ مارس ١٩٥٣ م الذي وافق عليها بالإجماع ، وعقب ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية د. هس Heuss وأصبحت قانوناً نافذاً منذ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ م على أن يبدأ تنفيذها من أول إبريل (نيسان) ١٩٥٣ م (٣) .

وتم استيفاء اتفاق بروكسيل بحلول عام ١٩٦٥ م ولكن كانت هناك بعض التعويضات الفردية تقوم ألمانيا بدفعها للأفراد اليهود الذين تعرضوا أو ذروهم للاضطهاد ، وسوف تستمر هذه التعويضات حتى عام ٢٠٣٠ (٤) .

وكان السبب في عقد ألمانيا لهذه الاتفاقية كما يقول « الهرفون برنتانو Von Brantono وزير خارجية ألمانيا » (أن هذه التعويضات أعطيت لإسرائيل نتيجة لضغوط معينة - حدثت في الماضي - على ألمانيا) (٥) هذا عن اتفاقية التعويضات ، أما عن موقف مصر من هذه الاتفاقية فيدور في محورين :

(*) البوندستاج : أحد مجلسي الهيئة التشريعية في جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) وأهمها وهو يمثل الشعب ويتم انتخابه انتخاباً مباشراً . ويتم انتخاب المستشار .

(**) البوندسرات : المجلس التشريعي الثاني في جمهورية ألمانيا الاتحادية وهو أقل أهمية من البوندستاج لأن السلطة تتركز في البوندستاج وهو يتكون من أعضاء يمثلون حكومات الولايات الألمانية .

(أ) موقف مصر فى الإطار العربى .

(ب) موقف مصر منفردة .

المحور الأول : موقف مصر من اتفاقية التعويضات فى الإطار العربى :

أخذت جامعة الدول العربية على عاتقها منذ إنشائها - وحتى الآن - الدعوة للقضية الفلسطينية ، والعمل على نصرة عرب فلسطين ، وحث الحكومات العربية على انتهاج هذه السياسة (٦) . وعقب بدأ المفاوضات الألمانية / الإسرائيلية - بشأن التعويضات ، جاء أول تحرك عربى فى مارس (آذار) ١٩٥٢ م وكان هذا التحرك من جانب سوريا ، التى اقترحت أن تتحرك الدول العربية لمنع وصول هذه التعويضات إلى إسرائيل ، وفى مقابلة بين الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) والأمين العام لوزارة الخارجية السورية ، اقترح الأخير أن تسعى الدول العربية لدى الدول الكبرى الثلاث (أمريكا - فرنسا - بريطانيا) لكى يعملوا على تحويل مبلغ التعويضات المقرر إعطاؤه لإسرائيل من ألمانيا لصالح لاجئى فلسطين الذين شردتهم الحكومة الإسرائيلية وعددهم ما يقرب من مليون عربى(٧) .

وبناء على الاقتراح السورى ، أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية عن طريق القنصل المصرى بفرانكفورت ، وخلال استفسار القنصل المصرى عن مصير هذه المذكرة من المهر (فون اتسدورف) Von Etzdorf مدير الشؤون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية ، يقول القنصل المصرى (إننى فهمت من حديث اتسدورف أن حكومة ألمانيا الغربية لا تربطها أية صلة رسمية أو غير رسمية بجامعة الدول العربية ، ولهذا يهم حكومة ألمانيا الغربية أن تعرف هل يمكن اعتبار المذكرة المقدمة من الجامعة هى مذكرة الحكومة المصرية فقلت أن مذكرة الجامعة مقدمة فقط عن طريق الحكومة المصرية (٨) . وفى نهاية التقرير ينصح القنصل المصرى بضرورة تقديم مذكرة احتجاج مصرية إلى الحكومة الألمانية ، وأن تحذو باقى الدول العربية حذو مصر ، على أن يصر العرب فى احتجاجاتهم على ضرورة تعويض اللاجئين العرب خاصة وأن المعاهدة لم توقع بعد(٩) .

وبعد توقيع معاهدة لوكسمبورج ، وحينما لم تأت مذكرة الجامعة العربية
بنتيجة مرجوة ، سعت سوريا بطريقة منفردة لدى الحكومة الألمانية ، حيث
أرسلت د . مأمون الحموي المستشار بوزارة الخارجية السورية لمقابلة المسئولين في
الحكومة الألمانية لبحث موضوع التعويضات ، وعقب لقائه بهم تقابل الحموي مع
القنصل المصري فتباحثا في أمر التعويضات ، ثم استقر رأيهما على عدة أمور
كمقترحات تعرض على مجلس الجامعة العربية للنظر فيها ومنها :

١ - اتخاذ قرار جماعي بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا في حالة إذا ما
أقر البرلمان الألماني مشروع الاتفاق .

٢ - إجراء مباحثات بين الدول العربية وبين حكومة ألمانيا على أساس عدم
الموافقة على تعويض إسرائيل بتاتا ، وإلا فيكون تعويضها لأفراد اليهود فقط الذين أضرروا .

٣ - الاحتجاج لدى الحكومة الأمريكية بسبب ضغطها على ألمانيا لدفع
التعويضات لإسرائيل الخ (١٠).

وفي اقتراح آخر من القنصل العام المصري - مع قرب تبادل التمثيل
الدبلوماسي بين العرب وألمانيا - اقترح أن تطلب الحكومات العربية من ألمانيا
التريث في إرسال ممثليها إلى البلاد العربية إلى أن يتضح موقفها من مسألة
التعويضات ، وذلك حتى تشعر الحكومة الألمانية بأن البلاد العربية جميعها جادة في
موقفها مع ألمانيا من اتفاقية التعويضات لإسرائيل (١١).

وعلى الرغم من احتجاجات العرب على توقيع اتفاقية التعويضات أعلن
المستشار الألماني آديناور Adenauer أنه وقع على الاتفاقية « وبذلك فإنه حافظ
على كلمته » (١٢). أي أن هذه الاحتجاجات لم تؤثر في قرارات المستشار
الألماني ، وإن كانت قد أحدثت بعض التأثيرات لدى بعض المسئولين حيث أعلن
وزير الخارجية الألمانية - آنذاك - (فون اكاردت) Von Ekardet أن هذه
الاتفاقية لن تضر بالعرب بأي شكل من الأشكال (١٣). كما أثرت الدعاية العربية

فى بعض الأوساط الألمانية حيث قدم ما يقرب من ثلاثين عضو فى البوندستاج Boundstag يمثلون أربعة أحزاب رسالة إلى الحكومة تحذرهما وتطالب بعدم التصديق على معاهدة لوكسمبورج وضرورة مراعاة رد الفعل العربى (١٤) .

ومع منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ م سافر إلى بون وفد يمثل أعضاء جامعة الدول العربية لمباحثة الحكومة الألمانية فى اتفاقية التعويضات . وقد أجرى الوفد مقابلات مع المسئولين الألمان ، ولم تؤت هذه الاتصالات ثمارها بل أن الوفد لم يفلح فى إقناع المسئولين فى ألمانيا بوجهة النظر العربية (١٥) .

وبعد فشل الوفد وعودته من ألمانيا ، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٥٢ م واتخذت عدة قرارات كان منها:

١ - تقديم مذكرة احتجاج إلى حكومة ألمانيا الغربية تتضمن أنه فى حالة التصديق على معاهدة التعويضات الألمانية مع إسرائيل فستجد دول الجامعة العربية نفسها مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات التى ولا شك ستؤثر على العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا الغربية والدول العربية .

٢ - قبول الدخول فى محادثات مع حكومة جمهورية الاتحاد الألمانى بشأن معاهدة التعويضات بينها وبين إسرائيل ، على أن تجرى هذه المحادثات فى القاهرة بين وفد يمثل ألمانيا ووفد يمثل حكومات دول الجامعة العربية ، ويؤلف من عضو أو أكثر من كل هذه الدول (١٦) .

وبالفعل أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية ، أوضحت فيها التهديد الذى تمثله اتفاقية التعويضات للدول العربية ، وأن هذه الدول لا يمكنها أن تغض النظر عن المساعدة الضخمة التى تقدمها ألمانيا للدولة هى فى حالة حرب معها . وبينت المذكرة أنه نظرا لعدم استجابة الحكومة الألمانية للاحتجاجات العربية - فردية وجماعية - وعزمها على التصديق على المعاهدة ، فإنها مضطرة للدفاع عن مصالحها ، وأنها قد تضطر إلى قطع العلاقات الاقتصادية مع

الجمهورية الاتحادية فوراً » ولما كانت الدول العربية تأمل فى ألا تضطر إلى اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فهى تنتظر أن تقوم الجمهورية الاتحادية فوراً بعمل يتفق مع ما عرضته من بدء محادثات مع الدول العربية بالطرق الدبلوماسية « (١٧) .

ونتيجة للمذكرة العربية ، حذر السياسى الألمانى « فرانز جوزيف شتراوس Franz Josef Strauss » أحد زعماء الحزب الاشتراكى المسيحى فى بيان له فى ٥ يناير (كانون ثان) ١٩٥٣ م ، أن توقيع الاتفاق مع إسرائيل ربما يكلف ألمانيا خسارة فى السوق العربى تصل إلى مليار ومائه وتسعون مليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة (١٨) .

واستمرت جهود مصر بالتعاون مع جامعة الدول العربية فى التضييق على هذه الاتفاقية ، حيث طلبت مصر من الجامعة إدراج قضية التعويضات فى جدول الجامعة ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣ م وذلك نتيجة لخرق ألمانيا وإسرائيل بنود هذه المعاهدة بالسماح لإسرائيل بشراء منتجات من إنجلترا وخصم قيمتها من حساب التعويضات المستحق لها قبل ألمانيا الغربية ، إذا أن إسرائيل بهذا العمل تستطيع الحصول على كل ما تحتاجه من سلع أساسية حربية كانت أو غيرها من كافة أنحاء العالم على حساب اتفاقية التعويضات (١٩) .

وفى لقاء جمع السفير المصرى والقائم بأعمال المفوضية السورية ووزير العراق المفوض بيون اقترحوا خلال اللقاء ضرورة مراقبة تنفيذ نصوص الاتفاقية بدقة كما جاءت ، والحيلولة دون مساعى إسرائيل لتزيد من حصتها باستزعاء انتباه الحكومة الألمانية إلى أن هذا الموقف يعتبر موقفا عدائيا ضد العرب (٢٠) .

ونتيجة لرصد الدول العربية لتنوعية البضائع التى تحصل عليها إسرائيل من أموال التعويضات ، أصدرت الجامعة العربية فى جلستها الثامنة من دور الانعقاد العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م عدة قرارات كان منها « أن تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الألمانية وإفهامها أن هناك مواد وخامات وآلات تصدر إلى إسرائيل من شأنها أن تساعد على تنمية اقتصاديات إسرائيل

وزيادة قدرتها على الإنتاج الحربى ولا يسع الدول العربية السكوت على مثل هذه الأمور» (٢١) .

وحينما أعلنت إسرائيل عزمها على عقد قرض من ألمانيا الغربية بناء على اتفاقية التعويضات ، وقرض آخر من البيوتات المالية الألمانية ، تدارست اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية هذا الأمر فى ١٠/٩/١٩٥٤ م وقررت ما يلى «تبذل الحكومات العربية المساعى اللازمة للتثبت من الأخبار التى وردت من البعثات العربية فى ألمانيا والمتعلقة بسعى إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومات الألمانية وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية ، واتخاذ الوسائل اللازمة لإحياء ذلك المسعى» (٢٢).

وبناء على ذلك استدعى وكيل وزارة الخارجية بالإدارة الاقتصادية ، القائم بأعمال السفارة الألمانية بالقاهرة وأبلغه ما سترتب على ذلك النبأ - إن صح - من استياء شديد فى مصر وفى الدول العربية مما يعرض العلاقات بينهم وبين ألمانيا للخطر ، فأنكر القائم بالأعمال معرفته بهذا الخبر حتى يستعلم عنه من حكومته وفى ٩ / أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤ م تقابل مرة أخرى مع مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة وأخبره نفى حكومته نفيًا باتًا لهذا الخبر ، وأنه لا علم لها بالمفاوضات الدائرة بين بعض البيوتات التجارية الألمانية وإسرائيل (٢٣).

واستمرارا لجهود الجامعة العربية لوقف أى قروض جديدة من ألمانيا لإسرائيل قررت فى اجتماعات اللجنة السياسية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٥٥ م (مواصلة السعى الدبلوماسى لدى ألمانيا الغربية لإحياء محاولة إسرائيل الحصول على قروض منها) (٢٤) .

وتوالت اجتماعات العرب الرسمية وغير الرسمية ، ومن بينها ذلك الاجتماع الذى عقده رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول العربية فى بون بتاريخ ٢٢/٦/١٩٥٦ م ناقشوا خلاله موافقة المجلس النيابى الألمانى البوندستاج Bundestag فى جلسته بتاريخ ٦ / يونية (حزيران) ١٩٥٦ م على مشروع

قانون لزيادة المبالغ المخصصة لتعويض جميع من اضطهدوا في ألمانيا خلال الحكم النازي . وفي نهاية اللقاء أصدر المجتمعون قرارا بضرورة الاتصال بحكوماتهم لشرح الموقف ذاكرين (أن ما يخشى الآن ليس صدور القانون الجديد لزيادة مبالغ التعويضات فحسب ، بل يخشى أيضا ألا تكون هذه الزيادة هي الأخيرة ، وأنه يجب اتخاذ إجراء جماعى سريع للإضرار بمصالح ألمانيا الاقتصادية في البلاد العربية ، حتى تشعر ألمانيا بسخط الدول العربية على موقفها إزاء اليهود عسى أن يتحرك رأى العام الألماني ويندد بسياسة حكومته (٢٥). وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر أرسلت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٦ م أخبرتها فيها بأن ألمانيا - رغم وقوع العدوان على مصر واشتراك إسرائيل فيه - لا زالت مستمرة فى دفع التعويضات مما يقوى الجانب المعتدى ، واقترحت أن تقوم وزارات خارجية الدول العربية باستدعاء ممثلى الحكومة الفيدرالية وإبلاغهم (قلق الحكومات العربية من سياسة ألمانيا الغربية فى هذا الشأن) (٢٦) . وقد أرسلت الحكومات العربية مذكرات بهذا المعنى إلى الحكومة الألمانية ولكنها لم تجدد نفعا (٢٧) . وفى الاجتماع الذى عقده المبعوثون الدبلوماسيون العرب فى بون فى ٨ مايو (آيار) ١٩٥٧ م تدارسوا أمر إرسال برقية احتجاج موحدة للحكومة الألمانية حول استمرارها فى دفع التعويضات لإسرائيل ، فرأى المجتمعون أن هذه المذكرة قد تخرج موقف البعثات العربية فى ألمانيا إذ أن الحكومة الألمانية قد تمتنع عن قبولها من الناحية الشكلية ، وقد رأى المجتمعون « أنه من المتعذر حمل ألمانيا على الرجوع عن قرارها بدفع التعويضات بعد مضى فترة طويلة وبعد أن تم دفع معظم هذه التعويضات » (٢٨) .

وهكذا اقتنع الدبلوماسيون العرب فى ألمانيا باستحالة تغيير هذه الاتفاقية وأدركوا أنه يجب على العرب أن يتخذوا خطوات أخرى بديلة للعمل الدبلوماسى وهو العمل الموحد من كافة الدول العربية باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ألمانيا ،

مع الإشارة إلى أن أى تهديد كلامى يضعف موقف العرب من مشكلة التعويضات ومن أى مشكلة مستقبلية بين العرب والحكومة الألمانية (٢٩) .

- المقاطعة العربية :

كانت المقاطعة العربية خاصة بإسرائيل ، وكان الهدف منها عمل حصار اقتصادى على إسرائيل حتى تضعف ويسهل بعد ذلك القضاء عليها ، وعقب التوقيع على اتفاقية التعويضات أعلنت دول الجامعة العربية مرارا وتكرارا أنها سوف تقاطع ألمانيا اقتصاديا إذا تم التصويت على المعاهدة . وعقب التصويت عليها اتخذت اللجنة السياسية عدة قرارات بعدم استيراد بضائع ألمانية بصورة غير مباشرة حتى لا يكون ذلك وسيلة لتهريب بضائع لحساب إسرائيل ، وإجبار المستوردين من ألمانيا على الحصول على شهادات من السلطات الحكومية المختصة والغرف التجارية أو اتحاد الصناعات بألمانيا تثبت أن البضائع المصدرة للبلدان العربية هي لحساب المصانع ولا تشكل جزءاً من التعويضات الألمانية لإسرائيل ، على أن تعتمد هذه الشهادة من إحدى القنصليات أو المفوضيات العربية بألمانيا . ولتنفيذ هذه التوصيات ، أوصت اللجنة بتعين موظف أو أكثر يتبع المكتب الرئيسى للمقاطعة ويكون مقره ألمانيا (٣٠) .

وأضاف المجلس الاقتصادى للجامعة بندا ينص على مطالبة مكاتب المقاطعة بتحري وجمع المعلومات والوثائق الخاصة بتصريف بضائع التعويضات الألمانية المسلمة لإسرائيل فى بلد آخر (٣١) ، حتى لا تتسرب تلك البضائع إلى الدول العربية عن طريق بلد ثالث .

وبناء على ذلك أخذت مكاتب المقاطعة العربية تتحرى عن الشركات التى يشتبه فى تعاملها مع إسرائيل وتصدر بضائع إلى الدول العربية (*) .

(*) انظر على سبيل المثال : محفظة رقم ٧٨٩ ملف ١٤٠/١٢٣/ج ١٣ (مكتب مكافحة التهريب لإسرائيل) . تقرير عن الاجتماع الرابع الذى عقدته لجنة الاتصالات العربية فى بون بتاريخ ٨/٧/١٩٦٠ م بتاريخ ٢٢/٨/١٩٦٠ م برقم ب/م/٤ .

وقد يتسائل البعض ، ما مدى تأثير هذه المقاطعة على إسرائيل ؟

مما لا يدع مجالاً للشك أن المقاطعة العربية لإسرائيل قد أثرت بصورة كبيرة على مصالح إسرائيل الاقتصادية ، وأنها - كانت - تمثل خطراً حقيقياً على إسرائيل . ومما يؤيد ذلك ، أن إسرائيل سعت في تلك الفترة إلى إنشاء إدارة خاصة في وزارة الخارجية الإسرائيلية تسمى «إدارة التخطيط السياسى الاقتصادى» وتكون مهمتها إعداد الخطط اللازمة لمقاومة المقاطعة الاقتصادية التى يفرضها العرب ضد إسرائيل (٣٢) .

وهنا تبرز أهمية العامل الاقتصادى فى تحقيق الأغراض السياسية إذا ما توحدت الكلمة والجهود وخلصت النيات .

هذا عن موقف مصر من قضية التعويضات فى الإطار الجماعى العربى .

المحور الثانى : موقف مصر من قضية التعويضات منفردة :

كانت العلاقات المصرية الألمانية تسير سيرا طيباً عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكانت مصر أول دولة عربية تعلن إنهاء الحرب مع ألمانيا ، ثم تبعتها باقى الدول العربية (٣٣) . وعلى الجانب الاقتصادى دخلت مصر مع ألمانيا فى عدة اتفاقيات تجارية كان أولها ذلك الاتفاق الذى أبرم فى ٢١ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ م . (*) ولكن عقب إعلان اتفاقية التعويضات تحركت مصر لأن مركزها فى العالم العربى هو مركز الزعامة الأدبية الذى يتطلب منها عناية كبرى بجميع الحوادث التى تقع فى تلك البلاد مع الإلمام بجميع التيارات السياسية القائمة فيها ودراسة الاتجاهات التى تنتهجها تلك التيارات والمرامى التى تستهدفها . ومن هذا المنطلق جاء موقف مصر المتبع لقضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ، فقبل إبرام الاتفاقية سعت مصر لعمل دعاية مضادة لها إلا أن قنصل مصر العام فى

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاتفاق انظر : وثائق الخارجية المصرية محفظة ١٣٢٩ ملف

١٣٠ / ٧٤ / ٢ (العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا) .

فرانكفورت نصح حكومته بالقيام أولاً « بحس نبض » الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية خطوة علنية ، كما نصح « بحس نبض » الجهات الألمانية بصفة سرية لمحاولة وقف أى اتفاق مع اليهود (٣٤) . وبالفعل قام السفير المصرى بواشنطن بمساعده لدى المسئولين فى الولايات المتحدة ، بناء على طلب الحكومة المصرية ، فتقابل مع وكيل الوزارة المساعد لشئون الشرق الأوسط ، فأوضح له الأخير أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين الطرفين فى شأن يخصهما (٣٥) . وعقب عقد الاتفاقية أعدت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة لخصت فيها موقف مصر من الاتفاقية ، وكيف أن ألمانيا بهذه الاتفاقية قد انتهجت سبيلاً مناقضاً لسياسة الصداقة التقليدية نحو المسلمين والعرب ، وأن إسرائيل لم تكن دولة حينما وقع عدوان على اليهود من النازى - إن صح - فليس لها الحق فى أن تحصل على التعويضات نيابة عنهم ، وقد أبلغت إدارة الصحافة بهذه المذكرة لإبلاغها لبعض الصحفيين الألمان لتنشر فى ألمانيا (٣٦) .

وفى أحد التقارير الواردة للوزارة من السفارة المصرية بيون تعرض السفير للأسباب التى دعت ألمانيا لعقد تلك الاتفاقية وحصرها فى عاملين :

- ١ - حاجة ألمانيا الشديدة - فى ذلك الوقت - لمساعدة أمريكا السياسية والاقتصادية وتوسلها لذلك عن طريق إرضاء الصهيونية الأمريكية.
- ٢ - وجود نوع من التعاطف - عند بعض من يتولون الحكم فى ألمانيا - تجاه اليهود .

وتوقع السفير - فى نهاية التقرير - أن لا تصمد الاتفاقية أمام تفاعل الزمن ، وأوضح أنه خلال لقاءاته مع المسئولين الألمان كان يؤكد لهم بأن الحكومة المصرية وسفارتها بصفة خاصة لن تغفل عن مراقبة كل ما تلجأ إليه إسرائيل من الأحابيل فى تنفيذ الاتفاقية (٣٧) .

وبالفعل بدأت الحكومة والمخابرات المصرية فى تتبع سير تطبيق الاتفاقية ، ومن ذلك ما قامت به إدارة المخابرات من تحر عن استلام إسرائيل لأربعة سفن من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات ، وأن هذا يخالف نصوص الاتفاقية لأن السفن تعتبر من المعدات الإستراتيجية ، وهذا لا يتفق مع ما سبق أن أعلنته الدول الكبرى من ضرورة مراعاة الحياد التام بين البلاد العربية وإسرائيل (٣٨) .

ومحاولة منها لمنع تسرب بضائع التعويضات إلى مصر والدول العربية، سعت مصر من خلال سفيرها فى بون لدى الحكومة الألمانية تطلب منها ضرورة وضع علامة مميزة على المصنوعات التى ترسل إلى إسرائيل كجزء من التعويضات ، واقترحت أن يكتب عليها Made In Germany For Israel حتى يمكن تمييزها عن باقى البضائع والمصنوعات الألمانية العادية(٣٩).

وفى تحريات أخرى قامت بها السفارة المصرية فى بون عن طريق السيد عبد اللطيف فهمى العيسى المستشار فى السفارة خلال لقائه بالدكتور « فوجت » Dr. Voigt رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية حول الشائعات التى كانت تثار حول حصول إسرائيل على أسلحة من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات نفى الأخير تلك الشائعات وأوضح أن اتفاقية التعويضات بها نص صريح يحرم على ألمانيا تزويد إسرائيل بأى نوع من أنواع السلاح . بموجب هذه الاتفاقية(٤٠) .

وفى لقائه بوزير الاقتصاد الألمانى إرهارد Erhard أبلغه القنصل العام المصرى رسميا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ أن مصر - والدول العربية - سوف تقطع علاقاتها الاقتصادية بألمانيا فى حالة التصديق على الاتفاقية ، فإجابة الوزير بأن تصريحه يخالف تصريحات اللواء محمد نجيب خلال لقائه مع السفير الألمانى فى القاهرة ، فأجابه القنصل بأنه تلقى تعليمات جديدة من وكيل الخارجية بالتليفون فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) تؤيد ما قاله وهى أن اللواء نجيب كان شخصيا ضد

الاتفاقية ، وأن حديثه مع السفير الألماني كان مجرد الترحيب به لمناسبة وصوله إلى القاهرة (٤١) .

وبمناسبة طرح موضوع مقاطعة ألمانيا اقتصاديا اختلفت الآراء في مصر حول هذا الموضوع ، حيث طالبت بعض الأصوات الدبلوماسية بضرورة مقاطعة ألمانيا اقتصاديا ، لما سببته اتفاقية التعويضات من أضرار معنوية وسياسية لمصر وللعرب جميعا وطالبت بعض تلك الأصوات - المؤيدة للمقاطعة - بضرورة دراسة موضوع المقاطعة من جميع نواحيها ونتائجها قبل الخوض فيها (٤٢) . كما علقت وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية) على موضوع المقاطعة بأنه يجب دراسة العلاقات الاقتصادية بين العرب وألمانيا جيدا بمعرفة إحصائيين على ضوء حاجة الاقتصاد العربي (٤٣) .

وعلى الجانب الآخر نجد من يحذر وبشدة اتخاذ أى قرار بمقاطعة ألمانيا اقتصاديا . ومن ذلك تلك البرقيات التي وردت إلى الوزارة من السفارة المصرية بنيويورك توضح أن جميع الدول العربية إذا قاطعت ألمانيا لن تفقد هذه الدول شيئا، إذ أنه يكاد ألا يكون هناك تعامل بينها وبين ألمانيا ، هذا بخلاف مصر التي لها معاملات مع ألمانيا أكثر من أى دولة عربية أخرى ، وفى النهاية نبهت تلك البرقيات إلى « أن ألمانيا الغربية تتمتع الآن برخاء اقتصادي ، فقد يكون من المناسب أن نطلب إليها منحنا بعض الامتيازات الاقتصادية نظير ما تقوم بدفعه من تعويضات لإسرائيل » (٤٤) .

وبناء على هذا رأى لم تأخذ مصر بالرأى القائل بالمقاطعة ، والدليل على ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا لم تتأثر بعد اتفاقية التعويضات (*) .

وحينما أثارت سوريا مسألة تحويل بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين سعت مصر لدى ألمانيا وبعض الحكومات الغربية عسى أن تحصل على

(*) انظر جدول الصادرات والواردات بين ألمانيا والدول العربية . Feldman : op . cit . p.p .

موافقتها على ذلك ففى لاهائ سعى السفير المصرى لى نظيره الالمانى حتى يثير هذه المسألة لى حكومته . وحينما أرسل السفير الالمانى إلى حكومته فى هذا الأمر أجابت عليه الخارجية الألمانية « بأن الجهات المسئولة فى ألمانيا الغربية ترى أنه ليس من اختصاص السفارة الألمانية بلاهائ البحث مع ممثل الحكومة المصرية فى هذا الموضوع بل هو من اختصاص ممثل مصر لى حكومة ألمانيا الغربية » (٤٥) . وقد قامت مصر بمساعى مماثلة لى تركيا وفرنسا إلا أنها باءت بالفشل (*) ، أما على الجانب الأمريكى ، التى رأت الإدارة العربية ضرورة مفاآته فى أمر تعويض اللاجئين العرب بسبب نفوذ الولايات المتحدة على إسرائيل ، وما تفيض عليها به من مساعدات مالية متنوعة ، فقام السفير المصرى فى واشنطن بمقابلة وكيل الوزارة المساعد المختص بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ، وأوضح له وجهة نظر مصر - والدول العربية - فى هذه المسألة ، فكان رده أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين طرفين فى شأن يخصهما ، فذكره السفير المصرى بأن أمريكا سوف تساعد ألمانيا فى دفع هذه المبالغ وتخصيصها لتعويض اللاجئين العرب ، فرد عليه الوكيل المساعد بأن أمريكا سوف تدفع هذه التعويضات عينا - حاصلات ومصنوعات - على آجال طويلة (٤٦) .

وبذلك فشل المسعى المصرى فى إقناع الحكومة الألمانية وبعض الحكومات الغربية فى تحويل جزء من مبالغ التعويضات لحساب اللاجئين العرب ، - وجاءت تلك المساعى - على الرغم من إدراك الحكومة المصرية جيدا باستحالة تحقيق

(*) انظر ذلك المسعى فى : المصدر نفسه نفس المحفظة والملف ، برقية من وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) إلى سفير مصر بباريس سرى بتاريخ ١٠ / يونيو ١٩٥٢ م ، رد السفير المصرى بأنقرة على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ٣ / يونيو ١٩٥٢ م برقم ١٤٨ ، ورد السفير المصرى بباريس (محمد وجيه رستم) على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٧ / ٦ / ١٩ برقم ٤١ .

الغرض منها من النواحي القانونية ، إذ أن ذلك قد يعرض ألمانيا للمطالبة مرة ثانية بالتعويضات إلا إذا وافقت إسرائيل على دفع التعويض المستحق لها إلى جهة أخرى (٤٧) .

وحيثما تسربت بعض الأنباء عن تصريف بضائع التعويضات في بعض البلدان العربية عن طريق بلد ثالث كان على الحكومة المصرية أن تعمل على التحرى عن كيفية تصريف تلك البضائع ، فأرسلت الخارجية المصرية إلى نظيرتها الألمانية تستعلم منها عن محاولة إسرائيل تصدير بضائع ألمانيا إلى تركيا ، فردت الحكومة الألمانية عن طريق السفير المصرى فى بون بضرورة أن تكون هذه الوقائع مستندة إلى أدلة ثابتة على وقوع المخالفة ليتيسر للحكومة الألمانية أن تتخذ الإجراءات المناسبة بتوقيع الغرامة المنصوص عليها فى المادة الخامسة على إسرائيل ، ولحفظ البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية فى مستواها المعروف دون خلق منافس لها وهو أمر يهم الاقتصاد الألمانى (٤٨) .

وقد ظل موضوع تصريف البضائع فى الدول العربية عن طريق بلد ثالث يشغل بال الحكومة المصرية ، حيث نجا إلى علمها أن إسرائيل قد صدرت إلى تركيا سيارات من أموال التعويضات ، وسوف تقوم تركيا بدورها بإعادة تصديرها إلى مصر ، فأرسلت الخارجية المصرية بذلك إلى سفيرها فى أنقرة الذى كلف القنصل العام المصرى فى إستنبول بإجراء التحريات اللازمة فى هذا الشأن ، فجاء تقريره ينفى هذا الخبر ، وأن السيارات التى تستوردها تركيا من إسرائيل هى من السيارات التى يتم تجميعها فى إسرائيل وليست من السيارات الألمانية ، وأن تركيا تستوردها للاستخدام المحلى ، وفى نهاية التقرير أكد القنصل العام «أن إعادة تصدير السيارات الألمانية إلى مصر فكرة بعيدة الاحتمال» (٤٩) .

ويمكن القول ، أن الحكومة المصرية قد ارتاحت لتأكيدات المسؤولين فى ألمانيا الغربية بأن تصريف البضائع الألمانية المصدرة إلى إسرائيل إلى بلد ثالث أمر غير وارد نظرا لمخالفته لاتفاقية التعويضات ولأضراره الجسيمة على الاقتصاد الألمانى وهو أمر لا تقبله ألمانيا .

وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م أعلن وزير خارجية ألمانيا الهـر (فون برنتانو - Von Brentano) - أثناء نظر العدوان الثلاثى على مصر أمام هيئة الأمم المتحدة - أن ألمانيا سوف تستمر فى دفع التعويضات إلى إسرائيل حتى لو أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع العقوبات على إسرائيل(٥٠) . وفى ردها على مذكرة الخارجية المصرية ، أعلنت الخارجية الألمانية أنها لا توافق على وجهة نظر السفارة المصرية التى أوضحتها فى مذكراتها بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٦ م بأن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل قد يكون له تأثير فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الألمانية وإسرائيل(٥١) .

ومع إصرار الحكومة الألمانية على دفع التعويضات إلى إسرائيل أوعزت الخارجية المصرية إلى جامعة الدول العربية بأن تطلب من الدول الأعضاء الإيعاز إلى ممثلها فى ألمانيا بتقديم مذكرة احتجاج إلى الحكومة المذكورة لاستمرارها فى دفع التعويضات إلى إسرائيل رغم عدوانها على مصر(٥٢) . ولكن الخارجية الألمانية ردت على مذكرة الدول العربية بعدم قبولها وجهة النظر العربية(٥٣) .

وعلى الرغم من موقف ألمانيا غير الودى تجاه مصر أبان أزمة السويس ، فإن الخارجية المصرية استبعدت نهائيا قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وعللت ذلك بأن دول أخرى اتخذت نفس الموقف ولم تقطع مصر علاقاتها معها ، وأن ألمانيا كان يحركها عامل آخر وهو أنها إحدى الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى وارتباط سياستها بعجلة السياسة الغربية، ووازنت الخارجية المصرية بين الفوائد والأضرار التى ستجنى من وراء قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وأن إسرائيل سوف تكون المستفيد الأول من وراء ذلك(٥٤) .

أما فيما يتعلق بموضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل، فقد أعلنت ألمانيا مرارا وتكرارا خلال الخمسينات أنها لن تقيم أى علاقات دبلوماسية مع إسرائيل خشية إغضاب الرأى العام العربى الذى مازال متأثرا باتفاقية التعويضات (٥٥). وقد أكد الدكتور « فوجت VOIGT » رئيس قسم الشرق فى الخارجية الألمانية لمستشار السفارة المصرية بيون أن القنصلية العامة البريطانية فى حيفا هى التى تتولى نيابة عن ألمانيا الشئون القنصلية الخاصة بها (٥٦).

وعلى الرغم من تأكيدات المسئولين فى الخارجية الألمانية بعدم تبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة اعتراف ألمانيا بإسرائيل، حيث أكد كبار الفقهاء الألمان فى القانون الدولى أن اتفاقية التعويضات التى وقعت مع إسرائيل ترتب عليها اعتراف واقعى بإسرائيل De Facto (٥٧). وأكدوا على أن الخطوة التالية لهذا الاعتراف هى إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين (٥٨).

وحيثما عرضت مسألة اعتراف ألمانيا بإسرائيل على بساط البحث فى أروقة السياسة العربية، أثارت معها مرة أخرى مسألة قطع العلاقات مع ألمانيا، فكان رأى بعض السياسيين المصريين أن قطع العلاقات مع ألمانيا فيه ضرر كبير على المصالح المصرية، إذ أنه سيعرّم مصر من مصدر كبير لاحتياجاتها، وسوقا مهمة لمنتجاتها، فالمصلحة - كما يقول الوزير المفوض المصرى بالسفارة المصرية بواشنطن - تقتضى « أن تغلب الاعتبارات العملية عند بحث موضوع اعتراف ألمانيا بإسرائيل، لأن أى عمل نتخذه ضد ألمانيا سيكون ضرره علينا أكبر من ضرره على ألمانيا » (٥٩).

أضواء على القسم التطبيقي :

بعد دراسة موقف مصر من قضية التعويضات على المستويين الجماعى العربى والفردى، نجد أن مصر قد تعاونت تعاوننا طيبا مع باقى الدول العربية من أجل إبطال مفعول هذه الاتفاقية، أو الحصول على بعضها للاجئين العرب،

وعلى الرغم من الجهود المشتركة فى تلك القضية إلا أنها لم تؤت ثمارها ، حيث أدرك السياسيون فى ألمانيا أن العرب يقولون ولا يفعلون وهذا ما أكدته بعض المصادر ، فالمستشار الألمانى أديناور Adenauer أدرك أن تهديد العرب بمقاطعة ألمانيا كان عقيما (٦٠) ، ومن ناحية أخرى فإن د . ويستريش Dr : Westrich - الذى كان قد أرسله أديناور إلى القاهرة قبيل التصديق على المعاهدة لمقابلة الزعماء العرب - نصح حكومته عقب عودته من القاهرة بالتصديق على المعاهدة فورا لأنه شعر خلال لقاءاته بالزعماء العرب فى القاهرة أنهم لن يفعلوا شيئا أكثر من تقليل علاقاتهم مع بون (٦١) . وهذا يعنى أن ألمانيا لم تعر معارضة العرب للاتفاقية التفاتا ، وسارت فى تطبيق الاتفاقية بخدافيرها ، بل كانت تعطى لإسرائيل قروضا إضافية طالما أن العرب لن يفعلوا شيئا !

أما موقف مصر منفردة فقد عملت على إتباع سياستين ، إحداهما علنية والأخرى سرية ، فالعلنية جاءت لتعلن رفضها للاتفاق وتهديد من حين لآخر بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا ، بينما جاءت قراراتها غير المعلنة بالعمل على الحصول من ألمانيا على أكبر قدر من الفوائد ، حيث أدركت أن قطع العلاقات - سياسية واقتصادية - مع ألمانيا سوف يضر بمصر ولا ينفعها ويؤثر على التوازن الذى تريد أن تحافظ عليه فى سياستها الخارجية ، أى أن مصر من خلال الموقف الفردى كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، مع القيام فى الوقت نفسه بمجهودات أخرى لمتابعة الممنوعات التى تصدر من ألمانيا لإسرائيل كأسلحة وغيرها ، والقيام بمسعى للحصول على بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين .

وهنا يبرز سؤال وهو ما السبب فى عدم تحقيق الأهداف العربية تجاه قضية التعويضات ؟

من خلال الدراسة وضح مدى تأثير المقاطعة العربية على إسرائيل من الناحية الاقتصادية ، مما جعل الأخيرة تقوم بإنشاء إدارة خاصة لمواجهة هذه المقاطعة ،

ويرجع السبب فى ذلك أن الدول العربية جميعها الأعضاء وغير الأعضاء فى الجامعة العربية تكاتفت من أجل إنجاح المقاطعة لأن المصلحة العربية اقتضت ذلك ولخطورة ذلك العدو على الجميع على حد سواء وإذا كانت المقاطعة العربية قد كان لها تأثير على إسرائيل بسبب اتحاد موقف الدول العربية ، فإن موقف هذه الدول إزاء ألمانيا لم يحقق نفس النجاح لأن كل دولة من الدول العربية لم تتخذ موقفاً موحداً ، بل كانت كل دولة من الدول العربية تنظر إلى الموضوع نظرة فردية ، ماذا ستكسب وماذا ستخسر من الضغط على ألمانيا وقطع العلاقات معها؟

ويقينى أن الاقتصاد هو المحرك الأول للسياسة ، ونحن كعرب نستطيع أن نحقق الكثير من الأهداف عن طريق الضغط الاقتصادى مع دائرة توسيع التعاون الاقتصادى بحيث تشمل كتلة الدول الإسلامية التى يهددها الخطر - إن عاجلاً أو آجلاً - فالعالم العربى والإسلامى من الأهمية الاقتصادية بمكان حيث يستطيع التأثير على مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية .



عبد بن الحسين

عمامة في ٢٥ شعبان ١٣٦٣

الموافق ١٤ أغسطس ١٩٤٤

شرفه صاحب المقام الرفيع مسداني النحاس باننا رئيس الوزارة الجليلية المصرية

يا صاحب الرفعة ،

لقد عاد عبد المنعم يا الرفاعي بما شرح الصدر وأطلع القواد كما هو المأمول والمعروف عن رفعتكم . وسيتشرف رئيس الوزارة الأردنية لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة ان شاء الله في الوقت المحدد . وانما للفائدة رأيت أن أكتب رفعتكم أقدرى من حضور فلسطين وتمثيلها في المؤتمر وأنه أمر ضروري غاية في الخطورة لأنني اعتقد جازما أن اغفال فلسطين هو اسقاط حق لها يجب ان لا يغفل ، ولذلك كنتم رفعتكم تصرون على هذا التمثيل وتعملون المعجزات ، الحبيب المنة يسمي كان منهم في المؤتمر العربي بلندن . أما الآن فلي أن أقول بأنه لما رفع الاعتداء الأخير من الصهيونيين على المندوب السامي المودع تبين بجلالة خفايا اليهود على فلسطين وتوثيقهم الى ما وراء فلسطين ، واننا بنهية جوارنا القريب فإن الدعوى الصهيونية تهددنا هنا قبل ان نطرح آخر عليه فأمر حفظ كيان فلسطين وسلامتها هو أمر حيوي لشرق الأردن ، واننا أشرنا على حكومتنا بأمر اصد رناه في ان تتخذ ما يجب لتأمين هذا الغرم الشريف . وان تذاكر الجهات البريطانية وتعلمها بأن فلسطين هي الخط الأول للدفاع عن شرق الأردن وما وراءها من الأقطار العربية واننا سنتخذ الحيطة اللازمة لسلامة فلسطين بعد أن اتفق من الدعاة يوثيقين الأمر الى التجاوز على الحكامة ومراكزها وعلى مندوبيها السامي وأنه مع هذا فإن الأمة العربية لا تغلق الباب متى عرضت عليها التسمية الكافلسية لفلسطين العربية سلامتها وسيادتها . فوالحالة هذه ترون رفعتكم أن أمر تمثيل فلسطين في المؤتمر هو بالنسبة اليها في الدرجة الأولى وأن الاراء في شرقي الأردن وفلسطين واحدة في هذه المعضلة القومية ، لذلك استدعيت سعادة القنصل العام لسر بالقدس لينقل الي رفعتكم كتابي هذا بالواسطة السريعة الأمانة ولتنوير المسألة اقدم لرفعتكم قاشة بأسماء الدوات الذين ارجو ان تتفضلوا بأرسال كتب الدعوى الى حضراتهم ليحضروا المؤتمر موضحا فيها اسم الحزب الذي ينتمي اليه كل من حضراتهم .

ملحق رقم	١
----------	---

حضرة صاحب القام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر

تلقيت دعوتكم الكريمة للاشتراك في اللجنة التحضيرية التي ستعقد
بمصر في اواخر يوليو - أغسطس سنة ١٩٤٤ تمهيدا لمؤتمر الوحدة العربية الذي
كان لكم فضل الدعوة اليه .

ومعربي ان اجيب رفقكم بان الحكومة اللبنانية قررت تلبية هذه
الدعوة على ان يمثلها في اللجنة رئيس ورائها وزير خارجيتها .
وانني انتهز هذه الفرصة لعرب لرفعتكم عن وافر تقدير للجهود
التي بذلوها في هذا السبيل وعن تقني الكاملة بالنجاح بفضل حكمتكم واخلاصكم
ولقد اسفت اشد الاسف لبقاء الرعيين الفلسطينيين السيدين جمال الحسيني
وامين النعيمي في الاعتقال برغم الجهود الكريمة التي بذلتوها لاعادة الحرية
اليهما حتى يتمكن من تمثيل فلسطين المزيعة في هذه الاجتماعات خير تمثيل .
واني لشديد الرجاء ان جهودكم التي لن تنقطع في هذا السبيل ستؤول الى النجاح
قربها بأذن الله . على ان غياب فلسطين لن يزيد مثلي - شوقاتها الا عطفًا
على قضيتها ونمسا بحقوقها .

وغضلوا رفقكم بقبول جزيل الاحترام . / .

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٤٤

رئيس مجلس وزراء لبنان

رياض الصير

ملحق رقم	٢
----------	---

الامانة العامة

الادارة السباحية

٢٤/٤/٥٠

القاهرة في ١٠ ديسمبر ١٩٥٤

٥٥٥٠

مذكورة

تهدي الامانة العامة لجامعة الدول العربية اطيب تحياتها الى وزارة خارجية
جمهورية مصر وتتشرف باطلاعها ان مجلس الجامعة وافق
بجلسة ١١ ديسمبر ١٩٥٤ على التوجيه الآتي للجنة السباحية في اجتماعها مسن
٢٠ نوفمبر الى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وهي :

• طلب عمان الداخلية الانضمام الى الجامعة :

• احبطت اللجنة علنا برسالة امام عمان الداخلية ، وادعت بانتظار نتيجة
ماتقوم به الامانة العامة المستعينة بالدول الاعضاء من دراسات لامانة عمان .

وذلك رجاء التفضل بتزويد الامانة العامة بما قد يكون لديها او تقف عليه مسن
بيانات او دراسات او وثائق تعرف بمشئون امانة عمان ، او تبين وضعها السياسي .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب للوزارة الجليلة عن فائق احترامها .

الى وزارة خارجية جمهورية مصر

القاهرة

١٢/١٢

أوراضيفت

مريش

١٢/١٢

نظر رئيس كمانة لدية ويحال الى قسم البورد لدية
الرئيسية للتفطن بالتم

١٩٥٤/١٢/١٢

ملحق رقم ٣



عبد بن الحسين

عماد في

وانني اعتقد أن هذا هو الحل الرائع لنا جميعا وان سعادة القنصل العام سيقدم اليكم
رجاء خاصا بعد عرضتي هذه كي تتخذوا بالقيام بتنفيذ ملتئمنا في ارسال كتب الدعوة .
وتفضلوا مقامكم الرفيع بقبول فائق المودة والاحترام .



عبد الله بن الحسين

اللجنة التمثيلية الفلسطينية العربية المقترحة ايفادها المؤتمر الوطني العربي

عوني بن عبد الإله	عنت	حزب الندوة المقادير
الدكتور حسين بن خالد	:	: الزعيم
عبد المطلب بن صبر	:	: اللجنة الوطنية
رائد بن انت شبيبي	:	: الدفاع
موسى بن العلي	:	مستقل
يوسف بن الفين	:	حزب الشباب
توفيق بن الحسين	:	الحزب العربي (قيادة عبد الله محمد علي)
رضية بن الحسين التميمي	:	قيادة عبد الله محمد علي (التي هي (التي هي العربية)
انطون بن عطا الله	:	القطاعات
فؤاد افندي	:	

نعم
رجاء الإدارة العامة
شكرا
11/10

مفتاح
11/10

الوزارة - الدائرة الفرعية	
مدير مكتب السيد	
٧٧ نوفمبر ١٩٥٧	
رقم الترخيص	١٧٩٤
الوقت	١

الوزارة - الدائرة الفرعية

١/١٢/١٤٠

السيد حامد محمود
مدير مكتب السيد وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية

اتشرف بأن ابعث لسيادتكم رفق هذا صورة من كتاب سفارتنا بالرباط
رقم ٢٩٨ سري بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٢١ بشأن مشاكل المغرب ومدى المساعدات
التي يمكن ان تقدمها مصر والدول العربية الاخرى .

والحكومة الحالية في المغرب اغلب اعضائها من حزب الاستقلال ، وهي
تري تصفية مشاكلها المعلقة مع فرنسا واسبانيا وذلك بالمفاوضة المستمرة المعتمدة
عن سياسة العنف .

وقد قامت مفاوضات بين المغرب وفرنسا بشأن قروض يحتاجها المغرب
تبلغ حوالي مائة مليار من الفرنكات لمدة ثلاثة اعوام . وتضغط فرنسا على المغرب
لكي تفوز بامضاء معاهدة الاستيطان التي تكسب ما استولى عليه الفرنسيون من اراض
زراعية - صيغة قانونية .

وقد حصل المغرب في اوائل عام ١٩٥٧ من فرنسا على قرض حوالي
١٥ مليار من الفرنكات وعلى التزامات بأربعة مليارات . هذا بخلاف المعونات
الامريكية وهي ٢٠ مليون دولار قرض و ٥٠ الف طن هبة .

والمغرب يسير على سياسة غربية مع مبادلة الشعوب العربية الود تقديمها
لمساعدتهم اليه في دفاعه عن قضيته ، وهذا هو رأي الحكومة الحالية الا ان
الشعب والمعارضة يتفان ملتوفين الابدى من الناحية الاخرى .

وقد ظهرت حرة بين بعض المنظمين من هذه السياسة وهي (كوسرة
القتل الشعبي) الا انها اخذت بالشدة .

ولما كان الكادر الفني في المغرب جله من الفرنسيين فان مصر والبلاد
العربية يمكنها ان تعاون في طرد هذا الكادر الفرنسي واحلال العرب من الفنيين
محله . ولكن يظهر ان المغرب يعتمد على الفرنسيين مؤقتا حتى يتعلم ابنائه
بمعاونة العرب . فع يأس من اسداء المعاونة لهم بكل وسيلة ممكنة .

اما اذا اريد الاتجاه بالبلاد الى السياسة العربية التي ينشدها الشعب
المعربي فلا بد من القيام بعمل ايجابي وذلك بتناصرة جميع العناصر المؤيدة
لهذا الاتجاه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

وكيل الوزارة المساعد

شكرا

١١/١٠

شكرا

ملحق رقم ٤

الهوامش

(١) د. وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٥٦ م (دار

النهضة العربية - ١٩٩١ م) ص. ٢١ - ٢٢

(2) Feldman, Lily Gardner : The Special Relationship Between West Germany And Israel (George Allen & Unwin 1st ed 1984) P. 89.

(٣) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ - ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٤ (حجز

التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) من القنصل العام

المصري بفرانكفورت (حسن سليمان) إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ /

١٩٥٣ م برقم ٨٢ بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م عاجل جداً .

(٤) أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل (٤٨ - ١٩٩٦) (

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م ، ص. ٤٩

- ٥١ .

(٥) انظر لقاء برتنانو وعبد الخالق حسونه أمين عام الجامعة العربية في مايو ١٩٦١ م في :

British Embassy, Cairo to Dept. May 20, 1961. (Burdett, Anita-ed.) The Arab League " British Documentary Sources 1943 - 1963 " Archive ed . 1995, Vol. 10, P . 446 .

(٦) انظر في ذلك : وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٦ ملف ١٤٠ / ١٤٠ / ٧ (الدورة

السادسة لجامعة الدول العربية - مارس ١٩٤٧ م - قرار سرى مرفق برسالة الأمانة

العام لجامعة الدول العربية إلى وزير خارجية المملكة المصرية ، بتاريخ ١٧ جمادى الأولى

١٣٦٦ هـ ٩ إبريل ١٩٤٧ م .

(٧) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ١ / حجز التعويضات

التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين « رسالة من الوزير المفوض المصري

بدمشق (حسين عزيز) إلى وكيل وزارة الخارجية » ، سرى بتاريخ ٢ / ٣ / ١٩٥٢ م .

(٨) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ « حجز التعويضات

التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من القنصل العام

بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية سرى جدا بتاريخ ٥ / ٩ / ١٩٥٢ م برقم ٦

سرى .

(٩) المصدر نفسه .

- (١٠) انظر هذه المقترحات كاملة فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة ٣٤٥ الملف السابق ، من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تقرير عن محادثات مندوب خاص الحكومة السورية مع الحكومة الألمانية بشأن تعويضات ألمانيا الغربية لإسرائيل واليهود ومقترحات فى هذا الشأن » سرى وعاجل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٢ م.
- (١١) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٣ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢ م .

(12) Feldman : op. cit., p 79.

(13) Deutschkron, Inge : Bonn and Jerusalem "the strong coalition" (Chilton Book Company, Philadelphia, N.y ., London, 1st ed . 1970) P. 79

(14) Ibid : P . 81 & Feldman : op . cit . P . 79

- (١٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ . تقرير من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « وصول وفد الجامعة العربية » سرى بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ م .

- (١٦) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٣ ، مذكرة من وكيل وزارة الخارجية إلى حضرة القائم بالأعمال المصرى بالسفارة الملكية بطهران سرى جدا بتاريخ نوفمبر ١٩٥٢ م .

- (١٧) المصدر نفسه ، نفس الملف . مذكرة من مدير إدارة الصحافة إلى إدارة المحفوظات بوزارة الخارجية - مرفق بها مذكرة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية - مرسلة إلى حكومة الجمهورية الاتحادية الألمانية . بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ م .

(18) Deutschkron : Op. Cit. p.p. 80 - 81 .

- (١٩) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٤ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من وزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - عاجل مع مخصص - بتاريخ ٣١ / أغسطس ١٩٥٣ م .

- (٢٠) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » تقرير من السفير المصرى ببيون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٥٤ م برقم ٨ سرى .

- (٢١) المصدر نفسه - نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين) إلى وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن نص قرار الجامعة في جلسته الثامنة من دورة انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م .
- (٢٢) المصدر نفسه - نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لـ ج.د.ع. إلى وزارة خارجية جمهورية مصر سرى وعاجل بتاريخ ١٦ / ٩ / ١٩٥٤ م .
- (٢٣) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٦ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة من إدارة الشؤون الاقتصادية بوزارة الخارجية - إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٧ / ١٠ / ١٩٥٤ م .
- (٢٤) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٤ سرى قرارات اللجنة السياسية ولجنة الشؤون السياسية بتاريخ ١٤ / أكتوبر ١٩٥٥ م (سرى جدا وغير قابل للنشر) .
- (٢٥) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٧ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » ، مرفق بمذكرة الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى مكتب الرئيس للشؤون السياسية ومدير إدارة شؤون فلسطين بوزارة الحربية برقم ١٣٣٥ ، ٥٨٥ سرى .
- (٢٦) المصدر نفسه - نفس المحفظة والملف ، مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ م .
- (٢٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة بشأن اجتماع المبعوثين الدبلوماسيين العرب فى بون ، مرفقة بكتاب المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل إلى وكيل وزارة الخارجية برقم ٥٧ / ٣٤٧ سرى بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٧ م .
- (٢٨) المصدر السابق نفس المحفظة والملف والتقرير .
- (٢٩) المصدر نفسه : محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠ / ١٤٠ - ٣١ « الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية » قرارات ممثلى الدول العربية فى بون - ملحق الجلسة الثانية بتاريخ ١٤ / مايو ١٩٥٧ م .
- (٣٠) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية « إدارة فلسطين » إلى وزارة خارجية مصر العربية ، بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دور انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل .

(٣١) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٥ سرى (هيئات ومنظمات دولية وإقليمية - الجامعة العربية - قرارات المجلس الاقتصادى) مذكرة بقرارات المجلس الاقتصادى التى اتخذها فى دور انعقاده العادى الثانى - ديسمبر ١٩٥٤ م برقم (م/ق/د/٢) سرى .

(٣٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة ملف ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ ج ١١ ، مذكرة من وكيل الخارجية (إدارة الشؤون الاقتصادية) إلى المشرف العام على المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ، بتاريخ ٨ مارس ١٩٦٠ برقم ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ م .

(33) Deutschkron : op. cit . P . 75 .

(٣٤) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة بشأن التعويضات التى تطالب بها إسرائيل ألمانيا الغربية أعدتهما الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢ م .

(٣٥) نفس المصدر والمحفظة والتقرير .

(٣٦) المصدر نفسه : نفس المحفظة والتقرير .

(٣٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٦ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا) مذكرة من السفير المصرى فى بون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١١ / يناير ١٩٥٤ برقم ٥ سرى .

(٣٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٧ مذكرة من مدير مكتب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة « صاغ أمين شاكر » . إلى وزير الخارجية سرى جدا بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٥٤ م برقم ٦ / ٧ - ٤٠٢٧

(٣٩) المصدر نفسه ، نفس المحفظة ، ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا وحجزها لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من وكيل الخارجية (قسم الأبحاث) إلى سفير مصر بيون - بتاريخ ١٩٥٤ م .

(٤٠) المصدر نفسه ، محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ١٧ ج ٧ « النشاط الصهيونى » مذكرة من السفير المصرى بيون (أحمد جلال الدين عبد الرازق) إلى وكيل وزارة الخارجية (إدارة غرب أوروبا - إدارة الشؤون العربية) بتاريخ ٢٢ / يناير ١٩٥٨ م برقم ١٣ سرى جدا .

(٤١) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٣ (حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من القنصل العام للمصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ م برقم ٢٠ .

(٤٢) انظر فى ذلك : محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا» مذكرة من السفير المصرى بيون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٩٥٤/١/١١ م برقم ٥ سرى ، محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٤ « حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من الملحق الصحفى بفرانكفورت « كمال الدين جلال » إلى وكيل الخارجية - بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٣ سرى .

(٤٣) المصدر نفسه : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ مذكرة من وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية - إدارة الاتفاقات التجارية) إلى وكيل وزارة الخارجية للشئون الاقتصادية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٥٦ م برقم ١٣٢ / ١١٢ / ١ .

(٤٤) المصدر نفسه محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٣ ، برقيتان رمزيتان رقم ٩ ، ١٠ من السفارة المصرية بنيويورك صادرتان فى ٢ / ١١ / ١٩٥٢ م .

(٤٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ١ برقيات من الوزير المفوض المصرى بلاهاى إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٤٦ سرى ، وتاريخ ٢٧ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٥٠ سرى ، وتاريخ ١٦ / ٥ / ١٩٥٢ م سرى ، برقم ٧٥ سرى ، برقية من وكيل وزارة الخارجية إلى وزير مصر المفوض بلاهاى سرى بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٢ م .

(٤٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة أعدتها الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٠ / ٥ / ١٩٥٢ م ومذكرة من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) سرى بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٢ م برقم ٦٩ سرى .

(٤٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٣ مذكرة من مستشار الدولة « وحيد رافت » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « التعويضات التي تنوى ألمانيا دفعها لإسرائيل بتاريخ ١٧ / ١١ / ١٩٥٢ م » .

(٤٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٥ مذكرة من السفير المصرى بيون إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تصدير بضائع ألمانية مخصصة لإسرائيل إلى بلد ثالث » سرى بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٥٤ م برقم ٨٩ سرى .

- (٤٩) نفس المصدر والمحفظة والملف : من وكيل الخارجية إلى سفير مصر بأنقرة سرى وعاجل بتاريخ ٩ / ٣ / ١٩٥٤ م ، ومن السفير المصرى بأنقرة (أحمد حقى) إلى وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٤ م برقم ٤٤ سرى .
- (٥٠) نفس المصدر : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » من السفير المصرى بيون « أحمد جلال الدين عبد الرزاق » إلى وكيل وزارة الخارجية « بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل » سرى بتاريخ ٣ / ٥ / ١٩٥٧ م برقم ٥٥ سرى .
- (٥١) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من وزارة الخارجية الألمانية إلى السفارة المصرية بيون بتاريخ ٢١ / ديسمبر / ١٩٥٦ م برقم ٢٠٦ / ٢٤٤ / ١٣ .
- (٥٢) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية - بتاريخ ٧ / ٢ / ١٩٥٧ م .
- (٥٣) نفس المصدر والمحفظة والملف والتقرير .
- (٥٤) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة أعدتها إدارة غرب أوروبا بوزارة الخارجية برقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ م ردا على مذكرة الطلبة العرب فى ألمانيا الشرقية بتاريخ ٢٨ / يناير / ١٩٥٨ م .
- (٥٥) نفس المصدر ومحفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج ٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة من وكيل الخارجية للشئون السياسية إلى مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية .
- (٥٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من السفارة المصرية بيون إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧ / يوليو ١٩٥٧ م برقم ١٢٨ سرى جداً .
- (٥٧) نفس المصدر ومحفظة ١٥١٢ ملف ٣٠ / ٤٥ / ١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » مذكرة أعدها مدير إدارة غرب أوروبا « محمد شفيق » بشأن « مقابله لدكتور موتزل السكرتير الأول لسفارة ألمانيا الغربية بالقاهرة » سرى بتاريخ ٢٣ / ٦ / ١٩٥٧ م .
- (٥٨) نفس المصدر : محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج ٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة أعدتها الإدارة السياسية بوزارة الخارجية بشأن « اعتزام حكومة ألمانيا الفيدرالية إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل » بتاريخ أكتوبر ١٩٥٧ م . وجدير بالذكر أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل قد عقدت فى عام ١٩٦٥ م .

(٥٩) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مرفق
بتقرير السفير المصرى بواشنطن «أحمد حسين» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «احتمال
اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل» سرى بتاريخ ٣٠ / سبتمبر / ١٩٥٧ م برقم ٢١٤ .

(60) Feldman : op. cit . P . 196 .

(61) Deutschkron : op. cit . P . 87 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق الخارجية المصرية :

- محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٢/ج ٣ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين»
- محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٨ ، ج ٩ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٤ ، ج ٥ ، ج ٧ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين».
- محفظة ٦٨٤ ملف ١٧/٤٨/١٤٠ ج ٧ «النشاط الصهيوني».
- محفظة ٧٤٦ ملف ٧/١٤٠/١٤٠ .
- محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ١ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين» .
- محفظة ٨٢٢ ملف ٣١/١٤٠/١٤٠ «الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية».
- محفظة ١٢٨٥ ملف ٥/١/٣ سرى .
- محفظة ١٢٨٥ ملف ١٢/١٢٣/١٤٠ ج ١١ .
- محفظة ١٤٧٩ ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج ٤ ، ج ٥ «الاعتراف بدولة إسرائيل».
- محفظة ١٥١٢ ملف ١٨/٤٥/٣٠ «شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال» .

وثائق أجنبية منشورة :

- The Arab League « British documentary sources 1943-63 »
Archive ed. 1995 . vol. 10.

ثانيا : المراجع :

مراجع عربية :

- أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل ٤٨-١٩٩٦م
« مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م »
- د . وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ -
١٩٦٥ م « دار النهضة العربية ١٩٩١ م »
- د . يونان لبيب رزق : الخارجية المصرية ١٨٢٦ - ١٩٣٧ م « الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٨٩ م »

مراجع أجنبية :

- Deutschkron, inge: Bonn and Jerusalem "the strong coalition"
"Chilton book company Philadelphia N . Y, London 1st ed . 1970" .
- Feldman, Lily Gardner : the special relationship between west
Germany and Israel " George Allen unwin 1st ed . 1948"

ثالثا : دوريات :

عربية :

- جريدة أريف الأرمنية « الملحق الشهرى العربى العدد الخامس مايو ١٩٩٨ م »
مقال عن « ملامح تطور وزارة الخارجية المصرية » إعداد د . صفاء شاكر .
- جريدة القراءة للجميع - تصدرها الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية -
السنة الثالثة العدد الثالث - الأحد ٢١ / ٦ / ١٩٩٨ م

أجنبية :

- Middle East Journal Outonn, 22 dec. 1957 vol. 11 no 1

عرب الخليج في وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية

ويوميات جبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد مرسك عبد الله (*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة في تاريخ أوربا فهي شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجاري. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها في عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية في مياه المحيط الهندي .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهي مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهي وليدة اتحاد فدرالي لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون في ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها في عام ١٦١٩ مدينة أوربية في قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسي للشركة ويقوم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات في كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكييتون والبنغال . ومنها مؤسسة في بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون في حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين في جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية في

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال ووحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتھا . ثم بنى مجمع عسكري أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦ من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شیراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز . وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التى سرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلي عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إل البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطاني والهولندي التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة . كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ . وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدي الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .

- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها في عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

• أما في عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التي أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذي حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة ألبوسعيد . ولكن ظهر في نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمي الذي استقل بإقليم الشميلية والظاهرة في عمان وأنشأ إمارة القواسم .

• كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية في الخليج . إمارة آل صباح في الكويت وإمارة آل خليفة في شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثاني في القرن التاسع عشر أما في ساحل عمان الشمالي فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التي قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيراني وتكونت لهم إمارة هنالك في ميناء لنجة . كما قام أيضاً في ساحل الإمارات حلف بني ياس الذي اتخذ من مدينة أبو ظبي عاصمة له .

• هذه هي الأحداث الهامة في منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً في الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربي . ماذا تضيف لنا وثائق جميرون أي وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم في المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضواء جديدة عن عرب الخليج فى الوثائق الهولندية والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفرة وليوا فى عمان من قبائل بدوية إلى أحلاف سياسية وإمارات وكيف استقلت عن جسد دولة أبوسعيد فى منتصف القرن الثامن عشر ؟ لا تسعفنا المخطوطات العمانية فى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متناثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظروف التاريخية التى نشأ فيها حلف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هى سيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كما نتج عن هجرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد من البحث عن أضواء ومصادر جديدة للإجابة على هذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسى البحث عن المصادر الجديدة فى تاريخ الخليج بعمل مشروعات كبيرين منذ عشرين عاماً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لاهاى . على أمل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هذه الوثائق للمركز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السنوات الطويلة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هذه الوثائق الهولندية وهى مكتوبة فى فترة متقدمة حتى يصعب على أبناء هولندا إلا المتخصص منهم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليج فى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هذه الدراسة باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأى أن

هذا من أكبر الإنجازات التي حققها المركز في عمله خلال هذه السنوات . وقد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عرب الخليج . وسوف نرى مثلاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومة الهند البريطانية التي ورثت عملها من المصادر الجديدة الهامة في تاريخ الخليج الحديث إذ هي تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ . وقد عاشت الوكالة فترتها الأولى في جمبرون وهي بندر عباس بين عام ١٦٢٢ وعام ١٧٦٣ . فهي بذلك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضوء على هذه الفترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلف بنى ياس . وهذه الوثائق محفوظة في أرشيف الوكالات في مكتبة حكومة الهند في لندن . كما أن الجزء الأكبر منها محفوظ في أرشيف بومباي في الهند في مجموعة G/29 تحت عنوان فارس وخليج فارس وتسمى وثائق الوكالات . لم تحفظ أوراق هذه الوكالة في جمبرون بل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثم بعد ذلك أرسلت إلى بومباي مقر الشركة الرئيسي في غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسي لمبنى هذه الوكالة في بندر عباس عام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عام ١٧٦٣ إلى بوشهر خيراً للتاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التي انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج في شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد في الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عباس التي انقذت من قذائف الأسطول الفرنسي عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رسائل مبكرة من فارس ورقمها G/29/1 وتشغل الفترة من ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميات جمبرون وتشمل الأجزاء من

الثانى إلى الرابع عشر وتشغل الفترة من ١٧٠٨ حتى عام ١٧٦٣ . وهنالك مجموعة رسائل وملحقات من بندر عباس وتشمل الجزء ١٥ إلى السابع عشر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ حتى عام ١٧٦٣ (١) .

وقراءة يوميات جميرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلك الفترة أمر فى غاية الصعوبة بسبب تهالك الأوراق من جراء الرطوبة فى الخليج وفى ميناء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغة عصر شكسبير . وتحتاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منذ سنوات بإرسال ستة من الباحثين عام ١٩٩٥ لمدة شهرين لحصر المتيسر الموجود فى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكرو فيلم كل فيلم حوالى ألفى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرستها . وأعيد طباعة هذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهيل قراءتها واستخرجت من هذه المجموعة الموضوعات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانية عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيماننا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقد تزعمت هذه العائلة من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جميرون (بندر عباس) وهى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبائل المتحالفة مع هذه العائلة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسم . وذاع اسم القواسم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة ألبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بواى سميل وفى نفعا بواى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه في عام ١٦٢٣ نجح القائد البرتغالي جاسباروليتيه Gasparo Leite في دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمي الذي كان يتمتع بشهرة واسعة وقد تم هذا الهجوم تنفيذاً لأوامر القائد العام فريري دي اندراري(٢). ولم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على الساحل العربي للخليج بعد سقوط دولتهم في جزيرة هرمز والجسم عام ١٦٢٢ بالأمر الهين . إذ اندلعت حركة مقاومة شرسة لهم في إقليم الشمالية وفي روس الجبال وفي جلفار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماءها وانتخبوا لهم إماماً هو ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالي .

وقد جاء في وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية في بندر عباس رصد طيب لحركة التحرير التي قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بن مرشد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذين كانوا هناك ، كما غزا العرب الحصن وقتل أربعون جندياً برتغالياً وفر الباقي هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم في الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ في نهاية حكم الإمام ناصر اليعربي أثناء ضربه الحصار على البرتغاليين في حصون مسقط ، وقد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكان أحد قادة الحصار سيف بن علي بن صالح القاسمي . وقد جاء في الاتفاقية الموقعة في ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيلينز دي نورونها Gileames De Noronha ما يلي :

« لقد اجتمع فى شاطيء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى » (٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .

وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العاديين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد
نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على
الطراز الفارسي . والإمام متوسط القامة داكن البشرة «(٥) .

وينطبق هذا الوصف في بساطة الملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين
الرئيس ورعيته في المجلس مع وصف الرحالة البريطاني Thesiger الذي عبر الربع
الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد
ابن سلطان آل نهيان في مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض
في حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيئته ونظر
الجميع نحوه ومتابعة الشيخ في وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم في
الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثاني في
حصار قلعة هرمز . ففي فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية في طريقها من
بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة .
وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية
حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين يرتفعون .
ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم في جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء
البحارة الهولنديين لقادة الجيش العماني :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط

الآخرين إلى القائد العماني ، ومررنا بصف من الجنود عددهم

ألف جندي مسلح يحبون بينديقاتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم

شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة

يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأنا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أنا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأنا مدينون لهم بالشكر . ثم سألتنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة . ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهناك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا» (٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة » (٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافري في عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد في مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلي في العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولي بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمي فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصني بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافري الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولي بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكنى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهديد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولي عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيوناً فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع
فضربوا الخشب التى بالبحر وانكسر خلف بن مبارك
وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده «(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية
خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة
الفوضى التى دبت على الساحل الإيرانى لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ
حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة
الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشى مندوبنا للتفاوض حول حصولنا
على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشركة والقضاء
على محاولة الإنجليز وقد حمل مندوبنا معه خاتم الشركة
والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافع من قلعة هرمز
ترحب بمقدمنا . وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز
منافس آخر وهو الرجل الثرى الشيخ رحمة بن مطر الذى
يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز
لا يفضلون كثيراً مطالب الشيخ رحمة . ولقد علمت أن
الشيخ رحمة حاكم جلفار الغنى يحاول جاهداً لامتلاك
الجزيرة . وهو قادر على العطاء لأن هذا الرجل معروف أنه
من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب » (١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جميرون نبأ وفاة الشيخ راشد فى باسيدو
وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبي ومصادرة ما
لديها من حلى وأموال . وقد أغضب ذلك الخير القبائل العربية على الساحل

الفارسي والشيخ رحمة بن مطر . وكانت زوجة الشيخ راشد إمراة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بن مطر وغيره من شيوخ العرب . وقد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عرب جلفار لنجدتها وقد نجح تهريبها إلى جلفار (١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التي أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثاني عام ١٧٣٧ على أثر هزيمته أمام منافسه الإمام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمي زعيماً لجمع القبائل في شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسي . وقد شغلت هذه الحملة الفترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عام ١٧٤٧ . فى بداية عام ١٧٣٧ وصلت الحملة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثاني . وقاوم الشيخ رحمة ابن مطر القاسمي القوات الفارسية ولكنه وقع أسيراً فى يدهم . ونقل إلى بندر عباس . وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهاية عام ١٧٣٨ (١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثاني الذى جلب على البلاد مصائب الغزو الفارسي . واختار العلماء وزعماء القبائل إماماً جديداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فى عام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العرب فى أسطوله فى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقد تطلب إخماد هذه الثورة العربية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمة بن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحذرون الإنجليز فيها من المشاركة بمراكبهم فى إخماد ثورتهم حسب طلب السلطات الفارسية . وهدد هؤلاء

الشيخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه فى عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه فى غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى فى ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر (١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقة روس الجبال (١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار . وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه . ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال أيام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزىق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزىلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسباً . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام أحمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار » (١٤) .

وتركزت همه الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى في إيران . وتنازعوا على الحكم وفي ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ في إقليم فارس منذ عام ١٧٥١ شخصيتان هما كريم خان زند في شیراز وناصر خان في إقليم لار . وكان الوضع في بندر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا علي شاه علي بندر عباس وهو عربي من ميناء كنج . وأصبح في حوزته أكبر قوة بحرية في الخليج . كما استقلت القبائل العربية على الساحل الإيراني بشؤونها . ومن هذه القبائل بني معين في جزيرة الجسم وآل علي في شارك وجزيرة قيس . والقواسم في لنجة ودوان وبستانه وشيغوه . وبني حماد في نخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لي فكان نفوذها في شبكوه وشيغوه وعرمكي وشيروه والشيخ . وكان المرازيق في موغوه وبستانه وجزيرة فارور . وسيطرت قبيلة النصور في طاهري وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم في عسيلوه وناباند . وكان آلبوفلاسة من بني ياس في جزيرة هنجام . وفي ميناء بوشهر سيطرت قبيلة المطاريش العمانية . وفي شمالها تغلب شيخ من الزعاب علي بندر رج . وقد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندي كنيهاوزن بعد ما استقر به المقام في جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتلها فيما بينها وقال أن هذه القبائل العربية لو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيراني كاملة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفي أثناء هذا الصراع على السلطة في الجزر ومنطقة بندر عباس ألقى الشيخ رحمة بن مطر بثقله في تأييد ملا علي شاه ضد عدوه ناصر خان في لار . وتزوج في عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بني معين في جزيرة الجسم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خان حاكم لار . وكان عبد الشيخ ضابط بحري سابق وأحد قادة التمرد العربي في القوة البحرية الفارسية عام ١٧٤٠ أيام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنيهاوزن من جزيرة خارج
معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال
جهيرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا
على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد
بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر
ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجيء على
الشيخ» (١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما
هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من
زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز
وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا
النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته
فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر
فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر
مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة
الجسم . وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار
المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى
جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة (١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمبر ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كتيبهاوزن يصف مدينة الصير :

« الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع

المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهم الآن لا يعتنون بنفوذه .
وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهم لإخضاعهم ولكن دون
جدوى ولم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمة
ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولة ولديه ٤٠٠
رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجدد فيه السفن
الكبيرة مرساها . وبالميناء ٦٠ سفينة أغلبها كبيرة ومجهزة
للسفر إلى مخا . ويوجد فى الصير تجارة رائجة وكذلك
التعامل فى اللؤلؤ وأنواع التجارة المطلوبة لدى البدو فى
الصحراء» (١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهد الشيخ صقر بن
راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فى عام ١٧٩٧ .
وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima (١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فى الوثائق البريطانية
فى عام ١٧٩٧ . وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديث لارتباطها
بالقواسم بعد اعتناقهم مذهب أهل السلف الوهابى وترصدهم للسفن
البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينة بعد ذلك لهجمات الحملات
البريطانية وخاصة الحملة الضخمة عام ١٨١٩ التى حطمت قلعتها وأسوارها
ومبانيها وأشعلت فيها النيران.

الهوامش

- (1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .
- (2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.
- (3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.
- (4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.
- (5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.
- (6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.
- (7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.
- (8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة
الظاهرية - دمشق ، ص .

- (10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.
- (11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.
- (12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737
& Vol. 23, p. 2 1738.
- (13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة آلإوسعيدين ١٢٧٥
(١٨٥٨) تحقيق محمد مرسى وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

- (15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.
- (16) IOR, EGD 18-1, 1760.
- (17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.
- (18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين

في الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين في تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة في الحرب العالمية الأولى . وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه . ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع . أما قبل ذلك ، فلم يضع سياستهم في حساباتهم أن هؤلاء الزعماء في استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية في حسم أى صراع قد ينشب بين القوى الدولية ، ويعد هذا في الواقع خطأً استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية في حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق . وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية آنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها ، وفي إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التي قد تنشعب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق ، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوروبية ، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق ، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر .

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز ، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول في الحرب بجانبهم ، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها في الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤ م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يتمتع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشرف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عدداً من أشرف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز (١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولة العثمانية لكي تعين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام لما يمثله هذا الشريف من خلال مكائته الدينية من خطر على الخليفة العثماني إذا نجحت بريطانيا في تجنيده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجية الألمانية كانت تبعث بمثل هذه المقترحات إلى خبراءها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenheim رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جدوى الأخذ باقتراح تعيين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام . وفي ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم في تقرير مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضب الأتراك كثيراً ، وبحجة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة في ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة في العالم الإسلامي من خلال حملة دعائية موسعة ، معتبراً أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية في المشرق العربي (٢) .

وفي تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعيين الشريف حسين في ذلك المنصب يدعونا للشك في إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصة ثمينة لكسب الشريف لصفهم في هذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقف فرصة ذهبية على الأتراك والألمان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الرامية للتقرب من الشريف حسين . ومما يدعونا للشك في إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بناء على رفضه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث في مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفة العثماني في العالم الإسلامي . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسمرمان Zimmermann بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية «(٣)». وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هذا القرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فى تلك الظروف الدقيقة الوجهة التى كان يريد لها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشراف من الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندها من بين المسئولين الألمان العارفين بشئون الدولة العثمانية والمشرق العربى . وكان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليتمان فون ساندرس رئيس البعثة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى على رأس هؤلاء المسئولين الذين عارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقت الذى يجرى فيه إعداد الحملة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فى الشام عددا من القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخالص لكى يتم توزيعها باسم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين (٤) .

وكان ياجوف Ygaw وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعماء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنها جميعاً كانت تحمل شكل الصليب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقتراح فى برقية عاجلة حول ذلك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتية يؤكد أن هؤلاء الزعماء لن ييالوا بما هو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً (٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعماء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهايم الداعى لحصر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حدود اهتمامها بالرأى العام الإسلامى . وفى نفس الوقت أخذت باقتراح ليتمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألماني فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس فى مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى (٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه" (٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين رأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مجزية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقابى ، الذى كان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسى فى تلك القنصلية ويبلغ الخارجية الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تولى أوبنهايم أيضاً ترشيحهم من بين رجاله (٨) . ولاقت خطة أوبنهايم عناية بعض كبار موظفى الخارجية الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسام المسئولين فى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسهم على نحو يبين فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقد برز هذا الانقسام عندما حذر فنجنهايم ، من خلال خبرته الواسعة بشئون الشرق ، حكومته من الإقدام على تحمل أعباء حملة الدعاية للخليفة العثمانى فى العالم الإسلامى ، راجياً ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخر قد يثير نشاطه بينهم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فرص إفشال هذه الحملة ، ومن ثم إحداث نتائج عكسية (٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقاً ثانياً داخل هذه الوزارة انبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأها القناصل الألمان فى القلس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهايم بأن يتدخل لدى السلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية (١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بين فنجنهايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صور الضعف الذى اكتنف السياسة الألمانية تجاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتباك وتردد الحكومة الألمانية فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعل ما كان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلوله وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مفض بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى ، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ بمشروع مفصل ، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط رأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإتفاق منها على هذه الحملة ، التى كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير حولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يده فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه (١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبستر Proebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . وفى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليتمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كل الأراضي العثمانية . وقد تولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا في استنبول بفحوى تلك المخاوف ، حيث أبلغه في ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان في الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعماء المحليين للعرب ، كما أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية في جدة (١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتراك ، وطلب منها الحد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل في الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف في الحملة الدعائية في العالم الإسلامي ، وأن يقتصر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما في وسعهم لكي يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد في يد (١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار في تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م في إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل بنجل الشريف حسين . وقد ساعده في هذا معرفته الشخصية بالشريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم في استنبول في أواخر عهد السلطان عبد الحميد . كما لعب أحمد شفيق باشا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمي الثاني ، دوراً بارزاً في الإعداد للقاء الأول الذي جمع أوبنهايم بالأمير فيصل (١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنه الأمير فيصل إلى استنبول في أوائل إبريل ١٩١٥ م لكي يزيل من نفوس المسئولين الأتراك أى شكوك من ناحيته ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية من جانب الشريف ، أراد بها أن يغطي من ناحية علاقته القوية بالإنجليز وإقدامه على التآمر معهم ضد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عن الاتفاق مع خصمه اللدود الشريف على حيدر ، الذي كان يتطلع لمنصب الشريف في مكة ، ويؤيده في هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفي تقديرنا أن الشريف حسين بعث بابنه إلى استنبول لكي يتحسس أيضاً ما عسى أن يقدمه الأتراك والألمان من

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائي مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك في أن يخذع الجميع في إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليء بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلوخيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز (١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان ، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المستولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى (١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لنبود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمدّه بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس (١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التي كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التي أمدوه بها في أعقاب ذلك الاتفاق في الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول في الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز في العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعده أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك في جلة من التدخل في اختصاصات والده (٢٠) .

وفي لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته الملحة للمؤن والغلل التي تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز في حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً في تلك المسألة (٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . في حين أن الاتفاق الثاني كان مليئاً بكل الإغراءات التي يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يحول في صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقية بمملكة واسعة في الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه في اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفذ يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . في حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التي نشبت في الحجاز والشام ، والتي

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتراك والألمان وليس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنما يعود بالدرجة الأولى لأخطاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلك السياسة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البداية . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصل نصير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذته الشريف حسين عندما أعلن الثورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنجنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة في الأرشف الألماني عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرجل تلقى أذاناً صاغية في وزارة الخارجية الألمانية ، وهي الوزارة التي كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربي والدولة العثمانية في هذه الفترة . وينتمي أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى المستشار الألماني .

Ebenda, A 34468, S. 106.

(١٠)

برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم في برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية في الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .

A.A. R 21126, A 35110, S. 151.

(١١)

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

A.A. R 21129, A 7805, S. 63.

(١٢)

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.

(١٣)

مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .

Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.

(١٤)

برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

A.A. R 21133, A 14495, S. 6.

(١٥)

برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.

(١٦)

تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهى وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصى ومرفقة بتقرير أوبنهايم .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .

(١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

رقم الإيداع ١٩٩٩/٦٥٤٩

الزهراء كمبيو سنتر

طباعة - نشر - إعلان

القاهرة - ت : ٢٩٦٠٦٦٧



Bibliotheca Alexandrina



0673074

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ٩٣

المجلد الأول

العدد الأول

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الأول - المجلد الأول

هيئة التحرير

رئيس التحرير	أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
نائب رئيس التحرير	أ.د. عبد المالك التميمى
عضوا	أ.د. سهيل زكار
عضوا	أ.د. عبد الرحمن الأنصارى
عضوا	أ.د. الحبيب الجنحانى
عضوا	أ.د. جمال زكريا قاسم
عضوا	أ.د. محمد رزوق

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين: أصل وصورة .
- تأخذ الهوامش والإحالات رقما مسلسلا على أن تثبت فى نهاية البحث .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- يراعى فى البحوث التى تقدم للنشر أن تكون جديدة لم يسبق نشرها .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الاستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالمقر المؤقت للاتحاد (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الأول - المجلد الأول - مارس ١٩٩٣

فى هذا العدد

- كلمة الافتتاح
- النزاع العربى الإيرانى حول جزر أبو موسى والطنبين
- الأصول التاريخية والتطورات المعاصرة
- العرب فى مقديشو
- وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام
- إمارة أبو ظبى فى عهد زايد بن خليفة
- الضياع الأموية فى الشام فى العصر العباسى
- المصادرات وأثرها على استقرار الملكية
- فى عهد الخليفة المقتدر بالله
- لمعان الضوء فى دياجير الظلام
- دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبرلى
- الكرج والاتراك السلاجقة فى عهد داود الثانى
- تقرير عن اجتماع الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٧ - ٩ ديسمبر ١٩٩١).

كلمة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم.

إذا كان البعض يأخذ على علم التاريخ ارتباطه بالماضى، فإن البحث فى الماضى ليس غاية فى حد ذاته، وإنما هو أداة لشحذ الهمم وغرس الثقة فى النفوس من ناحية، والإفادة من تجارب ودروس الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر وبناء مستقبل أفضل من ناحية أخرى. ولذا صارت مهمة المؤرخ إلقاء الأضواء على خفايا الماضى بكل ما يحويه من حسنات وسيئات، ومزايا ومثالب، ملتزما بالصدق والأمانة، مستهدفا الوصول إلى الحقيقة التاريخية، واتخاذها محورا لما يقول أو يكتب.

ويتتبع مسيرة التاريخ يتضح أن عجلته لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وإنما تقضى سنة التطور التاريخى بالسير قدما إلى الأمام . حقيقة إن تاريخ أمة من الأمم أو بلداً من البلدان ربما يبدو فى بعض حلقاته وقد تعرض للجمود والتوقف، ولكن مثل هذه الظاهرة لا يصح تفسيرها مطلقا بأنها عودة إلى الماضى. فالماضى بأبعاده الحضارية، وأوضاعه ، وظروفه، ولت أيامه، ومن الصعب أن يعود بنفس الصورة والملامح .

إن حوادث التاريخ قد تتشابه ولكن من العسير أن تتطابق ؛ فلكل عصر أوضاعه وظروفه ونظرة الناس فيه إلى الحياة، وهذه كلها عوامل تكيف التاريخ تكييفاً خاصاً مميّزا فى كل عصر من العصور .

ونحن عندما نتكلم عن حضارة - أو حضارات - العرب قبل الإسلام، فإننا لا نستهدف تمجيد الوثنية وتراثها - مثلما يتوهم البعض ، وإنما نستهدف تأكيد أصالة

هذه الأمة، وكشف النقاب عن جذورها الحضارية التي امتدت بعيدا فى أعماق التاريخ، والتدليل على أنه فى الوقت الذى كان جيران العرب - من فرس وروم وغيرهم - يمثلون قوى حضارية، لم يكن العرب فى جنوب شبه الجزيرة وشمالها وقلبها، بعيدين عن موكب الحضارة البشرية، وإنما أسهموا إسهاما جادا مفيدا فى بناء صرح الحضارة، بقدر ما سمحت به ظروف البيئة وإمكاناتها .

وعندما يعنى المؤرخ بالكشف عن جوانب التراث العربى فى ظل الإسلام، فإن هدفه البعيد ليس مجرد التغنى بأمجاد السلف والإشادة بما بلغه الأمويون وما حققه العباسيون، وإنما يستهدف ما هو أهم وأكبر، أعنى بيان قدرة السلف على الانفتاح الحضارى على العالم أجمع، وعدم الإنغلاق وإغماض العين عما حققه الغير من انجازات، ثم ابتكار الجديد النافع، ومواجهة مشاكل العصر بأسلوب يجمع بين الذكاء والمثابرة والشجاعة واتساع الأفق .

وإذا عالج المؤرخ العربى موضوع سقوط دولة المسلمين فى الأندلس وما حلّ بهم فى تلك المحنة من قتل وطرده وتعذيب وتشريد، فإن المفروض منه عدم الوقوف عند حد الرثاء والبكاء، وإنما عليه أن يوضح فى أمانة وشجاعة أسباب تلك الكارثة المؤلمة وما وقع فيه مسلمو الأندلس من أخطاء أدت إلى سوء العاقبة. وبذلك يتحقق الهدف الأساسى من دراسة التاريخ وهو أن يصبح المدرسة الكبرى التى يستفيد فيها الإنسان من دروس الماضى .

ولكن يبدو أن حكام إيران والعراق اليوم لا يدركون هذه الحقائق، وأنهم يعيشون فى خيال الماضى وليس فى واقع الحاضر؛ محاولين استخدام التاريخ فى تبرير أوهام يسعون لتحقيقها .

أما عن حكام إيران فإنهم يتباكون على مجد الأجداد ، ولا يريدون أن ينسوا أو يتناسوا أن العراق بأكمله والخليج برمته كانا فى يوم من الأيام داخل إطار دولتهم الفارسية الكبرى ، حتى ظهر العرب على المسرح فى ظل الإسلام فهدموا دولة الفرس ودكوا عرش الأكاسرة وأدخلوا الجميع تحت سيادتهم . ويمتد الخيال بحكام إيران إلى محاولة العودة بالتاريخ إلى الوراء ومحاولة استعادة ما كان للفرس من أمجاد على حساب جيرانهم، متجاهلين ما حدث على مدى قرون طويلة من تغييرات جذرية سطرت على صفحة التاريخ، تبدلت فيها أوضاع العالم أجمع، وتم فيها تعريب الشاطئ الغربى للخليج بأكمله، فضلا عن تعريب بلاد الرافدين ، وصارت هذه البلاد كلها أعضاء لها كيائها فى جسد الأمة العربية .

وأما حكام العراق اليوم، فإنهم يعيشون أيضا تحت مظلة الأوهام، ويتطلعون إلى تحقيق مجد لأنفسهم على حساب التاريخ، ولكنهم يخطئون الحساب. إنهم يتوهمون أن بإمكانهم العودة بعجلة التاريخ إلى أيام بنى العباس، عندما كان والى البصرة يحكم إقليم الخليج لحساب خليفة بغداد، متناسين أن التاريخ قد دار دورته وأن المجوس لم يعودوا مجوسا، وأن بلاد الفرس لم تعد ولاية من ولايات بغداد، وأن الشاطئ الغربى للخليج قامت عليه إمارات عربية مستقلة فضلا عن سلطنة عمان ، وكلها وحدات سياسية ذات كيان وقوام، بحيث تمثل كل وحدة عضوا فى جامعة الدول العربية . بل فى هيئة الأمم المتحدة . ونقول حكام العراق لا أهل أو شعب العراق، لأن هؤلاء الأخيرين إخوة مغلوبون على أمرهم، نعتز جميعا بهم وبعرويتهم، وإسهامهم على مر القرون فى دعم الأمة العربية والحفاظ على حاضرها والإشفاق على مستقبلها .

وفى جو مشبع برائحة الدماء، تسوده روح الإرهاب، لا يعرف أسلوبا لتحقيق أغراضه إلا أسلوب القتل والإغتيال وسفك دماء الأبرياء، قدر لاتحاد المؤرخين العرب أن يعيش فى بغداد بضع سنين ، يعمل تحت رئاسة صبيانية فرضها حاكم العراق على هذا الاتحاد، فى محاولة منه لتسخير التاريخ والمؤرخين العرب لخدمة مخططاته العدوانية على حساب الحقيقة التاريخية، مستخدمين سلاح الارهاب والتهديد من جهة وسلاح الابتزاز وفرض الاتاوات على دول الخليج من جهة أخرى . وكان أن وقع العدوان الفاشل على الكويت سنة ١٩٩٠، وعندئذ كشف اتحاد بغداد عن حقيقة وجهه القبيح، فأصدر بيانات باسم المؤرخين العرب - والمؤرخون العرب أبرياء منها - تؤيد العدوان ، واستغل الأموال التى كان قد ابتزها من دول الخليج لنشر دعاية واسعة لقطع الأيدى التى أحسنت إليه، معتمدا على أساليب رخيصة بعيدة عن واقع الحقيقة والتاريخ .

ولم يرتض المؤرخون العرب ذلك الوضع الذى اعتبروه إهانة فى حقهم وفى حق التاريخ، ف عقدوا اجتماعا فى القاهرة بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٩٠ . وضم هذا الاجتماع لفيفا من المؤرخين ينتمون إلى شتى البلدان العربية. وكان أهم ما تمخض عنه هذا الاجتماع عزل الرئيس الذى فرضته حكومة العراق على الاتحاد، ونقل مقر الاتحاد إلى القاهرة ، والدعوة لعقد جمعية عمومية تضم المؤرخين العرب فى كافة انحاء الوطن العربى .

وفى الاجتماع الذى عقدته الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة (جمادى الآخر ١٤١٢ هـ ، ديسمبر ١٩٩١م) والذى ضم أكثر من مائة وخمسين عضوا يمثلون كافة البلدان العربية باستثناء ثلاث دول فقط ، تم وضع القانون

الأساسى للاتحاد فى عهده الجديد، وعن طريق الانتخاب الحر المباشر تم اختيار رئيس للاتحاد ونائب للرئيس ومجلس أمناء وأمين صندوق. وهكذا بدأت المسيرة لتبدأ صفحة جديدة تستهدف كل ما يعود بالخير على العرب وأمة العرب وتاريخ العرب ، ومؤرخى العرب .

ولئن بدت هذه المسيرة فى نظر البعض بطيئة فى هذه المرحلة، فذلك لأنها مرحلة النشأة، ولا يمكن أن نتظر من الوليد أن يجرى ويسرع الخطى حال ولادته. وحسب الاتحاد الجديد أن يتحرك داخل إطار واضح من القيم الخلقية ، ويلتزم بأخلاق العروبة فى أنقى صورها، بعيدا عن أسلوب الارهاب والابتزاز والتهديد، وهو الأسلوب الذى طالما أساء إلى التاريخ والمؤرخين فى العهد البائد. ثم إن اتحاد المؤرخين العرب فى عهده الجديد لا يعمل لحساب حاكم بعينه أو تحت سيطرة حكومة بذاتها، وإنما يعمل ليرى الله عمله ورسوله والمؤمنون، مستهدفا الحق والعلم والخير للعرب وللمؤرخين العرب . وكل ما نرجوه هو أن يحظى اتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد بثقة الحكومات والمؤسسات العربية فتقدم له من العون ما يمكنه من النهوض بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه فى هذه الفترة الحرجة التى تمر بها الأمة العربية .



وإذا كنا باسم الله العلى القدير ، نقدم للباحثين فى حقل الدراسات التاريخية هذا العدد الأول من مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب من مقره

الجديد بالقاهرة، فإننا نود أن نؤكد أن هذا العدد يمثل نقطة البدء . إنه يمثل النواة الأولى التى نرجو لها أن تنمو بفضل جهود الأخوة الزملاء لتصبح شجرة وارقة الظل تعود بالخير على المشتغلين بتراث الأمة العربية وحاضرها ومستقبلها ؛ بل تعود بالخير والبركة على مسيرة الحضارة الإنسانية فى كل زمان ومكان . فالعرب لم يعيشوا مطلقا منغلقيين على أنفسهم وإنما انفتحوا على العالم أجمع مشرقه ومغربه . وليست العبرة بأن يبدأ الإنسان عملا ما ، وإنما العبرة بأن تكون البداية قائمة على أسس سليمة وبنوايا طيبة مستهدفة الخير والصلاح . وصدق الله العظيم إذ يقول (فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

رئيس التحرير

**النزاع العربي الإيراني حول جزر
أبو موسى والطنبين
الأصول التاريخية والتطورات المعاصرة**

**للأستاذ الدكتور
جمال زكريا قاسم
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس**

برزت على سطح الأحداث العربية فى الآونة الأخيرة قضية جزر الخليج الثلاث التى قامت إيران بالاستيلاء عليها من دولة الامارات العربية المتحدة ولم تلبث تلك القضية أن تحولت من نزاع بين ايران ودولة الامارات إلى بند أساسى فى الاجتماعات الخليجية والعربية نظرا لتأثيرها على الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ولعل ما اتجهت إليه ايران من فرض اجراءات إدارية وقانونية استهدفت بها ضم هذه الجزر إلى سيادتها الاقليمية قد أثبت بجلاء أن الاتجاهات التوسعية الايرانية لم تختلف بالتغير الذى حدث فى نظامها السياسى إذ لايزال التوسع الايرانى فى منطقة الخليج من الثوابت الرئيسية فى السياسة الخارجية الايرانية وأصبح واضحا أن ايران لا تزال أسيرة تقاليد سياسية مهيمنة على إدراك قياداتها المتعاقبة والتى يأتى فى مقدمتها عقدة التوسع فى اتجاه الخليج على حساب السيادة العربية فى محاولة لتحقيق الهدف التاريخى والاستراتيجى وهو جعل الخليج " بحيرة فارسية " وذلك على الرغم من اختلاف الشعارات من " الخليج الفارسى " على عهد النظام الامبراطورى الشاهنشاهى إلى الوحدة الاسلامية التى يرددها نظام الآيات الحالى بهدف إخفاء المطامع الايرانية التقليدية فى منطقة الخليج .

ومما تجدر الإشارة إليه أن النفوذ الايرانى ظهر فى منطقة الخليج منذ أواخر القرن الماضى مقترنا بنمو الحكم المركزى والنزعة العنصرية التى ترتب عليها القضاء على الوجود العربى فى الساحل الشرقى من الخليج وماتبع ذلك من سياسة تفريس قسرى لسكانه ثم التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل والساحل المقابل له عن طريق التغلغل البشرى والاقتصادى فضلا عن الادعاءات الاقليمية على

البحرين ومن ثم ظلت السياسة الايرانية التوسعية فى منطقة الخليج تؤثر سلبا على العلاقات العربية الايرانية .

وعلى الرغم من أن ايران قد تخلت عن إدعاءاتها التقليدية فى البحرين واعترفت باستقلالها فى عام ١٩٧١ فإنها لم تلبث فى الوقت نفسه أن قامت بتكثيف إدعاءاتها على جزيرة أبو موسى التابعة لامارة الشارقة وجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة تمهيدا للسيطرة عليها حتى تحقق لها ذلك فى نوفمبر ١٩٧١ قبل يومين اثنين من الانسحاب البريطانى من الخليج مما أثار التوتر من جديد فى العلاقات العربية الايرانية .

إذ كان من الطبيعى أن ينظر العرب إلى خطورة تلك السيطرة لما تشكله المنطقة التى تقع فيها تلك الجزر من أهمية كبيرة لقربها من مضيق هرمز وهى بموقعها هذا بمثابة البوابة الرئيسية لذلك المضيق ومن ثم فإن استمرار سيطرة ايران عليها يعزز من هيمنتها على مدخل الخليج ويمكنها من التحكم فى مواصلاته البحرية مع العالم الخارجى^(١).

ومن ناحية أخرى فإن فرض تلك الهيمنة يهدد أمن وسلامة الدول العربية فى الخليج ويظهر خطورة هذا التهديد بوجه خاص بالنسبة إلى دولة الامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين من حيث أن ايران قربت كثيرا بسيطرتها على تلك الجزر مواقعها الامامية من سواحل تلك الدول فضلا عن فقدان العرب لثرواتهم النفطية وموارد طبيعية لا يستهان بها سواء فى تلك الجزر أو فى مناطق البحر الاقليمى

(١) نادرة نعيم زكى : دراسة حول الخلاف بين دولة الامارات العربية المتحدة وايران ، إصدار الهيئة

العامة للاستعلامات ، القاهرة ١٩٩٢ ص ص ٤ - ٧ .

والجروف القارية التى تحيط بها والاهم من ذلك كله فقدان العرب لسيادتهم على أجزاء من ترابهم الوطنى^(١) .

وقد تمثلت السيطرة الايرانية على تلك الجزر فى مظهرين مختلفين :
الأول الاحتلال السافر لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة.

والثانى عقد اتفاق أو مذكرة تفاهم بين ايران وإمارة الشارقة عن طريق المساعى البريطانية انطوت على تجميد وضع السيادة على جزيرة أبو موسى واتاحة الفرصة لايران لاحتلال بعض المواقع الاستراتيجية التى تقع فى الجزء الأعلى من الجزيرة مع بقاء الجزء الأدنى تحت إدارة الشارقة (٢) .

وعلى الرغم من ردود الفعل العربية التى أثارت ضد ايران فإن السياسة العربية كانت حريصة بوجه عام على عدم قطع جسور التقارب العربى الايرانى ومن ثم أصبح وضع تلك الجزر من القضايا المعلقة فى العلاقات العربية الايرانية لأكثر من عقدين من الزمان حتى عاودت إيران إثارة المشكلة من جديد بالنسبة إلى جزيرة أبو موسى فى ابريل ١٩٩٢ حين عمدت إلى انتهاك الاتفاقية الخاصة بها وفرض بعض الاجراءات الادارية والقانونية التى استهدفت من ورائها الانفراد بالسيادة على تلك الجزيرة مما دفع بدولة الامارات العربية المتحدة التى انضوت كل من إمارة رأس الخيمة والشارقة تحت لوائها ليس فقط بالاحتجاج على انتهاك ايران لاتفاقيتها

(١) عبد الحسين القطيفى : الجزر العربية الثلاث فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى

للتاريخ ، بغداد مارس ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

(٢) حسين البحارنة : دول الخليج العربى الحديثة ، علاقتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية

والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ .

السابقة مع الشارقة وانما بالمطالبة بعودة الجزر الثلاث إلى سيادتها الإقليمية .
ويقينا أنه ليس من صالح العرب أو إيران أن تتصاعد تلك الأزمة لما يعنيه ذلك من
إتاحة الفرصة لبعض القوى الخارجية من استغلالها تحقيقا لمصالحها الخاصة ولذا فقد
يكون الحل الأمثل هو أن يتم تسوية النزاع سلميا في اطار علاقات الجوار وما
يجمع الطرفين المتنازعين من روابط إسلامية أو اللجوء إلى التحكيم الدولي أو إلى
المنظمات الدولية لاقرار الحقوق الشرعية إلى ذويها .

وسوف نحاول في هذه الدراسة أن نتبع الجذور التاريخية للنزاع العربي الإيراني
حول تلك الجزر والذي يرجع في تقديرنا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر
حين بدأ ملوك آل قاجار فرض هيمنتهم على الساحل الجنوبي الشرقي للخليج
مستغلين التفكك الذي بدأت تعاني منه الكيانات العربية الواقعة على ذلك الساحل
وما هيأته بريطانيا لهم من التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل مما جعلها
وكانت عربية دائما مجالا للنزاع بين العرب وإيران .

وقد يكون من المناسب قبل الخوض في تتبع الأصول التاريخية لتلك المشكلة أن
نعرف بعض الشيء بتلك الجزر .

ونبدأ بجزيرة أبو موسى وهي أكبرها مساحة وتقع على بعد أربعة وتسعين ميلا
من مدخل الخليج العربي عند مضيق هرمز وتبعد ما يقرب من خمسين ميلا من
ساحل الامارات وعلى ما يقرب من ثلاثة وثلاثين ميلا من الساحل الإيراني .

ويبلغ عدد سكانها قرابة الالف نسمة معظمهم من العرب الذين ينتمون بأصولهم
إلى قبائل الساحل العربي المواجه لهم وإن كانت إيران قد عمدت في الوقت الراهن
إلى تغيير تركيبها الديموجرافية فضلا عن أوضاعها القانونية والادارية .

وتتميز جزيرة أبو موسى بشرائها من المعادن خاصة المغر الأحمر (أكسيد الحديد) بالإضافة إلى ما بها من ثروة نفطية ولا تزال تقوم في الجزيرة بعض الحرف التقليدية بما فيها الصيد البحري والرعى والزراعة حيث تتوافر بها المياه الصالحة للشرب . وعلى الرغم من أن إمارة الشارقة ثم دولة الامارات العربية المتحدة فيما بعد قد أقامت بها بعض المرافق الصحية والتعليمية والأمنية إلا أنها لم تقم بإنشاء ميناء بحري في الجزء الواقع تحت إدارتها مما سيعطى الفرصة ليران لكى تتحكم في حركة المرور إلى الجزيرة عن طريق الميناء الذى أنشأته في القسم الخاضع لها^(١) .

أما عن جزيرة طناب الكبرى فتقع بدورها عند مدخل خليج هرمز وتتميز بأهميتها للملاحة البحرية وتبعد ما يقرب من خمسين كيلو مترا عن جزيرة أبو موسى في الاتجاه الشمالى الشرقى مقابل إمارة رأس الخيمة التى تتبعها تلك الجزيرة إضافة إلى جزيرة طناب الصغرى التى تقع إلى الجنوب منها وإلى الشمال الغربى من جزيرة أبو موسى وعلى مسافة تسعين كيلومترا من ساحل رأس الخيمة وهى غير مأهولة بالسكان ، وذلك على خلاف الجزيرة الكبرى التى كان يقطنها قبل الاحتلال الإيرانى ما يقرب من سبعمائة نسمة معظمهم من العرب وإن كان الاحتلال الإيرانى قد قلص عددهم بحيث أصبحوا لا يتجاوزون فى الوقت الحاضر أكثر من مائة وخمسين نسمة وقد أقامت رأس الخيمة فى تلك الجزيرة قبل الاحتلال الإيرانى لها مدرستين ابتدائيتين ومركزا صحيا ومخفرا للشرطة وغير ذلك من المرافق الأخرى التى تتناسب وعدد سكانها .

(١) مركز الدراسات السياسية - جامعة القاهرة : ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى

منطقة الخليج ، أكتوبر ١٩٩٢ .

ويستدل من الوثائق التاريخية أن تلك الجزر الثلاث كانت من الممتلكات التابعة للقواسم منذ ظهورهم إلى القوة حول منتصف القرن الثامن عشر وقد ظل شيوخ القواسم في كل من إمارة الشارقة ورأس الخيمة يتمتعون بحقوق الملكية على تلك الجزر والتي تمثلت في رفع الاعلام الخاصة بهم وإدارة المرافق العامة واستيفاء الرسوم من الأفراد الذين يغوصون على اللؤلؤ أو يقومون بالرعى أو بمنح التراخيص والامتيازات للشركات العاملة فيها ، وخاصة جزيرة أبو موسى ، حيث منح حاكم الشارقة في عام ١٩٥٢ لأحدى الشركات البريطانية ، وهي شركة الوادي الذهبي^(١) ، امتياز الاستغلال الغاز واكسيد الحديد الأحمر^(٢) .

كما منح حاكم رأس الخيمة في عام ١٩٦٤ امتيازاً لأحدى الشركات الأمريكية للتنقيب عن النفط في الطنين ، وصدقت الحكومة البريطانية على تلك الامتيازات بحكم العلاقات التعاهدية التي كانت تربطها بتلك الامارتين ودون الرجوع إلى الحكومة الإيرانية مما كان يشكل في حد ذاته اعترافاً صريحاً من قبل بريطانيا بملكية الشارقة ورأس الخيمة لتلك الجزر^(٣) .

ولم تكن الجزر الثلاث هي وحدها التي امتلكتها القبائل والاسر العربية إذ لا نبالغ في القول بأن جميع السواحل الشرقية للخليج بما فيها من موانئ وما يجاورها من جزر كانت خاضعة بصورة أو بأخرى للسيطرة العربية .

ولذلك فقد يكون من المفيد أن نتعرف على وضعية العرب في تلك

(١) . Golden valley ochre and oxide ltd

(٢) حسين القطيفي ، المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) جابر إبراهيم الراوي : الحق العربي في الجزر العربية الثلاث وموقف القانون الدولي من

اكتساب الأقاليم عن طريق القوة ، من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٤٣٢ .

السواحل من أجل القاء بعض الأضواء على الأصول التاريخية للمشكلة التي نحن بصدد حلها .

فمن الحقائق الثابتة أن موقع الخليج بين العرب وإيران جعله عامل اتصال بين الجانبين ومن ثم شهد الخليج في مختلف عصوره التاريخية العديد من موجات الهجرة بين سواحله الشرقية والغربية وإن كانت الهجرات العربية هي الغالبة والأكثر تأثيراً وقد تدفقت الهجرات الإيرانية على سواحل الخليج العربية بصفة خاصة خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بسبب توافر فرص العمل المصاحبة لاكتشاف النفط غير أن كثيراً من تلك الهجرات كانت تتم بطرق غير مشروعة فضلاً عما اضطبع به بعضها من دوافع سياسية أو رغبة في تنفيذ مخططات توسعية^(١) . أما عن موجات الهجرة العربية التي تواجدت على سواحل الخليج فقد تمثلت في موجتين رئيسيتين ترتبط الأولى منها بالهجرات التي رافقت الفتوحات الإسلامية في فارس وأتاحت للعرب فرض سيطرتهم على سواحل الخليج وانتزاع موانئه من أيدي الفرس بينما ترتبط الموجة الثانية بالهجرات التي تدفقت من قلب الجزيرة العربية خلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وترجع في أسبابها إلى العديد من العوامل السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها انهيار النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج بما كان يتسم به من قيود احتكارية وسيطرة عسكرية إضافة إلى القحط

(١) تقرير بعثة الجامعة العربية عن زيارتها لامارات الخليج العربي في ١٠ نوفمبر ١٩٦٤ ، انظر

ملحق رقم (٢) من تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية في دور انعقاده الثالث والأربعين، ١٥ مارس ١٩٦٥ ص ١٧٧ وما بعدها . وعن التسلسل والهجرات الإيرانية غير المشروعة يمكن الرجوع إلى كتاب ماذا يجري في خليجنا العربي اصدار الاتحاد الوطني لطلبة الكويت ، مارس ١٩٦٧ ص ٥٣ وما بعدها .

الشديد الذى أصاب أواسط الجزيرة العربية مما دفع بالعديد من القبائل العربية للانطلاق إلى سواحل الخليج وكان لها أثرها فى تكوين الوحدات السياسية التى ظهرت على سواحل شرق الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر^(١) .

ولما كان معروفا عن الفرس انزوائهم داخل الهضبة الإيرانية فقد انفسح المجال أمام تلك الهجرات للانتسياب إلى الساحل الشرقى من الخليج الذى تطل عليه إيران ذاتها ولم يمض وقت طويل حتى أصبح ذلك الساحل عربيا فى ثقافته وتكوينه البشرى^(٢) .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية فضلا عن عدم وجود نفوذ مؤثر لفارس على سواحلها على عملية الاستقرار هذه خاصة بعد سقوط الدولة الصفوية فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وعودة الفوضى والتفكك إلى الأقاليم الفارسية وكان ذلك مما مهد لظهور العديد من المدن والامارات العربية التى انتمت بأصولها إلى هجرات يمنية أو نجدية كالعبادلة وبنى حماد والمرازيق وآل بشر وبنو مالك^(٣) أو تلك التى كانت تنتمى إلى الساحل العربى المقابل كبنى معين فى قسم والقواسم فى لنجة وآل مدكور فى بوشهر الذين يرجعون بأصولهم إلى قبيلة المطاريش العمانية . وقد أثرت تلك الانتماءات القبلية فى قوة العلاقات الاسرية

(١) عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ / ١٧٧٨ ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ٤٧ .

(٢) محمد بهجت سنان : الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الإيرانى للجزر العربية الثلاث ، بغداد ١٩٧٢ ص ٣٨ وما بعدها ، انظر أيضا ر. ج . لاندن : عمان منذ عام ١٨٥٦ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ .

(٣) للتعرف على هذه الامارات وشجرات أنساب حكامها انظر حسين بن على الخنجى . تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دى ١٩٨٥ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

التي ربطت بين العرب على جانبي الخليج^(١) .

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل العربية التي استقرت على الساحل الجنوبي الشرقي من الخليج قد عاشت في عزلة عن بقية سكان فارس ولم يكن هذا الانعزال لأسباب جغرافية مرتبطة بطبيعة الهضبة الإيرانية العالية فحسب وإنما أيضا لأسباب عقائدية أو مذهبية إذ تعتنق تلك القبائل المذهب السني على خلاف الفرس الذين ينتمون بصفة عامة إلى المذهب الشيعي الاثني عشري^(٢) . ومما لا شك فيه أن الاستقرار العربي على السواحل الإيرانية أدى إلى أن تصبح تلك السواحل عربية مما أضفى على الخليج سمته العربية من جانبيه .

وقد تحدث العديد من الرحالة الأوربيين عن المدن والامارات التي أقامها العرب على تلك السواحل ولعل الرحالة الدانمركي كارستن نيبور Niebuhr كان أول من أشار إلى المدن والموانئ العربية التي صادفها خلال رحلته إلى سواحل الخليج في عام ١٧٦٣ وأكد أن العرب الذين استقروا فيها كانوا مستقلين تماما عن فارس وشبه المدن التي قاموا بتأسيسها بدول المدينة التي عرفت قديما لدى الاغريق أو تلك التي عرفتھا المدن الايطالية في العصور الوسطى خلال اشتغالها بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب^(٣) .

ولم يكد يمضي أكثر من قرن واحد على رحلة نيبور حتى قام الرحالة الانجليزي ويليام بالجراف Palgrave برحلته إلى أواسط الجزيرة العربية والخليج في عام ١٨٦٢

(١) مصطفى عقيل : سياسة ايران في الخليج العربي على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨ / ١٨٩٦ الدوحة ١٩٨٧ ، ص ١٠٣ .

(٢) محمد مرسى عبد الله : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ١٩٨١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) Carsten Niebuhr, Travels Through Arabia and other Countries in the East, Edinburgh 1792, Vol. II, p. 137.

وأشاد بدوره بالازدهار الذي حققه العرب على الساحل الشرقي وذكر أن الموانئ العربية في ذلك الساحل استطاعت أن تجذب إليها الكثير من العناصر والأجناس بفضل سياسة التسامح والحرية الاقتصادية التي اتبعتها الحكام العرب حيث انتعشت التجارة مع الهند وشرق إفريقيا وتدفقت البضائع إلى تلك الموانئ باعتبارها موانئ حرة (١) .

ومن المؤكد أن الوجود العربي على السواحل الشرقية للخليج لم يكن موضع خلاف بين الباحثين إذ يقرر المؤرخ البريطاني جون كيلي Kelly أن معظم تلك السواحل والجزر المجاورة لها كانت تخضع لسيطرة القبائل العربية وأنها نأت عن أية تبعية للفرس الذين كانوا كلما حاولوا إخضاعهم لنفوذهم انسحبوا في مراكزهم إلى بعض الجزر القريبة منهم (٢) ولعل ذلك الوجود التاريخي الذي سجله العرب على سواحل الخليج هو الذي جعل الباحثين العرب يؤكدون على الصفة العربية للخليج من جانبه وشايعهم فيما ذهبوا إليه بعض الباحثين الأجانب ومن بينهم رودريك أوين Owen في كتابه "الفقاعة الذهبية" (٣) كما أكد الكاتب الفرنسي جان جاك بيربي Berebey على عروبة الخليج وإن سمي كتابه الذي صدر في عام ١٩٥٩ " بالخليج الفارسي " اتباعا للتسمية التي كانت سائدة عند صدور كتابه هذا (٤) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن التكوينات السياسية التي أوجدها العرب على الساحل الشرقي من الخليج لم تكن منعزلة عن الكيانات والوحدات السياسية التي

(١) William Palgrave . Personal Narrative of a year' s Journey through Central and Eastern Arabia, london 1877, P 392.

(٢) John Kelly , Britain and the Persian Gulf , london 1968 . P . 4 0

(٣) Roderick owen , The Golden Buble , Arabian Gulf documentary London 1957,pp. 13 - 16.

(٤) Jean Jack Berebey, Le Golfe Persique , paris 1959

أوجدتها العرب على كلا جانبي الخليج كانوا على اتصال دائم بينى جلدتهم وفى حركة مستمرة من الهجرة إلى ذويهم (١) . ورغم تقلبات السلطة السياسية فى فارس ظلت الهجرات العربية تند إلى سواحلها حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومن ثم استمرت تلك السواحل محتفظة بهويتها العربية وبصلات سكانها المستمرة مع أقرانهم فى السواحل المواجهة لهم .

وقد ارتبط الوجود العربى فى الساحل الشرقى للخليج بافتقاد فارس إلى حكومة مركزية قوية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد يكون حقيقة أن بعض حكام الفرس الأقوياء من أمثال نادر شاه الافشارى ١٧٢٧ / ١٧٤٧ أو كريم خان الزندى ١٧٥٦ / ١٧٧٩ قد بذلوا محاولات دائبة لتقوية قبضة يدهم على السواحل الفارسية إلا أن الأمور كانت تعود إلى ما كنت عليه بسبب عجز أولئك الحكام عن فرض سيطرتهم البحرية فمنذ المحاولة التى بذلها نادر شاه لبناء قوة بحرية أثبت الفرس أنهم بحارة عاجزون تعوزهم الخبرة فى شئون البحر أو إدارة الأسطول. ولعل خير تعليل لذلك ما ذكره السير برسى سيكس Sykes فى أنه ليس هناك شئ يوضح تأثير العوامل الطبيعية على ميول الناس وسلوكهم أكثر من النفور الذى يظهره الفرس للبحر الذى تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة (٢) ومن ثم اضطر كثير من أولئك الحكام إلى استخدام الملاحين العرب ليكونوا بحارة لأساطيلهم بينما اسندوا قيادة تلك الأساطيل إلى قباطنة من الفرس تعوزهم الدراية البحرية ولعل

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخى الجزء السابع ، الدوحة ١٩٦٧ انظر الملاحق الخاصة بفروع الأسر العربية الحاكمة فى السواحل الشرقية من الخليج .

(٢) Percy Sykes ,History of Persia , Vol II, London 1951 P . 271

انظر أيضا عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ ص ص ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ .

ذلك يتجلى فى أمير البحر الفارسى الذى اختاره نادر شاه لقيادة أسطوله ولم يكن قد سبق له أن ركب البحر أو رأى سفينة من قبل ! ولذلك كان من الطبيعى أن يسيطر الملاحون العرب على القوة البحرية لفارس ولكى تؤول إليهم معظم سفن الأسطول الفارسى بعد اغتيال نادر شاه مما أعان القواسم فى الوصول إلى القوة والتفوق البحرى والامتداد بنفوذهم من الساحل العمانى إلى الساحل المواجه لهم (١).

وعلى الرغم من استقرار الحكم فى فارس على أثر ظهور الأسرة القاجارية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه لم يكن لتلك الأسرة نفوذ ملموس على سواحلها ولم يتحقق لها ذلك إلا بداية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين أخذ ملوكها يعملون على تقوية حكمهم المركزى والقضاء على النفوذ العربى من السواحل الشرقية للخليج فمنذ عام ١٨٥٤ بدأ ناصر الدين شاه ١٨٤٨ / ١٨٩٢ فى العمل على تقليص نفوذ سلطنة مسقط وعمان من الموانى التى كانت تديرها فى بندر عباس وقشم وهرمز مستغلا الصراع الأسمى والتفكك الداخلى الذى دب فى أوصال تلك السلطنة التى ترجع سيطرتها على تلك الموانى والبنادر التابعة لها فى شهباز وجوادور إلى عام ١٧٩٣ بموجب فرمان تحصلت عليه السلطنة من الحكومة الفارسية بمنحها حق إدارة تلك الموانى عن طريق الإيجار السنوى (٢) وكان من الطبيعى أن يترتب على الازدهار الاقتصادى الذى حققته السلطنة العربية فى تلك الموانى أن يعمل ملوك آل قاجار على استرجاع نفوذهم ومن أجل ذلك خاضت فارس

(١) G . N . Curzon, Persia and the Persian Question, Vol II, London

1892, P.239 see also Carsten Niebuhr, Description de l'

Arabie, Copenhagen 1773, pp. 267-268

Percy Sykes , History of Persia, vol II, London 1951 pp. 252 - 253. (٢)

انظر أيضا أرنولد ويلسن : تاريخ الخليج ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٤٥

حرباً ضد سلطنة مسقط وعمان فى عام ١٨٥٤ (١) ونتيجة للقيود التى فرضها الانجليز على الملاحة العربية فى الخليج استطاعت فارس أن تصل إلى اتفاقية مع السيد سعيد بن سلطان فى عام ١٨٥٦ رفعت بمقتضاها قيمة الإيجار السنوى وحددت فترة الإدارة العمانية بعشرين عاما غير أنها لم تلبث أن أقدمت على إلغاء تلك الاتفاقية برمتها فى عام ١٨٦٨ على أثر تغير نظام الحكم فى سلطنة مسقط وعمان وانتقاله إلى فرع آخر من فروع الأسرة الحاكمة ومن ثم تحولت تلك الموانى من الإدارة العربية إلى الإدارة الفارسية المباشرة (٢). ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن كثيرا من الرحالة الأوربيين قد نوهوا بالازدهار الاقتصادى الذى حققته الإدارة العربية على خلاف الإدارة الفارسية التى وصفوها بقدر كبير من الجور والتعسف . وعلى أثر خضوع بندر عباس وتوابعها للإدارة الفارسية اتجهت فارس بعد ذلك إلى القضاء على نفوذ القواسم فى إمارة لنجة وتم لها ذلك فى عام ١٨٨٩ وليس من شك فى أن ما أقدم عليه ناصر الدين شاه من فرض سيطرته على السواحل الجنوبية سيمهد الطريق لرضا شاه بهلوى مؤسس الأسرة البهلوية فى استكمال سلطة الدولة المركزية على سواحلها الشمالية وقد تحقق له ذلك فى عام ١٩٢٥ حين نجح فى القضاء على إمارة المحمرة العربية التى كانت تشغل إقليم عربستان حيث تم إعلان دمج ذلك الاقليم فى الأقاليم الإيرانية بعد تغيير اسمه إلى الاسم الفارسى

(١) G . N . Curzon , History of Persia , Vol II , London 1892 P . 423

(٢) C . U . Aitchison , A collection of Treaties , Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries , v o l XI Calcutta 1892 P . 100

انظر أيضا جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية . ١٨٤٠ / ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٠ .

خوزستان (١) . وهكذا أدى الحكم المركزي القومي إلى اصطدام الامارات العربية بطموحات حكام الفرس مما أسفر عنه تلك الصراعات التي وقعت بين الفريقين وترتب عليها الإطاحة بالوجود العربي من السواحل الشرقية للخليج (٢) ومع ذلك فإن الإطاحة بذلك الوجود لم يكن يرجع إلى الجهود التي بذلها ملوك آل قاجار أو رضا شاه بهلوى فحسب وإنما كان يرجع أيضا إلى الصراعات الأسرية التي عانت منها كثير من الإمارات العربية على تلك السواحل يضاف إلى ذلك أن السياسة البريطانية شكلت بدورها عاملا هاما من عوامل نجاح الفرس في القضاء على تلك الإمارات إذ ترتب على فرض بريطانيا المعاهدات البحرية على شيوخ الساحل العماني حرمان سفنهم من الوصول إلى جزر وموانئ السواحل الشرقية للخليج ومن ثم فقد العرب المقيمون هناك الدعم الذي كانوا يتلقونه دائما من أقرانهم (٣) وبالإضافة إلى ذلك فقد ترتب على تدهور النفوذ العربي وتصاعد النفوذ الفارسي واتجاه السياسة الإيرانية منذ العهد البهلوى إلى التفريس القسري لسكان تلك السواحل أن أخذت الأجيال الجديدة تخضع للمؤثرات الثقافية الإيرانية وإن لم تنس بطبيعة الحال أصولها العربية (٤). ولعل الأمر الأكثر خطورة هو أنه ما كادت إيران تنتهي من تفريس سواحلها حتى أخذت تمتد بادعاءاتها الإقليمية إلى السواحل المقابلة لها رغم تطور كياناتها السياسية من مشيخات أو إمارات إلى دول حديثة

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي : تاريخ إيران السياسي في القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥١ - ٥٢ وكذلك شفيق الرشيدات : عريستان الجزء العربي المفتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .

(٢) N . J . whigham , The Persian Problem London 1903 . P . 18

(٣) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ص ص ١١٥ - ١١٦ .

بدءاً من آل صباح في الكويت إلى آل أبي سعيد في سلطنة مسقط وعمان ومن ثم ظلت السياسة الإيرانية تسيّر وفق ثوابت معينة استهدفت هيمنتها على الخليج واعتباره بحيرة فارسية تقع وسط أقاليم إيرانية .

وإذا كنا قد تعرضنا إلى نمو السلطة المركزية في إيران فلا يعنينا من ذلك النمو فيما يتعلق بموضوع تلك الدراسة سوى تأثيره على إمارة القواسم في لنجة وما كان يتبعها من موانئ وجزر مجاورة وذلك نظراً لارتباط قواسم لنجة بقواسم الساحل العماني بصلة النسب والقرباة فضلاً عن كونهم امتداداً للاتحاد القاسمي الكبير الذي ظهر إلى القوة إثر انفصالهم عن الكتلة الفارسية في عمان وعلى وجه التحديد عقب سقوط دولة البعارية وقيام دولة البوسعيد في عام ١٧٤١ ولم يلبث أن تعاظم نفوذهم البحري في خلال الفوضى التي عمت فارس عقب اغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧ وتمكنوا من الحصول على لنجة وتوابعها في عام ١٧٥٢ وكان ذلك مكافأة لهم على تحالفهم مع الملا علي شاه قائد منطقة بندر عباس حين أزروه في الصراع الذي كان قائماً بينه وبين ناصر خان قائد منطقة لارستان (١) .

وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها كريم خان الزندي ١٧٥٦ / ١٧٧٩ للحد من نفوذ القواسم في لنجة إلا أنهم نجحوا في تثبيت أوضاعهم وخاصة بعد اغتياله في عام ١٧٧٩ (٢) وبفضل من تدفق عليهم من القبائل المتحالفة معهم ونشاطهم البحري استطاعوا أن يحققوا ازدهاراً اقتصادياً كبيراً حتى غدت إمارتهم في لنجة

(١) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص ص ٢٣

- ٢٤ وكذلك فالح حنظل : الفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، الجزء الأول ، أبو ظبي ١٩٨٣ ، ص ١٩٦ ولوريمر : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٢١٦

(٢) Kelly , J , o p . cit . pp . 40 - 41 see also Donald Hawley , The

Trucial States , Lonon 1970 , p . 93

بمشابة حاضرة للساحل الجنوبي الشرقى من الخليج وتميزت بمسحتها العربية وطبيعتها العقائدية كموطن لأهل السنة والجماعة (١) وتأكد وضعها المستقل نتيجة حالة الفوضى التى تردت فيها المملكة الفارسية كما كانت مؤهلة بطبيعتها للحكم العربى حيث سبق القواسم فى حكمها العديد من الأسرات العربية التى هاجرت إليها من عمان أو غيرها من سواحل الجزيرة العربية (٢) .

وقد استمر حكم القواسم فى لنجة وما حولها من جزر على الساحل أو قرى على البر الفارسى منذ عام ١٧٥٢ حتى أطاحت الحكومة القاجارية بالشيخ محمد بن خليفة القاسمى وهو آخر شيخ عربى حكم لنجة فى عام ١٨٨٩ (٣) وليس من شك أن استقرار الحكم للقواسم فى لنجة كان يرجع فى الدرجة الأولى إلى القوة البحرية التى حققها تحالف القواسم فى معقلهم الرئيسى برأس الخيمة (٤) حيث أصبحوا يمتلكون حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر أسطولا كبيرا أجمعت العديد من المصادر أنه كان يتألف من ثلاثة وستين سفينة كبيرة وأكثر من ثمانمائة سفينة صغيرة كما بلغ عدد مقاتليهم أكثر من تسعة عشر ألف رجلا ومن ثم أصبح ذلك

١ - حسين بن على الرحيدى : تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دوى

الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٥ ، ص ص ١٥ - ١٦ .

٢ - المرجع السابق ص ٧ .

٣ - انظر لوحة نسب عائلة القواسم حكام لنجة فى المجلد السابع من القسم التاريخى للورعر .

٤ - التفاصيل الكثيرة عن حلف القواسم يمكن الرجوع إليها فى وثائق حكومة بومباى :

Selection From The Records of Bombay Govt . Vol XXIV Bombay

1856 : Historicd Sketsh of the Joasmee Tribe of Arabs 1747 - 1853 , pp

299 - 359

انظر أيضا عبد القوى نهى : القواسم ونشاطهم البحرى ، راس الخيمة ١٩٨٣ ، ص ٨٧ وما بعدها

التحالف القوة البحرية الأولى التى كانت تحسب حسابها القوى الإقليمية والأجنبية (١) .

ولقد كان من الطبيعى أن تلفت تلك القوة البحرية أنظار الإنجليز منذ أن أخذوا يتطلعون إلى منطقة الخليج فى أوائل القرن التاسع عشر وحتى يتمكنوا من القضاء على تلك القوة البحرية التى باتت تهدد مصالحهم البحرية والتجارية ارتكزت خطتهم على تفكيك ذلك التحالف وتدمير القواعد الرئيسية للقواسم فى الساحل العمانى . وليس من شك أن الإجراءات السياسية والعسكرية التى اتخذها الإنجليز كان لها أثر كبير فى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل العمانى وأقرانهم فى الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج (٢) .

وكان مما ساعد الإنجليز على هزيمة القواسم تلك الصراعات المستمرة التى كانت قائمة بينهم وبين سلطنة مسقط وعمان (٣) بالإضافة إلى سقوط الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ على أيدى القوات المصرية التركية إذ كان القواسم من أشد المتحمسين للدعوة السلفية ومن ثم أدى فقدانهم للدعم السعودى إلى عدم قدرتهم على مواجهة الحملات البريطانية وخاصة حملة ١٨١٩ التى تمكن الإنجليز فى أثنائها من تدمير معظم قلاعهم وإحراق سفنهم رغم استبسالهم فى الدفاع (٤) . وكان من أهم النتائج التى ترتبت على تلك الحملة سقوط رأس الخيمة

(١) G . Fenelon: The united Arab Emirates , an Economic and Social Survey , london 1973 , p. 10

(٢) Kelly , J . , o p . cit , pp, 160 - 161

(٣) س . ت . مايلز : الخليج ، بلدانه وقبائله (مترجم) ، ١٩٨٦ ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٤) Charles low , History of The Indian Navy انظر الحملة الخاصة بهذه الحملة انظر Charles low , History of The Indian Navy Vol 2 , London 1877 , P . 351 ff.

انظر أيضا : جمال زكريا قاسم : الخليج العربى : دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع العربى الأول ، القاهرة ١٩٨٥ ص ٣٢١

التي كانت أهم وأبرز مشيخة شهدتها الخليج العربي خلال تلك الفترة (٥) .
ومما هو جدير بالملاحظة أنه على الرغم من أن الإنجليز تحاشوا التقدم إلى القواسم
في لنجة إلا أن ما تعرض له أقرانهم في الساحل العماني قد أثر بطبيعة الحال على
قوتهم وإن ظلوا محتفظين بتماسكهم غير أن حرص الإنجليز على عدم اشراكهم في
التوقيع على المعاهدة العامة التي أبرمت مع شيوخ الساحل العماني في عام
١٨٢٠ وما تلاها من اتفاقيات ومعاهدات أخرى سيجب الفرصة لفارس للقضاء
على حكمهم نظرا لافتقادهم للحماية البريطانية .

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل
العماني وأقرانهم في لنجة ما ترتب على توقيع معاهدات الهدنة البحرية من مراقبة
سفن الأسطول البريطاني للنشاط البحري العربي ومنع امتداده إلى الساحل الشرقي
من الخليج . ومن أجل ذلك حدد الكولونيل هنل Hennell المقيم البريطاني في
الخليج في عام ١٨٣٦ خطا مقيدا للملاحة Restrictive line لا يجوز للسفن
العربية بصفة عامة وسفن القواسم بصفة خاصة اجتيازه وقد راعى هنل في رسمه
لذلك الخط الفاصل أن يكون بعيدا عن الساحل الشرقي للخليج . وعلى الرغم من
أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة ١٨٠٣ / ١٨٦٦ لم يوافق على
ذلك الخط وأبدى اعتراضه في أنه لا بد له من الاتصال بيني عمومته في إمارة لنجة
وتفقد ممتلكاته في خورفكان على خليج عمان إلا أن هنل لم يأبه بهذا الاعتراض
وأكثر من ذلك فإنه حينما خلف الكابتن موريسون Morrison الكولونيل هنل في
منصب المقيمة البريطانية في الخليج في عام ١٨٣٧ لم يكتف بالخط الذي وضعه

(١) مايلز ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

هتل وإنما أراد حصر السفن العربية فى مساحة أضيق حتى يسهل مراقبتها ومن ثم حدد خطا آخر يبدأ من جزيرة قشم وينتهى إلى مسافة عشرة أميال جنوب جزيرة أبو موسى وحتى جزيرة صير بونغير (١) مما أدى إلى فصل جزر أبو موسى والطنبين عن الساحل العمانى وقطع الصلات التى كانت تربط سكانها بذلك الساحل ولعل صعوبة الاتصالات البحرية هى التى دفعت بقواسم الشارقة إلى الاتفاق مع أقربائهم قواسم لنجة على إدارة تلك الجزر دون اخلال بتبعيتها لهم .

ومن ناحية أخرى فقد ترتب على اقتراب الخطوط الملاحية المانعة من الساحل العربى وابتعادها عن السواحل الشرقية من الخليج إلى إتاحة الفرصة لفارس للقضاء على الوجود العربى فى تلك السواحل ولم يستطع عرب الساحل العمانى نظرا لانهايار قوتهم البحرية من ناحية ولوجود الخطوط الملاحية الفاصلة من ناحية أخرى أن يبادروا بتقديم العون لهم .

أتاحت إذن الرقابة البريطانية على الملاحة العربية الفرصة لفارس لكى تفرض سيطرتها على القواسم فى لنجة ولما كان هؤلاء يعتمدون فى مصدر قوتهم على التجارة والملاحة فقد اتجهت السلطات الفارسية إلى فرض نفوذها الاقتصادى على السواحل الشرقية للخليج ومن أجل ذلك اعتمد الشاه ناصر الدين ١٨٤٨- ١٨٩٦ على ألمانيا فى بناء سفينتين حربيتين تجاريتين لاستخدامهما فى مياه الخليج كانت أكبرهما السفينة برسوبوليس Persopolis التى وصلت فى عام ١٨٨٥ إلى ميناء

(١) عن الخطوط المثبدة للملاحة بين السواحل الشرقية والغربية للخليج العربى انظر : عبد العزيز عبد الغنى : بريطانيا والساحل العمانى ، دراسة فى العلاقات التعاهدية ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ص ٢٦٤ - ٢٦٨ ، انظر أيضا مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٤١ - ٤٤٢ وكذلك :

Kelly , OP, cit . , p. 359.

بوشهر واختصت بتنظيم الأوضاع الادارية والاقتصادية على موانئ الساحل الجنوبي الشرقي بينما عملت السفينة الثانية سوزا Sousa في رقابة الملاحة النهرية في نهر كارون على رأس الخليج العربي (١) .

وقد اعتمدت السلطات الفارسية في بوشهر على السفينة برسبوليس في مواصلة قضائها على الكيانات العربية خاصة إمارة لنجة وتوابعها غير أن العامل الهام الذي ساعد الحكومة المركزية في طهران في بسط سيطرتها على تلك الإمارة لم يكن يرتبط باستخدام القوة البحرية بقدر ما كان يرتبط إلى حد كبير بالمنازعات الأسرية التي نشبت داخل فرع القواسم في لنجة خاصة بعد أن عمدت السلطات الفارسية في الخليج إلى تعميق شقة الخلاف بين المتنافسين على الحكم حتى تتمكن من تحقيق أهدافها ، فعلى أثر وفاة الشيخ خليفة أقوى شيوخ لنجة في عام ١٨٧٤ خلفه ابنه على ولما كان صبيا صغيرا لم يبلغ سن الرشد فقد خضع لوصاية أحد أقربائه وهو الشيخ يوسف بن محمد الذي لم يلبث أن انفرد بالسلطة بعد اغتياله للشيخ على حين شب إلى رشده في عام ١٨٨٧ وبدأت لنجة تتعرض منذ ذلك الحين لسلسلة من المنافسات والاغتيالات الأسرية كان أبرزها في عام ١٨٨٥ حين قفز إلى حكم لنجة الشيخ قضيف بن راشد بعد قتله للشيخ يوسف بن محمد . (٢)

تواكب عدم استقرار الحكم في لنجة مع مرحلة هامة في تاريخ فارس حين اتجهت إلى التخلص من الكيانات المستقلة والتحول من حكم الشيوخ العرب أو حتى الخانات الفرس إلى سيطرة الحكومة المركزية ومن ثم قضى هذا التحول الذي طرأ على السياسة الفارسية على تلك المحاولة التي بذلها الشيخ قضيف بن راشد

(١) ويلسن ، مصدر سبق ذكره ص ١٨٦ .

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

للاتصال عن السلطة المركزية عن طريق توثيق علاقاته بأقربائه شيوخ القواسم في الساحل العماني (١) هذا بالإضافة إلى أن الانجليز كانوا سببا في إفشال محاولته حين أصدر المقيم البريطاني تحذيرا لأولئك الشيوخ بعدم التدخل في الصراعات الدائرة بين قواسم لنجة والسلطات الفارسية في الخليج (٢) ومن ثم كان من الطبيعي ألا يستقر الشيخ قضيف في حكمه طويلا وخاصة بعد أن كلفت الحكومة المركزية في طهران الدرايايكي حاجي أحمد خان بإدارة موانئ الساحل الجنوبي الشرقي من الخليج وما كاد يصل إلى مركز عمله في بوشهر في سبتمبر ١٨٨٧ حتى أخذ يعمل على توحيد الموانئ التي صارت تابعة لإدارته ومن أجل ذلك أرسل حملة بحرية ألحقت الهزيمة بالشيخ قضيف حيث اقتيد أسيرا إلى طهران وبقي فيها سجيناً حتى وفاته (٣)

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من الهزيمة التي أحقت بالشيخ قضيف فإن السلطات الفارسية لم تستطع أن تتجاهل الأسيرة القاسمية في لنجة حيث بادر الدرايايكي بتنصيب أحد شيوخ القواسم حاكماً عليها تحت التبعية الفارسية ولم تكذ تنقضى أكثر من سنتين على ذلك الوضع حتى قام الشيخ محمد بن خليفة الشقيق الأصغر للشيخ على بمحاولة لطرد الحامية الفارسية من لنجة واستعادة القواسم لنفوذهم وعلى الرغم من أنه قد تمكن من إسقاط قلعة لنجة بالفعل وأجبر الحامية الفارسية على التسليم إلا أن السلطات الفارسية في بوشهر لم تلبث أن استردت

(١) Government of India , Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands 1854 - 1905 Calcutta , 1906

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٣) فالح حنظل ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٦٧٩ .

أن استردت سيطرتها وكانت الهزيمة التى منى بها القواسم فى عام ١٨٨٩ سببا فى سقوط إمارتهم فى لنجة (١) .

ويمكننا أن نحدد بسقوط إمارة لنجة بداية لمشكلة الجزر ويرجع السبب فى ظهور تلك المشكلة إلى أن الحكومة المركزية فى طهران لم تكتف بفرض سيطرتها على إمارة لنجة وإنما تجاوزت ذلك بإصدار تعليماتها إلى السلطات التابعة لها فى الخليج بفرض سيطرتها على الجزر العربية التى تواجه تلك الإمارة وهى جزيرة صيرى وأبو موسى وطنب الكبرى والصغرى وبنى فرارو وغيرها . وتنفيذاً لتلك التعليمات بادرت السلطات الفارسية بإرسال بعض القطع البحرية التى تمكنت بواسطتها من احتلال جزيرة صيرى ورفع العلم الفارسى عليها وكان ذلك تمهيدا للسيطرة على ما يجاورها من جزر غير أنها لم تلبث أن أوقفت عملياتها على أثر احتجاج الحكومة البريطانية بعد أن أثار حكام القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة مسألة تبعية تلك الجزر لهم وحملوا الحكومة البريطانية مسئولية المحافظة على ممتلكاتهم بحكم التزاماتها بحمايتهم (٢) وبينما تقاعست السلطات البريطانية عن الاحتلال الفارسى لجزيرة صيرى إلا أن جزر أبو موسى والطنبين ظلت موضع نزاع بين بريطانيا باعتبارها ممثلة لمصالح رأس الخيمة والشارقة وبين الحكومة الإيرانية حتى الاحتلال الإيراني لتلك الجزر فى نوفمبر من عام ١٩٧١ وتحوله منذ ذلك الحين إلى نزاع بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة .

وقبل أن نستعرض المراحل المختلفة لذلك النزاع الذى استغرق أكثر من مائة عام تجدر الإشارة إلى أن الخلاف حول ملكية الجزر قد ظهر فى بداية الأمر بين حكام

(١) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ٤٤٠ .

(٢) فالج حنظل : مرجع سبق ذكره ، الجزء الثانى ، ص ص ٦٧٩ - ٦٨١ .

القواسم فى لنجة وقواسم الساحل العمانى فى الشارقة ورأس الخيمة ولم يلبث أن تعقد بصورة أكبر حين طالبت إمارات عربية أخرى بملكية تلك الجزر بينما لم تكن الحكومة الفارسية حتى سقوط إمارة لنجة فى عام ١٨٨٩ طرفا فى ذلك النزاع وفيما يبدو أن الجزر فى تلك الفترة المبكرة لم تكن تثير اهتمام الحكومة الفارسية بل لعلها لم تكن تعرف شيئا عنها لعدم وضوح أهميتها الاقتصادية فضلا عن عدم توافر الاحتياجات الضرورية للمعيشة وندرة مياه الشرب بها ومن ثم لم يكن يتردد عليها سوى جماعة من الصيادين أو الرعاة وانحصرت أهميتها فى لجوء بعض السفن إليها وقت الضرورة كما كانت ملجأ للعرب المقيمين على السواحل المجاورة لها عندما يتعرضون للضغوط من قبل السلطات الفارسية فى الخليج .

ولعل ما يؤكد أن الحكومة الفارسية لم تكن تبدى اهتماما بتلك الجزر عدم ورود شئ يذكر عنها فى المصادر الفارسية الخاصة بتاريخ الخليج ويركز على تلك الحقيقة أحد الباحثين العرب فى دراسته عن السياسة الإيرانية فى الخليج بعد رجوعه إلى العديد من المصادر الفارسية التى كتبت فى القرن التاسع عشر (١) وحتى فى المصادر الإيرانية الأكثر حداثة التى رجعنا إليها ومن بينها تاريخ الخليج السياسى "لصادق نشأت" و"مطالعاتى درباب بحرین وسواحل وجزایر خلیج فارس" لعباس إقبال لا نجد إشارات واضحة عن تلك الجزر . غير أن الروايات المتناقلة والمكاتبات المحلية بين قواسم الشارقة والمقيمة البريطانية فى الخليج أو بينهم وبين القواسم فى لنجة تشير إلى تبعية تلك الجزر لقواسم الساحل العمانى كما يبدو ذلك واضحا فى

رسالة بعث بها الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة ١٨٠٣ - ١٨٦٦ إلى

١ - مصطفى عقيل : السياسة الإيرانية فى الخليج على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨ - ١٨٩٦ .

الدوحة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٤٤ .

الكولونيل لويس بلي Pelly المقيم البريطانى فى الخليج فى ديسمبر ١٨٦٤ بأن
جزر أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى هى من ممتلكات الشارقة بينما تخص
جزيرة صيرى فرع القواسم فى لنجة (١) ومن المعروف أن إمارة رأس الخيمة كانت
تابعة للشارقة آنذاك ولذلك لم تنص الرسالة على تبعية الطنين لها .

ويمكننا استخلاصاً من المصادر البريطانية ومن المكاتبات المحلية أن نؤكد بأن
إيران لم يسبق لها أن فرضت سيطرتها على تلك الجزر أو مارست أى نفوذ عليها
كما أن الادعاءات الإيرانية التى تركز على تبعية الجزر لإمارة لنجة تبدو واهية لأن
حكام القواسم فى لنجة كانوا مستقلين تماماً عن السلطات الفارسية وإن كنا نستثنى
مع ذلك بعض الفترات القصيرة التى أعلن فيها بعض الشيوخ المفتصبين للحكم
تبعيتهم لفارس وأيدوا تبعية تلك الجزر للسلطات الفارسية ونعنى بذلك الشيخ
يوسف بن محمد السابق إشارتنا إليه والذي لم يستغرق حكمه فى لنجة أكثر من
سبع سنوات ومن الطبيعى أن يضعف قيمة الإدعاء الإيراني إذا ما عرفنا أن الشيخ
يوسف كان مفتصباً للحكم ومن ثم كان فى حاجة إلى تدعيم مركزه أمام معارضيه
بالاعتماد على التأييد الفارسى وبالإضافة إلى ذلك حاولت إيران تدعيم مطالبها
على تلك الجزر بادعائها بأنها كانت تتلقى رسوماً من القواسم فى لنجة وحتى إذا
افترضنا أن بعض شيوخ لنجة كانوا يدفعون رسوماً للسلطات الفارسية فإنه من
الصعب التدليل على أن هذه الرسوم كانت تنسحب على تلك الجزر وخاصة أن
الحكومة الإيرانية قد عجزت عن إظهار الوثائق الخاصة بإيصالات تلك الرسوم (٢)

(١) محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، الكويت ١٩٨١ ، ص ٣٢٥ .

(٢) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥٣ .

ومن ناحية أخرى فإن سقوط حكم القواسم فى لنجة فى عام ١٨٨٩ لا يعطى لإيران حق السيطرة على تلك الجزر بدعوى تبعيتها لإمارة لنجة إذ أن تلك التبعية مع افتراض حدوثها لا تنفى الصفة العربية عنها .

إذا كانت السلطات الفارسية قد توقفت عن مواصلة زحفها على جزر أبوموسى والطنين بعد احتلالها لجزيرة صيرى فى عام ١٨٨٩ فلم يكد يمضى أقل من أربعة عشر عاما حتى عادت الحكومة الفارسية إلى إثارة تلك المشكلة فى السنوات الأولى من القرن الحالى ويرجع ذلك إلى ما ترتب على خضوع لنجة للسلطات الفارسية من هجرة تجارها الأثرياء إلى جزيرة أبو موسى خاصة حين أخذت تلك السلطات فى تطبيق القوانين الجمركية التى صدرت فى عام ١٩٠١ على الموانى التابعة لها . ولما كانت جزيرة أبو موسى قد نأت عن التبعية الفارسية فقد أدى ذلك إلى انتعاشها الاقتصادى وخاصة بعد أن اتخذتها كثير من شركات الملاحة الأجنبية بمثابة مركز توزيع لتجارتها بدلا من ميناء لنجة وليس من شك فى أن الازدهار الاقتصادى الذى حققته جزيرة أبو موسى كان من وراء تجديد مطالبة الحكومة الفارسية بها فضلا عن الجزر المجاورة لها . وخوفا من أن تقدم السلطات الفارسية على احتلالها طلب المقيم البريطانى فى الخليج من حاكم الشارقة فى إبريل ١٩٠٣ أن يبادر برفع علم ساحل الصلح البحرى على جزيرة أبو موسى والطنين وقد ظل ذلك العلم مرفوعا لأكثر من عام حتى أصدر وزير الخارجية الفارسية خير الدولة تعليماته إلى السلطات الفارسية فى بوشهر بالتحرك إلى تلك الجزر وبادرت تلك السلطات بإرسال قوة مسلحة على ظهر سفينة العوائد " مظفرى " وتمكن المسيو دامبرين Damprain وهو من الخبراء البلجيكيين الذين استعانت بهم الحكومة

الفارسية لتنظيم جماركها مع بعض مساعديه من إنزال علم الشارقة ورفع العلم الفارسي بدلا منه ^(١) .

وقد أثارت تلك الحادثة التي وقعت في مارس عام ١٩٠٤ ردود فعل شديدة لدى الدوائر البريطانية في حكومة الهند التي كانت تخشى في أن تكون البعثة الروسية في طهران من وراء تلك التحركات الفارسية خاصة وأن روسيا كانت من القوى الأوروبية المناوئة للإنجليز وكانت تعمل على عدم تمكينهم من إنشاء قواعد لهم عند مدخل الخليج معتمدة في ذلك على توثق العلاقات بينها وبين الحكومة الفارسية وخاصة بعد أن تم عقد معاهدة سرية بين الدولتين في مارس ١٩٠٣ وعلى الرغم من أن بنود تلك المعاهدة التي أفصح عنها فيما بعد كانت تستثنى الأقاليم الجنوبية لفارس من أي نشاط روسي ^(٢) إلا أن اللورد كيرزون Curzon نائب الملك في الهند كان يبدى تخوفا ملحوظا من خطورة المنافسة الروسية لبريطانيا في الخليج فضلا عن استيائه الشديد من عدم استقبال السلطات الفارسية له الاستقبال اللائق به كنائب للملك أثناء الزيارة التي قام بها إلى سواحل الخليج في نوفمبر ١٩٠٣ ولذلك طلب من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة على أن تقوم حكومة الهند بإرسال بعض القطع البحرية ورفقتها مندوب عن حاكم الشارقة لكي تزيل الأعلام الفارسية وإخلاء الجزر من أي وجود فارسي فيها ولكن وزارة الخارجية البريطانية التي كانت أكثر مرونة في علاقاتها الدولية من حكومة الهند قررت الاكتفاء بتوجيه احتجاج شديد اللهجة وترك المجال مفتوحا للحكومة الفارسية لكي تخفض أعلامها بنفسها ولعدم إراقة

(١) ج . ج . لوريمر : مصدر سبق ذكره ، القسم التاريخي ج ٢ ص ١١٣٢ - ١١٣٣ .

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ، ترجمة أحمد كمال حلمي وتحقيق بدر الدين

الخصوصي ، الكويت ١٩٧٢ ، ص ٢٢٠ .

ماء الوجه أنكرت وزارة الخارجية الفارسية ، خلافا للواقع ، فى ردها على الاحتجاج البريطانى علمها بالحادث وأصدرت تعليماتها على الفور بانسحاب حامياتها العسكرية التى استقرت فى أبو موسى وطنب الكبرى وإزالة الأعلام الفارسية وإن كانت قد أكدت فى ردها على الاحتجاج البريطانى أحقيتها فى السيادة على تلك الجزر وطالبت بعدم رفع أعلام أى من الأطراف المتنازعة حتى الانتهاء من إيجاد حل لتلك المشكلة إلا أن الحكومة البريطانية تجاهلت تلك المطالب (١) وبادرت برفع علم عمان المتصالحة فى ١٤ يونيه ١٩٠٤ ، وظل ذلك العلم مرفوعا فوق جزيرتى طناب الكبرى والصغرى حتى وقع الاحتلال الإيرانى للجزيرتين فى نوفمبر ١٩٧١ بينما ظل علم الشارقة مرفوعاً على جزيرة أبو موسى ثم استبدل بعلم دولة الإمارات العربية المتحدة فى ٢ ديسمبر ١٩٧١ حتى أعلنت إيران مؤخرًا انفرادها بالسيادة على تلك الجزيرة فى سبتمبر من عام ١٩٩٢ .

وليس من شك فى أن رفع الأعلام العربية على الجزر موضع النزاع وعدم توقف رفعها إلا لفترات قصيرة لم تتجاوز عدة أسابيع وعلى وجه التحديد من نهاية إبريل ١٩٠٣ إلى ١٤ يونيه ١٩٠٤ إنما يقدم فى حد ذاته دليلاً قوياً على ممارسة السيادة العربية على تلك الجزر وفضلاً عن ذلك كان لحكام الشارقة ورأس الخيمة يستوفون الرسوم من المشتغلين فى مهنة الصيد ومن غواصى اللؤلؤ ومن رعاة الإبل والماشية من جراء استخدامهم لتلك الجزر ومن البديهي أن فرض الرسوم يعد تأكيداً لأعمال السيادة التى ظل الحكام فى رأس الخيمة والشارقة يمارسونها دون انقطاع ، وإلى جانب فرض تلك الرسوم كان لحكام الشارقة ورأس الخيمة حق منح الامتيازات

١ - روز مارى زحلان : النزاع حول الجزر العربية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة

الكويت إبريل ١٩٧٦ ص ٢٤ وما بعدها .

الخاصة باستغلال الموارد الطبيعية فى تلك الجزر أو إصدار التراخيص بإقامة بعض المنشآت الحيوية بها وليس من شك فى أن تمتعهم بتلك الحقوق يؤكد تبعية تلك الجزر لهم ويمكن الإشارة بصدد ذلك أنه فى عام ١٩٠٦ منح حاكم الشارقة شركة الونكههاوس wonkhaus الألمانية امتيازاً لاستغلال أكسيد الحديد فى جزيرة أبو موسى وعلى الرغم من أن ذلك الامتياز قد ألغى فى العام التالى فإن ذلك لم يكن بسبب اعتراض الحكومة الفارسية وإنما كان بسبب معارضة الحكومة البريطانية التى اعتبرت منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز اخلافاً بمعاهدة ١٨٩٢ التى كانت تلزمه بعدم منح أى امتياز فى أراضيه إلا لمن توافق عليه الحكومة البريطانية خاصة وأن التنافس الألمانى البريطانى كان قائماً على أشده فى منطقة الخليج ومن ثم اضطر حاكم الشارقة إلى الفائه فى أكتوبر ١٩٠٧ وذلك بعد أن أدخلت السلطات البريطانية فى روعه بأنه إذا تم اكتشاف الأكسيد وأصبحت الجزيرة تتمتع بأهمية اقتصادية فإن ذلك سيثير الأطماع الفارسية فيها . ومع ذلك فإن صلاحية حاكم الشارقة فى منح أو إلغاء الامتياز إنما تؤكد تبعية الجزيرة له .

وكان لحاكم الشارقة صلاحيات أيضاً فى جزيرتى طنب الكبرى والصغرى بحكم تبعية إمارة رأس الخيمة للشارقة ^(١) وظهر ذلك وضحا فى عام ١٩١٢ حين استطاع المقيم البريطانى فى الخليج برسى كوكس Cox أن يحصل من الشيخ صقر بن خالد القاسمى على ترخيص بإقامة فناء لإرشاد السفن عند مدخل الخليج وبهذه المناسبة تم تبادل المراسلات بين الجانبين وفيها أكد المقيم البريطانى لحاكم الشارقة على أهمية إقامة فناء فى الجزيرة التابعة له وهى طنب الكبرى لإرشاد السفن نظراً للموقع الذى تتمتع به الجزيرة عند مدخل الخليج وفى الرد الذى تلقاه المقيم البريطانى من حاكم الشارقة فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٢ أكد الأخير موافقته على منح الترخيص مع التشديد

(١) تم انفصال رأس الخيمة عن إمارة الشارقة فى عام ١٩٢١ .

على ملكيته للجزيرة وبشرط أن يبقى علمه مرفوعا عليها وقد أجابه المقيم البريطاني بأنه من المرغوب فيه دائما أن يستمر علمه قائما كما أن إنشاء فنار في الجزيرة يؤكد ملكيته لها وأن حقوقه لن تضار بإنشاء ذلك الفنار ، ^(١) وليس من شك في أن اتصال برسى كوكس المباشر بحاكم الشارقة ودون رجوعه إلى السلطات الفارسية في الخليج إنما يؤكد ملكية الشارقة لتلك الجزيرة وفضلا عن ذلك فإنه حين أثارت الحكومة الفارسية اعتراضها على حصول السلطات البريطانية في الخليج على ذلك الترخيص أجاب الوزير البريطاني المفوض في طهران بناء على المشاورات التي تمت بينه وبين السير برسى كوكس بأن ملكية الجزيرة لحاكم الشارقة ليست موضع شك وأنه من الأفضل ألا تثير الحكومة الفارسية تلك المشكلة من جديد لأن إثارتها قد تؤدي إلى إثارة مشكلة جزيرة صيرى التي سبق واحتلتها السلطات الفارسية وتغاضت السلطات البريطانية عن ذلك الاحتلال في عام ١٨٨٩ . وعلى الرغم من توقف الادعاءات الفارسية لعدة سنوات إلا أن السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى شهدت تجديد تلك الادعاءات فقد ترتب على انفصال رأس الخيمة عن الشارقة واعتراف الحكومة البريطانية بتبعية الطنبيين لها مع التأكيد على تبعية جزيرة أبو موسى للشارقة أن احتجت الحكومة الفارسية على استقرار وضعية الجزر على ذلك النحو وأخذت في إثارة العديد من الأزمات ففي عام ١٩٢٣ أوعزت لسلطاتها في بوشهر بإرسال بعض القطع البحرية إلى جزيرة أبو موسى بهدف تفقد مناطق الأكسيد الأحمر بها حيث كانت الحكومة الفارسية تعمل على أن يمتد نطاق الامتياز الذي منحه لاحدى الشركات العاملة في أراضيها إلى جزيرة أبو موسى وعلى أثر ذلك بادر السير برسى لورين Loraine الوزير البريطاني المفوض في طهران

(١) Percy Cox to Sheikh Saggar Bin Khahid and from Chief of Shargah to Percy Cox no 8 - 9 - 10 , October 1912 in treaties and engagements in force between the British Government and the Trucial Chiefs of Arab Coast, Calcutta, 1913- see also Aitchison , C.U. op . cit., vol.XI, P. 258 ff.

بالكتابة إلى حكومته لابلغها بحقيقة الوضع وردت وزارة الخارجية البريطانية بإصدار تعليماتها إلى ممثلها في طهران بأن يلفت نظر الحكومة الفارسية إلى ما حدث في عام ١٩٠٤ حين امتثلت السلطات الفارسية لإرادة البريطانية وبادرت بإزالة الأعلام الفارسية من الجزر ومن ثم فإن تجديد الادعاءات الإيرانية سوف يدفع بالحكومة البريطانية إلى اتخاذ اجراءات أكثر تشدداً .

وعقب انتهاء تلك الأزمة ظل الموقف متسماً بالهدوء النسبي حتى يوليو من عام ١٩٢٨ حين أقدمت السلطات الإيرانية في الخليج بالتعرض لاحدى السفن الشراعية التابعة لامارة دبي كانت في طريقها من طنب الكبرى إلى خصب حيث اقتيدت إلى ميناء لنجة وصودرت حمولتها من المواد التموينية وتم اعتقال ركبائها بعد أن اتهمتهم السلطات الإيرانية بالاشتغال في عمليات التهريب وقد أدى هذا الحادث إلى إثارة حكام الساحل العماني وكاد الموقف يتطور إلى حدوث مواجهة بين السلطات البريطانية والسلطات الإيرانية في الخليج^(١)، غير أن وزارة الخارجية البريطانية اكتفت بطلب اعتذار من الحكومة الإيرانية عن تسببها في وقوع ذلك الحادث كما طلبت تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بالسفينة وركبائها وأكدت في مذكرة بعثت بها إلى الحكومة الإيرانية بأنها لن تتحمل من الآن فصاعداً أية ادعاءات جديدة على أبو موسى والطنين،^(٢) بينما ردت الحكومة الإيرانية على المذكرة البريطانية بتأكيد حقوقها على تلك الجزر وأبدت دهشتها في عدم اعتراف السلطات البريطانية

(١) F . O . 371 / 13010 incident arising out of seizure of Dhow at Dubai by persian officials , July , 1928

(٢) F . O . 371 / 13721 Status of Islands of Tamb , Abu Musa and Sirri , Documents Showing rights of Trucial Coast Arabs , 1929

بصلاحيتها في ممارسة الاجراءات اللازمة على سفن تشتغل بتجارة التهريب^(١) .
وذهبت إلى أبعد من ذلك في إدعائها بحقوق السيادة على جميع الساحل العربى من
الخليج بدءاً من إمارة الكويت شمالاً إلى سلطنة مسقط وعمان جنوباً مؤكدة أن
جميع سكان ذلك الساحل رعايا تابعين لها وأنها بصدد إصدار جوازات سفر إيرانية
لهم^(٢). وكان من الطبيعى أن تتصدى الحكومة البريطانية لتلك الادعاءات بالتركيز
على معاهدات الحماية التى عقدتها مع حكام الامارات العربية والتى من شأنها عدم
اعترافها بوجود ثمة علاقات بين إيران أو غيرها من الدول وبين أولئك الحكام^(٣) .
ومما هو جدير بالذكر أن الادعاءات الإيرانية على الخليج بدأت تأخذ طابعاً قومياً
فى أعقاب سقوط الأسرة القاجارية وقيام الأسرة البهلوية بزعامة رضا شاه بهلوى
ومن ثم تميزت سنوات حكمه ١٩٢٥ - ١٩٤١ بالمنازعات المستمرة التى قامت بينه
وبين الحكومة البريطانية وخاصة حين أخذ يوجه ضرباته المتتالية ضد الامتيازات
الأجنبية فى إيران ولم يلبث أن طلب من الحكومة البريطانية أن تبادر بسحب
قواعدها العسكرية التى أقامتها فى باسيدو وهنجام متعللاً بحاجة إيران إلى تلك
المواقع لرسو سفن أسطولها الجديد ، ولما كانت الدوائر البريطانية فى الخليج لا يزال
يحدوها الأمل فى استمرارية الابقاء على قواعدها البحرية فى السواحل الإيرانية
فقد اقترحت الحكومة البريطانية على الحكومة الإيرانية الدخول فى مباحثات لتسوية
الخلافات القائمة بينهما وقد استغرقت تلك المباحثات ما يقرب من ستة أعوام وعلى

India office, Confidential B.297 , 1928

(١)

I . O . B . 403 The Trucial chiefs 1908 - 1928

(٢)

(٣) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ / ١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٣ . ص ٣٠٧

وجه التحديد بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٤ نوقشت فى خلالها بنوداً لمشروع معاهدة بريطانية إيرانية لم يقدر لها أن تخرج إلى حيز التنفيذ .

ولا يهمننا من تلك المباحثات سوى مايتعلق منها بجزر أبوموسى والطنبين إذا كانت المشكلات المتعلقة بتلك الجزر واصرار الحكومة البريطانية على أن تعترف الحكومة الإيرانية بالمعاهدات التى عقدتها مع الحكام العرب فى الخليج من أهم العقبات الرئيسية التى اعترضت سير تلك المباحثات وأدت إلى توقفها فى نهاية الأمر (١).

ويتضح من العروض التى قدمتها إيران خلال مفاوضاتها مع بريطانيا ضعف الأسانيد التى كانت تعتمد عليها فيما يتعلق بادعاءاتها على تلك الجزر . وعلى الرغم من أن المفاوض البريطانى كان يحاول فى كثير من الأحيان ترضية إيران على أمل أن تظل بريطانيا محتفظة بقواعدها البحرية على بعض الجزر والسواحل الإيرانية إلا أن الحكومة البريطانية لم تستطع التسليم بالادعاءات الإيرانية على جزر أبو موسى والطنبين ولعل ذلك مما دفع بالمفاوضين الإيرانيين إلى تقديم عروض تقضى بشراء الحكومة الإيرانية لجزيرة طنب مقابل موافقتها على تأجير قاعدة هنجام للبحرية البريطانية غير أن الحكومة البريطانية كانت عاجزة عن إتمام تلك الصفقة خاصة وأن حاكم رأس الخيمة التى كانت تتبعه تلك الجزيرة كان من أكثر الحكام العرب فى الخليج شدة وعناداً حيث أعلن رفضه القاطع بيع جزيرته مهما كان الثمن الذى سوف تقدمه له إيران (٢) .

Memorandum of Certain Aspects of the Situation in the Persian (١)

Gulf between His Majesty's Government in the United Kingdom and the Persian Government , 1931 See also Memorandum of Persian claim to Tamb and Abu Musa , 1934 F . O . 371 /18901.

Question of persian Purchasing Tamb From Sheikh of Sharjah 1929.

(٢)

ولعل مما يشير الانتباه أن الحكومة الإيرانية كانت تركز فى ذلك الوقت على جزيرة طناب الكبرى أكثر من تركيزها على جزيرة أبو موسى ويرجع ذلك إلى أن الجزيرة الأولى أقرب إلى سواحلها هذا بالإضافة إلى أن السلطات الجمركية الإيرانية كانت تعتبر تلك الجزيرة المركز الرئيسى لعمليات تهريب المثلون والأسلحة وما قد تؤدي إليه تلك العمليات من إضرار باقتصاد إيران أو إخلال بأمنها القومى وكان اهتمام الحكومة الإيرانية بجزيرة طناب دافعا لكى توالى تقديم عروض أخرى ومن بين تلك العروض التنازل عن إدعاءاتها فى جزيرة أبو موسى مقابل اعتراف الحكومة البريطانية بملكيتها لجزيرة طناب ولم يجد هذا العرض بدوره تجاوبا من بريطانيا التى أوضحت عدم قدرتها على التنازل عن أراضى مملوكة لحكام مشمولين بحمايتها ضد رغباتهم. ثم كان هناك عرض آخر قدمه المفاوضون الإيرانيون ويقضى بتأجير الحكومة الإيرانية جزيرة طناب الكبرى لمدة خمسين عاما وقد بذل المفاوضون الإيرانيون جهداً كبيراً لحث المفاوضين البريطانيين للموافقة على ذلك العرض خاصة وأن ذلك سيدفع بالحكومة الإيرانية إلى الموافقة على تأجير جزيرة هنجام لبريطانيا لاستمرار اتخاذها قاعدة للأسطول البريطانى فى الخليج كما أن حصول الحكومة الإيرانية على عقد إيجار جزيرة طناب قد يكون فيه تعريضا وارضاءاً للرأى العام الإيرانى عندما يعرض مشروع المعاهدة البريطانية الإيرانية على المجلس النيابى للموافقة عليه رغم ما أشارت إليه بعض بنود تلك المعاهدة من تخلى إيران عن إدعاءاتها الإقليمية فى كل من البحرين وجزيرة أبو موسى^(١).

واستجابة لذلك العرض الأخير طلبت الحكومة البريطانية من مقيمها السياسى

١ - محمد مرسى عبد الله ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦٢ .

فى الخليج مناقشة الأمر مع حاكم رأس الخيمة وتحت المساعى البريطانية أبدى الأخير موافقته على تأجير جزيرته فى مايو ١٩٣١ بعد أن وضع شروطا صعبة لم تكن قابلة للتنفيذ إذا أصر على احتفاظه بحقوق السيادة على الجزيرة وأن يبقى مثله فيها ويستمر رفع العلم الخاص به وألا يتدخل أحد فى شئون رعاياه وأن يتمتع باعفاءات جمركية كما اشترط أيضا أن تقوم الحكومة الإيرانية بدفع الإيجار السنوى مقدما وأن تضمن الحكومة البريطانية تنفيذ تلك الشروط^(١)، وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية رأت أنه لا جدوى من تبليغ تلك الشروط إلى الحكومة الإيرانية خاصة بعد أن أخذت العلاقات البريطانية الإيرانية طريقها إلى التوتر وبعد أن استقر رأى حكومة الهند البريطانية على التحول بقاعدتها البحرية من هنجام إلى البحرين^(٢). ومع ذلك فقد تكررت المحاولات الإيرانية للاتصال مباشرة بحاكم رأس الخيمة متخفية بذلك السلطات البريطانية غير أن تلك المحاولات لم تحقق نجاحا يذكر ازاء الموقف المتصلب للشيخ تجاه العروض الإيرانية التى وجد فيها مساسا بسيادته الإقليمية^(٣).

وعلى أثر توقف المفاوضات البريطانية الإيرانية فى عام ١٩٣٤ وضع تشدد الحكومة البريطانية ازاء المحاولات التى كانت تبذلها إيران للوصول إلى منطقة النفوذ البريطانى فى الخليج والتى وضحت فى الزيارات المتكررة التى كانت تقوم بها بعض القطع البحرية الإيرانية إلى الجزر الثلاث واستمرار جهودها الرامية لإيجاد

(١) F. O. 371 / 15278 Islands of Tamb - Posistion in regard to Anglo - Persian Treaty Negotiations , Proposed Lease of Tamb to Persian Government , May , 1931.

(٢) Fenelon , G . B . , op . cit . P., 15.

(٣) F. O. 371 / 16852 Alleged Persian attempt to obtain lease of Tamb.

اتصالات مباشرة مع حاكم رأس الخيمة مستغلة الضائقة المالية الناجمة عن كساد مواسم الغوص على اللؤلؤ خلال حقبة الثلاثينيات وإن كان من الملاحظ في نفس الوقت أن الحكومة البريطانية لم تعد تبدي اهتماماً بالادعاءات الإيرانية سواء على الجزر أو غيرها من مناطق الخليج الأخرى ولعلها قد أدركت ضعف تلك الادعاءات وحتى إذا ما اتجهت الحكومة الإيرانية لاثارتها لدى عصبة الأمم فإنها ستواجه بردود فعل معاكسة وقد يصل الأمر إلى تدعيم الوجود البريطاني في الخليج باعتباره ضروريا لحماية " الشعوب الصغيرة " .

ومع أن جزيرة طنب الكبرى كانت موضع اهتمام الحكومة الإيرانية فقد أخذت جزيرة أبو موسى تجذب الانتباه إليها منذ عام ١٩٣٤ حين منح حاكم الشارقة ترخيصا للكوماندور بايلدون R . Bayldon لفحص الأكسيد الأحمر في الجزيرة لحساب شركة الوادي الذهبي وحين قام بعض مهندسي الشركة بزيارة الجزيرة وجاءت نتائج الفحص مشجعة بادرت الشركة بالحصول على امتياز للاستغلال في نوفمبر ١٩٣٤ وليس من شك في أن حاكم الشارقة وجد في منحه لذلك الامتياز علاجاً للأزمة المالية الحادة التي كان يعاني منها ^(١) ، وعلى أثر ذلك قدمت الحكومة الإيرانية احتجاجاً ضد منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز واعتبرته لاغيا وكأنه لم يكن Null & Void ^(٢) .

ولعل مما يسترعى الانتباه أن المواقف المتشددة لبريطانيا ضد الإدعاءات الإيرانية لم تكن تهدف بها إلى حماية الحقوق المشروعة للحكام العرب وإنما كانت ترتبط إلى حد

(١) Fenelon , G . B . , op . cit . P., 15.

(٢) F . O . 371 / 18911 - Bahrein Intelligence Report No 3 , 1935

انظر أيضا : لؤى بحرى : الأطماع الإيرانية في جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢ .

كبير بتوتر العلاقات بينها وبين إيران خاصة في خلال السنوات الأخيرة من عهد رضا شاه بهلوى ولعل ما يؤكد ذلك أنه بعد تنحيته عن الحكم في عام ١٩٤١ وتولية ابنه محمد رضا بهلوى فترت المواجهة البريطانية لإيران وخاصة بعد أن أصبح الشاه الجديد حليفا لها في الحرب العالمية الثانية ومن ناحية أخرى أدت ظروف الحرب إلى توقف الادعاءات الإيرانية على جزر الخليج حتى عادت إيران تجدد مطالبها على تلك الجزر في عام ١٩٤٨. وقد حاولت إيران أن تستغل انضمامها إلى حلف بغداد في عام ١٩٥٥ وللحلف المركزي في عام ١٩٥٩ لكي تحصل على تنازلات من بريطانيا عن تلك الجزر بيد أنها فشلت في تحقيق أهدافها ولا يعزى ذلك إلى الموقف البريطانى الذى لم يعد متشدداً مع إيران كما كان عليه الحال من قبل وإنما يرجع إلى مواجهة إيران بالمد العربى الذى أخذ تياره ينساب إلى إمارات الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية وازداد انسياقا نتيجة الأحداث المتتالية التى شهدتها العالم العربى بدءاً من الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٤٨ ونشوب ثورة يوليه ١٩٥٢ والعدوان الثلاثى على مصر في عام ١٩٥٦ وقيام الجمهورية العربية المتحدة ونشوب ثورة قموز في العراق في عام ١٩٥٨^(١). ومن ثم أخذت إيران تتصدى لتلك الاتجاهات القومية باعتمادها على بريطانيا وعلى غطاء دولى يضمن لها التحرك في منطقة الخليج فبالإضافة إلى تكثيف إدعاءاتها الإقليمية على البحرين أقدمت على احتلال جزيرة أبوموسى خلال المناورات المشتركة التى أجرتها البحرية الإيرانية مع الأسطول الأمريكى في مارس ١٩٦٤ في نطاق عضوية إيران للحلف المركزي غير أنها سارعت بالجللاء عن الجزيرة بعد عشرين يوماً من انزال

(١) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥-١٩٧١ القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٣ .

(٢) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى الكتاب الثانى - إمارات الساحل

العمانى، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .

قواتها إثر الاحتجاجات العربية العنيفة واضطر وزير الخارجية الإيرانية إلى التصريح بأن الانزال الإيراني كان مناورة عسكرية طارئة وبادرت السلطات البريطانية في الخليج بإرسال سفينة حربية عليها بعض الجنود ومندوبين من حاكم الشارقة لانتزاع العلامات البحرية التي كان من شأنها إدخال جزيرة أبو موسى في المياه الإقليمية الإيرانية .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت ملتزمة بالمحافظة على حقوق السيادة الإقليمية للحكام العرب المشمولين بحمايتهم في منطقة الخليج إلا أنه كان واضحا التغير الذي بدأ يظهر في السياسة البريطانية من حيث التنسيق مع إيران بهدف مواجهة التحديات التي كانت تتعرض لها المصالح الغربية في منطقة الخليج ومن ثم أصبح ذلك التنسيق يمثل حجر الزاوية لأمن الخليج وضمان الملاحة الدولية في مضيق هرمز . وقد وضع التنسيق البريطاني الإيراني خلال فترة الانتقال التي حددتها الحكومة البريطانية منذ إعلان سياستها الخاصة بالانسحاب في يناير ١٩٦٨ حتى تصفية وجودها العسكري قبل نهاية عام ١٩٧١ وفي خلال تلك السنوات الثلاث قامت الحكومة البريطانية بمساعي مكثفة لضمان استقرار الأمن وتسوية بعض المطالب الإقليمية ^(١) في الوقت الذي لعبت فيه السياسة الأمريكية دورا كبيرا في استغلال نزعة الشاه التوسعية واعداده ليقوم بدور الشرطي أو الوكيل الذي يحافظ على المصالح الغربية وفي مقدمتها النفط وظهر ذلك واضحا في زيادة حجم التسليح الإيراني والوقوف إلى جانبه في فرض هيمنته السياسية على الخليج .

(١) Hussain Sirriyeh , Security and Stability in the Gulf , Background to United States Policy , Center For Contemporary Arab Studies Georgetown University , London 1984 , pp . 44 - 46

ولعل ذلك مما دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى تأييد استيلائه على جزر الخليج الثلاث^(١) خاصة بعد أن أخذ يركز على الأهمية الاستراتيجية لتلك الجزر مبدئياً قلقه من احتمال سيطرة عناصر يسارية عليها على أثر تصاعد الثورة في إقليم ظفار وتحول جبهة تحرير عمان إلى جبهة يسارية أعلنت الاطاحة بالمصالح الغربية والأنظمة السياسية الحاكمة وطالبت بتحرير عمان والخليج العربي بكامله .

وبينما أعلن الشاه تغلى إيران عن إدعاءتها التقليدية في البحرين إلا أنه طالب العرب أن يتخلوا في المقابل عن تشدهم بالنسبة لجزر الخليج الثلاث وأكد في العديد من التصريحات التي أدلى بها بأن تلك الجزر تابعة لإيران ولا يسع إيران سوى استردادها سلمياً أو باستخدام القوة إذا ما لزم الأمر،^(٢) وإلى جانب تصريحات الشاه صدرت تصريحات أخرى من رئيس حكومته أمير عباس هويدا أكد فيها حاجة إيران لتلك الجزر لحماية مصالحها وثرواتها وأنها ستدافع عن مجراها المائى بكل ما لديها من قوة بحرية وبرية وجوية^(٣)

ومما يسترعى الانتباه أن التصريحات الإيرانية التي كان يدلى بها الشاه أو المسئولون في حكومته كانت تختلف في لهجتها بين أساليب التهديد أو الترغيب كتقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية لمارتى الشارقة ورأس الخيمة لقاء تنازلهما عن تلك الجزر ، غير أنه مع اقتراب انتهاء الوجود العسكرى البريطانى من الخليج بدأت تتصاعد حدة الادعاءات الإيرانية ففي مايو ١٩٧٠ هددت الحكومة الإيرانية باستخدام القوة ضد شركة أوكسيتندال Occidental البريطانية التي تقوم

(١) عبد الله الأشعل : الاطار القانونى والسياسى لمجلس التعاون الخليجى، الرياض ١٩٨٣، ص ٦٩

(٢) جابر الراوى : المرجع السابق ص ٤٢٩ .

(٣) نفسه ، ص ٤٢٩ وما بعدها .

باستغلال النفط في إمارة الشارقة إذا لم توقف عملياتها التنقيبية في جزيرة أبو موسى مما اضطر الحكومة البريطانية إلى إصدار تعليماتها إلى تلك الشركة بوقف عملياتها في الجزيرة . وفي أكتوبر من نفس العام أكدت الحكومة الإيرانية معارضتها التامة لقيام اتحاد بين الامارات العربية ما لم يتم التوصل إلى حل لمشكلة الجزر ويصد ذلك صرح أردشيرزاهدي وزير الخارجية الإيرانية بأن بلاده لن تعترف بالاتحاد بل وستقاومه ^(١) .

وعلى أثر تسليم إيران باستقلال البحرين في أغسطس عام ١٩٧١ أخذ الشاه يعمل على تثبيت صورته في المنطقة بتكثيف مطالبته بالجزر الثلاث وأشار إلى أنه إذا كانت المحاولات السابقة التي بذلها والده من أجل استرداد تلك الجزر قد أحبطتها بريطانيا فإن الأمور قد تغيرت الآن إذ أصبح لديه أسطولاً من السفن والطائرات التي يمكنه بواسطتها أن يتحدى بريطانيا ويعيد الجزر إلى السيادة الإيرانية . ^(٢) ويظهر من ذلك التصريح محاولة الشاه أن يعطى انطباعاً بأنه يعمل على استرجاع سيادة سابقة لإيران على تلك الجزر حال الانجليز دون ممارستها لها ومثل ذلك الادعاء لا يستند على أي أساس من الصحة التاريخية ويؤكد ذلك ما صرح به السير ويليام لوس Luce الذي كان يشغل من قبل منصب المقيم البريطاني في الخليج ، ثم عهدت إليه حكومة المحافظين القيام بزيارات استطلاعية إلى دول وإمارات الخليج قبيل تنفيذ سياسة الانسحاب من أن الحكومة البريطانية لم تستول على تلك الجزر من إيران وتسلمها للحكام العرب وقت دخولها منطقة الخليج إذ أن

(١) جابر الراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٩ أنظر أيضاً محمد مرسى عبد الله ، مرجع سابق ص ٢٨٢ .

(٢) محمد عزيز شكري: مسألة الجزر في الخليج العربي وموقف القانون الدولي ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

الجزر عربية طبقا لوثائق الخارجية البريطانية وحكومة الهند وتقارير المقيمة البريطانية في الخليج (١) .

وليس من شك في أنه كان بوسع الحكومة البريطانية لولا تساهلها مع إيران أن تحتفظ بوضعيته تلك الجزر لأصحابها الأصليين ولعل ما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن حاكم الشارقة بادر على أثر التهديدات الإيرانية بتكليف أحد الخبراء القانونيين باعداد تقرير مدعم بالأسانيد التاريخية والقانونية حول جزيرة أبو موسى وقد ثبت من هذا التقرير الذي أرسل حاكم الشارقة نسخا منه إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية وإلى المسؤولين في الدول العربية في يوليو من عام ١٩٧١ أن جزيرة أبو موسى كانت منذ أقدم تاريخ سجل في الوثائق البريطانية ملكا للشارقة وأكد الخبير القانوني أن قضية امتلاك الشارقة للجزيرة ستكون غير قابلة للنقاش إذا ما قدمت للتحكيم الدولي وأنه بغض النظر عن إثبات الملكية ، فإن التهديد الإيراني باستخدام القوة العسكرية للسيطرة على جزر الخليج هو انتهاك صريح لميثاق الأمم المتحدة الذي يحظر تغيير حالات إقليمية مثبتة بواسطة القوة أو التهديد باستخدامها (٢) .

وفيما يبدو أن بريطانيا التي ظلت تدافع عن حقوق الشارقة ورأس الخيمة في تبعية تلك الجزر لهما طوال فترة وجودها في منطقة الخليج قد أدركت أن انسحابها من الخليج سيؤدي حتما إلى احتلال إيران لتلك الجزر ويظهر ذلك فيما رددته الصحف

(١) جابر الراوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢) انظر بصدد ذلك تقرير كوارد تشانس في ٢٣ يوليو ١٩٧١ إلى المستر نورث كات أيلي

مستشار حاكم الشارقة حول ملكية الشارقة لجزيرة أبو موسى ، نجيب رياض الرئيس : صراع الواحات والنفط - هموم الخليج العربي ١٩٦٨ - ١٩٧١ ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

البريطانية من أنه من الأفضل أن تقوم بريطانيا بتسليم تلك الجزر لإيران قبل أن تنهى وجودها العسكرى وبذلك يمكن حصر مشكلة الجزر بينها وبين إيران لأن الاحتلال الإيراني للجزر بعد انسحابها سيؤدى إلى إثارة المشكلات بين العرب وإيران وما سترتب على ذلك من إشاعة حالة من التوتر وعدم الاستقرار فى المنطقة (١) وانطلاقاً من تلك المفاهيم حاولت الحكومة البريطانية التوصل إلى حلول سلمية لتلك المشكلة وظهر ذلك واضحاً فى الدور الذى قام به السير ويليام لوس والذى تميز بالوساطة وليس بالدفاع عن السيادة الإقليمية للشارقة ورأس الخيمة . وعلى الرغم من أن المبعوث البريطانى ومعاونوه كانوا يكتنون إعجاباً لموقف الشاه تجاه البحرين ويرون أنه ينبغى أن يأخذ العرب موقفاً معتدلاً فى مسألة الجزر والوصول إلى حلول سلمية مع إيران فإن الدول العربية فى الخليج خاصة السعودية والكويت كانت تنظر إلى قضية استقلال البحرين على أنها حق مقرر وليست صفقة تجارية وأنه لا توجد ثمة رابطة بين المسألتين .

وعلى أى الأحوال فقد تميزت الأسابيع القليلة التى سبقت الاحتلال الإيراني للجزر بمباحثات مكثفة بين إيران وكل من حاكم الشارقة ورأس الخيمة بوساطة ويليام لوس وفى خلال تلك المباحثات أصر الحاكمان على إصدار بيان تؤكد فيه الحكومة الإيرانية احترامها لسيادتهما على الجزر الثلاث مما أدى إلى انهيار تلك المباحثات ومع ذلك فقد كان للمساعى البريطانية أثرها فيما يتعلق بما صار إليه الوضع بالنسبة لجزيرة أبو موسى فعلى حين رفض حاكم رأس الخيمة أية حلول تمس سيادته

(١) A . G . Duke, The Union of The Arab Emirates, Middle East Journal, (١)

Summer , 1972 , P. 27

الإقليمية على الطرفين أبدى حاكم الشارقة استعدادَه للتوصل إلى حل سلمي حرصاً على إقامة علاقات طيبة مع إيران ، ^(١) واقترح بصدد ذلك إحالة موضوع النزاع إلى التحكيم الدولي أو هيئة الأمم المتحدة غير أنه لم يجد استجابة من الحكومة الإيرانية حينما أدرك أن الدول العربية ليست على استعداد لمواجهة إيران عسكرياً أو حتى دبلوماسياً لأن قضية الأراضي العربية الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي كانت هي القضية الملحة آنذاك فقد قبل الاتفاق مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى خاصة بعد أن كثفت إيران تصريحاتها باستخدام القوة العسكرية . وفي ١٨ نوفمبر ١٩٧١ وجه خطاباً إلى وزير الخارجية البريطانية أكد فيه قبوله للترتيبات المبينة في مذكرة التفاهم التي تم الاتفاق عليها مع الجانب الإيراني وجاء الرد الإيراني في ٢٥ نوفمبر ١٩٧١ بقبول الترتيبات المتفق عليها والخاصة بجزيرة أبو موسى ^(٢) والتي وقع عليها كل من الشيخ خالد حاكم الشارقة وعباس علي حلقبري وزير الخارجية الإيرانية والسير دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية .

وتشتمل مذكرة التفاهم على مقدمة وستة بنود تم الاتفاق عليها بضمان الحكومة البريطانية وفيها أكدت إيران والشارقة بأنهما لن يتخليا عن المطالبة بأبو موسى ولن تعترف أي منهما بمطالب الأخرى وقد نصت الترتيبات المتفق عليها على وصول قوات إيرانية واحتلال مناطق ضمن الحدود المبينة في خريطة أرفقت بالمذكرة ، وعلى أن يكون لإيران صلاحيات كاملة في المناطق المحتلة بقواتها كما نصت الترتيبات من ناحية ثانية على أن تمارس الشارقة صلاحياتها الكاملة على بقية أنحاء الجزيرة وعلى أن يتمتع مواطنو إيران والشارقة بحقوق متساوية للصيد في المياه الإقليمية

(١) جابر الراوي : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٣ .

(٢) محمد عزيز شكري : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

للجزيرة والتي حددت باثنتي عشر ميلا بحريا ^(١) .

وعلى أثر موافقة الشارقة على تلك الترتيبات وجه الشيخ خالد بن محمد أمير الشارقة بيانا إلى مواطنيه من إذاعة صوت الساحل أعلن فيه تسوية الأوضاع مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى كما صدر بيان من ديوان الحاكم في ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حرص على التأكيد بأن الترتيبات التي تم الاتفاق عليها لن تمس نظرة الشارقة في سيادتها على الجزيرة إذ سيبقى علمها مرفوعاً على مركز الشرطة وعلى الدوائر الحكومية كما سيظل المواطنون المقيمون في الجزيرة تحت سلطة واختصاص حكومة الشارقة وتستمر شركة بيوتزجاز آند أويل بالكشف والتنقيب عن النفط والمصادر الطبيعية في الجزيرة ومياهاها الإقليمية وأنه سيجرى تقسيم دخل تلك المصادر مناصفة بين الشارقة وإيران . وتضمن البيان النص على توقيع اتفاقية للمساعدات المالية سوف تحصل الشارقة بمقتضاها على مبلغ مليون ونصف مليون من الجنيهات الاسترلينية سنويا ولمدة تسع سنوات على التوالي في صورة إعانة يجرى انفاقها في مصالحها العامة على أن تتوقف إيران عن دفع تلك الأعانة السنوية حين يبلغ دخل الشارقة من النفط ثلاثة ملايين من الجنيهات وعند ذلك يتم تقسيم الدخل بالتساوي بين الجانبين ^(٢) .

وعلى الرغم من العبارات الهادئة التي وردت في ذلك البيان إلا أنه كان من الواضح أن الاتفاق الذي تم التوصل إليه قد أبرم تحت التهديد الإيراني باستخدام القوة العسكرية ومن ثم يمكن القول أن الشارقة قد أجبرت على قبول ذلك الاتفاق

١ - انظر بيان الاتفاق بين الشارقة وإيران حول جزيرة أبو موسى الصادر عن ديوان حاكم الشارقة وملحقاتها - حريدة

الاتحاد أبو ظبي ١٩٧١/١١/٣٠ ، محمد مرسى عبد الله ، دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

٢ - محمد عزيز شكرى : المرجع السابق ص ٤١ - ٤٢ .

نتيجة ظروف قسرية . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أيضا أنه على الرغم من أن الاتفاق نص على نزول قوات إيرانية في الجزء الأعلى من الجزيرة مما كان يعنى أنه قد أصبح هناك سيادة مشتركة إلا أن الاتفاق لم يشر بصراحة إلى الأمور المتعلقة بالسيادة . ومن ناحية أخرى كان الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة حريصا على التركيز على مجموعة من الأسباب التي برر بها موقفه ففي حديث أدلى به لإحدى الصحف العربية ذكر أن الدول العربية لم تتخذ أية إجراءات ايجابية تجاه النوايا الإيرانية وأكد أن إيران لم تكن لتسلم بقيام دولة الإمارات العربية المتحدة قبل أن تصل إلى حل لانتهاء مشكلة الجزر وأن بريطانيا كانت حريصة على إنهاء تلك المشكلة قبل تنفيذ انسحابها النهائي من الخليج فضلا عن أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مساندة لإيران ونتيجة لتلك الظروف جميعها لم يكن أمامه من سبيل سوى التفاهم مع إيران أو على حد قوله " ماذا أستطيع أن أفعل فأنا حريص على قيام الاتحاد وعلى عروبة الجزر وعلى حقن دماء أبناء شعبي " (١) .

وعلى العكس مما ذهب إليه حاكم الشارقة فإن الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة قد رفض التوصل إلى اتفاق مع إيران رغم التحذيرات المتكررة التي وجهها إليه السير ويليام لوس بأن إيران سوف تحتل جزيرتي طنب الكبرى والصغرى ما لم يصل إلى تسوية بشأنهما وأن الحكومة البريطانية لن تعتبر نفسها مسئولة عن ذلك وهي بصدد إنهاء علاقاتها التعاهدية مع رأس الخيمة وغيرها من الإمارات العربية في الخليج (٢) ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ صقر لم يستجب للعروض الإيرانية

(١) جريدة الأنوار ، بيروت ٨/١٢/١٩٧١ ، سجل الآراء ، حول الوقائع السياسية في البلاد العربية ،

بيروت ١٩٧١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١٧ .

التي أبدت فيها إيران استعدادها لشراء الجزيرتين مقابل خمسة عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية تدفع على مدى تسع سنوات إلى جانب منح رأس الخيمة ٤٩٪ من أية ثروة نفطية أو موارد طبيعية أخرى يتم اكتشافها في هاتين الجزيرتين وقد رد الشيخ صقر على تلك العروض التي حملها إليه السير ويليام لوس " بأننا لن نتخلى أبداً عن أرضنا ولننا مستعدين للدخول في صفقات لبيع أراضيها " (١) .

اختلفت السياسة الإيرانية بشأن جزر الخليج الثلاث عن سياستها إزاء البحرين فبينما أعلنت بأنها لن تلجأ إلى استخدام القوة في ضم البحرين إلى أقاليمها اتبعت سياسة الاحتلال القسري بالنسبة لجزيرتي طنب الكبرى والصغرى والاحتلال السلمي المستند إلى اتفاق مع إمارة الشارقة بالنسبة لجزيرة أبو موسى (٢) .

بدأت إيران عملياتها العسكرية باحتلال جزيرة طنب الكبرى في ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حين حطت بعض الطائرات من طراز الهليكوبتر التابعة لسلاحها الجوي على الجزيرة في نفس الوقت الذي أحاطت بها بعض القطع البحرية وعلى أثر الانزال الإيراني حدثت بعض المناوشات بين أفراد الشرطة المحلية البالغ عددهم ستة أشخاص وبين بعض الجنود الإيرانيين مما أسفر عن مقتل أربعة أفراد من العرب بينما قتل ثلاثة آخرون من القوات الإيرانية وفر كثير من السكان أو طردوا من الجزيرة بينما بقي الآخرون تحت سيطرة السلطات الإيرانية . أما فيما يتعلق بجزيرة طنب الصغرى فقد تم احتلالها دون وقوع اشتباكات مسلحة نظراً لخلوها من السكان

(١) محمد عزيز شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) حسين البحارنه ، دول الخليج العربى الحديثة ، علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

وفى نفس الوقت أيضا نزلت بعض القوات الإيرانية فى جزيرة أبو موسى واحتلت الجزء الأعلى منها (١) .

وبينما أعلنت حكومة الشارقة أنه قد سبق لها أن تفاهمت مع إيران على وضعية جزيرة أبو موسى أعلنت رأس الخيمة استنكارها الشديد لوقوع العدوان على أراضيها وأشار البيان الذى صدر عن ديوان الحاكم أن قوة الشرطة التابعة للامارة تصدت بشجاعة للهجوم الإيرانى المباغت وبادر الشيخ صقر القاسمى حاكم رأس الخيمة بتقديم احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية محملا إياها مسئولية ذلك العدوان وعدم التزامها بحماية ممتلكاته الإقليمية بحكم ما يربط الامارة من معاهدات مع بريطانيا لم يكن قد تم الغاؤها بعد ، فى الوقت الذى سارع فيه العراق باعلان وقوفه إلى جانب رأس الخيمة ، وعن طريقه تم إبلاغ السكرتير العام للأمم المتحدة ومجلس الأمن ورؤساء الدول العربية بالاحتلال الإيرانى كما أرسل حاكم رأس الخيمة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية مجموعة من الوثائق والأسانيد التاريخية التى تؤكد حقوقه على الجزيرتين المحتلتين ولم يلبث أن أعلن بأنه على استعداد لاستقبال أية قوة عربية للدفاع عن الجزر التى احتلتها إيران سواء كانت من دولة عربية واحدة أو من عدة دول عربية وذهب إلى أبعد من ذلك فى الدعوة إلى القيام بحملات انتقامية ضد المصالح الاقتصادية البريطانية والإيرانية فى العالم العربى مؤكدا أن الواجب القومى الأول لدولة الامارات العربية المتحدة هو تخلص تلك الجزر من الاحتلال الإيرانى ومشيرا إلى أن الشرط الرئيسى لانضمام إمارته إلى الدولة الاتحادية الجديدة هو تبنيها موقفا متشددا من العدوان الإيرانى وعدم

١ - تقرير الأمين العام لجامعة الدول العربية ، دور الانعقاد السابع والخمسين ، ١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦ .

إقامة علاقات مع إيران وترحيل جميع الإيرانيين من الإمارات التابعة لها .
ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الاحتلال الإيراني للجزر حدث قبل يوم واحد من
إلغاء المعاهدات التي كانت تربط الامارات العربية ببريطانيا وقبل يومين اثنين من
إعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة ومن الواضح أن توقيت الاحتلال على
ذلك النحو كان ينبئ بحدوث اتفاق بين بريطانيا وإيران كان الهدف منه عدم احراج
الدولة الناشئة وتحمل الحكومة البريطانية عنها نقمة الرأي العام العربي .
وكان مما يخفف الإحراج أيضا عن تلك الدولة أن إمارة رأس الخيمة التي وقع
العدوان الإيراني على أراضيها لم تكن قد انضمت إليها بعد . أما الاحتلال
الإيراني لبعض المواقع في جزيرة أبو موسى فقد بدا وكأنه أمر مشروع بحكم
الاتفاقية المبرمة بين إمارة الشارقة وإيران ^(١) .

وعلى الرغم من تلك المبررات النظرية فإن المجلس الأعلى للاتحاد وهو السلطة
العليا في دولة الإمارات العربية المتحدة لم يتردد في الاجتماع الذي عقده في الرابع
من ديسمبر ١٩٧١ عن إصدار بيان استنكر فيه العدوان الإيراني وعبر عن غضب
حكام الإمارات تجاه أسلوب القوة الذي استخدمته إيران ، وفضلا عن ذلك فقد
اتسمت ردود الفعل المحلية لمواطني الدولة بالاستياء البالغ الذي ظهر في تعرض
المصالح الإيرانية لبعض الأضرار التي نجمت عن مظاهرات الاحتجاج التي قامت
في بعض الإمارات سيما في الشارقة ورأس الخيمة ودبي وغيرها .

وعلى أثر وقوع الاحتلال حاولت الحكومة البريطانية تبرير موقفها بابداء أسفها
الشديد لعدم توصل حاكم رأس الخيمة إلى اتفاق مع إيران على غرار الاتفاق الذي
أبرم مع الشارقة رغم العروض السخية التي قدمتها الحكومة الإيرانية له وأملت ألا

Duke , A . J . , op .cit . pp . 286 - 287

(١)

يعلق العرب أهمية كبيرة على احتلال إيران لجزيرتين صغيرتين بالقياس إلى النجاح الذي أحرزته السياسة البريطانية في معالجة قضايا الخليج الأخرى كاستقلال قطر والبحرين وإعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وطالبتهم بتكثيف جهودهم لتوثيق العلاقات بينهم وبين إيران ^(١) .

أما عن الجامعة العربية فعلى الرغم مما أولته من اهتمام كبير بمسألة الاحتلال الإيراني للجزر وهو الأمر الذي بدا واضحا في المناقشات التي أثيرت خلال الجلسات التي عقدت في السادس والسابع من ديسمبر ١٩٧١ إلا أن مجلس الجامعة لم يستطع مع ذلك التوصل إلى قرارات حاسمة تدين العدوان إذ لم تسفر القرارات التي صدرت عن مجلس الجامعة عن أمور إيجابية سوى التأكيد نظريا على عروبة الجزر باعتبارها جزءا من الوطن العربي استنادا إلى التاريخ والواقع والقانون وينبغي أن تؤول السيادة عليها إلى أصحابها الشرعيين . وبصدد ذلك كلفت الجامعة العربية أمينها العام المساعد بزيارة منطقة الخليج بهدف تقصى الحقائق ووضع تقرير عن حقيقة الموقف في الوقت الذي تولت فيه اللجنتان السياسية والقانونية للجامعة إعداد دراستين عنيتا فيهما بابرار المقومات الجغرافية والتاريخية وحقوق السيادة العربية على الجزر الثلاث ، ^(٢) وإن كان مما يثير الانتباه عدم توصل وزراء خارجية الدول العربية إلى قرار جماعي ضد إيران ويرجع ذلك إلى تغلب الاتجاهات العربية الداعية إلى التقارب العربي الإيراني ومن ثم فقد اكتفى مجلس

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، ص ٢١٨ .

(٢) تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية في دور الانعقاد العاشر السابع والخمسين ، ١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

الجامعة العربية في القرارات التي أصدرها بالتأكيد على أن الاحتلال الإيراني للجزر إنما يعرض الصداقة العربية الإيرانية للخطر^(١) ، في الوقت الذي أعلنت فيه إيران تمسكها بموقفها وطالبت الجامعة العربية بتكثيف جهودها لمنع العراق من إثارة المشاكل ضدها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن العراق كان من أكثر الدول العربية تحدياً لإيران ويعزى ذلك إلى صراعه التقليدي معها وحتى قبل وقوع العدوان الإيراني على الجزر كان قد طالب في ١٣ نوفمبر ١٩٧١ بتكوين تحالف عربي لمواجهة الأطماع الإيرانية في الخليج^(٢) ، وعلى أثر وقوع الاحتلال بادرت الحكومة العراقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيران^(٣) ، وطالبت جميع الدول العربية أن تحذو حذوها وتقطع علاقاتها مع إيران وبريطانيا في الوقت الذي أصدرت فيه الأحزاب والمنظمات وبعض المؤسسات العراقية العديد من البيانات التي شجبت فيها العدوان باعتباره يستهدف عروبة الخليج ويمهد للمخططات الإمبريالية في المنطقة ويؤدي إلى وجود مرتكزات وثوب استعمارية ضد حركات التحرر الوطني فضلاً عن الاستحواذ على الموارد الطبيعية التي تحتويها أراضي الجزر الثلاث^(٤)

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) Fred Halliday : The Iranian Revolution in international affairs
programme and Practice center for Contemporay Arab Studies
Georgetown University , Washington D . C . Croom - Helm , london
& Canberra , 1984 , P . 21.

(٣) لؤي بحري ، مرجع سبق ذكره ص ص ٥ - ٦ .

(٤) انظر بصدد ذلك البيانات الصادرة عن الأحزاب والمنظمات الوطنية في العراق عن العدوان الإيراني للجزر الثلاث وكذلك المنشورات التي أصدرتها جمعية الدفاع عن عروبة الخليج والمذكرات التي رفعتها إلى الشيخ زايد ونيس دولة الإمارات العربية المتحدة وكذلك التقرير الصادر عن مشاريع مصلحة الموانئ العراقية والذي يؤكد أن جميع جزر الخليج تسكنها قبائل عربية.

وكانت الجمهورية الليبية من أوائل الدول العربية التي حذت حذو العراق حين أعلنت شجبها للعدوان وبادرت بتأميم شركة البترول البريطانية العاملة في أراضيها وأطلقت عليها شركة الخليج العربي كما سحبت أرصدها الاسترلينية من بريطانيا ردا على ما اعتبرته مؤامرة وتواطئا بينها وبين إيران^(١).

وظهرت ردود الفعل قوية في الكويت حين طالب مجلس الأمة الكويتي باتخاذ اجراءات مشددة ضد الأطماع الإيرانية في الخليج ووافق المجلس على التجنيد الإجباري لأول مرة في تاريخ الكويت كما طالب وزير الدولة الكويتي وزراء الخارجية العرب باتخاذ استراتيجية عربية موحدة وفاعلة لمواجهة العدوان الإيراني^(٢). وفي دولة الإمارات العربية المتحدة كاد الاحتلال الإيراني للجزر أن يؤثر على الوضع الاتحادي للدولة وحدث ذلك حين دبر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي الحاكم السابق لإمارة الشارقة في ٢٥ يناير ١٩٧٢ مؤامرة لاغتيال الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة الذي عقد اتفاقا مع إيران بشأن جزيرة أبو موسى ومندوبه الذي استقبل القوات الإيرانية التي نزلت في الجزيرة ، ورغم عدم استبعادنا الدوافع الشخصية من وراء هذه المؤامرة فإنه مما لا شك فيه كانت بمثابة رد فعل للاحتلال الإيراني للجزر^(٣) ، وقد كشفت التحقيقات التي أجرتها السلطات الاتحادية في دولة الامارات إثر اغتيال حاكم الشارقة على أنه كان هناك مخططا يستهدف إلغاء الشارقة لاتفاقيتها مع إيران والانسحاب من دولة الامارات حيث تؤسس اتحاداً

(١) جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي ، من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

(٢) سيد نوفل ، مرجع سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

(٣) جمال زكريا قاسم: الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥/١٩٧١، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

بينها وبين رأس الخيمة التي لم تكن قد انضمت بعد إلى الدولة الاتحادية (١) .
وقد أثارت مشكلة الجزر على المستوى الدولي حين تقدمت كل من العراق وليبيا والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بطلب عرضها على مجلس الأمن وقد بدأ المجلس مناقشته لتلك المشكلة في الثامن من ديسمبر ١٩٧١ حيث طالب مندوبو الدول العربية باتخاذ اجراءات تأديبية ضد بريطانيا لعدم الوفاء بالتزامات الحماية بموجب معاهداتها مع الإمارات العربية ووصف المندوبون العرب ما قامت به إيران باعتباره خرقاً صريحاً لميثاق الأمم المتحدة وأن الاحتلال الإيراني للجزر كان تواطئاً بينها وبين بريطانيا وتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية (٢) .

وبينما ارتكزت وجهة النظر العربية خلال مناقشة تلك المشكلة على حقوق السيادة العربية وانتهاك إيران لمبدأ تصفية الاستعمار وعدم التزامها بالطرق السلمية لتسوية المنازعات الدولية ارتكزت وجهة النظر الإيرانية إلى أن الجزر تشكل جزءاً من الأقاليم الإيرانية (٣) ونتيجة لاختلاف وجهتي النظر العربية والإيرانية لم يستطع مجلس الأمن أن يصل إلى قرار بشأنها ومن ثم قرر تأجيل النظر في تلك المشكلة مع السماح لطرف ثالث بالتوسط بغية الوصول عن طريق الدبلوماسية الهادئة إلى تسوية يرضى بها الجانبان المتنازعان (٤) . وعلى الرغم من أن إيران قد اعترفت رسمياً بدولة الامارات العربية المتحدة وتبادلت التمثيل الدبلوماسي معها إلا أن ذلك

(١) Duke, A J., Op.cit, pp. 286-287

(٢) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ ، سجل الوقائع والآراء السياسية في العالم العربي ، بيروت ١٩٧١ .

(٣) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ انظر أيضاً حسين القطيفي ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤) United Nations Official Records, Security Council Provisional Records qth December , 1971

الاعتراف لم يثن الدولة عن موقفها الرافض للاحتلال واستمرار مطالبتها بعودة الجزر إلى سيادتها الإقليمية .

وقد يكون من المناسب أن تعرض لأهم الادعاءات التي بررت بها إيران سيطرتها على تلك الجزر والتي ورد ذكرها سواء في التصريحات التي كان يدلي بها الشاه أو المسؤولين في حكومته أو عند مناقشة المشكلة في مجلس الأمن الدولي . وتبدو المبررات الأمنية والاستراتيجية من أهم الادعاءات التي اعتمدت عليها إيران لتبرير سيطرتها على تلك المشكلة غير أن تلك الادعاءات تفقد فاعليتها لعدم استنادها إلى أسس من الشرعية الدولية فموقع الجزر قرب مضيق هرمز لا يعطى لإيران مبرراً للانفراد بحماية ذلك المضيق الحيوى إذ أنه ليس ممراً إيرانياً خاصاً بها وإنما هو مضيق دولى حيث تشارك سلطنة عمان إيران في الاشراف عليه هذا فضلاً عن أن أمن الخليج ليس قاصراً على إيران وحدها وإنما يهم دول المنطقة جميعها^(١) .

ومن الادعاءات الأخرى التي استندت عليها إيران هي ما ورد في بعض الخرائط التي ترجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من اعتبار تلك الجزر تابعة لإيران حيث ظهرت ملونة بنفس اللون الذى لونت به السواحل الإيرانية غير أن تلك الادعاءات لا تنهض دليلاً كافياً لصحة الادعاءات الإيرانية إذا أن الخرائط التاريخية أو الجغرافية لا يعتد بها في التسليم بصحة المطالب الإقليمية حيث تحتفظ هيئات التحكيم الدولية عن التسليم بما جاء بها لعدم معرفة مصدر المعلومات التي اعتمد عليها رساموها إلا إذا كانت ملحقة بوثائق تؤكد مصدر تلك المعلومات^(٢) ، فضلاً عن ذلك فإنه لما كانت الخرائط التي تعللت بها الحكومة

(١) جابر الراوى ، مرجع سابق ص ٤٤٠ .

(٢) محمد عزيز شكرى ، مرجع سابق ص ص ٣٤ - ٣٥ .

الإيرانية خرائط بريطانية فإن مما يضعف من أهميتها التأكيدات التي صدرت عن السلطات البريطانية نفسها خلال فترة الوجود البريطاني في الخليج والتي كانت تنفي بشكل قاطع تبعية تلك الجزر لإيران وتؤكد تبعيةها للشارقة ورأس الخيمة ومن المسلم به قانونا أن الاعتراف الصريح يسمو على الاعتراف الضمني أو المفترض .

أما ما استندت عليه إيران في تبرير احتلالها بأنها قد استردت سيادة سابقة بعد ثمانين عاما من انتزاع بريطانيا للجزر الثلاث وتسليمها إلى رأس الخيمة والشارقة كما نص على ذلك البيان الذي أصدره رئيس الوزراء الإيراني عند إعلان نيا احتلال القوات الشاهنشاهية المسلحة لتلك الجزر في ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ فهي بدورها مبررات واهية لأنها تفترض خضوع الجزر لإمارة القواسم في لنجة ومن ثم أصبحت تابعة تلقائيا لإيران منذ سقوط هذه الإمارة في أيدي الفرس في عام ١٨٨٩ . ومن الواضح أن تلك المبررات تتناقض تاريخيا مع ما سبقت الإشارة إليه من تبعية الجزر الثلاث لقواسم الشارقة ورأس الخيمة . وحتى إذا أخذنا بصحة الادعاءات الإيرانية من حيث التأكيد على أن تلك الجزر كانت تابعة لإمارة لنجة فإن ذلك لا يعطى لإيران حق المطالبة بها لأن قواسم لنجة كانوا يمارسون حكما عربيا مستقلا عن سلطة الحكومة الفارسية . فضلا عن ذلك فإن تصريح رئيس الوزراء الإيراني كان ينضوي في حقيقته على اعتراف ضمني بأن إيران لم تمارس سيادة فعلية على الجزر الثلاث خلال الثمانين عاما التي ورد ذكرها، وحتى إذا ما اقتصرنا على تلك السنوات فهي تعد في حد ذاتها كافية لتأكيد الحيادة العربية الفاعلة . وعلى الرغم مما أثارته إيران من أن سيطرة العرب على تلك الجزر لا تعطى لهم الحق في المطالبة بالتقادم حيث أنها لم تتوان عن تقديم احتجاجاتها المستمرة ضد السيطرة العربية على الجزر

فإن تلك الاحتجاجات لا يعتد بها قانوناً لعدم اقترانها بالبحث فى أصول النزاع ومن ثم فهى لا تعدو كونها نوعاً من "الاحتجاجات الورقية" التى لا قيمة لها ^(١) .

ولعل المبرر الهام الذى استندت عليه إيران فى التأكيد على مشروعية احتلالها لبعض المواقع فى جزيرة أبو موسى هى الاتفاقية التى تمت بينها وبين إمارة الشارقة وإن كانت النظرة المتأنية فى الظروف التى سبقت توقيع تلك الاتفاقية تؤكد أن إيران قد فرضتها قسراً بتهديداتها المتواصلة لإمارة الشارقة باستخدام القوة العسكرية مما يضع الاتفاقية تحت دائرة الإكراه ويجعلها تنافى وقواعد القانون الدولى العام من حيث امكانية الاعتداد بها كوثيقة ملزمة للطرف المضار ناهيك عن إن إيران وليست الشارقة هى التى قامت بانتهاكها أخيراً ^(٢) .

لم تسفر ردود الفعل العربية والخليجية الناجمة عن رفض الاحتلال الإيرانى لجزر الخليج الثلاث عن نتائج إيجابية إذ لم تلبث أن طغت الاحداث العربية والاقليمية والعالمية على تلك المشكلة بما فى ذلك حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأزمة الطاقة العالمية وتعاضم الدور الذى كانت تقوم به إيران لفرض هيمنتها وسعيها لى تكون أكبر قوة ضاربة فى منطقة الخليج . ومن ثم كان من الطبيعى بعد أن أطيح بالنظام الامبراطورى ابان قيام الثورة الإسلامية فى فبراير ١٩٧٩ أن يبدأ النظام الجديد صفحة جديدة فى العلاقات العربية الإيرانية خاصة منذ أن ظهر من التصريحات الأولى التى صدرت عقب قيام الثورة اتجاه قادتها إلى اسقاط نظرية التوسع الاقليمى التى كان ينتهجها الشاه مما كان يبشر بالأمل والتفاؤل ^(٣) . غير أنه لم تكد

(١) حسين القطيفى ، مرجع سابق ص ٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٣) محمد مرسى عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٣٨٥ .

تمضى بضعة شهور حتى ظهرت النزعة التوسعية من جديد فى السياسة الإيرانية حتى وصل الأمر إلى تجديدها الادعاءات السابقة على البحرين والمطالبة باعادة النظر فى شأنها لأن موافقة المجلس الإيراني على استقلالها على عهد الشاه من الأمور التى لا تقرها الثورة الإسلامية (١) .

وقد أدت تلك التصريحات إلى إثارة قلق كبير لدى دول الخليج العربية التى أدركت أن النظام الثورى فى إيران لا يختلف فى توجهاته التوسعية عن النظام البهلوى السابق يضاف إلى ذلك ما روجه القادة الإيرانيون الجدد عن اتجاههم إلى تصدير الثورة إلى الدول المجاورة لهم مما جعل أهدافهم أكثر خطورة من أهداف الشاه الخاصة باحياء الامبراطورية الفارسية القديمة (٢) . وكان لتلك التوجهات أثرها فى القلاقل التى نشبت فى بعض دول الخليج خاصة الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية ناهيك عن التهديدات الإيرانية باغلاق مضيق هرمز خلال الحرب العراقية الإيرانية بما يحتله هذا المضيق من حيوية بالغة (٣) ولم تجد محاولات الحكام العرب فى الخليج للحوار مع النظام الإيراني أى تشجيع نتيجة التصريحات الإيرانية التى بدأت تأخذ شكلا متشددا وأكثر عنفا (٤) .

(١) Halliday . F, op . cit., p.24 see also John Bulloch, A portrait of

Kuwait ,Qatr, Bahrein and the United Arab Emirates,london 1984, p . 52

(٢) محمد حسنين هيكل ، مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥١ .

(٤) عن الأضرار التى ألحقها إيران بكل من الكويت والمملكة العربية السعودية انظر ، خطاب وزير خارجية الكويت فى الأمم المتحدة سبتمبر ١٩٨٧ ، والمذكرة السعودية الخاصة بقطع العلاقات مع حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ١٩٨٩ ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٥٥ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

غير أن التطورات السريعة التي حدثت على الساحة الخليجية بدءاً من نشوب حرب الخليج الأولى والاحتلال العراقي للكويت ونشوب حرب الخليج الثانية كان لها تأثيرها على قضية الجزر التي لم تعد في ظل توالى تلك الاحداث تشغل الرأي العام العربى أو الخليجى ومن ثم ظلت كامنة حتى تفجرت مرة أخرى بعد أن هدأت أحداث الخليج وبعد تراجع دور العراق السياسى والعسكرى وذلك حين أقدمت إيران على تطبيق سلسلة من الاجراءات الادارية بداية من مارس عام ١٩٩٢ استهدفت بها الانفراد بسيادتها على جزيرة أبو موسى حيث أصرت السلطات الإيرانية فى الجزيرة على مراجعة الهويات التى يحملها المواطنون والوافدون وقامت باغلاق المؤسسات التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة ونشر قواتها العسكرية فى القسم الخاص بالدولة مما أدى إلى مغادرة كثير من السكان للجزيرة فى الوقت الذى منعت فيه أيضاً دخول الوافدين العاملين لدى دولة الامارات العربية من خلال الميناء الذى أقامته فى القسم التابع لها ما لم يكن لديهم سمة دخول إيرانية كما ربطت بقاءهم فى الجزيرة بحصولهم على تأشيرات تحدد فترات إقامتهم ومن الواضح أن السلطات الإيرانية قد استغلت فرصة عدم وجود ميناء عربى لكى تنفرد باتخاذ تلك الاجراءات المقيدة لحركة المرور والاقامة فى الجزيرة (١) .

وعلى أثر تعنت السلطات الإيرانية فى تطبيق تلك الاجراءات دارت اتصالات بين دولة الامارات العربية وإيران انتهت باستثناء المدرسين من الحصول على تلك التأشيرات وعلى الرغم من ذلك فلم تكذ تنقضى أربعة أشهر وعلى وجه التحديد فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٢ حتى عادت الأمور إلى التوتر مرة أخرى حين أقدمت السلطات الإيرانية على منع إحدى السفن التابعة لدولة الامارات من الوصول إلى

(١) مركز الدراسات السياسية - جامعة القاهرة ، ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى

منطقة الخليج أكتوبر ١٩٩٢ .

الجزيرة بعد ثلاثة أيام من احتجازها في عرض البحر وتبع ذلك أن أعلنت إيران صراحة بأن الجزيرة بكاملها قد أصبحت تابعة لها وقامت بعد ذلك بإصدار التنظيمات الادارية التي جعلت من الجزر الثلاث محافظة إيرانية جديدة عاصمتها أبو موسى منتهكة بذلك الاتفاقية التي سبق أن عقدها مع إمارة الشارقة في نوفمبر ١٩٧١ بشأن تجميد وضع السيادة على تلك الجزيرة .

وقد ترتب على تصاعد حدة الموقف الإيراني أن أفصحت دولة الإمارات العربية المتحدة عن نزاعها مع إيران لما عدته من مساس بسيادتها الاقليمية خاصة وأن الوضع لم يعد قاصراً على مشكلة الجزر الثلاث وإنما أصبح يتعلق بالسلطة الاتحادية ذاتها إذ أن التغاضي عن الاجراءات الإيرانية سيجعل إمارتى الشارقة ورأس الخيمة على وجه خاص تشعران بضعف السلطة المركزية للدولة كما أن المجال سيصبح مفتوحاً لكى تسيطر إيران على جزر عربية أخرى خصوصاً تلك الجزر التى تحيط بها الحقول النفطية ولاسيما جزيرة داس التابعة لإمارة أبو ظبى . ومن ثم بادرت دولة الإمارات بطرح نزاعها مع إيران على المستويات الاقليمية والعربية والدولية بعد فشل المساعى التى قام بها وزير خارجيتها لاحتواء تلك الأزمة ولم يعد النزاع قاصراً على جزيرة أبو موسى فحسب وإنما امتد نطاقه بحيث شمل جزيرتى طنب الكبرى والصغرى السابق احتلالهما من قبل إيران فى الوقت الذى حاولت فيه إيران التعتيم على الأزمة باثارة موضوعات لا تمت إليها بصلة كاتهامها لدولة الإمارات بزيادة سقف انتاجها النفطى وخسارة إيران تبعاً لذلك لملايين من الدولارات ومطالبة دولة الإمارات أن تدفع لها تعويضات عن الخسائر التى منيت بها فى حربها مع العراق مما أعاد إلى الأذهان نفس الدعاوى التى كان يرددها النظام

العراقي ضد الكويت إبان عدوانه عليها فى أغسطس ١٩٩٠ .
ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن دولة الامارات العربية تعاملت مع مشكلة الجزر باعتبارها قضية اتحادية وليست مشكلة خاصة بإمارة الشارقة أو رأس الخيمة ويبدو ذلك واضحا فى الرسالة التى بعث بها الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة إلى الرئيس الإيرانى فى ١١ مايو ١٩٩٢ والتى أكد فيها على اعتبار الاتفاقيات المعقودة بين أية إمارة من الامارات التابعة للدولة قبل الاتحاد وبين الدول المجاورة لها تعد اتفاقيات بين تلك الدول ودولة الامارات العربية المتحدة وكان ذلك ردا على محاولة إيران حصر الخلاف بينها وبين إمارة الشارقة حول جزيرة أبو موسى ورفضها التعامل مع دولة الامارات على اعتبار أن الاتفاق الخاص بتلك الجزيرة قد أبرم أساسا بينها وبين الشارقة وكانت إيران تهدف بذلك إلى عزل الشارقة عن السلطة الاتحادية للدولة والتعامل معها ضمن علاقات خاصة وغير متكافئة .
وقد وجدت دولة الامارات دعما لموقفها السياسى وحقوق سيادتها من كثير من المنظمات العربية والخليجية كما يظهر ذلك واضحا فى العديد من البيانات والقرارات التى صدرت خلال النصف الأول من سبتمبر ١٩٩٢ ومن بينها بيان جده الصادر عن مجلس التعاون لدول الخليج العربية وبيان الدوحة الصادر عن المجلس الوزارى لدول ميشاق دمشق وبيان القاهرة الصادر عن المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية وقد استنكرت تلك البيانات جميعها الاجراءات التى اتخذتها إيران مؤخرا فى جزيرة أبو موسى لما تمثله من انتهاك لوحدة أراضي دولة الامارات وطالبت إيران باحترام مذكرة التفاهم مع الشارقة مع التأكيد بأن جزيرة أبو موسى أصبحت من مسئولية الحكومة الاتحادية والرفض التام لاستمرار الاحتلال الإيرانى لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى .

ونتيجة للدعم الذى تلقته الإمارات العربية من الدول العربية والخليجية حاولت إيران احتواء الموقف باعلانها بأنها سوف تصرح لمواطنى الشارقة بالاستمرار فى الإقامة داخل الجزيرة وأن الاجراءات التى اتخذتها لا تخرج عن كونها اجراءات أمنية مما يعنى أنها منحت لنفسها مسئولية الحفاظ على الأمن دون مشاركة دولة الإمارات وأكدت أن جزيرة أبو موسى جزيرة صغيرة لا تبرر تلك الضجة الكبيرة المفتعلة حولها متجاهلة أن الأمور المتعلقة بالسيادة الوطنية لا تقاس بالمساحة الجغرافية ، غير أنه إزاء تصاعد حدة الخلاف أخذت إيران توجه تحذيراتها للدول العربية بصفة عامة زاعمة أنه لو تم الأخذ بمنطق التاريخ فإن العرب سيكونون هم الخاسرين دون غيرهم وإنه إذا كان لابد من التمسك بمطالب تاريخية فإن من حق طهران العودة بمطالبها على البحرين بل وعلى أجزاء من العراق ، وطلبت من دولة الامارات والدول العربية المساندة لها ألا تقع ضحية لمخططات أجنبية مؤكدة أن تصعيد تلك الأزمة ليست سوى مؤامرة دبرتها بعض القوى الأجنبية لتبرير وجود قواتها العسكرية فى المنطقة فى إشارة واضحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بينما علل كثير من المراقبين أن اتجاه إيران للانفراد بالسيادة على جزيرة أبو موسى يرتبط ببنائها لقاعدة بحرية عميقة من أجل الغواصات التى قامت بشرائها مؤخرًا من روسيا ومن ثم أصبحت إيران هى التى تخلق المبرر والذريعة لاستمرار الوجود الأجنبى فى الخليج خاصة بعد أن أخذت فى تعزيز قواتها العسكرية فى الجزيرة وأقامت فيها بعض القواعد الصاروخية .

ومع تأزم الموقف بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة حاول العراق رغم تردى أوضاعه السياسية والاقتصادية والعسكرية إحياء تقاليد المروثة فى الصراع مع

إيران ومحاولا فى الوقت نفسه التقارب مع دولة الإمارات العربية وذلك بتوجيه اتهاماته العديدة إلى إيران بأنها أصبحت تشكل خطرا على دول الخليج العربية . أما مصر وسوريا وهما الدولتان المشاركتان فى التوقيع على ميثاق دمشق فقد أعلنت كل منهما دعمها السياسى لدولة الإمارات وقام وزير خارجية سوريا بمحاولة للوساطة بين الجانبين أسفرت عن اجراء مباحثات فيما بينهما غير أن تلك المباحثات كان مقدرا لها ألا تصل إلى نتائج إيجابية حيث أخذت إيران تؤكد حتى قبل بدايتها بأن سيادتها على الجزر الثلاث بات أمرا مفروغا منه مما أوضح التناقض فى الموقف الإيراني بين رغبتها فى تسوية النزاع وبين استمرارها فى فرض سيطرتها . وعلى الرغم من أن المباحثات بين إيران ودولة الإمارات قد أجريت بالفعل إلا أنها لم تلبث أن توقفت قبل اتفاق الطرفين على جدول للأعمال بينما حمل كل طرف الطرف الآخر مسئولية فشل تلك المباحثات إذا أوضح البيان الذى صدر عن دولة الامارات العربية المتحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٩٢ إصرار الجانب الإيراني على رفض مناقشة مسألة احتلال جزيرتى طنب الكبرى والصغرى أو إحالة المشكلة إلى التحكيم الدولى مما ترتب على ذلك تعذرا لاستمرار فى مناقشة المسائل المتعلقة بجزيرة أبو موسى ومن بينها التزام إيران بمذكرة التفاهم الخاصة بها وعدم التدخل فى ممارسة دولة الامارات لولايتها الكاملة على الجزء المخصص لها والغاء كافة التدابير والاجراءات التى وضعتها إيران على أجهزة الدولة فى أبو موسى وعلى مواطنيها والمقيمين فيها وحرص البيان على التأكيد بأن السيادة على الطنين كانت منذ أقدم العصور ولا تزال لدولة الإمارات العربية المتحدة إذ أن الاحتلال الناجم عن استخدام

القوة العسكرية لا يكسب الدولة المحتلة سيادة على الاقليم المحتل مهما طال الزمن (١) .
أما البيان الذى صدر عن وزارة خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى ٢٩
سبتمبر ١٩٩٢ فقد حمل وفد الإمارات مسئولية توقف المباحثات لاصراره على
طرح مسائل ليست لها علاقة بالمسائل المطروحة حول جزيرة أبو موسى وقد حرص
البيان على التأكيد على أن طرح إدعاء السيادة على أية أرض فى المنطقة بمقدوره أن
يدخلها فى سلسلة جديدة من الادعاءات والخلافات مما سيكون له مضاعفات خطيرة
تضر بأمنها وتخدم الأطماع الأجنبية فيها (٢) .

وعلى أثر وضوح الخلاف بين الجانبين وتعذر التقريب بين وجهات النظر مضت
دولة الامارات العربية فى تحركاتها السياسية غير أنها كانت حريصة فى الوقت
نفسه على عدم الوصول بالمشكلة إلى حد القطيعة بينها وبين إيران ، وحاولت
إقناعها بأن استمرار احتلالها للجزر بدعوى منع التدخل الأجنبى تبرير واهى ولا
أساس له من الصحة لأن دولة الإمارات ترفض التدخل الأجنبى فى أراضيها وقد
حرصت دولة الامارات على التأكيد أيضا بأن الاحتلال الإيرانى للجزر لا يعطى
للدولة المحتلة سندا لممارسة سيادتها لأنه تم بالقوة العسكرية كما أن سنوات ذلك
الاحتلال لا يمكن مقارنتها بالفترة الطويلة لممارسة السيادة العربية على تلك الجزر
فضلا عن أن دولة الامارات لم تسكت عن هذا الاحتلال ولم تتنازل عن حقوقها

(١) انظر البيان الصادر عن دولة الإمارات العربية المتحدة فى ١٩٩٢/٩/٢٨ بشأن توقف
المباحثات مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية . ملحق (د) من الدراسة التى أعدها هيئة الاستعلامات
المصرية عن الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) انظر البيان الصادر عن وزارة خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية حول جزيرة أبو موسى فى

٢٩ سبتمبر ١٩٩٢ ، المرجع السابق ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

ضمننا أو صراحة فضلا عن أن موقف الوطنيين فى تلك الجزر لم يشر علنا إلى قبولهم بالسيادة الإيرانية (١) .

وقد يكون من المناسب فى ختامنا لتلك الدراسة أن نصل إلى تقرير الحقائق التالية :
أولا : ليس من شك فى أن السلوك الإيرانى الأخير ضد السيادة الاقليمية لدولة الامارات العربية المتحدة قد أضاع جهدا طويلا تم فيه بناء جسور من الصداقة بين إيران والدول العربية وقد قويت تلك الجسور نتيجة معارضة إيران للاحتلال العراقى للكويت حين أعلنت رفضها التوسع والاستيلاء على الأرض بالقوة وهو أمر أخذت فى ممارسته على الجزر العربية مما يتناقض مع ما ذهبت إليه .

ثانيا : انه لا ينبغى النظر إلى النزاع القائم حاليا بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران على أنه مشكلة خاصة بدولة الإمارات وحدها وإنما يتعين النظر إلى ذلك النزاع باعتباره مشكلة تهدد الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ثالثا : انه على الرغم من أنه لا يوجد ثمة خلاف على أن الطرق المشروعة لاستعادة دولة الإمارات سيادتها ورد العدوان على أراضيها قد تصل إلى حد استخدام القوة للدفاع عن حقها الشرعى وهذا الحق يعود للدولة المعتدى على أراضيها كما يعود للدول الأخرى لاسيما الدول العربية التى قد تتطوع فى الدفاع الجماعى إلا أن استخدام هذا الحق المقرر قانونا قد يؤدى إلى الاخلال بالأمن فى المنطقة وقد يستغل من بعض القوى الأجنبية لتكثيف وجودها العسكرى فيها .

رابعا : ان استخدام بديل آخر للبديل السابق وهو أسلوب المقاطعة الدبلوماسية

(١) مذكرة من أبناء طنب الكبرى إلى الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة

٢٤ ديسمبر ١٩٧٢ يعلنون فيها موقفهم برفض الاحتلال الإيرانى .

والاقتصادية لن يقدر له النجاح خاصة وأن هناك من الدول العربية والخليجية ومن بعض إمارات دولة الإمارات العربية ذاتها من له علاقات وثيقة مع إيران وحريصة على الحفاظ على علاقات حسن الجوار ، ومن ثم فليس هناك من سبيل سوى سلوك الطرق السلمية التي تمكن الدولة صاحبة الحق من ضمان سيادتها الاقليمية .

خامسا : إن ما أقدمت عليه إيران من انتهاك السيادة الاقليمية لاحدى الدول العربية فى الخليج يرجع إلى غياب قوة إقليمية فى المنطقة يمكنها أن توقف الأطماع التوسعية ومن ثم فإن الضمان الفعلى لمنع تكرار تلك الأزمات هو تطوير مجلس التعاون لدول الخليج العربية وزيادة فاعلية مؤسسات العمل العربى الجماعى حتى تكون قادرة على تأمين ردود فعل قوية ضد أى انتهاك للسيادة العربية .

وأخيرا فإنه مع التسليم بأن دولة الإمارات العربية المتحدة تمتلك القانون والشرعية إلا أنها لا تمتلك القوة القادرة على حماية سيادتها ومن ثم تبرز من جديد تلك القضية الشائكة وهى هل تأتى الحماية من الخارج كما حدث فى الأزمة العراقية الكويتية أم أن المنطقة قادرة على حماية سيادتها وثرواتها ... وإلى أن يتم حسم تلك المشكلة فليس هناك من مخرج سوى اللجوء إلى الشرعية الدولية والالحاح على رفض الاحتلال وهو ما لجأت إليه دولة الإمارات العربية المتحدة أخيرا حين أحالت النزاع بينها وبين إيران إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى وذلك للحيلولة دون اكتساب العدوان الإيرانى على أراضيها صفة الحيازة الفاعلة أو الهادئة كما حدث ذلك فى العديد من الأراضى العربية السلبية .

ولعل التجارب التاريخية السابقة كفيلة بتوعية العرب بخطورة التفريط فى حقوقهم المشروعة حتى لا تقع فى زوايا النسيان

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق - العربية

- بيان الأحزاب والمنظمات الوطنية فى العراق عن العدوان الإيرانى على جزر الخليج الثلاث ، ديسمبر ١٩٧١ .
- البيانات الرسمية الصادرة عن دولة الإمارات العربية المتحدة والجمهورية الاسلامية الإيرانية عن توقف المباحثات بشأن مشكلة أبو موسى والطنين سبتمبر ١٩٩٢ .
- تقارير الأمين العام لجامعة الدول العربية فى أدوار الانعقاد العادى لمجلس الجامعة والخاصة بمسألة الجزر .
- تقرير بعثة الجامعة العربية إلى إمارات الخليج العربى نوفمبر ١٩٦٤ .
- مذكرة من أبناء طنب الكبرى إلى رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر ١٩٧٢ .

- الأجنبية :

Aitchison . C . U

A Collection of Treaties , Engagements and Sanads
Relating to India and Neighbouring Countries vols x -
xi Calcutta 1892

- Bombay government.

Selections From The Records of Bombay
Government , vol xxiv . Bombay 1856

- Foreign office (united Kingdom)

- The Trucial chiefs B , 403 1908 - 1928

- Incident Arising out of Seizure of Dhow at Dubai
by Persian officials , July 1928

- Status of Islands of Tamb, Abu Musa and Sirri - -
Documents Showing rights of Trucial Coast of Arabs,
1929

- Question of Persian Purchasing Tamb from The
Sheikh of Shargah, 1929

- Island of Tamb - Position in regard to Anglo -
Persian Treaty negotiations , Proposed lease of Tamb
to Persian government, 1931

- Memorandum of Certain aspects of the Situation
- in the Persian Gulf between His Majesty's Govern-
ment in the United Kingdom and The Persian
Government , 1931

- Island of Tamb - alleged Persian attempts to obtain lease of Tamb and unsatisfactory behaviour of The Sheikh . 1932
- Memorandum of Persian Claim to Tamb and Abu Musa 1934
- Bahrein Intelligence report No 3 , 1935
- Government of India (Department of state)- Treaties and Engagments in force between the British Government and the Trucial Sheikhs of the Arab Coast , Calcutta , 1913
- India office
- Annual Report of Trucial Oman, 1935
- Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands , 1854 -1905 , Calcutta , 1912
- United Nations official Records
- SecurityCouncil Provisional Records , ath December , 1971

ثانيا : المصادر والدراسات

أ - العربية :

- جابر إبراهيم الراوى :

الحق العربى فى الجزر العربية الثلاث وموقف القانون
الدولى من اكتساب الأقاليم عن طريق القوة . من أعمال
المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

- جمال زكريا قاسم :

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى
عصر التوسع الأوروبى الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ ،
القاهرة ١٩٨٥ .

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ -
١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٦

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ -
١٩٤٥ ، القاهرة ١٩٧٣

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ -
١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ .

- مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى المحفوظة فى
دور السجلات البريطانية ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

- الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ، مجلة الجمعية
المصرية للدارسات التاريخية ، العدد العشرون .

- حسين بن علي الوحيدي الخنجي

تاريخ لنجاة حاضرة العرب على الساحل الشرقي للخليج ،
دبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة . ١٩٨٥ .

- روز هاري زحلان

النزاع حول الجزر ، مجلة دراسات الخليج العربي والجزيرة
العربية ، جامعة الكويت ، إبريل ١٩٧٦ .

- سليم طه التكريتي

الصراع على الخليج العربي ، بغداد ١٩٦٦ .

- سيد نوفل

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي - الكتاب
الثاني ، إمارات الساحل العماني ، معهد البحوث والدراسات
العربية ، القاهرة ١٩٧٢ .

- شفيق الرشيدات

عرستان ، الجزء العربي المفتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع
لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ .

- صادق نشأت (ميرد آماد)

تاريخ الخليج السياسي ، مترجم عن الفارسية وتحقيق بدر
الدين عباس الخصوصي ، طبعة أولية ، الكويت ١٩٧٢ .

- عبد الله الأشعل

الاطار القانوني والسياسي لمجلس التعاون الخليجي، الرياض ١٩٨٣ .

- عبد الأمير محمد أمين

القوى البحرية العربية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .

- المصالح البريطانية في الخليج العربي ، مترجم ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، بغداد ١٩٧٧ .

- عبد الحسين القطيفي :

الجزر العربية الثلاث في الخليج العربي ، من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

- عبد السلام عبد العزيز فهمي

تاريخ إيران السياسي في القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣ .

- عبد العزيز عبد الغني :

علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية في العلاقات التعاهدية ، دار الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٩٨٢ .

- عبد القوي فهمي

القواسم ونشاطهم البحري ١٧٤٧ - ١٨٥٣ ، رأس الخيمة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .

- فالح حنظل :

المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، جزآن ، نشر لجنة التراث والتاريخ - أبو ظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .

- لؤى بحري

الأطماع الإيرانية فى جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢.

- لوريمر (ج . ج)

دليل الخليج - القسم التاريخى ، مترجم ، سبعة مجلدات
الدوحة قطر ، ١٩٦٧.

- لاندن (ر . ج)

عمان منذ ١٨٥٦ ، مترجم ، القاهرة ١٩٧٠ .

- هايلز (س . ب)

الخليج ، بلدانه وقبائله . مترجم ، وزارة التراث القومى والثقافة
، سلطنة عمان ، ١٩٨٦.

- محمد بهجت سنان

الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الإيرانى للجزر
العربية الثلاثة ، بغداد ١٩٧٢.

- محمد حسنين هيكل

مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ، ١٩٨٥.

- محمد عزيز شكرى

مسألة الجزر فى الخليج العربى وموقف القانون الدولى، دمشق

١٩٧٢

- محمد هرسى عبد الله

دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ١٩٨١ .

- مركز الدراسات السياسية (جامعة القاهرة)

ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة في منطقة

الخليج أكتوبر ١٩٩٢

- مصطفى عقيل

سياسة إيران في الخليج العربي على عهد ناصر الدين

شاه ، ١٨٤٨ - ١٨٩٦ الدوحة ، قطر ، ١٩٨٧ .

- نادرة نعيم زكي

دراسة حول الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة

وإيران ، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٩٢ .

- نجيب رياض الرئيس

صراع الواحات والنفط (هموم الخليج العربي ١٩٦٨ -

١٩٧١) بيروت ١٩٧٣ .

- ويلسن (أرنولد)

تاريخ الخليج - مترجم - وزارة التراث القومي والثقافة ،

سلطنة عمان ، ١٩٨١

الأجنبية :

- Bulloch , John.

The Gulf , A portrait of Kuwait . Qatr , Bahrein and
The U . A . E , london 1984

- Curzon , George N.

Persia & The Persian Question 2 vols , london
1892

- Duke , Anthony John.

The Union of The Arab Amirates , prospects and
problems , Middle East Journal , Summer , 1972

- Fenelon , K , G.

The United Arab Emirates , an Economic and
Social Survey, London , 1973

- Halliday , Fred.

The Iranian Revolution in International Affairs,
Programme and Practice, Center for Contemporary
Arab Studies , Georgetown , washington D . C
Croom - Helm , london 1984

- Hawley , Donald.

The Trucial States , london , 1970

- Kelly , J .B

nBritain and The Persian Gulf 1795 - 1880 London , 1968

- Low , Charles

History of the Indian Navy 1613 - 1863 , 2 vols
London 1877

- Niebuhr , Carsten.

-Travels Through Arabia and other Countries in the
East,Edinburgh 1792

- Description de l, Arabie , Copenhagen, 1772

-Owen , Roderick

The Golden Buble , Arabian Gulf Documentary
London 1957

- Palgrave, William Gifford .

- Narrative of a year's Journey through Central and
Eastern Arabia 1862 - 1863 , 2 vols, London 1865

- Personal Narrative of a Journey through Central
& Eastern Arabia , London 1877

- Sirriyeh , Hussain

Security and Stability in the Gulf , Background to
United States Policy , Center for Contemporary Arab
Studies , Croom - Helm , London , 1984

- Sykes ,Sir Percy .

A History Of Persia , 2 vols , London , 1951

- Whigham , N . J.

The Persian Problem , london , 1903

ثالثا : الدوريات العربية والأجنبية :

- سجل الآراء حول الوقائع السياسية في البلاد العربية ، دار الابحاث والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ .

- مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ع ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٨٩ .

- المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، ع ٢٠ .

- Middle East Journal , Summer , 1972

**" امارة أبو ظبي
في عهد زايد بن خليفة "**

١٨٥٥ - ١٩٠٩

الدكتور / محمد حسن العيدروس
كلية الاداب - جامعة الإمارات

امارة أبو ظبي في عهد زايد بن خليفة

مقدمه :- نبذة عن التاريخ السياسي لامارة أبو ظبي

أولاً : اختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة في امارة أبو ظبي

(أ) - حكم سعيد بن طحون وخلعه .

(ب) - اختيار زايد بن خليفة لحكم عام ١٨٥٥

(ج) - محاولة سعيد بن طحون استعادة الحكم عام ١٨٥٦

(د) تمرد ابن عرار في العين عام ١٨٥٨ .

ثانياً : تطور امارة أبو ظبي في عهد زايد بن خليفه

(١) - الاقتصاد :

(أ) - الغوص على اللؤلؤ

١ (جزيرة دما

٢ (جزيرة أبو ظبي

(ب) - اقتصاد اللؤلؤ

١ (دور القطاع الخاص في اقتصاد اللؤلؤ

٢ (دور القطاع العام في اقتصاد اللؤلؤ

(ج) الزراعة

(د) التجارة

(٢) - بناء قلعة الجاهلي

(٣) - التنظيم الاداري والسياسي

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفة في حكمه واستقرار امارته

(١) - عدم وجود اسباب للمواجهة مع بريطانيا

(٢) - الصداقة التقليدية بين ابو ظبي وعمان

(٣) - خبرة زايد بن خليفة بشؤون الامارات العربية

رابعا : بعض ما قيل عن شخصية زايد بن خليفة

خامسا : وفاة زايد بن خليفة عام ١٩٠٩

امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفة

مقدمة : نبذة عن التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى :-

ان التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى بدأ فى عام ١٧٦٠ حين استوطنتها قبيلة البوفلاج تحت زعامة رئيسها دياب بن عيسى وقد تركز حكم البوفلاج من بنى ياس فى امارة ابو ظبى على مر السنين ^(١) ، ويعتبر شخبوط بن دياب هو المؤسس الاول لامارة ابو ظبى وقد حكم الامارة فى الفترة ما بين ١٧٩٣ الى عام ١٨١٦ اذ يقترن عهده بنقل مركز حكمه من واحة " ليوا " الى جزيرة أبو ظبى ويرجع نزوح بنى ياس الى أبو ظبى فى صيف عام ١٧٩٧ وتم اتخاذ هذه الجزيرة عاصمة لهم وبها اصبحوا يشكلون قوة بحرية يمارسون نشاطهم الملاحة فى الخليج العربى ، بينما بقى موطنهم الأصلى فى " ليسوا " فى أطراف الربع الخالى ^(٢) ، وكان ذلك الاستقرار على ساحل الخليج العربى خطوة هامة لها تأثيرها الكبير على وضع الامارة السياسى والاقتصادى وفى عام ١٨١٦ تنازل الشيخ شخبوط بن دياب عن الحكم لابنه محمد الذى ظل يحكم الامارة مدة عامين ثم خلفه أخوه طحنون الذى حكم حتى وفاته عام ١٨٣٣ ^(٣) وتبعه أخوه الشيخ خليفة بن شخبوط ١٨٣٣ - ١٨٤٥ ، وخلفه سعيد بن طحنون ثم حكم ابن عمه زايد بن خليفة بن شخبوط جد حاكم ابو ظبى ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حالياً الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفة .

أولاً : اختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة في إمارة أبو ظبي

(أ) حكم سعيد بن طحنون وخلعه :

بعد نهاية حكم الشيخ خليفة بن شخبوط تولى سعيد بن طحنون حكم إمارة أبو ظبي خلال الفترة ما بين ١٨٤٥ الى ١٨٥٥ ، وطيلة هذه الأعوام تواترت على إمارة أبو ظبي سنوات قاسية في مواجهة الأخطار الخارجية وكان سعيد صلباً وقوياً في مواجهتها وفي الدفاع عن حدود إمارته من الاعتداءات الخارجية (٤) .

واستطاع بحكمته أن يستميل إلى جانبه قبائل النعيم والعوامر والظواهر وغيرها من قبائل المنطقة وقد اشتهر عنه أنه كان قاضياً قديراً يفصل في المنازعات بين مواطنيه طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية وحفظ أصول الدين (٥) .

وتبدو قضية خلع سعيد بن طحنون مثيرة للجدل والنقاش ولكنه ليس مجال بحثنا ولكن سوف نورد روايتين عنها ، أحدهما للاستاذ فالح حنظل ويقول فيها : -
بأن أخوين من رعاياه اقتتلا فقتل أحدهما الآخر وعندما جرى بالجاني إلى سعيد ابن طحنون أصدر حكمه عليه بالاعدام وفقاً للشريعة الإسلامية ، وتوسل إليه والده وأبدي استعداده لدفع الدية أو الجزاء القضائي المادي إلا أن سعيد أصر على تنفيذ حكم الإعدام وذهب أبواه يتوسلا بأعيان ووجهاء " بنى ياس " : للعفو عن القاتل ولكن جهود هؤلاء لم تنجح وأصر سعيد على الإعدام وفي المدينة تجمهرت الناس وصاروا يتناقلون القضية ، ويبدو أن الأمر أخذ صورة تحد بين سكان أبو ظبي وبين الحاكم وفي ساعة من ساعات الغضب أصدر الشيخ سعيد أمره بتنفيذ حكم الإعدام في القاتل فأعدم ، مما أحدث هرجاً ومرجاً في المدينة واستاء الناس من هذا الحاكم ولجأوا للسلاح وهاجموا قصر الحصن وتبادلوا إطلاق النار مع حاميته مما نتج عنه

هروب سعيد بن طحنون . (٦)

اما الرواية الثانية " للوريمر " والذي يقول فيها : -

انه عندما سأل " كامبل " المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ، سعيد ابن طحنون عن سبب هربه فأجاب بأن جماعة من رعاياه كانوا قد ارتكبوا بعض العمليات الاجرامية وانه اصر على القصاص والعقاب من مرتكبيها ، وحدد هذه الجريمة بأنها وقعت لسفينة تابعة لتاجر بحرينى يدعى عبدالكريم وقد جنحت فى مياه خور العديد وان بعض افراد بنى ياس هاجموا السفينة وقتلوا عبدالكريم ورياتها ونهبوها ثم تبين انها من فعل احد الأخوين ولذا فانه عزم على قتل الجانى الشقيق الاكبر ، وبناء على وعد من سعيد بن طحنون بالايامه بأى ضرر جاء اخوه لمقابلته لكن سعيدا لم يتخلى عما نوى عليه ونفذ حكم الاعدام وقام الناس الى السلاح وبعد ان احتفى سعيد بن طحنون فى قلعته زمنا بادر الى الفرار واستقر بجزيرة " قيس " على الساحل الشرقى من الخليج العربى ومعه معظم ما يملكه من ماشية ومتاع (٧) . ويقال بأن سعيد قد قرر اتخاذ قرار مفاجىء وأمر عددا من حراسه ان يجهزوا له سفينته الخاصة وان يحملوها باحتياجاته الخاصة وان يملأ مخازنها بالطعام والزاد ، وفى نفس الليلة ترك مدينة ابو ظبى ومعه اخوه حمدان متجها الى جزيرة " قيس " وسكانها من القبائل العربية واوصى أخوه صقر بأن يتولى السلطة ومهام الحكم وقد يرجع ذلك الى شعوره بأنه اصبح غير مرغوب من شعبه اما سكان ابو ظبى فيبدو انه لم يشعر احد منهم بخروج سعيد حتى اقرب المقربين اليه ، وعندما توجه بعض رعاياه الى مجلسه كعادتهم كل يوم وجدوا اخاه صقرا يجلس مكان اخيه فى صدر المجلس واجاب بأن سعيد مصاب بمرض وحمى لا تمكنه من الحضور واستمرت

الامور كما هي دون ان يعرف احد الى أن وصلت سفينة احد تجار المواشي من الساحل الشرقي للخليج العربي الى مدينة ابو ظبي فاذا بأحد ركابها يخبرهم بأن سعيد موجود في جزيرة " قيس " وهنا ثار كبار اعيان البلاد ودخلوا الى مجلس صقر واجبروه على ان يعترف لهم بالحقيقة فلما اعترف لهم بما حدث فقرر زعماء بني ياس اسقاط حكم سعيد بن طحنون ^(٨) وطلبوا من صقر ان يغادر مدينة ابو ظبي .

اما بريطانيا فكانت قد اعطت لنفسها الحق في التدخل بالنزاعات المحلية حسب تفسيرها لمعاهدة الهدنة البحرية الدائمة لعام ١٨٥٣ ورغم ان هذه المعاهدة تتعلق بالمنازعات البحرية فيما بين الامارات الا ان دورها لم ينحصر في هذا المجال بل راحت تتدخل في الشؤون الداخلية للامارات من تنصيب حاكم او عزله بطريقة مباشرة او غير مباشرة حسب مصلحتها فقد نجد في قضية الشيخ سعيد عندما تعرض لمشاكل داخلية تتعلق بامور السلطة وثار بعض افراد عشيرته المناوئين له ووقف رعاياه ضده . ولم تكن بريطانيا راغبة في دعم سلطة سعيد الذي اصبح مهزوزا امام رعاياه وخشية من ان التدخل بجانبه قد يؤدي الى مزيد من التعقيد لوضعها فقد غضت النظر عما يجري في ابو ظبي ، حتى تم طرد سعيد وتولى زايد بن خليفة الحكم ولو ان بريطانيا تريد بقاء سعيد في الحكم لعززت موقفه ولما تزعزع عن سدة الحكم ^(٩) .

(ب) : اختيار زايد بن خليفة للحكم عام ١٨٥٥ :-

وبعد ان هرب سعيد ثم اخوه صقر ، اجتمع كبار اعيان البلاد وقرروا اختيار زايد ابن خليفة ابن عم الحاكم المخلوع لتنصيبه حاكما على ابو ظبي وكان زايد وقتذاك لدى اخواله في بلدة " اللية " في الشارقة ^(١٠) واخواله من قبيلة " السودان " التي

كانت تحت زعامه خاله الشيخ عبدالله ابو الهول السويدي ، وذهب وفد رفيع المستوى من بنى ياس وقابل زايد واخبروه بقرارهم كمايد وبارك هذا القرار حاكم دوى سعيد بن بوى وهو اول من اعترف بحكمه ، وعاد زايد الى ابوظبى وىرفقته اخوه ذياب والدته فتلقاء الشعب بالفرحة وفتحوا له ابواب قلعة الحصن واطلقت المدافع نيرانها بقدوم زايد ابتهاجا بالحاكم الجديد (١١) .

وبذلك تكون قبيلة بنى ياس قد اختارت زايد بن خليفه لحكم الامارة عام ١٨٥٥ ، وقدر لهذا الحاكم الجديد ان يدير شؤون الامارة لفترة طويلة كماقدر له ان يقوم بدور كبير فى تاريخ ابوظبى والامارات العربية (١٢) ، على أن عصر زايد لم يخل من احداث جسام اثرت فى تاريخ ابوظبى فعندما تم اختياره خلفا لسعيد بن طحنون لم يجد الطريق ممهدا ولكنه استطاع بسياسته ودرايته ان يذل العقبات التى اعترضته ويتخطى الصعاب (١٣) .

ويقول الكاتب البريطانى " كلود موريس " بأنه فى عام ١٨٥٥ برز فجأة رجل كتب له ان يصبح شخصية أسطورية حيث أعتبر بطل الامارات العربية فى أيامه هو زايد بن خليفه المعروف بزايد الكبير الذى تولى الحكم من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ لقد كان محظوظا خلال فترة حكمه بشكل ملحوظ ويرغم مواجهته كل العوامل المثبطة التى تواجه عادة الزعماء فى هذه البرية المجذبة الحارقة شق زايد الكبير طريقة بنجاح بعدما اصر على ان يكون حاكما وحالفه الحظ فى ذلك دوما (١٤) .

اما حمدى تمام فيقول : بأن زايد كان لايزال شابا فى العشرين من عمره عندما استلم مقاليد الحكم خلفا لابن عمه سعيد بن طحنون اذا اجتمعت لزايد وهو فى هذا

السن المبكر الشجاعة والرأى وحسن التصرف وقد حاله توفيق كبير من الاستقرار والهدوء والتلاحم بين القبائل (١٥) . ويعتبر زايد من الحكام الذين حكموا اطول فترة فى تاريخ اماره ابو ظبى الى يومنا هذا (١٦) .

وبدا زايد بن خليفه بن شخبوط بن دياب بن عيسى بن نهيان بن فلاح مهام الحكم فى اماره ابو ظبى فى عام ١٨٥٥ وقضى ايامه الاولى فى ترسيخ قواعد الحكم وتوزيع المناصب فعين اخاه ذياب نائبا عنه فى شؤون الحكم كما سلم خاله عبدالله بالهول السويدي منصبا مهما ولم يعارض زايد فى حكمه الا ولدان من ابناء عمه وهما ذياب وسلطان اولاد هلال بن شخبوط اما اخوهما الثالث خليفه بن هلال فكان احد اعوانه المخلصين ووقف مع زايد بكل قواه (١٧) .

(ج) : محاولة سعيد بن طحنون استعادة الحكم عام ١٨٥٦ :

كان سعيد بن طحنون يعيش فى جزيرة " قيس " وفجأة قرر استعادة حكمه ولكن لماذا ؟ علما بأنه كان على اطلاع بمجريات الامور فى ابو ظبى بعد تولية ابن عمه الحكم ولذا فانه ادرك حقيقة فقدانه للسلطة والامارة مما دفعته الى استعادة الحكم مهما كان الثمن ولهذا فلا بد من ان يجد حليف قوى يساعده ويسنده فى العودة الى حكمه ، وتوجه سعيد بن طحنون الى الشارقة وبصحبته اخويه صقر وحمدان وبعض السفن ونزل فى بلدة " اللية " وكان فى استقباله احد اصدقائه من شيوخ البومهير ويدعى مانع بن بطى المهيرى واخذ الاثنان فى العمل لاعداد الخطط اللازمة للهجوم على ابو ظبى والاستيلاء عليها وكان التخطيط دقيق ومحكم (١٨)

وعندما وردت انباء عن وفاة سلطان عمان سعيد بن سلطان البوسعيدى وهو على ظهر المدمرة البريطانية " كوين فكتوريا " فى طريقة متوجها الى زنجبار من مسقط

وكان بالقرب من سواحل جزر " سيشل " لفظ انفاسه الاخيرة ونقل جثمانه الى زنجبار ودفن هناك وكانت ابو ظبي ترتبط بعلاقات تقليدية خاصة مع عمان فمجرد ورود هذا الخبر قرر زايد الذهاب الى مسقط لتقديم تعازيه الى ابنه الذي تولى الحكم هناك السلطان تويني الذي كان يحكم عمان اثناء حياة والده وحتى وفاته ثم اصبح سلطان عمان (١٩) .

وتوقف زايد بن خليفة ليلة واحدة في دبي ضيفا على الشيخ حشر بن مكتوم ثم غادرها الى مسقط . وكان سعيد بن طحنون يترقب الفرصة المواتية له فعندما علم بغياب زايد الى عمان قام بتجهيز سفنه بمقاتلين من آل بومهير بقيادة مانع بن بطي المهيري متوجها نحو جزيرة ابو ظبي التي لم يشعر سكانها الا والسفن ترسو امام الجزيرة وينزل منها اعداد كثيفة من المهاجمين الذين باثروا باطلاق النيران على المارة الذين هربوا الى منازلهم (٢٠) .

وهكذا حدث الهجوم المفاجيء على مدينة ابو ظبي والتي لم يتوقع سكانها هذا الهجوم من قبل سعيد بن طحنون والذي قد اتخذ من الشارقة قاعدة له ، وكان اسطوله يضم ثلاث سفن صغيرة يملك منها واحدة والثانية كانت تابعة لاحد المالكين من جزيرة " قيس " والثالثة حصل عليها وجلبها من " ابو حيل " في الشارقة واستطاع سعيد ان يمتلك المدينة التي قام اتباعه بنهبها وحرقتها (٢١) .

وتوجه سعيد بن طحنون على رأس مفرزة نحو قصر الحصن الذي كان فيه ذياب ابن خليفة نائب الحاكم وشقيق زايد بن خليفة مع والدته وحرسه الخاص ، الذين قاموا باغلاق ابواب الحصن ووضع المتاريس وصعدوا الى الابراج وياشروا باطلاق النار على المهاجمين ورغم شدة الهجوم الذي شنه اتباع سعيد بن طحنون الا انهم لم

يتمكنوا من اقتحامه نظرا للبسالة التي ابداهها افراد حرس الشيخ ذياب بن خليفه ، مما جعل المهاجمين يكتفون بحصارها ، ونادى المنادى فى اسواق مدينة ابو ظبى بأن الحكم قد عاد لسعيد بن طحنون ، وفى صباح اليوم التالى تمكنت بعض السفن التابعة لزاید بن خليفه من الهرب الى دبی وتم ابلاغ حاكمها الشيخ سعيد بن بطى عن المعارك التى جرت وعودة سعيد بن طحنون الى ابو ظبى وكان سعيد بن بطى طرح الفراش لمرضه فطلب من ابن اخيه حشر بن مكتوم استلام قيادة الجيش والقيام بدوره لابلاغ زايد والتشاور معه حول هذه القضية وعلى الفور ارسل حشر مفارز ودوريات للعثور على زايد بن خليفه واستطاعوا ان يجدوه وهو فى طريق عودته من مسقط قرب بئر ماء يسمى " غفر " وكان برفقته عشرة رجال من حاشيته وحرسه الخاص وابلغ رجال حشر لزاید عن مجريات الامور فى ابو ظبى وطلبوا منه الانتظار فى موقعه لحين وصول النجدات من دبی وابو ظبى وفى مساء اليوم التالى وصل حشر بن مكتوم على رأس جيش كامل الى موقع زايد ووضع الاثنان خطة للقيام بهجوم معاكس لاسترجاع ابو ظبى وعندما وصلت تلك القوات الى مقربة من منطقة " المقطع " التى لم يكن هناك جسر للعبور يربط البر والجزيرة امر زايد قواته بالاختباء وعدم القيام بأية حركة حتى لا يكتشف أمرهم من قبل دوريات وحرس سعيد بن طحنون والذين يقيمون فى البرج المقام فى " المقطع " ويفقد معه عنصر المفاجئة وهنا ذكرت روايتان عن كيفية عبور زايد بن خليفه وقواته من البر الى ساحل الجزيرة (٢٢) :-

(١) : الرواية الاولى تقول :

بأن الحرس وضابط منطقة " المقطع " كانوا من أنصار زايد بن خليفه فلما رأوه

أنسحوا له المجال فقامت قواته بعبور الحاجز المائي بين البر والجزيرة .

(٢) : اما الرواية الثانية فتقول :

بأن زاید استعمل حيلة بارعة عندما اوعز الى بعض افراد من رجاله الاقوياء بأن يعبروا الماء سباحة الى جزيرة ابو ظبی ویشعلوا النيران فی أماكن متفرقة خلف نقاط المراقبة التي توجد فیها ابراج " المقطع " باتجاه العاصمة ولما تقدم زاید الى نقطة البرج اوقفته القوة الموجودة هناك فطلب مقابلة ضابط النقطة والذي فوجئ بوجود زاید ومعه قوات كبيرة من الجنود فنصحہ زاید بعدم المقاومة وطلب منه ان ينظر خلفه وان يرى أبو ظبی قد امتلأت بالنيران فأخبره زاید بأن القسم الاكبر من افراد قواته قد عبروا ودخلوا المعركة وهاهى النيران وان مايراه من قوة ليس الا جزء قليل من تلك القوة فقدم الضابط خضوعه مع حرسه لزاید وعبرت قوات زاید ومعه الشيخ راشد بن مکتوم الى داخل جزيرة ابو ظبی .

وفی صباح اليوم التالي بعد صلاة الفجر اطلق زاید اشارة بدء الهجوم ودارت المعارك العنيفة فی المدينة وحول قصر الحصن قتل فيه مانع بن بطی المهيرى من اتباع سعيد بن طحنون فی حين تمكنت قوات راشد بن مکتوم من كسر طوق الحصار الذي فرضه سعيد بن طحنون على ذياب بن خليفه وافراد عائلته وحرسه فی الحصن كما دارت معارك عنيفة فی أزقة المدينة وشوارعها انهزمت فيه قوات سعيد بن طحنون ، وهرب البعض فی حين حاول سعيد الهرب تجاه البحر للوصول الى سفينته ولكن افراد زاید تمكنوا من سعيد واحاطوه ولم يعرفوا ماذا يفعلوا به فارسلوا احدهم ليخبر زاید وعندما علم زاید الذي كان یقاتل على ظهر فرسه فی وسط المدينة بأن سعيد مطوق فی البحر اسرع متجها اليه على فرسه وقبل ان يخرج من احد ازقه

المدينة والمؤدية الى الشاطيء ولشدة سرعة الحصان وضيق الازقة اصطدم بخشبة بارزة من احد الجدران فسقط زايد من شدة الصدمة بينما خرج حصانه تجاه الشاطيء بدونه فظن الذين كانوا يطوقون سعيد بأن زايد قتل فقاموا واطلقوا نيران بنادقهم على سعيد فأصابوه بعدة رصاصات قاتلة وكانوا من قوات دوى الموالية لزايد ، وبعدها تم القبض على أخوى سعيد وهما صقر وحمدان وكان سعيد قويا وبعده من ابرز واشجع المقاتلين ومن اهم اثاره الجامع الذى كان يسمى بمسجد " العتيبات " وهذا المسجد قد بناه سعيد بن طحنون ويعتبر اول مسجد جامع كبير يتم بناءه من الحجارة والاجر فى ابو ظبى فى تلك الفترة التى كانت تبنى مساجدها من الخوص وسعف النخيل وقد قام خلف بن عبدالله العتيبه بترميم المسجد حديثا ولذا سمي بمسجد العتيبات (٢٣) . ويقع الآن مقابل السفارة البريطانية بالقرب من سوق الخضار واعيد بناءه حديثا بعد هدم المسجد القديم .

وقد يكون للسلطان بن صقر دورا فى عملية استعادة السلطة للحاكم السابق لآبو ظبى فى محاولة اعادة سعيد للحكم ويقول المؤرخ البريطانى " لوريمر " : - " ولما فشلت هذه المحاولة وقررت السلطات البريطانية اعتبار العملية عدوانا بحريا من جانب شيخ الشارقة واعتباره مسؤولا مسؤولية الشريك عن ائتلافه لمدينة آبو ظبى ووقع معظمه بأيدى البدو من حلفاء الشيخ الموجود آنذاك فيها ممن كان استدعاهم لمعاونته فى الدفاع عن المدينة " (٢٤) .

وهذا يعنى ان لبريطانيا علاقة غير مباشرة ، وخاصة انها كانت على علم بخروج سعيد بن طحنون من جزيرة " قيس " ومجيئه الى الشارقة ثم الاستعدادات التى تمت للشيخ سعيد فى الشارقة بالقرب من الوكيل السياسى البريطانى ومن غير المعقول

انه لم يكن يعرف بتلك الاستعدادات وخاصة ان الوكيل كان يعرف كل صغيرة فى المنطقة كلها فكيف لا يعرف بمجريات الامور بالقرب من مقره فى الشارقة ثم انه غضت بريطانيا طرفها فى الفترة التى ابحرت قوات سعيد من الشارقة الى ابو ظبى ؟ الم تكن تعلم ؟ وسكوتها اثناء القتال الذى دار فى أبو ظبى وكذلك سكوتها عندما استقرت الاحوال للشيخ سعيد بن طحنون ، ولم تتحرك الا بعدما استعاد زايد ابن خليفه جزيرة ابو ظبى بمساعدة شيخ دهبى ومقتل سعيد ونظرا لفشل العملية وحتى لاتتهم بريطانيا بان تورطها قد يثير عدااء زايد بن خليفة عليها فانها فرضت غرامة على الشيخ سلطان بن صقر ومن ناحية اخرى كانت غير راضية بسياسة الزعيم القاسمى تجاه التواجد البريطانى فى الامارات العربية وكانت تريد تأديبه بطريقة غير مباشرة واتهمته بتورطه فى القضية فى حين انها لم تمنعه او تحذره قبل اشتراكه كما هو المتبع فى العادة وكانت بريطانيا تحذر قبل قيام اى شيخ بأى نوع من العمليات وبالعالي فان بريطانيا اظهرت نفسها بأنها لم تكن راغبة فى تولية سعيد الحكم ولذلك اتهمت سلطان بن صقر بهذا العمل وفرضت عليه غرامة كبيرة .

فى عام ١٨٥٧ قرر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الكابتن " جونز فيلكس " ايفاد بعثه الى ابو ظبى لتقصي الحقائق عن الاحداث التى جرت فى العام الماضى ووصلت تلك البعثة وباشرت عملها وشاهدت اثار الدمار والخراب فى ازقة وشوارع المدينة وتدمير سوق البلدة وجزءا من قصر الحصن (٢٥) .

كما استمعوا الى عدد من افراد السكان الذين اشتكوا من اصببت ممتلكاتهم بأضرار فادحة وانهم قد خسروا الكثير بسبب الهجوم الذى شنه سعيد ورجاله ثم قامت اللجنة باجراء التحقيقات اللازمة لمعرفة اسباب الهجوم والقوى التى ساندتها

وقد توصلت الى نتيجة بأن سلطان بن صقر كان وراء هجوم سعيد وبعدها ارسل المقيم البريطاني رسالة الى سلطان بن صقر يبلغه فيها بنتائج اللجنة (٢٦) . وفيها اتهامات موجهة اليه بمساعدته لسعيد بن طحنون ، ويخبره بأن الحكومة البريطانية قد حددت الغرامة التي يجب أن يدفعها الزعيم القاسمي ، مبلغ وقدره خمسة وعشرون ألف جنيه تدفع على أقساط على أن يعفى الزعيم القاسمي من بعضها اذا أثبت حسن تصرفاته حسب المفهوم البريطاني ولكن مسلكه ظل لا يبرر على الاطلاق انقاص شيء من الغرامة مماقررت معه الحكومة البريطانية الزام دفع المبلغ المقرر حتى آخر دفعة من تلك الاقساط في شهر مايو عام ١٨٦٠ (٢٧) .

(د) : زهد ابن عرار في العين عام ١٨٥٨ .

ومن اهم المشاكل الداخلية التي تصدى لها زايد بن خليفة بعد محاولة سعيد هو حركة التمرد التي شهدتها منطقة العين وكادت ان تنفصل عن ابو ظبي في عام ١٨٥٨ ، عندما حاول احد اكبر زعماء المنطقة وهو الشيخ ابن عرار استغلال فرصة الاضطرابات التي وقعت في ابو ظبي فأعلن الانفصال واستقلال مدينة العين والمناطق المجاورة لها وخضع له معظم زعماء المنطقة مثل الشيخ محمد بن احمد وكان على زايد ان يواجه هذه الحركة بحزم فتصدى لابن عرار وقاتله بشدة طيلة عام ١٨٥٨ ، وقد ارسلت اماره دبي بعض قواتها لمساعدة زايد في حربه ضد ابن عرار ووقعت خسائر كبيرة بين الجانبين ، كما قدم الزعيم النعيمي في البريمي الشيخ محمد ابن علي الحمود الشامي مساعدته لزايد ، وانتهت المشكلة عندما تدخل أحد وجهاء دبي السيد عبدالله بن حريز ، وبذل جهوده ووساطته لدى الطرفين فاستسلم ابن عرار بكرمه وجوده فقد قال احد الشعراء مادحا :- (٢٨)

حنت وتبغى ابن عرار يشيها
بينها وبينه حزم مايدرى بها
والقصيدة كناية عن الشاعر نفسه فهو يحدث ابن عرار على لسان الناقة اظهار
لكرمه . اما بقية زعماء منطقة العين فان زايد لم يتعرض لصلاحياتهم الخاصة
وأقرهم فى مناصبهم فقد كان فى " الجيمى " احمد بن هلال وفى " المعارض "
محمد بن مانع وفى " الهيلى " سعيد بن سلطان ، وبذلك استقر الوضع فى منطقة
العين وعادت الى سيادة اماره ابو ظبى .

ثانيا : تطور اماره ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفة

لقد شهدت اماره ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفة تطورا ملحوظا فى شتى
المجالات وكانت سياسته فى رفع مستوى بلاده وتطورها واضحة ولجج فيها
فعلا (٢٩) ، حيث انتعشت التجارة بين مدن وموانى اماره ابو ظبى وبين جيرانها من
مدن وموانى الامارات العربية وعمان وايضا التجارة الخارجية بدرجة اقل وشهدت
الزراعة اثناء حكمه توسعا ملموسا فقد كان زايد يهتم شخصا بها ، كما ساهم فى
انجاز العديد من المشاريع وخاصة فى منطقة العين كماركز حكمه بالادارة القوية
والرجال المخلصين اما علاقته بالقوى المجاورة (٣٠) فقد شهدت الصداقة والاحترام
المتبادل اضافة الى شخصية زايد المرموقة بين قبائل المنطقة وسوف نتطرق الى هذه
الامور : -

(١) : الاقتصاد :

لقد كانت اقتصاديات الامارة فى تلك الفترة الزمنية بسيطة وتعتبر اقتصاد بدائى

يعتمد على الجهد الجسماني ولكن مع ذلك استطاع زايد بسياسته وحسن ادائه ان يشجع مختلف الأنشطة الاقتصادية في الامارة واستطاع ان يكيف امارته مع هذه الموارد الاقتصادية المتواضعة .

(أ) : الغوص على اللؤلؤ :

وعند التطرق بالبحث على اقتصاديات امارة ابو ظبي في عهد زايد بن خليفة تبرز التجارة والغوص على اللؤلؤ وبناء السفن من اهم مصادر الدخل الرئيسية بجانب الزراعة وتبرز صناعة اللؤلؤ في المقدمة لما كانت تساهم به بنسبة عالية في الدخل القومي لاقتصاد ابو ظبي .

وكانت صناعة اللؤلؤ في عهد زايد العمود الفقري بالنسبة للاقتصاد الوطني وكان يشتغل بصناعة اللؤلؤ بصورة مباشرة او غير مباشرة معظم سكان امارة ابو ظبي وان صناعة اللؤلؤ كانت تساهم بنسبة كبيرة من مجموع الدخل القومي ويأتي الباقي من القطاعات الاخرى كالزراعة والتجارة والرعى وصيد الاسماك .

وساهم العنصر النسائي في عملية الغوص ذاتها ولكن على نطاق محدود وخاصة بالنسبة لسكان الجزر القريبة من المياه الضحلة حيث كانت النساء تعمل بمعزل عن الرجال ، واقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر يلعب فيه القطاع الخاص الدور الرئيسي بينما يكون دور القطاع العام محدود . (٣١)

وكان سكان الامارة يعتمدون على دخل اللؤلؤ لشراء حاجياتهم الضرورية واليومية من الارز والشاي والسكر والبن والمنسوجات القطنية والملابس والخشب وهذه المواد غالبا ماكانت تستورد من السواحل الهندية ونتيجة للاستقرار الذي شهدته الامارة في عهد زايد انتعشت الحياة الاقتصادية وخاصة بالنسبة لتجارة

اللؤلؤ والتي كانت لها سوق رائجة فى عواصم الدول الاوربية والهند واصبح لآبو ظبى من السفن والصيادين فى مفاصات اللؤلؤ " والهيرات " (٣٢) اكثراً مما كانت تملكه آية امارة اخرى وكانت نسبة صغيرة فقط من الصيادين تتألف من المحترفين اما الغالبية العظمى فكانت من قبائل البدو التى تقطن مختلف المناطق والاراضى التابعة لامارة آبو ظبى (٣٣) . ومن اهم موانئ اللؤلؤ فى امارة آبو ظبى : -

(١) : جزيرة دلمأ :

كانت اهم واغنى " المفاصات " و " الهيرات " للؤلؤ فى الخليج العربى تقع فى المنطقة الممتدة بين سواحل آبو ظبى وشبه جزيرة قطر ، ونظراً لوقوع جزيرة " دلمأ " فى وسط هذه المنطقة فى مياها آبو ظبى الاقليمية فانها اصبحت تتمتع بمركز هام واهتمام خاص وكانت تعتبر من اكبر مراكز الغوص فى وسط " الهيرات " فى مياها الخليج العربى وكان يتم عن طريقها تقديم المؤن والاحتياجات الضرورية اللازمة لعملية الغوص ويقصدها كل من صائدى اللؤلؤ وتجاره بين فترة واخرى فى اثناء موسم الغوص للتزود بماء الشرب والطعام وبيع وشراء مآلديهم من اللؤلؤ وبذلك اصبحت جزيرة " دلمأ " من اهم مراكز تجارة اللؤلؤ فى الخليج العربى كما كان يلجأ اليها عندما تشتد الرياح لوقوعها قرب " الهيرات " او " المفاصات " .

وجزيرة " دلمأ " مأهولة بالسكان طيلة فصول السنة ولكن عدد سكانها يرتفع فى موسم الغوص ويتصاعد الى حوالى عشرة اضعاف السكان فى غير موسم الغوص ثم يعودون الى عددهم الطبيعى فى فصل الشتاء وينشط سوقها التجارى فى موسم الغوص فيقصدها تجار اللؤلؤ من مختلف انحاء الخليج العربى والدول القريبة مثل الهند وان حركة البضائع والتجارة بمختلف انواعها تنشط فى جزيرة " دلمأ " اثناء

موسم الغوص وتكاد تكون الجزيرة من اهم الموانى فى الخليج العربى لصيد اللؤلؤ وتجارته^(٣٤) بعد البحرين والكويت .

(٢) : جزيرة ابو ظبى :

تأتى جزيرة ابو ظبى فى المرتبة الثانية بعد جزيرة " دلمى " من حيث اهميتها فى التجارة والغوص على اللؤلؤ ويقصدها العديد من تجار اللؤلؤ فى موسم الغوص وقيمون فيها طيلة الموسم للمتاجرة باللؤلؤ فيما بينهم من جهة والمتاجرة مع تجار ابو ظبى من جهة اخرى ثم تأتى جزيرة " غاغة " ولكنها لاترقى فى الاهمية جزيرتى " دلمى " و " ابو ظبى " ^(٣٥) وهناك موانى يقصدها صائد اللؤلؤ للالتجاء والاحتماء من الرياح والعواصف فقط وهذه الموانىء والجزر غير مأهولة بالسكان واهمها " جزيرة دبية " ، " جزيرة غشا " ، " جزيرة الصير " ، " جزيرة حالة مبرز " ، " جزيرة زركوه " ، " جزيرة فشت " ، " جزيرة أزرنه " .

وقد بلغ عدد السفن العاملة فى اسطول ابو ظبى بالنسبة لسفن الامارات الاخرى حوالى ٤١٠ سفينة والشارقة ٣٦٠ سفينة ودبى ٣٣٥ سفينة ورأس الخيمة ٧٠ سفينة ولعجمان ٤٠ سفينة وكانت ابو ظبى تحتل الدرجة الخامسة فى الشراء وفى قوة الاسطول البحرى العامل فى الخليج العربى وعبر البعاز^(٣٦) .

(ب) : اقتصاد اللؤلؤ :

وينقسم اقتصاد اللؤلؤ الى القطاع العام والقطاع الخاص من حيث دوره فى تنمية الاقتصاد الوطنى والدخل القومى لامارة ابو ظبى .

١: دور القطاع الخاص فى اقتصاد اللؤلؤ:

ان اقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر ولذا فان القطاع الخاص يلعب دورا مهما، وان تجارة اللؤلؤ تعتمد على عاملى العرض والطلب مما جعل اسعارها عرضة لتقلب الارتفاع والانخفاض مما يعرض الاقتصاد القومى لعدم الاستقرار ، ويشكل الفرد العنصر الأكثر أهمية بالنسبة لاقتصاديات اللؤلؤ وكان يتراوح متوسط الدخل السنوى للفرد العامل فى صيد اللؤلؤ بحوالى ١٥٠ روبية هندية والتاجر كان يتراوح دخله السنوى ما بين ٥٠٠ روبية وألف روبية تقريبا (٣٧) .

٢: دور لقطاع العام فى اقتصاد اللؤلؤ :

ويأتى دور القطاع العام أو الحكومى فى اقتصاديات اللؤلؤ فى المرتبة الثانية ومع ذلك فان دخل الامارة الرئيسى يأتى مما يتم جمعه من الضرائب على صناعة اللؤلؤ وتفرض الحكومة سهم بحار واحد على كل سفينة بغض النظر عن الكبر او صغر السفينة وترسل الحكومة ممثلا عنها فى موسم الغوص الى الموانىء الرئيسة للؤلؤ ويقوم هذا الممثل بجمع ما يمكن جمعه من اموال عينية ومادية وخاصة من تجار اللؤلؤ كل حسب مقدرة المادية .

ويمكن القول بأن " مفاصات " اللؤلؤ فى ابو ظبى كانت مسموح بها لجميع العاملين فى الغوص سواء كانوا من امارة ابو ظبى او خارجها ولا يحق لأى فرد او قبيلة ان تستأثر بأحد هذه المفاصات دون غيرها ويدفعوا مبالغ معينة كضريبة الدخل الى ممثل حاكم ابو ظبى والذي كان يتخذ من جزيرة " دلمة " مقرا له ، وهذا ماأضاف عوائد جديدة للدخل القومى وساعد على نمو وازدهار امارة ابو ظبى الى جانب الجهود الذى بذلها زايد بن خليفة فى الحفاظ على هذه المكانة الاقتصادية لعملية

الفوص واستخراج وتجارة اللؤلؤ حتى أصبح هذا العصر الذهبي لتجارة اللؤلؤ (٣٩) .
وكان يقال بأن أحسن أيام الرفاه والرخاء الذى عم ابو ظبى فى تاريخها كان
يعرف باسم عهد صيد اللؤلؤ او عصر اللؤلؤ وظهر فى الواقع خلال النصف الثانى
من حكم زايد بن خليفة واستمر هذا العصر المزدهر اثناء عهد ابنائه الذين خلفوه فى
الحكم واستمروا فى تشجيع وتطوير هذه الصناعة واعداد السفن وامتدادها بالرجال
ذوى الخبرة بالفوص (٤٠) .

(ج) : الزراعة :

تعتبر الزراعة من أقدم المهن فى ابو ظبى وخاصة فى منطقة العين وفى واحات "
ليوا " حيث التربة الصالحة للزراعة وتتوفر المياه العذبة للرى . ومنطقة العين الاولى
من حيث اهميتها للزراعة وكان سكانها يعملون بالزراعة اثناء حكم زايد من
النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالطرق القديمة حتى بداية النصف الثانى من
القرن العشرين حيث اصبحوا بعدها يستخدمون الآلات الحديثة.

وتزرع فى ابو ظبى أنواع عدة من الاشجار والنباتات تتناسب والظروف الطبيعية
والمناخية ونوعية التربة ، واهم هذه الاشجار النخلة واهم النباتات البرسيم فالنخلة
كانت اولى الاشجار التى زرعت منذ القدم فى أمانة أبو ظبى وخاصة منطقة العين
و" ليوا " . وفى عهد زايد بن خليفة كان السكان يعملون فى زراعة النخيل فى
أماكن محدودة مثل واحات " ليوا " التى قدر بها ثلاث وثلاثون الف نخلة وقرى
منطقة العين حوالى ثلاثون الف نخلة تقريبا (٤١) .

وكان زايد بن خليفة محبا للزراعة وذلك تمشيا مع تقاليد الأسرة فى رعاية شؤون
الزراعة والرى فى منطقة العين وخاصة منطقة الجاهلى وعلى الحدود الجنوبية الغربية

وهي منطقة صالحة للزراعة اضافة الى مناطق اخرى ولذا قام بانشاء بعض المزارع هناك كما نشطت مجموعات من قبائل ابو ظبي وخاصة بنى ياس والعوامر والظواهر في بناء المزارع والبساتين وتعمير المنازل في منطقة العين ونمت هذه المنطقة بسرعة في عهد زايد الى درجة اصبحت معها تنافس مدينة البريمي العمانية المجاورة لها ، وقرر زايد تقوية نفوذه واعطاء المنطقة اهمية فقام ببناء " حصن الجاهلي " وسط مزارع وقرى منطقة العين^(٤٢) .

وقام زايد باعادة حفر " الجاهلي " الدائري المندثر وقد استمر العمل في اصلاحه ستة عشر شهرا ، كما أنشأ ابنه الأكبر الشيخ خليفة بن زايد مزرعة ومستوطنة جديدة غرب قرية " الهيلي " واطلق عليها اسم " المسعودي " وحفر لها فلجا هو فلج " المسعودي " وقد استمر هذا الفلج حوالي اربعة عشر شهرا^(٤٣) .

(د) : التجارة :

كان سكان ابو ظبي يمتنون التجارة منذ القدم ويرجع ذلك الى طبيعة اماره ابو ظبي وموقعها على الخليج العربي بشواطئ طويلة تصل الى حوالي ٥٠٠ كيلو متر اضافة الى الجزر العديدة المتناثرة في مياه الخليج العربي والتي كان بعضها مأهولة بالسكان ، وكانوا يمتلكون الاساطيل التجارية الشرعية ونقلوا عليها بضائعهم المحلية مثل اللؤلؤ والاسماك المجففة والتمور والجلود الى البلدان المجاورة ، ومقابل ذلك كانت تعود منها حاملة لابو ظبي ما تنتجه تلك البلدان من مواد غذائية ومنسوجات قطنية ، وكانت تجارة اللؤلؤ تشكل العمود الفقري بالنسبة للتجارة الخارجية^(٤٤) لامارة ابو ظبي في عهد زايد بن خليفة .

اما في المناطق الداخلية فنظرا لارتباطهم بالزراعة وخاصة منطقة " العين " و "

ليوا" فانهم كانوا يتاجرون بالمنتجات الزراعية مع سكان السواحل والبلدان المجاورة لامارة ابو ظبي وكانت قوافل الجمال هي الوسيلة الرئيسية لنقل منتجات تلك المناطق الى المناطق الاخرى التي تحمل التمر والفحم النباتي والمنتجات الزراعية وتعود محملة بالبضائع المستوردة من الخارج الى الموانئ الساحلية اضافة الى منتجات المدن الساحلية مثل الاسماك المجففة والسكان البدو الرحل فقد كانوا يمتنون الرعى ولذلك تاجروا بالابل والاغنام والماعز والجلود والوبر والصوف ومن اهم الاسواق الرئيسية في اماره ابو ظبي : سوق مدينة ابو ظبي وسوق مدينة العين وتتم فيها المتاجرة بين السلع المستوردة من الخارج والمعدة للتصدير، وكانت تفرض بعض الرسوم الجمركية التي لا تتعدى ٢٪ على البضائع المستوردة اما البضائع المصدرة فكانت معفاة من كافة انواع الضرائب . (٤٥)

(٢) : بناء قلعة الجاهلي :

اهتم زايد بالبناء والعمران حيث اقام العديد من الحصون والقلاع وغيرها من المرافق العامة وقام باصلاح وتجديد الافلاج وجعل عليها شبكة ري للمزارع والبساتين ومن اهم اعماله في فن البناء والعمارة هو تشييد وبناء قلعة " الجاهلي الكبير " والتي استغرقت بنائها عدة اعوام وقد افتتحها زايد رسميا وسجل على مدخلها تاريخ البناء عام ١٣١٦هـ الموافق ١٨٩٨ م وكتبت هذه الابيات على مدخل القلعة (٤٦) :

فتح باب الخير في باب العلا	هل فيه السعد وبالعليا المنيفه
فتهان العز قالت ارخو	دار جد شاد زايد بن خليفه

(٢) : التنظيم الاداري والسياسي :

لقد اهتم زايد بن خليفه بالشؤون الادارية والسياسية وكان يعتمد على الرجال

المخلصين له فى مختلف المراكز وفى بداية حكمه كان يعتمد على اخوه الشيخ ذياب بن خليفه وابن عمه خليفه بن هلال ، ولكن بعد مقتله فى معركة الجرف عام ١٨٧٣ ، أصبح يعتمد كثيرا على ابنه الاكبر الشيخ خليفه بن زايد فى جميع الامور الداخلية كما انه تولى قيادة جيش ابو ظبى فى كثير من المعارك المهمة وخاصة المعارك التى كانت مع قطر وكان زايد يعتمد على ابنه خليفه فى المهمات السياسية الخاصة الى حكام الامارات العربية وسلطين عمان فى مسقط وايضا فان الشيخ خليفه بن زايد لعب دورا كبيرا فى حل الخلافات والمنازعات التى كانت تنشب بين القبائل ولسمعته بينهم قانهم كانوا يستجيون لنصائحه واقواله ويمكن القول بأن خليفه كان الساعد الاول والايمى اثناء فترة حكم زايد بن خليفه اما الرجل الثانى بعد الشيخ خليفه فقد كان احمد بن هلال والذى شغل منصب والى منطقة العين ومثلا لزايد ، وكان يعتمد عليه زايد فى كثير من امور تلك المنطقة ومعظم المراسلات كانت تتم عن طريقه وانه كان همزة الوصل بين زايد ومقر الحكم فى مدينة ابو ظبى ومنطقة العين والمناطق الشمالية من عمان . واستمر فى منصبه حتى مجىء حكم حفيده الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد ابن خليفه.

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفه فى حكمه واستقرار امارته :

لقد امتد حكم زايد لفترة طويلة حوالى نصف قرن من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ ، وذاع صيته ليس فى الامارات العربية وانما خارجها^(٤٧) . ووصلت اماره ابو ظبى فى عهده اقصى درجات اتساعها ونفوذها وامتد سلطانه على الساحل حتى خور العديد غربا اما فى الداخل فكان سلطان عمان قد فوضه لادارة اراضيه

فى اقاليمه الشماليه مثل انظاره فوصل نفوذه حتى مدينه " عبرى " وبذل زايد جهوده لتحقيق تحالف بين قبائل وحكام الامارات العربيه تحت لوائه وكاد ينجح لولا تنبه الحكومه البريطانيه لاتساع نفوذه وخططه فى الامارات العربيه فوقفت فى وجه زايد وضد طموحاته لتحقيق الوحدة وافشلتها بريطانيا لرغبتها فى ابقاء الحاله القائمه من التجزؤ والتمزق كماهى عليه الحال وكان زايد قد ورث اماره تنمو وتتسع وتهياله الى جانب ذكائه وقوه شخصيته وشجاعته وفروسيته^(٤٨) ، عدة عوامل للنجاح مما تركت بصماته واضحه فى تاريخ الامارات العربيه الحديث وهى كمايلى :

(١) : عدم وجود اسباب للمواجهه مع بريطانيا :

لم تكن هناك اسباب للمواجهه بين ابو ظبى وبريطانيا فى البحر كتلك التى حدثت بين القواسم وبريطانيا فى الوقت الذى شكلت قبائل ابو ظبى قوه برية فى " الظفرة " و " العين " ومنطقه " اكدن " جنوب " ليوا " وكان القواسم فى صدام مع البريطانيين فى الخليج العربى فى اوائل القرن التاسع عشر ، سببا فى اضمحلال نفوذهم وتجزؤ امارتهم كان نشاط قبائل ابو ظبى بعيدا عن الصدام مع البريطانيين ، احد اسباب نفوذهم كقوه برية محليه كبيره فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت زعامة زايد^(٤٩) ، ويقول " كيلى " :- " ان قبائل ابو ظبى كانوا يمثلون مصدر القوه للبوفلاج ولذا فعندما شرعت القوه البحريه للقواسم تتضاءل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظلت القوه العسكريه " للبوفلاج " سليمه لم تتأثر ووصلت هذه القوه ذروتها فى عهد زايد بن خليفه " (٥٠) .

(٢) : الصداقه التقليديه بين ابو ظبى وعمان :

لقد ورث زايد عن اجداده العلاقه والصداقه التقليديه عبر الاحداث التاريخيه مع

سلاطين عمان ، فبينما كان القواسم منذ نشأتهم فى عداء شديد مع حكام وسلاطين البوسعيد فى عمان ، كان " البوفلاج " اصدقاء لهم وفى الوقت الذى كان القواسم يمثلون زعامة الحزب الهنائى المتحالف مع حكام عمان وكانت للصدقة الشخصية والقوية بين زايد وفيصل بن تركى سلطان عمان دورها فى اتساع نفوذ زايد بين اقاليم عمان الشمالية فى " الظاهرة " وحتى بادية الامارات وذلك عندما اسند سلطان عمان ادارة تلك الاراضى لزايد بن خليفة حتى مدينة عبرى كما هيأت الأحداث الكبرى لزايد فى وسط وشرق الجزيرة العربية الامن فى منطقة البريمى الذى ساعده على انجاز بعض طموحاته فى الامارات العربية ويقول " د . مرسى " (٥١) :-

" لقد ربط القواسم تاريخهم وازدهارهم مع الحركة الاصلاحية ودولة آل سعود فى نجد لهذا ما أن سقطت الدرعية عام ١٨١٨ حتى كانت الحملة البريطانية تدك قاعهم عام ١٨١٩ اما " البوفلاج " فقد اكتسبوا اسما لمقاومتهم هم واهالى ابو ظبى وهم قليلو العدد - جحافل الحملات السعودية وقد ساعدت اماره ابو ظبى صحراؤها الواسعة الممتدة فى التغلب على القوات السعودية وهى تعبرها فى طريقها الى عمان ومن ابرز مواقعهم مع السعوديين معركة العانكة ١٨٤٩ أيام الشيخ سعيد ابن طحنون وقد عاصر الشيخ زايد بن خليفة فترة افول الدولة السعودية الثانية الذى بدأ بوفاة اميرها فيصل بن تركى عام ١٨٦٥ وانتهت هذه الدولة فيما ترك الامير عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز الرياض لاجئين الى الكويت عام ١٨٩٢ ."

(٣) : خبرة زايد بن خليفة بشؤون الامارات العربية :

ان اقامة زايد فى الامارات الشمالية وخاصة فى دبی والشارقة اكسبته معرفة كبيرة بتلك المناطق فى ايام صباه الاولى وفى شبابه مما كان له ابلغ الاثر فى اكتساب

الخبرة والحنكة السياسية نظرا لاختلاطه بالشيوخ والتجار والموظفين البريطانيين مما انعكس ذلك عليه بعد تولى مقاليد الحكم والادارة فى اماره ابو ظبى خلفا للشيخ سعيد بن طحنون فان زايد لم يجد الطريق ممهدا ولم يخل عصره من احداث جسام اثرت فى تاريخ الامارة ولكنه بحنكته ودرايته السياسيه استطاع ان يزيل تلك العقبات ويتخطى الصعاب باقامة علاقات الصداقة مع القواسم^(٥٢) .

ففى البداية حدث صدام بينه وبين القواسم وقتل فيها الشيخ خالد بن سلطان اثناء مبارزته مع زايد وكان الشيخ خالد من اعلام حكام القواسم وفارسا من فرسانهم وكانت هذه بداية الصعود لنجمه^(٥٣) ، واستطاع بعدها ان يعقد حلفا وصداقة قوية مع القواسم والتي استمرت طوال فترة حكمه . كما ورث زايد الصداقة والعلاقة المميزة مع حكام دبی من " البوفلاسه " الذين كانوا عضدا له فى ايام الشدة والازمات وكان زايد خير عون لهم وساعدهم فى جميع احتياجاتهم . وبهذه العوامل استطاع زايد بن خليفه ان يصبح من اقوى حكام الامارات العربية فى تلك الفترة ويحكم هذه المدة الطويلة ويسود عهده الامن والاستقرار والنمو والتقدم ليس فى اماره ابو ظبى وانما فى معظم ارجاء الامارات وسلطنة عمان وهذا راجع الى سياسته وحكمته فى شؤون تلك المنطقة .

رابعا : بعض ما قيل عن شخصية زايد :

لقد قيل عن شخصية زايد الكثير من قبل ابناء المنطقة وشيوخ القبائل وحكام الامارات والاداريين والمسؤولين البريطانيين وغيرهم ولكننا سوف نعرض هنا بعض ما قيل عن هذه الشخصية من قبل المؤرخين والكتاب الذين كتبوا فى التاريخ الحديث عن المنطقة والبعض منهم عاصره فى تلك الفترة وفى ما يلى هذه الاقوال :-

١ = يقول الكاتب اليمنى عوض العرشانى (٥٤) :

" لقد لعب دورا بارزا فى حياة ابو ظبى القبلية والسياسية والمشىخات المجاورة وقد صاهر لاسباب سياسية مجموعة من قبائل الساحل العمانى وكان مشهورا بالقوة والشجاعة والحزم والجود والكرم والسماحة والحلم والشهامة والرحمة وتلك من الصفات العربية الحميدة التى اتسم بها اجداده العرب وهذه الصفات المعنوية بالاضافة الى الصفات الجسدية المتمثلة بضخامة الجسم وكثافة اللحية وطوله الفارع".

٢ = اما "جون دانيال" الذى كتب عن امارة ابو ظبى فيقول :- (٥٥)

" يعتبر زايد بن خليفة من اعظم الحكام فقد حكم اطول فترة فى تاريخ امارة ابو ظبى وحافظ على وحدة اراضى امارته من أية اعتداءات خارجية " .

٣ = اما العقيد " هايلز" المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط فقد قام

فى عام ١٨٧٥ بزيارة الى واحة البريمى ليضيف دليلا جديدا الى الدلائل الكثيرة القائمة على مدى قوة زايد الكبير فقد ارسل تقريراً الى لندن جاء فيه (٥٦) :-

" ان القبيلة الرئيسية هى قبيلة بنى ياس وان رئيسها الشيخ زايد بن خليفة وهو رجل قوى الشخصية وهو الرجل الوحيد الذى يتمتع حقيقة بالنفوذ والسلطة فهو وقبيلته يتزعمان كل المناقشات فى البريمى " .

٤ = ويذكر لنا " بيرسى كوكس " الذى عاصر زايد وكان معتمدا

سياسيا فى مسقط فى عام ١٩٠٢ ثم اصبح مقيما بريطانيا فى الخليج العربى وقد زار ابو ظبى مرتين عندما اصبح مقيما والتقى فى المرتين بزايد فيقول : (٥٧)

" نعتقد ان زايد يقوم بعمله بارادة الله وان الايمان وحده هو مصدر قوته وحالفه

الحظ كما حالف اسلافه فى تقويم الانكليز الصابرين لقوته وكان اكثر حظاً فى منازعاته او مصاعبه المحلية القليلة مع جيرانه السعوديين حول واحة البريمى الواقعة على حدود عمان وابو ظبى والعربية السعودية لقد بنى زايد الكبير نفوذ بنى ياس فى هذه الواحة مع ان هناك قبائل اخرى أكبر عددا كانت تدفع الجزية راضية لزايد". ثم يقول :

" ظل زايد الكبير ابرز حاكم فى شرق الجزيرة العربية لثلاثين سنة وامتد نفوذه فى كل الاتجاهات وحالف الحظ ايضا بنى ياس عموماً عندما بدأ زعماء القبائل البعيدة عنهم اميالا يطلبون وساطة زايد الكبير فقد عرف انه رجل ذو صداقات كثيرة بين البدو وانه صديق الجميع واستمد قوته باستمرار من اصوله وكان يتمتع بعاطفة عفوية طبيعية تجاه المعوزين والمضطهدين وقد جنى بنو ياس الخير من امتنان القبائل الاخرى له " .

٥ = ويقول " كلارنس مان " والذي عاش فى الشرق الاوسط وهو ضابط ومؤرخ امريكى (٥٨) :

" بأن الشيخ الحالى لابوظبى ، زايد بن خليفة يحكم اماره حدودها مترامية الاطراف وهو اقوى شخصية فى امارات الساحل المتصالح ويمتد سلطانه الى البريمى وعبرى فى سلطنه مسقط ثم يقول :-

" كان الشيخ زايد من الحكام الذين يزداد سمعتهم فى الشرق الاوسط فى تلك الفترة " .

٦ = اما المؤرخ البريطنس " جى . بى . كيلس " فيقول (٥٩) :

" بأن الطبيعة المطلقة لصلاحيات زايد فى المناطق الواقعة بين " الظفرة " و
" الظاهرة " لم تتعرض لتحدى فى السنوات الثلاثين الاخيرة من حكمه باستثناء
هجمات شيخ قطر على " ليوا " فى الثمانينات من القرن الماضى وعودة آل سعود
الى الحكم فى نجد فى نهاية القرن . ولم يسبق لأى من حكام البوفلاج او غيرهم من
شيوخ الساحل ان يارس نفس السلطان الذى وصل اليه زايد فى شرق الجزيرة
العربية ولا يرجع السبب فى هذا الى شخصية الشيخ زايد وكفايته وحدهما ولا الى
الظروف المحددة لهذه الفترة كعدم وجود قوة وهابية طاغية فى نجد وانما يرجع الى ان
ابو ظبى كانت دائما القوة الاقليمية القيادية بين مشيخات الساحل .

٧ = ويقول " حمدى زمام " مؤلف كتاب القائد والمسيرة :- (٦٠)

" ولقد قدر لهذا الحاكم ان يدير شؤون اماره ابو ظبى مدة طويلة ما بين (١٨٥٥ -
١٩٠٩) كما قدر له ان يقوم بدور كبير فى حياة اماره ابو ظبى او فى تاريخ
ساحل عمان حتى لقبه الجميع اجلالا وتقديرا " بزايد الكبير " بعد ان اصبح بلامنازع
اقوى شيوخ الامارات المتصالحة وتقدمت البلاد فى عهده الى مصاف القوى الكبرى
بفضل ادراكه للمتغيرات السياسية فى المنطقة " .

خامسا : وفاة زايد عام ١٩٠٩

وفى عام ١٩٠٩ توفى زايد الكبير وزعيم بنى ياس وقائد البوفلاج وزعيم
القبائل الهنائية بعد ان حكم اربعة وخمسين عاما ثم دفن فى مقبرة تقع على سفح تل
رملى صغير فى منطقة " البطين " قرب مركز شرطة النجدة الان وقد رثاه الشعراء
من كل حذب وصوب وهذا الزعيم الذى دانت له ابو ظبى والاقسام الشمالية من

سلطنة عمان فى منطقة " الظاهرة " وكانت كلمته مسموعة لدى الشرقيين فى " الفجيرة " وحكام دى والشحيين فى منطقة رؤوس الجبال " . وبلغت القوة العسكرية لابوظبى اقصاها فى عهده ولعل بعض هذه الابيات للشاعر النبى على بن دين الكلبى تروى لنا لمحات براقة من مناقبه :- (٦١)

بلغ سلامى والتحية بتعريف	ولا تستوى راعى حكى هسادى
رده بالى من بيته على بوحياين معاطيف	بوشارع بين اللحية انقادى
ياولد مثته اليود والكرم والضيف	يدك على شيخ الحضر والبوادى
قم افشر وأقبل الواصيف والصيف	قم اسرحوا وانتوا هداكم الهادى
مايلحق دونه عبير مواقيت	ودونه دراويرز عليها رصادى
دونه غدير السلال سوافنا طيف	وحزب البحر دونه سوى سوادى
هل بالضيوف المأخذ وأبا المساليف	ولا هانهم وقت سفينه شدادى
صلاة رى عهد لحلام والطيف	محمد المبعوث يوم الزحامى

لقد توفى زايد الكبير وترك شؤون اماره ابو ظبى وهى مثال للأمن والنظام امانة فى ايدي ابنائه واحفاده من بعده فقد اجتمع مجلس " البوفلاج " ومعهم شيوخ واعيان بنى ياس لانتخاب الحاكم الجديد ففوضوا الأمر الى ابنه الاكبر الشيخ خليفة ابن زايد ولكنه لم يكن راغبا فى الحكم والسيادة بل كان يفضل ان يعيش هادئا فى مزارعه فى مدينة العين وضواحيها فقرر المجتمعون ان تؤول المشيخة الى ابنه الثانى طحنون ، الذى حكم ثلاث سنوات ١٩٠٩ - ١٩١٢ وبعد وفاته عرض الحكم اماره ابو ظبى على الشيخ خليفة بن زايد مرة الثانية ولكنه رفض مثلما رفضها فى المرة الاولى (٦٢) فتولى أخوه حمدان الذى حكم فى الفترة من ١٩١٢ - ١٩٢٢ وبعدها حكم الشيخ سلطان بن زايد فى الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٢٦ وهو والد

الشيخ زايد حاكم ابو ظبي ورئيس دولة الامارات وبعد وفاة الشيخ سلطان خلفه في الحكم اخو الشيخ صقر بن زايد والذي حكم من عام ١٩٢٦ الى ١٩٢٨ وبعد ذلك تولى الحكم الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد اكبر ابناء الشيخ سلطان بن زايد سنا فقد حكم ثمانية وثلاثين عاما من عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٦٦ ثم تولى الحكم شقيقه الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفة في السادس من اغسطس عام ١٩٦٦ حاكم اماره ابو ظبي ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حاليا .

الهوامش :

- ١ - د . حسين محمد البهارنة - دول الخليج العربى الحديثه ص ٢٤
(2) Suzanne St. ALbans - GreenGrows The Oil - p.36
- ٣ - د . جمال زكريا قاسم - دولة الامارات العربية المتحدة (دراسة مسحية شاملة) ص ٤٧
(4) John Daniels - Abu Dhabi aportrait - p . 25
- ٥ - حمدى تمام - زايد بن سلطان ال النهيان ص ٢٤
- ٦ - فالح حنظل - الفصل فى تاريخ دولة الامارات العربية المتحدة ج٢ ص ٥٦٩
- ٧ - ج . ج . لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخى ج٢ ص ١١٦٤
(8) John Daniels - op . cit p 25
- ٩ - د . فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ج٢ ص ٨١ .
- ١٠ - د . محمد مرسى عبدالله - دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ١٣٥
- ١١ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧١
- ١٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٥
- ١٣ - دار الهلال - بلادنا العربية - ابو ظبى ص ٥٧
- ١٤ - كلود موريس - صقر الصحراء ص ٢٤
- ١٥ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٢٥
(16) : John Daniels - op . Cit . p . 25
- ١٧ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٤
- ١٨ - فالح حنظل - المرجع السابق ج٢ ص ٥٧٦
- (19) : Calvin H . Allen . Jr - Sayyids , Shets and Suitans p . 111

٢٠ - فالح حنظل - المرجع السابق ج٢ ص ٥٧٦

٢١ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٥

٢٢ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧٧

٢٣ - فاح حنظل - نفس المرجع ص ٥٧٨

٢٤ - د . فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص ٨١ .

٢٥ - جون - بى - كيلي - بريطانيا والخليج ج٢ ص ٢١٣

٢٦ - فالح حنظل - المرجع السابق ج٢ ص ٥٨١

٢٧ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ج٢ ص ١٠٩٤

٢٨ - فاح حنظل - المرجع السابق ج٢ ص ١٠٩٤

(29) : John Daniels Op.cit P . 25 .

٣٠ - بالنسبة للأمور السياسية والعلاقات الدولية يمكن الرجوع الى كتابنا عن

علاقة زايد بالقوى المجاورة

٣١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبى قديما وحديثا ص ٣٠

٣٢ - " الهيرات " جمع كلمة " الهير " وهى مناطق خصبة فى قاع البحر

يتواجد فيه محار اللؤلؤ بكثرة وهى عبارة عن حقول لمحار اللؤلؤ فى مياه الخليج

العربى واهم " الهيرات " توجد قرب سواحل الامارات العربية المتحدة والبحرين

والكويت وبعض الجزر فى الساحل الشرقى من الخليج العربى وكذلك يطلق عليه

عادة " المغاصات " .

٣٣ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٧

٣٤ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

٣٥ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

- ٣٦ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى فى مسيرة التقدم ص ١٠
- ٣٧ - مانع سعيد العتيبه - المرجع السابق ص ٣٠
- ٣٨ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٣٠
- ٣٩ - عوض العرشانى - حياة زايد ص ٨٥
- ٤٠ - وزارة الاعلام والثقافة - المرجع السابق ص ١٠
- ٤١ - وزارة الاعلام والثقافة نفس المرجع ص ١٠
- ٤٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٨ .
- ٤٣ - مركز الوثائق والدراسات - ابو ظبى بين الامس واليوم ص ٣٢
- ٤٤ - مانع سعيد العتيبه - المرجع السابق ص ١٣٦
- ٤٥ - مانع سعيد العتيبه نفس المرجع ص ٨٢
- ٤٦ - مركز الوثائق والدراسات - المرجع السابق ص ٣٢ .
- ٤٧ - Rose marie Said Zahlan , The Origins of the united Arab Emirats , p . x . , 111 .
- ٤٨ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٦
- ٤٩ - د . محمد مرسى عبدالله - نفس المرجع ص ١٣٦ .
- ٥٠ - جى - بى - كىلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص ١٥٠
- ٥١ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧
- ٥٢ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٦
- ٥٣ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧
- ٥٤ - عوض العرشانى - المرجع السابق ص ٨٤ .

(55) John Daniales - O P . Cit . p . 35

٥٦ - كلود موريس - المرجع السابق ص ٢٥

٥٧- كلود موريس - نفس المرجع ص ٢٥

(58) : Clarence C . Mann - Abu Dhabi p . 62

٥٩ - جى . بى . كيلى - المرجع السابق ص ١٦٤

٦٠ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٥

٦١ - حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٥

٦٢- حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٦

المراجع باللغة العربية :

- ١ - حمدى تمام - زايد بن سلطان النهيان - القائد والمسيرة - ابو ظبى ١٩٨١
- ٢ - جى .بى . كيلي - (١) : الحدود الشرقية للجزيرة العربية - ترجمة خيرى حماد - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧١
- (٢) : بريطانيا والخليج - ترجمة محمد أمين - وزارة التراث القومى والثقافة مسقط ١٩٧٩
- ٣ - ج - ج - لوريمر - دليل الخليج - ترجمة باشراف ديوان حاكم قطر - الدوحة - الطبعة الثانية - السنة غير مكتوبه
- ٤ - حسين محمد البحارنه - (دكتور) دول الخليج العربى الحديثه - اصدار شركة التنمية والتطوير - بيروت ١٩٧٣ .
- ٥ - جمال زكريا قاسم (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة - معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٨ .
- ٦ - دار الهلال - بلادنا العربية - " ابو ظبى " - القاهرة
- ٧ - كلود موريس - صقر الصحراء - منشورات وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى ١٩٧٥
- ٨ - عوض العرشانى - حياة زايد - القاهرة ١٩٨٠
- ٩ - فالح حنظل - الفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة الجزء الثانى - لجنة التراث والتاريخ ابو ظبى ١٩٨٣
- ١٠ - فؤاد سعيد العابد (دكتور) سياسة بريطانيا فى الخليج العربى - الجزء الثانى - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤

- ١١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبي قديما وحديثا - مطابع التجارة والصناعة - بيروت ١٩٧٣
- ١٢ - محمد مرسى عبدالله (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها - دار القلم - الكويت ١٩٨١
- ١٣ - مركز الوثائق والدراسات - ابو ظبي بين الامس واليوم - ابو ظبي ١٩٦٨
- ١٤ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبي في مسيرة التقدم - ابو ظبي ١٩٧٢ .

المراجع الاجنبية :

- (1) : Clarence .C .Mann - Abu Dhabi - khayats - beirut 1969 .
- (2) : Calvin H . Allen , Jr . - Sayyids , Shets and Sultans :- politics and Iradein Masgat Under the Al Busaid , 1785 - 1914 - Ann Arbor Michigan 1984 .
- (3): John Daniels - abu Dhabi a Portrait - Longman - London 1977.
- (4) : Rosemarie Said Zahlan - The Origins of The United Arab Emirates. The Macmillan - London 1978 .
- (5) : Suzanne St Albans - Green Grows The Oil - London 1978 .

العرب في مقديشو

وأثرهم في الحياتين

السياسية والثقافية في ظل الإسلام

للدكتور : غيثان على جويس
استاذ التاريخ الإسلامى المساعد ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية
فرع جامعة الملك سعود - بأبها

بسم الله الرحمن الرحيم
العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين
السياسية والثقافية فى ظل الإسلام

كانت الشعوب العربية هى أهم الشعوب التى اتصلت بساحل شرقى أفريقيا منذ القدم ، وابقاها أثرا فى تلك البقعة من القارة، وقد ساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى لأن العرب بصفة خاصة هم أقرب الشعوب دون غيرهم من شعوب آسيا، فهم يواجهون ساحل شرقى أفريقيا مما ساعد على كثرة التردد بين سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية بصفة خاصة وبين شرقى أفريقيا، كما ساعد نظام الرياح الموسمية فى المحيط الهندى على كثرة الهجرات لأن العرب نظموا رحلاتهم وفقا لنظام هذه الرياح، فكانت لهم رحلتان فى العام . وهناك العامل الأساسى الذى دفع العرب لارتياح سواحل شرقى أفريقيا، كما دفع غيرهم من الشعوب الآسيوية وغيرها وهو الأهمية الاقتصادية لشرقى أفريقيا وما فيه من سلع وثروات .

ولقد كان لدول عرب الجنوب معين من حوالى (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق.م) وسبأ (حوالى ٩٥٠ إلى حوالى ١١٥ ق.م) ثم دولة حمير (١١٥ - ٥٢٥ م) ، كان لهذه الدول النشاط الكبير فى الحركة التجارية البحرية والبرية، كما عملت هذه الدول على تنظيم طرق القوافل وتأمينها داخل الجزيرة العربية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى ازدهار التجارة، وقد نوه القرآن الكريم برحلات قريش التجارية، وكان عرب الحجاز قد تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة بعد تدهور عرب الجنوب منذ القرن السادس الميلادى، وكان من نتيجة هذا النشاط العربى تقدم فنون الملاحة

وبراعة العرب فى هذا المجال. كما أن البحار الجنوبية صارت مألوفة ومعروفة عند العرب، وقد وصفها الرحالة الجغرافيون أدق وصف ، كما وصفوا نشاط العرب البحرى والتجارى، ومن هؤلاء ياقوت الحموى^(١) والمسعودى^(٢) .

تدفقت الهجرات العربية إلى شرقى إفريقيا فى العصر الإسلامى لأسباب دينية وسياسية، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان مسيطرًا على معظم الهجرات. وقد أشارت الروايات أن الصومال عرفت الإسلام منذ ظهوره، ومع ازدهار الإسلام كدين ودولة ازداد النشاط البحرى وتوافدت على سواحل الصومال مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وفرس وغيرهم لإنشاء مراكز عربية إسلامية ثابتة لنشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين القبائل الإفريقية فى سواحل الصومال الشمالية والجنوبية المطلة على المحيط الهندى، بل استطاع العرب المسلمون التوغل إلى داخل هذه البلاد لنشر الإسلام واللغة العربية بين قبائل الداخل ، وذلك بعد أن قام العرب بتأسيس مدينة مقديشو التى أصبحت مركز انطلاق جنوبا وإلى الداخل^(٣) كما سيجىء تبيان ذلك .

تتابعت الهجرات العربية لنشر الإسلام فى الساحل الإفريقى الشرقى منذ عهد الخلفاء الراشدين وازدادت أيام الأمويين والعباسيين، ونذكر من هذه الهجرات على سبيل المثال لا الحصر، هجرة الخوارج الذين حاربهم على بن أبى طالب وهزمهم فى موقعة النهروان^(٤). وهجرات بعض العرب الأمويين الذين أشارت الروايات بأن عبد الملك بن مروان هو الذى أرسلهم إلى تلك الجهات لتأسيس المراكز الإسلامية. وقد أفاضت الروايات فى ذكر هجرات الأمويين إلى الساحل، وأشارت إلى أن عبد الملك عندما تنهى إلى مسامعه أخبار الهجرات العربية إلى إفريقيا أرسل أخاه حمزة لنشر

الدعوة الإسلامية ومد محاولة نفوذ الأمويين في الصومال . وفي رواية أخرى أن ابنه جعفر هاجر إلى شرقى افريقيه وحكم في منطقة كيوايو Kiwayu (في جنوب مقديشو في ارخبيل لامو) وتوفى بها^(٥) .

وتنسب الروايات تأسيس الامارات العربية الأولى في شرقى افريقيه لعهد عبدالملك بن مروان ورجاله الشاميين الذين تسميهم الروايات بالشاميين Mashami أو الواشامي Washami، ويظهر أنهم وصلوا إلى شرقى افريقيه في مجموعات صغيرة حوالي ٧٠٠ م أو قبله بقليل . وطبقا لما ورد في الرواية أن عبد الملك هو العامل الأساسي الذي دفع العرب لتأسيس امارة عربية في لامو Lamu . ويذكر ستايقند Stigand أن عبد الملك بن مروان قام بإنشاء امارات عربية على ساحل شرقى افريقيه عندما أرسل مهاجرين سوريين عام ٧٧ هـ (٦٩٦م) لمد نفوذ الأمويين هناك^(٦). وقد لجح هؤلاء المهاجرون في تكوين مدن تطورت وأصبحت امارات عربية هامة مثل بيت Pate أو باتا Pata ، ومالندي Malindi ومبسه Mombassa Zanzibar . ويواصل صاحب كتاب «أرض الزنج The land of Zing» حديثه ويضيف بأن الروايات قد ذكرت بأن المراكز التالية أنشأها عبدالملك بن مروان وجعل على كل واحدة منها وليا عربيا يحكمها نيابة عنه وهي كما يلي: براوه Brāwa - تيولا Tula - أموي Omui - كيزمايو Kismayu - فمبي Vambi - كوياما Koyama - شانقا Shanga - پاذا Paza - بيت Pate ولامو Lamu^(٧). وما زال اسم عبدالملك بن مروان يذكر في تلك الجهات لدرجة أن السكان قد حرقوا اسمه، فمثلا ينطقون عبدالمالك، أو ابن مرواني ومرد ذلك ، ضعف اللغة العربية وظهور اللغة السواحيلية^(٨) .

وفى أواخر عهد الدولة الأموية كانت هجرة الزيد عقب مقتل زيد بن علي زين العابدين عام ١٢٢ هـ (٧٤٠م) فرارا من اضطهاد بنى أمية لهم، وعرف هؤلاء بالزيدية. واستقرت هذه الجماعات كما أشارت المصادر فى ساحل بنادر الصومالى وحكموا فيه ما يقرب من المائتى سنة، ونشروا الإسلام بين قبائل بنادر، كما اصلحوا الأراضى، وزرعوا بعض النباتات التى أرفدتهم بثروات طائلة، ودرت عليهم أموالا هائلة. بل وتوغل الزيدية إلى داخل الأراضى الصومالية ونشروا الإسلام بين قبائل انهار جوبا وشبيلي من بينها قبائل الجالا التى اعتنقت الإسلام بحماس كبير بدليل أن كثيرا من الصوماليين من أفراد هذه القبائل قد أصبحوا فقهاء ووعاظاً واضطلعوا بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية (١٩).

تأسيس مقديشو :

إلا أن الذى يهمنا فى هذا الجانب هو وصول أكبر الهجرات العربية والإسلامية إلى ساحل الصومال المعروف بساحل بنادر، وأعنى بهذه الهجرة، تلك الهجرة التى حدثت خلال العصر العباسى والمعروفة بهجرة الأخوة السبعة . فقد هاجرت هذه الجماعة العربية فى بداية القرن العاشر فى حوالى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) من الأحساء عاصمة دولة القرامطة (١٠) والأخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية، جاؤا فى ثلاث سفن محملة بالرجال والعتاد الحربى. وقد نما إلى علم هذه الجماعة العربية أخبار الجماعات العربية التى سبقتهم إلى ذلك الساحل، وربما سمعوا عنها من التجار أو من جنود سعيد الجنايى، وقد كان فى صفوفهم جند من الزنج والأرقاء الذين جاؤا إلى الجزيرة العربية والعراق فى فترة من الفترات. ولذلك قررت هذه

الجماعات العربية أن تحذو حذو الهجرات العربية التي سبقتها، يراودهم الأمل العريض في تكوين وطن جديد، وقد تحقق لهم ما أرادوا بفضل جهودهم^(١١).

إستولى الأخوة السبعة على كل سواحل بنادر بعد أن قاموا بتأسيس مدينة مقديشو التي جعلوها عاصمة لدولتهم الجديدة، فامتد نفوذهم حتى جنوبى ممبسة، وربما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر. وقد وصف المسعودى هذه الجزيرة، وذكر أن فيها قوما من المسلمين، غلبوا على هذه الجزيرة، وسبوا من كان من الزنج كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش فى البحر الرومى^(١٢).

لم تمضى فترة طويلة على إستقرار هذه الجماعات العربية، حتى أصبح كل الساحل شافعيًا على المذهب السنى، وذلك بعد أن اصطدم الأخوة السبعة بالزيدية الشيعة الذين اضطروا للانسحاب إلى الداخل. ولا يزال المذهب الشافعى هو السائد فى بلاد شرقى افريقيه. وقد اكتفى هؤلاء العرب على بسط نفوذهم فى المنطقة الساحلية فقط إذ أن الداخل لم يكن معروفًا لديهم، أما لأنهم يجهلون، أو لصعوبة التوغل، فسيطروا على الساحل ريثما يتم لهم كشف مجاهل افريقيه المختلفة^(١٣) وكان من نتيجة هذه الهجرة الأخيرة أن بسطت مقديشو نفوذها، وساعدت العرب المسلمين على انشاء مواطن استقرار على طول الساحل الممتد من مقديشو فى الشمال إلى مدينة سوفالا فى الجنوب^(١٤).

لقد حكم الأخوة السبعة هذا الساحل فترة لا تقل عن السبعين عاما، وإليهم يرجع الفضل فى انشاء مدينة مقديشو - كما سبق القول - فظلت هذه المدينة تتزعم الحركة الإسلامية والمد الإسلامى فترة طويلة خلال العصور الإسلامية المختلفة فى ذلك الجزء. وفى الوثيقة العربية التى عثر عليها البرتغاليون فى مدينة كلوة Kilwa

(فى تنزانيا حاليا) عام ٩١٠ هـ (١٥٠٥م) أمكن معرفة الأخبار الهامة عن مدينة مقديشو فى القرون الأولى للهجرة ، منها أخبار البعثات العربية الإسلامية القادمة من الاحساء على ثلاث سفن بقيادة سبعة أخوة نزلوا فى ساحل الزاهيه (بنادر) وقاموا بتأسيس مدينتى مقديشو وبراوة (١٥) . وهاتان المنطقتان من أول المناطق التى وطأتها أقدامهم، وطاب لهم فيها المقام. وخضع لنفوذهم فى فترة وجيزة كل الشريط الساحلى الممتد من مقديشو حتى ممبسه، لدرجة أنهم وصلوا أماكن لم يصلها العرب من قبلهم، وقد كان الأخوة السبعة من عرب الاحساء (١٦) .

وجاء أيضا فى وصف دى باروس De Baros لمقديشو، أن تأسيسها قد تم على أبدي جماعة عربية من الاحساء هم جماعة الاخوة السبعة، وأصبح لها وزنها وكيانها، ولها نظمها. وأصبحت مقديشو مركزا يتجمع فيه كل المسلمين الوافدين إليها من كل جهات الساحل، وهى أول امانة تحاول بسط سيطرتها ونفوذها التجارى على طول الساحل جنوبا حتى سوفيالا (١٧). وتذكر الرواية كذلك بأن تاريخ تأسيس مقديشو ربما كان فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) . وتضيف الرواية أن على بن حسن الشيرازى مؤسس سلطنة الزنج الإسلامية فى كلوة عام ٩٧٥/٩٧٦م قد مر بمقديشو فعلا، إلا أن المقام لم يطب له فيها، لوجود جاليات عربية متعددة، فواصل زحفه حتى وصل إلى جزيرة كلوه حيث أسس له دولة إسلامية هناك، كان العنصر الفارسى فيها هو دعامتها وسندها. ويذكر أيضا أن بعض المهاجرين العرب قد هاجروا من عمان إلى ساحل أفريقيه الشرقى، وأن قبيلة الحارث من عمان أدعت تأسيس مراكز لها فى مقديشو وبراوة (١٨) .

ومهما يكن من أمر فإن مدينة مقديشو أسسها جماعة الاخوة السبعة من قبيلة

الحارث العربية من الاحساء فى الطرف الغربى للخليج العربى، وقد وصلوها فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) وذكر ياقوت أن مقديشو مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن فى بر البرير فى وسط بلادهم^(١٩).

ويقول أبو الفداء أن مقديشو تطل على بحر الهند وأهلها مسلمون، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر فى زيادته فى الصيف. وقد ذكر أنه يخرج شقيقا لنيل مصر من بحيرة كورا، ويصب بالقرب من مقديشو فى بحر الهند. ومقديشو مدينة كبيرة من الزنج والحبشة، قال ابن سعيد عن مقديشو: ومن شرقى خافونى بالنون فى الآخر المشهور على البحر مدينة مركه وأهلها مسلمون وهى قاعدة الهاوية التى تزيد على خمسين قرية، وهى على شطى نهر يخرج من نيل مقديشو، ويصب على مرحلتين من المدينة فى شرقها، ومنه فرع يكون خورا لمركه، وفى شرقى ذلك مدينة الاسلام المشهورة فى ذلك الصقع المترددة على ألسن المسافرين وهى مقديشو^(٢٠).

وموقع مقديشو من أصلح مواقع الساحل لرسو السفن. وقد عرفه المصريون القدماء، وأهل بابل وآشور. والفينيقيون والرومان وكان يعرف عند الاغريق منذ ألفى عام باسم سيرابيون Serabion^(٢١). وعرف فى العصور الوسطى باسم حمر Hamer وقد أتاح لها هذا الموقع القريب من خليج عدن التحكم فى مدخل البحر الأحمر إلى حد كبير، والسيطرة على الحركة التجارية فى المحيط الهندى. فكانت ترد لهذه النقطة سفن الجزيرة العربية محملة بأنواع المنتجات والسلع، وتأتى سفن الهند وغيرها من بلدان آسيا عبر المحيط الهندى، وتنقل هذه المنتجات إلى الحبشة وعبر البحر الأحمر إلى مصر شمالا وجنوبا حتى سؤالا^(٢٢).

وتتضارب الآراء نحو تفسير اسم المدينة «مقديشو»، فمن قائل أنها من كلمتين

عربية وفارسية وهما (مقعد + شاه) ، إشارة إلى المكان المفضل الذي اتخذته الحاكم مقرا لحكمه، ونطق الكلمتين معا (٢٣) . أو نسبة للمكان الذي اتخذته الشيخ مكانا لجلوسه (مقعد الشيخ) (٢٤) والبعض يقل أن كلمة مقديشو معناها المكان الذي تتجمع فيه الأغنام للبيع (٢٥) وعبر عنها الرحالة الغربيون بأسماء مختلفة مثل: موجوديشيو Mougidishu وموجود سكو Mougoudiskua - وموجاديشوا Mougadishu ومقدشيكو Makdishiku ومقد يكسو Magdiksi (٢٦)، أو مجدكسو Magdiksi (٢٧)، وكل حسب نطقه (٢٨) .

أما عن أقسام المدينة وأحيائها، فقد كانت مقديشو في بداية نشأتها تتكون من ضاحيتين أساسيتين هما ضاحية حمروين، وضاحية شنفاني (٢٩). وكانت ضاحية حمروين تمتد على طول الساحل من كران إلى ساحل حمر، أي المكان المعروف باسم حمر جب (٣٠). أما ضاحية شنفاني، فهي مشتقة من اسم حي كان في نيسابور ببلاد فارس، وقد سميت بهذا الاسم تخليدا لذكرى أهل نيسابور القاطنين بمقديشو. وكلمة حمروين، مركبة من كلمتين عربية وصومالية: فحمر معناها ذهب، وكلمة وين معناها بالصومالية كثير أو كبير (٣١) .

شكل الحكومة :

واجهت جماعة الأخوة السبعة العربية في بداية أمرهم على الساحل بعض الصعوبات أهمها أن الزيدية الشيعة الذين كانوا قد سبقوهم، واستولوا على أجزاء من ساحل بنادر واستوطنوا حول ارجبيل لامو قد بدأوا في نشر مبادئهم وأفكارهم، ولا سيما وأنهم كانوا من الشيعة المتعصبين لهذا المذهب، بينما كان الأخوة السبعة

على المذهب السنن الشافعى. وقد دافع الزبود عن عقيدتهم دفاع المستميت، وحاربوا جماعة الاخوان السبعة بكل ضراوة ، إلا أنهم غلبوا على أمرهم فى النهاية وهزموا أمام الاخوان السبعة أخيرا عام ٣٣٠ هـ (٩٤٨م) (٣٢) .

وبعد أن تغلب الأخوة السبعة على الصعاب التى واجهتهم فى بداية أمرهم، بدأوا فى وضع الأسس والتشريعات المختلفة التى تكفل لهم الاستقرار والحياة الكريمة. فتكون مجلس من كبار العرب، وأعضاؤه اثنا عشر شخصا يرأسهم شيخ لا يحمل لقب سلطان أو ملك، ويسمى هذا المجلس باسم «مجلس المدينة» ، وكان هذا النظام أفضل نظام طبقه الغرب المسلمون فى ساحل بنادر فى العصور الوسطى، ويتمتع هذا المجلس بكل السلطات، وله حق النظر فى القضايا المدنية والجنائية وفض المنازعات. وكان بجانب هذا المجلس مجالس فرعية فى كل حى من أحياء المدينة، وهى فى شكل طائفة تخضع لشيخها الذى يتولى أمرها، ويقوم باكرام الغرباء وقضاء حاجاتهم (٣٣) .

وباتساع المدينة حدث ترابط بين السكان العرب والصوماليين، وبموجب اتفاقية أبرمت فى القرن العاشر بين العرب والفرس من جهة، والقبائل الصومالية من جهة أخرى، تكون اتحاد على صورة مجلس من الاشراف وأعيان القبائل للنظر فى أمور البلاد . والقبائل التى تكون منها ذلك الاتحاد كانت نحو تسع وثلاثين مجموعة وهى مجموعة قبائل عربية وفارسية وأفريقية تفاصيلها كالآتى :

اثنى عشر عشيرة من قبيلة مكرى Mukri ، واثنى عشر من قبيلة جيداتى Djidati ، وستة من أكابى، وستة من الاسماعيلية، وثلاثة من عفيفى Afifi (٣٤) .

كان اختصاص هذا المجلس هو حفظ الأمن، وتطبيق العدالة بين الجماعات،

ووضع حد لهجمات بعض القبائل الرعوية الصومالية على التجار من العرب والفرس، وبالتالي لمواجهة غزاة آخرين كانوا يأتون من البحر. وتم هذا الاتحاد بعد أن أصبحت مقديشو عاصمة لساحل بنادر الذي ضم هذه المشيخة وإماراتها التابعة لها مثل مركه وبراوة التي سيجىء تفصيلهما، هذا بالإضافة إلى الأراضي المحيطة بهم. وكان يطلق على جميع هذه الأراضي (مقاديش) (٣٥). وعرف أحيانا سكان هذه الجهات باسم سكان بنادر وبضائعهم بأسم بضائع بنادر (٣٦).

لقد استمر مجلس هذه المشيخة والمثل في سلطة الشورى بين العرب والفرس والصوماليين نحو أكثر من مائتى عام على ذلك النحو، حتى انتخب أبو بكر فخر الدين عام ١١٠٠م حاكما على جميع أراضي هذه البلاد، وهو من سلالة الأخوة السبعة بتعزيد من قبيلة بنى قحطان العربية التي أصبح لها النفوذ والسيادة، وبذلك أصبح اعلان سلطنة أبى بكر فخر الدين الوراثة نهاية لعهد الادارة الفدرالية والممثل في مجلس المدينة الذي سبقت الإشارة إليه (٣٧). وفى عهد أبى بكر فخر الدين احتفظت قبائل قحطان ومكرى بنفوذها ومكانتها الدينية الممتازة، لأن قاضى الوحدة قبل قيام السلطنة التي أسسها أبو بكر فخر الدين كان يختار من بين أبناء هاتين القبيلتين. وبفضل قبائل قحطان ومكرى استطاع أبو بكر فخر الدين أن يقيم سلطنة وراثيه فى مقديشو، كما أقر السلطان أبو بكر قبائل مكرى على امتيازاتها (٣٨). وقد استمر حكم أبى بكر فخر الدين سبعة عشر عاما حتى توفى عام ١١١٧م (٣٩).

امارات المشيخة :

كان امتداد مقديشو واتساعها قد غطى على جميع أجزاء الساحل المعروف بساحل الزاهيه (بنادر) ، وذكرت الوثيقة أن سكان مقديشو أول من وصل إلى بلاد سفاله فى موزمبيق، وأن سفنهم كانت تتردد على بلاد سفاله (سوفاله) Sofala لاكتشاف مناجم الذهب الموجودة فى تلك الجهات واستغلالها. وأشارت الوثيقة أيضا إلى هجرات قوامها من الفرس المسلمين جاءت إلى مقديشو حاملة معها معالم حضارة فارس (٤٠) .

أما أكبر الامارات التى خضعت لسيادة مقديشو وسيطرتها فهى مركه Maraka التى خضعت لسيطرة الأخوة السبعة ونفوذهم منذ الوهلة الأولى. ومركه من مجموعة المدن العربية التى نسب تأسيسها ستايقند Stigand إلى عبد الملك بن مروان (٤١). حتى إذا جاء الاخوة السبعة إلى الساحل جعلوها من أكبر مدنها السياسية. وحتى يومنا هذا توجد طوائف فى مركه تدعى انتمائها إلى الأخوة السبعة (٤٢). ويقول أبو الفداء عن ابن سعيد أن مركه أهلها مسلمون (٤٣) . ومن الواضح أن سكان مركه اعتنقوا الاسلام بالقرب من حافون (٤٤) .

وما يذكر أن جماعة الأخوة السبعة أتوا فى مراكب شراعية ورسوا فى ساحل مركه، وشيدوا لهم مسجدا ضار فيما بعد مركزا لكثير من الأسر الصومالية. وتتابع هجرات العرب لتلك الجهة، حتى أن الكثير من الأسر الموجودة حاليا تدعى نسبها إلى الجماعات الأولى التى جاءت إلى مركه من بلاد العرب ، كما هو الحال عند كثير من الأسر فى الوقت الحالى فى كل من براوة ومقديشو (٤٥) . ومن المحتمل أن مدينة مركه قامت كمركز تجارى يقع على الطريق بين شمال وجنوب

الصومال، وأن سكانها كانوا في بداية الأمر من العرب ثم صارت تمتلئ بالعنصر الصومالي في كل مكان^(٤٦).

وتتمتع مدينة مركة الجميلة النشيطه بمركز ممتاز لموقعها الجغرافي وكثرة خيراتها. وفي الوقت نفسه تقع على الطريق البحري التقليدي بين زنجبار وبلاد العرب. وقد حققت مركه مكاسب كثيرة للإسلام في شرقي افريقيه، بالإضافة إلى المساهمة الفعالة في نشر الدعوة الإسلامية على طول الساحل الصومالي وفي الأقاليم الداخلية^(٤٧).

أما اماره براوة Brawa فهي الأخرى اماره عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة وجماعتهم من بعدهم. واجمعت بعض الروايات أن الذين اسسوا براوة هم جماعة عبد الملك بن مروان من السوريين المهاجرين^(٤٨)، ثم جاء الأخوة السبعة من بعد ذلك وأضافوا عليها فنونهم، ثم توسعت المدينة في عهدهم، فانتشر العمران واتسع البناء^(٤٩). وبرأوة تقع في شمال نهر جوبا وجنوبي مركه. وهذه الامارة لم يذكرها أحد من جغرافي العرب أو رحالتهم، وهي مدينة هامة كانت تعتمد عليها مقديشو في أنها تلعب دور الوسيط بينها وبين الامارات العربية في جنوبها.

وتنقسم مدينة براوة إلى عدد من الأحياء هي : بغداد، البمبا، بيروني، سابى، ويلوباى، وأكثر منازلها من الحجارة البيضاء، ومن طابق إلى ثلاثة أحيانا، ومياؤها عذبه^(٥٠). وفي مسجد براوة نقشا يتضمن تاريخا يرجع إلى القرن التاسع الهجرى^(٥١). ويقال أن أول من سكنها رجل من قبيلة قره يدعى (أو على) وصلها حوالي عام ٩٠٠م، وكانت براوة في ذلك الوقت منطقة موحشه غابيه لا تسكنها إلا الوحوش الضارية، غير أن أو على أعجب بطيب هوائها على ساحل البحر، فاستعان

بالمواطنين الأوائل فى قطع اشجارها واعشابها، واقام بها عددا من المساكن أطلق عليها براوة بن أو على^(٥٢) . ويقال ان هذا الاسم كان يطلق على ملك الجالا براوات^(٥٣) وهناك رواية أخرى تشير إلى أن بعض أفراد قبيلة حاتم الطائى فى الجزيرة العربية قد استوطنت براوة فى فترة من الفترات، وقد وصلت إليها عام ٩٠٠ م ، وقد ازداد سكان المدينة بوصول جماعات أخرى منها جماعات صومالية مسلمة عرفت باسم التّن من سكان الساحل، وعمرّوا المساجد، وأقاموا كثيرا منها فى الداخل. ثم توافدت عليهم جماعات وردان أى الجالا، وقد قدموا مع ملكهم براوات. وأقام الجالا جنبا إلى جنب مع المسلمين نحو ثلثمائة عام. وكان بالقرب من براوة جماعة الأجوران (قبائل زنجية) التى امتد نفوذها على بعض أجزاء براوة، فاعلن التّن الحرب عليهم، وكان للتّن الانتصار على الاجوران. وانتهت المفاوضات بينهما على أن يبقى الاجوران فى الجانب الشرقى، ويحتل التّن الجانب الغربى له، كما تعاهدوا فيما بينهم على ألا يدخل البلاد غير الحيوانات، وما عدا ذلك فكل قادم مصيره القتل. إلا أن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الدوام كثيرا، إذ وصلت جماعة من الحمرانيين الصومال على سفن إلى براوة، وسكنوا مع التّن فى سلام ومحبة^(٥٤) .

اضمحلال سلطنة مقديشو :

منذ نهاية القرن العاشر بدأت مشيخة مقديشو فى التدهور والانحلال نتيجة الانقسام الداخلى فى حكومتها المركزية، هذا بجانب ضعف الروح العسكرية، وتفكك القوات، حتى إذا جاء الشيرازيون الفرس إلى الساحل لم يجدوا سوى قوة

عسكرية ضعيفة، ومشیخة تمزقها الخلافات، فضلا عن عدم اتحاد امارات المشيخة ووقوفها قوة واحدة ضد الشيرازيين الفرس الذين وصلوا إلى مقديشو ومركه وبراوة تحت زعامة على بن حسن الشيرازي، وتمكنوا من الاستيلاء على هذه الامارات في سهولة ويسر، ثم واصلوا زحفهم جنوبا إلى كلوة حيث أسسوا سلطنة الزنج الإسلامية. إلا أن الشيرازيين الفرس ابقوا على كل النظم الموجودة في تلك البلاد التي استولوا عليها دون تغيير، واكتفوا بوضع حاميات عسكرية قوية وفرضوا على تلك المدن الجزية التي تدفع سنويا. ولم يقدر للشيرازيين الفرس البقاء في مقديشو ومركه وبراوة بل زحفوا جنوبا، وذلك لأن تلك المناطق التي تركوها لم تكن صالحة لاستقرارهم، إذ أن الأمطار لم تكن غزيرة، فأبحروا جنوبا إلى كلوة وأسسوها (٥٥).

وفي القرن الرابع عشر جاءت أسرة المظفر وهي من قبيلة بنى نبهان العربية الذين كانوا يحكمون في عمان وعاصمتها مسقط، وقد أصابها الاضمحلال والتفكك، وذلك عندما قامت بعض القبائل العربية الأخرى بطردها عن حكم مسقط، فأدى ذلك إلى فرار سليمان بن المظفر إلى ساحل شرقي افريقيه حيث أسس امارة عربية في بيت Pate عام ٦٠١ هـ (١٢٠٣م)، واستطاعت هذه الامارة أن تبسط سيطرتها على مقديشو حوالي ٧٤٠ هـ (١٣٣١م) وان تخلف أسرة فخر الدين التي خصعت لسلطان الشيرازيين منذ عام ٩٧٦م. وكان الرحالة ابن بطوطة قد زار مقديشو في عام ١٣٣٠م / ١٣٣١م وذلك في أثناء حكم ابي بكر بن الشيخ عمر بن المظفر، وذكر وصفا ضافيا لأحوال مقديشو الاجتماعية (٥٦).

وفي عهد هذا الشيخ بلغت مقديشو ذروة مجدها في القرن الرابع عشر الميلادي، ووصفها ابن بطوطة بأنها متناهية في الكبر ولها صلات اقتصادية وثيقة مع مصر.

وقد ظلت مقديشو أقوى مدن الساحل فترة من الزمن، وذكرت في حوليات الصين ولاسيما في عهد أسرة منج Ming ، وتجارتها مع الصين رائجه . ولاحظ فاسكو داجاما أنها مدينة عظيمة^(٥٧) . وفي عهد السلطان أبى بكر بن عمر انتظمت أمور البلاد، وعم الرخاء ، وامتد نفوذ مقديشو التجارى الذى كان يضم مركه وبرأوة كذلك حتى سوفالا فى أقصى جنوب الساحل .

لما وصل البرتغاليون إلى الساحل الشرقى لافريقيا، وتأكد لداجاما أهمية هذا الساحل، بدأوا فى توجيه ضرباتهم إلى المدن العربية والإسلامية على طول هذا الساحل، فاستولوا على كلوة عاصمة سلطنة الزنج، ثم واصلوا زحفهم شمالا حتى وصلوا إلى مقديشو التى تعرضت لضربات البرتغاليين، ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا إلى مقديشو عام ١٤٩٨م وجهوا نيران مدافعهم نحو هذه المدينة وذلك فى أيام الشيخ فخر الدين حاكم مقديشو، إلا أن البرتغاليين لم ينجحوا فى الاستيلاء عليها بفضل حصونها المنيعه، ومقاومتها العنيدة الباسلة، مما جعل البرتغاليين ينصرفون عنها بسرعة^(٥٨) .

لقد كانت الأحوال فى مقديشو تختلف عن غيرها من امارات الساحل، فقد قاومت جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاختضاعها، ولا سيما حينما حاولت البرتغال فى عام ١٥٠٧م غزوا مقديشو بكل ما لديها من قوة وامكانيات. إلا أن مقديشو قاومت كل محاولات البرتغاليين اليائسه بفضل وجود العنصر العربى الذى ساعد على المقاومة، بالإضافة إلى أنها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها، فلذا كانت مركزا للمقاومة طيلة المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون فى هذا الساحل. وفى المرات القليلة التى حاول فيها

البرتغاليون ضرب مينائها بالدفاع والنزول بها، صمدت هذه المدينة الباسلة ، وكان دفاعها قويا وصامدا. وذكرت المصادر البرتغالية بأن مقديشو من أقوى امارات الساحل، وتدعمها قوات ضخمة من الفرسان. لذلك كانت مقديشو هي المشيخة الوحيدة التي لم يستطع البرتغاليون اخضاعها، بل كانت تناصبهم العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل^(٥٩). وكان شيوخ مقديشو ورؤساء القبائل فيها قد بعثوا برسائل منهم إلى سلطان عمان، صاحب أقوى بحرية في مياه البحار الشرقية يطلبون منه حق الإسلام والجوار، وذلك عندما تزايد الضغط البرتغالي على مقديشو، فكانت استجابة سلطان عمان سريعة وحازمة، إذ قدمت قوى بحرية عمانية بقيادة الأمير سالم الصارمي عام ١٠٦٧ هـ (١٦٤٠م) لمعاونة اخوانهم مسلمي مقديشو وملحقاتها، وابعاد النصارى البرتغاليين عن تلك السواحل. فكان الانتصار لقوى المسلمين، والهزيمة للقوى البرتغالية. وقام أهل مقديشو بتنصيب الأمير سالم الصارمي سلطانا على مقديشو وملحقاتها فترة من الزمن لتنظيم أمورها. وقد ارتبطت سلطنة مقديشو منذ ذلك التاريخ بسلطنة عمان اقتصاديا وسياسيا وحربيا، كما كان لأئمة مسقط وسلاطينها نفوذ في منطقة بنادر وعاصمتها مقديشو حتى مطلع القرن الثامن عشر^(٦٠).

معالم الحضارة والثقافة الإسلامية فى مقديشو :

كانت القبائل العربية التى هاجرت إلى مقديشو وملحقاتها تحمل معها دينها ولغتها، وكانوا يختلطون بالسكان وينقلون إلى لغات هذه البلاد الكثير من كلماتهم خصوصا ما كان منها متعلقا بأمور الدين. وقد ظلت اللغة العربية هى لغة التسجيل والتدوين والمراسلات فى العهد والاتفاقيات وغير ذلك سواء فى الساحل أو مع الدول الخارجية .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى الساحل دون غيره. والمعروف أن أسس الثقافة هى طريقة التعبير إلى اللغة، واللغة العربية اختلطت بلهجات قبائل الساحل الاقريقيه عشرات القرون، وتوالد عنها لغة جديدة هى اللغة السواحيلية، كما أصبح الدين الإسلامى أساسى التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية .

وحظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة فى الصومال وأثيوبيا، وقد عنى أهلها بكتاب الله حفظا وتجويدا وتفسيرا، فقد كان حظهم من هذه العلوم كبيرا كما كان نصيب اللغة العربية جزيلا وافرا، وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم، وتركت أثرها القوى فى الساحل الصومالى وخاصة حول لامو^(٦١). وصارت براوة^(٦٢) بالقرب من مقديشو كجزيرة عربية كعبة المعرفة، ويأتى إليها طلاب العلم من الأماكن النائية لشهرة علمائها وتفوقهم فى الدين. وقد حملت مساجدها أسماء الخلفاء عمر وعثمان وعلى، وانتشر بها شيوخ الصوفيه ومنها القادرية والادريسيه والزيلعيه والاحمدية^(٦٣) . ومن ثم اعتبرت براوة. كعبة المعرفة والهداية فى ساحل بنادر واجزاء الساحل الأخرى، وأصبح فى براوة وحدها أكثر من خمسة وعشرين

مسجدا عدا الزوايا فعددها كبير (٦٤) .

لقد نفخ المسلمون فى سكان الصومال حب الأدب وفنون الشعر، وخرج هولاء شعراء وخطباء مفوهون، وأصبح لهم أدبا يعتزون به. وبرز كثير من العلماء والشعراء والأدباء باللسان العربى كالفقيه البليغ فخر الدين أبى عثمان بن على بن محمد البارعى الزيلعى الذى قدم القاهرة من مقديشو فى القرن الرابع عشر، ونشر الفقه فيها ومات بها، وله كتاب سماه «شرح كنز الوثائق» ومن المؤرخين الصوماليين باللسان العربى شهاب الدين الملقب بعرب فقيه وله كتاب فتوح الحبشة (٦٥). ومن الأدباء البارزين عبد الله منير الزيلعى (٦٦) .

أما عن أشهر دعاة الإسلام فى مقديشو خلال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر فنذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ أبادير التى تذكر عنه حوليات مقديشو أنه جاء من الجزيرة العربية فى خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) واستقر فى مملكة عدل (زيلع) ثم دخل هرر التى أصبحت بفضل جهوده قاعدة اسلامية لنشر الدعوة فى الصومال واثيوبيا. ويذكر ابن حوقل ان أهالى زيلع، كانوا مسيحيين فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، ولكن أبا الفداء يذكر أنهم كانوا مسلمين فى القرن الرابع عشر، وقد يكون هذا التحول إلى الإسلام بفضل الشيخ أبادير الذى بشر بالإسلام، ودعا إليه بين أهل زيلع فى القرن العاشر (٦٧) .

ومن دعاة الإسلام كذلك أربعة وأربعون شيخا وفدوا من حضرموت إلى مقديشو وبراوة ومركة لنشر الدعوة الإسلامية، فنزلوا أول مرة فى مدينة بريرة على ساحل الصومال الشمالى، واستقروا بها فترة قصيرة، ثم نزلوا جنوبا إلى مقديشو وبراوة ثم انتشروا فى البلاد . واستطاع أحدهم وهو الشيخ الوقور إبراهيم أبو زرباى أن يسلك

طريقه إلى مدينة هرر حوالى عام ١٤٣٠ حيث قام بنشر الدعوة وإنشاء المساجد، وما زال قبره معظماً فى المدينة إلى يومنا هذا (٦٨) .

أما أشهر الدعاة الصوماليين وأبرزهم، فهو المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم الجران (أو أحمد بن جرا الملقب بالأشول أو الأعسر) . الذى ظهر فى القرن السادس عشر، وأحدث تحولا كبيرا فى نشر الدعوة الإسلامية واتسم جهاده بالبطولة والفدائية. فقد قام هذا المجاهد الكبير بتحرير الأراضى الصومالية من نفوذ النصارى الأحماس، فانطلق من مقديشو، وجعل منها قاعدة لبدأ منها الجهاد فى سبيل الله. وبذل أحمد بن جرا جهودا جبارة من أجل توحيد الجبهة الإسلامية والقيام بغزوات على التجمعات المسيحية والمقاطعات الحبشية التى تقوم بغزو أراضى المسلمين فى الصومال بزعامة بطارقتها، بل استطاع الصوماليون بقيادة هذا المجاهد الكبير أن يصلوا إلى أبواب العاصمة الحبشية، بل وتمكنوا بقيادته أن يضموا بلاد جديدة داخل الحبشة المسيحية دخلت فى الإسلام وتحملت له. لذلك يعتبر الإمام أحمد بن جرا علما من اعلام المسلمين فى بلاد أفريقية الشرقية، ومجاهدا كبيرا فى نشر الدعوة والثقافة الإسلامية (٦٩) .

استمر الدعاة يتدفقون على بلاد الصومال إلى زمن قريب، ففى عام ١٨٣٠ وفدت جماعات من الوهابيين النجديين من الجزيرة العربية واستقروا فى بلدة بارديرا، وقاموا بتنظيم دعاية قوية كان لها النجاح فى حالات كثيرة إلى الإسلام. ومن المجاهدين والدعاة المسلمين نذكر أيضا المجاهد والداعية محمد عبد الله بن حسن، وهو من المجاهدين الصوماليين الذين ظهوروا خلال القرن التاسع عشر، وحارب المبشرين، ودعا إلى الكفاح المقدس تحت راية الإسلام، ووجد كلمة المسلمين فى

الجهاد (٧٠) . وبالطبع يضاف إلى هذه الأدوار ، دور الطرق الصوفية التي قامت بنشر الدعوة الإسلامية، وتفسير تعاليم الإسلام، بالإضافة إلى محاربة البدع، والعمل على جعل المسلمين أخوة متحابين في الله .

توالى الهجرات الإسلامية ودعاة الإسلام خلال عصور التاريخ الإسلامي المختلفة فخرج كثير من الصوماليين والأثيوبيين لطلب العلم، فخرجوا من مقديشو وبراوة وغيرها لطلب العلوم الدينية في مكة والمدينة المنورة والقيروان وفاس وطرابلس والقاهرة وصنعاء. وإذا ما تحصلوا على علومهم ومعارفهم في أحوال المسلمين، وتعاليم الإسلام، عادوا إلى بلادهم كدعاة للإسلام . وعلى ذلك ازدهرت بهم مراكز الثقافة الإسلامية في هذه البلاد الأفريقية. ونهضت بدور فعال في نشر الثقافة والدعوة الإسلامية .

وكان لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية مع مرور الزمن وأن تزداد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية، ويزداد نشاط الدعاة في الصومال واثيوبيا من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعي وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، فتحوّلت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة تمثل حلقة تمتد من مقديشو وبراوة ومركه وهرر إلى أوفات وبقية الإمارات الإسلامية (دول الطراز الإسلامي) في الحبشة. ويمكن معرفة مدن انتشار الإسلام وتلاقى هذه المراكز في توحيد الجبهة الصومالية الإسلامية حتي أصبحت الصومال دولة إسلامية خالصة. وبالإضافة إلى المراكز الإسلامية الكبرى المشار إليها والتي نهضت بدور كبير في حمل الثقافة والتراث الإسلامي ونقله إلى جهات مختلفة في الساحل ثم إلى الداخل الأفريقي، وكان أثر مقديشو فيها بارزا. وظهرت مراكز إسلامية أخرى تأثرت بالنهضة الثقافية في

مقديشو وملحقاتها، واسهمت هذه المراكز هي الأخرى بدور كبير فى الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية ، ومن أهم هذه المراكز : حافون ووار شيخ وعظلة وكسمايو وبارديرا ولوخ وبيدوة وبريرة (٧١) .

والجدير بالذكر أن العرب نقلوا إلى هذه البلاد بالاضافة إلى ثقافتهم وتراثهم، فإنهم نقلوا أيضا نظام الشورى الإسلامى، وكانوا فى بداية أمرهم أقرب بذلك إلى نهج الخلفاء الراشدين. ففى مقديشو أدخلوا نظام الشياخة كما سبق القول، وهو نظام عربى قديم يعتمد على عراقة النسب والكرم والشجاعة والمروءة . وهذا النظام نقله الأخوة السبعة الذين أسسوا مقديشو، لذلك أصبح الحكم فى أيام الأخوة السبعة يعتمد على الشورى. وكان أساس الانتخاب لمنصب الشيخ هو السن والفضائل. يقول ياقوت عن سكان مقديشو: انما يدبر امورهم المتقدمون منهم (٧٢) . وفى وضع آخر يقول: وهم مسلمون لا سلطان عليهم، لكل طائفة شيخ يأتهمون له (٧٣). وبجانب منصب السلطان والشيخ فى مقديشو، فقد وجدت مناصب أخرى رفيعة تلى الشيخ والسلطان من حيث الأهمية. فكان الوزير على رأس الأمراء والأعيان. وكان القاضى فى مقديشو شخصيته هامة وتلى الشيخ والوزير من حيث الأهمية والاختصاص، وكثيرا ما تولى القاضى بنفسه وظيفة الحسبه التى انتشرت انتشارا واسعا على طول هذا الساحل . وكانت مهمة المحتسب كما هو معروف الاشراف على الأسواق ومراقبة المكاييل والموازين ومعاينة من يخل بالأمن، وهؤلاء جميعهم وعلى رأسهم الشيخ أو السلطان فى مقديشو وغيرها تحيط بهم حالة من التقديس، تظهر بجلال فى المناسبات الدينية. كما تحيط بهم كذلك مجموعة من الوزراء والأمراء، بجانب ذكر اسم الشيخ فى خطبة الجمعة (٧٤).

فى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن سواحل افريقيه الشرقيه وعلى الأخص منها ساحل بنادر (ساحل الصومال الحالى) قد كانت ومازالت جزءا هاما من دار الإسلام متميزا فى اطارها نابضا بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية أثناء العصور الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية ونظمها السياسية والاجتماعية وابداعاتها الادبية والفنية، متفاعلة معطياتها فى كل تلك الأبواب مع معطيات رفيقاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية. وتمتعت هذه البلاد بحضارة إسلامية راقية ونظام اسلامى للحكم سليم لأنها كانت قريبة من ينبوع الحضارة والثقافة، وعلى صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية وهى الحضارة الإسلامية .



(الهوامش)

١ - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى. معجم البلدان (بيروت، ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦م) ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

٢ - أبو الحسن على بن الحسن المسعودى . مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م) ج ١ ، ص ١١٢ .

٣ - راشد البراوى . الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦١م) ص ١٠ ، حسن إبراهيم حسن. انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية (القاهرة، ١٩٦٣م) ص ٢٦ - ٢٧ ، R. Coupland. East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) pp. 2,15-16; R. Reusch. History of East Africa (New York, 1961) pp. 17-18 .

٤ - النهروان هى الموقعة التى انتصر فيها على بن أبى طالب على الخوارج الذين انشقوا عليه فحاربهم فى أواخر سنة ٣٩ هـ وهزمهم وشتتهم فى الآفاق . حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (القاهرة ، ١٩٦٤م) ج ١ ، ص ٣٧٨ .

٥ - C.N. Stigand. The Land of Zing (London, 1913) p.29. - ٦ The Land of Zind, pp. 30ff; Reusch, History of East Africa, p. 70 .

٧ - Stigand, The Land of Zing , p. 29 .

٨ - A. Warner. art "Mombassa" , Encyc of Islam Vol. 3(2) - (London, 1943), p. 552, Stigand, Op. Cit, p. 30, Reusch,

Op. Cit, P. 74.

S. Trimingham. Islam in East Africa (London, 1964)

- ٩

p.4.

حمدي السيد ، الصومال ، ١٩٥٠م ص ٣٥٠ ، عبد الرحمن زكي . الإسلام
والمسلمون في شرق أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٥م) . ج ١ ، ص ٧٧ . انظر
تفصيلات أكثر عن الزيدية ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم
والملوك ، ج ٥ ، ص ٤٨٢ - ٤٩١ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص
١٨١ .

١٠ - القرامطة ينتسبون إلى حمدان قرمط الذي تحرك بسواد الكوفة ونشر الرعب
مع جماعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية وسوريا والعراق ، وكانوا
يعتقدون في أئمة الشيعة الستة ما عدا موسى الكاظم ، رغم أنهم قبلوا
بأخيه اسماعيل . وكانوا في البحرين بزعامة أبي سعيد الجنابي ، وانتصروا
على جيوش الخليفة المعتضد ، وقتل أبو سعيد عام ٩١٣ ، وتولى ابنه أبو
طاهر القيادة ، وانقضوا على مكة في عهد المقتدر سنة ٣١٧ هـ وقتلوا
الحجاج ودنسوا الكعبة ، وهب المسلمون قاطبة للقضاء على أعداء
الإنسانية ، وانتهى أمرهم أخيرا بالقضاء على هذه الفتنة ، إلا أنهم أحوالوا
جزيرة العرب وقسموا من بلاد الشام إلى أراضى خراب . أبو الحسن علي بن
الكرم بن محمد الشيباني ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، ص ٦٩
- ٧٠ - ٧١ و ص ١٧٥ - ٢٩٩ / انظر أيضا : سيد أمير علي ،
مختصر تاريخ العرب ، (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

Trimingham , p . 4 , Reusch, p. 87 .'

Reusch, Op. Cit., P. 90

- ١١

١٢ - مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٨ .

١٣ - Stigand, p. 30. ; J. Gray , History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856 (London 1962,) p. 11 .

١٤ - Z. March, & G.W., Kingsnorth,, An Introduction to the History of East Africa (London 1966) p.8.

١٥ - حمدى السيد ، المرجع السابق، ص ٣٥٥ ، انظر أيضا توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (ترجمة) حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٨٧ ، وانظر كذلك: عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص ٧٧ . انظر أيضا :

Enrico Ceruli Cart. "Makdishu" , Encyc. of Islam, Vol III , p.165.

١٦ - مروج الذهب، ج ١ ، ص ١٩٨ / راشد البراوى ، ص ١٩ . انظر أيضا :

Reusch, p. 85., Stigand, pp. 7 - 8 .

١٧ - Freeman & Crenville, The East African Coast (Select Documents from the first to the earlier Nineteenth Century (Clarendon Press 1962) p. 84 .

- ١٨ Gray p. 22 .

١٩ - معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ١٢٠ .

٢. - عماد الدين اسماعيل بن محمد عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٦٠ - ١٦١ (مكان وتاريخ النشر بدون) .
- ٢١ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .
- ٢٢ - Hamer ، معناها أرض الذهب الصومالية ، انظر : حمدى السيد ، ص ٣٥٧ .
- ٢٣ - حمدى السيد، ص ٣٥٦ .
- ٢٤ - عبد الرحمن زكى - ص ٧٢ .
- ٢٥ - حمدى السيد ، ص ٣٥٧ ، Reusch , Op. Cit., p. 86 .
- ٢٦ - حمدى السيد، ص ٣٥٧ .
- ٢٧ - أرنولد ، ص ٢٨٧ .
- ٢٨ - مقديشو (مقديشو) بالفتح، ثم السكون، وفتح الدال، وشين معجمه (ياقوت، المصدر السابق، ج ٨ ، ص ١٢٠) ، مضبوط بالشكل كذا بفتح الميم، وسكون القاف ، وكسر الدال المهملة، وضم الشين المعجمة، وفى آخره واو : أبو الفداء ، ص ١٦٠ .
- ٢٩ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165 .
- ٣٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٧ .
- ٣١ - حمدى السيد ، ص ٣٥٨ .
- ٣٢ - Stigand, p.7 Freeman & Grenville, p. 84. Reusch, p. 85 -
- ٣٣ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol.-

111, p. 165, Reusch, pp. 85-151, Stigand, p.7

انظر أيضا : ياقوت ، ج ٨ ، ص ٢٠ .

Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. - ٣٤

111, p. 165,

٣٥ - جمع لكلمة مقديشو (حمدي السيد ، ص ٣٥٦) .

Enrico Ceruli, Op. Cit. , p. 165 . - ٣٦

Enrico Ceruli, p. 165 . - ٣٧

Op. Cit. p. 165 . - ٣٨

Ibid , p. 165 . - ٣٩

٤٠ - مروج الذهب، ج ٢ ، ص ٦ / حمدي السيد، ص ٣٥٥ .

٤١ - مركه، اماره إسلامية على المحيط الهندي في الساحل الشرقي لأفريقيه
وهي جنوب مقديشو وشمال براوة. ومركه على شطى نهر يخرج من مقديشو
ويصب على مرحلتين من المدينة في شرقها ومنه فرع يكون خورا لمركه.
ومركه بالميم والراء المهملة ثم كاف في الآخر. أبو الفداء، المختصر في تاريخ
البشر، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

Reusch, Op. Cit. , p. 85 . - ٤٢

٤٣ - أبو الفداء ، المختصر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

Stigand, Op. Cit. , pp. 9 - 10 . - ٤٤

٤٥ - حمدي السيد ، ص ٣٦٠ .

٤٦ - المرجع نفسه .

- ٤٧ - المرجع نفسه .
- ٤٨ - Stigand, p. 52 .
- ٤٩ - Trimingham, Op. Cit., p. 3 / Reusch, p. 85 .
- ٥٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .
- ٥١ - عبد الرحمن زكى، ص ١١٨ .
- ٥٢ - بن معناها الفضاء الكبير كذلك، (حمدى السيد، ص ٣٥٨ - ٣٥٩) .
- ٥٣ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .
- ٥٤ - المرجع نفسه .
- ٥٥ - Stigand, Op. Cit. , p. 30 ff. "Reusch, Op. Cit, p. 185 ff
- Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165,
- ٥٦ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ابن بطوطه ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ص ١٨٩ - ١٩٢ .
- ٥٧ - ابراهيم على طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٢ .
- حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ص ٣٣ .
- Enrico Ceruli, p. 165
- ٥٨ - W. Basil , & Worsfold. Portuguesse Nyassaland- (London - 1899) p. 22 .
- ٥٩ - James . Duffy, Portuguesse Africa (London, 1961)

p. 26 .

٦٠ - حمدى السيد ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

Franz Babinger , art. "Sofala," Encyc, of Islam .

Vol. 4 (1) p. 472; Freeman & Grenville, Op. Cit., p. 59 .

٦١ - M., Guillian Documents sur l'histoire , la geographic et le commerce de l'Afrique Orientale, 3 Vols (Paris 1956, p.

33 See also Reusch, Op. Cit., p. 45 .

٦٢ - براوة، امارة عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة عام ٩١٣، وهى بالقرب من
مقديشو .

٦٣ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

٦٤ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

٦٥ - مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية - رينيه باسيه حققه فهم شلتوت
(القاهرة ، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م) .

٦٦ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٧ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٨ - انظر : عرب فقيه، فتوح الحبشة ، ص ٥٧ وما بعدها .

٦٩ - عرب فقيه ، ص ٧٦ .

٧٠ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

٧١ - شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن
التاسع، (القاهرة ١٣٥٣ هـ ج ١ ، ص ٢٣٢ ، جمال الدين أبى المحاسن

يوسف ابن تغرى بردى .

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق أحمد نجاتى ، (القاهرة ١٩٥٦)

ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . السخاوى ، الضوء اللامع، ج ٥ ، ص ١٦٠ .

٧٢ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

٧٣ - ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

Trimingham, Op. Cit. p. 18 Seq. - ٧٤

الضياع الأُموية في الشام في العصر العباسي

بقلم : أ. د. عبد المنعم هاجد
أستاذ التاريخ الإسلامي،
والخبير الوطني لمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس

وجد ديوان الضياع^(١) فى عهد العباسيين ؛ لينظر أصلا فى أمر الضياع التى كانت فى حوزة الأمويين فى الشام «ضياع بنى أمية»^(٢) . فكان ظهوره يعنى أن العباسيين قد قضوا نهائيا على الأمويين، وأنه أصبحت لهم السيادة الكاملة على ممتلكاتهم . فهو ثمرة للانتصار الحربى ، والتفاعل النفسى عند العباسيين نحو الأمويين .

ومع أن البحث عن تفاصيل هذا الديوان أو غيره ؛ ليس بالأمر السهل ؛ لأن المادة التاريخية تكون عادة متوفرة لسرد تاريخ الحروب؛ إلا أنها تكون قليلة ، أو حتى نادرة ؛ لنظم الدولة السياسية . ومع ذلك ؛ فإن هذه المادة القليلة عن هذا الديوان ، مكنتنا من القبض على الخصائص والأهداف، التى استوجبت ظهوره ؛ ولا سيما أن المؤرخ يضغط المادة التاريخية المتاحة بحديثاته .

ولا شك أن الحفر وراء ظهور ديوان الضياع العباسى؛ يبين قبل كل شئ ؛ علاقته الوثيقة بالجهاز الإدارى فى دولة العباسيين، الذى اتخذ شكلا بيروقراطيا ملحوظا؛ بهدف أن الأوامر الإدارية تصدر عن العاصمة بغداد وحدها إلى الأقاليم. حقا إن كلمة ديوان فارسية الأصل، وتعنى الكتاب والمحيز المكائى الذى يجمعهم، وأن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤) ؛ هو أول من عمل بنظام الدواوين الفارسية ؛ فقبل إن عمر دون الدواوين^(٣)، وهى التى انتقلت فى عهد

(١) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا والأبيارى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٧ /

١٩٣٨، ص ٢٧٧ ؛ انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 324 .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٨ .

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٥ .

الأمويين من المدينة إلى دمشق ، ثم عربها^(١) عبد الملك بن مروان (ت ٦٥ - ٦٨٥ / ٨٦ - ٧٠٥) ؛ بعد أن كانت تكتب بلغات الشعوب المفتوحة ؛ إلا أن التنظيم الديوانى البسيط، فى عهدى الراشدين والأمويين ؛ قد تضخم تضخما كبيرا على يد العباسيين .

ومع ذلك ؛ فإن ظهور ديوان الضياع العباسى ارتبط قبل كل شىء بالنظام المالى العباسى ، الذى قام على أنقاض النظام المالى السابق فى عهد الأمويين . فكانت الدولة العباسية بأيدولوجيتها من الشعبية، التى قامت على أكتافها ، ولاسيما الفرس ؛ لديها القدرة على استيعاب أنظمة مالية جديدة. فديوان الضياع لم يكن له وجود قبل العباسيين؛ كما لم يكن للعباسيين ضياع من قبل .

وقد ظهر ديوان الضياع العباسى؛ بظهور دولة العباسيين فى عهد أبى العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ / ٧٥٠ - ٧٥٤) ، أول الخلفاء العباسيين، باسم : ديوان المحجوزة^(٢) ؛ ليعنى الحجز على ممتلكات الأمويين ، بما فيها ضياع الخلفاء الأمويين وأفراد أسرهم. فلدينا نص يقول^(٣) : إن أبا العباس استولى على ضياع مروان وآل مروان. ولكن فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥) ، الذى اعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وتسلسل عنه بقية الخلفاء العباسيين ، وليس عن أخيه، ظهر هذا الديوان باسم : ديوان الضياع^(٤)؛ ليعنى فى مضمونه ، مثلما كان يعنى فى عهد سلفه؛ مصادره ضياع الأمويين فى الشام ؛

(١) كتب ديوان الجند بالعربية ؛ منذ عمر بن الخطاب .

(٢) الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛ انظر : ماجد ، العصر العباسى الأول ، ط ٣ ، ص ١١٠ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ ؛ وقبله .

لحساب العباسيين . حقا إنه وجد فى عهد المنصور ديوان آخر للمصادرة (١)؛ ولكنه لم يكن له علاقة بضياح الأمويين ، وإنما بالأولى بمصادرة ممتلكات أعدائه السياسيين، وهم كثيرون .

كذلك لا نظن بأن عمل ديوان الضياح العباسى، والدولة ناشئة ، اقتصر على مصادرة الضياح الأموية وحدها ، وإنما امتد نشاطه إلى مصادرات أخرى ؛ فقد ذكر أنه : استصفيت أموال الأمويين (٢) . فقد كان للأمويين اقطاعات عديدة؛ حدثت لهم فى الشام ؛ منذ عهد عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ / ٦٤٤ - ٦٥٦) ؛ فيما عرف بأرض الصوافى (٣) ؛ وهى أرض امتلكها العرب من الروم ، وأصبح أمرها للخليفة الأموى (٤)، يقطع منها ما يشاء . ومن بعد قام معاوية ابن أبى سفيان ؛ بمسح شامل لأرض الصوافى فى بلاد الشام، واستصفى لنفسه ، وأقطع أهل بيته بل فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ من كثرة ما اقطع من أرض الصوافى؛ لم يبق شاغر فى الشام (٥) .

فكان ديوان الضياح العباسى ، مثل غيره من الدواوين العباسية الأخرى ؛ يوجد فى بغداد العاصمة؛ بالعراق. فالإدارة فى الدولة العباسية إدارتان ؛ إدارة مركزية فى العاصمة ، وإدارة خاصة فى الأقاليم؛ وإن كانتا مرتبطتين. ولذلك اهتمت الدولة

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٣ ص ١٢٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١١٥ ؛

انظر . Ency of Isl , T. 2 p. 324 .

(٢) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٤ .

(٣) ابن عساكر، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٣ .

(٤) ابن عساكر ، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٢ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٣٤ .

العباسية بالبريد^(١) ووسائله ومحطاته والطرق المؤدية إلى الأقاليم، التي عرفت باسم: المسالك ؛ لربط بغداد العاصمة بالأقاليم. كذلك وجد في عهد محمد المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥) ، دواوين الزمام وزمام الأئمة^(٢)؛ لمراقبة الأموال في الدواوين العباسية جميعها؛ بما فيها أموال الأقاليم؛ حيث وجد ديوان باسم: ديوان زمام الشام^(٣). وربما كان الإشراف على ديوان زمام الأئمة ، وهو في العاصمة ؛ للوزير ، الذي كان منصبه غير موجود في العصر السابق ؛ إلا على سبيل المجاز .

وثمة أمر آخر أن ديوان الضياع العباسي لم يكن مقطوع الصلة بديوان الخراج^(٤) في العاصمة بغداد، وهو يتعلق بضريبة الأرض ، حيث نشأت مجموعة من الدواوين تتبعه، منها ديوان خراج الشام^(٥) ، الذي اعتبر فرعاً له في الشام ، وكان المنصور يوليه لأهل الشام^(٦). ولم يكن ديوان الخراج قبل المنصور ديواناً، وإنما يعبر عنه بيت المال^(٧) ، الذي صار هو الآخر ديواناً؛ يجتمع فيه الفائض من الموارد

(١) الجهشيارى ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الفخرى ، ص ١٤٨ ؛ صبح الأعشى ، ١٤ ص ٣٩٥؛ انظر : سعادوى ، نظام البريد في الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٣ : 2 Ency of Isl (art BARID) ed, T I, p. 1045 sqq

(٢) الجهشيارى ، ص ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ١١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٤ . ظهر ديوان الزمام في عام ١٦٢ / ٧٧٨ ، أما ديوان زمام الأئمة في ١٦٨ / ٧٨٤ .

(٣) الجهشيارى : ص ١٦٨ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ٢ ص ٤٧٤ ، ٤٨٠ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ انظر

Ency of Isl (art Kharadj) 2ed, T 4 , p. 1030 sqq. هي كلمة سريانية الأصل استعريت .

(٥) الجهشيارى ، ص ٧٧ . كفله المنصور لصالح بن على ؛ مع خراج مصر وإفريقية .

(٦) الطبرى ، ٩ ص ٢٩٧ س ١١ .

(٧) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ . بعامة ، انظر .

Ency of Isl (art Bayt al - Mal) 2ed, T I, p. 114 sqq.

العامّة، أو الصوافى من المال والبضائع، بل وجد بجانبه ديوان لهذه الصوافى؛ وهى الباقى عن حاجة الإقليم من النفقات المحلية؛ كأعطيات الجند، وما يلزم لحفظ الطرق، وصيانة المرافق العامة . فثراء الدولة يقاس عادة على أساس ما يتبقى لها من مال؛ على سبيل الاحتياط.

فالضياع والأقاطيع فى الشام هى أرض، والأرض تفرض عليها ضريبة الخراج. فكل قطعة أرض عليها بالضرورة مقدار من المال؛ حسب التشريع المالى فى الدولة الإسلامية. فكان الخراج أو ضريبة الأرض يفرض بالمساحة منذ أيام الخلفاء الأوائل، ثم أصبح يدفع بالمحصول منذ عهد المهدي العباسى، وهو ما عرف بطريقة المقاسمة^(١). ويؤكد على ذلك أن بعض أهالى الضياع من المزارعين بفلسطين، كانوا قد هجروها؛ فأرسل إليهم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، قائده هرثمة بن أعين لعمارتها؛ على أن يخفف عنهم الخراج ؛ فعرفوا بأصحاب التخفيف^(٢). فقد كان من يعمل فى ضياع الشام ، من أهل الشام ؛ حيث أن عرب الشام لم يعودوا مشغولين بالحروب . وتوجد ملاحظة بخصوص أرض الشام للكاتب الفارسى المعروف ابن المقفع^(٣) (حوالى ١٣٩ / ٧٥٦)، الذى عمل من قبل فى دواوين

(١) أبو يوسف ، الخراج، ص ٤٣؛ فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ الماوردى ، أحكام ، ص

١٣٤ ؛ انظر الرس ، الخراج ، ص ٤٣٠ ؛ الخضرى ، محاضرات ، ص ٢١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٠ .

(٣) وهو من أهل جود، قرب شيراز؛ عمل لابن هبيرة والى العرق، من قبل الأمويين. الجهشيارى ،

ص ١٠٩ ؛ انظر . Ency of Isl (art Ibn al - Mukaffa) 2ed. T 3 . p. 1883 - 5 .

الأمويين بالعراق ، فى رسالته للمنصور المعروفة : برسالة الصحابة^(١)، يقول فيها:
ومن العدالة أن تترك واردات خراج الشام لمتطلبات أهلها، وإرسال ما تبقى لبيت
المال.

وقد استمر وجود ديوان الضياع فى عهد خلفاء المنصور؛ بما يبين أنه قد أصبح
من أسس نظام الدولة العباسية؛ فقد وجد ديوان الضياع^(٢) فى عهد هارون الرشيد.
وفى عام ٩٢٧/٣٢٥، أى حوالى زهاء قرنين من الحكم العباسى، وجد ديوان
باسم: الضياع الخاصة والمستحدثه^(٣)؛ مما يعنى الضياع العباسية السابقة، وما
استحدث من ضياع بعد ذلك. كذلك بقى لديوان الضياع العباسى على طول حقبة
الحكم العباسى ؛ مضمونه فى شكل المصادرة، الذى وجد له منذ قيام الدولة
العباسية. ففى عام ٩١٣/٣٠١، وجد ما سُمى بديوان الضياع المقبوضة^(٤)، أو
ديوان المصادرة^(٥).

فكان ديوان الضياع العباسى، مثل غيره من الدواوين فى بغداد عماده كاتب

(١) نشرت فى جمهرة رسائل العرب؛ لأحمد زكى صفوت، ٣ ص ٢٥ وما بعدها؛ انظر . الرئيس ،

الخراج ، ص ٤١٢ - ٤١٤ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ .

(٣) الصابى ، الوزراء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛

انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 325 .

(٤) الصابى ، الوزراء ، ص ٢١ ، ٣٠ ؛ مسكويه ، تجارب ، ١ ص ٨٤ ؛

انظر Ency of Isl , T. 2, p. 325 .

(٥) الصابى ، الوزراء ، ص ٣٠٦ ، ٣١١ .

الديوان ، وهو من أرباب الأقلام ، وعرف عادة باسم : وكيل الضيعة^(١) ، وهو فى العصر العباسى الأول كان من موالىهم الفرس^(٢) ؛ وإن كان اختياره أصبح يتوقف على خبرته فى شئون المال، ومعرفته بالتقنية الزراعية ؛ لأن الضياع أصلها مزارع . ومن المعروف أن الشام تعد بأراضيها من أخصب البقاع المزروعة؛ فقد اعتبرت جنة الأرض^(٣) للعرب الفاتحين الأوائل، وفضلوها على الحجاز، وبقوا فيها. ولما أصبحت الشام دار خلافة فى عهد الأمويين؛ فإن أرضها استغلت أعظم استغلال^(٤)؛ فالأراضى تتميز إذا اعتنى بها. فقد ظهرت عناية فائقة من خلفاء الأمويين؛ بوسائل الري، التى تساعد على الانتفاع بمصادر الماء . فتوجد فى الشام أنهار كبيرة وأخرى صغيرة عديدة؛ مثل : بردى، والعاصى ، والأردن، وقويق ، وأبى فطرس ، وغيرها. كذلك أحتفرت القنوات^(٥) ، واهتم بالترع، والآبار، والعيون المائية، وبناء صهاريج الأمطار^(٦) .

(١) الجهشيارى ، ص ١٨٠ .

(٢) أولهم مولى أبى العباس ، عمر بن حمزة . الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛

انظر . Ency of Isl (art Katib) 2ed , T 4 , p. 756 .

(٣) الراقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص

١٨٥ - ١٨٦ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٨ ، ٤ ص ٤٧٠ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

فكانت الضياع الأموية في الشام ، التي استولي عليها العباسيون كثيرة ومنتشرة في كل مكان؛ حيث أشار إلى ذلك البلاذري في عدة مواقع ^(١). بل إن المنصور أمر مهندسين له بتصويرها ^(٢) ؛ فصوروها ، وعرضوها عليه؛ حتى لا يفلت منها شيء. كذلك أمر المنصور بإحصاء أراضي الشام، وأرسل إلى دمشق إسماعيل بن عباس «عدّل أراضيها» ^(٣). فكان مسحها بذراع - وهو مقياس للأرض - سمي الهاشمية ^(٤) ؛ نسبة إلى أسرتهم . فكان ما يثبت منها في الدواوين في عهد المنصور، يكون عادة في صحف ؛ فقد ذكر القرطاس والقراطيس ^(٥) ؛ وهي تسمية للفائف البردي المصرية ، التي كان يكتب فيها؛ ولكنها أصبحت في دفاتر ^(٦) منذ عهد الرشيد، ربما لظهور صناعة الورق. ولعل السبب في إحصاء الأراضي في عهد المنصور؛ على حسب ملاحظة أخرى لابن المقفع ^(٧) ؛ أن فترة الانتقال بين الدولتين ؛ الأموية والعباسية؛ قد أضاع الأوراق الخاصة بالأراضي، ولا سيما في الأقاليم . وقد كثر استخدام لفظة «الضياع» ، ومفردتها «ضيعة» ، في الشام منذ عهد

(١) نفسه ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ انظر : الريس ، الخراج ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ، ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٧٧ .

(٤) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٣٧ ؛ انظر : صبحي الصالح ، نظم ، ص ٤١٣ .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٠٢ ، ١٣٨ .

(٦) نفسه ، ص ٨٩ ؛ بعامة : . Ency of Isl (art Daftar) 2ed, T2 , p. 77 .

(٧) الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ جمهرة رسائل العرب، ٣ ص ٢٥ وما بعدها .

معاوية؛ وإن أطلق عليها الزراعة»^(١) أيضا ؛ لتعنى المزرعة. ومع ذلك : فلم تكن الضياع الأموية فى الشام أرضا للزراعة فقط ؛ وإنما دور وقصور وبساتين؛ حيث اشتهرت الشام فى وقت الأمويين بالبستنة. فشمّل العمران فى عهد الأمويين البادية والحضر، واستحدثت المدن الجديدة ، بما فيها عواصمهم الصحراوية ، وامتلأت دمشق ذاتها بالقصور والدور والبساتين الكثيرة^(٢) .

فكانت الضياع التى استولى عليها العباسيون من الأمويين ؛ تعرف «بضياع الخلفاء»^(٣) ؛ وهى الضياع النفيسة^(٤) ؛ كما أعطى البعض^(٥) لأفراد أسرة الخلفاء العباسيين، الذين أصبح يطلق عليهم الأشراف^(٦)؛ حيث كانت تجرى لهم فى دواوين الدولة الإموال ، أو ما عرف بعطاء الذرية^(٧) . كذلك وجد فى عهد العباسيين^(٨) بيع

(١) الكامل ، ٥ ص ٤٩٧ .

(٢) ابن عساكر ، تهذيب بدران ، ٦ ص ٥٥ ؛ اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٢٦ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٣٢١ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٨٧ - ١٩٨ ؛ الطبرى ، ٩ ص ١٩٦ .

(٦) العيون والحقائق ، ص ٢٦٠ .

(٧) العبر ، ٣ ص ٣١٩ . أمر المنصور لعمومته ؛ لكل منهم بألف ألف «مليون» من بيت المال، وكان

أول خليفة أعطى ألف ألف «مليون» . الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ٥ - ٧ .

(٨) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

لبعض الضياع ؛ كما أجرت اقطاعات من الأرض لمدة معينة، بنظام الإيجار أو الإيفار^(١) ، وهو ما عرف بالأرض المغلة^(٢) ، أو حق رد بعض الضياع لأصحابها. واللافت أن بعض أصحاب الضياع من غير الأمويين ؛ كانوا يحولون^(٣) اسم ضياعهم على اسم عباسين كبار ؛ حتى لا تضيع من أيديهم .

فندكر من الضياع التى آلت إلى العباسيين من الأمويين فى الشام: ضيعة لمعاوية فى البلقاء، اسمها: «بقبش»^(٤)، التى صارت لبعض أولاد المهدي. كذلك أخذت ضياع الوليد، التى كانت عند الساحل بأنطاكية^(٥)، وصارت هى الأخرى لأبناء المهدي، ثم انتقلت من بعدهم إلى الخليفة المتوكل. كما أخذت ضياع سليمان^(٦)، وضيعة الزيتونة لهشام^(٧). بل إن إقطاع «بالس»^(٨) ، الذى كان لمسلمة بن عبد الملك، وحفر له نهر عرف باسمه؛ استولى عليه عبد الله بن على؛ لما كان بالشام، ثم أقطعه لمحمد بن سليمان، ثم صار للرشيد، ومن بعده المأمون .

(١) المارردى ، الأحكام ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) لسان العرب ، ٨ ص ٢٣٠ .

(٣) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٧ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٨ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

(٧) الكامل ، ٥ ص ٢٩٣ .

(٨) الطبرى ، ٧ ص ٢٥ ؛ مروج ، ٣ ص ٢١١ .

(٩) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٢١ .

وهكذا يتبين ، أن هذه الضياع اعتبرت فى الدولة العباسية ميراثا للخلافة ؛ على أساس أن الخليفة العباسى؛ له وحده الحق فى أموال المسلمين ؛ وهو ما يتمشى مع العقيدة الجديدة التى صارت إليها الخلافة فى عهد العباسيين؛ بحيث صيرت فى شكل فقهى أن الخلافة ميراث ؛ وليست كخلافة الراشدين أو الأمويين . فيؤثر عن المنصور قوله (١) : إنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيته ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه .

* * *

وقصارى القول إن ديوان الضياع العباسى؛ ظهر باسمه فى عهد المنصور؛ بمضمونه فى مصادرة الضياع الأموية فى الشام ؛ وأن العقيدة العباسية وقتذاك اعتبرت ضياع الأمويين فى الشام ميراثا للخلفاء العباسيين ؛ يجرى عليها ما يجرى على الميراث .

(١) الطبرى . ٩ ص ٣١٠ .

**" المصادرات وأثرها
على استقرار الملكية "**
في عهد الخليفة المقتدر بالله
٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م

اعداد

د . ضيف الله بن يحيى الزهراني

الأستاذ المشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية

بجامعة أم القرى

ص . پ (٦١٩٨)

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد :

فقد أولت شريعتنا السمحة الأموال كل عناية ورعاية وإهتمام ، وأمرت بضرورة المحافظة عليها ، فشرعت الرقابة العامة على الأموال ، وشرعت محاسبة كل من تسول له نفسه بالعبث أو الاختلاس من أموال الدولة ، وقد جرت بالفعل محاسبة كل من شاب تصرفه شائبه فى هذا الشأن ، وقد شكلت أموال المختلسين والثائرين جزءا من موارد بيت المال فى القرن الأول الهجرى (١) .

وكانت المصادرة فى بادىء الأمر مؤقتة تكمن وراء عوامل سياسية أو تنظيمية ، أو شخصية ، إلا أن المصادرة تطورت خلال فترة خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) من ناحيتى الأسباب والمظاهر ، فقد وضع من خلال هذه الدراسة أن السبب الأساسى والرئيسى " هو الطمع فى أموال المصادرين بدافع الحاجة إلى الأموال " (٢) وقد رأى الباحث أن يلتمس هذا الخلل المدمر فى جسم دولة المقتدر ، فعقد العزم بإذن الله على الكتابة فى موضوع المصادرات لكشف هذا الداء والوقوف على أسباب المصادرة وفئات المصادرين ونوعية المادة المصادرة ، ثم الحديث عن الجهاز الإدارى الذى كان يتولى عملية الإشراف والتنظيم ، وأخيرا الكشف عن الأثر الذى سببته المصادرات على استقرار الملكية . وكانت الدراسة فى هذا البحث على النحو التالى :

المدخل :

يشتمل مدخل هذا البحث على جانبين مهمين : الجانب الأول : عن شخصية

الخليفة المقتدر موضوع الدراسة ، والجانب الثانى عن الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، وذلك بشكل مختصر وموجز .

الجانب الأول : شخصية المقتدر بالله :

هو ابو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بالله بن أبى أحمد الموفق طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبدالله المنصور ابن محمد ابن على بن عبدالله بن العباس ^(٣) ، ولد يوم الجمعة ٢٨٢/٩/٨ هـ / ٨٩٥ م ، نشأ الأمير جعفر فى قصر الخلافة بين أحضان والدته - شغب - وهى إحدى جوارى الخليفة المعتضد بالله ، وبحكم كونه ابنا من أم ولد ، فلا بد أنه نشأ بين الجوارى والحريم ، لم يتعلم من أمور الخلافة شيئا ، فلم يسهم بأى نشاط إجتماعى ولم يشارك فى حملة عسكرية قبل تولية الخلافة .

تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة المكتفى بالله ، وكان ذلك بتاريخ يوم الأحد ١٣ / ١٢ / ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م ، وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام . وقد تولى الخلافة وهو صغير السن ، فغلب على الأمر أناس لا هم لهم إلا جمع الأموال وحياسة المناصب القيادية والإدارية فتعشرت أمور دولة المقتدر بالله وقاس خلال فترة حكمه أهوالا عظيما لم يكن فى مستواها وتكالبت عليه عناصر الغدر والخيانة حتى قتل فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م خلفا وراءه دولة مفككة العرى ، منهارة القوى فكان حكمه وصمة عار فى جبين الدولة الإسلامية

الجانب الثانى : الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، ونهدف من وراء هذه الفقرة إيضاح موقف دولة المقتدر المالى . ذلك الموقف الذى اتسم بالعجز المالى طوال الفترة التى حكمها المقتدر التى تمتد ما بين عامى (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ -

٩٣٢ م) وقد أكدت جل المصادر والمراجع تلك الضائقة المالية ووصفت عهده بعهد التبذير والإسراف المفرطين .

ولعل هناك مجموعة من العوامل أدت إلى تفاقم الأزمة المالية نذكر منها :

(١) صغر سن الخليفة وضعف شخصيته ، فقد تولى الخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام .^(٤)

(٢) تدخل النساء فى شؤون الخلافة . بحيث صار الخليفة تحت تأثيرهن حتى " غلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم " ^(٥) وبرز من النساء أم المقتدر (شغب) والتي تلقبت بلقب السيدة ، فكانت سيدة البلاط العباسى بدون منازع .

(٣) فساد النظام الإدارى ويأتى فى المقدمة ، فساد نظام الوزارة والمتبع لنظام الوزارة فى عهد المقتدر يدرك الضعف الحاصل فى منصب الوزارة ، فقد تولاها كل من يدفع مالا أكثر وأسرف الخليفة فى تولية الوزراء وعزلهم ، وتعرض معظمهم للمصادرة والسجن والقتل ، ومن هنا كان هم الوزير هو الحصول على الأموال لنفسه أولا ، ثم لسد نفقات الخلافة ثانيا ، ونتيجة لذلك أصبح نظام الإدارة من أفسد النظم ^(٦) .

(٤) تفشى الرشوة ، ويعتبر داء الرشوة من أخطر الظواهر التى ساعدت على تفاقم الوضع المالى ، فقد انتشرت الرشوة بين كبار موظفى الدولة بمافيهم الوزراء^(٧) ، وقد تعاطاها الغالبية العظمى من موظفى دولة المقتدر ، فكانت النتيجة ، أن الجميع وقع فى أمر محرم شرعا .

فعندما استشرى سرطان (داء) الرشوة صاحب ذلك فساد النظام الإدارى

والمالى فوقعت الدولة تحت طائلة العجز المالى .

(٥) تدخل الجيش فى سياسة دولة المقتدر ، فقد قام قائد الجيش مؤنس بالتدخل فى حياة الخليفة بالإضافة إلى التدخل فى اختيار الوزراء وعزلهم (٨) وأصبح شغب الجند وهياجهم وإحداثهم الفتن أمر مألوفاً (٩) " ولا سيما فى سبيل الحصول على الأموال ، وكانت نتيجة تدخل الجيش فى سياسة الدولة أن تفاقمّت الأزمة المالية أولاً ، ثم الإطاحة بالخليفة وقتله على يد الجيش (١٠) فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ثانياً .

المصادر :

التعريف :

تحدثت كتب اللغة عن تعريف المصادر بإيجاز شديد ، فقد ذكرها ابن منظور بقوله " ومن كلام كتاب الدواوين أن يقال : صدر فلان العامل على مال يؤديه ، أى فيورق على مال ضمنه " (١١) وفى مختار الصحاح " صدره على كذا من المصادرة " (١٢) والمصادرة ، اصطلاح ، والصدر هو الرجوع بعد الامتلاء بالماء ويقابله الورد وهو عند اللغويين مثل الرجوع وكلمة صدر هى المال الذى يؤخذ من المصادر (١٣) وقبل بزوغ مصطلح المصادرة كان يسمى المال المأخوذ من العمال مشاطرة أو مقاسمة ، وفى عهد الدولة الأموية كان يسمى المال المستخرج من العمال بالأموال المستخرجة (١٤) ، أما نشأت مصطلح المصادر فظهر لأول مرة فى الدولة العباسية ، حينما كثرة المصادر ولاسيما فى الفترة الثانية من العصر العباسى الثانى . وقد ترسخ هذا المصطلح فى عهد الخليفة المقتدر بالله عندما أنشأ لهذا الغرض ديوانا خاصا بالمصادر (١٥).

ونستطيع القول بأن تعريف المصادر فى المصطلح العام هى :

" الأموال التى يستخرجها الخليفة وأعوانه من كل من مسته شائبة غدر وخيانة ، سواء من موظفى الدولة أو من فئات المجتمع الأخرى ووضع هذه الأموال تحت تصرف الخليفة ونظره " فتصادر الدولة الأموال او الممتلكات ، أى تنتزعها من صاحبها عقوبة له .

أسباب المصادر :

لقد أصبحت المصادر فى عهد الخليفة المقتدر بالله ظاهرة واسعة الانتشار

وتعددت الأسباب التي أدت الى شيوع المصادرات وانتشارها ، وقد أجمالنا تلك الأسباب على النحو التالي :

أولاً : الأسباب المالية :

كان للأزمات المالية الدور الفعال في وجود المصادرات والمتفحص لتاريخ الخليفة المقتدر يدرك أن أغلب المصادرات " قد جرت في ظل أزمات مالية ، كانت الدولة فيها بأمس الحاجة الى ايجاد المال لسد نفقات الدولة ، ولكبح شغب الجيش الذي كان دائماً يطالب بإرزاقه المتأخرة (١٦)

فكان الخليفة يلجأ إلى مصادرة أعضاء حكومته متى ماكانت خزنته فارغة من الأموال (١٧) ، ونضرب على ذلك مجموعة من الأمثلة :

- لقد صادر الخليفة وزيره ، أبا الحسن بن الفرات على مبلغ عشرة ملايين دينار (١٨) لحاجة الدولة الى الاموال وفراغ بيوت الأموال ، وعجز الوزير عن توفيرها .

- وفي عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، صادر الخليفة وزيره الخاقاني (١٩) لعجزه عن توفير الأموال .

- وفي عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م صادر الخليفة وزيره حامد بن العباس (٢٠) للسبب نفسه .

- وفي عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م صودر الوزير الخاقاني وأبعد عن الوزارة لعجزه عن معالجة الضائقة المالية (٢١) وكذلك كان حال الوزير الخصيبى ، فقد تفاقت الأزمة في عهده ، ولم تتوفر له الاموال اللازمة لسد نفقات الدولة مما جعله يلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الناس واشتد في المطالبة " ولم يدع عند أحد مالا

أحسن به إلا أخذه بأتعس مايكون الأخذ " (٢٢) وكذلك كان الحال فى وزارة ابن مقله (٣١٦ - ٣١٨ هـ / ٩٢٨ - ٩٣٠ م) ثم فى وزارة سليمان بن الحسن بن مخلد (٣١٨ - ٣١٩ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م) ، فكان العجز المالى هو السبب فى مصادرة الوزراء والتنكيل بهم ، وإبعادهم عن منصب الوزارة .

ثانيا : الأسباب السياسية :

" بلغت المصادرة ذروتها فى أيام المقتدر ، لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه ، وأفضى تدبير الأمور فى صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه " (٢٣) وفى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م قبض الوزير ابن الفرات على محمد بن عبدون (٢٤) وصادره ، وأوعز بقتله لأنه كان يطلب منصب الوزارة (٢٥) ، وفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانه (٢٦) وقبض عليها وصادرها ، وقيل فى سبب مصادرتها :

أ - أن المقتدر مرض فبعثت إلى بعض أهله ليتولى الحكم .

ب - وقيل أنها زوجت بنت أخيها لمحمد بن اسحاق بن المتوكل ، فوشى بها الناس أنها مافعلت ذلك إلا لكى تُنصب محمد بن اسحاق فى الخلافة (٢٧) .

وهنا ندرك أن تلك الحالات من المصادرة كانت تتم لأغراض سياسية أو شخصية ، فكان تدهور الأوضاع السياسية " من الدوافع التى أدت إلى المغالاة فى المصادرة

لتتخلص الدولة - ولو مؤقتا - من حالة العسر المالى الذى يعانى به بيت المال " (٢٨)

ثالثا : فساد الأنظمة الإدارية :

يأتى فى مقدمة الأجهزة الإدارية التى واكبها الضعف جهاز الخلافة وذلك لصغر سن الخليفة ، ثم جهاز الوزارة والدواوين ولعل أخطرها على الإطلاق هو جهاز الوزارة ، فقد أصبح من الضعف بحيث تولاهما كل من يدفع مالا أكثر ، فانهسرت هيبة الوزراء وأصبح نظام الإدارة من أسوأ النظم ، نتيجة لتسلط الخدم والحشم ، والنساء ، والجيش على شؤون الدولة ونتج عن ذلك تعدد الوزراء ، بحيث بلغ عددهم فى عهد الخليفة المقتدر اثنى عشر وزيرا صودر معظمهم ، وماتبع ذلك الإجراء " من تغيير العمال الأكفاء فى أرجاء الدولة وما صاحب ذلك من إستبداد الحكام بالناس وسيطرتهم على أموالهم بدون حق ، وأدت هذه المظالم الى قيام الثورات " (٢٩) ، ثم " إن بعض الطامعين بالوزارة كان يتعهد للخليفة بأداء مبلغ كبير من المال مقابل حصوله على منصب الوزارة فأدى هذا الأسلوب الى زيادة حدة المنافسة وإلى المساومة على طلب الوزارة وأدى أيضا الى اضطراب شؤون الدولة والإدارة ، وعدم كفاءة الوزير ، حيث تولى هذا المنصب شخصيات ضعيفة كانت تسمى إلى البلاد " (٣٠) أمثال الوزير الخاقانى ، والوزير حامد بن العباس والوزير الحضيبي ، والوزير ابن مقله ، والوزير الحسين بن القاسم .

رابعاً : انتشار الرشوة ، والوشاية :

من أسوأ مظاهر عهد الخليفة المقتدر تفشى مرض الرشوة بين الوزراء وولاة الأقاليم ، ومرد ذلك إلى الخليفة نفسه ، وحاشيته ، ومن خلال استقراء فترة وزارة الخاقانى (٢٩٩ - ٣٠١ هـ / ٩١١ - ٩١٣ م) نجد أن أولاده سيطروا على مجريات امور الوزارة وسعوا جميعا للحصول على الرشوة وأسرف الوزير فى تولية العمال " حتى أنه ولى على الكوفة فى خلال عشرين يوماً سبعة من العمال ، دفع كل منهم رشوة كبيرة له " (٣١) ، وكان الخاقانى يحصل على الرشوة من كل عامل يوليه حتى قيل من الاشعار (٣٢) :

وزير مايفيق من الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

وقد استطاع ابن الفرات ان يتقلد الوزارة للمرة الثانية ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م بعد أن تعهد بتقديم مبلغ كبير للخليفة وحاشيته (٣٣) وقد أكد الأزدى على أن الخليفة ، كان يصانع الخدم ويستمع إليهم فى تولية الوزراء وعزلهم ، فقال فى ذلك " واستوزر المقتدر اثنى عشر وزيراً ، يولى هذا اليوم ، ثم يصانع الخدم فيعزله غدا ويولى الذى رشا " (٣٤)

أما عن الوشاية

فقد قامت بالدور الأكبر فى نكبة الوزراء ، وسجنهم ، وقتلهم فى غالب الأحيان " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع الى أقوال المنافسين ويصفى الى مقالة الحاقدين " (٣٥) وأتهم الوزراء بعضهم بعضاً بسوء التصرف والخيانة ، وقد تكون هذه ألتهم صحيحة فى حق الوزير ، ولكن فى أوقات أخرى " قد تكون الاتهامات

ضد الوزير المعزول واهية ، وليس لها أى سند شرعى ولا مسوغ منطقى ، ولا يعدو أن يكون الدافع طابعه الحسد والغيرة وحب السيطرة والمنافسة المشوبة بالخداع والتآمر " (٣٦) فقد وقع ابن الفرات فى حبال الوشاية حينما وشى به نصر الحاجب لدى الخليفة بقوله بأن الوزير يريد التآمر على الخليفة ، فنكبه الخليفة وصادر امواله (٣٧) ولم يسلم من الوشاية والحسد والحقد الوزير المصلح على بن عيسى ، فقد أفسد الخدم امره (٣٨) ، وأمر المقتدر بالقبض عليه واحتجازه بدار الخلافة ، لعدم قدرته على الصمود أمام وشايات رجال القصر والحاشية الذين لم يرضوا باجراءاته الاقتصادية ، فوشت به عند الخليفة ، فعزله ونفاه إلى مكة واليمن ومصر (٣٩) ، فالحقد والحسد والكراهية كانت من الأمور التى أودت ببعض الوزراء ومصادرتهم ، وإن كانوا من الوزراء المصلحين .

فئات المصادرين ومعاملتهم :

أمتد نطاق المصادرات ليشمل الوزراء ، والكتاب والنساء ، والخدم والتجار ، والعمال ، " فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء والتجار " (٤٠) ويمكننا أن نفصل فئات المصادرين على النحو التالى :

(١) فئة الوزراء :

كان الخليفة يلجأ إلى مصادرة الوزير متى ألجأته الحاجة الى اموال يعجز الوزير عن توفيرها وأسرف الخليفة فى تعيين الوزراء وعزلهم ، لأنهم " استأثروا بالأموال ، وحصلوا عليها بطرق مختلفة كالرشوة والهدايا التى ترد اليهم من العمال والولاة ، ومن كبار موظفى الدولة بالإضافة إلى ما يغتصبونه من ضياع الخليفة ومن عامة الشعب ، ومصادرات بعضهم بعضا وما يسلبونه من اموال الجباية " (٤١) فقد كان

ابن الفرات يأخذ " أموال المصالحين والمصادرين . وعدل بها عن بيت المال (٤٢) " وكذلك كان ابنه المحسن ، وكان المعتاد أن يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف ويطلب منه اقتداء نفسه بالأموال (٤٣) ويحصل الوزير الجديد على الأموال من الوزير المعزول بمصادرة أمواله وأمواله . " وقد وجدت الدولة تبريرا لمصادرة أموال الوزراء والعمال لأن هؤلاء أنفسهم جنوا أموالهم عن طريق غير شرعى ، ذلك أن أغلب المصادرين قد أثروا على حساب الشعب ومن جراء سوء سلوكهم واستغلالهم مناصبهم " (٤٤) وقد تعرض جميع وزراء الخليفة المقتدر للمصادرة ماعدا الوزير عبيد الله الكلؤذاني (٤٥) .

(٣) حاشية الوزراء :

لقد أمتدت المصادرات لتشمل أسرة الوزير وأهله وأولاده ، ففي عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة المقتدر على الوزير ابن الفرات ، فصادره وصادر أهله ، وأخذ كل ما وجد له ولهم ، وأنهت دوره ودور بنى أخوته وأهلهم (٤٦) وعندما عزل ابن الفرات عن الوزارة للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م) تمت مصادرة أولاده ، ومنهم ابنه الأكبر المحسن الذى أخذ منه ثلاثة ملايين دينار (٤٧) ولم تسلم أسرة الوزير المصلح على بن عيسى من المصادرة ، ففي عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، إبان وزارته الأولى قبض عليه وعلى أقربائه ونهبت دورهم (٤٨) ونهبت منازل أخوى الوزير وهما ، إبراهيم وعبدالله (٤٩) ، وعندما قبض على الوزير حامد بن العباس ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تمت مصادرة صهره أبى الحسين بن بسطام (٥٠) وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م تمت مصادرة الوزير الخاقانى وابنه (٥١) ، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م صودر الوزير الخصبى وابنه أبى الحسين (٥٢) ، والمتأمل لهذه النصوص

يدرك أن أولاد الوزراء كانوا يساهمون في أعباء الوزارة بالدرجة الأولى ولذلك تتم معاقبتهم مع والديهم .

(٣) الكتاب :

استشرى الفساد الإدارى داخل الدواوين ، وضعف رئيس الديوان وكتابه واتهموا بالاختلاس فتمت معاقبتهم ومصادرة أموالهم فكان أول من عوقب بالمصادرة ، الكاتب ، محمد بن عبيدون فى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م على يد الوزير ابن الفرات^(٥٣) ، وفى عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م قبض على رئيس الدواوين على بن عيسى وقبض على ابنه وبيعت أموالهما وأملاكهما وحوسبا^(٥٤) ، وكذلك تعرض على بن عيسى للمصادرة ، عندما كان رئيسا للدواوين إبان وزارة حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) فقد صودرت أملاكه وأملاك انصاره وأعوانه^(٥٥) ، وتمت مصادرة الكاتب ، محمد بن على ابن مقلة إبان وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م)^(٥٦) وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، صودر كاتب الوزير الخاقانى ، جعفر الكرخى^(٥٧) ، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م قبض الوزير على بن عيسى على الوزير الحصىبى وصادره وصادر كاتبه اسرائيل بن عيسى^(٥٨) .

(٤) النساء والخدم :

طالت المصادرات أناسا لاجحة عليهم ، إلا فضل نعمة كانت لهم ، وقد تميز عصر المتندر بسلطة النساء ، فقد كان لهن شأن كبير فى دار الخلافة ، وقد أمتدت يد المصادرات إليهن ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة على فاطمة القهرمانة وأخذ ما عندها من المال ، وكان لها مال عظيم^(٥٩) وفى عام ٣١٠

هـ / ٩٢٢ م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة وقبض عليها وصاهاها على مليون دينار ، ولم تفلت من طائلة العقاب (٦٠) ولم تسلم أسرتها من المصادرة فقد صورا أخواها أحمد بن العباس وأختها أم محمد (٦١) ، وفي عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ ألع الوزير الخصبي في المصادرة وكاشف أرملة المحسن بن الفرات ونساء ابن الفرات (٦٢) " ونساء أخريات لرجال عملوا في الإدارة ، مما أثار عليه نقمة الناس .. حتى طالب نساء موظفيه العاملين بين يديه ، إن لم يجد عند الرجال شيئا. وتعرض بعض الخدم للمصادرة فقد صاها الوزير ابن الفرات في عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وخاها الوزير السابق حاما بن العباس ويداى مؤنسا صاهاه على مبلغ ثلاثين ألف دينار (٦٤) ، وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صورا الخاها بشراى على مبلغ ثلاثمائة ألف دينار. (٦٥)

(٥) التجار ، وبعض فئات الشعب :

لقد تعرض التجار للمصادرات ، ونالوا طائلة العقاب ، ففي عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م صورا التاجر ، الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصاص وكانت مصادرتها لأسباب سياسية ، وذلك لإشراكه في الحركة التى قام بها ابن المعتز الذى اختبأ عند ابن الجصاص (٦٦) ، وفي عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م صورا ابن الجصاص على مبالغ طائلة ، نقدية ، وعينية (٦٧) ، وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صورا أحد التجار بسبب مالووظ عليه من فضل فيما ابتاع من الضياع (٦٨) ، وقد شملت المصادرات أقواما ليسوا برسميين ، إلا أن لهم فضل نعمة ، ففي عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، قام الوزير ابن مقله بمصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل ، وتم بيعها بثمان زهيد ، مع أن هذا الثمن مخالف لما تضمنه ثبت الشراء من أنها قد

أشترت بما يزيد على بضعة عشر مليون درهم ^(٦٩) وتجمع المصادر على أن الوزير الخصبى (٣١٣ / ٣١٤ هـ - ٩٢٥ - ٩٢٦ م) لم يدع عند أحد مالا أحس به إلا أخذه بأتعس ما يكون الأخذ ^(٧٠) .

معاملة المصادرين :

لم يقتصر الأمر على المصادرة فحسب ، وإنما كان يصاحبها فى الغالب - إلحاق أشد الأذى بأولئك المصادرين ، بغض النظر عن المراكز القيادية أو المكانة الإجتماعية التى كانوا يشغلونها فى الدولة ^(٧١) ، وقد قسمنا معاملة المصادرين على النحو التالى :

أولا : القبض على المصادرين والتحقيق معهم :

كان يبدأ الوزير الجديد ببذل المحاولات لإستخراج الأموال ، ومصادرتها عن طريق الإقناع ^(٧٢) .

ثانيا : السجن :

كانت المصادرة سبيلا يوصل إلى السجن - فى غالب الأحيان - " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع إلى أقوال المنافسين ، ويصفى إلى مقالة الحاقدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه ، فإذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه " ^(٧٣) ، وفى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، غضب الخليفة على الوزير ابن الفرات ، وحبسه ، وانتهبت داره ودار أهله ، ودور كتابه ^(٧٤) ، وكان لهذه المصادرة أثرها السىء على المجتمع فى بغداد ، فقامت ثورة احتجاجات عارمة استمرت ثلاثة أيام ، نهب الناس بعضهم بعضا ، فلقى السكان من ذلك شدة شديدة ^(٧٥) ولم يكن نصيب الوزير الخاقانى بأفضل من سلفه ^(٧٦) ، وقد شمل السجن أغلب الوزراء المصادرين أمثال

على بن عيسى (بوصفه كاتباً ، ووزيراً) ، وحامد بن العباس ، وعلى بن الفرات ،
وابنه المحسن (٧٧) ، والخصيبى (٧٨) وابن مقله (٧٩) ، والقهرمانه أم موسى (٨٠) .

ثالثاً : التعذيب :

من ضمن الوسائل التى كانت تصاحب المصادرة ، التفنن فى تعذيب المصادرين ،
فعندما نكب ابن الفرات فى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، سجن فى دار القهرمانه ام
موسى وأشرفت بنفسها على تعذيب الوزير المخلوع فأمرت بتقييده ، وعرك اذنيه ،
وعدم التهاون معه (٨١) ، وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م جرى على كتاب الدواوين
من جهة ابن الفرات امر عظيم من الخبط والعسف باستعمال التعذيب ، فقد البس
على بن عيسى جبة صوف واهانه بالأذى الفاحش (٨٢). وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م
تعرض الوزير حامد بن العباس للاهانة والتعذيب ، وكان ابن الفرات (المحسن)
يشتمه أمام الناس وهو فى سجنه ، ويلبسه جلد قرد له ذنب ، ويقيم من يرقصه
ويصفعه " وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ولا يستجيزها
ذو دين ولا عقل " (٨٣) إلا أن امر هذا الوزير (ابن الفرات) لم يطل إذ تعرض
للمصادرة والتعذيب فقد حوكم ابن الفرات وابنه المحسن ، الذى القى القبض عليه
وهو مقنع بزى النساء حليق اللحية ، فقد قيذا وألبسا جبة صوف ، وضربا على
رأسيهما بالدبابيس حتى أن جسم المحسن تدود من أثر الضرب ، ومنع عنهما
الطعام أياما عديدة (٨٤) ، وقيل بأن الناس ضربوهما بالأجر ، ويقولون قد قبض
على القرمطى الكبير (٨٥) ، فنرى أن هذا الوزير وحاشيته قد لقيوا منتهى الإهانة ،
والتعسف .

وتعرضت القهرمانه أم موسى وأخوها أحمد بن العباس ، وأختها ام محمد لاشد

انواع التعذيب ، وسلم أمرهم الى القهرمانة ثمل المشهورة بقساوة القلب ،
وشراسة الأخلاق ، فقست عليهم أشد القسوة (٨٦) ، وتعرض الوزير على بن
عيسى إبان وزارته الثانية (٣١٤ - ٣١٦ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٨ م) للإهانة
والتعذيب ، وأعتقل ثمانية عشر شهرا (٨٧) ولم يسلم الوزير ابن مقله فى عام
٣١٨ هـ / ٩٣٠ م من الاهانة ، بل تعدى الأمر الى إحراق داره . (٨٨)

رابعاً : النفى :

يعد النفى والإبعاد عن حاضره الخلافة من الأمور التى كانت تصاحب المصادرة
، فقد تعرض الوزير المصلح على بن عيسى للاعتقال ثمانية عشر شهرا ، ثم نفى
الى مكة المكرمة واليمن ، ومصر (٨٩) ، إلا أن دار الخلافة لم تستطع الصمود
أمام استحكام الأزمات المالية ، فعادت فى طلبه المرة تلو المرة ، لعله يساعد فى
فك تلك الأزمات الخائفة ، وكان يفعل فى كثير من الحالات ولم يسلم الوزير
المعزول حامد بن العباس من النفى فقد تم نفيه إلى واسط وذلك فى عام ٣١١ هـ /
٩٢٣ م ، حيث استقر به المقام ، حتى تم قتله ، والتخلص منه نهائيا (٩٠) ، وفى
عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، تعرض الوزير الحسين بن القاسم للمصادرة ، والطرده أو
النفى الى ارض البصرة (٩١) .

خامساً : القتل :

يعد القتل المحطة النهائية للخلاص من الشخصيات المصادرة ، ومن
الشخصيات التى تم قتلها الوزير حامد بن العباس ، فقد لقي قبل قتله صنوفا شتى
من العذاب ، والشتم ثم طرد الى واسط ، وهناك تم التخلص منه نهائيا وذلك
بقتله (٩٢) فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، ولقى الوزير ابن الفرات وابنه

المحسن النتيجة نفسها ، فقد لقيا صنوفا شتى من التعذيب والإهانة وبعد ذلك تم قتلهما فى نهر دجلة ورمى رأسيهما غرقا وكذلك غرقت الجثتان وتم ذلك فى عام ٣١٢هـ / ٩٢٤م (٩٣) .

أنواع المصادرات :

تنقسم الأموال المصادرة إلى قسمين : القسم الأول : الأموال النقدية ،
والقسم الثانى : الأموال العينية .

القسم الأول :

كانت الأموال المصادرة تختلف فى مقاديرها بحسب الكفاءة المالية للأشخاص المصادرين ، وتتلاءم مع مكانة الشخص المصادر ، ومدى انصياعه وقبوله لمقدار المبالغ المفروضة عليه (٩٤) ، وكانت بعض المصادرات تقتصر على فرض مبلغ من المال يدفعه صاحبه حال وقوع المصادرة عليه ، دون تعرضه لأى أذى ، فبمجرد دفع المصادرة يتم الإفراج عنه (٩٥) ، وهناك طريقة أخرى يتم بموجبها دفع المصادرة ، وهى طريقة التعهدات لأجل معين ، ويتم ذلك بعد أخذ الإقرار الشخصى على المصادر كضمان بذلك " (٩٦) وكان كتاب الوزير المعزول وأعوانه يقدمون أحيانا معونة له عند مصادرته ، تضامنا معه وتخفيفا عنه .

إلا أن بعض الوزراء كانوا يرفضون ذلك " (٩٧) . فقد رفض على بن عيسى أن يقبل معونة من أحد عندما صودر . وعن مقادير الأموال النقدية التى تمت مصادرتها نعرضها على النحو التالى :

السنة	الشخص المصادره	المبلغ	ملاحظات
٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م	على بن عيسى	٥٠٠٠ دينار (٩٨)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م	القاضي ، أبو عمر يوسف بن يعقوب	١٠٠٠٠٠ (٩٩)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م	التاجر ، الحسين بن عبدالله ، ابن الجصاص	٦٠٠٠ (١٠٠)	
٣٠١ هـ / ٩١٣ م	على بن أحمد الراسبي	١٠٠٠٠٠ (١٠١)	
٣٠٢ هـ / ٩١٤ م	التاجر ، ابن الجصاص	٥٥٠٠٠ (١٠٢)	
٣٠٦ هـ / ٩١٨ م	الوزير ، ابن الفرات	٧٠٠٠ (١٠٣)	
٣٠٦ هـ / ٩١٨ م	ابن الوزير ، المحسن بن الفرات	٣٠٠٠ (١٠٤)	
٣١٠ هـ / ٩٢٢ م	القهرمانه ، أم موسى	١٠٠٠٠ (١٠٥)	
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	الكاتب ، ابن الحواري	٧٠٠٠ (١٠٦)	
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	أبو الحسين بن بسطام (نسيب حامد بن العباس)	٣٠٠٠ دينار (١٠٧)	
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	الوزير ، حامد بن العباس	٨٠٠٠ دينار (١٠٨)	
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	مؤنس (خادم الوزير حامد)	٣٠٠ (١٠٩)	
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	الكاتب : ابن مقلة	١٠٠٠ (١١٠)	
، ،	الكاتب : على بن عيسى	٣٠٠٠ (١١١)	
، ،	كاتب حامد بن العباس (الكلوذاني)	٢٦٠٠ (١١٢)	
، ،	أحمد بن محمد البسطامي	٧٣٠٠	
، ،	على بن الحسن الباذيني (الكاتب)	١١٠٠٠	
، ،	أبو الفضل محمد بن أحمد بن بسطام	٥٠٠٠٠	
، ،	محمد بن عبدالله الشافعي	٣٠٠٠٠	عما تصرف فيه لعلى بن عيسى

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١هـ/٩٢٣م	محمد بن على بن مقله	٨٠٠٠٠ ر.	
، ،	أبو طاهر ، محمد بن الحسن	١٠٠٠٠٠ ر.	
، ،	الحسن بن أبى عيسى الناقد	١٣٠٠٠ ر.	وديعة لعلى بن عيسى
، ،	الحسن بن أبى عيسى	٤٠٠٠ ر.	صلحا عن نفسه
، ،	ابراهيم بن أحمد المادرائى	٢٠٠٠٠ ر.	
، ،	عبدالواحد بن عبيد الله بن عيسى	٣٦٣٣٠ ر.	عن بقية مصادرة والده
، ،	أحمد بن يحيى (الكاتب)	١٠٠٠٠ ر.	عن مصلحة وجبت عليه
	ابراهيم بن أحمد بن ادريس (الجهيد) (١١٣)	٦٠٠٠ ر.	صلحا عن نفسه
، ،	محمد بن عبدالسلام بن سهل	٤٠٠٠ ر.	وديعة لمحمد بن على ولا ابراهيم المادرائى صلحا عن نفسه
، ،	عبدالوهاب بن أحمد بن ماشاء الله	٤٠٠٠٠ ر.	
، ،	على بن حسن الباذينى	٢٠٠٠٠ ر.	صلحا عما تصرف فيه
، ،	محمد بن عبدالله بن الحارث	١٠٠٠٠ ر.	بالموصل عن نفسه
، ،	محمد بن أحمد بن حماد	٢٥٠٠٠٠ ر.	عما تصرف فيه بالموصل
، ،	ابراهيم بن أحمد المادرائى	١٥٠٠٠ ر.	عن الباقي عليه من جملة خمسين الف دينار
، ،	أبو عمر ، محمد بن أحمد الجرجرائى .	١٠٠٠٠٠ دينار	عن ضمانه من مصادرة ياسر بن اسحاق عن أحمد بن محمد بن قرق
، ،	أبو عمر بن الصباح	٣٠٠٠٠٠ ر.	
، ،	على بن محمد الخوارى	٧٠٠٠٠٠ ر.	

السنة	الشخص المصا در	المبلغ	ملاحظات
٣١١هـ / ٩٢٣م	عبدالله بن أحمد البعقوبى	١٠٠٠٠٠ درهم	
، ،	هارون بن أحمد الهمذانى	٧٠٠٠ دينار	
، ،	الحسن بن ابراهيم الخرائطى	١٠٠٠٠٠ درهم	صلحا عما انتطعه من مال الرئيس
، ،	الحسين بن على بن نصير	١٠٠٠٠٠ ، ،	
، ،	عبدالله بن زيد بن ابراهيم	٢٠٥٠ دينار	
، ،	عبدالله بن زيد	١٥٠٠٠ ، ،	صلحا عن نفسه
، ،	على بن محمد بن السمان	٢٥٠٠ درهم	من وراثة أحمد بن محمد ابن
، ،	على بن مأمون الاسكافى (كاتب ابن الحوارى)	٦٠٠٠٠ دينار	قرقر
، ،	أبو بكر ، أحمد بن القاسم الجرجانى	١٠٠٠٠٠ درهم	من ضياع على بن عيسى
، ،	الحسين بن سعد القطربلى	١٣٠٠٠٠ ، ،	
، ،	محمد بن أحمد بن ماسراد	١٥٠٠٠٠ ، ،	
، ،	أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن بسطام	٣٠٠٠٠٠ ، ،	
، ،	أحمد بن محمد بن حامد بن العباس	٥٠٠٠٠ ، ،	
، ،	بجى بن عبدالله بن اسحاق	٧٠٠٠٠ دينار	
، ،	حامد بن العباس (الوزير)	١٣٠٠٠٠ ، ،	
، ،	محمد بن محمد الواسطى	١٥٠٠٠٠ ، ،	
، ،	على بن عيسى	٣٢١٠٠٠ ، ،	
، ،	ابراهيم بن يوحنا (جهبذ حامد بن العباس)	١٠٠٠٠٠ ، ،	
، ،	أبو محمد ، الحسن بن أحمد المادرائى	٢٢٠٠٠٠ ، ،	

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١ هـ / ٩٢٣ م	أبو بكر ، محمد بن على المادرائي	١١٠٠٠ ر.	
" "	سليمان بن الحسن بن مخلد	١٣٠٠٠ ر. درهم (١١٤)	
" "	سليمان بن الحسن (كاتب ديوان المشرق)	٥٠٠٠٠ دينار (١١٥)	
" "	ابراهيم بن عيسى (أخو على بن عيسى)	٢٠٠٠٠ دينار (١١٦)	
٣١١-٣١٢ هـ /	رئيس الدواوين وكتابه وأنصاره	٧٥٧٥٦٨ ر. (١١٧)	
٩٢٣ - ٩٢٤ م		٣٠٠٠٠ ر. درهم	
٣١٢ هـ / ٩٢٤ م	ولدى ابن الفرات	١٠٠٠٠ ر. درهم (١١٨)	
" "	ابن الفرات	٢٠٠٠٠ ر. (١١٩)	
" "	المحسن ابن الفرات	٣٠٠٠٠ ر. (١٢٠)	
" "	كاتب المحسن ابن الفرات	٢٠٠٠٠ ر. (١٢١)	
" "	زوجة المحسن ابن الفرات	٧٠٠٠٠ ر. (١٢٢)	
" "	الحاقاني (الوزير)	٢٥٠٠٠ ر. (١٢٣)	
" "	جعفر بن قاسم الكرخي	١٥٠٠٠ ر. (١٢٤)	
٣١٣ هـ / ٩٢٥ م	ابو طالب التويندجاني	١٠٠٠٠ دينار (١٢٥)	
٣١٤ هـ / ٩٢٦ م	الوزير الخصيبي	٤٠٠٠٠ ر. (١٢٦)	
" "	مجموع المصادرات في عهد الخصيبي	١٠٠٠٠٠ ر. (١٢٧)	
٣١٥ هـ / ٩٢٧ م	البريديون (عمال واسط والبصرة)	٩٠٠٠٠ ر. درهم (١٢٨)	
٣١٦ هـ / ٩٢٨ م	مصادرات العمال في عهد الوزير ابن مقله	١٠٠٠٠ دينار (١٢٩)	
" "	القاسم بن دينار وأحمد بن محمد ابن رستم	٦٠٠٠٠ ر. درهم (١٣٠)	
٣١٨ هـ / ٩٣٠ م	الوزير ابن مقله	٢٠٠٠٠ دينار (١٣١)	
٣١٩ هـ / ٩٣١ م	الخادم بشري (خادم مؤنس)	٣٠٠٠٠ ر. (١٣٢)	
٣١٩ هـ / ٩٣١ م	الوزير ، سليمان بن الحسن	٢٠٠٠٠ ر. (١٣٣)	
٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م	الوزير ، الحسين بن القاسم	٤٠٠٠٠ ر. (١٣٤)	
			تمت المصادرة في عهد الوزير الحسين بن القاسم

من خلال العرض السابق للجداول المالية التي تمثل المبالغ النقدية المصادرة من أصحابها يتضح مايلي :

أولا : بلغ مجموع الأموال النقدية بالدينار (٣١٧٦٨٣٦٠ دينار) وبلغ مجموع الأموال النقدية بالدرهم (٨٠٠٠٠٠٠ ر ٢٤ درهم) وبعد تحويل الدراهم الى دنائير على حساب سعر الصرف (١٤) درهما للدينار الواحد ، يصبح مجموع الأموال المصادرة :

(٣٣٥٣٩٧٨٨ ر ٣٣ دينار) وهذا المبلغ يقل كثيرا عن المبلغ الذي قدره جورجى زيدان حيث قال " وبلغ مجموع ما قبضه المقتدر من اموال المصادرات (٤٠٠٠٠٠٠ ر ٤٠ دينار) (١٣٥) .

وقد يكون جورجى زيدان أدخل فى حساباته الأموال المصادرة غير النقدية كالعقارات مثلا ، أو النقود التي وجدت مدفونة تحت الأرض ولا يفرق الأمر كثيرا ، فمبالغ المصادرات كانت كبيرة جدا ومرهقة للغاية .

ثانيا : يتضح لنا أن المصادرات بدأت منذ تولية الخليفة مقاليد الأمور ، أوبعدها بأشهر قليلة ، واستمرت حتى نهايه حكمه ، وكانت تبلغ أوج قوتها عندما يبعد الوزير عن الوزارة ، ففى تلك الفترة تشتد المطالبة بالأموال ويحفها صنوف التعذيب والتنكيل .

ثالثا : بلغت المصادرة قوتها وكثرتها فى سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، خلال وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة ، فقد طغى وتجبر على كثير من الكتاب واعوانهم واستخرج منهم الأموال الطائلة .

رابعا : يلاحظ ان بعض الفئات كانت تتعرض للمصادرة اكثر من مرة فى السنة الواحدة .

القسم الثانى :

المصادر العينية ، تعرض كثير من المصادرين الى نهب أملاكهم ، ودورهم وتجاراتهم ، وقد شملت تلك المصادر الأقرباء والأهل ، والذرية ، فقد صدر التاجر ابن الجصاص على أمواله النقدية ، والعينية ، وكان من ضمن الأموال التى أخذت عليه البضاعات التى كان يتاجر بها ، وهى عبارة عن أقمشة وخيول ، بما قيمته (١٦٠٠٠٠٠ ر) دينار (١٣٦) ، وكان ذلك فى عام ٢٩٦ هـ / ٩٥٨ م أما فى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م فقد صدرت فاطمة القهرمانه على جميع أملاكها وأموالها وكان لها من مال عظيم (١٣٧) ، وفى العام نفسه ، صدر الوزير ابن الفرات ونهبت دوره ودور أهله ، وأخذ كل ما وجد لهم من الأثاث والمتاع (١٣٨) . وفى سنة ٣٠١ هـ / ٩٢٣ م صدرت أموال على بن محمد الراسبى الوالى على جند يسابور ، وكان مقدارها مليون دينار وآنية الذهب والفضة ومن الخيل والبغال ألف رأس ومن الخز ألف ثوب ، وقيل : أنه كان له ثمانون طرازا ينسج فيها الثياب (١٣٩) ومرة ثانية يصادر التاجر ابن الجصاص فى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، فقد قبضت تجارته من العين والورق ، والجواهر ، والفرش والثياب والمستغلات والبساتين (١٤٠) وكان من ضمن الجواهر التى صدرت عليه سبعة من الجواهر قيمتها (٣٠٠٠٠٠ ر) دينار (١٤١) .

وعندما تمت مصادرة الوزير على بن عيسى فى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م تمت ايضا مصادرة أملاكه وأمواله وأموال أهله وذويه (١٤٢) . وفى عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م كانت مصادرة الوزير ابن الفرات فقد أخذ منه " الضياع والأقطاع والأموال والعقار والأموال ، والغلات ، والأثاث ، والكراع (١٤٣) والجمال ولم يأخذ من أحد

من الوزراء قبله ولابعده مثل ذلك . (١٤٤)

وفى عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م أقدم الوزير ابن مقله على مصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل وجرى بيعها تحت اشراف الوزير بثمان بخس (١٤٥) ، وحصل للوزير نفسه أن أحرقت داره بعد أن كان يضرب بها المثل فى الحسن والجمال بما تحويه من البساتين وأنواع الطيور والحیوان وكان ذلك فى سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م (١٤٦) ، وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودر أحد التجار ، وصودرت بضاعاته ، بسبب ما لوحظ عليه من فضل فيما ابتاع من الضياع (١٤٧)

إدارة المصادرات :

قامت ضريبة المصادرات بالدور الأكبر فى حل الأزمة المالية الخانقة ونظرا للأهمية القصوى لهذا المورد المالى ، فقد استحدثت له إدارات متعددة ، وفى صدر الدولة الإسلامية ، كانت (دار الإستخراج) كفيلة بإدارة الأموال المستخرجة من الموظفين الذين يختلسون أموال الجبايات ، ولا يؤدون لها للدولة فأنشئ لهم (دار الإستخراج) (١٤٨) وفى الدولة العباسية تحولت دار الإستخراج الى (ديوان الإستخراج) ، " ومهمته متابعة أخبار الوزراء والكتاب والعمال والولاة والمهتمين بالرشوة لكى تحصى أسماؤهم وتحدد أوضاعهم ، ثم تصدر أموالهم التى جمعوها من الحرام " (١٤٩) وفى عهد المقتدر كثرت المبالغ المصادرة ، وتعددت المصادرات مما جعل الدولة العباسية تستحدث ديوانا خاصا للإشراف على استيفاء أموال المصادرات سمي بـ (ديوان المصادرات) وعندما تكون المبالغ المصادرة من شخص واحد كثيرة ، فإن الأمر يتطلب استحداث ديوان خاص لإدارة تلك الأموال والممتلكات المصادرة مثل دواوين (المقبوضات والمخالفين ، والمرافق) ونشرح

طبيعة عمل كل ديوان على حده وعلى النحو التالي :

ديوان المصادرين :

لقد أنشئ ديوان المصادرين للإشراف على جمع واستيفاء أموال المصادرات سواء المنقولة أم غير المنقولة التي كانت تقرر بعد أن يتعهد الأشخاص المصادرون بدفعها . (١٥٠)

وكان يتولى ديوان المصادرين رجال ثقة ، ومن المقربين إلى الوزير وتلك القرابة ، كانت وبالا عليهم ، لأنهم كانوا يبعدون بمجرد أبعاد الوزير ، وعندما تظهر خيانتهم ، كانوا يتعرضون للمصادرة (١٥١) ، ونعطي على ذلك مثالا : فقد كان المحسن ابن الفرات ، يتقلد ديوان المصادرين أثناء وزارة والده للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م) لقد تعرض للمصادرة والتعذيب والقتل . (١٥٢)

لقد كان ديوان المصادرين يتولى استلام الأموال المصادرة ، ثم تذهب إلى أحد بيتي الأموال (الخاصة أو العامة) (١٥٣) حسب رأى الخليفة أولا ، ثم حسب حاجة الدولة إلى الأموال ثانيا ، إلا أن الوزير ابن الفرات لم يتبع هذا الأسلوب ، ففى أثناء وزارته للمرة الأولى (٢٩٦ - ٢٩٩ هـ / ٩٠٨ - ٩١١ م) وكل إلى شخصين استلام أموال المصادرات ، وأمر أحد كتابه بمراجعة الحسابات ، دون صاحبي بيت المال ، وبعد النظر فى الوارد والمنصرف يأمر صاحب بيت مال العامة باستلام الباقي (١٥٤) ، وكان النظام المتبع أن توضع خطوط المصادرين فى خزائن الوزارة ، وقد شذعن هذا التنظيم الوزير الخصيبى (٣١٣ - ٣١٤ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م) الوزراء ليتسلمها وزير عن وزير وأن تكتب نسختين نسخة للديوان ونسخة عند الوزير (١٥٥) لأن بقاءها عند صاحب الديوان بنسخة واحدة قد

تكون عرضه لان تباع وبذلك يحصل ضرر لبيت المال (١٥٦) .

ديوان المرافق :

يعتبر هذا الديوان من الدواوين المهمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير على بن محمد بن الفرات أثناء وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦ هـ / ٩١٦ - ٩١٨ م) وهذا الديوان أنشئ من أجل استيفاء الأموال المصادرة من الوزير المخلوع على بن عيسى ومن أخوته وعماله وكتابه (١٥٧) ، وتقلد العمل في ديوان المرافق هارون بن عمران (١٥٨) الذي تعهد باستخراج المرافق التي عند على بن عيسى وأعوانه (١٥٩) .

ديوان المقبوضات :

كذلك يعد هذا الديوان من الدواوين المهمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) وقام بتنفيذ العمل فيه على بن عيسى ، وهذا الديوان أنشئ لإدارة الأموال المقبوضة من أم موسى القهرمانة عندما تمت مصادرتها في عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وقد تقلد العمل في هذا الديوان ابو شجاع الكاتب (١٦٠) ، وتقلد الزمام عليه ابو عبدالله اليوسفى الكاتب (١٦١) ، وقام ابو شجاع الكاتب باستخراج الأموال الكثيرة ، والجواهر النفيسة والثياب والكسوة والفرش ، والطيب ، حتى بلغ مجموع ماصودر من أم موسى من الأموال النقدية مبلغ مليون دينار (١٦٢) .

ديوان المخالفين :

يعتبر - ايضا - من الدواوين ذات العلاقة بالمصادرات أنشأه الوزير الحسين بن القاسم (٣١٩ - ٣٢٠ هـ / ٩٣١ - ٩٣٢ م) وتقلد أعماله الكاتب محمد بن

جنى وقد أنشئ هذا الديوان لمصادرة أملاك قائد الجيش مؤنس المظفر ، وذلك أثناء تأزم العلاقات بين الخليفة المقتدر وبين قائد الجيش مؤنس فى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م . وفى أعقاب تأزم العلاقات استغل الوزير ذلك وأصدر أوامره " بقبض أملاك مؤنس وضياع أسبابه " ، (١٦٣) وقد نال إعجاب الخليفة ما أقدم عليه الوزير الحسين بن القاسم وارتفعت منزلته عنده فأصدر أمره بأن يلقب بـ " عميد الدولة " وأمر أن يضرب لقبه على العملة (١٦٤) .

ومن الملاحظ أن هذه الدواوين الثلاثة كانت مؤقتة تزول بزوال الوزير ، أو بعد عملية تنظيم استلام الأموال من قبل ديوان المصادرين بحيث أن الأموال التى كانت تصادر ، كانت من الكثرة بمكان بحيث لا يستطيع ديوان المصادرين استلامها ورعايتها ، فينشأ دواوين مؤقتة تقوم برعاية الأموال المصادرة حتى يتم تسليمها لديوان المصادرين بعد مراجعتها وتنظيم استلامها .

أثر المصادرات على استقرار الملكية :

لقد شكلت المصادرات مصدرا إضافيا من مصادر التوسع فى امتلاك الأسرة العباسية للضياع وتكوين الملكيات الواسعة من الأراضى الزراعية والعقارية فكانت المصادرات سلاح ذو حدين فهى من جهة كانت أكبر خطر على الملكية الفردية " (١٦٥) وكانت تصيب المثريين ولاسيما الموظفين منهم (١٦٦) " فقد منعت تراكم الثروة المفرط لدى بعض الأشخاص وقللت من التباين الإقتصادى (١٦٧) ، هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فقد عمل ذهاب الأموال المصادرة للخزينة على إعادة توزيعها على الموظفين فى الرواتب من جهة واستفادة الشعب منها فى بعض الأحيان عن طريق الخدمات التى تقدمها الدولة لهم " (١٦٨) وقد ذكر جورجى

زيدان بأن نظرة الخليفة تجاه الأموال الفردية المصادرة بأنها حق مغتصب من بيت المال وبذلك فالخليفة يرى ان استرجاعها لا يعد جورا ولا إجحافا بحق أولئك المصادرين (١٦٩)، وهذه النظرة التي أوردها جورجى زيدان فيها شيء من المغالطة لأنه ليس كل الأموال المصادرة كانت حقوقا مغتصبة من بيت المال فقد لمسنا من خلال العرض السابق ان المصادرات طالت اقواما لا يمتنون الى الدولة بصلة لارسمية ولاخلاف ذلك ، امثال مصادرة التجار واقرباء واهل واولاد المصادرين وغيرهم فقد وصلت المصادرة لدرجة التعسف غير المعقول ، فقد أقدم الوزير الخصيبى (٣١٣- ٣١٤هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م) على مصادرة اموال الناس وقال صاحب كتاب الصلة فى ذلك " ولم يدع أحد مالا أحس به الا أخذه بأتعس ما يكون الأخذ " (١٧٠) ففى مجال الاعتداء على الملكيات الفردية ، نرى ان التاجر ابن الجصاص تعرض للمصادرة مرتين الأولى عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م والثانية عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، وفى كلا الفترتين صودرت تجارته وممتلكاته ، وفى المرة الأولى أخذ منه ما قيمته (١٦٠٠٠ ر. ١٦٠٠٠) دينار (١٧١) وفى المرة الثانية لم يبق له من الأموال شيئا سواء المنقولة او غير المنقولة وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودرت املاك احد التجار بسبب ما لوحظ عليه من فضل فيما ابتاع من الضياع . (١٧٢)

وفى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م صودرت اموال القهرمانه فاطمة "وأخذ ما عندها من مال " (٧٣) وفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م صودرت أملاك القهرمانه أم موسى واستخرج منها مليون دينار .

وهناك من تعرض للمصادرة من الوزراء بغير حق ، وقد شهدت بذلك جل المصادر وهو الوزير على بن عيسى بن الجراح ، فقد تعرض للمصادرة ولنهب املاكه

وتعرض للتعذيب والطرده من بغداد لا لأنه نهب واختلس من بيت المال وإنما لأنه حاول ان يسد عجز الدولة المالى من خلال التنظيمات الداخلية والتي تقضى باسقاط بعض المصروفات والنفقات التى لا يرى ضرورة لها ، فوقف الخدم والحشم واهل البلاط فى وجهه فوشوا به عند الخليفة ، فتعرض للمسألة وهو ولايستحق ذلك (١٧٥) ، وفى مجال الاعتداء على الاملاك الفردية نرى ان الوزير ابن الفرات قد نهبت دوره وامواله ، هو وابنه وزوجته وكاتبه اكثر من مرة بل تقريبا ثلاث مرات حتى قيل " لم يأخذ من أحد من الوزراء قبله ولابعده مثل ذلك " . (١٧٦)

وفى عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م تعرضت ثروة الراسبى للاعتداء والمصادرة وكان مقدارها (١٠٠٠٠٠ ر) دينار بالاضافة الى آنية الذهب والفضة والخيل والبغال وانواع الأقمشة (١٧٧) ، وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تعرضت املاك الوزير حامد بن العباس للمصادرة والنهب والاعتداء وعلاوة على ذلك فقد حياته (١٧٨) ، وشمل الاعتداء على املاك الأطباء ، فقد اعتدى الوزير ابن مقلة على ضياع الطبيب بختيشوع وباعها بثمان بغس مع انها تساوى اكثر من عشرة ملايين دينار (١٧٩) .

وازاء الهروب من خطر المصادرات نشأت سنن غير مرغوب فيها منها ان من خاف على ماله لجأ الى حيلة ليخفوا ثروتهم عن العيون فمثلا اودعت الاموال عند اشخاص لا يشتبه فيهم فقام الوزير ابن الفرات بوضع امواله عند القاضى ابى عمر (١٨٠) كماوضع كاتبه (٧٠٠٠٠) عند أناس آخرين (١٨١) .

ومن السنن غير المرغوبة ، نشأت عادة دفن النقود ، وكانت من أخطر الامور التى جرت وبالا مدمرا على الأقتصاد العباسى ففى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، عندما صودر التاجر ابن الجصاص و " حفرت داره فوجدت له فى بستانه أموال

جلیلة مدفونة فی جرار خضر وقماقم مرصعة الرؤوس فحملت بهیثتها الی دار المقتدر " (١٨٢) وفی عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م اعترف الوزیر حامد بن العباس انه دفن (٥٠٠.٠٠٠) دینار (١٨٣) ، ووجد له فی بئر المستراح ببغداد (٤٠٠.٠٠٠) دینار (١٨٤) ، وكان المتمردون فی عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م قد أخرجوا من تربة السیدة ام المقتدر بالرصافة (٦٠٠.٠٠٠) دینار حیث كانت مخبأة هناك (١٨٥).

" وكان لدفن النقود أثر اقتصادى سىء ، اذ فقدت بذلك كمیات كبیره من النقود الذهبیة والفضیة بوفاة أصحابها ونتج عن ذلك حجز كمیات كبیره من النقود للتداول مما یؤدى إلی عرقلة الحركة التجاریة وإلی اضعاف نمو المؤسسات الصیریفة " (١٨٦) ، وتشیر عادة دفن النقود الی حالتین :

الأولى : أن المجتمع لم يعد یدرك تماما أهمية تشغيل الأموال ، وهذا یدو أنه غیر وارد بحكم كون العرب تجارا منذ الأزمنة القدیمة .

الثانیة : عدم استقرار أحوال الدولة العباسیة (خلال حكم المقتدر) وهذا وارد بلا شك لعدم وجود الزمن والاطمئنان . " وفی كلا الحالتین شل للحركة التجاریة " . (١٨٧)

وما قبل عن الأملاك العقاریة ، یمكن أن یقال عن الأموال النقدیة فیظهر لنا جلیبا ان المصادرات كانت تتم بطریقة عشوائیة ، ولم تكن هناك نسب محددة لمبالغ المصادرة ، ولم تكن حسب قدرة الشخص المالیة فقد یدفع الشخص المصادر جزءا من المبلغ مقدما ویكتب خطوطا بالمبالغ المتبقیة تدفع على شكل دفعات مقسطة ، فقد صودر ابن الفرات فی عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م على مبلغ (٧٠٠.٠٠٠)

دينار ، وكان دخله من ضياعه (١٥٠٠.٠٠٠ ر) دينار فان مصادرتة تبلغ ٤٢٪ من دخله واحيانا بضطر المصادراتى بيع املاكه وجميع مقتنياته مثل الوزير حامد ابن العباس عندما صودر عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م . وهذا يعنى ان المصادرة تجاوزت كل الدخل .

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا ان المصادرات سببت ارباكا للناس واصبح الكل يخاف على أمواله وممتلكاته ، فقد وصل الحال - كما لمسنا - أن بعض الوزراء كان يصادر أى شخص يحس أن عنده اموال ومن هنا اثرت المصادرات على الملكيات وخاصة من لهم صلة قرابة بالشخص المصادر سواء كانت المصادرة ذات سند شرعى او خلاف ذلك ، فقد لمسنا ان المصادرات طالت فئات لاعلاقة لهم بأجهزة الدولة الرسمية .

الخانمة :

تعد ضريبة المصادرات من الضرائب التعسفية التي ما انزل الله بها من سلطان والتي كانت تفرض او تؤخذ نظير دوافع سياسة او شخصية او اقتصادية بحته .

- وقد كثرت المصادرات حينما انعدمت وسائل الرقابة المالية فعمت الفوضى الإدارية وتوالى المؤامرات من قبل الوزراء والكتاب والحاشية على بعضهم البعض ، ولم يعد أحد يطمئن على نفسه وماله وتسبب عن هذا حدوث حركات تمردية استهدفت قطع علاقاتها بمركز الخلافة . الامر الذى ادى الى ضياع وحدة الدولة .

- لقد أدت المصادرات الى أمور غير مرغوب فيها فالوزراء والموظفين واعوانهم صاروا مضطرين الى جمع الاموال بوسائل غير مشروعة استعدادا لليوم الاسود (يوم المصادرة والتنكيل) .

ثم ان المصادرات ادت الى خلق روح الكراهية والحقد والانتقام ، فكان بمجرد ان يأتى الوزير الجديد الى كرسى الوزارة يبدأ فى تصفية حساباته مع الوزير السابق وأعوانه وخاصة ممن تولى الوزارة لاكثر من مرة فيعود ومعه اعوانه وهم مشبعون بروح الانتقام وهذا بدوره يؤدي بلاشك الى اضطراب الامن وانتشار الظلم ويزيد ايضا فى الاحتقاد والضغائن ، وحبك المكائد للايقاع بالخصوم ومن هنا تولدت روح الكراهية والانتقام .

- لقد ادت المصادرات الى الاعتداء على الملكيات الفردية ونهبت اموال الناس فى عهود بعض الوزراء وتسلبت آخرون على ممتلكات وعقارات المصادرين حتى ان الامر قد امتد ليشمل اناسا غير رسميين ليست لهم علاقة بمؤسسات للدولة .

واخيرا لقد اصبحت المصادرة فى عصر الخليفة المقتدرة عادة متبعة يتم بموجبها استخراج الاموال بالقوة والعنف وكان حب المال هو الدافع الى ذلك وان تعارضت اساليبها مع الشرع والعرف والاخلاق .

" الهوامش والتعليقات "

- (١) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ص ١٢٤ .
- (٢) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ .
- (٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٢١٦ .
- (٤) الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ص ١٣١ .
- (٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٣٢٨ ، ابن دحية : النبراس ، ص ١٠٩ .
- (٦) عن موضوع فساد نظام الوزارة يمكن الاطلاع على أهم ماكتب فى ذلك .
- الصابى : الوزراء مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ابن الطقطقا : الفخرى .
- (٧) عريب : الصلة ص ٤١ ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .
- (٨) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ، ص ٢٦ / ٢٧ / ١٣٧ . عريب : الصلة ، ص ٧٢ . الصابى : الوزراء ، ص ٤٠ / ٦٩ / ٧٠ .
- (٩) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٦٥ .
- (١٠) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٩٢ . التنبيه ، ص ٣٢٧ .
- (١١) ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .
- (١٢) الرازى : مختار الصبحاح . ص ٣٥٨ .
- (١٣) آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

- (١٤) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، ج١ ، ص ٤١٢ .
- (١٥) الصابى : الوزراء ، ص ٤٤ . مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٨
- (١٦) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ / ٢٨٧ .
- (١٧) الصابى : الوزراء ، ص ١٥٢ ، مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٢٨ ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٧٣ .
- (١٨) الصابى : الوزراء ، ص ٢٤٥ .
- (١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٥٧ .
- (٢٠) ابن الاثير : الكامل ج٨ ، ص ٤٣ .
- (٢١) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧٣ .
- (٢٢) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .
- (٢٣) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، ج١ ، ص ٤١٥ .
- (٢٤) محمد بن عبدون ، من الأهواز ، كان من كتاب الدواوين الحذاق ، طمع فى منصب الوزارة ، فأدى ذلك الى مصادرته وإبعاده عن الدواوين حتى جاء عهد الخليفة الراضى بالله فقلده دواوين الأزمة ، عريب : الصلة ، ص ٢٧ .
- (٢٥) الصابى : الوزراء ، ص ٣١ .
- (٢٦) أم موسى : هى بنت العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن ابراهيم الإمام ، والقهرمانة : تعنى الوكيل . كان لها اليد الطولى فى ادارة شئون الدولة . مجهول : العيون ، ص ٢٣١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٦ ، ص ١٦٦ .

- (٢٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٦٧ .
- (٢٨) خوله شاعر : بيت المال ، ص ١٩٦
- (٢٩) اليوزيكى : الوزارة ، ص ١٥٧ .
- (٣٠) م . س . ن : ص ١٥٨ . ترمز هذه الأحرف الثلاثة إلى اختصار جملة (المصدر السابق نفسه) . م : المصدر . س . السابق . ن : نفسه .
- (٣١) مسكويه : تجارب الأمم ج١ ، ص ١٧ .
- (٣٢) عريب : الصلة ، ص ٢٢ .
- (٣٣) مجهول : العيون والحداثق ، ص ٢٦٥ .
- (٣٤) الأزدي : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢١٤ / ٢١٥ .
- (٣٥) صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .
- (٣٦) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥ .
- (٣٧) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٦٢ .
- (٣٨) الأزدي : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ .
- (٣٩) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤٢ .
- Sourdel : Le Vzirat , Abbassde, L . 448 .
- (٤٠) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، ج١ ، ص ٤١٦ .
- (٤١) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤١ .
- (٤٢) الصابى : الوزراء ، ص ٣٨
- (٤٣) عريب : الصلة ، ص ٣٩ .
- (٤٤) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٤٥) عريب : الصلة ، ص ١٦٤ ، ولم تطل أيام وزارة الكلوذاني أكثر من شهرين وثلاثة أيام .

(٤٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٤٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٤٨) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٣٨ .

(٤٩) عريب : الصلة ، ص ٦١ .

(٥٠) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ .

(٥١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ٤٥ .

(٥٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٢٠٢ .

(٥٣) الصابى : الوزراء ، ص ٣١ .

(٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٤٧ .

(٥٥) الصابى : الوزراء ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ،

ص ١٧٣

Bown : Ali Ben Isa . P . 225

(٥٦) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧١ .

(٥٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٥٨) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٢٠٢ .

(٥٩) م . س . ن : جـ ٦ ، ص ١١٢ .

(٦٠) م . س . ن : جـ ٦ ، ص ١٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص

١٧٢

- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .
- (٦١) Bown : Ali Ben Isa . P . 198 .
- (٦٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .
- (٦٣) فهمى عبدالرازق : العامة في بغداد ، ص ٣٧ .
- (٦٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .
- (٦٥) عريب : الصلة : ص ١٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٦٨ .
- (٦٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٥ . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٦ ، ص ٨٢ .
- (٦٧) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣١٠ .
- (٦٨) السامرائي : الإدارة المالية في الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٤١ .
- (٦٩) م . س . ن : ج ٢ ، ص ٥٢٩ .
- (٧٠) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .
- (٧١) الصابى : الوزراء ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
- (٧٢) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨ .
- (٧٣) صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .
- (٧٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ .
- (٧٥) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٠٩ . ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .
- (٧٦) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .

(٧٧) ابن الاثير : الكامل ، ج٦ ، ص ١٧٩ . ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧ .

(٧٨) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٥٥ .

(٧٩) م . س . ن : ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٨٠) م . س . ن : ج١ ، ص ٨٣ .

(٨١) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٢٤٧ .

(٨٢) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٧٣ .

(٨٣) عريب : الصلة ، ص ١١٢ .

(٨٤) م . س . ن : ص : ٦٩ ، مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٣٣ .

(٨٥) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٨٩ .

(٨٦) Bowen : Ali Ben Isa . P . 198

(٨٧) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ ، الصابى : الوزراء ، ص ٢١ .

(٨٨) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٢٠٣ ، وتعد دار الوزير ابن مقله

من أجمل الدور العباسية ، وقد أنفق على تشييدها (٢٠٠٠٠ ر .)

دينار ، وكان يحيط بها بستانا جميلا ، به مكان خاص لتربية الطيور

والحيوانات تضم أغرب وأجمل أنواع الطيور والحيوانات . انظر : ابن

الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص ٢٠٩ .

(٨٩) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ .

(٩٠) ابن الأثير : الكامل ، ص ٦ ، ص ١٧٤ .

- (٩١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٢٢٨ .
- (٩٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٠٤ .
- (٩٣) م . س . ن : ج١ ، ص ١٣٨ .
- (٩٤) الكبيسي : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥ ، السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٩ .
- (٩٥) الصابي : الوزراء ، ص ٣٣ ، ٥٤ ، مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٠٩ .
- التفوخى : الفرج بعد الشدة ، ج١ ، ص ١٢٧ .
- (٩٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص ٢٥ .
- (٩٧) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨ .
- (٩٨) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٨ .
- (٩٩) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤ .
- (١٠٠) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفیات ، ج١ ، ص ٢٧١ ، بينما ذکر ابن کثیر مبلغاً اکبر من ذلك بكثير حيث قدر المصادرة بستة ملايين دينار وأعتمدنا رواية الکتبی لقلة مبلغها الذى كان فى حدود المقبول والمعقول ، لأن ابن کثیر قد بالغ فى الرقم ، فهناك فرق كبير بين ستة آلاف دينار ، وستة ملايين دينار ، ولعل المبالغة فى رقم ابن کثیر ناتجة عن خطأ فى نسخ المخطوط ، أو فى طباعته . انظر : ابن کثیر : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص ١٠٧ .
- (١٠١) ابن الجوزی : المنتظم ، ج١ ص ١٢٦ ، وقد ذکرها مسکویه بنصف

مليون دينار ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ .

(١٠٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٣١٠ ، وقد اختلفت الروايات حول المبالغ المصادرة من ابن الجصاص ، فقد ذكر مسكويه بأنها أربعة ملايين دينار ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، وذكر عريب بأنها ستة ملايين دينار ، ص ٤٨ ، وذكر ابن الجوزى بأنها كانت ستة عشر مليون دينار ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ ، وقد اعتمدنا رواية المسعودى لسبقه فى نقل الرواية من جهة ، ثم لتقارب روايات مسكويه ، وعريب مما ذكره المسعودى من جهة أخرى ، أما مبلغ ابن الجوزى فيبدو انه قد اشتمل على جميع الأموال المصادرة النقدية والعينية مجتمعة .

(١٠٣ ، ١٠٤) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ٦٤ / ٦٦ .

(١٠٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ٩٣ .

(١٠٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ١٠٢ ، بينما ذكر ابن الجوزى

بأن مقدار المصادرة كان (١٣٠٠٠٠٠) دينار ، المنتظم ، جـ ٦ ، ص

١٧٣ ، بالاضافة الى الأموال التى وجدت مدفونة فى بئر المستراح ببغداد

، ومبلغها (٤٠٠٠٠٠) دينار ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٦ ،

ص ١٨٣ / ١٨٤ .

(١٠٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١٧٣ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.210

- (١١٠) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧١ .
- (١١١) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٧٣ .
- (١١٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٠٠ .
- (١١٣) الجهبذ : هو الشخص الذى يتولى رئاسة مجلس الجهبذ فى ديوان الخراج والجهبذة ضريبة تعسفية ليس لها أصل ، ويطلق مصطلح الجهبذ على الصراف الصابى : الوزراء ، ص ٣٧ / ٤٨ .
- (١١٤) هذه قائمة وجدت فى ديوان المغرب من الدواوين المالية فى عهد المقتدر تضمنت زسماء من تمت مصادرتهم ابا ن وزارة ابن الفرات الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م) بداء من أحمد بن محمد البسطامى وانتهاء بسليمان بن مخلد .

وردت هذه القائمة فى كتاب الوزراء للصابى ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.211

- (١١٥) الصابى : الوزراء ، ص ٤٤ .
- (١١٦) م . س . ن : ص ٥٠ .
- (١١٧) Bowen : Ali Ben Isa . p . 225 .
- (١١٨) ابن مخلدون : العبر ، ج٣ ، ص ٧٧ .
- (١١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٣١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١٨٩ .
- (١٢٠) ابن خلدون : العبر ، ج٣ ، ص ٧٧ .
- (١٢١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٢٨ .

- (١٢٢) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤١ .
- (١٢٣) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤٤ .
- (١٢٤) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤٤ .
- (١٢٥) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤٧ .
- (١٢٦) م . س . ن : ج١ ، ص ١٤٧ .
- (١٢٧) م . س . ن : ج١ ، ص ١٥٠ .
- (١٢٨) م . س . ن : ج١ ، ص ٢٠٨ .
- (١٢٩) الكبيسي : المقتدر بالله ، ص ٢٢٣ .
- (١٣٠) م . س . ن : ص ٢٢٣ .
- (١٣١) ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص ٢٠٩ . ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ، ص ١٦٤ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٧٨٧ ، بينما ذكر مسكويه رقما كبيرا مبلغه (٢٠٠٠٧٠٠٠ ر) دينار ، ج١ ، ص ٢٠٩ . ويبدو أن هذا الرقم فيه مبالغة كبيرة جدا . وقد اعتمدنا المبلغ المثبت في الجدول نظرا لتواتر رواته واتفاقهم على مبلغه .
- (١٣٢) عريب : الصلة ، ص ١٦٧ .
- (١٣٣) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٢١٢ .
- (١٣٤) ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص ٢٢٠ .
- (١٣٥) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، ج١ ، ص ٤١٦ .
- (١٣٦) ابن شياكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج١ ، ص ٢٧١ . التنوخى : نشوار المحاضرة ، ج١ ص ٢٥ .

- (١٣٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١١٢ .
- (١٣٨) الطبري : تاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ ، حتى ان الخليفة سمح للجند والعوام من نهب دوره ودور أبنائه .
- (١٣٩) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٢٦ .
- (١٤٠) السعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣١٠ .
- (١٤١) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٦ ، ص ٧٠ .
- (١٤٢) عريب : الصلة ، ص ٦١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٣٨ / ١٤٧ .
- (١٤٣) الكراع : من معانى الكراع انه كان يطلق على الخيل والبغال والحمير .
الصابى : الوزراء ، ص ٢٣ .
- (١٤٤) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .
- (١٤٥) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ .
- (١٤٦) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٠٣ . مجهول : العيون والحدائق ، ج ٤ ، ص ٣٥١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .
- (١٤٧) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٣١ .
- (١٤٨) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، ص ٢٢٨ .
- (١٤٩) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣١٧ ، اليوزيكى : دراسات فى النظم الإسلامية ، ص ١٤٥ .

- (١٥٠) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .
- (١٥١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٢١ .
- (١٥٢) الصابى : الوزراء ، ص ٣٣٢ .
- (١٥٣) بيت مال الخاصة : هو المحل الذى تحفظ فيه أموال الخلفاء وحاشيتهم وقد أنشئ لسد نفقات الخليفة وحاشيته ، ويعتمد فى دخله على الضياع السلطانية ، وبعض أموال المصادرات.
- بيت مال العامة : هو المحل الذى تحمل إليه الأموال من الأقاليم لتعد للمصلحة العامة .
- انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ٢٩ .
- (١٥٤) التنوخى : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص ٢٤ ، السامرائى : المؤسسات الادارية ، ص ٢٩١ .
- (١٥٥) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ١٥٥ .
- (١٥٦) Sourdel : le Vzirat , Abbassde p . 440 .
- (١٥٧) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٤٢ . السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٩ .
- (١٥٨) الصابى : الوزراء ، ص ٣٨ .
- (١٥٩) م . س . ن : ص ٢٨ / ٣٧ / ٩٢ .
- (١٦٠) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٥٤ . الصابى : الوزراء ، ص ٣١١ .
- (١٦١) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠١ .

- (١٦٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٣٠ .
- (١٦٣) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٢٢٢ ، الهمداني : التكملة ، ص ٨٣ .
- (١٦٤) م . س . ن . ص ٨٣ . السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠٣ .
- (١٦٥) السامرائي : الإدارة المالية في الإسلام ، ج٢ ، ص ٥٢٣ .
- (١٦٦) الصابي : الوزراء ، ص ٣٣٣ .
- (١٦٧) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢٥٨ .
- (١٦٨) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .
- (١٦٩) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، ج٢ ، ص ١٦٦ . الكبيسي : المقتدر ص ٥٥٥ .
- (١٧٠) عريب : الصلة . ص ١٢٧ / ١٢٨ .
- (١٧١) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ٨٢ .
- (١٧٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٢٣١ .
- (١٧٣) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٦ ، ص ١١٢ .
- (١٧٤) م . س . ن . ص ١٦٧ .
- (١٧٥) وتعرض أخويه ، ابراهيم وعبدالله وابنه للمصادرة ونهب املاكهم ودورهم وحوسبوا محاسبة عسيرة ، انظر : عريب : الصلة ، ص ٦١ .
- ابن الجوزى : المنتظم ج٦ ، ص ١٤٧ .
- (١٧٦) م . س . ن . ص ١٠٩ .
- (١٧٧) م . س . ن . ص ١٢٦ .

- (١٧٨) م . س . ن : ج٦ ، ص ١٧٣ .
- (١٧٩) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ٢٠٠ .
- (١٨٠) م . س . ن : ج١ ، ص ٦٧ .
- (١٨١) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص ٥٣ .
- (١٨٢) عريب : الصلة ، ص ٤٨ .
- (١٨٣) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ١٠٢ .
- (١٨٤) ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ، ص ١٨٣ .
- (١٨٥) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٣٤٢ .
- (١٨٦) الدوري : تاريخ العراق الإقتصادي ، ص ٢٦٠ .
- (١٨٧) الكبيسي : المقتدر ، ص ٢٤٥ .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر :-

ابن الاثير : ابو الحسن على بن أبى الكرم ، محمد بن عبدالكريم الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ) " الكامل فى التاريخ " ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة

١٣٥٣ هـ .

ابن الجوزى : ابو الفرج ، عبدالرحمن بن على (ت ٥٩٧ هـ) .

" المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " حيدر آباد ، ١٣٥٧ هـ

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر " دار الكتاب اللبنانى ، المطبعة

الباسلية ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ابن دحية : مجد الدين ، عمر بن حسن بن على (ت ٦٣٣ هـ)

" التبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس " تحقيق ، المحامى عباس

الفزاوى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٣٦٥ هـ .

ابن شاکر الكتبى : محمد بن احمد (٧٦٤ هـ)

" فوات الوفيات " تحقيق ، محمد محى الدين عبدالحميد ، نشر

: مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ م .

ابن الطقطقا : محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ)

" الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية " دار بيروت

للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .

ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) " البداية

والنهاية فى التاريخ " مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

ابن منظور : جمال الدين ، محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١ هـ)

" لسان العرب " نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، طبعة دار لسان

العرب بيروت ١٣٨٩ هـ .

الازدى : جمال الدين ، ابو الحسن ، على بن ابي منصور (ت ٦١٣ هـ)

" اخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية " تحقيق د . محمد بن

مسفر الزهرانى ، مطبعة العانى ، القاهرة ١٤٠٨

نشر : مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

التنوخى : ابو على ، المحسن بن ابي القاسم على بن محمد (ت ٣٨٤ هـ)

" جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة " ج ٨ من

مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، مطبعة ابن زيدون دمشق ،

١٩٣٠ م .

التنوخى : " الفرج بعد الشدة " الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة

١٩٥٥ م .

الخطيب البغدادي : ابو بكر ، احمد بن على (ت ٤٦٣ هـ)

" تاريخ بغداد او مدينة السلام " دار الكتاب العربى ، بيروت

١٩٣١ م .

الذهبي : شمس الدين ، ابو عبدالله محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ)

" دول الاسلام " مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٦٤ هـ
الرازي : محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦ هـ)

" مختار الصحاح " نشر : دار الكتب العربية ، بيروت .

الصابي : ابو الحسن ، الهلال بن المحسن بن ابراهيم بن زهرون (ت ٤٤٨ هـ)
" الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء " تحقيق : عبد الستار
احمد فرج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

الطبري : ابو جعفر ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) " تاريخ الرسل والملوك "
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة
١٩٧٩ م القاهرة

عريب ، بن سعيد القرطبي ، (ت ٣٦٩ هـ)
" صلة تاريخ الطبري " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، طبع ونشر
: دار المعارف بمصر ، القاهرة .

مجهول : " العيون والحداث في اخبار الحقائق " باعتناء دي خويه ، مطبعة بريل
، لندن ، ١٨٧١ م .

المسعودي : ابو الحسن ، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)
" مروج الذهب ومعدن الجواهر " تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد
نشر : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٣ هـ

المسعودي : " التنبيه والاشراف " باعتناء دي خويه ، مطبعة بريل ، لندن
١٩٨٣ م .

مسكويه : ابو على ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ)
" تجارب الامم " ، ج ١ ، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ، ١٣٣٢ هـ .

الهمداني : محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١ هـ)
" تكملة تاريخ الطبرى " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم طبع ونشر
: دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : المراجع :-

ادم متز : " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة فى
الاسلام " ترجمة : عبد الهادى ابو ريذة . طبع ونشر : دار الكتاب
العربى ، بيروت ومكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ، بيروت
، ١٣٨٧ هـ .

جورجى زيدان : " تاريخ التمدن الاسلامى " مؤسسة خليفة للطباعة منشورات
دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .
خوله شاكر الدجيلى : " بيت المال نشأته وتطوره " مطبعة وزارة الاوقاف بغداد ،
العراق ، نشر : جامعة بغداد ، ١٣٩٦ هـ .

الدورى ، عبدالعزيز : " تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى " .
دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .

السامرائى : حسام الدين : " المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية "
دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ

السامرائى : " الادارة المالية فى الاسلام ، بحث تطور ملكية الارض فى
العصور العباسية " ج ٢ ، طبع ونشر : المجمع الملكى لبحوث

- الحضارة الاسلامية الاردن ، عمان ، ١٩٨٩ م .
- صالح العلى : " التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول الهجرى " طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م .
- صبحى الصالح : " النظم الاسلامية " دار الملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٦ هـ .
- صلاح الدين المنجد : " بين الخلفاء والخلفاء " دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ م ، بيروت .
- فهمى عبدالرازق سعد : " العامة فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين " الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- الكبيسي ، حمدان عبدالمجيد : " الخليفة المقتدر بالله ، ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ " مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ١٣٩٤ هـ .
- اليوزيكى ، توفيق سلطان : " الوزارة ، نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية " مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ ، نشر : وزارة التربية والتعليم العراقية .

ثالثا : المراجع الأجنبية :-

Bown , H . " The Life and Times of Ali Ben Isa , The
Good Vasier " Cambridge , 1928 .

Sourdel D . : " Le Visirate Abbassides , 749 A936
(132 A 324 de Heqiere " 3 Vol . : Damas-
cus , 1959

Jurji Zaydan : " History of Islamic Civilization "
Translated by D . S . Margoliouth ,
Published by : Nusrat Ali Nasri.
Kitab Bhavan . (R ep . 1981) .

لمعان الضوء في دياجير الظلام
دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي

١٠٦٦ هـ - ١٠٧١ هـ

١٦٥٦ م - ١٦٦١ م

تأليف

د . يوسف بن علي بن رابع الثقفي
الأستاذ المشارك في التاريخ الحديث بكلية الشريعة
بجامعة أم القرى
مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهى عصر القوة والمجد والسؤدد فى الدولة العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م ، وبدأ بعده عصر الضعف والتفكك ، انتهى العصر الذى وصلت فيه الفتوحات العثمانية الى أواسط أوربا ليأتى بعده عصر التفكك ومنافسات داخلية ساهمت في ضعف الدولة وتدهور الأوضاع فيها حتى أصبحت مستهدفة لأعدائها في الداخل والخارج وأصبحت في موقف الدفاع بعد أن كانت في موقف الهجوم .

أن الفترة الزمنية التي سبقت تولى حكم كوبرلي منصب الصدارة العظمى (*) في حكومة الدولة العثمانية شهدت مآسي كثيرة مؤثرة . فالإدارة تفشت فيها مظاهر الفساد وعدم الضبط ، والجيش الذى كان يفتح في أوربا تحت راية الاسلام قادته يتخبطون في المؤامرات الداخلية وتنصيب سلطان وعزل آخر ، والعامل الديني الذى كان المحرك الأول للفتوحات العثمانية في أوربا لم يعد كما كان حيث أصبح رجال الدولة من سادة وجنود مهتمون بجمع المال وملذات الدنيا .^(١)

لقد انتشرت الفوضى في الأقاليم ، وسيطر بعض الشوار على مناطق كثيرة ، وازداد نفوذ القواد الانكشاريين ، وأكثر الموظفون من أخذ الرشوة ، وأصبح النفوذ

(*) الصدارة العظمى هي الديوان العالي أي ديوان الهمايوني في اسطنبول والذي يتكون من الوزراء والمفتى ؛ والسلطان لا يجلس معهم في الديوان ولكنه يجلس في مكان يطل منه عليهم ، فيرى ويسمع ما يدور فيه ، وعلى أعضاء أن يرفعوا أصواتهم وينصحوها في عباراتهم لكي لا يخفى على السلطان شيء ولكي يعرف الأصلح والأثمن منهم ، ورئيس هذا الديوان يسمى ب " الصدر الأعظم " .

" اتخاف الملوك الألباب " مؤلف مجهول ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ص ٣٦٦

(١) اتخاف الملوك الألباب ، لا يعرف مؤلفه ، ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ، ص ١٧٩ .

السلطاني في أيدي نساء القصر ، وزادت أطماع الدول الأجنبية في أملاك الدولة . (١)

يقول المؤرخ العثماني اسماعيل سرهنك :

" قد كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت (يقصد النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي) في أشد المضايقة ، وماليتها على شفا الافلاس ، وجنديتها البرية التي دبت بينها عوامل التحزب والانحطاط ، وأباد البنادقة أساطيلها في عدة وقائع واستولوا على عشر جزر مهمة ببحر الأرخبيل ، كل ذلك والدولة في حالة سبات وخمول ، لا تتمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ، ولا تقدر على سد شق الا واتسعت منها شقوق حتى قبض الله لها رجلا شهما حازما ، ووزيرا عالي الهمة نادرا ألا وهو كوبريلي محمد باشا ، وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الأيام . ولما قبض علي مسند الصدارة شمر عن ساعد الجد لسد الخلل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد في الحقيقة الإصلاح وابتغى بكل جوارحه النجاح ، وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأخذ في استئصال عروق الفساد ، والتفت الى توطيد دعائم السلطنة ، وتحسين نظام الادارة ، وتقوية الجنود البرية والبحرية ، وترتيبها وتدريبها ، وغير ذلك من الأعمال المفيدة والآراء السديدة ، حتي اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة حميدة » . (٢)

Kinross . Lord , The Ottoman Centuries , The

(١)

Rise and Fall Of the Turkish Empire , P. 329

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ / ١٦٨

انه بلا شك أن هذه المقولة تعطينا الصورة واضحة بأن الفترة الذهبية للدولة العثمانية انتهت - كما أشرنا - بوفاة السلطان سليمان القانوني ، وأن الدولة مرت بعد ذلك في دياجير ظلام شديد الظلمة ، ثم لاح للأعيان بريق من الأمل وضوء لامع استمر فترة زمنية قصيرة بالنسبة لعمر الدولة العثمانية ؛ وكان هذا اللمعان على الرغم من قصر مدته له أهمية عظيمة لا سيما وأنه أدى الى تغيرات حاسمة وبناءة في كيان الدولة العثمانية في زمن قياسي ، وهذا ما سنناقشه في هذه الدراسة المتواضعة علنا نصل الى معرفة الدور الحاسم الذي لعبه هذا الوزير - محمد كوبريلي - في الحفاظ على سمعة الدولة العثمانية وتماسكها بعد أن كانت على شفا حفرة الانهيار ، وعلنا نصل أيضا الى تأكيد ما ذهبنا اليه في عنوان هذه الدراسة بـ " لمعان الضوء في دياجير الظلام " خاصة وأن ما حققه هذا الوزير من أعمال عظيمة في زمن قياسي جعلني لا أتردد في تسمية فترة حكمه بالعنوان المشار اليه.

ان مما زاد الأمر سوءا في الدولة العثمانية قبل تولي محمد كوبريلي منصب الصدارة هو قيام السلاطين العثمانيين بقتل اخوانهم ومنافسيهم على العرش ، وازدياد القادة العسكريين ، والقضاء على محاولات الاصلاح التي حاول أن يقوم بها بعض السلاطين . ففي عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م قتل السلطان وزيره الصدر الأعظم ^(١) ، وشهد عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م اعدام السلطان ابراهيم ^(٢) وتولية ابنه الصغير محمد الرابع عشر الخلافة العثمانية ، وخلال الثمان سنوات

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٣٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩ ، محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

الأولى لحكم الصبي^(*) عانت الدولة من تمرد وعصيان الانكشاريين والسباهيين . كل هذه الأمور ساعدت على وقوع الدولة تحت التهديد الخارجي ، لا سيما وأن القيادة البحرية العثمانية لم تكن بالمستوى الذى كانت فيه في الماضي ، وهذا ما دفع البنادقة الى التحكم في شواطئ البحر المتوسط كما أرادت .^(١) وفي حقيقة الأمر أن البندقية استغلت تدهور الأوضاع في الدولة العثمانية فحاصرت المضائق وساحل بحر ايجه وموانئ المورة ، وعندما حاولت الدولة العثمانية مقاومتهم انهزم الاسطول العثماني وأسر البنادقة ألفا من رجال الجيش العثماني وخسروا ست سفن مسجلين بذلك هزيمة نكراء للعثمانيين .^(٢) لم يتوقف البنادقة عند هذا الحد بل قاموا بتعزيز قواتهم في جزيرة كريت واستولوا على تيندوس (Tenedos) وليمنوس (Lemmos)^(٣) من أهم المدن المطلة على المضائق مما أثر على وصول الامدادات الى اسطنبول ، وأساء أيضا الى مشاعر المواطنين العثمانيين، خاصة وأن خطوط الملاحة الموصلة الى مصر

(*) أدلى أحد الذين شاركوا في الاطاحة بالسلطان ابراهيم بتصريح قال فيه : " انه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث أن يشغل الصدارة العظمى رجيل خفيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها " .

" عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢١٠ " .

(١) Kinross , Lord , The Ottoman Centuries ; P . 231

على حسن ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ .

(٢) Ibid . P . 231 . , Shaw , Stanford , History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey , P . 207

(٣) Creasy . Edward , S . History Of the Ottoman Turks , P . 276 .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣٠ .

وكريت أصبحت مقطوعة وأصبح مضيق الدردنيل مرة ثانية تحت رحمة البنادقة ومغلق أمام البحرية العثمانية . (١)

تحت هذه الأزمات ، وتحت هذه الظروف التي بدأت الأسعار فيها بالارتفاع مع قلة في الطعام ، بزغ فجر جديد عندما بادرت طرخانة (Turkhane) (*) والدة السلطان الصغير المعروفة باسم " السلطانة الوالدة " بدعوة أهم رجل في القصر العثماني لتولى منصب الصدارة العظمى . ، ولمباشرة أعماله ، وانقاذ ما يمكن انقاذه مما لحق بالدولة من مآسي ومشاكل داخلية وخارجية . ومما روى عنها في هذا الشأن ، قبل تولى محمد كوبرلي هذا المنصب ، أنها راقبت ذات مرة الديوان الهمايوني تحت رئاسة الصدر الأعظم جورديج (Gourdi) البالغ من العمر المائة ، فأدركت أنه مجرد العوبة في أيدي الوزراء ويعيدا عن الكفاءة الإدارية ، مما جعلها تفقد أعصابها وتصبح قائلة : " ياأبتي إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو أسود ، أن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، أنها تحقيق الحكم الصالح وإهداء الآراء السديدة . (٢)

(١) جلال يحيى ، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، ص ٤٣٨ .

(*) سيدة روسية الأصل نافست جدة السلطان لأبيه منافسة شديدة على السلطة ونجحت في النهاية

" عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٢٣٦ . ٢١

هذا الرجل هو محمد كوبريلي نسبة إلى القرية التي تربى فيها واسمها "كوبريلي" (*) ، وقيل أنه ولد في قرية البانية اسمها "رودنك" : قرب "برات" وذلك عام ٩٧٨ هـ من أسرة غير معروفة ، ثم ذهب إلى قرية "كوبريلي" وسط الأناضول (٢) ، وأخذ فيها تيمارا (**) وتزوج بنت السنجق (***) وهذا هو سبب تسميته نسبة إلى القرية التي نشأ بها .

بدأ محمد كوبريلي حياته في القصر العثماني كطباخ ثم أصبح كبير الطباخين ثم رئيسا للخدم ، فمربي للصقور حتى وصل بمساعدة نساء القصر إلى وظيفة سنجق في دمشق ثم طرابلس وأخيرا في القدس . (١)
وعندما بلغ السبعين من عمره أو الثمانين كما ذكرت بعض المصادر ونبصحة من السلطنة الوالدة ، تم تعيينه في منصب الصدارة العظمى التي تعادل رئيس الوزراء اليوم . (٢)

(*) مدينة صغيرة في آسيا الصغرى وقد نزع إليها جده من البانيا ، وعرفت عائلته بهذا الاسم نسبة إلى هذه القرية :

" Eversly , L . The Turkish Empire " , P . 179

(**) التيمار : هو الإقطاع الأصغر وهو عبارة عن الأرض التي يمنحها السلطان بهدف استثمارها على أن يقدم صاحب التيمار خدمة للدولة مثل ضرائب أفرسان أو بحارة للأسطول .

أحمد شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة ، ج ٥ ، ص ٦٧٥ .

(***) سنجق بمعنى راية ، ويطلق هذا الاسم على حاكم الولاية أو المدينة ، وللسنجق مميزات خاصة منها أن تعزف الموسيقى له أثناء دخوله وخروجه لقر عمله ،

عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر ، ص ١٧ .

(١) Eversly , L . The Turkish Empire , P . 180 .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٦ .

وعلى الرغم من وجود بعض المخلصين للدولة والمؤيدين الذين سعوا من أجل تعيين محمد كوبرلي في هذا المنصب ، ألا أن هناك فئات في القصر العثماني وخاصة من ذوى المصالح الشخصية لم يرق لهم هذا التعيين وحاولوا الأشاعة بأن رجل في السبعين من العمر لا يعرف القراءة والكتابة من الصعوبة بمكان أن يمسك زمام الأمور ويدير شئون الدولة بطريقة صحيحة . (١)

ويبدو أن دافع الغيرة هو الذى جعلهم يقولون بذلك لا سيما وهم يعلمون أن محمد كوبرلي مشهود له بالأمانة والسمعة الحسنة خلال سنوات عمله في القصر والمناطق التى حكمها .

وما يدل على تميزه عن منافسيه وأن ما قام به أعداءه إنما كان ذلك بدافع الغيرة فقط ، انه عندما طلب منه أن يشغل هذا المنصب ، رفض قبوله الا بشروط معينة ، خاصة وقد أدرك أن اصلاح الأمور في الدولة سوف لا تكون في وضعها الصحيح ما لم تطلق له حرية العمل دون تدخل السلطان. وكان شروطه التى

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition, P. 78.

أوردتها معظم المصادر التاريخية على النحو التالي : (١)

- أن لا يقبل السلطان أو ينفذ أى طلب أو مكاتبات ما لم تكن مصادق عليها من قبله .

- لا يحق لأي موظف أو وزير أن يتصرف في أمرها دون علمه .

- يختص بالنظر في التعيين في الوظائف والغاءها صغرت الوظيفة أم كبرت .

- لا يجوز للسلطان أن يسمع للوشاية ضده من أعدائه وتكون ثقة السلطان فيه مطلقة .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط تحد إلى حد كبير من صلاحيات السلطان وأمه الوصية عليه ، إلا أن الوضع المتدهور في الدولة - كما يبدو - وعدم وجود الرجل المناسب لهذا المكان جعل السلطانة طرخانه تنقاد لشروطه وتوافق عليها وتقسم أمام الملا نيابة عن ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاما (٢) آنذاك - حسب

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولة عليّة عثمانية ، ص ٩٣ .

عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٧ .

Kinross , Lord , The Ottoman Centuries , P . 180

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانية ، ج ٦ ، ص ٣٧١ / ٣٧٢ .

(٢) Eversly , L . The Turkish Empir , P . 180

طلبه - أن شروطه ستكون في موضع الاعتبار والتنفيذ . (*)

ثم أعقب ذلك مصادقة مفتي الدولة على هذه الشروط لتأخذ بذلك صفتها الشرعية ، وتم استقبال الوزير في مركب رسمي حتي مقر السلطان الصغير الذي أعلن بدوره موافقته على الشروط وتأييده للقسم الذي أدته أمه . (١)

أطلق على الوزير محمد كوبرلي مسمى الصدر الأعظم ، وبدأ بعد تعيينه يمارس عمله وأصبحت شئون الدولة واصلاحها منذ تعيينه تحت تصرفه بدون تدخل من السلطان وأمّه .

وأشار المؤرخون الى أن تجاربه الطويلة في خدمة القيادات الرسمية والصدور العظام ، وتنقله في وظائف مختلفة قبل توليه هذا المنصب ، كل ذلك ساعد على نجاح ادارته ، وجعلته يعرف عن يقين أمراض الدولة التي تعاني منها وكيفية التعامل معها . أيضا ساعدته تجاربه الطويلة على معرفة الرجال وما يقوم به شلة القصر من أعمال فأصبح رجل التجربة والحكمة ، يتصرف بعقل متيقظ ، رحيم

(*) يبدو أنها على يقين من اخلاص وزيرها الجديد ورغبته في خدمة الدولة بعيدا عن تحقيق المصالح الشخصية مقارنة بغيره من الصدور العظام والا لما سارعت بإعلان موافقتها أمام الرعية حتى لا ينفلت زمام الأمر ويرفض العمل .

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ .

Kinross Lord , The Ottoman Centuries , P . 332 .

وقت الرحمة متنبه لمراقبة المستهترين ، وضاربا بيد من حديد على كل من يريد
الاخلال بالأمن ، وملتزما بالهدوء وضبط النفس ومعاملة الرعية بالعدالة دون تمييز
في المناصب . (١)

بهذه الحيوية وهذه المواصفات وهذه القوة التي تم بها تعيينه في الصدارة العظمى
بدأ الوزير محمد كوبريلي يمارس صلاحياته مبتدأ بتصحيح بعض الأوضاع في
الداخل ثم الاهتمام بالشئون الخارجية .

وابتدأ اصلاحاته الداخلية بمراقبة المتهاونين في أداء أعمالهم واستبدال من يثبت
ادانته دون النظر الى مكانته الوظيفية ، وليس أدل على تنفيذ قراراته أن من بين من
وجدتهم متهاونين وتم استبدالهم : قائد الأسطول العام / زعيم الجيش الانكشارى /
وشيخ الاسلام . (٢)

وفي داخل القصر لاحظ أن بعض العاملين يسيئون استخدام وظائفهم فأصلح من
شأنهم واستبدل بعضهم بغيرهم ، وكان من أولئك رئيس الخصيان الأسود مستشار
والدة السلطان حيث نفاه إلى مصر عندما لاحظ اخلاله بمسؤولياته . (٣)

وعندما لاحظ محمد كوبريلي انتشار البدع والخرافات في الأوساط الشعبية
ومدى تأثيرها في خلق أزمات داخلية متعددة، رأى أنه من الأفضل العودة الى أيام

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition. P. 77 .
Kinross , L . The Ottoman Centuries , P . 332 .

(٢) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي ، دولة عليية عثمانية ، ص ٩٢ .

(٣) Norman Itzkowitz , Ottoman Empire and Islamic Tradition, P . 77 .
Eversly , L . Turkish Empire , P . 180 .

عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ / ٦٩

المجد والسؤدد ، الى أيام السلطان سليمان القانوني عندما كانت الشريعة الاسلامية هي الفصيل في المعاملات ، وكانت الدولة ملتزمة بتطبيقها في كل شئون الحياة . واتخذ لتنفيذ ذلك قرار يقضي بالاعدام أو الاعفاء من الوظيفة لكل من يقف ضد هذه الدعوة الاصلاحية . (١)

وشملت اهتمامات محمد كوبرلي الداخلية ميزانية الدولة (٢) ، فأمر على الفور بالغاء المصروفات الاضافية وأبقى على الضروريات فقط ، وأمر بمصادرة الأملاك الخاصة (*) وأن تعود فوائدها الى خزينة الدولة .

أما اهتمامات الوزير محمد كوبرلي بشئون الدولة الخارجية والثورات الداخلية فتتمثل في الصراع العثماني / البندقي حول مضيق الدردنيل ، واخضاع التمرد في ترانسلفانيا ، والقضاء على ثورة حسن أباطة .

فبالنسبة للصراع العثماني / البندقي ، فقد أدرك محمد كوبرلي أن خطر البنادقة عليهم زاد عن حده ، وأن الوضع التجاري في دولته سيبقى تحت رحمة الأعداء طالما بقيت المضائق مهددة . ولذلك رأى أن فك الحصار قد لا يحدث ما لم يعيد للأسطول العثماني نشاطه ، وعلى الفور اسند مهمة بناء الاسطول الى القائد طوبال محمد باشا ، والذي تمكن من تجهيز اسطول عظيم مجهز بالأدوات اللازمة .

(١) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) لم تحدد المصادر هوية هذه الأملاك الخاصة ، وأننى أشك في حدوث مثل هذه الحالة لا سيما اذا أخذنا في الاعتبار رغبة الوزير في العودة الى تطبيق القوانين الاسلامية وعدم معارضة الاسلام للملكية الخاصة ؛ هذا من جانب ، ومن جانب آخر هذه المعلومة لم ترد في المصادر الاسلامية وانما أوردوها المؤرخون الغربيون مما يجعلنا نشك في صحة مثل هذه الرواية .

ثم ان الصدر الاعظم محمد كوبرلى قاد الجيش بنفسه ولكن الجولة الاولى لم تكن في صالحه حيث غرق بعض سفنه وهرب البعض الآخر وبدأ البنادقة يقذفون العمارة العثمانية بالمدافع ثلاث أيام بلياليها ، وقرر قائد الأسطول البندقي طوماس موشنجو (Thomas Mocenigo) القبض على الدونا العثمانية الراسية بجوار " قوم برون " . (١)

عند هذه النقطة الحاسمة تقدم أحد رجال البحر العثماني ويدعى محمد و صوب مدفعيته نحو السفينة التي يقودها طوماس فأصاب ، بقدرة الله تعالى ، مخزن بارود في السفينة مما أدى الي انفجارها وقتل القائد ونحو ألفا من أصحابه ، وتضرر كثير من السفن القريبة منها واضطرت البقية العودة تجر أذيال الهزيمة تاركين ورائهم بعض سفنهم . (٢)

وتابع الوزير حلاوة النصر ، فأجزل العطايا لرجال المنتصرين ثم أمرهم بمواصلة الكفاح تحت قيادة طوبان محمد باشا ضد البنادقة حتى تمكنوا من تحرير جزيرتي ليمنوس (Limnos) وتينيدوس (Tenedos) بعد أن حاصروهما نحو ستين يوما . بعد ذلك عاد الوزير الي اسطنبول وفي عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م بعد أن تم تحرير الجزيرتين عزل طوبان محمد باشا من القيادة وعين محافظا لجزيرة (سافزا) ثم

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٨ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانية ، ج ٧ ص ٩٥ / ٩٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٧٣ .

حصل على " جزاء سنمار " حيث أعدم بسبب اعتقاد السلطان العثماني بأنه قائد جبان. (١)

ومع أن العثمانيين انتصروا على أعدائهم بفضل الله ثم بالاستعداد للمعركة امتثالا لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (٢) ، إلا أن المؤرخين الغربيين - كعادتهم - أوردوا خبر انتصار العثمانيين وكأنه بسبب انفجار مخزن للبارود على إحدى السفن الإيطالية دون ذكر التصويب بالمدفع العثماني . (٣)

وبهذا الانتصار أعيدت الثقة في الجيش العثماني والبحرية العثمانية ، وبهذا الانتصار ازدادت مكانة الصدر الأعظم في أعين الناس ، مما زاد في طموحاته وآماله ، وبدأ يطمع في إعادة تلك الأمجاد القديمة التي دقت فيها الدولة العثمانية أبواب : فيينا " سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م .

وعلى الرغم من هذه الطموحات والآمال ، فإن الصدر الأعظم لم يتابع حلالة النصر على خصومة البنادقة وذلك بسبب موقف جورج راكوزي (*)

(George Rakozy) أمير ترانسلفانيا الذي أعلن تمرده على السلطان العثماني وأعلن استقلال بلاده عن التبعية العثمانية . زد على ذلك أن راكوزي أعلن نفسه زعيما بروتستانتيا واتحد مع ملك السويد وأمراء الأفلاق والبغدان

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا : عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٧٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .

(٣) Shaw, S. History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey. p210

Eversly , L . The Turkish Empire . P . 180 .

(*) يلفظ في بعض المصادر العثمانية " راقوجي " . محمد مراد ، تاريخ أهر الفاروق تاريخ

عثمانية ، ج ٧ ، ص ١٠٦ ، وراقوكس ،

صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عليية عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

بهدف فتح هنغاريا واقتسام بولندا مع روسيا . (١١)

ويبدو أن راكوزى رأى أن ضعف الدولة العثمانية وتدهور الأوضاع فيها قبل وزارة محمد كوبرلي ، قد يساعده على الاستقلال بحكم ترانسلفانيا والغاء التبعية العثمانية ، ولكنه في حقيقة الأمر تناسى أنه أعطى لنفسه حجما أكبر منه الأمر الذى سيؤدى به الى الفشل في النهاية . أضعف الى ذلك أن محاولته هذه جعلت الصدر الأعظم يعطى القضية اهتماما خاصا لا سيما وأن رغبة راكوزى في اقتسام بولندا مع روسيا لا يتفق مع السياسة العثمانية في أوربا ويؤثر في نفس الوقت على العلاقات العثمانية / الأوروبية بصفة عامة .

فعندما تعرضت بولندا للغزو من كل جانب بادرت الدولة العثمانية بالتدخل حفظا للتوازن ومحاولة للحد من طموحات راكوزى وأطماعه التوسعية .

وكان أولي المواجهات مع راكوزى في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م عندما أرسل الصدر الأعظم قوة كبيرة من التتار قام أفرادها بالدخول الى ترانسلفانيا ومن ثم نهبها (*) مما ادى إلى انسحاب راكوزى من وارسو (Warsaw) الى فستولا (Vistula) حيث هزم فيها هزيمة نكراء .

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) المصادر الأوروبية أمثال " شو " وغيره تشير إلى أن التتار اكثروا فى النهب والقتل في مدينة ترانسلفانيا مستغلين زهوة الانتصار . ويظهر أن ذلك مجرد تحامل على الدولة العثمانية ، وإذا حدث أن تصرف البعض بعدم أو غير ذلك فلا يجب أن نعمم ونثبت حقائق قد تكون مقصودة ، وبينما المصادر العثمانية لم تشر إلى ذلك .

Shaw, S. History Of the Ottoman Empire and Modren Turkey, P. 210.

اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٠ / ١٧١ . محمد فريد بك ، تاريخ

الدولة العثمانية ، ص ١٣١ . عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ،

ثم كانت المواجهة الثانية بقيادة محمد كوبريلي على رأس حملة كبيرة كان من نتائجها استسلام مدينة فھر فار (Fehervar) عاصمة راکوزى ومن ثم هروبه الى النمسا .

بعد أن تحقق النصر على راکوزى ، رأى الصدر الأعظم الالتزام بسياسة هادئة غير منفرة ، فوافق على الفور أن يكون حكم ترانسلفانيا لأمين خزانة (*) راکوزى ، بارسى ايكوس (Barcsay Ekos) واشترط عليه أن يكون تابعا للدولة العثمانية وأن يدفع أربعين ألف دوکا كل عام ، وأن تكون المواقع الأمامية في ترانسلفانيا تحت تصرف الجيش العثماني (١) ويبدو أن الشرط الأخير قصد به أن تستخدم تلك المنطقة مقرا دائما للقوى العثمانية وتوظيفها لصد أى ثورة أو محاولة استقلال في المستقبل .

ورغم هذه السياسة التى تم بها تعيين بارسى ايكوس ، فقد قامت معارضة من قبل أنصار راکوزى الذين يبدو أنهم لم يتقبلوا طريقة التعيين فما كان منهم إلا اعلان المعارضة خاصة بعد أن حصلوا على تأييد رسمي ومساعدات عسكرية من الهابسبرج واتفقوا على ترشيح أحد قواد راکوزى واسمه كيمنى جانوز (Kemeny Janos) حاكما لهم مستقلا عن الحكم العثماني . (٢)

(*) يبدو أن الوزير محمد كوبريلي نهج هذه السياسة حتى يتقبل الناس هذا القرار بالرضى طالما أن خليفة راکوزى من أتباعه ولكنه من جهة أخرى حقق الهدف حسب الشروط التى اشترطها عليه أثناء تعيينه .

(١) محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده . ج ٧ ، ص ١٢١ / ١٢٢ اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١ .

(٢) Naima , Annales Of The Turkish Empire , Vol . VI, P . 340

ولكن لم يمض وقت طويل ، حتى انطبق على كيمني وأتباعه قول المثل : " يا حافر حفرة السوء حذر تقع فيها " حيث وقف نبلاء ترانسلفانيا ضده وقتلوه ورشحوا مكانه رجلا من بني جنسهم وهو ميخائيل أبا في والذي حكم ترانسلفانيا مدة عشرين عاما ، التزم خلالها بمبدأ الحياد وأُعترف بتبعيته للدولة العثمانية ، وكان ما حاول القيام به سلفه لم يكن . (١)

وما كاد الوزير محمد كوبرلي ينتهي من أزمة راكوزي حتى يتورط في مشكلة داخلية جديدة وهي ثورة حسن أباظة ، تلك الثورة ، التي عرقلت مساعي الدولة في تثبيت النظام والاستقرار في ترانسلفانيا وساهمت في تأجيل وصول العثمانيين الى جزيرة كريت ومن ثم فتحها .

ظهرت هذه الثورة في سوريا والأناضول من أمهات المناطق الداخلية في الدولة العثمانية ، وبقيادة رجل كانت له أطماع رئاسية على الرغم من كونه معين على وظيفة سنجق . (٢)

بدأ زعيم هذه المقاومة ، حسن أباظة ، باعلان تمرده ضد السلطان في منتصف عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م . وطالب أول ما طالب بقتل الصدر الأعظم وتعيين طيار زاده أحمد باشا مقابل تبعيته ومبايعته للسلطان العثماني ، وساعده في مواصلة التمرد انضمام القوات التي أرسلها الصدر الأعظم إليه لاختضاعه ، وكذلك تأييد بعض من حاشية السلطان ممن كانوا يكرهون الصدر الأعظم ويرغبون

(١) عبد الرحمن شرف . تاريخ دولت عثمانية ص ٨١ ، على حسن ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ ، كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٧ .

Shaw,S. History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey, P.210 .

Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342 (٢)

في تحقيق المال والمناصب ومآرب أخرى ، خاصة من أولئك الباشوات المعزولين بقرار من الصدر الأعظم . (١)

انخدع حسن أباطة بتأييد بعض رجال القصر فتقدم بجيشه حتى وصل إلى مضيق البوسفور ، مما أدى إلى انتشار الرعب والقلق في نفوس الأهالي في العاصمة ، وتوجيه النداء للصدر الأعظم ، للعودة من ترانسلفانيا ومواجهة هذه الحالة الطارئة . (٢)

لم يكن الأمر من السهولة بمكان في نظر الصدر الأعظم ، ذلك أن هذه الحركة المزعجة التي تسببت في توقف الجيش العثماني في الجانب الأوربي ، لا بد وأن يعاقب مدبرها أشد العقاب . فما كان من الصدر الأعظم إلا أن اتخذ التدابير اللازمة للمواجهة الحاسمة مع الثوار والقضاء عليهم ، ومن ذلك قيامه بصرف رواتب ستة أشهر للجنود مقدما تشجيعا لهم وحشا لهم على الاخلاص والالتزام ، إضافة الى قيامه بارسال الجواسيس حول الأناضول والاتصال ببعض مؤيدي الثورة واغرائهم بالانضمام الى الصدر الأعظم . (٣)

كان لهذه التدابير أثرها الفعال على الثوار ، وكانت بمثابة الانذار بالخطر المرتقب ، مما أدى إلى هروب بعض رجال حسن أباطة ، وأدى أيضا الى فوضى واضطراب في صفوف الثوار ، إضافة الى النقص الواضح في المؤن والمواد الغذائية عندهم .

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيد ، ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصادر

(٣) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عليية عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٥ / ٩٦ .

هذه الأمور التي ظهرت للعيان وأُنذرت الثوار بالخطر جعلت حسن أباظة يشعر بالاحباط وأن الأوضاع في غير صالحه ، ونجاحه ميؤس منه ، فبدأ بالانسحاب من بورصة (Bursa) الى أسكى شهر (Eskisehir) وفي نفس الوقت أرسل عدد من رجاله للانضمام إلى القصر والحصول على الرواتب ومحاولة مساعدته الصدر الأعظم ، وأخيرا طلب من الصدر الأعظم منحه هدنة لحل المشاكل فيما بينهما . (١)

ويبدو أن هذه المحاولات اليائسة من ثائر عاجز عن تحقيق أهدافه لم تحقق تقدما يذكر ، لا سيما وأن الصدر الأعظم أذكى من خصمه وأدرك أن هذه المحاولات ما هي الا حيلة مدبرة لتجنب المواجهة الحتمية وما ينجم عنها من نتائج . وكانت الخاتمة أن تدخل شيخ الاسلام بالنصائح المؤثرة لأباظة واتباعه حتى انضم إلى الجيش السلطاني عدد منهم ، ورضى أباظة بتسليم نفسه إلى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد أن أمنه على نفسه وأتباعه ، الا أنه لم يوف بالعهد بل قتله هو ورفاقه وذلك في أوائل عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م (٢) .

بعد هذه الأعمال والانجازات العظيمة التي حققها في خلال خمسة أعوام ، لم يترك الصدر الأعظم أى فرصة لكل من تسول له نفسه القيام بأى عمل يسيء إلى مصلحة الدولة أو يؤدي إلى عرقلة نشاطها العسكرى ضد أعدائها من الدول

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا : Shaw , S . History Of The Ottoman Empire and modern Turkey . P . 211 .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، عثمانية ، ج ٧ ، ص ١٣٤ / ١٣٥ .

الأوربية . ففي الداخل جواسيسه في كل مكان لمراقبة من يعيث بأمن الدولة ، وفي الخارج ركز اهتمامه على فتح جزيرة كريت وعندما علم بمساعدة الفرنسيين للبنادقة في حماية الجزيرة (كريت) سرا ، اتخذ خطوات فعالة لقطع العلاقة مع فرنسا على الرغم من تلك العلاقات الودية القديمة وعلى الرغم من تلك الامتيازات التي نعت بها فرنسا في الدولة العثمانية .

ووما يجدر ذكره أن الصدر الأعظم سبق وأن ضبط رسالة مرسلة الى المسيو "دى لاهي" سلمها أحد الفرنسيين الموظفين في بحرية البنادقة وعندما لم يستطع حل رموزها أرسل باستدعاء السفير الفرنسي الذي بدوره لم يأت معتذرا بمرضه فأناوب عنه ولده، وعندما سأله الصدر الأعظم لم يراع في جوابه آداب المخاطبة ، فأمر بسجنه في الحال ، ثم حضر والده ولم يفسر رموز الرسالة كما ينبغي ، فأرسلت فرنسا المسيو "دى بلندل" سفير فوق العادة لمقابلة السلطان وطلبه عزل الصدر الأعظم ، ولكنه لم يسمع له بمقابلة السلطان وقابله الصدر الأعظم ، ولهذا ساعدت فرنسا جزيرة كريت علنا وأرسلت إليها أربعة آلاف جندي غير المتطوعين وأمدت النمسا بالمال هدفا منها لاشغال الدولة العثمانية وانتقاما لمواقفها نحوها . (١)

ومع كل هذه الاهتمامات لهذا الوزير المخلص الا أن الكبر لم يهمله أكثر مما استحق حيث بلغ الخامسة والثمانين من العمر فخاف على الدولة من الضياع من بعده ، فبدأ أول ما بدأ بأخذ موافقة السلطان وأمه على تعيين ابنه أحمد في مكانه بعد موته، لاسيما وأنه دربه في الأعمال الرسمية ورياه تربية خاصة لمهام الوظيفة ؛

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

أضافة إلى أنه قبل وفاته جعل الطريق ممهدا لابنه ، فالاسطول تم بناءه من جديد ليواكب الأساطيل المعاصرة له والمضائق أبعد عنها خطر الأعداء والمناوئين والشوار في الداخل والخارج تم الانتصار عليهم وزال خطرهم ، حتى غدت الدولة قوية الجانب متماسكة بعد أن أوشكت على الانهيار .

زد على ذلك أن حرص هذا الوزير واخلاصه لهذه الدولة استمر معه حتى وهو على فراش الموت ، فقبل وفاته في سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م ^(١) ترك للسلطان الوصايا التالية :

- لا تسمع لنصيحة امرأة .
 - لا تسمع بأن يصبح المواطن غنيا .
 - يجب أن لا تنقص خزينة الدولة على الدوام .
 - استمتع بركوب الخيل واجعل الجيش دائما في حركة مستمرة .
- واذا نظرنا بعين الاعتبار لهذه الوصايا ، وإذا ما حللنا مقاصد هذا الوزير من هذه الكلمات في كل وصية ، فإننا بلا شك سنتعرف على الأسباب التي دفعته لذكرها .
- ويبدو أن الصدر الأعظم كان تأثر بظروف عصره منذ كان طباحا في القصر حتي وصل الى وظيفة " الصدر الأعظم " .
- فالتوصية الأولى التي يوصى فيها بعدم السماع لنصيحة المرأة توحى بتأثره بالأوضاع العثمانية التي كثر فيها تدخل نساء القصر في شئون الدولة ، لا سيما وأنه نفسه مدين في تعيينه كصدر أعظم للسلطانة الوالدة " طرخانة " ، ثم ان بقاء

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٢ ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣ .

الموظفين الكبار فى مناصبهم كان مرتهن برضاء الحريم السلطاني - زد على ذلك أنه كان يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات نساء القصر حيث قال فى حديث خاص لأحد أصدقائه : " انهن لا يفكرن إلا فى أنفسهن ، ولا يقدرن المسؤولية ، وأن الدولة على وشك الانهيار (١) .

وعلى الرغم من كون المرأة عاطفية وقد تصدر أحكاما أو تتصرف بما لا يتفق مع الواقع ، الا هذه التوصية تحمل معنى العمومية ، فالنساء لسن على مستوى واحد ، ومثلهن الرجال ، واذا كانت ظروف العصر الذى عاشه الصدر الأعظم أعطاه نوع من الانطباع السيء عن المرأة ، فكم من أمثلة فى التاريخ لنساء بلغن القمة فى العقل والحكمة والالتزام .

أما التوصية الثانية التى يوصى فيها بألا يسمح للمواطن بأن يصبح غنيا ، فهى توصية عقيمة ولا تتفق مع المنطق وليس لها ما يبررها ، وتتعارض مع الشريعة الاسلامية السمحاء ، وللأسف الشديد أن بعض ساسة الدول فى القرون الحديثة نهجوا هذا المنهج وكأنهم يطبقون بذلك هذه التوصية على شعوبهم .

والتوصية الثالثة التى تنص على ضرورة بقاء خزانة الدولة غير منقوصة على الدوام ، فهى توصية ايجابية ولها ما يبررها ، خاصة وأن النقص فى خزانة الدولة يشل من قوتها واستمرار ثباتها وتطورها . وقد عاصر الوزير محمد كوبرلي ما عانتة الدولة من نقص فى مواردها المالية زمن السلطان ابراهيم الأول " ١٠٤٩ هـ - ١٠٥٨ هـ " عندما أسرف هو ورجال البلاط فى موارد البلاد المالية وزيدت فئات

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولتي عثمانية ، ص ٨٣ / ٨٤ .

Eversly , Lord . The Turkish Empire . P . 181 .

(٢) الشنارى ، الدولة العثمانية دولة مفتري عليها ، ج ١ ، ص ٦٠٨ / ٦٣٣ .

الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات القصر مما أدى الى سخط الرعية وقتل السلطان سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م .

ولذلك لا نستغرب توصيته بهذه الوصية ، وكأنه يريد أن يؤكد على ضرورة الترشييد وعدم الانفاق في غير اللازم ، وهو ما التزم به أثناء عمله في منصب الصدارة .

أما التوصية الرابعة الخاصة بركوب الخيل وحركة الجيش ، فقد عاش الوزير تجربتها بنفسه عندما كان السلطان محمد الرابع متعلقا بركوب الخيل والقنص تاركا شئون الدولة في أيدي الغير ، ويبدو أن الوزير أراد أن يهتم السلطان بأمر دولته بنفسه ولا يجعل هذه الهواية تصرفه عن ممارسة واجباته الأساسية ، فقد يعتمد على من يسيء استخدام السلطة في حالة غيابه عنها ، وكان مقصد الوزير في ذلك جليل وتقديره للأمر عظيم .

وهكذا أيها القارئ الكريم ، أضاف هذا الوزير - محمد كوبريلي - الى انجازاته العملية توصياته الأدبية التي توحى بمدى حرصه على أمن واستقرار الدولة العثمانية حتى بعد وفاته . ولذلك فان الخمس السنوات التي حكم فيها وما شهدته من المجازات عظيمة تعتبر بحق فترة تاريخية مضيئة في تاريخ الدولة العثمانية . فخلالها قبض على زمام الأمور وقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى أعاد للدولة سالف مجدها ، وخلالها محا آثار الفوضى وأعاد الأمن والنظام وفك الحصار على المضائق واسترجع الجزر من الأعداء حتى أصبحت الدولة في مركز مميز أمام الدول المعاصرة لها بعد أن كانت على وشك الانهيار .

وأخيرا أرجو من القارئ الكريم المعذرة في الخطأ والتقصير فجل من لا يخطئ ، والله من وراء القصد وهو الهادي الى سواء السبيل .

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٩ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الحديث الشريف
- الكتب العربية والمعرية :
- اتحاف الملوك والالباب (لا يعرف مؤلفه) .
- ترجمه من اللغة الفرنسية خليفة محمود .
- بروكلمان ، كارل .
- تاريخ الشعوب الاسلامية . نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، ط ٦ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٧٤ م .
- بكر ، عبد الوهاب ،
- الدلة العثمانية ومصر في منتصف القرن الثاني من القرن الثامن عشر ،
- القاهرة دار المعارف ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .
- جلال ، يحيى ،
- تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، الاسكندرية :
- دار المعارف ، ١٩٨١ م .
- سرهنك ، اسماعيل ،
- تاريخ الدولة العثمانية . بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- شلبى ، أحمد ،
- التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ،
- ط ١ ، ١٩٧٧ م .

- الشناوى ، عبد العزيز محمد ،
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ثلاث مجلدات ، القاهرة :
مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة : ١٩٨٠ م .
- عبد الرحمن ، شرف ،
تاريخ دولت عثمانية ، اسطنبول : مطبعة سي-باب عالي جاده سنده ١٣٠٩ هـ .
- على حسون ،
الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الاسلامي .
- كامل ، صدر أسبق ،
تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية . ج ١ ، مطبعة أحمد حسان ، ١٣٢٧ هـ .
- محمد فريد بك المحامى ،
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- محمد مراد ،
تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانية ، ط ١ ، مطبعة آمدى ، ١٣٢٩ هـ .

- Creasy , Edward . S .

History Of the Ottoman Turks , Beriut , 1961 .

- Eversly , G . J . S . ,

The Turkish Empire : Its Growth and Decay ,
London , Fisher Unwin Ltd . , 1917 .

- Naima

Annals Of The Turkish Empire , New York: Arno Press ,
1973 .

- Norman , I .

Ottoman Empire and Islamic Tradition , New York ,
Alfred A . Knopf , 1972

- Kinross , Lord .

The Ottoman centuries : The Rise and Fall Of The Turkish
Empire , London : Jonathan Cape .

- Shaw , S .

History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey ,
London : Cambridge University Press .

الكرج والأتراك السلاجقة

في عهد داوود الثاني

(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

دكتور

فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة بنها

الكرج والاتراك السلاجقة

فى عهد داوود الثانى

(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

د . فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة بنها

أطلقت قديما على بلاد الكرج^(١) اسم «هيركانى» HYRCANIE ، ثم وردت فى اللغة الكرجية تحت اسم «خارطلى» K'ART'LI ، وذكر الكرج أن «خارطلى» اسم مشتق من اسم جدهم الأول «خارطلوس» . وتربط الأساطير الكرجية القديمة بين «خارطلوس» وبين النبی نوح عليه السلام قائلة إنه «ابن طوركوم ابن جومر بن يافث بن نوح» . و«خارطلوس» هذا شقيق «هايك» البطل القومى الأسطورى الذى ينتسب إليه الأرمن^(٢) . وقد أطلقت الفرس على بلاد الكرج اسم «كوردجستان» GURDJISTAN أى بلاد الكر^(٣) . والروس يسمون بلادهم «جروزيا»^(٤) . أما المسلمون ، فقد أطلقوا على بلادهم اسم «جززان»^(٥) تارة ، و«مملكة جرجين»^(٦) تارة أخرى ، و«خزران»^(٧) تارة ثالثة ، و«بلاد الكرج»^(٨) تارة رابعة. والاسم الرابع هو الأكثر استخداما فى المصادر الإسلامية . إلا أن اللاتين والبيزنطيين ينفردون بتسمية بلادهم «أيبيريا»^(٩) IBERIE وكان سترابون^(١٠) (توفى حوالى سنة ٢٥ م) STRABON أول من تحدث عنهم .

أما هيرودوت ، فقد ذكر أن أيبيريا عرفت من قبل باسم «ساسپير»^(١١) . وكان الأرمن ، يسمون سكان بلاد الكرج باسم «فرك»^(١٢) VIRK ، وبلادهم باسم «فراكتون»^(١٣) VRACTUN .

تقع بلاد الكرج - أي أرمينية^(١٤) الثانية في المصدر الإسلامية^(١٥) - علي السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، حول المجرى الأعلى لنهر الكر KOURA ، أي في الشمال الغربي لمجموع أرمينية وكانت تحد شمالا أرمينية الثالثة^(١٦) . وعلى هذا، فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فهي تتاخم بلاد داغستان^(١٧) الجبلية وسهول أذربيجان، وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص^(١٨) KARS ؛ أما حدودها الغربية، فتطل علي البحر الأسود وتشمل أيضا بلاد الابخاز^(١٩) ABKHASIE وجبال القوقاز . وعلى هذا تعد بلاد الكرج من البلدان الرئيسية في منطقة القوقاز^(٢٠) .

وتضم بلاد الكرج أساسا وادين خصبين هما :

واد نهر الكر KOURA ووادي نهر ريونة RION . ثم هناك منحدرات الجبال بوديانها العديدة الضيقة والمنخفضة والتي تنساب نحو أنهار سلاسل جبال القوقاز في الشمال. وهناك أيضا منحدرات جبال القوقاز الصغير وأعالي هضاب أرمينية في الجنوب^(٢١) .

وعلي هذا ، سكن الكرج في أعالي وادي نهر الكر، في اتجاه مصبه عند تفليس^(٢٢)، علي الضفة اليسرى منه، وانتشروا حتى نهر شوروخ^(٢٣) (TCHOROKH COROX) نحو ارتانوخ^(٢٤) ARTANUJ وحتى مقاطعة مسختي^(٢٥) MC'XET'A (MESXET'I) وبلاد الابخاز واللان^(٢٦)

ALAINS والصنارية (٢٧) جيران اللان . أما على الضفة اليمنى من نهر الكر، فقد استقر الكرج في وادي كشيأي (٢٨) K'C'IA وفي الأراضي التي تنساب مياهها نحو نهر الكر في اتجاه قرص واكستيك (٢٩) UXT'IK. وطبقا لما ورد في الحولية الكرجية، كل الأراضي التي تنساب مياهها نحو الجنوب، وتصب في نهر الرس (٣٠) ARAXE تعد من الأراضي الأرمنية . أما تلك التي تنساب نحو الشمال وتصب في نهر الكر KOURA، فهي أراضي كرجية (٣١) .

نتيجة هذا الارتباط الوثيق ، يعد الشعب الكرجي أقرب الشعوب القوقازية شيها بالأرمن (٣٢) ، وأوثقها ارتباطا بهم، خاصة خلال العصور الوسطى؛ حتي أصبح يقال بحق أن الكرج والأرمن أخوة . وكان العلامة ابن خلدون خير معبر عن ذلك حين قال: « كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن (٣٣) » .

ولقد سكن بلاد الكرج أسر عديدة من السلالات الكرجية، فأصبحت منذ الأزمنة الغابرة مقسمة إلي عديد من المقاطعات، أهمها مقاطعة خارطلي K'ART'LI، الواقعة في وسط بلاد الكرج الشرقية، والتي تعد قلبها النابض. وقد حظيت عاصمتها تفليس TIFLIS باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية (٣٤) . واحتلت المقاطعة وعاصمتها مركز الصدارة بين مقاطعات بلاد الكرج. ويأتي بعدها في المرتبة مقاطعة كاخيتي (٣٥) KAKHETIE ، المقاطعة الثانية في بلاد الكرج الشرقية ، الواقعة شرقي نهر أرجني (٣٦) ARAGVI ، وشرقي خارطلي علي المنحدرات الجنوبية لجبال القوقاز . ففي الوديان الخصبة في لوري LORI (٣٧) وألزاني (٣٨) ALAZANI ، وخاصة في المناطق الشاهقة الارتفاع، شعر شعب الكرج بالأمن والأمان، فعاش في رغد من العيش (٣٩)، وعمل

فى ظروف اتسمت بالحرية المطلقة (٤٠) .

هذا عن أكبر مقاطعتي بلاد الكرج خارطلي وكاخيتي وأهمها علي الإطلاق. إلا أن هناك مقاطعات أقل منهما أهمية. ففي غرب جبل سورام SOURAM ، تقع مقاطعة إمرشي (IMERETHIE) IMERET'I بعاصمتها كوتاهية (كوتاييس) KOUTAIS الواقعة على نهر ريونة RION (٤١) . وتأتى بعد ذلك مقاطعة منجريلي MINGRELIE الواقعة شمال نهر ريونة علي البحر الأسود، بين مقاطعة إمرشي والبحر الأسود (٤٢). ثم مقاطعة إجرسي EGRISI الواقعة عند مصب نهر شوروخ بين منجريلي وبلاد الأبخاز (٤٣). أما مقاطعة سفانيشي SVANETHIE فتقع في الشمال، في جبال القوقاز (٤٤) . وفي أقصى الغرب تقع بلاد الأبخاز (٤٥) ABKHASIE بالقرب من البحر الأسود ، والمجاورة لبلاد الان ALAINS (٤٦). وعلي طول الشاطئ ، جنوب نهر ريونة، غربى بلاد الكرج، تقع مقاطعة جروري (٤٧) GRURIE . وفي أعماق جبال القوقاز، تقع كل من مقاطعتي مسختي (٤٨) MESXET'I (MC'XET'A) وسمسخي (٤٩) SAMSAKHI (SAMC'XE) .

بناء على ما تقدم ، فبلاد الكرج متنوعة التضاريس. إذ نجد فيها الوديان الواسعة والخصبة، والغابات الكثيفة المنتشرة في الوديان الصغيرة الخلابة، إلى جانب المضائق العميقة، والجبال الشاهقة الارتفاع. كذلك تشتهر بلاد الكرج بخيولها الشرقية (٥٠)، وشجاعة فرسانها ، وبسالتهم ، وكرم طباعهم ، وجمال نسائهم (٥١). ولقد أحب الكرج الحرب والنزال (٥٢) ، ويرجع ذلك أنه طوال تاريخهم اضطروا أن يقاتلوا جيرانهم الأترياء حفاظا على استقلالهم وحريتهم ، وكبح جماح أطماع

الطامعين فى خيرات بلادهم . ولقد انعكس ذلك على تحية البعض منهم للآخر ، إذ يحيون بعضهم البعض بهذه الأقوال « فليكن النصر حليفك » ، فيرد من يسمع هذه التحية قائلا: « وحليفك أيضا » (٥٣) .

على أية حال ، كان من الطبيعى أن يتطلع المسلمون إلى فتح بلدان القوقاز ، بعد أن أصبحت حدود دار الإسلام متاخمة لحدودها ، وذلك عقب الفتح الإسلامى لبلاد الجزيرة وآذربيجان . وشهدت الفترة من ٦٤٠ م / ١٩ هـ إلى ٦٤٦ م / ٢٦ هـ تنازع المسلمين والبيزنطيين السيادة على بلاد ما راء القوقاز . وراحت بلدانها ضحية الاقتتال بين الأسدتين ، فتأرجحت بين السيادة الإسلامية تارة ، والسيادة البيزنطية تارة أخرى . إلى أن تمكن المسلمون فى نهاية المطاف من بسط السيادة الإسلامية عليها بسطاً نهائياً وذلك سنة ٦٦١ م / ٤١ هـ فى أوائل عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) .

وكان الزعيم الأرمنى البطريق (٥٥) PATRICE ثيودور رشتونى (٥٦) THEODORE RSTUNI أول حاكم عام عينه المسلمون على بلاد الكرج وأرمينية والران (٥٧) وسيوغيا (سيونيك) (٥٨) SIOUNIE وبلاد القوقاز حتى دريند (٥٩) .

ولقد ظلت بلاد الكرج خاضعة للسيادة الإسلامية طالما كانت بلاد الإسلام فى أمن وسلام . أما إذا دب الاضطراب والاقتتال فى أعماقها - كما حدث أيام الفتنة الكبرى (٦٠) ، وعقب وفاة معاوية بن أبى سفيان ، وكذلك أواخر أيام الخلافة الأموية (٦١) - كانت الامبراطورية البيزنطية تنتظر هذه الفرصة السانحة لتعيد بلاد الكرج إلى سيادتها (٦٢) . إلا أن ملوك الكرج البجرانطيين (٦٣) حملوا على عاتقهم

مهمة توحيد البلاد وتزعم حركة الاستقلال بعيدا عن السيادة الإسلامية أو البيزنطية على حد سواء ، ونجحوا بالفعل فى بسط سيادتهم على بلاد الكرج الغربية، بينما ظلت بلاد الكرج الشرقية ، أي خارطلى وكاخيتى وتفليس وضواحيها تحت السيادة الإسلامية^(١٤). وعين المسلمون أحد عمالهم عليها، وحمل لقب «والى» أو «أمير»، أقام فى العاصمة تفليس. وكان فى آن واحد القائد العسكرى والحاكم العام وقاضى القضاة، أى جمع فى يديه جميع السلطات من عسكرية وتنفيذية تشريعية. وتمركز الجزء الأكبر من جيش المسلمين فى العاصمة ؛ أما بقية القوات، فقد تفرقت فى المدن الكبرى والقلاع الحصينة^(١٥).

هذه لمحة سريعة موجزة عن بلاد الكرج وخضوعها للفتاحين المسلمين وقد سبق لنا أن أصدرنا كتابا بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج» تناولنا فيه التفاصيل الدقيقة عن هذا الموضوع .

وإذا انتقلنا إلى الاتراك السلاجقة، فنلاحظ أن عشرات المراجع تحدثت عنهم بإفاضة، لكن الذى يهمنا فى هذا البحث ليس تكرار القديم بأسلوب مفاير، لكن الاتيان بالجديد الذى لم يرد ذكره من قبل، والمتمثل فى الاحتكاك الحرسى الدائر بين الكرج والأتراك السلاجقة، فقد بدأ أول اقتتال بين الطرفين فى عهد طغرل بك (٤٤٧ - ٤٥٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٣ م) ، وتواصل بعنف أكثر فى عهد ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) ، وملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) وقد أفردت لهذا الموضوع بحثا جديدا^(١٦). على أية حال، خلال عهود السلاطين العظام، رجحت كفة ميزان القوى بشدة لصالح الأتراك السلاجقة. إلا أنه عقب وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م

استجدت ظروف قلبت موازين القوى لصالح الكرج وملكهم داوود الثانى .
فبانقضاء عهد ملكشاه ، انطوت صفحة العصر الذهبى للأتراك السلاجقة، بعد أن
مزقت خلافت الزعماء والقادة والأمراء وحدة السلطنة، وتنازع آل سلجوق الملك فيما
بينهم وشنوا الحروب المحلية على بعضهم البعض . أما بقية الصفوف الإسلامية ،
فكانت أكثر اضطرابا. هذا بينما فشلت جهود المسلمين فى إيقاف زحف الصليبيين
فى بلاد الشام والأطراف المقدسة، بعد أن نجح الصليبيون فى ضع ملامح الإمارات
اللاتينية وطفقوا يوسعون حدودها وسط الحشد المعادى لهم من الإمارات الإسلامية
بالمنطقة. وفى شمال الجزيرة ربطت إمارة الرها الصليبية، وفى انطاكية قامت الإمارة
الثانية التى أسسها بوهيمند. وفى بيت المقدس تأسست المملكة اللاتينية التى غدا
لها شىء من الزعامة على بقية الإمارات، ثم أخيرا تكونت إمارة طرابلس الصليبية،
ليكمل بذلك استقرار الصليبيين ببلاد الشام والأراضى المقدسة. أضف إلى ذلك
ظهور إمارة أرمينية الصغرى فى آسيا الصغرى وتعاونها مع الصليبيين طوال عصر
الحرب الصليبية^(٦٧) . وإلى جانب هذه الإمارة الأرمينية المسيحية ، ظهرت مملكة
الكرج الموحدة والتى على حد قول المؤرخ الفرنسى ماريوس كانار MARIUS
CANARD كانت ثمرة من ثمار الحروب الصليبية^(٦٨) .

وقد نشأت مملكة الكرج نتيجة توحيد مملكتى أيبيريا والأبغاز منذ سنة
١٠٠٨م/٣٩٩ هـ فى عهد الملك بجراط الثالث BAGRAT III ملك
الكرج^(٦٩) (٩٧٥ - ١٠١٤م/٣٦٥ - ٤٠٥ هـ) . وازدهرت هذه المملكة ذات
المسحة الأرمينية وقويت فى عهد ملكها داوود الثانى البجراطى الملقب بالبناء^(٧٠)
(١٠٨٩-١١٢٥م/٤٨٢-٥١٨ هـ) DAVITI AGHMACHENEBELI .

حمل داوود الثانى على عاتقه عبثين أولهما : مهمة استعادة الأراضى الكرجية الخاضعة للسيادة الإسلامية؛ وثانيهما: استكمال وحدة بلاد الكرج مكملًا بذلك خطوات سابقه حنا مروشدزى JEAN MARUCHIDZE والقربلاط (٧١) داوود DAVID LE CUROPALATE . وتحقيقًا لأهدافه هذه قام بإعادة بناء مملكة الكرج داخليا قبل مواجهة الأخطار الخارجية. وأدرك بثاقب بصره وبصيرته أن الخطر الخارجى يحتل المرتبة الأكثر أهمية ، إلا أنه لا بد له من جبهة داخلية قوية، لذا عمل على إعادة النظام والأمن والأمان فى ربوع بلاد الكرج ، وتوطين القبائل المهجرة من قبل السلاجقة، وإخضاع رجال الإقطاع الثائرين على السلطة المركزية، وكبح جماح رجال الدين الذين لا يقلون خطورة عن رجال الإقطاع. وأهم من هذا وذاك إعادة بناء جيش قوى وإعداده أحسن إعداد حتى يتمكن من مجابهة أعداء بلاده وانظمتهم العسكرية المتقدمة، وأولى ذلك أهمية بالغة (٧٢).

كان الجيش الكرجى قد انخفض تعداده نتيجة الحروب الكرجية السلجوقية المتواصلة . كذلك أصاب الجيش الاقطاعى الضعف والفوضى نتيجة النزاع الدائر بين كبار رجال الاقطاع والسلطة المركزية . وعلاجا لهذا القصور الاستراتيجى قسم العاهل الكرجى جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى ، وتشكل حرسه الخاص أى الحرس الملكى، ومهمتها تأمين سلامته وأمنه والمشاركة أيضا فى العمليات العسكرية ذات الأهمية البالغة. وأشرف على تجهيزها بأحسن وأحدث الأسلحة القتالية ولم يفته الاهتمام بتثقيفها (٧٣) .

أما الفرقة الثانية ، فقد كلفت بمهمة الدفاع عن المدن والقرى والقلاع والحصون. ثم تأتى فى النهاية الفرقة الثالثة وهى عماد الجيش وتشكل من الغالبية الساحقة من

الجنود . أدار داوود الثانى العمليات العسكرية بنفسه، فكان قدوة لأفراد جيشه. واهتم أيضا بتحليل كل معركة حربية يخوضها ليتكشف مواضع الخلل والقصور ويعمل على علاج الثغرات . وحرص أيضا على إغداق المكافآت على المقاتلين الشجعان، بينما أجبر المتخاذلين والمتقاعصين على لبس الملابس النسائية ليستعرضهم أمام قواته(٧٤) .

وبعد أن أتم الملك الكرجى كل هذه الاستعدادات المحسوبة والمدروسة ، قرر اجتياز مرحلة الدفاع والانتقال إلى مرحلة الهجوم، فبدأ بحشد أكبر قدر ممكن من الأعوان والحلفاء حتى يزيد من تعداد جيشه. وأدرك بعين الفاحص المدقق لمستقبل الأمور والأحداث أنه إذا جند المزارعين فى صفوف جيشه سينعكس ذلك سلبا على الانتاج الزراعى ، وسيؤثر تأثيرا سيئا على اقتصاد البلاد. وتيقن أيضا أن المزارع المجند قليل الخبرة بفنون الحرب والقتال . وبحكمته المعهودة يمم وجهه شطر القفجاق القاطنين شمال القوقاز وفكر فى توطيئهم فى بلاده وتجنيدهم فى صفوف جيشه عوضا عن تجنيد المزارعين الكرج . وقد اختار القفجاق لمهارتهم القتالية وحنكتهم العسكرية وقناعتهم فى اشباع حاجياتهم الشخصية . إضافة إلى ذلك ، فإن صلة المصاهرة كانت رابطا قويا فى توثيق العلاقات بين الطرفين فقد تزوج داوود بابنة خان القفجاق المدعو أوتروك OTROK (تسمية المصادر الكرجية) أتاراك شاراجانتين(٧٥) ATARAK - CHARAGANIS - TSE ، كذلك كان الماكر الكرجى يدرك تماما أحوال حلفائه المترديه نتيجة ما يعانونه من ضغوط من قبل روسيا وكيف، إذ كان هدف كل منهما هو إبادة القفجاق وطردهم من الأراضى التى كانوا قد احتلوها فيما مضى(٧٦) .

فى ظل هذه الظروف ، كان من الطبيعى أن يحظى مبعوثو العاهل الكرجى بموافقة القفجاق على عملية التهجير المقترحة، مما شجعه على أن يقوم بنفسه بزيارة باب الأبواب (٧٨) ، ويشرف على عملية تهجير هذه العناصر المتوحشة والمتمرسنة على فنون الحرب والقتال إلى بلاده . ولم يكتف داوود بذلك ، بل صالح قبائل الأوسيت OSSETES الواقعة أراضيهم بين بلاد الكرج والقفجاق (٧٩) ، بعد أن احتل كل القلاع الموجودة على طريق عبور القفجاق إلى بلاد الكرج . واتفق أيضا على تجنيد خمسة آلاف من المرتزقة الأوسيت . وقام بتوزيع القفجاق على مختلف مقاطعات بلاده، فأسكن عددا منهم فى خارطلى الداخلية؛ ووطن من تبقى منهم شمال أرمينية وفى مقاطعة إريشى وكلفهم بحراسة الحدود . كذلك أسرع ببناء قلعة حصينة بالقرب من قازيك (٨٠) KAZBEK تتحكم بفضل موقعها الاستراتيجى فى ممرات باب اللان (٨١) PAS DE DARYAL .

على أية حال ، اندمج القفجاق بسرعة بالغة فى بلاد الكرج ، فاعتنقوا المسيحية، وتعلموا لغة وطنهم الجديد، وانصهروا بلا مشقة فى الشعب الكرجى . وكان لهجرة القفجاق ، وإعدادهم ليكونوا جيشا منظما، أثره العظيم فى تقوية الجيش الكرجى وتدعيم مكانته الحربية، فقد بلغ تعداده آنذاك خمسة آلاف فارس من الحرس الملكى وستين ألف مقاتل كرجى إضافة إلى فرق من المرتزقة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال يتم استدعاؤهم عند الضرورة (٨٢) .

شاعت الأقدار أن أصبح ميزان القوى لصالح العاهل الكرجى عقب وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ . كما سبق أن ذكرنا فأسرع بالانتقضاى على كتائب الأتراك الساجقة المستقرة فى خارطلى KARTLI ، ونجح فى اجلائهم عن البلاد،

وأعاد إليها سكانها من الكرج وأوصاهم باعادة بناء اقتصاد بلادهم المنهار بفعل الحروب ثم قام بمطاردة القبائل الرعوية السلجوقية التي اعتادت أن تأتي في شهر أكتوبر من كل عام إلى وادي متكافارى MTKAVARI - وهو الاسم الكرجي لنهر الكر - في الأراضي الممتدة من مدينة تفليس حتى برذعة، ومنعها من الرعى في هذه المناطق .

علما بأن هذه القبائل الرعوية كانت تنسحب في فصل الربيع من وادي نهر الكر لتعود ثانية إلى جبال سيخيت SOMKHETIE وإقليم أارات ARARAT^(٨٣) . ثم أعقب ذلك بالامتناع عن دفع الجزية المقررة عليه للسلاجقة وذلك سنة ١٠٩٧م/٤٩٠هـ ، وكان معنى هذا اعلان الحرب على عدو بلاده. وقد أدرك خارطليس تسوخوفريبا KARTLIS TSKHOVREBA مؤرخ الملك داوود وكانب سيرته تمام الادراك الأحوال الجديدة التي أحاطت ببلاد الكرج والتي تمكن العاهل الكرجي بمهارة بالغة الاستفادة منها خير استفادة . فقد ربط هذا المؤرخ الفاحص المدقق في مصدره «سيرة داوود ملك الملوك» TSKHOREBA MEPHET MEPHISA DAVITISI بين الأوضاع الداخلية في بلاد الكرج بين الأحوال والمتغيرات العالمية آنذاك . فذكر أن ازدياد قوة عاهله وامتناعه عن دفع الجزية للأتراك السلاجقة تزامن مع الدعوة للحروب الصليبية وتأسيس الإمارات الصليبية في فلسطين وبلاد الشام وركز في حديثه علي أهمية سقوط كل من انطاكية وبيت المقدس في أيدي الصليبيين^(٨٤).

على أية حال ، بعد هذه الاستعدادات العسكرية الهائلة، استعد داوود لاستخدام آله العسكرية تحقيقا لمخططاته في استعادة البلدان الكرجية من الاتراك السلاجقة

وتحقيق وحدة بلاد الكرج. فبعد أن نجح فى اجلاء الاتراك السلاجقة عن خارطلى،
استعد لضم كاخيتى KAKHETIE وارشى (٨٥) ERETHIE ، أى بلاد
الكرج الشرقية (٨٦) .

ففى عام ١١٠١م/ ٤٩٥ هـ تخلص داوود الثانى من نفوذ آل أوربليان
ORBELIAN الذين نازعوه السيادة على بلاد الكرج. فقد أسر أمير أوربليان
الجسور ليباريت الثالث LIPARIT III ، ثم توفى ابنه وخلفه راتى RATI
وذلك فى نفس العام ، فحرم الأوربليون من زعمائهم الشرعيين .

وهكذا ساعد الموت الطبيعى لآخر أمراء آل أوربليان، الزعيم الكرجى داوود،
على القضاء على مناوئة أهم رجال الاقطاع الكرج له (٨٧) . ثم جاء الدور على الزعيم
الاقطاعى الثانى، ألا وهو الأمير الكرجى كويريكه الرابع KWIRIKE IV
وخلفه أغزر ثان الثانى AGHSARTHAN II الخاضعين لسيادة الأتراك
السلاجقة. كان على الملك الكرجى أن يجابه آل كويريكه بالسلاح، فبدأ عام
١١٠١م / ٤٩٥ هـ بالهجوم على كويريكه الرابع أمير كاخيتى وارشى وهما من
أهم معاقل الاتراك السلاجقة؛ وتمكن من الاستيلاء على قلعة زايدارادينى
ZEDAZADENI التى تعد أهم قلاع الحصينة، وتقع بالقرب من مصب نهر
ارجفى (٨٨) ARAGVI عند التقائه بنهر الكر، شمال مدينة تفليس . ثم شاعت
الأقذار السعيدة أن ثار رجال الاقطاع فى كاخيتى وارشى على أغزر ثان الثانى
خليفة كويريكه الرابع بسبب فساد أخلاقه وسوء تدبيره للحكم واعتبروه غير جدير
بإعتلاء العرش على حد قول لوند موفسسيان LEWOND MOVSESIAN
فى مصدره تاريخ ملوك كويريكيان لورى (٨٩) HISTOIRE DES ROIS

KURIKIAN DE LORI . وانتهى المطاف بأن تحالف كبار رجال الاقطاع في كاخيتى واريشى وقبضوا على أميرهم وسلموه إلى الملك الكرجى داوود . وبذلك نجح في ضمهما إلى بلاد الكرج الموحدة، وأسدل الستار نهائيا على أسرة آل كويريكيان (١٠) .

وهكذا أصبحت الأراضى الكرجية الواقعة تحت سيادة داوود الثانى تمتد من شواطئ البحر الأسود إلى جبال داغستان بعد نجاحه في ضم بلاد الكرج الشرقية إلى مملكته .

هكذا، نجح داوود الثانى في انشال مخططات الاتراك السلاجقة وسياستهم الهادفة إلى اضعاف بلاد الكرج حتى تظل خاضعة للسيادة السلجوقية. فقد استن ملكشاه منذ سنة ١٠٨٠م / ٤٧٣ هـ سياسة تقضى باشغال نيران الشقاق والفرقة بين الأسرتين البجراطيتين الحاكميتين في كل من بلاد الأبخاز وخارطلى من ناحية بين أسرة أغزرتان الحاكمة في مقاطعتى كاخيتى واريشى من ناحية أخرى (١١) . لكن بسياسته الحكيمة، قوض داوود سياسة الأتراك السلاجقة ، حين نجح في ضم بلاد الابخاز إلى مملكة الكرج الموحدة عقب وفاة راتى آخر أمراء أسرة أوريليان - كما سبق أن ذكرنا، ثم استولى على خارطلى وضم كاخيتى واريشى عقب ثورة كبار رجال الاقطاع على أغزرتان الثانى آخر أمراء أسرة كويريكيان وانخراطهم تحت لواء العاهل الكرجى .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه التوسعات الإقليمية أفئدة الأتراك السلاجقة الذين أسرعوا بحشد القوى الإسلامية المجاورة لمواجهة الخطر الكرجى المتنامى . ففي ظل هذه الظروف الحرجة تزعم طغرل بن محمد (ت المحرم ٥٢٩ هـ / اكتوبر ١١٣٤م)

أمير كنجة GANDJA (٩٢) والران المعسكر الإسلامى وأعلن الحرب على داوود. ودارت بين المتصارعين معركة ضارية بالقرب من إرتسوخى ERTSOUKHI خرج منها الزعيم الكرجى ظافرا بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بالتحالف الإسلامى وطرده من كاخيتى وارشى (٩٣) :

عقب هذه الانتصارات التى حققها الجيش الكرجى ، ظلت العاصمة تفليس ورستافى ROUSTAVI والأراضى الواقعة جنوبى خارطلى خاضعة لسيادة السلاجقة . إلا أن داوود لم يركن إلى السكينة، إذ بدأ بتوجيه أولى حملاته على جنوب خارطلى هادفا من وراء ذلك التمهيد للإستيلاء على تفليس حيث تتمركز فيها القوات الأساسية للجيش السلجوقى لكن كان عليه أن يستولى أولا على الأطراف الجنوبية للمدينة . وبالفعل فى سنة ١١١٠ م / ٥٠٤ هـ نجح الجيش الكرجى فى الاستيلاء على شمشفلدى (٩٤) SAMCHVILDE الحصينة . وكان سقوطها هزيمة ساحقة للاتراك السلاجقة، اضطروا بعدها إلى الانسحاب من الأراضى المتاخمة لها. وفى نفس الوقت، تمكن الكرج من احتلال قلعة دزينا DZENA ، واجلاء السلاجقة عن مقاطعة سُمخيت SOMKHETI، والحاق هزيمة بهجوم مضاد قام به السلطان السلجوقى (٩٥) . بعد ذلك واصل الجيش الكرجى زحفه إلى أن وصل إلى بلاد كنجة وضواحيها . ويذكر ابن القلاسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) فى مصدره «ذيل تاريخ دمشق» أن هذه المنطقة عانت الأمرين من عبث وفساد الكرج. وعندما علم بذلك السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه (ت فى ١٤ ذى الحجة ٥١١ هـ / ١١١٨ م) حشد لمواجهة جيشا وافر العدد، وتمكن من «كف أذاهم» ، ونجح فى هزيمتهم وتشيدهم وطردهم خارج البلاد

الإسلامية بعد أن «دوخ بلادهم وأخرب أعمالهم». ثم أمن أهل بلاد كنجة من هجماتهم، وعاد ظافرا غانما إلى بلاده (٩٦).

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى لحقت بالجيش الكرجى، فقد بذل الملك داوود الثانى قصارى جهده لوضع حد للاغارات الموسمية التى كان يشنها الاتراك السلاجقة على الأراضى الواقعة جنوب العاصمة تفليس . ونجح بالفعل فى تحقيق هدفه حين استولى سنة ١١١٥م / ٥٠٩ هـ على قلعة رستافى ROUSTAVI الواقعة جنوب شرق تفليس. وكانت هذه القلعة الحصينة قبل سقوطها فى أيدى الكرج تحمى تحركات الاتراك السلاجقة عبر وادى متكافارى MTKAVARI ويورى (٩٧) YORI.

وفى سنة ١١١٦ م / ٥١٠ هـ تمكن فرسان الكرج أيضا من إجلاء السلاجقة عن قلرجيت (٩٨) KLARDJETH والطاييك (٩٩) TAYQ. ثم واصل العاهل الكرجى توسعاته بأن استولى سنة ١١١٨م / ٥١٢ هـ على أجارانى AGARANI، وتوج انتصاره هذا بانتصار على درجة كبيرة من الأهمية حين استولى على قلعة لورى LORI الواقعة على الطريق المؤدى إلى بردودج BERDOUDJ والتى عبرها كان الاتراك السلاجقة يستطيعون الوصول بسهولة إلى مقاطعة سمخيت (١٠٠). وبعد ضم مملكة لورى إلى مملكة الكرج الموحدة أحد أهم الانتصارات السياسية والعسكرية التى حققها العاهل الكرجى . فبفضل بسط سيادته على هذه المملكة، أصبح الكرج يسيطرون على الطريق من الجنوب حتى بلاد الكرج الشرقية وتفليس، وبذلك قطعوا على الأتراك السلاجقة طريق الوصول إلى تفليس ومهدوا السبيل لاسقاطها فى قبضتهم. كذلك نجح بدهائه الحربى فى بسط سيادته على الاطراف

والأراضي الواقعة جنوبى تفليس، وقضى على كتيبة سلجوقية كانت تمضى الشتاء على شواطئ نهر الرس، مما جعل الأتراك السلاجقة فى موقف لا يحسدون عليه، بعد أن نجح الكرج فى ضم جنوب خارطلى إلى مملكة الكرج الموحدة. ومع ذلك، فقد ظلت كل من تفليس ودمانيسى DMANISI فى أيدي الأتراك السلاجقة^(١٠١). بعد هذه الانتصارات الحربية المتواصلة والمتلاحقة، خطط الملك الكرجى لمرحلة الهجوم الشامل على خصمه العنيد الذى عمل له ألف حساب. ويذكر كاتب سيرته أن عيون السلاجقة كانت ترصد أولا بأول تحركات الجيش السلجوقى، فى حين كان داوود الثانى أكثر مكرًا منهم. ففى تحرك غير محتمل ولا متوقع ولكى يخدع جواسيس السلاجقة، زحف بجيشه إلى بلاد الكرج الغربية وذلك سنة ١١٢٠م/٥١٤هـ. وبينما كان الجيش السلجوقى يجتاح الأراضي الكرجية، انقض عليه الجيش الكرجى كالصاعقة، ولم يفلت إلا القليل من السلاجقة لاذوا بالفرار من ساحة القتال.

عقب ذلك، تسلل الملك الكرجى إلى شروان^(١٠٢) CHIRVAN واستولى على مدينة قبالا KABALA. ثم واصل زحفه إلى خارطلى، لكنه اضطر إلى الانسحاب ثانية إلى شروان^(١٠٣) ربما بسبب مقاومة سكان خارطلى له، ورفضهم الخضوع للسيادة الكرجية.

إلا أن العاهل الكرجى لم يركن إلى السكينة، فمنذ شهر فبراير من عام ١١٢٠م / رمضان ٥١٣هـ حتى شهر يونيو من عام ١١٢١م / ربيع أول ٥١٦هـ شن الجيش الكرجى هجوما ضاريا على قرى الأتراك السلاجقة الواقعة على الأطراف الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فيما وراء جبال القوقاز، واحتل بذلك نقاط ارتكاز

الاتراك السلاجقة. ولم يقنع بما حققه من انتصارات بل ضيق الخناق فى نفس الوقت على العاصمة تفليس ذلك منذ أوائل عام ١١٢٠م / شعبان ٥١٣ هـ ، علما بأن تفليس كانت تعاني منذ ما يزيد على أربعة عقود من حالة فوضى وتدهور سياسى عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر ، التى تولت حكمها ما يقرب من قرنين من الزمان(١٠٤). على أية حال، بعد أن تمكن داوود الثانى من الاستيلاء على مدن وقلاع الأتراك السلاجقة التى تحيط بفريسته، أصبحت العاصمة تفليس محاطة بالجيش الكرجى كإحاطة الدائرة بمعصم اليد، خاصة بعد أن فقد السلاجقة نقاط ارتكازهم الواحدة تلو الأخرى .

ثم واصل الجيش الكرجى شن هجماته الشرسة على قبائل السلاجقة التى اعتادت الرعى فى أحراش بلاد الكرج . فما كان من زعماء هذه القبائل أن أرسلوا يستنجدون بالقوى الإسلامية المجاورة ، وانضم إليهم كبار تجار كنجة وتفليس ودمانيسى . ومثل الجميع أمام السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ هـ / أغسطس ١١٣١م) الذى بدوره - قد انتابه الفرع لإدراكه مدى خطورة بسط السيادة الكرجية على الأراضى الواقعة فيما وراء جبال القوقاز على حساب الوجود السلجوقى هناك. إزاء ذلك، استعد لتلك المجابهة الحاسمة خير استعداد، وأعد هجوما مضادا(١٠٥) .

هذا بينما وسع داوود الثانى من نطاق مصاهراته السياسية بأن زوج ابنته ثمارا THAMAR لشروانشاه ملك شروان المسلم، وأصبح بذلك صديقا حميما ومناصرا قويا له(١٠٦) . كذلك بفضل سياسته الماكرة هذه ، كسب ود الامبراطورية البيزنطية بعد أن زوج ابنته الثانية كاتا KATA بابن القيصر نقفور برينبوس(١٠٧)

هكذا ، توغل اسفين الكرج فى عمق الأراضى السلجوقية، وأحدث تصدعا رهيبا وآثارا مفزعة بين الدويلات الإسلامية الصغيرة المتنافرة .

إزاء هذا الخطر الداهم والساحق والذى كاد يؤدي إلى استئصال الوجود السلجوقى من هذه البقاع، كان لابد من توحيد الصفوف الإسلامية خاصة بعد أن وردت الأخبار سنة ١١٢١م/ ٥١٥ هـ «بظهور الكرج من الدروب، وقصدهم بلاد الملك طغرل» الذى كان باسطا سيادته على الران ونتجوان (١٠٨) حتى نهر الرس (١٠٩) والمتاخم مباشرة لحدود بلاد الكرج (١١٠) .

علاجاً لهذا الخطر المستشرى على الوجود الإسلامى، أعلن السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ هـ / أغسطس ١١٣١ م) الدعوة للجهاد و«تكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم واجتمعوا» (١١١) ، فتحالف كل من الأمير نجم الدين إيلغازى بن أرتق (١١٢) صاحب وأمير حلب وماردين ومؤسس دولة بنى أرتق التركمانية ، والأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد الأسدى (١١٣) أمير الحلة وصهر نجم الدين إيلغازى على ابنته كمارختون (١١٤) ، والملك طغرل بن محمد (١١٥) ملك كنجة والران ، وشمس الدين طغان أرسلان الأحدب حاكم أرزن (١١٦) وبدليس (١١٧) ودوين (١١٨). وهكذا «كان المسلمون فى عسكر كثير يبلغون ثلاثين ألفاً» (١١٩) .

أما الملك داوود الثانى ، فقد استعد لهذه المعركة الفاصلة أحسن استعداد، إذ حشد حسب قول عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) «خلقا لا يحصى» (١٢٠). فقد انخرطت فى جيشه جموع من «القفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم» (١٢١).

وينفرد المؤرخ الأرمني متى الرهاوى (ت ١١٤٤م/٥٣٩هـ) MATTHIEU D'EDESSE والمستشار جلتيرى GALTERII بذكر تعداد وأجناس الجيوش المتحالفة مع الجيش الكرجى. إذ جاء فى هذين المصدرين المهمين أن جيش داوود ضم أربعين ألف من أشجع جنود الكرج وخمسة عشر ألفا من أمهر جنود خان القفجاق وخمسة آلاف من الأوسيت وألفين من الصليبيين وعناصر أخرى متحالفة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال لم يرد ذكر تعدادها . وذكر جلتيرى أن إجمالى الجيش الكرجى بلغ الثمانين ألف مقاتل (١٢٢) .

هذا عن تعداد جيش المعسكرين المتصارعين ، ويتضح من خلاله أن جيش داوود الكرجى بلغ ما يقرب من ثلاثة أضعاف جيش الأتراك السلاجقة وحلفائهم من الأمراء المسلمين المجاورين .

وإذا انتقلنا إلى العاصمة تفليس، فقد بلغ اضطراب انظمة الحكم فيها مداه، مما دفع الفارقى (ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨م) إلى ذكر أنه « كان كل شهر يلى أمرهم منهم واحد بقوا كذلك مدة أربعين سنة» (١٢٣) وذلك عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر التى حكمت المدينة طوال ما يقرب من قرنين من الزمان كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال ، استغل داوود كل هذه الظروف المواتية أحسن استغلال . فبدأ بممارسة ضغطه العسكرى على تفليس. وكان لابد من وحدة الجيوش الإسلامية لمواجهة المد الكرجى، خاصة بعد أن أسرع الجميع لتلبية نداء الجهاد. وسجل ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) الفرع الذى استشرى فى صفوف الجيش الكرجى بسبب كثرة اعداد جيوش المتحالفين المسلمين بقوله «فعاد (الكرج) فرقا (١٢٤)» . فما كان من المسلمين إلا أن تعقبوا فلول الفرق الكرجية المنسحبة ، وضيقوا عليهم

الحناق فى الدروب . لكن الكرج تشجعوا واستداروا لقتال المسلمين ، وتمكنوا من هزيمتهم بعد استشهاد أعداد كبيرة من المجاهدين .

بعد ذلك، قصد الجيش الكرجى مدينة تفليس حيث قتلوا من فيها (١٢٥)، مما دفع أهالى المدينة - على حد قول الفارقى - إلى إرسال وفد إلى نجم الدين ايلغازى لاستدعائه ليسلموه تفليس ، خاصة بعد أن «ضايقتهم» (داوود ملك الأبخاز والكرج) مضايقة شديدة» وأصاب مدينتهم الاضمحلال والخراب. كذلك استنجدوا بطغرل ملك كنجة والران ، فأمدهم بجيش مزود بعتاد للدفاع عنهم، لكنه لم ينجح فى إجلاء الجيش الكرجى المحاصر لمدينتهم «وزادت مضايقة الكرج لهم» مما اضطر أهل تفليس بعد طول الحصار المفروض على مدينتهم- إلى أن يتفقوا مع داوود الثانى على «أن يحملوا له فى كل سنة عشرة آلاف دينار، ويكون عندهم شحنة معه عشر (صحتها عشرة) فوارس ، فبقوا على ذلك مدة» (١٢٦) .

إلا أن سكان تفليس خرقوا الاتفاق، إذ أوفدوا سفارة ثانية إلى نجم الدين ايلغازى «يستدعونه ليسلموا إليه تفليس» (١٢٧) . فسار لنجدتهم وبصحبه جيش عظيم، وانضم إليه صهره نور الدولة ديبس بن سيف الدولة صدقة بن مزيد الأسدى ملك العرب صاحب الحلة، وكذلك شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحذب صاحب أرزن وبوليس ودوين الذى تسلل إلى تفليس من الشرق مصطحبا معه القاضى علم الدين بن نباتة وولده علم الدين أبو الفتح الكبير والوزير أبو تمام بن عبدون. ووصل المتحالفون المسلمون إلى أرزن الروم (١٢٨) ، وأتخذ الجميع طريق ثرياليت (١٢٩) THRIALETH واتفقوا على أن تجتمع الجيوش الإسلامية على باب تفليس (١٣٠) . أما الملك طغرل ، فقد قدم من ناحية كنجة، وسار طغان أرسلان بن

الأحدب من دوين؛ وزحف نجم الدين إيلغازي بجيشه إلى مشارف العاصمة تفليس على مقربة نصف يوم من تفليس الجبل (١٣١) أي على مقربة من مرتفعات ديدجوري DIDGORI الواقعة جنوب غرب تفليس حيث دارت المعركة الفاصلة .

هذا عن حشود الجيوش الإسلامية وتحركاتها لمواجهة معركة حاسمة تهدد كيائها ليس فقط في بلاد الكرج بل في القوقاز عامة .

أما الملك داوود، فلم يكن أقل استعدادا من الجيوش الإسلامية . إذ يذكر ابن الأزرق (ت ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م) إنه خرج ومعه ولده وولي عهده ديمتري من الناحية الغربية (١٣٢) «ومعه خلق لا يحصى» (١٣٣)، واتخذ موقعا استراتيجيا إذ كان يجدر عليهم من الجبل وهم في الحفة» (١٣٤) وقبل وصول جيش الملك طغرل بن محمد ولا شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحدب بمن معه، اندلع قتال ضار بين المتصارعين وكانت الجيوش الإسلامية المتقدمة بقيادة نجم الدين إيلغازي وصهره ديبس (١٣٥) . وانفرد ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) - وعنه نقلت معظم المصادر الإسلامية - بذكر أسباب هزيمة الأتراك السلاجقة والجيوش الإسلامية المتحالفة معها، إذ أرجع ذلك إلى خدعة مأكرة استنها ملك الكرج، أدت إلى حدوث فوضى واضطراب في صفوف المعسكر الإسلامي . فبعد أن اصطف الجيشان المتصارعان استعدادا للقتال، خرج من بين صفوف القفجاق حلفاء الكرج ما يربو على المائتي رجل، فظن المسلمون أنهم استسلموا، فلم يحترزوا منهم . وبذلك تمكن القفجاق من اختراق صفوف المسلمين دون أن يلحق بهم أذى، وسرعان ما أمطروهم بوابل من النشاب، فاضطربت صفوفهم وظنوا أن هزيمة ساحقة أصابتهم (١٣٦) ، كان ذلك في الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١م (١٣٧) ٢٩ جمادى الأولى سنة

٥١٥ هـ فى منجلىس MANGLISI غربى تفلىس (١٣٨). «وتبع الناس بعضهم بعضا منهزمين ؛ ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضا فقتل منهم عالم عظيم» (١٣٩). فتعقبهم الجيش الكرجى وأخذ يطاردهم لمسافة عشرة فراسخ (١٤٠). «وقتل وأسر من المسلمين ما لا يحصى» (١٤١). ويذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) أن الكرج «أسروا أربعة آلاف رجل» (١٤٢). وأن نجم الدين إيلغازى عاد هزىما فى عشرين فارسا إلى ميفارقين ومعه صهره دبىس، فأقام بها مدة، ثم سار إلى ماردين وأقام بها إلى سنة ست عشرة وخمسة على حد قول ابن شداد (١٤٣) (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م). ويذكر ابن الأثير أن حصار تفلىس دام إلى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م. (١٤٤) وإنه عندما قارب أهلها على الهلاك، أوفدوا بعثة ضمت قاضى المدينة وخطيبها إلى الكرج طالبين الأمان. «فلم تصغ الكرج إليهما، فأحرقوا بهما (أي أحرقوا القاضى والخطيب) ودخلوا البلد قهرا وغلبة واستباحوه ونهبوه» (١٤٥). ولم يكتف الكرج بهذه الأعمال الوحشية بل «قتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية» (١٤٦).

هذا عن تفاصيل سقوط تفلىس فى المصادر الإسلامية، ومنها نستخلص أن رواية ابن الأثير تعد أكمل هذه الروايات ، وأن معظم المصادر الإسلامية الأخرى إما نقلت عنه نقلا يكاد يكون حرفيا أو اختصرت روايته اختصارا شديدا (١٤٧).

وإذا انتقلنا إلى المصادر الأجنبية، فنلاحظ أنها زودتنا بتفاصيل أدق وأكمل وأكثر إفاضة من المصادر الإسلامية. فقد جاء فيها أن السلطان السلجوقى حشد جيوشا من دمشق وحلب حتى القوقاز وكون اتحادا من الفرس والعرب والأتراك السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الداهم، ووضع حد لتفاقمه. وبالغت المصادر الأجنبية مبالغة واضحة فى احصاء تعداد الجيوش الإسلامية المتحالفة. فقد ذكر المستشار

جلتيرى ، مستشار إمارة انطاكية GALTERII CANCELLARII
ANTIOCHENI فى حوليته «انطاكية الجميلة» ANTIOCHENA BELLA
أن تعداد الجيوش الإسلامية بلغ ستمائة ألف (١٤٨)؛ بينما جاء فى كل من الحولية
الكرجية التى صنفها « خارطليس تسوخوفريبا » KARTLIS
TSKHOVREBA وعنوانها «سيرة الملك داوود ملك الملوك» (١٤٩) وحولية
المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى CHRONIQUE DE MATTHIEU أنه
كان أربعمائة ألف فقط (١٥٠) . ومن المؤكد أن الأرقام الواردة فى المصادر الأجنبية
مبالغ فيها مبالغة واضحة، والهدف من هذه المبالغة إكساب الملك الكرجى داوود
الثانى مظهر البطل الاسطورى الذى تمكن من كسر شوكة الاتراك السلاجقة والقضاء
على الاسطوره القائلة بأنهم قوم لا يقهرون. هذا بينما ذكرت المصادر الإسلامية فى
حديثها عن معركة ديدجورى (١٥١) أن عسكر المسلمين بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل
فقط كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال فى الثانى عشر من أغسطس سنة ١١٢١م / ٢٧ جمادى الأولى
سنة ٥١٥ هـ تسلل المسلمون إلى بلاد الكرج عن طريق ثرياليت رمنجليس
وديدجورى وتمكنوا من احتلال تفليس والتمركز فوق مرتفعات ديدجورى
DIDGORI الواقعة جنوب غرب العاصمة (١٥٢) . فى حين قاد العاهل الكرجى
جيشه المكون من تحالف الكرج والقفجاق والاسيت والصليبيين والداغستانيين
والأكراد وسكان الجبال (١٥٣)، واختار ضواحي ديدجورى الواقعة داخل مقاطعة
خارطلى لتكون ساحة معركته الأولى. لذا سميت هذه المعركة فى المصادر الأجنبية
باسم معركة ديدجورى. وفى هذه المعركة ابتدع الماكر الكرجى حيل حربية ماهرة

تقضى ببث الفوضى والاضطراب فى صفوف التحالف الإسلامى المتراص والمنظم أحسن تنظيم. فقد أصدر أوامره إلى الكتائب الكرجية بالانتقاض على جناحى الجيش الإسلامى، فما كان من الجنود المسلمين إلا أن انطلقوا كالوحوش المفترسة لاقتناص المهاجمين الذين سارعوا بدورهم إلى الانسحاب والاختفاء من ساحة القتال. وطبق داوود هذه الخطة فى كافة الجبهات فى أوقات متقاربة. وفى كل هجمة كان الجيش الكرجى يلوذ بالفرار دون مواجهة الجيوش الإسلامىة. وبالفعل، كان لهذا التكتيك الحربى الماكر عواقبه الوخيمة على التحالف الإسلامى، إذ تبددت صفوفه المنتظمة، وأصيب بنوع من البلبلة والاضطراب، وصاحب كل ذلك الفوضى العارمة. كان هذا أهم ما أسفرت عنه المعركة الأولى من نتائج (١٥٤). وفى اليوم الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١ م / ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥١٥ هـ اندلعت المعركة الثانية الحاسمة والفاصلة والتى حددت مصير تفليس. وفى هذا اليوم، أصدر داوود أوامره إلى كتائب الجيش الكرجى وبدأ عملية المناورة، بحيث يتم ذلك بأن تحارب كل كتيبة على حدة كأنها مستقلة تماما عن باقى فصائل الجيش. بينما ترأس بشخصه كتيبة تضم نخبة مختارة من أحسن الفرسان المتمرسين على فنون الحرب والقتال. وانتظر الملك الكرجى الفرصة المواتية لخوض غمار معركته الفاصلة. وبالفعل واته هذه الفرصة حين شعر بتطرق اليأس إلى صفوف الجيوش الإسلامىة ولاحظ انهيار معنوياته عقب المناورات والاغارات الكرجية المتواصلة. حينئذ قام بتوحيد كتائبه. ويذكر المستشار جلتيرى أن داوود أقام معسكره بين جبلين مغطين بغابات كثيفة فى وادى ديدجورى. ويرجع فضل اختياره هذا الموضع الاستراتيجى إلى عيونه المندسة فى صفوف الجيش الإسلامى والذين اخبروه أن عدوه سيهاجم هذا

الموضع (١٥٥) . وقبيل اندلاع المعركة المصيرية خطب العاهل الكرجى فى جنوده خطبة حماسية (١٥٦) جاء فيها : «هيا بنا يا جنود المسيح ! فإذا أبلينا بلاء حسنا ، سنضع حدا ليس فقط لأخطار ومصائب هؤلاء الأعداء الأشرار ، لكن أيضا سنتمكن من القضاء عليهم قضاء مبرما . لقد طرأت على ذهنى فكرة أعرضها عليكم ، وسيكون من بين نتائجها الحفاظ على كرامتنا وسلامتنا فى آن واحد . فلنرفع أيدينا إلى السماء ، متضرعين إلى الله عز وجل الذى نجبه من أعماق قلوبنا ، طالبين منه الموت والاستشهاد فى ميدان القتال بدلا من الفرار مخذولين . ولكى نقضى على أى تفكير شيطانى يدفعنا إلى الهرب من ساحة الوغى ، اقترح أن نسد بواسطة كتل الأخشاب السميكة الممرات التى دخلنا عن طريقها إلى هذا الوادى (أى وادى ديدجورى) . وهكذا ، دون أن يتطرق الخوف أو الاضطراب إلى قلوبنا ، سنخوض بشجاعة منقطعة النظير معركة فاصلة مع عدونا . وستكون المواجهة وجها لوجه وجسداً لجسد حتى لا يتجراً على مواجهتنا ثانية» (١٥٧) .

والجدير بالملاحظة أن مصنف «انطاكية الجميلة» لجلتيرى انفرد - دون غيره من المصادر - بذكر خطاب داوود السالف الذكر . كذلك يعد أهم المصادر الأجنبية والإسلامية على وجه الإطلاق بصدد تفاصيل معركة ديدجورى وفنون الحوب والقتال فيها .

على أية حال ، حظى خطاب داوود الحماسى والمثير للهمم بقبول الجميع ، فأسرع اللعاهل الكرجى بترتيب صفوفه وتنظيمها استعدادا للمواجهة الكبرى التى عمل لها ألف حساب . فوضع فى المقدمة مائتين من جنود الفرنج ، كانوا قد سبق لهم الانخراط فى خدمته ، وأوكل إليهم مهمة القيام بالضربات الأولى . إلا أنه فجأة

وعلى غير موعد، فى الجانب الآخر من مدخل وادى ديدجورى، سمع صياحاً عالياً، وضجيجاً مفزعاً لأسلحة ومعدات حربية ، وصهيل خيول. ورأى الجميع الربة ورايات الأعداء تتقدم مصحوبة بدقات الطبول والكوسات إعلانا عن قدومهم إلى ساحة القتال . وانطلقت هذه الأصوات المفزعة من التلال والوديان المجاورة معلنة الحرب . لكن الملك داوود انتظرهم فى ثبات وخشوع دون أن يتطرق الفرع إلى قلبه وحرص على رفع معنويات جنوده مؤكدا لهم أن باستطاعة جيش صغير العدد أن يحرز انتصارا على جموع غفيرة من الأعداء بفضل الله وحده (١٥٨) . وبمجرد أن أنهى حديثه هذا، انقض عليه جيش المتحالفين المسلمين كالصاعقة مطلقين صيحاتهم المدوية «الله أكبر» وعلى الرغم من هذا الهجوم المباغت تمكن الجيش الكرجى من إحراز نصر على المسلمين الذين انسحبوا فى فوضى عارمة بعد أن تعرض الغالبية العظمى منهم لسيوف جنود الكرج والمتحالفين معهم. واستمرت عملية مطاردة الفارين ثلاثة أيام وتعقبوهم حتى حدود أنى ، وجرح ايلغازى قائد الجيوش الإسلامية فى رأسه ، وفر من ساحة القتال مع قلة قليلة من اتباعه. فقد تمكن من الفرار إلى ماردين سالما بفضل مساعدة صهره دبيس بن صدقة على حد قول جلتيرى (١٥٩) بعد أن نهب لدبيس ثلاثمائة ألف دينار (١٦٠).

هكذا أحرز الجيش الكرجى وحلفاؤه نصرا حاسما على الأتراك السلاجقة وحلفائهم فى معركة ديدجورى. وكان لهذا النصر آثاره البعيدة المدى على الشعوب الخاضعة لسيادة السلاجقة، إذ ولد هذا النصر لدى هذه الشعوب الأمل فى إنهاء تبعيتهم لهم. كذلك بدأت تظهر على حلبة السياسة فى الشرق الأدنى الإسلامى آنذاك قوة جديدة يحسب لها ألف حساب ، خاصة بعد أن حققت نصرا حاسما على

السلاجقة. فالبيزنطيون والصليبيون وجدوا حليفا جديدا سيناصرهم ويتحالف معهم في حروبهم المقبلة ضد الأتراك السلاجقة والمسلمين .

على أية حال، عقب هذا النصر الكبير، أسرع الملك الكرجي داوود بالاستيلاء على إمارة تفليس الإسلامية فأحكم عليها الحصار مدة من الزمن، ثم هدم سورها الغربى. وتمكن فى نهاية المطاف من الاستيلاء عليها سنة ١١٢٢م / ٥١٦ هـ «وجعلها ترسانة سلاحه، ومقر إقامة أبنائه» . وأعادها ثانية عاصمة لمملكة الكرج الموحدة، بعد أن ظلت ما يقرب من أربعة قرون خاضعة للسيادة الإسلامية (١١٦١). وبلاستيلاء على تفليس ، استكمل العاهل الكرجي عملية إعادة الوحدة إلى ربوع مملكة الكرج. ولم يكتف بذلك بل طمع فى مواصلة حرب استرداد الأراضى الخاصة للسلاجقة وجيرانه المسلمين .

ففى سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ شن الزعيم الكرجي غارة شرسة على دريند شروان (١١٦٢)، وشدد عليها الحصار، . فأسرعت جموع غفيرة من أعيان المدينة إلى السلطان السلجوقى طالبيين نجده (١١٦٣) «وشكوا إليه ما يلقون منهم (أى من الكرج) وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم (١١٦٤) . فعزم العاهل السلجوقى على نجاتهم ووضع حد لإغارات الكرج. هذا بينما كان داوود الثانى قد تمكن من الوصول إلى شماخى (١١٦٥) CHEMAKHA . فنزل السلطان ببستان هناك، فأسرع الجيش الكرجي لنزال جيش السلطان الذى انتابه الفزع الشديد. وأشار الوزير السلجوقى شمس الملك عثمان ابن نظام الملك على السلطان بالانسحاب (١١٦٦). وعندما علم أهل شروان بذلك قالوا للسلطان «نحن نقاتل ما دمت عندنا وإن تأخرت ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا». فاقتنع السلطان بأقوالهم

و«أقام مكانه» (١١٧) وقرر عدم الانسحاب. وقد علق ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) على أحوال الفرع المنتشر في صفوف الجيش السلجوقي أحسن تعليق حين قال: «وبات العسكر على رجل عظيم» (١١٨). ثم أورد في موضع آخر أن الفرع جاء من الله إن «ألقى بين الكرج وقفجاق اختلافا وعداوة فاقتلوا تلك الليلة ورحلوا شبه مهزومين» (١١٩). بعد هذه الهزيمة التي منى بها الجيش الكرجي نتيجة الاقتتال بين الحليفين، تمكن السلطان السلجوقي من فتح شروان والاستيلاء على مدينة شماخي وأسر حاكم شروان. ثم أرسل خطاب تهديد إلى ملك الكرج طالبا فيه رد كل ما سبق أن استولى عليه من السلاجقة. فما كان من داوود إلا أن أسرع بالتسلل إلى شروان، وفرض عليها حصارا شديدا، مما اضطر السلطان السلجوقي إلى الانسحاب منها خوفا من المجابهة. وأعاد داوود شروان إلى ما كانت عليه قبل الفتح السلجوقي. إلا أنه في سنة ١١٢٤م/ ٥١٨ هـ رأى بشتاق بصره وبصيرته ضرورة ضمها إلى رقعة بلاد الكرج، فعين عليها حامية كرجية مكونة أساسا من الأريشين والكاخيتيين أقامت في مدن وقلاع شروان (١٢٠).

وينفرد متى الرهاوي - دون غيره من المصادر - بذكر اندلاع قتال ضار حدث سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ بين الكرج والأتراك السلاجقة، لم يحدد موضعه، نتج عنه قتل جموع لا تحصى من الأتراك السلاجقة؛ مما دفع طغرل (ت المحرم ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٣٤م) ملك كنجة إلى حشد جيش ضخم للتأثر من الكرج. ويروى أن حاكم كنجة أقام جسرا من السفن على نهر الكر، ليعبر عليه جنوده البالغ عددهم ستين ألف مقاتل. وكانت خطته قائمة على اجتياز نهر الكر والانقضاض على بلاد الأبخاز. إلا أنه عندما علم العاهل الكرجي بهذه الحشود، عبأ جيوشه، ونجح في

تخطيط جسر السفن الذى أقامه السلاجقة، وبذلك تمكن من تمزيق خصمه إريا على حد قول متى الرهاوى . أما ملك كنجة ، فقد لاذ بالفرار إلى مدينة أوزكند OZKEND ومثل أمام عمه السلطان سنجر طالبا نجدة(١٧١) .

ولم يكتف داوود باستعادة بلاد الكرج، بل شجعت انتصاراته المتلاحقة على الاستيلاء على المدن الأرمنية. ففي خلال عام ١١٢٣م/ ٥١٧هـ تمكن العاهل الكرجى من الاستيلاء على سلسلة من القلاع الأرمنية . ثم بلا تريت ولا تمهل زحف على كولا(١٧٢) KOLA وباسيان (١١٧٣) BASSIANI وتمكن من إلحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا قد بسطوا سيادتهم على هذه الأقاليم الجنوبية من بلاد الكرج(١٧٤).

ثم جاء بعد ذلك دور أنى ANI - عاصمة أرمينية الكبرى - والتي كان قد فتحها من قبل العاهل السلجوقى ألب أرسلان سنة ١٠٦٤ م / ٤٥٦ هـ (١٧٦)، وظلت ستة عقود خاضعة لسيادة الاتراك السلاجقة. وقد لعبت مدينة أنى باعتبارها مركزا إداريا وتجاريا كبيرا، ونقطة استراتيجية مهمة للعهدين البجراطى والسلجوقى، دورا بالغ الأهمية فى تاريخ البلاد السياسى والحربى . وقد غدت أنى خلال تلك الحقبة ميدانا للمصادمات الحربية العديدة بين بلاد الكرج من ناحية والأمراء المسلمين الذين ثبتوا مواطىء أقدامهم فى أرمينية من ناحية أخرى . وتوقف على نتائج الصراع بين هذين الطرفين مصير لا مدينة أنى وحدها وإنما معها أيضا مصير مقاطعة أراجدزوتن(١٧٧) ARAGADSOTN وإقليم شيراك CHIRAK (١٧٨) . ولهذا كان استيلاء الكرج على أنى ضربة انزلت لا بأمن وسلامة التجار المسلمين فحسب، وإنما أيضا بالمصالح التجارية للإمارات الإسلامية

فى أرمينية ككل . فبعد أن نجح الملك الكرجى فى الاستيلاء على سبير^(١٧٩)
SPER المطلة على نهر شوروخ والواقعة فى منتصف الطريق بين ارزن الروم^(١٨٠)
وطرابيزون^(١٨١)، حمل على عاتقه مهمة الاستيلاء على آنى .

وكانت العاصمة الأرمينية - على حد قول أحمد بن لطف الله منجم باشى فى
مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول» (كتبه حوالى سنة ٥٠٠ هـ
/ ١١٠٧م) - قد آلت منذ سنة ١٠٦٥م / ٤٥٧ هـ إلى أبى الأسور^(١٨٢) حاكم
الران من أسرة بنى شداد الكردية ، إذ تمكن من الاستيلاء على حصن آنى الحدودى
وأصلح ما تهدم منه وعمره ورممه، وعين عليه عماله بعد أن «شحنه بالسلاح
والذخيرة والميرة والرجال^(١٨٣)» .

وحتى الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى كان الشداديون تابعين لسيادة
الأتراك السلاجقة. وكان هؤلاء بدورهم حماة الشدادين ومدافعين عنهم فى مواجهة
أطماع كل من بلاد الكرج والإمارات الإسلامية المجاورة. بيد أن الحكام الشداديين
لم يعبأوا دوما بمصالح أهالى مدينة آنى وقواعد حياتهم وعاداتهم، مما حدى بأهل
هذه المدينة إلى الاستنجاد والاستعانة بملوك الكرج. وينبغى أن نضع فى الاعتبار
أيضا أن مملكة الكرج كانت لديها خططها ومصالحها واهتماماتها المرتبطة بمدينة
آنى، وهى فى زودها عنها وقفت ضد تحالف الأمراء المسلمين حماة أسرة بنى
شداد^(١٨٤) .

على أية حال ، يذكر المؤرخ الأرمنى صموئيل الآنى SAMUEL D'ANI
فى حوليته CHRONIQUE أنه عقب وفاة الأمير الشدادى مانوتشه^(١٨٥)
MANDOUTCHE سنة ١١١٠م / ٥٠٤ هـ خلفه ابنه أبو الأسور . وتصف

المصادر الأرمنية حاكم آنى الجديد بأنه كان منخور القوى، ضعيف القلب والعزيمة، جباناً لا يقوى على مواجهة الأخطار والاغارات المهددة بربوع العاصمة الأرمنية والتي نجم عنها تدمير اقليم شيراك GHIRAK عن بكرة أبيه . فبدلاً من أن يسعى أبو الأسور بن مانوتشه إلى رد الهجمات عن مدينته، قرر بيعها إلى أمير قرص KARS نظير مبلغ قدره ستون ألف دينار . وعندما شاع هذا الخبر بين الأرمن، انتاب الخوف والفرع زعماء وسكان آنى، فأسرعوا بالاستنجاد والاستعانة بالملك الكرجى داوود الثانى، وحشوه على الاستيلاء على مدينتهم وتعهدها له بمساعدته على تحقيق هذا الهدف (١٨٦) .

إزاء هذا الاستنجاد، حشد الزعيم الكرجى جيشاً قوامه ستون ألف فارس، زحف على رأسه إلى العاصمة آنى وقام بحصارها من كافة الجهات حسب قول بروسية BROSSET فى كتابه «أطلال من آنى» LES RUINES D'ANI . وبفضل مناصرة ومساعدة سكانها من الأرمن وكبار أمراء الاقطاع من آل أوريليان ORBELLIAN وآل ايفانيه IVANE وآل زخارى ZAKHARE تمكن العاهل الكرجى من التسلل إلى داخل العاصمة الأرمنية والاستيلاء عليها بعد ثلاثة أيام من حصارها. ولم ينل آنى أية أضرار أو خسائر من الأرواح. كان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١١٢٣م / (١٨٨) جمادى الآخرة سنة ٥١٧ هـ . وعين حاكماً على العاصمة الأرمنية الأمير الكرجى أبا الحيث ABELHETH وابنه ايفانيه، وخصص لها حامية قوية للدفاع عنها، وعاد ثانية إلى عاصمته تفليس وبصحبه أسيره أبو الأسور والبقية الباقية من أسرة بنى شداد الكردية (١٨٩) .

كان لاستيلاء الزعيم الكرجى على العاصمة الأرمنية آنى صدها البعيد المدى؛ إذ

كانت المدينة مركزا للحياة القومية والثقافية لأرمينية والأرمن ، وكانت لها مكانتها التجارية إذ تعد من أغنى مدن الشرق الأدنى آنذاك، إضافة إلى أنها كانت قلعة استراتيجية على درجة كبيرة من الأهمية. واستبشر سكانها خيرا عقب تحريرها. وغمرت الفرحة قلب المؤرخ الأرمني متى الرهاوى وعبر فى حوليته عن ارتفاع معنويات الشعب الأرمني عقب إعادة مسجد المدينة إلى كاتدرائية حين قال: «وانتشرت الفرحة البالغة بين أفراد أمتنا خاصة بعد أن رأينا ذلك البناء المقدس يعود ثانية إلى أصحابه الشرعيين» ، ووصف الملك الكرجى بأنه الصديق الوفى للأرمن (١٩٠) .

وأخيرا، انفرد متى الرهاوى دون غيره من المصادر الكرجية والأرمنية والإسلامية على حد سواء بذكر أخبار آخر حلقة من حلقات الصراع الضارى بين الأتراك السلاجقة والكرج فى عهد داوود الثانى. فقد ذكر أخبار حملة تمت قبيل وفاة الملك الكرجى سنة ١١٢٥م/٥١٨ هـ . فقد أورد أن السلطان السلجوقى أعد تحالفا إسلاميا ضم إبراهيم بن سقمان صاحب خلاط، وداوود بن سقمان أمير هنزيط HANTZITH وانضمت إليهما جيوش بعض الأمراء المسلمين المجاورين . احتشدت هذه الجموع الغفيرة وزحفت لاجتياح بلاد الكرج. فأسرع الزعيم الكرجى لقتالهم، ودارت بين الخصمين معركة طاحنة خرج منها داوود الثانى ظافرا بعد أن «طفحت الجبال والوديان بدماء المتحالفين ، وانتشرت روائح جثث القتلى فى كافة ربوع البلاد من أقصاها إلى أقصاها» على حد مبالغة متى الرهاوى. ولم يكتف الجيش الكرجى بذلك بل قام بمطاردة فلول المنسحبين لمدة خمسة أيام (١٩١) .

على أية حال، كان للمد الكرجى على حساب الأتراك السلاجقة فى كل من بلاد

الكرج وأرمينية الكبرى صدها المدوى فى ربوع العالم الإسلامى آنذاك، إذ كان لا يقل عن الصدى الذى أحدثته الانتصارات التى حققها الصليبيون فى الشرق الأدنى الإسلامى. إزاء هذا الخطر الكاسح، أسرع وفد من مسلمى القوقاز للمثول أمام الخليفة العباسى فى بغداد ، وتوسلوا إليه لاعلان الدعوة للجهاد ضد الكرج، تماما كما فعل مسلمو بيت المقدس وطرابلس وحلب عندما طلبوا من خليفة بغداد اعلان الجهاد لمواجهة الوجود الصليبي على أراضى المسلمين. إلا أن هذه النداءات لم تأت ثمارها وذهبت سدى (١١٢). وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين الكرج والأتراك السلاجقة وأمير المؤمنين لا يكاد يفعل شيئا، فازداد الكرج قوة وخطرا .

وقبل طى صفحات هذا البحث المتواضع، ينبغى الإشارة إلى أن الملك الكرجى داوود الثانى سبق عصره المتسم بالتعصب الدينى الأعمى حين تسامح تسامحا بالغا فى تعاملاته مع رعاياه من المسلمين والأرمن (١١٣) المخالفين له فى المذهب الدينى. وعلى هذا، فقد سبق تاريخيا صلاح الدين الأيوبي رائد التسامح الدينى فى عصر الحروب الصليبية .

والملاحظ أن معظم المصادر الإسلامية منها قبل الكرجية أجمعت على أن العاهل الكرجى لم يفرق بين طوائف شعبه من مسلمين ومسيحيين ويهود . فقد أشار إلى ذلك ابن الأزرق الفارقى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م) الذى زار مملكة الكرج، وسجل لنا فى تاريخه ما شاهده من نظم وعادات . وتوصل إلى خدمة ملكها ديمترى بن داوود الثانى ، وزار بعض ولايات مملكة الكرج آنذاك مثل أنى والابخاز ودريند فقد ذكر أنه فى سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م أقام فى تفليس . والتقى

بأحد المسلمين الأسرى منذ أيام حملة نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ،
ودار بينهما حديث أورده الفارقى فى مصنفه أشار فيه الشيخ الطاعن فى السنن إلى
أن أمير بلاد الكرج، وكل من ولى أمر هذه البلاد من قبل كان يحسن إلى المسلمين،
وانهم احتلوا مرتبة سامية فى بلاده ويذكر الفارقى أنه عقب استيلاء داوود على
العاصمة تفليس ، حرص على أن يؤمن أهلها، ويطيب قلوبهم، ووعدهم بالمعاملة
الحسنة، وأسقط عنهم الأعشار والمؤن والأقساط والخراج. وقبل كل شروط مسلمى
تفليس وكان من بينها أن لا يعبر بالمدينة خنزير ولا يذبح بها ولا فى سوقها. كذلك
روى أن الزعيم الكرجى لم يح الهوية الإسلامية للعملة الكرجية؛ فقد ضرب لسكان
تفليس دراهم عليها اسم السلطان والخليفة فى الوجه الواحد، وفى الوجه الآخر اسم
الله واسم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخيرا يأتى اسمه على جانب من الدرهم
الجديد. وأورد كذلك أن داوود نادى فى البلدان الكرجية أن من ألحق الأذى بمسلم
سيهدر دمه «وشرط لهم الآذان والصلاة والقراءة ظاهرا، وأن يخطب يوم الجمعة
ويصلى، ويدعى للخليفة والسلطان ولا يدعى لغيرهما على المنبر» . أما حمام
اسماعيل بتفليس، فقد منع الكرج والأرمن واليهود من دخوله، وجعله قاصرا على
المسلمين فقط. واختتم ابن الأزرق حديثه قائلا أن الملك الكرجى أحسن إلى المسلمين
غاية الإحسان، وجعل لأهل العلم والدين والصوفية أحسن المنازل، التى فاقت منازل
أقرانهم فى البلدان الإسلامية الأخرى (١٩٤) .

كذلك أشار ابن حوقل الذى زار العاصمة تفليس أن ملك الكرج - رغم كونه
مسيحيا - كان يعامل المسلمين بالحسنى ، فيحميهم من كل أذى، ويحافظ على
إقامة شعائرهم الدينية ، ويحمى مقدساتهم الإسلامية من كل دنس، ويوقد المسجد

الجامع فى تفليس بالشمع والقناديل ، ويزوده بكل احتياجاته ، والآذان فى جميع مساجدها يجره . ولاحظ بعين الفاحص المدقق أن المسلمين والكرج يعيشون فى جو يسوده الحب والسلام والأمان ويظله التسامح الدينى (١٩٥) .

أما القزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣) فقد ذكر فى مصنفه «آثار البلاد وأخبار العباد» نقلا عن بعض التجار، أن حمام تفليس ، الشبيه بحمامات طبرية «يختص بالمسلمين ولا يدخله كافر ألبته». وفى موضع ثان من مصنفه ، أشار القزوينى إلى حرية ممارسة سكان تفليس لشعائهم الدينية قائلا: «من أحد جانبي الكر يؤذنون ومن الجانب الآخر يضربون بالناقوس» (١٩٦) . مما يؤكد ما ذكره الفارقى وابن حوقل عن التسامح الدينى السائد فى ربوع بلاد الكرج .

كذلك أشار المؤلف المجهول «للستان الجامع لتواريخ الزمان» فى حديثه عن وفاة داوود الثانى تحت أحداث سنة ٥١٦ هـ (صحتها ٥١٨ هـ) أنه «هو الذى فتح تفليس، وكان له نظر عظيم فى الإسلام، وجرت له مناظرة مع القاضى الكنجرى فى الكلمة هل هى مخلوقة أم قديمة» (١٩٧) . أما ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٦٨ م) ، فقد ذكر أن الملك الكرجى كان عادلا فى الرعية، وكان يحضر صلاة الجمعة ويسمع الخطبة ويحترم المسلمين (١٩٨) .

هذا عن التسامح الدينى الذى اتصف به داوود الثانى كما أوردته المصادر الإسلامية ، وقد اتفقت معها أيضا المصادر الكرجية. فقد ذكرت أن الملك الكرجى قام بحماية التجار المسلمين ، وصادق الشعراء والفلاسفة، وعاش المسلمون فى مملكته فى أمن وأمان أكثر من المسلمين المقيمين فى البلدان الإسلامية المجاورة واستمر ذلك فى عهد خلفه ديمترى . وقد أيد ذلك القول ابن الأزرى حين قال : «لقد

كنت أرى لاحترامه للمسلمين ما لو أنهم ببغداد ما احترموا تلك الحرمة» (١٩٩) .
كذلك أشارت المصادر الكرجية إلى انه كان ملما بالعقيدة الإسلامية خير إمام،
وأنه شارك فى المناقشات الفقهية مع قاضى كنجة فيما يتعلق بالأحاديث الشريفة
والنصوص القرآنية. وإنه كان يحضر صلاة الجمعة بصحبة ابنه وولى عهده ديمترى.
إضافة إلى ذلك كان يوزع الأموال والعطايا على رجال الدين الإسلامى. كذلك أقام
مبنى مشتركا ضم شعراء المسلمين والصوفية وأغدق عليه الأموال الطائلة حتى
يضمن له الاستمرارية والبقاء. ويذكر مؤلف سيرة الملك داوود انه كان شغوفاً بمعرفة
كافة الثقافات، ومتبحراً فى علم اللاهوت والفقه الإسلامى، دارساً للتاريخ والفلسفة
وعلم الفلك، محباً للشعر الكرجى والفارسى والعربى . وإنه حرص على أن
يصطحب معه مكتبته الخاصة فى تجواله (٢٠٠) .

على أية حال ، ورث ابنه وخليفته على العرش نفس الخصال الحميدة التى تحث
على التسامح مع رعاياه من المسلمين. فقد التحق ابن الأزرق بخدمة ديمترى بن
داوود ، وبقي عنده مدة من الزمن. وذكر أنه ذات يوم الجمعة، ذهب الملك الكرجى
إلى المسجد الجامع بتفليس، وجلس على دكة تقابل الخطيب، وسمع خطبة الجمعة.
وبعد انتهاء الصلاة «أطلق برسم الجامع مائتى دينار أحمر» ، ولم يكتف بذلك، بل
أغدق الأموال على العلماء والوعاظ والأشراف والصوفية وحظى كل هؤلاء بتكريمه
واحترامه تماماً كما كان يفعل والده من قبل (٢٠١) .

وقد اعترف المؤرخ الأرمنى فريدتجوف نانسن FRIDTJOF NANSEN
فى كتابه «أرمينية والشرق الأدنى» - L'ARMENIE ET LE PROCHE
ORIENT بفضل المسلمين الكرج والحضارة الإسلامية على ازدهار الثقافة

والحضارة الكرجية فى كافة الميادين حين قال: «على الرغم من الاختلاف فى العقيدة، فقد ساهم مسلمو الكرج مساهمة فعالة فى النهوض بالحضارة والثقافة الكرجية فى العديد من الميادين والمجالات» (٢٠٢) .

وهكذا نجح الزعيم الكرجى داوود الثانى فى أن يجعل بلاد الكرج مملكة متحدة متماسكة الأطراف بعد أن ضم إلى ملكه كل جنوبى القوقاز وبلاد الابخاز حتى بحر الخزر، ووطد الأمور، وطمأن النفوس ، ونشر السكينة بين الناس. ونهض بالمملكة وأحيائها ، وجعل منها حكومة قوية قادرة على حفظ كيائها . وتوفى فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١١٢٥م/ ١٧ من ذى الحجة سنة ٥١٨ هـ بعد أن كانت له - عند الشعب الكرجى - المسلم منه قبل المسيحى - مكانة مقدسة . وترك لابنه ديمترى من بعده ملكا عظيما، وحكومة قوية . ونسج ولى عهده على منواله، ووضع نصب عينيه قدسية الوطن، والعمل على تقويته، ووجوب المحافظة عليه وعلى وحدته الوطنية فى ظل التسامح الدينى الموروث عن أبيه .

(١) أصدرت أولى كتاب باللغة العربية على مستوى العالم العربى عن تاريخ بلاد الكرج أى جمهورية جورجيا وكان بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج حتى أواخر القرن الثانى الهجرى / أواخر القرن الثامن الميلادى» - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

(٢) Brosset, Histoire de la Georgie, Paris, 1849 - 1858, t. I, p. 15 - 17; Laurent, L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Lisbonne , 1980, p. 46 .

(٣) Laurent, p.46 .

(٤) Brosset, Description Geographique de la Georgie, St. Pet. , 1842, p. 53 .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل - القاهرة ١٩٧٧ ، ج ٤ ، ص ١٦٢ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان - بيروت ١٩٧٨ - ص ٢٠٤ ؛ البعقوبى: تاريخ البعقوبى - بيروت - دار صادر بدون تاريخ - ج ٢ ص ١٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ - بيروت ١٩٦٧ - ج ٣ ، ص ٤٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان - بيروت بدون تاريخ - ج ٢ ، ص ١٢٥ ؛ يحيى الأنطاكى : تاريخ يحيى - نشر لويس شيخو - بيروت ١٩٠٩ ، ص ١٧٠ ؛ البغدادى : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٢٥ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر - بيروت ١٩٨٢ - ج ١ ، ص ١٧٤ . ويسمىها المسعودى تارة أخرى «خزران» انظر : ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٧) المسعودى : ج ١ ، ص ١٧٢ : القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت بدون تاريخ - ص ٤٩٣ .

(٨) اليعقوبى : كتاب البلدان - طبعة ابريل ١٨٩١ - ص ٢٧٢ - ٢٧٣؛
ياقوت: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٢٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض -
بيروت ١٩٧٩ - ص ٢٩٢ ؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨ ص
٢٩٣؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ١٦٨؛
القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشاء - القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠-
ج ٤ ، ص ٣٧٢؛ العظمى : تاريخ العظمى - تحقيق كلود كاهن فى
الجريدة الأسبوعية ١٩٣١ - ص ٣٨١ و ٣٩٣؛ المقرئى : السلوك لمعرفة
دول الملوك - القاهرة ١٩٥٧ - ج ١ ، ق ١ ، ص ١٧ و ٢٦ ؛ الفارقى :
تاريخ الفارقى - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية -
القاهرة ١٣٨٧ هـ - ج ١٢ ، ص ١٨٥؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون
الأدب - تحقيق سعيد عاشور - القاهرة ١٩٨٥ ، ج ٢٧ ، ص ٢٣ .

(٩) - Theophane, Chronographia , Ed. de Boor, Leipzig, 1883
1885, p. 391. Cf. Laurent, p. 61, n. 51 .

أنظر أيضا : فايز نجيب اسكندر : غزو الامبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة
٤٥٠م/٤٣٧ هـ - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ - ص ٣٤ ،
حاشية رقم ٣٩ .

(١٠) - Strabon, The Geographie of Strabon, London, 1931
1948 , XI, 3 , 1-6 .

(١١) فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة -
الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ١٥٨ ، حاشية رقم ١٠٨.

(١٢) أطلق الأرمن اسم «فرك» Virk على الجزء الشرقى لجمهورية جورجيا
الحالية. والمقصود من ذلك «سكان الشمال». انظر Brosset, I , p. 15.

(١٣) Canard, Sur Quelques questions relatives a L'Epopée
Byzantine de Digenis Akritas, London, 1974, Fasc., XX
A.P. 298 - 299, n. 11 .

(١٤) أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على اقليمى ما وراء جبال القوقاز
Transcaucasie وشرق الأناضول اسم «أرمينية» (انظر : البلاذرى: ص
١٩٧؛ ابن حوقل: ص ٢٨٥، ياقوت: ج ١ ، ص ٢٢٠) ليشمل هذا الاسم
جميع البلدان الواقعة شمال اقليم الجزيرة، (أى العراق الشمالى أو إقليم ما بين
النهرين) وغربى إقليم آذربيجان الفارسى، (وهو ميديا الصغرى فى العصور
السابقة على الفتوحات الإسلامية لهذه المناطق) وشرقى إقليم الامبراطورية
البيزنطية بآسيا الصغرى، (أى الأناضول) وجنوبى جبال القوقاز حيث فى
شمالها مملكة الخزر. وقد أطلق المسلمون على كل هذه البلدان اسم
«أرمينية»، جريا على عادتهم التى تقضى باطلاق اسم الجزء المعروف لهم،
على الكل غير المعروف لهم. وعلى هذا ، درج الجغرافيون والمؤرخون
المسلمون على جعل أرمينية وبلاد الكرج وآذربيجان والران اقليما واحدا.

(١٥) عن تقسيمات أرمينية فى المصادر الإسلامية، وموقعها وجغرافيتها
وطبغرافيتها وأثر كل ذلك على تاريخها أنظر: فايز نجيب اسكندر:

الفتوحات العربية لأرمينية - دراسة تاريخية لحملة المسلمين الأولى سنة ١٩هـ - بحث منشور في مجلة سيرتا - مجلة معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسطنطينة بالجزائر - العدد ٩/٨ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك : أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين (١١) - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م) - الاسكندرية ١٩٨٢ - ص ٦٩ - ٧١ ، حاشية رقم ١ ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ١٤٦ ؛ ص ١٢٠ - ١٢١ ، حاشية رقم ٢٧١ .

(١٦) عن أرمينية الثالثة أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ١٢ - ١٣ .

(١٧) تقع «بلاد داغستان» غربى بحر قزوين . انظر : زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٧ .

(١٨) كانت «قرص» Kars سوقا تجاريا هاما، إذ تقاسمت مع أرزن وملطية تجارة أرمينية بأكملها . وتقع قرص على الطريق من أنى إلى أرتانوج . وكانت فى أول أمرها قلعة، ونمت تدريجيا مع ازدهار التجارة الدولية فى البحر الأسود، إلى أن أصبحت أحد أهم المراكز التجارية فى أرمينية. وكان لقرص علاقات تجارية وثيقة مع أرتانوج والموانئ الشرقية للبحر الأسود وأردهن Ardahan وبلاد الابخاز وبلاد الكرج .

وعنها قال ياقوت فى مصدره معجم البلدان «قرص مدينة بأرمينية من نواحي تفليس يجلب منها الابريم، خبرنى بذلك رجل من أهلها. بينها وبين تفليس يومان» (انظر : ياقوت: ج ٤، ص ٣٢٣؛ البغدادى : ج ٣ ، ص

١٠٧٨). وقرص كانت تسمى قديما «جاروتس» Garouts ، وتطل على نهر أخوريان. وهى مدينة رئيسية ، إذ أنها عاصمة مملكة فاناند Vanand. أسسها الملك موشيج Moucheh . والجدير بالذكر أن سكان قرص عاشوا على اللصوصية وقطع الطرق، واعتبروا عملهم هذا من الأعمال الشريفة. وكانوا من قدامى الشعوب القوقازية . وقد توارث السكان أعمال اللصوصية وقطع الطرق ومارسوها ليس فقط فى الأماكن النائية عن بلادهم، بل أيضا فى داخل عاصمتهم قرص. وأخيرا، نجح الملك عباس (٩٨٤ - ٩٨٩م) خليفة موشيج من تطهير قرص من كل اللصوص، الكبير منهم والصغير. وقد وردت «قرص» فى ترجمة قسطنطين بورفيرو جنيثس على شكل «Kaps» وترجمت «كورى» بدلا من قرص . انظر Const. Porphyre, de Adm. Imp Vol. II, Commentary, p. 169. انظر أيضا: محمود سعيد عمران، إدارة الامبراطورية البيزنطية، حتى ١٦١. علما بأنها وردت فى كافة المصادر الجغرافية الإسلامية على شكل قرص كما أوضحنا . وللتفاصيل الدقيقة عن قرص وأهميتها . انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى - دار النهضة المصرية ١٩٨٨ - ص ٥٥ - ٥٦ ، وكذلك حاشية رقم ٣٤٧؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية «أنى» سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م - الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٣٧ ، حاشية رقم ٧٢ . انظر أيضا Favez Naguib Iskandar, Les Richesses de L'Armenie au temps des Bagratides (885 - 1045), Alexandrie, 1988, p.15.

(١٩) عن بلاد الأبخار أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة : ص ١٩٥ ، حاشية رقم ٣٤٨ .

(٢٠) Laurent, p. 46; C.M.H. , IV, p. 594.

(٢١) Nansen, L'Arménie et le Proche-Orient, Paris, 1928, p. 89 .

ونهر الكر «يبتدى» من بلاد خزران من مملكة جرجين، ويمر ببلاد أبخاز حتى يأتى ثغر تفليس، ويشق فى وسطه، ويجرى فى بلاد السياوردية حتى ينتهى على ثمانية أميال من برذعة ، ويجرى إلى برداج من أعمال برذعة. ثم يصب فيه مما يلى الصنارة نهر الرس، ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرابزنده حتى يجىء إلى الكر، وقد صار فيه نهر الرس، فيصب فى بحر الخزر» . انظر : المسعودى: ص ١٧٤. وعلى هذا، فالكر والرس نهران تؤمان للكرج والأرمن، وهما أطول أنهار اقليم ما وراء القوقاز، يتجهان شرقا فى جنوب هذا الاقليم ثم يلتقيان معا ويكونان نهرا واحدا يصب فى بحر قزوين .

(٢٢) فى البلاذرى: ص ٢٣٨ «تفليس» : وفى الطبرى: ج ٤ ، ص ١٦٢؛

وباقوت: ج ٢ ، ص ٣٦ «تفليس». وعلى هذا الشكل وردت فى كافة المصادر الجغرافية والتاريخية. وقد أشار ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أنه عقب خضوع تفليس للسيادة الإسلامية ، انتشر الإسلام بين سكانها «وأسلم أهلها» . (انظر ياقوت: ج ٢ ، ص ٣٦) . وذكر ياقوت والقزوينى إلى أن تفليس كانت آخر موضع وصل إليه الإسلام. ففى هذا المعنى أورد «...» . وهى مدينة لا إسلام وراءها» . (انظر: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٣٥؛ آثار

البلاد، ص ٥١٨). وقد حظيت تفليس عاصمة بلاد الكرج باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية. فقد زارها ابن حوقل (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي) وفصل الحديث عن موقعها وحصانتها وخيراتها وأهميتها وذلك في مصنفه صورة الأرض (للتفاصيل أنظر ابن حوقل : ص ٢٩٢ - ٢٩٣). والجدير بالذكر أن الملك فاختانج الأول (٤٦٦ - ٥٠٠م) ملك ايبيريا (جورجيا) بنى مدينة تفليس وذلك سنة ٤٦٩ م.

(٢٣) ينبع نهر شوروخ من جبال سبير Sper ، ويتجه نحو الشمال الشرقي بمحاذاة خاجديك Khagh'dik وكولشيد Colchide ؛ ثم يعبر الوديان المنيعه في مقاطعة طايبك، ويستدير فجأة نحو الشمال الغربي، ثم يصب في البحر الأسود. للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية في أرمينية، ص ٥٢، حاشية رقم ٣٢٦.

(٢٤) تقع أرتانوج عند ملتقى الطريق التجارية بين طرابيزون وأرمينية ومدن القوقاز الشمالية وأباهونيك على مسافة ليست ببعيدة عن مجرى نهر شوروخ. انظر Heyd, Histoire du commerce du Levant au moyen age, Amsterdam, 1967, T. I, p. 44 .

(٢٥) تقع «مقاطعة مسختي» في أعماق جبال القوقاز (انظر Hubschmann, Die Altarmeinischen Ortsnamen, Strasbourg, 1904, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, Armenia According to the Asxarhac'oye, dans R.E.A., T. II, Paris, 1965, p.337

وكانت «مسختى» عاصمة بلاد الكرج. إلا أنه حدث سنة ٤٦٩ م أن أقام الملك فختانج جورجسلان Vakhtang Gourgassan في تفليس ، فأصبحت بالتالى عاصمة البلاد، خاصة وأنها أكثر بعدا من وديان القوقاز، وأقل عرضة لهجمات القبائل الجبلية. انظر : Nansen, p. 98 .

(٢٦) أقام اللان شمالى تفليس فى جبال القوقاز، على سفحى الجبل، بين نهر ريونة الذاهب إلى البحر الأسود فيما وراء القوقاز ونهر تيريك Terek الذى يصب فى بحر قزوين . انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٦ - ٣٧ . وللتفاصيل الدقيقة انظر المرجع السابق ، ص ٣٦ ، حاشية رقم ١٦ .

(٢٧) ذكر المسعودى أن مملكة الصنارية تقع بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان . للتفاصيل انظر: مروج الذهب، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٨) يقع وادى كشيائ جنوب العاصمة تفليس. انظر فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٣٣ .

(٢٩) Laurent, p. 46.

(٣٠) للتفاصيل عن نهر الرس انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لأرمينية فى ضوء كتابات المؤرخ الارمنى چيفوند - الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ٩٨ ، حاشية رقم ١٥٠ ؛ مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ - ص ب ، حاشية رقم ٣ .

(٣١) Brosset, T. I, p. 89 .

(٣٢) أطلق الكرج على الأرمن اسم «سموختى» (سمكسى) Somexi وعلى أرمينية اسم «سمخت» (سمكست) Somxet. انظر: Hubschmann .p. 276

(٣٣) فى حديثه عن «استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمتهم اياهم» بدأ بالقول «كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن». انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون - بيروت ١٩٧٩ - المجلد الخامس ، ص ١٢٧ .

(٣٤) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ١٨ - ٢٢ .

(٣٥) وردت فى المصادر الإسلامية على شكل «خاخط» ، انظر: البلاذرى: ص ٢٣٩. انظر أيضا : Brosset, Description, p. 283 SQQ; Hist. .
. de la Georgie, T. I, p. 41 , 248 .

(٣٦) «نهر أرجفى» Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس .
انظر . Laurent; p. 575, n. 66 .

(٣٧) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٣٨) Brosset, description, p. 283 SQQ; Histoire de la Georgie, I , p. 41, 248 .

(٣٩) عن هذه الثروات قال ابن حوقل الذى زار هذه الاصقاع النائية : «... وبهذه الجبال والنواحي والمدن والبقاع التى ذكرتها من الرخص والخصب والمراعى والمواشى والسوائم والخيرات والبركات والمشاجر والأنهار والفواكه الرطبة

واليابسة» . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٨ .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن مقاطعة كاخيتى أر «خاخيطة» فى المصادر الإسلامية انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٢٢ - ٢٣ .

Laurent, p.61, n. 51 . (٤١)

Laurent, p.568, n. 20 . (٤٢)

Laurent, p.61, n. 51 . (٤٣)

Nansen, p. 90 (٤٤)

Laurent, p.49 . (٤٥)

Laurent, p.48 . (٤٦)

Laurent, p.61, n. 51 . (٤٧)

Hubschmann, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, (٤٨)

p . 337. Nansen, p. 98 .

(٤٩) يسميها المسعودى «مملكة الصمصخية» وعنها قال: «تلى مملكة خزران

(يقصد بلاد الكرج) مملكة يقال لها الصمصخية، نصارى، وفيهم جاهلية لا

ملك لهم» انظر: مروج الذهب، ص ١٧٣. وأيضاً Nansen, p. 90.

و«سمسخى» باللغة الكرجية تعنى ثلاث قلاع حصينة . وهى مقاطعة فى

أعلى بلاد الكرج الشرقية. وكانت قديماً تسمى مسخيا Meschia (انظر:

(Cont. Porphyrogenete, de Adm., Commentaire, p. 178

وتقع فى أعلى نهر الكر على ضفته اليسرى غرب ثرياليت وشمال

دجواكستى Djaxaxet'i انظر Brosset, Description, p. 75; Saint
- Martin, Memoires, T. II p. 427; Adontz, Armenia, p.
117, 121, 123 .

(٥٠) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: «ويجلب منها البغال الجياد الموصوفة
بالصمة والجلد والصبر إلى العراق والشام وخراسان. ويكون بها الشهاري
الحسنة الموصوفة بالجمال والفراة وما يقارب شهاري طخارستان، وربما زاد
عليها وعلى نتاج الجوزجان». انظر: صورة الأرض، ص ٢٩٧ .

(٥١) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: «وأهلها قوم فيهم سلامة وقبول للغريب
وميل إلى الطاريء عليهم وأنس بمن له أدنى فهم وانتساب إلى شيء من
الأدب». انظر: صورة الأرض، ص ٢٩٢ .

(٥٢) عبر المسعودي عن ذلك خير تعبير حين قال: «أهلها ذو قوة وبأس شديدين».
انظر: مروج الذهب، ج ١، ص ١٧٢ .

(٥٣) Nansen, p. 90 .

(٥٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص
٤١ - ٦٦ .

(٥٥) عن لقب بطريق انظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء
الراشدين، ص ١٠٣، حاشية رقم ١٨٠ .

(٥٦) عنه انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٩٩، حاشية رقم ١٥٤ .

(٥٧) وردت في بعض المصادر الإسلامية على شكل آران، وعن حدودها قال
أحمد بن لطف الله منجم باشي (الف مصنفه حوالي سنة ٥٠٠ هـ) في

مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول» إن «آران اقليم مشهور يتاخم آذربيجان فى جهة الغرب منها، ويحدها من الغرب حدود أرمينية، ومن الشرق والجنوب آذربيجان، ومن الشمال جبال القبق (أى القوقاز) . ومن قواعدها مدينة نشوى» انظر ص ١ .

(٥٨) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٥٩) الدريند مدينة على بحر الخزر تعرف أيضا باسم مدينة باب الأبواب .
للتفاصيل انظر: ابن حوقل: ص ٢٩١ - ٢٩٢؛ البغدادى: ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ القزوينى: ص ٥٠٦ - ٥٠٩ ؛ القلقشندي: ج ٤ ، ص ٣٦٤؛ ياقوت : ج ٢ ، ص ٤٤٩؛ أبو الفداء: ص ٤٠٥ ؛ الاضطخري: ص ١٠٩ - ١١٠؛ وص ١٠٩ ، حاشية رقم ١٠ .

(٦٠) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦١) عن ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧١ ؛ ص ٧٣ - ٧٥؛ ص ٧٧ - ٧٩ .

(٦٢) فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٦٣) عن أسرة بجراط الكرجية انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٦٤) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٨٥ - ٩٢ .

(٦٥) Brosset, Georgie, T. I, p. 80; Nansen, p. 96 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢ م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3 .

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179;

Schlumberger, Epopée, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قريلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص: ٣٠ ، حاشية رقم ٣٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171 .

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر , Salia , p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢ م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر؛ مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3 .

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179; Schlumberger, Epopee, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قريلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٣٠ ، حاشية رقم ٣٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171 .

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر , Salia , p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٧٥) استقر القفجاق فى شمال بلاد الكرج ، وامتد استيطانهم نحو الشرق، على

طول الشاطئء الشمالى لبحر قزوين. عنهم انظر , Matthieu D'Edesse ,

p. 460, n. 2. انظر أيضا : القلقشندى: ج ٤ ، ص ٤٧٠ .

(٧٦) Brosset, I, p. 379 .

(٧٧) Salia, p. 173 .

(٧٨) باب الأبواب هو الدرند، درند شروان. وتطل المدينة على بحر الخزر. انظر:

ياقوت : ج ١ ، ص ٣٠٣؛ البغدادى: ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٧٩) Grousset, p. 419; Salia, p. 173 .

سكن «الأوسيت» القسم الأوسط من سلسلة جبال القوقاز ، فى مرتفعاته

المنبعة وقممه الشاهقة المعروفة بجبال «قازيك» (يرتفع ٥٠٤٤ مترا)

و«البرز» (يرتفع ٥٦٣٠ مترا) .

(٨٠) Brosset, I , p. 379 .

(٨١) اهتم المسعودى اهتماما بالغا بذكر مناعة «قلعة باب اللان» فقد ذكر أن قلعة

باب اللان على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من

فيها. ولهذه القلعة المينة على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر فى

وسطها من أعلى هذه الصخرة. وهذه القلعة احدى قلاع العالم الموصوفة

بالمنعة» . ثم أشار فى موضع آخر إلى موقعها الاستراتيجى الهام فى الدفاع

عن بلاد اللان قائلا: «ولو كان رجل واحد فى هذه القلعة لمنع سائر الملوك

الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع، لتعلقها بالجو واشرافها على الطريق والقنطرة

والوادی» . (انظر : مروج الذهب: ج١. ، ص ١٦٥ - ١٦٦) والأرمن

يسمون باب اللان باسم «الناك درن» Alanac Durn . أما الكرج فيسمونه «باب تريك» Porte Terek تارة و«خفيس كاري» Khevis Kari أى «باب خيفى» Porte de Khevi تارة ثانية . (انظر : I , Brosset , 154 - 155) . وفى موضع آخر من مصنفه أشار المسعودى إلى اهتمام مسلمة بن عبد الملك بن مروان بحراسة هذا الموضع، إذ قام بإسكان بعض المسلمين لحراسته. وكانت تغليس تزودهم بالرزق والأقوات (انظر: مروج الذهب، ج ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦) . إلا أن هذا يتعارض مع ما ذكره ابن رسته، إذ أورد فى مصنفه أن قلعة باب اللان يسهر على حراستها ألف جندى من اتباع ملك اللان. انظر: الاعلاق النفيسة - ليدن ١٨٩١ - ص ١٤٨ - انظر أيضا : Minorsky, Hudud Al - Alam, p. 446 ; Marquart, Streifz., p. 165 .

والملاحظ أن ياقوت الحموى نقل الكثير عن المسعودى عند حديثه عن باب اللان. انظر: معجم البلدان، ج ١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . وقارنه مع : مروج الذهب، ج ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ . ويرجع سبب ذلك أن ياقوت أدرك بثاقب بصره وبصيرته أن المسعودى أورد فى مصنفه سردا على درجة كبيرة من الأهمية عن مملكة باب اللان، فاق فى غزارته ما ورد فى غيره من المصادر الجغرافية والتاريخية .

(٨٢) Salia, p. 173 - 174 .

(٨٣) Allen, p. 98 . وعن اقليم أرارات Ararat أنظر : فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ١٢ - ١٣ ، وكذلك

ص ١٢ ، حاشية رقم ٢٣ .

Brosset, I , p. 354 et SQ' Grousset, p. 419; (٨٤)

Salia, p. 175 - 176 .

(٨٥) تقع إريشى أو هيريشى Heret'i شمالى نهر الكر وشرقى تفليس . أنظر :

فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٧ .

(٨٦) للتفاصيل عن أحوال كاخيتى فى عهد أسرة كويريكيان وعهد السيادة

السلجوقية انظر Movsesian, Histoire des Rois Kurikian de

. Lori, Paris, 1927, p. 260 - 262.

Brosset, I, p. 354 et SQ. (٨٧)

(٨٨) نهر أرجفى Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس . انظر

. Laurent, p. 575, n. 66.

Movsesian, p. 262 . (٨٩)

Brosset, I, p. 354 et SQ; Movsesian ,p. 262; (٩٠)

Grousset , p. 418 - 419 .

Allen, p. 93 - 94 ; Grousset, p. 418 . (٩١)

(٩٢) كنجة أعظم مدينة بالران (أو بلاد أران)، وهى قصبتها، وتقع بين شروان

وآذربيجان، بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخا (انظر ياقوت: ج ٤ ، ص

٤٨٢؛ البغدادى : ج ١ ، ص ٣٥١) وأهل الألب يسمونها جنزة (انظر

المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١٠٨٠) . وقد أعجب ابن حوقل بخيراتها

وعمرانها وأخلاق أهلها الحسنة. ففى هذا المعنى يقول: «وجنزة مدينة حسنة

كثيرة الخير عامرة بعمارة تامة متغصنة بالخلق وأهلها ذور مروءة وأخلاق طيبة مرضية ومجاملة ومحبة للغرباء وأهل العلم . (انظر: صورة الارض؛ ص ٢٩١) وقد وردت فى المصادر الاجنبية تحت اسم جاندزاك Gandzak (Ganjak) ، وتقع فى اقليم ارتشاك Artsakh (انظر, Arisdagues, CH. XVII, p. 103, n. 1).

وقد نجح أبو الأسور شاور بن الفضل فى فرض سيادته عليها وذلك سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (انظر أحمد بن لطف الله، باب الشدادية من كتاب جامع الدول، ص ١٣ وكذلك . Aristakes, CH. XVII, p. 89, n. 2) . وقد ظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بنى شداد والتي ينتمى إليها أبو الأسور حتى سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م حيث استولى عليها بوزان Bouzan ، قائد السلطان ملكشاه . انظر . Brosset , I , p. 344 .

(٩٣) Salia, p. 176 .

(٩٤) تقع شمشفلى Samchvilde (أو شمشلديه Schamschoulde) على الضفة اليمنى لنهر الكر . Brosset, I, p. 467; Laurent, p. 29, n. 3 .

(٩٥) Salia, p. 176 .

(٩٦) ابن القلاسى: حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ص ١٦٨ ؛ الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية - نشر محمد اقبال - لاهور ١٩٣٣ ، ص ٨١ .

(٩٧) Laurent, p. 419; Salia , p. 176

(٩٨) قلرجيت أحد أقاليم بلاد الكرج الغربية وهى عاصمة أرتانوج، وتقع بين بلاد الطاييك Tayk وشوشت . وقد انفرد البلاذرى دون غيره من المصادر

الإسلامية بذكرها حين ذكر أن حبيب بن مسلمة الفهري صالح أهلها. انظر
البلاذري : ص ٢٣٩ . وللتفاصيل انظر 'Adontz, p. 117, 121, 123
Marquart, Strifzuge, p. 393 et AQ; Honigmann, p. 159
Laurent, p. 419; Salia, p. 176. (٩٩)

Brosset , I , 359; Allen, p. 98; Laurent, p. 419 - 420; (١٠٠)
Salia, p. 176 .

Salia, p. 176- 177; Laurent , p. 420 . (١٠١)

و «دمانيسى» أو «تمانيس» Tmanis مدينة أرمنية ، تقع على حدود
بلاد الكرج، فى أقصى مقاطعة كوكارك Koukark (أوجوجارك) نحو
الشمال الشرقى منها . انظر Matthieu d'Edesse, p. 463, n. 3 .

(١٠٢) «شروان» مدينة من نواحي الباب والأبواب، وقبل ولاية قصبته شماخى،
قرب بحر الخزر . انظر : البغدادى: ج ٢ ، ص ٧٩٣ . وتقع مقاطعة شروان
شمال شرقى أرمنية ، بين نهر الكر وبحر قزوين أطلق عليها أيضا اسم
«اجهوانك» Agh'ouank أو «البانى» Albanie . للتفاصيل انظر:
. Indjidji, l'Armenie Moderne, p.413 - 415

Salia, p. 177 . (١٠٣)

Laurent , p.420 ; Salia, p. 177 . (١٠٤)

Salia, p. 178 . (١٠٥)

Laurent , p. 420 . (١٠٦)

(١٠٧) فايز نجيب اسكندر : أسرة برينيوس ودورها فى تاريخ الامبراطورية
البيزنطية - دار النهضة المصرية ١٩٨٧ - ص ٣٧ ، حاشية رقم ١٢٨ .

(١٠٨) عن نتجوان انظر : فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية الأرمينية ، ص ٩٧ - ٩٨ ، حاشية رقم ١٤٩ .

(١٠٩) عن نهر الرس انظر : فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، حاشية رقم ١٥٠ .

(١١٠) ابن القلانسي : حوادث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٤ : ابن خلدون : حوادث سنة ٥١٦ هـ ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

(١١١) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ ، ص ٢٩٣ وعنه نقل العيني نقلاً حرفياً (أنظر : عقد الجمان ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقة ٧٦٦) أما ابن القلانسي فقد أدرج هذه الأحداث تحت سنة ٥١٥ هـ . انظر : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، والملاحظ أن ابن الأثير خطأ حين ذكر أن «الكرج هم الخزر» . انظر : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ . وقد أدرك ابن خلدون خطأ ابن الأثير وصححه حين نقل عنه. انظر: العبر ، ج ٥ ، ص ٤٩ . ونتيجة النقل بلا تمحيص، انزلق إلى نفس خطأ ابن الأثير كل من ابن العبري . (أنظر : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١) والذهبي (كتاب دول الإسلام - القاهرة ١٩٧٤ - ج ٢ ، ص ٤١) .

والملاحظ أن رواية ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) عن الاحتكاك الحربي بين الأتراك السلاجقة والكرج، كانت فريسة دسمة انقضت عليها بالنقل الحرفي تارة وبالاختصار تارة أخرى كل من ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) ، والنويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) ، والذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م). وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م) ، وابن خلدون (ت

٨٠٨م/١٤٠٥م) ، والعيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) . قارن : ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ مع المصادر الآتية : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠١ ، ٢٠٢؛ النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ٢٣ - ٢٤؛ الذهبى : كتاب دول الاسلام، ج ٢ ، ص ٤١؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢ ، ص ١٨٥ ، ١٩٣؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٤٩ ، ٥٢؛ العيني : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ميكروفيلم ٥٦٥٤ ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقات ٧٦٦ - ٧٦٨. وهناك مصادر إسلامية أخرى اشارت إشارة عابرة إلى هذا الاحتكاك ومنها : ابن القلاسى (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ العظمى (ت ٥٥٦ هـ / ١١٦١م) : تاريخ العظمى ، ص ٣٨٨ ؛ مؤلف مجهول (عاش، فى نهاية القرن السادس الهجرى / نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) : البستان الجامع لتواريخ الزمان) ص ١١٨ ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج ٢ ، ص ١٩٩؛ عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م) : الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الثانى من الجزء الثالث، ص ٤٣٠ - ٤٣١؛ أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر فى أخبار البشر، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥ ، ص ٢٢٣. والملاحظ أن محقق ابن القلاسى زودنا برواية ابن الازرق فى تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، وهى رواية على درجة كبيرة من الأهمية. انظر ابن القلاسى:

حاشية رقم ١ عن ما ذكره ابن الأزرقي في تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، على أية حال، أغفلت كافة المصادر الإسلامية ذكر معركة ديدجوري Didgori الفاصلة . إلا أن المصادر الكرجية واللاتينية والأرمنية سدت هذا النقص، إذ زودتنا بتفاصيلها الدقيقة .

(١١٢) في ابن القلائسي «نجم الدين ايل غازي بن أرتق صاحب حلب» . انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، وعنه قال أبو المحاسن : «كان عادة نجم الدين إذا شرب الخمر وتمكن منه، أقام أياما مخمورا لا يفيق لتدبيره ولا يستأمر في أموره . (انظر: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٠٨) . وتوفي ايلغازي سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م بمدينة ميفارقين ، فكانت وفاته يوم الخميس سابع عشر رمضان (٢١ نوفمبر ١١٢٢م) في قرية تعرف بالفحول. انظر: العيني: ورقة ٨٠٦ ؛ النجوم: ج ٥ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤؛ أبو الفداء: ج ٢ ، ص ٢٣٦ . وقد وصفه متى الرهاوي بأنه «كان محبا لسفك الدماء» انظر . Matthieu d'Edesse , p. 303 .

(١١٣) سيف الدولة ديبس بن صدقة «أصله من بني أسد وقيل من بني خفاجة. كان شر أهل بيته، يرتكب الكبائر ويدلّ على العظائم، ولقي منه الخليفة والمسلمون شرورا كثيرة، وأبطل الحج ، وأباح الخروج في شهر رمضان قتله السلطان مسعود السلجوقي في ذي الحجة سنة تسع وعشرين وخمسائة ، وكان قتله بالمراغة. انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ ، ص ٢٥٦ . انظر أيضا . Matthieu d'Edesse, p. 459, n. 2 .

(١١٤) في وفيات الأعيان، الترجمة رقم ٢٢٦ ، ترجمة ديبس بن صدقة،

«كهارخاتون» وليس «كمارختون» . انظر ص ٢٦٥ . وفى متى الرهاوى
«كهارخاتون» Kohar - Khathoun . انظر , Matthieu d'Edesse ,
. p. 297

(١١٥) هو الملك طغرل بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقى، شقيق السلطان
محمود، توفى فى المحرم سنة ٥٢٩هـ. (انظر: ابن الأثير؛ ج ٨، ص ٣٤٥)،
بينما اختلف أبو الفداء فى تحديد تاريخ وفاته عن ابن الأثير، إذ أورد:
«توفى فى المحرم سنة ٥٢٩ هـ ، وقيل أن وفاته كانت فى أول سنة ٥٢٨ هـ
وهو الأصح فى ظنى » . انظر : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨ . وقد اجمعت
المصادر الإسلامية على صحة رأى ابن الأثير. والجدير بالذكر أن يسميه
المؤرخ الارمنى متى الرهاوى «ملك، سلطان كنتزاك» أى الملك طغرل حاكم
كنجة. إذ جاء فى حديثه عن معركة ديدجورى (يسمىها تيجور Tegor) أنه
عبأ جيشا قوامه أربعمائة ألف فارس، وتسلى إلى بلاد الكرج : « En
meme temps, Melik, sultan de Kantzag, a la tete de
«400,000 cavaliers Agueris, penetra en Georgie
انظر.: Matthieu d' Edesse, p. 304 .

(١١٦) للتفاصيل عن «أرزن» انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى
أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ٥٤ ، حاشية رقم ٣٣٨ .

(١١٧) تقع «بدليس» شمال بحيرة وان. للتفاصيل انظر: ابن حوقل ، ص ٢٧٨ .
Laurent , p. 389 .

(١١٨) للتفاصيل عن «دوين» انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ١٧ ،

حاشية رقم ٤٩ .

(١١٩) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛

الذهبي: ج ٢ ، ص ٤١؛ ابن خلدون: ج ٥ ، ص ٤٩؛ العيني: ورقة ٧٦٦.

انظر أيضا : Matthieu d'Edesse, Chronique, Trad., Ed.

Dulaurice, Paris, 1858, CH . CCXXXI , p. 303 .

(١٢٠) ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، القسم الثاني من الجزء الثالث ، ص ٤٣٠.

(١٢١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠١؛ ابن كثير: ج ١٢ ،

ص ١٨٥ ؛ العيني: ورقة ٧٦٦ .

(١٢٢) Matthieu d'Edesse , p. 304; Galterii Cancellarii

Antiocheni, Bella Antiochena, 1121, dans R.H.C.,

Auteurs Occidentaux, Paris , 1895, T. V, 131 وللتفاصيل

عن متى الرهاوي وحوليته (٩٥٢ - ١١٤٤م / ٣٤١ - ٥٣٩ هـ) انظر :

فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ١٣٩ ،

حاشية رقم ١٩ .

(١٢٣) ابن الأزرقي الفارقي : أحداث ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ .

(١٢٤) ابن القلائسي : ص ٢٠٥ .

(١٢٥) ابن القلائسي : ص ٢٠٥ ؛ ابن العديم : ج ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٢٦) الفارقي: ص ٢٠٥ . وقد اختلفت رواية ابن العديم عن رواية الفارقي، إذ

ذكر أن الملك طغرل استنجد بإيلغازي وملكهم داود، «فسار اليه في عالم

عظيم ومعه ديبسي بن صدقة» .

- انظر : ابن العديم : ص ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (١٢٧) عز الدين بن شداد: ص ٤٣٠ ؛ الفارقي : ص ٢٠٥ .
- والملاحظ أن الحسيني أشاد بحصانة تفليس ومناعة أسوارها . إذ أورد في مصنفه: «وطول سور تفليس أربعون ذراعا في عرض يطابقه» . أنظر: أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .
- (١٢٨) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر القزويني: ص ٤٩٤، ياقوت: ج ١، ص ١٥٠؛ البغدادى: ج ١، ص ٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .
- (١٢٩) «ترياليت» منطقة جبلية تقع بين نهر الكر وبحيرة بانافاري P'anavari . انظر : Brosset, Description, p. 157 et SQ; Adontz , p. 117; Hubschmann, p. 354; Honigmann, p. 163, 168 .
- وقد انفرد البلاذري وابن الأزرقي الفارقي دون غيرها من المصادر بذكرها.
- انظر : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩؛ تاريخ الفارقي ، ص ٢٠٥، حيث وردت في هذا المصدر الأخير على شكل «ترياليت» .
- (١٣٠) ابن الأزرقي الفارقي : ص ٢٠٥ ؛ ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤٩ ؛ العيني: ورقة ٧٦٦؛ ابن شداد : ص ٤٣٠ - ٤٣١ .
- (١٣١) الفارقي : ص ٢٠٥ .
- (١٣٢) الفارقي : ص ٢٠٥ ؛ ابن شداد : ص ٤٣١ .
- (١٣٣) ابن شداد : ص ٤٣١ .

(١٣٤) الفارقي : ص ٢٠٥ .

(١٣٥) الفارقي: ص ٢٠٥؛ الذهبي: ص ٤١؛ أبو المحاسن: ج ٥، ص ٢٢٣.

(١٣٦) ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٩٣ وعنه نقل ابن العبري: ص ٢٠٢؛ ابن كثير:

ج ١٢، ص ١٨٥؛ ابن خلدون: ج ٥، ص ٤٩؛ العيني: ورقة ٧٦٦ .

(١٣٧) Grousset, p. 420 .

(١٣٨) في ياقوت (ج ٢ ؛ ص ٣٦) «رستاق منجليس» ويقع غربى تفليس

(Adontz, Armenia,p.117,123) ويقابله عند الكرج .

Mangleac'p'or أي «وادي منجليس» . انظر : Toumanoff,

Studies, p. 402, 407, n. 2 ; Hewsen, Armenia, p. 338;

Hubschmann, p. 355.

(١٣٩) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢ ؛ العيني: ورقة

٧٦٦ - ٧٦٧ . وواضح أن كل من ابن العبري والعيني نقلوا الاقتباس عن

ابن الأثير نقلا حرفيا .

(١٤٠) ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢؛ العيني: ورقة ٧٦٧؛

ابن خلدون : ج ٥ ، ص ٤٩ .

(١٤١) ابن شداد : ص ٤٣١ ؛ ابن العديم : ص ١٩٩ .

(١٤٢) ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢؛ الذهبي: ج ٢، ص ٤١؛

ابن كثير: ج ١٢، ص ١٨٥ ؛ العيني : ورقة ٧٦٧ .

(١٤٣) ابن شداد: ص ٤٣١ . والجدير بالتسجيل هنا أن ابن العبري في مصدره

الثاني (تاريخ الزمان، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٩) جنح إلى الاختصار

الشديد فى ذكر أخبار المواجهة الكرجية السلجوقية، إذ اكتفى بالقول: «وفى سنة ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢م) وجه السلطان محمود جيشا ضخما من الأتراك إلى بلد الكرج ، فأرصد الملك الثغور وفتك بالكثيرين منهم» . هذا بينما زودنا بتفاصيل أكثر فى مصدره الأول (تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١ - ٢٠٢) نقلا عن ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ و«ميافارقين» قاعدة ديار بكر، وتقع بين الجزيرة الفراتية وأرمينية وهى بالقرب من آمد. (انظر : فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين والمماليك - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - ص ١٠٤ ، حاشية رقم ١) . أما «ماردين» فهى قلعة مشهورة بديار ربيعة من الجزيرة الفراتية، مشرفة على دينسر، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها روض عظيم. وهى معقل أمراء بنى حمدان. أنظر : فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ١٣٥ ، حاشية رقم ٣ .

(١٤٤) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٢٩٣. أما الذهبى فقد ذكر أن الكرج حاصروا تفليس لمدة سنتين ثم أخذوها بالسيف. انظر: كتاب دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(١٤٥) ابن الأثير: ص ٣٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: ج ١٢ ، ص ١٨٥. وفى ابن الأزرقي: ص ٢٠٥ «وغنم الكفار منهم غنيمة عظيمة» .

(١٤٦) ابن كثير: ج ١٢ ، ص ١٨٥ .

(١٤٧) عن تحليل مختلف روايات المصادر الإسلامية انظر حاشية رقم ١١١ .

(١٤٨) جاء فى Galterii Cancellarii Bella Antiochena الآتى : "Ipsi

vero cum superbia equitanti ira dei obstitit : eo namque die,
quo soldanus et ipse Algazi cum Sexcentis Millibus
Terram Regis Bellaturi intraverunt, ipse idem Rex David,
...."

وترجمة النص: «بينما كان (الأمير ايلغازي) يتقدم بغطرسية على رأس جيشه،
انصب عليه غضب الله وقلب رأسا على عقب كل مخططاته، ففي نفس يوم
دخوله بلاد الملك داوود حيث ترأس جيشا قوامه ستمائة الف مقاتل ... »
انظر : Galterii, dans R.H.C.H. Occid, T. V, p. 130.

هذا بينما ذكر جلتيري أن تعداد جيش داوود بلغ ثمانية الف مقاتل فالنص
اللاتيني التالي أوضح ذلك، إذ جاء فيه: Signo Sanctae Crucis
Praemunitus, Habens intra Medos et Christianos
QUATER VIGINTI MILIA PUGNATORUM..."
وترجمة النص أن «(الملك داوود) تقوى بشارة الصليب وحشد ثمانية الف
مقاتل من الميدين والمسيحيين ... »

انظر R.H.C., H. Occid., T. V, p. 130 .

Kartlis Tskhovreba, T. I, p. 365 . (١٤٩)

Ch. CCXXXII "En meme temps, جاء في متى الرهاوى (١٥٠)

Melik, Sultan de Kantzag, a la tete de 400,000 Cavaliers
Aguerris, penetra en Georgie du cote de la ville de
Deph'khis (Tiflis), par la montagne de Tegor"

انظر: P. 304. Matthieu d'Edesse. وترجمة النص: «في نفس

الوقت، تسلل ملك (يقصد طغرل)، سلطان كنجة على رأس جيش قوامه أربعمئة ألف من الفرسان المدربين على فنون الحرب والقتال، تسلل هذا الجيش الجرار على بلاد الكرج عبر مدينة تفليس عن طريق جبل تبجور (ديدجورى Didgori فى خارطليس تسخوفريبر Kartlisa Tskhovreba).

(١٥١) لم يرد ذكر اسم جبل ديدجورى Didgori فى كافة المصادر الإسلامية، ولا ذكر لتفاصيل هذه المعركة الحاسمة والتي كان من أهم نتائجها سقوط العاصمة تفليس فى قبضة الملك الكرجى داوود الثانى البناء، على أية حال ذكر ابن الأثير ومن نقلوا عنه أن هذه المعركة دارت بالقرب من تفليس . انظر: الكامل فى التاريخ، ج ٨، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: ج ١٢ ص ١٨٥؛ العينى: ورقة ٧٦٦) هذا بينما ذكر ابن الأزرى أن نجم الدين ايلغازى «وصل إلى أن بقى بينه وبين تفليس الجبل (يقصد جبل ديدجورى الواقع جنوب غربى تفليس) مقدار نصف يوم» حيث دارت المعركة الطاحنة . انظر : تاريخ الفارقى : ص ٢٠٥ .

Matthieu d'Edesse, p. 460, n. 1 . (١٥٢)

Matthieu d'Edesse, p. 304 - 305 . (١٥٣)

Brosset, I , p. 365 - 367; Et Additions, I , p. 230, 236 - (١٥٤)
241 . CF. Salia, p. 178 .

(١٥٥) جاء النص اللاتينى على هذا النحو "Factis Agminibus , INTER
DUOS MONTES, Densissimis Nemoribus insitos, in

valle restitit, Qua , Ut Fama Retulit, super Eum Hostes
ingredi praesumebant. "

Galterii , p. 130 . انظر

وتعد رواية جلتيري أهم المصادر التي فصلت الحديث عن معركة ديدجورى .
(١٥٦) انفرد جلتيري دون غيره من المصادر بذكر النص الكامل لخطبة الملك
الكرجى داوود الثانى . انظر . Galterii, p. 130 - 131

Galterii , p. 130 - 131 . (١٥٧)

(١٥٨) اقتبس هذا القول عن القرآن الكريم، إذ ورد فى سورة البقرة الآية ٢٤٩ :
بسم الله الرحمن الرحيم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع
الصابرين » صدق الله العظيم . ويعد هذا دليلا واضحا على إمام العاهل
الكرجى بالعقيدة الإسلامية .

Galterii , p. 131 - 132 . (١٥٩)

(١٦٠) ابن العديم: ج ٢ ، ص ١٩٩ . والملاحظ أن العينى انفرد بذكر هذا الحدث
دون غيره من المصادر .

Brosset, I, p. 365 - 367; Et Additions , I , 236 - 241 . (١٦١)

(١٦٢) «دريند شروان» وتسمى أيضا «الدريند» أو «الباب» أو «باب الأبواب»
وهى مدينة قرب بحر الخزر ، وقيل ولاية قضبتها شماخى. سميت الباب
لأنها بناها شروان، فنسبت إليه. انظر: ياقوت: ج ٣ ، ص ٣٩٩؛ البغدادي:
ج ٢، ص ٧٩٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ ، حاشية رقم ١ . فى ابن
الأثير: ج ٨ ، ص ٣١٣ «أهل دويند» وصحتها «دريند» . وتقع شروان

شمال شرق أرمينية ، بين نهر الكر وبحر قزوين ، وقد وردت فى المصادر الأرمينية تحت اسم «أجهوانك» Agh'ouank' تارة و«البانى» Albanie تارة أخرى . انظر Indjidji, l'Armenie Moderne, p. 413 - 415 .

(١٦٣) ابن الأثير: ج ٨ ص ٣١٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ ؛ ابن خلدون: ج ٥ ص ٥٢ ؛ العيني : ورقة ٧٦٧ .

(١٦٤) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(١٦٥) «شماخى» قصبة بلاد شروان ، فى طرف الران. وتعد من أعمال الباب والأبواب . انظر: ياقوت : ج ٣ ، ص ٣٦١ ؛ البغدادى : ج ٢ ، ص ٨١ .

(١٦٦) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ (والملاحظ أن النويرى نقل نقلا حرفيا عن ابن الأثير) ؛ ابن خلدون: ج ٥ ، ص ٥٢ (جنح ابن خلدون إلى تلخيص رواية ابن الأثير أحداث شروان فى أربعة أسطر) ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ (بعد أن كان العيني ينقل حرفيا عن ابن الأثير، جنح إلى ايجاز رواية ابن الأثير ايجازا شديدا) .

(١٦٧) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ ؛ ابن خلدون: ج ٥ ، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ .

(١٦٨) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ ؛ ابن خلدون: ج ٥ ، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ . انظر أيضا : . Salia , p. 181 .

(١٦٩) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى: ج ٢٧ ، ص ٢٤ ؛ ابن خلدون: ج ٥ ، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ .

Salia, p. 181 .

(١٧٠)

Matthieu d'Edesse, Ch. CCXXXIX, p. 310 . (١٧١)

(١٧٢) تقع «كولا» جنوب نهر الرس، فى مقاطعة أارات (انظر p. Laurent,

56 n. 86) وكان جنوب كولا من المناطق الارمنية الشهيرة بانتاج القمح

منذ القدم (انظر p. 145 Moise de Khorene , وقد بلغ من غزارة

انتاج الحبوب بها انها كانت تصدر القمح إلى بغداد (انظر Sirarpie der

(Nersessian, Etudes Byzantines et Armeniennes, p. 304

إذ أورد الطبرى أن المؤن كانت تصل بسهولة إلى بغداد من الجزيرة وأرمينية.

انظر: تاريخ الأمم والملوك - المطبعة الحسينية المصرية - ج ٣ ، ص ٢٧٢ ،

٢٧٥ .

(١٧٣) «باسيان» الاقليم الرابع فى مقاطعة أارات فى أعلى نهر الرس

(Aristakes, p. 12, n. 1) . ويقع شرق كارين . (Arisdagues, p.)

1 n. 22) ويتفق ما ذكره موبيز الخورينى فى مصدره عن تاريخ الأرمن

وما جاء فى معجم ياقوت الحموى الذى ذكر أنه يوجد باسين العليا وباسين

السفلى . ويقول انهما كورتان قصبتهما أرزن الروم . انظر : ياقوت : معجم

البلدان، طبعة بيروت - ج ١ ، ص ٣٢٢ ؛ البغدادى : ج ١ ، ص ١٥٣

وأىضا : Moise de Khorene, II , CH. VI , p. 135 - 136 et

135 , n. 8 .

Salia, p. 182 . (١٧٤)

(١٧٥) تقع أنى على الشاطئ الأيمن من نهر أخوريان ، على بعد عشرين ميلا،

عند ملتقى هذا النهر بنهر الرس . للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر:

استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية آنى ، ص ٨ - ٩ .

(١٧٦) تناولنا فى بحثنا السابق تفاصيل هذه الاحداث فى ضوء الدراسة التحليلية

النقدية المقارنة لمختلف المصادر . انظر : فايز نجيب اسكندر: استيلاء

السلاجقة على عاصمة أرمينية آنى- الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٩ - ٤٢ .

(١٧٧) تقع «مقاطعة أراجدزوتن» شرق نهر أخوريان ، الرافد الأيسر لنهر الرس .

انظر . Laurent , p. 42 .

(١٧٨) تقع «شيراك» فى اقليم أارات ، وتعد من أهم المدن الأرمينية. وقد اتخذ

أشوط الثالث مدينة آنى، الواقعة فى اقليم شيراك، عاصمة لأسرة بجراط،

وذلك سنة ٩٦١م / ٣٥٠ هـ ، وبذلك ازدادت أهمية اقليم شيراك . (انظر

Aristakes, p. 49, n. 3; Asolik, II , p. 16, n. 1 . CF.

Ghazarian, Arabischen, p. 72) . والجدير بالذكر أن الجغرافيين

المسلمين يسمونها «سراج طير» ، ويقول البغدادى نقلا عن ياقوت الحموى

إنها «كورة فى أرمينية الثالثة وقيل الثانية» . انظر : مرصد الاطلاع، ج٢،

ص ٧٠٢؛ ياقوت: معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٧٩) «سبير» Sper أو «اسبير» Ispir ، اقليم فى أرمينية العليا، شمال شرق

أرزن الروم، مشهور بمناجم الذهب، كان منذ قديم الزمان من الأملاك الموروثة

لأسرة بجراط (انظر Moise de Khorene, II, CH, XXXVI,

p.179, n. 8. CF. Saint- Martin, I , p. 69 - 70; Indjidji,

l'Armenie Ancienne, p. 52 - 62) ولا يزال بهذا الاقليم مناجم

تحتوى على مختلف أنواع المعادن ، خاصة الذهب والفضة المتواجد بكثرة فى

وادی شوروخ ، ضواحي سبیر . انظر : Arisdagues, IX, p. 73, n.1 ; Aristakes, IX, p. 59, n. 2. CF. Manandian, p. 151; David Lang, p. 192; Der Nersessian, p. 304

(١٨٠) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر: القزويني: ص ٤٩٤؛ ياقوت: ج ١، ص ١٥٠؛ البغدادی: ج ١، ص ٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(١٨١) عن «طرابيزون» انظر: فايز نجيب اسكندر : امبراطورية طرابيزون والبنديقية . الاسكندرية ١٩٨٣ - ص ٩ وما بعدها .

(١٨٢) . «أبو الأسوار» هو أحد أمراء بني شداد الكردية. حكم دوين في الفترة من ١٠٢٢ إلى ١٠٤٩ م / ٤١٣ - ٤٤١ هـ . ونجح أيضا في فرض سيادته على كنجة وذلك سنة ١٠٤٩ / ٤٤١ هـ . وظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بني شداد والتي ينتهي إليها أبو الاسور حتى سنة ١٠٨٨ م / ٤٨١ هـ ، حيث استولى عليها بوزان قائد السلطان ملكشاه . للتفاصيل انظر : Arisdagues,X, p. 69, n. 1; Aristakes, X, p. 52 - 53 , n. 2; 89, n. 2; Brosset, I , p. 344 .

(١٨٣) أحمد بن لطف الله منجم باشي : ص ١٥ .

(١٨٤) Matthieu d'Edesse, p. 465 , n. 2 .

(١٨٥) عنه انظر Matthieu d'Edesse , p. 465, n. 1; Brosset,

Ruines d'Ani, p. 126, n. 2 .

(١٨٦) Matthieu d'Edesse, p. 465, n. 2; Salia, p. 182;

Brosset , Ruines d'Ani, p. 128 .

Brosset, Ani, p. 128; Salia, p. 182 . (١٨٧)

Brosset, Georgie, I, P. 359; Additions, p. 280 , 282; (١٨٨)

Ani , p. 128; Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314 .

وهكذا صارت آنى بعد إخراج بنى شداد منها نهائيا جزءا من مملكة الكرج الموحدة، ولكنها بقيت فى حوزة الزخارية يدفعون عنها الجزية. وامتدت أسوار المدينة فى أيامهم حتى بلغت شواطىء نهر ارتشاي المنحدرة. وتدل الابنية الدينية لذلك العصر على أن حكام الكرج كأسلافهم البيزنطيين كانوا يميلون إلى المذهب الخلقدونى ، مما أدى إلى انتشاره بين الأرمن على حساب مذهبهم المونوفيزيتى .

Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314. CF. Brosset, Ani, p. (١٨٩)
129; Salia , p. 182 .

Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314. (١٩٠)

Matthieu d'Edesse, p. 318. (١٩١) و «هنريط» بالكسر، ثم السكون،

وزاى، ثم ياء ، وطاء مهمة: من ثغور الروم. انظر : البغدادى : ج ٣ ، ص ١٤٦٦ .

(١٩٢) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١٩٣) عبر عن ذلك متى الرهاوى بقوله "Il Prodigua a notre nation toute sorte de consolations et de bienfaits. "

انظر . Matthieu d'Edesse , p. 311

(١٩٤) الفارقي: ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛ انظر أيضا : تاريخ الفارقي - تحقيق بدوي عبداللطيف - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١ - ٤٥ . ومن المؤكد أن «حمام اسماعيل» هو نفس الحمام الذي ذكره الحسيني في حديثه عن سقوط تفليس في قبضة السلطان الب أرسلان، إذ جاء في روايته «فوجد فيها حماما بناه سليمان بن داود صلوات الله عليهما على عين حمئة سخنة بماءها الحار من غير أن تجاوره النار وهو أول حمام بنى في الدنيا » . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .

(١٩٥) ابن حوقل : ص ٢٩٢ .

(١٩٦) القزويني : ص ٥١٨ ، ياقوت : ج ٢ ، ص ٣٥ .

(١٩٧) مؤلف مجهول : البستان الجامع لتواريخ الزمان ، ص ١١٨ - ١١٩ . والجدير بالذكر أن ياقوت أشار أنه ينسب إلى تفليس جماعة من أهل العلم منهم التفليسي والبهيتي والهاقولي (انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٧) ؛ هذا بينما اكتفى أبو الفداء بالقول «وخرج منها علماء» . انظر: تقويم البلدان ، ص ٥١٠ .

(١٩٨) شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٥٨ .

(١٩٩) ابن الأزرقي : ص ٢٠٦ .

(٢٠٠) Salia , 182 - 183 .

(٢٠١) ابن الأزرقي : ص ٢٠٦ .

(٢٠٢) Nansen, p. 100 .

(٢٠٣) Matthieu d'Edesse , p. 318 .

تقرير

عن اجتماع الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب
التي عقدت بالقاهرة (٧ - ٩ ديسمبر ١٩٩١) .

أولا : جدول الأعمال .

ثانيا : كلمة الافتتاح

ثالثا : النظام الأساسي لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

رابعا : البيان الختامي والتوصيات

جدول الأعمال

اليوم الأول السبت ١٢/٧/١٩٩١ م

٩ - ١٠ التسجيل

١٠ - ١١ الافتتاح

كلمة الافتتاح

* أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

- رئيس اللجنة المؤقتة للإتحاد .

* معالي أ. د. سليمان سعدون البدر

- وزير التربية بالكويت .

* أ. د. عبد الله بن يوسف الشبل

- وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* د. محمد العبدروس

- كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة

١١ - ١١٣٠ استراحة

١١٣٠-١١٣٠ الجلسة الأولى

كلمة ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

١٣٠ - ٤ غداء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الثانية

بقية كلمات ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

٧٣٠ - التوجه من الفندق لحضور برنامج الصوت والضوء بالسيارة .

اليوم الثامن الأحد ٨ / ١٢ / ١٩٩١ م

١٠ - ١١ الجلسة الثالثة

عرض مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

يقدمه أ. د. حسنين محمد ربيع

١١ - ١١ر٣٠ استراحة

١١ر٣٠ - ١١ر٣٠ الجلسة الرابعة

مناقشة مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

المقرر: رئيس اللجنة المؤقتة لإتحاد المؤرخين العرب .

١٣ر٤ - ٤ غذاء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الخامسة

تكملة مناقشة مشروع اللائحة الأساسية لإتحاد المؤرخين العرب .

٦ر٣٠ - التوجه من الفندق لإحدى البواخر السياحية

لتناول العشاء على صفحة نهر النيل .

اليوم الثالث الإثنين ١٩٩١/١٢/٩

الجلسة السادسة	١١ - ١٠
إقرار اللائحة الأساسية للإتحاد	
إستراحة	١١ - ١١ر٣٠
الجلسة السابعة	١١ر٣٠ - ١١ر٣٠
انتخابات أمين عام الإتحاد	
ومجلس إدارة الإتحاد للدورة ١٩٩١ - ١٩٩٤ م	
غذاء	١١ر٣٠ - ٣
الجلسة الختامية - توصيات	٣ - ١١ر٣٠
جولة حرة	١١ر٣٠ - ٤

كلمة الافتتاح التى ألقاها

الأستاذ الدكتور/ سعيد عبدالفتاح عاشور

رئيس اللجنة المؤقتة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

فى إجتماع الجمعية العمومية ٧ ديسمبر ١٩٩١م

حضرات الإخوة والأخوات ... حضرات الزملاء والزميلات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما تجتمع اليوم تحت شعار إتحاد المؤرخين العرب، فإنما نجتمع فى حقيقة الأمر ليس لخدمة قضية معينة أو شريحة محددة من شرائح مجتمعنا العربى، وإنما لخدمة العروبة وتاريخها وتراثها وحاضرها ومستقبلها كبناء واحد متكامل. إنه (إتحاد) المؤرخين العرب، ولعل فى هذه التسمية ما يكفى للتعبير عن أننا نجتمع لنوحد لا لنفرك، ولنشيد ونبنى لا لنهدم ونمزق، لنقوم لا لنعوج .

حضرات الإخوات ، الزملاء والزميلات

إن لهذا الإجتماع قصة لا بد من إحاطة حضراتكم علما بها. ذلك ن الإتحاد السابق للمؤرخين العرب - الذى اتخذ من بغداد مركزا له - نهج نهجا سياسيا معيناً، الكل يعرفه، ولا نريد الخوض فيه حرصاً على رأب الصدع وتجنباً لإستفحال الشرخ. ولكن يكفى أن نشير إلى أن ذلك الإتحاد لم يلتزم بروح النظام الأساسى الذى أعلنه دستوراً لنشاطه، فجاءت الفجوة واسعة بين الشعارات البراقة التى نصن عليها ذلك النظام، وبين السلوك والأهداف التى سعى إليها، وتحايل على تنفيذها إرضاء لنزوة حاكم بعينه .

وهكذا سخر التاريخ لخدمة السياسة، وما أدراك ما السياسة اليوم بمتاهاتها ومنحنياتها الفكرية والعقائدية والمذهبية وغيرها. وباستعراض نشاط ذلك الإتحاد، نجد أنه لم ير فى تاريخ هذه الأمة إلا الشعبوية، محاولا تطبيق مقاييس الماضى على الحاضر، والعودة بنا إلى الوراء، متناسيا أنه من سنن التاريخ تبدل الأوضاع وأن للتاريخ دورة، عبر عنها الله عز وجل بقوله «وتلك الأيام نداولها بين الناس» . وبدلا من جميع الشمل إزداد الخرق إتساعا حتى كانت الكارثة التى حلت بالعالم العربى فى العام الماضى عندما غزا العراق دولة الكويت، وأحدث بها ما أحدث من دمار وخراب ، مما عاد بخسارة فادحة على حاضر الأمة العربية ومستقبلها .

وفى تلك الظروف الصعبة، نفذ إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد الخطة التى رسمت له، والتى كان يعد لها فى إجتماعاته وندواته وفقا لأهداف مرسومة لم يفتن إليها معظم من شاركوا فى تلك الإجتماعات من الزملاء والزميلات بنوايا حسنة وعن طيب خاطر . وما كاد يبدأ العدوان العراقى على الكويت، حتى إستباح أمين عام الإتحاد فى بغداد لنفسه أن يصدر بيانا بإسم المؤرخين العرب يؤيد العدوان، وببارك ما قام به حاكم العراق ورجاله من أعمال، بل لقد حاول أمين عام إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد أن يخلق لذلك العدوان مبررات تاريخية لا وجود لها فى التاريخ ولا أساس لها من الصحة .

وكان أن اجتمع فريق من أساتذة التاريخ العرب فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٠، واتصلوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وهى الجمعية التى لم تربط نفسها مطلقا بإتحاد المؤرخين العرب فى بغداد، وإنما ظلت دائما تتشكك فيه وفى سياسته المشبوهة. وفى اللقاء الذى تم بين أعضاء مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات

التاريخية فى مقرها بالقاهرة من ناحية، وبين الإخوة المؤرخين العرب وكانوا ينتمون إلى ما لا يقل عن خمس دول عربية من ناحية أخرى، طلب الطرف الأخير إدانة إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد وتنحية أمينه العام عن مركزه، ونقل مقر الإتحاد إلى القاهرة .

وفى يومى ١٨ ، ١٩ نوفمبر ١٩٩٠ اجتمع جمع من المؤرخين العرب بالقاهرة، واتخذوا القرارات الآتية، على أن تكون ذات صفة مؤقتة لحين إجتماع الجمعية العمومية الموسعة المثلثة فى حضراتكم . أما القرارات فهى :

أولا : نقل مقر إتحاد المؤرخين العرب فورا من بغداد إلى القاهرة .

ثانيا : تنحية الدكتور مصطفى النجار عن أمانة إتحاد المؤرخين العرب وسحب الثقة منه .

ثالثا: إنتخاب لجنة مؤقتة تتولى مهام الدعوة لعقد الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . وقدتم إختيار أعضاء هذه اللجنة على الوجه التالى :

١ - الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور .

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة - رئيسا .

٢ - سعادة الأستاذ الدكتور / عبد الله بن يوسف الشبل .

وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض - وكيل .

٣ - الأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق

رئيس قسم التاريخ بكلية البنات بجامعة عين شمس - أمينا للصندوق

- ٤ - الأستاذ الدكتور / سليمان العسكرى
أستاذ التاريخ بجامعة الكويت - عضوا .
- ٥ - الأستاذ الدكتور / مصطفى عقيل
أستاذ التاريخ بجامعة قطر - عضوا
- ٦ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز نوار
أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس - عضوا
- ٧ - الأستاذ الدكتور / محمد العبدروس
أستاذ التاريخ بجامعة العين بدولة الإمارات العربية - عضوا
- ٨ - الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع
عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة - عضوا
- ٩ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز الهلابى
أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود - عضوا

وهكذا أقيت على كاهلنا مهمة الإعداد لهذا الإجتماع فى ظروف صعبة، تطلبت منا الكثير من الجهد والوقت، مما يجعلنى أنتهز هذه الفرصة لأرجو حضراتكم إعفائى من رئاسة هذه اللجنة تماماً بعد أن تقوموا حضراتكم بإنتخاب اللجنة الجديدة الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وذلك وفقاً للبرنامج المحدد فى هذا اللقاء .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

لا أخفى على حضراتكم أنه واجهتنا فى الأشهر الأخيرة صعوبات ضخمة من أجل تنظيم هذا الإجتماع والإعداد له . ومن هذه الصعوبات العثور على قوائم بأسماء أسرة التاريخ فى كل بلد عربى داخل الجامعات وخارجها. هناك أسماء

نعرفها جيدا ولكن لم نستدل على عناوين المراسلات معها مما أدى إلى إرتداد عدد كبير من الرسائل التي أرسلناها إلى شتى أنحاء العالم العربى. ونرجو عن طريق حضراتكم وبمساعدتكم أن تنوبوا عنا فى تقديم الاعتذار إلى من لم تصله الدعوة لحضور هذا الإجتماع من الإخوة المؤرخين العرب، كما نرجو حضراتكم إمداد الأمانة العامة للإتحاد بكل ما يتوافر لديكم من أسماء وعناوين خاصة بالأخوة المشتغلين بالدراسات التاريخية، ليجتمع الشمل وتقوى الروابط .

على أن الصعوبة الكبرى التى واجهتنا عند الإعداد لهذا الإجتماع كانت بلا شك عملية التمويل. ويبدو أن حالة الإضطراب النفسى نتيجة للصدمة التى تعرضت لها الأمة العربية جعلت الحصول على دعم من الحكومات العربية القادرة أمرا صعبا. وهكذا حتى إستجابت لنا جهتان لابد من التنويه بهما وتقديم الشكر باسمى وأسمكم لهما. أما الجهة الأولى، فهى المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، وقد تجاوزت معنا عن طريق وساطة جامعة الإمام محمد بن سعود ومديرها معالى الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركى ووكيلها سعادة الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل. قام هذا الجانب بتحمل نفقات الانتقال بالطائرة ذهابا وإيابا لكافة الأعضاء المشاركين فى هذا الإجتماع والمقيمين خارج مصر . فلهم منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

وأما الجهة الثانية فتتمثل فى شخص سمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى أمير الشارقة، وهو الحاكم المؤرخ، الفخور بانتماذه إلى أسرة المؤرخين العرب. والذى يشكل تاريخ العرب والعروبة جزءا من فكره ووجدانه . وقد تكفل سموه بكافة

نفقات هذا اللقاء الذى يضمنا اليوم . فله منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن إتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد الذى تساهمون فى إرساء قواعده الآن لا يربطه بالإتحاد السابق فى بغداد إلا الاسم ، بمعنى أنه ليس إمتدادا له بقدر ما هو وليد جديد ، يحمل وعيا جديدا، وفكرا جديدا، وفهما جديدا، ونظرة جديدة إلى الأمور .

وبعبارة أخرى فإننا نرجو أن نبدأ من نقطة إنطلاق جديدة لا أن تستأنف مسيرة سابقة نحو أهداف مشبوهة مستترة. إن المرض الخطير الذى يعانى منه علم التاريخ فى عالمنا العربى اليوم هو محاولة إخضاعه لأهواء السياسة وتطلعات رجال السياسة، بمعنى تفسير التاريخ ومحاولة تشكيله وفق أهواء بعض الحكام وآرائهم وتطلعاتهم، حتى ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقيقة التاريخية وإفسادها .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن تاريخ الأمة العربية يحتل والحمد لله صفحة مشرقة فى سجل تاريخ الإنسانية، فعلىنا أن نكشف عن جوانب هذا التاريخ بأمانة وموضوعية وحياد. وإذا صادفنا بعض ثغرات، فعلىنا أن ندرك أن الآباء والأجداد كانوا بشرا، والبشر معرض للصواب والخطأ. فلنذكر الحسنات وما أكثرها ولا نتغاضى عن الزلات لنأخذ منها عظة وعبرة فليس عيبا أن يخطئ الإنسان ولكن العيب هو ألا يستفيد الإنسان من خطئه .

وبعد ، أيها الإخوة الزملاء والزميلات، فإننى أكرر ما بدأت بالإشارة إليه من أن

الهدف الأساسى من إجتماعنا هذا هو البناء ووضع خطة عمل لإتحاد جديد
للمؤرخين العرب، تستهدف إلقاء الأضواء على أمجاد الماضى وكشف الغمة عن
حاضر مضطرب وفتح باب الأمل أمام مستقبل مشرق إن شاء الله .

وفقكم الله ومكثنا جميعا من الوفاء بعهد كان مستولا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الأساسي

لاتحاد المؤرخين العرب

جمادى الآخر ١٤١٢ هـ - ديسمبر ١٩٩١ م

الباب الأول

التعريف بالإتحاد

أهدافه ونشاطه ومقره

مادة (١)

إتحاد المؤرخين العرب هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية من أبناء الأمة العربية .

مادة (٢)

يسعى إتحاد المؤرخين العرب لتحقيق الأهداف الرئيسية الآتية :

أ - دراسة تاريخ الأمة العربية وفق منهج علمي موضوعي، وإبراز العناصر التي أسهم بها العرب والمسلمون في بناء صرح الحضارة البشرية .

ب - تشجيع الدراسات التاريخية التي تساهم في دعم أواصر الوحدة العربية وتحقيق الترابط بين الدول العربية .

ج - التصدي بالأدلة العلمية التاريخية للدفاع عن القضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين .

د - الدفاع عن الحقيقة التاريخية من أن تقع تحت أى تأثير سياسى أو مذهبى أو عقائدى .

هـ - تنقية التاريخ العربى مما لحق به من شوائب على مر العصور .

و - تحديث الدراسات التاريخية باستخدام وسائل التقنية الحديثة .

ز - الدفاع عن حقوق المؤرخ العربى وإنتاجه العلمى . .

- ح - العناية بالتراث التاريخى للأمة العربية .
- ط - تنمية المعرفة التاريخية لدى المواطن العربى .
- ى - الدفاع عن المؤسسات والمنجزات التاريخية والأثرية والسعى للحفاظ عليها بالوسائل المشروعة .

مادة (٣)

- يأتى فى مقدمة نشاط إتحاد المؤرخين العرب ما يلى :
- أ - إقامة الندوات والمؤتمرات التاريخية وعقد اللقاءات والاجتماعات بصفة مستمرة لدراسة التاريخ العربى من كافة جوانبه وصلته بمسيرة التاريخ الإنسانى .
- ب - جمع التراث التاريخى العربى والإسلامى الحفاظ عليه وتشجيع نشر ما لم ينشر منه، وتحقيقه وشرحه .
- ج - نشر البحوث التاريخية والأثرية التى تتصف بالأصالة والجدة والموضوعية، وذلك بعد تحكيمها بكافة وسائل النشر المتاحة للإتحاد وفى مقدمتها مجلة علمية .
- د - العمل على توثيق عرى التعاون مع الجمعيات والهيئات والمؤسسات العلمية والتاريخية فى الوطن العربى وخارجه .

مادة (٤)

- يكون مقر إتحاد المؤرخين العرب الدائم بمدينة القاهرة، ويجوز لمجلس الأمناء دعوة الجمعية العمومية للإنعقاد فى أى قطر عربى، كما يراعى فى اللقاءات العلمية والندوات أن تتنوع أماكن إنعقادها داخل محيط الوطن العربى أو خارجه .

الباب الثانى

تكوين إتحاد المؤرخين العرب

مادة (5)

يتكون إتحاد المؤرخين العرب من :

- أ - أعضاء هيئات تدريس التاريخ والآثار بالجامعات العربية وكذلك أعضاء المؤسسات العلمية المتخصصة الأخرى من المشتغلين فى الدراسات التاريخية مثل مراكز تحقيق التراث التاريخى ، ومراكز البحوث والوثائق .
- ب - الباحثين المشتغلين فى حقل الدراسات التاريخية والأثرية وبخاصة التاريخ العربى فى مختلف عصوره، من أبناء الأمة العربية داخل الوطن العربى وخارجه .
- ج - الهيئات والجمعيات التاريخية أو ذات الإهتمامات بالدراسات التاريخية داخل الوطن العربى، وتكون مشاركة هذه الهيئات والجمعيات فى إتحاد المؤرخين العرب إما بصفتها الاعتبارية أو بأعضائها والمساهمين فيها .
- د - الشخصيات الغربية التى لها عناية بتاريخ الأمة العربية ممن لهم إسهام علمى بالبحث والتأليف فى مجال التاريخ والآثار .
- هـ - يجوز للجمعية العمومية بناء على ترشيح من مجلس الأمناء منح عضوية الشرف وتكون العضوية فخرية فى هذه الحال .
- و - يشترط فى جميع الحالات أن يكن العضو مشهودا له بحسن السمعة، وأن يكون ملتزما بالنظام الأساسى للإتحاد، وتزول صفة العضوية عن العضو إذا أتى عملا يسىء إلى الإتحاد وأهدافه أو ارتكب عملا مغلا بالأمانة العلمية، ويكون هذا الإجراء بقرار مسوغ من مجلس الأمناء .

الباب الثالث ملطات الإتحاد وإختصاصاته

مادة (٦)

أ - الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين هى السلطة العليا للإتحاد، والتي تتألف من جميع أعضاء الإتحاد العاملين. وتنعقد هذه الجمعية العمومية مرة كل ثلاث سنوات بناء على دعوة من رئيس الإتحاد. ويمكن دعوة الجمعية العمومية لإجتماع غير عادى كلما رأى مجلس الأمناء ذلك، أو بناء على طلب مكتوب يقدم لرئيس الإتحاد من ثلث الأعضاء على الأقل .

ب - يكون إنعقاد الجمعية العمومية قانونيا إذا حضر الإجتماع ثلث الأعضاء، فإذا لم يتكامل هذا العدد فى الميعاد المحدد تؤجل الجمعية لمدة ساعة، ويكون الإجتماع عندئذ صحيحا مهما كان عدد الحاضرين .

ج - تناقش الجمعية العمومية للإتحاد التقارير العلمية والإدارية والمالية التى يقدمها رئيس مجلس الأمناء عن نشاط الإتحاد فى الدورة المنصرمة .

د - تقوم الجمعية العمومية بانتخاب رئيس الإتحاد وأعضاء مجلس الأمناء.

هـ - يتألف مجلس الأمناء الذى تنتخبه الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب من ثلاثة عشر عضوا تبعا للتوزيع الجغرافى (المغرب ٣ - مصر والسودان وجيبوتى والصومال ٣ - الجزيرة العربية - ٣ - الشام والعراق ٣ - إضافة إلى رئيس الإتحاد من دولة المقر . ومدة العضوية فى مجلس الأمناء ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

و - يقوم مجلس الإدارة بانتخاب ثلاثة نواب للرئيس من أقاليم: المغرب - الجزيرة العربية - الشام والعراق كما يقوم مجلس الأمناء بانتخاب أمين المجلس، وأمين الصندوق .

ز - يقوم رئيس الإتحاد بدعوة الجمعية العمومية للإجتماع ووضع جدول الأعمال بالنسبة لهذا الإجتماع وتحديد مكانه .

ح - يقوم مجلس الأمناء بالإشراف على النشاط العلمى والإشراف على الشئون الإدارية والمالية والفنية بالنسبة للإتحاد وكذلك تعيين الموظفين العاملين بالإتحاد ومساءلة من يخل منهم بواجباته . وعلى مجلس الأمناء إعداد الحساب الختامى بالنسبة للسنة المنتهية .

ط - تصدر قرارات الإتحاد بأغلبية أصوات الحاضرين ، وعند التساوى يرجح جانب الرئيس .

ى - يقوم رئيس مجلس الإدارة أو نائبه برئاسة مجلس الأمناء وتمثيل الإتحاد أمام الجهات العلمية والإدارية والقضائية، وإقرار جدول أعمال جلسات مجلس الإدارة ومراقبة تنفيذ قراراته، والتوقيع على كافة العقود والاتفاقات التى يقرها مجلس الأمناء، كذلك تكون له صلاحية البت فى المسائل العاجلة التى لا تحمل التأجيل ، على أن يعرض ذلك على المجلس والجمعية فى أقرب إجتماع.

د - مدة الرئاسة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

هـ - يقوم نواب رئيس الإتحاد بمساعدة الرئيس فى مهامه، كما ينوب عنه أكبرهم سناً فى حال غيابه أو خلو منصبه .

و - يختص أمين مجلس الإتحاد بتنفيذ قرارات مجلس الأمناء والإشراف على الإتصالات والمراسلات كما يقوم بتوجيه الدعوة للأعضاء والقيام بأعمال أمانة مجلس الأمناء والجمعية العمومية، والإشراف على سجلات الإتحاد الخاصة بأسماء أعضائه وقرارات مجالسه وتبليغ قرارات مجالسه وغير ذلك من الأعمال الإدارية، وإعداد التقرير السنوي عن نشاط الإتحاد .

ن - يكون أمين الصندوق مسئولاً عن الشؤون المالية الخاصة بالإتحاد سواء ما يتعلق منها بالإيرادات و بالمصروفات، وتسجيل ذلك في دفاتر الإتحاد. وعليه تنفيذ قرارات مجلس الأمناء، فيما يتصل بالمعاملات المالية. ويوقع على الشيكات وأذونات الصرف بالإشتراك مع رئيس الإتحاد أو أحد نوابه. كذلك يقوم أمين الصندوق بعرض الحساب الختامي والميزانية السنوية وتقرير مراقب الحسابات على مجلس الأمناء ثم على الجمعية العمومية .

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان الختامي والتوصيات

اجتمعت الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة فى الفترة من يوم السبت ١ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٧ ديسمبر ١٩٩١م إلى يوم الاثنين ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١ م .

وناقشت مشروع النظام الأساسى للإتحاد والذي كان قد وضعته اللجنة المؤقتة للإتحاد المشكلة فى ١٩ نوفمبر ١٩٩٠م وبعد أن اشترك أعضاء الجمعية فى مناقشة المشروع بأبوابه الخمسة مناقشة مستفيضة تم إعداد النظام فى شكله النهائى بعد تنفيذ مقترحات أعضاء الجمعية وتوصياتهم. وأقرته الجمعية العمومية فى جلستها المنعقدة صباح يوم الاثنين ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١م وأوصت بطبعه وتوزيعه على أعضاء الإتحاد وتنفيذ ما ورد فيه إعتبارا من تاريخ إقراره .

ثم قامت الجمعية العمومية بانتخاب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيسا للإتحاد بإجماع الأصوات لمدة ثلاث سنوات .
ثم قامت بانتخاب أعضاء مجلس الأمناء وأسفرت نتيجة الإنتخاب عن فوز السادة التالية أسماؤهم :

- ١ - أ.د. محمد رزوق . (المغرب)
- ٢ - أ.د. حسنين محمد ربيع (مصر والسودان)
- ٣ - أ.د. يونان لبيب رزق (مصر والسودان)
- ٤ - أ.د. محمد محمد مرسى الشيخ (مصر والسودان)
- ٥ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل (الجزيرة العربية)
- ٦ - أ.د. سليمان إبراهيم العسكرى (الجزيرة العربية)
- ٧ - د. محمد العيدروس (الجزيرة العربية)
- ٨ - أ.د. سهيل زكار . (الشام والعراق)
- ٩ - أ.د. إبراهيم محمود زعرور (الشام والعراق)

وتركت ثلاثة مقاعد خالية لشغلها وفقا للنظام الأساسى إثنان للمغرب وواحد للعراق والشام على أن تشغل هذه المقاعد فيما بعد . ووافقت الجمعية العمومية على تفويض مجلس الأمناء فى شغل هذه المقاعد للأشخاص المناسبين وفى الوقت المناسب .

وقامت لجنة الأمناء بانتخاب كل من :

- ١ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل نائبا للرئيس
- ٢ - أ.د. سهيل زكار نائبا للرئيس
- ٣ - أ.د. حسنين محمد ربيع أميننا للمجلس

كما رأت لجنة الأمناء إتخاذ جامعة القاهرة مقرا مؤقتا للإتحاد لحين تدبير مقر دائم .

وأوصت الجمعية العمومية بالتوصيات التالية :

أولا : إتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة هو الإتحاد الشرعى الوحيد الذى يمثل وجدان وشعور المؤرخين العرب فى كل مكان وهو هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية من أبناء الأمة العربية .

ثانيا : يسعى الإتحاد إلى تحقيق الأهداف الرئيسية التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى المادة (٢) والتى تهدف إلى خدمة تاريخ العرب والمسلمين والارتقاء بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى والعناية بالتراث التاريخى والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب.

ثالثا: توصى الجمعية العمومية الحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية فى الوطن العربى بتقديم كل عون ومساعدة مادية ومعنوية حتى يتمكن الإتحاد من تحقيق أهدافه المشار إليها .

رابعا: تهيب الجمعية العمومية بالمؤرخين العرب فى مختلف البلدان العربية أن يبادروا بالإنضمام إلى الإتحاد حتى يتمكن من النهوض

بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه لخدمة الدراسات التاريخية
والمؤرخين .

خامسا : تناشد الجمعية العمومية سائر الجمعيات التاريخية فى
الوطن العربى أن تتعاون مع الإتحاد بإعتباره الممثل الحقيقى
الشرعى لكافة المؤرخين العرب .

سادسا : توصى الجمعية العمومية بإرسال برقيات شكر وتقدير
للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية على
عقد الجمعية العمومية بالقاهرة مقر الإتحاد وبرقية إلى خادم الحرمين
الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية
وسمو الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى أمير الشارقة وعضو
المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة لقيامهما بدعم عقد
الجمعية العمومية للإتحاد بالقاهرة وتوجيه الشكر إلى الأستاذ الدكتور
عبد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية والأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة رئيس جامعة القاهرة
لتعريضهما لإنعقاد المؤتمر والتسهيلات التى قدمها لها .

والله من وراء القصد .

- ١ - أ. د. محمد رزوق. (المغرب)
- ٢ - أ. د. حسنين محمد ربيع (مصر والسودان)
- ٣ - أ. د. يونان لبيب رزق (مصر والسودان)
- ٤ - أ. د. محمد محمد مرسى الشيخ (مصر والسودان)
- ٥ - أ. د. عبد الله بن يوسف الشبل (الجزيرة العربية)
- ٦ - أ. د. سليمان إبراهيم العسكرى (الجزيرة العربية)
- ٧ - د. محمد العيدروس (الجزيرة العربية)
- ٨ - أ. د. سهيل زكار . (الشام والعراق)
- ٩ - أ. د. إبراهيم محمود زعرور (الشام والعراق)

وتركت ثلاثة مقاعد خالية لشغلها وفقا للنظام الأساسى إثنان للمغرب وواحد للعراق والشام على أن تشغل هذه المقاعد فيما بعد . ووافقت الجمعية العمومية على تفويض مجلس الأمناء فى شغل هذه المقاعد للأشخاص المناسبين وفى الوقت المناسب .

وقامت لجنة الأمناء بانتخاب كل من :

- ١ - أ. د. عبد الله بن يوسف الشبل نائبا للرئيس
- ٢ - أ. د. سهيل زكار نائبا للرئيس
- ٣ - أ. د. حسنين محمد ربيع أميننا للمجلس

كما رأت لجنة الأمناء إتخاذ جامعة القاهرة مقرا مؤقتا للإتحاد لحين تدبير مقر دائم .

وأوصت الجمعية العمومية بالتوصيات التالية :

أولا : إتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة هو الإتحاد الشرعى الوحيد الذى يمثل وجدان وشعور المؤرخين العرب فى كل مكان وهو هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية من أبناء الأمة العربية .

ثانيا : يسعى الإتحاد إلى تحقيق الأهداف الرئيسية التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى المادة (٢) والتى تهدف إلى خدمة تاريخ العرب والمسلمين والارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى والعناية بالتراث التاريخى والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب.

ثالثا: توصى الجمعية العمومية الحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية فى الوطن العربى بتقديم كل عون ومساعدة مادية ومعنوية حتى يتمكن الإتحاد من تحقيق أهدافه المشار إليها .

رابعا: تهيب الجمعية العمومية بالمؤرخين العرب فى مختلف البلدان العربية أن يبادروا بالإنضمام إلى الإتحاد حتى يتمكن من النهوض

بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه لخدمة الدراسات التاريخية
والمؤرخين .

خامسا : تناشد الجمعية العمومية سائر الجمعيات التاريخية فى
الوطن العربى أن تتعاون مع الإتحاد بإعتباره الممثل الحقيقى
الشرعى لكافة المؤرخين العرب .

سادسا : توصى الجمعية العمومية بإرسال برقيات شكر وتقدير
للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية على
عقد الجمعية العمومية بالقاهرة مقر الإتحاد وبرقية إلى خادم الحرمين
الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية
وسمو الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى أمير الشارقة وعضو
المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة لقيامهما بدعم عقد
الجمعية العمومية للإتحاد بالقاهرة وتوجيه الشكر إلى الأستاذ الدكتور
عبد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية والأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة رئيس جامعة القاهرة
لتعريضهما لإنعقاد المؤتمر والتسهيلات التى قدماها له .

والله من وراء القصد .

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

Vol. 1 - No. 1 .

March, 1993

Cairo - Egypt



Bibliotheca Alexandrina



0673068